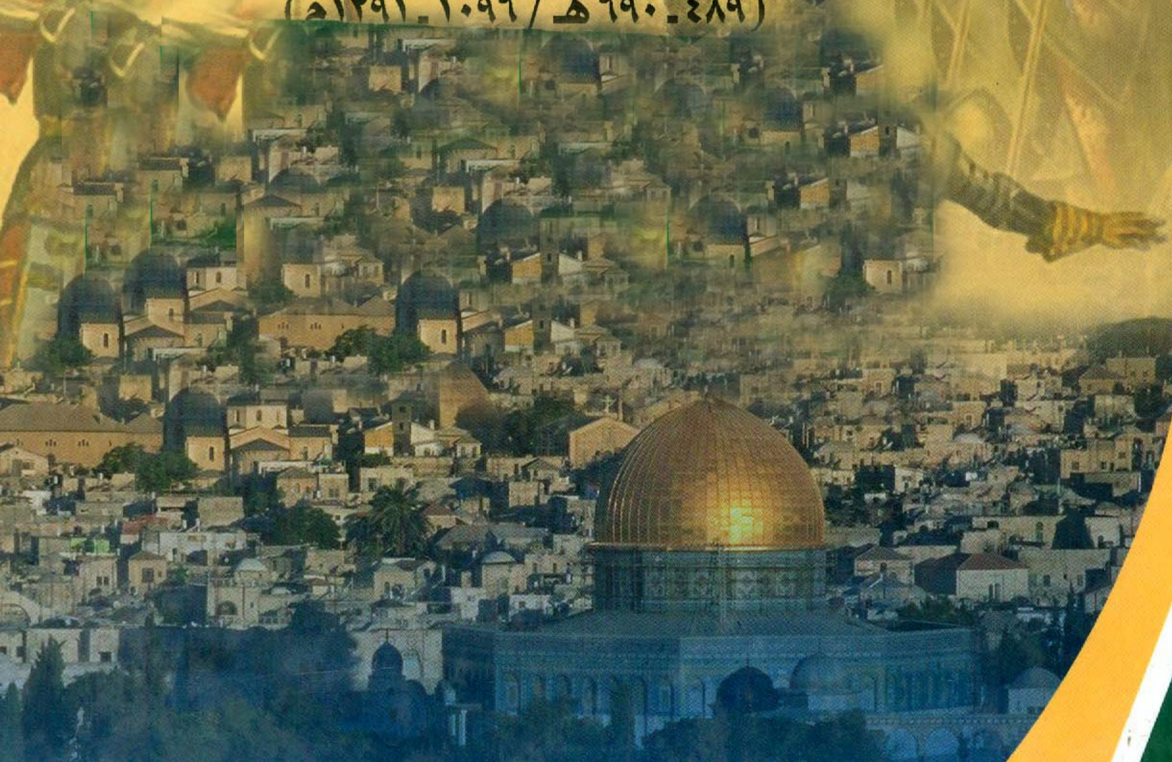
المكتبة التاريخية

تاريخ الحروب الصليبية

(حروب الفرنجة في المشرق)

(٤٨٩-٦٩٠هـ / ١٠٩٦-١٢٩١م)



أ.د. محمّد سهيل طقّوش

دار النفائس

تاريخ الحروب الصليبية

(حروب الفرنجة في المشرق)

(٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ/١٠٩٦ ـ ١٢٩١م)

تأليف

أ.د. محمّد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق)
تأليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى: 1432هـ ـ 2011م
ISBN 978 - 9953 - 18 - 109 - 7

نشر | **Publisher**

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 009611810194 ـ 803152
بيروت ـ لبنان

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Web Site: WWW.alnafaes.com
Email: alnafaes@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة موضوعاً شائقاً ومثيراً يجذب أنظار المؤرخ والباحث والمثقف، هو تاريخ الحروب الصليبية أو تاريخ حروب الفرنجة[1] في المشرق الإسلامي. ولا شك بأن الحملات الصليبية التي انطلقت من أوروبا الغربية بدءاً من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي تُمثل مرحلة مهمة من التاريخين الإسلامي الشرقي والمسيحي الغربي في العصور الوسطى لأن هذه الحملات ولَّدت ردود فعل غاضبة في نفوس المسلمين، علماً بأنه قبل أن يصل الصليبيون إلى بيت المقدس في (١٥ تموز عام ١٠٩٩م) ويذبحوا بوحشية نحو سبعين ألف مسلم، كان المسلمون والمسيحيون يعيشون معاً في وئام وتآلف في ظل الحكم الإسلامي.

لقد انخرط المحاربون المسيحيون الكاثوليك في الغرب في مشروع عسكري اشتركت البابوية في إدارته في البداية على الأقل، وتسلم هؤلاء شارة هي رمز الفداء، وحصلوا على امتيازات كثيرة ومحدَّدة، وعيَّن لهم البابا أوربان الثاني هدفاً هو تخليص قبر المسيح في بيت المقدس من أيدي المسلمين، وأشار إلى الذاهبين إلى الشرق بأنهم يذهبون من أجل تحرير الكنيسة من هيمنة المسلمين، وقد لجأ إلى الفرنسيين بخاصة لأن الرأي العام في فرنسا كان آنذاك ينزع إلى تحقيق هذا الهدف.

ومنذ أن ابتدأت رحلات الحج إلى الأرض المقدسة في فلسطين في عام (٣٣٦م) تزايد الترحال إليها لأنه عُدَّ أعظم الممارسات نفعاً للخلاص الأبدي علماً بأن الحج ليس شعيرة مفروضة على المسيحي، وكان المسلمون متساهلين معهم جداً بحيث لم يجد الحاج أي صعوبة في الدخول إلى المعابد والمزارات، غير أن فرسان الغرب،

---

(١) إن كلمة الصليبيين كلمة مستحدثة منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وقد أطلق المؤرخون في العصر الوسيط على الغزاة الغربيين اسم الفرنجة، وسنعتمد في هذه الدراسة اسم الصليبيين والحروب الصليبية والحركة الصليبية... إلخ.

وقد تشبَّعوا بفكرة الحرب المقدسة التي أثارتها البابوية، أخذوا بعد عودتهم يشيعون في المجتمعات الغربية بأن عملية الاستيلاء على الأرض ليست أمراً صعباً ويصفون في الوقت نفسه ثراء الشرق ورغد العيش في ربوعه، ثم جاء الاندفاع السلجوقي التركي باتجاه الأراضي البيزنطية ما حمل البابا أوربان الثاني على التفكير في حماية المسيحية، ضد الخطر الآتي من جهة الشرق وبخاصة بعد التماس الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين المساعدة من الغرب، فدعا المنخرطين في الخدمة العسكرية والحاملين شارة الصليب إلى الذهاب بأسلحتهم إلى بيت المقدس، فصادفت دعوته نجاحاً باهراً وغير متوقع. ففي أوروبا الغربية حيث السكان المسيحيون اللاتين، لبَّى الفرسان الدعوة بحماس بالغ. وهكذا ابتدأت عملية عسكرية معدَّة دامت أكثر من مائتي عام ولا تزال آثارها باقية حتى يومنا الحاضر.

لقد تقبَّل المجتمع الغربي ما طرحه البابا من توجهات لحرب المسلمين في المشرق وانتزاع قبر المسيح من أيديهم، لكن اختلفت نظرة أفراده من هذه التوجهات. ففي الوقت الذي كان الجناح الكنسي في الطبقة الحاكمة يرى في الحروب الصليبية فرصة لإحكام السيطرة على المجتمع وتأكيد سلطة البابا العليا، كان الجناح العسكري المتمثل بالنبلاء وفرسانهم يرون فيها فرصة للحصول على مزيد من الأرض، وهي عماد الثروة في المجتمع الإقطاعي في غربي أوروبا، أما الفلاحون والأقنان فقد رأوا فيها فرصة للتحرر من ربقة السيطرة الإقطاعية.

وعندما نشبت الحروب الصليبية ودارت عجلتها، كشفت عن تناقض واضح بين الهدفين الديني والدنيوي تجلّى بتهافت النبلاء على تأسيس إمارات لهم في ربوع المشرق الإسلامي، كما أن الحملة الصليبية الرابعة هاجمت القسطنطينية المسيحية بدافع المصلحة التجارية ثم استغلها البابا لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، بالإضافة إلى ذلك فقد استخدمت البابوية الحملات الصليبية كسلاح سياسي ـ عسكري ضد خصومها من حكام الغرب الأوروبي ومن بينهم أخلص المدافعين عن الكاثوليكية.

أُعدت الحملة الصليبية الأولى بدقة بحيث تنطلق خمسة جيوش مسلحة تسلك طرقاً مختلفة، وتلتقي أمام القسطنطينية، ولم يشترك الملوك فيها لأن البابا تجاهل دعوتهم، لكن أكثر المحاربين عدواناً وثباتاً هم أولئك الذين نجحوا في الاستيلاء على بيت المقدس وقد انطلقوا من فرنسا وألمانيا وإيطاليا، وأسسوا إمارات صليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس.

وعلى الرغم من التنظيم الإداري والعسكري والاجتماعي الداخلي في الإمارات الصليبية والمستقى من العادات والتقاليد الغربية اللاتينية، يبقى هذا الصرح هشاً

ومفكَّكاً لأن هذه العادات والتقاليد الإقطاعية المنقولة إلى الشرق حالت دون قيام كيان صليبي سياسي موحَّد، بل وُجِد حكام حصون وفرسان اتحدوا في جمعية مؤقتة لتأدية الحج وخوض غمار الحرب من أجل التوسع. أجل لقد كان هناك مملكة صليبية في بيت المقدس، لكن لم يكن لها سوى سلطة اسمية على الإمارات الصليبية، فلم يستطع الملك تحقيق وحدة الصليبيين الضرورية للدفاع عن الكيان الصليبي إلا نادراً وفي أوقات الخطر الشديد، ولم تتخطَّ السيطرة الصليبية سواحل الشرق، فلم تبلغ الشمال، وقد حقَّقت أقصى اتساعها بامتدادها حتى الرها بموازاة منطقة كيليكية، وما زال المسلمون موجودين في دمشق وحلب.

كان تفكير الصليبيين في بداية الحروب الصليبية مقتصراً على إنقاذ بيت المقدس والقبر المقدس وحراستهما بصورة مستمرة، لذلك عاد معظم المشتركين في الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد أن حقَّقوا أمنيتهم، ولهذا السبب لم تكن الإمارات الصليبية المُنشأة في الشرق مستعمرات معدة للاستيطان على الرغم من استقرار بعض عائلات الفرسان وبعض الشركات التجارية في المنطقة، وبقي الصليبيون أقلية ضئيلة وسط سكان البلاد.

لكن بدا، خلال القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين، أن المشروع الصليبي دائم، ففي كل سنة يتوجه بعض الفرسان الأوروبيين إلى ما وراء البحار، ويقضون بضعة أشهر في الأرض المقدسة وأحياناً بضع سنوات، فيؤمِّنون للصليبيين المحليين جنوداً قد يكونون أقل تدريباً وخبرة لكن أكثر حماساً من جيوش الإقطاعيين المحليين، فتكوَّنت بذلك حركة دائمة ذهاباً وإياباً على شكل حملات، يضاف إلى ذلك فقد تأسَّست جمعيات أخوية دينية خُصِّصت لهذا النوع الجديد من التقوى الذي هو الحرب المقدسة، وكانوا في الوقت نفسه رهباناً وجنوداً مثل فرسان المعبد (الداوية)[1] وفرسان مستشفى بيت المقدس (الأسبتارية)[2] والفرسان التيوتون الألمان، وقد أُسندت إليهم مهمة استقبال حجاج بيت المقدس وحمايتهم من هجمات المسلمين. ولم تلبث هذه الأخويات أن امتدت إلى المناطق الصليبية كافة وانتشرت في ربوعها، وجنَّدت صليبيين جدداً، وأسهم استقرارها في الحصون الأمامية في إطالة عمر الإمارات الصليبية، غير أن هذه الإمارات ما لبثت أن تقلَّصت بفعل جهاد المسلمين الذين استردوا الرها في عام (١١٤٤م) وبيت المقدس في عام (١١٨٧م)، لكن صمدت المنطقة الساحلية بفعل انفتاحها على البحر، فكانت تتلقَّى إمدادات من الغرب.

وإذا كان الصليبيون قد تراجعوا أمام المسلمين، فإنهم أخذوا في أواخر القرن

---

(١) انظر حول الداوية الفصل الحادي عشر. (٢) انظر حول الأسبتارية الفصل نفسه.

الثاني عشر الميلادي يستعيضون عن خسارتهم ببعض أراضي بيزنطية. فقد استغلوا تفوقهم العسكري، وأغرتهم ثروات المدن البيزنطية في آسيا الصغرى واليونان، فتجاهلوا هدفهم الديني واستولوا على قبرص في عام (١١٩١م) وعلى القسطنطينية في عام (١٢٠٤م) التي تعرَّضت للنهب، وأسَّسوا فيها امبراطورية لاتينية كانت سريعة الزوال، ووطَّدوا أقدامهم لبعض الوقت في شبه جزيرة المورة في بلاد اليونان.

كانت الحملات الصليبية حدثاً فاصلاً في الغرب الأوروبي، ونُظِرَ إلى الإسلام منذئذ على أنه العدو اللدود للمسيحية وللحضارة الغربية. ومما لا شك فيه بأن هذا التحامل الغربي على الإسلام أدَّى، وما زال، دوراً كبيراً في النزاع الحالي من خلال تأثيره في الطريقة التي يرى فيها الغربيون العالم الإسلامي اليوم.

وإذا كانت الحروب الصليبية تشكل صفحة في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، فما السر في أنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلاً في المشرق الإسلامي في حين صحبها وأعقبها مباشرة قيام نهضة شاملة في الغرب الأوروبي هي أساس نهضته الحديثة.

ويبدو أن هذه الحروب مسؤولة عن الانهيار الذي تعرَّض له العالم الإسلامي الشرقي في أواخر العصور الوسطى من واقع أنها استنفدت جهوده وطاقاته في الدفاع عن كيانه، وكرَّست موارده ونشاطه للقضاء على الخطر الصليبي الذي أصاب بقعة هي بمثابة القلب، وأخذ يسعى من هذا المركز إلى تهديد بقية المناطق في الشام والعراق ومصر والحجاز فضلاً عن المغرب والأندلس.

ولعلَّ من الواضح أنه تعذَّر على المسلمين، وسط الخطر الذي أحدق بهم في صميم بلادهم، أن يشتغلوا بالتعمير والإنشاء والنشاط الحضاري، على أن ثمة حقيقة وهي أن مظاهر الضعف والانحلال السياسي والتأخر الحضاري كان بادياً في أجزاء العالم الإسلامي الشرقي قبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، بدليل ما جرى في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين من تناحر واندلاع الثورات وقيام الأتابكيات والإمارات على حساب الخلافة العباسية وفي كنفها وعجز هذه الخلافة أمامها، وجاءت الحروب الصليبية لتستنفد ما بقي للشرق الإسلامي من طاقة وجهد، على أن هذه الحروب انتهت بنهضة كبيرة شاملة في الغرب الأوروبي وقد نمت جذورها نتيجة الاتصال بالحضارة الشرقية الإسلامية، وأهم معابرها حركة ترجمة العلوم والمعارف الإسلامية إلى اللاتينية، ونشطت في عصر الحروب الصليبية وأن المركز الأول لتلك الحركة كان الأندلس (إسبانيا).

والواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع

أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه أجدادنا منذ تسعمائة سنة، الأمر الذي يدفعنا إلى دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية دقيقة في كل وقت، الآن وفي المستقبل، لأخذ العِبر والاستفادة من أخطاء الماضي وتجنُّبها، ومواجهة أخطار الحاضر ونتغلَّب عليها. وإذا وجدنا أنفسنا اليوم أمام خطر الكيان الصهيوني الذي أقامه الغرب الأوروبي في قلب العالم العربي في فلسطين وأمدَّه بالسلاح والعتاد للمضي في غيِّه وعدوانه، فإن أجدادنا وجدوا أنفسهم في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي أمام كيان غريب قام في المنطقة نفسها، وحرص الغرب الأوروبي على مساعدته مادياً وعسكرياً ليضمن له البقاء والاستمرار والتفوُّق على الأمة العربية.

وإذا كان الكيان الصهيوني اليوم تحت ستار إقامة وطن قومي لليهود، وجمع يهود الشتات في فلسطين، يحاول السيطرة على الأمة العربية في المشرق ما يُحقِّق له الاستحواذ على المنطقة الممتدة من النيل إلى الفرات، فإن الصليبيين في العصور الوسطى ما إن وطئت أقدامهم أرض فلسطين حتى شرعوا يتوسعون شرقاً في إقليم الجزيرة الفراتية وجنوباً باتجاه مصر، بل لقد أبحروا في البحر الأحمر ووصلوا إلى شواطئ الحجاز لهدم الكعبة في مكة.

وإذا كان الكيان الصهيوني اليوم يسعى جاهداً في منع قيام وحدة عربية تشكل خطراً على وجوده، فإن الصليبيين في العصور الوسطى استماتوا في منع تحقيق وحدة الصف الإسلامي بين الشام والعراق ومصر.

وبفضل الإيمان بوحدة الصف والهدف، أمكن للمسلمين أن ينتصروا في الحروب الصليبية، فظهور رجال من أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وقطز والظاهر بيبرس وقلاوون الألفي وابنه الأشرف خليل، الذين وحَّدوا الصف والهدف، وانتصروا على الصليبيين وطردوهم من المشرق الإسلامي؛ لا بد من أن يظهر بين المسلمين الآن أو في المستقبل رجال من أمثال هؤلاء يوحدون الصف والهدف ويقودون الأمة إلى النصر على الكيان الصهيوني ويطردون اليهود من فلسطين.

وحاولت أن أُبيِّن في هذه الدراسة أن الحركة الصليبية لم تكن هامشية في العصور الوسطى، بل كانت حركة محورية بالنسبة للهوية الغربية التي كانت قيد التبلور في ذلك الحين، وهي ما فتئت مستمرة إلى يومنا هذا ناهيك بأنها أظهرت الدين المسيحي بأبشع صوره. كما حاولتُ أن أقوم بدراسة علمية للحروب الصليبية بمختلف أدوارها ومراحلها لأقدمها للقارئ العربي والمسلم، علماً بأن الدراسات السابقة اقتصرت إما على معالجة الموضوع بشكل مسهب وبالأسلوب السردي، وإما أنها تناولت جانباً معيناً منه، يضاف إلى ذلك فقد نُشرت منذ أكثر من ربع قرن وثائق ومخطوطات أضاءت على

أفكار جديدة لأحداث الحروب الصليبية لم تتوفر للباحثين والكتاب السابقين؛ وهذا ما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع، كما أنني اعتمدت على الوثائق المنشورة حديثاً والتي أغنت الدراسة برؤية جديدة، راجياً أن تشكل إضاءة إضافية على موضوع الحروب الصليبية، ولا أدَّعي أنني وفيت هذا الموضوع حقه من البحث وإنما هي محاولة لدراسة تاريخ حقبة تاريخية مهمة ومثيرة تتقاطع أحداثها مع التاريخ الإسلامي.

اعتمدتُ في هذه الدراسة على مصادر أساسية ومراجع متنوعة مبيَّنة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل بما اعتمدت عليه أن يُبيِّن الحقيقة التاريخية ويُذخر المكتبة العربية.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارئ بعناوينها فقد قسمتها إلى ثلاثة أبواب تتضمن تسعة وعشرين فصلاً مبيَّنة في محتوى الكتاب.

يشغل **الباب الأول** أحداث نجاح الصليبيين في احتلال بعض مناطق بلاد الشام وتأسيس إمارات صليبية في ربوعها في ظل تراجع قوة المسلمين، وتفكُّك صفوفهم في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، مثل: إمارة الرها وإمارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس.

ويُغطِّي **الباب الثاني** أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين الذي اتسم بالتكافؤ وتوازن القوى بفعل اليقظة الإسلامية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، والتي قادها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وأتمَّها صلاح الدين الأيوبي، واستعاد المسلمون بفضلها بعض المناطق المهمة مثل: الرها ثم بيت المقدس بعد الانتصار في حطين.

ويتضمَّن **الباب الثالث** أحداث سقوط الصليبيين وطردهم من المشرق الإسلامي على أيدي المماليك في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وما نجم عن ذلك من محاولات صليبية فاشلة للعودة إلى بلاد الشام وكذلك احتلال شمالي أفريقيا ومصر. وبعد قيام الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وتوسعها في البلقان، نقل الغرب الأوروبي ميدان الحروب الصليبية إلى هذه المنطقة، لكن الأوروبيين الغربيين فشلوا في إخراج العثمانيين من أوروبا عسكرياً، فانكفأوا مؤقتاً ليعاودوا غزو المشرق الإسلامي ثقافياً وفكرياً عبر الامتيازات الأجنبية التي منحها لهم العثمانيون بدءاً من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

وأنا على ثقة بأن القارئ سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة وعبرة كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ. د. محمد سهيل طقوش

البَابُ الأوّل

صعود الصليبيين

الفَصْلُ الأوَّلُ

تاريخية فكرة الحروب الصليبية

تمهيد

يُقصد بالحروب الصليبية، الحملات ذات الطابع الديني التي أرسلها مسيحيو غربي أوروبا إلى الشرق الإسلامي بين عامي (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) لانتزاع الأرض المقدسة في فلسطين من المسلمين، وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى شارة الصليب التي اتخذها الغزاة علامة لهم، وهي أيضاً هجرة واسعة قام بها سكان أوروبا الغربية إلى الشرق الإسلامي لاحتلاله، وعليه شكَّلت الحروب الصليبية مرحلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب عبر عصورهما التاريخية، والذي لا يزال مستمراً حتى يومنا هذا، لتحقيق مصالح سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية.

الجذور التاريخية لفكرة الحروب الصليبية

انبثقت الحروب الصليبية في العصورالوسطى من واقع الخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني (٤٨١ ـ ٤٩٢هـ/ ١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) أمام حشود المستمعين من الكهنة والفرسان وعامة الناس في سهل أوفيرن بكليرمونت في مقاطعة برغنديا الواقعة في جنوبي فرنسا في (٢٦ ذي القعدة ٤٨٨هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥م) ودعا فيها إلى إطلاق الحملة الصليبية. شكَّلت الحملة حدثاً حاسماً وتكوينياً، وما زالت ذيوله وآثاره في المشرق الإسلامي حتى أيامنا هذه.

الواقع أن المؤتمر كان مخصَّصاً لمناقشة قضايا دينية، وبدأ أولى جلساته في (١٧ ذي القعدة/ ١٨ تشرين الثاني)، واستمرت تسعة أيام. وفي جلسة (٢٦ ذي القعدة/ ٢٧ تشرين الثاني) تطرق البابا في خطابه إلى معاناة المسيحيين في الشرق، وتحدث عن الأهمية البالغة لبيت المقدس عند المسيحيين، وعرض ما يلاقيه الحجاج الذاهبون إلى فلسطين وسوء معاملة الأتراك المسلمين لهم[١]، ودعا إلى شنِّ حرب

(١) لا توجد روايات دقيقة ومعاصرة لخطبة أوربان الثاني، وما ورد في المصادر من مقتبسات، بعد وقت قصير من نجاح الحملة الصليبية الأولى، تعكس رؤية متأخرة عن زمن أوربان الثاني، أي في وقت كان الصليبيون قد حقَّقوا نجاحاً ملموساً.

مقدسة ضد الإسلام، وشرح ذلك قائلاً: «إن الأتراك السلاجقة، ذلك العرق البربري القادم من وسط آسيا والحديث العهد بالإسلام، قد اكتسح بلاد الأناضول في آسيا الصغرى، واستولى على مناطق كثيرة انتزعها من الامبراطورية البيزنطية المسيحية». وحثَّ فرسان أوروبا على أن يتوقفوا عن القتال الداخلي فيما بينهم ويتحدوا تحت لواء قضية مشتركة ضد أعداء الله هؤلاء، وصاح في الحاضرين: «إن الأتراك عِرق ملعون، عِرق غريب تماماً عن الله، وهم حقاً جيل لم يتوجَّه بقلبه أو يعهد بروحه إلى الله»، «إن قتل هؤلاء الوحوش الكفرة عمل مقدس، فالواجب المسيحي يقضي باستئصال هذا العِرق الفاسد من أراضينا». وبعد أن يُطهِّر الصليبيون آسيا الصغرى من الوجود الإسلامي يتعين على الفرسان أن ينخرطوا في مهمة أكثر قدسية ألا وهي الزحف نحو مدينة السلام، أورشليم، المقدسة «وانتزاعها من أيدي الكفار، فمن العار أن يكون قبر المسيح في أيدي المسلمين»[١].

لقي خطاب البابا أوربان الثاني استجابة سريعة وفائقة، فقام الوعَّاظ الشعبيون من أمثال بطرس الناسك، بنشر أنباء الحملة الصليبية بين الناس. وفي (منتصف عام ٤٨٩هـ/ ربيع عام ١٠٩٦م)، انطلقت باتجاه الشرق الإسلامي خمسة جيوش قوامها زهاء ستين ألف مقاتل يصحبهم جمهور غفير من الحجاج غير المقاتلين ومعهم عائلاتهم، وتبعتهم في خريف العام نفسه خمسة جيوش أخرى قوامها مائة ألف مقاتل، وحشد من الكهنة والحجاج. وعندما اقتربت الجيوش الأولى من العاصمة البيزنطية القسطنطينية بدا للأميرة آنّا كومنين، ابنة الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (٤٧٤ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٨١ ـ ١١١٨م)، كما لو أن الغرب برمته وكل الأرض الممتدة من وراء البحر الأدرياتيكي إلى عمودي هرقل (جبل طارق) تُبدل موقعها وتنزاح إلى داخل آسيا في كتلة متراصة حاملة معها كل ما تملك[٢]، وبدا ذلك للبيزنطيين كما لو أنه غزو همجي مثل الغزو الذي تعرضت له الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي على أيدي الجرمان.

كان الغرب يغزو الشرق لأول مرة في العصور الوسطى وهو مفعم بالتدين العدواني للحرب المقدسة، هذا التدين الذي سيطبع بطابعه كل أوجه تعامل الغرب مع الشرق في المستقبل[٣].

---

(١) انظر خطاب أوربان الثاني كما ورد عند: فولشر، الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس ص٣٢ ـ ٣٥. الصوري، وليم: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار جـ١ ص١٦٩ ـ ١٧٣.

(٢) Comnena, Anna: The Alexiad. pp250,251.

(٣) أرمسترونغ، كارين: الحرب المقدسة، ص٣٦.

كانت الحملة الصليبية هذه، أول عمل تعاوني لأوروبا الغربية الخارجة من عصر الظلام، وقد راقت لطبقات المجتمع كلها، فباع الناس كل ما يملكون لكي يُجهِّزوا أنفسهم للانخراط فيها تتملكهم عاطفة دينية قوية، فخاطوا الصلبان على ملابسهم، ومشوا قاصدين أرض القداسة التي تفيض لبناً وعسلاً. لقد كان حجاً تعبدياً وحرباً استئصالية في الوقت نفسه(١).

الواضح أن الحروب الصليبية جاءت استجابة لحاجة متجذرة في نفوس مسيحيي أوروبا الغربية، وهي عمل مسيحي عسكري. وتمكّنت اليهودية الرؤيوية، التي ظهرت في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وانطلقت من سفر الرؤيا وقد تطلعت إلى نصر كوني في آخر الزمان بعد أن فقدت الأمل في حصول اليهود على مملكة مستقلة خاصة بهم؛ فأدخلت عنفاً جديداً على دين المسيح منذ القرن الأول الميلادي، يوضح ذلك ما جاء في سفرين متأخرين من أسفار العهد الجديد هما رسالة يهوذا وسفر رؤيا يوحنا اللذين كُتبا بعد مرور خمسين عاماً على الأقل على موت بولس، ومن المحتمل أن يكون واضع سفر رؤيا يوحنا يهودياً اعتنق المسيحية وتأثر بسفر الرؤيا اليهودي في العهد القديم، وعندما تطلع إلى المجيء الثاني للمسيح رآه بطبيعة الحال وفقاً للمأثورات الرؤيوية اليهودية تُبشر بالنصر النهائي للمسيحية حين ينزل المسيح من السماء ويؤسس أورشليم سماوية، ويُقيم عالماً جديداً كامل الصفات. ولم يجد الصليبيون إلا أن يتأثروا بهذه الرؤيا، فتحدَّثوا عن أعداء الرب بوصفهم وحوشاً مخيفة.

وتمثّلت النزعة العدوانية لدى المسيحية في وقت مبكر من تاريخ الكنيسة لا سيما في حركتي الاستشهاد والرهبنة اللتين ستكون لهما فيما بعد أهمية في عقيدة الحرب المقدسة. وكانت السلطات الرومانية في القرنين الثاني والثالث الميلاديين تضطهد المسيحيين الذين كانوا يرفضون تقديم القرابين إلى القيصر، ويُشكلون خطراً سياسياً محتملاً، فقُتل آلاف المسيحيين في حلبات الصراع الرومانية، وقد ترك ذلك في نفوس المسيحيين انطباعاً بأن العالم يقف ضدهم وسوف يتغلَّب على الدين الحق(٢).

---

(١) أرمسترونغ، ص٣٦.

(٢) ظهر ذلك في وقت مبكر يعود إلى القرن الثاني الميلادي كما يتضح من رسالة يوحنا الأولى. الإصحاح ٢ الآية ١٤ ـ ١٩. وانظر في مواضع متفرقة من:

Frenol, W.H.C: Martyrdom and Persecution in the Early Church, A Study of a conflict from the Maccabees to Donatus.

Cary, M: A History of Rome down to Reign of Constantine: pp531-590.

أدّى هذا الشعور بعدم الاطمئنان إلى نشوء نزعة عدوانية من الاستشهاد الطوعي، فكان يُنظر إلى المسيحي الشهيد على أنه مثالي، غير أن ذلك اكتسب بُعداً عدوانياً، وشرع المسيحيون يُبلِّغون السلطات الرومانية عن أنفسهم كي تقوم بإعدامهم قناعة منهم إنما يشاركون في معركة كونية متواصلة ضد الشر، فكان موت كل شهيد يُقرِّب النصر النهائي والمجيء الثاني للمسيح، وهو على يقين أنه جندي من جنود المسيح وأن موته مرادف للنصر[١].

وعندما أصبحت المسيحية إحدى الديانات المُصرَّح باعتناقها داخل الامبراطورية بموجب مرسوم ميلان المشهور الذي أصدره الامبراطور قسطنطين في عام (٣١٣م)، وبعد اعتراف هذا الامبراطور بالديانة المسيحية واعتناقها[٢] توقفت نسبياً الاضطهادات، وأصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي للامبراطورية الرومانية في عهد الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥م)، وكانت قد اتخذت صورتها العقدية النهائية في مجمع نيقية عام (٣٢٥م)، ولم يعد للديانات الأخرى وبخاصة الوثنية ما تستند إليه في وجودها وكيانها، وتوقَّفت الاضطهادات.

وبرزت فجوة في الحياة المسيحية بعد توقف الاضطهادات، فحتى يكون المسيحي مسيحياً كاملاً لا بد من الاستشهاد طوعاً أو كرهاً، ولحل هذه المعضلة لجأ المسيحيون إلى البرية ليمارسوا القيم المسيحية، وأقنع هؤلاء المترهبنون أنفسهم بأنهم وحدهم المسيحيون الحقيقيون لأنهم سعوا جاهدين إلى أن يموتوا في الصحراء. وقد دخلت هذه الظاهرة إلى المجتمع الغربي في القرن الخامس الميلادي قادمة من الشرق[٣].

وأدخل القديس بنيدكت النورسياوي إلى أوروبا شكلاً من الرهبانية أكثر اعتدالاً من الشكل الذي مارسه المسيحيون الشرقيون إنما بقيت هناك مسحة عدوانية تشوب الروحانية الغربية، ووُجِدَ من ينظر إلى الرهبان على أنهم قوم منخرطون في حرب مقدسة[٤].

وتعرَّضت أوروبا في مطلع العصور الوسطى لغزوات الجرمان المدمرة ثم غزوات الإسكندناڤيين والمسلمين والمجريين في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، فهدَّدت الكنيسة الغربية، وأضافت إلى العداء، الشعور بعدم الاطمئنان، فأدخلت بذلك عنصراً عدوانياً إلى نفوس المسيحيين الغربيين، ومع ذلك حاولوا كبح جماح هذا

(١) أرمسترونغ: ص٥٨.

(٢) Meyendorff: Unité de L'Empire et Divisions des Chrétiens: P19.

(٣) أرمسترونغ: ص٥٨. (٤) المرجع نفسه: ص٥٩.

العنف وتطوير مفهوم الحرب العادلة الذي من شأنه أن يُتيح للمسيحيين أن يحاربوا ويدافعوا عن أنفسهم من دون أن يخالجهم شعور بالذنب.

ومهما يكن من أمر، لم تعرف الديانة المسيحية الحروب المقدسة إلى أن دعا البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي في الوقت الذي بدأ المجتمع الغربي يتعافى من صدمة العصور المظلمة، ويحاول خلق هوية غربية جديدة لنفسه من شأنها أن تتيح له التخلص من الحروب الداخلية بين الإقطاع، ووضع حد للصراع على السلطة بين القيادة الزمنية المتمثلة بالأباطرة والملوك وبين السلطة الروحية المتمثلة بالبابوات. وهكذا بدأ الغرب يشعر بثقة جديدة، وشكَّلت الحملات الصليبية المتعاقبة جزءاً أساسياً من هذه العملية، وعبَّرت تماماً عن الروح الغربية الجديدة تلك. وكان تأثر المسيحية بالتقاليد الموروثة من الشدة بحيث أن الأوروبيين وجدوا أنفسهم ينزلقون تلقائياً نحو الحل العسكري.

الحج

يكاد يجمع المؤرخون على أن فكرة الحروب الصليبية نبعت من فكرة البابا أوربان الثاني التي آمن بها وسعى إلى تحقيقها، إلا أنه من غير المؤكد أن نعزو بداية الحروب الصليبية إلى شخص بعينه أو مؤسسة بعينها، فقد تعدَّدت الأحداث في مجالات الحياة المختلفة وفي أقطار مختلفة، وشكلت مرحلة إعداد المسيحية الكاثوليكية في أوروبا الغربية لتنفيذ الحملات الصليبية، وصهرت البابوية هذه العوامل في بوتقة واحدة لكي تتبنَّى حركة محدَّدة الهدف والزمان والمكان.

وكانت الأفكار المتداولة في المجتمع الأوروبي الغربي التي تدور حول نهاية العالم بعد الألفية الأولى للميلاد وتلك التي تتعلق بالعالم الآخر؛ أحد جذور الحروب الصليبية. فقد شاعت في هذا المجتمع في نهاية القرن العاشر الميلادي أفكار وقصص وروايات تتحدث عن قرب نهاية العالم مع اكتمال الألف الأولى بعد المسيح. وقد ظهرت في أوروبا الغربية بعض الظواهر الفلكية والطبيعية عدَّها الناس دليلاً على اقتراب هذه النهاية علماً بأن معارف الأوروبيين الغربيين كانت مفعمة آنذاك بالعناصر الغيبية، وأن الدين بالنسبة إليهم كان مزيجاً من الخرافة وطقوس عبادة الطبيعة وبعض تعاليم المسيحية، فكان من الطبيعي في ظل هذا الجو النفسي والفكري أن تُردَّ الظواهر الطبيعية إلى قوى غيبية من ناحية، وأن يتم ربطها باقتراب نهاية العالم والأفكار الألفية والأخروية من ناحية أخرى[1] علماً بأنه تضاءلت أخبار

---

(١) قاسم، قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية ص١٦، ١٧.

هذه الرؤى والأحلام المقدسة والأخبار الإعجازية والأخروية مع تقدم الحروب الصليبية.

تطلع الناس الذين سيطرت على وجدانهم تلك المشاعر إلى الخلاص، ولا يتم ذلك إلا من خلال الرحلة إلى بيت المقدس إذ لم يكن هناك مكان أقدس حيث عاش المسيح، فقامت منذ القرون الأولى للميلاد موجة جديدة من الحماس الملتهب لزيارة بيت المقدس والأراضي المقدسة التي نظر إليها البسطاء على أنها أقدس الذخائر نظراً لصلتها المادية بالمسيح، وقد انعكس ذلك في زيادة عدد الرحلات التي قام بها الحجاج من غربي أوروبا إلى بيت المقدس في السنوات القليلة التي سبقت وتلت الألف الأولى بعد المسيح، ومع ذلك فإن هذه الأفكار لم تكن عاملاً حاسماً في الوصول إلى صيغة الحملة الصليبية وإنما كان الفضل راجعاً إلى تسليح الحاج والذي نتج عنه الحرب المقدسة من ناحية والمنفعة التي ينالها الحاج من ناحية أخرى والتي تمثَّلت في مفهوم الغفران الذي تطور إلى صكوك الغفران.

وفي ختام القرن العاشر ومستهل القرن الحادي عشر الميلاديين ظهر في الأراضي، التي تُكوِّن اليوم وسط فرنسا، سلام الرب، وهو حركة قامت باسم الرب وأدَّت بدورها إلى قيام هدنة الرب، على أن هذين المسعيين إلى صنع السلام أسفرا معاً عن الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

لقد انبثق من السلام المقدس نوع جديد من الحرب المقدسة. وكانت حركة سلام الرب دفاعاً مباشراً من جانب الكنيسة ضد العنف في أواخر الألف الأولى وبداية الألف الثانية عبر مساعي صنع وصون السلام، وتمكَّنت الكنيسة من توجيه التحول الاجتماعي الذي ساعدها على الفوز بالصدارة داخل المجتمع المسيحي.

إن الحج إلى بيت المقدس ممارسة دينية مسيحية نمت منذ بداية المسيحية التاريخية، وكان المسيحيون يقومون بزيارات إلى أماكنهم المقدسة على الرغم من أن الحج ليس شعيرة مفروضة على المسيحي، إلا أن الجذب العاطفي نحو الأرض التي شهدت ظهور المسيحية ظل يشدُّ الناس من أتباع هذا الدين بشكل متصاعد.

ففي أيام المسيحية الأولى، كانت رحلات الحج إلى فلسطين نادرة، إذ أن السلطات الرومانية لم تُشجع الارتحال إليها، بل إن مدينة بيت المقدس كانت قد دُمِّرت على يد القائد الروماني تيتوس في عام (٧٠م)، وظلَّت خرائب وأطلالاً حتى أعاد بناءها الامبراطور هادريان في عام (١٣٥م) بعد أن أخمد ثورة اليهود ضد الوجود الروماني، وشيَّد بها معبداً للربة ڤينوس.

ولم يحل القرن الثالث الميلادي حتى صار الكهف الذي وُلد فيه المسيح في بيت

لحم مكاناً معروفاً للمسيحيين، كما أضحى بوسع هؤلاء أن يرتحلوا إلى هذا المكان وإلى جبل الزيتون وبستان جثسيماني والمكان الذي صعد منه إلى السماء، ثم باتت هذه الأماكن من الشعائر المسيحية من أجل العبادة واكتساب البركة والفضائل الروحية.

ونمت شعيرة الحج وتطورت بعد انتصار المسيحية إثر اعتراف الامبراطور قسطنطين بها واعتناقه إياها فيما بعد، كما ذكرنا، ثم رحلت والدته الامبراطورة هيلانة إلى فلسطين لتلتمس ما تبقَّى من آثار المسيح، وقد ورد في المؤلفات المسيحية بأنها اكتشفت خشبة صليب الصلبوت(١)، وعزَّز الامبراطور هذا الكشف بما شيده في هذا الموضع من كنيسة ظلَّت المشهد الرئيس للعالَم المسيحي، هي كنيسة القيامة، فازدادت نتيجة ذلك رحلات الحج. ففي عام (٣٢٣م) قام رجل من مدينة بوردو الفرنسية بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين وسجل وصفاً لرحلته، تلا ذلك قيام امرأة نبيلة من بلاد الغال (فرنسا) تُدعى إيثيريا بزيارة الأرض المقدسة(٢).

واستقر القديس جيروم بفلسطين في نهاية القرن الرابع الميلادي، ولحقت به مجموعة من سيدات إيطاليا الموسرات ممن كنَّ من أتباعه، وكان يستقبل في صومعته في بيت لحم المسافرين الذين يزورونه لتقديم واجب الاحترام بعد زيارتهم للأماكن المقدسة(٣).

وهكذا كان المسيحيون يزورون منذ وقت مبكر، فلسطين وبيت المقدس لاقتفاء أثر خطوات المسيح وحوارييه، وخطوات الأنبياء، والرغبة في رؤية الأماكن المقدسة التي تَجسَّد فيها المسيح ولمسها، واستعادة ذكريات العهدين القديم والجديد، ثم تحوَّل الحجاج إلى الضريح الذي أضحى محوراً لحركة الحج المسيحي. وشهد منتصف القرن الخامس الميلادي ذروة هذا الميل المبكر لزيارة بيت المقدس، فاستقرت الامبراطورة إيدوسيا في هذه المدينة(٤).

وحرص الحجاج أثناء العودة إلى بلادهم أن يحملوا معهم ذكرى لحجهم، فارتبطت برحلة الحج الحاجة إلى جمع الذخائر المقدسة وتتضمن رفات القديسين والشهداء وملابسهم وأدواتهم الشخصية، ويكتسب الحاج عند عودته إلى بلاده مكانة بقدر ما يمكنه الحصول عليه من بعض هذه الذخائر التي كانت توضع في المزارات المحلية وفي الكنائس. وقد نُسجت قصص خيالية حول الرحلات والذخائر

---

(١) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية: جـ١ ص٦٥.

(٢) المرجع نفسه: ص٦٦. (٣) المرجع نفسه.

(٤) Bury, J.B: History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene I, pp225-231.

المقدسة، ما زاد في تأجُّج الجو النفسي المشبع بالأفكار الألفية والأخروية(١).

وما جرى في القرن السادس الميلادي من حروب بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية في بلاد الشام، وما أعقب ذلك من الفتح الإسلامي؛ لم يتأثر تيار الحج إلى فلسطين بهذه الأحداث، ولما كان المسلمون يُقدِّسون الحج أكثر من المسيحيين بوصف الحج من أركان الإسلام ومن الفروض الأساسية لمن استطاع إليه سبيلاً؛ تعاطف المسلمون مع الحجاج المسيحيين، وسهَّلوا الرحلات الدينية التي كان يقوم بها مسيحيو الغرب الأوروبي اللاتيني(٢).

وجرت في نهاية القرن الثامن الميلادي محاولة لتنظيم أمور الحج تحت رعاية الامبراطور شارلمان الفرنجي الذي أقام علاقات سياسية وتجارية مع الخليفة العباسي هارون الرشيد(٣).

وتغيَّر طابع الحج منذ القرن السابع الميلادي، ففي الوقت الذي اتخذ فيه الحج في القرون المسيحية الأولى، طابعاً عاطفياً، اتخذت رحلات الحج منذ القرن المذكور شكل العمل التكفيري الذي يجب على المذنبين المعترفين أن يقوموا به، وسار هذا التغيُّر باتجاه الحروب الصليبية وهو نتيجة واضحة للتأثير المتزايد للكنيسة الإيرلندية. وما وافى القرن الثامن الميلادي حتى أضحى القيام بالحج كإجراء تكفيري ممارسة دينية شائعة في أوروبا ليس إلى بيت المقدس فحسب، بل وإلى مزارات أخرى في أوروبا، حافلة بالمصاعب والأخطار نفسها، ما يجعلها ممارسة دينية تناسب التوبة.

غير أن عصر الحج الكبير بدأ في القرن العاشر الميلادي، إذ فَقَدَ المسلمون ما كان لهم من سيطرة في إيطاليا وجنوبي فرنسا، وجرى انتزاع جزيرة كريت منهم في عام (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، وجدَّدت البحرية البيزنطية نشاطها في البحر الأبيض المتوسط ما كفل إحياء التجارة البحرية، وكان للظروف السياسية الدولية آنذاك أثرها في تزايد رحلات الحج المسيحي وتضخُّمها، وأهمها:

ـ كان الفاطميون يسيطرون على بيت المقدس، واشتهروا بتسامحهم الشديد مع أصحاب الديانات الأخرى، كما أنهم عقدوا معاهدات سلام مع البيزنطيين في أواخر عهد الحاكم بأمر الله(٤).

---

(١) قاسم: ص٢٢.

(٢) Michaud, J.E: Histoire des Croisades: I p15.

(٣) انظر حول هذه العلاقات: Einhard: The Life of Charlemagne.

(٤) الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي (صلة تاريخ أوتيخا) ص٢٤٧، ٢٤٨.
ابن القلانسي، حمزة بن أسد: تاريخ دمشق ص٩٠.

ـ أمَّن اعتناق ملك المجر وشعبه للمسيحية في عام (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م) الطريق البري إلى الشرق المار عبر البلقان إلى القسطنطينية[(١)].

ـ شكَّلت الحركة الكلونية في ذلك الوقت عاملاً من عوامل ازدهار حركة الحج، فقد كانت الأديرة الكلونية التي كوَّنت شبكة واسعة النطاق تساعد الحجاج وتُقدم لهم التسهيلات بفضل قدرتها التنظيمية الفائقة.

ـ إنشاء أماكن لضيافة الحجاج على طول الطرق المؤدية إلى فلسطين.

ـ إنشاء المسيحيين في بيت المقدس وغيرها من المدن الفلسطينية منازل خُصِّصت للحجاج.

ـ كان التجار الإيطاليون في أمالفي والبندقية وجنوة، وبعض الحجاج الأثرياء يُقدمون الأموال اللازمة للإنفاق على هذه المنازل.

وما حدث من تحسين أوضاع الحج كان له تأثير على الفكر الديني في الغرب الأوروبي، وما صدر في أوائل العصور الوسطى من رسائل عن التوبة توصي بالحج، جعلت الحج وسيلة من وسائل التكفير عن الذنوب والتوبة، عند الكنيسة، وكان ذلك هو الأكثر أهمية من تطور حركة الحج نفسها، غير أن الاعتقاد بأن لبعض الأماكن المقدسة أهمية روحية خاصة عند أوائل الذين يقومون بزيارتها؛ أخذ يزداد، ولم تُصبح فكرة الغفران فعَّالة إلا بعد أن ارتبطت بالحج إلى بيت المقدس.

وإذ أرست الكنيسة الاعتقاد بأن رحلات الحج هي طريق الخلاص من الذنوب، تزايد إقبال الناس على المشاركة فيها منذ القرن العاشر الميلادي وبخاصة بعد استقرار الأوضاع في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وقيام علاقات تجارية بين المدن التجارية الإيطالية وبيزنطية ومصر والشام، وما فرضته ضرورات السلام والهدوء، وكان بوسع الحجاج أن يتنقَّلوا بِحُرِّيَّة في أرجاء فلسطين لأن السلطات الإسلامية[(٢)] آنذاك كانت تُرحِّب بهم نظراً للاستفادة المادية.

وكان للحج من أجل التوبة قيمة اجتماعية، إذ أن ابتعاد المذنب عن مسرح الجريمة لمدة سنة أو أكثر وهي الوقت الذي تستغرقه الرحلة عادة، وما تتكلفه رحلته من نفقات ومشاق، يُعدُّ عقاباً وتأديباً له، وما يغلب عليه من جو عاطفي سوف يهبه الشعور بالقوة والطهارة الروحية، فيعود رجلاً صالحاً، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الناس قد ربطوا بين الحج إلى الأرض المقدسة والأمل بالغفران[(٣)].

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٨٧.

(٢) كانت مصر وبلاد الشام آنذاك تحت حكم الإخشيديين.

(٣) قاسم: ص٢٤.

ولم يكن من الممكن أن يتسع نطاق رحلات الحج التكفيرية إلا بوجود تسهيلات مناسبة، فظهرت في السياسة الأوروبية قوة جديدة أخذت على عاتقها تسهيل سبيل الحجاج. ففي عام (٢٩٧هـ/ ٩١٠م) أنشأ وليم الأول، كونت أكويتانيا، دير كلوني، وقد تولى أمره طائفة من الرؤساء الدينيين الأقوياء، وأضحى هذا الدير مع انتهاء القرن العاشر الميلادي مركزاً لنواة كنيسة ضخمة بالغة التنظيم ووثيقة الاتصال بالبابوية، وقد ركَّز مذهبهم على الرحلة نفسها وليس الوصول إلى المزار والتي ستكون رحلة إلى ذات مسيحية جديدة، لأن الحاج سوف يحيا أثناء رحلته إلى المزار المعني حسب أعراف وغايات الرهبان، لذلك كانت الرحلة إلى المزار نوعاً من الترهبن الذي يُكوِّن شخصية الحاج ويُعلِّمه كيف يكون مسيحياً حقاً طبقاً للمُثل الكلونية العليا التي تُحتِّم عليه أن يدير ظهره لعالم الدنيا الآثم ويُقبل بوجهه نحو الحياة الأخرى ولو لبرهة قصيرة، كما كانت بداية لحياة النسك والزهد لكثير من الناس(١).

وأنشأ الكلونيون أديرة على طول طريق الحج، وأقاموا شبكة اتصالات واسعة وفَّرت التسهيلات اللازمة للحجاج الذاهبين إلى فلسطين بخاصة، ما زاد عدد هؤلاء القادمين من فرنسا ومنطقة اللورين في القرن الحادي عشر الميلادي. واستقر في أذهان الناس أن رحلة الحج تُشكل تتويجاً لخاتمة حياة رحلتهم في الدنيا(٢).

وكثرت رحلات الحج التكفيرية إلى فلسطين نتيجة ما كانت تفرضه الكنيسة على المذنبين ومن أضرُّوا بمصالحها، ومن ينتهكون سلام الرب؛ رحلة حج إلى فلسطين تكفيراً عن ذنوبهم.

وازداد عدد الحجاج التائبين، ووصل في بعض الأحيان إلى بضعة آلاف من الرجال والنساء. والواضح أن الحملة الصليبية الأولى كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين، ذلك أن تيار الحج المستمر كان لا بد أن يؤدي بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التي شهدت حياة المسيح وقصته لا بد أن تكون تحت سيطرة أتباعه، ولأن أوروبا الغربية بدأت تشعر بقوتها، رفضت بقاء أرض المسيح بأيدي المسلمين الذين صوَّرتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين(٣). وتركَّزت فكرة تخليص الأرض المقدسة منهم في أذهان أبناء الغرب الأوروبي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وقد أدى هذا بالضرورة إلى أهمية القيام بحملة حج مسلحة، بحيث صار الحج من أهم جذور فكرة الحروب الصليبية. وشكَّل مجمع

---

(١) Wilkinson, John: Jerusalem Pilgrims before the Crusades: P42.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٨٣، ٨٤.

(٣) Robert the Monk: Historiora Hierosolinitana: III pp 727-730.

كليرمونت انعطافة في عسكرة الحج وإضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة، وكان الصليبي حاجاً يتمتع بميزة حمل السلاح.

والواقع أن تنفيذ فكرة الحروب الصليبية بدأت في البلاط البابوي قبل أن يثيرها البابا أوربان الثاني. فالبابا غريغوري السابع (٤٦٥ ـ ٤٧٨هـ/ ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) فكَّر في مشروع الحرب المقدسة منذ أن وصل إلى كرسي البابوية. فقد عاصر معركة مانزيكرت عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) بين الأتراك السلاجقة والبيزنطيين والتي جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية إثر خسارتها هذه المعركة، في حماية المسيحية من ضغط الإسلام وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا، وكانت آخر حصن للمسيحية في الشرق، وتراءى للبابوية أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم المسيحي ما يبرر تدخل الغرب الأوروبي، وعلى ذلك أدرك هذا البابا أن الغرب المسيحي يجب أن يتخذ خطوة لإنقاذ الشرق المسيحي وبخاصة بعد التماس الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، المساعدة من الغرب لوقف الزحف السلجوقي على أملاك الامبراطورية.

وورث البابا أوربان الثاني هذا المشروع من سلفه مع الفرق بأن البابا غريغوري السابع فكَّر في إنقاذ الامبراطورية البيزنطية، في حين ذهب البابا أوربان الثاني أبعد من ذلك وهو انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين. والواقع أن هدف الوصول إلى بيت المقدس هو الذي جعل الحملة الصليبية رحلة للحج، وأن البابا أوربان الثاني دعا إليها بوصفها رحلة للحج إلى الأراضي المقدسة، كما أن كثيراً من الإجراءات التي اتخذها تتوافق مع الإجراءات المتبعة عند الذهاب إلى الحج. فقد أصدر أمراً بابوياً بالمحافظة على أملاك المشتركين فيها وعدم مسها بسوء، حتى عودتهم، وترتبط هذه الحماية بهدنة الله وهي الوسيلة التي استعانت بها حركة السلام الإلهي لحظر أساليب العنف في أوقات مُحدَّدة، ولكنها ارتبطت بالإجراءات المتخذة للحج في الأماكن المقدسة[(١)]، كما حدث عند إصرار البابا على أنه يجب على أبناء الأبرشيات الحصول على إذن من قساوسة الأبرشية، وأن يحصل الشباب على موافقة زوجاتهم قبل الذهاب مع الحملة الصليبية، ثم وضع نَصَّ قَسَم يؤديه المشاركون فيها، وأن يتقلد كل مشارك شارة الصليب على صدره[(٢)]، وكان أولئك الذين انضموا إلى الحملة، يدركون جيداً أنها في حقيقتها زيارة حج للأراضي المقدسة ولا سيما بيت المقدس، وعدُّوا أنفسهم حجاجاً عندما زحفوا إليها، وراعوا ممارسة الطقوس

(١) سميث، جوناثان رايلي: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ص٤٨.

(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص١٧٢، ١٧٣.

الدينية المرتبطة عادة بذهاب الحجاج إلى هناك، ولكنهم كانوا يشاركون في نوع شاق من رحلات الحج، لأنهم كانوا مشاركين في حملة عسكرية.

وهكذا كان تيار الحج المسيحي هو الأقدم في الجذور المسيحية التي ساهمت في صياغة الخلفية العقدية للحرب الصليبية.

الحرب المقدسة

وكما تطور مفهوم الحج منذ ظهور المسيحية حتى نشوب الحروب الصليبية، تطور كذلك مفهوم الحرب المقدسة التي شكَّلت أحد جذور فكرة هذه الحروب، بل إن الحملة الصليبية الأولى كانت نتاجاً لكل من حركة الحج والحرب المقدسة، وعليه هناك صلة بينهما، علماً بأن كلمة حاج كانت تُطلق حتى القرن الثالث عشر الميلادي للدلالة على الحاج غير المسلح وعلى الصليبي في آن واحد، ولا نستطيع أن نُحدِّد ما إذا كان الشخص حاجاً غير مسلح أو محارباً صليبياً، كما وُصِفَت الحملات الصليبية برحلات الحج، ولم يحدث أن ظهرت مصطلحات دالة على الحملات الصليبية بشكل مُحدَّد إلا بعد مرور قرن أو أكثر، وفي هذا دلالة واضحة على أن كلمة حاج كانت مرادفة لكلمة صليبي طوال القرن الثاني عشر الميلادي على الأقل[١].

لقد كان موقف المسيحي حرجاً وهو يواجه مشكلة التوفيق بين تعاليم ديانته القائمة على السلام والمحبة والبعيدة عن العنف من وجهة نظره، وبين الحرب التي ليست إلا اغتيالاً بالجملة. فقد كان موقف الآباء الشرقيين، وعلى رأسهم القديس باسيل، رفض الحرب وإدانتها بوصفها قتلاً جماعياً على الرغم من أنه أجاز للجندي أن يطيع الأوامر، وأصرَّ على أن كل من يرتكب جريمة القتل في الحرب لا بد من منعه من ممارسة التناول مدة ثلاث سنوات تكفيراً عن خطيئته[٢]. وهكذا لم يكن لهذه الإدانة أي تأثير ملموس على أرض الواقع لأنه لم تجر إدانة الجندي البيزنطي على أنه قاتل.

وتبدو وجهة نظر الغرب اللاتيني أقل ميلاً لاتخاذ مثل هذا الموقف العديم التأثير، وعلى هذا الأساس كان يُسمح بالحرب الدفاعية فقط واستعادة أملاك مسلوبة، إذ لم يتقبَّل الناس الآراء السلمية بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) قاسم: الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية: ص٣٧.

(٢) Saunder, J.J: Aspects of the Crusades: pp17, 18.

رنسيمان: جـ١ ص١٣٥. ماير: ص٣٢، ٣٣.

التي نتجت عن الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، وأسفرت عن قيام ممالك عدة، واختلاط سكاني واضح.

وكان التراث الجرماني يُمجِّد الصفات العسكرية والبطولية، وعندما اعتنق الجرمان المسيحية، أضحت الحرب وتقاليدها جزءاً من صفات المجتمع المسيحي، ولم تستطع الكنيسة أن تقضي على الروح العسكرية الجرمانية، ومن ثم كان عليها أن توائم نفسها معها وتسعى لتبرير استمرار القيم والمُثُل الجرمانية ولكن بإطار مسيحي، وتحرص على توجيه القتال إلى مسالك تخدم قضيتها، لذلك أجازت الحرب المقدسة التي يمكن تتبُّع جذورها في مسار عملية تحويل التراث العسكري الجرماني إلى تراث مسيحي، فحلَّت الصياغات المسيحية محل الصياغات الوثنية القديمة، غير أن القيم العسكرية للمجتمع الجرماني ظلت باقية. وكان طبيعياً أن تتقبل فئة الفرسان في الغرب الأوروبي فكرة الحج المسلَّح، وذلك بسبب التراث والمفاهيم البطولية التي نتجت عن استقرار القبائل الجرمانية في أوروبا الغربية بخاصة[١].

ولعل أول مفكر عالج مسألة تبرير الحرب على أساس ديني هو القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م)، وقد أقرَّ بأن الحرب يصح أن تنشب بأمر الله، وحاول أن يضع تعريفاً للحال التي تُصبح فيها حرباً عادلة، اختزله علماء اللاهوت الأوروبيون فيما بعد بثلاثة شروط هي:

ـ أن يكون هناك سبب عادل لشن الحرب.

ـ أن يصدر قرار الحرب عن سلطة شرعية وعادة ما تكون الدولة، غير أن الكنيسة انتزعت لنفسها حق إعلان الحرب المقدسة من خلال دعوتها للحملة الصليبية الأولى.

ـ سلامة الهدف، أي أن تكون دوافع المحارب سليمة، وأن تكون الحرب الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق هدف عادل.

واستبعد أوغسطين السلام من بين الأسباب العادلة للحرب لأن كل طرف يشن الحرب من أجل السلام الذي يتوافق مع مصالحة[٢].

وأبرزت التقلبات السياسية والأحداث العسكرية العنيفة التي شهدها المجتمع الغربي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، مفهوم الحرب الدفاعية، وأكَّدت شرعيتها، إذ أن الهجمات التي شنَّها الإسكندنافيون الوثنيون على سواحل أوروبا وكذلك غزوات المسلمين ضد السواحل الإيطالية والفرنسية الجنوبية، بالإضافة إلى

---

(١) قاسم: ص٣٨، ٣٩.

(٢) Russell, F.H: The Just war in the Middle Ages: pp21, 22.

هجمات المجريين على قلب أوروبا الغربية، شكّلت ضغطاً على السكان، علماً بأن أوروبا كانت مكشوفة على هذه الغزوات بسبب زوال الامبراطورية الكارولنجية، ومن ناحية أخرى فقد كانت ثروات الأديرة والكنائس هدفاً استقطب الغزاة. ولأن المغيرين لم يكونوا من المسيحيين، ارتبطت فكرة الحرب العادلة بفكرة الحرب ضد الوثنيين الكفار، وإننا نلمح أهمية وعود البابوية في تأييدها الحاسم لصد الكفار، الأمر الذي يتضح من هذه الوعود أنه واجب أساسي على الملك كما على الامبراطور أن يقوما بحرب الكفار، ولم تلبث الحرب العادلة هذه أن تحوّلت من حال الدفاع إلى حال الهجوم، وإن ظلّت في نطاق تعاليم أوغسطين حول الحرب العادلة وبخاصة عند استعادة الأملاك المسلوبة[١].

فقد أعلن البابا ليو الرابع (٢١٢ ـ ٢٢٩هـ/ ٨٢٧ ـ ٨٤٤م) أن كل من يموت في سبيل الدفاع عن الكنيسة سوف ينال جزاء من الله. وقرّر البابا نيقولا الأول (٢٤٤ ـ ٢٥٣هـ/ ٨٥٨ ـ ٨٦٧م) أن كل من يقع تحت طائلة حكم الكنيسة لما ارتكبه من الذنوب ينبغي أن يحمل السلاح من أجل قتال الكفار، وأعلن البابا يوحنا الثامن (٢٥٨ ـ ٢٦٨هـ/ ٨٧٢ ـ ٨٨٢م) أن ضحايا الحرب المقدسة من الشهداء سوف تُغفر ذنوبهم[٢].

واستخدمت البابوية فكرة الحرب العادلة في القتال الذي كان دائراً ضد مسلمي الأندلس، وهي أقرب إلى الحملات الصليبية، إذ منح البابا إسكندر الثاني في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) الغفران للفرسان الفرنسيين الذين ذهبوا لقتال المسلمين هناك[٣]، علماً بأنه رعى حملة لشد أزر المسيحيين في صراعهم مع المسلمين اشترك فيها أمراء فرنسيون ونورمان وإيطاليون، وقد هاجمت الحملة مدينة ببشتر واستولت عليها وأمعن أفرادها قتلاً بسكانها المسلمين، غير أن هذه البلدة لم تلبث أن استعادها المسلمون، غير أن الفرنسيين أخذوا منذئذ يهرعون لاجتياز جبال البرينيه لمواصلة هذا العمل. وقد ارتقت الحروب ضد مسلمي الأندلس إلى مستوى السابقة الصليبية، غير أن الدور البابوي النشط ينفي عنها صفة الحملة الصليبية، إذ أن موافقة البابا إسكندر الثاني على هذه الحملة وتأييده لها ظل في حدود منح الغفران الجزئي لمن يشتركون فيها[٤].

قد تكون الحروب في الأندلس أثّرت على قيام الحملة الصليبية الأولى من واقع

---

(١) ماير: ص٣٣.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص١٣٧. ماير: ص٣٣.

(٣) Brundage: Medieval Canon Law and the Crusades: pp23, 24.

(٤) قاسم: ص٤٣.

أنها جزء من العمل الأوروبي المشترك لصدِّ الإسلام، إذ نجد لهذه الحملات صدى شديداً لدى العامة في فرنسا التي كانت على تماس مع فكرة الحرب ضد المسلمين. والواضح أن هناك ارتباطاً ضمنياً لكن وَهناً بين صدِّ المسلمين والحملة الصليبية، إلا أن الحرب في الأندلس لم تكن صليبية بالمعنى التقليدي، وقد أضحت في وقت لاحق مجال نشاط الفرسان الفرنسيين يُعوِّضون بها عن الرحلة الشاقة إلى بيت المقدس التي كانوا يخشونها[1]، واعترف البابوات بهذا الجهد وعدوُّه مساوياً للحملات الصليبية.

ويبدو أن البابا غريغوري السابع هو الذي صاغ فكرة الحرب المقدسة في شكلها النهائي، فأحدث انعطافة نوعية في موقف المسيحية من الحرب. فقد حاول هذا البابا أن يستقطب الفرسان من أجل الحرب المقدسة، وتسخيرها في خدمة الكنيسة، فاستخدم لهذا الغرض المصطلح القديم «قوات المسيح» و«جيش المسيح» ويقصد به رجال الدين الذين يحاربون بوسائل سلمية، كما استخدم مصطلح «قوات القديس بطرس»، ثم تطور هذه المصطلح بحيث تعلَّق بمحاربين مسلحين تابعين للكنيسة، وبذل التحلل لكل من يلقى مصرعه في المعركة من أجل الصليب، ومن الواضح أن الفكرة التي دعا إليها كان محورها الحرب المقدسة الهجومية، وعندما ربط بينها وبين الحرب ضد المسلمين، كان يُجسِّد الفكرة القائلة بضرورة استخدام القوة لحماية شعب المسيح من الأعداء بوصفها سبباً عادلاً لشن الحرب[2]، لذلك عقد الأمل على تنفيذ خطة حملة إلى الشرق أراد أن يقودها بنفسه كي يساعد الامبراطورية البيزنطية المسيحية ضد الأتراك السلاجقة، فدعا الكونت وليم أمير برغنديا، والأمير هنري الرابع وكل الراغبين في الدفاع عن العقيدة؛ إلى الاشتراك فيها. وساد الاعتقاد في أوروبا بأن فكرة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، إثر الانشقاق الكبير بينهما الذي حدث في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)، كان وراء تخطيط البابا، وهي المرة الأولى التي تظهر فيها فكرة إرسال حملة إلى الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط تحت قيادة البابا، لكن الظروف التي كان يمر بها هذا البابا[3] منعته من تنفيذ خطته.

وتبنى البابا أوربان الثاني في كليرمونت خطة سلفه وأضاف إليها فكرة تحرير بيت

(١) ماير: ص٣٨، ٣٩.
(٢) رنسيمان: جـ١ ص١٤٨. Brundage: p28.
(٣) واجه البابا غريغوري السابع، آنذاك، صراعاً مع السلطة الزمنية حول مسألة تنصيب الأباطرة وبخاصة مع الألمان، كما تمسك بالنبلاء الفرنسيين ليواجه بهم الملك الفرنسي في سياسته الكنسية.

المقدس من المسلمين. وعلى الرغم من أن كبار المسؤولين عن الكنيسة لم ينكروا القتال، فإن من المفكرين من ارتاع للحرب علماً بأن الكنيسة قد تأثرت في موقفها من الحرب الصليبية بحركة سلام الرب التي اتخذتها وسيلة تدافع بها عن نفسها في ظل الحروب الداخلية والفوضى التي شهدتها أوروبا عقب انهيار الدولة الكارولنجية.

وكانت قد ظهرت قبل ذلك حركة تدعو إلى السلام من خلال سلام الرب وهدنة الرب، فقد عُقِد مجمع كنسي في شارو اجتمع فيه أساقفة أكويتانيا عام (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) وأصدروا مرسوماً حرَّموا بموجبه مهاجمة ممتلكات الكنيسة والفلاحين والفقراء مع تهديد من ينتهك نصوصه بالوقوع تحت طائلة الحرمان[١]، وتمَّ التأكيد على قرارات هذا المجمع في السنة التالية في لي بويه، إذ أعلن جاي أنجو، أسقف لي بويه، أنه ما لم يتحقق السلام لن يرى أحد وجه المسيح، ولذا حثَّ جميع الرجال على أن يكونوا من دعاة السلام. وأكد مجمع بواتييه في عام (٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) هذا التوجُّه للحد من أضرار الحروب الإقطاعية حيث تقرر تحريم اللجوء إلى السلاح لفض النزاعات، والرجوع إلى القضاء من أجل هذه الغاية، وحرمان كل من يعارض ذلك[٢].

وجرت آنذاك محاولة عملية للحد من القتال والحروب الداخلية تمثَّلت بتحريم القتال في أيام معينة فيما سمي بهدنة الرب. فقبل التمكُّن من إحراز أي تقدم حقيقي في أوروبا، كان من الضروري وقف الحروب الإقطاعية الضارية التي تُمزق أوصال المجتمع، وقد صاغت طبقة الفرسان هوية أفرادها على قاعدة العنف والحرب التي عدَّتها عملاً مجيداً، ولكن ما إن توقفت الغزوات ولم يعد هناك أعداء خارجيون حتى انهار النظام الدفاعي، فبدأ الفرسان والنبلاء يتقاتلون فيما بينهم، فعمَّ الخراب البلاد، ونُهبت الممتلكات والمحاصيل الزراعية، ولمواجهة هذا الوضع أطلقت الكنيسة حركة سلمية سمَّتها «سلام الرب» انطلقت من جنوبي فرنسا. ففي عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) عَقَدَ أوليبا، أسقف ڤيشي، مجمعاً في تولوج في روسيللون، قضى بتحريم الأعمال العسكرية أثناء صلوات السبت، واتسعت هذه الهدنة لتشمل الأيام المقدسة والجمعة اليتيمة وسبت النور ويوم الصعود والمدة الممتدة من عيد البشارة إلى الأحد الأول بعد عيد الغطاس، وخميس العدس، وأسبوع الآلام حتى اليوم الثامن من عيد القيامة، وأضاف وليم الفاتح في عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م) في تشريعاته لنرمنديا المدة الواقعة بين أيام الابتهال واليوم الثامن من عيد العنصرة، كما أضاف

(١) Tierney, Brian: The Middle Ages I, Sources of Medieval History: P136.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص١٣٨.

المجمع المنعقد في تولوج في عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) الأعياد الثلاثة للعذراء وأعياد كبار القديسين[(١)].

واستقرت هدنة الرب منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، إذ سعى مجمع ناربون الذي انعقد في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) إلى التنسيق بين هدنة الرب وسلام الرب، وقرَّر حماية ممتلكات الكنيسة والفقراء من آثار الحرب على أن يعاقب كل من يتعرض لهما بالحرمان، وأن لا يقتل مسيحي مسيحياً لأنه إذا فعل ذلك فكأنه أهدر دم المسيح[(٢)].

يمكن إرجاع الفضل في تطور حركة السلام إلى الرهبان الكلونيين الذين ارتبطوا بحركة الإصلاح الكلونية، علماً بأن المصلحين الكلونيين استهدفوا إصلاح الحياة الديرية والكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابا وذلك بالقدر الذي يُمكِّنها من التصدي للعلمانيين، بالإضافة إلى إصلاح المجتمع الغربي ما يقضي على الحروب الداخلية بين الإقطاعيين.

وأتاح عهد الإصلاح خلال القرن الحادي عشر الميلادي المجال أمام البابوية للأخذ بوسائل القوة من خلال تنظيم حملات عسكرية لعقاب الخارجين على السلام، وقد عدَّتها حروباً مقدسة تُشنُّ في خدمة الكنيسة وتحت رايتها، وكان ذلك سلاحاً سياسياً مهماً في أيدي رجال الكنيسة، وشكَّلت خطوة مهمة نحو بلورة الحرب الصليبية لأن البابوات بدأوا يفكرون جدياً بإرسال حملة إلى الشرق الإسلامي، ودفعتها نحو موقف جديد من الحرب[(٣)]. ففي عام (٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م) قام البابا ليو التاسع (٤٤٠ ـ ٤٤٦هـ/ ١٠٤٨ ـ ١٠٥٤م) الذي يُعدُّ من أوائل البابوات المصلحين، بقيادة جيش ضد النورمان في جنوبي إيطاليا، وكانت الكنيسة تضعهم في درجة قريبة من الكفار، وقد وعد المشاركين الألمان في الحملة بغفران جرائمهم وإعفائهم من عقوبة التوبة، ويقترب هذا كثيراً من وعود عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، وهي أقرب إلى تصريحات ليو الرابع ويوحنا الثامن. وحاول البابا نيقولا الثاني (٤٥٠ ـ ٤٥٣هـ/ ١٠٥٨ ـ ١٠٦١م) أن يحل المشكلة النورمانية نهائياً فتحالف مع زعيمي النورمان ريتشارد أمير كابوا وروبرت جويسكارد، وطلب هذان الزعيمان من البابا مقابل ذلك أن يُقطعهما أملاكهما، وبذلك أصبحا تابعين للكنيسة، ورتَّب عليهما وضعهما الجديد تأدية الخدمة العسكرية لسيد الإقطاع (البابا)، فحصلا بذلك على

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص١٤٠، ١٤١.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) قاسم: ص٤١، ٤٢.

موافقة الكنيسة للقيام بالحرب المقدسة بصيغة دينية ضد الكفار. وهكذا حازت الكنيسة على قوات جيش الإقطاع، ويُعدُّ ذلك كافياً لحماية دولة الكنيسة التي كان باستطاعتها استخدام هذه القوات من أجل حرب مقدسة، وشكَّلت هذه الوقائع سابقة عملية نضجت من خلالها الحملة الصليبية.

كانت الحرب المقدسة مفيدة لروبرت جويسكارد كما كانت مفيدة للكنيسة، إذ قام الزعيم النورماني بغزو شمالي جزيرة صقلية تحت راية الحرب المقدسة بوصفها موجَّهة ضد المسلمين في الجزيرة، والمثال الأكثر وضوحاً من الحروب النورمانية، يتجسَّد في الحرب ضد المسلمين في الأندلس.

إن النقاش الذي دار حول فكرة الحرب الصليبية قد يكون اتسم بالمبالغة في أهمية الحرب المقدسة كما صوَّرتها الكنيسة، لكن على الرغم من ذلك فقد شكَّلت أحد جذورها.

الفصل الثاني

الظروف التاريخية لنشوب الحروب الصليبية

تمهيد

إن الحروب الصليبية ظاهرة تاريخية معقدة ولا يمكن تفسيرها على ضوء عامل بعينه مثل العامل الديني أو طمع زعماء الصليبيين في امتلاك الأراضي، أو الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتدهور الذي عانى منه الفلاحون، أو رغبة التجار في الحصول على الامتيازات التجارية، أو أطماع البابوية الدينية والسياسية، أو غيرها، كما لا يمكن شرحها بمعزل عن البيئة الأوروبية التي ظهرت فيها وانطلقت منها في القرن الحادي عشر الميلادي، وما صادفته من الظروف التاريخية في المشرق الإسلامي ما أدى إلى نجاحها؛ لذلك لا بد لنا من التعرف على بيئة هذين العالمين الغربي والشرقي وأوضاعهما عشية قيامها، وإبراز نوع القوى الأساسية التي استجابت لها والتي شكَّلت حضارة العصر الوسيط، لأن هذه الحروب كانت نتاجاً لهذه القوى كما كانت حافزاً للقوى التي تصدَّت لها.

أوضاع أوروبا الغربية عشية نشوب الحروب الصليبية

سمات المجتمع الأوروبي

شكَّلت الحروب الصليبية انعطافة مهمة في تاريخ أوروبا الغربية، إذ كانت الحروب الأولى التي خاضها الأوروبيون تحت راية عقيدة بعينها اعتنقتها القوى الاجتماعية في الغرب الأوروبي وفسَّرتها تفسيراً خاصاً، وأظهرتها التفاعلات بين الإقطاع والكنيسة التي كانت تسعى إلى تحقيق الأهداف الكنسية التي بلورتها البابوية من خلال نزاعها مع الامبراطورية، وتتركَّز أساساً حول السيادة المطلقة للبابا على العالم الأوروبي المسيحي.

وكانت الحروب الصليبية من ناحية أخرى محاولة لتحقيق أهداف العلمانيين الذين خضعوا للنظام الإقطاعي سواء كانوا من النبلاء وفرسانهم أو من الفلاحين. فقد كان الفرسان يهدفون إلى توسيع سلطانهم وأملاكهم على حساب الملكية، فاصطدموا بها في الوقت الذي كانت فيه البابوية تحارب الملكية من أجل السيادة. وتطلَّع النبلاء

الإقطاعيون إلى تنمية سلطتهم الإقليمية على حساب الملكية، ولعل هذا ما دفع البابا أوربان الثاني إلى أن يُوجِّه خطابه إلى الفرسان الفرنسيين بالذات لأن فرنسا كانت لا تزال آنذاك الدولة الإقطاعية الوحيدة. ورأت القوى التجارية في الحركة الصليبية فرصة للسيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط، ولهذا سارعت بالانضمام للمشروع الصليبي بعد أن أضحى حقيقة واقعة.

الواقع أن القرن الحادي عشر الميلادي كان بداية لمرحلة استمرت ثلاثة قرون تجلَّت خلالها سمات الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ما جعل المؤرخين يصطلحون على تسميتها باسم العصور الوسطى العالية[١]، شهدت بدايتها ظهور قوى ذات أهداف متباينة أخذت تُعبِّر عن نفسها بطريقة حيوية، هي:

- قادة سياسيون أمثال وليم الفاتح ملك إنكلترا والامبراطور الألماني هنري الثالث وابنه هنري الرابع وروجر الأول النورماني ملك صقلية وروبرت جويسكارد وألفونسو السادس ملك قشتالة، وقد جمعوا بين الجندية والسياسة، واتصفوا بالطموح إلى السلطة، ويمثلون التعصب والغدر.
- بابوات أخذوا على عاتقهم إصلاح أوضاع الكنيسة، وسعوا إلى السلطة والنظام والكفاءة أبرزهم رؤساء ديركلوني الأوائل والبابا غريغوري السابع والبابا أوربان الثاني صاحب الدعوة للحملة الصليبية، وقد بلغت البابوية في عهدهم درجة عالية من القوة واتساع النفوذ، ما فتح أمامها آفاقاً واسعة لترتقي بسلطتها إلى درجة العالمية، بمعنى أن يكون البابا خليفة المسيح والقديس بطرس والزعيم الروحي للمسيحيين كافة في الشرق والغرب[٢].
- فلاحون متعبون يبحثون عن أراضٍ زراعية أفضل، فأخذوا يُجفِّفون المستنقعات ويُزيلون الغابات لإعداد أراضٍ جديدة للزراعة.
- بحارة جنوة وبيزا الذين طردوا المسلمين من شواطئ أوروبا مدفوعين بروح حيوية دافقة وحماسة ملتهبة ميزت حركة التاريخ الأوروبي في القرن الحادي عشر الميلادي.
- نسَّاك منزوون في أماكن بعيدة عن العالم وشروره.
- مبشرون ووعَّاظ جوَّالون.
- حجاج متوجهون إلى الأراضي المقدسة في فلسطين[٣].

---

(١) Wolff, Philipp: The Awakening of Europe. Trs, by Anne Carter: p208.

(٢) Vasiliev, A.A: History of the Byzantine Empire II, p397.

(٣) بانتر، سيدني: أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية ص١٠، فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية بإشراف كينيث سيتون، ترجمة سعيد عبد المحسن.

وكان القرن المذكور نقطة تحول في التاريخ الأوروبي انتقل خلالها المجتمع إلى التوسع والتنظيم. لقد بدأت أوروبا الغربية تُدرك أن طاقتها الحضارية النامية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة، فأخذت تسعى لإيجاد مخارج لها، كما بدأت تَفيد من عقول أفرادها في التنظيم الذي كان لا يزال بدائياً. وكانت الحروب الصليبية جزءاً من التوسع والنمو الأوروبي كما أفادت من الشكل الأولي للتنظيم[١].

دوافع الاستجابة للحروب الصليبية

تمهيد: إذا كانت الخلفية الدينية قد جذبت قوى المجتمع الأوروبي إليها، إلا أن دوافع الحروب الصليبية لم تكن دينية فقط على الرغم مما كتبه المؤرخون الأوروبيون قديماً وحديثاً عن الحج والحرب المقدسة، والذين عرَّفوا الحروب الصليبية بأنها حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام[٢]، مع الإشارة بأن الحماس الديني قد فتر في بعض مراحلها ثم تلاشى وسط التيارات السياسية والاقتصادية بخاصة، ثم إن الذين استجابوا لنداء البابا وخرجوا قاصدين الشرق الإسلامي، قد تركوا بلادهم، إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية أو للخلاص من حياة الفقر التي كانوا يعيشونها في ظل النظام الإقطاعي، أو للتهرب من دفع ديونهم المرتفعة، أو محاولة تأجيل سدادها أو فراراً من العقوبات المفروضة على المذنبين، أو لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق التي تفيض لبناً وعسلاً.

دوافع الفرسان: وُجدت في المجتمع الأوروبي في القرن الحادي عشر الميلادي ثلاث طبقات هي: طبقة النبلاء المحاربين، وطبقة رجال الدين، وقد شكَّلوا جناحين، عسكري وديني، وطبقة الفلاحين من الأحرار والأقنان، وظهرت فيما بعد طبقة جديدة نمت في المدن هي الطبقة «البورجوازية» وتتألف من أفراد كان بعضهم من أبناء الشرائح الدنيا من الفرسان الذين لا يملكون أرضاً، والبعض الآخر من المزارعين الأحرار، وكانوا يكسبون رزقهم من صناعة المنسوجات ومن التجارة[٣].

تبلور النظام الإقطاعي وانتشر في القرن الحادي عشر الميلادي وبخاصة في فرنسا، فكان الملك، وهو رأس هذا النظام، يمنح إقطاعات للرجال الذين يُقسمون يمين الولاء له وهم على استعداد لخدمته كجنود محاربين، ويتدرَّج أعضاء هذا

---

(١) بانتر: ص١٠. قاسم: الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية ص٧٤.

(٢) Archives de L'orient Latin I, pp21, 22.

(٣) Pirenne, Henry: Economic and Social History of Medieval Europe: pp42-49.

النظام في سُلَّم من الرتب، فيأتي بعد الملك الأمراء الإقطاعيون المتفاوتون في الأهمية، منهم الكونت والدوق والڤيكونت والبارون والفارس، ولكل منهم أتباع، وعليه التزامات نحو سيده ونحو أتباعه، وقد تحدَّدت من خلال العُرف الإقطاعي الذي يختلف من إقطاعة إلى إقطاعة، ويتمثل الهدف الأساس للنظام الإقطاعي في التعاون في الحرب.

وكان النظام الإقطاعي سياسياً مثلما كان عسكرياً؛ فعندما تُثار مشكلة بشأن العرف الإقطاعي ويتطلب الأمر اتخاذ قرار بشأنها، يتشاور السيد الإقطاعي مع أتباعه، كما يستشيرهم في اختيار زوجة له، وفي إعلان الحرب ضد سيد آخر. ويهتم الأتباع من جانبهم برفاهية سيدهم ورخاء إقطاعته، ويتحتم عليهم القيام بالتزامات معينة اقتصادية في جوهرها، بالإضافة إلى الدعم المادي الذي قد يكون أموالاً أو خيولاً أو دروعاً. وللسيد الإقطاعي، بالإضافة إلى الخدمات التي يدين بها التابعون له، حقوق معينة عليهم وعلى الإقطاعة يتعلق أغلبها بالناحية الاجتماعية. فإذا توفي التابع مخلفاً وراءه ابنة غير متزوجة كوريثة، فإن من حق السيد وواجبه أن يختار لها زوجاً، وعندما يموت التابع تاركاً أطفالاً صغاراً يُعيِّن لهم وصيّاً إلا إذا كان العُرف يمنحه حق الوصاية، وإذا مات أحد الأتباع ولم يترك ورثة تُصادَر الإقطاعة، وعندما ينتهك أحد الأتباع قوانين الإقطاع يُحاكم في محكمة الإقطاعة.

وتطورت أوضاع الفرسان المحاربين من الأسر الإقطاعية في القرن الحادي عشر الميلادي بحيث أتاحت الدعوة الصليبية لهم فرصة ثمينة، ذلك أن ظروف الحياة الشاقة في أوروبا جعلت المغامرة في الشرق أمراً مرغوباً. ودفعت الزيادة السكانية التي شهدتها أوروبا آنذاك، أبناء الطبقة الإقطاعية إلى البحث عن أرض جديدة في الخارج. وكان من السهل إقناع الناس في فرنسا بخاصة، بالهجرة من بلادهم التي سادتها الحروب الإقطاعية وتفشَّت فيها الأوبئة والمجاعات، كما أن القصص التي يرويها العهدان، القديم والجديد، عن خصوبة الأرض المقدسة، شجَّعت أبناء هذه الطبقة على الاشتراك بالحملة الصليبية، ثم إن فرصة الإقطاعيين للغزو داخل بلادهم قد باتت ضئيلة بفعل تخطيط وتثبيت حدود الإقطاعات، ما جعل الحصول على أراضٍ جديدة صعباً إن لم يكن مستحيلاً. وحصر العُرف الإقطاعي حق وراثة الإقطاعة بالابن الأكبر، فتعرض الأبناء الأصغر بذلك للضغوط الاجتماعية، فكان عليهم الانخراط في السلك الكهنوتي أو الانضمام لمنظمة عسكرية رهبانية أو إلى جموع الفرسان الذين لا يملكون إقطاعات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة التنشئة الاجتماعية للفرسان القائمة على القوة والتوسع، وتديُّنهم القاصر على فهم التعاليم

المسيحية على أنها حيازة الذخائر وتقديم الهبات للأديرة والكنائس تكفيراً عن ذنوبهم؛ لأدركنا أن أولئك النبلاء قد وجدوا أنفسهم في وضع حرج بسبب الضغوط التي كانت تُمارسها الكنيسة لفرض سلام الرب، وكان قبولهم بهذا السلام يعني التنكر للأسس التي يقوم عليها وجودهم كطبقة محاربة في حين كان من شأن عدم قبولهم بهذا السلام أن يفقدوا الخلود مع الرب، وهو الأمل الذي كان الجميع يتحركون في إطاره[1].

وفتحت الدعوة للحرب الصليبية أمامهم باباً جديداً، فلبوا نداء البابا وأسرعوا في الاشتراك في الحملة الصليبية لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لهم في الشرق تُعوِّضهم ما حُرموا منه في الغرب، وليس أدلَّ على تغلُّب النزعة الفردية السياسية عند هؤلاء الأمراء، من الخلافات التي شجرت بينهم بشأن اقتسام الغنائم وتأسيس الإمارات وهم في الطريق إلى بيت المقدس، فتخلوا بذلك عن مشاركة الصليبيين الآخرين في متابعة الزحف إلى بيت المقدس، وهو الهدف الأساس للحملة، ما أضرَّ بالمصلحة الصليبية العليا.

دوافع الكنيسة: أضحت الكنيسة الكاثوليكية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، أكثر انخراطاً في الشؤون العلمانية بفعل السياسة التي اتبعها الكارولنجيون من حيث صبغ الكنيسة بالصبغة الإقطاعية، إذ كان شارل مارتل وخلفاؤه يُجبرون الكنيسة على منح فرسانهم إقطاعات في أراضيها على أن يُصبحوا أفصالاً لهم، وجاء وقت أصبح فيه بعض الأساقفة ومقدمو الأديرة أفصالاً للتاج الكارولنجي، وكان بعضهم يقود جيشه الإقطاعي في الحروب ولا يرى في ذلك خرقاً للقانون الكنسي الذي يمنع إراقة الدماء، ثم استخدم هؤلاء بعض أراضيهم إقطاعات يمنحونها لأفصالهم كما يفعل الأمراء العلمانيون، كذلك عمل القساوسة والديريون في خدمة الحكام العلمانيين كمستشارين وإداريين.

انعكس هذا على وضع الكنيسة بعامة والبابوية بخاصة بين بابوية يوحنا الثامن (٢٥٨ ـ ٢٦٩هـ/ ٨٧٢ ـ ٨٨٢م) وبابوية يوحنا الثاني عشر (٣٤٤ ـ ٣٥٣هـ/ ٩٥٥ ـ ٩٦٤م)، فقد اغتيل معظم البابوات بعد يوحنا الثامن. فقد اغتيل هذا البابا، وسُجن البابا ستيفن السادس (٢٨٣ ـ ٢٨٤هـ/ ٨٩٦ ـ ٨٩٧م) حتى لقي حتفه، وكان يوحنا الثاني عشر قد تولى منصب البابوية في الثامنة عشرة من عمره وتوفي بسبب إفراطه الجنسي أثناء نومه مع إحدى عشيقاته، وخُنق البابا بنيدكت السادس في سجنه

---

(١) قاسم: ص٨٤، ٨٥.

Wood, Charis: The Age of Chivarly: p100.

(٣٦٢ ـ ٣٦٣هـ/ ٩٧٣ ـ ٩٧٤م)، وقُتل البابا يوحنا الرابع عشر (٣٧٣ ـ ٣٧٤هـ/ ٩٧٣ ـ ٩٧٤م) في كنيسة سانت أنجيلو[١].

كان لهذا الوضع أثره السيئ على وضع الكنيسة تمثَّل بتراجع الأداء الروحي، والتغاضي عن شرط الكفاءة الروحية فيمن يتولى المناصب الكنسية والديرية من ناحية، كما أضحى الطامعون يبذلون المال للحصول على هذه المناصب، وكانت النتيجة أن معظم رجال الكنيسة كانوا جهلة فاسدين. وإذ تورَّطت الكنيسة في العلاقات الإقطاعية على هذا النحو أضحت المناصب الكنسية تُمثل إغراء للأفراد الذين لا يميلون للعمل الروحي، ولكنهم يرون في الكنيسة وسيلة للحصول على السلطة والثروة[٢].

وتنبَّه بعض المتدينين في القرن العاشر الميلادي لهذا الوضع وأخطاره، فقام أحد هؤلاء، وهو وليم، دوق أكويتانيا، بتأسيس ديركلوني في عام (٢٩٨هـ/ ٩١١م) كما مر معنا، ومن المبادئ الكلونية أنه كان محرماً على الدير أن يمتلك أرضاً بمقتضى الخدمة الإقطاعية، وكل من يهب أرضاً لدير عليه أن يهبها من دون قيد أو شرط إنما مقابل صلوات الرهبان لخلاص روحه فقط.

ودعَّمت البابوية الإصلاحية مركزها بحلول القرن الحادي عشر الميلادي، وسعت حثيثاً للقضاء على الوصاية الدنيوية في النزاع حول مسألة التنصيب الذي يتمثل في أن يُنصِّب الملك الأساقفة وآباء الأديرة التابعين للكنيسة الامبراطورية في وظائفهم الكنسية[٣].

وكثرت في القرن المذكور الأديرة الكلونية التي سرعان ما صار لها نفوذ ضخم مكَّن الكلونيين من قيادة حركة إحياء ضخمة بهدف إصلاح الكنيسة وتحريرها من قيود العلاقات الإقطاعية وسيطرة العلمانيين وبيع الوظائف الدينية وبعث الحياة الديرية من مرقدها، والقضاء على كثير من المساوئ التي استشرت في أوصال الكنيسة الكاثوليكية، بالإضافة إلى إصلاح العالم الأوروبي الغربي من خلال إخماد الحروب الإقطاعية.

وكان لهذا الصراع أثره في توجه البابوية بدعوتها الصليبية إلى المجتمع الفرنسي بشكل خاص[٤] لأن فرنسا كانت آنذاك الدولة الوحيدة التي كان نظام الإقطاع لا يزال سائداً فيها، كما ذكرنا.

---

(١) ديورانت، ويل: قصة الحضارة، مجلد٤ جـ٣ ص٣٧٥.
(٢) ماير: ص١٢. كانتور: التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية والنهاية ص٢٧٠، ٢٧١.
(٣) ماير: المرجع نفسه. بانتر: ص٣٠، ٣١.
(٤) قاسم: ص٨٧.

وتحدَّدت معالم الإدارة المحلية للكنيسة في القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي عدد من البابوات المصلحين، أمثال ليو التاسع (٤٤١ ـ ٤٤٦هـ/ ١٠٤٩ ـ ١٠٥٤م) ونيقولا الثاني (٤٥١ ـ ٤٥٣هـ/ ١٠٥٩ ـ ١٠٦١م). ومن أهم التطور الذي طرأ على تنظيمها هو ما أُدخل على تجمعات رجال الكاتدرائية، إذ كان للأساقفة موظفون إكليروس يساعدونهم في كاتدرائياتهم، وأخذ أعضاء الإكليروس، ذوو الأهمية البارزة، يُكوِّنون مجالس لهم، ومما ساعد على نمو ونشر هذه الحركة ميل العلمانيين إلى منح أبنائهم الذين لا يميلون إلى الحرب، منصب الأسقفية أو منصباً شرفياً في الكاتدرائية. ويتكوَّن مجلس الكاتدرائية من أصحاب الوظائف الأسقفية الرسمية مثل المستشار، وأمين الصندوق، وحافظ خزنة المقدسات، ورئيس الشمامسة، وعدد من القساوسة والكهنة. واستقرَّ وكلاء الأسقف الجوَّالون الذين كانوا يُلقَّبون بكبار الكهنة، ليصبحوا قساوسة أبرشيات، ولهم سلطة رقابية على مرؤوسيهم[١]. وطرأ تطور آخر لتطهير الكنيسة من الفساد تمثل بصدور قرارات ضد المتاجرة بالذخائر المقدسة، وزواج رجال الدين، والعنف، والتحلل الأخلاقي، وإنهاء تدخل العلمانيين في انتخاب البابا وقصر هذا الحق على مجلس الكرادلة، علماً بأن البابا كان يتم اختياره من قِبل القساوسة وشعب روما، ويعني ذلك أن النبلاء الإيطاليين كانوا يتدخلون في اختياره بالشكل الذي يتوافق مع مصالحهم[٢]. وبذلك تمكَّن الإصلاحيون من زيادة سلطة البابا على الكنيسة الكاثوليكية وراحوا يُرسلون المندوبين البابويين في مهمات متعددة إلى شتى أنحاء العالم الكاثوليكي لتأكيد سلطة البابا ما فتح باب الصراع على مصراعيه على السلطة بين الكنيسة والدولة.

وأفرزت محاولة تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية نزاعاً مريراً بين البابوية والامبراطورية الألمانية، واندلعت شرارة هذا الصراع بين البابا غريغوري السابع والامبراطور هنري الرابع، واستمر على مدى سنوات. وكان لهذا النزاع أثره على شكل الحملة الصليبية الأولى، إذ لم تكن حملة الألمان مساوية لحملة الفرنسيين الذين وجَّه البابا أوربان الثاني إليهم خطابه، كذلك كان النزاع العلماني من بين الأسباب التي دفعت البابا للحملة الصليبية[٣].

الواقع أن البابا أراد استغلال الميول العسكرية لفرسان الغرب وتوظيفها في خدمة البابوية بحيث تتحقَّق سيادتها على الامبراطورية، وتسمو الكنيسة في الوقت نفسه،

---

(١) بانتر: ص٢٩.
(٢) المرجع نفسه: ص٣١.
(٣) قاسم: ماهية الحركة الصليبية ص٨٢.

والملاحظ أنه وجَّه دعوته إلى الأمراء الإقطاعيين بفعل ما لهم من ثقل سياسي واقتصادي وليتخذهم وسيلة للتصدي للملوك الذين كان في خصومة معهم.

دوافع الفلاحين وعامة الشعب: وغلب الطابع الريفي على الحياة في أوروبا الغربية وكانت الحرفة الأساسية هي الزراعة، لذلك كانت أوضاع المجتمع تتأثر بالوضع الزراعي ما يعني أنه لو حدث انهيار للمحصول المحلي فسوف يؤدي ذلك إلى المجاعة. ففي عام (٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) تعرَّض هذا المجتمع لأزمة اقتصادية حادة نتيجة فشل الإنتاج الزراعي في سد حاجات السكان، بلغت ذروتها في عام (٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م)، فاشتدت المجاعات، وتدنى المستوى الصحي، وتعرَّض الناس وبخاصة الفقراء للأمراض، وتفشَّت الأوبئة، وارتفعت نسبة وفيات الأطفال.

كانت أساليب الزراعة متخلفة وعاجزة عن تلبية حاجات السكان المتزايدة في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد جرت العادة على تقسيم أراضي القرية إلى حقلين كبيرين تتم زراعتهما بالتناوب، فيزرع أحدهما ويُترك الآخر لإراحته، ثم طرأ تطور جديد يتمثل في تقسيم أراضي القرية الصالحة للزراعة إلى ثلاثة حقول، فيُزرع حقلان ويُحرث الثالث ويُترك لإراحته، والهدف من ذلك هو أن تُترك ثلث مساحة الأرض سنوياً لتجديد خصوبتها. وتُقسم الحقول الكبيرة إلى قطع صغيرة مشرَّطة طويلة وضيقة. ولكل منزل عدد متساوٍ من الشرائط في كل حقل، كما كانت هذه الأساليب بدائية وغير فعَّالة، فالمحاريث ثقيلة ومتخلفة، والعدة التي تُجهَّز بها الثيران رديئة التصميم، لذلك كان يلزم لجر المحراث بين أربعة وثمانية ثيران علماً بأن الفلاح كان لا يملك عادة أكثر من ثلاثة ثيران، وأدَّت حركة الثور البطيئة إلى صغر مساحة الأرض التي يمكن لعدد من الثيران حرثها.

ويتعاون الفلاحون بجمع المحصول في شريط حقلي، ما فرض نوعاً من التكافل في الأعمال الزراعية، وتُقسم المحاصيل بين الفلاحين وفقاً لمساحة ملكياتهم. ولا شك بأن هذا النظام كان يسبب المشكلات إلا أنه يبقى أفضل من أن يتفرد كلٌّ بعمله[(١)]، والمحصول الوحيد الذي كان يُزرع هو الحبوب[(٢)].

لم تكن الأرض الزراعية تنال من السماد سوى فضلات الماشية التي ترعى على الأرض التي تحرثها، وذلك بفعل جهل الفلاحين بوسائل تقوية التربة وزيادة خصوبتها ما أدى إلى نتائج سلبية منها: قِلَّة إنتاج الحبوب من حيث إنتاجية الفدان الواحد ومن حيث نصيب كل فرد، وهذا يعني أن الناس في أي قرية لا بد أن

---

(١) Coulton, G,G: The Medieval Scene: pp4-6.

(٢) بانتر: ص١١.

يعملوا على الاستفادة من كامل الأرض التي يمكن حرثها وزراعتها.

وكانت الزراعة تتجه إلى التنوع في ظل النظام الإقطاعي بدلاً من التخصص في محصول واحد، ومرد ذلك يرجع إلى طبيعة نظام الاكتفاء الذاتي للقرية أو الضيعة الإقطاعية التي كادت أن تكون وحدة اقتصادية واجتماعية ودينية وسياسية وتُكوِّن عالماً قائماً بذاته[(١)]. وكان هناك نقص حاد ودائم للمروج وبالتالي للتبن، وقد أثَّر ذلك على بقاء مجموعة ثيران الحرث والقليل من الماشية على قيد الحياة خلال فصل الشتاء، والمراعي فقيرة عادة.

لم يكن الفلاحون هم أصحاب الحرفة الوحيدة في الريف الأوروبي، وتتنوَّع الأعمال بين من يعمل على المحراث من الأقنان ومن يرعى الأغنام والثيران، كما كان هناك من يصطادون السمك، ويستخرجون الملح فضلاً عن الأساكفة والخبازين والتجار المحليين، واقتصرت الصناعات على حاجيات السكان اللازمة لحياتهم والتي اتسمت بالبساطة[(٢)].

وفرض النظام الإقطاعي على طبقات المجتمع نوعاً من التخصص، فاختصت طبقة النبلاء بالحرب وشُغلت بالصيد البري في الغابات، ولم يكن مطلوباً من الطبقة المنتجة أن تشاركها أعباء القتال. وبفعل أن الفلاحين الأحرار والأقنان وسكان المدن الناشئة من البورجوازيين، يُشكِّلون الغالبية الساحقة في المجتمع، فقد أتاح ذلك وجود قوة منتجة هائلة، لكن حصتهم من الإنتاج تختلف من منطقة إلى أخرى.

وتوطَّد النظام الإقطاعي واستقر في نهاية الربع الثالث من القرن الحادي عشر الميلادي في إنكلترا وفرنسا وغربي ألمانيا، فكان الفلاحون في هذه المناطق مرتبطين بشكل من أشكال الإيجار مع السيد الإقطاعي أو يخدمون في أرضه، والغالبية الساحقة منهم أقنان مرتبطون بالأرض ولا يتمتعون بحقوق الملكية[(٣)]. وكان عليهم وفقاً لنظام الإقطاع أن يُنفقوا على الطبقة الإقطاعية والأساقفة والجنود، فأُثقلوا بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات.

ويملك الإقطاعي صاحب القرية مصادر الثروة العامة فيها، ويتقاضى من مستأجريه ما يقابل استخدامهم لها، وقد تشغل مساحة أرضه الزراعية ثلث مساحة الأراضي الخاصة بالزراعة، وشرائط في الحقول يزرعها القرويون له، ويحصدون المحاصيل ويخزنونها في مخازن الحبوب الخاصة به، ويعطونه نسبة من محاصيلهم التي تنمو في شرائطهم الخاصة. ويُحدد السيد الإقطاعي الإيجارات والخدمات

---

(١) قاسم: ص٧٩.

(٢) المرجع نفسه: ص٧٩، ٨٠.

(٣) بانتر: ص١٣.

بوصفه المالك للأرض، ويتمتَّع بسلطات واسعة هي في جوهرها حقوق سياسية وقضائية واجتماعية.

وكان الفلاحون من حيث المستوى الثقافي بدائيين، والجهل هو السمة الغالبة عليهم، وهذه البدائية وهذا الجهل اللذان يُميزان حياة الريف كانا نتيجة طبيعية لحياة العزلة التي عاشتها القرية الأوروبية آنذاك، وعلى مدى قرون قبل القرن الحادي عشر الميلادي، وكان رجال الدين هم فقط الذين يعرفون القراءة والكتابة.

الواقع أن الفلاحين عاشوا عيشة مذلة ومنحطة حيث شيَّدوا لأنفسهم أكواخاً قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غُطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش من دون أن تكون لها نوافذ باستثناء فتحة في السقف يخرج منها الدخان المنبعث من المواقد، ولا تحتوي إلا على صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية البسيطة، وكان معظمهم من العبيد والأقنان الذين ارتبطوا ارتباطاً وراثياً بالأرض التي يعملون فيها، وحُرموا من مبادئ الحرية الشخصية، فكل ما يجمعه القن يُعدُّ ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي(١).

وزادت حروب الإقطاعيين كمداً، فانعدم الأمن الذي كان من أهم أسباب القلق النفسي الذي تميز به المجتمع الإقطاعي في أوروبا عشية الحروب الصليبية. وعلى الرغم من أن المجتمع الأوروبي بدأ يتحسَّن نسبياً في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي نتيجة زيادة مساحات الأراضي الزراعية من خلال إزالة الغابات وتجفيف المستنقعات، وتهيَّأ للخروج من الأزمة الاقتصادية، إلا أن وضع السكان لم يتحسَّن كثيراً، وذلك بفعل النمو السكاني المتزايد، ولم يُصب التحسن الذي طرأ على الزراعة أوضاع الفلاحين المعيشية باستثناء قِلَّة ممن يملكون محراثاً وثيراناً. ومن ناحية أخرى كان الإقطاعيون غالباً ما يعارضون محاولة إزالة الغابات واستبدالها بالزراعة لأنها كانت مكانهم المفضَّل الذي يمارسون فيه رياضة الصيد، كما أن القرية التي لم تكن تتمتَّع بحماية أحد النبلاء الإقطاعيين كانت عُرضة للسلب والنهب على أيدي الإقطاعيين المتحاربين بفعل الغارات الإقطاعية المتبادلة.

وهكذا كانت الغالبية العظمى من أفراد المجتمع الأوروبي الغربي تحيا حياة شاقة مليئة بالذل والهوان، وكان ذلك في الوقت الذي أعلن فيه البابا أوربان الثاني الدعوة للحرب الصليبية، فوجد الآلاف من البؤساء الفرصة للتخلص من أوضاعهم المتردية معتقدين بأن الأخطار الناتجة عن تلبية الدعوة لا تُقارن بأوضاعهم الشاقة بدون أمل بالخلاص، فإذا ماتوا في تلك الحرب، فإن الموت أحب إليهم من حياة الجوع

---

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ١ ص٣٨.

والعبودية، وإن وصلوا إلى الأراضي المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون أسوأ من حياتهم التي يحيونها في بلادهم، وعليه يمكن أن نفسر الاستجابة الشعبية الهائلة للدعوة الصليبية التي أطلقها البابا المذكور في كليرمونت[(١)].

دوافع المدن التجارية: دفعت المصالح الاقتصادية الخاصة بالمدن الإيطالية، البندقية وجنوة وبيزا وأمالفي وفي غيرها من البلدان، للمساهمة في الحرب الصليبية. وشهد القرن الحادي عشر الميلادي في أوروبا، على الرغم من أنه ريفي الطابع، بدايات متواضعة للصناعة اليدوية، كذلك استمرت المدن في بعض مناطق أوروبا، لا سيما في إيطاليا، في الحفاظ على علاقاتها التجارية مع القسطنطينية، وأخذت تمارس التجارة على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط مع مرسيليا وناربون وبرشلونة. وتصدَّت أساطيل جنوة وبيزا لهجمات المسلمين البحرية على شواطئهما. ولم تلبث البندقية وجنوة أن فرضتا نفسيهما على تجارة البحر المذكور، ثم تحولت هذه المدن إلى جمهوريات مستقلة غير خاضعة لسلطة الكنيسة، وأدَّت اثنتان منها، وهما جنوة وبيزا، دوراً مهماً في الحملة الصليبية الأولى، فعرضتا خدماتهما لنقل الصليبيين إلى الشرق عبر البحر، ونقل المؤن والأسلحة والإمدادات، ومساعدتهم للاستيلاء على الموانئ البحرية في بلاد الشام، وتقديم المساعدة للدفاع عنها ضد هجمات أساطيل المسلمين.

ورأت الجمهوريات التجارية في الحروب الصليبية فرصة، اقتنصتها لتحقيق أكبر قدر من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً، من خلال عقد المعاهدات مع القوى الصليبية في بلاد الشام، حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية مهمة، كما حاولت أن تفوز بثروة الشرق الإسلامي الطائلة، وأن ترث المسلمين في تجارة البحر الأبيض المتوسط، وأتاحت الحروب الصليبية لها أن تُحقِّق هدفها.

وسنرى في صفحات هذه الدراسة أن البندقية لم تتورَّع عن تضليل الحملة الصليبية الرابعة، فوجَّهتها نحو مهاجمة القسطنطينية، البلد المسيحي، بدلاً من أن تتركها في طريقها الطبيعي المرسوم لها ضد المسلمين، وذلك عندما رأت أن مصالحها المادية تتطلَّب مهاجمة العاصمة البيزنطية.

وكان الصليبيون في بلاد الشام لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل المدن التجارية الرئيسة، البندقية وجنوة وبيزا، حيث قامت هذه المدن بربط الصليبيين في بلاد الشام بوطنهم الأم في أوروبا، ولم تلبث مرسيليا في جنوبي فرنسا أن حذت حذوها.

(١) عاشور: جـ١ ص٣٩، ٤٠.

وشكّلت محاولات الفرسان تنيمة مؤسساتهم الإقطاعية طوال القرن الحادي عشر الميلادي، ورجال الدين تطوير مؤسساتهم الدينية وإحكام سيطرتهم على المجتمع الغربي، والفلاحون زيادة الأراضي الصالحة للزراعة من خلال تجفيف المستنقعات وإزالة الغابات، والمدن التجارية استغلال الصليبيين والكنيسة للسيطرة على التجارة؛ خيوطاً في شبكة واحدة للتوسع والنمو وجدت ضالتها في الحملة الصليبية الأولى التي دعا إليها البابا أوربان الثاني في كليرمونت، وما تلاها من حملات.

أوضاع المشرق عشيَّة نشوب الحروب الصليبية

تمهيد

شجَّعت الظروف التاريخية السائدة في المشرق، بعالميه البيزنطي والإسلامي، البابوية على طرح مشروعها الكبير، وإذا كان البابا غريغوري السابع والبابا أوربان الثاني من بعده، قد استغلا أزمة العالم البيزنطي لصالح الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق وحدة الكنيستين الشرقية والغربية تحت زعامة بابا روما، فإن تطورات الأحداث لم تلبث أن غيَّرت هدف الحملة من القسطنطينية إلى بيت المقدس. والواقع أن المرحلة التي شهدت نضوج الفكرة الصليبية في الغرب الأوروبي كانت هي نفسها مرحلة التراجع والتداعي في أوضاع بيزنطية على النحو الذي جعلها تلجأ إلى الغرب اللاتيني، عدوها التقليدي، لطلب المساعدة، وكذلك في أوضاع المسلمين في المشرق وبخاصة في بلاد الشام والعراق الذي أتاح للصليبيين تأسيس إمارات لهم في ربوع الشرق على حسابهم.

تراجع قوة الدولة البيزنطية في القرن الحادي عشر

خصائص القرن الحادي عشر

تمهيد: تُعدُّ وفاة الامبراطور باسيل الثاني في عام (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) انعطافة سلبية في التاريخ البيزنطي، دخلت خلالها الامبراطورية في مرحلة اضطراب سياسي وديني واقتصادي استمرت حتى عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) عندما اعتلى العرش في القسطنطينية ألكسيوس كومنين مؤسس أسرة كومنين. وتشكل هذه المرحلة، التي تَعاقَب على حكمها أباطرة ضعاف، أهم مراحل التاريخ البيزنطي نظراً لأن تطور أوضاعها السلبي أدى إلى قيام الحركة الصليبية في الغرب ومن خصائصها:

- ضعف الأباطرة الذين تعاقبوا على العرش البيزنطي بعد باسيل الثاني، وافتقدوا المقدرة والكفاءة التي تمتع بها أباطرة الأسرة الهرقلية أو الأسرة الإيزورية أو بعض المقدونيين مثل باسيل الأول وباسيل الثاني.
- نشوب النزاع بين الحزب العسكري وكبار الملاكين الأقوياء في الأقاليم، وبين

الحكومة المركزية في العاصمة، الذي انتهى بانتصار الجيش وكبار الملاكين، وتزعَّم ألكسيوس كومنين الفريق الذي أحرز النصر.

ـ محاولة الكنيسة البيزنطية اكتساب القوة وفرض سلطتها على عالم الصقالبة في البلقان ما كان أحد أسباب تفجُّر الخلاف بين كنيستي القسطنطينية وروما والذي أدَّى إلى انشقاق عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م).

ـ تراجع القوة الاقتصادية البيزنطية بسبب الإنفاق المسرف وتقلُّص حجم الواردات.

ـ تعرُّض أطراف الامبراطورية للضغط من قبل النورمان في الغرب والبشناق والغز في الشمال والأتراك السلاجقة في الشرق. وترتب على ضعف الامبراطورية وعجزها عن مقاومة هؤلاء الأعداء أن جرى اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضيها، فتضاءلت مساحتها.

ضعف الأباطرة: لم يُخلف باسيل الثاني ولداً يرثه، فانفرد أخوه قسطنطين الثامن بعرش الامبراطورية (٤١٦ ـ ٤١٩هـ/ ١٠٢٥ ـ ١٠٢٨م)، علماً بأنه كان امبراطوراً اسمياً منذ وفاة والده رومانوس الثاني في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م)، وكان قد بلغ من العمر عتياً جعله لا يهتم بشؤون الحكم، واستمر في حياته الماجنة التي شبَّ عليها محاطاً بالجواري والغلمان الذين ترك لهم تصريف شؤون الدولة حتى وفاته، ولم يترك هو الآخر ولداً يحافظ على إرث الأسرة المقدونية[1]. ويرتبط تاريخ هذه الأسرة بعد ذلك وحتى نهاية عهدها بابنتيه المسنتين الأميرتين زوي العابثة، وتيودورا الراهبة التي أُخرجت من الدير لتشارك أختها العرش. ولم يظهر آنذاك قائد عسكري أو سياسي يمتلك القدرة ويفرض سيادته على الدولة كامبراطور شريك أو يتولى المسؤولية كاملة، وأضحى الحكم بأيدي أزواج الأميرة زوي وأتباعها، وأول هؤلاء رومانوس الثالث أرجيروس، غير أن الشقاق ما لبث أن وقع بين الامبراطور وزوجته واستمر لسنوات عدة، ذلك أن رومانوس الثالث تضاءل تعلقه بزوجته البالغ عمرها ستين عاماً، فأهملها بعد أن تبين له أن لا أمل لهما في إنجاب طفل، وقطَّر عليها ما تبغيه من مال وهي التي اتصفت بالجشع وحب السيطرة، فعاشت في حدود ضيقة وعلى موارد محدودة. ولم يلبث أن وقع نظرها على شاب يدعى ميخائيل من بافلاغونيا قدم إلى القصر الامبراطوري، فلم يسعها إلا أن تتخلَّص من رومانوس الثالث بدس السم له في الطعام حتى تداعت صحته، تلى ذلك اغتياله في (ربيع الآخر ٤٢٥هـ/ نيسان ١٠٣٤م)، وتزوجت من ميخائيل ورفعته على العرش باسم

(١) Diel, Charles et Marçais: Histoire de L'Empire Byzantine: p533.

ميخائيل الرابع (٤٢٥ ـ ٤٣٢هـ/ ١٠٣٤ ـ ١٠٤١م)[١].

اتصف ميخائيل الرابع بالشجاعة، ولكنه كان يعاني من الصرع، وخشي إن توفي أن تفقد أسرته ما اكتسب من السلطان، لذلك ما كاد يعتلي العرش حتى استدعى إخوته وأسكنهم معه في القصر، وعينهم في مناصب الدولة الكبرى، فهيمنوا على مقدراتها وأداروا السياسة الداخلية والخارجية، واشتهر من بينهم الطواشي حنا وقسطنطين.

ولم يلبث الزوجان بعد مدة زمنية قصيرة من الحب والتفاهم أن وقع الشقاق بينهما، وأساء ميخائيل الرابع معاملة زوي، وقيَّد حريتها، غير أن ما كان يعتريه من نوبات صرع أودت بحياته. وعندما ساءت صحة الامبراطور وأشرف على الموت حرص أخوه الطواشي حنا على أن يحافظ على مصيره ومصير أسرته، فألح عليه أن يتخذ ابن أخته ماري ويدعى ميخائيل قسيماً له في الحكم، ففعل، ثم اقترح على زوي أن تتبناه، فلم تُمانع، وتمت المناداة به قيصراً باسم ميخائيل الخامس (٤٣٢ ـ ٤٣٣هـ/ ١٠٤١ ـ ١٠٤٢م)[٢].

لم يحظ الامبراطور الشاب بما حاز أخواله من الصفات الطيبة إنما شاركهم في عيوبهم، فعيَّن والده ستيفن قائداً للأسطول، ولم يكن قبل ذلك سوى عامل تنظيف السفن في الميناء واشتهر بما سبَّبه من هزائم وكوارث بحرية، لكن أكبر خطأ ارتكبه ميخائيل الخامس ما حدث من اصطدامه بالامبراطورة زوي، وقد قيَّد حريتها ووضعها في الإقامة الجبرية في دارها بالقصر، وقطع عنها ما كان يصل إليها من مال الدولة، ثم نفاها إلى دير برينكيبو، غير أن ما اكتسبته العائلة المقدونية من ولاء شعبي جعل من هذه الكارثة حديث الطبقات الحاكمة ورجال الدين، وساور العامة الخوف والقلق على الامبراطورة، فثاروا وطالبوا بعودتها، واضطر الامبراطور للاستجابة لرغباتهم، فأعادها إلى القصر بعد أن انتزع منها وعداً بأن تعود إلى الدير بعد أن تهدأ الأوضاع، غير أن العامة لم تهدأ، ونادت بشقيقتها تيودورا امبراطورة، فأُخرجت من الدير ورُفعت على العرش، وهاجمت الامبراطور وخاله الوزير قسطنطين، فلجآ إلى دير ستوديون، غير أن العامة اقتحمت الدير وطاردتهما خارج الكنيسة، وأصدرت الامبراطورة تيودورا أمراً بسمل عيونهما. وأضحت الحكومة بأيدي سيدتين عجوزتين، غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فقد دبَّ النزاع بين الامبراطورتين بسبب اختلاف طباعهما، وفشلا في إدارة الدولة، فأضحت الحاجة

---

(١) Diehl et Marçais: p534.

(٢) Cambridge Medieval History IV, p105.

Ostrogorsky, G: History of the Byzantine State: pp288, 289.

ماسة إلى أن يكون على رأس الدولة رجل يدير شؤونها، ولما أعرضت تيودورا عن الزواج قبلت أختها زوي أن تتزوج للمرة الثالثة، ووقع اختيارها على السناتور قسطنطين مونوماخوس الذي رُفع على العرش في (ذي القعدة ٤٣٣هـ/ تموز ١٠٤٢م) باسم قسطنطين التاسع (٤٣٢ ـ ٤٤٧هـ/ ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥م)(١).

شهد عهد قسطنطين التاسع أحداثاً جساماً أدَّت إلى انهيار النظام السياسي وزوال الأسرة المقدونية. ففي الداخل، تعرضت الامبراطورية لثورات بعض القادة العسكريين بهدف الوثوب إلى السلطة عِلماً بأن قسطنطين التاسع لم يحفل في الدفاع عن الامبراطورية، فأغفل أمر الجيش، وتزايد استنفاد مالية الخزانة بسبب الإسراف المفرط، واشتد تذمر الناس. نذكر من بين هذه الثورات:

ـ ثورة جورج مانياكس في عام (٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م)، الذي اصطدم بالقوات الحكومية عند أوسترافو في مقدونيا العليا، فأصابه سهم أودى بحياته، ونجت الهيئة الحاكمة في القسطنطينية(٢).

ـ ثورة ليوتورنيكيوس في عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) وسببها تذمر القادة العسكريين الذين طردهم قسطنطين التاسع من الخدمة أو تجاهل ترقيتهم، فتولى قيادتهم ونادوا به امبراطوراً ثم توجَّه نحو القسطنطينية وحاصرها، إلا أنه لم يقم بأي جهد لاقتحامها. ولجأ الامبراطور إلى الحيلة للقضاء عليه، وقهره بما بذل من الرشوة والوعود لقادته في الوقت الذي نفدت فيه الأقوات عند جيشه فانفضوا من حوله ووقع في الأسر، وجرى سمل عينيه مع مساعده فاتاتزس(٣).

وفي الخارج، قضى النورمان على ما تبقَّى من النفوذ البيزنطي في إيطاليا، واتبعت الدولة سياسة إضعاف أرمينيا في الوقت الذي أخذ فيه السلاجقة يُجدُّون في إحياء الدولة الإسلامية فضلاً عن ازدياد التذمر الداخلي من قسوة الضرائب ووقوع القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية.

توفيت زوي عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) ثم لحق بها قسطنطين التاسع عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، فتولت العرش أختها تيودورا وهي آخر من تبقى من الأسرة المقدونية، وعلى الرغم من تقدمها بالعمر إلا أنها امتازت عن أختها بصلابة الرأي(٤).

---

(١) Psellus, M: Chronographia: pp94-96, 99, 101, 102. Diehl et Marçais: pp535-537, 539, 540. Ostrogorsky: p289. Cambridge Medieval History IV, pp106-108.

(٢) Diehl et Marçais: p545. Ostrogorsky: p294.

(٣) Diehl et Marçais: p546. Psellus: pp120-122, 162-164.

(٤) Ostrogorsky: p298.

تعرَّضت الامبراطورة تيودورا لضغط حزب البلاط من أجل اختيار زوج لها، فاختارت البطريق العجوز ميخائيل السادس ستراتيوتيكوس، وهو ينتمي إلى أسرة أرستقراطية واشتهر بحروبه ضد السلاجقة، ولم تتجاوز مدة حكمه سنة واحدة (٤٤٨ ـ ٤٤٩هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٠٥٧م)[١] وتُعدُّ توليته الحكم انتصاراً للحزب العسكري على الحكومة المركزية أثناء مرحلة الاضطراب والانهيار السياسي.

أدرك ميخائيل السادس أن سلطانه لن يتوطد إلا بمساندة الحزب المدني لذلك حرص على اكتساب رضى أعضائه، فأغدق عليهم المنح والامتيازات، ورقَّاهم إلى الوظائف العليا، ما أثار رجال الجيش بقيادة إسحاق كومنين، فأعلنوا الثورة ضده وزحفوا نحو العاصمة، وساندهم البطريرك كريولاريوس والشعب، ودخلوها في (٢٨ جمادى الآخرى ٤٤٩هـ/ ١ أيلول ١٠٥٧م) واعتلى إسحاق كومنين العرش، وهو ينتمي إلى أسرة أرستقراطية عريقة[٢].

اعتلى إسحاق كومنين العرش الامبراطوري وهو يحمل مشاريع إصلاحية عديدة، مثل محاربة الفساد، إعادة تنظيم الحكومة والإدارة، غير أنه واجه من العقبات ما لم يستطع التغلب عليها. فقد اصطدم بالحزب المدني، واختلف مع الكنيسة بزعامة البطريرك كريولاريوس، وأدرك ما يفتقده من أموال التي لا غنى عنها لتحقيق الإصلاح، وذلك بفعل فراغ الخزانة، وشعر بأن أعداء الدولة في الخارج تكاثروا عليها؛ وأدَّت إجراءاته الاقتصادية لتوفير المال من خلال تنفيذ سياسة التقشف، والتشديد في جباية الضرائب، وإلغاء مُنح الأراضي، ومصادرة أملاك الكنيسة، إلى رد فعل سلبي على صعيد الشعب والكنيسة. وحدث نزاع عنيف مع البطريرك كريولاريوس الذي أراد إخضاع الدولة للكنيسة، وهدَّد بعزل الامبراطور، وتعاون مع الحزب المدني للتخلص منه، وما حدث آنذاك من مرض ألمَّ بالامبراطور ودفع اليأس إلى نفسه، فتخلَّى عن العرش في (ذي القعدة ٤٥١هـ/ كانون الأول ١٠٥٩م) ولجأ إلى أحد أديرة ستوديون بعد أن عهد بالحكم من بعده إلى أحد رفاقه قسطنطين دوكاس، فتولى السلطة باسم قسطنطين العاشر (٤٥١ ـ ٤٥٩هـ/ ١٠٥٩ ـ ١٠٦٧م)[٣].

الواقع أن خلع إسحاق كومنين كان بتدبير الوزير الأول الفيلسوف بسيللوس

---

(١) Ostrogorsky: p298.

(٢) Psellus: p213. Diehl et Marçais: p553. Bréhier, L: L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Croisades: pp262-266.

(٣) Diehl et Marçais: p556. Cambridge Medieval History IV, p324.

والبطريرك ليخوريس الذي خلف البطريرك كريولاريوس بعد وفاته، وكان هدف الأول السيطرة على سياسة الدولة، فكان له ما أراد، فقد اتخذه الامبراطور مستشاراً واختاره مؤدياً لابنه وولي عهده، واعتمد عليه في كل شؤونه.

وبفضل سياسة التقارب مع الحزب المدني والابتعاد عن الحزب العسكري وإهمال الجيش وإنقاص عديده ونفقاته ما اضطر أفراده إلى التخلي عن أسلحتهم وأصبحوا رجال قانون أو مُحلَّفين؛ اكتمل تفكُّك الجيش البيزنطي في عهد قسطنطين العاشر دوكاس، في الوقت الذي تعرَّضت فيه أطراف الامبراطورية لضغط الأعداء من الجهات كلها، ولعل ذلك من أبرز أخطائه(١).

انتقل الحكم بعد وفاة قسطنطين العاشر دوكاس إلى زوجته إيدوسيا بالوصاية على أبنائها الصغار ميخائيل وأندرونيكوس وقسطنطين. وتنامت في هذه الأثناء سلطة بسيللوس والقيصر حنا دوكاس شقيق الامبراطور الراحل اللذين كانا يُسيِّران أعمال الحكومة. وما جرى من اصطدامات مع الأعداء في مناطق الحدود أدَّت إلى تناقص أطرافها، أن اشتدت الحاجة إلى قيام حكومة عسكرية، ويبدو أن الامبراطورة أدركت ذلك، فتزوجت من القائد رومانوس ديوجينوس، من زعماء كبادوكيا، فاعتلى العرش في (صفر ٤٦١هـ/ كانون الأول ١٠٨٦م)(٢).

اشتهر هذا الامبراطور بخبرته العسكرية وتمرسه في أعمال القتال، فبادر فوراً إلى التصدي للسلاجقة المغيرين على أرمينيا، غير أنه فشل في ردهم ووقع أسيراً في يد عدوه السلطان السلجوقي ألب أرسلان، ولم تنجح محاولته، بعد إطلاق سراحه، في إنقاذ الموقف الداخلي المتدهور، ولعل لذلك علاقة بما أعده بسيللوس من خطط خفيَّة ضده. وجرى في نهاية الأمر عزله والقبض عليه وسمل عينيه، ولم يلبث أن توفي متأثراً بجراحه في عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م)(٣).

وتولت الامبراطورية إيدوسيا الحكم مع ابنها الأكبر ميخائيل دوكاس، غير أن الابن وضع أمه في الإقامة الجبرية في أحد الأديرة وانفرد بالحكم باسم ميخائيل السابع. ويُعدُّ عهده البداية الفعلية لتفكُّك الامبراطورية، إذ اندلعت الفتن والثورات في كل مكان، فنادى نقفور برينيوس، حاكم دورازو على الشاطئ الأدرياتيكي، بنفسه امبراطوراً في الوقت الذي رفع أعيان آسيا الصغرى وسادتها نقفور بوتانياتس على العرش، فعزل ميخائيل السابع وهزم جيش برينيوس(٤).

---

(١) Ostrogorsky: p302. Baldwin: p198.

(٢) Ostrogorsky: p302-304.

(٣) Ostrogorsky: p305.

(٤) Ostrogorsky: p199. Cambridge Medieval History IV, pp326-328.

وعلا في غضون ذلك نجم ألكسيوس كومنين قائد جيش نقفور بوتانياتس فطرده من الحكم، وفي الوقت نفسه أعلن نقفور مليسينوس العصيان في آسيا الصغرى، ولم يستقر الأمر إلا بعد انتصار ألكسيوس كومنين سنة (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) واعتلائه العرش[1].

الواقع أنه خلال المدة من عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م) حتى تولي ألكسيوس كومنين السلطة، عمل الأباطرة البيزنطيون باستثناء إسحاق كومنين ورومانوس الرابع ديوجينوس على إضعاف قوة الجيش بهدف إضعاف قوة القادة العسكريين الطامعين في السلطة، وأدَّت الجهود التي بُذلت من أجل ذلك إلى حروب داخلية متصلة، وزاد الأمر خطورة بفعل ما تعرَّض له الجند النظاميون من أوضاع بالغة السوء، فقد افتقروا إلى التجهيزات العسكرية، وإلى الفرسان، وتعرَّضوا للإهمال، فتضاءل بذلك شأنهم، وأضحى الجيش البيزنطي في القرن الحادي عشر الميلادي يعتمد على المرتزقة الأجانب، ولما كان هؤلاء تتحكم فيهم مصالحهم الخاصة فقد فاق ما أوقعوه من الضرر على ما أدُّوه من خدمات.

وهيأت الحروب الداخلية وتراجع القوة العسكرية، الفرصة للسلاجقة لأن يوطِّدوا نفوذهم في آسيا الصغرى بعد أن اجتاحوها ووصلوا إلى نيقية القريبة من القسطنطينية ما دفع ألكسيوس كومنين إلى التماس المساعدة من الغرب الأوروبي لردهم، وكان ذلك سبباً لطرح فكرة الحرب الصليبية من قِبَل البابا أوربان الثاني.

الصراع بين الحزبين العسكري والمدني: ظهرت في بيزنطية بعد وفاة باسيل الثاني مشكلة جديدة تمثَّلت في الصراع بين الأرستقراطيتين المتنافستين على الحكم؛ الأرستقراطية المدنية في العاصمة والأرستقراطية العسكرية في الأقاليم، وعلى الرغم من أن الأرستقراطية الثانية تُعدُّ أقوى إلا أنها فقدت مكانتها على يد باسيل الثاني، وبذلك تسلَّمت الأرستقراطية الأولى الحكم، وحافظت على تفوقها سنوات عدة، ولم تكن مؤامرات القصر سوى المظهر الخارجي لحكمها[2]، ذلك أن ما جرى من تنافس بين زعمائها أفضى إلى زعزعة الوضع الداخلي.

الواضح أنه خلال السنوات الواقعة بين عامي (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) و(٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، تركَّزت محاولات العائلات الثرية والوزراء، سواء كانوا من الطبقة الأرستقراطية أو من طبقة أدنى منها، في حماية مكتسباتهم من خلال العمل على إضعاف خصومهم، ولا شك بأن دولة مثل الامبراطورية البيزنطية تقوم على الحكم

---

(١) هسي، ج.م: العالم البيزنطي ص١٥٠.

(٢) العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية ص٧١٦.

الفردي، فإن الأمور كلها تصبح بيد الامبراطور شرط أن يتمتع بالمقدرة والقوة، ومن ثَمَّ فقد اشتد العداء القائم بين الحزب المدني الحاكم وبين الحزب العسكري في عهد الامبراطورتين زوي وتيودورا وخلفائهما المباشرين، وترك بصمات واضحة على السياسة العامة للامبراطورية.

فعندما اعتلت الامبراطورة تيودورا العرش البيزنطي، عمدت، حتى تحافظ على عرشها، إلى إحباط كل القرارات لفرض السيطرة عليها، وطردت طائفة من كبار القادة العسكريين، وقرَّبت طواشية القصر الذين أضحت السلطة في أيديهم، وكبحت جماح الحزب العسكري، وعزلت اثنين من كبار زعمائه، وعهدت بتصريف شؤون الدولة إلى أحد رجال الكنيسة[١].

وعمدت الحكومة المدنية إلى تقليص نفقات الجيش، وتحويل الجنود الفلاحين إلى دافعي ضرائب لاستنباط موارد جديدة، ومن تبقَّى جرى إغراؤهم بالإعفاء من الخدمة العسكرية مقابل تأدية مبلغ من المال، فانهارت الإقطاعات العسكرية، وتضاءل عدد الجنود الوطنيين وكثر عدد الجنود المرتزقة، وفقدت الثغور طابعها العسكري، وتحدَّدت سلطة قائد الثغر، وارتفع شأن الحاكم المدني ممثل السلطة المدنية، وما حدث من تدمير نظام الثغور ليس إلا دليلاً على تفكُّك النظام الحكومي الذي قامت عليه عظمة بيزنطية في القرون السابقة[٢].

كان رد الفعل العسكري على تسلط الارستقراطية المدنية، ونشوب الاضطرابات والفتن وانتشار الفوضى، وتدمير القوة العسكرية؛ أن قام بعض القادة العسكريين بثورات ضد الحكومة المركزية، مثل ثورة جورج مانياكس في عام (٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م) وهو أحد أنبه قادة الجيش البيزنطي، وثوروة ليوتورنيكيوس في عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) وهو أحد ضباط الجيش.

وما جرى في عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) على يد الامبراطور ميخائيل السادس من اتخاذ موقف العداء من القادة العسكريين الذين قدموا إلى العاصمة للحصول على مثل ما حصل عليه زعماء الحزب المدني من الامتيازات الحكومية، وصَرْفِهم من مجلسه بطريقة مهينة؛ أدى إلى سخطهم، فقرَّروا الإطاحة بالامبراطور واستلام الحكم، وكانوا بزعامة ثلاثة قادة هم: إسحاق كومنين وكاتاكلون كيكاومنيوس، دوق أنطاكية، وبرينيوس[٣]، والتمسوا قائداً من بينهم هو إسحاق كومنين، وقد توسَّموا فيه المقدرة والقوة، فزحف نحو العاصمة على رأس قواته، وتغلَّب على المقاومة التي أبداها

---

(١) Ostrogorsky: p293.   (٢) Ibid.

(٣) Psellus: pp303, 304. Cambridge Medieval History IV, p230.

ميخائيل السادس، وسانده الشعب والكنيسة، فاضطر الامبراطور إلى التخلي عن الحكم. ودخل إسحاق كومنين العاصمة وتُوِّج امبراطوراً، وهو أول امبراطور من رجال الجيش منذ وفاة باسيل الثاني. وكان ذلك انتصاراً للجيش على الحزب المدني[١].

وتناوبت الأرستقراطيتان المدنية والعسكرية الحكم بعد ذلك في ردود فعل متعاقبة حتى وصول ألكسيوس كومنين إلى الحكم. فقد مثَّل إسحاق كومنين الارستقراطية العسكرية في آسيا الصغرى في حين مثّل خلفه قسطنطين العاشر دوكاس الارستقراطية المدنية، وكان رومانوس الرابع ديوجينوس قائداً عسكرياً، وترتَّب على كارثة مانزيكرت التي تعرَّض لها أمام السلاجقة أن تهيأت الفرصة للحزب المدني أن يسيطر على الحكومة، فرفع ميخائيل السابع على العرش، ثم تفكَّكت الحكومة المركزية وراح قادة الأطراف يتنافسون على اعتلاء منصب الامبراطور، ولم يستقر الوضع إلا بعد انتصار ألكسيوس كومنين كما ذكرنا.

الانشقاق الديني: أخذت كنيسة القسطنطينية تستحث الخطى نحو القوة في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد ساعدها على ذلك تقلُّص نفوذ الكنائس الشرقية المنافسة لها في أنطاكية والإسكندرية وبيت المقدس، فقد فرضت سلطتها على قسم حيوي من عالم الصقالبة في البلقان الذين كان تناولهم للمعمودية المسيحية من يد المبشرين البيزنطيين، وهذا يعني خضوعهم للسيادة الكنسية لبطريرك القسطنطينية.

وتفجَّرت الخلافات بين كنيستي القسطنطينية وروما والمتمثلة في التقاليد والطقوس الكنسية والمبادئ اللاهوتية، لتخدم مصلحة بطريرك القسطنطينية المتصلب ميخائيل كريولاريوس الذي ازداد ثقة بنفسه إلى حد الغرور، وعلى القدر نفسه من الغطرسة كان الكاردينال همبرت المندوب البابوي الذي جاء إلى القسطنطينية ليبحث مع بطريركها المسائل المعلَّقة، ومن ثَمَّ كان لا بد أن ينفجر الصراع بينهما، وقد جرى ذلك في الوقت الذي كانت فيه الأوضاع تُحتِّم أن تنتهج كل من الامبراطورية البيزنطية وروما سياسة مشتركة للتصدي للزحف النورماني على جنوبي إيطاليا.

وشعرت بيزنطية بالحاجة إلى امبراطور قوي يواجه الموقف المتأزم، فقد عجز قسطنطين التاسع عن كبح جماح البطريرك كريولاريوس في حين ألقى الكاردينال همبرت قرار الحرم الكنسي على مذبح كنيسة آيا صوفيا، ولكن أياً من الطرفين لم يُدرك آنذاك أبعاد وخطورة الموقف[٢].

---

(١) Diehl et Marçais: p553. Brehier: p266.

(٢) Runciman, S: The Eastern Schism: pp44, 45. Ware, T: The Orthodox Church: pp51, 67.

الواقع أن هذا الصراع الذي حدث في عام (٤٤٦هـ/١٠٥٤م) قد لا يكون بالضرورة نهائياً، وربما كان ممكناً أن تلتئم الجراح فيما لو أن روما لم تستقطب النورمان الذين اكتسحوا أملاك الامبراطورية البيزنطية في جنوبي إيطاليا لتدفع بالعلاقات بينها وبين القسطنطينية إلى مرحلة الانفجار. فقد اتفق النورمان في عام (٤٥١هـ/١٠٥٩م) مع البابا نيقولا الثاني، فتقرر الاعتراف بزعيمهم روبرت جويسكارد أميراً على أبوليا وكالابريا والإمارات اللومباردية، على أن يعترف بسيادة البابا وأنه إنما يتولى حكم هذه الإمارات من قِبَله[١]، علماً أن جنوبي إيطاليا كان آنذاك مسرحاً يتنازعه المذهبان الأرثوذكسي التابع لبطريرك القسطنطينية والكاثوليكي التابع للبابا في روما، وكان هذه الانقسام المذهبي نتيجة تنوع التركيب السكاني في هذه المنطقة التي يقيم فيها اليونان واللاتين معاً.

أدَّى هذا الانشقاق الديني بين الكنيستين الشرقية والغربية إلى توجيه ضربة عنيفة للامبراطورية البيزنطية حطَّمت حياتها السياسية، وقضت على كل أمل في حصول تفاهم مستقبلي بين بيزنطية والغرب، نظراً لأن البيزنطيين كانوا بحاجة ماسة إلى مساعدة الغرب ولا سيما بعد أن أخذ السلاجقة يُهدِّدون أملاكهم في الشرق. ويبدو أن هذا الانشقاق هو الذي مهَّد الطريق لسقوط الامبراطورية البيزنطية بعد أن فشلت الجهود المبذولة في سبيل إعادة الوفاق واللحمة بين الامبراطورية والغرب، وترتَّب على هذا الانشقاق أيضاً ضياع جنوبي إيطاليا، وفقدت البابوية الثقة بالأباطرة البيزنطيين والركون إليهم.

تراجع الاقتصاد البيزنطي: اتضح ضعف السلطة المركزية في معالجة الشؤون الاقتصادية، ذلك أن باسيل الثاني اشتهر بسياسته الاقتصادية الصارمة على الرغم مما اتصف به من الشح والبخل، أما أخوه قسطنطين الثامن وابنته زوي وزوجها قسطنطين التاسع، فقد انحطت سمعتهم نتيجة إسرافهم الشديد وبذخهم المفرط، وتمثل ذلك في الإقدام على إعادة بناء كنيسة سان جورج الشهيد ثم هَدْم ما بُدئ به وإعادة البناء مرة ثانية على طراز بالغ الفخامة. وكان الذهب ينساب من الخزانة كالينبوع الذي لا ينضب[٢].

وكان البذخ الامبراطوري وحده كافياً لخلق المتاعب. وشهد هذا القرن ارتفاع نفقات الإدارات الامبراطورية بفعل أن الحكومة كانت تُنشئ باستمرار وظائف جديدة في الإدارة المدنية.

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) Psellus: p189.

وفي الوقت الذي كان فيه الإنفاق الداخلي يتزايد، كان الدخل يتناقص لأسباب عدة أهمها:

ـ العجز عن السيطرة على الأقوياء من الأعيان، وإذا كان باسيل الثاني قد جعل المسؤولية الجماعية في دفع الضرائب عن الفقراء أمراً ميسوراً، فإن هذه المسؤولية توارت في عهد رومانوس الثالث الذي ربما لم يكن له من القوة ما يُرغم به هؤلاء على الاستمرار في تحملها، وعلى هذا النحو حُرمت الخزانة من أحد مصادر الدخل.

ـ عهدت الحكومة المركزية إلى جماعة الملتزمين بجباية الضرائب التي تعود إليها أصلاً، ومن ثَمَّ عانت كل من الولايات والدولة من جراء ذلك، الأولى ناءت بما أثقل كواهلها، ولم تحصل الثانية من تلك الضرائب الباهظة إلا النزر اليسير.

ـ عانت السلطة المركزية من الإعفاءات والاستثناءات التي كانت تُمنح لبعض الشخصيات والمؤسسات. فقد تمتعت ضياع الإقطاعيين وأراضي الأديرة والكنائس بامتيازات خاصة مثل الإعفاء من دفع ضرائب معينة أو تأدية خدمات إلزامية، ومنح الأراضي لبعض الشخصيات البارزة نظير ما أدوه من خدمات، فيتولون إدارتها والتصرف فيها والحصول على ريعها، طيلة حياتهم بمعزل عن الإدارة المركزية، وهو النظام المعروف باسم البرونويا. وقد أسهم التوسع بمنح الإقطاعات في نمو الضياع الكبيرة وفي تطور النظام الإقطاعي، وفي تداعي صغار الملاك من الفلاحين وكذلك الجند الفلاحين الذين تحولوا إلى مجرد مستأجر تابع في ضيعة كبيرة، وكان لذلك تأثير واضح على الناحيتين المالية والدفاعية، كما أنه أدى إلى إحداث تغييرات في البناء الزراعي للامبراطورية من واقع إضعاف العنصر الحر، ومع ذلك فإن تداعي الفلاحة الحرة يرجع إلى أطماع الطبقة الأرستقراطية وميلها إلى السيطرة، فاستخدمت ثروتها وامتيازاتها كي تستحوذ على ما في أيدي الفلاحين من أراضي.

ـ عمدت الحكومة البيزنطية إلى تخفيف قيمة العملة لسد العجز المالي، ما كان سبباً في تدهور الاقتصاد البيزنطي، علماً بأن المركز الذي بلغته القسطنطينية في التجارة الدولية يعود في الدرجة الأولى إلى الثقة في قيمة عملتها الذهبية النوميزيا أو البيزنط. وأخذ تخفيض العملة يظهر منذ عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) تحت دعوى الإسراع بعلاج الأزمات المالية عندما فَقَدَ البيزنطيون أراضي آسيا الصغرى بسبب فتح السلاجقة لها. وترتبط فكرة تخفيض العملة بقسطنطين التاسع.

اقتطاع أطراف الامبراطورية: تعرَّضت الامبراطورية البيزنطية في القرن الحادي عشر الميلادي للخطر من جانب أعداء جدد أكثر حيوية وجرأة وأشد تصميماً على

تدميرها والسيطرة على أراضيها، وكان ظهورهم في وقت حرج للامبراطورية التي كان يعتلي عرشها أفراد أقل كفاءة ومقدرة من أن يملأوا الفراغ السياسي والعسكري، وكان أهم هؤلاء الأعداء الجدد: البشناق والغز في الشمال والنورمان في الغرب والأتراك السلاجقة في الشرق.

والبشناق قبائل بدوية من أصل تركي عرفهم البيزنطيون قبل القرن الحادي عشر الميلادي، كانوا يجوبون منطقة السهول الواقعة بين مصبي نهر الدنيبر ونهر الدانوب، وعدُّوهم من أهم الشعوب التي تجاورهم من جهة الشمال لأنهم كانوا عاملاً مهماً في ضبط التوازن بينهم وبين الروس والبلغار والمجريين(١). ومنذ أن تولى قسطنطين الثامن عرش الامبراطورية البيزنطية استمرت هجماتهم على جبهة البلقان، فاجتازوا نهر الدانوب قادمين من الشمال، لكن هذا الامبراطور أنزل بهم هزيمة ساحقة، وأجبرهم على اجتياز الدانوب باتجاه الشمال والخلود إلى السكينة(٢)، ومع ذلك لم يكن لدى الامبراطرية البيزنطية حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ما يدعوها أن تخشى البشناق، إذ لم يشتد خطرهم إلا عندما تعرَّضوا لضغط الكومان (القبجاق). ففي عهد قسطنطين التاسع شنَّ رجال هذه القبائل واحدة من أكثر هجماتهم تدميراً، فدمَّروا الجيش الامبراطوري في عام (٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م) الذي حاول أن يطردهم من بريسلاف في بلغاريا(٣)، وجعلت هذه الهزيمة من المستحيل على الامبراطورية البيزنطية أن تُقدم على قتالهم، وتحتَّم عليها أن تتفاهم معهم مقابل ثمن باهظ، فأنزلهم الامبراطور في بلغاريا بعد أن تعهَّدوا بالإخلاد إلى الهدوء والسكينة(٤).

على أن البشناق لم يلتزموا الهدوء، واستمرت غاراتهم على تراقيا ومقدونيا وبلغاريا، إلا أن الامبراطور لم يصادف معهم متاعب جديَّة، وتراجعت غاراتهم في عهد ثيودورا وميخائيل السادس، إلا أنهم انحازوا إلى المجريين وشنُّوا هجوماً مشتركاً على أملاك الامبراطورية في عهد إسحاق كومنين، وعندما خرج هذا لقتالهم التمسوا الصلح وركنوا إلى الهدوء. واستأنف البشناق غاراتهم في عهد قسطنطين العاشر، فامتد نشاطهم حتى بلغ صوفيا، فتصدى لهم القائد رومانوس ديوجينوس وهزمهم(٥).

---

(١) Ostrogorsky: pp294, 295.

(٢) Schlumberger: L'Epopée Byzantine à la Fin du dixième siècle III, p22.

(٣) Ibid: pp589-594.

(٤) Ibid: pp594,595.

(٥) Baldwin: I, p185.

وكانت هجمات الغز على الأراضي البيزنطية أشد عنفاً وأكثر تدميراً من غارات البشناق. والغز من القبائل التركية أكثر أصالة من البشناق وتربطهم بهم صلة مباشرة، على أنهم بلغوا من القوة وكثرة العدد والميل إلى الاعتداء ما جعل الامبراطورية عاجزة عن مقاومة هجماتهم على أطراف الدولة في البلقان. فاجتازوا نهر الدانوب في عام (٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م)، وتغلَّبوا على الحاميات البيزنطية التي تصدَّت لهم وأسروا بعض قادتها، وعندما دخلوا الأراضي البيزنطية انقسموا إلى جماعات، هاجمت إحداها مدينة سالونيك، وعاثت في بلاد اليونان، ونهبت كلْ ما وقع في أيديها. وبلغت غارات هذه الجماعات مزيداً من الخطورة والعنف، فاستبد اليأس بالسكان من النجاة والأمن حتى أخذوا يفكرون بالهجرة[١].

تباطأ الامبراطور ميخائيل السابع في التصدي لهجمات الغز، ويبدو أنه شعر أن لا جدوى من المقاومة بفعل ما اتصفوا به من القوة والبأس، وحاول أن يستقطبهم بالهدايا، غير أنه حدث آنذاك أن تفشى في صفوفهم الوباء والمجاعة، واستبدَّ بهم البرد، فهلك عدد كبير منهم، وأذعنت جماعات ممن بقي منهم للسلطات البيزنطية، فأنزلوهم في مقدونيا، واستخدموهم في الزراعة وإمداد الجيش الامبراطوري بالجند[٢].

وجدَّد الغز غاراتهم على الأراضي البيزنطية في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) بسبب إحجام الامبراطور ميخائيل السابع عن دفع ما هو مقرر من المرتبات لحامياتهم المرابطة في المدن المنيعة الواقعة على نهر الدانوب[٣].

وفي أثناء النزاع الذي احتدم من أجل الوصول إلى العرش بعد عزل ميخائيل السابع، واندلاع الحرب الأهلية داخل الامبراطورية؛ أُتيح للبشناق والغز الفرصة لنهب البلقان وتخريب أراضيه. وانحازت جماعة من البشناق إلى جيش الثائر باسيلياكوس وعاثت مع الغز فساداً في جهات أدرنة، ثم انعقد الصلح بين البشناق والغز وبين الامبراطور نقفور بوتانياتس، غير أن خطرهم استمر قائماً، ويُعدُّ من المشكلات المهمة التي كان على الامبراطور ألكسيوس كومنين أن يواجهها[٤].

وتضاءل النفوذ البيزنطي في إيطاليا بعد ارتداد القوات البيزنطية بقيادة القبطان باسيل بويانس في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)، فارتفع نجم جوايمار، أمير سالرنو،

---

(١) Baldwin: 186.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) Charanis, Peter: The Byzantine Empire in the Eleventh Century, in Setton: A History of the Crusades: I, pp182-187.

ووقفت بيزنطية على الحياد في صراع أمراء المقاطعات الإيطالية لانصرافها وقتذاك إلى قتال الحزب الوطني الذي أعلن تمرده عليها وحاول انتزاع أراضيها في إيطاليا.
واستطاع النورمان القادمين من دوقية نورماندي في غربي فرنسا بقيادة تانكريد هوتفيل أن يوطدوا سيادتهم على الإمارات اللومباردية في إيطاليا ويطردوا البيزنطيين إلى أقصى أطراف كالابريا وإلى ساحل أبوليا، وأخذوا يُهدِّدون المدن الواقعة على الساحل الغربي. ارتاعت السلطات البيزنطية من تطور الأحداث الذي خلق وضعاً سياسياً جديداً في جنوبي إيطاليا، فزوَّدت حاكم أبوليا، ماريانوس أرجيروس، بالمساعدات الضرورية لإصلاح الموقف، إلا أنه تعرَّض للهزيمة، وفَقَدَ البيزنطيون في جنوبي إيطاليا ما كان لهم من السيطرة وذلك في عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٢م)، لكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكارد بن تانكريد هوتفيل في تأسيس دولة للنورمان في إيطاليا وصقلية بعد أن تمَّ إعلانه حاكماً على أبوليا وكالابريا في عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)[١]، وانتزع من البيزنطيين آخر معاقلهم في إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزي في عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) بالإضافة إلى عاصمتهم باري في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)[٢].

وأخذ النورمان بعد أن انتزعوا صقلية من أيدي المسلمين، يوجهون أنظارهم إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتيكي حيث الأراضي البيزنطية، للاستيلاء على أبيروس ومقدونيا، بل إنهم طمعوا في الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وباتوا يحلمون بالحرب ضد المسلمين في الشرق.

وفي الوقت الذي نزل فيه فريق من النورمان في إيطاليا، توجَّه فريق آخر منهم إلى الدولة البيزنطية ودخلوا في خدمتها جنوداً مرتزقة، وتبوَّأ قادتهم مكانة عالية، وحصل بعضهم على الأراضي مقابل الخدمة العسكرية. وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينوس وخليفته الامبراطور ميخائيل السابع أن يفيدا منهم لكسر شوكة السلاجقة من جهة ومحاولة اتقاء هجمات نورمانية يشنها روبرت جويسكارد من جهة أخرى، وقد وافق هذا على مهادنة الدولة البيزنطية في الوقت الذي ساءت فيه علاقته مع البابوية.

واستغل النورمان كارثة مانزيكرت فحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة في آسيا الصغرى، لذلك كثر تمردهم على السلطة المركزية، واشتهر منهم ثلاثة قادة هم هرفيه وروبرت كريسبين وروسل بايليل. فانسحب الأول من الجيش البيزنطي في عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) الذي كان يتصدَّى لهجمات السلاجقة في أرمينية، ولجأ إلى

(١) Haskins, C.H: The Norman in European History: P200.

(٢) Vasiliev: I, 361.

الأتراك، وأعلن الثاني الثورة في عام (٤٦٠هـ/١٠٦٨م)، ودخل الثالث، الذي يُعدُّ الأكثر طموحاً والأشد عنفاً، في خدمة الامبراطورية في عام (٤٦٢هـ/١٠٧٠م) مع جماعة كبيرة من أتباعه ومواطنيه، وقام بدور مزدوج في معركة مانزيكرت، وأعلن بعد عامين، أي في عام (٤٦٥هـ/١٠٧٣م) الثورة صراحة ضد الحكومة البيزنطية، ولما حلّت به الهزيمة انسحب إلى داخل آسيا الصغرى، وحاول أن يقيم لنفسه إمارة مستقلة في مناطق قونية وأنقرة في القسم الشرقي من الامبراطورية البيزنطية متتبعاً خطى مواطنيه الذين أقاموا إمارة في جنوبي إيطاليا على حساب الامبراطورية، ثم تطلع إلى السيطرة على القسطنطينية، فخشي ميخائيل السابع أن يتمكّن من توطيد أقدامه في قلب الامبراطورية وعلى حسابها، فاستعان بالسلاجقة لقمع حركته، فعقد من أجل ذلك اتفاقية مع السلطان السلجوقي سليمان بن قُتْلُمُش تعهد له فيها هذا الأخير تقديم المساعدة المطلوبة مقابل اعتراف الامبراطور بسلطته على الأقاليم التي كانت بحوزته في شرقي الأناضول. لم يستطع روسل بايليل الصمود في وجه السلاجقة، وحلَّت به الهزيمة، فهرب إلى أماسيا الواقعة في الشمال الشرقي، واحتفظ برقعة ضيقة من الأرض، ومن هناك جدَّد الحرب مع البيزنطيين، وهدَّد موانئ البحر الأسود، فأرسل إليه ميخائيل السابع عندئذ ألكسيوس كومنين، فقبض عليه بمساعدة السلاجقة، واستسلم أتباعه النورمان[١].

وفي الوقت الذي كان البشناق والغز يعيثون فساداً في ولايات البلقان البيزنطية والنورمان يُهدِّدون وجود الامبراطورية؛ كان الموقف في آسيا الصغرى قد تدهور إلى درجة خطيرة بحيث لم تعد الحدود بين ما استولى عليه السلاجقة الذين غزوا هذه المناطق وبين ما تبقَّى بأيدي البيزنطيين، واضحة.

وفي الوقت الذي ساءت فيه أوضاع الخلافتين المتنافستين في المشرق الإسلامي العباسية السنية في بغداد، والفاطمية الشيعية في القاهرة، وتفاقَم أمر بني بويه الشيعة الذين سيطروا على مقدرات الخلافة الأولى ووضعوها تحت وصايتهم؛ ظهرت قوة فتية على مسرح المشرق الإسلامي هي قوة الأتراك السلاجقة لتنفخ فيه روحاً جديدة تُغيِّر من ميزان القوى في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين.

ينتسب السلاجقة إلى جدهم سلجوق بن دقاق، ظهروا في بداية حياتهم السياسية في إقليم تركستان[٢] وهناك اعتنقوا الدين الإسلامي على المذهب السني متأثرين بالسامانيين، واستطاع زعيمهم طغرلبك أن يستولي على نيسابور عاصمة

---

(١) Schlumberger: Récits de Byzance et des Croisades: II p82.

(٢) تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك.

خراسان[1] وكانت تحت الحكم الغزنوي وذلك في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) مستغلاً انهماك الغزنويين بفتوحهم في الهند، فجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي معلناً نفسه سلطاناً، مؤسساً بذلك دولة السلاجقة. وعندما تنبَّه السلطان مسعود إلى خطرهم حاول أن يقضي عليهم إلا أن السلاجقة أنزلوا الهزيمة بجيشه في مرج دندانقان في (رمضان ٤٣١هـ/ حزيران ١٠٤٠م)، فتمَّت بذلك سيطرتهم على إقليم خراسان[2].

واصل السلاجقة بعد قيام دولتهم، سياستهم التوسعية في إيران ضمن اعتراف الخلافة العباسية الذي جرى في عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤١م) بهدف القضاء على قوة البويهيين تمهيداً لمدِّ نفوذهم إلى العراق، فدخلوا جرجان[3]، وطبرستان[4]، واستولوا على أصفهان[5] في عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) واتخذها طغرلبك عاصمة له، ثم ضمَّ بعد أربع سنوات إقليم أذربيجان[6] وأضحت جيوشه على أهبة الاستعداد لدخول العراق[7].

كانت الخلافة العباسية آنذاك تمر بمحنة قاسية بعد أن ظلَّت قرابة قرن، منذ عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٥م)، ترزح تحت سيطرة البويهيين الشيعة الذي حدُّوا من سلطة الخليفة

---

(١) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند، وتشتمل على أمهات المدن، منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٣٥٠، ٣٥١.

(٢) البيهقي، أبو الفضل: تاريخ البيهقي ص٦٦٣ ـ ٦٩٧، حيث تفاصيل مسهبة عن المعركة. ودندانقان: بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها، وهي بين سرخس ومرو. الحموي: المصدر نفسه: ص٤٧٧.

(٣) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. الحموي: المصدر نفسه: ص١١٩.

(٤) طبرستان: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم والغالب على نواحيها الجبال، فمن بلدانها دِهستان وجرجان وأستراباذ وآمل، وهي قصبتها، وسارية وهي المعروفة بمازندران. الحموي: المصدر نفسه: جـ٤ ص١٣. وتقع منطقة طبرستان جنوبي بحر قزوين.

(٥) أصفهان أو أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها وهي من نواحي الجبل. الحموي: المصدر نفسه: جـ١ ص٢٠٦.

(٦) أذربيجان: إقليم واسع مشهور يحده من الشمال بلاد الديلم والجيلو الطرَّم، ومن المشرق بردعة ومن الغرب أرذنجان، أشهر مدنه تبريز. الحموي: المصدر نفسه: ص١٢٨، ١٢٩.

(٧) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي. . . : الكامل في التاريخ جـ٨ ص٢٥، ٣٤ ـ ٣٦، ٥٨، ٨٣. ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان ص٩٠.

وقلَّصوا نفوذه، فلم يسع الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م)، سوى أن يلتمس المساعدة من طغرلبك لإنقاد الخلافة العباسية في الوقت الذي دخل فيه أرسلان، أبو الحارث البساسيري، أحد قادة بني بويه، إلى بغداد وسيطر عليها وعلى ما يجاورها، وانضوى تحت الوصاية الفاطمية، فسار طغرلبك إلى بغداد في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) ليقضي عليه، فدخلها وفرَّ البساسيري منها واعترف الخليفة به سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يده وأمر بذكر اسمه في الخطبة[١]. وهكذا حلَّ السلاجقة محل البويهيين في الوصاية على الخلافة العباسية.

لا شك بأن ما قام به طغرلبك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السني، وتحقيق قدر كبير من وحدة المسلمين، أضفى عليه مكانة خاصة في العالم الإسلامي.

نتج عن سيطرة السلاجقة على أذربيجان، مجاورتهم للبيزنطيين على حدودهم الشرقية، فتبدل الموقف السياسي والعسكري عندئذ. فبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تجد على حدودها المشار إليها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي دولة إسلامية مفكَّكة، ضعيفة ومنقسمة على نفسها سياسياً ومذهبياً، فإذا بها تجد في القرن التالي سلطنة قوية، متماسكة، مكَّنت المسلمين من استئناف التوسع على حسابها، وكان ذلك في الوقت الذي دخلت فيه الامبراطورية في حال ركود وضعف إثر زوال الأسرة المقدونية في عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م)، وما تبع ذلك من صراع الأرستقراطيتين المدنية والعسكرية[٢].

كان الباعث على التوسع السلجوقي ثلاثة أسباب هي:

ديني، بهدف نشر الإسلام بين جيرانهم النصارى، وأعني بهم الأرمن والبيزنطيين.

اقتصادي، بسبب البحث عن مراعي جديدة وغنية لمواشيهم وأراضي لسكنهم بعد أن ضاقت الأرض بهم إثر تدفقهم من بلاد ما وراء النهر[٣].

سياسي، بهدف السيطرة على أرمينية بفعل أهميتها السياسية والعسكرية كدولة حاجزة بين المسلمين والبيزنطيين. وقد أدرك طغرلبك أهمية السيطرة عليها لكسر الطوق البيزنطي من أمام المسلمين تمهيداً للتوغل داخل أراضيها، ومواصلة حركة الجهاد، وإشباع رغبة أتباعه[٤].

نفَّذ السلاجقة غارتين ضد الكرج وأرمينية، قاد الأولى إبراهيم ينال أخو السلطان

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص١٢٥، ١٢٦.

(٢) Charanis: p136. Vasiliev: I p429.

(٣) ما وراء النهر: يراد به نهر جيحون بخراسان.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٨، ٦٩.Charanis: pp144-147 .

طغرلبك في عام (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) في عهد الامبراطور قسطنطين التاسع، في حين قاد الثانية السلطان طغرلبك في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م). لم ينتج عن هاتين الغزوتين أي تغيير في وضع الأراضي على الرغم من أنهما توغلا بعيداً داخل الأراضي الأرمنية، فوصل الأول إلى مانزيكرت وأرزن وبلغ طرابزون على البحر الأسود، ووصل الثاني إلى الجهات الواقعة حول بحيرة وان، غير أنه فشل في الاستيلاء على حصن مانزيكرت(١)، لكن تهيأت الفرصة للمغيرين للقيام بخطوات مستقبلية بهدف الاستقرار.

تغيَّر الموقف العسكري لصالح السلاجقة بدءاً من عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) عندما تقرَّر سحب العساكر البيزنطية من المناطق الأرمنية لمساندة إسحاق كومنين في ثورته ضد ميخائيل السادس(٢)، فشغرت المراكز الحدودية من أي مقاومة جديَّة ما أغرى السلاجقة فاجتاحوا إقليم كبادوكيا وهاجموا ملطية(٣)، وأغاروا على الأقاليم الواقعة عند ملتقى فرعي نهر الفرات، وتوغَّل قُتْلُمُش بن إسرائيل في جوف آسيا الصغرى، ففتح قونية(٤) وآقسرا(٥) ونواحيهما(٦).

وتوغل السلاجقة مرة أخرى في عمق الأراضي البيزنطية في عهد الامبراطور قسطنطين العاشر دوكاس، فبلغوا مدينة سيواس(٧).

الواضح أن غارات السلاجقة ظلَّت حتى وفاة طغرلبك في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) تستهدف غالباً السلب والنهب من دون محاولة الاستقرار(٨) إنما كانت خطوة تمهيدية استطلعت خلالها القوات السلجوقية أوضاع وطبيعة المنطقة، هذا على الرغم من أن السلطان السلجوقي كان شديد الاهتمام بالطرف الشمالي الغربي لسلطنته، إلا أن ابن أخيه وخليفته ألب أرسلان أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين، فحرص

---

(١) Chamician, Michael: History of Armenia: II p138. Finlay, George: History of the Bysantine Empire: p532. Cahen, Claude: Pre-Ottoman Turkey: p23.

(٢) Grousset, René: Histoire de L'Armenie: pp588-590.

(٣) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام. الحموي: جـ٥ ص١٩٢.

(٤) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم (آسيا الصغرى) وبها وبآقسرا سكنى ملوكهم. المصدر نفسه: جـ٤ ص٤١٥.

(٥) آقسرا: مدينة مشهورة بالروم.

(٦) ابن خلدون، عبد الرحمٰن: تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص١٦٢.

(٧) Psellus: pp277-302. Grousset: p608. وسيواس: مدينة بالروم.

(٨) Grousset: Histoire de Croisades: I p30.

على أن يحمي نفسه من بيزنطية بالسيطرة على أرمينية والاستقرار في ربوعها قبل أن يمضي في تحقيق هدفه الأساس وهو مهاجمة الفاطميين في بلاد الشام وطردهم منها. وبدا واضحاً أن الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين سوف يزداد عنفاً وبخاصة أن البيزنطيين أدركوا أخيراً مدى فداحة الخطر الذي يُهدِّد الامبراطورية من الشرق[١]، وأدَّى هذا التوجه إلى الاصطدام في مانزيكرت[٢] في عام (٤٦٣هـ/١٠٧١م)، وقد أسفرت المعركة عن هزيمة الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس ووقوعه في أسر السلطان ألب أرسلان، وعامله السلطان معاملة طيبة قبل أن يفرج عنه لقاء فدية عن شخصه، وجزية تدفعها الحكومة البيزنطية على أن يتم إطلاق سراح الأسرى المسلمين في بيزنطية، ويمد الامبراطور السلطان بالعساكر اللازمة عند الطلب[٣].

أسفرت معركة مانزيكرت عن نتائج عدة كانت لصالح القضية السلجوقية، من أهمها:

- تُعدُّ المعركة أقصى ما بذله البيزنطيون من جهد لوقف غارات السلاجقة، إلا أنهم فشلوا في ذلك.

- امتلك السلاجقة أرمينية وأنطاكية والرها[٤] وكبادوكيا.

- أنهت المعركة دور الامبراطورية البيزنطية في حماية المسيحية من ضغط المسلمين وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين.

- برَّرت المعركة ما جرى من تدخل الغرب الأوروبي عسكرياً فيما عُرف بالحروب الصليبية، لأن بيزنطية لم يعد بوسعها حماية العالم المسيحي في الشرق، وأضحت عاجزة عن أن تُلقي بجيش في المعركة لأعوام عديدة نظراً لتدمير جيشها بالكامل.

---

(١) عنان، محمد عبد الله: موقعة ملازكرد، مجلة الثقافة، العدد ٥٠٠ سنة ١٩٤٨م، ص٧.
Charanis: p148.

(٢) مانزيكرت أو منازجرد او ملازكرت: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يُعدُّ من أرمينيا وأهله أرمن. الحموي جـ٥ ص٢٠٢.

(٣) ابن العبري: ص١١٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٣ ـ ٢٢٥. Psellus: p354, 355. ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف قزاوغلي المعروف بالسبط: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان جـ٨ ص٢٨٤، ٢٨٥. Oman, C.W.C: A History of Art of War in the Middle Ages: pp219-221.
Vasiliev: I p431. Grousset: Histoire de L'Armenie: pp628, 629.

(٤) الرها: مدينة بالجزيرة الفراتية بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. الحموي: جـ٣ ص١٠٦.

- أتاحت معركة مانزيكرت للسلاجقة الانسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها وتأسيس دولة عُرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم، أسَّسها سليمان بن قُتْلُمُش الذي يُعدُّ بحق جد سلاطين آسيا الصغرى، وقد سيطر على معظم أراضيها واتخذ مدينة نيقية[1] عاصمة له.

محاولة ألكسيوس كومنين إحياء الامبراطورية البيزنطية

عندما اعتلى ألكسيوس كومنين العرش البيزنطي، وهو قائد عسكري بارز وسياسي محنك، ويمثل الأرستقراطية العسكرية؛ قفزت هذه الطبقة إلى المقدمة، وأدَّت جهوده وجهود خلفائه من أسرته إلى تأخير انحلال الامبراطورية ما يزيد على مائة عام.

جاء ألكسيوس كومنين إلى الحكم والامبراطورية تعاني من مشكلات متعددة ومعقدة، فقد اضمحل النظام الدفاعي السابق، وازداد نمو العناصر الإقطاعية والانفصالية، وتعرَّضت لخطر الأعداء من الخارج ونضبت مواردها الاقتصادية.

ذلك أن الحقبة البيزنطية المتأخرة كانت تمثل عصر الأرستقراطية الإقطاعية والانفصالية، وبات واضحاً أن الزعامة العسكرية التي تنتمي إلى العائلات الثرية من كبار ملَّاك الأراضي، كانت وحدها القادرة على استخدام الموارد المتاحة والنهوض بالدولة، وهي التي مكَّنتها في الماضي من أن تحافظ على مكانتها في مواجهة القوى اللاتينية والصقلبية والإسلامية.

وتعرَّضت الامبراطورية البيزنطية لخطر النورمان والمدن التجارية الإيطالية في الغرب، وخطر السلاجقة في الشرق الذين فتحوا معظم آسيا الصغرى بالإضافة إلى خطر الأمراء الأتراك المحليين المستقلين، أمثال زاخاس أمير أزمير ودانشمند في كبادوكيا.

شكَّلت هذه التطورات آثاراً سلبية على الموارد الاقتصادية والعسكرية، ذلك أن فقدان منطقة آسيا الصغرى بخاصة لم يقتصر على انحسار الحدود الشرقية، بل أدى إلى خلق مزيد من الصعاب أمام الامبراطورية فيما يتعلق بالتجنيد العسكري، علماً بأن هذه المنطقة كانت بمثابة خزان بشري يمد الامبراطورية بالعناصر المقاتلة من قادة وجنود، فترك النقص البشري القاتل بصماته الواضحة على القوة البرية والبحرية البيزنطية في الوقت الذي كانت فيه المتاعب المالية أمراً مفروغاً منه، ولم تكن

---

(١) نيقية: مدينة من أعمال القسطنطينية على البر الشرقي. الحموي: المصدر نفسه: جـ٥ ص٣٣٣.

بحاجة إلى مزيد من الانهيار يأتيها عن طريق الكساد التجاري أو تخفيض الرسوم الجمركية[١].

انحصر اهتمام ألكسيوس كومنين في بداية عهده في السياسة الخارجية وبخاصة الدفاعية، فاستخدم براعته العسكرية وحنكته السياسية للتخلص من المشكلات التي واجهت حكمه، فأقدم بعد تتويجه على الدخول في مفاوضات مع السلاجقة في آسيا الصغرى. وكان سليمان بن قُتْلُمُش مؤسس سلطنة سلاجقة الروم (٤٧٠ ـ ٤٧٩هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٠٨٦م) يشن الغارات من عاصمته نيقية والتوسع في إقليم بيثينيا، وحاول أتباعه اجتياز بحر مرمرة إلى الشاطئ الأوروبي[٢]، غير أن الامبراطور استطاع أن يطردهم من بعض المواقع التي سيطروا عليها على الضفة الشرقية للبحر المذكور، لكن هذه المحاولات قد توقفت مع وصول الحملة النورمانية إلى البلقان. وإذ قدَّر أن طرد الأتراك من آسيا الصغرى يتطلب جهداً شاقاً وطويلاً لم يتهيأ له بعد، رأى من الضروري الانتقال إلى الغرب لرد هجوم النورمان، وحتى يحمي ظهره عقد معاهدة مع سليمان، اعترف بموجبها بسيطرة هؤلاء على الأراضي التي بحوزتهم مقابل أن يوقفوا زحفهم باتجاه الغرب[٣].

وما إن أنهى ألكسيوس كومنين مشكلاته في البلقان، حتى تفرَّغ للمشكلة السلجوقية في الشرق، إذ لم يستطع كبح جماح أتباع سليمان على الرغم من المعاهدة المبرمة معه، وقرَّر الزحف حتى قونية للقضاء على القوة السلجوقية، غير أنه فشل في ذلك، واضطر أن يتفاهم مجدداً مع سليمان، فأذن له أن يتولى بالنيابة عن بيزنطية إدارة كيليكية وأنطاكية وملطية، على أن يضبط أتباعه.

وكان النورمان قد ثبَّتوا أقدامهم في جنوبي إيطاليا، وتوجَّهوا في عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) تحت زعامة روبرت جويسكارد إلى الشرق نحو القسطنطينية رغبة منه في أن يصبح امبراطوراً رومانياً، فنزل في أفلونا، ثم توجَّه منها إلى دورازو، فهزم جيشاً بيزنطياً واستولى على هذا الموقع المهم وذلك في (أواخر ٤٧٤هـ/أوائل ١٠٨٢م)، وزحف بعد ذلك إلى القسطنطينية مباشرة، ولكنه اضطر أثناء زحفه إلى العودة إلى إيطاليا بفعل أن أوضاعها تستدعي وجوده، فترك قيادة قواته في البلقان تحت إمرة ابنه بوهيموند الذي استطاع الاستيلاء على مراكز عدة مهمة في أبيروس ومقدونيا وتساليا، حتى أوشكت الامبراطورية البيزنطية أن تسقط في أيدي النورمان، ما دفع ألكسيوس كومنين إلى التماس المساعدة من سليمان بن قُتْلُمُش الذي أمده بسبعة

---

(١) هسي ج.م: العالم البيزنطي: ص١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) Alexiad: p93.

(٣) Ibid: p95.

آلاف مقاتل، تمكّن بواسطتهم أن يواجه الموقف ويُحقق انتصاراً على بوهيموند في تساليا، وعاد هذا الأخير أدراجه إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة وذلك في عام (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)[١].

وجدَّد روبرت جويسكارد وابنه بوهيموند محاولاتهما القضاء على الامبراطورية البيزنطية ووراثتها، فاشتبكا مع الأسطول البندقي المتحالف مع البيزنطيين عند كورفو، ولكن الحرب طالت بين الطرفين، وكان مسرحها شواطئ أبيروس، حتى توفي روبرت جويسكارد فجأة في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، فانسحب النورمان من البلقان عائدين إلى إيطاليا[٢]، وبرز في هذه الحروب بوهيموند بن روبرت جويسكارد الذي سيصبح من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى.

كانت هذه فرصة أتاحت لألكسيوس كومنين مواجهة البشناق والكومان في الجبهة الشمالية، وقد فشل الامبراطور في مواجهتهم بالقوة العسكرية لأنهم هزموا جيشه، ومن ثم لجأ إلى السياسة للوقيعة بينهما، فزوَّد الكومان بالأسلحة وأثارهم ضد حلفائهم البشناق، وجرت بينهما رحى معركة ضارية في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) انتهت بهزيمة البشناق، فتراجعوا نحو الشمال واختفوا عن مسرح تاريخ المنطقة[٣].

كانت هذه هي الأوضاع السائدة على الجبهات البيزنطية كافة في الوقت الذي كان ألكسيوس كومنين يحاول إعادة تنظيم دولته وبناء جيشه لتأمين مناطق الحدود. وكانت إعادة بناء الجيش البيزنطي تستوجب الاعتماد على المرتزقة الذين أضحوا عماد الجيش منذ أن تلاشت الإقطاعات الصغيرة التي كان أصحابها المصدر الأساس لجنوده، وكان ذلك أحد أسباب دخول الامبراطور مع البابا أوربان الثاني في مفاوضات أراد الأول من خلالها الحصول على الجنود المرتزقة من الغرب الأوروبي، في حين أراد الثاني انتهاز الفرصة لكي يعيد توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت الزعامة البابوية[٤].

وكان ألكسيوس كومنين نفسه يرغب في القضاء على هذا الانشقاق الديني، وقد أبدى في إحدى رسائله إلى البابا أوربان الثاني دهشته في إسقاط اسم البابا من الصلوات والقداديس، وأعلن أن الأوضاع يجب أن تعود إلى طبيعتها من الاتحاد والتعاون المثمر، ومع ذلك رفض التسليم بامتداد نفوذ البابا إلى أقاليم تابعة

(١) Vasiliev: II p381. Ostrogorsky: p317.

(٢) Chalandon, F: Essai sur la Regne d'Alexis Comnene: pp70, 71.

(٣) Charanis: p215.

(٤) قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص٩١.

لأسقفيات يونانية، يضاف إلى ذلك، أنه أظهر رغبته في الحصول على جماعات من المرتزقة أو قوات احتياطية من الغرب، لا لكي تذهب إلى بيت المقدس لكن لسد الاحتياجات الأكثر إلحاحاً بالنسبة للامبراطورية، والتي تجعل من المستحيل على امبراطور بيزنطي أن يُدرك مغزى حملة صليبية في الشعور الغربي، مع الملاحظة بأن البيزنطيين الشرقيين كانوا يختلفون مع الأوروبيين الغربيين في نظرتهم المتعلقة بحرب المسلمين، فالحرب مع هؤلاء أضحت بالنسبة لبيزنطية ضرورة تدور رحاها نتيجة اعتبارات تتصل بالسياسة الامبراطورية، إذ من العبث الزحف مباشرة إلى بيت المقدس وترك مؤخرة الجيش في آسيا الصغرى من دون حماية كافية، وكان من الضروري التوصل إلى اتفاق مع المسلمين إذا ما دعت الأحداث في مناطق أخرى لذلك، مثل نشوب الثورة في البلقان أو قيام النورمان بهجوم مباغت على أملاك الامبراطورية، ثم إن الحرب مع المسلمين في آسيا الصغرى وبلاد الشام بما فيها فلسطين إنما تقع على عاتق الامبراطورية البيزنطية، وليست مسؤولية العالم المسيحي الغربي[١].

(١) هسي: ص١٥٣، ١٥٤.

الفوضى والاضطراب في العالم الإسلامي في المشرق

تمهيد

وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق في وقت كان فيه العالم الإسلامي يعاني من الانقسامات السياسية والمذهبية الدينية، وحدث هذا الانقسام على حساب وحدة الجبهة الإسلامية، فبلاد الشام التي استهدفتها تلك الحملة بشكل خاص، كانت تعيش وضعاً مُفكَّكاً، فتوزعت مدنها بين حكام وأمراء يحذر كل منهم الآخر. وبلغ الخلاف العسكري والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين أشده عندما بدأت جيوش الصليبيين تجوس خلال الديار الإسلامية، وقد رأى كل طرف في مجيئهم ما يُحقق أهدافه في القضاء على خصمه أو الحد من نفوذه ما مهَّد لهؤلاء دخول بلاد الشام واحتلال بيت المقدس والقسم الساحلي بكامله.

تراجع قوة السلاجقة وتفكُّكهم

تفكَّكت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه في عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) بفعل الصراع على السلطة ونشوب الحرب الأهلية بين أبنائه، ثم بينهم وبين عمهم تاج الدولة تُتُش حاكم دمشق. فقد خلف السلطان السلجوقي أربعة أبناء هم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود، وسرعان ما دبَّ الخلاف بين محمود البالغ من العمر خمس سنوات وأمه تركان خاتون من جهة، وبين بركياروق الابن الأكبر للسلطان المتوفى والبالغ من العمر خمسة عشر عاماً، وانتهى بأن احتفظ محمود بأصفهان وإيران على أن تكون بقية أجزاء الدولة من نصيب بركياروق ويحتفظ هذا بلقب سلطان، على أن تركان خاتون لم تلبث أن توفيت في (رمضان ٤٨٧هـ/ أيلول ١٠٩٤م)، ولحقها ابنها محمود في (آخر شوال/ ١١ تشرين الثاني)[١]، فتوجَّه بركياروق عندئذ إلى أصفهان وملكها[٢].

لكن الخطر الأبرز الذي هدَّد بركياروق جاء من جانب عمه تاج الدولة تُتُش الذي

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٨١، ٣٨٦.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٠٩.

رفض الاعتراف بالتوزيع الذي أجراه أخوه السلطان ملكشاه في شمالي بلاد الشام عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)، علماً بأنه منح حاجبه المخلص قسيم الدولة آق سُنقُر حلب ومناطقها وحماة ومنبج واللاذقية وما يتبعها، وأقطع أنطاكية للأمير ياغي سيان، ومنح الرها لبوزان، وعيَّن الأمير برسق حاكماً على أملاك سلاجقة الروم إثر مقتل صاحبها سليمان بن قُتْلُمُش في (٢٦ ربيع الأول ٤٧٩هـ/ ١١ تموز ١٠٨٦م) في الصراع على حلب الذي نشب بينه وبين تاج الدولة تُتُش، وكان هذا قد طمع في توحيد بلاد الشام جميعها تحت سلطانه وإقامة دولة كبرى موحدة[1]، ما جعل هذه البلاد تعاني من فوضى الانقسامات.

لم تُرض تلك الأوضاع تاج الدولة تُتُش، فلجأ إلى السياسة لتحقيق مآربه، فتوجَّه إلى أخيه السلطان في بغداد في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) وأقنعه بالتوسع في بلاد الشام على حساب الفاطميين وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة. والواقع أن السلطان ملكشاه كان يخشى تمدداً فاطمياً باتجاه الأملاك السلجوقية في البلاد المذكورة، لذلك لبَّى طلب أخيه[2]، فهاجم حمص وانتزعها من يد صاحبها خلف بن ملاعب الذي اعترف بسلطان الفاطميين، واستولى على أفامية، وحاصر طرابلس، وكانت تحت سيطرة بني عمار لكنه ارتد عنها[3]، ودخلت الأسر العربية التي كوَّنت لنفسها إمارات مستقلة في هذه النزاعات أمثال بني منقذ في شيزر. وهكذا دبَّت الفوضى في بلاد الشام في الوقت الذي أخذ فيه الخطر الصليبي يلوح في سماء الشرق الأدنى الإسلامي[4].

لم يكد تاج الدولة تُتُش يسمع بوفاة أخيه السلطان ملكشاه حتى نهض لاستغلال الفوضى وعدم الاستقرار التي أمست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مطامعه المتمثلة باعتلاء منصب السلطنة، فضمَّ حلب، وطلب من الخليفة العباسي المستظهر بالله أن يخطب له في بغداد فأجابه إلى ذلك[5]، وخضعت له أذربيجان وملك همذان بعد أن هزم ابن أخيه السلطان بركياروق في مكان قريب من إربل، ثم سار إلى الري، وجرى اللقاء الثاني بينهما عند قرية داشلو على بُعد اثني عشر فرسخاً عن الري يوم الأحد (١٧ صفر ٤٨٨هـ/ ٢٧ شباط ١٠٩٥م)، وأسفر اللقاء عن هزيمة تاج الدولة تُتُش الذي قُتل في المعركة[6].

---

(١) ابن القلانسي: ص١٩٦. ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٣٤٩، ٣٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥٢، ٣٥٣.

(٤) عاشور: جـ١ ص١٠٨ ـ ١١١.

(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٨٠، ٣٨٩، ٣٩٠.

(٦) ابن القلانسي: ص٢١٢. ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٣٩٠، ٣٩١. ابن العديم، كمال الدين =

خُتمت، بمقتل تاج الدولة تُتُش، مرحلة طويلة من الصراع على الحكم في بلاد الشام بين الأمراء السلاجقة، خلَّفت صفحات سوداء قاتمة من القتل والخراب والدمار لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع على الحكم بين ابني تاج الدولة تُتُش، رضوان ودقاق، ويُعدُّ ذلك إيذاناً بانحلال قوة السلاجقة في الوقت الذي بدأت فيه الاستعدادات للحرب الصليبية تجري في الغرب الأوروبي.

ولم تحل سنة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس دول هي:

- سلطنة سلاجقة إيران برئاسة السلطان بركياروق بن ملكشاه.
- سلطنة سلاجقة خراسان وما وراء النهر برئاسة أبو الحارث سنجر بن ملكشاه.
- سلطنة سلاجقة الشام، وقد انقسمت إلى دولتين، سلطنة حلب وعلى رأسها رضوان بن تاج الدولة تُتُش وسلطنة دمشق وعلى رأسها أخوه دقاق.
- سلطنة سلاجقة الروم(١) في آسيا الصغرى وعلى رأسها قلج أرسلان الأول بن سليمان بن قُتْلُمُش.

أخذت السيادة السلجوقية تنحسر سريعاً عن بلاد الشام، ذلك أن ابني تاج الدولة تُتُش لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تُمكِّنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عانت منها هذه البلاد في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلاديين، ولعل المظهر الأبرز لهذا الانحسار ظهور الأتابكيات(٢) كوحدات سياسية مستقلة مثل أتابكيات دمشق والموصل وكيفا وماردين والجزيرة الفراتية وإربل وأذربيجان وغيرها.

= عمر بن هبة الله: زبدة الحلب من تاريخ حلب: جـ١ ص٣٣٥، ٣٣٦.

(١) سميت سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى بسلطنة سلاجقة الروم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى، الذين عرفهم العرب باسم الروم، كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سُميت باسمهم، فظلَّت قروناً عديدة تُعرف باسم بلاد الروم. ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم، كما أطلقوا على الفروع الأخرى من السلاجقة اسم البلاد التي استقروا فيها.

(٢) يرجع أصل الأتابكة إلى العنصر التركي، نشأوا في البلاط السلجوقي نتيجة للنظام الذي استحدثه السلاجقة القائم على شراء المماليك الأتراك وإدخالهم في خدمة القصور السلطانية وبخاصة فيما يتعلق بتربية أولادهم بالإضافة إلى تولي الوظائف العامة، وترقَّى هؤلاء في الوظائف الإدارية والعسكرية حتى وصلوا إلى المناصب القيادية. واستغلوا نشوب النزاعات داخل البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه، ففرضوا سيطرتهم على المناطق التي تحت حكمهم، وتسابقوا في توسيع رقعتها كل على حساب الآخر، وبذلك نشأ نزاع أتابكي داخلي سار في خط مواز للنزاع السلجوقي الداخلي.

وكان تاج الدولة تُتُش قد أقطع قائده التركي أُرتق بن أكسب بيت المقدس في عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) تمهيداً للاعتماد على مقدرته العسكرية، والاستفادة من العدد الكبير من الأتراك الذين كانوا تحت إمرته، فضلاً عن إمكان اتخاذه حاجزاً بينه وبين الفاطميين في مصر. وتوفي أرتق في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) وخلفه ولداه سقمان وإيلغازي.

لم تبق بيت المقدس بأيدي الأراتقة مدة طويلة، إذ أن الفاطميين في مصر كانوا يطمعون في إعادة الاستيلاء على بلاد الشام ومنها بيت المقدس بوصفها قاعدة فلسطين ونقطة ارتكاز لمحاولة استرداد ما انتزعه السلاجقة منهم[(١)].

وسرعان ما استغلوا ضعف الأتراك بسبب التنازع بين الأخوين رضوان ودقاق، وتعرُّض السلاجقة لغزو الصليبيين وتراجعهم أمامهم عند أنطاكية ومقتل عدد كبير منهم؛ فنهض أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوبي بلاد الشام ظناً منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة[(٢)]. فخرج من مصر في (شعبان ٤٩١هـ/ تموز ١٠٩٨م) على رأس جيش كبير متوجهاً إلى بيت المقدس للاستيلاء عليها، فراسل الأخوين سقمان وإيلغازي يلتمس منهما تسليم المدينة إليه من دون قتال، فامتنعا في بادئ الأمر ظناً منهما بأن تحصينات المدينة القوية والقدرة القتالية لأتباعهما التركمان ستمكِّنهما من الصمود حتى تأتيهما نجدة سريعة من دقاق، فضرب الأفضل عندئذ الحصار على المدينة وضربها بالمنجنيق، فتهدمت مواضع منها، ومع ذلك استمر الأخوان في الصمود والقتال، غير أن سكان المدينة عارضوا الاستمرار في المقاومة وبخاصة أن دقاق لم يتمكَّن من إرسال نجدة عاجلة، فراسلوا الأفضل في الصلح واتفقوا معه على فتح الباب له مقابل الأمان لهم، فاستجاب لطلبهم. فدخل المدينة هو وقواته بالأمان، فأحسن معاملة الأخوين وأتباعهما، وأجزل لهم العطاء وأطلقهم، وسمح لهم بالذهاب إلى دمشق وذلك في (١٠ شوال ٤٩١هـ/ ١٠ أيلول ١٠٩٨م) فاستعاد الفاطميون بذلك سيادتهم على بيت المقدس وعيّن الأفضل افتخار الدولة والياً عليها[(٣)].

ولم تلبث المعاقل الساحلية أن وقعت في أيدي الفاطميين من عكا جنوباً حتى جبيل شمالاً، ومجرى نهر الأردن شرقاً، باستثناء طرابلس التي نجحت في المحافظة

---

(١) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص٦٥، ٦٦، ٧٧.
(٢) عاشور: جـ١ ص٢٣٥.
(٣) ابن القلانسي: ص٢٢١. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٤، ٤٢٥.

على استقلالها[١].

الواقع أنه تحقَّق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين في الصراعات الداخلية، وبصدِّ الغزو الصليبي، فلم يتمكَّنوا من صدِّ الهجوم الفاطمي، كما أن تهديد الفاطميين لفلسطين وبيت المقدس خدم القضية الصليبية لأنه سبَّب ارتباكاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً[٢].

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) Grousset: I pp84, 85.

الفَصْلُ الثَّالِث

الصليبيون وسلاجقة الروم

تمهيد

درج المؤرخون على الاهتمام بثماني حملات صليبية، توجهت أربع منها إلى بلاد الشام والأراضي المقدسة في فلسطين وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان إلى مصر هما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية هي الرابعة، ونزلت الثامنة في شمالي أفريقيا. وتخلَّلت هذه الحملات النظامية، حملات أخرى قام بها العامة وإن فاق بعضها، إن في الإعداد أو في التجهيز والأهمية، ما قامت به بعض الحملات النظامية المعروفة.

تشكَّلت الحملة الصليبية الأولى من ثلاث مجموعات وصلت في مُدد زمنية متفاوتة هي: مجموعة العامة أو الشعبية، ومجموعة الفرسان النظاميين، ومجموعة عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م).

مجموعة العامة أو الشعبية

تلى إعلان مولد الحركة الصليبية على يد البابا أوربان الثاني في كليرمونت، استعدادات التنفيذ، فقام البابا المذكور بجولات دينية في أنحاء أوروبا الغربية لتعبئة الفرسان والعامة. وكان من الواجب إيجاد شكل قانوني وتنظيمي للمشروع، فاعتقد أن جيشاً منظماً تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحدة، ستكفل للحملة التقدم والنجاح، فعيَّن أدهيمار أسقف لوبوى مبعوثه الرسولي، وقد دعاه في وقت لاحق قائد الحملة الصليبية[(١)]، وأعلن موعد الانطلاق يوم (٢٢ شعبان ٤٨٩هـ/ ١٥ آب ١٠٩٦م) حين تكون المحاصيل الزراعية قد جُمعت من الحقول، وحدَّد مكان اللقاء في مدينة القسطنطينية.

لكن دعاته الذين بثَّهم في أرجاء بلدان أوروبا الغربية سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، فانتابت المجتمعات الأوروبية

(١) فولشر الشارتري: ص٣٧. ماير: ص٦٧.

نتيجة ذلك، موجة عارمة من الحماس الديني أسفرت عن قيام حملة العامة أو الشعبية، وضمَّت تشكيلة متنوعة من فئات مختلفة ومن جهات متعددة مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا. واحتشد آلاف الفقراء من الرجال والنساء وقطَّاع الطرق واللصوص والغوغاء، الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وانضم إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية.

الواقع أن دعوة البابا صادفت نجاحاً ملفتاً من قِبَل العامة، وقد دفعتهم رغبتهم في التخلص من الإحباط والجوع ونير العبودية وسيطرة سادتهم الإقطاعيين، إذ كان الجو الفكري والنفسي والظروف الاجتماعية البائسة، وراء هذه الاستجابة الشعبية المذهلة.

لقد فهم الناس في غربي أوروبا آنذاك دعوة البابا على أنها فرصة لمستقبل جديد وحياة أفضل في الشرق المقدَّس، وربما يكون الفقراء قد وقعوا في شباك الطمع الدنيوي، وراودتهم الأحلام بامتلاك الضياع في فلسطين(١).

وسرعان ما تكوَّنت حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك، وهو راهب من أميان هجر الدير بتكليف من البابا أوربان الثاني لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية، فراح يتجوَّل في أنحاء شمال شرقي فرنسا واللورين داعياً إلى حملة البابا، واستقطب مظهره الرث، وحماره الأعرج، وفصاحته، الفقراء في كل مكان.

لم يصبر الفلاحون والعامة حتى يرحلوا في الموعد الذي حدَّده البابا أوربان الثاني، فخرجوا على شكل مجموعات مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم وما توفَّر من المؤن، وكانوا غالباً من دون سلاح سوى العصي والسكاكين والسيوف الخشبية، ويتوقعون حدوث المعجزات والنصر على الكفار بعون الملائكة. والواقع أن القلق الذي ساورهم بشأن تأمين المؤن والمواد الغذائية والذي لازمهم طوال رحلتهم؛ جعلهم يتصرفون بتهور في المجر والبلقان على الرغم من أن هذا القلق كان طبيعياً في جيوش كبيرة العدد وبخاصة أنهم خرجوا قبل جني محصول الصيف الوفير والذي استفاد منه الصليبيون من بعدهم، فقد توفَّر لهم كميات كبيرة من الحنطة لتغطية حاجاتهم في المراحل الأولى من مسيرتهم، كما أنهم تحركوا قبل أن تقوم الحكومة البيزنطية بتمهيد الطريق لهم، علماً بأن بيزنطية لم تكن تتوقع قدوم القوات الغربية في مثل هذا الوقت المبكر من السنة وبتلك الأعداد الضخمة. ويبدو أن فكرة الحصول على الأموال طغت على تفكيرهم وظهرت خلال معاملتهم لليهود(٢).

---

(١) قاسم: ص١١٤، ١١٥.

(٢) سميث، جوناثان رايلي: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ص٩٩، ١٠٠.

لم يكن بوسع الدوائر الكنسية أن تمنع هؤلاء من المغادرة إلى الشرق على الرغم من أن البابا لم يُفكر بمثل هذه المجموعات من المقاتلين الصليبيين، وتتوضح هنا القوة الهائلة التي انطلقت من الرابطة التي أوجدها البابا أوربان الثاني بين الحج وحرب المسلمين والغفران الديني، وقد اجتاحت الطبقات الدنيا من الشعب، ولم تقتصر على الفرسان كما كان يأمل. وكانت هذه الجماعات، من خارج دائرة الفرسان، انطلقت من منطقة الراين وعلى امتداد نهر الدانوب باتجاه الجنوب عبر المجر وبلغاريا وصولاً إلى القسطنطينية.

كان أول المنطلقين مساعد بطرس الناسك، وهو فارس فقير يُدعى والتر ولقبه المفلس، وقد خرج من مدينة كلونيا في (٩ ربيع الأول ٤٨٩هـ/ ٨ آذار ١٠٩٦م) على رأس ألف من مواطنيه، ولم يواجه سوى متاعب قليلة في نهاية رحلته عبر المجر، لكن أعمال السلب والنهب التي مارسها أتباعه في بلغاريا دفعت البلغار إلى مهاجمتهم، فقتلوا منهم عدداً كبيراً في حين لاذ من نجا بالغابات أياماً عدَّة حتى وصلوا إلى القسطنطينية، وهناك أمر الامبراطور ألكسيوس كومنين أن يعسكروا خارجها بانتظار وصول جيش بطرس الناسك[(١)].

واستعدَّ بطرس الناسك في هذا الوقت للانطلاق على رأس جيش كبير من المشاة والفرسان ومعهم أسرهم، فغادر كلونيا في (٢٤ ربيع الآخر/ ٢٠ نيسان)، وانضم إليه عدد كبير من الألمان، والراجح أنه بلغ عديد أتباعه عشرين ألفاً. وسمح له ملك المجر كولومان بعبور بلاده بشرط ألا يثير المتاعب[(٢)]، بيد أن بطرس الناسك الذي كان قادراً على إثارة مشاعر العامة وتحريكها، لم يكن يصلح لقيادة جيش يضم خليطاً من المقاتلين ذوي توجهات مختلفة، من حب المغامرة والجشع الدنيوي، وحب النساء والرغبة الجنسية والأتقياء والمجرمين، والفلاحين والفقراء من أهل المدن فضلاً عن عدد صغير من الفرسان، إذ عندما وصل هذا الجيش إلى مدينة سملين الواقعة على حدود المجر مع الامبراطورية البيزنطية، وقع خلاف بين أفراده وبين أهل المدينة بسبب الحصول على الميرة، ما دفعهم إلى ارتكاب مجزرة رهيبة بحق أهل المدينة المسيحيين أسفرت عن مقتل أربعة آلاف منهم. وأشعل أفراد جيش

---

(١) انظر عن هذه الحملة الشعبية أو العامة وتفاصيل أحداثها: الصوري، وليم: جـ١ ص١٧٧ ـ ١٧٩.
Albirt, d'Aix: Leber Christianne Epedition Pro Eroptions Emundione et Restions Sameta Hieroso Luritanae Ecclesia. in Recueil des Historiens des Croisades, R.H.C, ccc: IV pp274-276.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص١٩٣.

الرب النيران بالمدينة فتحولت إلى خرائب[١].

تُعدُّ هذه الجريمة عنواناً على الروح العدائية عند الصليبيين حتى مع أبناء ملتهم وهم الذين زعموا أنهم جاءوا لنجدتهم. وإذ خاف بطرس الناسك من انتقام المجريين اختبأ مع جيشه داخل غابات المجر قبل أن يُعيد تجميع وتنظيم جيشه ويستأنف رحلته. وعندما وصل إلى الحدود البيزنطية خشي نكيتاس قائد الحامية البيزنطية في مدينة نيش الحدودية على مدينته من تصرفات هذه الجموع اللامسؤولة، فاتخذ بعض الاحتياطات لمواجهتها عند الضرورة[٢].

وشقَّت جموع بطرس الناسك طريقها عبر نهر الساف، فدخلت مدينة بلغراد، فنهبتها وسلبت مساكن القرويين وأحرقتها مع سكانها الأحياء في داخلها ما دفع نكيتاس إلى مهاجمتها فقتل الكثير من أفرادها وأسر عدداً آخر، واستولى على الأموال والتبرعات التي كان ذلك الراهب قد جمعها من أغنياء غربي أوروبا.

وبعد أيام من التشتت والتشرذم أعادت هذه الجموع تنظيم صفوفها وسارت صوب مدينة صوفيا، ووصلت إليها في (١٨ رجب/ ١٢ تموز) فاجتمع بطرس الناسك فيها بمندوبي الامبراطور البيزنطي الذين أبلغوه استياءه من هذه الأعمال، وبعدم إطاعة أوامره التي تقضي بألا يمكث الصليبيون في أي مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام، ثم واصلت هذه الجموع رحلتها إلى القسطنطينية ووصلت إليها في (شعبان/ آب)[٣].

استقبل الامبراطور بطرس الناسك على الرغم من تصرفات جموعه السيئة، وقدَّم له النصح بألا يتعجَّل في العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليه إمدادات وقوات نظامية من الغرب تساعده على الصمود في وجه السلاجقة، غير أن انتظار جموعه أمام أسوار القسطنطينية أثارت متاعب كثيرة للدولة، ولم تنج ضواحي العاصمة من تعدياتهم ما حمل الامبراطور على اتخاذ مبادرة نقلهم إلى آسيا الصغرى على وجه السرعة مدركاً في الوقت نفسه، بما له من خبرة وتجربة، أن هذا الجمع الصليبي غير المنظم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إذا عبر المضيق إلى آسيا الصغرى، فسوف يدمره الأتراك بسرعة[٤].

وإذا كانت جموع والتر المفلس وبطرس الناسك قد وصلت إلى القسطنطينية فهناك جموع أخرى ألمانية لم تصل إلى العاصمة البيزنطية بسبب إبادتها من قِبل المجريين وهي في الطريق إليها، وقد حازت على شهرة مؤسفة من واقع إثارة الوعَّاظ لأفرادها ضد اليهود بخاصة، الذين أطمعوهم بثرائهم، فتعرّض بذلك يهود وادي الراين

---

(١) Albirt, d'Aix: p278.

(٢) Ibid: pp276, 277.

(٣) Ibid: pp278-283.

(٤) Ibid: pp283, 284.

للاضطهاد والقتل. وقد برز في هذا المجال أميتش اللييننجي الذي اتخذ أتباعه مجرى الراين أثناء سيرهم، فنهبوا اليهود وقتلوهم في شباير وورمز ومينز وترير وكولون وحتى في براغ، وأجبروا الجالية اليهودية في ريغينبورغ على اعتناق المسيحية، وكانت الحجة التي يطلقونها أنه ينبغي معاقبة اليهود على أساس أنهم أعداء المسيح. وقد تدخل الملك هنري الرابع في الأمر ووضع اليهود تحت حمايته كما تدخل بعض الأساقفة لحمايتهم من القتل، ولكن من دون جدوى(١). والواقع أن فكرة الحصول على الأموال طغت على تفكير هؤلاء الصليبيين.

كذلك لم تصل جموع الكاهن غوتزتشولك الذي خرج باتجاه القسطنطينية على رأس خمسة عشر ألفاً من أتباعه، إذ عندما وصلوا إلى المجر سمح لهم ملكها بالمرور عبر بلاده، غير أن هؤلاء أساءوا إلى السكان واستسلموا للكسل وشرب الخمر، وسرقوا السلع من المحلات التجارية والأسواق العامة، وقتلوا الناس في المنازل والشوارع العامة، من دون إبداء أي اهتمام بقواعد الضيافة، ما أثار ملك المجر، وحتى يُوفر على جنوده عبء القتال معهم، عرض عليهم تسليم أسلحتهم مقابل العفو عنهم، فوافقوا، عندئذ أخذهم الجنود بالسيف وأبادوا أكثرهم، وعاد من نجا إلى بلاده(٢).

نهاية مجموعة العامة أو الشعبية

نظراً إلى ما اتصفت به جموع العامة منذ البداية من عدم التنظيم والتجانس، وعدم وجود قيادة موحدة، وبخاصة بعد أفول سلطة بطرس الناسك؛ يُفسِّر ما حدث عقب الانتقال مباشرة إلى آسيا الصغرى، إذ أن جموع الألمان والإيطاليين والفرنسيين راحت تتسابق وتتنافس في شن الغارات على المناطق الزراعية، فسلبوا سكان القرى من دون تفرقة بين المسلمين والمسيحيين، واقتربوا من مدينة نيقية عاصمة السلطان قلج أرسلان الأول (٤٨٥ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧م) فاستاقوا الماشية، وقتلوا السكان في الضواحي كما أنهم لم يستجيبوا لنصيحة الامبراطور البيزنطي بوجوب البقاء في قلعة كيفيتوت حيث المعسكر الصليبي، وعدم القيام بأي تحرك قبل وصول الحملة النظامية.

ابتدأت الاصطدامات الأولى بين الجموع الصليبية والسلاجقة عندما قرَّر الصليبيون الزحف باتجاه نيقية. وتجاوز رينولد النورماني، وهو أحد القادة الصليبيين

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص١٩٢. سميث: ص٩٦، ٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١٨٩ ـ ١٩٢.

هذه المدينة ووصل إلى قلعة إكسيريجوردون واستولى عليها، واتخذها قاعدة انطلاق للإغارة على الأراضي الزراعية المجاورة والقرى القريبة[١].

أثارت هذه التعديات حفيظة السلطان قلج أرسلان الأول، فأرسل قائده إيلخانوس على رأس جيش كبير لاسترداد القلعة، فضرب الحصار عليها، ومنع عنها الماء بعد أن استولى على النبع والبئر اللذين يغذيانها، فاستبدَّ اليأس بالمحاصَرين[٢]. فقرَّر رينولد أن يستسلم، ففتح أبواب القلعة للجيش السلجوقي بعد أن حصل على وعد من قائده بالإبقاء على حياته إذا اعتنق الإسلام. وسيق رينولد وأتباعه ممن اعتنقوا الإسلام إلى أنطاكية وحلب وخراسان، وقُتل من بقي على مسيحيته[٣].

بلغت أنباء استيلاء النورمان على القلعة مسامع الصليبيين في كيفيتوت، ولجأ السلاجقة إلى خطة ذكية كي يستدرجوهم إلى كمين سبق إعداده، فأشاعوا نبأ استيلاء القوات النورمانية على نيقية، وأنهم بصدد اقتسام الغنائم[٤]، فاشتد الاضطراب في المعسكر، وطلب الجنود السماح لهم بالزحف إلى نيقية ليشاركوا النورمان حصصهم من الغنيمة.

وهكذا راحت جموع الصليبيين تتوغل عبر آسيا الصغرى في الطريق إلى نيقية وهم على غير تعبئة وبدون تقدير لقدرتهم القتالية، إلى أن جرى اكتشاف صدق ما حاق برينولد، فتحولت الإثارة إلى ذعر[٥]. وما إن اقتربت هذه الجموع البالغ عددها نحو عشرين ألفاً من رافد نهر دراكون، حتى تلقَّفتهم القوات السلجوقية وأبادتهم، ولم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف[٦]. وعندما علم الامبراطور البيزنطي بنبأ الكارثة بادر بإرسال بعض السفن نقلت الناجين إلى القسطنطينية[٧].

كانت هذه نهاية مجموعة العامة أو الشعبية الصليبية. لقد تسبَّبت بإزهاق أرواح آلاف عديدة من الناس، واستنفدت ما عند الامبراطور ورعاياه من الصبر وعلَّمت الناس أن الإيمان وحده لن يفتح الطريق إلى بيت المقدس إذا تجرَّد من الحكمة والنظام[٨].

---

(١) المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس جـ١ ص١٩٣. Alexiad: p251.

(٢) يُروى أن الصليبيين داخل القلعة حاولوا أن يُطفئوا ظمأهم بعد أن اشتد بهم العطش بامتصاص الرطوبة من الأرض، وبما لجأوا إليه من شق عروق خيولهم وحميرهم ليشربوا دماءها، بل إن كلّاً منهم كان يشرب بول الآخر.

(٣) Alexiad: p251. Grousset: I p8.

(٤) Alexiad: Ibid.

(٥) رنسيمان: جـ١ ص٢٠٠، ٢٠١.

(٦) المرجع نفسه: ص٢٠١، ٢٠٢.

(٧) Alexiad: pp251, 252.

(٨) رنسيمان: جـ١ ص٢٠٦.

مجموعة الفرسان النظاميين

بعد قيام مجموعة العامة أو الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوروبي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا. وطبيعي أن يكون أفراد هذه المجموعة أكثر تقديراً لخطة سيرهم بعد الاستعدادات بالسلاح والأموال والرجال والعتاد، والاتصال مسبقاً بأمراء وحكام النواحي الذين سيمرون بأراضيهم، حتى يمدوا يد المساعدة لهم.

وتعدَّدت قيادات هذه المجموعة، فلكل أمير رجاله وجنده، كما اختلفت أهواؤهم، فهم على تباين في نظرتهم إلى مفهوم الحركة الصليبية، وتكوَّنت من خمسة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية، والروابط الإقطاعية من ناحية أخرى.

الجيش الأول: تولى قيادة الجيش الأول هيو كونت فرماندوا المعروف بالأصغر، وهو الابن الأصغر لهنري الرابع ملك فرنسا وشقيق الملك فيليب آنذاك، وهو يطمع في أن يحصل في الشرق على السلطة والأموال ما يلائم أصالة نسبه، والراجح أن أخاه فيليب هو الذي شجعه على الاشتراك بالحملة الصليبية كي يلتمس الرضا من البابوية، ويبدو أنه كان أول المغادرين كما كان أول الواصلين إلى الأراضي البيزنطية. فقد ارتحل إلى إيطاليا في (رمضان ٤٨٩هـ/آب ١٠٩٦م) على رأس جيش صغير من أتباعه وبعض الفرسان من ضياع أخيه، وأرسل رسولاً خاصاً إلى القسطنطينية يحمل رسالة تفيض غطرسة وغروراً، ويطلب من الامبراطور أن يقابله بما يليق بمكانته السامية. واجتاز هيو وأتباعه روما وبلغوا ثغر باري في (أواخر شوال/أوائل تشرين الأول)، وأرسل هيو من باري وفداً من أربعة وعشرين فارساً إلى دورازو أخطر حاكمها حنا كومنين ابن أخي الامبراطور بأنه على وشك الوصول، وكرر طلبه بما ينبغي الاحتفال باستقباله. وما إن أبحر من باري حتى ضربت أسطوله الصغير عاصفة بحرية أغرقت بعض السفن بكل ما عليها من الركاب، فانتشله حاكم دورازو مع ضباطه ومن نجا من أتباعه وأرسلهم إلى القسطنطينية؛ فاستقبل الامبراطور البيزنطي هيو استقبالاً حاراً، وغمره بالهدايا الكثيرة إلا أنه قيَّد حريته[١].

على أن وصول هيو، كونت فرماندوا إلى القسطنطينية أرغم الامبراطور ألكسيوس كومنين أن يُحدد سياسته تجاه القادة الصليبيين وكيفية التعامل معهم وبخاصة أن

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٠١ .Alexiad: p213-215

مغامرة روسل بايليل لتأسيس إمارة له في ربوع آسيا الصغرى لا تزال تجول بخاطره، وقد أقنعته بأن الهدف الحقيقي للصليبيين تأسيس إمارات لهم في الشرق، لذلك آثر الاتفاق مع كل واحد منهم على حدة بأساليب متنوعة تتراوح بين إغراقهم بالهدايا أو قطع المؤن والإمدادات عنهم أو القتال، حتى نجح في أن يحصل منهم على يمين الولاء باستثناء ريموند الصنجيلي الذي أقسم بحماية شرف الامبراطور البيزنطي وحياته، كما سنذكر.

الجيش الثاني: تلى وصول هيو كونت فرماندوا إلى القسطنطينية، وصول غودفري دي بوايون كونت اللورين السفلى، شمالي فرنسا، ورافقه أخوه بلدوين وبعض كبار الأمراء، وتألف جيشه من قوات اللورين السفلى والألمان، وقد آثر ألا يسلك الطريق الذي يجتاز إيطاليا كي يتجنب الحرج في علاقاته مع البابوية نظراً لأنه كان من أنصار الامبراطور الألماني هنري الرابع الذي كان بدوره على خلاف معها، لذا سلك الطريق الذي يجتاز بلاد المجر وبلغاريا عبر بلغراد ـ نيش ـ صوفيا ـ فيليبوليس وأدرنة. وبفضل جهود التنظيم والاتفاق مسبقاً مع كولومان ملك المجر، وصل إلى القسطنطينية في (٥ محرم ٤٩٠هـ/ ٢٣ كانون الأول ١٠٩٦م)، وعسكر خارجها في الطرف العلوي للقرن الذهبي بناء على طلب الامبراطور الذي أرسل إليه هيو فرماندوا يدعوه لزيارته، غير أن غودفري رفض الدعوة بحجة أنه حلف يمين الولاء للامبراطور هنري الرابع، وأن هذا اليمين يمنعه من أن يحلف يميناً أخرى للامبراطور البيزنطي، كما أصرَّ على ألا يلتزم بشيء إلا بعد أن ينضم إليه سائر القادة الصليبيين. عندئذ شدّد ألكسيوس كومنين الضغط عليه بمنع المؤن عن جيشه، فاضطر أخوه بلدوين إلى الإغارة على أرباض القسطنطينية لتأمين المؤن، ولما حاول الامبراطور إلزامه بالانتقال إلى آسيا الصغرى مع ما يشكل ذلك من مخاطر على قواته، اصطدم بالقوات البيزنطية، إلا أنه تعرَّض للهزيمة، ووافق أخيراً على النزول على طلب الامبراطور، فأقسم هو وأخوه وكبار قادته على الاعتراف بالامبراطور البيزنطي سيداً أعلى على كل ما يفتحونه من بلاد، وأن يردوا للامبراطورية كل ما ينتزعونه من بلاد كانت تابعة لها، ثم عبر غودفري وجيشه البوسفور إلى آسيا الصغرى واستقر في بليكانوم(١).

الجيش الثالث: تولى بوهيموند النورماني، الابن الأكبر لروبرت جويسكارد قيادة هذا الجيش وصحبه ابن أخيه تانكريد، وتألف من المقاتلين النورمان الأشداء. والواقع أن النورمان لم يحفلوا في بادئ الأمر بدعوة البابا أوربان الثاني إلى الحرب

---

(١) Alexiad: pp220-226, Chalandon, F: Histoire de la Première Croisade: pp119-129.

الصليبية نظراً لاستمرار الحروب الأهلية بينهم في جنوبي إيطاليا، فقد تنازع بوهيموند مع أخيه الأصغر روجر بورسا بشأن وراثة والدهما، فقد ورث الأخير أملاك النورمان في جنوبي إيطاليا، وكان على بوهيموند أن يحصل على المناطق الواقعة شرق الأدرياتيكي، ولكنه لم يحظ بشيء بسبب الحرب التي نشبت بين النورمان والبيزنطيين في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) لذلك رغب بالاستعاضة عنها في مكان آخر. وعندما وصلت الجيوش الصليبية القادمة من فرنسا إلى إيطاليا في طريقها إلى الشرق، أدرك بوهيموند أهمية الحركة الصليبية وأنه يصح الاستفادة منها للتعويض عما حُرم منه، وهو الذي اتصف بالجشع وفساد الضمير واكتسب الكثير من طموح النورمان إلى السلطة، فاستغلَّ الفكرة الدينية لأغراضه، ووزَّع بيديه صلباناً من قماش على أصحابه عندما قرَّر المشاركة في الحملة الصليبية، أثناء حصار أمالفي التي ثارت على الحكم النورماني.

وما اتصف به الصليبيون الفرنسيون من الحماس أثار الجنود النورمان الذين لقوا التشجيع من زعيمهم بوهيموند، فأعلن هذا أنه سوف يشترك في الحملة الصليبية، ودعا المؤمنين المسيحيين للحاق به، فانضم إليه نورمان صقلية وفرنسا، وسار معه عدد لا يُحصى من رجال الدين والفرسان المعجبين بالصفات النورمانية، غير أن ما التفَّ حوله من الجند كانوا أصغر حجماً من جيش غودفري دي بوايون غير أنهم يفوقونه في عدته وتدريبه، فأبحر من باري في (شوال ٤٨٩هـ/ تشرين الأول ١٠٩٦م)، ونزل في إقليم أبيروس على الشاطئ الشرقي، وسلك الطريق القديم غير المألوف إلى القسطنطينية المسمى طريق أغناتيا كي يتجنَّب إشراف البيزنطيين ورقابتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد صحبته قوة بشناقية عندما وصل إلى أديسا (الرها) بناء على أمر الامبراطور، لمنع عناصره من أن يقوموا بأعمال السلب والنهب ومراعاة ألا يمكثوا أكثر من ثلاثة أيام في المدينة الواحدة.

وبفعل شدة صرامته في حفظ النظام ورغبته في أن يظهر أمام الامبراطور بمظهر طيب؛ منع أفراد جيشه من التعدي على السكان ونهب القرى والمدن التي يجتازونها، فلم تحدث اصطدامات مع الحاميات البيزنطية وجرى تقديم المؤن لهم.

وحدث أن ترك بوهيموند الجيش تحت قيادة تانكريد وأسرع إلى القسطنطينية كي يقف على ما يجري من المفاوضات بين الامبراطور وقادة الغرب الذين سبقوه، ويُعبِّر عن إخلاصه ونواياه الطيبة، فوصل إليها في (١٥ ربيع الآخر ٤٩٠هـ/ ١ نيسان ١٠٩٧م) ولحقه جيشه بعد أسبوع تقريباً.

كان بوهيموند في نظر ألكسيوس كومنين أشد الصليبيين خطورة بفعل ما تعرَّض له

البيزنطيون في السابق من كوارث على أيدي النورمان، وأدرك بوهيموند من جانبه بأن الامبراطورية البيزنطية لا زالت دولة بالغة القوة وأن التحالف معها يصب في مصلحة القضية الصليبية، وأن كل نزاع يؤدي إلى كارثة، لذا اتصفت علاقته مع الامبراطور بالواقعية فكان صادقاً معه، وأظهر من الخلق المستقيم ما أثار إعجابه، ثم أقسم يمين الولاء له.

وطمع بوهيموند في أداء دور الوسيط بين الامبراطور والصليبيين والمحور الذي تدور حوله كل التحالفات المسيحية، لذلك كان بحاجة إلى تكليف رسمي من الامبراطور، فاقترح عليه أن يُعينه في وظيفة دمستق الشرق، أي القائد الأعلى للقوات الامبراطورية في آسيا الصغرى، فأثار هذا الطلب الحيرة في نفس ألكسيوس كومنين الذي لم يطمئن إلى نواياه ولم يثق به، والواقع أنه كان يشك في نوايا الصليبيين بعامة والنورمان بخاصة، إلا أنه حرص على اكتساب ولائه له، فغمره بالهدايا والملاطفات والأموال والتشاريف، فاختلق من الأسباب لعدم الاستجابة لطلبه، لكن وعده بإمداده بالعساكر الامبراطورية، وبدفع أجورهم، ويُوفِّر له المؤن والمواصلات.

وبعد انتهاء المشاورات والمفاوضات بشأن الترتيبات المستقبلية تقرَّر استدعاء جيش بوهيموند إلى القسطنطينية، وجرى نقل أفراده إلى البر الأسيوي في (١١ جمادى الآخرة/٦ نيسان) فانضموا إلى جيش غودفري دي بوايون في بيلكانوم[(١)].

الجيش الرابع: تولى قيادة الجيش الرابع ريموند الرابع كونت تولوز الذي اشتهر باسم الصنجيلي نسبة إلى سان جيل، وتألف جيشه من فرسان جنوبي فرنسا والبروفنسال وهو من أغنى الصليبيين، فحشد جيشاً كثير العدد، وعيَّن ابنه غير الشرعي برتراند على أملاكه أثناء غيابه، واصطحب معه زوجته ووريثه الشرعي ألفونسو، ورافقه المندوب البابوي أدهيمار لوبوي. وبرز في صفوف الحملة الصليبية على أنه أقل جشعاً من القادة الآخرين، وبلغت شخصيته حداً من التعقيد يصعب تقديره، وما قام به من أعمال خلال حياته في الشرق تدل على أنه مغامر عنيد يسعى للحصول على الربح والكسب المادي، شديد الغرور، غير أن ما اتصف به من طباع دمثة صادفت قبولاً عند البيزنطيين الذين رأوا أنه يفوق سائر رفاقه الصليبيين تمدناً وأدباً.

اشترك ريموند، قبل انطلاقه إلى الشرق، في الحروب ضد المسلمين في إسبانيا وهو أول نبيل استشاره البابا أوربان الثاني في مشروع الحملة الصليبية، كما كان

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٢١١ ـ ٢١٤. Alexiad: pp326-329.
المؤرخ المجهول: ص٢٠٢ ـ ٢٠٤.

أول من أعلن موافقته عليها ونذر أن يقضي بقية حياته في الشرق ولهذا السبب وغيره رأى أن له الحق في قيادة الجيوش الصليبية.

انطلقت حملة ريموند في (شوال ٤٨٩هـ/ تشرين الأول ١٠٩٦م) وانضم إليها عدد كبير من نبلاء جنوبي فرنسا، فعبرت جبال الألب عند كول دي جنيفر، واخترقت شمالي إيطاليا حتى رأس بحر الأدرياتيكي ثم التزمت الطريق البري الذي يجتاز أستريا ودلماسيا (ألبانيا) وسلكت طريق أغناتيا، وقد وقعت تحت وطأة شتاء البلقان القارس، إلا أن ريموند تمكَّن من المحافظة على النظام إلى حد بعيد.

وصلت الحملة إلى الحدود البيزنطية شمالي دورازو في (ربيع الأول ٤٩٠هـ/ شباط ١٠٩٧م)، فاستقبلها حاكم المدينة حنا كومنين، وكان بانتظارها أفراد من حرس البشناق ليصحبوها إلى القسطنطينية. وأرسل ريموند في غضون ذلك سفارة إلى العاصمة البيزنطية ليعلن عن قدومه ثم سبق الحملة ووصل إليها في (٦ جمادى الأولى/ ٢١ نيسان) ووصلت الحملة بعد ستة أيام.

وجرت دعوة ريموند للقدوم إلى القصر، فعرض عليه الامبراطور أن يحلف يمين الولاء له أسوة بالقادة الذين سبقوه، غير أنه لم يشأ أن يلتزم بشيء في ظل غياب الأسقف أدهيمار لأن سلطته الراهنة مستمدة من البابا عبر الأسقف، فإذا حلف يمين الولاء للامبراطور فإنه يتخلى بذلك عن الصلة التي تربطه بالبابوية، وتهبط مكانته إلى مستوى القادة الآخرين، ثم إنه علم بأن الامبراطور سوف يُعين منافسه بوهيموند قائداً عاماً للحملة، وإذا فعل ذلك فسوف يفقد أسبقيته ويجد نفسه خاضعاً لسلطته بوصفه ممثلاً للامبراطور؛ ما زاده تمسكاً برأيه، وأعلن أنه لم يأت إلى الشرق إلا لكي يعمل في سبيل الله، والله تعالى سيده ووليه، وأضاف أنه سينضوي تحت لواء الامبراطور إذا قاد القوات المسيحية بنفسه.

وحدث في آخر الأمر، أن وافق ريموند على أن يُعدِّل في صيغة القسم بأن وعد باحترام وتبجيل حياة الامبراطور وشرفه وأنه يحرص ألا يصيبه ضرر من جانبه ومن جانب رجاله، فاكتفى ألكسيوس كومنين بذلك وأقرّه، وبعد انتهاء المفاوضات عبر مع قواته إلى الجانب الآسيوي[1].

الجيش الخامس: كان الجيش الخامس تحت قيادة كل من روبرت، كونت نورمانديا وهو الابن الأكبر للملك وليم الفاتح، والكونت ستيفن بلوا زوج أخته أديلا، وابن عمه الكونت روبرت الثاني، كونت فلاندر، وتألَّف من الفرسان القادمين من غربي فرنسا ونورمانديا وبعض مناطق الشمال فضلاً عن الكثير من

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٠٤. الصوري، وليم: جـ١ ص٢١٧ ـ ٢٢٥.

الفرسان الإنكليز من أتباع الملك الإنكليزي وليم روفوس وهو أخ لروبرت.

انطلقت الحملة من فرنسا في (ذي الحجة ٤٨٩هـ/ تشرين الأول ١٠٩٦م) فعبرت جبال الألب إلى إيطاليا والتقى أفرادها بالبابا أوربان الثاني في لوكا، فعيَّن مندوبين عنه في الحملة التي توجَّهت من لوكا إلى جنوبي إيطاليا، وقرَّر روبرت النورماندي وستيفن بلوا تمضية فصل الشتاء في كلابريا في حين تابع روبرت الثاني فلاندر تقدمه عبر الأدرياتيكي ووصل إلى القسطنطينية في الوقت الذي وصل فيه بوهيموند، وتبعه الاثنان اللذان بلغا القسطنطينية في (جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ أيار ١٠٩٧م)، فاستقبلهم الامبراطور ألكسيوس كومنين، وأقسموا له يمين الولاء[١].

سياسة ألكسيوس كومنين تجاه الصليبيين

لم يتوقع الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين وصول هذه الأعداد الضخمة من المقاتلين الغربيين، علماً بأنه لا يمكن تقدير هذا الحجم إلا تخميناً لأن ما حدث في العصور الوسطى من تقديرات اتسمت دائماً بالمبالغة الشديدة، ولا بد أن نَفَذَ إلى الامبراطورية البيزنطية من الغرب بين (منتصف ٤٨٩ وأوائل ٤٩٠هـ/ صيف ١٠٩٦ وربيع ١٠٩٧م) ما يتراوح عديده بين ستين ومائة ألف شخص[٢].

واعتقد ألكسيوس كومنين أن يمده الغرب بفرق من المرتزقة محدودة العدد الذين تعوَّد البيزنطيون أن يُجندوهم في خدمتهم، ولما كان عاجزاً عن أن يفعل شيئاً تجاه هذا الأمر فإنه قرَّر أن يتعايش مع الواقع ويفيد من الموقف بأفضل المكاسب، فاتخذ من التدابير ما كفل له ذلك، فلم يسمح سوى للقادة وعدد قليل من مرافقيهم دخول عاصمته ومن ثم ضرب الصليبيون خيامهم في ضواحيها، وحرص على أن يستعرض أمامهم عظمة البلاط البيزنطي بهدف إبراز مظاهر الثراء والفخامة التي تميزت بها الامبراطورية، وكان رونق المراسم الامبراطورية حاضراً لدى استقبالهم، ولا شك بأنهم بُهروا بمظاهر الحضارة البيزنطية لأنهم لم يلمسوا شيئاً من ذلك في الغرب الأوروبي. وعمد ألكسيوس كومنين إلى إغداق الهدايا عليهم ليستقطبهم، وقد ترك ذلك أثراً عند ستيفن بلوا على الأقل.

إلا أن هذا لم يحجب الصعوبات السياسية التي نشأت نتيجة وصول الصليبيين، إلا أن وسيلة الضغط في يد ألكسيوس كومنين، تمثَّلت في أنه الوحيد الذي يملك السفن الكافية لنقل الجيوش الصليبية عبر البوسفور في الوقت الذي لم يكن بوسعه

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٢١٦، ٢١٧، ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٢٥٧.

الانتظار طويلاً لنقلهم، فقد حتَّمت عليه مصلحته أن ينقل أقسام الجيوش إلى آسيا الصغرى على وجه السرعة بعد وصولها، حتى لا يزداد عدد القوات كثيراً في ضواحي العاصمة ما يُسبِّب مشكلات أمنية وتموينية.

ومن الواضح أن ألكسيوس كومنين أراد أن يطلع على نوايا الصليبيين فيما يتعلق بالأراضي التي سيستولون عليها في الشرق وبخاصة تلك التي كانت تابعة للامبراطورية البيزنطية. وقد حافظ على مصالحه من خلال فكرة اليمين الإقطاعي المعروفة في المجتمع الغربي لتثبيت حقوقه على كثير من الأراض التي سيتم انتزاعها من أيدي الأتراك.

ومع ذلك، فإن ألكسيوس كومنين لم يكن ساخطاً، وإذ توجه الجيش الصليبي الكبير لقتال الأتراك بَعُدَ الخطر عن القسطنطينية، وعزم على أن يتعاون مع الصليبيين بإخلاص بشرط ألا يُضحِّي بمصالح الامبراطورية في سبيل مصالح فرسان الغرب، وأن واجبه نحو قومه يأتي في المقام الأول، يضاف إلى ذلك أنه لم يختلف عن كل البيزنطيين في الاعتقاد بأن سعادة العالم المسيحي تتوقف على سعادة الامبراطورية المسيحية المعروفة في التاريخ(١).

سقوط نيقية

اندفعت الجيوش الصليبية بعد العبور إلى آسيا الصغرى باتجاه نيقية عاصمة سلاجقة الروم للاستيلاء عليها، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكَّل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام. وتوحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية. وقد رأى الامبراطور البيزنطي أنه لا بد من القيام بعمل حاسم لتحطيم قوة السلاجقة المتعاظمة بانتزاع عاصتهم نيقية.

وصلت القوات الصليبية إلى العاصمة السلجوقية في (٢١ جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ ٦ أيار ١٠٩٧م) وعسكرت حول أسوارها، وضربت الحصار عليها باستثناء منطقتها الغربية حيث توجد البحيرة، وساعدهم جيش بيزنطي بقيادة تاتيكيوس، كما كان الامبراطور يمدهم تباعاً بالإمدادات والمؤن عن طريق البر والبحر. وحالت مناعة استحكاماتها بينهم وبين مهاجمتها فوراً، إذ أن أسوارها التي امتد طولها أربعة أميال والتي ارتفع عليها مائتان وأربعون برجاً بالإضافة إلى المياه الضحلة التي أحاطت بها؛ شكَّلت عائقاً لم يتمكنوا من تذليله فوراً(٢).

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٢٥٩. Grousset: I p29.

(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٣١، ٢٣٢.

لم يُرسل السلطان قلج أرسلان الأول في بادئ الأمر، قوة عسكرية نحو الغرب للتصدي للزحف الصليبي، وآثر البقاء في الشرق بسبب النزاع مع الدانشمنديين[(١)] حول ملكية ملطية، ولم يُبدِّل رأيه إلا عندما طلبت منه الحامية الإسراع لنجدة المدينة، إذ على الرغم من ضخامتها فإنها احتاجت إلى إمدادات خارجية سريعة، فأرسل قوة عسكرية كطليعة ثم لحق بها بعد أن فكَّ الحصار عن ملطية[(٢)].

لم تصل طليعة الجيش السلجوقي إلا بعد أن أحكم الصليبيون الحصار على المدينة، فلم تتمكَّن من الدخول في معركة، وانسحبت بعد مناوشات فاشلة وأخذت تترقب وصول السلطان مع جيشه الرئيس الذي كان يقترب من المدينة[(٣)].

حاولت الحامية بعد أن أشتد الحصار على المدينة، وتأخرت القوة السلجوقية المساندة؛ تسليمها إلى الامبراطور البيزنطي، على أثر مبادرة قام بها هذا الأخير، فأرسل القائد بوتوميتس ليتفاوض في أمر التسليم، إلا أن المفاوضات توقفت عندما علمت الحامية بنبأ قرب وصول السلطان[(٤)].

وصل السلطان قلج أرسلان إلى المدينة من جهة الجنوب، فبادر فوراً بمهاجمة القوة الصليبية المحاصِرة محاولاً بذلك أن يشق له طريقاً يوصله إلى الداخل. ودارت بين الطرفين بعض المناوشات استمرت يوماً واحداً من دون أن يتمكَّن من ذلك، عندئذ آثر أن يترك المدينة تواجه مصيرها، ثم انسحب إلى الجبال المجاورة تاركاً للحامية حرية التصرف[(٥)].

استمر الحصار مدة خمسة أسابيع تعرَّض الصليبيون خلالها لخسائر فادحة في الأرواح نتيجة المناوشات اليومية مع الحامية، وحتى يرفعوا معنوياتهم ويُضعفوا معنويات الأتراك، عمد الصليبيون إلى قطع عدد كبير من رؤوس الأسرى، وثبتوها على الحراب، ثم رفعوها وطافوا بها حول أسوار المدينة قبل أن يقذفوها إلى الداخل[(٦)].

---

(١) في الوقت الذي كان فيه سليمان بن قُتْلُمُش يؤسس دولته في ربوع آسيا الصغرى، أنشأ بعض الأمراء الأتراك الذين استقروا في المنطقة، أمثال كمشتكين أحمد دانشمند وزاخاس ومنكوكجك، إمارات لهم في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى. كان كمشتكين أحمد دانشمند أحد قادة ألب أرسلان واشترك معه في معركة مانزيكرت، ونظراً لبلائه منحه مدن توقات وسيواس والبستان وملطية ونيكسار ليحكمها تحت إشراف السلاجقة العظام، ثم استقل بها عندما ابتعد هؤلاء عن المسرح السياسي في آسيا الصغرى وأسس الإمارة الدانشمندية (٤٧٧ ـ ٥٧٣هـ/ ١٠٨٤ ـ ١١٧٧م) واتخذ مدينة سيواس عاصمة له.

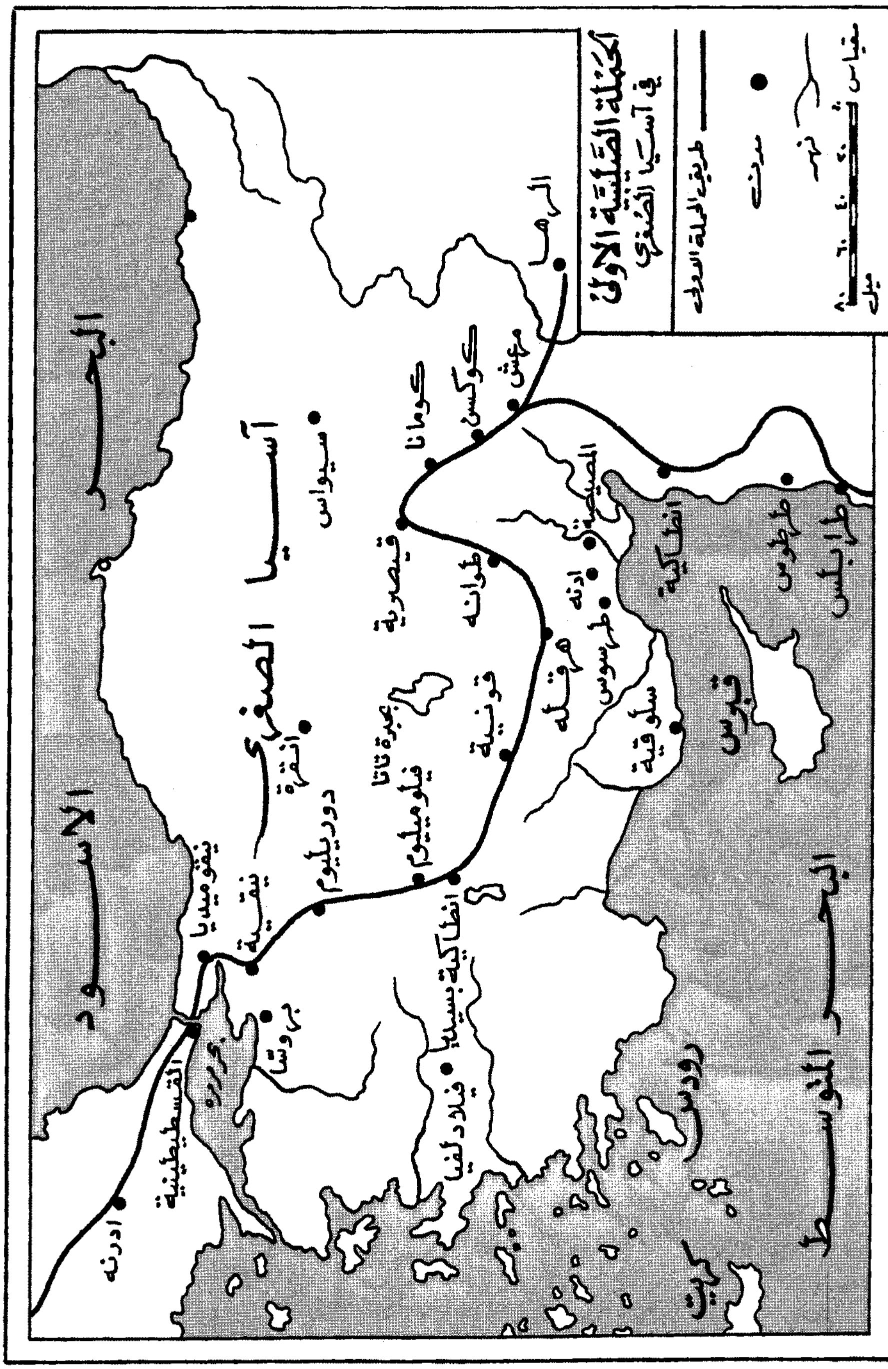
(٢) Grousset: I p29.

(٣) Alexiad: pp258-260.

(٤) Ibid.

(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٣٣، ٢٣٤. Ibid: p270.

(٦) فولشر الشارتري: ص٤٧. وقارن بالمؤرخ المجهول الذي يذكر أن الحصار استمر سبعة أسابيع وثلاثة أيام. جـ١ ص٢٠٨.



الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى

أدّت استحكامات المدينة البالغة المناعة دوراً بارزاً في إطالة أمد الحصار، كما أن المؤن التي كانت تدخل إليها عبر البحيرة بموافقة الامبراطور البيزنطي رفعت معنويات المحاصَرين. والراجح أن هذا الأخير أدرك صعوبة موقف الصليبيين فأراد أن يُثبت لقادتهم أن تعاونهم معه ضروري، وفعلاً اضطر هؤلاء إلى التماس مساعدته، وبناء على طلبهم أمدهم بأسطول صغير منع وصول المؤن إلى داخل المدينة عبر البحيرة، وراح في الوقت نفسه يُخطط للاستيلاء عليها بمعزل عن الصليبيين(١).

أدرك أفراد حامية المدينة بعد أن شاهدوا السفن العسكرية البيزنطية في البحيرة، أن الامبراطور البيزنطي عدَّل سياسته تجاههم وأنه من دون وصول المؤن إلى داخل المدينة عبر البحيرة سيتعرض السكان للمجاعة، لذلك قرروا تسليم المدينة إلى الصليبيين، لكن السكان خشوا عنف هؤلاء إذا دخلوا المدينة، وفضّلوا تسليمها إلى الامبراطور، وجرت مفاوضات بين أفراد الحامية وممثلين عنه بقيادة بوتوميتس(٢).

سُرَّ الامبراطور بهذه المبادرة من جانب حامية المدينة؛ لأنه خشي أن يمتنع القادة الصليبيون عن تسليمها إليه إذا سقطت في أيديهم، وتقرَّر في النهاية تسليمها مقابل تأمين حياة السكان(٣).

شحن ألكسيوس كومنين المدينة بقوات بيزنطية، وفوجئ الصليبيون بالأعلام الامبراطورية ترفرف فوق الأسوار من دون أن يعلموا يقيناً بتفاصيل المحادثات السرية التي دارت بين أفراد الحامية والامبراطور(٤).

وتنفيذاً للاتفاق المبرم، خرج الأتراك من المدينة مع أمتعتهم تحت حراسة مشدَّدة إلى القسطنطينية أو إلى المعسكر البيزنطي في بيلكانوم، ومن بينهم أخت السلطان وزوجته وأولاده، ولم يلبث الامبراطور أن أعادهم إلى السلطان من دون فدية، وكافأ بوتوميتس بأن عيَّنه حاكماً على نيقية(٥).

الواقع أن الوسيلة التي لجأ إليها الامبراطور للاستيلاء على المدينة أغاظت الصليبيين، واعتقدوا بأنه في الوقت الذي كانت فيه على وشك السقوط في أيديهم، خشي أن يرفضوا تسليمها إليه وفقاً للاتفاقية المبرمة بينهما، ولما كان هدفه العمل على إعادتها إلى حظيرة الامبراطورية، ورغبة منه في ألا تُصاب بسوء على أيديهم؛

---

(١) فولشر الشارتري: ص٤٧. المؤرخ المجهول جـ١ ص٢٠٨. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٣٥ ـ ٢٣٧.

(٢) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٠٨. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٤٢.

(٣) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه. Alexiad: p273.

(٤) فولشر الشارتري: ص٤٨.

(٥) Alexiad: pp273-275.

بادر إلى التفاوض سراً مع الأتراك لتسليمها إليه سلماً، ولهذا السبب وافق على شروطهم في أن يخرجوا سالمين.

ويبدو أن تعليلهم هذا صحيح، فقد ذكرت الأميرة أنَّا كومنين أن الامبراطور كان يود الاشتراك شخصياً مع القوات الصليبية في قتال الأتراك، لكنه خشي من أعدادهم الكثيرة التي كانت مصدر قلق له، كما أن احتمال فشله في إحراز نصر عسكري في هذه الظروف الحرجة، يُعدُّ ضربة قاسية له، لذلك فضَّل الانتظار في مدينة بيلكانوم ومراقبة تطور الأحداث، وهي لا تُخفي أن أباها كان يرغب باستعادة نيقية، من دون مساعدة الصليبيين لأنه خشي إن هم امتلكوها ألا يوفوا بتعهداتهم، ولذلك أخفى نواياه طي الكتمان، وانتهج خطة مزدوجة، فأرسل بوتوميتس الذي يثق به إلى المدينة لإقناع الحامية بتسليمها إليه مقابل الأمان، وكلَّفه أن يُحذرهم في الوقت نفسه سوء العاقبة إذا وقعت في أيدي الصليبيين(١).

من الثابت أن عملية التسليم تمَّت وفقاً للاتفاق المعقود بين الامبراطور وزعماء الصليبيين، على الرغم من تلك الاتصالات السرية التي جرت بين السلاجقة والبيزنطيين بشأن ذلك، وأن ألكسيوس كومنين وفى بكل تعهداته التي نصَّ عليها الاتفاق، حتى أن قادة الحملة الصليبية زاروه في اليوم التالي لشكره وتهنئته قبل أن يستأنفوا زحفهم، ولم يعارض أحد منهم في تسلُّمه المدينة، كما جدَّدوا له القسم باستثناء تانكريد وريموند اللذين أصرَّا منذ البداية على عدم التعهد بأي قسم للامبراطور(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد سقطت نيقية في أيدي البيزنطيين في (١٦ رجب ٤٩٠هـ/ ١٩ حزيران ١٠٩٧م) بعد ستة عشر عاماً من فتح السلاجقة لها، وأضحى بوسع الامبراطورية البيزنطية التنفس بحرية بعد إجلاء السلاجقة عن هذا المعقل الأمامي الحصين(٣).

توجَّه السلطان قلج أرسلان الأول بعد سقوط عاصمته نحو قونية واتخذها عاصمة جديدة لسلطنته وقاعدة عسكرية للانطلاق منها والدفاع عن أراضيه، ثم أجرى مفاوضات مع الأمير الدانشمندي كمشتكين أحمد من أجل تجميد خلافاتهما والتعاون لمواجهة الغزو الصليبي الذي يُهدّدهما معاً. لقد زاد سقوط نيقية من خوفه

(١) Alexiad: p268. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٤٢، ٢٤٣. إنه يصف تاتيكيوس بالرجل العظيم الدهاء.

(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٤٢، ٢٤٣. Grousset: I pp30, 31.

(٣) Oman: I p239.

على المستقبل كما أن ضياع أمواله وكنوزه التي استولى عليها البيزنطيون كان أمراً سيئاً[١].

اسفرت المفاوضات بين البيتين التركيين السلجوقي والدانشمندي عن عقد هدنة بينهما، كما اتحدا للتصدِّي للزحف الصليبي الذي وصل إلى كبادوكيا، وتناسيا مؤقتاً، تنافسهما بشأن ملطية. وهكذا اتحد الأتراك جميعهم في آسيا الصغرى للتصدي للصليبيين في سهول دوريليوم[٢].

معركة دوريليوم

استأنف الصليبيون سيرهم بعد استراحة أسبوع على سقوط نيقية، عبر فريجيا متخذين الطريق الروماني الذي يمر في دوريليوم وفيلوميليوم وقونية وصولاً إلى طرسوس، وصحبتهم سرية من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس، فتوقفوا في قرية لويكي، وعقدوا فيها مجلساً عسكرياً حدَّدوا خلاله خطة الزحف، وتقرَّر تقسيم الجيش الصليبي إلى قسمين لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف، والقضاء على المقاومة السلجوقية في أكبر مساحة ممكنة[٣].

تألَّف القسم الأول من الجيش من نورمان جنوبي إيطاليا، وشمالي فرنسا أتباع بوهيموند وتانكريد، وجنود كونت فلاندر، وستيفن بلوا فضلاً عن الأدلَّاء البيزنطيين، وقاده بوهيموند. وتألَّف القسم الثاني من جنود جنوبي فرنسا واللورين أتباع غودفري دي بوايون وريموند، وجنود كونت فرماندوا، وقاده ريموند. وتقرَّر أن يلتقيا في دوريليوم بعد أن يسيرا بشكل متواز تفصل بينهما سبعة أميال، وينطلق الواحد منهما قبل الآخر بيوم واحد[٤].

تقدم الجيش الصليبي بقسميه إلى منطقة السهول التي يسقيها أحد روافد نهر سنغاريوس حيث كان الأتراك يتربصون بهم، ويُعدُّ هذا المكان مناسباً لممارسة فرسانهم تكتيكهم العسكري. فانطلقوا عبر السهل بخيولهم الخفيفة وراحوا يلتفون حول القسم الأول من الجيش المتقدم من دون أن يشتبكوا به. وحرص الصليبيون من جانبهم على ألا يفرقهم الأتراك أو يفاجئونهم بخوض معركة لم يستعدوا لها،

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٢٧٨.

(٢) عاشور: جـ١ ص١٦٦.

Cambridge History of Islam: I p238.

(٣) المؤرخ المجهول: ص٣٨ .Alexiad: p276

(٤) Ibid.

لذلك عسكروا في (٢٧ رجب/ ٣٠ حزيران) قرب خرائب دوريليوم[١].

ظهر الأتراك في صبيحة اليوم التالي، وباشروا فوراً بتطويق الصليبيين والضغط عليهم. وجرى اشتباك بين الطرفين أسفر عن انتصار الصليبيين. ورجحت كفة الأتراك في بداية المعركة التي استمرت ساعات عدة قبل أن يصل القسم الثاني من الجيش ويشترك في القتال. وانسحب السلطان قلج أرسلان الأول إلى داخل هضبة الأناضول عندما أدرك أن لا فائدة تُرجى من استمرار القتال. بلغت الخسائر في الأرواح عند الطرفين أقل مما توقع أي منهما، وعانى الأتراك في العشر دقائق الأخيرة عندما حاصر الصليبيون جناحهم الأيسر، وأصيب بوهيموند بجراح، واستولى الصليبيون على المدينة[٢].

نتائج معركة دوريليوم

- كان لمعركة دوريليوم التي يمكن وصفها بمعركة الحظ[٣]، تأثير بالغ السوء على أوضاع السلاجقة، إذ بهزيمتهم خسروا بعض ما كسبوه خلال أكثر من عشرين عاماً منذ معركة مانزيكرت[٤] إلا أنهم كسبوا احترام الصليبيين وإعجابهم بما تحلوا به من شجاعة وبما طبَّقوه من أساليب علمية في فنون الحرب[٥] وأدرك السلطان قلج أرسلان الأول أن لا جدوى من المحاولة لوقف الزحف الصليبي، فلجأ مع أتباعه إلى التلال بعد أن خرَّبوا القرى لحرمان الصليبيين من الإفادة من خيراتها، ولم يعد السلطان يجرؤ بعد ذلك على مواجهتهم منفرداً[٦].

- ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى هي قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم العسكري على القوى التي طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية، ألا وهي قوة السلاجقة[٧].

- فتحت معركة دوريليوم الطريق للصليبيين إلى بلاد الشام، وكفلت لهم سلامة المرور عبر آسيا الصغرى[٨].

- نجحت بيزنطية في استرداد الجزء الغربي من الأناضول الذي خسرته بعد سقوط

---

(١) Oman: I p273.

(٢) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢١٠ ـ ٢١٢. فولشر الشارتري ص٤٧ ـ ٥٠. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٤٤ ـ ٢٤٩.

(٣) Oman: I p277.

(٤) Rice, Tamara Talbot: The Seljuks in Asia Minor: p55.

(٥) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢١٢.

(٦) Alexiad: p277.

(٧) Grousset: I p35.

(٨) Oman: I p279.

نيقية بأيدي السلاجقة في عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) علماً بأن هذا النجاح جاء نتيجة مباشرة للحملة الصليبية.

- تسلَّم الدانشمنديون زمام مبادرة التصدِّي للصليبيين بعد اندحار السلاجقة في معركة دوريليوم.

استئناف الزحف الصليبي باتجاه بلاد الشام

استأنف الصليبيون زحفهم، فوصلوا إلى قونية بعد معاناة من صعوبة الأرض وقِلَّة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف، فوجدوا المدينة خالية من السكان إلا من بعض الأرمن المقيمين بالقرب منها. ويُذكر بأن الأتراك أخلوا مدينتهم واحتموا بالجبال[١]، فاجتذبت خصوبتها، الصليبيين، فهي منطقة خصبة تفيض بالمأكولات والأطايب، وتزخر بشتى أنواع الحياة[٢]، فاستجمُّوا بها قبل أن يواصلوا تقدمهم إلى مدينة هرقلة القريبة منها، وأشار عليهم الأرمن أن يتزوَّدوا بكميات وفيرة من المياه[٣].

وجدَّد الأتراك خلال ذلك محاولاتهم عرقلة التقدم الصليبي، وكانت القيادة هذه المرة بيد كل من الأميرين حسن وكمشتكين أحمد دانشمند، لكن هذه المحاولات لم تثمر وباءت بالفشل أمام تصميم الصليبيين على اختراق المنطقة. ولما وصلوا إلى هرقلة، انشقَّ كل من تانكريد وبلدوين عن الجيش الرئيس وتوجها إلى كيليكية في الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى ليرويا ظمأهما بتأسيس إمارات فيها[٤] في حين تحرك الجيش الرئيس نحو قيصرية واستولى عليها بعد أن هجرها الأتراك، كما استولى الصليبيون على قلعة كومانا وهي قلعة أرمنية في جبال طوروس ذات موقع مهم، وكان الدانشمنديون يحاصرونها، فلما اقترب الصليبيون منها اختفى الأتراك[٥].

تقدم الصليبيون بعد ذلك إلى كوكسن، وهي مدينة خصبة سكانها من الأرمن، فاستقبلوا بالمودة البالغة، وتزوَّدوا منها قبل أن يتقدَّموا إلى مرعش ويستولوا عليها في (٤ ذي القعدة ٤٩١هـ/ ١٣ تشرين الأول ١٠٩٨م)[٦] ولم تتغيَّر أوضاعهم نحو الأفضل إلا عندما وصلوا إلى منطقة أرمينيا الصغرى، إذ مدَّ لهم سكانها من الأرمن يد المساعدة، وأحسنوا استقبالهم، وزوَّدوهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤن.

---

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢١٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٢١٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) فولشر الشارتري: ص٥١.
(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٦٠ ـ ٢٦٢.
(٦) فولشر الشارتري: ص٥١. Grousset: I p40. ومرعش مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. الحموي: جـ٥ ص١٠٧.

سيطرة الصليبيين على كيليكية

شكَّل التواجد الأرمني الكثيف في كيليكية عاملاً رئيساً سهَّل مهمة الصليبيين في الاستيلاء على هذا الإقليم، إذ أن معظم سكان المدن والقلاع كانوا من العنصر الأرمني مع وجود حاميات سلجوقية وضعها السلاجقة في المدن الكبيرة مثل طرسوس[(١)] وأذنة[(٢)] والمصيصة[(٣)] منذ أيام سليمان بن قُتْلُمُش، علماً بأن الأرمن هاجروا من أرمينيا بعد أن استولى السلاجقة العظام على مواطنهم الأصلية في منابع نهر الفرات واستقروا في الجهات المحيطة بملطية والرها[(٤)] وأنطاكية. ونتيجة للتوسع السلجوقي في آسيا الصغرى خشوا على أنفسهم، فتوجهوا إلى أراضي كيليكية الجبلية الواقعة في جنوب شرقي آسيا الصغرى بعيداً عن طرق الغزو السلجوقي، وسيطروا تماماً على هذا الإقليم حتى أن المؤرخ غروسيه أطلق عليها اسم أرمينية الجديدة[(٥)]. ويتميز هذا الأقليم بوجود عدد من البلدات والقلاع التي تتحكَّم في الطريق من آسيا الصغرى إلى بلاد الشام منها: أذنة، طرسوس، المصيصة، عين زربى[(٦)]، وهي التي عُرفت بالثغور الإسلامية.

وبرز عدد من القادة الأرمن أدوا دوراً فاعلاً في تاريخ هذه المنطقة نذكر منهم:

أوشين بن هيثوم مؤسس أسرة هيثوم المشهورة، وقد استقل بالمنطقة الواقعة إلى الغرب من أبواب كيليكية، واتخذ قلعة لامبرون المطلة على جبال طوروس وسهل كيليكية مقراً له واستولى على جانب من مدينة أذنة.

واستقر روبين من أسرة بقراط في المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي من سيس[(٧)] في عام (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) وخلفه ابنه قسطنطين الأول الذي اتخذ قلعة بارتزربرت الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس مقراً له، ثم توسع نحو الشرق، فاستولى على قلعة ڤاهكا الواقعة على نهر جاكسو في جبال طوروس الأمامية، وانتشر قسم من الأرمن خارج كيليكية.

---

(١) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. الحموي: جـ٤ ص٢٨.
(٢) أذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة مشهور. المصدر نفسه: جـ١ ص١٣٣.
(٣) المصيصة: مدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. المصدر نفسه: جـ٥ ص١٤٥.
(٤) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. الحموي: جـ٣ ص١٠٦.
(٥) Histoire de L'Armenie: p522.
(٦) عين زربى: بلد بالثغر من نواحي المصيصة. الحموي: جـ٤ ص١٧٧.
(٧) سيس: مدينة بالثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس. المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٩٧.

وحدث أن انفصل بلدوين عن الجيش الصليبي الرئيس الزاحف إلى أنطاكية عند هرقلة، وكذلك فعل تانكريد. وراح الاثنان يبحثان عن فرص للمغامرة ويسعيان لتحقيق مكاسب خاصة بكل منهما، وقد عارضا سلوك الجيش الطريق الدائري الطويل حول كبادوكيا عبر قيصرية(١) ومرعش الذي قرَّر زعماء الحملة الصليبية عبوره بناء على اقتراح الامبراطور البيزنطي، لأن ذلك يُمكِّن بيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التي عُرفت فيما بعد باسم أرمينيا الصغرى التي كانت تسكنها عناصر مسيحية، علماً بأن تانكريد كان لا يزال ممتنعاً عن الاعتراف بالاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع البيزنطيين، ويبدو أن بلدوين شاركه في كثير من آرائه ووجهة نظره، ومن ثَمَّ تجنَّب الاثنان سلوك طريق كبادوكيا وتوجها مباشرة نحو سهول كيليكية الخصبة التي كانت مثار نزاع بين السلاجقة والأرمن في طوروس بغض النظر عن حقوق بيزنطية في تلك المنطقة(٢).

توجَّه تانكريد نحو مدينة طرسوس على رأس قوة عسكرية مؤلفة من مائة فارس ومائتين من المشاة بناء لاستدعاء أهلها من الأرمن، فتصدَّت له الحامية التركية، غير أنه انتصر عليها. وتراجع الأتراك إلى داخل المدينة وتحصَّنوا بها. ووصل في هذه الأثناء بلدوين على رأس قوة عسكرية صليبية أخرى مؤلفة من خمسمائة فارس وألفين من المشاة اشتركت في حصار المدينة، فأدرك الأتراك عندئذ أنهم يواجهون جموعاً صليبية كثيفة لا قِبَل لهم بها، فآثروا الخروج من المدينة والانسحاب منها، وبخاصة أن اتصالاتهم مع الحكومة المركزية كانت مقطوعة، ولا سبيل إلى المقاومة. وفتح الأرمن أبواب المدينة للصليبيين الذين دخلوا إليها من دون قتال(٣).

وبوصول الصليبيين إلى كيليكية بدأت تظهر بوضوح أطماع أمرائهم في تأسيس إمارات خاصة لهم في الشرق. فقد أثار سقوط طرسوس بيد تانكريد، بلدوين الذي عزَّ عليه أن ينفرد تانكريد بحكمها، فأراد أن ينازعه عليها، فطلب منه أن يتنازل عنها لصالحه، فاستشاط تانكريد غيظاً، غير أنه لم يسعه إلا الموافقة بفعل فارق القوى بينهما، فانسحب مع عساكره و توجَّه شرقاً نحو أذنة، ودخل بلدوين طرسوس(٤).

ووصل في هذه الأثناء ثلاثمائة فارس نورماني لمساعدة تانكريد، فرفض بلدوين السماح لهم بدخول المدينة خشية أن ينقلبوا ضده، ما عرَّضهم لخطر الأتراك الذين

---

(١) قيصرية أو قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم. الحموي: جـ٤ ص٤٢١.

(٢) عاشور: جـ١ ص١٧٤. Grousset: I p46.

(٣) فولشر الشارتري: ص٥١، ٥٢. Albirt, d'Aix: p342.

(٤) المصدر نفسه: ص٥٢، ٥٣. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٥٣ ـ ٢٥٨.

أبادوهم، وقد أثارت هذه الكارثة الصليبيين جميعاً ضد بلدوين وجماعته بوصفهم المسؤولين عما حلَّ بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك. وما حدث فجأة من ظهور أسطول مسيحي في خليج مرسين عند مصب نهر البردان بقيادة غاينمر البولوني وانضمامه إلى بلدوين، أن حصل هذا على ثلاثمائة من رجاله خصَّهم بالدفاع عن المدينة، والراجح أنه عيَّنه نائباً عنه في حكمها في حين تجهَّز هو للمسير إلى الشرق[١].

وصل تانكريد إلى أذنة فوجدها في حال فوضى واضطراب بفعل التنازع عليها بين الأتراك والأرمن بزعامة أوشين أمير لامبرون، وبعض الصليبيين بزعامة فارس برغندي اسمه ولف. فانسحب الأتراك من المدينة عندما علموا بوصوله ورحَّب به أوشين أمير لامبرون واعترف به حاكماً عليها، غير أنه ألحَّ عليه أن يمضي إلى المصيصة لإنقاذ سكانها من ضغط الأتراك، وكان حريصاً على أن يرى الصليبيين ينفذون إلى دائرة نفوذ خصمه النهم قسطنطين الروبيني[٢] فوصل إليها في (ذي القعدة ٤٩٠هـ/ تشرين الأول ١٠٩٧م) وتسلَّمها من أهلها الأرمن فلحق به بلدوين، وهنا ظهر التنافس بين الرجلين مرة أخرى. وأغلق تانكريد أبواب المدينة في وجه خصمه الذي اضطر إلى المرابطة مع قواته خارجها، وجرى قتال بين القوتين، ولكنه انتهى بعقد الصلح[٣].

وقرَّر بلدوين أن إمارته المقبلة لن تكون في كيليكية، ولعل مناخها الرطب ووخامتها جعله يعدل عن اتخاذها إمارة أو أنه شعر بأنه سوف يكون شديد القرب من الامبراطور البيزنطي وسلطته المتنامية، وحثَّه مستشاره بقراط على أن يسير شرقاً حيث كان الأرمن يلتمسون مساعدته، فغادر المنطقة ولحق بالجيش الصليبي الرئيس في مرعش[٤]. ولم يبق تانكريد طويلاً في المصيصة بعد رحيل بلدوين عنها، فغادرها إلى الجنوب بعد أن ترك فيها حامية عسكرية، وانضم إليه غاينمر مع عسكره، فوصل إلى الإسكندرونة فأذعنت له حاميتها، ثم عبر سلسلة جبال الأمانوس مخترقاً أبواب الشام لينضم إلى الجيش الصليبي الرئيس أمام أنطاكية[٥].

الواقع أن مغامرة كيليكية لم يفد منها تانكريد وبلدوين إذ أن كلّاً منهما أدرك أن لا جدوى من إقامة إمارة بها، لأن الحاميات التي تركها الصليبيون في طرسوس وأذنة والمصيصة، لم يكن بوسعها مقاومة هجوم تركي واسع، إنما تمكَّنت من منع

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٥٧ ـ ٢٦٠.

(٢) Cambridge Medieval History: V p288.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٥٨ ـ ٢٦٠.

(٤) رنسيمان: جـ١ ص٢٩٩، ٣٠٠.

(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٦١، ٢٦٢.

الفرق السلجوقية المتفرقة في أنحاء المنطقة من استخدام كيليكية قاعدة لشن الهجمات على الجناح الصليبي أثناء مهاجمة أنطاكية، والمؤكد أن التواجد السلجوقي في هذه المنطقة قد انتهى وسيستقل الأرمن بها.

الفَصْلُ الرّابع

تأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام

تأسيس إمارة الرها

نجح الصليبيون في اختراق آسيا الصغرى بعد سقوط نيقية، وسيطروا نظرياً على كيليكية، ثم واصلوا تقدمهم باتجاه بلاد الشام، فبلغوا مدينة أنطاكية، وضربوا الحصار عليها، باستثناء ما كان من أمر بلدوين الذي انفصل مجدداً عن الجيش الرئيس عند عينتاب[1] وتوجه نحو الشرق علَّه يُوفَّق في منطقة الفرات حيث فشل في كيليكية وبخاصة أنه تلقَّى دعوة الأمير ثوروس حاكم الرها لمساعدته ضد الزحف الإسلامي بقيادة كربوغا حاكم الموصل، القادم لنجدة أنطاكية.

الواقع أن بلدوين الذي توفيت زوجته غودفير وفَقَدَ أمله في الإرث النورماني، أصرَّ على أن يقيم له إمارة في الشرق متجاوزاً مصلحة الصليبيين العليا. وكانت الأوضاع مؤاتية له، فلم يكن مضطراً أن ينتزع منطقة من المسلمين لأن منطقة الفرات كانت تحت سيطرة الأرمن الموالين للصليبيين، وكان على صلة مع أمراء الأرمن، وبفضل مستشاره بقراط، اتصل بشقيقه كواسيل الذي تجاور إمارته مرعش من الشرق، كما أن جبريل أمير ملطية التمس المساعدة من الصليبيين بفعل تعرُّضه للتهديد من جانب الدانشمنديين. أما ثوروس صاحب الرها، فكان على اتصال دائم بالصليبيين. والراجح أن بلدوين غادر إقليم كيليكية بعد أن تلقَّى هو أو مستشاره بقراط رسالة من ثوروس يلح فيها للقدوم إلى الرها.

وأمل الأرمن منذ زمن الانعتاق من السيطرة البيزنطية والتركية الاستقلال بما تحت أيديهم، لذلك كان ظهور الصليبيين على أطراف بلادهم فرصة طالما التمسوها فرحَّبوا ببلدوين ورجاله بوصفهم مساعدين لتحقيق غايتهم، وما تبقى من الحاميات التركية إما لاذوا بالفرار أو لقوا مصرعهم على أيدي المسيحيين باستثناء الأمير

---

(١) عينتاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تُعرف بدلوك، ودلوك رستاقها. الحموي: جـ٤ ص١٧٦.

التركي بلك صاحب سميساط[1] والذي يتحكَّم في الطريق المؤدي من الرها إلى ملطية، فحاول أن يُنظم المقاومة غير أنه اتخذ جانب الدفاع وتجنَّب القيام بعمليات هجومية.

كان ثوروس الذي لم ينجب أولاداً ولا بناتاً وتقدم به العمر، من أتباع المذهب الأرثوذكسي الأمر الذي جعله مكروهاً من رعاياه الذين يتبعون الكنيسة الأرمنية المونوفيزيتية المذهب[2]، وخشي أن يتعرض لضغط كربوغا أمير الموصل فأرسل رسالة إلى بلدوين يلتمس منه المساعدة العاجلة[3].

الواضح أن بلدوين لم يُلبِّ دعوة ثوروس إلا بالشروط التي تلائمه وتُحقق طموحه، فطلب أن يتخذه ثوروس ابناً ووريثاً له وقسيماً في حكم الرها. اضطر الأمير الأرمني إلى الموافقة على هذه الشروط خشية من اكتساح كربوغا لأراضيه. وغادر بلدوين تل باشر[4] على رأس ثمانين فارساً فقط، ونجا من كمين أعده الأتراك في سميساط عند البيرة[5]، فوصل إليها في (١ ربيع الأول ٤٩١هـ/ ٦ شباط ١٠٩٨م)، وجرى استقباله بحماس، فتبناه ثوروس بأن لفَّه بردائه تبعاً للتقاليد الأرمنية، فعُدَّ بذلك وريثه وشريكه في الحكم[6].

وكان بلدوين قد احتل فور وصوله إلى منطقة الفرات الحصنين المهمين، الراوندان وتل باشر، اللذين يسيطران على المناطق الواقعة غربي الفرات المؤدية إلى أنطاكية، فعيَّن بقراط حاكماً على الأول والأمير الأرمني فير على الثاني[7].

كانت أولى أعمال بلدوين العسكرية بعد استقراره في الرها محاولة تدمير الإمارة

---

(١) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها، يسكنها الأرمن. الحموي: المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٥٨.

(٢) يعتقد أصحاب المذهب المونوفيزيتي أن الطبيعة البشرية للمسيح ذابت في الطبيعة الإلهية وبالتالي أصبح للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية، ولهذا سُمُّوا بأصحاب الطبيعة الواحدة.

(٣) فولشر الشارتري: ص٥٢. كان فولشر الشارتري شاهد عيان لأنه رافق بلدوين إلى منطقة الفرات وهو قِسِّيسه.

(٤) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب بينهما يومان وأهلها نصارى أرمن. الحموي: جـ٢ ص٤٠.

(٥) البيرة: بلدة قرب سميساط بن حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة ولهارستاق واسع. المصدر نفسه: جـ١ ص٥٢٦.

(٦) فولشر الشارتري: ص٥٢.

(٧) المصدر نفسه. Albirt d'Aix: III pp350, 351.

التركية في سميساط التي تستطيع بسهولة أن تعترض مواصلاته مع المناطق الغربية. واغتبط السكان الأرمن بهذه المحاولة وقد عدُّوا بلك أقرب الأعداء إليهم وأشدهم خطراً على وجودهم بما كان يشنه من غارات متواصلة على قطعانهم وحقولهم، كما أنه فرض الجزية عليهم. استغرقت الحملة التي اشترك فيها جيش من الأرمن مدة ستة أيام (٩ ـ ١٥ ربيع الأول/ ١٤ ـ ٢٠ شباط)، لم تحرز خلالها نجاحاً، وفاجأ الأتراك عساكرها وقتلوا منهم نحو ألف فارس، عندئذ انسحب بلدوين مع جيشه عائداً إلى الرها، لكنه احتل قرية سان جون القريبة من سميساط وشحنها بالعساكر ما قلَّص هجمات الأتراك(١).

ويبدو أن الأرمن في الرها كانوا منقسمين على أنفسهم فنقم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسي كما ذكرنا واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطي فضلاً عن عجزه عن حماية محاصيلهم ومتاجرهم من اعتداءات الأتراك، وتعسفه في جمع الضرائب والأموال من الناس الخاضعين له(٢).

وظهرت في المدينة المؤامرة التي أودت بحياة ثوروس على يد الثائرين في (٢٩ ربيع الأول/ ٧ آذار) ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلدوين منها وإلى أي حد اشترك فيها، إلا أن المتآمرين أعلموه بنيتهم التخلص منه وإحلاله مكانه(٣). وتزوَّج بلدوين امرأة ثوروس وتسلم الحكم. وهكذا تأسست أول إمارة صليبية في ربوع الشرق الأدنى الإسلامي(٤).

وسَّع بلدوين إمارة الرها، فبالإضافة إلى الراوندان وتل باشر اشترى سميساط من حاكمها بلك الذي خشي من تعاظم صاحب الرها الجديد، واستولى على سروج(٥) وعلى كثير من المواقع والمدن في شمالي الجزيرة الفراتية، فامتدت رقعة إمارته فوق مساحة من الأرض تقع شرق نهر الفرات وغربه، وجاورت إمارة الموصل، وهدَّدت مدن ديار بكر مثل نصيبين(٦) وماردين(٧)

---

(١) Mathew of Edessa: Chronicle in R.H.C. Arm: II pp218-221.

(٢) Michaud: I p233.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٦٨، ٢٦٩. Albirt d'Aix: III pp354, 355.

(٤) فولشر الشارتري: ص٥٢، ٥٣. Mathew of Edessa: I PP37, 38.

(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٦٨ ـ ٢٧٠. وسروج بلدة قريبة من حرَّان من ديار مضر. الحموي: جـ٣ ص٢١٦.

(٦) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام. الحموي: جـ٥ ص٢٨٨.

(٧) ماردين: قلعة مشهورة على قِنَّة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين. المصدر نفسه: ص٣٩.

وحرَّان[1]، بل شمالي العراق كله، كما سيطرت على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل.

تمثَّلت أهمية هذه الإمارة الصليبية، في أنها أدَّت دور الحاجز في الشمال الشرقي بحيث تلقَّت الهجمات الإسلامية الأولى بدلاً من الإمارات الأخرى. وقبع بلدوين فيها فرحاً بما حقَّقه، وفَقَدَ اهتمامه بمساعدة الجيش الصليبي الرئيس الذي كان لا يزال يحثُّ الخطى نحو أنطاكية.

كانت إمارة الرها من أوسع الإمارات الصليبية وأشدها خطراً وأذى للمسلمين بسبب أطماع حكامها النورمان واجتهادهم في الحروب والغارات، ولكنها كانت مع ذلك أضعف هذه الإمارات بسبب توسطها بلاد المسلمين، وتعرُّضها بالضرورة لردود أفعالهم، بالإضافة إلى عدم تلقِّيها دعم الحجاج ولا إمدادات التجار الإيطاليين.

سياسة بلدوين في الرها

قامت سياسة بلدوين في الرهاء على أساس دمج العناصر المختلفة التي أضحت تتألف منها الإمارة في بوتقة واحدة وبخاصة الصليبيين والأرمن؛ وقد ضرب مثلاً لهذا الدمج والترابط بزواجه من الأميرة أردا وهي ابنة أحد الزعماء الأرمن[2]، لكنه كان حريصاً في الوقت نفسه على أن يظل العنصر اللاتيني متفوقاً والعنصر الأرمني خاضعاً له، لذلك جلب عدداً كبيراً من الصليبيين إلى الرها وأغدق عليهم الأموال والمنح، لكن هؤلاء لم يختلطوا بالأرمن وعاشوا بعيداً عنهم، ما أساء كثيراً إلى شعورهم[3]، ولم يلبث الصليبيون أن أضحوا طبقة عسكرية حاكمة، تحكم عناصر أرمنية شرقية تعمل في الزراعة والتجارة، إلا أن الأرمن عاشوا بسلام ولم يُضطَّهدوا مذهبياً، وظل التسامح الديني يسود العلاقات بين العنصرين اللاتيني والأرمني. وكره الأرمن تدفق الفرسان الصليبيين إلى ممتلكاتهم وقد استولوا على القرى الزراعية وأجبروهم على العمل في ظل قيود النظم الإقطاعية الغربية، فضلاً عن الضرائب التي ظل يدفعها أهل الرها، وعاملوهم بالازدراء والاحتقار، كما جرى استبعادهم من مجلس الكونت في الوقت الذي اقتصر فيه التمثيل على الصليبيين.

كان طبيعياً أن يستاء الأرمن من حكم الصليبيين، وأخذوا يُدبِّرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم، فاتصلوا بالأراتقة في دياربكر لالتماس المساعدة. وكان بالرها آنذاك تفنوز صهر بلدوين، فشاع أن المتآمرين أرادوا أن يجعلوه مكانه أو أنهم أحبوا أن يرغموه على أن يُشركه معه في الحكم.

---

(١) حرَّان: مدينة عظيمة مشهورة وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم. المصدر نفسه: جـ٢ ص٢٣٥.

(٢) الصوري، وليم: المصدر نفسه: ص٣٧٥. (٣) Michaud: I p235.

لم يكد بلدوين يسمع بخبر المؤامرة حتى نهض فوراً للعمل على إحباطها، فجرى إلقاء القبض على المتآمرين، فَسُجنوا وصودرت أموالهم وتمّ سمل عيون اثنين منهم، وجُدعت أنوف الباقين، وقُطعت أرجلهم، ثم ترفَّق بهم فأجاز لهم أن يشتروا حريتهم لقاء ثمن. ورأى تفنوز الذي لم يشترك بالمؤامرة أن يعود إلى جباله ويبتعد عن صهره الرهيب وذلك في (٢٩ محرم ٤٩١هـ/ ٢٦ كانون الأول ١٠٩٨م)[(١)].

وما لجأ إليه بلدوين من استعمال الشدَّة في قمع المؤامرة، قضى على ما كان يتوقعه من الأرمن من خطر على أنه ظل يستخدم فئة قليلة منهم في الوظائف المهمة[(٢)].

تأسيس إمارة أنطاكية

بداية حصار أنطاكية

كانت الظروف السياسية مثالية للتقدم الصليبي، فواصل الصليبيون مسيرتهم حتى مدينة أنطاكية، ذات الموقع المهم بالقرب من البحر على منحدر يؤدي إلى وادي نهر العاصي الخصب، ووصلوا إليها في (١٢ ذي القعدة ٤٩٠هـ/ ٢١ تشرين الأول ١٠٩٧م)، وضربوا الحصار عليها. فتمركز روبرت أمير فلاندر، وروبرت أمير نورمانديا، وهيو أمير فرماندوا، وستيفن إتيان أمير بلوا بين باب بولس وباب الكلب، واتخذ بوهيموند ورجاله النورمان مواقعهم في الجهة الشمالية للمدينة أي عند باب بولس، في حين استقر ريموند والمندوب البابوي أدهيمار ومعهما فرسان البروڤانس على مقربة من باب الكلب إلى الجهة الغربية منه، وعسكر غودفري دي بوايون في الجهة الشمالية الغربية في مواجهة باب الدوق، وظل بابا الجسر في الناحية الشمالية والقديس جورج ويقع في القسم العلوي في الشرق من دون حصار لأنهما مفتوحان على النهر، كما لم يكن بوسع العساكر أن ترابط في الأرض الواقعة إلى الجنوب من المدينة لشدة انحدارها[(٣)].

وتجنَّب الصليبيون الاقتحام العاجل للمدينة على الرغم من أن فرصة نجاحهم كانت ممكنة، وإلحاح ريموند كونت تولوز على ذلك، ويبدو أنهم بنوا قرارهم على أساس أن المدينة لم تكن قد حوصرت من جميع الجهات. وأيَّد بوهيموند فرض الحصار التام وكان يأمل بالحصول على أنطاكية لنفسه أسوة بما جرى من تأسيس بلدوين إمارة له في الرها. ولم يتمكَّن المحاصِرون من الشروع بإقامة معسكر ثابت لهم واستكمال حصار المدينة إلا عندما وصلت تعزيزات نقلها أسطول جنوي إلى

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٧٥. Albirt d'Aix: p443.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٣١٦.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٧٤ ـ ٢٨٣.

ميناء السويدية القريب من أنطاكية[1].

رد فعل المسلمين

تمهيد: الواضح أنه سهَّل مهمة الصليبيين ما حدث من خلافات بين ياغي سيان التركماني حاكم أنطاكية ورضوان أمير حلب، بالإضافة إلى النزاعات بين الأخوين رضوان ودقاق أمير دمشق. كان ياغي سيان آنذاك لا يزال في طريق عودته إلى أنطاكية قادماً من شيزر[2]، عندما علم بوصول عدد كبير من الصليبيين إلى شمالي بلاد الشام وأنهم نزلوا بغراس[3]، وأغاروا على القرى المحيطة بأنطاكية. فانزعج، ثم أخذ يلتمس الحلفاء، فأرسل فوراً ابنه شمس الدولة إلى دقاق وأتابكه طغتكين، كما أرسل ابنه الأخر محمد إلى ملوك الشرق وأمرائه وإلى كربوغا حاكم الموصل، وكتب إلى جناح الدولة حسين صاحب حمص، ووثاب بن محمود وبني كلاب؛ يستحثهم على القدوم للجهاد ضد الصليبيين[4]، وتجنَّب دعوة رضوان، ولعل السبب في ذلك هو الخلاف الذي نشب بينهما في غمرة صراع الأمراء على بلاد الشام بعد وفاة تُتُش، على الرغم من حصول تفاهم بينهما عقب معركة قويق التي جرت بين الأخوين رضوان ودقاق في (ربيع الآخر ٤٩٠هـ/ ٢٣ آذار ١٠٩٧م)[5]، كما خشي أن يُقدم صاحب حلب على التخلص منه بوصفه أميراً تابعاً لسلاجقة الشام وإعادة أنطاكية إلى حكمه، ومن جهته فإن رضوان لم يبذل له المساعدة نظراً لما بدر من خصومة على الرغم مما في ذلك من قصر نظر سياسي[6].

وهكذا نرى أن الخلافات والأطماع الشخصية حالت دون إسهام رضوان في صدِّ الخطر الصليبي المحدق وتوحيد جهوده مع جهود الأمراء الآخرين في مقاومته وهو الأقوى والأقرب إلى أنطاكية، ما أضعف الجبهة الإسلامية المتحدة أمام الصليبيين.

أعدَّ دقاق حملة للإنقاذ، ونهض طغتكين وجناح الدولة للمساعدة؛ وأدرك كربوغا الذي يُعدُّ أهم الأمراء المسلمين في أعالي الجزيرة، ما يُهدِّد العالم الإسلامي كله من

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٣٢٧.

(٢) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرَّة بينها وبين حماة يوم. الحموي: جـ٣ ص٣٨٣.

(٣) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب، وفي البلاد المطلة على نواحي طرسوس. المصدر نفسه: جـ١ ص٤٦٧.

(٤) ابن القلانسي: ص٢١٩. ابن العديم: جـ١ ص٣٤٥، ٣٤٦.

(٥) ابن العديم: المصدر نفسه: ص٣٤٢، ٣٤٣.

(٦) رنسيمان: جـ١ ص٣٢٣.

الخطر الصليبي، لذلك أعدَّ جيشاً كبيراً لنجدة أنطاكية، وحشد ياغي سيان في تلك الأثناء كل ما لديه من قوات، وشرع في توفير المؤن استعداداً لحصار طويل[١].

ومن جهتهم، انخرط الصليبيون في اللعبة السياسية في المشرق الإسلامي بعد أن فرضوا وجودهم في شمالي بلاد الشام. فبالإضافة إلى أنهم وقفوا على أوضاع المسلمين المتردية، راحوا يبثون الطمأنينة في نفوس الفاطميين ويُعطونهم صورة غير حقيقية عن مشاريعهم في بلاد الشام، كما طمأنوا سلاجقة الشام بأنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين في الماضي، أي الرها وأنطاكية واللاذقية[٢].

كان الأفضل بن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر، وعندما علم بأن الصليبيين اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة المعادين للدولة الفاطمية، فكَّر في عقد تحالف معهم، فأرسل سفارة اجتمعت بزعمائهم أمام أنطاكية في (صفر ٤٩١هـ/ كانون الثاني ١٠٩٨م) عرضت عليهم مشروعاً للتحالف تضمن البنود التالية:

- ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية وشمالي بلاد الشام.
- تحتفظ مصر ببيت المقدس وجنوبي بلاد الشام.
- يُسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم فيها عن شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.
- يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة[٣].

وربما استند الأفضل في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية، لأن الدولة البيزنطية، أيام صحوتها في القرن العاشر الميلادي، لم تتعدَّ أملاكها في بلاد الشام مدينة أنطاكية، فظنَّ أن أولئك الصليبيين إنما أتوا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي لتحقيق الأهداف نفسها التي حاول كل من الامبراطور نقفور فوكاس ويوحنا زمسكيس، تحقيقها[٤]، لكن الواقع أن الأفضل لم يُدرك حقيقة الحركة الصليبية وأهداف الصليبيين، وقد أثار هذا الموقف السلبي استياء المسلمين بعامة ونقمتهم[٥].

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٧. ابن العديم: جـ١ ص٣٤٧.

(٢) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ص١٧٣.

(٣) Stevenson: p28.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية: جـ١ ص١٩٧.

(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٦. ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ٥ ص١٤٧، ١٤٨.

لم يلتزم الصليبيون بتدبير خاص أمام السفارة الفاطمية، ولم يُميطوا اللثام عن أهدافهم الحقيقية أمام أعضائها، كما أنهم أرسلوا إلى كل من رضوان ودقاق يطلبون منهما أن يلتزما الحياد، وأنهم لا ينوون مهاجمة بلادهما وقالوا: «إننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بأيدي الروم لا نطلب سواها، مكراً وخديعة منهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية»[1]، وبذلك يتمكَّنون من الاستيلاء على الممالك الإسلامية الواحدة تلو الأخرى.

معركة البارة[2]: لم تمضِ ثلاثة أشهر على بداية الحصار حتى بدأ الصليبيون يعانون من مشكلة نقص المؤن، فعقد زعماؤهم مؤتمراً لتدبير وسائل الحصول عليها، وتقرَّر تشكيل فرق لسلب ونهب المناطق الريفية المجاورة وبخاصة في حوض نهر العاصي، والحصول على ما تحويه من مؤن وغذاء. لكن كمية الطعام التي كانوا قد نهبوها من قبل في هذه المناطق، أرهقت الموارد المحلية، فلم يجدوا ما ينهبونه، كما أن المسلمين بدأوا يدافعون عن أرزاقهم بشكل منظم فكانوا ينقُّضون على فرق السلب والنهب بأكملها[3].

وتجمَّعت في غضون ذلك نجدة إسلامية قرب شيزر لإنقاذ أنطاكية على رأسها دقاق وطغتكين وجناح الدولة حسين. وعلم هؤلاء بأن قوة صليبية بقيادة بوهيموند وروبرت أمير فلاندر شوهدت تزحف على امتداد نهر العاصي، فقرَّروا الاصطدام بها. ودارت بين الطرفين رحى معركة عند البارة في (محرم ٤٩١هـ/ كانون الأول ١٠٩٧م) كانت نتيجتها غير واضحة، ويُفهم مما رواه ابن القلانسي أن المسلمين تغلَّبوا على الصليبيين، وأنهم قتلوا جماعة منهم[4].

ويبدو أن المسلمين تفرَّقوا بعد ذلك، فقبع دقاق في دمشق هادئاً، وظل مدة بعد معركة البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين عن أنطاكية. ولم يتمكَّن رضوان من الاستمرار طويلاً في موقفه السلبي بعد الأحداث العاصفة التي تعرَّض لها شمالي بلاد الشام نتيجة احتلال الصليبيين للرها وحصارهم لأنطاكية، ومهاجمتهم لأعمالها، وعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغي سيان إلا أنه لا يزال يعدُّه تابعاً له، وأن أنطاكية هي من أملاكه، كما أن ياغي سيان وجد نفسه بحاجة إلى قوة رضوان

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٨.

(٢) البارة: بليدة وكورة من نواحي حلب وبها حصن. الحموي: جـ١ ص٣٢٠.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٨٣، ٢٨٦. رنسيمان: جـ١ ص٣٢٩، ٣٣٠.

(٤) مذيَّل تاريخ دمشق: ص٢١٧. ابن العديم: جـ١ ص٣٤٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٩٠، ٢٩١.

لتساعده في إنقاذ أنطاكية؛ فأرسل ابنه إلى حلب لاسترضائه، ويعتذر له عما مضى، ويستحثه للعمل على إنقاذ أنطاكية[١].

معركة حارم أو العمق: أدرك رضوان أخيراً أنه لا بد من تناسي الماضي، وأعلن أسفه وحزنه لتراخيه وامتناعه عن مساعدة ياغي سيان الذي أدَّى إلى وصول الصليبيين إلى أنطاكية، وقرَّر الإسراع في الخروج لمساعدة المدينة، وهذا تفكير سليم إنما جاء بعد فوات الأوان، إذ أن الخلافات بين الأمراء المسلمين وعدم التخطيط السليم، مكَّنا الصليبيين من الوصول إلى أنطاكية.

خرج رضوان من حلب على رأس قوة عسكرية وتوجَّه إلى أنطاكية، وصحبه سكمان الأرتقي الذي قدم من ديار بكر، وصهره أمير حماة، وقوات من حمص، ومقاتلون من الأراتقة[٢].

احتشدت القوات الإسلامية في حارم[٣] بعد أن استعادتها من أيدي الصليبيين واتخذتها قاعدة انطلاق. وقضت الخطة المتفق عليها أن تهاجم هذه القوات المعسكرات الصليبية التي تحاصر أنطاكية، ويخرج ياغي سيان في الوقت نفسه من المدينة لمهاجمتها من الاتجاه المقابل، وبذلك يقع الصليبيون بين فكي الكماشة، بين قوات رضوان وحلفائه من الخارج وقوات ياغي سيان من الداخل[٣].

وعلم الصليبيون بهذه الخطة عن طريق السريان والأرمن في حلب وحارم، وقد أخبروهم بتفاصيلها حتى لا يؤخذوا على غرَّة[٤]، فوضع بوهيموند خطة مضادة لمواجهة الموقف تقضي ببقاء المشاة داخل المعسكر الصليبي لإحباط المحاولات من داخل المدينة للهجوم على المعسكر، على أن يخرج الفرسان لصدٍّ زحف المسلمين، واختار مكاناً حصيناً بين بحيرة العمق ومجرى نهر العاصي، يستطيع منه أن ينقضَّ على المسلمين عند تقدمهم لعبور الجسر[٥].

وفي يوم (٤ ربيع الأول ٤٩١هـ/ ٩ شباط ١٠٩٨م) أضحى المسلمون على مرأى من الصليبيين الذين بادروهم بالهجوم، وجرى قتال بين الطرفين انتهى باندحار المسلمين الذين تراجعوا إلى حصن حارم. والواقع أن الصليبيين حشروهم في بقعة ضيقة، بين البحيرة والنهر، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للانتصار، وعجزوا عن استخدام أساليبهم القتالية المألوفة كإطلاق السهام ثم الانسحاب بعد

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه. عاشور: جـ١ ص٢٠٠.
(٣) المصدر نفسه. عاشور: جـ١ ص٢٠٠.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٧. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٩٩، ٣٠٠.
(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٠٠. Chalandon: p195.

ذلك، كما لم يستطيعوا تحمل ضغط القتال، وانتهى الأمر بهزيمتهم وطاردهم الصليبيون. وعندما رأت حامية الحصن حرج الموقف لاذ أفرادها بالفرار بعد أن أشعلوا النار بالحصن، فاستولى الصليبيون عليه بمساعدة أهله من السريان والأرمن(١). ويُعدُّ هذا الانتصار كبيراً نظراً لأهمية موقع حارم في حماية أنطاكية من ناحية حلب، ولم يلبث الجيش الإسلامي أن تراجع إلى حلب، وقد اضطربت صفوفه وسادته الفوضى(٢).

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه المعركة، هاجم ياغي سيان المعسكرات الصليبية المحاصِرة لأنطاكية، واشتبك مع الصليبيين، ولاح له النصر لولا أن تغيَّر وجه القتال فجأة، إذ عندما أوشك الصليبيون أن يخسروا المعركة لاح لهم اقتراب الفرسان الذين انتصروا في معركة العمق، وعندما اقتربوا أدرك ياغي سيان أن الجيش الإسلامي القادم لنجدته، حلَّت به الهزيمة، فأصدر أوامره لرجاله بالعودة إلى داخل المدينة(٣).

سقوط أنطاكية

أدرك ياغي سيان بعد هزيمة سلاجقة الشام أنه لا بد من الاستعانة بالسلاجقة العظام في فارس وخراسان، فأرسل نداء عاجلاً إلى السلطان بركياروق، وارتفعت في المقابل روح الصليبيين المعنوية، غير أنها لم تؤد إلى تحسين وضعهم، فلا زال الطعام قليلاً على الرغم من أن كميات من المؤن أخذت تصل إلى ميناء السويدية جاء معظمها من قبرص، وثبت لهم أن طول مدة الحصار ليست في صالحهم، كما انتشرت إشاعة بين صفوفهم تفيد بأن جيشاً كبيراً من الأتراك بقيادة كربوغا في طريقه إليهم، ما دفع بعض الصليبيين إلى الفرار من المعسكر إلى مناطق أكثر أمناً وخصباً أو محاولة العودة إلى بلادهم، وكان المتسللون من الجيش في بادئ الأمر عساكر مغمورين غير أنه حدث في أحد أيام (صفر ٤٩١هـ/ كانون الثاني ١٠٩٨م) أن فرَّ بطرس الناسك «نبي الحركة الصليبية ومبشرها الملهم» مع بعض أمراء صغار، على أن تانكريد تعقَّبهم وأعادهم إلى المعسكر، وتقرَّر العفو عن بطرس الناسك نظراً لشهرته والمحافظة على سمعته، وعوقب الباقون ويدل ذلك على مزيد من الإفلاس العقائدي، كما ترك ستيفن بلوا الحصار وأبحر إلى دياره في فرنسا. وأخذ الجيش يتناقص ويتضاءل يوماً بعد يوم بسبب المجاعة والفرار، فرأى أدهيمار أنه لا بد من

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٤٧. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٠٠، ٣٠١.

(٢) Stevenson: p27.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٠١، ٣٠٢.

التماس المساعدة من الغرب لإرسال إمدادات على وجه السرعة. وحدث أن كان الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين يغير على الأناضول فجرى الاتصال به والتماس المساعدة منه(١).

واستبدَّ القلق والضيق ببوهيموند بشكل خاص لحرصه وعزمه على الانفراد بحكم أنطاكية، فإذا وصل الامبراطور قبل سقوط المدينة أو إذا لم يتيسَّر هزيمة كربوغا إلا بمساعدته؛ أضحى من المستحيل الامتناع عن ردِّ المدينة إليه، لذلك اتبع خطة من شقين:

الأول: أنه تخلَّص من القوة البيزنطية بقيادة تاتيكيوس التي كانت تساعد الصليبيين في حصار أنطاكية حتى لا يطالب بردها إلى الحظيرة الامبراطورية إذا استولى الصليبيون عليها وذلك تنفيذاً لمعاهدة القسطنطينية، فأوهمه بأن الزعماء الصليبيين يتهمونه بالتواطؤ مع الأتراك ضدهم، وأنهم يُدبِّرون مؤامرة لاغتياله. ونجحت الخطة، إذ خشي القائد البيزنطي على حياته، فترك المعسكر الصليبي في (ربيع الأول/ شباط)(٢).

الثاني: وطَّد صلته بأحد القادة بداخل المدينة واسمه فيروز(٣) وهو أرمني اعتنق الإسلام وارتقى إلى وظيفة رفيعة في حكومة ياغي سيان، وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده، فإنه كان شديد الحقد عليه لأنه فرض عليه أخيراً غرامة لاختزانه القمح(٤).

وبعد أن اطمأن إلى أن المدينة سوف تؤول إليه، طلب من الزعماء الصليبيين أن يملِّكوه إياها بعد الاستيلاء عليها، لكنهم رفضوا طلبه في بادئ الأمر لأنهم سوف يتقاسمونها فيما بينهم بعد امتلاكها لاشتراكهم جميعاً في عملية الحصار، إلا أنه سرعان ما تغيَّر الموقف، وبات الجيش الصليبي مهدداً بالخطر، فعقد الزعماء الصليبيون مجلساً للمشورة قرَّروا فيه استعدادهم للتنازل عن المدينة لبوهيموند بعد الاستيلاء عليها، باستثناء ريموند كونت تولوز، لكن توافر له بعد ذلك من الدواعي ما جعله يطمئن(٥).

---

(١) فولشر الشارتري: ص٥٧. الصوري، وليم: جـ١ ص٢٨٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣٣٨ ـ ٣٤٠. قاسم: الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية: ص١٦٥.

(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص٢٩٣، ٢٩٧.

(٣) يدعو ابن العديم هذا الشخص بالزرّاد، ويذكر ابن الأثير أن اسمه برزويه وهو زرَّاد. زبدة الحلب من تاريخ حلب: جـ١ ص٣٤٨. الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٤١٧.

(٤) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٦.

(٥) المصدر نفسه: جـ١ ص٣١٧. رنسيمان: جـ١ ص٣٤٥، ٣٤٦.

وجهد بوهيموند، فشيَّد قلعة مقابل الباب الغربي على تل قريب من المدينة يحوي مقابر المسلمين، فاستخدم ما فيه من أحجار في بنائها، وقد مكَّنت الصليبيين من إحكام الحصار على المدينة، ومنحتهم الحماية وسهولة التحرك، ومنعت السكان من مغادرتها(١).

كان فيروز يتولى قيادة القوات المرابطة في برج الأختين الشقيقتين الذي يُشرف على ما يليه من قطاع من سور المدينة المطل على الخارج والذي يواجه تانكريد، فحثَّ بوهيموند على حشد القوى الصليبية وأن يقودها نحو الشرق، ويتظاهر بأنه سائر لمنع تقدم كربوغا ثم يعود إلى جهة الأسوار الغربية والشمالية الغربية في خطوة لإيهام من بداخل المدينة بأن الصليبيين يرتحلون، فيخلدوا، ثم يعمد إلى فتح باب البرج أمام جنوده(٢).

وفي ليلة (٢٨ جمادى الآخرة ٤٩١هـ/ ٢ حزيران ١٠٩٨م) نُفِّذت الخطة بإحكام، فدخل الجنود الصليبيون أنطاكية في صباح اليوم التالي بعد أن فُتحت أبوابها أمامهم. وتعرَّض المسلمون فيها للسلب والنهب والقتل، ورحَّب الأرمن والسريان الموجودون في داخل المدينة بالغزاة وساعدوهم في قتل المسلمين(٣).

وإذ استيقظ ياغي سيان على جلبة القتال والضجيج الذي رافقه، لم يلبث أن أدرك أن كل شيء قد ضاع، فحاول الفرار مع من فرَّ من المسلمين، ولكنه سقط عن فرسه، فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى بوهيموند، واحتمى ابنه شمس الدولة بالقلعة قبل أن تقع في أيدي الصليبيين، فاستولى عليها، وتحصَّن بها مع ثلاثة آلاف، ولما حاول بوهيموند مهاجمتها أصابه الفشل وجُرح في القتال(٤). وهكذا سقطت أنطاكية بعد حصار دام سبعة أشهر.

حملة كربوغا

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يُحاصِرون أنطاكية، أعدَّ كربوغا حاكم الموصل جيشاً كبيراً لنجدة المدينة، وسانده سلطانا السلاجقة في فارس والعراق بركياروق ومحمد وقد وعداه بالمساعدة(٥)، غير أن ما ارتكبه من أخطاء في التقدير

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٠٩، ٣١٠.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٢٦، ٣٢٧. رنسيمان: جـ١ ص٣٤٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٢٧ ـ ٣٣٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٧. ابن العديم: جـ١ ص٣٤٨، ٣٤٩.
(٤) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٣١، ٣٣٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٧، ٤١٨. فولشر الشارتري: ص٥٣ ـ ٦٧. ابن القلانسي: ص٢٢٠.
(٥) ابن القلانسي: ص٢١٨.

هيَّأ للصليبيين الفرصة للتنفس والراحة، ومكَّنهم من الاستيلاء على أنطاكية، إذ لم يشأ هذا القائد الإسلامي أن يزحف مباشرة إلى أنطاكية خشية أن ينقضَّ الصليبيون في الرها على جناح جيشه الأيمن، لذلك توقف أمام الرها في محاولة لانتزاعها من يد بلدوين[١]، ولم يُدرك أن ما بذله من جهد وما أنفقه من وقت إنما ضاع سدى، إلا بعد مضي الأسابيع الثلاثة الأخيرة من (جمادى الآخرة ٤٩١هـ/أيار ١٠٩٨م) وهو يحاول عبثاً مهاجمة أسوارها[٢]، وبعد أن كان بوهيموند قد أحكم خطته العسكرية لدخول أنطاكية ما دفع أحد مؤرخي الحروب الصليبية إلى القول بأن دفاع بلدوين أمير الرها ومقاومته هي التي أنقذت الصليبيين أمام أنطاكية[٣].

وتخلَّى كربوغا في نهاية شهر أيار عن حصاره الفاشل الذي فرضه على الرها وراح يحثُّ الخطى باتجاه أنطاكية، وتوقف قليلاً في مرج دابق شمالي حلب فانضم إليه دقاق والأتابك طغتكين، وأرسلان تاش صاحب سنجار[٤]، وسكمان الأرتقي، وغيرهم من الأمراء المسلمين، ورفض رضوان الاشتراك بالحملة بسبب خلافه مع أخيه دقاق، وردَّ عليه كربوغا بأن ضمَّ جناح الدولة حسين صاحب حمص[٥].

وهكذا اجتمع الجيش الإسلامي الجرار[٦] في مرج دابق، ثم انطلق منها في طريقه إلى أنطاكية عبر وادي العاصي، فاصطدم بقوة عسكرية صليبية عند جسر الحديد إلى الشمال الشرقي من المدينة وقتل أفرادها، ثم لم تلبث أن ظهرت طلائعه أمام أسوارها في صبيحة (٤ رجب/٧ حزيران)[٧].

حاول كربوغا اقتحام المدينة فوراً عن طريق قلعتها التي كانت لا تزال بأيدي المسلمين، وساعده شمس الدولة ابن ياغي سيان، لكنه فشل في ذلك، فضيَّق عندئذ الحصار عليها[٨].

عانى الصليبيون كثيراً من شدة الحصار، وتحرَّج موقفهم وعمَّت المجاعة بينهم،

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٣١٨، ٣١٩.

(٢) المصدر نفسه. (٣) المصدر نفسه.

(٤) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. الحموي: جـ٣ ص٢٦٢.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٢١. ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٨. ابن العديم: جـ١ ص٣٤٧.

(٦) المصادر نفسها. يُقدِّر ابن العبري عدد أفراد الجيش الإسلامي بمائة ألف مقاتل، في حين يُقدره وليم الصوري بمائتي ألف، مع ما في ذلك من المبالغة. انظر: تاريخ الزمان: ص١٢٤. تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ١ ص٣١٨.

(٧) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٨) المصدر نفسه: ص٣٣٦، ٣٣٧.

وانتشر الوباء في صفوفهم، ونفدت أقواتهم، ومات عدد كبير منهم، وبلغوا درجة من اليأس جعلتهم يُفكِّرون بالاستسلام. ولخَّص وليم الصوري أحوالهم في عبارة بليغة «في الخارج كان السيف وفي الداخل كان الجوع»[١]. ورفض كربوغا أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من المدينة وقال لهم: «لا تخرجون إلا بالسيف»[٢]. وهكذا كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للصليبيين المحاصَرين على الرغم مما أبداه بوهيموند من شجاعة وحزم.

وتراءى للصليبيين داخل أنطاكية أن الفرصة الوحيدة لخلاصهم تكمن في التماس المساعدة من الامبراطور البيزنطي، فاستنجدوا به، وكان آنذاك في آسيا الصغرى يحارب السلاجقة، فاستجاب لنداء الاستغاثة، وقاد جيشه إلى جوف آسيا الصغرى كيما يبذل المساعدة للصليبيين على الرغم من معارضة معظم مستشاريه، ووصل إلى فيلوميليوم في (١٢ رجب/ ١٥ حزيران). وفي الوقت الذي كان يستعد لمغادرتها قابله ستيفن بلوا ورفاقه الهاربون، فأخبروه بأن الأتراك استردوا أنطاكية وأبادوا الصليبيين، واجتمع به أحد الصليبيين ويُدعى بطرس أولب، وأخبره بأن جيشاً تركياً يمضي في زحفه لقتاله قبل أن يبلغ أنطاكية. ولما لم يكن لديه من الدوافع ما يرتاب في رواياتهم، أعاد النظر في خططه، فإذا هلك الصليبيون فمن المؤكد أن الأتراك سوف يمضون في الهجوم ما يدفع السلاجقة في الأناضول إلى محاولة استرداد ما فقدوه من الأراضي، لذلك عاد أدراجه[٣].

وظهرت في هذه الأثناء التي بدا فيها التخاذل واضحاً بين الصليبيين والذي تمثَّل بالفرار والاختباء في المنازل هرباً من الاشتراك في القتال؛ بعض الأساطير والرؤى التي هدفت إلى إثارة الحماس الديني وتقوية الروح المعنوية المنهارة بينهم.

ففي صباح (٨ رجب/ ١١ حزيران) ادعى أحد القساوسة ويُدعى ستيفن بأن المسيح تجلَّى له هو والعذراء والقديس بطرس في الليلة السابقة، وبشَّره بأنه سوف يساعد الصليبيين إذا عادوا إلى طريق المسيح.

وفي مساء (١٠ رجب/ ١٤ حزيران) زعم قس بروڤنسالي مغمور أن القديس أندرو تجلَّى له مرات عدة وأخبره بأن الحربة التي اخترقت جسد المسيح مدفونة في كنيسة بطرس بأنطاكية، وتمَّ العثور عليها في مكانها بطبيعة الحال[٤].

---

(١) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ١ ص٣٣٨.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٩.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٤٦ ـ ٣٥٠. رنسيمان: جـ١ ص٣٥٨.

(٤) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٥١ ـ ٣٥٣. فولشر الشارتري: ص٥٦، ٦٦. =

ويبدو أن الصليبيين أنفسهم شكُّوا في قصة الحربة المقدسة، وشاع بينهم أن ريموند الصنجيلي ابتكرها، وعندما امتُحن الشخص الذي روَّجها على الطريقة الجرمانية بأن مُرَّ بجسده في النيران، توفي بعدها متأثراً بجراحه، ما زاد في البلبلة[1].

ومهما يكن من أمر، فقد جدَّد زعماء الصليبيين عهودهم وأقسموا على الاستمرار في القتال والإخلاص. وتُجسِّد هذه الرؤى والأحلام فشل النضال حتى لجأوا مرة أخرى إلى الحافز الديني[2].

تكشف أحداث أنطاكية عن حقيقة مؤداها تلاشي أحلام كثير من الصليبيين على أرض الواقع، وقد نسوا ما خرجوا من أجله تحت تأثير الطمع الدنيوي، فبدأت سلسلة من عمليات الهروب، وأدرك القادة مغبة ذلك على الوضع الصليبي العام، فقاوموها، وراحوا يبحثون عن وسيلة لإبقاء الصليبيين ودفعهم إلى القتال، وتمثَّلت هذه المرة في إثارة خيال البسطاء، وإلهاب مشاعر تدينهم العاطفي، فعادت الأحلام الإعجازية والرؤى المقدسة التي كانت في مرحلة التجهيز للحرب، تفرض نفسها من جديد[3].

أثارت الرؤى والأحلام وبعض الأساطير التي تفشَّت في صفوف الصليبيين، الحماس الديني، ورفعت الروح المعنوية المنهارة بينهم، فتبدل الوضع. وإذ ألهب بوهيموند حماس الجند بعد أن كان اليأس قد دبَّ في نفوسهم، وكادوا يستسلمون؛ فنهضوا في وجه المسلمين فخرقوا الحصار في (٢٥ رجب/ ٢٨ حزيران) وسحقوا جيش كربوغا ونهبوا معسكره، فتفرَّق عسكره، وعاد هو إلى الموصل، وأُسقط في يد قائد القلعة شمس الدولة فسلَّمها إلى بوهيموند[4].

= ذكر ابن الأثير ما نصه: «وكان معهم راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح ﷺ، كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك مُحقَّق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفى أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام: فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم... وحفروا في جميع الأماكن، فوجدوها كما ذكر...». الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٤١٩.

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٩٢، ٣٩٣.   (٢) قاسم: ص١٦٧.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٣١. ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٥٨ ـ ٣٦٤، حيث تفاصيل وافية ومثيرة. وينفرد هذا المؤرخ بذكر اشتراك السلطان السلجوقي الرومي قلج أرسلان الأول في معركة أنطاكية. المؤرخ المجهول حيث تفاصيل مسهبة: جـ١ ص٢٣٩ ـ ٢٦١.

أسباب سقوط أنطاكية

مما لا شك فيه أن خسارة أنطاكية كانت ضربة كبيرة للمسلمين وكسباً مدوياً للقضية الصليبية، ويُعِدُّ انتصار الصليبيين هذا من أكبر انتصاراتهم العسكرية منذ أن قاموا بحركتهم في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وقد تضافرت عوامل عدة أدَّت إلى هذه النكسة لعل أهمها:

- أخطأ كربوغا بمهاجمة الرها قبل أنطاكية على الرغم من اعتقاده بصوابية هذه الخطوة، فقد أضاع كثيراً من الوقت، ما سمح ليوهيموند من إحباك المؤامرة التي ضمنت له دخول المدينة والاستيلاء عليها.

- كان التحالف الإسلامي الذي شكَّله كربوغا، مزعزعاً بفعل التفكير السياسي غير السليم للأمراء المسلمين. فقد تخلَّى الأمراء عن كربوغا في ساعة الشدة، لأنهم خشوا أنه إذا انتصر فسوف تزداد قوته ما يجعلهم يدفعون الثمن باهظاً[١].

- أساء كربوغا معاملة الأمراء المسلمين ما كان له أثر في زيادة التصدع[٢].

- أثار غياب رضوان جواً من الاستياء والقلق في صفوف المسلمين، هذا على الرغم من أن تأمين مستقبل حكمه كان يحتم عليه أن يضع خلافاته مع الأمراء المسلمين جانباً وأن يتخذ موقفاً أكثر تعقلاً بالانضمام إلى القوات الإسلامية بعد أن أضحت حلب واقعة بين الرها شرقاً وأنطاكية في الغرب، وكلتاهما سقطتا في أيدي الصليبيين[٣].

- عندما شعر كربوغا أنه بحاجة إلى قوة رضوان، أخذ يسعى للاتصال به، وعندئذ «توهم دقاق من ذلك» وشعر برغبته في العودة إلى دمشق بحجة مراقبة توسع الفاطميين في فلسطين[٤].

- كان جناح الدولة حسين قلقاً هو الآخر بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة[٥] ومنبج الذي كان على اتفاق مع رضوان[٦].

- بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم، فظهر الخلاف واضحاً بين العرب والأتراك، وجرت منافرة بين الطرفين، فاضطر وثاب بن محمود إلى الانسحاب بمن معه من جموع العرب[٧].

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٣٧١.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٨.

(٣) عاشور: جـ١ ص٢٠٩.

(٤) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٠.

(٥) الرحبة: هي رحبة مالك بن طوق بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل من قرقيسياء. الحموي: جـ٣ ص٣٤.

(٦) عاشور: جـ١ ص٢١٠.

(٧) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٠.

ـ انفضَّ كثير من الأتراك من حول كربوغا بتأثير من رضوان.

ـ تهاوُن كربوغا وتردُّده في التصدي للصليبيين، إذ عندما خرج هؤلاء من باب أنطاكية للاصطدام بالمسلمين، لم يُبادر إلى مهاجمتهم على الرغم من إلحاح وثاب بن محمود، مفوتاً فرصة ثمينة للانتصار نظراً للفارق العددي بين القوتين من جهة وانكشاف القوات الصليبية من جهة أخرى. ويبدو أنه خشي إن تعجَّل بقتالهم، فإنه لن يُحطم إلا مقدمتهم، أما إذا انتظر فإنه سوف يتخلَّص بضربة واحدة، من كل القوات الصليبية في حين أنه عندما شاهد مثل هذه القوات تردَّد في خوض المعركة(١).

ـ لا يُعزى نجاح الصليبيين في الانتصار والاستيلاء على أنطاكية إلى صفات خاصة تميزوا بها دون سائر المسلمين كالشجاعة والجرأة والإقدام، وإنما يعود إلى انقسام الصف الإسلامي.

ذيول سقوط أنطاكية

شجَّع سقوط أنطاكية وهزيمة كربوغا، الصليبيين، فاستأنفوا نشاطهم العسكري ضد المناطق المحيطة بحلب على شكل غارات صغيرة، وشرع ريموند كونت تولوز الصنجيلي في إعداد غارة على الأراضي الإسلامية من أجل الحصول على المؤن، وتلقَّى في غضون ذلك دعوة من غودفري دي بوايون للقدوم إليه ليشتركا معاً في مهاجمة مدينة عزاز الواقعة على الطريق المؤدي من الرها وتل باشر إلى أنطاكية والتي تبعد عن حلب مسافة أربعين كيلومتراً إلى الشمال.

والواقع أن عمر أمير عزاز تعرَّض لضغط من رضوان بعد أن خرج على حكمه، فلم يسعه إلا طلب النجدة من غودفري دي بوايون الذي ساءه أن تبقى عزاز تحت حكم رضوان. ولما لم يكن بوسعه أن يشن حرباً على حلب من دون استعداد كافٍ، فقد حصل على مساعدات قوية من بوهيموند بناء على طلبه. ولما اقترب الجيش الصليبي من المدينة فكَّ رضوان الحصار عنها وعاد إلى حلب. وأقرَّ غودفري دي بوايون، عمر على حكم عزاز، فبذل الولاء له، وتعرَّض ريموند أثناء عودته للكمائن، وتكبَّد خسائر فادحة(٢).

وقاد أحد فرسان ريموند الصنجيلي ويُدعى ريموند بليه في (شعبان ٤٩١هـ/ تموز

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٤١٩. رنسيمان: جـ١ ص٣٧٠.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٤. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٧١ ـ ٣٧٣.

١٠٩٨م) قوة عسكرية صغيرة، هاجمت معرة النعمان[١] وتل منس[٢] بهدف احتلالهما وهي الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، أي أنها داخلة في نطاق ممتلكات رضوان. ويبدو واضحاً أن الفارس الصليبي كان على صلة بالسريان والأرمن في تلك النواحي، وتلقَّى مساعدة من سكان تل منس المسيحيين ومن أهل المعرة، لكن رضوان أسرع بإرسال «قطعة من عسكر حلب»، فالتقى الحلبيون والصليبيون في مكان بين تل منس ومعرة النعمان، وأسفر اللقاء عن هزيمة واضحة للفرسان الصليبيين فيما ثبتت مشاتهم، فقُتل منهم أكثر من ألف مقاتل حُملت رؤوسهم إلى داخل المعرة[٣] في حين ارتد ريموند إلى تل منس.

وأغار ريموند الصنجيلي في (ذي الحجة/ تشرين الأول) على البارة الواقعة شرقي نهر العاصي وهي تابعة لمملكة حلب، وكان سبق له أن استولى على الروج[٤] على نهر العاصي. ويبدو أن رضوان لم يبذل جهداً في الدفاع عن البارة، فاستسلم سكانها الذين تعرَّضوا للانتقام، فعاقب ريموند الرجال والنساء، واستصفى الأموال، وسبى بعضاً وقتل بعضاً، وحوَّل جامعها الكبير إلى كنيسة[٥].

ويبدو أن تلك الغزوات التي قام بها الصليبيون في ذلك الدور لم تكن إلا وسيلة لإثبات الحضور وتأمين المؤن حتى يحين الوقت للزحف إلى بيت المقدس، ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة. وكان الأمراء الصليبيون قد أقسموا بعد هزيمة كربوغا أن يسيروا في (ذي القعدة/ تشرين الأول) إلى بيت المقدس، فاجتمعوا في (٣ ذي الحجة/ ١ تشرين الثاني) في أنطاكية للتشاور وقرَّروا في (٧ ذي الحجة/ ٥ تشرين الثاني) استئناف الزحف إلى بيت المقدس[٦].

وضع أنطاكية القانوني

أثار قرار الصليبيين استئناف الزحف إلى بيت المقدس وضع أنطاكية القانوني لا سيما وأن بوهيموند ظل متمسكاً بحقه في السيطرة على كامل المدينة، في حين

---

(١) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. الحموي: جـ٥ ص١٥٦.

(٢) تل منس: حصن قرب معرة النعمان بالشام. المصدر نفسه: جـ٢ ص٤٤.

(٣) ابن العديم: جـ١ ص٣٥١. المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٤) الروج: كورة من كور حلب المشهورة في غربيها بينها وبين المعرة. الحموي: جـ٣ ص٧٦.

(٥) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٥. المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٦٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٧٨.

(٦) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٧٠. رنسيمان: جـ١ ص٣٨٤. Michaud: I pp346, 347.

نازعه ريموند، علماً أن الأول كان يسيطر على ثلاثة أرباع المدينة بالإضافة إلى القلعة، في حين كان الثاني يسيطر على الجسر المنيع وقصر ياغي سيان، كما كان للامبراطورية البيزنطية حقوق في أنطاكية وفقاً للاتفاقية المعقودة بين الامبراطور ألكسيوس كومنين وزعماء الحملة الصليبية في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) بوصفها كانت سابقاً من أملاك الامبراطورية[١].

وعندما أدرك بوهيموند أن الامبراطورية سوف لن تتنازل عن حقها في أنطاكية؛ قرَّر السيطرة عليها رغم إرادة الامبراطور وخلق واقع جديد، ومن جهته، ساند ريموند حق الامبراطور البيزنطي في امتلاك أنطاكية من واقع احترام الاتفاقية المذكورة[٢]. وبذلك أدَّت مشكلة حكم أنطاكية إلى تأزيم الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين بالإضافة إلى زعماء الحملة الصليبية أنفسهم[٣].

وطال النقاش بين الزعماء الصليبيين حول مصير أنطاكية، ورفض ريموند التنازل عن المراكز التي كان يحتلها، وأخذ في تحصينها، فاستاء الجند وبقية الفرسان، وهدَّدوا بتدمير أسوار المدينة وتركها مكشوفة أمام المسلمين والبيزنطيين ثم مغادرتها إلى بيت المقدس[٤].

أثار هذا التهديد مخاوف كلّاً من بوهيموند وريموند فضلاً عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم وعلى مستقبل الحملة، لذلك بدأت المساعي الجديَّة للتوصل إلى حل لتلك الأزمة[٥].

وتقرَّر أخيراً امتصاص التهديد عن طريق شغل الجند بمهاجمة المسلمين، واختيرت معرة النعمان كهدف عسكري، لأن إخضاعها سوف يؤمِّن الجناح الأيسر للصليبيين خلال زحفهم نحو الجنوب إلى بيت المقدس.

الصليبيون يهاجمون معرة النعمان

ساهم الصليبيون في الرها في الإغارة على المناطق المحيطة بحلب، فبعد فشلهم في الهجوم على معرة النعمان في (شعبان/ تموز) واصلوا تعدياتهم على المسلمين وتحرشاتهم بهم، فاحتلوا البارة كما ذكرنا، وانتقموا من سكانها ثم زحفوا على معرة النعمان وحاصروها في (٢٨ ذي الحجة/ ٢٧ تشرين الثاني)، فأتلفوا مزروعاتها وقطعوا أشجارها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها، لذلك شدَّدوا الحصار عليها، وعلى

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٦٧. المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٣٨٥، ٣٨٦.

(٣) Grousset: I p120.

(٤) الصوري، وليم: جـ١ ص٣٦٩، ٣٧٠.

(٥) عاشور: جـ١ ص٢١٣.

الرغم من ذلك لم يحدث شيء من التقدم خلال أسبوعين، وكان لا بد من استعمال آلات الحصار لاقتحامها[1].

استغاث سكان المعرة برضوان وجناح الدولة حسين، فلم يغثهم أحد[2] عندئذ اعتمدوا على قوتهم الذاتية، فصمدوا مدة أمام الحصار وقاوموه. ونجح الصليبيون في غضون ذلك في بناء برج متحرك احتموا بداخله، وقد جرى دفعه إلى جانب أحد أبراج المدينة. وتيسَّر للجنود الصليبيين نقب السور في أحد جانبي البرج حتى تداعى السور، فشقَّ عدد من الجنود طريقهم إلى داخل المدينة واستباحوها وذلك ليلة الأحد (٢٤ محرم ٤٩٢هـ/ ٢١ كانون الأول ١٠٩٨م) واضطر السكان إلى الاستسلام مقابل منحهم الأمان، والتجأ قسم منهم إلى بعض الدور الحصينة وطلبوا الأمان مقابل دفع ضريبة، وفرض الصليبيون مبلغاً من المال على كل دار، واطمأن السكان. غير أن الصليبيين لم يحترموا الأمان الذي منحوه للسكان، فغدروا بهم في اليوم التالي ورفعوا الصلبان فوق البلد، وقطعوا عن أهله القطائع، ولم يفوا بشيء مما قرَّروه، ونهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به[3]. وقدَّر ابن العديم عدد قتلى المسلمين في معرة النعمان بأكثر من عشرين ألفاً بين رجل وامرأة وصبي[4]، في حين قدَّرهم ابن الأثير بما يزيد على مائة ألف[5]. وتضيف المصادر الصليبية أن الصليبيين أحرقوا المعرة أولاً عن آخر، ومكثوا فيها أربعين يوماً قبل أن يعودوا إلى أنطاكية والرها من دون أن يجدوا من يقف في طريقهم أو يرد عليهم[6]. وظل رضوان قابعاً في حلب بدون حراك وكأن الأمر لا يعنيه في الوقت الذي أضحى الصليبيون على أبواب حلب.

بوهيموند يؤسس إمارة أنطاكية

استمرت النزاعات قائمة بين بوهيموند وريموند بعد الاستيلاء على معرة النعمان بسبب مشكلة أنطاكية، فعقد الزعماء الصليبيون اجتماعات عدة في كنيسة القديس بطرس بالمدينة لحسم النزاع بينهما. فعرض بوهيموند على المجتمعين الاتفاق الذي أبرمه معهم والذي ينص على تنازلهم عن أنطاكية، له، في حين أطلعه ريموند على نص اليمين الذي أقسموه بين يدي الامبراطور ألكسيوس كومنين بناء على نصيحة بوهيموند نفسه، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة إيجابية.

---

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٦٨، ٢٦٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٧٩، ٣٨٠.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٥.
(٣) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٥. ابن القلانسي: ص٢٢٢. المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٦٩ ـ ٢٧١.
(٤) زبدة الحلب: جـ١ ص٣٥٥. (٥) الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٤٢٠.
(٦) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧١.

ويبدو أن ريموند أدرك أخيراً أن القضية طال أمدها، وأنه لا بد من وضع حد بسرعة لها، فدعا الأمراء إلى الاجتماع به في الروج، وعرض عليهم مبالغ من المال ليستقطبهم إلى جانبه، ويعترفوا به زعيماً أوحد للصليبيين في الشرق، إلا أنه فشل في ذلك، فقد رفض الأمراء طروحاته. وعمَّ الاستياء في المقابل جميع صفوف الجند والفرسان، فأرغموه على المسير بأن دمَّروا أسوار معرة النعمان، فأدرك عندئذ أنه لم يعد ثمة تأجيل وإرجاء، فخرج من معرة النعمان في (١٧ صفر ٤٩٢هـ/ ١٣ كانون الثاني ١٠٩٩م) على رأس قواته معلناً الزحف إلى بيت المقدس، وتبعه بقية الصليبيين باستثناء بوهيموند الذي عاد إلى أنطاكية، واختار البقاء فيها ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية، أما معرة النعمان فتقرَّر منحها لأسقف البارة[١].

(١) المؤرخ المجهول: ص٢٧١، ٢٧٢. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٨٢، ٣٨٣. توديبو، بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس: ص٢٦٣.

الفصل الخامس

سقوط بيت المقدس ونتائجه

موقف الأمراء العرب في أواسط بلاد الشام من الزحف الصليبي

كان للخلافات بين الأمراء المسلمين آنذاك أثر كبير في نجاح الصليبيين الذين اغتبطوا لهذا الانقسام الواضح في صفوفهم، وأملوا في مزيد من النجاح في المستقبل طالما لا يواجهون قوى متحدة.

تقدم ريموند من معرة النعمان إلى كفرطاب التي تقع على مسافة عشرين كيلومتراً إلى الجنوب منها، وانتظر فيها حتى (٢٠ صفر ٤٩٢هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٠٩٩م) حتى لحق به كل من تانكريد وروبرت النورماني[١].

وبوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة، يكونون قد شارفوا على أراضي الإمارات العربية القائمة في أواسط بلاد الشام، مثل بنو منقذ في شيزر[٢] وبنو عمار في طرابلس. ويبدو أن هؤلاء الأمراء ابتهجوا لما حدث من تداعي قوة الأتراك ليؤكدوا استقلالهم غير مكترثين بالقضية الإسلامية العامة التي كانت تتعرَّض للامتهان على أيدي الصليبيين، فتخلوا عن كل فكرة ترمي إلى المقاومة وبخاصة عدم وجود قوة إسلامية كبيرة تقف إلى جانبهم وتحميهم وتدافع عنهم، وآثروا اتباع سياسة مرنة، فأبدوا استعدادهم لعقد اتفاقيات مع الصليبيين على أساس ما تقدموا به من عروض[٣]، حتى أن أمير حماة، وهو صهر رضوان، وجناح الدولة حسين أمير حمص اللذين قاتلا إلى جانب كربوغا، تخليا عن المقاومة.

ولعل ما هو أكثر أهمية عند الصليبيين ما كان من انتهاج أشهر أسرتين عربيتين آنذاك، وهم بنو منقذ في شيزر وبنو عمار في طرابلس، سياسة التفاهم معهم، إذ تسيطر الأسرة الأولى على المناطق الواقعة مباشرة أمام الصليبيين والتي تمتد من نهر

---

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٤. فولشر الشارتري: ص٦٨. توديبو: ص٢٨٩.

(٢) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم تُعد في كورة حمص. الحموي: جـ٣ ص٣٨٣.

(٣) عاشور: جـ١ ص٢٧٧. رنسيمان: جـ١ ص٣٩٩.

العاصي حتى ساحل البحر، في حين تسيطر الأسرة الثانية على الشريط الساحلي الممتد من أواسط لبنان إلى الطرف الفاطمي، وتُعدُّ صداقة هاتين الأسرتين أو على الأقل وقوفهما على الحياد، أمراً حيوياً، إذ كان لا بد للصليبيين أثناء الزحف جنوباً من المرور بأراضيهما[١].

وبناء على التوجه السلمي للأمراء العرب، أجرى عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر اتصالاً مع ريموند عندما كان هذا الأخير في كفرطاب، وعرض عليه تقديم الأدلَّاء ليرشدوا الصليبيين أثناء عبورهم إقليم العاصي، بالإضافة إلى ما يحتاجون إليه من مؤن، بأسعار متدنية؛ إذا اجتاز هؤلاء أراضيه بهدوء وسلام، فوافق ريموند على هذا العرض[٢]. وفي (٢١ صفر/١٧ كانون الثاني) قام دليلان من شيزر بإرشاد الجيش الصليبي عبر وادي نهر العاصي بين شيزر وحماة[٣].

استولى الصليبيون أثناء عبورهم على عدد كبير من قطعان الماشية وصل إلى خمسة آلاف رأس غنم، وكمية لا بأس بها من القمح، وغير ذلك من الحاجات الضرورية المفيدة؛ ما جعل الفرسان يبيعون ما فاض عن حاجتهم في شيزر وحماة مقابل الحصول على خيول، فاشتروا نحو ألف حصان، كما سمحت لهم السلطات العربية أن يدخلوا إلى مدنها ليشتروا منها ما يحتاجون من مؤن[٤]، ما أنعشهم وقوَّى عزائمهم.

وقرَّر الصليبيون عند شيزر، نزولاً على رأي تانكريد، أن يسلكوا الطريق الداخلي إلى بيت المقدس بدلاً من الطريق الساحلي الذي كان من رأي ريموند أنه يُمكِّن الحملة من الاتصال بأنطاكية، والحصول على الإمدادات والمؤن من السلطات البيزنطية في قبرص، نظراً لما يربطه بها من علاقات ودية، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التي اتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها. ورأى تانكريد أنه إذا سلك الصليبيون طريق الساحل، وهو طويل ومتعرج، فهم مضطرون إلى الاستيلاء على المدن الساحلية مثل جبلة[٥] وانطرطوس[٦] وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا ما

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٣٩٩.
(٢) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٠. توديبو: ص٢٨٩.
(٣) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٣. توديبو: ص٢٨٩.
(٤) المؤرخ المجهول. المصدر نفسه. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٨٥.
(٥) جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. الحموي: جـ٢ ص١٠٥.
(٦) أنطرطوس: بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. المصدر نفسه: جـ١ ص٢٧٠.

يُشكل عامل تأخير لهم وبخاصة أنهم قد يصادفون مقاومة من جانب السكان، وهم مضطرون لادخار قوتهم حتى الوصول إلى بيت المقدس، والتي لم تكن تتجاوز آنذاك ألف فارس وخمسة آلاف راجل[١]، هذا مع الاقتراب بين حين وآخر من ساحل البحر كلما استدعت ظروف التموين ذلك.

استأنف الصليبيون زحفهم وفق الخطة التي وضعها تانكريد، فمروا بمصياف[٢]، فخرج إليهم أميرها العربي وعقد معهم اتفاقية سلام ثم زحفوا إلى بارين[٣] ثم إلى رفنية[٤]، التي مكثوا فيها ثلاثة أيام قبل أن يهبطوا إلى سهل البقيعة الذي يتحكَّم بحصن الأكراد المشهور بضخامته، وقد احتمى سكان تلك المنطقة بالحصن، فحاصرهم الصليبيون حتى سقط الحصن في أيديهم في (٣ ربيع الأول/ ٢٩ كانون الثاني)[٥].

وفي الوقت الذي كان فيه ريموند في حصن الأكراد قدمت إليه سفارة من جانب جناح الدولة حسين أمير حمص محملة بالهدايا ومعلنة ولاء الأمير العربي، وذلك حتى لا يتعرَّض لإمارته[٦]، ثم تلتها سفارة أخرى من قِبَل أمير طرابلس فخر الملك أبي علي عمار بن محمد الذي استبق الأمور لدفع الخطر عن إمارته وتفادي القتال. وأبدى صاحب طرابلس هذا استعداده للتشاور والتنسيق مع ريموند في التدابير اللازمة لمرور الحملة الصليبية عبر إمارته، وطلب منه أن يبعث بمندوبين من قِبَله من أجل هذه الغاية على أن يحملوا معهم أعلام تولوز ليرفعها على أسوار المدينة[٧] كدليل على حسن النية.

وافق الأمير الصليبي على الطلب ليختصر الوقت وهو في طريقه إلى بيت المقدس، فأرسل سفارة إلى طرابلس للتفاوض في شروط الصلح، وشاهد أعضاؤها مدى عِظم ثروة المدينة، فتملكتهم الدهشة، فلما عادوا إلى معسكرهم أخبروا ريموند بما رأوا، وأشاروا عليه بالتشدد مع أميرها لأنه لن يتردد في عقد اتفاق بأي ثمن

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٤٠٠.

(٢) مصياف: قلعة مشهورة بالساحل الشامي قرب طرابلس. الحموي: جـ٥ ص١٤٤.

(٣) بارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، وتلفظ أحياناً باسم بعرين. المصدر نفسه: جـ١ ص٣٢٠، ٣٢١.

(٤) رفنية: كورة ومدينة من أعمال حمص، وقال قوم: رفنية بلدة عند طرابلس من سواحل الشام. المصدر نفسه: جـ٣ ص٥٥.

(٥) توديبو: ص٢٨٩ ـ ٢٩٣. فولشر الشارتري: ص٦٧، ٦٨. المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٣، ٢٧٤.

(٦) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٤.

(٧) المصدر نفسه. توديبو: ص٢٩٣. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٩٧.

ليضمن السلام لعاصمة إمارته[١]، كما نصحوه بمهاجمة أحد حصون الإمارة للضغط عليه.

استجاب ريموند لرأي رجاله، فتوجَّه نحو عِرقة[٢] لمهاجمتها في الوقت الذي توجهت فيه جماعة من الصليبيين بقيادة غودفري دي بوايون وروبرت فلاندر نحو أنطرطوس (طرطوس) الواقعة داخل حدود إمارة بني عمار، فهاجموها واستولوا عليها ثم تابعوا هجماتهم فحاصروا جبلة[٣].

وحاصر ريموند عِرقة، غير أن المدينة كانت في غاية الحصانة كما استبسل أهلها في الدفاع عنها، ولما لم يكن معه قوات كافية لتطويقها وتشديد الحصار عليها، استدعى القوة العسكرية التي كانت تحاصر جبلة. وقامت قوة صليبية بغارة على ربض طرابلس[٤] ونجح الصليبيون في نقب سورها، إلا أنهم لم يتمكَّنوا من اقتحامها. وحاول تانكريد ثني ريموند عن عزمه في مواصلة الحصار الذي طال أمده والتوقف عند الحصون الأخرى، لأن في ذلك مضيعة للوقت، غير أن ريموند لم يكن ليتخلَّى عن الحصار حتى لا يثير عداء أمير طرابلس بعد أن يكتشف ضعفه[٥].

وعلى الرغم من أن ريموند نجح في إقناع الصليبيين بالبقاء مدة طويلة أمام عِرقة، إلا أنه لم ينجح باقتحامها، وكلَّفه القتال أمامها الكثير من الجند[٦]. وأمام إلحاح قائده، رفع الحصار عن عِرقة بعد أن قاومته مدة ثلاثة أشهر[٧]، وسار بقواته إلى طرابلس ونزل عند أسوارها وذلك يوم الجمعة (١٩ جمادى الآخرة ٤٩٢هـ/ ١٣ أيار ١٠٩٩م)، ومكث في ربضها مدة ثلاثة أيام قام فخر الملك خلالها بإطلاق سراح أكثر من ثلاثمائة حاج من المسيحيين كانوا أسرى لديه، وأعطى ريموند خمسة عشر ألف قطعة ذهبية وخمسة عشر هدية غالية القيمة، وقدَّم للجيش عدداً من الجياد والحمير وشتى أنواع المحاصيل[٨].

---

(١) Raymond d'Aguilers: Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem: III p275.

(٢) عِرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ وهي آخر عمل دمشق وهي في سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة لها. الحموي: جـ٤ ص١٠٩.

(٣) توديبو: ص٢٩١.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٩١. فولشر الشارتري: ص٦٨. المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٩٦.

(٥) رنسيمان: جـ١ ص٤٠٤.

(٦) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٦.

(٧) المصدر نفسه. يذكر بعض المؤرخين الشرقيين أن الحصار استمر مدة أربعة أشهر. انظر: ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٠. ابن العبري: ص١٢٤.

(٨) المؤرخ المجهول: ص٢٧٧. توديبو: ص٢٩٣.

والواقع أن صاحب طرابلس أراد أن يُبعد الصليبيين عن مدينته بأي ثمن، طالما أن ذلك يجنِّبها الخراب والدمار وبخاصة بعد أن رأى أمراء بلاد الشام قد هادنوهم مثل أمير شيزر وصاحب حمص، وأن الدولة السلجوقية عجزت عن صدِّهم، وانتزعوا منها بلاداً كثيرة، وأن الدولة الفاطمية لا تُعِر الخطر الصليبي أي اهتمام جدِّي، بل إنها كانت ترى في دخول الصليبيين إلى بلاد الشام عاملاً للقضاء على خصومها السلاجقة[١].

التوسع الفاطمي في جنوبي بلاد الشام

استغل الأفضل الفاطمي فرصة انهماك السلاجقة بالتصدي للزحف الصليبي في شمالي بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوبي بلاد الشام ظناً منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة، وكان قد استولى على صور في عام (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) بعد أن أعلن واليها كتيلة الخروج على الحكم الفاطمي، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس آنذاك، وترك ذلك إلى فرصة أخرى[٢]. وحانت هذه الفرصة في (رمضان ٤٩١هـ/آب ١٠٩٨م) عندما كان الصليبيون لا يزالون في أنطاكية، فخرج من مصر على رأس جيش كثيف ونزل على بيت المقدس فانتزعه من أيدي الأميرين الأرتقيين سكمان وإيلغازي كما ذكرنا ثم عاد إلى القاهرة بعد أن استتباب الأمير افتخار الدولة على حكمه. ولم تكد تنتهي سنة (٤٩١هـ/١٠٩٨م) حتى كانت حدود الدولة الفاطمية قد امتدت من نهر الكلب شمالاً ومجرى نهر الأردن شرقاً[٣].

والواقع أنه تحقَّق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة شُغِلوا بالغزو الصليبي عن صدِّ الهجوم الفاطمي، كما أن تهديده لفلسطين وبيت المقدس خدم القضية الصليبية لأنه سبَّب ارتباكاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً[٤].

سقوط المدن الساحلية

عندما بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل بلاد الشام جنوب نهر الكلب، لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم في تلك الجهات والدفاع عنها باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الداخلية التي ظل الأسطول الفاطمي

(١) عاشور: جـ١ ص٢٣٥.

(٢) ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب: أخبار مصر: ص٣٨.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٢.

(٤) Grousset: I pp84, 85.

قادراً على إمدادها بالرجال والمؤن من ناحية أخرى[١]. وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس يوم الاثنين (٢٢ جمادى الآخرة ٤٩٢هـ/ ١١ أيار ١٠٩٩م) في طريقهم إلى بيت المقدس. فقد سلكوا الطريق الساحلي عبر القلمون وأنف الحجر[٢] والبترون[٣] وجبيل، وساعدهم أدلَّاء مسيحيون من لبنان ثم اجتازوا نهر إبراهيم ووصلوا في (٢٥ جمادى الآخرة/ ١٩ أيار) إلى الحدود الفاطمية عند نهر الكلب، ولما اقتربوا من بيروت بادر سكانها الذين خشوا أن يتعرضوا للدمار، فبذلوا لهم الهدايا والأموال وسمحوا لهم باجتياز بلادهم بشرط ألا يُنزلوا الضرر بالأشجار المثمرة والكروم والمحاصيل الزراعية. وقَبِل الأمراء الصليبيون هذه الشروط[٤].

وبعد استراحة ليلة واحدة، انطلق الصليبيون إلى صيدا فوصلوا إليها في (٢٦ جمادى الآخرة/ ٢٠ أيار) وأقاموا معسكرهم عند شاطئ نهر الأولي شمالي المدينة، فتعرَّضوا لمقاومة رجال الحامية، إلا أنهم ردوا الهجوم، ثم نهبوا الحدائق في ربضها قبل أن يتحركوا بسرعة نحو صور، فعسكروا في ضواحيها مدة يومين بانتظار وصول جماعة من فرسان أنطاكية والرها، ولم تجر محاولة للتصدي لهم، وتحصَّنت حامية المدينة وراء الأسوار، ثم اجتازوها في (٢٩ جمادى الآخرة/ ٢٣ أيار)، وعبروا مرتفع رأس الناقورة في طريقهم إلى عكا، فبلغوا ظاهرها في (١ رجب/ ٢٤ أيار)، فصالحهم أميرها وقدَّم لهم الهدايا والمؤن، كما تعهد بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس[٥].

ومضى الصليبيون في تقدمهم فمروا بقيسارية ثم بأرسوف[٦]، ولم يحاولوا بعد ذلك التوجه إلى يافا وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي ويشقوا طريقهم إلى داخل البلاد مباشرة إلى بيت المقدس، ومع ذلك حرصوا على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر، لذلك احتلوا الرملة بعد أن أخلاها المسلمون وتركوا فيها حامية صغيرة[٧]، وعقدوا فيها مجلساً للحرب في المدة بين (١١ ـ ١٤ رجب/ ٣ ـ ٥

---

(١) عاشور: جـ١ ص٢٣٨. رنسيمان: جـ١ ص٣٩٨.
(٢) أنف الحجر: هو رأس الشقعة بين شكا والبترون على ساحل لبنان الشمالي.
(٣) البترون: بلدة على الساحل اللبناني.
(٤) توديبو: ص٢٩٤. الصوري، وليم: جـ١ ص٣٥٨. المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٧.
(٥) المصادر نفسها: ص٢٩٤، ص٣٩٨، ٣٩٩، ص٢٧٧.
(٦) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. الحموي: جـ١ ص١٥١.
(٧) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٧. فولشر الشارتري: ص٧٠. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٠٠.

حزيران) ناقشوا فيه مسائل عدة، منها اقتراح بأن يبدأوا بمهاجمة الفاطميين في مصر، إذ أن من الحماقة مهاجمة بيت المقدس في ذروة الصيف، وأن من الأفضل أن يتقدموا لمهاجمة العدو الحقيقي مصر، لأن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلاً في القاهرة، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس، فعليهم أن يُؤمِّنوا على أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا، غير أن هذا الاقتراح لقي الرفض من معظم الأمراء، وتقرَّر الزحف مباشرة إلى بيت المقدس[1].

سقوط بيت المقدس

وصل الصليبيون إلى بيت المقدس يوم الثلاثاء في (١٥ رجب ٤٩٢هـ/ ٧ حزيران ١٠٩٩م) وحاصروها. تولى الدفاع عن المدينة، الحاكم الفاطمي افتخار الدولة وحامية قوية تألفت من عساكر عربية وسودانية، فلما ترامى إليه نبأ اقترابهم اتخذ إجراءات احتياطية عدة لمواجهة الموقف منها:

- طمر ما يقع خارج المدينة من آبار أو سمَّها.
- ساق قطعان الماشية إلى أماكن آمنة.
- ملأ مخازنه بالمؤن وصهاريجه بالماء بما يكفيه مدة طويلة.
- طرد المسيحيين من المدينة، ويُعد هذا إجراءً سديداً، إذ لا يُرجى منهم فائدة في القتال نظراً لما تقرر من منعهم من حمل السلاح، كما لا يصح الركون إليهم والوثوق بهم إذا نشبت المعركة ضد إخوانهم المسيحيين، يضاف إلى ذلك، إن إخراجهم من المدينة يُوفِّر المؤن لمن تبقَّى من السكان.
- اهتم بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ودعَّمها بأكياس مملوءة بالقطن وشَحَنَ الأبراج بالمقاتلة والسلاح.
- أرسل سفارة إلى مصر يطلب النجدة[2].

ولم يكد الصليبيون يشرعون في حصار المدينة حتى أخذوا يهاجمونها معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم، ويبدو أنهم افتقروا إلى القوات الكافية لتطويقها، لذلك ركَّزوا قواتهم أمام الأماكن التي تُقرِّبهم من الأسوار. فتمركز روبرت النورماني على امتداد السور الشمالي تجاه باب الزهور، واتخذ روبرت فلاندر موقعه إلى يمينه تجاه باب الأعمدة أو باب دمشق، وعسكر غودفري دي

---

(١) Chalandon: p267. Raymond d'Aguilers: p299. Grousset: I pp150,151.

(٢) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٨٠ .Raymond d'Aguilers: pp293, 294. رنسيمان: جـ١ ص٤١٦، ٤١٧ .Grousset: I p152.

بوايون في البقعة التي تواجه الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا، وانضم إليه تانكريد عندما قدم من بيت لحم، واستقر ريموند إلى الجنوب منهما قبل أن ينتقل إلى جبل صهيون بعد أن اكتشف أن الوادي يجعله بعيداً عن الأسوار، وكان القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي مكشوفين لم يحرسهما أحد(١).

واجهت المحاصِرين في بادئ الأمر، مشكلات عدة حالت بينهم وبين الاستيلاء على المدينة فوراً لعل أهمها:

- مقاومة الحامية الفاطمية، إذ توافر لافتخار الدولة المؤن والماء والأسلحة التي تفوَّقت على أسلحة الصليبيين، وأمل أن يصمد في وجه الحصار المدة الكافية حتى تصل النجدة التي طلبها من القاهرة.
- تأمين الماء نتيجة ما اتخذه افتخار الدولة من تدابير كانت ناجعة وقوية الأثر، وكان لا بد للصليبيين للحصول على الماء من أن يسيروا ستة أميال أو أكثر ما يُعرِّضهم لهجمات المسلمين، كما أخذت مؤنهم في النفاد.
- تجدَّد النزاع بينهم حول مصير بيت المقدس وملكية بعض الأماكن المهمة الأخرى مثل بيت لحم، وقد تمسك تانكريد بحقه في ملكيتها بعد أن كان قد استولى عليها.
- انتشرت شائعة بينهم تفيد أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من القاهرة وهو في طريقه لإنقاذ المدينة(٢).

وأدرك الصليبيون بعد ذلك، أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل، وينبغي عليهم القيام بهجوم فوري على المدينة والاستيلاء عليها، وفعلاً شنوا هجوماً في (٢٠ رجب/ ١٢ حزيران) على أسوارها ونجحوا في التغلب على الأسوار الشمالية الخارجية، غير أنه لم يتوافر لديهم من السلالم ما يتيح لهم تسلق الأسوار في جهات عديدة في آن واحد، ولما تبيَّن لهم أن محاولتهم ليست مجدية قرَّروا الانسحاب وعدم القيام بهجوم آخر ما لم تتوفر لهم المنجنيقات والسلالم، لكنهم افتقروا إلى المواد التي يصنعون منها هذه الآلات، على أنه حدث أن جاءتهم مساعدة من البحر. ففي (٢٥ رجب/ ١٧ حزيران) رست في مرفأ يافا الفاطمي المهجور سفينتان جنويتان محملتان بالزاد والعتاد والحبال والمسامير والأخشاب وغيرها مما يتطلبه العمل لصناعة أدوات الحصار، وكانتا بقيادة أمير البحر الجنوي وليم أمير باكو وشقيقه بريموس، فأفرغ الصليبيون حمولتهما إلى البر وسط مناوشات مع قوة فاطمية قدمت

---

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٨. توديبو: ص٣١٣. Albirt d'Aix: pp463, 464. Raymond d'Aguilers: p293.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٤١٨.

من عسقلان، ونقلوها إلى المعسكر الصليبي عند بيت المقدس الذي تحول إلى خلية عمل لبناء الأبراج والسلالم اللازمة لتسلق الأسوار. وشرع ريموند وغودفري دي بوايون في تشييد أبراج من الخشب تسير على عجلات ثُبِّتت بها المقاليع، وبعد الانتهاء من العمل نصبوا الأبراج وأسندوها إلى أسوار المدينة[١].

ولا شك بأن هذه المساعدة البحرية كان لها أثر فعَّال في تدعيم مركز الصليبيين وفي إمدادهم بما يحتاجون إليه، ما مكَّنهم من مواصلة الحصار والهجوم في الوقت الذي كانت فيه الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة عن العالم الخارجي، وتأخُّر وصول النجدة من القاهرة[٢]، لكن بلغهم بعد ذلك خبر خروج الأفضل من مصر على رأس جيش فاطمي كبير لنجدة المدينة. وإذ أدركوا أنه ليس ثمة ما يدعو بعدئذ إلى التمهل والإرجاء، جدُّوا في حصارها وواصلوا الحرب، فأنشأوا ثلاثة أبراج ضخمة تطل على أسوارها ونصبوها عند السور الشمالي وجبل صهيون والطرف الشمالي الغربي من الأسوار، «فحكموا البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون. . .».

وحدث الهجوم الصليبي الشامل ليلة (٢١ شعبان/ ١٤ تموز)، ثم اشتد القتال واتخذ طابعاً عنيفاً في صباح اليوم التالي، وهو اليوم الذي نجحوا فيه باقتحام المدينة بعد حصار استمر نيفاً وأربعين يوماً[٣].

وارتكب الصليبيون مذبحة مروعة خاضوا فيها حتى أكعابهم في دماء القتلى، وعندما التجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى تبعوهم من دون أن يراعوا حرمته، وأجهزوا عليهم، وفاض المسجد كله بدمائهم، وقد بلغ عدد القتلى في المسجد وحده ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبَّادهم وزهَّادهم، وذبحوا المسلمين في الشوارع وفي البيوت بوحشية بالغة، ولم يجد المسلمون في المدينة مكاناً آمناً يعتصمون فيه، فألقى بعضهم بأنفسهم من فوق الأسوار، وازدحم آخرون في القصور والأبراج والمساجد، ولم يكن يُسمع في تلك الساعة غير أنين الجرحى وحشرجات الموتى، كما وطئ الفرسان أكداس الجثث

---

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٧٨، ٢٧٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٢١، ٤٢٢.
Raymond d'Aguilers: pp294-297.

(٢) Chalandon: pp264-270.

(٣) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٨١، ٢٨٢. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٢٧ ـ ٤٣٧، حيث تفاصيل مسهبة لسير العمليات العسكرية والمذابح المرعبة. فولشر الشارتري: ص٧٣ ـ ٧٥. ابن القلانسي: ص٢٢٢. ابن العبري: ص١٢٤، ١٢٥. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٤، ٤٢٥.

وهم يطاردون أولئك الذين حاولوا الهرب عبثاً[١].

استمرت المطاردات والمذابح مدة أسبوع كامل والصليبيون يتعقَّبون أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ويقتلونهم، وجُمعت بعد ذلك جثث القتلى وطُرحت خارج أبواب المدينة، فتعالت أكوامهم «حتى حاذت البيوت ارتفاعاً، وما تأتَّى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة»[٢].

اعترف المؤرخون الصليبيون بهذه الحقيقة: فذكر ريموند دي جيل وهو شاهد عيان، أن الدماء قد وصلت في رواق المسجد إلى الركب «حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين»[٣]. وبلغت الدماء من شدة التدفق في الشوارع أن فاض الناس بخيولهم فيها، وعندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه[٤].

وروى المؤرخ المجهول وهو شاهد عيان أيضاً أن المقاتلين الصليبيين تعرَّضوا للمسلمين «واعملوا فيهم أبشع القتل وأفظعه طوال اليوم بأكمله حتى فاض المعبد كله بدمائهم»[٥].

وروى فولشر الشارتري «لو كنتَ هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى، ماذا أقول؟ لم يبق منهم أحد، ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً»[٦].

وذكر وليم الصوري أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم[٧].

ولعل هذا ما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين في العصر الحديث إلى الاعتراف بأن مذبحة تموز ١٠٩٩م كان لطخة عار في تاريخ الصليبيين[٨] وأنها تركت أثراً عميقاً في جميع أنحاء العالم، وأدَّت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث في ظل التعصب المسيحي الذي دلَّ عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء.

وأما المسلمون الذي كانوا آنذاك مستعدين لأن يعترفوا بالصليبيين على أنهم عامل

---

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٨١، ٢٨٢. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٢٧ ـ ٤٣٧. فولشر الشارتري: ص٧٣ ـ ٧٥. ابن القلانسي ص٢٢٢. ابن العبري: ص١٢٤، ١٢٥. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٤، ٤٢٥.

(٣) Historia: p306.

(٤) Ibid.

(٥) يوميات صاحب أعمال الفرنجة: جـ١ ص٢٨٦.

(٦) تاريخ الحملة إلى بيت المقدس: ص٧٥.

(٧) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ١ ص٤٣٦، ٤٣٧.

(٨) Grousset: I p161.

جديد فيما ساد ذلك العصر من سياسات معقدة، فإنهم عزموا على طردهم، ولما سعى بعض العقلاء الصليبيين بعد ذلك للتقارب مع المسلمين والتعاون معهم، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائماً الوصول إلى اتفاق[1].

ولما جنَّ الليل دخل الصليبيون إلى كنيسة القيامة لرفع صلاة الشكر، وقد بكوا من شدة الفرح، فرفعوا أيديهم الملطخة بالدماء وصاروا يجهرون بصلاتهم[2]. وهكذا كشف الأوروبيون في الغرب المسيحي القناع عن وجه مفعم بالعدوان العسكري والدموي ضد المسلمين، ويُسمي رئيس الأساقفة وليم الصوري الاستيلاء على المدينة المقدسة باسم «نهاية الحج»[3].

على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم من دون مقاومة، وبخاصة في الجهة الجنوبية. أما افتخار الدولة، فقد قاوم ريموند بعنف، غير أنه أدرك عند العصر أن كل شيء قد ضاع، وأنه لا أمل في المقاومة، فانسحب إلى برج داوود واحتمى بداخله مع طائفة من جنده «فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام» ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان مقابل أن يُسلموا البرج إلى ريموند مع مبلغ كبير من المال، وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين[4]، ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفوها، وقتْلهم آلاف الأبرياء، من المسلمين بغير ذنب[5].

ولم يكن اليهود بأحسن حالاً من المسلمين، ففي غمرة ارتكاب المذابح التي تعرَّض لها السكان، فرَّ يهود بيت المقدس، وكانوا مستهدفين كالمسلمين، إلى معبدهم، غير أنه تقرَّر إلقاء القبض عليهم بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي من بداخله من اليهود مصرعهم محترقين[6].

لم يسمع البابا أوربان الثاني واضع أساس الحرب الصليبية بهذا الانتصار، فقد توفي في روما في (٨ رمضان ٤٩٢هـ/ ٢٩ تموز ١٠٩٩م)، أي بعد أسبوعين من دخول جنوده إلى المدينة المقدسة وقبل أن يصله نبأ ذلك.

---

(١) رنسيمان، جـ١ ص٤٢٧.

(٢) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٨٢. فولشر الشارتري: ص٧٦ .Raymond d'Aguilers: p306

(٣) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ١ ص٤٠٦.

(٤) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٨١ ـ ٢٨٣. فولشر الشارتري: ص٧٧. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٤٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٥.

(٥) عاشور: جـ١ ص٢٤٤.

(٦) ابن القلانسي: ص٢٢٢ .Michaud: I pp424, 425

تأسيس إمارة بيت المقدس

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها العسكرية والروحية مشكلة تنظيم وضع مدينة بيت المقدس وكيفية تأسيس دولة غربية على أرض شرقية تتألف من تلك العناصر المشتتة والمتباينة التي جرفها تيار الدعوة الصليبية من أوروبا الغربية في صعيد واحد[(١)].

وكانت المشكلة الداخلية الكبيرة التي واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من ذبح جميع من في بيت المقدس من السكان المسلمين واستولوا على المدينة، هي تقرير أمر الحكومة المقبلة. وظهرت في هذه الأثناء المشكلة المزمنة بين الكنيسة والدولة. إذ يبدو طبيعياً أن المدينة المقدسة التي سقطت في حرب مقدسة على يد جيش عيَّن البابا أحد رجال الكنيسة قائداً له، ينبغي أن يتولى حكمها رجل كنسي، لكن الصليبيين افتقروا آنذاك إلى وجود قائد روحي يعترفون جميعاً بزعامته ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم، وهنا شعروا بعظم الخسارة التي أصابتهم بوفاة المندوب البابوي أدهيمر في أنطاكية في (رمضان ٤٩١هـ/ آب ١٠٩٨م) الذي عُرف باتزانه، ولم يكن ثمة أحد من رجال الكنيسة بعده من توافر فيه من الهيبة والمكانة ما يكفل انتصار التوجه الكنسي[(٢)].

ومن جهة أخرى، برزت أطماع الأمراء الشخصية واضحة، فتخلَّى بعضهم عن الحملة وتوقف في الطريق لتحقيق مكسب خاص، مثلما فعل بلدوين في الرها وبوهيموند في أنطاكية، ولم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس من الأمراء الكبار سوى أربعة هم: غودفري دي بوايون وريموند وروبرت فلاندر وروبرت النورماني.

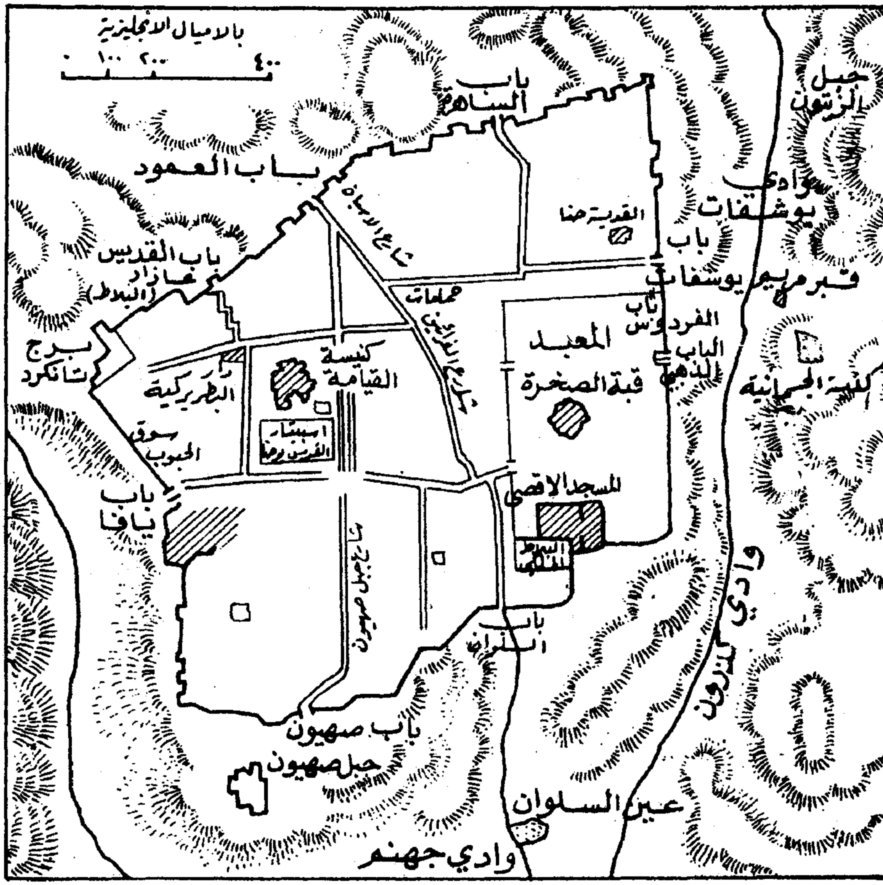
واجتمع زعماء الحملة الصليبية الأولى الدينيون والعلمانيون في (٢٥ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٧ تموز ١٠٩٩م) لتنظيم وضع المدينة وانتخاب حاكم عليها، وقد تنازعهم تياران أحدهما علماني والآخر ديني. وكانت النية تميل إلى تنصيب بطريرك لاتيني رئيساً لها وأن يُعهد إليه بولايتها، لكن تغلَّبت النزعة العلمانية بفعل طبيعة الظروف التي أحاطت بهم، إذ أن قيام حكومة لاتينية أمر يحتاج إلى قيادة عسكرية زمنية للدفاع عن هذه الدولة ضد المسلمين المحيطين بها، ورأى مجلس الأمراء الذي كان يدير الحملة الصليبية، أنه لا غنى عن اختيار زعيم عسكري، لذلك اتفقت الآراء على اختيار أحد الأمراء العلمانيين، في ظل تنازع هؤلاء على المنصب[(٣)].

---

(١) عاشور: جـ١ ص٢٤٧. Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem: pp28, 29.

(٢) عاشور: جـ١ ص٢٤٨، ٢٤٩.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٤٤٤ ـ ٤٤٦. Grousset: I pp165-168.



بيت المقدس زمن الملوك اللاتين

عن تاريخ الحروب الصليبية «ستيڤن رنسيمان» ٤٨١/٢

ويُعدُّ ريموند أهم هؤلاء الأمراء وأخطر مرشح للعرش بسبب قوة شخصيته وغناه وتجربته وارتباطه الطويل بأدهيمر، وبُعد نظره السياسي، على الرغم من استياء كثير من الصليبيين من سياسة التقارب التي انتهجها مع البيزنطيين، ومع ذلك، فقد عُرض عليه تاج بيت المقدس، ولكنه رفضه مستنداً في ذلك، من الناحية الشكلية، إلى سبب ديني، وهو أنه لم يرغب في أن يحكم في المكان الذي عانى فيه المسيح من العذاب عند صلبه على الرغم أنه ثمة من دواعي الشك ما يدل على أن إقامة إمارة في طرابلس، وما حدث من توقف ذلك بسبب ضغط الحجاج؛ لا زال الهدف الأول لطموحه(١). والراجح أنه شعر بحرج موقف الأمراء وأنهم لن يخضعوا فعلاً

(١) باركر: ص٣٧. Grousset: I pp168, 169.

لسلطانه، لذلك لم يشأ أن يفرض نفسه عليهم ما قد يثير مشكلات في وجهه في وقت تحتاج فيه القضية الصليبية إلى التضامن، كما لم يحظ بتأييد غالبية الصليبيين، بل إن عساكره أعلنوا معارضتهم لقبوله العرش، فأعلن عندئذ أنه لا يحب أن يكون ملكاً[1].

ويبدو أن الناخبين ارتاحوا لهذا الرفض، فعرضوا التاج على غودفري دي بوايون فقبله بعد تردد، غير أنه طلب إعفاءه من أن يتخذ لقب ملك بيت المقدس، ورفض أن يرتدي تاجاً من الذهب في المكان الذي ارتدى فيه المسيح تاجاً من الشوك، واكتفى بأن اتخذ لقب حامي القبر المقدس، ثم جرى اختيار أرنولف قسيس روبرت النورماني ليشغل نائباً لكرسي البطريركية[2].

الانتشار الصليبي في جنوبي بلاد الشام

معركة عسقلان: تطلع الصليبيون بعد استقرارهم في بيت المقدس إلى استكمال مخططهم التوسعي بالاستيلاء على بقية مدن فلسطين والساحل الشامي، الخاضعة للسيادة الفاطمية، علماً بأنهم لم يسيطروا حتى ذلك الوقت إلا على بيت المقدس وبيت لحم واللد والرملة ويافا، ويبدو أنهم لم يصادفوا مقاومة جديَّة لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الذعر والهلع في نفوس سكان المدن والقرى المجاورة فضلاً عن خلوها من وسائل الدفاع. وهكذا أسرع سكان نابلس إلى الخضوع وسلَّموا مدينتهم إلى تانكريد[3].

والواقع أن الفاطميين لم يتخاذلوا أمام الصليبيين عندما علموا بنواياهم بالهجوم على بيت المقدس، فجهَّز الأفضل جيشاً خرج به من مصر ليحول دون استيلائهم عليه، ولكنه وصل إلى عسقلان في (١٤ رمضان/ ٤ آب) وقد فات الأمر. والحقيقة أنه أصيب بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد في وقت ما، بأن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمالي بلاد الشام، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة، ولم يسعه عندما وصل إلى عسقلان سوى أن يُرسل إليهم يوبخهم على ما فعلوه[4].

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٤٤٧، ٤٤٨.
(٢) المؤرخ المجهول: جـ١ ص٢٨٣. فولشر الشارتري: ص٧٧. توديبو: ص٣١٩.
(٣) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه.
(٤) ابن ميسر: ص٣٩.

ويبدو أن الأفضل أضاع كثيراً من الوقت في عسقلان ينتظر النجدات العربية التي وُعِد بها، بالإضافة إلى الأسطول الفاطمي المساند للحملة عن طريق البحر مرتكباً خطأً عسكرياً، إذ في الوقت الذي كان فيه قابعاً في عسقلان، اكتشف الصليبيون أمره فبادروا بالهجوم على معسكره في صبيحة (٢٢ رمضان ٤٩٢هـ/ ١٢ آب ١٠٩٩م) في سهل المجدل الواقع شمال عسقلان.

والواقع أنه أُخذ على حين غرَّة، فقد باغتته القوات الصليبية بعد أن وقع كشافته في الخطأ، فلم يتوقع أن يكون الصليبيون على مسافة قريبة منه، كما لم تبدُ من رجاله إلا مقاومة ضئيلة لأنهم لم يكونوا متأهبين للقتال، مرتكبين خطأ عسكرياً آخر. ولم تمض إلا مدة وجيزة حتى حلَّت بهم الهزيمة وولوا هاربين إلى ناحية عسقلان، وركب الأفضل سفينة أعادته إلى مصر(١).

أكَّد هذا الانتصار أنه ليس بوسع الفاطميين أن يستردوا ما فقدوه من الأراضي، لكن ذلك لا يعني أن باستطاعة الصليبيين الاستيلاء على جميع نواحي فلسطين، لأن البحرية الفاطمية لا تزال تسيطر على ساحل بلاد الشام، وتبسط حمايتها على الموانئ البحرية، وأتاح للصليبيين معرفة أن الجنود الفاطميين لا يضارعون الجنود الأتراك المروعين، ما أعطاهم الثقة بالنصر(٢).

أمل غودفري دي بوايون أن يعقب انتصاره على الأفضل بالاستيلاء على عسقلان، لذلك ضرب الحصار عليها. وإذ أدركت حاميتها أنه ليس بوسعها أن تصمد أمام القوات الصليبية، فضَّلت الاستسلام وبخاصة أن المذابح التي تعرَّض لها المسلمون في بيت المقدس كانت لا تزال ماثلة أمام أفرادها، فلم يشاؤوا أن يتعرَّضوا للمصير نفسه، وأجرى قائدها مفاوضات مع ريموند لتسليم المدينة إليه. ويبدو أنه لمس ما فعله مع افتخار الدولة حين سمح له ولرجاله بالخروج سالمين من بيت المقدس، واشترط عليه أن يؤمِّنهم على أرواحهم وحرياتهم، ولكن غودفري دي بوايون خشي من استيلاء ريموند على المدينة التي قد تصبح عاصمة لإمارته على ساحل فلسطين، لذا طلب منه أن يتخلَّى عنها، فرحل بقواته، وأدى ذلك إلى أن ينسحب غودفري بدوره لأن قواته لم تكن من القوة ما تستطيع الاستمرار في فرض الحصار على عسقلان واقتحامها، إلا أنه فرض على أهلها عشرين ألف دينار، فلم

---

(١) المؤرخ المجهول: جـ١ ص١٢٠ ـ ١٢٤. توديبو: ص٣٣٧ ـ ٣٤٢. فولشر الشارتري: ص٧٧ ـ ٧٩. ابن القلانسي: ص٢١٣. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٧، ٤٢٨.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٤٤١.

يدفعوا منها شيئاً[١].

وهكذا أدى النزاع الداخلي بين ريموند وغودفري إلى ضياع عسقلان من أيدي الصليبيين لمدة تزيد على نصف قرن، تلى ذلك أن عرضت مدينة أرسوف الصغيرة أن تستسلم لريموند، وكان قد هاجمها بعد انصرافه من أمام عسقلان، فتصدَّى له غودفري من جديد بوصفها تتبع بيت المقدس[٢].

وغادر ريموند في تلك الأثناء، فلسطين بعد فشله في الاستيلاء على أرسوف الواقعة شمال يافا حيث أن غودفري دي بوايون رفض أن يعترف بالاتفاق الذي جرى بينه وبين حاميتها بشأن الاستسلام، وتوجَّه مع روبرت النورماني وروبرت فلاندر إلى الشمال، واختار بعد أن وصل إلى اللاذقية أن يبقى في شمالي بلاد الشام ليعمل على مساعدة حلفائه البيزنطيين على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكية[٣].

التوسع الصليبي في إقليم الجليل

قضى انتصار الصليبيين في عسقلان على هيبة الفاطميين في بلاد الشام، إذ لم يجد هؤلاء صعوبة في الاستيلاء على إقليم الجليل لعدم وجود مقاومة إسلامية قوية هناك، فتوغل تانكريد في ربوعه بهدف الاستيلاء عليه وحكمه تحت إشراف غودفري دي بوايون[٤]، علماً بأن هذا الإقليم كان مثار نزاع بين دقاق والفاطميين، ولكن دقاقاً لم يتمكَّن من ضمِّه إلى أملاكه عقب الهزيمة التي لحقت بالفاطميين في عسقلان، لأنه لم يتسع له الوقت لذلك من جهة، وتعرُّضه لنزاعات داخلية حادة من جهة أخرى منعته من القيام بحرب هجومية، وكان ذلك لصالح غودفري دي بوايون الذي لم يكن بوسعه أن يقاوم هجوماً مضاداً واسعاً لأن ما كان لديه من قوة لم تزد على ثلاثمائة فارس وألفين من المشاة[٥]. والواقع أن ما حدث بين المسلمين من نزاعات هيأت لهذه الإمارة الصغيرة الدخيلة أن تستقر[٦].

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٣. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٨. ابن العبري: ص١٢٥، يذكر أن المبلغ هو اثني عشر ألف دينار. Albirt d'Aix: pp497, 498.

(٢) Ibid.

(٣) فولشر الشارتري: ص٧٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٦١، ٤٦٢.

(٤) Grousset: I p186.

(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٤٧١.

(٦) رنسيمان: جـ١ ص٤٥٢.

وعندما اقترب تانكريد من طبرية عاصمة الإقليم، هرب المسلمون إلى دمشق، واستقبله نصارى المدينة، في حين أظهر اليهود فيها، الجفاء والسخط بفعل ما أصاب إخوانهم في بيت المقدس من القتل.

وحصَّن تانكريد طبرية قبل أن يتوجَّه إلى الناصرة ثم إلى جبل الطور، واستولى على بيسان المشرفة على الضفة الشرقية لنهر الأردن والتي تتحكم في الطريق الذي يصل سهل زرعين بنهر الأردن. وبادر المسلمون في إقليم الجليل إلى مغادرته، فاستغل الأمير الصليبي ذلك وأغار على الأراضي الإسلامية المجاورة ووصل في غاراته إلى الأراضي التابعة لإمارة دمشق، أما الأراضي والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن فقد ظلَّت في أيدي أصحابها المسلمين(١).

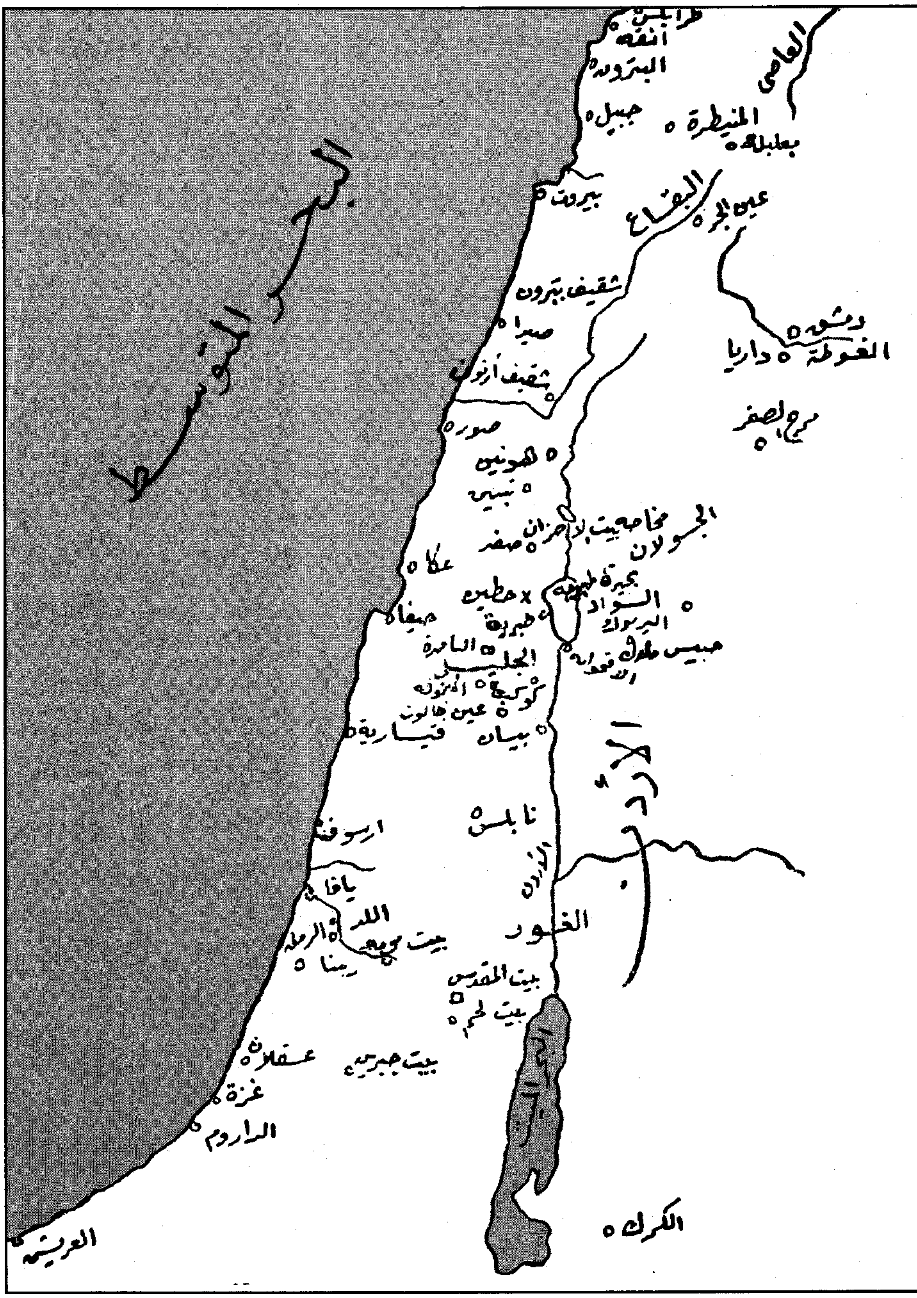
التوسع الصليبي في منطقة الساحل

شهدت المدن الساحلية وضعاً مغايراً، فقد حصلت اشتباكات عنيفة. وبفضل ما انضمَّ إلى قوة غودفري دي بوايون العسكرية من إمدادات، استطاع أن يبسط سلطانه على سهول فلسطين الساحلية، والمعروف أن إمارة بيت المقدس كانت محاطة بالمسلمين من كل جانب واتصالها مع الخارج محصوراً في ممر يؤدي إلى ميناء يافا، فقرَّر غودفري دي بوايون أن يُقوِّي صلته مع العالم الخارجي عن طريق البحر من واقع احتلال بعض الموانئ، وبدأ بأرسوف، فضرب الحصار عليه، وقاومت حاميته، وأجبرته على رفع الحصار، غير أنه أبقى نصف جيشه في الرملة القريبة من ميناء أرسوف وأمر أفراده بأن يغيروا على الأراضي المجاورة لأرسوف لإجبار حاميته على الاستسلام، في حين أغار هو على المدن الفاطمية الساحلية أمثال عسقلان وقيسارية وعكا، ومنع وصول المؤن إليها من الأرياف، وحصَّن يافا بمساعدة البيازنة، وأصلح ميناءها، فازدادت المشقة أمام السفن الفاطمية لجلب المؤن بحراً من الموانئ الإسلامية، واشتدت معاناة سكانها(٢).

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٤٦٣. Grousset: I p179.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٤٥٧.



خريطة فلسطين

وفي (ربيع الآخر ٤٩٣هـ/ شباط ١١٠٠م) ظفر الصليبيون ببعض سكان أرسوف الذين خرجوا لمزاولة نشاطهم في مزارعهم القريبة، فانتقموا منهم انتقاماً وحشياً بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم. ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية، فقد أرسل سكانها سفارة على وجه السرعة إلى القاهرة لطلب المساعدة، فاكتفى الأفضل بأن أرسل إليهم قوة عسكرية صغيرة مؤلفة من ثلاثمائة جندي، فتصدى لهم الصليبيون، وأوقعوهم في كمين، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، ومع ذلك فقد طارد المسلمون الصليبيين إلى يافا. ووصلت في غضون ذلك إمدادات صليبية، فاستبدَّ اليأس بالسكان، وأدركوا عدم جدوى المقاومة، وقرَّروا الدخول في تبعية الصليبيين، فأرسلوا سفارة إلى بيت المقدس حملت معها هدية رمزية عبارة عن مفاتيح أبراج المدينة، وعرضت أن تدفع جزية سنوية، فقَبِل غودفري دي بوايون خضوعهم وإذعانهم، ولم يلبث أن احتذى بأرسوف، أهل عسقلان وقيسارية وعكا، فدخلوا في تبعية الصليبيين، وتعهدوا بدفع جزية سنوية قدرها خمسة آلاف دينار رمزاً لهذه التبعية، فاستقرت بذلك العلاقات بين المدن الإسلامية والصليبيين[١]. وحذا كثير من شيوخ القبائل العربية الضاربة في سفوح التلال الداخلية حذو سكان المدن الساحلية، فعقدوا اتفاقيات ودية مع غودفري دي بوايون.

الواضح أن هذه الاتفاقيات تضمَّنت منفعة متبادلة، إذ تعمَّد غودفري دي بوايون أن يُحوِّل أكبر قدر من التجارة مع شيوخ القبائل إلى ميناء يافا، وأن يمنع التجارة بين المدن الإسلامية الساحلية ومصر، وأن يجعل هذه المدن تعتمد في تجارتها على المسيحيين، وفي المقابل اعتاد شيوخ القبائل أن يرسلوا ما يفيض عن محاصيلهم إلى المدن الساحلية، غير أن الإمارات الصليبية اعترضت طريقهم، فطلبوا من غودفري دي بوايون أن تمر قوافلهم عبر أراضيه، فتدفقت نتيجة ذلك البضائع المختلفة من توابل وغلال وبيض وطيور ومنسوجات ومواشي، على بيت المقدس ويافا ما جعل حياة الصليبيين أكثر استقراراً وثباتاً[٢].

التوسع الصليبي في السواد

غدا غودفري دي بوايون على درجة عالية من القوة ما جعله يُقدم على التوسع باتجاه الداخل وبسط سلطانه على إقليم السواد، أي على الأراضي الواقعة وراء

(١) رنسيمان: جـ١ ص٤٥١.

(٢) عاشور: جـ١ ص٢٦٤. Albirt d'Aix: p516. Grousset: I pp187-189.

الأردن شرقي بحيرة طبرية، وهو الإقليم الذي اشتهر بخصوبته، وكان تابعاً لدقاق، وساعده تانكريد في ذلك[1].

خرج تانكريد في (رجب ٤٩٣هـ/ أيار ١١٠٠م) على رأس مائتين من الفرسان وألف من المشاة للقيام بغارات ضد إقليم السواد وإجبار حاكمه على أن يعترف بسيادة الصليبيين، غير أن هذا الحاكم الذي أطلقت عليه المصادر الصليبية اسم المزارع السمين، التمس المساعدة من دقاق، وإذ أدرك هذا الأخير أنه إذا استطاع الصليبيون تأمين وجود لهم في هذه الجهات، فسيحوِّلون التجارة من الجولان وحوران إلى موانئ فلسطين، لذلك أمدَّه بنحو خمسمائة فارس[2].

ويبدو أن تانكريد تهيَّب الاصطدام بالقوة الدمشقية منفرداً، فالتمس المساعدة من غودفري دي بوايون الذي حرص على أن يشترك في الاستيلاء على هذا الإقليم. وفعلاً اشترك الرجلان في تنفيذ غارة أوغلت في عمق الجولان[3]، من دون التبصر بنتائج ما قد يحصل من توغل كهذا في عمق الأراضي الإسلامية، ويبدو أنهما كانا واثقين بالتغلب على القوة الإسلامية إذا اعترضت طريقهما.

كان دقاق يراقب تحركات القوة الصليبية المغيرة، متربصاً بها، ولدى عودتها في (٨ شعبان/ ١٨ حزيران) مُحمَّلة بالغنائم انقض على مؤخرتها التي تولى تانكريد حمايتها، ولم يعلم غودفري دي بوايون بما حدث، ومضى في سيره، ولم يستطع تانكريد أن ينجو بنفسه إلا بعد أن فَقَدَ عدداً كبيراً من رجاله، وأضاع نصيبه من الغنيمة بما فيها الأسرى الذين حرَّرهم دقاق، غير أن صاحب دمشق لم يكن من القوة ما يجعله يواصل هجومه ويستثمر انتصاره ويطارد الصليبيين، فانسحب عائداً إلى دمشق بعد أن اطمأن إلى أن الصليبيين غادروا أراضيه[4].

وقرَّر تانكريد الانتقام لما حلَّ به على يد دقاق، فبعد أن استراح بضعة أيام في طبرية، قام بغارة جديدة على أراضي دمشق، فخرَّب إقليم السواد وتوغل حتى أضحى قريباً من دمشق، وأرسل سفارة من ستة أشخاص إلى دقاق تحمل إنذاراً إليه بوجوب اعتناقه المسيحية أو ترك دمشق فوراً، فاستاء دقاق من تلك الجرأة وعدَّها إهانة لا يجب السكوت عنها، فردَّ على الرسل بأنه ينبغي عليهم

---

(١) Grousset: I p186.

(٢) Ibid. Albirt d'Aix: pp517, 518. رنسيمان: جـ١ ص٤٥٩.

(٣) Grousset: I pp186, 187.

(٤) Ibid: p187. Albirt d'Aix: pp517, 518. رنسيمان: جـ١ ص٤٦٠.

اعتناق الإسلام وإلا لقوا مصرعهم، فقبل أحدهم ذلك وأُعدم الباقون. أثار هذا العمل تانكريد، فطلب من غودفري دي بوايون أن ينضم إليه للقيام بغارة على أملاك دقاق. واستمر الرجلان يعيثان فساداً وتخريباً في الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق قرابة أسبوعين، في حين لزم المسلمون أماكنهم خلف أسوار مدنهم، وعلى الرغم من شدة حرص دقاق على أن يقوم بهجوم مضاد، فإنه لم يحاول المقاومة[١].

أدرك حاكم السواد بعد الذي حدث أن سيده تخلَّى عنه وعجز عن حمايته وأن الصليبيين خرَّبوا بلاده واستباحوها، فاعترف بالتبعية لتانكريد ووافق على دفع الجزية له[٢]. وهكذا سيطر الصليبيون على إقليم السواد.

سقوط حيفا

ووصل في غضون ذلك أسطول بندقي ضخم رسا في ميناء يافا، فهرع غودفري دي بوايون إلى الساحل لتحيته والاتفاق مع بحارته على الشروط التي بمقتضاها يبذلون المساعدة للصليبيين، لكنه خرَّ مريضاً، فانتدب ابن عمه كونت برغنديا ويُدعى وارنر غراي لينوب عنه في المفاوضات، وأعلن موافقته المسبقة على ما يعرضه البنادقة من شروط[٣].

وتقرَّر أن تكون عكا الهدف الأول على الرغم من المعاهدة التي انعقدت بين حاكمها وبين غودفري دي بوايون، ثم حيفا بعد ذلك. وحاصر البنادقة عكا في الوقت الذي اشتد فيه المرض على غودفري دي بوايون، فقام دايمبرت بطريرك بيت المقدس وتانكريد بالمساهمة في حصار المدينة من ناحية البر[٤].

ولم تلبث الأخبار أن حملت وفاة غودفري دي بوايون يوم الأربعاء (٩ رمضان ٤٩٣هـ/ ١٨ تموز ١١٠٠م)، فاقترح دايمبرت على البنادقة رفع الحصار عن عكا وتوجيه الجهود للاستيلاء على حيفا نظراً لقربها من بيت المقدس، وهي أكثر نفعاً للقضية الصليبية في الوقت الراهن. وكانت حيفا تابعة للدولة الفاطمية، وللفاطميين فيها حامية قليلة العدد، فلما هاجمها الصليبيون لم تستطع المقاومة طويلاً، وما لبث

---

(١) Albirt d'Aix: pp517, 518.

(٢) Ibid.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٤٧٦. رنسيمان: جـ١ ص٤٦٣، ٤٦٤. تذكر المصادر الإسلامية أن غودفري دي بوايون أصيب بسهم أثناء حصار عكا أدى إلى وفاته. ابن القلانسي: ص٢٢٤. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٥٧.

(٤) رنسيمان: جـ١ ص٤٦٨.

المدينة أن سقطت بأيدي الصليبيين[1].

قيام مملكة بيت المقدس

ظهر الخلاف مرة أخرى بين القادة الصليبيين، وتنافسوا على حكم بيت المقدس، وكان غودفري دي بوايون قد كتب وصية أثناء مرضه عيَّن بموجبها البطريرك دايمبرت حاكماً على المدينة. والواقع أن حادثة الوفاة شكَّلت صدمة لتانكريد والبطريرك الذي أظهر التردد، إذ كان قلقاً على إرثه، غير أنه كان واثقاً فيما ورد في وصية غودفري دي بوايون، وأن عساكر اللورين أصبحوا بلا قائد، فأرسل ممثلاً عنه إلى بيت المقدس ليتسلم باسمه برج داوود[2].

ثم حدث أن اجتمع الرجلان، تانكريد ودايمبرت، للتباحث في مستقبل حكومة بيت المقدس، وبخاصة أن دايمبرت علم بأن وارنر غراي تحصَّن في برج داوود ورفض أن يُسلِّمه إلى ممثله، بالإضافة إلى تناهي الأخبار إليهما بأنه تقرر استدعاء بلدوين حاكم الرها، وهو أخو غودفري دي بوايون، للقدوم إلى بيت المقدس لتسلم الحكم. والمعروف أن تانكريد كانت يكن الكراهية لبلدوين منذ أن نشبت النزاعات بينهما في كيليكية منذ ثلاثة أعوام، وأن دايمبرت كان مجبراً على التحالف معه لأن إمارته كانت تمتد من شرق الجليل إلى البحر الأبيض المتوسط، وكانت بحكم موقعها هذا، تقطع الطريق بين بيت المقدس والشمال، واتفقا على اختيار بوهيموند صاحب أنطاكية حاكماً على بيت المقدس، فأرسلا إليه رسالة بهذا المعنى غير أنها لم تصل إليه. إذ عندما وصل حاملها إلى اللاذقية احتجزته السلطات فيها وصادرتها، ثم إن بوهيموند وقع آنذاك في أسر كمشتكين غازي الدانشمندي أثناء زحفه لمساعدة جبريل صاحب ملطية الذي كان يتعرَّض لهجوم الدانشمنديين، وبذلك انقطع أمل دايمبرت[3].

وأرسل أنصار بلدوين في بيت المقدس إليه رسالة يخبرونه بوفاة أخيه غودفري دي بوايون ويحثونه على الحضور لتسلم مقاليد الحكم. وإذ أظهر صاحب الرها اغتباطه للاستيلاء على إرث أخيه، لم يشأ أن يُضيع الفرصة، فغادر الرها متوجهاً إلى بيت المقدس في (٢٦ ذي القعدة/ ٢ تشرين الأول) بعد أن عهد بشؤون الرها إلى قريبه بلدوين دي بورغ ووصل إلى أنطاكية، وسار منها إلى اللاذقية فانضم إليه عدد كبير

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٥. فولشر الشارتري: ص٨٥، ٨٦. Albirt d'Aix: pp512-523.

(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص٤٨٥، ٤٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٨٠ ـ ٤٨٢.

من العساكر، ولكن هذا العدد ما لبث أن تناقص عندما اقترب الجيش من جبلة، إذ تناهت الأخبار باستعداد دقاق صاحب دمشق لقطع الطريق عليه، فوصل إلى طرابلس مع مائة وستين فارساً وخمسمائة من المشاة، ورحَّب به فخر الملك ابن عمار، وقدَّم له ما يحتاج إليه من عدة ومؤن، وتعهد له بأن يحيطه علماً بتحركات دقاق، العدو المشترك لكليهما، والمعروف أن العلاقات بين دمشق وطرابلس كانت فاترة بل عدائية بسبب محاولة دقاق مدَّ نفوذه حتى الساحل، فاستولى على جبلة، وعيَّن عليها بوري بن طغتكين، ومن أجل ذلك أعلن فخر الملك عن ابتهاجه وارتياحه لاستقبال بلدوين، وسعى إلى محالفته للوقوف في وجه سلاجقة الشام[1].

وتابع بلدوين سيره على طريق الساحل حتى وصل إلى نهر الكلب، وهناك انتظره دقاق في ممر ضيق بين البحر والجبل للاصطدام به والقضاء عليه، وإذ أنذره فخر الملك، تقدم ببطء وحذر، فألفى نفسه يواجه قوات سلجوقية مشتركة بقيادة دقاق وجناح الدولة حسين صاحب حمص ومعهما الأمير التنوخي عضد الدولة[2]. ولما حاول عبور النهر، فشل بسبب ضخامة القوات التي اعترضت طريقه، بل أن قوات حمص ألحقت الخسائر بقواته وضيَّقت الخناق عليها. ووصف فولشر الشارتري، وكان يرافق الحملة، حال الضيق التي باتت عليها القوات الصليبية فقال: «. . . حاصَرَنا العدو من جميع النواحي، فمن ناحية كان أولئك الذين أتوا في القوارب من البحر، ومن ناحية أخرى كان آخرون يشنون الهجمات المتتابعة علينا من جروف التلال، فكان ذاك يوماً بائساً علينا، ولم نقدر أن نستريح ولا أن نسقي دوابنا التي هدَّها العطش. والحق أقول إنني تمنيت من كل قلبي لو كنت في شارتر أو أورلينز، وكذلك تمنى الآخرون. . .»[3]. واضطرت القوات الصليبية إلى الانسحاب خلال الليل. وحثَّ جناح الدولة حسين دقاقاً على مطاردتهم، غير أنه رفض ذلك، وآثر انتظار طلوع الفجر كي يستفيد من مساندة الأسطول الذي كان راسياً قبالة بيروت. واكتفى المسلمون برشق خطوط الصليبيين بالسهام، غير أن بلدوين تمالك نفسه واستطاع أن يعيد تنظيم قواته، وأوهم المسلمين بأنه ينسحب عندما ترك المنطقة متوجهاً نحو الشمال إلى جونية، فطاردته القوات الإسلامية، ثم ما لبث أن استدار فجأة وانقض على المسلمين وهزمهم. وعجزت السفن البحرية أن تمد يد المساعدة

---

(١) فولشر الشارتري: ص١٠٣، ١٠٤. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٨٢، ٤٨٣. رنسيمان: جـ١ ص٤٧٨. عاشور: جـ١ ص٢٨٤.

(٢) ابن القلانسي: ص١٣٨. الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان: جـ٢ ص٥٠٦.

(٣) تاريخ الحملة إلى القدس: ص١٠٤.

للقوات البرية إذ خشيت الاقتراب من الشاطئ، وعند حلول الظلام انسحبت بعض القوات الإسلامية إلى الجبال، واحتمى بعضها داخل أسوار بيروت، وعسكر بلدوين في تلك الليلة في جونية. وفي صبيحة اليوم التالي، عبر جيشه نهر الكلب من دون أن يصادف مقاومة، وتابع طريقه فاجتاز صيدا وصور ووصل إلى بيت المقدس في (٥ محرم ٤٩٤هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١١٠٠م)[١].

وعندما اقترب بلدوين من بيت المقدس، خرج السكان للترحيب به بوصفه أخي غودفري دي بوايون ووريثه، والتقوا به خارج أسوارها، فصحبوه مُعززاً مُكرماً إلى كنيسة القيامة ونادوا به ملكاً وسيداً وذلك في (٦ محرم/ ١١ تشرين الثاني)، وأعلن القادة الصليبيون ولاءهم له باستثناء دايمبرت وتانكريد، فغادر الأول دار البطريركية ولجأ إلى دير على جبل صهيون، وانسحب الثاني باتجاه الشمال إلى بلاده في الجليل. وبذلك تحولت إمارة بيت المقدس إلى مملكة صليبية لاتينية بعد مضي ما يزيد على أربع سنوات على مغادرة الصليبيين بلادهم الأوروبية[٢].

---

(١) فولشر الشارتري: ص١٠٤ ـ ١٠٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٨٤ ـ ٤٨٦.

(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص٤٨٦.

الفصل السادس

مملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الأول

خطة بلدوين الأول التوسعية

إن أعظم ما حقَّقه الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى من إنجاز إنما حصل نتيجة تصدع وحدة المسلمين، فلم يتحقَّق هدف الحملة إلا بسبب ما وقع من انشقاقات بينهم وامتناعهم عن العمل سوياً. فالفاطميون الشيعة في مصر يكنُّون العداء للعباسيين السنة في بغداد بالإضافة إلى الأتراك السنة، كما وقع التنافس المستمر بين سلاجقة الروم والدانشمنديين في آسيا الصغرى، وبين الأراتقة في ديار بكر وسلاجقة الشام ثم بين ولدي تُتُش رضوان ودقاق. وزاد الأتابكة المستقلون من أمثال كربوغا في الموصل الفوضى من خلال مطامعهم الشخصية، في حين أن الأسرات العربية الصغيرة الحاكمة في أواسط بلاد الشام أمثال بني عمار في طرابلس وبني منقذ في شيزر، حافظت على استقلالها القلق من خلال الاستفادة من الاضطرابات الداخلية بين المسلمين بعامة، وما حقَّقته الحملة الصليبية الأولى من انتصارات زاد من الفوضى السائدة وجعل التعاون بين المسلمين أكثر صعوبة[(١)].

ومهما يكن من أمر، فإن الانتصارات السريعة والخاطفة التي حقَّقها الصليبيون في بلاد الشام في أيام غودفري دي بوايون، وانتصار بلدوين على دقاق عند نهر الكلب؛ أوقعت المهابة في نفوس القوى الإسلامية المجاورة.

وضع بلدوين الأول بعد تتويجه خطة عسكرية استهدفت الدفاع عن مملكته وتوفير القوة لها وذلك من خلال:

- الاستيلاء على الشاطئ الفلسطيني المواجه لمملكته وبخاصة أرسوف وقيسارية بالإضافة إلى عسقلان.
- رد الحدود المصرية إلى الجنوب حتى يتوافر الأمن في الطريق من بيت المقدس إلى الساحل.
- تشييد معاقل أمامية فيما وراء الأردن وإلى الجنوب من البحر الميت تتلقَّى

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٢٢.

ضربات المسلمين وتكون قواعد انطلاق لمهاجمة الأراضي الإسلامية.

- ربط مملكة بيت المقدس بالإمارات الصليبية في الشمال، أنطاكية والرها، حتى يتيسر فتح الطريق للحجاج والمهاجرين القادمين من الغرب.

- تشجيع قيام إمارات صليبية أخرى في بلاد الشام[١].

والواقع أن بلدوين الأول افتقر إلى الرجال والمال لإقامة مملكة قوية تواجه المسلمين المجاورين لها، وأنه لن يستطيع الحصول على القوة البشرية إلا بتشجيع الهجرة وإقناع المسيحيين الوطنيين بالتعاون معه، أما المال فيستطيع الحصول عليه بتشجيع التجارة مع البلاد المجاورة بالإضافة لما يبذله الأوروبيون الغربيون[٢].

الاستيلاء على أرسوف وقيسارية

تطلع بلدوين الأول بعد تتويجه إلى الاستيلاء على جميع مدن الشاطئ الفلسطيني المواجهة لمملكته وذلك لتأمين طريق الحج من جهة وتنشيط التجارة مع الغرب من جهة أخرى، ما يوفر لمملكته كثيراً من أسباب القوة، غير أنه كان بحاجة إلى قوة بحرية مساندة. وصادف آنذاك أن وصل أسطول بحري جنوي إلى حيفا في (جمادى الأولى ٤٩٤هـ/ آذار ١١٠١م)، وأبحر منها إلى يافا، فاجتمع بلدوين الأول بقادته واتفق معهم على أن يُقدموا له المساعدة المطلوبة لاحتلال أرسوف وقيسارية مقابل الحصول على ثلث الغنائم فضلاً عن شارع من شوارع السوق في كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزاً يباشرون فيه نشاطهم التجاري[٣].

لم يكد الاتفاق ينعقد بين الطرفين حتى تحرَّك الحلفاء للاستيلاء على أرسوف فهاجمها بلدوين الأول من البر في حين هاجمها الجنويون من البحر، ولم تلبث المقاومة أن تداعت، فاستسلمت الحامية في (رجب/ أيار) مقابل بذل الأمان لسكان المدينة على أن يخرجوا بأسراتهم وأمتعتهم. وافق بلدوين الأول على هذا الشرط، وتولَّت قواته حراستهم إلى عسقلان، ثم شحن المدينة بالعساكر بعد أن أعطى الجنويين نصيبهم[٤].

توجَّه الحليفان بعد ذلك إلى قيسارية وحاصراها، وقد رفضت حاميتها الاستسلام معتمدة على ما كان للمدينة من أسوار منيعة غير أن قيسارية سقطت عنوة بعد بضعة أيام وتعرَّضت للنهب، وأحدث الصليبيون فيها مذبحة مروعة، ولم ينج من سكانها

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٢٢. (٢) المرجع نفسه: ص٢١، ٢٢.

(٣) فولشر الشارتري: ص١١٣. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٩٣، ٤٩٤.

(٤) المصدران نفساهما: ص١١٣، ١١٤، ص٤٩٤، ٤٩٥. ابن القلانسي: ص٢٢٥.

غير عدد قليل، وأقام فيها بلدوين الأول حامية عسكرية[١].

رد الفعل الفاطمي

معركة الرملة الأولى: لم يكد بلدوين الأول ينتهي من تقسيم الغنيمة وفقاً للاتفاق الذي أبرمه مع الجنويين ومن إقامة حامية في المدينة؛ حتى جاءته الأخبار بأن جيشاً فاطمياً دخل فلسطين. والواقع أن الجمود الذي ساد أوساط الفاطميين عقب سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين، لم يستمر طويلاً، فاختار الأفضل أن يُرسل حملة كبيرة إلى فلسطين في (أواخر رمضان ٤٩٤هـ/أوائل تموز ١١٠١م) بقيادة المملوك سعد الدولة القواس، وقد تجمعت الحملة في عسقلان التي أضحت قاعدة تجمع وانطلاق الحملات التي تخرج من مصر ضد الصليبيين في تلك المرحلة، على أن هذه الحملة أضاعت كثيراً من الوقت في عسقلان ربما بانتظار إمدادات جديدة قادمة من مصر ما أتاح لبلدوين الأول الفرصة للاستعداد[٢].

وتحرَّك الجيش الفاطمي في (٨ ذي القعدة/ ٤ أيلول) باتجاه الرملة، وقرَّر سعد الدولة التوغل في الأراضي الصليبية في بيت المقدس مستغلاً انصراف بلدوين الأول إلى مهاجمة قيسارية، غير أن الملك الصليبي عجَّل بالمسير إلى الرملة، واصطدم بالجيش الفاطمي في السهل الواقع إلى الجنوب الغربي من المدينة، وانتصر عليه، وقُتِل عدد كبير من المسلمين في المعركة من بينهم قائد الجيش في حين فرَّ من نجا باتجاه عسقلان، وطاردهم الصليبيون حتى أسوار المدينة[٣].

معركة الرملة الثانية: لم يستطع الأفضل أن يسكت على الهزيمة التي لحقت بجيشه على أيدي الصليبيين، وما اشتهرت به مصر من موارد ضخمة هيَّأت له أن يُجهز جيشاً آخر يستطيع بواسطته استئناف القتال. احتشد هذا الجيش الذي بلغ عديده عشرين ألفاً، في عسقلان في (٢٥ رجب ٤٩٥هـ/ ١٥ أيار ١١٠٢م) تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل، ثم انطلق إلى اللد والرملة ويازور، ومن هناك توجَّه لتهديد يافا وبيت المقدس[٤].

وكان بلدوين الأول قد استعدَّ هو الآخر، فحشد في يافا بضعة آلاف من

---

(١) فولشر الشارتري: ص١١٤. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٩٥، ٤٩٦. ابن القلانسي: ص٢٢٥.

(٢) Stevenson: pp44, 45.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٢٧. ابن ميسر: ص٤٠. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٩٨ ـ ٥٠٠. Albirt. d'Aix: p553.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٢٩. ابن ميسر: ص٤٠، ٤١ الذي يُحدد خروج شرف المعالي في رمضان عام ٤٩٦هـ. فولشر الشارتري: ص١٢٢، ١٢٥.

الصليبيين، لكنه اغترَّ بانتصاره السابق أو أن كشافته ضلَّلته، ونظراً لاعتقاده بأن الفاطميين ليسوا إلا فئة قليلة العدد استخفَّ بهم، وعزم على أن يتولى بنفسه القضاء عليهم من دون أن يلجأ إلى استدعاء القوات الاحتياطية، فخرج من بيت المقدس في قلَّة من الفرسان تبلغ سبعمائة فارس وراجل قاصداً الرملة. وفي الوقت الذي كان يسير فيه على غير تعبئة باغتته القوات الفاطمية بين يازور والرملة. وربما اعتقد المسلمون بأن تلك الثُلَّة من القوة العسكرية ليست إلا طليعة لجيش ضخم آت في أعقاب الملك، فاختاروا أن يباغتوها فوراً قبل أن يلحق بها بقية الجيش. ولم يكن باستطاعة بلدوين الأول الثبات أمام الجموع الإسلامية، فانهزم هو وجيشه، ولقي عدد كبير من الفرسان مصرعهم في ساحة المعركة، وتمكَّنت جماعة منهم أن تشق طريقاً لها في صفوف المسلمين والتحقت بيافا. واتخذ الملك وأعوانه طريقهم إلى حصن الرملة الصغير حيث حاصرهم الجيش الفاطمي.

كانت عوامل الدفاع عن الرملة على غاية من السوء، ولو هاجمها الجيش الفاطمي لاستولى عليها بسهولة ودخلها بغير عناء وقبض على الملك الصليبي، لكن حلول الظلام جعل الجنود الفاطميين يؤجلون اقتحامهم لها إلى صباح اليوم التالي، على أن بلدوين الأول استطاع الفرار من الرملة ليلاً بعد أن تنكَّر وتوجَّه إلى يافا. وهاجم الجيش الفاطمي المدينة في صباح اليوم التالي واقتحمها، وقتل معظم من فيها من فرسان الصليبيين[(١)].

ولم يلبث الجيش الفاطمي أن حاصر يافا براً في الوقت الذي كانت فيه مطاردة بلدوين الأول جارية، في حين حاصرها أسطول فاطمي بحراً، فاضطر بلدوين الأول إلى تغيير وجهة سيره، وتوجَّه إلى أرسوف شمال يافا حيث تجمَّع رجاله من جديد، وتمكَّن من دخول يافا بعد ذلك عن طريق البحر مخترقاً الحصار البحري[(٢)].

وصادف آنذاك أن وصلت إلى ميناء يافا مائتا سفينة تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج الإنكليز والفرنسيين والألمان بعد أن شقَّت طريقها إلى داخل الميناء مخترقة الحصار الذي فرضه الأسطول الفاطمي، فجنَّدهم بلدوين الأول في قواته، فحصل بذلك على معونة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها. وبعد تنظيم هذه القوات، خرج في (٨ شعبان/٢٧ أيار) من يافا على رأس جيشه وهاجم القوات الفاطمية المحاصِرة للمدينة، ولم تمضِ ساعات قليلة حتى انهزم

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٩. فولشر الشارتري: ص١٢٥ ـ ١٢٧. Albirt d'Aix: p595.

(٢) فولشر الشارتري: ص١٢٧. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٠٥ ـ ٥٠٧.

الفاطميون وتراجعوا إلى عسقلان[1].

الواقع أن القوات الفاطمية افتقدت إلى وضع الخطط العسكرية الناجعة وتحديد الهدف الذي يخدم القضية الإسلامية، إذ كان بوسع سرية من العساكر أن تفتح بيت المقدس عقب معركة الرملة من دون أن يتعرض حصار يافا لضعف ظاهر. ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دبَّ بين أفراد الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة فقال قوم: «نقصد بيت المقدس ونتملَّكه، وقال قوم: نقصد يافا ونملكها، فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة بيت المقدس، فندبهم بلدوين للغزو معه»[2].

ومهما يكن من أمر، فعندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي، أسرع بإرسال حملتين، برية بقيادة المملوك تاج العجم تألفت من أربعة آلاف جندي، وبحرية بقيادة القاضي ابن قادوس، ولكن التنسيق العسكري بينهما كان معدوماً، فتوقف الجيش البري في عسقلان. وأرسل بلدوين الأول في تلك الأثناء رسالة عاجلة إلى كل من تانكريد الوصي على أنطاكية ودي بورغ أمير الرها يطلب منهما إمداده بنجدة على وجه السرعة، ولم تلبث أن وصلت إلى يافا في (١٧ ذي القعدة/ ١ أيلول) وقد بلغ عديدها خمسمائة من الفرسان وألفاً من المشاة بقيادة أميري أنطاكية والرها[3].

وطلب الوزير الأفضل في ظل هذا التطور من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين، ولكن دقاقاً اعتذر عن ذلك ولم يحضر[4].

استيلاء الصليبيين على عكا

يبدو أن الهزائم التي حلَّت بالفاطميين لم تستنفد جهود الوزير الأفضل، غير أن إعداد جيش جديد يتطلب وقتاً طويلاً، فاستفاد بلدوين الأول من هذا الهدوء في توطيد مركزه على ساحل فلسطين. فعلى الرغم من أنه استولى على المدن الواقعة بين يافا وحيفا ومنها أرسوف وقيسارية، فإنه طمع في احتلال بقية الثغور مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت، وكانت تابعة للفاطميين[5] وبخاصة أن المسلمين كانوا يغيرون على الطرق التي تربط بينها، وهدَّدوا المواصلات بين يافا

---

(١) فولشر الشارتري: ص١٢٨، ١٢٩. الصوري، وليم: جـ٥٠٦، ٥٠٧. ابن ميسر: ص٤١.

(٢) الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٤٨٩، ٤٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٩٠. Albirt d'Aix: p597. Stevenson: p46.

(٤) ابن ميسر: ص٤١.

(٥) Grousset: I p239.

وبيت المقدس، فاختار أن يستولي على عكا، فحاصرها في (رجب ٤٩٦هـ/ نيسان ١١٠٣م) وضيَّق على أهلها، وكادت تسقط في يده لولا أن وصلت إليها النجدات من سائر مدن الساحل، فاضطر إلى رفع الحصار عنها[(١)].

من الواضح أن فشل الملك الصليبي مردُّه إلى عدم وجود قوة بحرية تسانده لإحكام الحصار على المدينة من البر والبحر. وأُتيحت له الفرصة في أوائل (جمادى الآخرة ٤٩٧هـ/ آذار ١١٠٤م) عندما وصل إلى اللاذقية أسطول جنوي ضخم ضمَّ سبعين سفينة مشحونة بالجنود والحجاج والتجار الذين قدموا إلى الشرق، فاستعان بهم في فرض حصار على المدينة في (شعبان/ أيار) بعد أن بذل لهم الأجر المألوف وهو ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية وحي في السوق.

دافع عن عكا حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي، ولكنه عجز عن الصمود وبخاصة أنه لم يتلقَّ مساعدة من مصر ولا من المدن الساحلية، فلم يسعه إلا أن يعرض الاستسلام بعد عشرين يوماً مقابل الأمان له ولأهل الثغر، ومن لم يشأ الخروج من المدينة يصبح من رعايا الملك الصليبي. وغادر زهر الدولة الجيوشي إلى دمشق[(٢)].

تسلَّم بلدوين الأول المدينة، لكن الجنوية نقضوا العهد الذي أعطاه الملك لأهلها الذين لم يخرجوا منها، إذ لم يطيقوا أن يروا هذه الثروة الكبيرة تفلت من أيديهم، فاجتاحوها يقتلون ويذبحون ويسلبون وينهبون، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة ما أثار غضب بلدوين الأول ونقمته[(٣)]. وقد عزا أبو الفداء سقوط عكا بيد الصليبيين إلى النزاع الذي كان قائماً آنذاك بين المسلمين بعامة «وقد تفرقت الآراء واختلفت الأهواء»[(٤)].

لا شك بأن سقوط عكا أضرَّ بالوجود الفاطمي في منطقة الساحل، وقلَّص نفوذ الفاطميين في بلاد الشام، وحرمهم من أهم قواعدهم البحرية هناك، وكفل لبلدوين الأول ميناءً صالحاً لرسو السفن في كل الفصول والاتصال بأوروبا، وسمح للسفن الصليبية الاحتماء به لتفادي هجمات الأسطول الفاطمي، وأضحت عكا الميناء الرئيس لمملكة بيت المقدس.

وأظهر المؤرخون المسلمون أسفهم لعجز الفاطميين عن حماية موانئ بلاد الشام

---

(١) فولشر الشارتري: ص٣٠. الصوري، وليم: جـ١ ص٥١٠، ٥١١.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٣٢. فولشر الشارتري: ص١٣١.

(٣) Albirt d'Aix: pp606, 607.

(٤) المختصر في أخبار البشر: جـ٢ ص٣٥.

التي أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى بيد الصليبيين، واتهموا أبا علي المنصور، الآمر بأحكام الله الفاطمي (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ/ ١١٠١ ـ ١١٣٠م) بالتهاون في الجهاد «فكان يتناهى في العظمة ويتقاعس عن الجهاد. . . وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد، ولم ينهض لقتال الفرنج البتة، وإن كان قد أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلا شيء. . .»[(١)].

معركة الرملة الثالثة: الحقيقة أن الوزير الأفضل لم يتخلَّ عن مواصلة الجهاد وإن كان يُعاب عليه عدم الخروج بنفسه على رأس الجيش للقتال. ويبدو أن الأوضاع الداخلية المتردية في مصر آنذاك والتي كان يسودها المؤامرات، كانت وراء عدم مغادرته مصر[(٢)].

وقام الوزير الأفضل بمحاولة أخرى لحرب الصليبيين واستعادة ما استولوا عليه من المدن الساحلية، تختلف عما سبقها من المحاولات في النهج والأسلوب. فأرسل في (ذي الحجة ٤٩٨هـ/آب ١١٠٥م) قوة عسكرية إلى بلاد الشام قوامها خمسة آلاف مقاتل بقيادة ابنه شرف المعالي احتشدت في عسقلان[(٣)]. وحتى يُطوِّق الصليبيين من الشمال والجنوب، لم يتردَّد في طلب مساعدة سلاجقة الشام السنَّة. فعرض على الأتابك ظهير الدين طغتكين، الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق في (رمضان ٤٩٧هـ/ حزيران ١١٠٤م)، أن يساعده على الرغم من الخصومة المذهبية. أعرب طغتكين عن سروره بتقديم المساعدة، غير أنه لم يكن بوسعه أن يُرسل جيشاً كبيراً، فأرسل قوة عسكرية قوامها ألف وثلاثمائة من الرماة بقيادة أصبهذ صباو وجهارتكين، ويُعدُّ ذلك أول عملية تحالف اتحد فيها المسلمون ضد الصليبيين عدوهم المشترك[(٤)].

تحرك الجيش الفاطمي إلى فلسطين، وانحازت إليه عساكر دمشق بعد أن اجتازت إقليم شرقي الأردن واخترقت النقب. وعندما علم بلدوين الأول بتحرك القوات الإسلامية، غادر يافا على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا وبيت المقدس، والتفَّ حوله جميع الأمراء الصليبيين، كما قدم إليه بطريرك بيت المقدس كلَّ ما استطاع تجنيده من العساكر، وكان معه أرتاش، أخو

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٥ ص١٧٨.

(٢) انظر أوضاع مصر الداخلية في عهد الوزير الأفضل: كتابنا تاريخ الفاطميين: ص٣٩٣ ـ ٣٩٧.

(٣) يذكر ابن القلانسي أن عدد أفراد الجيش المصري بلغ عشرة آلاف مقاتل، ص٢٤٠. ابن ميسر: ص٤١.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٤٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٥١٢، ٥١٣. عاشور: جـ١ ص٣٠٤.

دقاق المطالب بعرش سلطنة دمشق[١].

اصطدم الجيشان الإسلامي والصليبي بين عسقلان ويافا في (١٤ ذي الحجة/ ١ آب) وانتهى بانتصار بلدوين الأول، وفرَّ صباو مع عساكره الأتراك عائداً إلى دمشق، وتراجع الجنود الفاطميون إلى عسقلان، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة، وأُصيب الجيش الفاطمي بخسائر فادحة، فقُتل ألف ومائتان من جنوده، ولقي حاكم عسقلان مصرعه، ووقع القائدان السابقان لعكا وأرسوف في الأسر، وعاد الأسطول الفاطمي إلى صور وصيدا وطرابلس، كما تكبد الصليبيون خسائر مماثلة في الأرواح[٢].

وهكذا فشلت الحملة الفاطمية في تحقيق هدف الفاطميين، وأنهت هذه المحاولة الضخمة جهود الفاطميين لاستعادة فلسطين على الرغم من أنهم ظلوا يُهدِّدون الصليبيين بين حين وآخر، ولكن في نطاق محدود، فما حدث من غارة صغيرة قاموا بها في (أوائل ٥٠٠هـ/ خريف ١١٠٦م) أوشكت أن تُحقِّق النجاح، فقد هاجم بضعة آلاف من الفرسان الفاطميين معسكراً للحجاج بين يافا وأرسوف، وقتلوا النازلين فيه، ثم توجَّهوا إلى الرملة، وهاجموا يافا، وقصدوا بيت المقدس، لكن بلدوين الأول عجَّل بالسير نحو الجنوب وكان آنذاك في الجليل، فانسحب الفاطميون إلى عسقلان[٣].

وقام الفاطميون في العام التالي بشن غارة على الجليل صدَّها بلدوين الأول، وتوغلوا في عام (٥٠٤هـ/ ١١١٠م) حتى بلغوا أسوار بيت المقدس، ولكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا. وجرت في السنوات العشر التالية غارات مماثلة بين حين وآخر، وعلى الرغم من أنها تقلُّ عن سابقاتها في الأهمية، فإنها أزعجت حياة الحجاج المسيحيين في السهل الساحلي والنقب[٤].

سقوط صيدا

اهتم الفاطميون والسلاجقة الذين تعاقبوا على حكم صيدا بتحصينها؛ فقد قام الوالي الفاطمي سعد الدولة الأفضلي بعمارة بُرج فيها في عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م)، وحصَّنها أميرها مجد الدولة التنوخي في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) ما جعلها تقوى على

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٠. فولشر الشارتري: ص١٣٥، ١٣٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٢١.

(٢) المصادر نفسها: ص٢٤٠، ٢٤١، ص١٣٦ ـ ١٣٩، ص٥٢١، ٥٢٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٥١٣.

(٣) Albirt d'Aix: pp 635-638.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص١٤٨. Ibid: pp646, 647.

الصمود في وجه الصليبيين لبعض الوقت[1].

وجرت محاولات صليبية عدة للاستيلاء عليها. ففي عام (٤٩٩هـ/١١٠٦م)، وصل إلى يافا أسطول ضخم يحمل حجاجاً من الإنكليز والفلمنكيين والدانمركيين يتراوح عديدهم بين سبعة آلاف وتسعة آلاف حاج، فاستغلهم بلدوين الأول في مهاجمة صيدا. وما إن وصلت الأخبار إلى أميرها التنوخي حتى بادر بإرسال مبلغ ضخم من المال مقداره خمسة عشر ألف دينار إلى بلدوين الأول، وإذ كان هذا مفتقراً إلى المال، لم يسعه إلا قبول الهدية. وكان هيو صاحب طبرية قد توفي في تلك الأثناء، فكان عليه أن يسير إلى طبرية لتقرير أمرها لذلك رفع الحصار عن صيدا[2].

لكن فكرة الاستيلاء على صيدا ظلَّت تراود خيال بلدوين الأول، فهاجمها في عام (٥٠١هـ/١١٠٨م)، وساعده هذه المرة أسطول بحري يقوده ملاحون مغامرون من مدن إيطالية مختلفة، من جنوة والبندقية وبيزا وأمالفي وغيرها، وحقَّق نجاحاً أولياً. فأرسل حاكمها إلى طغتكين أتابك دمشق يطلب منه المساعدة وعارضاً عليه مبلغ ثلاثين ألف دينار لقاء ذلك، ولكن لم يلبث أن تغيَّر وجه المعركة عندما وصلت إلى مياه المدينة خمسون قطعة بحرية فاطمية، فاصطدمت مع السفن الإيطالية في معركة بحرية وهزمتها، ففقد بلدوين الأول بذلك عنصراً مهماً من المساندة. يُضاف إلى ذلك، أن الأنباء أتته باقتراب العسكر الدمشقي الذي خرج لنجدة المدينة وتعداده خمسة عشر ألف مقاتل، فأدرك عندئذ أن العملية فاشلة وآثر الانسحاب ومن معه إلى عكا[3].

ولم يكد ينسحب من أمام صيدا حتى رفض حاكمها السماح للجيش الدمشقي بدخولها، ويبدو أنه ارتاب بنوايا طغتكين، وخشي أن تكون هناك مؤامرة دبَّرها الأتابك ضده للاستيلاء على المدينة كما امتنع عن دفع المبلغ المقرر بينهما. فهدَّد طغتكين عند ذلك باستدعاء الملك الصليبي لمهاجمة المدينة، لكن الوقائع أظهرت أنه رجع إلى بلاده، وليس في نيته العودة في الوقت الراهن، عند ذلك هدَّد الدمشقيون باقتحام المدينة، ثم تمَّ الاتفاق على أن يدفع مجد الدولة مبلغ عشرة آلاف دينار تعويضاً لهم على خروجهم لنجدته[4].

---

(١) الشدياق: جـ٢ ص٢٠٦.

(٢) Albirt d'Aix: pp632, 634. Grousset: I p239.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٦٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٦١. Albirt d'Aix: pp632-634. Grousset: I p253.

(٤) Albirt d'Aix: pp635, 636.

وصدف أن وصل إلى عكا في (أوائل عام ٥٠٤هـ/ صيف ١١١٠م) سبعون مركباً تحمل عشرة آلاف مقاتل نرويجي بقيادة سيغورد، أحد ملوك النرويج. وما إن علم بلدوين الأول بوصولهم حتى سارع لاستقبالهم، وأظهر اغتباطه بقدومهم وأحاطهم بكل مظاهر الحفاوة والتشريف، وأقنع الملك النرويجي بمشاركته في الاستيلاء على صيدا، كما استدعى برتراند حاكم طرابلس، فجاء مع قواته وانضم إليهما[1].

وبدأ الحلفاء في فرض حصار بري وبحري على صيدا في (٣ ربيع الآخر/ ١٩ تشرين الأول) وقطعوا طرق الإمدادات عنها، ومع ذلك قام أسطول فاطمي أبحر من ثغر صور بمهاجمة السفن النرويجية، وكاد أن يبيدها كلها لولا أن وصل في الوقت المناسب أسطول بندقي يقوده دوق البندقية أورديلافو ڤلييري، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار المدينة ومهاجمتها من جهة البحر. وعجزت السفن الفاطمية عن إمداد أهل صيدا بما يحتاجون إليه من سلاح وعتاد ومقاتلة ومؤن[2].

وفي الوقت الذي كان القتال دائراً، أعدَّ حاكم صيدا خطة لاغتيال بلدوين الأول، غير أن المسيحيين الوطنيين من أهلها الذين تسربت إليهم أنباء المؤامرة، حذَّروه فقبض على الشخص المكلف باغتياله وأعدمه فوراً[3]، وزادت هذه الحادثة من تصميمه على الاستيلاء على المدينة، فأدرك قاضيها وشيوخها استحالة المقاومة، وخشوا مصيراً كمصير بيروت عندما احتلها الصليبيون؛ فخرجوا لمقابلة بلدوين الأول، فطلبوا منه الأمان لأهل المدينة واستحلفوه على ذلك، فأجابهم إلى طلبهم، وأصدر أوامره إلى جنوده بتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم والسماح لمن يريد الخروج منهم إلى دمشق وغيرها، وعدم التعرض لمن يريد البقاء في المدينة، فخرج حاكم صيدا وجميع قادة الأجناد والعساكر والقاضي وخلق كثير من الناس وتوجَّهوا إلى دمشق، وبقي الفقراء فيها فخضعوا لحكم الصليبيين ودخلوا في تبعية بيت المقدس الصليبية. ودخل الصليبيون إلى المدينة بعد مقاومة دامت سبعة وأربعين يوماً، فرتَّب بلدوين الأول أوضاعها وعيَّن المحافظين عليها وعاد إلى بيت المقدس[4].

محاولة بلدوين الأول الاستيلاء على عسقلان

أضحى الصليبيون يسيطرون على جميع الساحل الشامي بما فيه طرابلس باستثناء

---

(١) فولشر الشارتري: ص١٤٧. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٠، ٥٤١.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٧٣. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٢. الصوري، وليم: المصدر نفسه.
(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٢.
(٤) المصدر نفسه: ص٥٤٢، ٥٤٣. ابن القلانسي: ص٢٧٣، ٢٧٤. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨١. فولشر الشارتري: ص١٤٧، ١٤٨.

مدينتي عسقلان وصور. أما المدينة الأولى وهي القاعدة العسكرية الرئيسة للفاطميين في فلسطين فقد كادت تدخل تحت حمايتهم، إذ أعقب الاستيلاء على صيدا أن بادر بلدوين الأول بالمسير إليها والاستيلاء عليها، فسعى حاكمها الفاطمي شمس الخلافة إلى عقد هدنة معه، فأرسل إليه مالاً وعروضاً طالباً منه عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين مع استعداده لدفع الجزية[1].

انزعج الوزير الأفضل عندما علم بهذه الاتصالات، لأن عسقلان كانت مفتاح فلسطين[2]، فأرسل حملة عسكرية تحت ستار محاربة الصليبيين، وحمَّل قائدها عز الملك الأعز من الأوامر ما يقضي بعزل شمس الخلافة، على أن يحل محله في حكم المدينة[3].

ارتاب شمس الخلافة من تلك الحملة، ورفض السماح لأفرادها بالدخول إلى المدينة، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائدها، فعاد هذا أدراجه إلى القاهرة. وتشكَّك الجنود العرب في جيش شمس الخلافة بنواياه، فطردهم وأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً، وتمادى حين ذهب إلى بيت المقدس ليضع نفسه ومدينته بتصرف بلدوين الأول وحمايته ثم عاد بصحبة ثلاثمائة جندي صليبي أنزلهم في القلعة[4].

على أن هذه الخيانة أساءت إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا على شمس الخلافة، وبفضل مساعدة تلقوها من القاهرة، قاموا بانقلاب في (محرم ٥٠٥هـ/ تموز ١١١١م) لقي فيه شمس الخلافة مصرعه، كما جرت مذبحة قُتل فيها عدد كبير من الصليبيين. وهرع بلدوين الأول لإنقاذ رجاله غير أنه وصل متأخراً، فلم يسعه إلا العودة. وأرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها. وكان لا بد لعسقلان أن تبقى شوكة في جنب الصليبيين لمدة أربعين عاماً أخرى[5].

محاولة بلدوين الأول الاستيلاء على صور

أضحت صور منذ أن تُوِّج بلدوين الأول ملكاً على بيت المقدس ضمن اهتماماته بهدف إيجاد منفذ بحري نظراً لما تتمتع به من موقع مهم، وثروة زراعية. ومن خلال محاولاته المتكررة للسيطرة على موقع بالساحل، توجَّه في عام (٥٠١هـ/١١٠٨م) إلى صور وعسكر بجوارها، ولما كانت المدينة منيعة شرع في إنشاء حصن بظاهرها

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٧٥.
(٢) عاشور: جـ١ ص٣١١.
(٣) ابن القلانسي: ص٢٧٥. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: جـ٣ ص٤٦.
(٤) ابن القلانسي: ص٢٧٥. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٣.
(٥) ابن القلانسي: ص٢٧٥. رنسيمان: جـ٢ ص١٥٣، ١٥٤. عاشور: جـ١ ص٣١١، ٣١٢.

على تل المعشوقة في الجهة الشرقية، وحاصرها بضعة أشهر، فاضطر واليها عز الملك أنوشتكين الأفضلي[١] إلى مهادنته بأن دفع له سبعة آلاف دينار، فرضي بها ورحل إلى صيدا[٢].

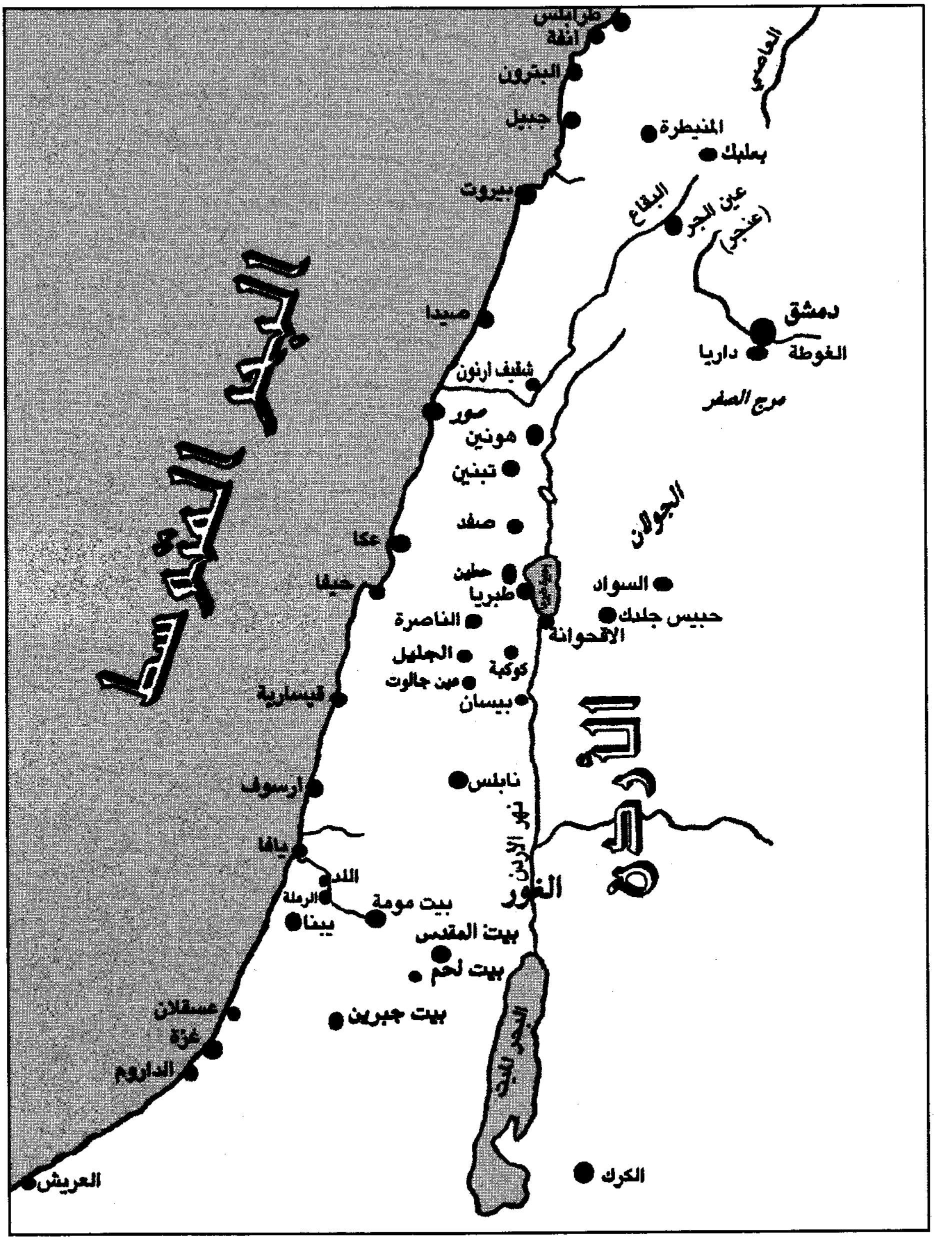
وعندما سقطت صيدا بيده اشتدت ثائرة عز الملك، وشعر بحرج موقفه أمام الغارات الصليبية المتكررة من ناحية وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدته في كثير من الحالات من ناحية أخرى، لذلك التفت نحو دمشق بوصفها أكبر قوة إسلامية قريبة منه، فأرسل في (أوائل ٥٠٥هـ/ خريف ١١١١م) إلى طغتكين يطلب منه إمداده بكتيبة من الرماة مؤلفة من خمسمائة مقاتل تتولى حماية المدينة على أن يؤدي عنها مبلغ عشرين ألف دينار، وهدَّده بتسليم المدينة إلى الصليبيين، واستأذنه في الوقت نفسه بأن يُرسل هو وأعيان صور ما بحوزتهم من الأمتعة الثمينة لحفظها عنده في دمشق. وتجاوب طغتكين مع رغبة حاكم صور، ولما كانت القافلة لا بد أن تجتاز أراضي خاضعة لسيطرة الصليبيين وهي في طريقها إلى دمشق، بذل عز الملك الرشوة لأحد الفرسان الصليبيين ويُدعى راينفرد ليرشدها ويكفل لها الأمن والسلام. قَبِل راينفرد بالشروط لكنه أسرع بإبلاغ بلدوين الأول. وإذ استاء هذا الأخير من هذه الاتفاقية، وعلم بموعد خروج القافلة التي تحمل الثروة، كمن لها وانقضَّ على رجالها، ثم حشد كامل قواته لمهاجمة صور إلا أنه افتقر إلى قوة بحرية مساندة لإحكام الحصار على المدينة براً وبحراً، ولم يكن بسواحل فلسطين آنذاك سوى اثنتي عشرة سفينة بيزنطية بقيادة السفير بوتوميتس، غير أن البيزنطيين لم يكونوا مستعدين للقيام بعمل عدائي ضد الفاطميين لأن العلاقة الفاطمية ـ البيزنطية كانت تشهد آنذاك تحسناً مطرداً، ولم يكن من مصلحة البيزنطيين الإساءة إلى تلك العلاقة إلا إذا حصلوا على تعويض مجزٍ، ولهذا عرضوا على بلدوين الأول مقابل ما يبذلونه له من مساعدة أن يساعدهم في استعادة ما سبق أن استولى عليه أمراء أنطاكية الصليبيون من أراضٍ كانت تابعة سابقاً للامبراطورية البيزنطية، لكن التردد الذي أظهره الملك الصليبي في الالتزام بهذا الشرط، جعلهم يصرفون النظر عن الموضوع، واكتفوا بإمداد جيشه بالمؤن فقط، ومع ذلك فقد صمَّم بلدوين الأول على المضي في حصار المدينة فبنى ثلاثة أبراج من الخشب لمهاجمتها شحن كلّاً منها بألف مقاتل، ونصب عليها المجانيق[٣].

---

(١) عند ابن ميسر والمقريزي: سعد الملك كمشتكين، أحد المماليك الأفضلية. أخبار مصر: ص٤٢. إتعاظ الحنفا: جـ٣ ص٣٨.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٥٥.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٦.



القسم الجنوبي من بلاد الشام

قاوم أهل صور الحصار، وأحرقوا الأبراج الخشبية، إلا أنهم اضطروا إلى طلب المساعدة من طغتكين أتابك دمشق، ووعدوه بتسليم مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم. وكتب الوالي عز الملك في الوقت نفسه إلى مصر يُبرر تصرفه استباقاً لأي تصور أو ريبة بخيانته وخروجه على الدولة الفاطمية[١]. واحتوت الرسالة التي أرسلها إلى دمشق عبارات مثيرة للحمية والشهامة، وتضمَّنت عبارات الاستصراخ والاستنجاد، وأرفق معها مبلغاً من المال لإنفاقه على الرجال الذين يُعدُّهم طغتكين[٢].

لكن محاولة طغتكين الأولى الاتصال بصور قد أُحبطت، ذلك أنه كتب رسالة جوابية إلى عز الملك يعلمه فيها أنه تسلَّم المبلغ، ويطلب منه أن يُجهِّز مركباً يقيم في مكان عيَّنه على الساحل، ليحمل الرجال المنوي إرسالهم إلى صور، وحمل الرسالة طائر من الحمام الزاجل. وصادف أن كان في المكان المحدد مركب للصليبيين فيه جماعة من المسلحين البدو المستأمنين ويعملون في خدمة الصليبيين فسقطت الرسالة في المركب، وأُعلم بلدوين الأول بمضمونها، فأرسل مركباً إلى المكان المحدَّد تصدَّى أفراده للعسكر الدمشقي فأسروهم وقتلوهم[٣].

لم تُثن هذه الحادثة طغتكين عن محاولة الاتصال بصور، فأرسل ما يزيد على مائتي فارس، نجحوا في دخول المدينة، وتلقَّى أهل صور مساعدة من سكان القرى المجاورة، والمطوعة من جبل عامل، رغبة في الجهاد[٤].

دفعت هذه التطورات العسكرية بلدوين الأول إلى تشديد الحصار على المدينة والتعجيل باقتحامها، فقطع طرق الإمدادات عنها، وشنَّ هجمات عدة للنيل من صمود المدافعين عنها، غير أنه فشل في اقتحامها[٥].

وخرج طغتكين من دمشق على رأس قواته إلى صور وعسكر في بانياس، وبثَّ رجاله ليهاجموا المعاقل الصليبية لتخفيف الضغط عن صور، وإجبار بلدوين الأول على فك الحصار عنها أو فتح ثغرة في خطوط الصليبيين تسمح له بإمداد أهل صور بفرقة أخرى من المقاتلة، فهاجم حصن حبيس جلدك في السواد من أعمال دمشق، وامتلكه بالسيف، ووصل إلى أعمال صور، وشنَّ هجمات عدة على الصليبيين، ومع ذلك لم يحفل بلدوين الأول بذلك ولم يتزحزح عن مكانه، وشدَّد حصاره على صور، وجدَّد هجماته عليها[٦].

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٩٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٦.
(٦) ابن الأثير: جـ٨: ص٥٩٠، ٥٩١.

وصلت هجمات الدماشقة إلى الطريق الساحلي إلى الشمال من صور، وقطعوا الجسر الذي كانت تعبره الإمدادات الصليبية القادمة من صيدا، ويبدو أن السيطرة على الجسر قد حقَّقت أهدافها، لكن ذلك لم يفتَّ في عضد بلدوين الأول؛ فاستدعى الإمدادات من جميع الجهات عن طريق البحر، ولما كانت صيدا أقرب مدينة لصور، فقد هاجم طغتكين ربضها ووصل إلى مينائها، فقتل جماعة من البحارة الصليبيين وأحرق نحو عشرين مركباً كانت ترسو عند الشاطئ، كما حثَّ أهالي صور على الصمود والثبات(١).

أدرك الملك الصليبي أخيراً أن كل خطة كان يضعها، عُرضة للإحباط بخطة مشابهة فوراً، وعلاوة على ذلك فقد أنهكته الأعمال العسكرية المستمرة التي بدَّدها أمام أسوار المدينة وبكلفة عالية لمدة أربعة أشهر، كما خشي أن يستولي طغتكين على غلَّات بلاده، ففكَّ الحصار عن صور في (١٠ شوال ٥٠٥هـ/ ١٠ نيسان ١١١٢م) وعاد إلى عكا، كما عاد العسكر الدمشقي إلى دمشق، وأدَّى إليهم أهل صور الأموال وغيرها(٢).

الواقع أن أهل صور يئسوا من استجابة الدولة الفاطمية لنداءاتهم المتكررة، ولم يبق أمامهم سوى الاستعانة بأتابكية دمشق، لذلك استغل الوالي عز الملك انسحاب الصليبيين من أمام المدينة وأجرى مشاورات مع أعيانها تقرر بنتيجتها تسليم صور إلى طغتكين، وبخاصة أنه أثبت صدق جهاده، وسرعة استجابته لنجدتهم.

وتمت ترتيبات نقل السلطة مع تاج الملوك بوري بن طغتكين نظراً لغياب والده في مهمة في حماة. وأرسل الدماشقة فرقة عسكرية دخلت إلى صور، واستقر لها الأمر فيها، وتسلَّمها الأمير سيف الدين مسعود بن سلار من واليها الفاطمي، واستقر فيها نائباً عن أتابك دمشق، وسمح طغتكين بإقامة الدعوة والخطبة للإمام الفاطمي، وصكَّ النقود باسمه(٣). فرضي أهل صور بذلك، وكتب إلى مصر يُطلع الوزير الأفضل على ما اتخذه من ترتيبات، ويطمئنه إلى حسن نواياه، وأن صور ما زالت على تبعيتها للسيادة الفاطمية، وحتى يصل إليها من مصر من يتولى أمرها ويدافع عنها ويحميها؛ سيبادر بتسلميها إليه ويُخرج نوابه منها، وتمنَّى أن لا يُهمل الفاطميون أمرها، ويُرسلوا أسطولاً بالغلة والتقوية لها(٤).

وهكذا تسلم أتابك دمشق مدينة صور في عام (٥٠٦هـ/ ١١١٣م) وارتاح الوزير

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٩١. ابن القلانسي: ص٢٨٥.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٨٧، ٢٨٨. فولشر الشارتري: ص١٤٩، ١٥٠.
(٣) ابن القلانسي: ص٢٩٠، ٢٩١. (٤) المصدر نفسه: ص٢٩١.

الأفضل لهذه الخطوة وبعث بكتاب إلى طغتكين جاء فيه: «إن هذا أمر وقع منا أجمل موقع وأحسن موضع»[1]. واهتم بعد ذلك بتجهيز أسطول يحمل الغلال والميرة والهدايا إلى صور، أنعم بها على طغتكين وابنه تاج الملوك بوري، ونائب صور سيف الدولة مسعود.

أدرك بلدوين الأول صعوبة الاستيلاء على صور بعد هذه التطورات الناجعة، فأرسل إلى واليها يلتمس منه عقد هدنة وإحلال السلام بينهما، فاستجاب سيف الدولة مسعود لرغبته، وعُقدت الهدنة بين الطرفين[2]. لكن بلدوين الأول الذي لم ينس صور مطلقاً شيَّد في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م) قلعة على ساحل البحر فوق رأس الناقورة بهدف التضييق عليها من الجنوب وبذلك تمَّ تطويقها من الشمال بصيدا ومن الشرق بقلعة تبنين ومن الجنوب بالقلعة التي عُرفت باسم سكاندليون[3].

الصراع على الجليل

إن أهم ما كان يشغل تفكير بلدوين الأول هو أن يكفل لمملكته حدوداً ساحلية وبرية تسد حاجاتها وتُؤمِّن لها الاستمرار، ورأى أن يستغل قربها من طريق التجارة الممتد من العراق والجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط ومصر. وعندما غادر تانكريد فلسطين ليتقلد زمام الحكم في أنطاكية عقب وقوع بوهيموند في أسر الدانشمنديين في (٧ شوال ٤٩٣هـ/ ١٥ آب ١١٠٠م)، عهد إلى هيو سانت أومر دي فالكنبرغ بحكم طبرية وأوصاه بمحاربة المسلمين[4].

وضع هيو خطة لتوسيع إمارته في الجليل على حساب المسلمين والتمدد نحو الشمال الغربي تجاه صور والشمال الشرقي في إقليم السواد. وكان هدفه الأول انتزاع مدينة صور من أيدي الفاطميين، ورأى أن يعزلها عن الداخل الإسلامي من خلال تطويقها بالحصون، فبنى حصن تبنين[5] في مواجهة الساحل وهو الحصن الذي أضحى له شأن كبير في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية لأنه يربط بين صور وبانياس ودمشق. وحتى يتهيأ له القيام بغارات ضد إقليم السواد في الجهة الشرقية لبحيرة طبرية، وهو تابع لأتابكية دمشق، بنى حصن علعال[6] فوق بعض المرتفعات

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٠٠. (٢) المصدر نفسه: ص٣٠٠، ٣٠١.

(٣) فولشر الشارتري: ص١٦١. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٦٧.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٣٨. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٧٣، ٤٧٤، ٤٨٨، ٤٨٩.

(٥) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. الحموي: جـ٢ ص١٤.

(٦) يُعرف هذا الموقع باسم العال.

الواقعة إلى الجنوب الغربي من البحيرة[1]، وقد تمَّ بناء هذين الحصنين في عام (٥٠٩هـ/ ١١١٥م).

أزعج بناء هذين الحصنين طغتكين أتابك دمشق وقد رأى في هذه الخطوة الصليبية تهديداً مباشراً لبلاده، لذلك أرسل جيشاً إلى الجليل في (صفر ٤٩٩هـ/ تشرين الأول ١١٠٥م) اصطدم بهيو وقواته أثناء عودتهم من إحدى الغارات وهم محمَّلون بالغنائم، فأصيب هيو بجرح بالغ توفي من أثره وتشتَّت قواته. واستولى طغتكين على حصن علعال بما فيه من آلات وغيرها، وعيَّن بلدوين الأول فارساً فرنسياً يُدعى جيرفيه بوسوك أميراً على الجليل[2].

واستمر الصراع على الجليل. فقد وجد بلدوين الأول نفسه واقعاً بين فكي الكماشة، الدمشقيين من الشمال والفاطميين من الجنوب، ففي الوقت الذي أخذ طغتكين يهاجم إقليم طبرية، أخذ صاحب صور يشن هجمات عنيفة ضد حصن تبنين. وفي (رمضان ٥٠١هـ/ أيار ١١٠٨م) نصب طغتكين كميناً لقوة صليبية بقيادة جيرفيه بوسوك في الجبال القريبة من طبرية، أسفر عن قتل كثير من الصليبيين ووقوع جيرفيه بوسوك في الأسر، فحمله إلى دمشق مقيداً بالسلاسل. وقد أبدى الأتابك في رسالة أرسلها إلى ملك بيت المقدس، استعداده لإطلاق سراح جيرفيه بوسوك مقابل جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا، فرأى بلدوين الأول في ذلك ثمناً باهظاً لا يمكن دفعه، وردَّ عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل بيته وجميع زعماء الصليبيين، وأمام هذا الرفض أمر طغتكين بقتل جيرفيه بوسوك[3].

وفي (جمادى الأولى ٥٠٢هـ/ كانون الأول ١١٠٨م) ونظراً لتشابك المصالح الرئيسة لكل من بلدوين وطغتكين، قرَّرا عقد هدنة بينهما لمدة أربع سنوات، واتفقا على اقتسام إقليم السواد وجبل عوف، أي الأراضي الشمالية من شرقي الأردن، فيأخذ كل منهما الثلث ويأخذ الفلاحون العرب الثلث الأخير[4].

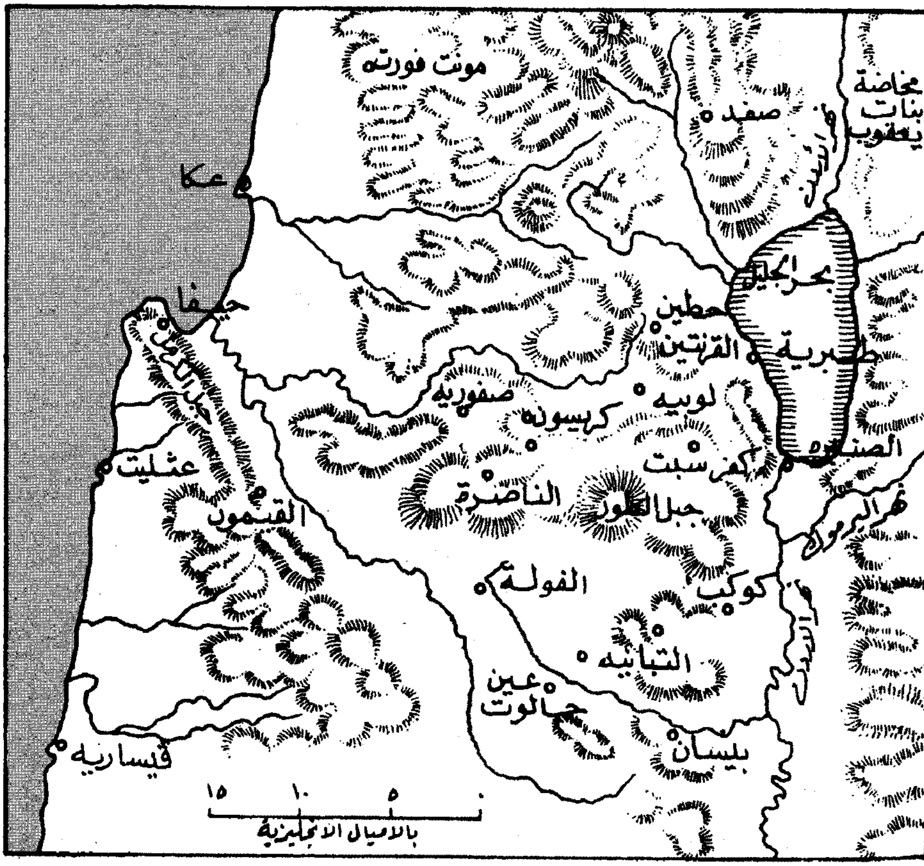
---

(١) ابن القلانسي: ص٢٤١.

(٢) المصدر نفسه. ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف قزاوغلي التركي المعروف بالسبط: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، في الحروب الصليبية للدكتور سهيل زكار: جـ٢ ص٧٤٧ Albirt d'Aix: pp635, 636.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٥٨، ٢٥٩. ابن الجوزي: جـ٢ ص٤٧٩.

(٤) ابن كثير: جـ٨ ص٥٧٠، ٥٧١. ابن القلانسي: ص٢٦٣، ٢٦٤. ابن تغري بردي: جـ٥ ص١٨٠. Stevenson: p50.



الجليل

عن تاريخ الحروب الصليبية لـ «ستيفن رنسيمان» ٧٢١/٢

ويبدو أن الطرفين كانا مضطرين لعقد هذه الهدنة بسبب:

- دخول طغتكين في نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين.
- دمَّرت الغارات المتبادلة، التجارة البرية التي تجتاز الإقليم، ما حرم الأطراف كافة من عائدات حيوية.
- إن هزيمة جيرفيه بوسوك وقتله، وما تلى ذلك من خطر الغارات المنطلقة من شرق الأردن على الجليل، أثارت القلق في نفس بلدوين الأول علماً بأن غارات المسلمين جاءت رداً على غارتين وقعتا مؤخراً، الأولى ضد أميرة عربية ثرية كانت قادمة من بلاد العرب إلى دمشق، قادها وليم كليتون بن روبرت النورماني، واستولى على أربعة آلاف جمل، ووقعت الثانية ضد قافلة تجارية كانت في طريقها من دمشق إلى مصر، فنهب الصليبيون كل ما فيها من سلع تجارية، وأجهز البدو فيما بعد على

من صادفوه من رجالها[١].

ويبدو أن الهدنة لم يكن لها إلا صفة محلية، فلم تمنع طغتكين من النهوض لمساعدة الثغور الفاطمية كما لم توقف بلدوين الأول عن إخضاع مدينة بعلبك. وقد أثنى المؤرخون المسلمون عليها، إذ بفضلها لم يغز بلدوين الأول أتابكية دمشق، على الرغم من أن ما أنزله وليم جوردان من هزيمة بطغتكين في عِرقة هيأت له فرصة طيبة[٢].

بلدوين الأول يغزو مصر

الواقع أن ما حدث في عسقلان من ناحية وفي صور من ناحية أخرى من تحالف بين دمشق والقاهرة، إنما يدل على بداية صحوة إسلامية في جنوبي بلاد الشام لم تلبث أن امتدت إلى الدولة الفاطمية، فتقدَّم جيش فاطمي في عام (٥٠٧هـ/ ١١١٣م) لمهاجمة بيت المقدس في الوقت الذي كان فيه بلدوين الأول منصرفاً لقتال المسلمين في الشمال، ووصل أفراده إلى أسوارها إلا أنهم لم يتمكَّنوا من اقتحامها بفعل متانتها، فعادوا من حيث أتوا[٣]. وقام الفاطميون بهجوم على يافا في عام (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) وكاد النصر ينعقد لهم، لكن الجيش الفاطمي عاد أدراجه إلى مصر من دون أن يُحقِّق شيئاً[٤].

ويبدو أن لهذا الفشل علاقة بالمدى الذي وصل إليه بلدوين الأول في ترتيباته لغزو مصر نفسها، لعل أهمها:

- عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي من واقع السيطرة على الصحراء الممتدة من جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة، ولا يخفى ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية بالإضافة إلى عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق، وقطع الطريق البري الذي يربط بينها وبين بلاد الشام والعراق والحجاز[٥].
- شيَّد حصن الشوبك[٦] ليكون مركزاً يُمكِّن الصليبيين من السيطرة على كل وادي عربة.

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٧٤، ٥٧٥. Albirt d'Aix: p653.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٧١. رنسيمان: جـ٢ ص١٥٧، ١٥٨.

(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ص٥٥٥، ٥٥٦. Grousset: L'Empire du Livant: p213.

(٥) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية: ص١٨٨.

(٦) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمَّان وأيلة والقلزم قرب الكرك. الحموي: جـ٣ ص٣٧.

- بنى في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م) قلعة حصينة في أيلة على ساحل خليج العقبة للتحكم في طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام.

- أقام قلعة في جزيرة فرعون الواقعة تجاه أيلة ما مكّن الصليبيين من الإشراف على شبه جزيرة سيناء، ولم يبق أمامه سوى مهاجمة مصر.

وفعلاً قادة قوة عسكرية قليلة العدد مؤلفة من مائتين وستة عشر فارساً وأربعمائة راجل، وعبر الصحراء من غزة إلى العريش ووصل إلى الفرما الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط داخل الحدود المصرية بالقرب من مصب الفرع البلوزي لنهر النيل، فاستولى عليها وأحرق مساجدها[1]، ثم مضى في توغله حتى وصل إلى مصب نهر النيل، لكنه وقف عند هذا الحد ولم يتمكّن من التوغل أبعد من ذلك في الأراضي المصرية وذلك بفعل قلّة قواته ولمرضه المفاجئ الذي ألمَّ به إذ انتابته حمى بعد أكلة سمك.

وفاة بلدوين الأول

ارتدَّ بلدوين الأول عائداً إلى بيت المقدس في (أواخر ٥١١هـ/ ربيع ١١١٨م) وقد اشتدت عليه الحمَّى، على أن جسده بلغ من الإنهاك حتى أضحى عاجزاً عن مقاومتها، فحمله العساكر وهو رجل مائت عائدين إلى حصن العريش الواقع على الحدود. وفي ذلك المكان توفي بلدوين الأول في (٨ ذي الحجة/ ٢ نيسان) بين ذراعي أسقف الرملة، ونُقل جثمانه إلى بيت المقدس وَوُري الثرى في كنيسة القيامة بجوار أخيه غودفري دي بوايون[2].

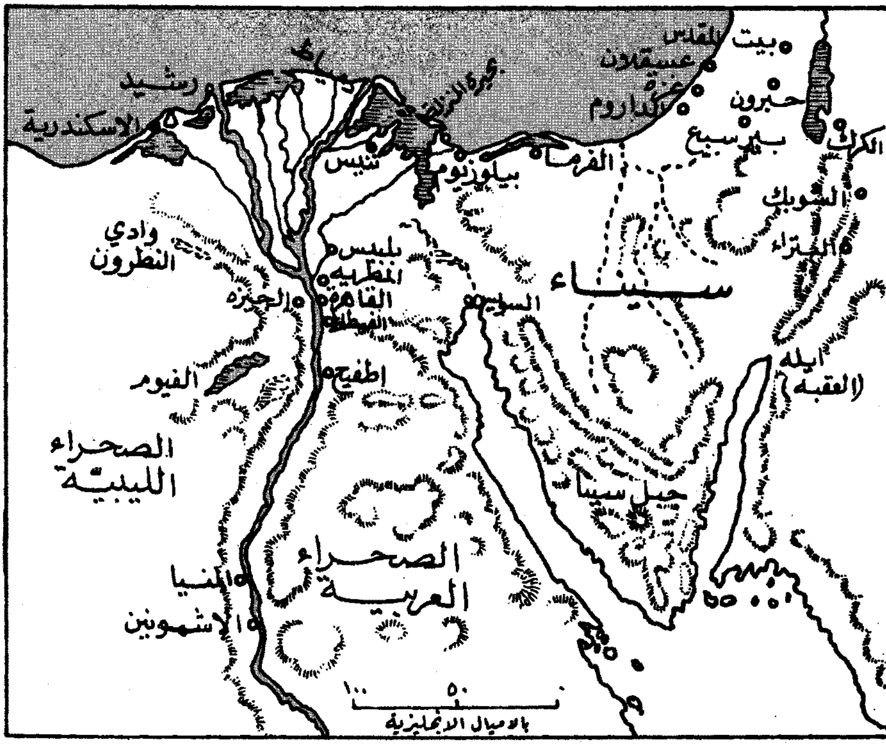
بلدوين الأول والأتراك في الشمال

في الوقت الذي كان بلدوين الأول منهمكاً بموضوع خروج شمس الخلافة في عسقلان على حكم الفاطميين وتقرُّبه من الصليبيين، إذا برسالة تصل إليه من بلدوين دي بورغ أمير الرها تفيد بأن الأتراك غزوا إمارته، ويطلب مساعدته.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٥ ص١٧١. المقريزي: جـ٣ ص٥٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٦٧، ٥٦٨.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٧٧. فولشر الشارتري: ص١٦٢، ١٦٣. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٦٧، ٥٦٨.



مصر في القرن الثاني عشر

عن تاريخ الحروب الصليبية «ستيفن رنسيمان» ٥٩٣/٢

الواقع أن الأتابك مودود أمير الموصل ظل بعد توليه حكم هذه الإمارة متمسكاً بفكرة الجهاد الديني ضد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان السلجوقي محمد، لذلك دعا جيرانه من الأمراء المسلمين لتكوين حلف من أجل هذه الغاية، ثم أعدَّ حملة عسكرية في (شوال ٥٠٣هـ/ نيسان ١١١٠م) لانتزاع مدينة الرها، فسانده الأراتقة في ماردين وأرمينية[(١)]. وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دي بورغ رسولاً إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين الأول، متجاهلاً الاستعانة بتانكريد صاحب أنطاكية إذ كان يشك في نواياه وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها.

كان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانضم إليه،

(١) ابن القلانسي: ص٢٧٠، ٢٧١.

قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل[١] فوصل إلى الرها في (٢٩ ذي الحجة/ ١٩ تموز).

ظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين من دون أن يتمكَّن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حرَّان وفق خطة عسكرية محكمة وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق[٢].

وقرَّر بلدوين الأول مطاردة الجيوش الإسلامية بعد أن نجح في تحقيق المصالحة بين تانكريد وبين أمير الرها. وكان مودود قد أمعن في انسحابه كيما يستدرج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة الصليبية توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي. فما الذي حدث على المسرح السياسي؟

الواقع أنه تضافرت دوافع عدة جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة لعل أهمها:

- لقد تلقى بلدوين الأول تحذيراً مبكراً بخطة الأتابك، وكان يحاصر قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حرَّان، كما تلقى إنذاراً من بيت المقدس عن تحرك فاطمي ضد بيروت، فقرَّر التخلي عن الحملة.

- راجت شائعات في الأوساط الصليبية بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكريد إلى التخلِّي عن الحملة[٣].

وبناء على نصيحة الملك بأن لا جدوى من حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين الأول إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية في حصني الرها وسروج الكبيرين وبعض القلاع الصغيرة مع تدعيم إمكاناتها الدفاعية، واكتفى مودود بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل[٤].

وجدَّد مودود هجماته على الرها في (محرم ٥٠٥هـ/ تموز ١١١١م) بالتحالف مع بعض الأمراء المسلمين في خلاط وتبريز ودياربكر ومراغة في أذربيجان وإربل، وفتح مواقع عدة شرقي الفرات ثم توجه لحصار الرها[٥].

أثارت الحملة الذعر بين السكان. ولما انتشرت أخبار الحملة في الأوساط

---

(١) Stevenson: p88.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٧١.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص١٨٩. Elisséeff: II pp302, 303.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٧٣، ٢٧٤.

(٥) Stevenson: p91.

الإسلامية في شمالي بلاد الشام حاول كل أمير استغلالها لصالحه ومنهم رضوان أمير حلب الذي طلب مساعدته ضد تانكريد. وإذ تأثر مودود بتغير الموقف السياسي لصاحب حلب وكان يحاصر تل باشر، فك الحصار عنها وقاد جيوشه لمساعدته[١].

ويبدو أن رضوان لم يكن صادق النية، فعندما اقتربت الجيوش الإسلامية من حلب أغلق أبوابها في وجهها بعد أن أثارت كثرتها العددية مخاوفه، ولم يلبث أن تحالف مع تانكريد للوقوف في وجه الخطر المشترك[٢].

نتيجة لهذا الانقلاب في موقف رضوان، توجَّه مودود إلى الجنوب لاسترداد الأماكن التي استولى عليها تانكريد مؤخراً في حوض نهر العاصي، فانضم إليه هناك طغتكين أتابك دمشق[٣].

كان تانكريد في هذه الأثناء معسكراً أمام شيزر، فلما علم بزحف المسلمين تراجع إلى أفامية وأرسل إلى بلدوين الأول يستنجد به. استجاب الملك لنداء الاستغاثة وأرسل إلى أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس وتل باشر للاجتماع به[٤].

والواقع أن الأحداث لم تجر على نحو طيب في صفوف المسلمين الذين تعرَّضوا للتصدع وانفرط عقدهم بسبب أطماع بعض أمرائهم ووفاة البعض الآخر، واضطر مودود إلى مناوشة الصليبيين بما تبقى معه من قوات وكانوا قلَّة قبل أن ينسحب عائداً إلى الموصل[٥].

وقرَّر مودود مهاجمة مملكة بيت المقدس بناء على استنجاد طغتكين به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من قِبل صليبيي بيت المقدس الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع ووصلوا إلى مشارف بعلبك، فتحرك في (محرم ٥٠٧هـ/ حزيران ١١١٣م) على رأس تحالف إسلامي لقتالهم، وانضم إليه تميرك صاحب سنجار وأياز بن إيلغازي أمير ماردين[٦].

كان هدف المسلمين منطقة فلسطين، فنجحوا في استدراج بلدوين الأول إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة[٧] الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن. وحدث

---

(١) Grousset: Histoire de Croisades: I p465.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٩.
(٣) ابن القلانسي: ص٢٨٢. Elisséeff: II p306.
(٤) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٥. Stevenson: p93.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٧ ـ ٥٨٩. ابن العديم: جـ٢ ص٥٢٥.
(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٩٥.
(٧) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال. الحموي: جـ٣ ص٤٢٥.

اللقاء في (١٣ محرم/ ٣٠ حزيران) وانتهى بانتصار المسلمين الذين أنزلوا بالصليبيين هزيمة ساحقة، فارتد بلدوين الأول إلى طبرية، ولم يلبث أن وصل إلى نجدته روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة[١].

ومضى المسلمون في زحفهم بعد المعركة حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يُغامروا بمواجهة التحالف الصليبي وبخاصة أنه دخل فصل الشتاء، فقرَّروا الانسحاب إلى دمشق[٢].

حملة السلاجقة على بلاد الشام

يُعدُّ محمد آخر سلاطين السلاجقة العظام، تسلم من أخيه بركياروق دولة متداعية، فأعاد الأمن إلى نصابه في العراق وإيران، وقمع ثورة العرب في الصحراء الشرقية في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٨م)، وكبح جماح الباطنية الحشيشية ثم تطلع إلى إرسال حملة إلى بلاد الشام بهدف:

- إعادة بسط سيطرة السلاجقة على الإمارات الإسلامية كافة في بلاد الشام وإقليم الجزيرة بعد أن تمكَّن حكامها من الاستقلال بإماراتهم عن الحكم السلجوقي أمثال طغتكين في دمشق، وإيلغازي الأرتقي في ديار بكر، ولؤلؤ في حلب.
- محاربة الصليبيين في أنطاكية والرها[٣].

وصادف أن تعرَّض شمالي بلاد الشام في (جمادى الآخرة ٥٠٨هـ/ تشرين الثاني ١١١٤م) لزلزال عنيف أصاب أنطاكية والمصيصة ومرعش والرها وصدَّع أسوارها، فاستغل السلطان محمد هذا الظرف وأرسل حملة عسكرية إلى شمالي بلاد الشام بقيادة برسق بن برسق تقدر بخمسة عشر ألف مقاتل المعروفين بمهارتهم العسكرية، وأمره بمحاربة إيلغازي وطغتكين أولاً ثم الصليبيين ثانياً. فتوجَّه إلى حلب بناء على طلب متوليها لؤلؤ وكان ينوي اتخاذها قاعدة لعملياته العسكرية في شمالي بلاد الشام[٤].

(١) ابن القلانسي: ص٢٩٤ ـ ٢٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٧.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٧.
(٤) المصدر نفسه. وانظر الفصل التاسع فيما يتعلق بأحداث الحملة.

الفصل السابع

تأسيس إمارة طرابلس

طموح ريموند الصنجيلي

يُعدُّ ريموند الصنجيلي من أمراء الحملة الصليبية الأولى الأكثر شهرة، فهو الرجل الذي كان متوقعاً أن يُصبح قائد الحركة الصليبية، ولم تمض إلا خمس سنوات حتى أضحى من أقل الصليبيين أهمية، إذ اكتشف حليفه الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين أنه صديق ضعيف مجرد من الكفاية. ويبدو أن طموحه السياسي وولاءه لبيزنطية وغروره أثاروا المشكلات بينه وبين معظم الأمراء، وسبَّبوا له خيبة أمل واضحة.

فقد منَّى ريموند نفسه باقتسام أنطاكية مع بوهيموند، وانتهى الأمر باستئثار الثاني بها، ولما حاول أن يؤسس إمارة له في شمالي بلاد الشام حول البارة ومعرة النعمان، تصدَّى له بوهيموند ونافسه في الاستيلاء على الثانية، ما اضطره إلى التخلي عنها وذلك في عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م). ثم تطلَّع ريموند إلى تأسيس إمارة له على ساحل بلاد الشام، فهاجم أنطرطوس وعِرقة في الشمال الشرقي لطرابلس، فنجح في احتلال الأولى فقط في (ربيع الأول ٤٩٢هـ/ شباط ١٠٩٩م) وفشل في احتلال الثانية في (جمادى الآخرة/ أيار). وعندما طُرح اسمه ليكون حاكماً على بيت المقدس بعد سقوطها بأيدي الصليبيين، واجه معارضة من قِبل زملائه الأمراء، كما تعرَّض لعداء غودفري دي بوايون عندما حاول احتلال عسقلان وأرسوف في (رمضان/ آب).

وما اتخذه ريموند من سياسة الولاء للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين التي تدل على بُعد النظر السياسي، تراءت لرفاقه أنها ضرب من الخيانة. فقد دافع عن حقوق الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام، ونادى بحقوقها في أنطاكية وفي غيرها من أقاليم بلاد الشام، وعندما استولى على اللاذقية في عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م) سلَّمها للبيزنطيين، ما قوَّى علاقته بالامبراطور، وجعله يثق في إخلاصه له، وبدا هذا التفاهم بينهما موجَّه ضد بوهيموند في أنطاكية الذي شكَّل وجوده في هذه المنطقة من شمالي بلاد الشام تهديداً لأطماعهما. فقد استغل أمير أنطاكية رحيل منافسه إلى

بيت المقدس مع الحملة الصليبية لانتزاع اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة أسطول بيزي بقيادة دايمبرت، ولولا عودة ريموند لسقطت في يده، وعلى الرغم من توسط دايمبرت بين الرجلين، فقد ظل الخلاف قائماً بينهما واكتفى ريموند بأن سيطر على اللاذقية وأنطرطوس باسم الامبراطور. ولما يئس أخيراً من القضاء على بوهيموند حاول أن يستغل صداقته مع الامبراطور البيزنطي لإقامة إمارة له في شمالي بلاد الشام تنافس إمارة أنطاكية، فاستمرت بذلك روح التنافس والكراهية تسود العلاقات بين الرجلين.

ورحل ريموند في (أواسط ٤٩٤هـ/ صيف ١١٠١م) إلى القسطنطينية للاتفاق مع الامبراطور على القيام بعمل مشترك ضد بوهيموند في أنطاكية، وما كاد يصل إليها حتى علم بوقوع بوهيموند في أسر الدانشمنديين، لكن هذا الحدث لم يكن له أي أثر لا في نفس الامبراطور ولا في نفس ريموند لأن تانكريد الذي تولى الوصاية على أنطاكية بعد أسر خاله، لم يقلَّ خطراً عن بوهيموند تجاه الامبراطورية وتجاه ريموند، فقد استولى على بعض المدن في كيليكية مثل طرسوس وأذنة والمصيصة، كما سيطر على اللاذقية عنوة في النصف الثاني من عام (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م). وفي الوقت الذي كان فيه ألكسيوس كومنين وريموند يعدَّان حملة لاستعادة اللاذقية إذ بجموع صليبية جديدة تصل إلى القسطنطينية فأراد استغلالها.

تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق

لم يكد الغرب الأوروبي يعلم بنبأ النجاح الذي حقَّقته الجموع الصليبية في بلاد الشام وفلسطين حتى تحمَّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل في الذهاب إلى الشرق، وأولئك الذين عادوا قبل تحقيق الإنجازات الصليبية؛ تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهي الحصول على الغنائم والضياع فضلاً عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران. ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسَّة إلى محاربين ومستعمرين بهدف:

- مواصلة الحرب ضد المسلمين.
- استئناف عمليات التوسع.
- حراسة ما حقَّقوه من مكاسب.
- المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.

استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، فانبعثت منه صحوة صليبية أسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكَّل اللمبارديون أولى تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) بقيادة أنسلم بوي، رئيس أساقفة ميلان،

وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بياندرات، وجيوبرت كونت بارما، وهيو كونت مونتيبلو[١].

ويبدو أن هذه المجموعة اللمباردية على الرغم من وفرة عديدها[٢] لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة بدليل أنها لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، وتألفت غالبيتها العظمى من العامة الذين لا يُجيدون القتال ويفتقرون إلى النظام[٣] ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال السلب والنهب ما حمل الامبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى وذلك في (جمادى الأولى/آذار) واستقروا في نيقوميدية بانتظار وصول جموع أخرى[٤].

ولم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلوَا وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برغنديا، وهيو كونت بروي، وبلدوين كونت غراندبريه، وهيو بييرفون أسقف سواسون بالإضافة إلى سرية ألمانية بقيادة كونراد، كندسطبل الامبراطور هنري الرابع[٥].

عبرت هذه المجموعة البوسفور وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عديدها بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل[٦]، وعيَّن الامبراطور البيزنطي صديقه ريموند الصنجيلي قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم فرقة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس[٧].

معركة مرسيفان

تحرَّك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميدية إلى دوريليوم في طريقه إلى الأراضي المقدسة في فلسطين على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى، لذلك أوصى الامبراطور ستيفن بلوا أن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة والذي يمر بقونية، غير أن اللمبارديين رفضوا التوجه إلى الأراضي المقدسة إلا بعد تحرير بوهيموند من الأسر وقد اتخذوه مثلًا يُحتذى وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصرُّوا بأن تتوجه الجموع

---

(١) Albirt d'Aix: p559.

(٢) يقدر ألبرت العدد بمائتي ألف: ص٥٥٩. (٣) رنسيمان: جـ٢ ص٣٨.

(٤) Albirt d'Aix: pp561, 562. (٥) Ibid: pp562, 563.

(٦) يذكر ابن الأثير أن العدد هو ثلاثمائة ألف في حين قدَّرته أنَّا كومنين بخمسين ألفاً من الفرسان وعشرة آلاف من المشاة. الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٤٧٣. Alexiad: p289.

(٧) رنسيمان: جـ٢ ص٣٩، ٤٠.

الصليبية إلى كبادوكيا. ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر[١].

وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة، فقد توجَّهت الجموع إلى الأراضي الدانشمندية عبر أنقرة التابعة للسلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول، فاستولوا عليها وتابعوا طريقهم إلى كنغري الواقعة في جنوب بافلاغونيا كي يسلكوا الطريق الرئيس المؤدي إلى أماسيا ونيكسار. وحتى يعرقل التقدم الصليبي، عمد السلطان قلج أرسلان الأول إلى الانسحاب التدريجي من أمام القوة الصليبية، واتبع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء انسحابه، وحرق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين[٢]. وفي الوقت نفسه، أخذت القوى التركية تتجمع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي، فبادر كمشتكين أحمد الدانمشندي بتجديد تحالفه مع السلطان قلج أرسلان الأول، كما حثَّ رضوان صاحب حلب على أن يُرسل عدداً من الجنود[٣].

وصل الصليبيون إلى كنغري فألفوا الأتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت المدينة عليهم لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم، لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن، وشدة الحرارة، ومضايقة الأتراك. واقترح ريموند، حتى يجنِّبهم الدمار الشامل، أن يتوجَّه بهم صوب الشمال الشرقي إلى قسطموني ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود، على أن الرحلة إلى قسطموني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاد المؤن، وتدمير الأتراك المحاصيل الزراعية وردمهم الآبار. وتعرَّض الصليبيون لهجوم تركي مفاجئ، فتفرَّقوا لا يلوون على شيء، قبل أن يعيد ريموند لمَّ شعثهم. ولما وصلوا إلى أطراف قسطموني، كان على ريموند أن يشقَّ طريقاً وسط الجموع التركية إلى الساحل، على أن اللمبارديين أصرُّوا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل باقي الأطراف على رأيهم مرغمين[٤].

اجتازت الجموع الصليبية نهر هاليس إلى بلاد الدانشمنديين ووصلت إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسيا[٥]. وعندما أدرك الأتراك أن القوة الصليبية أضحت منهكة تقدموا نحوها واصطدموا بها، ولم يمض وقت طويل حتى تضعضع الصليبيون وفرُّوا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم ورهبانهم. ولجأ ريموند إلى تل صغير احتمى به إلى أن أنجده الفرنسيون

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٤٣٨.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٤٨. Alexiad: p289.

(٣) المرجع نفسه: ص٤٣.

(٤) المرجع نفسه: ص٤٣، ٤٤.

(٥) المرجع نفسه: ص٤٤. Oman: I p241.

والألمان، ثم هرب خلال الليل بعد أن يئس من إحراز النصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأتراك[١].

تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش[٢]، واستولى الأتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعوا رقيقاً. ولم يلبث ريموند أن وصل إلى ميناء بافرا البيزنطي على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلَّته من هناك سفينة بيزنطية إلى القسطنطينية[٣].

معركة هرقلة الأولى

محت الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في مرسيفان الشهرة التي اكتسبها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دوريليوم، وزاد من أثرها أنها لم تكن الأخيرة، إذ في الوقت الذي غادر فيه اللمبارديون مدينة نيقوميدية، وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم، كونت دي نيڤر على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاة[٤]. وحرص وليم على اللحاق باللمبارديين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيقوميدية، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة، فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة، لكن لم يكن أحد يعلم الجهة التي سارت إليها هذه الجموع، لذلك لم يسع الكونت إلا أن يتوجَّه إلى قونية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حاميتها الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها باءت الفشل، فتركها وتوجَّه نحو الشرق[٥].

كان السلاجقة وحلفاؤهم الدانشمنديون قد فرغوا في غضون ذلك من إبادة الجموع اللمباردية، وعلم السلطان قلج أرسلان الأول وكمشتكين أحمد الدانشمندي بقدوم هذا العدو الجديد، وإذ لا زالت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب وسبقا وليم إلى هرقلة. ولما وصل هذا إلى مكان قريب منها، وكان التعب قد استبدَّ بعسكره، هاجمه الأتراك، فانهارت معنويات جنوده ومقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي أفراد الجيش الفرنسي بأسره مصرعهم باستثناء الكونت وستة من أتباعه[٦].

---

(١) Oman: I p241.

(٢) يذكر أومان أن الخسائر بلغت تسعة أعشار الجيش: ص٢٤٠.

(٣) Albirt d'Aix: pp564-567.

(٤) Oman: I p242.

(٥) Albirt d'Aix: pp576-578.

(٦) رنسيمان: جـ٢ ص٥٠ .Ibid

معركة هرقلة الثانية

في الوقت الذي كانت فيه جموع الكونت دي نيڤر تجوس آسيا الصغرى وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتانيا، وولف الرابع دوق باڤاريا وبلغ عدد أفرادها ستين ألفاً.

خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه بوهيموند من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التي طبَّقوها من قبل، بإحراق الغلال، وإتلاف المؤن، وطمر الآبار.

ولما وصل أفراد هذه الجموع إلى قونية وجدوا المدينة خاوية، وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت جموع دي نيڤر، وحملت معها ما كان فيها من مؤن، كما جرَّدت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين(١).

لم يمكث الصليبيون في قونية وغادروها إلى هرقلة، فعانوا من طول المسافة والمتاعب والجوع والعطش وهجمات الأتراك، ولما دخلوا المدينة وجدوها مهجورة(٢). وتربَّص الأتراك بهم، وكمنوا لهم في الغابات المحيطة بالمدينة وباغتوهم وهم يشربون من ماء النهر المتفجر وراء المدينة، وإذ اضطرب نظامهم انقضَّ الأتراك عليهم وأبادوهم عن آخرهم باستثناء قِلَّة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع، وولف الرابع، فتوجَّها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية(٣).

توجَّه بعض أمراء جموع الصليبيين مع من تبقَّى من أتباعهم الذين نجوا من الكارثة التي حلَّت بهم على أيدي الأتراك، إلى أنطاكية مثل: دوق أكويتانيا وكونت باڤاريا وكونت دي نيڤر، فوصلوا إليها في (أواخر ٤٩٤هـ/ خريف ١١٠١م)، في الوقت الذي كان فيه قادة الجموع اللمباردية لا يزالون في القسطنطينية، فأعدَّ الامبراطور سفناً نقلتهم جميعاً إلى فلسطين وذلك في (منتصف ٤٩٥هـ/ أوائل ١١٠٢م)، وصحبهم ريموند الذي بنى عليه الامبراطور ألكسيوس كومنين الآمال الكبيرة، وقد تحقَّق الآن أنه خذله واتهمه بأنه أضعف من أن يُقدم له مساعدة فعلية تخدم مصالح الامبراطورية ضد الصليبيين في بلاد الشام(٤)، فوصلوا إلى ميناء السويدية، وانفصلت سفينة ريموند عن باقي السفن وأبحرت إلى ميناء طرسوس، وما كاد ينزل إلى البر حتى تقدم أحد الفرسان منه، وهو برنارد الغريب، فاتهمه بخيانة

---

(١) Oman: I p242.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٥٢ .Ibid: pp242-243

(٣) Albirt d'Aix: pp580-582.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٥٥ .Chalandon: Alexis Comnène: p231

الصليبيين في آسيا الصغرى بهروبه من ساحة معركة مرسيفان ما عرَّضهم للكارثة، وسلَّمه إلى غريمه تانكريد الذي اتهمه بدوره بخيانة القضية الصليبية بالتواطؤ مع الدولة البيزنطية ضد الصليبيين وضد مصالحهم في بلاد الشام، واعتقله في قلعة أنطاكية. لكن تانكريد وافق بعد أن تعرَّض لضغط الأمراء الصليبيين، على إطلاق سراحه بشرط أن يتعهد بالتنازل عن كل دعوى له في شمالي بلاد الشام، فأقسم له على ذلك مُدمِّراً بتصرفه هذا أساس اتفاقه مع ألكسيوس كومنين، وعلى الرغم من ذلك فإنه استمر في العمل على إقامة إمارة خاصة له على حساب المسلمين في ساحل بلاد الشام(١).

التمهيد لتأسيس إمارة طرابلس

دور ريموند: كان لا بد للصليبيين إذا قُدِّر لإماراتهم البقاء أن يقوموا بالاستيلاء على الإمارات الإسلامية الفاصلة بين مملكة بيت المقدس في الجنوب وإمارتي أنطاكية والرها في الشمال، وتُعدُّ طرابلس الخاضعة لبني عمار أهم هذه الإمارات، والمعروف أن حاكم طرابلس فخر الملك أبو علي بن عمار (٤٩٢ ـ ٥٠١هـ/ ١٠٩٩ ـ ١١٠٨م) كان ذا نزعات سلمية، وقد سبق أن أشرنا إلى سياسته اللينة مع الحملة الصليبية الأولى، وتحالفه مع بلدوين الأول ملك بيت المقدس وتحذيره إياه من الكمين الذي نصبه له سلاجقة الشام؛ والواقع أنه انتهج سياسة أسلافه الذين حرصوا دائماً على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع الفاطمي ـ السلجوقي، وكذلك حرص هو أن يقف في الوسط بين الفاطميين والدمشقيين من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى.

وتغيَّر الموقف عندما استولى ريموند على أنطرطوس في (ربيع الأول ٤٩٥هـ/ شباط ١١٠٢م) بمساعدة بقايا الجموع اللمباردية التي نجت من كارثة عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، كما سانده أسطول جنوي من البحر(٢). ولم يكد يستولي عليها حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشاريعه المقبلة وأهمها الاستيلاء على مدينتي طرابلس وحمص بهدف السيطرة على الطريق الساحلي وطريق وادي العاصي، على أنه جعل هدفه الأول الاستيلاء على المدن الواقعة على الساحل وأهمها طرابلس، وبات لزاماً على فخر الملك أن يخوض الحرب مضطراً دفاعاً عن كيانه، وأن يتعاون مكرهاً مع القوى الإسلامية القريبة لمواجهة الخطر الصليبي، فأرسل إلى كل من دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة حسين صاحب حمص يلتمس مساعدتهما، فبادر دقاق بإرسال

---

(١) Mathew of Edessa: p57. Albirt d'Aix: pp582-583. Grousset: I pp334,335.

(٢) فولشر الشارتري: ص١٢٤. Albirt d'Aix: p583.

ألفين من فرسانه، وأرسل جناح الدولة حسين ما يزيد كثيراً عن هذا العدد، وانضمَّت القوتان إلى جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس، وظن الحلفاء أن الفرصة حانت للقضاء عليه. والتقى الجيشان الإسلامي والصليبي في السهل الواقع خارج المدينة. ونفَّذ ريموند خطة ذكية، فقد قسَّم جيشه إلى ثلاثة أقسام، خصَّص القسم الأول لمواجهة جيش ابن عمار، ومائة لقتال الدمشقيين وخمسين في وجه عسكر حمص، واحتفظ بخمسين فارساً لحراسته. وخاض المعركة وفق هذا التكتيك العسكري الذي كفل له النصر، وكبَّد المسلمين سبعة آلاف قتيل وارتدَّ من نجا إلى داخل أسوار طرابلس[(١)].

استغل ريموند انتصاره فحاصر مدينة طرابلس وسانده المسيحيون الوطنيون في الجبال والداخل، ولكنه سرعان ما أدرك صعوبة المهمة، فجنوده كانوا من قِلَّة العدد ما لم تُمكِّنه من الاستيلاء على المدينة باستحكاماتها الضخمة، لذلك قنع بما بذله له صاحب طرابلس من المال والخيل وانسحب عائداً إلى أنطرطوس[(٢)].

وأمضى ريموند بضعة أشهر يُوطِّد مركزه في الجهات المجاورة لأنطرطوس، ثم خرج في (أواسط ٤٩٦هـ/ربيع ١١٠٣م) للاستيلاء على البقيعة بهدف عزل طرابلس وتوسيع أملاكه إلى نهر العاصي، غير أن محاولته فشلت في الاستيلاء على حصن الطوبان من أعمال حمص الواقع إلى الشمال الشرقي من حصن الأكراد، ثم حاصر هذا الحصن الذي يسيطر على السهل ويُشرف على الأراضي بين أنطرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى، وتتبع هاتان القلعتان لجناح الدولة حسين صاحب حمص، وعندما علم هذا بأن ريموند جدَّد تهديده لحصن الأكراد أخذ يتجهز للخروج لصدِّه، لكن داهمه ثلاثة من فرقة الحشيشية وهو يهم بدخول المسجد الكبير بحمص وقتلوه غيلة في (رجب ٤٩٥هـ/أيار ١١٠٢م)، وأدَّت وفاته إلى اضطراب المدينة، فرفع ريموند الحصار عن الحصن وتوجَّه نحو الشرق كيما يفيد من مصرعه. واتُّهم رضوان صاحب حلب بأنه وراء حادثة الاغتيال بسبب خلافات بينهما علماً بأن جناح الدولة كان متزوجاً من أمه، وبخاصة أن حادثة الاغتيال صبَّت في مصلحته إذ أزاحت منافساً قوياً من طريقه[(٣)].

وصل ريموند إلى حمص «ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها» وإذ خشيت الخاتون أرملة جناح الدولة حسين أن تقع في يده التمست المساعدة من ابنها رضوان

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٨. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧٣. سبط ابن الجوزي: جـ٢ ص٧٤٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٤٧٤.

(٣) ابن القلانسي: ٢٣٠. ابن العديم: جـ١ ص٣٥٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧٥.

صاحب حلب، غير أن مستشاري جناح الدولة حسين فضَّلوا الاستعانة بأخيه دقاق صاحب دمشق، فبادر بالقدوم من الجنوب وبصبحته أتابكه طغتكين، وعندما شعر ريموند باقترابه من المدينة، وكانت قواته قليلة العدد فضَّل الانسحاب من أمام حمص وقنع بما فرضه على أهلها من جزية مالية وانصرف عنها، فدخلها دقاق وعهد بإدارتها إلى أتابكه(١).

عاد ريموند إلى أنطرطوس ليقوم بمحاولة أخرى للاستيلاء على طرابلس، وصادف وصول أسطول جنوي مؤلف من أربعين سفينة رست في ميناء اللاذقية في (أواسط ٤٩٦هـ/ شتاء ١١٠٣م)، فاستغلها في مهاجمة المدينة، غير أن الهجوم باء بالفشل، فتوجَّه نحو الجنوب، فهاجم جبيل بين طرابلس وبيروت وكانت تابعة لبني عمار واستولى عليها؛ وحاز الجنويون على ثلث المدينة مكافأة لهم لتصبح المدينة بعد ذلك مستعمرة جنوية مهمة تحت إشراف أسرة أمبرياتشي(٢).

حدَّد الاستيلاء على أنطرطوس في الشمال وبيروت في الجنوب، الإطار الجغرافي لإمارة طرابلس الصليبية، ولم يبق سوى الاستيلاء على المدينة نفسها، لكن المدينة كانت محصنة تحصيناً طبيعياً ما يجعل الاستيلاء عليها صعباً، إذ كانت قائمة على شبه جزيرة داخلة في البحر ما يُمكِّن صاحبها فخر الملك أبو علي بن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من المؤن عن طريق البحر، لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة على مسافة ثلاثة أميال إلى داخل المدينة على الجبال المقابلة لها(٣)، أطلق عليها اسم قلعة الحجاج، واشتهرت عند المسلمين باسم قلعة الصنجيل أي قلعة سان جيل، فأحكم بذلك الرقابة عليها وقطعها عن الداخل، وقد ساعده الامبراطور البيزنطي في بنائها، فأرسل إليه الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة للبناء من جزيرة قبرص كما تلقى مساعدة من المسيحيين الموارنة وغيرهم من المسيحيين الوطنيين، فأضحى موقف فخر الملك حرجاً، فحاول هدمها بأن أشعل فيها النيران في (ذي الحجة ٤٩٧هـ/ أيلول ١١٠٤م) إلا أنه لم يُحقق هدفه، وأُصيب ريموند بجروح نتيجة سقوط سقف دار محترق به. وأخيراً اضطر فخر الملك أن يتفاهم مع ريموند تخلَّى بموجبه عن أرباض المدينة له على ألا يقطع الميرة والمسافرين عن المدينة(٤). ولم

(١) ابن القلانسي: ٢٣٠. ابن العديم: جـ١ ص٣٥٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧٥.

(٢) Albirt d'Aix: p606.

(٣) أُقيم هذا الحصن على تلة أبي سمرة الحالية الواقعة على الضفة اليسرى من نهر قاديشا، وهي التي كانت تُعرف بتلة الحجاج.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٣١، ٢٣٦. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٢٦، ٥٢٧. الصوري، وليم: جـ١ ص٥١٩.

تكد المفاوضات تنتهي حتى توفي ريموند في (١١ جمادى الآخرة ٤٩٨هـ/ ٢٨ شباط ١١٠٥م)[١] متأثراً بجروحه قبل أن يُحقق أمنيته بتأسيس إمارة صليبية خاصة به في ربوع الشرق الإسلامي، لكن إذا كانت طرابلس لم تسقط في يده إلا أنه مهَّد لتأسيس إمارة طرابلس الصليبية ووضع إطارها العام، وسهَّل مهمة الاستيلاء عليها[٢].

دور وليم جوردان: خلقت وفاة ريموند مشكلة في وراثة الحكم في تولوز وفي لبنان أيضاً، إذ سبق أن ترك ابنه الأكبر برتراند في تولوز وكلفه إدارة حكومتها وذلك قبل مجيئه إلى الشرق، ويبدو أن حق برتراند كان مثار نزاع بوصفه ابناً غير شرعي، ولم يبق من أبناء ريموند من الكونتيسة ألڤيرا سوى ألفونسو جوردان الذي كان لا يزال طفلاً صغيراً، والواضح أنه ليس باستطاعته أن يتولى حكومة دولة عسكرية محفوفة بالمخاطر، كما أنه لم يكن معروفاً في تولوز، فاختار جنوده ابن عمه وليم جوردان كونت سرداني، وفقاً لرغبات ريموند الأخيرة فيما يبدو ليكون خليفة له[٣].

عدَّ وليم جوردان نفسه وصياً على ابن عمه الطفل، فامتنع عن اتخاذ الألقاب التي تضفيها عليه أملاكه في الشرق، غير أنه طالما كان ألفونسو جوردان حياً فلن يطمئن في الحكم لا هو ولا برتراند.

انتهج وليم جوردان سياسة ريموند الشرقية، فاحتفظ بالعلاقات الجيدة مع البيزنطيين واستمر على إحكام الحصار البري على طرابلس عن طريق قلعة صنجيل بدليل أن الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين أمر أصحابه في اللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الصليبيين أمام طرابلس، فحملوها في البحر من قبرص، ودارت عندئذ رحى معركة بحرية بين سفن بني عمار وبين السفن البيزنطية أُسرت فيها سفينة بيزنطية اقتادها المسلمون إلى ميناء طرابلس[٤]. وأسهمت القوات البيزنطية في الحصار المفروض على المدينة.

وفي الوقت الذي تدفَّقت فيه المؤن على المعسكر الصليبي، تعرَّض المسلمون داخل طرابلس للمجاعة، فقد كانت الطرق البرية مقطوعة، فلم تعد المؤن تصل عبرها، وعلى الرغم من أن سفناً فاطمية كانت تخترق الحصار بين حين وآخر وتجلب من المؤن ما يكفي للسكان، إلا أن أسعار المواد الغذائية ارتفعت، وغادر المدينة من استطاع الهروب، وساد البؤس والمرض صفوف السكان، وفرَّت جماعة من أعيان المدينة إلى المعسكر الصليبي. وأقدم فخر الملك بن عمار على توزيع

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٥١٩.
(٢) عاشور: جـ١ ص٣٦١.
(٣) رنسيمان: جـ٢ ص١٠١، ١٠٢.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٢٦، ٥٢٧.

المؤن على العساكر والمرضى لتخفيف شدة الضائقة وقد دفع أثمانها مما فرضه من ضرائب استثنائية[١].

وأدرك فخر الملك بن عمار أخيراً صعوبة وحرج وضعه وأنه لن يُخلِّصه سوى مساعدة خارجية رأى أنه بأمسّ الحاجة إليها، فالتمسها من الأمير الأرتقي سكمان صاحب ماردين وحصن كيفا في ديار بكر البعيد نسبياً عن طرابلس، متجاهلاً الاستعانة بجيرانه الفاطميين بسبب أطماعهم في أملاكه، كما كان على علاقات سيئة مع طغتكين أتابك دمشق وحمص والذي يُعدُّ الحليف الطبيعي له بفعل ما كان يشنُّه من الغارات ضد وليم جوردان. وكان أن تحرك سكمان فعلاً لنجدة طرابلس ولما أراد أن يتجنب منطقة الساحل اجتاز الصحراء ولم يكد يبلغ البتراء حتى توفي فجأة، فعاد قادته إلى الجزيرة الفراتية للتباحث بشأن ولاية الحكم، فانقطع بذلك الأمل الذي تعلق به فخر الملك بن عمار للحصول على مساعدة خارجية تُمكِّنه من إنقاذ طرابلس[٢].

وبفضل ما اشتهر به فخر الملك بن عمار من حسن السياسة والثروة استطاع أن يحافظ على طرابلس طوال عامي (٤٩٩ ـ ٥٠٠هـ/١١٠٦ ـ ١١٠٧م) وسط البؤس الذي ازداد حدة، وصلحت علاقته مع طغتكين، لكن ما جرى من ترسيخ أقدام الصليبيين على ساحل لبنان في (أواخر ٥٠١هـ/ربيع ١١٠٨م) وانعدام وجود دولة إسلامية مجاورة لديها من القوة ما يكفي لطردهم، وإذ استبدَّ به اليأس قرَّر أن يمضي إلى بغداد ليلتمس المساعدة من الخليفة العباسي المستظهر ومن أكبر زعماء المسلمين آنذاك، السلطان محمد السلجوقي، فعيَّن ابن عمه أبا المناقب بن عمار لإدارة شؤون الحرب والمدينة أثناء غيابه وحمل معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسي والسلجوقي مما يدل على ما كانت تتمتع به إمارته من ثراء[٣].

الواقع أن الأوضاع السياسية التي كانت تمر بها الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من تصدع لم تُتح للطرفين العباسي والسلجوقي أن يُقدِّما المساعدة المطلوبة، واكتفى كل من الخليفة والسلطان بالسؤال «عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر في قتالهم»[٤]، وهي كلمات معسولة لا تقدم شيئاً مفيداً على أرض الواقع.

وشعر فخر الملك بن عمار بخيبة أمل كبيرة، فلم يسعه إلا العودة إلى إمارته خالي الوفاض في (محرم ٥٠٢هـ/آب ١١٠٨م)، ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٠٩.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٥٨، ٥٥٩.

علم بأن طرابلس نفسها قد ضاعت منه أثناء غيابه، ذلك أن أعيانها اعتقدوا أن الدولة الفاطمية هي القوة الإسلامية التي تستطيع مساعدتهم وبخاصة أنها لا زالت تسيطر بعض الشيء على البحر، فطلبوا من الوزير الفاطمي الأفضل أن يُرسل والياً من قِبله يتولى إدارة المدينة، فعيَّن شرف الدولة والياً على طرابلس، فقدم إليها في (أواخر ٥٠١هـ/ صيف ١١٠٨م) وجلب معه كميات كبيرة من القمح للسكان، فألقى القبض على أنصار فخر الملك بن عمار واستولى على ما وجده من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع بحراً إلى مصر. لم يبق بحوزة ابن عمار بعد ذلك سوى جبلة وهي قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب[1] فاتخذ طريقه إليها، غير ان حكمه لها كان قصير الأمد، فقد هاجمها تانكريد في (شوال ٥٠٢هـ/ أيار ١١٠٩م)، ولم يسع فخر الملك بن عمار إلا الاستسلام بعد أن تمَّ التفاهم على أن تبقى المدينة إقطاعاً له من تانكريد، غير أن هذا نقض عهده بعد ذلك وأجبر فخر الملك بن عمار على مغادرتها، فقصد دمشق واتخذ منها ملاذاً بقية حياته، فأقطعه طغتكين أعمال الزبداني[2].

ومع أن فخر الملك بن عمار فَقَدَ طرابلس، فإن الفاطميين لم يتمكَّنوا من الاحتفاظ بها، وكانوا أضعف من أن يستطيعوا حمايتها كما لم يَنَلْها وليم جوردان، ذلك أن نبلاء تولوز استدعوا ألفيرا وابنها ألفونسو جوردان إلى تولوز ليتولى أمر إرث والده ما أجبر برتراند، الابن الأكبر لريموند، على التفكير في مستقبله السياسي. وما جرى من تفاهم في تولوز، تنازل برتراند عن كل دعوى له في إرث والده في تولوز، وتخلَّى ألفونسو جوردان عن كل ما له من إرث في لبنان ما دفع برتراند إلى السفر إلى الشرق في (أواخر ٥٠١هـ/ صيف ١١٠٨م) واصطحب معه ابنه الصغير بونز[3].

توقع برتراند حدوث مشكلات مع وليم جوران الذي لن يتنازل بسهولة عن مكتسباته، وحتى يُقوي موقفه تصرف على محورين:

الأول: اصطحب معه جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف بين فارس وراجل، وأسطولاً مكوناً من أربعين سفينة أمدته به بروفانس، وعقد حلفاً مع جنوة التي وعدته ببذل المساعدة ليتسلم إرث والده في الشرق مقابل منحها امتيازات واسعة في طرابلس، فرافقه أسطول جنوي مؤلف من حوالي سبعين سفينة، علماً بأن وليم جوردان أدرك هو الآخر ضرورة الحصول على مساعدة إحدى الدول البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس فأرسل سفيراً إلى جنوة من أجل ذلك، لكن برتراند ظفر بالمساعدة[4].

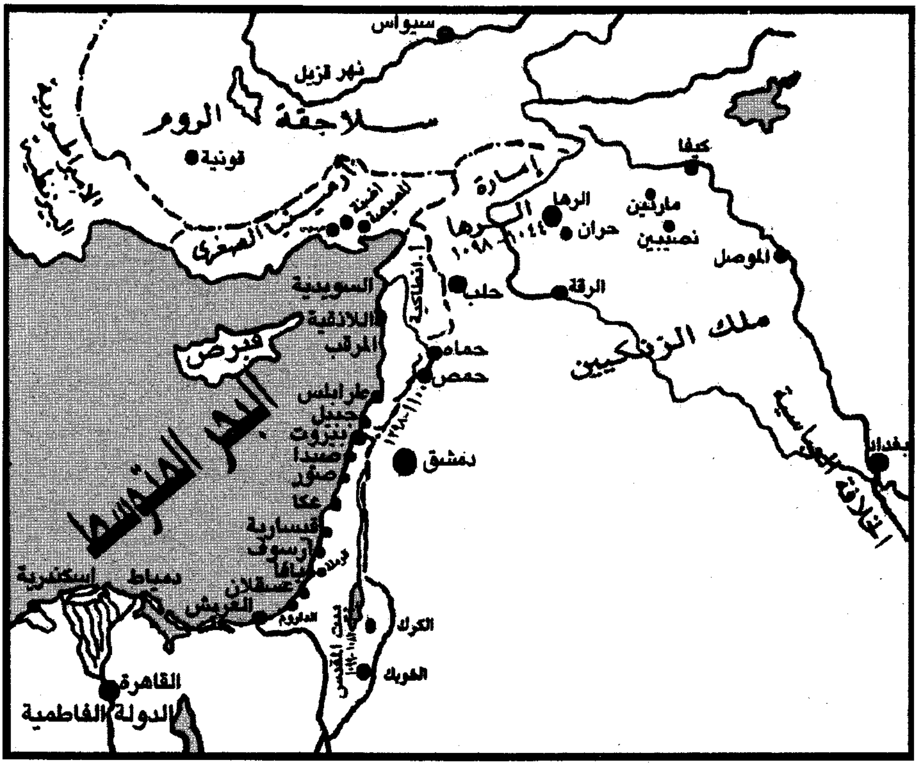
---

(١) ابن الأثير: ص٥٥٩، ٥٦٠.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٦٤.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص١٠٧.

(٤) فولشر الشارتري: ص١٤٤. Grousset: I p352.



شرق المتوسط في النصف الأول من القرن ١٢م

الثاني: زار القسطنطينية في طريقه إلى الشرق كي يضمن مساندة الامبراطور البيزنطي صديق والده، فاستقبله ألكسيوس كومنين بالترحاب ووعده بمساعدته، وحلف برتراند مقابل ذلك يمين الولاء للامبراطور(١).

أبحر برتراند من القسطنطينية إلى السويدية مع حلفائه الجنويين، فاجتمع بتانكريد صاحب أنطاكية وطلب منه أن يُسلمه ما كان بحوزة والده من أجزاء من أنطاكية، فوعده تانكريد بالتفكير في ذلك مقابل أن يساعده برتراند على الاستيلاء على المصيصة والمدن البيزنطية في كليكية، فرفض برتراند هذا الاقتراح لأنه سبق أن أقسم يمين الولاء للامبراطور، فأمره تانكريد عندئذ بمغادرة أراضي إمارته وأن لا تطأها قدمه في المستقبل، ومنع رعاياه من تزويده بالمؤن والأقوات، فأبحر إلى ميناء أنطرطوس التي كانت آنذاك أهم مركز في ممتلكات ريموند في بلاد الشام(٢).

---

(١) Albirt d'Axi: p664.

(٢) Ibid: pp665,666.

النزاع بين برتراند ووليم جوردان

كانت أنطرطوس تحت حكم وليم جوردان، فسمح لبرتراند بالدخول إلى المدينة، وفي اليوم التالي أرسل برتراند إليه يطلب منه تسليمه المدن والقرى التي كانت بحوزة والده في إمارة حمص، فرفض وليم جوردان تلبية طلبه بحجة أنها من حقه وحده لأنه دافع عنها ضد المسلمين والصليبيين في أنطاكية وحال دون سقوطها في أيديهم، كما زاد في مساحتها من خلال الاستيلاء على عِرقة، وكان وليم جوردان قد انتزعها من طغتكين صاحب دمشق، وكانت بالأصل تحت حكم فخر الملك بن عمار فأنابها إلى أحد غلمانه إلا أنه عجز عن الدفاع عنها وسلَّمها إلى طغتكين، فتأزم الموقف بين الرجلين، وسعى كل منهما إلى التماس المساعدة من الخارج لتقوية موقفه، فطلبها وليم جوردان من تانكريد وهو يعلم مدى التباعد بينه وبين بيت تولوز، في حين التمسها برتراند من بلدوين الأول ملك بيت المقدس، فأرسل إليه يشتكي من تحالف تانكريد ووليم جوردان ضده وحرمانه من إرث والده، وطلب منه الحضور على وجه السرعة ليحكم بينهما بوصفه الحَكَم الأكبر بين الصليبيين في الشرق، وتعهد له بالولاء والتبعية[1].

ورأى بلدوين الأول الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطة عليا تهيمن على جميع الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ضرورة اجتماع الصليبيين في الشرق للعمل معاً، فبادر بالاستجابة لالتماس برتراند، فأرسل رسولين إلى تانكريد ووليم جوردان لإبلاغهما بأن براترند هو تحت رعايته وحمايته ويحذرهما من القيام بأي عمل ضده، ودعاهما للحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر في تركة ريموند، ولم يلبث أن خرج في (ذي القعدة ٥٠٢هـ/ حزيران ١١٠٩م) على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس[2].

لم ينتظر برتراند وصول ملك بيت المقدس فغادر أنطرطوس نحو الجنوب إلى طرابلس، فحاصرها كما حاصر وليم جوردان في قلعة صنجيل، فغادر هذا القلعة وتوجه إلى أنطرطوس فدخلها وانتظر وصول تانكريد، ولم يكد هذا يصل إلى المدينة حتى زارهما رسول بلدوين الأول وسلمهما رسالة الملك، فلحقا بطرابلس وانضمَّ إليهما بعد قليل، بلدوين دي بورغ أمير الرها، واجتمع برتراند ببلدوين الأول وأقسم له يمين الولاء[3].

---

(١) فولشر الشارتري: ص١٤٤.

(٢) Grousset: I pp355,356.

(٣) Albirt d'Aix: p666.

وعقد القادة الصليبيون في بلاد الشام وشمالي العراق اجتماعاً موسعاً في قلعة صنجيل لبحث قضية النزاع بين برتراند ووليم جوردان. ووجد تانكريد ووليم جوردان نفسيهما أمام جبهة متماسكة تضم بلدوين الأول وبلدوين دي بورغ وجوسلين كورتناي وبرتراند، وكان عليهما أن يرضيا بحل وسط. وأظهر بلدوين الأول من الحكمة وحسن السياسة والبراعة في تسوية المشكلات ما أفضى إلى حل ارتضت به الأطراف كافة قام على البندين التاليين:

١ ـ يتخلَّى تانكريد عن مطالبه في الرها على أن يستعيد ممتلكاته في الجليل التي كانت بحوزته قبل عام (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) ويُصبح تابعاً لبلدوين الأول إذا ما عاد بوهيموند من أبوليا إلى أنطاكية.

٢ ـ تُقسم تركة ريموند بين المتنازعَيْن، فيأخذ وليم جوردان عِرقة وأنطرطوس مع ملحقاتهما، ويكون من نصيب برتراند قلعة صنجيل وجبيل وملحقاتها وطرابلس عندما يتم الاستيلاء عليها، وإذا مات أحدهما من دون ولد فإن الآخر يرثه في ممتلكاته[١].

وتمَّ الصلح في هذا الاجتماع بين تانكريد وبلدوين دي بورغ، كما تمَّ بين برتراند ووليم جوردان[٢].

تأسيس إمارة طرابلس

مهَّد النجاح الذي حقَّقه بلدوين الأول في توحيد كلمة الصليبيين إلى توجيه الجهود ضد طرابلس، وكان واليها الفاطمي شرف الدولة قد التمس مساعدة عاجلة من القاهرة، فأعد الفاطميون أسطولاً ضخماً تألف من سفن لنقل الجنود وأخرى لحمل المؤن، غير أن ما حدث من خلاف بين قادته أدَّى إلى تأجيل إقلاعه من موانئ الدلتا، ولما أقلع بعد أن تحقَّق الوفاق صادفته رياح عاصفة عرقلت إبحاره[٣].

وأحكم الصليبيون في غضون ذلك حصارهم البري على طرابلس وضربوا أسوارها، وقامت السفن الجنوية بحصار المدينة من ناحية البحر، فتعذَّر على الحامية والسكان مقاومة فرسان بيت المقدس وبروڤانس والرها مجتمعين، في الوقت الذي أخذ الأسطول الجنوي يُشدِّد الحصار البحري على المدينة، فساءت أوضاعهم «وسُقط في أيديهم، وذلَّت نفوسهم، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصري عنهم

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٣١.
(٢) Stevenson: p57.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٧٨.

بالميرة والنجدة»[١].

وأخيراً أبحر الأسطول الفاطمي نحو طرابلس، ولكن بعد فوات الأوان، إذ لم يكد يصل إلى المياه الطرابلسية حتى «وجدوا البلد قد أُخذت، فعادوا كما هم»[٢].

والواقع أن حامية طرابلس وسكانها تخلَّوْا عن المقاومة عندما وجدوا أنفسهم يواجهون جموع الصليبيين، فأرسل شرف الدولة إلى بلدوين الأول يعرض عليه تسليم المدينة مقابل:

- الأمان لكل من أراد أن يغادر المدينة من سكانها بما يحمل من متاع.
- يُعَدُّ من أراد البقاء، من رعايا الصليبيين، على أن يحتفظ بأملاكه ويؤدي الضريبة السنوية.
- طلب الإذن لنفسه بالرحيل مع عساكره إلى دمشق.

وافق بلدوين الأول على هذه الشروط، ودخل الصليبيون إلى المدينة يوم الاثنين في (١١ ذي الحجة ٥٠٢هـ/ ١٢ تموز ١١٠٩م) من ناحيتين. فقد دخل بلدوين الأول من ناحية والجنويون من ناحية أخرى، وقد تعرضت هذه الناحية الأخيرة للسلب والنهب على أيديهم، وأخذوا يحرقون الدور ويقتلون من صادفهم من المسلمين[٣].

عاد الأمن إلى نصابه بعد احتلال المدينة، واتخذ برتراند لقب أمير طرابلس وكونت طرابلس، وأكَّد تبعيته لمملكة بيت المقدس متجاهلاً ما ارتبط به من التزامات نحو الامبراطور ألكسيوس كومنين. وكوفئ الجنويون بتخصيص حي لهم في المدينة وقلعة تقع على مسافة عشرة أميال جنوبي طرابلس عُرفت باسم قلعة الكندسطبل[٤].

والواقع أن إمارة طرابلس وُلدت ممزقة ومنقسمة على نفسها بين برتراند ووليم جوردان، ولكل منهما توجهات مختلفة، فتوزَّعت ولاءاتهما بين مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية ما هيَّأ لوقوع صدام بين الرجلين. لكن لم يطل انتظار برتراند للسيطرة على تركة والده في الشرق وتوحيدها تحت سلطانه، إذ قُتل وليم جوردان بسهم في ظروف غامضة أشارت إليها المصادر إشارة مقتضبة، ولا شك بأن أصابع الاتهام توجَّهت نحو برتراند، لكن لم يقم على ذلك دليل[٥].

حقَّق برتراند ما كان والده يطمح إليه من تأسيس إمارة في الشرق لكن لم تكن بالضخامة التي تصوَّرها ريموند، فأراضي حمص لم تدخل في نطاقها وبدلاً من

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٧٨.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٥ ص١٧٩.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٧٨، ٥٧٩. Grousset: I p358.
(٤) رنسيمان: جـ٢ ص١١٤.
(٥) المرجع نفسه: ص١١٤، ١١٥. فولشر الشارتري: ص١٤٥. Albirt d'Aix: p669.

انتمائها لبيزنطية اعترفت بتبعيتها لمملكة بيت المقدس، وبفعل ما اشتهر به موقعها ربطت بين الصليبيين في شمالي بلاد الشام وبين الصليبيين في فلسطين في الجنوب، وقامت بدور بارز في الحروب الصليبية[1].

نمو إمارة طرابلس

أعقب سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين استيلاء هؤلاء على ما تبقَّى من المعاقل الإسلامية في شمالي بلاد الشام: فقد احتل تانكريد أثناء عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس، ولما لم تُبد إلا مقاومة ضئيلة فلم يتعرض لسكانها[2]، ثم استولى على جبلة، فانتزعها من يد فخر الملك بن عمار كما مرَّ معنا. ودفع برتراند أتباعه إلى رفنية الواقعة شرقي أنطرطوس، ولما علم طغتكين بذلك خرج للدفاع عنها غير أنه عسكر قريباً من حمص واكتفى بمراقبة تطور أوضاعها، وعجز الصليبيون عن اقتحامها، وانتهى الموقف بعقد الصلح بين طغتكين وبرتراند وافق الأول بمقتضاه على أن يحصل الثاني على ثلث دخل البقاع وحصني المنيطرة[3] وابن عكار[4]، وتعهَّد برتراند في مقابل ذلك بعدم الاعتداء على مصياف وحصن الطوبان وحصن الأكراد التابع لقراجا صاحب حمص[5]. وأتاحت السيطرة على حصن المنيطرة لبرتراند أن يراقب الطريق بين جبيل وبعلبك، ومكَّنه الحصول على حصن ابن عكار، الإشراف على الطريق بين عِرقة وحمص.

لكن سرعان ما نقض الصليبيون العهد بفعل طموحهم التوسعي على حساب المسلمين. فقد استولى تانكريد على حصن الأكراد في عام (٥٠٣هـ/ ١١١٠م) أثناء قيامه بغارة على شيزر، وتخلَّى عنه للأمير بونز (٥٠٦ ـ ٥٣١هـ/ ١١١٢ ـ ١١٣٧م) الذي خلف أباه في حكم طرابلس في عام (٥٠٦هـ/ ١١١٢م)، وظل هذا الحصن منذ ذلك الوقت تابعاً لإمارة طرابلس حتى منحه ريموند الثاني أمير طرابلس للفرسان الأسبتارية في عام (٥٣٦هـ/ ١١٤٢م).

كانت العلاقات بين الإمارات الصليبية بعد سقوط طرابلس جيدة، وتوحَّدت سياسات الصليبيين، وشهدت تقارباً ملحوظاً، من ذلك أن برتراند أرسل ابنه بونز إلى أنطاكية ليتلقى آداب الفروسية، وهناك تعلَّق هذا الشاب بزوجة تانكريد الشابة

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص١١٥.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٦٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٧٩.
(٣) حصن المنيطرة: هو حصن بالشام قريب من طرابلس.
(٤) حصن ابن عكار: قلعة صغيرة في شمالي لبنان إلى الشمال الشرقي من طرابلس.
(٥) ابن القلانسي: ص٢٦٤.

سيسيل حتى إذا ما توفي هذا الأخير في (٢٠ جمادى الآخرة ٥٠٦هـ/ ١٢ كانون الأول ١١١٢م) تزوج بونز أرملته، وكان لهذه الزيجة أثر كبير في اتحاد الأسرتين الحاكمتين في طرابلس وأنطاكية[١].

وكانت علاقة بونز بمملكة بيت المقدس جيدة، فقد رافق الملك بلدوين الأول في حملته ضد الأتابك برسق عندما هدَّد أنطاكية، وقضى نهائياً على الدعاية المعادية للنورمان التي كان يقودها البروڤنساليون، وقد توضح ذلك من خلال هذه الزيجة، بالإضافة إلى ذلك فقد تزوَّج أمير أنطاكية روجر أخت بلدوين دي بورغ[٢].

وربما كان مبرر هذا الوفاق بين الصليبيين أن الامبراطور البيزنطي كان يُخطِّط للقيام بحملة ضد أنطاكية خلال عامي (٥٠٥ ـ ٥٠٦هـ/ ١١١١ ـ ١١١٢م)، وسعى إلى تحييد بيزا من أجل هذا الغرض إلا أنه لم يعمد إلى تنفيذه[٣].

وسار بونز على خطى أسلافه في معاداة المسلمين والتوسع على حسابهم، وقد مدَّ حدوده نحو الشرق بالسيطرة على ممتلكات دمشق وحمص، من ذلك أنه استولى على حصن رفنية في عام (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) التابع لطغتكين، ولكن هذا لم يلبث إن استعاده منه «وأخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً، فقتل البعض، وترك البعض، وغنم المسلمون من سوادهم، وكُراعهم، وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم، وعادوا إلى بلادهم سالمين»[٤].

وشيَّد بونز حصن بارين (بعرين) بين حمص والساحل، وهناك إشارات بأن الأتابك برسق استطاع أن يستولي عليه سنة (٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، غير أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوه كما استردوا[٥] حصن رفنية، بمساعدة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في (صفر ٥٢٠هـ/ آذار ١١٢٦م) بعد حصار دام بضعة أيام[٦]. واستولى بونز على بارين بدليل ما ذكرته بعض المصادر من أن هذه القلعة كانت في عام (٥٢٦هـ/ ١١٣٢م) إحدى القلاع المنيعة التابعة لإمارة طرابلس[٧].

ظلت إمارة طرابلس تنمو وتتوسع حتى بلغت أقصى اتساعها في العام المذكور، فامتدت من المرقب شمالاً حتى نهر الكلب جنوباً، ومن شاطئ البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى بارين ورفنية وحصن الأكراد وعكار شرقاً. ويرتبط تاريخ إمارة طرابلس منذ ذلك الوقت بتاريخ أنطاكية وتاريخ مملكة بيت المقدس.

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٧.
(٢) Albirt d'Aix: p701.
(٣) ماير: ص١١٥.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٩.
(٥) فولشر الشارتري: ص١٥٦.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٣٦.
(٧) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٧.

الفصل الثامن

أنطاكية في ظل حكم بوهيموند

الصراع بين بوهيموند والبيزنطيين على اللاذقية

لا تقلُّ مشكلة اللاذقية المتنازع عليها بين الصليبيين والبيزنطيين، تعقيداً عن مشكلة أنطاكية، وإذا كان مصير أنطاكية قد تقرَّر لصالح بوهيموند، فقد عادت اللاذقية إلى أحضان البيزنطيين.

كان الأتراك قد استولوا على اللاذقية في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) إلا أنها لم تلبث أن انتقلت إلى سيادة أمير شيزر، وفي (منتصف ٤٩٠هـ/ صيف ١٠٩٧م) وصل إلى الميناء أحد القراصنة ويُدعى غاينمر البولوني، فاستولى عليها، غير أنه في (ربيع الآخر ٤٩١هـ/ آذار ١٠٩٨م) أبحر إلى اللاذقية بعض البحارة الإنكليز بزعامة إيدغار أتليخ، فطردوا رجال غاينمر واستولوا عليها باسم الامبراطور البيزنطي. ويبدو أن غاينمر لم يترك في المدينة سوى قوة ضئيلة العدد لحراستها، ولذا تقرَّر التماس المساعدة من الصليبيين للدفاع عنها ضد هجمات الأتراك. ولم يكد يتم الانتصار على كربوغا حتى قدم إليها روبرت النورماني، فسلَّمها له إيدغار بالنيابة عن الامبراطور البيزنطي، لكن روبرت أساء السيرة في أهلها ما دفع حاكم قبرص البيزنطي إستاتيوس فيلوكاليس إلى إرسال حامية بيزنطية لترابط بها، فانسحب روبرت منها بعد أن حكمها بضعة أسابيع[١].

والواقع أن بوهيموند واجه العداء البيزنطي، فقد انتقل ثلاثة من موانئه ومخارجه الطبيعية للاتصال بالعالم الخارجي، وهي اللاذقية وبانياس ومرقية؛ إلى سيطرة البيزنطيين بمساعدة ريموند الذي واصل رحلته إلى بيت المقدس مع الحملة الصليبية، فأصبحت بذلك سواحل المناطق التابعة لبوهيموند تحت سيطرة البيزنطيين بما فيها جزيرة قبرص في الغرب[٢].

---

(١) Albirt d'Aix: p500.

(٢) فنك، هارولد: تأسيس الإمارات اللاتينية ١٠٩٩ ـ ١١٨٨م: فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية بإشراف سيتون، الفصل الثالث ص٦٦.

لقد أدرك ألكسيوس كومنين مغزى ما قام به بوهيموند من اغتصابه لأنطاكية وعدم وفائه بقسمه الذي اتخذه على نفسه في القسطنطينية، فاحتج، لكن احتجاجه رُفض، فحرك عندئذ جيشه لكي يستولي على كيليكية، ومن هناك يقوم بالتحرك ضد أنطاكية، إلا أنه سيطر على مرعش فقط حيث فضَّل الأرمن في كيليكية التعامل مع الصليبيين. وفي عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) سيطر الأسطول البيزنطي على موانئ كوركس وسلوقية، ووضع فرقة من الفرسان في كيليكية لكي تتعرَّض لاتصالات بوهيموند البحرية. وكان الاستيلاء على قبرص والموانئ المحيطة بها قد أعطى البيزنطيين قواعد بحرية ذات مواقع «استراتيجية»، ما شكل خطراً على أنطاكية، وبات الامبراطور البيزنطي يُشرف بعد سيطرته على اللاذقية التي تقع إلى الجنوب من أملاك بوهيموند، على وادي نهر العاصي وبالتالي يُهدِّد بوهيموند ويحول بينه وبين التوسع، لذلك ما إن غادر الأمراء الصليبيون أنطاكية في طريقهم إلى بيت المقدس حتى هاجمها بوهيموند وحاصرها (في أواسط ٤٩٢هـ/ صيف ١٠٩٩م). ووصل في هذه الأثناء أسطول بيزي كبير إلى هناك يتكوَّن من مائة وعشرين سفينة، وعلى الرغم من أن مهمته كانت دعم الصليبيين ضد المسلمين والحصول على تنازلات تجارية من خلال الاستيلاء على الموانئ الشامية إلا أنه قام أيضاً بأعمال عدائية ضد البيزنطيين. وكان دايمبرت رئيس أساقفة بيزا هو الشخصية المسيطرة على هذا الأسطول، وعندما اتهم بوهيموند البيزنطيين المقيمين في اللاذقية بالعداء للصليبيين حالفه دايمبرت في حصار اللاذقية. والواضح أن أبناء بيزا هم أول من أدركوا حاجة الصليبيين في الشرق إلى مساندة بحرية في عملياتهم لاحتلال موانئ بلاد الشام، فجهَّزوا الأسطول الذي استخدمه دايمبرت كأداة سياسية[(١)].

ووصل في شهر (شوال/ أيلول) ثلاثة من قادة الحملة الصليبية على رأس قواتهم في طريق العودة إلى الأوطان بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين وهم: ريموند الصنجيلي وروبرت النورماني وروبرت كونت فلاندر، فاحتجوا بعنف على مهاجمة إخوانهم من المسيحيين، وهذا دليل على رغبتهم في الحفاظ على خطة البابا أوربان الثاني لتحقيق المصالحة مع الكنيسة الشرقية، مع الوفاء بقسمهم لألكسيوس كومنين، فتخلَّى دايمبرت عند ذلك عن تحالفه مع بوهيموند ما اضطره إلى فك الحصار عن اللاذقية، وكان لريموند دافع آخر ألا وهو إحراج خصمه التقليدي بوهيموند[(٢)].

---

(١) ماير: ص١٠٢ .Albirt d'Aix: pp561-566. Heyd, W: Histoire du Commerce du Livant: I p135

(٢) فنك: ص٦٦، ٦٧ .Albirt d'Aix: p605

تنصيب دايمبرت بطريركاً على بيت المقدس

أعاد بوهيموند نفوذه وسلطانه على المندوب البابوي دايمبرت، ومضى وإياه إلى بيت المقدس لتأدية الحج شأنه في ذلك شأن سائر الصليبيين، وكان لا بد من أن يفكر في مستقبل بيت المقدس إذ لم يكن لغودفري دي بوايون وريث شرعي، فإذا تعرَّضت صحته للتدهور يصح للمندوب البابوي عندئذ الإشراف على ولاية الحكم، لذلك من الأفضل له ومن دواعي الحكمة أن يطَّلع على شؤون بيت المقدس عن كثب. ولما علم بلدوين كونت الرها بالأمر نهض لمرافقتهما، فهو أيضاً شديد الاهتمام بأمر وراثة الحكم في بيت المقدس بفعل أنه شقيق غودفري دي بوايون، وهو أقرب الناس إليه في الشرق(١).

سُرَّ غودفري دي بوايون لقدومهم لأنه كان بحاجة ماسَّة إلى قوة بشرية، إذ كان لبوهيموند جيش يُحسب حسابه ولدايمبرت أسطول يُقدم خدماته عند الحاجة في حين كان غودفري دي بوايون ضعيفاً في البر والبحر، وكان يأمل في إقناع كثير من أتباعهما في البقاء في فلسطين مقابل أن يبذل لهم الضياع الواقعة تحت سيطرته، وقد أصاب بعض النجاح في ذلك، إذ عندما عاد بوهيموند وبلدوين إلى الشمال بقي عدد من أتباعهما في بيت المقدس.

وأثار بوهيموند ودايمبرت أثناء وجودهما في فلسطين قضية بطريركية بيت المقدس، وكان قد تمَّ اختيار أرنولف مالكورون التشيكي قسيس الدوق روبرت النورماني بطريركاً في (١١ رمضان ٤٩٢هـ/ ١ آب ١٠٩٩م) بفعل تأثير الأمراء المقربين من غودفري دي بوايون، حيث عُدَّ ذلك خرقاً لاعترافات رجال الدين الذين شعروا بأن البطريرك يجب أن يكون له ترتيب وظيفي رسمي في دويلة كُرِّست من أجل الضريح المقدس، وأصرَّا على تنحية أرنولف.

ومن الواضح أن دايمبرت أخذ الأمور على عاتقه، إذ أنه لم يُرسَل كممثل للبابا ليكون بطريركا في المستقبل، وقد دعمه أمران هما الأسطول البيزي وقوات بوهيموند المسلحة. ونتيجة لذلك خُلع أرنولف وحلَّ مكانه دايمبرت البيزي، وهو أول بطريرك لاتيني يتولى رئاسة كنيسة القدس. وقام دايمبرت بعد ذلك بتنصيب غودفري دي بوايون على بيت المقدس، كما سمح بوهيموند أن يتولى البطريرك الجديد منصبه على أنطاكية، فأصبحا بذلك من أتباعه، ولم يَحْذُ بلدوين أمير الرها حذوهما(٢).

---

(١) يذكر فولشر الشارتري أن عدد الذين رافقوا حملة الحج هذه بلغ خمسة وعشرين ألفاً من الرجال والنساء، مشاة وفرسان: ص٨١.

(٢) المصدر نفسه. فنك: ص٦٩.

الواقع أن ذلك اقترن بمزايا لبوهيموند، منها:

- حصوله على لقب أمير أنطاكية ليكون مقبولاً في العالم اللاتيني، لأنه شعر أن مكانته موضع مساومة لأنه يحكم أنطاكية بدون أساس قانوني بسبب خرقه العهد الذي أقسمه للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين بإعادة أنطاكية إليه.

- إبعاد سلطة دايمبرت الطموح عن أنطاكية، والواقع أن هذه السلطة تبقى ضئيلة جداً طالما أنه بطريرك بيت المقدس[(١)].

وعاد بوهيموند إلى أنطاكية مطمئناً في (١٥ ربيع الآخر ٤٩٣هـ/٢١ شباط ١١٠٠م)، وغادر بلدوين إلى الرها في الوقت نفسه[(٢)]. ولا توجد أي نصوص تشير إلى انحيازه إلى غودفري دي بوايون ضد بوهيموند ودايمبرت ربما لأنه لم يكن من القوة كي يعارض ذلك، ولا توجد كذلك أي إشارة إلى أنه قدَّم الطاعة لدايمبرت لأنه لا يعود عليه أي فائدة من ذلك، وقد أُعطي أرنولف ما يواسيه حيث أصبح يتقلَّد منصباً مهماً هو رئيس شمامسة الضريح المقدس[(٢)].

بوهيموند يتوسَّع فيما وراء نهر العاصي

نهض بوهيموند بعد عودته من رحلة الحج لتوسيع أراضي إمارته، فاستطاع أن يُثبِّت أقدامه في الطرف الجنوبي الشرقي الواقع وراء نهر العاصي ويتوسع على حساب الأمراء المسلمين المجاورين لإمارته، وبدأ بمهاجمة أفامية في حوض نهر العاصي في (رجب ٤٩٣هـ/أيار ١١٠٠م) وكانت تابعة للأمير العربي سيف الدولة خلف بن ملاعب الذي كان على عداء مع جيرانه من الأمراء المسلمين وبخاصة بني منقذ في شيزر، وربما ظن أن تلك النزاعات من شأنها أن تساعده على تحقيق أطماعه، ولكنه لم يكد يصل إلى أفامية حتى جوبه بمقاومة ضارية فعاد أدراجه إلى أنطاكية بعد أن أفسد زرعها[(٣)].

ويروي ابن العديم أن بوهيموند هاجم أراضي سلاجقة الشام، وردَّ رضوان صاحب دمشق على هذا الهجوم الصليبي بغزو الأثارب بين حلب وأنطاكية في (آخر رجب/ ١٠ حزيران) وحاصرها أياماً، لكن بوهيموند أحبط هجومه هذا، فتركها وتوجَّه نحو كلَّا[(٤)] لطرد الصليبيين منها، علماً بأن بوهيموند كان يسيطر على قلاع

---

(١) ماير: ص١٠٢. فنك: ص٧٠.

(٢) فولشر الشارتري: ص٨٣، ٨٤. فنك: المرجع نفسه.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٢٣.

(٤) كلّا: مكان شرقي العاصي في منتصف الطريق بين حلب وأنطاكية.

عدة في المنطقة منها زردنا وسرمين بالإضافة إلى كلّا، فخرجت الحاميات الصليبية من تلك المراكز وطاردت رضوان وهزمته في (٢٥ شعبان/ ٥ تموز) واستباحت عسكره وقتلت منهم عدداً كبيراً، وأسرت قرابة خمسمائة من بينهم بعض الأمراء[١]. لم يسع رضوان بعد الهزيمة إلا أن يلتمس المساعدة من جناح الدولة حسين أمير حمص، من دون أن يُقدِّر مدى ما تُسببه استعانته بذلك الأمير العربي ذي الإمكانات المحدودة من مساس بمكانة السلاجقة وهيبتهم[٢].

لبَّى جناح الدولة حسين نداء الاستغاثة، فجاء إلى حلب لمساعدة رضوان، لكنه عومل بالمهانة وعدم التقدير ما جعله يعود بسرعة إلى حمص وهو يتوعد رضوان بالانتقام[٣].

وإذ أدرك بوهيموند أن العلاقة بين حلب وحمص لم تكن من القوة ما تثير مخاوفه، قام بعملية ارتدادية إلى بلد الجزر، فاحتل كفرطاب وبرج الحاضر وسيطر على معظم المناطق المحيطة بحلب باستثناء تل منس التي استردها جناح الدولة حسين[٣]، وعسكر في (رمضان/ تموز) في المشرفة من الجانب القبلي على نهر قويق، ومن هناك أخذ يراقب الموقف عن كثب ثم ألقى الحصار على حلب، وحتى يشدِّد الحصار عليها، عمد إلى تحويل الكثبان القريبة منها، التي كانت مدافن للمسلمين، كالحيف والدكة وقرنبيا، إلى حصون تحيط بها وتُهددها، فتسقط عند ذلك في يده[٤]. وكان بإمكانه اقتحام المدينة والاستيلاء عليها نظراً لتداعي قوة رضوان، إلا أنه لم يُنقذه ومدينته من السقوط سوى مهاجمة كمشتكين غازي الدانشمندي مدينة ملطية، فاستغل حاكمها جبريل الأرمني وجود بوهيموند قرب مرعش والتمس المساعدة منه ضد كمشتكين[٥].

والواقع أن بوهيموند حرص، وهو في أوج صراعه مع البيزنطيين من أجل السيادة على أنطاكية، على السيطرة على دروب جبل اللكام التي يصح أن تجتازها أي حملة بيزنطية تقصد مهاجمة أنطاكية، لذا استجاب لالتماس المساعدة المقدم من قِبل جبريل، ففكَّ الحصار عن حلب وتوجَّه إلى ملطية لمقاومة الحصار الدانشمندي[٦].

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٦، ٣٥٧. العظيمي، محمد بن علي: تاريخ العظيمي، في كتاب الحروب الصليبية، تحقيق الدكتور سهيل زكار: جـ٢ ص٣٦٤.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه: ص٣٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) رنسيمان: جـ١ ص٤٧٣.

بوهيموند يقع في أسر المسلمين

حدث في (أواخر ٤٩٣هـ/ صيف ١١٠٠م) أن وقع بوهيموند في أسر المسلمين وكان لذلك علاقة بمهاجمة الدانشمنديين الأتراك مدينة ملطية. فقد تجدَّدت في هذه السنة محاولات كمشتكين أحمد الدانشمندي صاحب سيواس لفتح ملطية، فالتمس حاكمها الأرمني جبريل المساعدة من بوهيموند، كما ذكرنا، وتعهد له بتسليمه المدينة إذا استطاع إنقاذها، فنهض الأمير الصليبي لمساعدته[١]، وهو يُدرك أهمية الأرمن والدور الذي يمكن أن يقوموا به في القضايا المتعلقة بتاريخ المنطقة، وبخاصة في الأزمة بينه وبين الامبراطورية البيزنطية، معتقداً أن النورمان والأرمن تجمعهم مصلحة مشتركة هي العداء للبيزنطيين والأتراك المسلمين[٢].

أسرع بوهيموند لنجدة ملطية في (ذي القعدة/ أيلول) على رأس خمسمائة فارس، وهو عدد صغير لا يكفي للوقوف به في وجه جموع الأتراك[٣]، بدون اكتراث للكمائن التركية التي نصبوها للإيقاع به بعد أن علموا بوجهته بواسطة الجواسيس، وقد صحبه ابن عمه ريتشار أمير سالرنو، ولم يلبث أن وقع في إحدى هذه الكمائن في أرض مرعش، وانتهى الأمر بأسره مع ابن عمه من قِبل كمشتكين أحمد، فنقلهما إلى قلعة نيكسار التي تقع في أقصى الشمال الشرقي لآسيا الصغرى قرب شواطئ البحر الأسود[٤].

وأرسل بوهيموند عندما أدرك أنه واقع في الأسر، رسالة إلى بلدوين الثاني أمير الرها يستنجد به. لم يتردد هذا الأخير الذي كان أكثر اهتماماً بسلامة إمارات الصليبيين، بالخروج على رأس قوة عسكرية قاصداً ملطية، ولما علم الأمير الدانشمندي باقترابه رأى من الحكمة أن ينسحب عائداً إلى بلاده بما يحمله من غنائم وأسرى[٥] حتى لا يقع بين فكي الكماشة، عاقداً العزم على مهاجمة ملطية في فرصة أخرى أكثر ملاءمة، وهذا دليل على وعي سياسي في التخطيط العسكري لدى أتراك آسيا الصغرى بعامة.

---

(١) ابن العبري: ص١٢٥. Mathew of Edessa: I p51.

(٢) Grousset: I p378.

(٣) يُقدر ابن الأثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف، وهو عدد مبالغ به كما يبدو من تطورات الأحداث التي أدت إلى أسره. الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٤٣٨.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٢٣، ٢٢٤. ابن الأثير: المصدر نفسه. فولشر الشارتري: ص٨٤، ٨٥ Albirt d’Aix: p525.

(٥) فولشر الشارتري: ص٨٥. Albirt d’Aix: p525.

اقتفى بلدوين أثر كمشتكين أحمد دانشمند إلى الجبال وهو يُمني النفس بالقبض عليه وتدمير قوته العسكرية. ولما كان هذا الأخير قد توغَّل بعيداً داخل البلاد، خشي بلدوين الثاني من متابعة مطاردته حتى لا يقع في كمين، فتوقف عن المطاردة، وعاد إلى ملطية، فأعلن جبريل تبعيته له، ثم غادرها عائداً إلى مركز إمارته في الرها بعد أن ترك فيها حامية عسكرية قليلة العدد للدفاع عنها، غير أن تلك الحامية لم تكن كافية لحماية المدينة من هجمات الدانشمنديين(١).

نيول وقوع بوهيموند في أسر المسلمين

جاء وقوع بوهيموند في الأسر بمثابة كارثة للصليبيين بفعل نشاطه وبلائه في حرب المسلمين، ما حمل أحد مؤرخي الأرمن على القول إن اسم بوهيموند كان يثير الرعب في قلوب المسلمين حتى خراسان(٢). وفي المقابل، أثارت حادثة الأسر موجة من الحماس في صفوف المسلمين ظهر أثرها في النكسة التي مُني بها الصليبيون، من ذلك أن النورمان أتباع بوهيموند أسرعوا عقب ذلك إلى الانسحاب من إقليم حلب، في حين تشجَّع رضوان فأغار على مزارع الغلال المجاورة متخذاً معسكره قرب سرمين، واستردَّ جناح الدولة حسين قلعة أسفونا الواقعة غرب سرمين وشمال معرة النعمان(٣).

على أن تصدع المسلمين وانشقاقهم آنذاك حال دون قيامهم بعمل موحَّد وحاسم ضد الصليبيين، إذ إن النزاع سرعان ما دبَّ بين رضوان وجناح الدولة حسين بسبب الاختلاف العنصري والمذهبي. فقد كان رضوان تركياً في حين كان جناح الدولة حسين عربياً، وفي الوقت الذي كان فيه الأول آنذاك متشيعاً إسماعيلي المذهب(٤)، كان الثاني سنياً، ولعل هذه النعرة هي التي دفعت جناح الدولة حسين إلى مهاجمة رضوان في معسكره قرب سرمين، فلم يسع هذا إلا الفرار تحت ضغط القتال، ووقع وزيره أبو الفضل بن الموصول في الأسر، ثم إن تعاطف رضوان مع الحشيشية(٥)

---

(١) فولشر الشارتري: ص٨٥.

(٢) Mathew of Edessa: p52.

(٣) ابن العديم: جـ١ ص٣٥٨.

(٤) إن تأثر رضوان بالدعوة الفاطمية وميله للفاطميين كان سياسياً ومرحلياً، وقد دامت الدعوة للمستعلي الفاطمي على منابر حلب من (١٧ رمضان ٤٩٠هـ/ ٢٨ آب ١٠٩٧م) حتى (رجب ٤٩٢هـ/ حزيران ١٠٩٩م).

(٥) انقسمت الطائفة الإسماعيلية الشيعية المذهب بعد وفاة الإمام الفاطمي المستنصر بالله في عام (٤٨٧هـ-١٠٩٤م) إلى فرقتين: النزارية التي تمسَّكت بإمامة ابنه نزار، والمستعلية التي سارت وراء ابنه الآخر المستعلي، وساند الحسن بن الصباح، الذي كان موجوداً آنذاك في مصر، =

وتشجيعه المتزايد لهم، ومساعدته لدعاتهم في نشر الدعوة، وتعيينهم في المناصب العليا في الدولة؛ قد أفسد علاقته بجناح الدولة حسين. ولم يستطع رضوان أن يتغاضى عما حلَّ به قرب سرمين، لذلك تظاهر بمصالحة جناح الدولة حسين ودعاه لزيارة حلب، وهناك غدر به بالاتفاق مع الحشيشية كما ذكرنا.

تانكريد يتولى الوصاية على أنطاكية

أثار ما حدث من هزيمة بوهيموند ووقوعه في الأسر، الخوف والقلق في نفوس أمراء أنطاكية الصليبيين، وتركت فراغاً كبيراً في شمالي بلاد الشام لا سيما وأن بلدوين الثاني أمير الرها ما لبث أن استُدعي هو الآخر إلى بيت المقدس ليرث أخاه غودفري دي بوايون في الحكم، فكان الصليبيون في أنطاكية بحاجة إلى رجل قوي يملأ الفراغ الذي تركه بوهيموند فوجدوا ضالتهم في ابن أخته تانكريد الذي بدا المرشح الوحيد الذي يُحقق ذلك، فاستدعوه من الجليل للقيام بالوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله. وجاء هذا العرض في الوقت الذي ساءت فيه علاقته ببلدوين الأول ملك بيت المقدس، فشكَّل مخرجاً لكليهما من واقع أن الملك بلدوين الأول يكون قد تخلَّص من أخطر أتباعه في فلسطين، في حين سُرَّ تانكريد لأنه تخلَّص من موقف أثار قلقه وحيرته وفتح له مجال التحرك المستقل، على أنه اشترط حين غادر فلسطين إلى أنطاكية في (جمادى الآخرة ٤٩٤هـ/ آذار ١١٠١م) أنه في حال عودة خاله بوهيموند من الأسر في خلال ثلاث سنوات، ولم تعد أنطاكية بحاجة إليه، فينبغي أن يردَّ إليه الملك بلدوين الأول إقطاعه في الجليل، ولذا كان من مصلحة الرجلين ألا يجري الإسراع بإطلاق سراح بوهيموند من الأسر، وبالتالي لم تقم أي محاولة للتفاوض مع آسره من أجل هذه الغاية[1].

وهكذا ترك تانكريد إقطاعه في الجليل وتوجَّه إلى أنطاكية ليتسلم مهمته الجديدة.

وحرص تانكريد أن يكون أميناً في وصايته ويتقيد بنظام الوصاية، لذلك لم يتخذ

= نزاراً ثم غادر البلاد إلى الشام بعد أن تعرَّض للمضايقة، ومنها ذهب إلى فارس، فاستقر في قلعة ألموت وأخذ يدعو إلى إمامة نزار، وسُمي أتباعه بالإسماعيليين النزاريين، كما سُموا بالباطنية بفعل تفسيرهم تعاليم الشريعة تفسيراً باطنياً، كما سُموا بالحشيشية لأنهم على ما يبدو كانوا يتعاطون بالأعشاب (الحشائش) ليصنعوا منها مركبات دوائية، والشائع أن الحسن بن الصباح كان يُعطي أتباعه الحشيش ثم يُرسلهم بمهمات انتحارية لقتل أعداء الطائفة بعد أن يسري مفعوله عليهم.

(١) فولشر الشارتري: ص١١٣. الصوري، وليم: جـ١ ص٤٨٨، ٤٨٩. رنسيمان: جـ٢ ص٥٧. يذكر فنك أن تانكريد احتفظ بحقه في استعادة إقطاعه بعد خمسة عشر شهراً. انظر: تأسيس الإمارات اللاتينية: ص٧٣.

لقب أمير أنطاكية، وضرب على النقود التي سكَّها لقب «خادم الله» وأطلق على نفسه «الأمير الكبير» ليتميز عن باقي أمراء الإمارة. والواقع أنه لم يكن باستطاعته أن يتصرف غير ذلك، فلا زال النورمان يعدُّون بوهيموند زعيماً لهم[١].

وانتهج تانكريد في سياسته الداخلية ما رسمه بوهيموند، فعمل على تنظيم الإمارة وتركيزها، وتخلَّص من أنصار بلدوين دي بورغ وأنصار بوهيموند ليجعل نفسه في وضع أكثر أمناً في أنطاكية، وصبغ كنيستها بالصبغة اللاتينية الكاثوليكية علماً بأن بوهيموند كان قد طرد قبل وقوعه في الأسر البطريرك الأرثوذكسي حنا أوزكيت وعيَّن أحد أصدقائه المخلصين، وهو البطريرك اللاتيني برنارد ڤلنس أسقف أرتاح، بطريركاً على كنيسة أنطاكية.

وحرص تانكريد في سياسته الخارجية على التوسع على حساب البيزنطيين بفعل العداء التقليدي بينهم وبين النورمان، بالإضافة إلى التوسع على حساب المسلمين. ولما كان بحاجة إلى قوة تسانده وتشد أزره، فقد عقد اتفاقاً مع الجنويين منحهم بموجبه ثلث دخل ميناء السويدية وشارعاً في أنطاكية يمارسون فيه نشاطهم التجاري، ووعدهم بمنحهم نصف دخل ميناء اللاذقية في حال انتزعه من أيدي البيزنطيين.

وبناء عليه تقوم سياسة تانكريد الخارجية على دعامتين:

الأولى: الاستيلاء على اللاذقية وكيليكية وانتزاعهما من أيدي البيزنطيين.

الثانية: الاستيلاء على الجزء الأوسط من وادي نهر العاصي وانتزاعه من سلاجقة حلب وأتباعهم[٢].

تانكريد يتوسَّع على حساب البيزنطيين

لعل أول عمل أقدم عليه تانكريد بعد تسلمه حكم أنطاكية هو حماية الإمارة من خطر البيزنطيين الذين لم يُسامحوا النورمان بفعل استيلائهم على المدينة التي كانت فيما مضى من أملاكهم، لكن ظروف الامبراطورية كانت آنذاك في وضع لا يسمح لها بالمغامرة في إرسال جيش إلى الجنوب الشرقي، كيليكية وشمالي بلاد الشام، عبر آسيا الصغرى بعد الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في مرسيفان عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) وتنامي قوة الأتراك في الأناضول.

استغل تانكريد هذا الظرف وأرسل عساكره إلى كيليكية لاسترداد المصيصة وأذنة وطرسوس، وهي المدن الرئيسة في ذلك الإقليم التي احتلها البيزنطيون منذ ثلاث

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص٥٨.

(٢) عاشور: جـ١ ص٣٩٠. Grousset: I p383.

سنوات، ولم تكن الحاميات البيزنطية من القوة ما تكفي للمقاومة ما أتاح لتانكريد أن يستولي عليها في (أوائل ذي الحجة/أواخر أيلول)[1].

توجَّه تانكريد بعد ذلك إلى اللاذقية ليبدأ حصارها، وهي الميناء الذي تطلع إليه النورمان للاستيلاء عليه منذ زمن طويل، لتأمين واجهة بحرية لإمارة أنطاكية، لكن المدينة امتازت بقوة تحصيناتها فضلاً عن وجود قوة عسكرية بروڤنسالية تركها ريموند للاشتراك في الدفاع، وبعض قطع الأسطول البيزنطي في مياهها الأمر الذي أطال مدة حصارها، وتتطلب من تانكريد بذل جهود إضافية للاستيلاء عليها. وقام في تلك الأثناء بمحاولة فاشلة للاستيلاء على جبلة الواقعة إلى الجنوب من اللاذقية، وكانت آنذاك تحت حكم بني عمار[2].

كان ريموند آنذاك غائباً عن بلاد الشام، يرافق الحملة اللمبادرية في شمال شرقي الأناضول، ما أعطى تانكريد فرصة طيبة لمواصلة الحصار وهو مطمئن، لكن لم يكد ينتهي من مهمته هناك حتى عاد إلى السويدية، فقبض عليه تانكريد وسجنه في قلعة أنطاكية[3].

الواضح أن حرص تانكريد على اعتقال ريموند نابع من تخوفه من أن ينتهز فرصة أسر بوهيموند فيطالب بحقه في أنطاكية، فضلاً عن تهديده مشروع تانكريد الخاص بالاستيلاء على اللاذقية، وارتاع البطريرك برنارد وأتباع ريموند من هذا السلوك، وبناء على طلبهم أطلق سراحه في عام (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م) إلا أنه اشترط عليه أن يحلف له بأن لا يتدخل في شؤون شمالي الشام، ويتخلَّى عن مطالبه فيها، ففعل[4].

وتوجَّه ريموند بعد إطلاق سراحه صوب الجنوب، فهاجم أنطرطوس، وتنفيذاً ليمينه أجلى عساكره عن اللاذقية، فبقيت الحامية البيزنطية فيها من دون مساعدة البروڤنساليين، وكان الأسطول البيزنطي يمدها بالمؤن.

وشدَّد تانكريد حصاره على المدينة بمساعدة الجنويين الذين قطعوا المواصلات بينها وبين جزيرة قبرص ما أدَّى إلى سقوطها بيده في شتاء (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) بعد حصار دام أكثر من سنة[5]. وبذلك حصلت أنطاكية على واجهة بحرية عريضة فضلاً عن ميناء بحري يربطها بالغرب الأوروبي.

واستأنف تانكريد سياسة خاله الكنسية، فحرص على استبدال رجال الدين

---

(١) Albirt d'Aix: p582.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٢٦.
(٣) Albirt d'Aix: p582.
(٤) Ibid.
(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٠٧. فولشر الشارتري: ص١٣٠.

الأرثوذكس بغيرهم من الكاثوليك ما أثار غضب الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين والكنيسة الأرثوذكسية.

وحاول تانكريد التدخل في شؤون مملكة بيت المقدس، وظهر ذلك واضحاً إثر هزيمة بلدوين الأول أمام الفاطميين في معركة الرملة الثانية، وبفعل ما اشتهر به نتيجة الانتصارات جعلت له كلمة مسموعة في بيت المقدس، ذلك أنه في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) أمر ملك بيت المقدس بلدوين الأول بنفي البطريرك دايمبرت، فرحَّب به تانكريد في أنطاكية وعيَّنه على كنيسة القديس جورج. وعندما تعرَّض بلدوين الأول للهزيمة المشار إليها التمس المساعدة من أمراء الشمال، فامتنع تانكريد عن النهوض لمساعدته مشترطاً عليه أن يعيد دايمبرت إلى بطريركية بيت المقدس، فوافق بلدوين الأول على ذلك ما زاد في شهرة تانكريد بين الصليبيين.

ولم يُتح لتانكريد أن يقوم بالتوسع على حساب المسلمين في الجزء الأوسط من وادي نهر العاصي بفعل إطلاق سراح بوهيموند الذي سيأخذ على عاتقه محاولة ذلك.

إطلاق سراح بوهيموند من الأسر

ارتاب زعماء الصليبيين في كل من إمارة أنطاكية وإمارة الرها في أطماع تانكريد الذي نُصِّب وصياً على إمارة أنطاكية بعد أسر خاله بوهيموند، وذلك حين حاول التدخل في الشؤون الداخلية للإمارتين، ما هدَّد أنطاكية بحرب أهلية، ولم يجد بلدوين أمير الرها سبيلاً لمنع ذلك سوى إطلاق سراح بوهيموند وإعادته إلى إمارته، لذلك أجرى مباحثات مع كمشتكين أحمد دانشمند لإطلاق سراحه اشترك فيها برنارد بطريرك أنطاكية.

ويبدو أن نبأ المفاوضات وصل إلى مسامع الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، فتدخَّل في القضية بهدف فضِّ التحالف بين السلطان قلج أرسلان الأول السلجوقي وكمشتكين أحمد ومعاقبة بوهيموند الذي نكَّل باتفاقية القسطنطينية عندما احتفظ بأنطاكية لنفسه ولم يُسلمها إليه، والواقع أنه أراد أن يعاقب النورمان من خلاله مستغلاً الظروف التي أعقبت فشل جموع الصليبيين في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، فعرض على الأمير الدانشمندي مبلغاً سخياً قدره مائتان وستون ألف دينار مقابل تسليمه بوهيموند(١).

وصل نبأ هذا العرض المغري إلى مسامع السلطان قلج أرسلان الأول، فطلب

---

(١) ابن القلانشي: ص٢٣١. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧٥. ابن العبري: ص١٢٦.

من كمشتكين أحمد أن يعطيه نصف المبلغ بوصفه سيداً على جميع الأتراك في آسيا الصغرى من ناحية، وثمناً للمساعدة التي قدَّمها له في العام المذكور ضد اللمبارديين من جهة أخرى، رفض الأمير الدانشمندي هذا الطلب وتراجع عن قبول العرض البيزنطي حتى لا يشاركه الزعيم السلجوقي نصف الفدية.

ويبدو أن بوهيموند علم وهو في الأسر بهذه المفاوضات، فأرسل إلى كمشتكين أحمد يُذكِّره بأن كلاّ من السلطان السلجوقي والامبراطور البيزنطي عدو مشترك لهما، وأن مصلحتهما تتطلَّب منه أن يُطلق سراحه من دون أن يُسلِّمه لأحد، ويتعهد في هذه الحال أن يحالفه ضدهما، واستطاع أن يُقنع آسره بفائدة تحالفه مع الصليبيين في أنطاكية ضد العدو المشترك، فوافق كمشتكين أحمد على إطلاق سراحه مقابل الحصول على مائة ألف دينار[١].

وصل بوهيموند إلى أنطاكية في (شعبان ٤٩٦هـ/ أيار ١١٠٣م)، فاستُقبل استقبالاً حاراً بعد أن غاب عنها مدة ثلاث سنوات فتولى من جديد مقاليد الحكم بها، وأثنى على ابن أخته تانكريد وعلى إخلاصه وأمانته على الرغم من التباين الذي ظهر بينهما. فقد أراد تانكريد أن يحتفظ بالأماكن التي سيطر عليها بجهده أثناء أسر خاله، كما أنه لم يشترك في افتدائه، لكن هذا التباين ظل خفياً ولم ينكشف أمام الناس، واضطر تانكريد أن يتعاون مع خاله تحت تأثير الضغط الشعبي، واكتفى خاله بمنحه إقطاعاً صغيراً في إمارة أنطاكية[٢].

نشاط بوهيموند العسكري بعد إطلاق سراحه

احتلال مرعش: الواضح أن إطلاق سراح بوهيموند من الأسر وعودته إلى أنطاكية جاء كارثة على المسلمين، إذ «قويت نفوس أهلها به»[٣] ودبَّ النزاع بين السلاجقة والدانشمنديين في آسيا الصغرى، واستأنف نشاطه العدائي ضد البيزنطيين والمسلمين.

وكان الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين قد أرسل إلى بوهيموند عقب إطلاق سراحه يطلب منه إعادة أنطاكية إلى أحضان الامبراطورية وفقاً لاتفاقية القسطنطينية، إلا أنه رفض ذلك، فلم يسع الامبراطور إلا أن يُرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٣١. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧٥. ابن العيري: ص١٢٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه. Radulph of Caen: Gesta Tancredisici lae Regis in Expeditione Hiero lymitana. In R.H.C occ: III p609.

بوتوميتس، سارت بحذاء الساحل الغربي والجنوبي في طريقها إلى كيليكية لانتزاع المصيصة وأذنة وطرسوس من أيدي النورمان، لكن الحملة فشلت في مهمتها، فقد رأى القائد البيزنطي أن ليس بوسعه استرداد هذه المدن، وعلم وهو هناك أن الصليبيين ينوون التوسع شمالاً بمهاجمة مرعش، التي يتولى حكمها ثاتول الأرمني باسم الامبراطور البيزنطي، ما جعله يتوجه إليها لإنقاذها ومنع الصليبيين من احتلالها، غير أن الامبراطور استدعاه إلى القسطنطينية ما أتاح لبوهيموند وجوسلين دي كورتناي النائب عن بلدوين أمير الرها للزحف على مرعش، ولما كان ثاتول عاجزاً عن الدفاع عنها منفرداً، فقد سلَّمها إلى جوسلين الذي استولى عليها باسم أمير الرها، في حين استولى بوهيموند على مدينة البستان الواقعة شمال مرعش[١].

واستأنف بوهيموند بعد عودته إلى أنطاكية، هجماته ضد المسلمين في حلب مستغلاً ضعف رضوان وعدم قدرته على الدفاع عن مملكته، وكان صاحب حلب قد عيَّن والياً جديداً على عزاز بعد مقتل واليها السابق عمر إثر عصيانه عليه، وهاجم هذا الوالي ناحية الجونة وهي من نواحي حلب، واصطدم بقوة عسكرية صليبية مشتركة من أنطاكية والرها[٢]، فردَّ بوهيموند بأن أغار على بلاد حلب بالاشتراك مع جوسلين دي كورتناي ووصل إلى المسلمية[٣] القريبة من حلب واستولى عليها، واعتدى جنوده على السكان، فقتلوا بعضهم، وفرضوا على من نجا أموالاً باهظة، جرى استخدامها في تسديد ما اقترضه بلدوين والبطريرك برنارد من أموال من الصليبيين لافتدائه[٤] وعسكر في المنطقة أياماً عدة، وأرسل إلى رضوان في أمر الصلح[٥].

ويبدو أن رضوان وجد نفسه في موقف حرج يصعب معه مقاومة الصليبيين، لذلك وافق على الصلح واتفق مع بوهيموند على أن يدفع له غرامة مقدارها سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل مقابل وقف اعتداءاته وإطلاق سراح الأسرى المسلمين لديه باستثناء من أُسر على المسلمية من الأمراء[٦].

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدفع فيها رضوان غرامة حربية للصليبيين نتيجة ضعفه وعجزه عن مواجهتهم، وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر هؤلاء في شن الغارات على مملكة حلب. فقد خرج الصليبيون من تل باشر ودمَّروا الأجزاء

---

(١) Radulph of Caen: pp710-712. (٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٠.
(٣) المسلمية: تبعد عن حلب مسافة خمسة عشر كليومتراً إلى الشمال وتقع على نهر قويق.
(٤) يذكر ابن الأثير أنه ابتزَّ الأموال من العواصم ومن قنسرين وما جاورها: جـ٨ ص٤٧٥.
(٥) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٠. (٦) المصدر نفسه.

الشمالية والشرقية من حلب، وعاثوا فيها فساداً وتخريباً. وتكرَّرت هجماتهم، فاستولوا في إحدى الغارات على حصن بسرفوث[١] على الطريق الممتد من أنطاكية إلى حلب، غير أنهم فشلوا فيما قاموا به من محاولات للاستيلاء على كفرلاثا[٢] الواقعة جنوبي حلب، نظراً لما أبدته قبيلة بني عُلَيم من مقاومة عنيفة، فقد قام أفراد هذه القبيلة بهجوم مضاد على الصليبيين في كفرلاثا، فتراجعوا إلى بسرفوث. والواقع أن استيلاء الصليبيين على هذا الحصن أمر له أهميته لأنه يتحكم في الطريق بين حلب وأنطاكية[٣].

معركة البليخ أو حرَّان

استغل بلدوين الثاني دي بورغ صاحب الرها انقسام المسلمين على أنفسهم بفعل ما نشب من حروب بين السلطانين الأخوين بركياروق ومحمد في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) ليتوسع على حسابهم ويقطع الطريق بين حلب والفرات، على أن الاتصال بين المسلمين في بلاد الشام والمسلمين في العراق وفارس لم يكن ليُقطع فعلاً إلا إذا احتل الصليبيون حصن حرَّان المنيع في شمال الجزيرة الفراتية بين الرهاء ونهر الفرات[٤]، لذلك قام بحملته المشهورة على حرَّان في (شعبان ٤٩٧هـ/أيار ١١٠٤م)، ونظراً لأهمية الحملة فقد سانده جوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر وبوهيموند صاحب أنطاكية وابن أخته تانكريد، فضلاً عن عدد كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين[٥].

كان معنى استيلاء الصليبيين على حرَّان أنهم سيتمكَّنون من قطع الاتصالات بين المسلمين في العراق وفارس من جهة وبلاد الشام من جهة أخرى، فضلاً عن أن سقوطها في أيديهم سيمنحهم الفرصة لمهاجمة الموصل وتأمين السيطرة على إقليم الجزيرة الفراتية وقطع الاتصالات مع حلب[٦].

ويبدو أن الصليبيين أضاعوا وقتاً ثميناً أمام حرَّان لأنهم لم يحاولوا اقتحامها واكتفوا بحصارها حتى يضطرها الجوع إلى التسليم، ولم يعلموا أن جيشاً إسلامياً كبيراً كان في طريقه لإنقاذها وهو على وشك الوصول[٧].

---

(١) بسرفوث: حصن من أعمال حلب في جبال بني عُليم. الحموي: جـ١ ص٤٢٠.

(٢) كفرلاثا: بلدة ذات جامع ومنبر في سفح جبل عاملة من نواحي حلب بينهما يوم واحد. المصدر نفسه: جـ٤ ص٤٧٠.

(٣) Grousset: I p401.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٩٦.

(٥) فولشر الشارتري: ص١٣٢ Elisséeff: II p296.

(٦) Ibid.

(٧) الصوري، وليم: جـ١ ص٥١٣ ـ ٥١٦.

ذلك أن تهديد الصليبيين لحرَّان جعل اثنين من كبار قادة المسلمين، وهما جَكَرْمِش أتابك الموصل، وسكمان الأرتقي صاحب ماردين وديار بكر، يتناسيان ما بينهما من خلافات قديمة وأن يتَّحدا سوياً لمهاجمة الرها والتصدي للخطر الصليبي قبل أن يتعرَّضا لهجوم الصليبيين(١).

وخرج رضوان على رأس قواته من حلب إلى الفرات ليراقب تطور الأحداث عن كثب وانتظار ما يكون من خبر الصليبيين، ولم يشترك في القتال، ولا تشير المصادر عن سبب ذلك، وقد يكون للصراع، الذي كان محتدماً آنذاك بينه وبين جَكَرْمِش بشأن أتابكية الموصل، أثر في ذلك أو لعله أراد أن يُبقي على قواته سليمة لاسترداد ما فقده أمام الصليبيين إذا انتصر المسلمون، وهذا ما حصل كما سنرى، لكن موقفه هذا يبقى غريباً ولم يحل دون تهديده من قِبَل الصليبيين. ومهما يكن من أمر، فقد اجتمع جَكَرْمِش وسكمان على الخابور عند رأس العين، ثم توجَّها على رأس جيشهما المشترك البالغ عديده عشرة آلاف فارس، لمهاجمة الرها. ومن جهة أخرى احتشد الجيش الصليبي أمام حرَّان، ولم تلبث المعركة أن نشبت بين الطرفين في (رمضان/أيار) على ضفة نهر البليخ حيث انسحب المسلمون نحو فرسخين وفق خطة تكتيكية، فتبعهم الصليبيون، عندئذ كروا عليهم وهزموهم، ووقع بلدوين الثاني صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر في الأسر، ولاذ بوهيموند بالفرار(٢).

نتائج معركة البليخ أو حرَّان

كان لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي لعل أهمها:

- أوقفت زحف الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق وإتمام سيطرتهم على الجزيرة الفراتية.
- تلاشت أحلام بوهيموند في السيطرة على حلب وتحويل إمارة أنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى، عن طريق الاستيلاء على حلب.
- قرَّرت مصير إمارة الرها الصليبية التي تعرَّضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمراً من الحكم اللاتيني

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٩٦. ابن العديم: جـ١ ص٣٦١.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٣٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢١، ٢٢٢. فولشر الشارتري: ص١٣٢ ـ ١٣٤. الصوري، وليم: جـ١ ص٥١٣ ـ ٥١٦.

بفعل تعسُّف اللاتين مع الكنيسة الأرمنية واضطهاد رجالها، ما دفع الأرمن إلى الاتصال بالمسلمين، وأضحى احتمال سقوط هذه الإمارة وشيكاً[١].

ـ أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق وضُمَّت إلى إمارة أنطاكية، فاستردَّ رضوان القلاع والبلدات القريبة من حلب، وأرسل إلى أهل الجزيرة وقرى حلب الأخرى الواقعة تحت السيطرة الصليبية يطلب منهم القبض على من عندهم من الصليبيين، فانتفض سكان الفوعة وسرمين ومعرة مصرين وغيرهم، على حكامهم الصليبيين، حتى أن بعض هؤلاء الحكام طلبوا الحماية والأمان من رضوان، فأمَّنهم مع أُسرهم، كما استردَّ شمس الخواص، صاحب رفنية، صوران، الواقعة شرق شيزر، ولم تلبث حاميات المدن الموجودة في لطمين وكفرطاب ومعرة النعمان والبارة، أن هربت والتحقت بأنطاكية. وبذلك انكمشت حدود إمارة أنطاكية إلى القويق وبحيرة العمق بعد أن كانت تلك الحدود قد لامست مشارف حلب. واستردَّ رضوان أيضاً بالس والفايا، وتسلَّم حماة من سكانها الذين خشوا من سيطرة شمس الخواص عليها، والمسلمية، وكانت تابعة لجناح الدولة حسين؛ وعيَّن عليها نواباً من قِبله[٢].

ـ كثَّف رضوان هجماته على أنطاكية نفسها، وبلغ جسر الحديد على نهر العاصي، وكادت إمارة بوهيموند بأكملها أن تتعرض للخطر لو لم يحدث من وفاة دقاق صاحب دمشق حيث تحوَّل رضوان إلى الجنوب، وشُغِل بما وقع من النزاع على حكم مملكة دمشق بين ابن دقاق وبين عمه أرتاش[٣].

ـ أضحى تانكريد، بعد وقوع بلدوين الثاني في الأسر، وصياً على إمارة الرها، كما أضحى بوهيموند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

ـ لم تبلغ النتائج المباشرة للهزيمة من شدة الفاجعة ما يصح الخوف منها، إذ ما لبث النزاع أن دبَّ بين جَكَرْمِش وسكمان بسبب الأسرى والغنائم، فهاجمت قوات جَكَرْمِش السلجوقية خيمة سكمان وانتزعت منها بلدوين الثاني، غير أن سكمان آثر عدم الرد حتى لا يشمت المسيحيون بالمسلمين وانسحب إلى ماردين بعد أن أخضع بعض القلاع الصغيرة على الأطراف المسيحية، ولم يشترك بعد ذلك في الحرب[٤].

ـ كان من بين الأسرى المسلمين الذين وقعوا في يد تانكريد أميرة سلجوقية، وقد بلغ من تقدير جَكَرْمِش لهذه الأميرة أنه عرض افتداءها مقابل مبلغ خمسة عشر ألف بيزنت أو مبادلتها ببلدوين. وبلغ الملك بلدوين الأول في بيت المقدس نبأ هذا

---

(١) Mathew of Edessa: PP80, 81.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٦١، ٣٦٢.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٧٧، ٧٨.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٩٧.

العرض، فكتب إلى بوهيموند بألا يُفوِّت فرصة تحرير بلدوين الثاني من الأسر، غير أن إطلاق سراحه سوف يُخرج تانكريد من وظيفته كوصي على إمارة الرها ووافقه بلدوين، لذلك تمهَّلا بقبول العرض، ثم أدركا أن جَكَرْمِش ربما يزيد من مقدار الفدية، لذلك اتفقا معه على قبول تأدية المال(١).

خاتمة حياة بوهيموند

يبدو أن فشل بوهيموند في التصدي لهجمات رضوان صاحب حلب مردها إلى التفكير في أمور بيزنطية. فقد استغل الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين هزيمة بوهيموند في معركة البليخ وثورة الأرمن في كيليكية ضد الحكم النورماني، فأرسل حملة بحرية بقيادة كانتاكوزين تمكَّنت من استعادة اللاذقية والعديد من القلاع الساحلية حتى طرابلس، كما أرسل حملة برية بقيادة موناستراس استردَّت المدن الواقعة شرقي كيليكية، المصيصة أذنة وطرسوس(٢)، ولم يستطع بوهيموند التصدي للزحف البيزنطي وطرد البيزنطيين من مواقعهم لافتقاره إلى الرجال والقوة البحرية.

لم يسع صاحب أنطاكية الذي شعر بالإحباط أن يقف موقف المتفرج وهو يرى تدهور أوضاع إمارته التي جهد في بنائها وانهيارها التدريجي، نتيجة غزو البيزنطيين والمسلمين إلا العودة إلى أوروبا الغربية ليثير الرأي العام ضد البيزنطيين وتجنيد ما يحتاجه من الرجال والانتقام من الامبراطور البيزنطي، وعيَّن قبل رحيله ابن أخته تانكريد وصياً على أنطاكية أثناء غيابه لدرأ الخطر البيزنطي والإسلامي(٣).

أبحر بوهيموند في (أواسط ٤٩٨هـ/ أواخر ١١٠٤م) إلى إيطاليا وصحبه صديقه البطريرك دايمبرت، ووصل إلى إيطاليا في (أواسط ٤٩٨هـ/ أوائل ١١٠٥م)، ثم توجَّه إلى روما فاجتمع بالبابا باسكال الثاني، وأفضى إليه بأن الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين هو العدو الرئيس للاتين في الشرق، وإذ سبق للبابا أن تبنَّى رأي البطريرك مناسيس من قبل بشأن سياسة بيزنطية المعرقلة لجهود الصليبيين في الشرق، صدَّق كل ما تفوَّه به بوهيموند من آراء(٤).

الواقع أن رحلة بوهيموند إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا تحتل مكانة مهمة في حيِّز الحروب الصليبية، فبالإضافة إلى جمع المحاربين من البلدين المذكورين ومن

---

(١) Albirt d'Aix: pp619, 620.

(٢) The Alexiad: p365.

(٣) Mathew of Edessa: p260. Michel le Syrien Chronique: III p195. Vasiliev: II p410. Stevenson: p78.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٨١.

صقلية، لحرب المسلمين، أخذ يقوم بدعاية واسعة ضد الامبراطور البيزنطي ليصوره للعالم الغربي في صورة حليف للمسلمين والعقبة الرئيسة في وجه الصليبيين، وأن القضاء عليه هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين في بلاد الشام، وهي السياسة الرسمية التي وسمت الحروب الصليبية في بعض مراحلها بعد ذلك.

وما يكنُّه سكان الغرب الأوروبي وفرسانه من النفور للبيزنطيين بسبب تعاليهم فضلاً عن حسدهم لثرواتهم وارتيابهم فيما درج عليه المسيحيون في الشرق من ممارسة طقوس وشعائر لم يفهموها؛ أقرَّته الكنيسة الغربية، وتحقَّق للبيزنطيين أسوأ ما لديهم من مخاوف(١).

انتقل بوهيموند بعد ذلك إلى فرنسا، فاستقبله ملكها بالترحاب وسمح له بجمع المحاربين. وبعد أن جنَّد جموعاً غفيرة تُقدَّر بخمسة آلاف من الفرسان وأربعين ألفاً من المشاة من جنسيات متنوعة من الفرنسيين والإيطاليين والإسبان والإنكليز والألمان الذين شاركوه في نظرته العدائية للبيزنطيين؛ عاد إلى أبوليا، وتقرَّر أن تكون الامبراطورية البيزنطية وجهة الحملة(٢).

واختار بوهيموند أن يهاجم دورازو، وهي أقوى قلعة بيزنطية عند مدخل الأدرياتيكي، وتُعدُّ مفتاح البلقان. فنزل في أفلونا في (١٩ صفر ٥٠١هـ/ ٩ تشرين الأول ١١٠٧م)، وظهر أمام دورازو بعد أربعة أيام(٣).

استعد الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين لمواجهة الخطر النورماني، وضحَّى بحدوده الجنوبية الشرقية من أجل التفرغ لإنقاذ المدينة، فعقد صلحاً مع السلطان السلجوقي قلج أرسلان وحصل منه على قوة عسكرية(٤).

وقاومت دورازو الهجمات النورمانية براً وبحراً، وتمكَّن الامبراطور من إنزال الهزيمة بخصمه، ما اضطر بوهيموند في النهاية إلى الاستسلام وتوقيع صلح ديڤول مع الامبراطور الذي وضع شروطه، وذلك في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٨م)، وبمقتضى هذا الصلح:

- يُعرب بوهيموند عن ندمه لنقضه العهد الذي سبق أن بذله للامبراطور.
- أقسم بوهيموند بأن يُصبح تابعاً أميناً للامبراطور ولخلفائه ويعاونهم ضد أعدائهم.
- يُعيد بوهيموند للامبراطورية كل أراضيها القديمة بما فيها مدن كيليكية والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية.

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٨١.

(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٢٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٥٤.

- يبقى بوهيموند أميراً على أنطاكية، على أن يحكمها في ظل سيادة الامبراطور وتشمل أنطاكية ذاتها وميناءها السويدية، وما يقع إلى الشمال الشرقي حتى مرعش، يضاف إليها ما يستطيع الزعيم النورماني انتزاعه من أيدي المسلمين.

- يوافق بوهيموند على عزل البطريريك الكاثوليكي في أنطاكية وتعيين بطريركاً أرثوذكسياً محله.

- يتعهد بوهيموند بأن يحارب تانكريد ويعدَّه عدواً إذا رفض شروط الصلح(١).

تبدو أهمية صلح ديفول في أنه:

- كشف النقاب عن موافقة الامبراطور البيزنطي على مبدأ قيام إمارة أنطاكية الصليبية.

- بقاء أنطاكية نفسها تحت حكم بوهيموند والنورمان طالما يرتبطون برباط التبعية والولاء للامبراطور البيزنطي، وطالما استطاعت بيزنطية أن تحتفظ بسيادة غير مباشرة عن طريق الكنيسة.

- حرص الامبراطور ألكسيوس كومنين على مصالح الكنيسة الشرقية ورعاياه من المسيحيين الأرثوذكس، بل إنه أراد أن يكفل حقوق أتباعه الأرمن من أسرة روبين، وجاء تعيين بطريرك أرثوذكسي لأنطاكية بمثابة رد اعتبار للكنيسة الشرقية.

- على أن هذا الصلح يبقى من دون معنى طالما أن بوهيموند كان واثقاً من أن تانكريد لن يقبل بشروطه، غير أنه قضى على تطلعاته في الشرق إذ لم يجرؤ على أن يظهر مرة أخرى في ربوعه، فعاد إلى أبوليا ليقضي بقية حياته، وتوفي في (رمضان ٥٠٤هـ/آذار ١١١١م)، مخلفاً وراءه طفلين من زوجته الفرنسية ورثا كل ماله من حقوق في أنطاكية(٢).

---

(١) Yewdale: Bohemond Prince of Antioch: pp106-133. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٢٧. رنسيمان: جـ٢ ص٨٤، ٨٥. Alexiad: p416. Chalandon: p246.

(٢) يذكر وليم الصوري: جـ١ ص٥٢٨، أن بوهيموند خلف وراءه ابناً واحداً من زوجته الفرنسية كونستاس ابنة فيليب ملك فرنسا، وذلك ليكون وريثاً لاسمه وإمارته، لكن الواقع أنه ولد لبوهيموند ابن ثانٍ من هذه السيدة في عام ١١٠٩م. رنسيمان: جـ٢ ص٨٥، ٨٦.

أنطاكية في ظل حكم تانكريد وروجر

في ظل حكم تانكريد

الصراع بين تانكريد ورضوان حتى عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م

لم يأسف تانكريد لرحيل خاله عن الشرق كما لم يكن في نيته أن يُصبح من أتباع الامبراطور البيزنطي، وركَّز على إنشاء إمارة قوية مستقلة، غير أن مهمته كانت أصعب مما توقَّع، إذ لم يترك له خاله سوى عدد قليل من الرجال المحاربين كما لم يُبْقِ له شيئاً من المال، غير أنه ذلَّل ذلك بما انتزعه من قروض من تجار أنطاكية وأغنيائها استخدمها في تجنيد مرتزقة وطنيين، كما استدعى كل من يمكن الاستغناء عنه من فرسان من الرها وتل باشر فضلاً عن بلاد أنطاكية، ما أتاح له أن يتخذ خطة الهجوم.

واستعادت مملكة حلب في هذه الأثناء قوتها وهيبتها بعد استرداد رضوان المناطق المقتطعة، ورأى في نفسه القوة ما دفعه إلى تجديد غاراته على أنطاكية. وتلقَّى آنذاك رسالة من سكان أرتاح يُبدون رغبتهم بتسليم الحصن إليه، وهو ذو موقع مهم بالنسبة لأنطاكية، علماً أن الأرمن في أرتاح ثاروا على الحكم الصليبي نظراً لما لاقوه من اضطهاد وتعسف من هؤلاء، فأرسل نائباً عنه إلى الحصن وتسلَّمه[1]، كما تلقَّى رسالة من فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يطلب منه مساعدته ضد الصليبيين الذين كانوا يُحاصِرون طرابلس آنذاك بقيادة وليم جوردان.

استجاب رضوان لطلب المساعدة، فجمع قوة عسكرية كثيفة بلغ عديدها سبعة آلاف من الفرسان الأتراك والمشاة العرب، وخرج في (رجب ٤٩٨هـ/ آذار ١١٠٥م) يريد طرابلس، ولكنه اصطدم بالصليبيين قرب أرتاح. والواقع أن هؤلاء خشوا من ازدياد قوته وتوسعه، كما ازداد وضعهم سوءاً بتسلمه أرتاح، فقرَّروا استعادة الحصن.

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٢، ٣٦٣.

وقاد تانكريد قوة عسكرية خرجت من أنطاكية، وانضم إليه الصليبيون في النواحي، وتوجَّه نحو حصن أرتاح وحاصره وضيَّق على سكانه، فأرسل نائب الحصن إلى رضوان يشرح الموقف ويلتمس منه القدوم لنجدته، فعدل عندئذ عن المضي إلى طرابلس وتوجَّه بجيشه إلى قنسرين القريبة من حلب، فوصل إليها في (٣ شعبان/ ٢٠ نيسان) وعسكر بالقرب من المعسكر الصليبي. ويبدو أن تانكريد تهيَّب الدخول في معركة، فراسل رضوان طالباً الصلح، لكن صاحب حلب رفض طلبه بتأثير إصبهذ صباوة، وهو أحد قادته الذي حثَّه على ألا يتردد في الهجوم.

والتقى الجيشان بالقرب من قرية تيزين الواقعة شرق أرتاح، ودارت بينهما رحى معركة ضارية ثبت فيها مشاة رضوان في الوقت الذي لاذت فيه خيالته بالفرار، وعلى الرغم من أن النصر كان حليفه في بداية المعركة، إلا أن الصليبيين غيَّروا نتيجة المعركة بما قاموا به من هجوم مضاد وهزموا مشاة رضوان وقتلوا نحو ثلاثة آلاف بين فارس وراجل، وانسحب رضوان مع فلول جيشه إلى حلب، ولما علم مَنْ بأرتاح بنتيجة المعركة، هربوا من الحصن وتركوه خالياً، فاحتله الصليبيون[١].

وهكذا استطاع تانكريد أن يمحوَ بسرعة هزيمة البليخ وأن يسترد أرتاح من المسلمين، فانقلب بذلك الموقف مرة أخرى على جبهة العاصي لصالح الصليبيين الذين أخذوا يُطاردون المسلمين ويستردون ما فقدوه في العام السابق.

وعسكر تانكريد عند تل أغدى من أعمال ليلون[٢] أي على الطريق الرئيس بين أنطاكية وحلب، وتعرَّضت قرى حلب لغاراته، فاضطربت الأوضاع من ليلون إلى شيزر، فهرب سكانها إلى حلب خشية من بطش الصليبيين، فطاردهم هؤلاء وقتلوا منهم جماعة وأسروا أخرى، وأعادوا احتلالهم لمعظم الحصون، ولم يبق في يد رضوان إلا حماة والأثارب، وبذلك هدَّدوا حلب تهديداً مباشراً، كما استردوا سرمين، وهو مركز مهم في إقليم الجزر، واحتلوا أفامية من دون قتال في (٣ محرم ٥٠٠هـ/ ٤ أيلول ١١٠٦م) وكان رضوان قد ضمَّها قبل ذلك، ومعرة النعمان، وكفرطاب، ما مكَّنهم من شن غارات عنيفة، وتهديد المدن والقلاع الإسلامية القريبة، وبخاصة شيزر[٣].

اضطر رضوان نتيجة هذا الانفلاش الصليبي إلى طلب الصلح، وقَبِل أن يتنازل

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٣٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٥١٢. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٢، ٣٦٣. فولشر الشارتري: ص١٣٥.

(٢) ليلون: جبل مطل على حلب بينها وبين أنطاكية. الحموي: جـ٥ ص٢٩.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٤٢. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٣.

عن أملاكه الواقعة في وادي نهر العاصي، وأن يؤدي جزية لتانكريد الذي امتدت أملاكه مرة أخرى جنوباً حتى البارة ومعرة النعمان[1].

تانكريد يستولي على أفامية

استولى تانكريد على مدينة أفامية في (١٣ محرم ٥٠٠هـ/ ١٤ أيلول ١١٠٦م) على أثر اغتيال جماعة من الباطنية في حلب أميرها خلف بن ملاعب، فاختلف القتلة مع حليفهم أبي الفتح السرميني الذي تولى مقاليد أمور المدينة، فالتمس المساعدة من رضوان، وفي المقابل التمس سكان أفامية من الأرمن المساعدة من تانكريد الذي أدرك أنه حان الوقت للتدخل، ومضى على رأس جيشه إلى الجنوب، وشرع في حصار المدينة، إلا أنه اضطر إلى فك الحصار عنها بعد ثلاثة أسابيع، وكان لذلك علاقة بطلب أبي الفتح المساعدة من أميري شيزر وحماة اللذين وعداه بالتدخل، على أن أحد أبناء خلف بن ملاعب، وهو مصبح، ظهر بعد أشهر في أنطاكية وحثَّ تانكريد على معاودة الكرة ضد أفامية. وبفضل مساعدته هاجم تانكريد المدينة التي سقطت في يده، فقتل أبا الفتح مع ثلاثة من أتباعه إرضاء لمصبح، وحمل سائر أعيان المدينة إلى أنطاكية، ونصَّب أحد الصليبيين حاكماً عليها، وحظي مصبح بإقطاع صغير بالقرب من أفامية، كذلك استرد تانكريد كفرطاب الواقعة شرقي أفامية بين معرة النعمان وشيزر، وهدَّد المدن والقرى والقلاع الإسلامية القريبة، وبخاصة شيزر[2].

علاقة تانكريد مع البيزنطيين

التفت تانكريد بعد أن أمَّن حدود إمارته الشرقية والجنوبية إلى الجبهة البيزنطية، وقرَّر طرد البيزنطيين من اللاذقية مستغلاً خلوها من حامية قوية لأن ألكسيوس كومنين اضطر أن يسحب معظم قواته منها، وعلى رأسها القائد كانتاكوزين للتصدي لهجوم بوهيموند على دورازو، كما سحب القائد موناستراس من كيليكية مع قواته من أجل هذه الغاية.

كان تانكريد بحاجة إلى قوة بحرية تسانده في الاستيلاء على اللاذقية، فظفر بمساعدة الأسطول البيزي مقابل أن تحصل بيزا على شارع في أنطاكية وحي في اللاذقية فضلاً عن كنيسة ومستودع تجاري[3].

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٤٢. Albirt d'Aix: p641.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٢٣. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٤.

(٣) Heyd: I pp145, 146.

وخلف القائد بنزياس كانتاكوزين في قيادة ما تبقَّى من الحامية البيزنطية في اللاذقية، وهي قليلة العدد بطبيعة الحال، فافتقر إلى القوة الضرورية للصمود والمقاومة، ما أتاح لتانكريد أن يدخلها ويسيطر عليها في (أواسط ٥٠١هـ/ ربيع ١١٠٨م)، فأضحت مرة أخرى في نطاق أملاك أنطاكية[١].

وتوَّج تانكريد انتصاراته على البيزنطيين باسترداد مدن كيليكية في (أواسط ٥٠٢هـ/ أوائل ١١٠٩م) وهي المصيصة وأذنة وطرسوس، في حين بقيت الأجزاء الغربية من كيليكية بيد الامبراطورية البيزنطية[٢].

وهكذا استطاع تانكريد في مدى أربع سنوات أن يسترد معظم ما خسرته إمارة أنطاكية عقب هزيمة البليخ وأن يحفظها من السقوط في يد المسلمين أو البيزنطيين، وأضحى صاحب حلب من أتباعه الموالين له، ولا يجرؤ أحد من الأمراء المجاورين على أن يهاجمه، ونجح في تحدي الامبراطورية البيزنطية، فبلغ ذلك ذروة قوته.

التحالفات المختلطة في شمالي بلاد الشام

تعرَّض شمالي بلاد الشام، في أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، لأحداث سياسية مثيرة ومعقدة، وذلك بتأثير النزاعات الداخلية بين المسلمين ثم بين الصليبيين.

والواضح أن النزاعات بين المسلمين لها صلة بالمدى الذي وصلت إليه آنذاك العلاقة بين السلاجقة العظام في فارس والعراق وأتابكتهم في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية، علماً بأن التسوية التي جرت بين الأخوين السلجوقيين بركياروق ومحمد في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) أعطت الثاني السيادة على شمالي العراق والجزيرة الفراتية، وأضحت له حقوق السيادة على ديار بكر وبلاد الشام[٣].

لكن جَكَرْمِش حاكم الموصل رفض أن يُسلِّم السلطان محمد مدينة الموصل التي كانت من نصيبه، وأعلن أنه لا يدين بالولاء إلا للسلطان بركياروق ولن يُسلِّمها إلا إليه، عندئذ تقدم السلطان محمد نحو المدينة لانتزاعها منه، غير أنه حدث أن توفي السلطان بركياروق في (ربيع الآخر ٤٩٨هـ/ كانون الثاني ١١٠٥م) والسلطان محمد يُحاصر الموصل، وقد غدا السلطان الوحيد للسلاجقة العظام، فلم يعد لجَكَرْمِش من عذر في الاستمرار في الحرب، فأذعن للسلطان محمد[٤].

(١) Chalandon: p250.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٩٠.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٩٣.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٠٤، ٥٠٥. ابن العبري: ص١٢٨.

والراجح أن ما أعدَّه جَكَرْمِش آنذاك من حملة ضد الصليبيين كان بناء على طلب السلطان محمد، إذ أن حاكم الموصل شكَّل حلفاً إسلامياً اشترك فيه رضوان صاحب حلب ونائبه الإصهبذ صباوة، وإيلغازي الأرتقي الذي خلف أخاه سكمان بعد وفاته، وصهر جَكَرْمِش ألبي بن أرسلان تاش صاحب سنجار[1].

لكن السلطان محمد أزعجه ما كان لجَكَرْمِش من نزعات استقلالية وقوة عسكرية متنامية، كما ارتاب في عقده اتفاقاً مع السلطان السلجوقي الرومي قلج أرسلان الأول صاحب قونية، بالإضافة إلى أنه لم يف بما تعهد به للسلطان من حمل المال إليه[2].

نتيجة لهذا التبدل في التفكير السياسي، خرج جَكَرْمِش من الحلف، فرأى المتحالفون عندئذ انه من الأجدى مهاجمته لإرضاء السلطان محمد، فمضوا سوياً وهاجموا نصيبين، غير أن أتباع جَكَرْمِش نجحوا في بث الشقاق بين المتحالفين وبخاصة بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم الأول فرصة إقامة مأدبة أمام أسوار نصيبين فاختطف إيلغازي وكبَّله بالسلاسل، على أن أنصاره هاجموا رضوان وأرغموه على الانسحاب إلى حلب[3].

وانتزع السلطان محمد الموصل وديار بكر من جَكَرْمِش ومنحها إلى أحد قادته ويُدعى جاولي سقاوة في (محرم ٥٠٠هـ/ أيلول ١١٠٦م) وعهد إليه بمحاربة الصليبيين في أطراف العراق وبلاد الشام، وتحت هذا الستار يستطيع القضاء على جَكَرْمِش[4].

سار جاولي إلى الموصل ليتسلَّمها، فامتنع عليه جَكَرْمِش، وخرج للتصدي له إلا أنه انهزم أمامه ووقع أسيراً في يده، ولما كان لجَكَرْمِش من محبة ومكانة عند سكان الموصل، بادر هؤلاء إلى تنصيب ابنه زنكي البالغ من العمر إحدى عشرة سنة، وخطبوا له[5].

وراسل زنكي في هذه الظروف الحرجة السلطان السلجوقي الرومي قلج أرسلان الأول يستنجد به ووعده بتسليمه الموصل وأعمالها[6]. استغل سلطان قونية هذه الفرصة ليتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي، ولما علم جاولي سقاوة بمسيره انسحب من المدينة لا سيما وقد توفي جَكَرْمِش فجأة وهو في الأسر وكان ينوي اتخاذه أداة للمساومة. ودخل قلج أرسلان الأول إلى المدينة وتسلَّم الحكم، وتوجَّه جاولي سقاوة إلى سنجار، فاتصل به إيلغازي ورضوان،

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص١٧٧.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٢١، ٥٢٢.

(٤) المصدر نفسه: ص٥٣٥.

(٥) المصدر نفسه: ص٥٣٦.

(٦) ابن القلانسي: ص٢٥٠.

واتفق الأطراف الثلاثة على طرد قلج أرسلان الأول من الموصل والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية[1].

انتهت الحرب ضد قلج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه في نهر الخابور، فأضحى بوسع جاولي سقاوة أن يدخل الموصل، غير أن ما اقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس، كما أعلن استقلاله عن السلاجقة العظام ما اضطر السلطان محمد أن يعهد إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين، بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانه في حكمها[2].

وهكذا اضطر جاولي سقاوة إلى الفرار مجدداً من الموصل وذهب إلى الجزيرة الفراتية فالتفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردَّد في التحالف مع القوى الصليبية المجاورة لمواجهة الهجوم المقبل من جهة مودود، فأطلق سراح بلدوين دي بورغ صاحب الرها وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة[3]، واتفقا على مهاجمة مملكة حلب. واستفاد بلدوين الثاني من هذا التحالف لإبعاد تانكريد عن التدخل في شؤون الرها، والمعروف أن الخلافات الداخلية بين الصليبيين بلغت أشدها آنذاك، ولم يشأ تانكريد أن يتخلَّى لبلدوين عن الرها وطلب منه أن يحلف له يمين الولاء، غير أن بلدوين الثاني، بوصفه تابعاً لملك بيت المقدس، رفض طلب تانكريد وتوجَّه إلى تل باشر مغاضباً، ولحق به جوسلين، فاتصلا بجاولي سقاوة يلتمسان منه المساعدة[4].

ارتاع رضوان عندما علم بهذا التحالف، علماً بأن جاولي سقاوة كان يُهدِّد ممتلكاته على نهر الفرات، فرد على ذلك بأن أغار على قافلة تجارية خرجت من تل باشر في طريقها إلى مقر جاولي سقاوة كانت تحمل قسماً من المال الذي افتدى به بلدوين نفسه. وجاء الرد المعاكس سريعاً من قِبل جاولي سقاوة الذي بادر بشن هجوم على بالس الواقعة على نهر الفرات والتي لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلاً، فاستولى عليها وقتل كبار أنصار رضوان فيها، واضطر رضوان إلى البحث عن حليف صليبي أسوة بجاولي سقاوة، فلم يجد إلا خصمه تانكريد الذي التمس المساعدة بدوره من رضوان لرد اعتداءات بلدوين على أملاكه، فأمده بستمائة فارس[5].

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٣٩ ـ ٥٤١.

(٣) فنك: ص٨٣، ٨٤.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٦٧ ـ ٥٦٩. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٤، ٣٦٥. رنسيمان: جـ٢ ص١٨٤.

وهكذا انقسم المسلمون والصليبيون في شمالي بلاد الشام والعراق على أنفسهم، وظهر حلفان متباينان: الأول، مكوَّن من جاولي سقاوة وبلدوين حاكم الرها، والثاني، مؤلف من رضوان وتانكريد حاكم أنطاكية.

جهَّز بلدوين وجوسلين بضع مئات من الفرسان انحازوا إلى جاولي سقاوة عند منبج، وكان تحت تصرف الأخير خمسمائة فارس وعدد كبير من البدو بقيادة بدران بن صدقة أمير بني مزيد، فبلغ عدد أفراد هذا الجيش نحو ألفي مقاتل، وفي المقابل أعدَّ رضوان قوة عسكرية تبلغ نحو ستمائة فارس، ونهض تانكريد لمساعدته في قوة يبلغ عديدها ألفاً وخمسمائة مقاتل(١).

ودارت المعركة بين الحلفين المختلطين بالقرب من تل باشر في (٢٨ محرم ٥٠٢هـ/ ٨ أيلول ١١٠٨م) وانتهت بهزيمة جاولي سقاوة وحلفائه وانتصار رضوان وحليفه تانكريد، وخسر الصليبيون جميعاً ألفي رجل(٢).

تجدد الصراع بين تانكريد ورضوان

كان موقف رضوان من الصليبيين متأرجحاً بين العداء والتعاون حفاظاً على مصالحه الذاتية، فإذا أُتيحت له الفرصة استغلها، غير أن هذه السياسة المتأرجحة أوصلت الأمور إلى الحد الذي حاصر فيه الصليبيون حلباً أكثر من مرة، واضطر أن يدفع لهم الأتاوات مقابل الحفاظ على حكمه ما أدَّى بأهل حلب إلى اتهامه بالتقصير في حماية البلاد من الخطر الصليبي.

ففي ظل الصراع الإسلامي ـ الصليبي العام، هاجم المسلمون بقيادة مودود أمير الموصل، الرها في (شوال ٥٠٣هـ/ نيسان ١١١٠م) وشارك تانكريد وملك بيت المقدس في الدفاع عنها، فاستغل رضوان الفراغ الذي تركه صاحب أنطاكية ونهض لاسترجاع قرى حلب التي كانت بأيدي الصليبيين بدون اكتراث بالهدنة الموقعة بينه وبين تانكريد، فاستعاد بعضها ثم طمع في التوغل في أراضي الإمارة واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيها، لكن مجرى الأحداث تبدَّل فجأة بعد فشل المسلمين في استعادة الرها ما انعكس سلباً على وضع رضوان الذي عجز عن الاستمرار في حملته على أنطاكية(٣).

وجاء دور تانكريد للانتقام وإنزال العقاب برضوان، فأغار على قلعة النقرة الواقعة

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٦٧ ـ ٥٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٦٩، ٥٧٠. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٤، ٣٦٥. ابن العبري: ص١٣١.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٧٢، ٢٧٣. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٦.

على الحدود واستولى عليها، وعاث فساداً في المناطق الشرقية لحلب، فقتل عدداً من سكانها، وسبى أهل النقرة، وأخذ ما استطاع من المواشي، واضطر السكان إلى الفرار إلى بالس، ثم توجَّه إلى حصن الأثارب الذي يبعد عن حلب نحو عشرين ميلاً وحاصره[1].

عجز رضوان عن صدِّ الهجوم الصليبي المضاد، ولما لم يتلق أي مساعدة من الأمراء المسلمين بفعل مواقفه المتحفظة، حاول أن يدخل في مفاوضات مع تانكريد للحصول على هدنة، وعرض عليه مبلغ عشرين ألف دينار مقابل رحيله، ولكنه رفض وطالب بشروط أقسى وقال: «قد خسرت ثلاثين ألف دينار، فإن دفعتموها إليَّ وأطلقتم كل عبد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل»[2]، فعدَّ رضوان ذلك ثمناً باهظاً.

في هذا الوقت حاصر تانكريد الأثارب فالتمس سكانه المساعدة من رضوان لكن الرسالة وقعت في يد تانكريد الذي زاد من ضغطه على البلد، فيَئِس السكان من وصول نجدة إليهم، واضطروا إلى الاستسلام وسلموا البلد إلى تانكريد في (جمادى الآخرة ٥٠٤هـ/ كانون الأول ١١١٠م)[3].

الواقع أن سقوط الأثارب في يد الصليبيين والذي لا يبعد عن حلب أكثر من ثلاثين كيلومتراً، يُعدُّ ضربة موجعة لرضوان، وأتاحت لتانكريد أن ينطلق منه لمهاجمة حلب نفسها فضلاً عن حرمانها من الغلال والمؤن التي تحصل عليها من السهول المحيطة بها، وأضحى صاحب أنطاكية في موقف قوي يستطيع من خلاله إملاء إرادته على رضوان[4].

وشعر تانكريد بأهمية انتصاره في الأثارب، فطمع في تحقيق المزيد، فهاجم حصن زردنا واحتله واستولى على منبج وبالس، وأضحى المسيطر الفعلي على الأطراف الشمالية من بلاد الشام، فهابه الأمراء المجاورون، فتعهَّد كل من سلطان بن منقذ أمير شيزر، وعلي الكردي أمير حماة، بدفع مبالغ طائلة ثمناً لمسالمته[5].

لم يسع رضوان عند ذلك إلا أن يعقد الصلح مع تانكريد على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل، وأن يعيد جميع الأسرى الأرمن الذين أسرهم أثناء غاراته

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٧٣. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٦.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٦، ٣٦٧.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٦٧. ابن القلانسي: ص٢٧٣. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٤.
(٤) عاشور: جـ١ ص٤٢٠.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٤. ابن العبري: ص١٣٢.

على أنطاكية[١].

وقام تانكريد، بالاشتراك مع بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبلدوين دي بورغ صاحب الرها، بدور بارز في التصدي لحملة مودود ضد الرها في (محرم ٥٠٥هـ/ تموز ١١١١م)، وقد حاول رضوان أن يستغلها لصالحه في الدفاع عن حلب ضد تانكريد، غير أنه انقلب على حلفائه المسلمين، فعندما وصلوا إلى أبواب حلب أغلقها في وجوههم، وتعاون مع تانكريد ضدهم.

تعقيب على نجاح تانكريد

الواقع أن ما أحرزه تانكريد من انتصارات ساهمت فيه أربعة عوامل:

الأول: عدم استعداد البيزنطيين للقيام بحملة ضد أنطاكية، ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى اهتمام الامبراطور ألكسيوس كومنين بما كان يجري على حدوده الشرقية من تطورات سياسية بعد وفاة السلطان قلج أرسلان الأول في عام (٥٠٠هـ/ ١١٠٧م)، وقد جعلت وفاته الموقف في آسيا الصغرى مائعاً، إذ أن أكبر أبنائه ملكشاه وقع أسيراً في معركة الخابور وأضحى في يد السلطان محمد، واستولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذي اعترف بسيادة طغرل أرسلان، أصغر أبناء قلج أرسلان الأول، أما الأخوان الآخران مسعود وعرب، فقد عاش الأول في بلاد الدانشمنديين في حين استقر الثاني في قونية[٢]. وإذ خشي السلطان محمد أن ينفرد مسعود أو طغرل بالملك، الأمر الذي يزيد الموقف اضطراباً؛ أطلق سراح ملكشاه الذي استقر في قونية واتخذ لنفسه لقب سلطان، على أن انهيار الحكم المركزي لسلاجقة الروم لم يكن في صالح البيزنطيين لأن أولئك استمروا في شنِّ الغارات على أراضي الامبراطورية، لذلك لم يشأ أن يغامر بالقيام بحملة إلى كيليكية أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح الصليبيين وعلى رأسهم تانكريد.

الثاني: ظهور فرقة الحشيشية الباطنية في ألموت بخراسان بزعامة حسن بن الصباح وقد استخدمها لتحقيق أطماعه السياسية، ووجَّهها لمناهضة الخلافة العباسية في بغداد التي تحدَّى شرعية خلفائها، ومناوأة السلاطين والأمراء السلاجقة، وأكثر ما استخدمه كان سلاح الاغتيال، فما اشتهر به أتباعه من التعلق الشديد به والتضحية بأنفسهم متى أمرهم بذلك، أتاح له أن يُوجِّه طعناته إلى خصومه في العالم الإسلامي. وعلى الرغم من أن هذه الفرقة لم تكشف حتى ذلك الوقت عن سياستها

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٤. ابن القلانسي: ص٢٧٣. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٧.

(٢) ابن العبري: ص١٣١، ١٣٢. Michel le Syrien: III pp194, 195.

إلا بما أقدمت عليه من اغتيالات متفرقة، فإنها أضحت عاملاً في السياسة الإسلامية لم يسع المسيحيون أنفسهم إلا تقديره[1].

الثالث: سياسة رضوان صاحب حلب المتقلبة وهو الذي جاورت أراضيه أراضي إمارة أنطاكية، وقد تأرجح في علاقاته مع الأمراء المسلمين وتانكريد بين العداء والتعاون الأمر الذي تركه وحيداً في مواجهة صاحب أنطاكية القوي، كما أن احتضانه لفرقة الحشيشية ورعايته لها في حلب زاد من التباعد بينه وبين المسلمين وحتى بينه وبين رعيته.

الرابع: شجاعة تانكريد التي بلغت أحياناً حد التهور، وصلابته في المواقف، وهي صفات اكتسبها من أسلافه النورمان في غربي أوروبا وجنوبها.

وفاة تانكريد

ألمَّ بتانكريد مرض مفاجئ وهو يتجهَّز لمهاجمة بلاد كوغ باسيل الأرمني صاحب كيسوم من أعمال سميساط، وعندما أدرك أنه لن يُشفى اختار ابن أخته روجر سالرنو بن ريتشارد، الوصي على عرش الرها، ليكون خلفه في الحكم على أن يُسلِّمه إلى ابن بوهيموند متى قدم إلى الشرق، وطلب من بونز أمير طرابلس أن يتزوج من أرملته الفرنسية الشابة سيسيليا، وتوفي في (٢٠ جمادى الآخرة ٥٠٦هـ/ ١٢ كانون الأول ١١١٢م)[2].

الواضح أن تانكريد كان يحكم أنطاكية بمقتضى العرف الإقطاعي الغربي حتى وفاة بوهيموند في عام (٥٠٥هـ/ ١١١١م)، ومعنى ذلك أنه كان نائباً عنه، ولم يُصبح أميراً على أنطاكية إلا بعد وفاته لأن بوهيموند ترك طفلاً بقي في إيطاليا مع والدته. وهكذا كان على تانكريد قبل وفاته أن يؤمِّن استمرار حكم النورمان لأنطاكية، فاختار ابن أخته ليخلفه. وتزوَّج بونز أرملته، كما تزوَّج جوسلين دي كورتناي أخته سيسيليا، وقد ترتَّب على هاتين الزيجتين إنهاء الصراع القديم على أنطاكية الذي ابتدأ في عهد ريموند الصنجيلي وبوهيموند، وربط إمارتي الرها وأنطاكية. وعندما أصبح بلدوين دي بورغ ملكاً على بيت المقدس سنة (٥١٢هـ/ ١١١٨م)، حظيت إمارة أنطاكية بفضل علاقة المصاهرة على تأييد مملكة بيت المقدس ومساندتها[3].

انضوى الأمراء الثلاثة، روجر وبونز وجوسلين، تحت لواء بلدوين الأول ملك بيت المقدس، ولعل هذا التماسك وما يقابله من تفكك وحدة الأمراء المسلمين

(١) رنسيمان: جـ٢ ص١٩٤، ١٩٥.
(٢) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٤٧.
(٣) المصدر نفسه.

بفعل تنازعهم؛ أدَّى إلى أن يبلغ سلطان الصليبيين الذروة في شمالي بلاد الشام[1].

قضت وفاة تانكريد على تقدم أكثر القادة الصليبيين حيوية ونشاطاً في الحملة الصليبية الأولى، وما هو مؤكد أنه كان أحد القادة الكبار، فصُنِّف مباشرة بعد بوهيموند وبلدوين الأول، وربما فاق خاله مقدرة، فوطَّد الإمارة، وكان محارباً شجاعاً وسياسياً بارعاً، وسَّع نشاطه العسكري، فحارب المسلمين أعداء الصليبيين الطبيعيين، كما حارب إخوته المسيحيين، بيزنطيين وأرمن وصليبيين، من أجل مصلحة ذاتية، كما كان معنياً في توسيع نفوذه أكثر من عنايته بالمصالح العليا للإمارات الصليبية، وبشكل عام، فإن سيرة تانكريد وتقدمه تعود في رصيدها إلى الدعامة اللاتينية، فقد حوَّل إمارة أنطاكية إلى دولة عسكرية قوية، استمرت، إلى حد ما، أكثر من مملكة بيت المقدس[2].

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٢٠٥.

(٢) فنك: ص٩٠.

في ظل حكم روجر

جهود روجر في حرب المسلمين

معركة دانيث[(١)]: اتصف روجر أمير أنطاكية بقوته ودهائه ومثابرته على حرب المسلمين والاعتداء عليهم. وكان أول عمل قام به هو أنه استجاب لنداء الاستغاثة الذي وجَّهه بلدوين الأول ملك بيت المقدس للتصدي لهجوم المسلمين ضد أراضيه في عام (٥٠٧هـ/ ١١١٣م)، وكانوا بقيادة مودود بن التونتكين صاحب الموصل وطغتكين صاحب دمشق، وقد تحدثنا عن هذا الصدام من قبل.

وانتهى بمقتل مودود بن التونتكين الخطر الكبير الكامن على الصليبيين، فقد أزال مصرعه أكثر الأعداء قوة وثباتاً وقدرة، وولَّدت ظروف موته الشكوك بين الأتراك، وقضت على جانب كبير من الوحدة التي عمل على تحقيقها طوال حياته. وعندما أضحى طغتكين موضع شك عند السلطان محمد بأن له ضلعاً في حادثة اغتيال مودود بالإضافة إلى سعيه للاستقلال الذاتي؛ مال إلى التحالف مع الصليبيين، واندفع إلى توقيع هدنة دائمة مع الملك بلدوين الأول في عام (٥٠٧هـ/ ١١١٤م)[(٢)].

الواقع أن السلطان محمد لم يتخلَّ بعد وفاة مودود عن حرب الصليبيين والأمراء المناوئين له، فقد عيَّن آق سُنقر البرسقي ممثله في دار الخلافة حاكماً على الموصل وقائداً للحرب، فشنَّ هجوماً فاشلاً ضد الرها في (ذي الحجة ٥٠٧هـ/ أيار ١١١٤م)، غير أن أهم ما حقَّقه من إنجاز هو أنه قَبِل عرض الولاء من أرملة الأمير الأرمني كوغ باسيل، وأتاح له ذلك السيطرة على مرعش وكيسوم ورعبان التي تقع كلها في شمال شرق الرها، كما أعلن الأرمن عن رغبتهم في التحالف معه للتخلص من الضغط الصليبي[(٣)]، لكن هزيمته القاسية أمام منافسه إيلغازي الأرتقي صاحب ماردين أدَّت إلى نتيجتين كانتا لغير صالحه:

---

(١) دانيث: بلد من أعمال حلب بينها وبين كفرطاب. الحموي: جـ٢ ص٤٣٤.

(٢) فنك: ص٩٢.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠١ ـ ٦٠٣. Grousset: Histoire des Croisade: I p492. Elisséeff: II pp309-310.

الأولى: فقد دفعت خشية إيلغازي من انتقام السلطان محمد، إلى عقد حلف مع طغتكين أتابك دمشق، ثم وقَّع الحليفان اتفاقية تحالف مع روجر أمير أنطاكية، ما شكَّل بداية تصدع كبير في صفوف الأتراك.

الثانية: استبداله بقائد آخر هو برسق بن برسق صاحب همذان.

أعدَّ السلطان محمد جيشاً كثيفاً بلغ تعداده خمسة عشر ألف مقاتل، كما ذكرنا، واختار الأمير برسق بن برسق لقيادته، وضمَّ إليه كلاًّ من جيوش بك حاكم الموصل والأمير كتغدى، وأمره بقتال إيلغازي وطغتكين ومهاجمة الصليبيين في شمالي بلاد الشام. انطلقت الحملة في (رمضان ٥٠٨هـ/ شباط ١١١٥م) متوجهة إلى حلب بناءً على طلب متوليها لؤلؤ الخادم، ولما علم هذا باقترابها بدَّل رأيه وتراجع عن طلبه، ويبدو أنه ظنَّ أن السلطان سيرسل إليه مساعدة عسكرية ويترك له قيادتها، وأنه عندما وجد أن الأمر دخل مرحلة جدية من التنفيذ، واقترب الجيش السلطاني من حلب، خشي غدر السلاجقة.

وارتاع الأمراء المسلمون في شمالي بلاد الشام وكذلك الصليبيون، إذ لم يكن موالياً للسلطان من أمراء الشام آنذاك سوى خيرخان بن قراجا أمير حمص وبنو منقذ في شيزر، وإذ شاع خبر الحملة ذهب إيلغازي إلى دمشق ليعقد حلفاً مع طغتكين، فوعده بتسليمه حلب مقابل منحه إقطاعاً من أعمال دمشق، ووقع أثناء عودته في قبضة خيرخان، ولم يُطلق سراحه إلا بعد أن وعده بأن يُرسل ابنه إياز ليحل مكانه في الاعتقال، وعندما وصل إلى ماردين حشد جنده وتوجَّه نحو الغرب لينضمَّ إلى طغتكين، ثم دخلا حلب على رأس ألفين من الفرسان، فانحاز إليهما لؤلؤ الخادم ومقدم جيشه شمس الخواص[1]، وانتظر الجميع وصول القوات السلطانية.

ويبدو أن الحلفاء خشوا من قوة الجيش السلجوقي، وخاف طغتكين أن يستغل السلاجقة خلو دمشق ممن يدافع عنها فيهاجمونها، لذلك قرَّروا التماس المساعدة من الصليبيين في أنطاكية، وإذ كان روجر أمير أنطاكية يخشى تمدداً سلجوقياً باتجاه أملاكه، فقد توافقت مصالحه مع مصالح الحلفاء في التصدي للجيش السلجوقي الزاحف باتجاه حلب، وكان قد جمع قواته عند نهر العاصي على جسر الحديد للدفاع عن المدينة من جهة ومراقبة تطورات الموقف في حلب من جهة أخرى، ثم وصلت إليه دعوة الحلفاء بطلب المساعدة والدفاع عن مدينة حماة.

وعُقِدَ اجتماع بين الجانبين تقرَّر فيه أن تنضم قوات التحالف البالغة خمسة آلاف

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٠٥. ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٧.

مقاتل إلى قوات روجر أمام أسوار أفامية، التي تُعد موقعاً بالغ الأهمية لمراقبة تحركات برسق عند عبوره نهر الفرات في طريقه إلى شيزر.

عبر برسق مع جيشه الفرات عند الرقة من دون أن يلقى مقاومة، وكان يأمل في أن يتخذ من حلب مركزاً لقيادته، فلما اقترب منها صدَّه صاحبها لؤلؤ وغالطه في الجواب فعلم أنه انحاز إلى خصومه، فانحرف نحو الجنوب لقتال طغتكين بمساعدة خيرخان، فقام بهجوم مفاجئ على حماة التابعة لصاحب دمشق واستولى عليها، ونهب ما حوته من متاعه وسلَّم المدينة لخيرخان ثم مضى إلى كفرطاب الواقعة بين معرة النعمان وحلب، وكانت تابعة للصليبيين.

ويبدو أن قوى التحالف احتاجت إلى مدد، فالتمست المساعدة من بلدوين الأول ملك بيت المقدس ومن بونز أمير طرابلس، فجاءا على عجل ومع الأول خمسمائة فارس وألف من المشاة، وقاد الثاني مائتي فارس والفين من المشاة، ودخلا أفامية.

ورأى برسق الذي اتخذ من شيزر قاعدة له، أن يُفرِّق الحلفاء كي يسهل الانتصار عليهم، فاستغل حلول فصل الشتاء وانسحب نحو الجزيرة الفراتية في خطوة تكتيكية. ونجحت خطته، إذ أن كلّاً من الملك بلدوين الأول وبونز رأى أن الخطر قد زال، فعاد إلى بلده، وعاد إيلغازي إلى ماردين وطغتكين إلى دمشق، وعلى هذا الشكل تفرَّق المتحالفون، عندئذ عاد برسق إلى كفرطاب فحاصرها واقتحمها وأسر حاكمها وقتل كثيراً من أفراد حاميتها، ثم سار إلى أفامية فاستعصت عليه لمناعتها، فتركها وتوجَّه إلى المعرة وهي للصليبيين، وهنا انفصل عنه جيوش بك وذهب إلى وادي بزاعة واستولى عليه ما أضعف قوته العسكرية.

وعلم روجر أمير أنطاكية بحصار برسق لكفرطاب، فخرج من بلاده واتخذ طريقه إلى الجنوب في محاذاة نهر العاصي قاصداً مرج الروج، وكان برسق يسير مع جيشه باتجاه الشمال في خط موازٍ له، إنما في داخل البلاد، ولم يعلم أي من الرجلين مكان الرجل الآخر، حتى علم روجر من أمير فرسان فرقته الاستكشافية أن برسق يجتاز الغابة في طريقه إلى تل دانيث قرب سرمين وهو على غير تعبئة، وقد توقفت بعض فرقه لنصب الخيام، وانتشرت فِرَق أخرى لجمع الحطب والحصول على العلف من المزارع المجاورة، فاستغل هذا الوضع وهاجم المعسكر الخالي من الجند، فقتل كل من فيه من السوقية وغلمان العسكر، ثم تمركز فيه وانتظر وصول برسق على رأس الجيش. ووصل أفراد الجيش متفرقين، فكان الصليبيون يقتلونهم تباعاً، وقد جرى ذلك في صبيحة (٢٢ ربيع الآخر ٥٠٩هـ/ ١٤ أيلول ١١١٥م).

لم يكن هجوم الصليبيين أمراً متوقعاً، ولما وصل برسق إلى المكان في نحو مائة فارس، صعد على تل دانيث يراقب الوضع، ولم يكن بوسعه إعادة تنظيم صفوف قواته، إلا أنه سعى إلى الاستشهاد وهو يقاتل، وقد صعب عليه أن يواجه الهزيمة، غير أن أمراء حرسه أقنعوه بأنه بذل كل ما بوسعه ولن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، فامتطى عندئذ جواده وغادر المنطقة إلى الشرق[١].

وما حقَّقه الصليبيون في تل دانيث من انتصار أنهى محاولات سلاطين السلاجقة العظام في خراسان وإيران لاستعادة بلاد الشام التي سيتولاها الزنكيون بعد ذلك. ولم تمض بضعة أشهر حتى توفي برسق، ولم يكن السلطان محمد مستعداً للدخول في مغامرة أخرى في بلاد الشام.

الصراع على حلب: شكَّلت حلب، التي طمع فيها الصليبيون والأراتقة وأمراء الموصل ودمشق، حجر الزاوية في البناء التنظيمي لتوازن القوى في شمالي بلاد الشام نظراً لموقعها الجغرافي المركزي، وأن الكفة ستكون لصالح من يقضي على استقلالها علماً بأنها خرجت من نطاق الدولة السلجوقية مع بداية حكم إيلغازي، وسارت على خطى طغتكين أتابك دمشق عندما أعلن استقلاله في عام (٥٠٢هـ/ ١١٠٩م).

أضحى الخطر الوحيد الذي تعرَّض له الصليبيون في شمالي بلاد الشام، مصدره الأمراء شبه المستقلين الذين لم يكونوا آنذاك متحدين، فكل قوة من تلك القوى الإسلامية كانت تعاني اضطراباً داخلياً ما أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل في شؤونها واقتطاع ما يمكن من أراضيها. من ذلك أن بني منقذ في شيزر أسرعوا بإخلاء كفرطاب وسلَّموها إلى روجر أثناء عودته إلى أنطاكية بعد المعركة[٢]، وانتزع طغتكين رفنية من الصليبيين[٣].

وبلغت مكانة روجر الذروة بين الصليبيين كما بين القوى الإسلامية المجاورة. فقد اشتد خوف أميري دمشق وحلب، فبادر طغتكين إلى عقد صلح مع السلطان محمد«فرضي عنه وخلع عليه»[٤] غير أنه لم يبذل له مساعدة مادية[٥]. وشعر لؤلؤ،

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٧ ـ ٦٠٩. ابن العديم: جـ١ ص٣٨٠، ٣٨١.

Mathew of Edessa: pp 297, 298.

(٢) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار: ص١٤٤. (٣) ابن القلانسي: ص٣٠٦.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٦١٠، ٦١١.

(٥) يُستنتج ذلك من المنشور السلطاني بولايته الشام حرباً وخراجاً. انظر: ابن القلانسي: ص٣٠٨ ـ ٣١٣.

المستبد بحكم حلب والذي وجد نفسه وسط العواصف الداخلية والخارجية التي تحيط به وبخاصة تهديد الصليبيين في أنطاكية؛ أنه بحاجة إلى دعامة سياسية وعسكرية، فسعى إلى توثيق علاقته مع طغتكين، غير أنه لم يجد قبولاً واستعداداً، ويبدو أن لذلك علاقة بقتله ألب أرسلان بن رضوان في (ربيع الأول ٥٠٨هـ/آب ١١١٤م) لينفرد بحكم حلب، لكن لؤلؤ لم يلبث أن لقي مصرعه في (محرم ٥١١هـ/أيار ١١١٧م) على أيدي أتراك حاشيته، بفعل سيرته السيئة[١].

تولَّت آمنة خاتون ابنة رضوان إمرة القلعة بعد مقتل لؤلؤ، غير أن ياروقتاش، وهو أحد خدام رضوان، أسرع بالدخول إلى حلب واستولى على السلطة، فألقى القبض على بعض الذين قتلوا لؤلؤ في حين فرَّ بعضهم الآخر إلى الرحبة، فأعلموا آق سُنقر البرسقي أتابك الموصل بالأوضاع المستجدة في حلب[٢]، وكان هذا يسعى إلى توسيع رقعة إمارته باتجاه إقليم الجزيرة الفراتية وشمالي بلاد الشام، وإذ سنحت له الفرصة بمقتل لؤلؤ ووقوع الفوضى والاضطراب في حلب أسرع للاستيلاء عليها، وعندما وصل إلى بالس في (أول محرم ٥١١هـ/ ٥ ايار ١١١٧م) خشي ياروقتاش على نفسه بسبب عدم قدرته على مواجهته، فالتمس المساعدة من إيلغازي الأرتقي صاحب ماردين ووعده بتسليمه المدينة، كما طلب المساعدة من روجر صاحب أنطاكية.

والراجح أن ياروقتاش أراد أن يضرب القوى الإسلامية بعضها ببعض حتى تضعف، فيحول بينها وبين السيطرة على حلب، كما أن الهدنة التي عقدها مع روجر تُبعد هذا الأخير عن التدخل في شؤون حلب، وبذلك يمكنه أن يحكم حلب من دون أن يتهدَّدها أي خطر خارجي أو داخلي وبخاصة أنه تخلَّص من الأعيان المناوئين له[٣].

كان روجر راضياً تماماً ما دام لؤلؤ الضعيف وغير الكفي حياً، ولكن مقتله أدى إلى مرحلة من القتال المتقطع للسيطرة على حلب، كما كانت فرصة لروجر للانضمام إلى أي فئة تسيطر على المدينة من أجل إبعاد المرشحين الأقوياء أمثال إيلغازي الأرتقي، إذ أنه كان يخشى من تمدد أرتقي باتجاه شمالي الشام، فإذا استولى إيلغازي على حلب، فإنه يُشكل بذلك خطراً على الوجود الصليبي، لذا بادر فوراً إلى غزو أراضي حلب على الرغم من الهدنة المعقودة مع ياروقتاش «وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشرقية»[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦١٣. ابن العديم: جـ١ ص٣٨٣. العظيمي: جـ٢ ص٦٧٠.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٨٣.

(٣) ضامن: ص٢١٥.

(٤) ابن العديم: جـ١ ص٣٨٤.

وهكذا وقع ياروقتاش بين فكي الكماشة، آق سُنقر البرسقي الزاحف من الشرق وروجر الأنطاكي القادم من الشمال، لذلك لم يسعه إلا تبريد الجبهة الشمالية بالتفاهم مع روجر ليتفرَّغ لمحاربة آق سُنقر البرسقي، وكان يأمل بأن يحميه صاحب أنطاكية من الأتراك، فعقد صلحاً معه تنازل له بموجبه عن حصن القبة، أو قبة ملاعب الواقع على الطريق الممتد بين حلب ودمشق والذي يستخدمه الحجاج عند المسير إلى مكة، فضلاً عن إعطائه الحق في فرض ضرائب على قوافل الحجاج[1].

وتابع إيلغازي طريقه إلى حلب لنجدة ياروقتاش، ولم يكد يصل إليها حتى تبين له أنه قد هوى، وتولى أبو المعالي المحسن بن الملحمة العارض الدمشقي حكم المدينة بأمر من سلطان شاه بن رضوان، ومع ذلك فقد أجرى مفاوضات مع أعيانها تمَّ الاتفاق بموجبها على تسليمه الحكم مقابل تعويض بعض الأمراء عدداً من المواقع والحصون المجاورة، إلا أنه لم يمكث فيها طويلاً بفعل قلَّة المال والذخيرة وعجزه عن التصدي لهجمات الصليبيين المنطلقين من أنطاكية، ثم إنه فضَّل العودة إلى الشرق لتثبيت أقدامه في دياربكر، المجال الحيوي لإمارته، وترك ابنه حسام الدين تمرتاش نائباً عنه فيها[2]، من دون أن يتخذ من الإجراءات العسكرية والإدارية الكفيلة بتقوية مركزها ضد الأعداء[3]، واستولى أثناء عودته على بالس والقليعة التابعتين لإمارة حلب[4].

وجدَّد الصليبيون في هذه الأثناء، غاراتهم على قرى حلب، ولما كان إيلغازي في ماردين، ولا يملك تمرتاش القوة الكافية لردهم والتحكم بزمام الأمور في حلب، قبض سلطان شاه عليه وأعاد ابن الملحمة إلى الحكم كوزير له. وأدار الرجلان الشؤون العامة وطلبا المساعدة من الأمراء المسلمين، من طغتكين صاحب دمشق وجيوش بك صاحب الموصل، وقراجة أمير حمص، لكن أي نجدة لم تصل إليهما[5].

وأغار الصليبيون آنذاك على عزاز، وكادت تقع في أيديهم، فخشي أهل حلب من هذه الغارة لأن عزاز ومنطقتها كانت المعبر الوحيد الباقي لهم والذي يُؤمِّن وصول المؤن إليهم، علماً بأن مناطق حلب الجنوبية والغربية وجزءاً من المناطق الشرقية، كانت بأيدي الصليبيين، في حين كان القسم الأكبر من المناطق الشرقية مُخرَّباً ومجدباً بسبب كثرة الحروب وقِلَّة الأمطار.

---

(١) ابن القلانسي: ص٣١٦. ابن العديم: جـ١ ص٣٨٤.

(٢) المصدران نفساهما: ص٣١٧. ص٣٨٥.

(٣) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية: ص١٠١.

(٤) ابن العديم: جـ١ ص٣٨٥.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٨٥، ٣٨٦.

وعندما وصلت الحال في حلب إلى هذه الدرجة من التردي ويئس أهلها من نجدة الملوك والأمراء المسلمين، استقر رأيهم على استدعاء إيلغازي ثانية لدفع الصليبيين عنهم، ووعدوه بتأمين المال لجنده[١]. لبّى إيلغازي الدعوة، وما لبث أن تقدم إلى حلب، فدخلها ونادى الناس بشعاره[٢]. وهكذا تجدَّد العداء بين حلب وأنطاكية، فهاجم روجر عزاز في عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م) واستولى عليها، كما استولى على البزاعة في العام التالي، فعزل بذلك حلب عن نهر الفرات والشرق[٣]، ودعَّم الحد الجنوبي لأنطاكية من واقع الاستيلاء على قلعة بانياس التي تقع على تل على البحر إلى الجنوب الشرقي من بانياس[٤].

أضحى الصليبيون في شمالي بلاد الشام، مع انتهاء عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م)، يُشكِّلون أقلية معترفاً بها، وعلى الرغم من أن المسلمين يفوقونهم في القوة العددية إلا أنهم لم يكونوا متحدين وفشت بينهم الفرقة، لكن لم يمنع نشوب الفوضى بينهم إلا ما جرى من التحالف بين طغتكين وإيلغازي. وتمتَّع روجر بميزة أعظم الأمراء الصليبيين في الشمال، إلا أنه لم يحاول أن يفرض هيمنته على كل من بلدوين صاحب الرها وبونز صاحب طرابلس، إلا أنه لم يختلف عنهما في الاعتراف بسيادة ملك بيت المقدس[٥].

معركة البلاط[٦] ـ نهاية روجر

أضحت حلب بعد التطورات السياسية والعسكرية الأخيرة تحت رحمة روجر أمير أنطاكية، وقد أحاط بها من ثلاث جهات، وهو أمر لم يحتمله الحلبيون فالتمسوا المساعدة مجدداً من إيلغازي الأرتقي الذي ساءه خسارة البزاعة أمام الصليبيين. وأطلقت وفاة السلطان محمد السلجوقي في عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م) أطماع الأمراء والولاة في جميع أنحاء الدولة السلجوقية ومنهم إيلغازي الطامع في ضمِّ حلب إلى أملاكه والذي يُعدُّ أقوى الأمراء المسلمين وأشدهم صلابة، وقد اشتدت رغبته في القضاء على الإمارات الصليبية تمهيداً لضم حلب.

وحشد إيلغازي في (أوائل ٥١٣هـ/ ربيع ١١١٩م) جيشاً من التركمان وانضم إليه الأكراد النازلون في الشمال، والعرب الضاربون في بادية الشام، أمثال: أسامة بن

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٨٦، ٣٨٧.
(٢) العظيمي: جـ٢ ص٦٧١.
(٣) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ٨ ص٦٤٢.
(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٢١٨.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية يشقها النهر الأسود الخارج من الثغور، وهي من أعمال حلب. الحموي: جـ١ ص٤٧٧.

المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن وغيرهما. ورأى أن يلتمس المساعدة من السلطان محمود السلجوقي الذي خلف أباه محمد، غير أنه لم يتلق منه أي رد، ويُعدُّ ذلك تقصيراً واضحاً من جانب السلاجقة بالمساهمة في حرب الصليبيين. وأبدى أبو العساكر سلطان بن منقذ في شيزر استعداده للتعاون مع إيلغازي ومهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب لصرف روجر إلى جهة أخرى.

وزحف الجيش الأرتقي الذي بلغ تعداده أربعين ألف مقاتل باتجاه أنطاكية، وتلقَّى روجر أنباء هذا الزحف بشيء من الاستخفاف، غير أن البطريرك حثَّه على التماس المساعدة من الملك بلدوين الثاني ومن بونز أمير طرابلس، فأعلمه الأول وكان في طبرية بأنه سوف يُسرع بالقدوم إليه ومعه بونز، فتحتَّم عندئذ على روجر أن يلتزم خطة الدفاع حتى تصل المساعدة الصليبية من الجنوب. وفعلاً حشد الملك بلدوين الثاني جيش بيت المقدس وتوجَّه صوب الشمال، وحمل معه قطعة من الصليب المقدس كانت بحوزة رئيس أساقفة قيسارية.

كان بنو منقذ آنذاك يغيرون على أفامية، فأرسل إيلغازي بعض فرقه العسكرية صوب الجنوب الغربي لتنضمَّ إليهم، وقام هو مع من تبقَّى من الجيش بمهاجمة أراضي الرها غير أنه لم يحاول مهاجمة العاصمة نفسها نظراً لمناعتها، فعبر نهر الفرات في (٤ ربيع الأول ٥١٣هـ/ ١٥ حزيران ١١١٩م) عند بالس وعسكر في قنسرين التي تبعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب من حلب، ينتظر وصول طغتكين.

كان روجر قلقاً على الرغم من رسالة الاطمئنان التي وجَّهها إليه الملك بلدوين الثاني فتعجَّل لصدِّ المسلمين، فقاد كل قوات أنطاكية التي بلغ تعدادها سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة، فاجتاز جسر الحديد على نهر العاصي وأقام معسكره في البلاط أمام تل عفرين على الحافة الشرقية لسهل سرمدا إلى الشمال من حصن الأثارب، ظناً منه أن وعورة هذه المنطقة تعيق تقدم عدوه، واعتقد بأن الهجوم الإسلامي سيكون من جهة الأثارب أو من جهة زردنا.

كان إيلغازي في غضون ذلك قرب بلدة البزاعة إلى الشمال من حلب ينتظر وصول حليفه طغتكين، وتوافرت له المعلومات عن تحركات الأمير الصليبي وضعف قواته، بواسطة جواسيسه الذين تنكروا بزي التجار، ما أغرى أمراءه، فدفعوه للقيام بهجوم على قلعة الأثارب في (١٦ ربيع الأول/ ٢٧ حزيران) التي كانت بحوزة الصليبيين، فأرسل روجر بعض قواته للدفاع عنها بقيادة روبرت فيبه بونز.

وفي صباح (١٧ ربيع الأول/ ٢٨ حزيران) أخبرته كشافته بأن المسلمين يُطوِّقون

معسكره، إذ أن إيلغازي رأى أن يستغل الفرصة ويعاجله بالهجوم قبل وصول المساعدات من الجنوب، فتقدم حتى قنسرين باتجاه الجيش الصليبي واشتبك معه في معركة البلاط في سهل قريب من أرتاح إلى الشمال من الأثارب، انتهت بانتصار واضح للمسلمين، ودُمِّر الجيش الصليبي بأكمله تقريباً، وأُخذ أفراده «بالسيف من سائر نواحيهم»؛ وخرَّ روجر نفسه صريعاً في المعركة. وقد بلغ من كثرة القتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل التي دارت فيه المعركة اسم «ساحة الدم»(١).

نتائج معركة البلاط

كان لمعركة البلاط نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي نذكر منها:

على الصعيد الإسلامي:

- قرَّرت المعركة مصير حلب التي كان يتنازع عليها كل من المسلمين والصليبيين، وفرح المسلمون بالنصر الذي أبقاها في أيديهم.
- نظم الشعراء المسلمون القصائد في مدح إيلغازي، وأرسل إليه الخليفة المسترشد الخلع «وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج» ولقَّبه نجم الدين(٢).
- لم يستثمر إيلغازي انتصاره بمهاجمة أنطاكية الخالية ممن يحميها ويدافع عنها لا سيما وأن الطريق إليها بات مفتوحاً أمامه، ولو أسرع إليها «لما امتنعت عليه»، وهذا تصرف سياسي وعسكري غير سليم.
- لم يمكث إيلغازي في ساحة المعركة إلا ريثما يوزع الغنيمة على رجاله، ثم سار إلى سرمد(٣) فاستسلم له حاكمها رينولد مازوار(٤)، واكتفى بأن كتب إلى أمراء المسلمين يُعلمهم بما حاز من انتصار.
- عاد إيلغازي وحليفه طغتكين إلى حلب ومعهما عدد كبير من الأسرى، فأشاعا

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذه المعركة: ابن القلانسي: ص٣١٩، ٣٢٠. وهو يذكر أن عدد أفراد جيش روجر بلغ ما يزيد على العشرين ألفاً بين فارس وراجل. ابن الأثير: جـ٨ ص٦٤٢. وهو يذكر أن عدد أفراد جيش إيلغازي بلغ نحو عشرين ألفاً، وكان مع روجر ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل. سبط ابن الجوزي: جـ٢ ص٧٦٢. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٧٩ ـ ٥٨٦.
فولشر الشارتري: ص١٨٦، وروايته موجزة، ولعله لم يعرف الكثير عنها، ولجأ عوضاً عن ذلك إلى تأنيب روجر على خطاياه. رنسيمان: جـ٢ ص٢٣٤ ـ ٢٣٩.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٥٣.
(٣) سرمد: من أعمال حلب.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٢٣٩.

بأنهما انتصرا على الأعداء، وانتقما بقتل الأسرى، وبذا بدَّدا الثمار التي جنياها من معركة البلاط.

على الصعيد الصليبي

- شكَّلت هزيمة الصليبيين في معركة البلاط كارثة حقيقية، إذ أضحت أنطاكية، البوابة الشمالية للإمارات الصليبية في بلاد الشام، بلا أمير ولا جيش في الوقت الذي أخذ فيه المسيحيون المحليون، السريان والأرمن الأرثوذكس، يُحيكون المؤامرات للتخلص من الحكم الصليبي الواقع عليهم، وكان ذلك أكثر ما أقلق البطريرك برنارد القلنسي الذي تولى القيادة.

- توقع سكان أنطاكية عندما علموا بنبأ الهزيمة أن يبادر إيلغازي بالقدوم لمهاجمة المدينة في الوقت الذي خلت فيه من العساكر للدفاع عنها، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل.

- قام البطريرك برناد برعاية شؤون المدينة التي أخذها الفزع من كل جانب، وحراسة تحصيناتها، حتى وصل بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في (٢١ ربيع الآخر ٥١٣هـ/ أول آب ١١١٩م) فوجد المدينة بحال يُرثى لها بعد أن اجتاح الأتراك أراضيها ودمَّروا ضواحيها.

- استقبل أعيان أنطاكية وسكانها الملك الصليبي بالترحاب، ورحَّبت به أخته الأميرة سيسيليا وكذلك البطريرك برنارد، وأول ما قام به من أعمال، أنه أبعد المغيرين من الضواحي، وطمأن السكان، وأعاد إليهم الثقة بأنفسهم، ثم اجتمع بأعيان المدينة للتشاور في أمر حكومتهم المقبلة علماً بأن الأمير الشرعي بوهيموند الثاني الذي اعترف روجر بسيادته، كان صبياً لم يتجاوز العاشرة من عمره، ويقيم مع والدته في إيطاليا، ولم يبق في الشرق ممثل للأسرة النورمانية، فتقرَّر أن يتولى بلدوين الثاني حكومة أنطاكية بوصفه زعيماً للصليبيين في الشرق حتى يبلغ بوهيموند الثاني سن الرشد، كما تقرَّر أن يتزوج بوهيموند الثاني إحدى بنات الملك[١].

- أعاد بلدوين الثاني توزيع إقطاعات الإمارة التي خلت بعد مصرع فرسانها في المعركة، وزوَّج أراملهم بمن يليق بهن من فرسانه[٢].

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٦.

(٢) فولشر الشارتري: ص١٨٩. ابن العديم: جـ١ ص٣٩٤، ٣٩٥. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٨٦.

ذيول معركة البلاط

ازداد إيلغازي قوة بعد الانتصار، فنهض مع حليفه طغتكين في (٢ جمادى الأولى/ ١١ آب) لاسترداد ما يقع شرقي العاصي من حصون من أيدي الصليبيين، فاستسلمت له حامية حصن الأثارب مقابل الأمان، وكذلك زردنا التي غادرها أميرها روبرت الأبرص. وكان بلدوين الثاني يأمل في إنقاذ الأثارب، غير أنه لم يكد يصل إلى جسر الحديد حتى التقى بحاميتها وهي في طريقها إلى أنطاكية، ثم سمع بحصار زردنا، فأدرك عندئذ أن المسلمين يهدفون إلى فتح القلاع الواقعة حول معرة النعمان وأفامية، فتابع زحفه وعسكر في (٤ جمادى الأولى/ ١٣ آب) بتل دانيث، وعلم في صباح اليوم التالي بسقوط زردنا، فرأى من الحكمة أن يبتعد باتجاه أنطاكية. ونشبت المعركة بينه وبين إيلغازي قرب قرية هاب وهي قلعة حصينة من العواصم، وأسفر القتال عن نتيجة غير واضحة، وأشاع كل طرف إنه انتصر لكن الواقع أن بلدوين الثاني لم يُحقِّق شيئاً من النتائج، ووقع روبرت الأبرص في الأسر، فسلَّمه إيلغازي إلى طغتكين الذي قتله صبراً. وغادر كل طرف ساحة المعركة وهو قانع بالنتيجة، فانسحب إيلغازي وطغتكين بانتظام إلى حلب مع عدد كبير من الأسرى، ولم يحاول الملك الصليبي مطاردتهم بل تحرك جنوباً نحو معرة النعمان ومنها إلى الروج فأجلى بني منقذ عنها ثم عقد معهم معاهدة أعفاهم بموجبها من دفع الضرائب السنوية التي كان روجر قد فرضها عليهم، واستردَّ ما استولى عليه إيلغازي من حصون منها كفر روم، وكفرطاب، وسرمين، ومعرة مصرين باستثناء زردنا والأثارب التي بقيت مع المسلمين، وهذا يعني وقف التهديدات الإسلامية للصليبيين من حلب لمدة وجيزة[١]. واعترف إيلغازي بموجب هدنة وقَّعها مع بلدوين الثاني، بحق إمارة أنطاكية الاحتفاظ بممتلكاتها شرقي نهر العاصي. وبهذا يكون الملك الصليبي قد حقَّق نجاحاً كبيراً للصليبيين من دون قتال، وكانت مدة الهدنة عاماً كاملاً، أي حتى (٥١٤هـ/ ١١٢٠م).

استأنف الصليبيون، بعد انتهاء مدة الهدنة، عملياتهم العدائية ضد القرى الإسلامية، فتعاون أهل أنطاكية مع جوسلين أمير الرها وهاجموا الأثارب في (صفر ٥١٥هـ/ ١١٢١م)، فقتلوا جماعة وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة[٢]، ونزلوا في (ربيع الآخر/حزيران ـ تموز) نواز في جبل السماق بحلب، وزحفوا إلى الأثارب مرة ثانية، وأحرقوا الدور والغلة، وأغار بلدوين الثاني على حلب، فأخذ الناس والدواب من حاضر حلب، فخشي إيلغازي على حلب التي أخذ يُهدِّدها خطر

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٢٤٣ ـ ٢٤٦.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص٣٩٩.

الصليبيين، فأمر ابنه سليمان، النائب عنه في حكم حلب، أن يعقد هدنة مع الصليبيين على ما يريدون، فتم الاتفاق على ما يلي:

- يتخلَّى المسلمون للصليبيين عن سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال.
- يُسلِّم إيلغازي الأثارب إلى الصليبيين، مع الإشارة إلى أن الجنود المسلمين رفضوا التخلي عنها، فبقيت مع المسلمين.
- تقسيم الجهات الزراعية المحيطة بحلب وكذلك رحى الغربية بالتساوي بين المسلمين والصليبيين.
- هدم تل هراق بحيث لا يبقى للفئتين فيه حكم[(١)].

وغادر بلدوين الثاني بيت المقدس إلى أنطاكية للتوقيع على الاتفاقية[(٢)].

وحدث أن أعلن سليمان الثورة على والده إيلغازي بسبب منحه حلب لدُبَيْس بن صدقة، فاستغل الصليبيون ذلك وقاموا باحتلال زردنا وبدأوا بالتقدم نحو حلب، واحتل بلدوين الثاني قلاعاً عدة منها الخناصرة وبرج سينا والنقرة والأخص وذلك في (جمادى الآخرة/آب ـ أيلول)، ورداً على مبعوث سليمان الذي طلب الهدنة، أصرَّ بلدوين الثاني على أن يتنازل المسلمون عن الأثارب التي حاصرها مدة ثلاثة أيام، إلا أنه فشل في السيطرة عليها وعاد إلى أنطاكية[(٣)].

استغل طغتكين في هذه الأثناء توجه بلدوين الثاني إلى أنطاكية لتوقيع الاتفاقية وقام بغزو مملكة بيت المقدس، مستغلاً عدم قدرة الملك الصليبي على إدارة مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية في وقت واحد، فهاجم طبرية، وخرَّب الأراضي المحيطة بها، فجهز بلدوين الثاني جيشاً لمقاومته، فانسحب طغتكين شرقاً، فلحق به بلدوين الثاني واحتل جرش ودمرها بالكامل في (جمادى الأولى ٥١٥هـ/ تموز ١١٢١م) بسبب عدم قدرة الصليبيين على الاحتفاظ بها[(٤)].

وقام إيلغازي في العام نفسه بعد تسوية الخلافات بينه وبين ابنه سليمان بمهاجمة زردنا مستغلاً غياب بلدوين الثاني في طرابلس بسبب خروج حاكمها بونز على طاعته، فلما علم بذلك عاد إلى أنطاكية وزحف نحو المسلمين يرافقه جوسلين وبعض قادة أنطاكية، فاضطر المسلمون إلى الانسحاب، وعاد هو إلى أنطاكية، ثم عاود المسلمون حصارها، وانسحبوا مرة أخرى أمام قواته وأُصيب إيلغازي أثناء الانسحاب بسكتة دماغية وتوفي في قرية العجول من عمل ميافارقين في (رمضان ٥١٦هـ/ ٣ تشرين الثاني ١١٢٢م)[(٥)].

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٤٠٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٠٢.
(٤) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٨٩.
(٥) ابن القلانسي: ص٣٣٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٦٨٠. ابن العديم: جـ١ ص٤٠٦.

الفصل العاشر

تطور أوضاع إمارة الرها

مشكلات الإمارة عقب تأسيسها

ذكرنا أن إمارة الرها كانت أولى الإمارات التي أسَّسها الصليبيون في المشرق الإسلامي، وهي التي أضحت حاجزاً يقي الإمارات الصليبية في بلاد الشام ضد الأخطار التي واجهتها من جانب المسلمين، وكانت تُعدُّ إمارة حدود. ولم تلبث هذه الإمارة أن نمت وتطورت وتوسعت على جانبي الفرات من راوندان وعينتاب غرباً إلى مشارف حرَّان شرقاً، ومن بهسنى وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً، لكن هذه الإمارة عانت من ثلاث مشكلات:

الأولى، عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتمنحها مناعة.

الثانية، عدم تجانس سكانها، إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين، السريان اليعاقبة والأرمن، والصليبيين الغربيين، والمسلمين الذين تركَّزوا في المدن مثل سروج.

الثالثة، النقص العددي في القوة العسكرية الضاربة على الرغم مما حوته من الأرمن الذين بلغوا ثلاثة أرباع السكان وقد اشتهروا بالروح العسكرية، فإذا تعاونوا مع الأمير الصليبي أضحى لديه جيش جاهز وقوي، لذا كان أول عمل قام به كل من بلدوين الأول وبلدوين الثاني، هو استقطاب الأرمن وإرضاؤهم، لكن الأرمن أثبتوا أنهم عنصر لا يمكن الركون إليه ولا الاعتماد عليه بسبب تقلباته السياسية وخيانته للصليبيين، فاحتاج أمير الرها نتيجة لذلك إلى فرسان نشأوا في الغرب، وإلى رجال دين تربوا في الغرب.

وفرضت طبيعة إمارة الرها الجغرافية ألا يقيم الصليبيون فيها حكومة مركزية تضمن لهم إشرافاً تاماً على مختلف أجزائها، واستعاضوا عن ذلك بتشييد الحصون المنيعة التي شحنوها بالعساكر. وكان الجند في هذه الحصون يتولون جمع الضرائب من القرى المجاورة، ويشنون الغارات على مناطق الحدود مع المسلمين، وداخل المناطق الإسلامية. وحصل أمير الرها بفضل خصوبة أراضي الإمارة وازدهار مدنها، وما جنى من الضرائب وما جلبته الغارات من غنائم؛ على موارد مالية وفيرة.

وعندما استُدعي بلدوين حاكم الرها ليتولى حكومة بيت المقدس، بعد وفاة أخيه غودفري دي بوايون في عام (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)، اختار ابن عمه بلدوين دي بورغ ليخلفه في إمارة الرها، فاتخذ لقب بلدوين الثانـي، ونهض ليتم عمل سلفه، غير أنه وجد نفسه يعاني من المشكلات المشار إليها؛ قِلَّة المحاربين وخطر المسلمين ونقص المال، فكان لا بد له من الاعتماد على الأرمن، فاسترضاهم وتقرَّب إليهم وآلفهم من خلال عدم إرهاقهم بالضرائب، وعدم اتباع سياسة تعسفية تجاههم، وحسن معاملة رجال الكنيسة الأرمنية، وقد خفَّفت هذه السياسة الأثر السيئ الذي سبَّبه سلفه بلدوين الأول عندما تخلَّص من ثوروس الأرمني بطريقة مريبة فضلاً عما فرضه عليهم من ضرائب باهظة أثقلت كاهلهم[١]. وما أقدم عليه بلدوين الثاني من زواجه من مورفيا الأرمنية، ابنة جبريل حاكم ملطية؛ متَّن العلاقة مع الأرمن التي تجلَّت بمساندتهم لجبريل ضد الدانشمنديين في عام (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)[٢].

وتلقَّى بلدوين الثاني دعماً ومساندة من ابن عمته جوسلين دي كورتناي الذي وصل إلى الرها بعد ذلك بقليل، فمنحه حكم الأراضي الرهاوية الواقعة غربي الفرات، مثل تل باشر التي اتخذها مقراً له ودلوك الواقعة على مفترق الطرق بين مرعش وحلب والرها، وعينتاب إلى الجنوب الشرقي منها وغيرها، فأضحى بذلك الرجل الثاني في إمارة الرها بعد بلدوين الثاني.

التوسع على حساب الأراتقة

أدرك بلدوين الثاني أنه لا بد من التوسع على حساب الأراتقة في الموصل وديار بكر لكي يُقوِّي صلته بملطية، وكان قد استولى على سروج الواقعة على بُعد أربعين كليومتراً إلى الجنوب الغربي من الرها، وانتزعها من حاكمها الأرتقي بلك بن بهرام، وأقطعها لأحد فرسانه ويُدعى فوشيه دي شارتر[٣]، فقام سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا[٤] بمحاولة لاسترجاعها، فحشد قواته في ديار بكر، وبدأ هجومه في (ربيع الأول ٤٩٤هـ/ كانون الثاني ١١٠١م)، فتصدَّى له بلدوين الثاني وفوشيه دي شارتر بقواتهما المؤلفة من الأرمن والصليبيين، فهزمهما سكمان، ولقي فوشيه دي شارتر مصرعه، وانسحب بلدوين الثاني إلى الرها، ومن ثمَّ توجه إلى أنطاكية لالتماس المساعدة من تانكريد. وفرض الأراتقة خلال ذلك حصارهم على سروج

---

(١) عاشور: جـ١ ص٤٣٨. Mathew of Edessa: pp70, 71. Michel le Syrien: III 197. Grousset: I p388.
(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٥٨. (٣) المصدر نفسه.
(٤) حصن كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر في ديار بكر. الحموي: جـ٢ ص٢٦٥.

التي احتمى بها مسيحيو المنطقة، وتولى الدفاع عنها رئيس أساقفة اللاتين، فصمدت للحصار مدة طويلة حتى عاد بلدوين الثاني مع النجدة من أنطاكية وألحق الهزيمة بالأراتقة، وقضى على ثورة العرب في المدينة، فقتل كثيراً منهم وسبى النساء ونهب الأموال، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً[1]. وأغار بلدوين الثاني بعد عامين على إمارة ماردين الأرتقية وأسر أحد أمرائها وسبى وغنم عدداً من الماشية من الأغنام والخيل والإبل[2].

الراجح أن هدف بلدوين الثاني من هذا الهجوم هو إرهاب الأراتقة والحد من نشاطهم العسكري وإجبارهم على اتخاذ موقف دفاعي بدلاً من الهجوم، فضلاً عن العمل على تعزيز صلته بالمواقع الصليبية في آسيا الصغرى[3].

أوضاع أتابكية الموصل

واصل الصليبيون اعتداءاتهم على المناطق الإسلامية في منطقة الجزيرة الفراتية في ظل اختلاف أوضاع المسلمين بعامة، ولم يحاول السلاجقة العظام في فارس ولا أتابكتهم في إمارة الموصل التي تجاور إمارة الرها من الغرب والجنوب التدخل لصدهم، كما لم يستغلوا فرصة وقوع بوهيموند أمير أنطاكية في أسر الدانشمنديين، وفشل حملة اللمبارديين في الأناضول؛ لمهاجمة الرها واستعادتها. الواقع أن أتابكية الموصل التي كان عليها أن تواجه الصليبيين في شمالي بلاد الشام بعامة والرها بخاصة، كانت تمر بمرحلة من النزاعات الداخلية قبل أن يستقر وضعها باعتلاء شمس الدولة جَكَرْمِش الحكم فيها في عام (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م)، فقد جعلت وفاة الأتابك كربوغا في (ذي القعدة ٤٩٤هـ/أيلول ١١٠١م) الوضع مائعاً، وأدَّت إلى إثارة الحرب الأهلية، ذلك أن كربوغا أوصى بالولاية من بعده إلى سنقرجة وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته، لكن نازعه موسى التركماني نائبه في حصن كيفا بعد أن استدعاه أهل الموصل، فاستطاع أن يقتل منافسه ويقوم بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركياروق[4].

استغل شمس الدولة جَكَرْمِش صاحب جزيرة ابن عمر[5] فرصة الاضطرابات ليتدخل

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٢٤. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٥٨.

(٢) Grousset: I p393. Cahen, Claud: La Syrie du Nord: p32.

(٣) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: ص٢١١.

(٤) Elisséeff: II p294.

(٥) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، وهي فرضة لأرمينيا وبلاد الروم ونواحي ميافارقين وأرزن. الحموي: جـ٢ ص١٣٨.

في النزاعات الداخلية، فزحف إلى نصيبين واستولى عليها، فهرب موسى إلى الموصل وتحصَّن بها، فحاصره جَكَرْمِش مدة طويلة، واضطر موسى إلى التماس المساعدة من سكمان الأرتقي في ديار بكر، فعرض عليه إعطاءه حصن كيفا ومنحه عشرة آلاف دينار مقابل مساعدته. قَبِلَ سكمان العرض وقدَّم له مساعدة عسكرية، فاضطر جَكَرْمِش إلى فك الحصارعن الموصل. ولما خرج موسى لاستقباله قتله بعض غلمانه في الطريق، في حين تقدم جَكَرْمِش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب سكانها[1].

الواقع أن هذه النزاعات الداخلية تعطينا صورة واضحة عن مدى انحلال السلطة المركزية في دولة السلاجقة، ما أتاح للأتابكة أن يستقلوا بحكم أقاليمها ومدنها ويتقاتلوا فيما بينهم من دون أن يُقدِّروا خطورة الموقف الإسلامي في مواجهة الصليبيين، وعلى الرغم من ذلك كان أتابكة الموصل يستغلون فرص الهدوء الداخلي للتصدي لهؤلاء. وقد ذكرنا جهود جَكَرْمِش وخلفه مودود في محاربة الصليبيين في الرها ووقوع بلدوين الثاني أمير الرها وجوسلين صاحب تل باشر أسيرين في أيدي المسلمين في معركة البليخ أو حرَّان، ففدى جوسلين نفسه بعشرين ألف دينار، وبقي بلدوين الثاني في الأسر.

وأدَّى الصراع على السلطة بين أتابكة الموصل إلى تدخل قلج أرسلان الأول سلطان سلاجقة الروم. والواقع أنه أزعج السلطان محمد ما كان لجَكَرْمِش من نزعات استقلالية وتعاونه مع السلطان السلجوقي الرومي، فأمر بعض الأمراء، مثل رضوان صاحب حلب ونائبه الإصبهذ صباوة، وإيلغازي الأرتقي الذي خلف سكمان بعد وفاته، وصهره ألبي بن أرسلان تاش صاحب سنجار؛ الانفضاض عن جَكَرْمِش ومهاجمة أملاكه، غير أن اختلافهم على تركته أدى إلى فشلهم، فلم يسع السلطان محمد عندئذ إلا أن ينتزع الموصل من يد جَكَرْمِش ويقطعها لجاولي سقاوة ثم لمودود، فتجدَّد الصراع الذي انتهى بغرق قلج أرسلان الأول في نهر الخابور، واعتلاء مودود أتابكية الموصل، وفرار جاولي سقاوة إلى منطقة الجزيرة الفراتية، مصطحباً معه بلدوين الثاني، وكان أسيراً في الموصل، فالتفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية لا سيما القبائل العربية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد، كما لم يتردَّد في محالفة القوى الصليبية المجاورة.

استغل جوسلين حاجة جاولي سقاوة إلى المال وظروفه السياسية السيئة بعد طرده من الموصل وساومه في إطلاق سراح سيده بلدوين الثاني، وتم الاتفاق على أن يتعهَّد بلدوين الثاني:

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧١، ٤٧٢. Elisséeff: II p294.

- بدفع مبلغ سبعين ألف دينار ثمناً لإطلاق سراحه.
- بمساعدة جاولي سقاوة في مشاريعه المقبلة ضد السلطنة السلجوقية «وينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله».
- بإطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين في الرها[1].

وأرسل جاولي سقاوة بلدوين الثاني إلى قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة وسلَّمه إلى صاحبها سالم بن مالك. واستطاع جوسلين أن يجمع مبلغ ثلاثين ألف دينار وهو مقدم الفدية المتفق عليها وذهب إلى قلعة جعبر وعرض على جاولي سقاوة أن يُطلق سراح بلدوين الثاني وأن يتخذه رهينة حتى يحصل على ما تبقَّى من الفدية. تأثَّر جاولي سقاوة بهذه الشهامة وقبل العرض ثم أطلق سراح جوسلين الثاني بعد بضعة أشهر بسبب حرصه على التحالف مع الصليبيين، وأحاط الأميرين الصليبيين بكثير من مظاهر التكريم وخلع عليهما، ما عجَّل بتحقيق التحالف بين الطرفين. ودفع بلدوين الثاني ما تبقَّى من الفدية[2]، وجرت هذه الأحداث في عام (٥٠١ ـ ٥٠٢هـ/١١٠٨م).

النزاع الصليبي حول الرها

كان أول عمل أقدم عليه بلدوين الثاني، بعد إطلاق سراحه، أنه توجَّه إلى أنطاكية، فاجتمع بتانكريد وطلب منه رد إمارته، الرها، إليه، ويبدو أن صاحب أنطاكية الذي ظلَّ يحكم إمارة الرها مدة أربع سنوات في ظل أسر بلدوين الثاني، لم يشأ أن يتخلَّى عنها، فأعطى بلدوين الثاني مبلغ ثلاثين ألف دينار بالإضافة إلى الخيل مقابل التنازل عن حقه في استرداد الرها، وأصدر أوامره إلى نائبه فيها ريتشارد دي سالرنو بألا يُسلِّمها إليه. فغادر بلدوين الثاني أنطاكية وهو ساخط، فتوجَّه إلى تل باشر، فاجتمع مع جوسلين لدرس الوضع، وأرسل إلى جاولي سقاوة يطلب منه المساعدة. ولما علم تانكريد بذلك أسرع باللحاق بهما «ليحاربهما قبل أن يقوى أمرهما ويجمعا عسكراً ويلتحق بهما جاولي وينجدها»[3]. ودارت بين الطرفين مناوشات خفيفة حاولا على أثرها التفاوض لحل المشكلة، غير أنهما لم يصلا إلى نتيجة. فتحرك بلدوين الثاني كي يلتمس الحلفاء، وقد بلغ من حرصه على استقطاب جاولي سقاوة أن أرسل إليه مائة وستين رجلاً من أسرى المسلمين بعد أن حرَّرهم

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٦٥. ابن العبري: ص١٣١.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. Michel le Syrien: III pp195, 196.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٦٦. Mathew of Edessa: p86.

وسلَّحهم «وكساهم ليقوموا بدورهم في مساعدة جاولي سقاوة وبلدوين معاً»[١]، كما تطلع إلى الاستعانة بالأرمن، فاستغل سياسة ريتشارد سالرنو القاسية بحقهم، وابتزاز الأموال منهم، وعجز عن حمايتهم؛ لاستقطابهم، فتوجَّه إلى كيسوم واجتمع مع كوغ باسيل وهو أحد زعمائهم المشهورين، وكان الأرمن يعدُّونه بطلاً قومياً لا سيما بعد أن نجح في التصدي لاعتداء أتراك الأناضول على إمارته في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٧م) وإنزال الهزيمة بهم في العام التالي عندما حاولوا الاعتداء على تلك الإمارة.

اجتمع بلدوين الثاني مع الزعيم الأرمني في رعبان وطلب منه المساعدة لاسترداد إمارته، فرحَّب به وقد توافقت مصلحته مع مصلحة الأمير الصليبي بسبب تخوُّف الأرمن من سياسة تانكريد في الاستيلاء على منطقة كيليكية وصبغها بالصبغة اللاتينية كما بدا مما فعل بالمصيصة. ولم يتردَّد في إمداده بقوة عسكرية من الأرمن يبلغ عديدها ألف فارس وألفي راجل[٢].

وعندما خرج بلدوين الثاني للاصطدام بخصمه، وجرت بينهما بعض المناوشات تدخل بطريرك أنطاكية برنارد القلنسي لحسم النزاع بينهما، فحكم بأن يأخذ بلدوين الثاني إمارة الرها ويعود تانكريد إلى أنطاكية، وقد تمَّ ذلك في (٩ صفر ٥٠٢هـ/ ١٨ أيلول ١١٠٨م)؛ وسحب تانكريد ابن خالته ريتشارد من الرها ودخلها بلدوين الثاني وسط ترحيب السكان به[٣].

فك الارتباط الصليبي ـ الأرمني

ظلَّت الفجوة عميقة بين بلدوين الثاني وتانكريد، ذلك أن الحكم الذي اتخذه البطريرك برنارد لحل مشكلة الصراع بين الرجلين لم يكن إلا مؤقتاً، وازدادات هذه الفجوة عمقاً مع مرور الوقت بفعل تدخل الأمراء المسلمين في هذا النزاع، وتوزُّع ولاءاتهم بين الأميرين الصليبيين. ساند جاولي سقاوة الذي طُرد من الموصل وهو يسعى إلى تأسيس إمارة له في الجزيرة الفراتية، بلدوين الثاني، ما أوقعه في خلاف مع رضوان صاحب حلب الذي كان يخشى من مشاريعه التوسعية، فاضطر أن يتحالف مع تانكريد الذي كان يسعى للانتقام من بلدوين الثاني. وأسفر الصدام بين التحالفين عن انتصار تحالف رضوان ـ تانكريد، وفرَّ بلدوين الثاني مع جوسلين إلى دلوك وذلك في (ربيع الأول ٥٠٢هـ/ تشرين الأول ١١٠٨م).

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٦٦. (٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٦٦، ٥٦٧. فولشر الشارتري: ص١٣٤.

Mathew of Edessa: pp77, 86.

كان لانتصار تانكريد رد فعل داخل الرها. فقد اعتقد الأرمن أن بلدوين الثاني وجوسلين قد لقيا مصرعهما أو أنهما وقعا في الأسر، فخشوا من هجوم قد يقوم به تانكريد لاستعادة الرها وهو الحكم الذي كرهوه، فانتابهم الاضطراب والذعر، فعقدوا اجتماعاً في كنيسة القديس يوحنا للتداول في الموقف، ودعوا رئيس الأساقفة الكاثوليكي ليشترك معهم لإقامة حكومة مؤقتة حتى ينجلي الموقف. ويبدو أنه حصل خلاف مع رئيس الأساقفة فوجَّهوا إليه الإساءات والاتهامات، ما هدَّد بحدوث صدام بين الأرمن والصليبيين الغربيين.

وما حدث من وصول بلدوين الثاني إلى المدينة بعد يومين سالماً، وعلم بما فعله الأرمن أثناء غيابه؛ أن أدرك خطورة توجهاتهم على مستقبله السياسي ومستقبل إمارته، واعتقد بأنهم يسعون إلى الاستقلال، فبادر إلى اضطهادهم، فألقى القبض على عدد كبير منهم، وسمل عيون جماعة، وافتدى البطريرك الأرمني عينيه ببذل المال، فاضطر عدد كبير منهم إلى النزوح عن المدينة. واستبعدهم بلدوين الثاني من الوظائف العامة، واعتمد على رجاله من الصليبيين الغربيين، وقد زادت هذه السياسة الموقف تأزماً لأن الأرمن ضاقوا ذرعاً بحكم الصليبيين، ورأوا فيهم أعداء فاقوا الأتراك في تطرفهم. وحتى يتخلَّصوا من حكمهم اتصلوا بالأتابك مودود أمير الموصل عارضين عليه استعدادهم لتسليمه الرها، ولما علم بلدوين الثاني بهذه الاتصالات، انتقم منهم، فطردهم من الرها ولم يترك فيها سوى الصليبيين والسريان اليعاقبة وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى الموالية له[١].

حملة الأتابك مودود الأولى ضد الرها

عرَّض النزاع الداخلي بين الصليبيين هؤلاء للخطر في ظل تمسك أتابك الموصل الجديد مودود بن التونتكين بفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد بها إليه السلطان محمد السلجوقي، فكانت الحاجة ماسة إلى تحقيق الوفاق بين سائر الأمراء الصليبيين. وتدخل الملك بلدوين الأول في هذه القضية بوصفه زعيماً للصليبيين في المشرق، فدعا جميع الأمراء الصليبيين في شمالي بلاد الشام إلى الاجتماع به في المعسكر المنصوب أمام طرابلس، فتقرَّر تقسيم الإرث بين أميري بيت تولوز وليم جوردان وبرتراند على أن يكون الأول تابعاً لتانكريد، وإرغام

(١) انظر فيما يتعلق بهذا الموضوع:

Mathew of Edessa: pp26-268. Michel le Syrien: III p195. Grousset: I p443.

رنسيمان: جـ٢ ص١٨٥. عاشور: جـ١ ص٤٥٣ ـ ٤٥٥.

تانكريد وبلدوين الثاني وجوسلين على أن يتم الوفاق بينهم، وأن يتعاونوا على حرب المسلمين، غير أن مصرع وليم جوردان أثار مشكلة جديدة، فقد انتقلت أملاكه إلى برتراند الذي اعترف بالملك بلدوين الأول وحده سيداً عليه. وأقدم تانكريد في هذه الأثناء على مهاجمة جبلة التابعة لبني عمَّار واستولى عليها في (ذي الحجة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م)، فأضحت حدوده تجاور أملاك برتراند.

ودعا الأتابك مودود في هذه الأثناء جيرانه من الأمراء المسلمين لتكوين حلف من أجل جهاد الصليبيين، ثم أعدَّ حملة عسكرية في (شوال ٥٠٣هـ/ نيسان ١١١٠م) لانتزاع مدينة الرها، وسانده إيلغازي الأرتقي أمير ماردين بعساكره من التركمان، وسكمان القطبي أمير أرمينيا المعروف بشاه أرمن[١]. وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعدُّ هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد هؤلاء، ونقطة تحول مهمة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم[٢].

وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى التمس بلدوين الثاني المساعدة من بلدوين الأول ملك بيت المقدس، فقدم مع برتراند أمير طرابلس، وانضمَّ إليهما قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل صاحب كيسوم ورعبان فوصلوا إلى الرها في (آخر ذي الحجة/ ٣٠ تموز).

ظل الأتابك مودود يحاصر مدينة الرها مدة شهرين من دون أن يتمكَّن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حرَّان وفق خطة تكتيكية، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق[٣].

وقرَّر الملك بلدوين الأول مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحِّد كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكريد صاحب أنطاكية ونجح في تحقيق المصالحة بينه وبين بلدوين الثاني أمير الرها[٤].

كان الأتابك مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي بفعل دوافع عدة ذكرناها سابقاً[٥].

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٧٠، ٢٧١.

(٢) مؤنس، حسين: نور الدين محمود: ص١٢٣.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٧١.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص١٨٩. Elisséeff: II pp302, 303.

(٥) انظر الفصل السادس.

إجلاء الأرمن عن الجزيرة الفراتية

كان من بين القرارات التي اتخذها الملك الصليبيي بلدوين الأول نقل المسيحيين الأرمن واليعاقبة الساكنين في الأماكن الشرقية لنهر الفرات إلى الأماكن الغربية ليسهل الدفاع عنهم، على أن تُخلى المراكز الواقعة على شاطئ الفرات الشرقي. وبدأ الصليبيون ينفذون خطة الجلاء واختاروا أن تكون مدينتا الرها وسروج مكاناً للتجمع، كما تقرَّر أن يوضع أعداد منهم في المناطق الجبلية المحيطة بكيسوم، وزوَّدوا مدينة الرها بالغذاء والسلاح والمواد اللازمة لمقاومة حصار طويل، ووضعوا فيها حاميات عسكرية تكفي للدفاع عنها، غير أن عملية الجلاء كانت بطيئة بسبب نقص السفن اللازمة. كان الأتابك مودود آنذاك في حرَّان يراقب الموقف عن كثب ويتحين الفرصة المناسبة للانقضاض على الذين ينتظرون دورهم للعبور، وكانوا بضعة آلاف، فهاجمهم وقتل كثيراً منهم وأسر الباقي، واكتفى الجيش الصليبي المتمركز على الضفة الغربية للنهر بمراقبة المجزرة، غير أن بلدوين الثاني قاد فرقة عسكرية عَبَر معها النهر للانتقام من الأتابك مودود، غير أن تفوق المسلمين العددي عرَّضه للخطر، فبادر كل من الملك بلدوين الأول وتانكريد بإنقاذه، وعاد الأتابك مودود إلى حرَّان ومعه عدد كبير من الأسرى وغنائم وفيرة[(١)].

وهكذا ساء وضع الصليبيين عند أطراف الفرات على الرغم من أنهم احتفظوا بالرها وسروج، وهما أكبر قلعتين في منطقة شرقي الفرات، غير أنهما كانتا قائمتين وسط أراضٍ خربة ومقفرة. وعاد بلدوين الثاني إلى الرها ينعى إمارته الخربة في حين عاد الملك بلدوين الأول إلى بيت المقدس، ورجع تانكريد إلى أنطاكية[(٢)].

رد فعل عامة المسلمين

أثار الوضع السيئ الذي بات فيه المسلمون في أواخر القرن الخامس الهجري/ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي في بلاد الشام وأطراف العراق، موجة عارمة من الاستياء، فارتفعت الأصوات تُندِّد بذلك الوضع وتدعو للجهاد، إذ أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل في بلاد الشام وأرض الجزيرة الفراتية قطَّع أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق وبلاد الشام والحجاز ومصر[(٣)].

---

(١) ابن القلانسي: ص٢٧١، ٢٧٢. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٥، ٣٦٦.
Mathew of Edessa: pp93, 94. Albirt d'Aix: p675.

(٢) عاشور: جـ١ ص٤٥٩.

(٣) المرجع نفسه. جـ١ ص٤٦٠.

ونتيجة لتردي الأوضاع في حلب إثر هجمات تانكريد المتكررة، ذهب وفد حلبي ضمَّ بعض الصوفيين والتجار والفقهاء، إلى بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الصليبيين[١]، ويبدو أنهم لم يحصلوا إلا على وعود ما دفعهم إلى إثارة أهل بغداد، فقصد الجميع جامع السلطان وقت صلاة الجمعة، وأنزلوا الخطيب عن المنبر وحطَّموه، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد[٢].

وتكرَّرت الحادثة في يوم الجمعة التالي حين قصد الناس جامع القصر بدار الخلافة في بغداد، فاقتحموه وكسروا شباك المقصورة والمنبر[٣]. عندئذ أدرك الخليفة المستظهر بالله خطورة الموقف، فأرسل إلى السلطان السلجوقي محمد «يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه»[٤].

وكان السلطان قد استقبل قبل وصول الوفد الحلبي، سفارة من الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين للتباحث بشأن القيام بعمل مشترك ضد تانكريد[٥] الأمر الذي جعل أهل بغداد يصيحون في وجهه «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم»[٦].

حملة الأتابك مودود الثانية ضد الرها

نتيجة للضغط الشعبي، أمر السلطان محمد الأتابك مودود بإعداد حملة كبيرة لحرب الصليبيين، وجعل القيادة الاسمية لابنه مسعود[٧]، وانضوى تحت قيادته جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة: سكمان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض دياربكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه إياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بقيادة أيلنكي وزنكي ابني برسق أمير همدان[٨].

بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في (محرم ٥٠٥هـ/ تموز ١١١١م) بفتح مواقع صليبية عدة شرق الفرات ومن ثم توجَّه أفرادها لحصار الرها.

وعندما انتشرت أخبار الحملة في الأوساط الإسلامية في شمالي بلاد الشام حاول كل أمير استغلالها لصالحه، مثل سلطان بن علي صاحب شيزر ورضوان صاحب حلب، وطغتكين صاحب دمشق، ما أدى إلى ضياع هدف الحملة، وانفرط عقد

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٨.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٧٦.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٤، ٥٨٥.
(٤) المصدر نفسه: ص٥٨٥.
(٥) ابن القلانسي: ص٢٧٧.
(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٥.
(٧) المصدر نفسه: ص٥٨٤.
(٨) ابن القلانسي: ص٢٧٨ ـ ٢٨٨.

المسلمين وتفرقت جيوشهم. وتحصَّن الأتابك مودود وراء أسوار شيزر متجنباً خوض معركة مكشوفة مع الصليبيين نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما أنه لم يكن راغباً في قضاء فصل الشتاء بعيداً عن قاعدته[١].

أخيراً اجتمعت القوى الصليبية التي تشكَّلت من أنطاكية والرها وطرابلس قرب أفاميا على الضفة الشرقية لنهر العاصي، في حين عسكر الأتابك مودود على الضفة الغربية للنهر بتشجيع من صاحب شيزر الذي هوَّن عليه أمر الجهاد[٢]. وعبر المسلمون نهر العاصي إلى الضفة الشرقية واشتبكوا مع الصليبيين في مناوشات كانت عنيفة أحياناً انسحب بعدها الأتابك مودود عائداً إلى الموصل، كما غادر كل أمير إلى إمارته[٣].

وهكذا فشل الأتابك مودود في طرد الصليبيين من إمارة الرها، وإن دل هذا الفشل على شيء، فإنه يدل على عدم قيام تحالف صادق بين المسلمين ما يجعلهم يشنون هجوماً مضاداً طالما اتحد الصليبيون، ونجت إمارات الصليبيين وبخاصة إمارة الرها في الوقت الراهن.

حملة الأتابك مودود الثالثة ضد الرها

قام الأتابك مودود في (ذي القعدة ٥٠٥هـ/ أيار ١١١٢م) بهجوم ثالث على الرها بشكل مفاجئ وحاصرها، لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية لتواصل الحصار، ويهاجم بالقسم الباقي سروج بوصفها المعقل الثاني للصليبيين في شرقي الفرات بعد الرها، وحدث الهجوم في (محرم ٥٠٦هـ/ تموز ١١١٢م). وبهذه الخطة العسكرية يكون الأتابك مودود قد قسَّم قواته وأضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين. وكانت النتيجة أن لحق به جوسلين صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه إذ ذاك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين الثاني في الدفاع عنها[٤].

مؤامرة الأرمن في الرها

في الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين الثاني، واتصلوا بالأتابك مودود ليخلِّصهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٨، ٥٨٩. (٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ٢ ص٥٢٥.

(٤) ابن القلانسي: ص٢٨٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٩٢.

أن يساعدوه في الاستيلاء على القلعة التي تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة ما يُمكِّنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة(١). لكن وصول جوسلين حال دون نجاح المؤامرة لأنه أسرع باحتلال القلعة وهاجم الأتراك الذين أخذوا يتسللون إليها حتى ردَّهم عن آخرهم(٢).

كشفت مؤامرة الأرمن الفاشلة في الرها عن مدى تدهور أوضاعها، وأدَّت إلى تشدُّد بلدوين الثاني وجوسلين في معاملتهم، فاتخذ بلدوين الثاني إجراءات مضادة وقاسية بما فيها الترحيل الجماعي إلى سميساط في عام (٥٠٧هـ/ ١١١٣م) بالإضافة إلى القتل.

وتعبَّأ الرأي العام الأرمني في المناطق التي يتواجد فيها الأرمن، مثل شمالي العراق وجنوب غربي آسيا الصغرى وشرقها، وخشي الصليبيون من جهتهم من ازدياد نفوذ كوغ باسيل واتساع أملاكه، ما دفع بلدوين الثاني وتانكريد إلى التحالف ضده، وهاجم الثاني رعبان واستولى عليها وتجهَّز لمهاجمة كيسوم، لكن الصلح عُقد بين الجانبين في العام التالي، ويبدو بأن طرد الأرمن من الرها أثَّر سلباً على الحياة العامة فيها، وشعر بلدوين الثاني بعجز من بقي فيها وعدم قدرتهم على الاحتفاظ بالقوة والازدهار الضروريين للدفاع عنها ونموها(٣).

محاولة الأرمن التحالف مع المسلمين

ظل الأرمن في الرها على الرغم من أنهم ركنوا إلى الهدوء، يكنُّون البغضاء والكراهية للصليبيين وبخاصة بلدوين الثاني، ولم يلبث حقدهم عليهم أن دفعهم للتطلع إلى التقرب من المسلمين والتحالف معهم ضدهم.

وحدث بعد وفاة الأتابك مودود أن عيَّن السلطان محمد ممثله في دار الخلافة آقسنقر البرسقي أتابكاً على الموصل وأعمالها وأمره بقتال الصليبيين، وسيَّر معه ابنه الملك مسعود، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته، فلما وصل إلى الموصل انضمَّت إليه عساكرها وفيهم عماد الدين زنكي بن أقسنقر الحاجب(٤)، كما انضم إليه تميرك صاحب سنجار، وأرسل إيلغازي الأرتقي ابنه إياز مع جماعة من الأجناد التركمان،

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٢٠١. Elisséeff: II p307.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٨٩. Michel le Syrien: pp102-105.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٢٠١. Mathew of Edessa: pp102-105.

(٤) هو أبو سعيد آقسنقر الحاجب أتابك حلب، والد عماد الدين زنكي، وقد قتُل في صراعه مع تتش أخي السلطان ملكشاه في عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

بعد تردد ولم يحضر بنفسه[1].

وخرج آقسنقر البرسقي إلى الرها على رأس جيش إسلامي مؤلف من خمسة عشر ألف فارس وحاصرها في (ذي الحجة ٥٠٨هـ/أيار ١١١٥م)، استمر الحصار مدة شهرين. وإذ كانت في المدينة حامية قوية، وتوافرت بها المؤن، على حين أن ما استولى عليه المسلمون من المؤن من ضواحيها لم يكد يكفي لسد حاجاتهم؛ فاضطر آقسنقر البرسقي أن يرفع الحصار عن المدينة واكتفى بتخريب القرى المجاورة مثل سروج وبَلَد الواقعة على دجلة فوق الموصل وربض الرها وسميساط، ما حمل بعض أمراء هذه المناطق إلى إعلان طاعتهم له وعلى رأسهم داغ باسيل الذي خلف والده كوغ باسيل، بالاشتراك مع والدته وقد تطلعا إلى التعاون معه والاحتماء به ضد تانكريد الطامع في إمارتهما، رعبان وكيسوم. وافق آقسنقر البرسقي على مبدأ التحالف بعد أن فرض عليهما جزية رمزية. ويبدو أن الأرمن الذين ارتحلوا إلى كيسوم حرَّضوا داغ باسيل على الاستعانة بالسلاجقة[2].

ولم يلبث النزاع أن نشب بين آقسنقر البرسقي والأراتقة بسبب عدم اشتراك إيلغازي شخصياً بالحملة، فسجن الأول ابنه إياز وقام بنهب المناطق المحيطة بماردين، فتصدى له إيلغازي وسانده ابن أخيه داوود بن سكمان، وهزمه فانسحب من ميدان المعركة وعاد إلى الموصل، ونجا إياز من الاعتقال[3].

القضاء على الإمارات الأرمنية في أطراف العراق والشام

عدَّ الصليبيون تحالف الأرمن مع المسلمين خيانة كبيرة ضد المسيحية، فضلاً عما يُسبِّبه من تهديد خطير للإمارات الصليبية في شمالي العراق وبلاد الشام، وكان على الأرمن أن يدفعوا ثمناً باهظاً مقابل كل هذا؛ فخرج بلدوين الثاني لإنزال العقاب بدغا باسيل من واقع انتزاع أراضيه رعبان وكيسوم، فحاصر الأولى في عام (٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، فالتمس الأمير الأرمني المساعدة من الأمير ثوروس، غير أن هذا لم يلبث أن دعاه للقدوم للمناقشة في أمر قيام تحالف أرمني مناهض للصليبيين، وما إن قدم عليه حتى قبض عليه وزجَّه في السجن ثم سلَّمه لخصمه الأمير الصليبي، ولم يُطلق بلدوين الثاني سراحه إلا بعد أن وعده بالتنازل عن كل أراضيه، والتجأ دغا باسيل إلى القسطنطينية، وحدث ذلك في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م)[4].

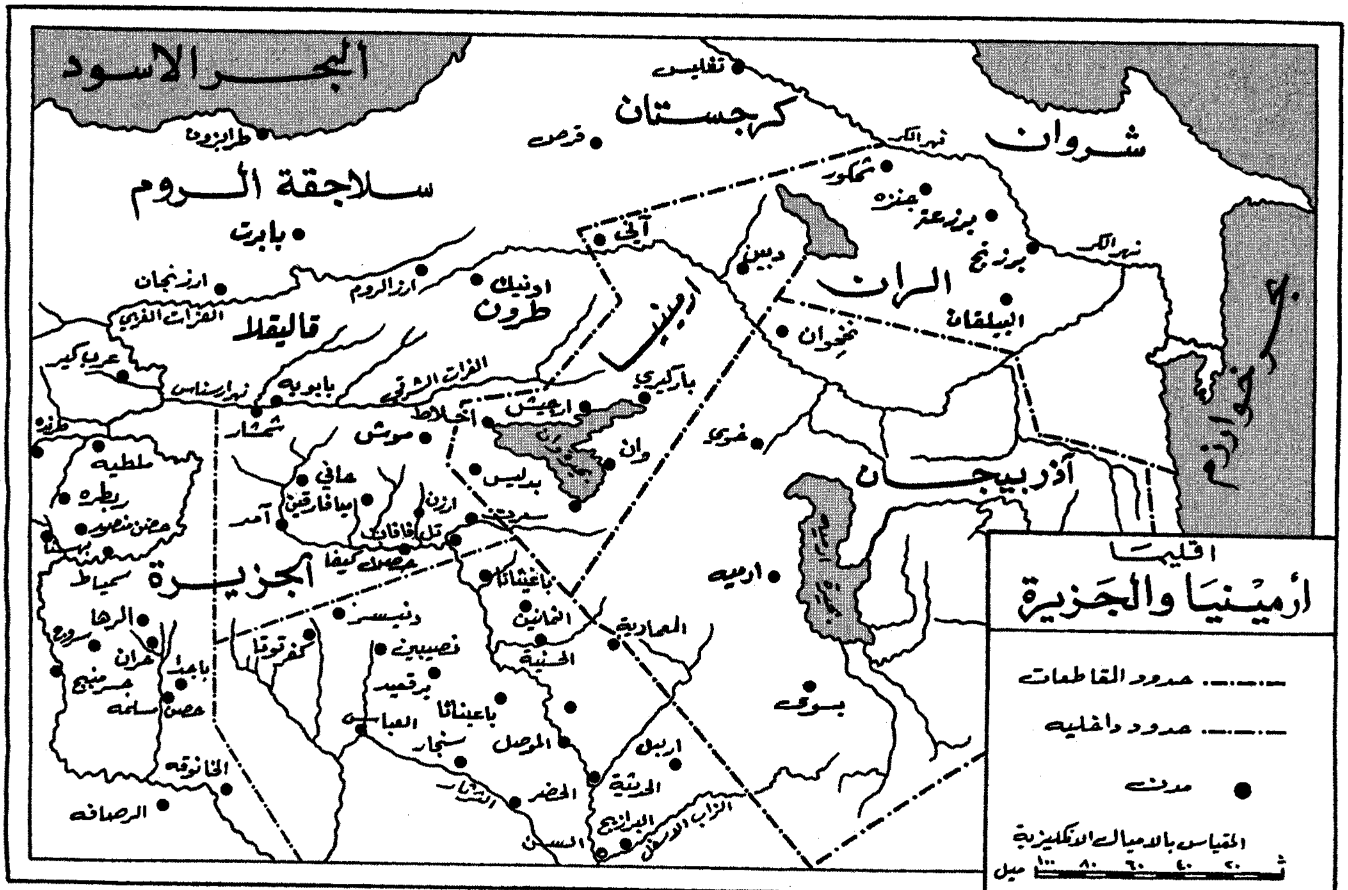
---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠١.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٢٠٩، ٢١٠.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٣.

(٤) Mathew of Edessa: pp116, 117.



إقليما أرمينيا والجزيرة

وقرَّر بلدوين الثاني القضاء على بقية الإمارات الأرمنية في المنطقة، فطرد أمير البيرة الأرمني أبا الغريب في عام (٥١١هـ/ ١١١٧م) وهو الذي سبق له أن استقر في هذه المنطقة بفضل مساعدة بلدوين أثناء الحرب الصليبية الأولى، علماً بأن البيرة تُعدُّ منطقة مهمة بين الرها وعينتاب، ومنحها إقطاعاً لابن عمه ڤاليران لي بويزيه الذي تزوج من ابنة أبي الغريب، ثم هاجم الأمير بقراط شقيق كوغ باسيل واستولى على قلعة قورس الواقعة شمالي حلب، وغزا قسطنطين صاحب كركر، فأسره وسجنه في سميساط[(١)]، ولم يبق من الأُسَر الأرمنية المستقلة سوى أسرة روبين.

وفَقَدَ الأرمن نتيجة هذا التوسع الصليبي على حسابهم ثقتهم بالصليبيين، واستاء مؤرخهم متى الرهاوي من هذا النشاط الصليبي ضد الأرمن الذي من الواجب أن يُوجَّه ضد المسلمين، واتهم أمير الرها بأنه لم يُفرِّق بين المسلمين وبين الأرمن المسيحيين[(٢)]. الواقع أن تراجع خطر المسلمين في الشرق أتاح لبلدوين الثاني الاستيلاء على الممتلكات الأرمنية.

لم يستمر بلدوين الثاني مدة طويلة بعد ذلك في حكم الرها ليتابع سياسته العدائية ضد الأرمن، إذ تُوِّج ملكاً على بيت المقدس في (٢٠ ذي الحجة ٥١١هـ/ ١٤ نيسان ١١١٨م) على أثر وفاة الملك بلدوين الأول، واتخذ لقب الملك بلدوين الثاني، وعيَّن جوسلين، الذي سبق أن اتهمه بالإساءة إليه ثم رضي عنه، أميراً على الرها وعهد إليه بمهمة الدفاع عن الجبهة الشمالية الشرقية للصليبيين[(٣)].

---

(١) فنك: ص٩٣، ٩٤.

(٢) Chronique: p117.

(٣) يرجع وليم الصوري سبب الخلاف بامتناع جوسلين عن إمداد الرها بما تحتاج إليه من مؤن، وكانت بأمسِّ الحاجة إليها بفعل التخريب والجدب. تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ١ ص٥٥١، ٥٥٢. ويُذكر بأن جوسلين ذهب بعد النفور الذي حصل بينه وبين بلدوين الثاني، إلى بيت المقدس فمنحه الملك بلدوين الأول طبرية والجليل إقطاعاً له.

الفصل الحادي عشر

مملكة بيت المقدس في ظل حكم بلدوين الثاني

اختيار بلدوين الثاني ملكاً على بيت المقدس

أهمل الملك بلدوين الأول خلال حياته السياسية أمر الوراثة من بعده علماً بأنه لم يترك ولداً يرثه في الملك، فلم يُعين شخصاً معيناً ليتولى عرش المملكة وتفادي ما حدث في أنطاكية بعد وفاة تانكريد، فبادر أمراء المملكة إلى الاجتماع ومعهم البطريرك أرنولف مالكورن لبحث مشكلة اختيار خلف للملك المتوفى. وكان توجُّه غالبية الأعضاء استدعاء الأخ الثالث للملك غودفري دي بوايون، ويُدعى يوستاس كونت بولونيا، فأرسلوا إليه وفداً يعرض عليه القدوم إلى الشرق لخلافة أخيه المتوفى، ويبدو أنه لم يشأ أن يغادر كونتيته الهادئة لينغمس في مشكلات الصليبيين في الشرق، غير أن أعضاء الوفد أقنعوه بحكم الواجب، فتوجَّه قاصداً بيت المقدس، وعندما وصل إلى أبوليا التقى بوفد آخر حمل إليه نبأ بأن الأمر قد انتهى، فعاد أدراجه[1].

الواقع أن البعض الآخر من المجتمعين رأوا أن أوضاع مملكة بيت المقدس بخاصة وأوضاع الصليبيين، بعامة، تتطلب اختيار بديل على وجه السرعة على أن يكون من الوسط الصليبي، خَبِرَ الحروب مع المسلمين وعانى مشكلات الصليبيين، فاستغل جوسلين الذي كان حاضراً ونادى بأن هذه الشروط تتوافر في بلدوين الثاني أمير الرها، فضلاً عن أنه ابن عم الملك الراحل والوحيد الذي ما زال على قيد الحياة من رجال الحملة الصليبية الأولى، وهذا أمر يثير الدهشة أن يرشح جوسلين بلدوين الثاني الذي طرده من إقطاعه تل باشر، لكن يبدو أنه وجد في ذلك فرصة طيبة لاسترضائه وإزالة ما وقر في صدره من رواسب الماضي، وأمل بأن يكافئه بتعيينه على الرها خلفاً له، ولقي اقتراحه مساندة من البطريرك أرنولف، واستطاع الاثنان أن يُقنعا المجتمعين برأيهما[2].

وصادف آنذاك وصول بلدوين الثاني إلى بيت المقدس من أجل الزيارة والحج،

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٧٢، ٥٧٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٧٠، ٥٧١.

فتمَّ تتويجه ملكاً على بيت المقدس في كنيسة القيامة، وجرت مكافأة جوسلين على موقفه ووفائه بتعيينه أميراً على الرها على أن يكون تابعاً له في حكمها[١]، واعترف بالملك الجديد سيداً عليه، كل من روجر أمير أنطاكية وصهر الملك، وبونز كونت طرابلس بعد الضغط عليه، إذ كان للصليبيين في الشرق مصلحة في أن يبقوا متوحدين تحت تاج مملكة بيت المقدس[٢].

لم يعش أرنولف مدة طويلة بعد تتويج بلدوين الثاني ملكاً وتوفي بعد أسبوعين، فأقرَّ الملك اختيار غورمون بيكيني البيكاري المغمور مكانه[٣].

الهيئات الدينية العسكرية

تمهيد: بدأ في عهد الملك بلدوين الثاني نشاط هيئات الفرسان الدينية يسترعي الانتباه في الحروب الصليبية، بعد أن تحوَّلت هيئة الفرسان الأسبتارية[٤] من هيئة دينية للعناية بالمرضى إلى منظمة عسكرية، في الوقت الذي تكوَّنت فيه هيئة فرسان الهيكل، الداوية[٥].

والواقع أن الصليبيين ابتكروا الهيئات الدينية العسكرية التي تأثرت بعقيدة الحركة الصليبية، وعبَّرت عن مفهوم مؤسساتي، وأثبتت أن الاستعداد العقلي والفكري لحل المشكلات الحيوية والتكيف معها هي الضمان الوحيد للوجود الصليبي في الشرق. ويُعدُّ إنشاء الهيئات الدينية ـ العسكرية أهم حدث جرى في هذه الآونة، وجاء في وقت أصبح فيه الأسبتارية والداوية حماة الكيان الصليبي في بلاد الشام، وقد ساعد تلك الهيئات على ذلك ما جمعوه من ثروة طائلة بفعل ما بُذل لهم من الأراضي، كما خصَّصهم رجال الدين بعشر ما يرد إليهم من دخل بالإضافة إلى ما استولوا عليه من ممتلكات عديدة.

الأسبتارية[٦]: كانت هيئة فرسان القديس يوحنا، الأسبتارية، أولى الهيئات الدينية العسكرية التي قامت في فلسطين، أسسها جماعة من المواطنين الأمالفيين الأتقياء في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)؛ فقد استأذنوا والي بيت المقدس الفاطمي لإنشاء دير في بيت المقدس بجوار دير سان ماري، وأقاموا بجواره مستشفى لإيواء الحجاج المسيحيين الفقراء ومعالجة المرضى منهم، وتقرر تدشين الدار باسم القديس يوحنا

---

(١) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٧٣، ٥٧٤.
(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٢٣١، ٢٣٢.
(٣) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٧٦.
(٤) الأسبتارية، فرسان المستشفى، وهي تحريف للفظ الأجنبي (Hospitalliers).
(٥) الداوية، فرسان الهيكل أو المعبد، وهي تحريف للفظ الأجنبي (Templars).
(٦) انظر فيما يتعلق عن أصل الأسبتارية: الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٣٠، ٨٣١.

المتصدق، بطريرك الإسكندرية في القرن السابع الميلادي الذي اشتهر بالإحسان، وكان معظم القائمين على هذا الدار من الرهبان الأمالفيين وفيهم أعضاء ينحدرون من طبقة الحكام والمحاربين الوراثية، ويخضعون لرئيس يخضع بدوره للسلطات البنيدكتية في فلسطين، وكان مقدم الدار عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس هو جيرارد، وقد أمر الحاكم الفاطمي بنفيه مع سائر المسيحيين قبل أن يبدأ الصليبيون بحصار المدينة، وعندما احتلها هؤلاء حثَّ جيرارد حكومة الصليبيين على أن تجعل للدار أحباساً، وانضم عدد كبير من الحجاج إلى هيئته التي لم تلبث أن تحرَّرت من ولائها للبنيدكتيين وأضحت طائفة مستقلة بذاتها، واتخذت اسم الأسبتارية ودانت بالطاعة للبابا. وارتبط فرسان الأسبتارية بأعمال الخير وقد عدوا هذا العمل أولى مهامهم والتزاماتهم، وهكذا انحصرت الفروسية في تلك الحقبة داخل النطاق الديني والديري.

توفي جيرارد في عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م) وخلفه ريموند لي بويه، فطوَّر مبادئ الهيئة من إرشاد الحجاج وإيوائهم وعلاج المرضى منهم، وحوَّلها إلى طائفة عسكرية من الفرسان عاهدوا الله على التقشف والطهارة والطاعة، ونذروا أنفسهم لقتال الوثنيين، كما جرى إحلال يوحنا الإنجيلي مكان يوحنا المتصدق ليكون القديس الراعي لهم، وفي ذلك دليل على ازدياد مكانة الأسبتارية التي جسَّدت من خلال قوانينها تلك المُثل والأفكار، ومزجت بين شيئين من المُثل التي كانت متداولة في مجتمع العصور الوسطى، وهما الفروسية العسكرية وفروسية الديرية الجديدة، الأمر الذي أدى إلى حدوث الاختلاف العملي والوظيفي بينهما، وقد تمثَّل بشكل نهائي في التمييز الاجتماعي داخل الهيئة الدينية. وظلَّت رعاية المرضى من المهام الرئيسة التي التزمت بها هيئة فرسان الأسبتارية، بيد أن الحياة اليومية التي مارسها هؤلاء أثبتت أن الأهداف والغايات العسكرية والفرسان المحاربين الذين يُحقِّقونها أضحت بمثابة عامل مهم قوي التأثير في هذا التطور الذي شهدته الهيئة الدينية ـ العسكرية.

اتخذ الفرسان الأسبتارية شارة تميزهم عن سائر الطوائف بأن جعلوا صليباً أبيض على ستراتهم التي يرتدونها فوق أرديتهم العسكرية.

الداوية[1]: نشأت هيئة الداوية في بادئ الأمر على أساس مجموعة صغيرة من الفرسان الرهبان في عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م)، على يد فارس فرنسي من شمبانيا يُدعى هيو دي باينز لتصبح بعد ذلك هيئة عسكرية كبيرة. واختار هيو زاوية في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد، ليكون مقراً لمنظمته بعد موافقة الملك بلدوين الثاني، ومن ثَمَّ

---

(١) انظر فيما يتعلق عن أصل الداوية: الصوري، وليم: جـ١ ص٥٧٦ ـ ٥٧٨.

أُطلق على أتباعه اسم فرسان المعبد أو الهيكل التي حُرِّفت في العربية إلى الداوية.

خضع الداوية في بداية أمرهم للنظم البنيدكتية مثلما فعل الأسبتارية على أنهم أضحوا طائفة مستقلة، وتمت صياغة عقيدتها بشكل نهائي في عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، وتألَّفت من ثلاث طبقات: الفرسان، والأجناد، ورجال الدين، واتخذ أعضاؤها الصليب الأحمر شعاراً لهم، فجلعوه على أرديتهم البيضاء، واتخذه الجند على أرديتهم السوداء. ولم تلبث هذه الهيئة الجديدة أن تبلورت واتخذت طابعها الخاص، فذهب رئيسها هيو إلى فرنسا وإنكلترا لحثِّ الفرسان على الانضمام لهيئته.

كانت المهمة الرئيسة لفرسان الداوية في المناطق الصليبية في بلاد الشام، تتمثل في قيامهم بحماية الحجاج المسيحيين الذين يعبرون في طريقهم من البحر الأبيض المتوسط إلى بيت المقدس، على ضفاف نهر الأردن، وأُسند إليهم في وقت لاحق مهمات عسكرية رئيسة.

وتضاءلت أهمية الهدف الأساس من إنشاء هيئة الفرسان الداوية مع استقرار الأمن الداخلي وقوة الشرطة، فتحوَّل عندئذ، هذا الهدف، إلى الدفاع عن حدود المملكة الصليبية وحمايتها، علماً بأن الصليبيين كانوا يعدُّون أنفسهم حجاجاً.

وضعية الهيئات الدينية ـ العسكرية القانوني

لم تُساهم الدولة ولا الكنيسة في إنشاء الهيئات الدينية العسكرية، وبالتالي لم يكن لها من سلطان عليها، وأضحت هذه الهيئات قوية مع مرور الوقت على الرغم من أن الدولة والكنيسة استنزفتاها في عملية تشييد وبناء مؤسسة الدولة والكنيسة، وفي الوقت الذي نمت فيه، أصبحت تُمثِّل قوة تهديد لسلطة الدولة والكنيسة في المملكة اللاتينية في بعض الأحيان، وعلى الرغم من أنها قدَّمت العون للكنيسة إلا أنها كانت في حال خصام وشقاق مع رجال الدين المحليين، وساهمت بشكل كبير في توطيد قوة الدولة ولكنها لم تكن من ضمن مؤسساتها.

تمتَّعت الهيئات الدينية العسكرية بكثير من الامتيازات، منها القضائية، مثل إعفاء أعضائها من التقاضي أمام المحاكم الكنسية المحلية، واختصَّت كنيسة روما بمقاضاتهم الأمر الذي جعلهم لا يخضعون لطائلة العقوبات الكنسية من جانب الأساقفة المحليين، وكان يُسمح لهم بفتح كنائسهم في أيام محدودة عندما تُفرض على المدينة عقوبة الحرمان، وأُعفيت أراضي هذه الهيئات من تأدية الضرائب الكنسية، مثل ضريبة العشور على الأراضي الزراعية، وبذلك اصطدمت مصالح الكنيسة مع مصالح هذه الهيئات، وحاولت هذه الهيئات أن توسع امتيازاتها بضمِّ مؤسسات علمانية فرعية تكون بمثابة مؤسسات دينية خيرية.

استطاعت الهيئات الدينية العسكرية أن تُنمِّي قوتها العسكرية، ففاقت أحياناً قوة الدولة، وكانت قواتها في تحرك دائم نظراً لاعتماد وجودها على منطق الحرب، ولا شكَّ بأنها أمدت مملكة بيت المقدس بقوة عسكرية مكَّنتها من تحقيق تطلعاتها التوسعية وحربها مع المسلمين، وفي المقابل حظيت هذه الهيئات بعطف الملك بلدوين الثاني.

التعاون بين دمشق والقاهرة (٥١٢هـ/١١١٨م)

أيقظ الهجوم الذي قام به بلدوين الأول ضد مصر، الشعور بالخطر المباشر الذي يتهدَّد الدولة الفاطمية، فشرع الوزير الأفضل في القيام بمحاولة يرد بها على العدوان الصليبي، فأرسل جيشاً إلى عسقلان وأسطولاً إلى صور. وتوضَّحت في هذا الدور صورة التعاون بين دمشق والقاهرة، فتمَّ الاتصال بين الأفضل في القاهرة وبين طغتكين في دمشق، واتفقا على القيام بعمل مشترك ضد العدو ما يوقع مملكة بيت المقدس بين شقي الرحى، ووافق الأفضل أن يضع قواته في عسقلان بتصرفه(١).

أدرك الملك بلدوين الثاني مدى ما يشكله هذا التعاون من خطر على المملكة، فحرص على أن يسترضي طغتكين ويخرجه من التحالف مع الفاطميين، فأرسل إليه يطلب تجديد الهدنة بين الطرفين، فطلب طغتكين ترك المناصفة(٢) التي بينهما من جبل عوف والحنَّانة والصلت والغور، لكن الملك بلدوين الثاني عدَّ ذلك ثمناً باهظاً فلم يوافق عليه(٣).

ردَّ طغتكين على هذا الرفض، فهاجم الصليبيين في الجليل وطبرية، ثم توجَّه إلى عسقلان، فأخبره قائد الجيش الفاطمي بأن لديه تعليمات «بالوقوف عند رأيه والتصرف على ما يحكم به»(٤).

لم يسع الملك بلدون الثاني في ذلك الموقف الحرج، سوى التماس المساعدة من الصليبيين في أنطاكية وطرابلس، ثم عسكر شمال عسقلان حيث تجمَّد الموقف العسكري مدة شهرين أو ثلاثة أشهر عاد بعدها كل طرف من حيث أتى(٥)، ويبدو أن خشية كلٍّ منهما من الآخر هو السبب في ذلك.

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣٤.

(٢) يرجع نظام المناصفات إلى السنوات الأولى التي أعقبت وصول الصليبيين إلى بلاد الشام واستقرارهم فيها، وتخضع المناصفات لإدارة إسلامية ـ صليبية مشتركة، فيُعين لها نائبان أحدهما يمثل المسلمين والآخر يمثل الصليبيين، على ألا ينفرد أحدهما بشيء إلا باتفاق الجهتين.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣٣، ٦٣٤. (٤) المصدر نفسه: ص٦٣٤.

(٥) المصدر نفسه. فولشر الشارتري: ص١٨٥، ١٨٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٧٥، ٥٧٦.

وقرَّر الملك بلدوين الثاني ألا يترك تلك الأزمة تمر من دون أن يثأر من طغتكين، فأغار، بالاشتراك مع جوسلين، على أذرعات في حوران التي تُعدُّ جرين[1] دمشق، واستولى على بعض المناطق شمال عال وشرق طبرية، مثل حصن الحبيس المعروف بجلدك وهو من أعمال دمشق[2]، فتصدَّى له بوري بن طغتكين، غير أنه تعرَّض لهزيمة قاسية بسبب تهوره[3].

وأغار جوسلين في (أوائل ٥١٣هـ/ ربيع ١١١٩م) على قبائل العرب من بني ربيعة في منطقة طبرية قرب نهر اليرموك لنهب مواشيهم، وصحبه اثنان من كبار بارونات الجليل وهما الأخوان غودفري ووليم بور ونحو مائة وخمسين فارساً، لكنه ضلَّ الطريق «فسار على طريق آخر» فأحاط به العرب وطعنوا خيول جيشه وقتلوا نحو سبعين من الجند سوى الأسرى، ولقي غودفري مصرعه، وعاد جوسلين إلى طبرية حزيناً مغموماً وأرسل إلى الملك يُعلمه بما حدث، فخرج على رأس قوة عسكرية، فأعاد الأسرى، ودفع له العرب ما طلبه من تعويض، وعندئذ أجاز لهم أن يُمضوا الصيف في هذه الجهات بسلام[4].

استئناف العمليات العسكرية في الشمال

حدث في أوائل عام (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) أن ثار بونز صاحب طرابلس على حكم الملك بلدوين الثاني ورفض الولاء له، فعدَّ الملك الصليبي ذلك إساءة لا يمكن السكوت عنها، وتجهَّز للزحف إلى طرابلس لإخضاعه، فتقدم من عكا باتجاه الشمال، ولم يكد يقترب من طرابلس حتى أعلن بونز خضوعه له فعفا عنه الملك[5].

وصادف مع وصول الملك الصليبي إلى طرابلس ما جرى من تجديد إيلغازي هجماته على الممتلكات الصليبية بعد أن ألحَّ عليه ابن أخيه بلك حاكم خرتبرت[6]. استاء الملك الصليبي من نشاطه العسكري، إذ سبق أن عقد معاهدة معه. وتلقَّى إيلغازي وعداً من طغتكين فتشجع وحاصر زردنا كما ذكرنا، غير أن ما جرى من المناوشات بين الطرفين، الإسلامي والصليبي، لم ينته بمعركة، إذ أن الملك

---

(١) جرين: موضع يُخزَّن فيه الطعام أو تُجفَّف فيه الثمار.
(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص٦٤٣، ٦٤٤.
(٥) الصوري، وليم: جـ١ ص٥٩٠.
(٦) المؤرخ السرياني المجهول: الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية، جـ٢ ص٤٨٢. وخرتبرت: هو الحصن المعروف بحصن زياد في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات. الحموي: جـ٢ ص٣٥٥.

الصليبي خشي أن يقع في الكمائن التركية كما أن المسلمين أرهقهم الكر والفر فعادوا إلى بلادهم، وتوجَّه الملك بلدوين الثاني إلى أنطاكية.

جوسلين يقع في أسر المسلمين

حدث في (٩ رجب ٥١٦هـ/ ١٣ أيلول ١١٢٢م) أن كان جوسلين صاحب الرها عائداً إلى إمارته ومعه ڤاليران صاحب البيرة بالإضافة إلى ستين فارساً، وعندما وصل قريباً من سروج، التقى بجيش بلك الذي كان يشن الغارات على إقليم الرها، فهاجمه جوسلين غير أنه انهزم ووقع في الأسر مع ڤاليران وفرسانه، فعرض عليه بلك إطلاق سراحه مقابل أن يتنازل عن الرها، فرفض، عندئذ حمله بلك مع الأسرى إلى قلعة خرتبرت[(١)].

يبدو أن قوة الصليبيين لم تتأثر كثيراً بغياب جوسلين عن مسرح المواجهات مع المسلمين، إذ قاموا بغارات ناجحة ضد الأراضي الإسلامية، لكنها كانت ضربة موجعة على أي حال أضافت أعباء جديدة إلى متاعب الملك الصليبي من واقع توليه الوصاية على إمارة الرها بالإضافة إلى إمارة أنطاكية.

ولم تلبث إمارة الأراتقة أن تصدَّعت إثر وفاة إيلغازي فانقسمت إلى إمارات صغيرة توزَّعت بين ابنيه وأقاربه، فأخذ ابنه سليمان ميافارقين، أي الجزء الشمالي من دياربكر، ونال ابنه الآخر تمرتاش ماردين والجزء الجنوبي من دياربكر، واحتفظ ابن أخيه بلك بن بهرام بمنطقة خرتبرت في الشمال وأضاف إليها حرَّان في الجنوب، في حين آلت حلب إلى بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق[(٢)].

استغل الملك بلدوين الثاني تمزق الإمارة الأرتقية فهاجم بزاعة الواقعة إلى الشمال الشرقي من حلب، واستولى على البيرة الواقعة شرقي حلب، فأضحت هذه المدينة محاصرة بممتلكات الصليبيين وقواتهم[(٣)].

وجد سليمان بن عبد الجبار نفسه عاجزاً عن وقف غارات الصليبيين على حلب وأعمالها «وقد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق»، فمال إلى مهادنتهم، وطلب الصلح من الملك بلدوين الثاني في (صفر ٥١٧هـ/ نيسان ١١٢٣م) مقابل رد الأثارب إلى إمارة أنطاكية، فوافق الملك الصليبي على ذلك وتسلَّم الحصن، وتمَّت الهدنة بين الطرفين «واستقام أمر الرعية بأعمال حلب، وجُلبت إليهم

---

(١) المؤرخ السرياني المجهول: جـ٢ ص٤٨٢.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٣٠. ابن العديم: جـ١ ص٤٠٧.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه. نيكلسون، روبرت: تطور الدويلات اللاتينية: ص١١٠، ١١١.

الأقوات وغيرها»[1]، وبذلك يكون الملك بلدوين الثاني قد نجح في أقل من أربع سنوات في إعادة حدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه سنة (٥١٢هـ/١١١٨م)[2].

الملك بلدوين الثاني يقع في أسر المسلمين

سار الملك بلدوين الثاني بعد أن استردَّ الأثارب إلى الرها لتنظيم أمورها، فعيَّن جفري الراهب صاحب مرعش حاكماً عليها، ثم توجَّه لمهاجمة بلك الأرتقي الذي كان يحاصر كركر[3] على نهر الفرات من أجل تخليص جوسلين وقاليران وغيرهما من الأسر، وعسكر في (١٩ صفر ٥١٧هـ/١٨ نيسان ١١٢٣م) في أورش بالقرب من قنطرة سنجه بين كيسوم وسميساط وهو مكان لا يبعد كثيراً عن كركر، ولم يكن يعلم بأن الأمير المسلم على مسافة قريبة منه. وخرج بلك للصيد، فهبط على المعسكر الصليبي، واندفعت قواته بشدة وفاجأت الصليبيين، وتمَّ أسر الملك بلدوين الثاني وابن أخته. تقدم بلك بعد ذلك نحو كركر وسيطر عليها، وعامل الملك الصليبي بما يليق به من الاحترام، وأرسله إلى قلعة خرتبرت وسجنه مع جوسلين وقاليران[4].

شكَّل أسر الملك بلدوين الثاني خسارة كبيرة للصليبيين في بلاد الشام، على الرغم من أن الأمور في بيت المقدس استمرت على طبيعتها بعد أن اختير يوستاش غرنيه صاحب قيسارية وصيدا وصياً على المملكة، وعندما توفي في (ربيع الآخر/ حزيران) خلفه وليم دي بور في الوصاية[5]، كما اختير البطريرك برنارد القلنسي وصياً على أنطاكية.

وشعر بلك من جهته بالفخر، ودفعه الزهو إلى التفكير في توحيد الإمارات الأرتقية تحت سلطانه، فاستولى على حران، وهاجم حلب لانتزاعها من ابن عمه سليمان بن عبد الجبار، وقد استاء منه لتسليمه الأثارب إلى الصليبيين، واتهمه بالعجز عن الدفاع عن بلاده، ونجح في تحقيق ذلك، فدخل المدينة في (٢٩ ربيع الآخر/ ٢٦ حزيران). وأخذ بلك يهاجم أنطاكية، فاستولى على البارة الواقعة غربي معرة النعمان، ثم توجَّه إلى كفرطاب عندما سمع في (١٢ جمادى الآخرة/ ٧ آب) بأن الملك بلدوين الثاني وجوسلين قد استوليا على قلعة خرتبرت بمساعدة الأرمن

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٨٥، ٦٨٦. ابن العديم: جـ١ ص٤٠٨.

(٢) عاشور: جـ١ ص٥١٢.

(٣) كركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد. الحموي: جـ٤ ص٤٥٣.

(٤) فولشر الشارتري: ص١٩٥. المؤرخ السرياني المجهول: جـ٢ ص٤٨٣، ٤٨٤. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٩١. ابن العديم: جـ١ ص٤٠٨.

(٥) فولشر الشارتري: ص١٩٩، ٢٠٠. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٩١.

في تل باشر وهما يحاولان الفرار من السجن، علماً بأن هذه القلعة تقع في منطقة يسكنها الأرمن.

الواقع أن السجناء الصليبيين حاولوا الفرار من سجنهم بالتنسيق مع الأرمن المقيمين حول قلعة خرتبرت، الذين كانوا يتصلون بدورهم بأعوانهم في الرها، وقضت الخطة الموضوعة بأن يتخفَّى خمسون جندياً بزي التجار ويأخذوا طريقهم إلى داخل القلعة لتحرير الأسرى، فغادروا الرها على وجه السرعة نحو خرتبرت، ونجحوا في الحصول على إذن بالدخول إلى البوابات الداخلية للقلعة في (ربيع الأول/أيار) بحجة أنهم تعرَّضوا للإهانة ويريدون تقديم شكوى بذلك، واستطاعوا الوصول إلى رئيس الحرس، فقتلوه وهاجموا حامية السجن، ما أدَّى إلى تحرير السجناء، لكن قبل أن يتمكَّنوا من الخروج من القلعة تقدَّم جيش إسلامي وحاصرها، فتقرَّر عندئذ تحرير جوسلين وحده للذهاب إلى الرها وجلب المساعدة، واستحلفوه بأن «لا يُغيِّر ثيابه، ولا يأكل لحماً، ولا يشرب إلا وقت القربان إلى أن يجمع الجموع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت ويُخلِّصهم»، وقد اختاروه بفعل محبة الأرمن له لزواجه من أميرة أرمنية، كما أنه عاملهم بالحسنى ولم يضطهدهم أو يُنكِّل بهم كما فعل سلفه بلدوين الثاني. وتمكَّن جوسلين بمساعدة ثلاثة من الخدم من اختراق صفوف المحاصِرين، فاجتاز نهر الفرات بمساعدة أحد الفلاحين الأرمن، وكان دليله حتى وصل إلى تل باشر.

كان على جوسلين أن يجمع الجيوش لإطلاق سراح الملك بلدوين الثاني وبقية الأسرى، لذلك لم يمكث طويلاً في تل باشر وبادر بالسير إلى أنطاكية من أجل هذه الغاية، غير أن جيش أنطاكية كان قليل العدد. وبناء على نصيحة البطريرك برنارد القلنسي، ذهب جوسلين إلى بيت المقدس، فدعا مجلس المملكة إلى الانعقاد وروى قصته، وبفضل مساعدة البطريرك غورمون ويوستاش جرى حشد العساكر، فتولى هو القيادة وأغذَّ السير إلى تل باشر، غير أنه لم يكد يصل إليها حتى أدرك أن الوقت قد فات، ذلك أن بلك بادر باستدعاء جيشه من الجنوب فور تبلغه بنبأ الثورة في خرتبرت، فترك حصار كفرطاب وعاد إليها، وعرض على الملك بلدوين الثاني الخروج إلى بلاده بأمان إذا سلَّم إليه القلعة، فرفض الملك الصليبي ذلك، إما لأنه لم يثق ببلك وإما لأنه لم يشأ أن يتخلَّى عن رفاقه الأسرى، فشدَّد بلك عندئذ حصاره عليها، واستطاع النقَّابون أن يُحدثوا ثغرة في أحد الأسوار نفذ منها الجيش الأرتقي واستباحها، ونقل الملك وابن أخته وڤاليران إلى قلعة حرَّان التي تفوق خرتبرت أمناً.

ونتيجة لذلك تخلَّى الصليبيون عن إنقاذ ملكهم، لكن جوسلين قرَّر التصدي لجيش بلك عند مروره بحلب، فهاجم بزاعة والباب وحلب وأحدث مذابح انتقامية بحق المسلمين، غير أن حركته لم تتمخَّض عن نتائج حاسمة في الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم هاجم أراضي بلك الذي ردَّ بمهاجمة عزاز في (أوائل ٥١٨هـ/ شتاء ١١٢٤م) بمساعدة طغتكين وآقسنقر البرسقي، لكنهم تعرَّضوا للهزيمة، فقاموا بهجوم مضاد في الربيع وهزموا القوات الصليبية، وكإجراء احتياطي قام بنقل السجناء من حرَّان إلى حلب في (محرم/ شباط)[1].

وفاة بلك

حدث في (أوائل صفر ٥١٨هـ/ آذار ١١٢٤م) أن شُغل بلك بأمر منبج على أثر تمرد حاكمها حسان بن كمشتكين ضده، فأرسل قوة عسكرية بقيادة ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي تمكَّنت من إلقاء القبض عليه والاستيلاء على البلد، لكن القلعة استعصت عليه حيث تمكَّن عيسى أخو حسان من الاستيلاء عليها، وعوقب حسان أمام مرأى أخيه للضغط عليه لتسليم القلعة، ولكن هذا رفض تسليمها، ورأى أن يُقوي موقفه بالتحالف مع الصليبيين، فكتب إلى جوسلين يقول: «إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلَّمت إليك منبج» ونادى بشعاره. فمضى جوسلين إلى بيت المقدس وإلى طرابلس وبقية المواقع الصليبية لحشد القوى، فانحاز إليه ما يقرب من عشرة آلاف بين فارس وراجل، وتقدم نحو منبج ليجلي قوات بلك عنها، وما إن اقترب منها حتى توجَّه بلك إليه للتصدي له، وترك قسماً من جيشه على الحصار، والتقى به في (١٨ ربيع الأول/ ٤ أيار) ودارت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن هزيمة جوسلين وجيشه، فطاردهم المسلمون حتى آخر النهار، ثم عاد بلك إلى منبج ليستأنف حصارها، وكان قد عزم على استخلاف ابن عمه تمرتاش على حصارها والذهاب إلى صور بناء على استدعاء طغتكين بسبب مضايقة الصليبيين لها، وفي الوقت الذي كان قائماً يدير عملية الحصار أصابه سهم انطلق من القلعة، في ترقوته اليسرى وأودى بحياته، وذلك في (٢٠ ربيع الأول/ ٦ أيار) فحُمل جثمانه إلى حلب ودُفن فيها، وخلفه تمرتاش في حكم حلب[2].

---

(١) انظر، فيما يتعلق بأسر الملك بلدوين الثاني وما تبعه من ذيول، في المصادر التالية: فولشر الشارتري: ص٢٠٠ ـ ٢٠٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٩٢ ـ ٥٩٥. ابن القلانسي: ص٣٣٣، ٤٣٧ ـ ٤٣٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٦٨٧، ٦٨٨. ابن العديم: جـ١ ص٤٠٨، ٤١٠ ـ ٤١٤.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص٤١٤ ـ ٤١٦.

كانت وفاة بلك فأل خير على الصليبيين في الشرق وبخاصة إمارة الرها، وتبشيراً بغزوات جديدة ضد المسلمين، فقد هاجم جوسلين المسلمين وقام بتخريب إقليم شبختان في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م) وهو أحد أقاليم دياربكر، ولكن أحد اتباع تمرتاش، ويدعى عمر الخاص، التقى مع القوات الصليبية في معركة في مرج أكساس قرب الخصاص، ونجح في قتل قائدهم وكثير منهم، وكافأه تمرتاش على انتصاراته بأن ولّاه شحنكية حلب[١].

الفاطميون يهاجمون يافا

ظلَّ الوفاق سائداً بين القاهرة ودمشق، ويرجع ذلك، إلى حد كبير، إلى حرص الوزير الأفضل على المحافظة على العلاقات الودية مع دمشق التي كانت الحاجة ماسة إلى التعاون مع حكامها لمناهضة الصليبيين، على أنه حدث في مصر أن اغتيل الوزير الأفضل في (ليلة عيد الفطر ٥١٥هـ/ كانون الأول ١١٢١م)، فأراد الإمام الفاطمي الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ/ ١١٠١ ـ ١١٣٠م) أن يستعيد سلطاته[٢].

ويلمس المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية بعد الأفضل فتوراً ملحوظاً في مواجهة الصليبيين، فقد برز اتجاه قوي في الدوائر الفاطمية، وبخاصة في أوساط متطرفي الشيعة، لمهادنة الصليبيين وعدم طردهم من جنوبي بلاد الشام لأن في بقائهم ضماناً لحماية الدولة الفاطمية المتداعية من أطماع السلاجقة[٣]، لكن الإمام الآمر الفاطمي لم يستطع أن يكشف عن سياسته المتراخية تجاه الصليبيين حرصاً على مكانته في العالم الإسلامي، لذلك استغل وقوع الملك بلدوين الثاني في أسر بلك الأرتقي وقام بهجوم على الصليبيين في يافا، بتحريض من طغتكين وآقسنقر البرسقي أتابك الموصل وأعمالها.

كانت الحامية الصليبية في المدينة قليلة العدد ما جعلها توشك على الاستسلام، ولكن قدوم نجدة صليبية أجبر الجيش الفاطمي على التراجع إلى يبنا على الطريق بين يافا وعسقلان، واصطدم بالقوة الصليبية القادمة لنجدة المدينة. ومُني الجيش الفاطمي بخسارة جسيمة وولّى أفراده الأدبار، وطاردهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم[٤].

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٤١٧.
(٢) ابن ميسر: ص٥٧، ٥٨.
(٣) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية: ص١٩٠. بحث في كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى.
(٤) فولشر الشارتري: ص١٩٥، ١٩٦. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٩٥ ـ ٥٩٧.

سقوط صور بأيدي الصليبيين

وحدث في مصر أن تولّى المأمون البطائحي الوزارة مكان الأفضل (٥١٥ ـ ٥١٩هـ/ ١١٢١ ـ ١١٢٥م)، فأراد أن يستعيد السيطرة الفاطمية على مدينة صور، فقبض في عام (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) على واليها سيف الدولة مسعود بحجة كثرة الشكاوى بحقه من أهل المدينة، علماً بأن طغتكين كان قد عيَّنه عليها عندما تسلَّم حاكميتها من الفاطميين في عام (٥٠٦هـ/ ١١١٣م) وعيَّن عليها وحشي بن طلائع، وحتى يتجنَّب رد فعل طغتكين كتب إليه يُطمئنه إلى أن العلاقة بينهما لن تتأثر بما جرى. ويبدو أن طغتكين تفهَّم صدق موقفه، وقرَّر ألا ينازع الفاطميين في استعادة سلطانهم على صور، وأجابه «بأن الأمر في ذلك لمن دبَّره، والمرجوع إلى ما رتَّبه وقرَّره»(١).

لكن إخراج سيف الدولة مسعود من صور كان شؤماً عليها، لأنه أتاح للصليبيين الفرصة لمهاجمتها مرة أخرى «إذ كانوا يرهبونه لشهامته وشجاعته ومعرفته بالحرب ومكايدها»(٢).

وكان الملك بلدوين الثاني قد كتب في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م) عقب معركة ساحة الدم إلى جمهورية البندقية يلتمس المساعدة، ويعرض عليها منحها امتيازات تجارية في فلسطين، وأيَّد البابا التماسه، فقرَّر الدوق دومينيكو ميخائيل الاستجابة له، على أن الحملة لم يكتمل إعدادها إلا بعد مضي ثلاثة أعوام، ولم يصل الأسطول البندقي المؤلف من مائة سفينة حربية إلى عكا إلا في (أوائل ربيع الآخر ٥١٧هـ/ أواخر أيار ١١٢٣م)، وحمل معه أعداداً كبيرة من الفرسان والمشاة فضلاً عن أدوات الحصار.

وترامت إلى الدوق وهو في عكا أنباء عن وجود أسطول فاطمي تجاه عسقلان، فأبحر جنوباً لملاقاته، وجرت بين الأسطولين معركة بحرية كبيرة عند ساحل عسقلان، انتهت بانتصار الأسطول الصليبي وتدمير الأسطول الفاطمي، ووقوع بعض بحارته في الأسر، وأضاف البنادقة إلى انتصارهم ما استولوا عليه من أسطول تجاري مؤلف من عشر سفن تحمل سلعاً ثمينة، وذلك أثناء عودتهم إلى عكا(٣).

والحقيقة أن البنادقة وصلوا إلى الساحل الفلسطيني في الوقت الذي كانت فيه صور تشهد وضعاً داخلياً حرجاً بعد أن أُخرج منها نائبها سيف الدين مسعود، وأدرك واليها الجديد أن ليس باستطاعته حماية المدينة والدفاع عنها لقلَّة مَن بها مِن الجند

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٢٩ ـ ٣٣٦. ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٣، ٦٩٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٦٩٣.

(٣) فولشر الشارتري: ص١٩٨، ١٩٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٩٧ ـ ٥٩٩.

والميرة، فكتب إلى الآمر بهذا الواقع وبالوضع الخطر الذي بات فيه[(١)].

كان البنادقة في هذا الوقت يعقدون اجتماعاً مع أمراء بيت المقدس لاختيار أنجع السبل للاستفادة من القوة البندقية البحرية، فتقرَّر مهاجمة صور نظراً لمزاياها العسكرية والتجارية، إذ أن ميناءها يُعدُّ خير الموانئ الواقعة على امتداد الساحل، كما أنه الميناء الذي ترد إليه خيرات بلاد الشام، وأنه يفوق ميناء عسقلان في أهميته التجارية، غير أن المشاورات استغرقت فصل الخريف كله، حُدِّدت خلالها حصة البنادقة وحقوقهم[(٢)].

وفي المقابل، قرَّر الآمر الفاطمي، بعد مشاورات مع أركان حربه، أن تُعاد ولاية صور بتصرف طغتكين. والواضح أن الفاطميين كانوا عاجزين عن الدفاع عن صور وحمايتها بعد تدمير أسطولهم البحري، فأعيد الثغر إلى طغتكين في (جمادى الآخرة ٥١٧هـ/ آب ١١٢٣م) ونُعت بـ«سيف أمير المؤمنين»[(٣)]، فبادر بإرسال نائب عنه ليتولى أمرها هو القاضي الأعز بن اللبَّان، وأرسل معه مقادير وفيرة من المؤن لمواجهة الحصار، وعاد وحشي بن طلائع إلى القاهرة[(٤)].

بدأ حصار صور في (ربيع الأول ٥١٨هـ/ نيسان ١١٢٤م)، وأقام الصليبيون معسكرهم وسط الحدائق والبساتين، وسدوا مجرى السقاية التي تُغذِّي المدينة بالماء، ونشر البنادقة سفنهم على الساحل، وأبقوا سفينة في عُرض البحر لمنع السفن الأخرى من الدخول إلى الميناء أو الاقتراب منه، وتولى البطريرك غورمون القيادة العليا للجيش، وانضم إليه بونز صاحب طرابلس.

استمر الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف، لم يتوقف الصليبيون خلاله عن قذف أسوار المدينة. وفي المقابل، كان الصوريون مجهزين بآلات المنجنيق التي ترمي الصليبيين بالحجارة والنار الإغريقية، واستبسلوا في الدفاع والقتال على الرغم من إمكاناتهم الضئيلة، حتى اشتد الحصار عليهم، وبدأ مخزون الماء بالنفاد، وظهر السأم والوهن على معظم سكان المدينة، ما دفعهم إلى طلب المساعدة من بلك الأرتقي صاحب حلب ودياربكر الذي أضحى آنذاك القوة الإسلامية البارزة. استجاب بلك لنداء الاستغاثة، وفيما كان يتجهز لنصرتهم لقي مصرعه في منبج، كما ذكرنا.

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٤.

(٢) فولشر الشارتري: ص١٩٨، ١٩٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٥٩٧ ـ ٦٠٥.

(٣) المقريزي: إتعاظ الحنفا: جـ٣ ص١٠١.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٤.

وحثَّ الصوريون حكام دمشق والقاهرة على النهوض لنجدتهم قبل فوات الأوان، فأرسل طغتكين إلى القاهرة، يحثُّ الآمر وقادته على التحرك السريع لنجدتهم، ولكن رسائله لم تجد حماساً كما كان يأمل، وبدلاً من أن يخرج الفاطميون لمساعدة الصوريين مباشرة أرسلوا جيشاً لمهاجمة بيت المقدس بهدف الضغط على المحاصِرين وصرفهم عن صور، لكن هذه المحاولة جوبهت بمقاومة شديدة من صليبيي المملكة، وآثر القائد الفاطمي عدم التقدم لمهاجمتهم(١)، وقام جيش فاطمي آخر بمهاجمة مدينة صغيرة تقع على مسافة بضعة أميال إلى الشمال من بيت المقدس تدعى البيرة(٢)، ولكن هذه الغارة لم تُحقِّق أهدافها ولم تُنقذ صور.

وتصرَّف طغتكين التصرف نفسه، فهاجم بانياس(٣) ونصب معسكره فيها وأقام ينتظر ورود أنباء عن أسطول فاطمي قد يصل إلى الساحل ليقوم بعمل مشترك ضد الصليبيين، غير أن انتظاره ضاع سدى، إذ لم يكن بوسع الآمر أن يُجهِّز أسطولاً حربياً، لكن الصليبيين ظلوا يخشون من قيام الفاطميين بإرسال سفن لمقاتلة سفنهم، وأن يجري الاتصال بين القوة البرية الدمشقية والقوة الفاطمية البحرية، لأن من شأن ذلك تطويقهم من خلفهم.

وبادر البطريرك غورمون بإصدار قرار بمهاجمة قوات طغتكين، فأمر كلّاً من بونز صاحب طرابلس ووليم دي بورغ صاحب الجليل بالتوجه إلى بانياس والاصطدام بالقوات الدمشقية، وقطع الطريق أمامها فيما لو حاولت التقدم نحو صور، وحقَّقت هذه المبادرة أهدافها، فأجلى طغتكين عساكره وعاد إلى دمشق وترك أهل صور يواجهون الحصار بمفردهم(٤).

واشتدت خطورة الموقف داخل المدينة بعد أن قاربت المؤن والمياه على النفاد، وهلك عدد كبير من رجال الحامية، فبذل أهل صور محاولة أخيرة للاستنجاد بطغتكين لكن لم يكن باستطاعته سوى تقبُّل الأمر الواقع، فراسل الصليبيين «بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب»(٥) وعرض عليهم وقف القتال على أن يسلِّمهم المدينة مقابل أن:

---

(١) تحدث فولشر الشارتري عن هذه الجهود بالهجوم على بيت المقدس: ص٢١٤. الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٢٠.

(٢) فولشر الشارتري: ص٢١٤. يدعو وليم الصوري تلك المدينة باسم بيلين: جـ٢ ص٦٢٥.

(٣) وليم الصوري: المصدر نفسه: ص٦٢١. ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٤.

(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٢١.

(٥) ابن القلانسي: ص٣٣٧.

ـ يسمحوا للجند، ولكل من أراد من السكان، بمغادرة المدينة ونقل ما يريدون من أمتعة، بدون التعرض لأي شيء من ذلك.

ـ يضمنوا سلامة كل من أراد البقاء في صور، ويحفظوا لهم حق الإقامة في وطنه.

ـ يتم التنفيذ بإشراف الطرفين[١].

وافق القادة الصليبيون على ذلك على الرغم من أنهم واجهوا معارضة من قِبَل العساكر والبحارة لأن بنود الاتفاقية تمنعهم من السلب والنهب. وفُتحت أبواب المدينة يوم الاثنين (٢٣ جمادى الأولى ٥١٨هـ/ ٧ تموز ١١٢٤م) وتسلمها القادة الصليبيون من قاضيها الأعز بن اللبَّان، وتولى الجيش الصليبي أمرها[٢].

وهكذا سقط ثغر صور بيد الصليبيين، وكان لهذا الحدث صداه وأهميته في تاريخ الحروب الصليبية، كما كان «وهناً عظيماً على المسلمين، فإنه من أحصن البلاد وأمنعها»[٣]؛ وفي المقابل أدَّى إلى تدعيم مركز الصليبيين في بلاد الشام وأمدَّهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول من ناحية الموقع ذي الأهمية الفائقة في حالتي الهجوم والدفاع معاً[٤]. وعلَّق أبو المحاسن يوسف على تفريط الفاطميين وموقفهم المائع واللامسؤول فقال: «وما أبقى أهل صور رحمهم الله تعالى ممكناً في قتالهم مع الفرنج في هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر»[٥].

والواقع أن تقلُّب صور في الولاء للفاطميين تارة وللسلاجقة تارة أخرى، والتغيير السريع في القيادات وافتقار بعض ولاتها إلى النضوج السياسي والعسكري، أوجد حالاً غير متوازنة عند السكان ما أثَّر على الوضع القتالي للجند.

إطلاق سراح الملك بلدوين الثاني

انتقلت حلب بعد وفاة بلك إلى تمرتاش بن إيلغازي، وكان الملك الصليبي بلدوين الثاني أسيراً في قلعة حلب، ويبدو أن حاكم حلب كره أن يتحمل مسؤولية سجن الملك وفضَّل الحصول على فدية كبيرة، فطلب من أمير شيزر، أبو العساكر سلطان بن منقذ، أن يجري مفاوضات مع الصليبيين بهدف إطلاق سرحه مقابل:

ـ أن يدفع مائة ألف بيزانت، حوالي ثمانين ألف دينار، يُدفع منها مقدماً عشرون ألف دينار.

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٣٧. فولشر الشارتري: ص٢١٥. الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٢٥ ـ ٦٢٨.
(٢) المصادر نفسها.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٤.
(٤) Grousset: I p618.
(٥) النجوم الزاهرة: جـ٥ ص١٨٢.

- يتعهد، بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية، بإعادة عزاز والأثارب وزردنا والجزر وكفرطاب إلى إمارة حلب.

- يتعهد بمساعدته في إخضاع دُبَيْس بن صدقة الذي نزح من الجزيرة الفراتية بعد أن طرده الخليفة العباسي المسترشد من الحلة والعراق، وقد طمع بحكم حلب.

- يودع رهائن في شيزر حتى يتم تسديد ما بقي من الفدية، ويُطلق سراحه عند تسليمهم على أن يكون من بينهم: الأميرة يوفيتا، صغرى بنات الملك الصليبي التي لم تتجاوز الخامسة من العمر، وابن جوسلين ووريثه، وهو صبي يبلغ الحادية عشرة من العمر، وعشرة من أبناء النبلاء.

وتولَّت الملكة مورفيا وجوسلين بترتيب الشروط مع أمير شيزر، وقد أرسل الأخير جماعة من أفراد أسرته إلى حلب لإثبات حسن النية، وعلى أساس هذه الشروط تمَّ الإفراج عن الملك بلدوين الثاني في (١٥ جمادى الأولى ٥١٨هـ/ ٣٠ حزيران ١١٢٤م)، أي في الوقت الذي كان وليم دي بور، الوصي على مملكة بيت المقدس، يهاجم صور بمساعدة البنادقة[١]، وبقي ڤاليران وآخرون معه في سجن تمرتاش.

الصليبيون يهاجمون حلب

توجَّه الملك بلدوين الثاني بعد إطلاق سراحه إلى أنطاكية، فاجتمع بالبطريرك برنارد الڤلنسي الذي اعترض على ردِّ المدن والقلاع المذكورة التابعة لإمارة أنطاكية، متذرعاً بعدم أهلية الملك بالتصرف بأملاك الإمارة بوصفه وصياً عليها، والتي تُعدُّ ملكاً للأمير الصليبي بوهيموند الثاني، فاقتنع الملك بوجهة نظره، وأرسل رسالة إلى تمرتاش يستعطفه فيها أن يتنازل عن الشرط الخاص بتسليم المدن والقلاع، الآنفة الذكر، إلى المسلمين، بحجة أن بطريرك أنطاكية اعترض على هذا الشرط، ويُعدُّ ذلك إخلالاً بمضمون الاتفاقية، ولكن المفاوضات طالت بين الطرفين بدون التوصل إلى نتيجة[٢].

وتمادى الملك بلدوين الثاني، فطالب بتنازلات أخرى بعد أن شعر بضعف تمرتاش، فنقض الشرط المتضمن وعده بالنهوض لمساعدته ضد دُبَيْس بن صدقة، بل أنه حالف هذا الأمير العربي البدوي واتفق معه على شن هجوم على حلب. والواقع أن دُبَيْساً هو الذي أطمع الملك الصليبي بمهاجمة حلب بفعل أن أهلها شيعة وهم

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٤١٧، ٤١٨. أسامة ين منقذ: كتاب الاعتبار، ص١٠٣. فولشر الشارتري: ص٢١٩. الصوري، وليم: جـ١ ص٦٢٨.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص٤١٩.

يميلون إليه لأجل المذهب، وقال له: «متى رأوني سلموا البلد إليَّ»[1].

ووجد الملك بلدوين الثاني في دُبَيْس بن صدقة خير معين له في الوقوف في وجه صاحب حلب وإجباره على إطلاق سراح من لديه من الرهائن الصليبيين، فبذل المال له ووعده بإعطائه مُلك حلب. وأظهر هذا الملك حنكة سياسية في تفريق المسلمين وضرب العرب بالأتراك والشيعة بالسنة لإضعافهم جميعاً، وحرص على أن يؤلف جبهة إسلامية تحت قيادته ضد تمرتاش، وانضم إلى هذه الجبهة سلطان شاه بن رضوان الذي عزله الأراتقة عن حاكمية حلب وهو يطالب الآن بالعودة إلى حكمها، ومعه طغرل أرسلان، أخو السلطان مسعود سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وقد طرده أمراء دانشمند من ملطية، فخرج يلتمس الحلفاء لاستعادتها[2].

تقدم دُبَيْس إلى مرج دابق ولكنه هُزم من قِبل تمرتاش، فيما بقي هذا يفاوض الملك بلدوين الثاني بشأن الرهائن الصليبيين والمسلمين من بني منقذ الذين كانوا في حلب، ثم ذهب إلى حلب يلتمس المساعدة من أخيه سليمان، فوجده مريضاً على فراش الموت، فاستغل الحلفاء غيابه وانطلقوا من تل باشر عبر وادي بزاعة وحاصروا حلب[3].

وقاوم الحلبيون الحصار مدة ثلاثة أشهر ثم أرسلوا إلى تمرتاش للقدوم إلى حلب فتجاهل دعوتهم، ويبدو أنه لم يعد راغباً بالاهتمام بهم لأنه حصر همه في الاستيلاء على ميافارقين بعد وفاة أخيه، ولما رأوا إعراضه عنهم أرسلوا إلى آقسنقر البرسقي أتابك الموصل، الذي تولى حركة الجهاد ضد الصليبيين بتكليف من السلطان محمود، ونظراً لما اشتهر به من كراهية للأراتقة، وجد في ذلك فرصة لتحقيق رغبة السلطان في استئناف حركة الجهاد، فأرسل أحد القادة إلى حلب، فتسلَّم قلعتها، وعلى الرغم من مرضه فقد مضى على رأس جيشه إلى حلب، وعندما اقترب منها أمر خيرخان أمير حمص وطغتكين أمير دمشق باللحاق به، فأرسلا إليه العساكر[4].

كان ظهور تلك القوة الإسلامية الجديدة أمام حلب كافياً لإجهاض مشروع الملك

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٥. (٢) ابن العديم: جـ١ ص٤٢٠.

(٣) يروي ابن العديم ما ارتكبه الصليبيون من مساوئ في هذا الهجوم «فنبشوا قبور موتى المسلمين، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلى كل من كان من لم تنقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد، وآخر يقول: هذا عليُّكم، وأخذوا مصحفاً من الشاهد بظاهر حلب وقالوا: يا مسلم أبصر كتابكم...». زبدة الحلب: جـ١ ص٤٢٠، ٤٢١.

(٤) ابن العديم، ج١ ص٤٢٢.

بلدوين الثاني بالاستيلاء على هذه المدينة، فانفضَّ عنه حلفاؤه واضطر إلى رفع الحصار عنها في (١٢ ذي الحجة ٥١٨هـ/ ٩ كانون الثاني ١١٢٥م)، فانسحب دُبَيْس باتجاه الشرق حيث هاجم الموصل، وغادر الملك الصليبي إلى الأثارب ثم ذهب إلى أنطاكية ومنها عاد إلى بيت المقدس، فوصل إليها في (ربيع الأول ٥١٩هـ/ نيسان ١١٢٥م) بعد أن غاب عنها مدة عامين تقريباً(١).

وخرج أهل حلب ليرحبوا بآقسنقر البرسقي، فدخل المدينة وأقام فيها بعض الوقت رتَّب خلاله أمورها وأصلح أحوالها، ثم عاد إلى الموصل بعد أن عيَّن عليها حاكماً من قِبله هو سوتكين(٢).

معركة عزاز

لم يمكث الملك بلدوين الثاني مدة طويلة في بيت المقدس، وسرعان ما خرج منها متوجهاً نحو الشمال بفعل تطورات الأحداث العسكرية، إذ تعرَّضت أراضي إمارة أنطاكية لضغط المسلمين، وبحكم وصايته عليها كان لا بد أن يدافع عنها. الواقع أن آقسنقر البرسقي كان أشد خطورة من الذين سبقوه في أتابكية الموصل، فكان باستطاعته أن يُوحِّد المسلمين في شمالي بلاد الشام، ويُشكل جبهة إسلامية متماسكة بسبب كونه أميراً على الموصل وحلب، ويتمتع بتأييد السلطان محمود السلجوقي، وخضع لسلطانه طغتكين وخيرخان، وما زال يواصل نشاطه العسكري في شمالي بلاد الشام(٣).

وزار آقسنقر البرسقي شيزر في (صفر ٥١٩هـ/آذار ١١٢٥م)، فرحَّب به أميرها سلطان بن منقذ الذي كان يحب الدعة، وسلَّمه رهائن الصليبيين وعلى رأسهم ابنة الملك بلدوين الثاني وجوسلين الصغير ولي عهد الرها، فبدا في صورة الرجل العظيم الأهمية ما مكَّنه من مهاجمة إمارة أنطاكية، فرحل على رأس جيش مؤلف من القوات الإسلامية المتحالفة إلى كفرطاب، واستولى عليها، وكانت بحوزة الصليبيين، ثم حاصر زردنا(٤).

التمس الأنطاكيون المساعدة من الملك بلدوين الثاني، فأسرع إلى نجدتهم، واصطحب معه بونز أمير طرابلس، وانضم إليه جوسلين أمير الرها، فبلغ عديد جيوشه ألفاً ومائتي فارس وألفين من المشاة، فقادهم إلى زردنا لتخليصها من

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٤٢٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٤٢٤، ٤٢٥.
(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٢٧٦.
(٤) ابن العديم: جـ١ ص٤٢٥. فولشر الشارتري: ص٢٢٣.

الحصار، وعندما علم المسلمون بزحفه فكُّوا الحصار عنها وتوجَّهوا إلى عزاز شمالي حلب على الطريق بين أنطاكية والرها. واشتبك الطرفان عند هذه المدينة في (١٦ ربيع الآخر/ ٢٢ أيار) في رحى معركة هي أشد ما وقع من معارك في تاريخ الحروب الصليبية لكثرة ما سادها من العنف وسفك الدماء، فاستغل المسلمون تفوقهم العددي وخاضوا المعركة وجهاً لوجه، وحتى يتخلَّص من ميزة المسلمين العددية، استعمل الخديعة، فانسحب باتجاه الأثارب ليحوِّل نظر المسلمين ويطاردوه، ثم يتوقف وينقض عليهم، وهذا ما حصل. فقد وقع آقسنقر البرسقي في مكيدته وتعرَّض للهزيمة في (٧ جمادى الأولى/ ١١ حزيران)، وطارده الملك الصليبي حتى أبواب حلب، «وكُسر البرسقي كسرة عظيمة، واستشهد جماعة من المسلمين من السوقة والعامة»، وتكبَّد المسلمون بين ألف وألفين قتيل وعدداً كبيراً من الأسرى وقدراً هائلاً من الغنائم، بحيث استطاع الملك الصليبي أن يجمع مبلغ ثمانين ألف دينار الذي كان يدين به لاقتداء الرهائن[(١)]، وجرت بعد المعركة، مفاوضات قصيرة بين الطرفين أسفرت عن توقيع هدنة تضمَّنت ما يلي:

- وقف العمليات العسكرية.
- يُطلق آقسنقر البرسقي سراح الرهائن الصليبيين مقابل ثمانين ألف دينار، علماً بأن هذا المال كان فيما مضى من نصيب تمرتاش.
- يحتفظ المسلمون بكفرطاب وقد آلت إلى خيرخان أمير حمص.

وعاد الملك بلدوين الثاني بعد عقد الصلح إلى بيت المقدس، وذهب آقسنقر البرسقي إلى حلب ثم رجع إلى الموصل بعد أن ترك فيها حامية عسكرية بقيادة أمير حاجب صارم الدين بك بن طلماس، وعزل سوتكين عنها[(٢)].

الملك بلدوين الثاني يهاجم إمارة دمشق

لم يركن الملك الصليبي إلى الهدوء عن محاربة المسلمين واختار هذه المرة أن يهاجم إمارة دمشق، فقام بحملة كبيرة ضدها في (ذي الحجة ٥١٩هـ/ كانون الثاني ١١٢٦م) فتوجَّه إلى حوران ومنها إلى النقرة فمرج الصفَّر ثم وادي العجم، ووصل في (منتصف ذي الحجة/ كانون الثاني) إلى الأطراف الشمالية لإقليم شرخوب، فخرج طغتكين للتصدي له، ووقع الصدام بين الجيشين في (٢٧ ذي الحجة/ ٢٥ كانون الثاني) عند تل شقحب، على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من

(١) ابن العديم: جـ١ ص٤٢٦. فولشر الشارتري: ص٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) المصدران نفساهما: ص٤٢٦. ص٢٢٥، ٢٢٦.

دمشق، ورجحت كفة المسلمين في بداية المعركة، ونفذت جماعة من تركمان طغتكين إلى خيمة الملك الصليبي، وفرَّ الصليبيون من أرض المعركة لا يلوون على شيء، وشُغل المسلمون بنهب محتويات المعسكر الصليبي الخالي من المدافعين عنه متخلين عن حذرهم، ففاجأهم الملك الصليبي الذي توقف وأعاد تنظيم صفوف قواته وهم على هذه الحال، فهزمهم وكبَّدهم كثيراً من القتلى، وطاردهم حتى عقبة شَحوَا في منتصف الطريق إلى دمشق، ثم رأى من الحكمة أن يتوقف نظراً لما لحق به من خسائر، وعاد إلى بيت المقدس[(١)].

جدَّد الملك الصليبي هجماته على إمارة دمشق في عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م)، وكان لذلك علاقة بانتشار مذهب الحشيشية الباطنية في بلاد الشام. فقد حدث منذ بضع سنوات أن قدم من إيران أحد دعاة الحشيشية ويُدعى بهرام الأسترابادي، فاستقر في حلب وتزعَّم هذه الطائفة في شمالي بلاد الشام، وبثّ دعاته في مختلف الأرجاء لنشر الدعوة الإسماعيلية، وحظي بتأييد إيلغازي الأرتقي، غير أن أهل حلب كرهوا مذهبه وقاوموه، فاضطر إلى مغادرة المدينة وتوجَّه إلى دمشق وهو يحمل توصية من إيلغازي، فاستقر فيها وأخذ يبث دعوته بين الدمشقيين، ويجمع حوله الأنصار، ولقي تأييداً من وزير طغتكين، أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني. ورأى طغتكين أن يمنحه بانياس الواقعة على الحدود مع مملكة بيت المقدس، للدفاع عنها ضد هجمات الصليبيين وذلك في (ذي القعدة ٥٢٠هـ/ تشرين الثاني ١١٢٦م)، فقام الداعي بترميم أسوارها، وزاد من استحكاماتها[(٢)].

وبثَّ الداعي بهرام دعاته في المناطق القريبة، لكن نشاطه الدعوي واجه معارضة شديدة من سكان وادي التيم التابع لبعلبك، علماً بأن هؤلاء السكان كانوا على عداء مع الإسماعيلية النزارية، كما أزعج طغتكين بث الدعوة الإسماعيلية بين رعاياه، فقرَّر التخلص منه، لكنه توفي في (٨ صفر ٥٢٢/ ١٢ شباط ١١٢٨م) قبل أن يتمكّن من تحقيق ذلك، وخلفه ابنه تاج الدين بوري[(٣)].

وأقدم بهرام على قتل برق بن جند، أحد زعماء القبائل العربية في وادي التيم، فقام أخوه ضحاك مكانه وحارب الحشيشية، وجرى اللقاء بين الطرفين في (صفر/ شباط)، فقُتل بهرام في المعركة وهُزم أتباعه، فتراجعوا إلى بانياس[(٤)].

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٣٩، ٣٤٠. تُشبه هذه المعركة بأحداثها، معركة أُحد التي خاضها المسلمون ضد قريش في (شوال ٣هـ/ آذار ٦٢٥م).

(٢) ابن القلانسي: ص٣٤٢، ٣٤٣. (٣) المصدر نفسه: ص٣٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٥٢. ابن الأثير: جـ٩ ص١٦، ١٧.

خلف بهرام الداعي إسماعيل العجمي الذي حظي هو الآخر بتأييد الوزير المزدقاني في دمشق، لكنه واجه عداء أهل وادي التيم بالإضافة إلى حاكم دمشق الذي أثار أهل دمشق ضده، وتعرَّض للقتل كل من ظفر به الثائرون من الحشيشية، فتحرج موقف إسماعيل العجمي ورأى للخلاص من هذا التحرج أن يُسلِّم بانياس للملك الصليبي مقابل الحصول على صور[1].

استغل الملك بلدوين الثاني وفاة طغتكين وقرّر مهاجمة دمشق، لكنه كان بحاجة إلى قوة مادية، فأرسل هيو باينز مقدم الداوية إلى أوروبا ليجنِّد العساكر، ثم قدمت إليه رسل إسماعيل العجمي، فأرسل قوة عسكرية استلمت بانياس، وشحنها بالعساكر، غير أن إسماعيل العجمي خرَّ مريضاً ولم يلبث أن توفي بعد بضعة أشهر، فتفرَّق أتباعه[2].

وقدم الملك بلدوين الثاني إلى بانياس في (ذي الحجة ٥٢٣هـ/ تشرين الثاني ١١٢٩م) على رأس جيش كبير ومضى في سيره باتجاه دمشق من دون مقاومة، وعسكر عند جسر الخشب على مسافة ستة أميال إلى الجنوب الغربي من المدينة، واستعد بوري للدفاع عنها، فتقدم على رأس جيشه حتى صار مقابل جيش بيت المقدس، وقضت إحدى فرقِهِ العسكرية على قوة صليبية بقيادة وليم بور كانت تجمع ما يحتاجه الجيش من مؤن ومواد. وحدث أن هطل المطر في ذلك الوقت ما أعاق العمليات العسكرية، وإذ استبدَّ اليأس بالملك الصليبي لم يسعه إلا أن يتخلَّى عن مشروعه بحصار دمشق، وارتد عائداً إلى بانياس ومنها إلى فلسطين، وتفرَّق جنده[3].

قدوم بوهيموند الثاني إلى الشرق

عندما بلغ بوهيموند الثاني الثامنة عشرة، قدم إلى أنطاكية ليتسلم إرثه، بناء على دعوة الملك بلدوين الثاني وأهالي أنطاكية، وقد تخلَّى قبل قدومه عن أملاكه في إيطاليا لابن عمه روجر الثاني ملك صقلية، فأبحر من أوترانتو في (رمضان ٥٢٠هـ/ أيلول ١١٢٦م) على رأس أسطول مؤلف من أربع وعشرين سفينة تحمل أعداداً كبيرة من العساكر والخيل، فوصل إلى ميناء السويدية في (شوال/ تشرين الأول)، وتوجَّه فوراً إلى أنطاكية، فاستقبله الملك الصليبي بالترحاب، وقد أراد أن يُريح نفسه من الوصاية على إمارة أنطاكية، وسلَّمه إمارته، وزوَّجه من ابنته أليس في (رمضان ٥٢١هـ/ أيلول ١١٢٧م)، وقد ترتَّب عل هذه الزيجة تقوية الروابط بين مملكة بيت

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٥٣. ابن الأثير: جـ٩ ص١٧.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥٦ ـ ٣٦٠. ابن الأثير: جـ٩ ص١٨. رنسيمان: جـ٢ ص٢٨٨.

المقدس وإمارة أنطاكية، واعترف كل من جوسلين وبونز بسيادته على الإمارة[1].

مشكلة وراثة عرش مملكة بيت المقدس

أضحى بوسع الملك بلدوين الثاني أن يعود إلى الجنوب ليدير شؤون مملكته بعد أن شعر بالارتياح إثر وفاة آقسنقر البرسقي وقدوم بوهيموند الثاني إلى أنطاكية، فقام في (رمضان/أيلول) بحملة في شرق البحر الميت، ثم شُغل بتدبير وراثة العرش، إذ أن زوجته الملكة مورفيا لم تنجب سوى أربع بنات: ميليسند، وأليس، التي أضحت أميرة أنطاكية، وهوديرنا ويوفيتا اللتين لا تزالان طفلتين، فكانت ميليسند هي الوريث الشرعي له، لكن كان عليه أن يختار لها زوجاً يصلح لها، وبعد أن استشار أعوانه أرسل في عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) وليم بور وأمير بيروت جاي بريسبار إلى فرنسا ليطلبا من الملك لويس السادس أن يختار رجلاً من نبلاء فرنسا يصلح لهذا المركز، فاختار فولك الخامس كونت أنجو، فغادر فرنسا في (أواسط ٥٢٣هـ/ ربيع ١١٢٩م) بصحبة الرسولين، ونزل في عكا في (رجب/ أيار)، ومنها توجَّه إلى بيت المقدس، فتزوج من ميليسند[2].

النزاع بين بوهيموند الثاني وجوسلين

استهل بوهيموند الثاني حكمه بمهاجمة المسلمين مبرهناً على أنه لا يقل حماساً عن والده في تحقيق الأهداف الصليبية، فاسترد كفرطاب واستولى على حصن القدموس من المسلمين[3] غير أنه دخل في نزاع مع جوسلين أمير الرها بسبب:

ـ التنافس للسيطرة على حلب لاتخاذها قاعدة لمدِّ نفوذه باتجاه الشرق والجنوب الشرقي، علماً بأن حلب كانت آنذاك غارقة في الفوضى إثر وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن آقسنقر البرسقي في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م) بفعل تعدد المطالبين بالسلطة وتنازعهم، واستأثر قتلغ أبه، نائب الأتابك المتوفى، بإدارة شؤون المدينة[4].

ـ طمع جوسلين في وراثة عرش بيت المقدس بحكم قرابته من الملك بلدوين الثاني بالإضافة إلى السابقة التي جعلت كلّاً من بلدوين الأول وبلدوين الثاني يرتقي من أمير الرها إلى ملك بيت المقدس[5].

ـ سبَّب زواج بوهيموند الثاني من ابنة الملك بلدوين الثاني، مشكلة لجوسلين، إذ جعلت من الأول منافساً للثاني في التطلع إلى اعتلاء عرش مملكة بيت المقدس.

---

(١) فولشر الشارتري: ص٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢. الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٣٨ ـ ٦٤٠.
(٢) الصوري، وليم: ص٦٤٣ ـ ٦٤٨. (٣) ابن الأثير: جـ٩ ص١٩.
(٤) ابن العديم: جـ١ ص٤٣٠، ٤٣١. (٥) عاشور: جـ١ ص٥٣١.

ـ حصول جوسلين على المناطق التي كانت فيما مضى تحت سيطرة أنطاكية، بموجب الهدنة التي عقدها مع آقسنقر البرسقي.

ـ سبق لمارية، زوجة جوسلين الثانية وشقيقة روجر الأنطاكي، أن حصلت على وعد أن تكون عزاز بائنة لها، فنقض بوهيموند الثاني الاتفاق لأن روجر كان وصياً على إمارة أنطاكية باسمه ولا يحق له التنازل عن شيء من أراضيها.

نتيجة لهذا النزاع، قاد جوسلين قواته للإغارة على أطراف أنطاكية، وغضب الملك بلدوين الثاني عندما علم بهذا النزاع، فأسرع إلى الشمال في أوائل (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، ونجح في تحقيق الصلح بينهما، وحدث أن مرض جوسلين فجأة، فعُدَّ ذلك عقاباً إلهياً ما دفعه إلى أن يعيد إلى بوهيموند الثاني ما أخذه من غنائم ويتنازل له عن دعواه بشأن عزاز[١].

نهاية بوهيموند الثاني

صادف في عام (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) أن اجتازت إمارة أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت تنتهي بسقوطها في يد عماد الدين زنكي أو بخضوعها لطاعته على الأقل، ذلك أن أميرها بوهيموند الثاني كان يطمع في أن يعيد لإمارته كل البلاد التي كانت تشملها، والمعروف أن سلطة أنطاكية في كيليكية قد تداعت في حين لا زالت طرسوس وأذنة بيد الصليبيين، واستطاع الأمير ثوروس الأول (٤٩٤ ـ ٥٢٣هـ/ ١١٠٠ ـ ١١٢٩م) أن يؤسس إمارة أرمنية قوية في هذه المنطقة، وانتزع من البيزنطيين سيس وعين زربى، واتخذ الأولى حاضرة له[٢]، لكن ثوروس توفي في عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م) ثم لحق به ابنه قسطنطين بعد عدة أشهر نتيجة لما وقع في البلاط الأرمني من مؤامرات، فخلفه ليون الأول شقيق ثوروس، ما جعل الإمارة الأرمنية تعاني كثيراً من المطامع الخارجية والمتاعب الداخلية[٣].

وجاء الخطر الكبير الذي هدَّد الإمارة، من جانب الأمير غازي الدانشمندي صاحب ملطية من ناحية الشمال، الذي امتدت أراضيه إلى جبال طوروس، ومن جانب بوهيموند الثاني أمير أنطاكية من ناحية الجنوب، فقد اعتقد هذا الأخير أن الوقت قد حان ليستعيد عين زربى، فسار في (ربيع الأول ٥٢٤هـ/ شباط ١١٣٠م) على رأس جيش بمحاذاة نهر جيحان[٤] نحو هدفه. وإذ أرتاع ليون، لم يسعه إلا

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٤٠، ٦٤١. (٢) رنسيمان: جـ٢ ص٢٩٢.

(٣) Iorga, N: L’Armenie Cilicienne: pp92, 93.

(٤) جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي، ومخرجه من بلاد الروم، يمر حتى يصب بمدينة تُعرف بكفربيا بإزاء المصيصة. الحموي: جـ٢ ص١٩٦.

التماس المساعدة من الأمير إيلغازي الدانشمندي، ولم يعلم أمير أنطاكية شيئاً عن هذه المساعدة، ولم يلبث أن تقابل الخصمان الأتراك والنورمان في سهل عين زربى انتصر فيها غازي وقُتل بوهيموند الثاني مع جميع رجاله[1].

شكَّل مقتل بوهيموند الثاني وهو في ريعان الشباب كارثة حقيقية حلَّت بالصليبيين وبخاصة في أنطاكية لأنه كان يُبشِّر بمستقبل زاهر في مجال النشاط الصليبي[2]، وكان قد تولى حكم أنطاكية بمقتضى حق الوراثة، ورأى الصليبيون فيها أن تنتقل حقوقه إلى وريثه وفقاً لقانون الإقطاع الغربي، على أنه لم يُرزق من زواجه من أليس إلا بابنة هي الأميرة كونستاس ولم تكن قد تجاوزت الثانية من عمرها، فبادرت أليس إلى تولي شؤون الوصاية على أنطاكية بنفسها من دون أن تنتظر ما قد يقوم به والدها الملك بلدوين الثاني من تعيين وصي بوصفه سيداً أعلى على كافة الصليبيين في الشرق، ويبدو أنها كانت شديدة الطموح لحكم الإمارة، وسرعان ما تردَّدت شائعة في أنطاكية بأنها أرادت أن تحكم على أنها أميرة مستقلة لا مجرد وصية على العرش[3].

هرع الملك بلدوين الثاني فوراً نحو الشمال عندما سمع بنبأ مصرع بوهيموند الثاني حتى يرعى وريثة أنطاكية ويُعيِّن وصياً على الإمارة، فوجدت أليس نفسها في موقف حرج ما اضطرها إلى الاستعانة بعماد الدين زنكي الذي بدأ نجمه يسطع في سماء الشرق، فأرسلت إليه رسالة سرية تطلب مساعدته مقابل التبعية له، لكن الرسالة لم تصل إليه بفعل إلقاء القبض على الرسول وإعدامه، ولما ظهر الملك بلدوين الثاني أمام أسوار أنطاكية، أعلنت أليس الثورة على أبيها، وأغلقت أبواب المدينة في وجهه، إلا أن أعيان أنطاكية وأمراءها الصليبيين استاءوا من تلك التصرفات، فثاروا ضد أليس وفتحوا للملك وعساكره أبواب مدينتهم، فتقرَّر عزل أليس، ونفاها والدها إلى اللاذقية وجبلة، وتولى الملك بلدوين الثاني بنفسه الوصاية على أنطاكية، وعهد إلى جوسلين بالقوامة على أنطاكية وأميرتها الطفلة كونستانس ثم عاد إلى بيت المقدس[4].

وفاة الملك بلدوين الثاني

تدهورت صحة الملك بلدوين الثاني في أواخر حياته، وقد أنهكه ما بذله من

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٤٨ ـ ٦٥٠.
(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٢٩٣. عاشور: جـ١ ص٥٣٢.
(٣) العظيمي: جـ٢ ص٦٧٩. رنسيمان: جـ٢ ص٢٩٣.
(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٥٠. ابن العديم: جـ٢ ص٤٤١.

نشاط كبير، فاستدعى نبلاء المملكة وأمرهم بقبول ابنته ميليسند وزوجها فولك ملكين عليهم، وتوفي يوم الجمعة في (٢٥ رمضان ٥٢٥هـ/ ٢١ آب ١١٣١م)، ودُفن في كنيسة القيامة، وقد حكم ثلاثة عشر عاماً، وخلفه فولك الذي تُوِّج ملكاً في الكنيسة المذكورة في (١٩ شوال/ ١٤ أيلول)[١].

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٥٠، ٦٥١.

البَـابُ الثَّـانِى

توازن القوى

الفَصْل الثَاني عَشَر

اليقظة الإسلامية

ظهور عماد الدين زنكي

اتصفت الحياة السياسية في الشرق الأدنى الإسلامي، قبل مجيء الصليبيين، باضطراب داخلي شمل الدول والإمارات الإسلامية كافة. ففي الشرق خضعت الخلافة العباسية لسيطرة السلاجقة العظام ثم سلاجقة العراق، وقد تدهور نفوذهم بعد ذلك وتفكَّكت دولتهم حين دبَّ النزاع بين أُمرائهم حول الاستئثار بالنفوذ والسلطان.

وكانت الدولة الفاطمية في مصر تمر بمراحل شيخوختها يُنازع أُمراؤها خلفاءها ورجال القصر فيها حول السلطة العليا، وتجاذبت القوتان السلجوقية والفاطمية بلاد الشام من دون أن تتمكَّن أي منهما من تثبيت نفوذها وسيطرتها عليها بصورة دائمة أو فعَّالة.

نتج عن هذا الوضع المضطرب مناخ ملائم للأمراء المحليين في إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، فاستقلَّ كلٌّ بما تحت يده، يعالج مشكلاته وشؤونه الخاصة، وخضع للجانب الذي ارتبطت به مصلحته، وراح يعمل على توسيع أملاكه إلى ما وراء حدود إمارته على حساب جيرانه الأمراء الآخرين، في ظل ضُعف الرابطة السياسية بين هذه الكيانات، فتوزَّعت السلطة نتيجة ذلك بين عدد من الأمراء الطامحين، وتركَّزت إماراتهم في الموصل وأنطاكية والرها وحلب ودمشق وبيت المقدس وغيرها، فأضحى لكل وحدة من هذه الوحدات السياسية ـ الاجتماعية، كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير.

ووصل الصليبيون إلى الشرق في ظل هذه الظروف القلقة، واندلعت نيران الحروب الصليبية في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، ونجح الصليبيون في تأسيس إمارات لاتينية في قلب العالم الإسلامي مستغلين تدهور نفوذ السلاجقة وعجز الخلافة العباسية والدولة الفاطمية، وتشتُّت الإمارات الإسلامية.

لم يدرك الأمراء المسلمون، الذين أُصيبوا بالذهول لأول وهلة، عِظَم هذه النكبة

التي حلَّت بهم، وتحركَ العامة في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام وفي غيرها من البلاد الإسلامية للبحث عن قيادة قوية ومخلصة تُوحِّد صفوفهم وتقودهم إلى الجهاد لدفع الخطر الصليبي.

وتهيأت الظروف لظهور هذه القيادة انطلاقاً من إمارة الموصل، وذلك بفعل موقعها الجغرافي المجاور لإمارة الرها الصليبية، فكان عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر، الذي ينتمي إلى قبيلة ساب يو التركمانية، القائد الصلب الذي أدرك ما آلت إليه أوضاع العالم الإسلامي في الشرق الأدنى من تشتُّت وتدهور، فأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة، فأسَّس دولة له في الموصل في عام (٥٢١هـ/١١٢٧م) في ظل ظروف شهدت ظهور عدد كبير من الإمارات المحلية في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، ثم رفع راية الجهاد ضد الصليبيين، لكنه اصطدم بحال التمزق السياسي التي كانت سائدة في المنطقة، فرأى ضرورة تجميع القوى الإسلامية، وحَشْد طاقاتها قبل القيام بأي خطوة إيجابية لمواجهة العدوان الصليبي، فنهض يعمل على ضمِّ هذه القوى المشتَّتة.

عماد الدين زنكي يتوسع في شمالي الشام والجزيرة الفراتية

ضمُّ حلب: بعد أن ثبَّت أقدامه في الموصل، التفت عماد الدين زنكي إلى تنفيذ الشق الأول من خطته، القاضي بتجميع القوى الإسلامية وتوحيدها مع إمارة الموصل، تمهيداً للانتقال إلى الشق الثاني من الخطة، وهو مواجهة الصليبيين وطردهم من بلاد الشام والجزيرة الفراتية، مدركاً في الوقت نفسه أنه لا يستطيع أن يطمئن أثناء زحفه إلى بلاد الشام إلا إذا ضمَّ الإمارات الصغيرة المنتشرة في المناطق المذكورة حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم عليها.

الواقع أن منطقة الجزيرة الفراتية وشمالي بلاد الشام قد شهدت خلال هذه الآونة قيام عدد كبير من المدن والإمارات التي استأثر بحكم كل منها أمير مستقل أو شبه مستقل، لم يتمكَّن من إنشاء دولة واسعة أو إمارة وراثية باستثناء بعض الإمارات، مثل: الإمارات الأرتقية وأتابكية دمشق. ورأى عماد الدين زنكي ضرورة ضمِّ هذه المدن، واستغرقت عملية الضم حتى عام (٥٤١هـ/١١٤٦م)، كان يتنقل خلالها من مدينة إلى أخرى لضمها وفقاً لتطور الأوضاع السياسية.

وتطبيقاً لهذه السياسة، ضمَّ البوازيج في عام (٥٢١هـ/١١٢٧م)، وهي بلدة قرب تكريت، وتقع على طريق الموصل عند مصب نهر الزاب الأسفل، مستهدفاً اتخاذها قاعدة لحماية مؤخرته، ثم ضمَّ جزيرة ابن عمر، وتقع إلى الشمال على بُعد ثلاثة أميال من الموصل، نظراً لأهميتها العسكرية والاقتصادية، وكان يحكمها أحد

مماليك آقسنقر البرسقي[1]، ثم تطلع إلى ضمٍّ حلب.

تُعدُّ حلب ذات أهمية بالغة لأي قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمواجهة الصليبيين بفضل ما تتمتع به من حصانة عسكرية، ومركز متميز، وإمكانات اقتصادية وبشرية مهمة، بالإضافة إلى موقعها على خطوط المواصلات بين فارس والعراق من جهة، وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، ثم بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وغدت منذ عهد طويل قاعدة لا يمكن بدونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام، في الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وبلاد الشام وأواسطه، ما يُعدُّ أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد[2].

وساعدت عماد الدين زنكي الظروف السياسية التي كانت تمرُّ بها حلب، التي وجدت نفسها في حال شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقي في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، وتعدُّد المطالبين بالسلطة وتنازعهم.

فقد استأثر قلتغ أبه، نائب الأتابك المتوفى، بإدارة شؤونها[3] في الوقت الذي طمع فيها كل من جوسلين أمير الرها وبوهيموند الثاني أمير أنطاكية، لاتخاذها قاعدة لمدِّ نفوذه باتجاه الشرق والجنوب الشرقي.

وشنَّ الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها، رافقها تدهور حال في أوضاعها الاقتصادية، وانتشار الخوف والقلق بين السكان[4]، ما دفع هؤلاء إلى الالتفاف حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الأرتقي، وقد تزعم الثورة ضد قتلغ أبه الذي اتصف بالتعسف[5]. ويبدو أن سليمان لم يتمكَّن من معالجة تدهور الأوضاع على الرغم من أنه عقد هدنة مع جوسلين تنازل له بموجبها عن بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية لحلب[6].

لكن يقظة عماد الدين زنكي أحبطت خطط الجميع ومشاريعهم، وقد سعى إلى ضمِّ حلب بوصفه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي محمود الثاني بحكم الموصل والجزيرة الفراتية وبلاد الشام، فدخلها في (جمادى الآخرة ٥٢٢هـ/ حزيران ١١٢٨م) بعد أن مهَّد لخطوته هذه، فرحَّب به سكانها آملين ببداية عهد جديد من الأمن والاستقرار بعد أن سئموا من الفوضى التي سادت مدينتهم، فنظَّم أمورها

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٥، ٣٦.
(٢) خليل: ص٧١.
(٣) ابن العديم: جـ١ ص٤٣٠، ٤٣١.
(٤) ابن الأثير: ص٣٤، ٣٧، ٣٨.
(٥) ابن العديم: جـ١ ص٤٣١.
(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١١، ١٢.

وأقطع أعمالها لأمرائه وأجناده[١].

وحتى يُثبِّت أقدامه في حلب ويقطع الطريق على المفسدين، ضايق عماد الدين زنكي زعماء المدينة المعارضين لحكمه، وذوي المصالح القديمة فيها، فقضى على بعضهم، مثل قتلغ أبه، وفرَّ بعضهم الآخر، مثل إبراهيم بن رضوان الذي ذهب إلى نصيبين، وسليمان بن عبد الجبار، وفضائل بن بديع رئيس حلب السابق الذي التجأ إلى قلعة جعبر القريبة من حلب[٢].

وبذلك تحقَّقت الوحدة بين الموصل وحلب، وحصل عماد الدين زنكي على موقع مهم، وأمِن جانب المعارضة، وتهيأت له الفرصة للتدخل في أوضاع بلاد الشام لتوحيد صفوف المسلمين ومواجهة أخطار الصليبيين، كما أدَّى ذلك إلى عزل إمارة الرها عن بقية الإمارات الصليبية في الغرب والجنوب.

ضم شمالي العراق والجزيرة الفراتية: واستكمالاً لضمِّ حلب، ضمَّ عماد الدين زنكي، سنجار[٣] الواقعة-في منتصف الطريق بين الموصل وحلب في أواخر (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، وحرَّان[٤] التابعة لعز الدين مسعود البرسقي في عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م)، وإربل[٥] التي تُعدُّ الباب الشرقي الذي يصل الموصل ببلاد فارس ونقطة الدفاع الرئيسة في الطريق الذاهب غرباً إلى بلاد الشام، وذلك في عام (٥٢٦هـ/ ١١٣٢م)، والرقة[٦] الواقعة على الفرات في عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م)، ودقوقا[٧] بين إربل وبغداد في عام (٥٣١هـ/ ١١٣٧م)، وقلعة شهرزور[٨] الواقعة في وسط سهل يمتد من إربل إلى همذان.

وتوسَّع عماد الدين زنكي باتجاه الجنوب الغربي بين عامي (٥٣٦ ـ ٥٣٨هـ/ ١١٤١ ـ ١١٤٣م)، فضمَّ الحديثة[٩] الواقعة على الفرات، وعانة القريبة منها وتقع بين الرقة وهيت، وقلعة جعبر[١٠] في عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، كما توسَّع في دياربكر

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١١، ١٢. ابن العديم: جـ٢ ص٤٣٧. العظيمي: جـ٢ ص٦٧٨.
(٢) ابن العديم: جـ٢ ص٤٣٨.
(٣) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: جـ١ ص٧٧.
(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٧.
(٥) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ١ ص٩٧.
(٦) ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٠.
(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٨٨.
(٨) الحمودي: جـ٣ ص٣٧٥.
(٩) ابن الأثير: جـ٩ ص١٢١.
(١٠) المصدر نفسه: ص١٤١.

على حساب الأراتقة لتأمين الجسر الذي يصل الموصل بحلب، وشكل الأراتقة قلب ذلك الجسر، وعائقاً رئيساً في مواصلاته مع بلاد الشام وبخاصة في حال صدامه مع الصليبيين، فضمَّ نصيبين التابعة لإمارة ماردين بعد معركة دارا[1] التي خاضها ضد الأراتقة في عام (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)، كما ضمَّ دارا وحصن سرجي[2].

تكتَّل الأراتقة لمواجهة طموحات عماد الدين زنكي مع ما يُشكل ذلك من خطر على مشاريعه في منطقة دياربكر، لذلك انتهج سياسة التفرقة في صفوفهم كي يسهل عليه إضعافهم وضمُّ أراضيهم، فاختار أن يتحالف مع حسام الدين تمرتاش أمير ماردين وميافارقين، وخطَّطا لاقتسام دياربكر، وخاضا معارك عدة من أجل ذلك ضد الأمراء الآخرين، أمثال داوود بن سكمان وابنه قرا أرسلان، ضمَّ بنتيجتها الحصون الواقعة في أقاصي دياربكر، كما ضمَّ مناطق واسعة من إمارة حصن كيفا مثل قلعتي جبل جور والسيوان.

علاقة عماد الدين زنكي بإمارة دمشق

ضم حماة: أدرك عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا إذا ضمَّ دمشق والمدن المحيطة بها إلى أملاكه وأقام محور الموصل ـ حلب ـ دمشق، لأن قطع بلاد الشام عن الجزيرة الفراتية يجعله محتاجاً إلى البقاع وحوران لتموينه بالحبوب، بالإضافة إلى هدف سياسي يعود إلى وجود مملكة بيت المقدس اللاتينية في الجنوب.

والواقع أن ممتلكات المسلمين في بلاد الشام كانت تتوزع آنذاك بين ثلاث قوى:

الأولى، محورها بوري بن طغتكين، أتابك دمشق الذي يسيطر على دمشق وحماة في الشمال وحوران في الجنوب، وكانت مشكلتا دمشق الرئيستان تتمثلان في تجنُّب قوة الزنكيين في الموصل وحلب، وقوة الصليبيين في بيت المقدس، والاحتفاظ بالسيطرة على السهلين الزراعيين، البقاع في الشمال الغربي، وحوران في الجنوب الشرقي، اللذين يمدانها بالقمح والعلف.

الثانية، محورها صمصام الدولة خيرخان بن قراجا أمير حمص.

الثالثة، محورها سلطان بن منقذ، الأمير العربي الذي يُسيطر على شيزر.

---

(١) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين. الحموي: جـ٢ ص٤١٨.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٧. سرجي أو سرجة: حصن يقع بين نصيبين ودُنَيْسر ودارا. المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٠٧. الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٢٣.

وحتى يُحقِّق زنكي هدفه، كان عليه أن يضمَّ حماة وحمص أولاً الواقعتين على الطريق المؤدي إلى دمشق، نظراً لما يمنحه ذلك من قواعد عسكرية مهمة ومراكز للتموين لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد المدينة الأخيرة أو فرض الحصار عليها[1].

ورأى عماد الدين زنكي أن يستعمل الأساليب والمناورات السياسية لضمِّ حماة وحمص، ويتجنَّب ما أمكن استعمال القوة، فأرسل إلى بوري ابنه طغتكين في دمشق يخطره بنيته محاربة الصليبيين ويلتمس منه المساعدة، فكتب بوري إلى ابنه سونج في حماة يأمره بالخروج مع عسكره لنجدة عماد الدين زنكي، كما أرسل من دمشق قوة عسكرية مؤلفة من خمسمائة فارس لتنضم إلى القوات الإسلامية.

رحَّب عماد الدين زنكي بقدوم سونج لكنه لم يلبث أن قبض عليه وعلى عدد من أمرائه وقادته وأرسلهم إلى حلب، ثم تقدم مسرعاً إلى حماة منتهزاً خلوها ممن يحميها ويدافع عنها، ودخلها في (شوال ٥٢٤هـ/ أيلول ١١٣٠م) وسلَّمها لحليفه خيرخان الذي كان يرافقه في عملياته[2].

محاولة ضم حمص: انقلب عماد الدين زنكي على حليفه خيرخان فقبض عليه وأمره بمراسلة أهل حمص لتسليمه المدينة، ثم أرسله إلى حلب وأسرع بمهاجمة حمص، لكن أهل حمص أغلقوا أبواب مدينتهم في وجهه، ودافعوا عنها ببسالة، فاضطر إلى فك الحصار عنها بعد أربعين يوماً وعاد إلى حلب، وأرسل سجناءه إلى الموصل، وكرَّر محاولته في العام التالي لكنه جوبه بمقاومة شديدة، فآثر الانسحاب وانتظار فرصة أخرى مؤاتية. ولا شك بأن هذا الفشل كان ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين في شمالي بلاد الشام بضع سنوات[3].

عماد الدين زنكي يهاجم دمشق

حدث في (رجب٥٢٦هـ/ حزيران ١١٣٢م) أن توفي بوري بن طغتكين وخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل الذي اتصف بالطموح والاندفاع الزائد، ونجح هذا الحاكم في استعادة حماة في (شوال ٥٢٧هـ/ آب ١١٣٣م) مستغلاً انهماك عماد الدين زنكي

---

(١) خليل: ص١١٩.

(٢) ابن القلانسي: ص٣٦١، ٣٦٢. العظيمي: جـ٢ ص٦٧٩. ابن الأثير: جـ٩ ص١٨، ١٩. ويذكر هذا المؤرخ أن ضمَّ حماة حصل في عام ٥٢٣هـ. ابن العديم: جـ٢ ص٤٤٠.

(٣) ابن القلانسي: ص٣٦٢. ابن العديم: جـ٢ ص٤٤١. ابن واصل: جـ١ ص٤٦، ٧١. عاشور: جـ١ ص٥٦٧.

بمشكلاته مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية[١]، غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة وبالغ في الظلم ومصادرة الأموال، وأسرف في التخلص من معارضيه، فاضطربت أوضاع دمشق وتألَّب الناس عليه[٢].

ويبدو أن إسماعيل أدرك عاقبة أفعاله وإصرار عماد الدين زنكي على ضمِّ دمشق، وحتى لا يقع بين فكي الكماشة، السكان من الداخل وعماد الدين زنكي من الخارج، راسل هذا الأخير في عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م) وعرض عليه تسليم المدينة وذلك بنية استقطابه ويهدف القضاء على المعارضة، لأنه اشترط عليه أن يُمكِّنه من خصومه السياسيين، وحذَّره إن لم يُسرع بتلبية طلبه فسيقوم بتسليمها للصليبيين[٣].

وجد عماد الدين زنكي في ذلك العرض فرصته التي طالما تمنَّاها لتوحيد بلاد الشام، فأسرع من الموصل لاستلام دمشق، لكن في الوقت الذي كان يشق طريقه إليها حدثت فيها تطورات سياسية بدَّلت الأوضاع القائمة، إذ قُتل إسماعيل نتيجة مؤامرة في (ربيع الأول ٥٢٩هـ/ كانون الثاني ١١٣٥م) وخلفه أخوه شهاب الدين محمود، فبايعه الناس والتفوا من حوله[٤].

لم يقطع عماد الدين زنكي أمله عندما سمع بهذه التطورات، فواصل طريقه إلى دمشق للتفاهم مع الحكام الجدد والتفاوض معهم على شروط التسليم اعتقاداً منه بعدم قدرتهم على المقاومة، غير أن الدمشقيين رفضوا التفاوض، فضرب الحصار على المدينة في (جمادى الأولى/ شباط) ونفَّذ غارات على أطرافها، فردَّ الدمشقيون بغارات مضادة، وتزعَّم المقاومة معين الدين أنر، أحد مماليك طغتكين؛ ولما فشل في اقتحام المدينة ارتد عنها واضطر إلى عقد صلح مع الدمشقيين في (جمادى الأولى/ آذار)[٥].

وهكذا فشلت الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي لضمِّ دمشق، وظلَّت هذه المدينة أمداً طويلاً تُمثل عقبة في سبيل إتمام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام[٦].

تجدُّد الغارات على حمص

تمكَّن عماد الدين زنكي، أثناء عودته إلى حلب بعد أن فكَّ الحصار عن دمشق،

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٧٠، ٣٧٨، ٣٧٩. العظيمي: جـ٢ ص٦٨٠، ٦٨١.
(٢) ابن القلانسي: ص٣٨٧، ٣٨٨.
(٣) ابن القلانسي: ص٣٨٨، ٣٨٩. ابن الأثير: جـ٩ ص٤٨.
(٤) المصدران نفساهما: ص٣٨٩، ٣٩٠. ص٥٨، ٥٩.
(٥) ابن القلانسي: ص٣٩١. ابن الأثير: جـ٩ ص٥٩، ٦٠.
(٦) عاشور: جـ١ ص٥٧١.

من إعادة ضمِّ حماة إلى أملاكه كما هاجم حمص إلا أنه فشل في دخولها. ويبدو أن هذه المدينة ظلَّت طيلة السنوات الثلاث التالية (٥٣٠ ـ ٥٣٢هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٣٧م) عُرضة لهجماته، ما دفع صاحبها قريش بن خيرخان الذي وجد نفسه عاجزاً عن صدِّه إلى تسليمها لشهاب الدين محمود صاحب دمشق فأقطعها لمعين الدين أنر[١].

وتابع الزنكيون شن الغارات على حمص بقيادة سوار بن أيتكين، غير أن المدينة صمدت، فاضطر سوار إلى طلب التفاوض، واستقر الصلح بين الطرفين على قاعدة عدم تعرض أي منهما للطرف الآخر[٢]، لكن عماد الدين زنكي رفض إقرار الهدنة بفعل إيمانه بأن قيام جبهة إسلامية متحدة في بلاد الشام يجب أن يسبق أي خطوة عملية يتخذها ضد الصليبيين، وجدَّد الهجوم على حمص في (شعبان ٥٣١هـ/ أيار ١١٣٧م) إلا أنه فشل في اقتحامها بسبب مقاومة معين الدين أنر الشديدة، واضطر إلى عقد هدنة مع حكام دمشق بسبب ظهور بوادر تحالف بين الصليبيين من جهة، وقيام فولك ملك بيت المقدس برفقة ريموند الثاني أمير طرابلس بنجدة المدينة من جهة أخرى[٣].

تجدُّد الغارات على دمشق

اضطر عماد الدين زنكي إلى عقد هدنة مع حكام دمشق كي يتفرغ للتصدي للصليبيين الذين احتشدوا في حصن بارين بين حمص والساحل، فانتصر عليهم[٤]، وتهيأت له الفرصة لمهاجمة ممتلكات آل طغتكين وتوحيد بلاد الشام، فهاجم بعلبك في عام (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) إلا أنه قنع بما بذله له صاحبها من المال، فتركها وتوجَّه إلى حصن المجدل[٥] وضمَّه إلى أملاكه، ثم نقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي وهاجم المدينة، ولم ينقذها من السقوط سوى تهديد الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين (٥١٢ ـ ٥٣٨هـ/ ١١١٨ ـ ١١٤٣م) للأملاك الإسلامية في شمالي بلاد الشام، فتخلَّى عن حصار دمشق وذهب إلى شيزر لمساندتها ضد الامبراطور البيزنطي.

وشكَّلت سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٩م) نقطة تحول مهمة في تاريخ دمشق، فقد هوجمت هذه المدينة من اتجاهين متباعدين. فقد هاجمها الصليبيون في بيت المقدس من

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٩٧، ٣٩٨. ابن العديم: جـ٢ ص٤٥١، ٤٥٢.
(٢) ابن القلانسي: ص٣٩٨.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٠٧. ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٣، ٤٥٤.
(٤) ابن القلانسي: ص٤٠٧.
(٥) المجدل: بلد طيب، بالخابور. الحموي: جـ٥ ص٥٦، ٥٧.

الجنوب في حين هاجمها عماد الدين زنكي من الشمال. وشهدت هذه المدينة في (شوال/حزيران) تطورات سياسية متسارعة أدَّت إلى مقتل شهاب الدين محمود على أيدي رجاله وتنصيب أخ له غير شقيق، هو جمال الدين محمد صاحب بعلبك. والراجح أن أنر كان وراء هذه الأحداث، فقد فوَّض إليه الأتابك أمور المدينة وأقطعه بعلبك، فازداد نفوذه وأضحى الحاكم الفعلي(١).

لم تكن هذه التطورات في صالح عماد الدين زنكي، كما عزَّ على زوجته زمرد خاتون وكانت تقيم بحلب، أن يُقتل ابنها ويحل محله ابن ضرتها في حكم دمشق، فطلبت من عماد الدين زنكي الثأر لولدها والسيطرة على دمشق، كما أن الأمور لم تستتب للحكام الجدد بسهولة، إذ كان للأتابك جمال الدين محمد أخ يُدعى بهرام شاه عزَّ عليه أن يتجاهله أنر فلجأ إلى حلب ومنها سار إلى الموصل طالباً مساعدة عماد الدين زنكي(٢).

وبذلك تهيأت لعماد الدين زنكي فرصة أخرى للتدخل في شؤون دمشق، فزحف إليها وعسكر في سهل البقاع ثم تقدم نحو المدينة وفرض الحصار عليها بعد تعذر التفاهم مع حكامها. وحدث في (شعبان ٥٣٤هـ/ آذار ١١٤٠م) أن توفي جمال الدين محمد ما أتاح لعماد الدين زنكي، في ظل النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق، فرصة مؤاتية لتوجيه ضربة حاسمة ضد المدينة، إلا أنر أسرع بتعيين مجير الدين أبق بن محمد أميراً على دمشق، فاضطر عماد الدين زنكي الذي «ضعفت نفسه، وضاق صدره» إلى التراجع قليلاً في ظل إصرار الدمشقيين على المقاومة، لكنه استمر في حصارها أملاً في انهيار الحال الاقتصادية ومن ثَمَّ استسلام المدينة(٣).

وأمام استمرار الحصار واشتداد الخطر الزنكي رأى أنر أن يستعين بالصليبيين، فأرسل أسامة بن منقذ إلى فولك ملك بيت المقدس لإجراء مفاوضات معه تستهدف طلب المساعدة مقابل أن:

- يدفع له مبلغ عشرين ألف دينار نفقات القوات الصليبية التي ستأتي لمساعدته.
- يُعيد له حصن بانياس بعد انتزاعه من حاكمه التابع للزنكيين.
- يُسلمه عدداً من كبار أمرائه كرهائن لحسن التنفيذ.

أدرك الملك فولك ومجلسه الاستشاري مدى الخطر الذي يُشكله عماد الدين زنكي، بعد أن امتلك الموصل وحلب وحماة وحمص وبعلبك، من خطر على

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١٠١. (٢) ابن العديم: جـ٢ ص٤٦٢.

(٣) ابن القلانسي: ص٤٢٤، ٤٢٥. ابن الأثير: جـ٩ ص١٠٥، ١٠٦.

الصليبيين، وإذا امتلك دمشق فإن الوحدة الإسلامية ستصبح واقعاً، وهذا معناه طردهم من الشرق الإسلامي، وأقنعتهم الظروف السياسية والعسكرية بضرورة التعاون مع أنر، وساد بينهم الشعور بأنه لا بد من قبول عرضه، وبخاصة أنهم كانوا يتطلعون إلى استعادة حصن بانياس[(١)].

وسرعان ما توجَّه الصليبيون إلى الشمال لنجدة حليفهم، أما عماد الدين زنكي، الذي ظل يراقب الوضع عن كثب، فقد فكَّ الحصار عن دمشق حتى لا يقع بين فكي الكماشة، وأسرع للتصدي للصليبيين قبل أن يقتربوا من دمشق، وعسكر في إقليم حوران في (رمضان/ نيسان) ينتظر وصولهم[(٢)].

ويبدو أن الملك فولك الذي كان يتقدم بحذر فضَّل التوقف قرب بحيرة طبرية، ما دفع عماد الدين زنكي إلى معاودة حصار دمشق، بيد أنه ما لبث أن فكَّ الحصار عندما سمع بتقدم الصليبيين الذين استأنفوا زحفهم لنجدة حليفهم، وعاد إلى حمص، وتمكَّن الحليفان من الاستيلاء على بانياس في (شوال/ أيار) وسلَّمها أنر إلى الملك فولك وفقاً للاتفاق المبرم معه[(٣)].

والواقع أن التحالف بين دمشق وبيت المقدس، أنقذ الأولى من دون أن ينشب القتال، وتخلَّص أنر من أخطر وآخر محاولة جديَّة من عماد الدين زنكي لضمها إلى أملاكه، الأمر الذي أعاق جهوده بتوحيد المسلمين في بلاد الشام، إلا أنه ظل على الرغم من ذلك يُفكر طوال سنوات حكمه المتبقية بتحقيق هذا الهدف[(٤)].

علاقة عماد الدين زنكي مع الصليبيين

فتح الأثارب

لم تكد سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) تنتهي حتى كان عماد الدين زنكي قد أنهى معظم مشكلاته وحروبه ضد أمراء دياربكر، وامتدت سيادته المطلقة على بلاد الشام حتى جنوبي حمص، فانتهز فرصة اختلال أوضاع أنطاكية وقرَّر البدء بمهاجمة المواقع الصليبية، مستهدفاً أدناها وأشدها خطراً على كيانه السياسي في حلب، فخرج على رأس جيشه وعسكر أمام الأثارب الذي فقده رضوان في عام (٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، وهو من أمنع الحصون الصليبية المتاخمة لحلب، حيث دأب الصليبيون على مضايقة

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٧٨، ٦٧٩. ابن العديم: جـ٢ ص٤٦٣ Stevenson: pp141,142.

(٢) ابن القلانسي: ص٤٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٢٦، ٤٢٧. ابن العديم: جـ٢ ص٤٦٣، ٤٦٤.

(٤) خليل: ص١٣١.

الحلبيين الذين يقاسمونهم أعمالها الغربية ويقومون بغارات مستمرة عليهم، فاصطدم بهم وانتصر عليهم وفتح الحصن وخرَّبه كي يقطع على الصليبيين كل أمل باستعادته واتخاذه قاعدة تُهدد أمن المسلمين في حلب[١]، ثم تقدَّم إلى حارم الواقعة على طريق أنطاكية وحاصرها، فبذل أهلها نصف دخل بلدهم والتمسوا مهادنته فأجابهم إلى ذلك، ثم قفل عائداً إلى حلب ليستعد لجولة أخرى مع الصليبيين[٢]، وقد ذاعت شهرته على أنه بطل المسلمين في جهادهم ضد الصليبيين.

أوضاع الصليبيين الداخلية

وفاة جوسلين: لم يعش جوسلين مدة طويلة بعد وفاة الملك بلدوين الثاني، وقد ظل يحارب المسلمين حتى آخر لحظة من حياته، فقد توجَّه في عام (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) لحصار حصن صغير يقع إلى الشمال الشرقي من حلب، فتصدَّى له سوار بن أيتكين بن تاج الملوك بوري والي حلب من قِبل عماد الدين زنكي، فكانت الغلبة لجوسلين[٣]، وبينما كان يتفقَّد خطوط القتال انهار عليه برج كان قد أمر بنسفه لتسهيل الاستيلاء على الموقع، ودُفن حياً تقريباً، فأخرجه جنده بصعوبة وقد أُصيب بجروح بالغة، فنُقل إلى تل باشر وهو في حال سيئة وباتت وفاته متوقعة بين لحظة وأخرى[٤].

ووردت في هذه الأثناء الأنباء بأن السلطان السلجوقي الرومي مسعود توجَّه للاستيلاء على مدينة كيسوم الواقعة في الشمال الغربي من إمارة الرها، وكانت تتمتع بأهمية خاصة لدى الصليبيين بفعل موقعها الجغرافي ومركزها الديني بعد أن انتقل إليها كرسي بطريرك اليعاقبة بأنطاكية، فأمر جوسلين ابنه جوسلين الصغير بالخروج لمساعدتها، غير أنه ردَّ على والده بأن جيش الرها من قلَّة العدد ما لا يستطيع مواجهة جموع السلطان مسعود، فنهض جوسلين عندئذ من فراشه وهو على شفا الموت، فحُمل على محفة وخرج على رأس الجيش كي يقاتل سلاجقة الروم، فارتاع السلطان مسعود بعد أن اعتقد أنه توفي، وإذ اشتد به القلق لم يسعه إلا أن يرفع الحصار عن كيسوم، ثم توفي جوسلين عقب ذلك في (أوائل ٥٢٦هـ/ أواخر ١١٣١م)[٥].

شكَّلت وفاة جوسلين كارثة بالنسبة لإمارة الرها، إذ فَقَدَت حاكمها الخبير في

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٢.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٩ ـ ٤٢. (٣) ابن العديم: جـ٢ ص٤٤٢.

(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٥٦.

(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٥٦، ٦٥٧. Grousset: II p7.

الوقت الذي واجهت قائداً إسلامياً طموحاً وقوياً مثل عماد الدين زنكي، وقد خلفه ابنه جوسلين الثاني الذي اتصف بالجبن وعدم امتلاك شيء من طموح والده وعزيمته، وقد آثر أن يقيم في تل باشر لينعم بالهدوء.

التنازع الصليبي في الشمال: واجه الملك الصليبي فولك بعد تتويجه معارضة من قِبَل أمراء الصليبيين في الشمال الذين رفضوا الاعتراف بسيادته العليا عليهم. وحاكت أليس شقيقة زوجته والمعارضة لحكمه، المؤامرات للوصول إلى الحكم في أنطاكية، وأصرَّت على أن تكون وصية على ابنتها الصغيرة كونستانس، وقد استندت في دعواها على ما جرت به العادة في بيزنطية والغرب الأوروبي بأن تكون الوصاية لأم الأمير الطفل، فلما توفي جوسلين وكان قيِّماً على الأميرة الصغيرة كونستانس، رفض نبلاء أنطاكية أن يُنصِّبوا جوسلين الثاني مكان والده. ولم تلتمس أليس هذه المرة المساعدة من عماد الدين زنكي وإنما استطاعت بكياستها ومداهنتها أن تستقطب ثلاثة من كبار أمراء الصليبيين، هم وليم صاحب حصن صهيون[(١)] وجوسلين الثاني أمير الرها وبونز أمير طرابلس الذي أدرك أن تحرُّر إمارة أنطاكية من سيادة بيت المقدس يجعل طرابلس تنتهج طريقها، وتمكَّنت بمساعدتهم أن تحيك المؤامرة للعودة إلى أنطاكية والقبض على زمام الأمور فيها، وكان لها أنصار داخل المدينة يُهيئون لها أجواء العودة، غير أن معظم نبلاء أنطاكية كانوا يخشون حكم هذه المرأة، وأدركوا أنه إذا نجحت في تحقيق هدفها فإن ذلك يعني القضاء على الإمارة. وعندما سمعوا بما تردَّد من شائعات عن المؤامرة، أرسلوا إلى الملك فولك يلتمسون مساعدته[(٢)]. وإذ عدَّ ذلك أمراً لا يمكن تجاهله أسرع بالخروج من بيت المقدس لإحباط المؤامرة، فلما بلغ أطراف طرابلس رفض بونز السماح له بالمرور من أراضيه، فاضطر إلى اتخاذ طريق البحر، وأرجأ انتقامه من بونز إلى وقت آخر. فأبحر من بيروت إلى السويدية ومنها توجَّه إلى أنطاكية، فرحب به فرسانها ونادوا به وصياً على الأميرة الصغيرة كونستانس، ما أثار بونز، فجمع حوله بعض الأمراء المجاورين في شمالي بلاد الشام واصطدم بجيش الملك فولك في الروج، إلا أنه لقي الهزيمة، ولم يكن الملك من القوة ما يكفي لأن يعاقبه، ولم يلبث أن عفا عنه بعد اعتذاره وتمَّ الوفاق بينهما، ولم تتعرض أليس للأذى أثناء إقامتها في اللاذقية، وتقرَّر العفو عن وليم صاحب حصن صهيون فضلاً عن جوسلين أمير الرها الذي لم يشهد المعركة،

---

(١) صهيون: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر. الحموي: جـ٣ ص٤٣٦.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٥٨.

وعاد السلام والوفاق بين الصليبيين، واحتفظ الملك فولك بوصايته على أنطاكية غير أنه عهد بإدارتها إلى رينولد مازوار أمير المرقب ثم عاد إلى بيت المقدس[(١)].

سوار يهاجم أنطاكية

يبدو أن الأحداث التي تلت فتح الأثارب أخذت تتجه، في بلاد الشام، اتجاهاً جديداً لصالح المسلمين، الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مواجهة قوة جديدة قذف بها العالم الإسلامي لم تكن في حسابهم، وقد أجبرتهم على تحويل خططهم القتالية من الهجوم إلى الدفاع وبخاصة بعد وفاة الملك بلدوين الثاني وجوسلين أمير الرها، لتنتهي مرحلة التوسع الصليبي التي قادها هذا الملك، وتبدأ مرحلة التوازن بين المسلمين والصليبيين في الشمال.

انهمك عماد الدين زنكي طيلة السنوات (٥٢٥ ـ ٥٢٨هـ/ ١١٣١ ـ ١١٣٤م) بتنظيم شؤون إمارته وتوسيعها، كما انغمس في أحداث العراق على إثر وفاة السلطان محمد، فلم يستطع أن يوجِّه اهتمامه إلى الصليبيين على الرغم من النزاعات التي نشبت بينهم إثر وفاة الملك بلدوين الثاني، وما افتقر إليه هؤلاء من الزعامة القوية يُعد أمراً بالغ الخطورة في مقابل اليقظة الإسلامية وتصاعد نفوذ عماد الدين زنكي الذي حصر قوته وسخَّر موارده في خدمة الجهاد الإسلامي[(٢)]، إلا أنه لم يكن بوسعه أن يستفيد من وضع الصليبيين المتدهور إلا عن طريق الأمير سوار، واليه على حلب الذي دخل في خدمته جماعات مختلفة من التركمان المغامرين بناء على تشجيعه، فاستعان بهم في مهاجمة إمارة أنطاكية في (رجب ٥٢٧هـ/ أيار ١١٣٣م) كما هاجم تل باشر التابعة لإمارة أنطاكية، وطرابلس التابعة للأمير بونز.

واستبدَّ الجزع بأهل أنطاكية الذين التمسوا المساعدة من الملك فولك فتقدم هذا نحو معسكر المسلمين في قنَّسرين، وقام ليلاً بهجوم مفاجئ على المعسكر، وأرغم سواراً على الانسحاب[(٣)]، إلا أن انتصاره لم يكن تاماً، ففي الاشتباكات التي أعقبت ذلك، دمَّر المسلمون عدداً من القوات الصليبية[(٤)]، غير أن الملك فولك نجح في دخول أنطاكية قبل أن يعود إلى فلسطين في (أواخر ٥٢٧هـ/ صيف ١١٣٣م) ولم يكد يغادرها حتى تجدَّدت غارات سوار على ممتلكاتها[(٥)].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٥٨، ٦٥٩. والمرقب: بلد وقلعة حصينة تُشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس في الشمال. الحموي: جـ٥ ص١٠٨.

(٢) رنسميان: جـ٢ ص٢٩٥، ٢٩٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٤٣. الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٦١، ٦٦٢.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٥) رنسيمان: جـ٢ ص٣١١، ٣١٢.

تجدد النزاعات الصليبية في شمالي بلاد الشام

تجدَّدت النزاعات الصليبية في شمالي بلاد الشام بفعل خلافات داخلية أسرية وسياسية.

ففيما يتعلق بالخلافات الأسرية، فقد ثار هيو الثاني لي بويزيه حاكم يافا على حكم الملك فولك في عام (٥٢٦هـ/ ١١٣٢م)، وكان هيو الثاني متزوجاً من إيما أخت البطريرك أرنولف وهي أرملة تكبره في السن، لكنه أقام علاقة غرامية مع الملكة ميليسند زوجة الملك فولك التي لم تحفل بزوجها ولم تبادله الحب بسبب كبر سنه على الرغم من هيامه الشديد بها، وظلَّت وفيَّة لحبها لهيو الثاني، وانتشرت الشائعات في البلاط حول هذه العلاقة الغرامية، ما أثار غيرة الملك فولك. وعندما ساء موقف هيو الثاني باتهامه بالتآمر على الملك فرَّ إلى عسقلان واحتمى بالفاطميين، فاستغل هؤلاء هذا الظرف وأغاروا على إقليم يافا ووصلوا إلى مشارف أرسوف، فصدَّتهم جيوش بيت المقدس التي احتلَّت يافا لحمايتها، وذلك في (٢٩ محرم ٥٢٧هـ/ ١١ كانون الأول ١١٣٢م). وتخلَّى الفاطميون عن هيو الثاني بعد أن تبين لهم أنه حليف ضعيف، فلم يسعه إلا أن يُعلن خضوعه للملك، فتقرَّر نفيه لمدة ثلاث سنوات. لكن هيو الثاني تعرَّض لحادث اعتداء من قِبل أحد فرسان بيت المقدس، وأصيب إصابة بالغة، لم تحل دون إبحاره إلى إيطاليا حيث نزل ضيفاً عند ابن عمه روجر الثاني ملك صقلية، فأقطعه إمارة جارجانو، ثم توفي بعد ذلك بقليل(١).

وفيما يتعلق بالخلافات السياسية، فقد واجه الملك فولك مشكلة الحكم في أنطاكية، فلا زال يُعدُّ الوصي الأسمى عليها، وكان البطريرك برنارد القلنسي يُمثل سلطة فيها، ولما توفي اختير أسقف المصيصة اللاتيني، المدعو رادولف دومفرون، ليحل مكانه من دون انتظار الانتخاب الكنسي، وكانت سياسته مغايرة لسياسة سلفه، فلم يشأ أن يسيطر عليه الملك. وحتى يُقوي موقفه أجرى مفاوضات ناجحة مع أليس في اللاذقية من أجل التعاون، علماً بأن أليس لم تتنازل عن رغبتها في حكم أنطاكية، واستعانت بأختها الملكة ميليسند التي كان تأثيرها بالغ على زوجها. وعندما زار الملك فولك أنطاكية لم يعترض على مخالفة رادولف لقانون الكنيسة، كما لم يكن بوسعه أن يرفض طلب زوجته بإعادة أختها إلى أنطاكية. وظل الملك وصياً على الإمارة غير أن السلطة الفعلية كانت مشتركة بين أليس ورادولف(٢). ولم

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٧٣ ـ ٦٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٦٤، ٦٦٥، ٦٨٠.

يلبث أن دبَّ الخلاف بينهما في الوقت الذي كان فيه عماد الدين زنكي يراقب الوضع عن كثب، وقد سُرَّ بانحلال السلطة في أنطاكية، ثم إن رادولف اختلف مع رجال الكنيسة، فاستُبعد عن السلطة وتفرَّدت أليس بها، غير أن سلطتها كانت محفوفة بالمخاطر إذ كرهها الصليبيون في المدينة بفعل ما جرى من تعاونها مع عماد الدين زنكي، لكن ساندها المسيحيون المحليون ومعظمهم من البيزنطيين. وللخروج من هذا المأزق، وحتى تحافظ على سلطتها، أرسلت إلى الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين (٥١٢ ـ ٥٣٧هـ/ ١١١٨ ـ ١١٤٣م) في (أوائل ٥٣٠هـ/ أواخر ١١٣٥م) تعرض عليه زواج ابنتها كونستاس البالغة من العمر تسع سنوات من ابنه مانويل، فارتاع الصليبيون، أمراء ورجال دين، لأن هذا الحل سيضعهم تحت رحمة بيزنطية وكنيستها الشرقية[١].

والواقع أن هذا الحل يصبُّ في مصلحة الصليبيين لأنه يحافظ على شمالي بلاد الشام من أن تقع في أيدي المسلمين، لأن الدولة البيزنطية كانت الدولة الوحيدة التي تمتلك من القوة ما يكفي لوقف تهديد عماد الدين زنكي، علماً بأن هذا القائد المسلم استخدم كل قواته بعد أن أنهى مشكلاته مع إمارة دمشق، في مهاجمة أنطاكية عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م) في حين أخذ نائبه سوار يُهدِّد تل باشر وعينتاب وعزاز التي شكَّلت خط الدفاع الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، فقطع بذلك سبل الاتصال بين جيوش أنطاكية والرها. وتجاوز عماد الدين زنكي في زحفه ما يقع على الحد الشرقي لأنطاكية من الحصون، أمثال كفرطاب ومعرة النعمان وزردنا، ففتحها الواحدة بعد الأخرى، ففقدت أنطاكية بذلك معاقلها الحدودية[٢]، وأدَّت هذه الانتصارات التي حقَّقها عماد الدين زنكي، إلى تنبيه الصليبيين إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في بلاد الشام وإلى ضرورة توحيد الجهود لتوجيه ضربة حاسمة إليه.

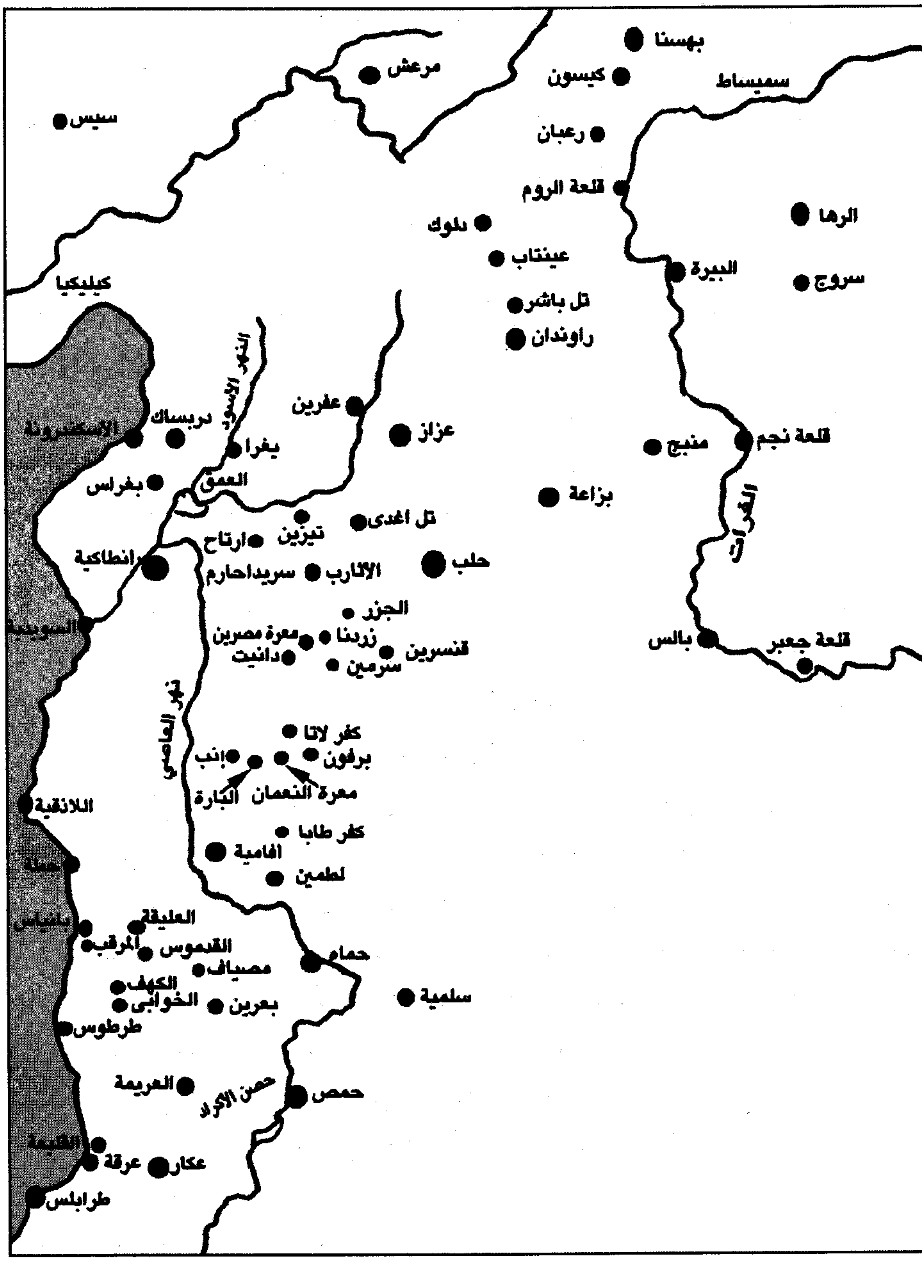
حملت هذه الكوارث، التي نزلت بالصليبيين، الملك فولك على المسير مجدداً إلى الشمال ليرتب أوضاع الإمارات الصليبية ويدفعها إلى محاربة عماد الدين زنكي. وكانت مشكلة الحكم في الإمارة الأنطاكية أولى اهتماماته، وقد نجح في اختيار زوج مناسب للأميرة كونستانس هو ريموند بواتييه، الابن الأصغر لوليم التاسع دوق أكويتانيا، الذي كان يقيم بإنكلترا في بلاط الملك هنري الأول، فاستدعاه على عجل، وعقد قرانه عليها وتولى حكم الإمارة، وانسحبت أليس إلى اللاذقية حيث قضت بقية حياتها[٣].

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٣١٦.

(٢) المرجع نفسه: ص٣١٣، ٣١٤. ابن العديم: جـ٢ ص٤٥١.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٦٢، ٦٩٠، ٦٩١. رنسيمان: جـ٢ ص٣١٧، ٣١٨.



القسم الشمالي من بلاد الشام

مقتل بونز أمير طرابلس

غزا بزْواج، مقدم جيش أتابكية دمشق في عهد شهاب الدين محمود، إمارة طرابلس فتصدَّى له أميرها بونز، وجرت المعركة بينهما في (٤ رجب ٥٣١هـ/ ٢٨ آذار ١١٣٧م) قرب قلعة صنجيل ـ تلة الحجاج ـ، وأسفرت عن خسارة بونز ووقوعه في الأسر، وقتله، بعد أن خانه عدد من السريان الذين يسكنون في جبل لبنان، واستولى بزْواج على قلعة ابن عمار قرب طرابلس، ثم عاد إلى دمشق. خلف بونز ابنه ريموند الثاني في حكم الإمارة[١].

فتح بارين

لم يشأ عماد الدين زنكي أن يهاجم الصليبيين وقد تعرَّض جناح جيشه لخطر الدمشقيين. ففي (شوال ٥٣١هـ/ حزيران ١١٣٧م) زحف إلى حمص التي حازها أنر إقطاعاً من أتابك دمشق، وظل مرابطاً أمام المدينة نحو أسبوعين حتى جاءته الأنباء بأن جيشاً صليبياً بقيادة ريموند الثاني أمير طرابلس يدنو منه لمباغتته والقضاء عليه، فاضطر إلى فك الحصار عن حمص حتى لا يقع بين شقي الرحى، وقام بحركة التفات حول القوات الصليبية، وأجبر ريموند الثاني على التراجع[٢].

ورأى عماد الدين زنكي كي يستدرج الصليبيين أن يتظاهر بمهاجمة حصن بارين الضخم الواقع على منحدرات تلال النصيرية والذي يحرس المنفذ المؤدي إلى البقيعة[٣]، وإذ ضرب الحصار عليه لم يكن بوسع ريموند الثاني التصدي له بمفرده، فأرسل إلى بيت المقدس يطلب النجدة من الملك فولك، فهرع بكل ما استطاع أن يحشده من الرجال للحاق بريموند الثاني حتى بلغا سوياً حصن بارين[٤].

ويبدو أن الرحلة كانت شاقة، فقد أصاب جنودهما التعب والإرهاق، فابتعد عماد الدين زنكي عندما اقتربا منه، غير أنه لما علم بسوء أوضاعهما، عاد واقترب منهما عند خروجهما من بين التلال القريبة من الحصن وفاجأهما[٥]. ودارت بين الطرفين رحى معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، ولقي معظم الصليبيين مصرعهم في ساحة القتال، ووقع آخرون في الأسر، من بينهم أمير طرابلس، وفرَّ الملك فولك إلى الحصن[٦].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٨٤. ابن القلانسي: ص٤١٢.

(٢) ابن القلانسي: ص٤٠٧. ابن الأثير: جـ٩ ص٨٥.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٣٢٤.

(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٩١، ٦٩٢.

(٥) رنسيمان: جـ٢ ص٣٢٤.

(٦) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٨٦ ـ ٦٨٨. ابن الأثير: جـ٩ ص٨٥، ٨٦.

وقبل أن يتقدم عماد الدين زنكي لحصار الحصن، أرسل الملك فولك رسالة عاجلة إلى وليم بطريرك بيت المقدس، وإلى جوسلين الثاني أمير الرها، وإلى ريموند أمير أنطاكية يطلب منهم بذل المساعدة، فاستجاب هؤلاء لندائه[١]. واحتشدت في البقيعة في (ذي الحجة/ تموز) القوة القادمة لإنقاذ الملك فولك، كما برزت بوادر تحرك بيزنطي في الشمال باتجاه أنطاكية، ما ضايق عماد الدين زنكي الذي تقدم نحو الحصن وضرب عليه حصاراً شديداً وهو ينوي فتحه بسرعة قبل جهوز النجدة الصليبية[٢].

ويبدو أن اليأس دبَّ في نفس الملك فولك بعد أن انقطعت عنه أنباء العالم الخارجي بفعل الحصار المركَّز، وتناقص مؤونته، في الوقت الذي كانت فيه مناجيق المسلمين تقذف أسوار الحصن ليلاً ونهاراً، الأمر الذي اضطر معه أن يبعث برسول إلى عماد الدين زنكي يطلب منه شروطه لفك الحصار، وانتهت المفاوضات وفق الشروط التالية:

- يُسلِّم الملك فولك حصن بارين إلى المسلمين.
- يخرج الملك ورجاله منه وهم آمنون.
- يُطلق سراح الأسرى من الفرسان البارزين، ومنهم أمير طرابلس.
- يدفع الملك فولك إلى عماد الدين زنكي مبلغاً قدره خمسين ألف دينار[٣].

والواقع أن ما اشتهر به عماد الدين زنكي من الجلد والصبر ساعده في تحقيق هدفه، وهو على يقين بما يفعله، فلم تكن بارين حصناً غير ذات أهمية، إذ أن تملُّكها سوف يمنع الصليبيين من أن ينفذوا إلى أعالي نهر العاصي، كما أن موقعها «الاستراتيجي» يجعلها تسيطر على حماة وحمص، ويُعدُّ فتحها بالغ الأهمية في مشاريعه المستقبلية[٤].

يوحنا كومنين يغزو بلاد الشام (٥٣١هـ/١١٣٧م)

ظروف قيام الحملة: ذكر ابن الأثير أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بارين، أرسلوا طالبين النجدة من الامبراطور البيزنطي والغرب الأوروبي، «فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٨٦ ـ ٦٨٨. ابن القلانسي: ص٤٠٧، ٤٠٨.

(٢) الصوري، وليم: المصدر نفسه: ص٦٨٩. ابن الأثير: جـ٩ ص٨٦. رنسيمان: جـ٢ ص٣٢٦.

(٣) الصوري، وليم: المصدر نفسه: ص٦٨٦ ـ ٦٩٢. وهو يُعدد معاناة الصليبيين داخل الحصن والتي أجبرتهم على طلب الصلح.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٣٢٧.

النصرانية، مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيه من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها، وأن المسلمين ليس لهم إلا قصد البيت المقدس، فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم»[١].

الواقع أنه إذا كانت الأميرة الأنطاكية أليس لم تنجح في الاتصال بعماد الدين زنكي لمساندتها في صراعها مع والدها والنبلاء الآخرين، نجدها تلجأ إلى طريقة أخرى هي الاتصال بالامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين تعرض عليه زواج ابنتها الأميرة كونستاس من ابنه مانويل، كما ذكرنا.

ولا شك بأن هذا العرض صادف قبولاً حسناً من قِبل الامبراطور، لأن ذلك يعني دخول أنطاكية في تبعية بيزنطية، وهي ما تسعى إليه جاهدة منذ دخول الصليبيين إلى الشرق، وهو الأمر الذي لا يقرُّه بقية الزعماء الصليبيون لذلك سارعوا بتزويج الأميرة كونستاس من ريموند بواتييه، وقد غضب الامبراطور يوحنا لهذا الزواج الذي تمَّ من دون استشارته لأن أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية، وبذلك أضحى الصدام وشيكاً بين يوحنا وريموند[٢].

والحقيقة أن العداء قد اشتد بين البيزنطيين والصليبيين منذ وصول هؤلاء إلى أطراف بلاد الشام وشمالي العراق، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين بتسليمه المدن والبلدات التي كانت فيما مضى من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية قبل أن يفتحها المسلمون، وقد تركَّز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الامبراطورية وإمارة أنطاكية، لأن هذه الإمارة بالإضافة إلى إمارة الرها كانت تُشكل أهمية دينية وعسكرية وتجارية في السياسة البيزنطية، وعدَّت بيزنطية هذه البلاد جزءاً من ممتلكاتها.

والواضح أن هذه البلاد كانت تتيح للأرمن الذين سكنوها منذ أكثر من مائة عام، التوغل داخل الأراضي البيزنطية وتهديدها، ثم إن إقامة الصليبيين في بلاد الشام كان يعني توطيد النفوذ اللاتيني المُضرَّ بالمصالح البيزنطية ما يُعرِّض للخطر تجنيد المرتزقة الصليبيين ضمن إطار النظام العسكري البيزنطي، بالإضافة إلى ذلك، فإن مدنها الرئيسة كانت تُشكل رؤوساً للجسور التجارية البالغة الحيوية في التجارة البيزنطية، فضلاً عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في بلاد الشام تطرفاً إلى جهة الشمال ما جعل حدودها تجاور الحدود البيزنطية في كيليكية[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٨٦.

(٢) Stevenson: p138.

(٣) Vasiliev: II pp408, 409.

ويُذكر بأن الامبراطور يوحنا كومنين حدَّد السياسة البيزنطية في الشرق الأدنى عند اعتلائه العرش على الشكل التالي:

- إعادة الحدود الآسيوية للامبراطورية إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي.
- طرد سلاجقة الروم من الأناضول.
- طرد الأرمن من كيليكية.
- إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الامبراطورية.
- استعادة عدد من المواقع الإسلامية في شمالي بلاد الشام[١].

وحتى يؤمِّن مؤخرة جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام، عقد الامبراطور يوحنا اتفاقيات أمنية مع السلطان مسعود في عام (٥٣١هـ/ ١١٣٧م) بقيت شروطها مجهولة، إلا أن السلطان استعاد أنقرة وجانجري اللتين كان البيزنطيون قد سيطروا عليهما بعد وفاة غازي الدانشمندي، وتراجع الخطر الدانشمندي المنطلق من سيواس، لأن الدانشمنديين انهمكوا بالنزاعات الأسرية، فأضحى بوسعه التدخل في أمور الشام وهو مطمئن[٢].

السيطرة على كيليكية: تقدم الامبراطور يوحنا من أنطاليا على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى باتجاه الشرق، وتولى الأسطول البيزنطي حراسة جناحه. والواقع أن الصليبيين والأرمن دُهشوا من هذا الزحف البيزنطي باتجاه أراضيهم وحاولوا مقاومته إلا أنهم فشلوا في وقفه، فتراجع الأمير الأرمني ليون إلى جبال طوروس للاحتماء بها تاركاً عين زربى غنيمة سهلة في يد الامبراطور الذي أذعنت له أذنة والمصيصة وطرسوس.

السيطرة على أنطاكية: تابع الامبراطور البيزنطي زحفه نحو الجنوب بعد أن سيطر على القلاع الأرمنية في كيليكية، فاجتاز إسكندرونة، وعبر الدروب الشامية إلى أنطاكية التي كانت الهدف الثاني لحملته، فظهر أمام أسوارها وضرب الحصار عليها، فاضطر أميرها ريموند بواتييه، أمام ضخامة وقوة الجيش البيزنطي من جهة، وعدم حصوله على مساعدات الصليبيين في الرها وبيت المقدس من جهة أخرى، إلى الخضوع لإرادة الامبراطور، بعد حصوله على موافقة الملك فولك[٣].

تسلَّم الامبراطور البيزنطي المدينة إلا أنه لم يُصرَّ على الدخول إليها غير أن العلم البيزنطي ارتفع بأعلى القلعة[٤].

زحف الحملة إلى حلب: وجرت في هذه الأثناء مباحثات بين الصليبيين والبيزنطيين أدَّت إلى ما يلي:

---

(١) Ostrogorsky: p335.
(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٣٣٧، ٣٣٨.
(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٩٧ ـ ٦٩٩.
(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٣٤١.

- قيام تحالف بينهما.

- توحيد الجهود العسكرية وتوجيهها للقيام بحملة مسيحية كبيرة ضد مسلمي بلاد الشام بهدف:

• تحطيم قوة عماد الدين زنكي في حلب.

• القضاء على إمارة بني منقذ في شيزر.

• انتزاع حمص من أتابكة دمشق.

• إقامة إمارة صليبية تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحماة وحمص.

• تعيين ريموند بواتييه أميراً على تلك الإمارة.

• يترك ريموند بواتييه إقليم أنطاكية للامبراطور البيزنطي.

• إنجاز هذا العمل في الصيف القادم (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)[١].

دلَّت المباحثات على ما يشعر به الصليبيون من الضيق والقلق نحو الامبراطور البيزنطي، إذ أن موافقة الملك فولك أملتها فيما يبدو واقعية الظروف السياسية السيئة التي كان يمر بها الصليبيون، وكان يُدرك جيداً أن عماد الدين زنكي هو العدو الرئيس للصليبيين، ولذا لم يشأ أن يقاوم القوة البيزنطية وينهكها وهي الوحيدة القادرة على وقف تقدمه.

ومن جهته، فإن الامبراطور يوحنا كان واقعياً في تفكيره السياسي، فأدرك أن مصلحة المسيحيين العامة تقضي بعدم طرد الصليبيين من أنطاكية من دون أن يُعوِّضهم، يُضاف إلى ذلك، أنه أراد أن يقيم على امتداد الحدود إمارات تابعة يتحكَّم في سياساتها العامة، وتتحمَّل في الوقت نفسه صدمات المسلمين، كما تجلَّت أطماعه في أملاك المسلمين في بلاد الشام.

ويبدو أن أخبار هذا الاتفاق تسربت إلى أهالي حلب، فقاموا بأعمال التحصين وحفر الخنادق، وقام الأمير سوار بمهاجمة الجيش البيزنطي أثناء عودته من أنطاكية إلى أرمينيا لقضاء فصل الشتاء، وظفر «بسرية وافرة العدد من عسكره، فقتل وأسر، ودخل بهم إلى حلب»[٢].

وعلى الرغم مما كان يضمره الامبراطور يوحنا من سوء النية، وما كان يُبيته من هجوم على حلب في العام التالي، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين زنكي، فأرسل إليه رسولاً أخبره بأنه ذاهب لقتال الأرمن، وأن البيزنطيين ليسوا راغبين في

---

(١) Grousset: II p97.

(٢) ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٤.

مهاجمته وهو ينوي خداعه حتى يطمئن[١].

حصار حلب: أرسل الامبراطور يوحنا مبعوثيه في (منتصف ٥٣٢هـ/ بداية ١١٣٨م) إلى ريموند بواتييه وجوسلين الثاني يخطرهما بالاستعداد للقتال لتنفيذ اتفاق العام الماضي، وحتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات المسيحية إلى عماد الدين زنكي، أمر باعتقال كل التجار المسلمين، والمسافرين القادمين من حلب والبلدان الإسلامية المجاورة[٢] ثم غادر كيليكية في (رجب/ نيسان) في طريقه إلى بلاد الشام، وعندما وصل إلى أنطاكية انضم إليه أميرها وأمير الرها فضلاً عن كتيبة من الداوية، ثم عبرت القوات المتحالفة الأراضي الإسلامية واحتلت البلاط بين مرعش وأنطاكية، وظهرت أمام البزاعة بين حلب ومنبج واحتلتها بعد حصار دام أسبوعاً[٣].

ولا شك بأن الوقت الذي أضاعه المسيحيون أمام البزاعة سبَّب لهم خسارة كبيرة، لأنه أفقد حركتهم عنصر المفاجأة، وأتاح للمسلمين في حلب ولعماد الدين زنكي فرصة طيبة للاستعداد «فتحرَّز الناس وكاتبوا أتابك زنكي بذلك»[٤].

كان عماد الدين زنكي آنذاك يحاصر حمص لطرد حامية دمشق منها، وعندما علم بأنباء زحف المسيحيين أرسل فوراً بعض قواته بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب، فضاعت على الامبراطور فرصة مباغتتها، وأدرك بعد فوات الأوان أنه ارتكب خطأً عسكرياً في تمهله في الزحف ما أتاح للمدينة فرصة الحصول على إمدادات قوية من عماد الدين زنكي[٥].

لذلك ما إن وصل إليها في (شعبان/ أواخر نيسان) وقام بمهاجمتها تبيَّن له أنها منيعة الاستحكامات، كما ضايقه الحلبيون بما كانوا يشنونه من غارات خاطفة وسريعة على معسكراته، فانصرف عنها بعد ثلاثة أيام من الحصار وزحف باتجاه الجنوب، فاستولى على الأثارب.

حصار شيزر: توجَّهت القوات المتحالفة بعد ذلك إلى معرة النعمان وكفرطاب وأضحت على أبواب شيزر وفرضت الحصار عليها ساعية بذلك إلى الاستيلاء على موقع مهم يمنح النصارى السيطرة على وادي نهر العاصي، ويقف سداً منيعاً أمام أطماع عماد الدين زنكي البعيدة في المنطقة[٦].

---

(١) ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٥. (٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٥٦.

(٤) ابن القلانسي: ص٤١٦. عاشور: جـ١ ص٥٨٥.

(٥) ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٦. العظيمي: جـ٢ ص٦٨٤.

(٦) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٩٥، ٦٩٦. ابن الأثير: جـ٩ ص٩١. رنسيمان: جـ٢ ص٣٤٥.

التمس أبو العساكر سلطان صاحب شيزر المساعدة من عماد الدين زنكي، فتوجَّه فوراً على رأس قواته باتجاه الشمال وعسكر على ضفة نهر العاصي بينها وبين حماة، وأرسل يلتمس النجدات من السلطان السلجوقي مسعود في بغداد، وتعهد داوود الأرتقي بأن يُرسل من الجزيرة الفراتية جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف تركماني، وجرى إنفاذ الرسل إلى الدانشمنديين في كبادوكيا تدعوهم للإغارة على الأملاك البيزنطية لتخفيف الضغط عن الجبهة الشامية[١].

لم يشأ عماد الدين زنكي أن يغامر بشن هجوم عام على القوات المتحالفة بسبب تفوقها العددي، فلجأ إلى حرب العصابات، ولما يئس المتحالفون من الاستيلاء على المدينة، رفعوا الحصار عنها بعد أن أحرقوا آلاتهم وتركوا بعضها الآخر، وقد نقلها المسلمون إلى حلب، واستمر حصار شيزر ثلاثة وعشرين يوماً[٢].

أسباب فشل الحملة: كان لفشل الحملة البيزنطية أسباب عديدة أهمها:

- عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الامبراطور[٣].

- اشتداد حدة المنافسة بين ريموند بواتييه وجوسلين الثاني، فخشي الأول أنه إذا سقطت شيزر بيد المسيحيين سيُجبر على أن يقيم بها، وفقاً للاتفاقية المبرمة بين الحلفاء، وهي تقع على الخط الأمامي للممتلكات المسيحية المواجهة للمسلمين، ورأى أن هؤلاء لن يتركوه سالماً في ملكه الجديد بعد عودة الامبراطور إلى بلاده وأنه سيتعرض لهجماتهم. أما جوسلين الثاني الذي يكنُّ في قرارة نفسه الكراهية لريموند بواتييه، فإنه لم يود أن يراه مستقراً في شيزر وربما في حلب فيما بعد، فحاول الإيقاع بينه وبين الامبراطور، ونجح في ذلك[٤].

- انتهز مسعود، سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فرصة غياب الامبراطور بعيداً عن بلاده وانهماكه بأمر الصليبيين وعماد الدين زنكي، فهاجم مدينة أذنة، ولا شك بأن ذلك أزعج الامبراطور ما حمله على فك الحصار وشرع بالعودة إلى بلاده لحمايتها من السلاجقة.

- اتبع عماد الدين زنكي خطة عسكرية قائمة على الضغط النفسي، فقد راسل المتحالفين أثناء حصار شيزر يقول لهم: «إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٩١.

(٢) ابن القلانسي: ص٤١٧. ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٨. الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٩٧، ٦٩٨.

(٣) الصوري، وليم: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: جـ٢ ص٦٩٦، ٦٩٧. رنسيمان: جـ٢ ص٣٤٥، ٣٤٦.

أرحت المسلمين من شركم»[١]، وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الامبراطور بالنزول إليه وقتاله، ولكن الامبراطور يوحنا خشي مغبة ذلك وأجاب: «أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لا حدَّ عليه»[٢].

وكان عماد الدين زنكي يراسل صليبيي بلاد الشام في الوقت نفسه يُحذرهم من امبراطور الروم ويُعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد في الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، ويرسل من جهة أخرى إلى الامبراطور يُخوِّفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه[٣]. فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر، وسادت الشكوك بينهما، وكان قد بلغ الامبراطور أن قرا أرسلان بن داوود الأرتقي قد عبر الفرات في جموع عظيمة في طريقه إلى شيزر[٤]، ما كان دافعاً آخر له عن فك الحصار.

ـ حدث أثناء الحصار أن راسل ابن منقذ الامبراطوار سراً، وعرض عليه تعويضاً كبيراً عن نفقات الحرب وهدايا قيِّمة وضريبة سنوية رمزاً للتبعية، وإذ اشتدت كراهيته للصليبيين المتخاذلين، لم يسعه إلا قبول العرض بعد أن كان قد رفضه أكثر من مرة في بادئ الأمر[٥].

ذيول فشل الحملة: أثَّر فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة وانسحاب المتحالفين من أمام شيزر على مواقف الأطراف المتصارعة في بلاد الشام. فبالإضافة إلى التباعد بين القوى الصليبية والبيزنطية، شعر عماد الدين زنكي بأنه في غير حاجة إلى المساعدة التي طلبها من السلطان السلجوقي في بغداد بفعل أن مصالحه في بلاد الشام تتعارض مع قدوم حملة سلجوقية كبيرة يمكن أن تُعزِّز نفوذ السلطان على حسابه، لذلك أرسل على الفور يُلغي طلبه السابق، ويُعلن عن عدم حاجته إلى مساعدة السلطان نظراً لرحيل البيزنطيين[٦].

ولم يكد الصليبيون ينسحبون من إقليم شيزر حتى أرسل عماد الدين زنكي حاجبه الياغسياني ففتح كفرطاب في (رمضان ٥٣١هـ/ أيار ١١٣٧م)[٧]، في حين سار هو إلى حصن عِرقة وهو من أعمال طرابلس، فحاصره وفتحه عنوة وأسر من فيه من

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٩١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن القلانسي: ص٤١٧. ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٩.
(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٦٩٧.
(٦) ابن الأثير: جـ٩ ص٩٢.
(٧) ابن العديم: جـ٢ ص٤٥٩.

الصليبيين ثم أمر بتخريبه[1]، وما لبث أن توجَّه في (١٩ محرم ٥٣٣هـ/ ٢٦ أيلول ١١٣٨م) إلى حصن البزاعة وفتحه عنوة ثم حاصر الأثارب وفتحه، وعاد إلى الموصل[2].

وانصرف عماد الدين زنكي في الأربع سنوات التالية إلى العمل على إتمام خطته بتوحيد المسلمين في الشرق الأدنى كي يكون أكثر قدرة على مواجهة الصليبيين، فقام بعمليات عسكرية عدة في جهات الجزيرة الفراتية، وجدَّد محاولته لضمِّ دمشق[3].

يوحنا كومنين يُجدد غزوه لكيليكية (٥٣٦ - ٥٣٧هـ/ ١١٤١ - ١١٤٢م)

جدَّد الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين غزوه لشمالي بلاد الشام في عام (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)، إما من تلقاء نفسه ليستولي على أنطاكية[4] أو بناء على دعوة تلقّاها من ريموند بواتييه وأهالي أنطاكية لمساعدتهم ضد المسلمين[5]، علماً بأن قوات عماد الدين زنكي أنزلت الهزيمة آنذاك بقوات أنطاكية على ضفاف نهر العاصي[6].

لم يشأ الامبراطور أن يثير مخاوف الصليبيين، فاجتاز الجيش البيزنطي كيليكية وسلسلة جبال الأمانوس العليا، ثم ظهر فجأة في (١١ صفر ٥٣٦هـ/ ١٥ أيلول ١١٤١م) عند تل باشر التابعة لجوسلين الثاني أمير الرها الذي أذهلته المفاجأة فهرع إلى الامبراطور وقدم له الولاء، فطلب منه الامبراطور بعض الرهائن، فأرسل ابنته إيزابيلا لتكون رهينة عنده، عندئذ يمَّم الامبراطور وجهه صوب أنطاكية، فبلغ بغراس التابعة للداوية، وهي تتحكم في الطريق المؤدي من كيليكية إلى أنطاكية، وأرسل من هناك رسالة إلى ريموند بواتييه يطلب منه تسليمه أنطاكية ليتخذها قاعدة عسكرية لقواته حتى يتمكَّن من مهاجمة المدن المجاورة التابعة للمسلمين[7].

انزعج ريموند بواتييه من طلب الامبراطور ووجد نفسه في حرج شديد، فعمد إلى المراوغة، وردَّ عليه أنه لا بد من أن يستشير كبار النبلاء ورجال الدين. وانعقد مجلس المدينة، وقرَّر بعد التداول رفض طلب الامبراطور بحجة حق الوراثة، ذلك أن ريموند بواتييه يحكم أنطاكية بوصفه زوجاً لوريثة الإمارة كونستانس، ولا يحق له

---

(١) ابن واصل: جـ١ ص٨٤.
(٢) ابن العديم: جـ٢ ص٢٦٠.
(٣) خليل: ص١٤٨.
(٤) Choniates, Nicetas: Historia, in Corpus Socriptorum Historiae Byzantinae: p52.
(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٢١، ٧٢٢.
(٦) ابن العديم: جـ٢ ص٢٦٥.
(٧) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٢٢، ٧٢٣.

أن يتنازل عن بلادها، كما أنه ليس بوسع الأميرة أن تتنازل عن الإمارة أو أن تستبدلها بغيرها إلا بعد موافقة النبلاء ورجال الدين. وحمل أسقف جبلة رد المجلس إلى الامبراطور غير أنه عرض عليه دخول المدينة في موكب، فرفض الامبراطور هذا العرض لأن دخوله إلى المدينة وهي ثائرة ضد طلباته أصبح من الصعب تحقيقه وقد تثير المشكلات في وجهه(١).

لم تترك هذه الإجراءات خياراً للامبراطور سوى الحرب، غير أنه فضَّل الانسحاب المؤقت بفعل دخول فصل الشتاء وأرجأ عملياته العسكرية إلى فصل الربيع، فانسحب إلى المصيصة في كيليكية بعد أن نهبت فرقه العسكرية ما يجاور أنطاكية من أملاك الصليبيين(٢).

أعاد الامبراطور في مدة الانتظار، النظر في موقفه من الصليبيين، وانتهى إلى أن حقوق الامبراطورية في بلاد الشام ثابتة ولها سند تاريخي، فضلاً عن اعتراف الصليبيين أنفسهم بها من خلال المعاهدات والاتفاقيات التي عقدوها مع الامبراطورية في أعوام (١٠٩٧م و١١٠٨م و١١٣٧م)، وتوسَّع في مفهوم السيادة حتى طال بيت المقدس، فأرسل رسالة إلى الملك فولك يعلمه بأنه سيأتي على رأس جيشه للحج وتقديم المساعدة للملك ضد المسلمين(٣).

وعلى الرغم من أن الملك فولك كان بحاجة إلى دعم خارجي بعد هزيمته أمام الفاطميين عند عسقلان في عام (رمضان ٥٣٥هـ/ نيسان ١١٤١م)(٤)، فإنه لم يكن راغباً في قدوم القوات البيزنطية إلى أراضيه، لذلك أرسل إلى الامبراطور، أنسلم أسقف بيت لحم ومعه رسالة تتضمن أن بيت المقدس ذات موارد محدودة ولا يمكنها تموين الجيش البيزنطي الضخم، وأنه يخشى من حدوث مجاعة في البلاد، وأشار أنه يرحب بقدوم الامبراطور ومعه عشرة آلاف من رجاله فقط لزيارة الأماكن المقدسة(٥).

تأكد الامبراطور من خلال رد الملك الصليبي أن الصليبيين يعارضون وجود القوات البيزنطية في بلاد الشام وامتلاك يوحنا لأنطاكية، وشعر بخيبة أمل كبيرة من موقف ريموند بواتييه والملك فولك، وقرَّر قضاء فصل الشتاء في كيليكية على عادته على أن يعود في الربيع التالي لتأديب الصليبيين، لكنه توفي هناك في (٢٠ رمضان

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٢٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٧٢٤. Vasiliev: II pp415, 416.
(٣) المصدر نفسه. Grousset: II pp150, 151.
(٤) ابن القلانسي: ص٤٢٨.
(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٢٤.

٥٣٧هـ/ ٨ نيسان ١١٤٣م) أثناء رحلة صيد في جبال طوروس، وقد صادف أن أصابه سهم أثناء مطاردته خنزير بري لم يلبث أن تسمَّم وأودى بحياته من دون أن يُحقِّق هدفه الذي غادر عاصمته من أجله، وهو إقامة إمارة لابنه مانويل تضم أرمينية وأنطاكية وقبرص أو ضم أنطاكية على الأقل، وهو العمل الذي جاهد طويلاً من أجل تحقيقه[١]، غير أن العداء بين البيزنطيين والصليبيين لم ينته بوفاة يوحنا كومنين وإنما استمر في عهد خلفائه، وقد حال دون تعاونهما ضد نشاط عماد الدين زنكي وسقوط الرها في يده.

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٤٢٥ ـ ٤٢٧. Choniates: pp56-64. ابن العبري: ص١٥٦. ابن القلانسي: ص٤٣٢. ابن الأثير: جـ٩ ص١٢٥.

الفَصْلُ الثَالِث عَشَر

فتح الرها

أوضاع الصليبيين في بلاد الشام قبيل فتح الرها

شعر الصليبيون بالارتياح عندما علموا بوفاة الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين في عام (٥٣٧هـ/ ١١٤٣م)، غير أنهم لم يلحظوا أن عماد الدين زنكي، وهو عدوهم الرئيس، كان أكثر سروراً. وإذا كان الملك فولك قد اهتم بشكل خاص بتحصين حدوده في بلاد الشام من واقع بناء ثلاث قلاع، هي صفد لتحمي إقليم الجليل من ناحية الشمال مع دمشق ويبنا على الطريق بين عسقلان وبين اللد والرملة، وقلعة الصافية بين بيت لحم وعسقلان، لتحميان مملكته من ناحية الجنوب مع مصر[(١)]، إلا أن الخطر الذي هدَّد هؤلاء في أواخر الثلاثينيات من القرن السادس الهجري/ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، جاء من الشمال، إذ في الوقت الذي نجح فيه ملوك بيت المقدس في حماية مملكاتهم عن طريق التحالف مع دمشق، في حين لم يُشكِّل الفاطميون آنذاك أي خطر جدِّي على الصليبيين، إذا بأميري الرها وأنطاكية، جوسلين الثاني وريموند بواتييه، يجدان نفسيهما وجهاً لوجه أمام عماد الدين زنكي، وعلى الرغم من أن جهود الزعيم المسلم قد تعثَّرت بسبب تحالف الصليبيين مع البيزنطيين ضد المسلمين في بلاد الشام، إلا أن هذا التحالف لم يلبث أن تصدَّع، وتحوَّل الموقف بينهما إلى عداء سافر، ما أتاح له أن يستأنف جهاده ضد الصليبيين من جديد[(٢)].

وفي (جمادى الأولى ٥٣٨هـ/ تشرين الثاني ١١٤٣م) كان البلاط في بيت المقدس ينعم بالهدوء الذي هيَّأه عماد الدين زنكي بارتداده عن دمشق، وفجأة توفي الملك فولك في عكا في (جمادى الأولى ٥٣٨هـ/ تشرين الثاني ١١٤٣م)[(٣)] على أثر سقوطه عن حصانه أثناء رحلة صيد، مخلفاً وراءه ولدين، هما بلدوين الذي كان في الثالثة

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٢٨ ـ ٧٣٠. (٢) عاشور: جـ١ ص٦٠٣.

(٣) يجعل وليم الصوري وفاة الملك فولك في ١٠ تشرين الثاني ١١٤٢م: جـ٢ ص٧٣٢، ولعل ذلك خطأ من الناسخ لأن الأدلة كلها تشير إلى عام ١١٤٣م.

ابن القلانسي: ص٤٣٣. ابن العبري: ص١٥٦. Grousset: II pp164, 166.

عشرة من عمره، وعموري البالغ سبعة أعوام، فتولت الملكة ميليسند الحكم ونصَّبت ابنها بلدوين قيِّماً معها[1].

والواضح أن ولاية الملكة ميليسند جلبت ضرراً بالغاً للصليبيين، فما كان لملك بيت المقدس من مكانة رفيعة، بوصفه سيداً أعلى للإمارات الصليبية، قد تلاشت ولم يُولِّ أمراء شمالي بلاد الشام اهتماماً كبيراً لسيادة امرأة أو طفل، فعندما كانت تنشب الخلافات بين أميري الرها وأنطاكية، يبادر ملك بيت المقدس إلى التدخل، وإجبارهما بالقوة على تسوية نزاعاتهما، أما الآن فليس بوسع الملكة أو الملك الطفل أن يؤديا الدور نفسه[2].

والواقع أن ميليسند لم تهتم بالمصالح الصليبية العامة بل اتصفت بالتقلبات السياسية، وانهمكت بنسج المؤامرات فضلاً عن انشغالها بصدِّ هجمات الدمشقيين[3]. أما الملك بلدوين الثالث، فقد كان حديث السن، ضعيف الشخصية، الأمر الذي جعل أمراء الشمال الصليبيين يبتعدون عن هيمنة ملك بيت المقدس، ويلتفتون إلى الاهتمام بمصالحهم وتقوية نفوذهم.

أما فيما يتعلق بالتحالف الصليبي ـ البيزنطي، فقد انتهى عام (٥٣٧هـ/ ١١٤٢م)، وحلَّ محله عداء شديد وحروب مستمرة، والواضح أن ريموند بواتييه أمير أنطاكية، استعاد الثقة بنفسه منذ وفاة الامبراطور يوحنا كومنين وارتداد عماد الدين زنكي عن دمشق، فأرسل على الفور إلى الامبراطور مانويل، الذي خلف أباه يوحنا، يطلب منه استعادة كيليكية، فلما رفض هذا الأخير الطلب بادر ريموند بغزوها[4]، أما علاقاته مع جوسلين الثاني، فقد ازدادت سوءاً، ذلك أنه حدث قبل أشهر عدة أن أضاف ريموند بواتييه إلى أملاكه من بلاد حلب ما امتد إلى البزاعة، في حين زحف جوسلين الثاني إلى الفرات ليلتقي به ويُنسِّق معه لمهاجمة حلب، غير أن ما قام به هذا الأخير فجأة من عقد هدنة مع سوار والي حلب، حطَّم ما وضعه ريموند بواتييه من خطط. والراجح أن جوسلين الثاني رفض في عام (٥٣٤هـ/ ١١٤٠م) الاعتراف به سيداً أعلى إلا مكرهاً، فلم تجمعهما محبة خالصة. وأثار ريموند بواتييه ما كان من تدخل جوسلين الثاني لصالح رادولف بطريرك بيت المقدس، فلما انعقدت الهدنة بين جوسلين الثاني ووالي حلب أضحى الاختلاف صريحاً بينهما[5].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٣١، ٧٣٢.   (٢) رنسيمان: جـ٢ ص٣٧٦، ٣٧٧.

(٣) Grousset: II pp174, 175.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٣٧٧، ٣٧٨. Stevenson: pp148, 149.

(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧١٥. رنسيمان: جـ٢ ص٣٧٧، ٣٧٨. Grousset: II pp174, 175.

أوضاع إمارة الرها الداخلية

كانت ظروف إمارة الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية، وانسياقه وراء العواطف والأهواء، وعدم امتلاكه قدرة سياسية وبُعد نظر. والواقع أنه تأثَّر في نشأته بالميول الأرمنية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان المحليين من الطوائف المسيحية الشرقية، وفضَّلهم على المسيحيين الغربيين، الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة.

وعُرف عن أمير الرها أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى أنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر على الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن باقي الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نُكوِّن فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها.

والجدير ذكره أن هذه الإمارة شكَّلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة[١]، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية.

عمليات الفتح

أخذ عماد الدين زنكي يراقب تطور النزاعات بين الأمراء الصليبيين، وقرَّر بعد أن فشل في ضمِّ دمشق نقل نشاطه الجهادي إلى جهة أخرى، فلم يجد غير إمارة الرها الموغلة في أراضي المسلمين. والواضح أن حرصه على ضمِّ دمشق إنما هو تمهيد لتوحيد الصف الإسلامي، وتأمين حدوده الجنوبية الشرقية قبل أن يضرب الرها، وقد أتاحت له مواقف الأطراف في المنطقة فرصة تجميع قواه وتوجيهها إلى هذه الإمارة، وبخاصة أن وفاة الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين قد أراحته من عدو شديد البأس، وليس بوسع الدمشقيين القيام بعمل ضده إلا بمساعدة الصليبيين، ولم يكن بوسع مملكة بيت المقدس أن تقوم بمغامرة عسكرية غير مضمونة النتائج، أما

---

(١) عاشور: جـ١ ص٦٠٤. Grousset: II pp172, 173.

ريموند بواتييه وجوسلين الثاني فقد انهمكا في النزاعات بسبب مشكلة كيليكية والتوسع في بلاد الشام.

تذرَّع عماد الدين زنكي للقيام بحملته بما حصل مؤخراً من تحالف بين جوسلين الثاني وقرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، فرأى أنه موجَّه ضده، بالإضافة إلى أنه يُهدِّد وجوده في المنطقة[١]. وقضت سياسته التمهيدية بإنهاك العدو بالحملات المتلاحقة، فانصرف الصليبيون نتيجة ذلك إلى تقوية حصونهم، وشيئاً فشيئاً تحوَّلت الاصطدامات إلى حرب حصون. ففي عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) أُتيح لعماد الدين زنكي أن يستغل مركزه القوي في دياربكر، فقام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرها والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين، مثل جملين والموزر وتل موزن وغيرها من حصون إقليم شبختان[٢]، وقد هدف إلى قطع الاتصال بين جوسلين الثاني وقرا أرسلان الأرتقي، وبذلك مهَّد الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرها نفسها وتحقيق حلمه الذي طالما راوده عبر سني صراعه الطويل مع الصليبيين، فكان ذكر هذه المدينة «جائلاً في خلده، وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه»[٣].

وسعى عماد الدين زنكي إلى إخراج جوسلين الثاني وقواته من المدينة مدركاً، في الوقت نفسه، أنه لن يستطيع فتحها ما داموا فيها، فتوجَّه إلى آمد التابعة للأراتقة، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وبثَّ عيونه في منطقة الرها لترصد تحركات أميرها.

وفعلاً خرج جوسلين الثاني على رأس قواته من مقر إمارته قاصداً نهر الفرات لمساندة حليفه قرا أرسلان من واقع قطع الاتصالات بين عماد الدين زنكي وحلب[٤]، على أن عيون عماد الدين زنكي بحرَّان أخطرته بتحركاته، فبادر فوراً إلى إرسال فرقة عسكرية من جيشه بقيادة الياغسياني أمير حماة لمباغتة المدينة، غير أن الياغسياني ضلَّ الطريق بفعل الظلام الدامس والمطر الغزير في تلك الليلة، فلم يبلغ الرها إلا بعد أن وصل عماد الدين زنكي مع جيشه الكثيف في (جمادى الآخرة ٥٣٩هـ/ أواخر تشرين الثاني ١١٤٤م) وحاصرها[٥].

---

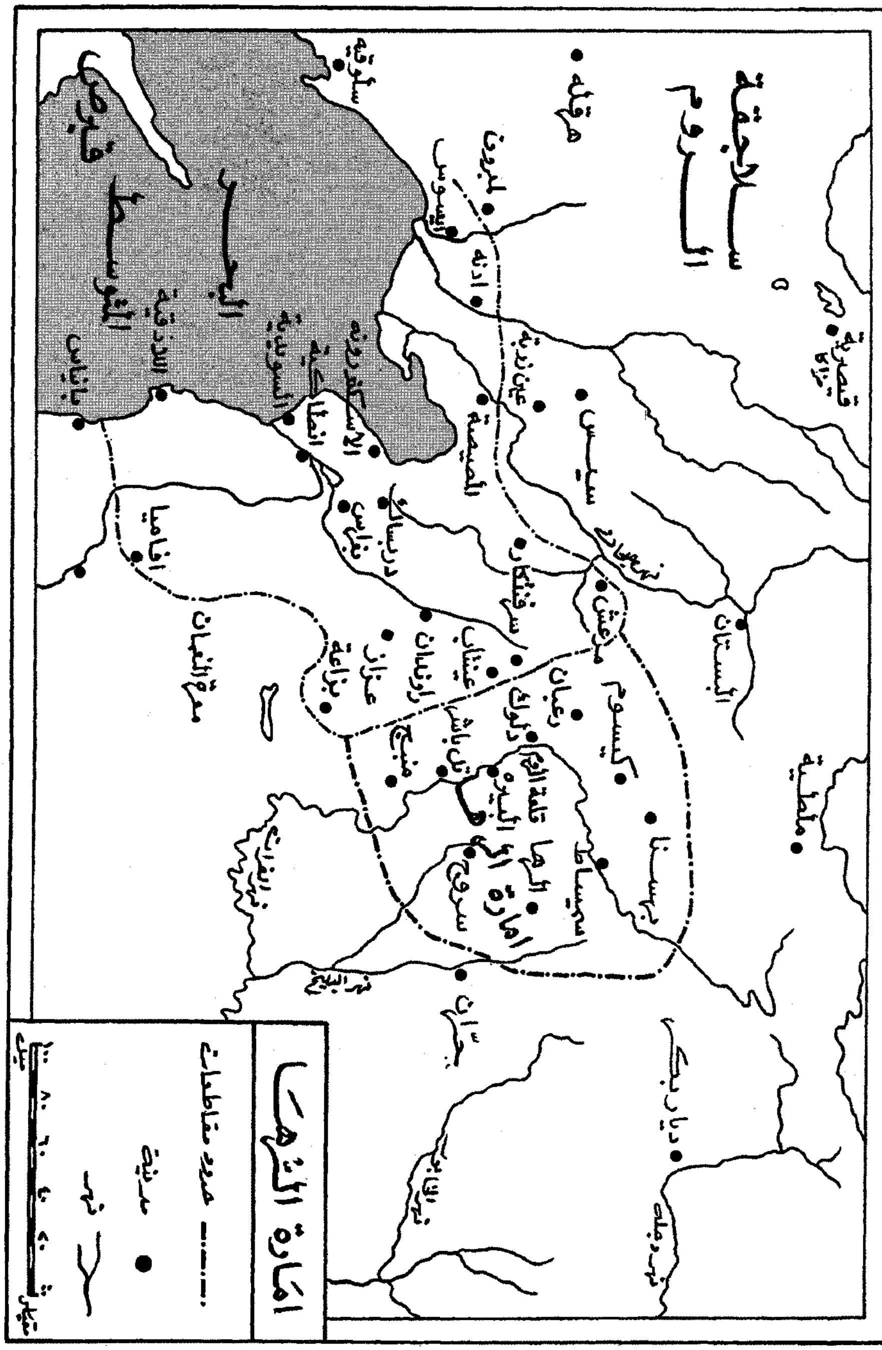
(١) رنسيمان: جـ٢ ص٣٧٩.

(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص١٢٧.

(٣) ابن القلانسي: ص٤٣٦.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٣٧٩.

(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص١٣١. Elisséeff: II pp379, 380.



إمارة الرها
سلاجقة الروم
البحر المتوسط
قبرص
حدود مقاطعات
مدينة
نهر
ميل
الرها
سميساط
سروج
حران
تل باشر
منبج
عزاز
بزاعة
الراوندان
عينتاب
دلوك
رعبان
كيسوم
بهسنا
مرعش
البيرة
ملطية
البستان
ديار بكر
أنطاكية
السويدية
الإسكندرونة
اللاذقية
بانياس
أفاميا
معرة النعمان
بغراس
دربساك
المصيصة
عين زربة
سيس
أذنة
طرسوس
سلوقية
هرقلة
قيصرية
نهر جيحان
نهر الفرات
نهر البليخ
نهر الخابور
نهر دجلة

إمارة الرها

وعندما علم جوسلين الثاني بذلك التجأ إلى تل باشر معتقداً بأن قواته لم تكن من القوة ما يكفي لخوض معركة مع الجيش الإسلامي، بالإضافة إلى أنه اتصف بالجبن ومال إلى الدعة، وظنَّ أن استحكامات الرها الضخمة سوف تقاوم الحصار مدة من الزمن، وفي وسعه وهو بتل باشر أن يقطع طريق الإمدادات التي يطلبها عماد الدين زنكي من حلب[١]، ويبدو أنه قنع بالبقاء حيث هو على الرغم من استغاثة رئيس الأساقفة الكاثوليكي هيو الثاني به، ولعله ركن إلى وصول النجدات التي طلبها من الإمارات الصليبية كافة وبخاصة أنطاكية وبيت المقدس[٢].

أما في أنطاكية، فلم يشأ ريموند بواتييه أن يفعل شيئاً لمساعدته، واعتذر عن تلبية طلبه، وربما يعود ذلك إلى تنافر الأميرين أو خشية ريموند من تحول عماد الدين زنكي إليه بعد الرها؛ ولم يغامر جوسلين الثاني بمهاجمة عماد الدين زنكي بدون مساعدته، فاستمر قابعاً في تل باشر بانتظار وصول النجدة من بيت المقدس[٣].

أما في بيت المقدس، فقد دعت الملكة ميليسند، فور تبلغها طلب الاستغاثة، إلى عقد مجلس المملكة الذي فوَّضها بحشد قوة عسكرية بقيادة أمير الإسطبل منيس، وفيليب صاحب نابلس، وأليناند بورس أمير الجليل[٤]، لكن هذه القوة لم تصل إلا بعد فوات الأوان، في حين ازداد عدد أفراد جيش عماد الدين زنكي بما انضم إليه من المتطوعة من شمالي العراق. واشتد الحصار على الرها بما توافر للمسلمين من أدوات الحصار الجيدة، وأغلق عماد الدين زنكي المداخل كلها المؤدية إلى المدينة بشكل محكم، فمنع بذلك الدخول إليها والخروج منها، وترتب على ذلك أن عانى المحاصَرون من النقص الشديد في المؤن والتجهيزات[٥].

تولى هيو الثاني رئيس أساقفة اللاتين الدفاع عن الرها، واشترك معه باسيل أسقف اليعاقبة، ويوحنا أسقف الأرمن، وقد أبديا تضامناً قوياً مع الصليبيين في الدفاع عن أسوار المدينة وقلعتها[٦].

وحاول عماد الدين زنكي في إحدى مراحل الحصار استقطاب المسيحيين الشرقيين ودفعهم إلى الخروج على اللاتين، إلا أنه فشل في ذلك، ولكن كلّاً من باسيل ويوحنا مالا أخيراً تحت ضغط الأحداث العسكرية إلى التسليم، في حين رفض هيو الثاني واستمر في المقاومة، على أن عدد المدافعين عن المدينة كان قليلاً لأن جوسلين

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٣٧، ٧٣٨. (٢) رنسيمان: جـ٢ ص٣٧٩، ٣٨٠.

(٣) المرجع نفسه. (٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٣٩.

(٥) المصدر نفسه: ص٧٣٨. ابن العبري: ص١٥٦، ١٥٧.

(٦) Nerses, Shnorhali: Sur la Prise d'Edesse. Doc.Arm: I pp 247-255.

الثاني اصطحب معه كل قادته اللامعين، كما افتقروا إلى الخبرة بأمور القتال، ولذا لم ينجح ما قاموا به من هجمات مضادة، ومن محاولات لوقف أعمال النقَّابين(١).

وفي (٦ جمادى الآخرة/ ٢٣ كانون الأول) انهار جانب من السور قرب باب الساعات بفعل الضرب الشديد والمتواصل طيلة أربعة أسابيع، فاندفع المسلمون إلى داخل المدينة كالسيل، وفرَّ السكان فزعين لا يلوون على شيء باتجاه القلعة للاحتماء بها، فإذا هيو الثاني قد أغلق أبوابها في وجوههم، وظل هو داخل المدينة يحاول عبثاً إعادة الأمن إلى نصابه. وهلك في الفوضى الناشبة آلاف الناس تحت الأقدام، وكان هيو الثاني نفسه من بينهم. وأجهزت عساكر عماد الدين زنكي على الفارين، ثم ما لبثت أن استسلمت القلعة بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برسوما بإجراءات التسليم. ودخل عماد الدين زنكي المدينة راكباً في موكب النصر، وأصدر أوامره إلى جنده بالتوقف عن أعمال القتل والأسر، وأبقى على حياة السكان المحليين من أرمن وسريان وروم، وأعاد إليهم ما خسروه من سبي وغنائم في حين تمَّ تطويق اللاتين وتقرر قتلهم وبيع نسائهم رقيقاً(٢).

سياسة عماد الدين زنكي في الرها

رأى عماد الدين زنكي بعد أن فتح الرها، أن هذا البلد «لا يجوز في السياسة تخريب مثله»(٣)، لذلك لم يتبع فيه الأسلوب نفسه الذي سبق أن اتبعه في كثير من المدن التي فتحها القائم على التدمير والتخريب، وإنما لجأ إلى تنفيذ سياسة حكيمة ليضمن بقاءه في قبضته. إذ لم تكد تنتهي موجة الاضطرابات والفوضى التي أعقبت الفتح، حتى عيَّن كوجك صاحب إربل والياً على المدينة، وجعل للمسيحيين الشرقيين من الأرمن واليعاقبة، فضلاً عن الروم، قدراً من الاستقلال الذاتي تحت حمايته، فمنع جنوده من الاعتداء عليهم وعلى أملاكهم، وخصَّ الأسقف السرياني باسيل بالعطف والرعاية، وسمح بالعودة لمن غادر المدينة منهم تحت تأثير الاضطهاد الصليبي، ولم يتعرض لكنائسهم، ولا شك بأن هذه السياسة الحكيمة، دلَّت على بُعد نظره من أجل دعامة محلية تؤيده ويستند إليها في حكم الرها(٤).

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٣٨، ٧٣٩. ابن الأثير: جـ٩ ص١٣٢. رنسيمان: جـ٢ ص٣٨٠.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٣٩، ٧٤٠. ابن العبري: ص١٥٦، ١٥٧. رنسيمان: جـ٢ ص٣٨٠، ٣٨١. ابن الأثير: جـ٩ ص١٣٢ .Grousset: II pp179-186

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص١٣٢.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٣٨٢ .Michel le Syrien: III pp262-268

وهكذا اطمأن أهل الرها المحليون على مصيرهم ومستقبلهم «وعاد البلد إلى حاله الأولى» قبل استيلاء الصليبيين عليه في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، ذي طابع مسيحي، معظم سكانه من المسيحيين الشرقيين ويدين بالتبعية للمسلمين[١].

نتائج فتح الرها

حقَّق عماد الدين زنكي بفتح الرها أعظم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج مهمة في العالمَيْن الإسلامي والمسيحي بالإضافة إلى عماد الدين زنكي نفسه.

ويمكن رصد النتائج التالية على صعيد العالم الإسلامي:

- كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزاً لجهود التوحيد. فقد تجدَّد الأمل عندهم بعد أن تحطَّمت أول إمارة صليبية قامت في جوف بلادهم.

- عُدَّ فتح الرها نصراً كبيراً للإسلام «لم ينتفع المسلمون بمثله، وطار في الآفاق ذكره، وطاف بها نشره، وسارت به الرفاق، وامتلأ به المحافل في الآفاق، وكان هذا فتح الفتوح حقاً، وأشبهها ببدر صدقاً...»[٢].

- أثبت هذا الانتصار قدرة المسلمين على مواجهة الصليبيين وانتزاع أقوى حصونهم منهم، ومهَّد الطريق أمام الذين أعقبوا عماد الدين زنكي لإتمام عمله وفتح باقي المعاقل الصليبية في المنطقة.

- كان سقوط الرها في يد المسلمين كسباً عسكرياً كبيراً، فقد جرى تطهير الطرق الممتدة بين الموصل وحلب من الصليبيين، وتمَّ انتزاع الإسفين الذي وضعه هؤلاء بين الأتراك في فارس والأتراك في الأناضول، وهو الذي أعاق الاتصال بين سلاجقة فارس والعراق و آسيا الصغرى، فضمن المسلمون السيطرة على طرق المواصلات التي تربط شمال بلاد الشام والعراق والجزيرة الفراتية، وعاد الاتصال بين هذه القوى مرة أخرى، كما جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية.

- غيَّر فتح الرها موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعد أن لمسوا ضعف الكيان الصليبي.

ويمكن رصد النتائج التالية على صعيد العالم المسيحي:

- شكَّل سقوط الرها صدمة عنيفة مؤلمة للصليبيين تردَّدت أصداؤها في كل مكان، إذ أن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، وأن سقوطها، بعد أقل من

---

(١) Grousset: II p190.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٦٩.

خمسين عاماً من استيلاء بلدوين دي بوايون عليها، كان نذير شؤم عليهم[1].

- لم يكد نبأ سقوط الرها يصل إلى بيت المقدس حتى أرسلت الملكة ميليسند إلى أنطاكية تستشير حكومتها حول إمكان إرسال سفارة إلى روما لتنهي هذا النبأ إلى البابا وتطلب منه إرسال حملة صليبية جديدة[2].

- لم يدرك الصليبيون للوهلة الأولى مغزى سقوط الرها بيد المسلمين، ولم يعلموا أن هذه الخطوة جاءت بالنسبة إلى هؤلاء بمثابة فتح الفتوح، وبالنسبة لهم الخطوة الأولى في هدم البناء الذي شيَّدوه في الشرق الأدنى الإسلامي.

- زاد فتح الرها في إضعاف الروح المعنوية للصليبيين، وأثار خوفهم وقلقهم، واقتصر وجودهم على البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

- دفع فتح الرها ريموند بواتييه أمير أنطاكية إلى الاعتقاد بعدم قدرته على مواجهة عماد الدين زنكي، بمفرده، ولما لم يكن باستطاعته التفاهم مع جوسلين الثاني، فقد ذهب إلى القسطنطينية يلتمس المساعدة من الامبراطور البيزنطي، وأعلن تبعيته له.

- لم يدفع فتح الرها الامبراطور البيزنطي مانويل إلى القيام بأي عمل عسكري ضد المسلمين في بلاد الشام.

- كان سقوط الرها صدمة للمسيحيين في غربي أوروبا نبَّههم إلى خطورة الأوضاع في الشرق الأدنى، وأدرك هؤلاء لأول مرة أن الأمور لم تجر على نحو سليم هناك، بعد أن تحوَّلت إلى اتجاه مضاد لمصالحهم وأهدافهم، فقامت حركة تدعو إلى إرسال حملة صليبية جديدة.

- وعلى الرغم من أهمية الرها عند المسيحيين بعامة وخطورة فتحها على كيان الصليبيين، إلا أنَّ أيّاً منهم لم يقم بعمل سريع مباشر ضد عماد الدين زنكي، وذلك بسبب تدهور أوضاعهم، إذ كان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لا يزال قاصراً تحت وصاية والدته، وكان ريموند بواتييه أمير أنطاكية أضعف من أن يقوم بإجراء جادٍّ ضد المسلمين، ومن ثَمَّ لم يستطع الصليبيون مواجهة المسلمين إلا بعد وصول الحملة الصليبية الثانية[3].

ويمكن رصد النتائج التالية على صعيد عماد الدين زنكي نفسه:

- عزَّز فتح الرها مركز عماد الدين زنكي تجاه السلطان السلجوقي مسعود في بغداد والخليفة العباسي المقتفي، الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التشريفية

---

(١) قاسم: ماهية الحروب الصليبية: ص١٣٧. (٢) رنسيمان: جـ٢ ص٣٩٧.

(٣) خليل: ص١٥٦.

التي حازها عن جدارة، مثل: الأمير المظفر، وركن الإسلام، وعمدة السلاطين، وزعيم جيوش المسلمين، وملك الأمراء، وأمير العراقين والشام[(١)].

ـ جعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله[(٢)].

ـ دارت في المحافل الإسلامية أحاديث تمحورت حول شخصه تُصور لنا مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير[(٣)].

ـ مهَّد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة.

ـ أدَّى فتح الرها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، «فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين»[(٤)].

الأحداث العسكرية بعد فتح الرها

كان فتح الرها بداية لها ما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة وأخذ يسعى لفتح ما تبقَّى من الحصون والمراكز التابعة لهم في شرقي الفرات. فتوجَّه إلى سروج ثاني حصون الإمارة وفتحه في (رجب ٥٣٩هـ/ كانون الثاني ١١٤٥م) بعد أن تخلَّت حاميته عنه، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت بالسقوط في يده الواحد تلو الآخر «وجعل لا يمر بعمل من أعمالها، ولا معقل من معاقلها، إلا سُلِّم إليه في الحال»[(٥)].

تقدم عماد الدين زنكي بعد ذلك إلى البيرة، المدينة الكبيرة التي تتحكَّم في أهم مخاضة على نهر الفرات على الطريق إلى تل باشر، فضرب الحصار عليها في (رمضان/آذار) وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة حتى أشرف سكانها على الاستسلام[(٦)].

وتردَّدت آنذاك شائعات في معسكره بما وقع من الاضطرابات في الموصل، ففكَّ الحصار عنها وأسرع بالتوجُّه إلى الموصل لإقرار الأوضاع فيها، خشية من حدوث نتائج خطيرة تُهدِّد حكمه، ولما وصل إليها اكتشف أن الملك ألب أرسلان المعروف

(١) ابن القلانسي: ص٤٤٣.
(٢) ابن الأثير: ص٦٩، ٧٠.
(٣) المصدر نفسه. أبو شامة: جـ١ ص٩٤ ـ ٩٧.
(٤) المصدران نفساهما: ص٦٩. ص١٤٠.
(٥) ابن القلانسي: ص٤٣٧.
(٦) ابن الأثير: ص٧٠.

بالخفاجي قتل نائبه جقر في محاولة لتوطيد نفوذه[١].

والواقع أن ألب أرسلان أخطأ في توقيت إعلان حركته، وأساء اختيار الفرصة، لأن عماد الدين زنكي بلغ وقتذاك ذروة مجده في العالم الإسلامي، فتقرَّر عزله عن الإمارة وإعدام مستشاريه[٢].

ويبدو أن سكان البيرة خشوا من تجدُّد هجمات عماد الدين زنكي على مدينتهم وهم أعجز من أن يصدُّوه أو يقفوا في وجهه، فرأوا أن يدعموا موقفهم بالتحالف مع قوة إسلامية مناهضة له، ولم تكن هذه القوة سوى حسام الدين تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين، وخصم عماد الدين زنكي، وكان للأراتقة مصلحة فعلية في الحد من نفوذه بعد أن أضحى خطراً يُهدِّدهم من الشمال. وهكذا وضع سكان البيرة مدينتهم تحت حماية تمرتاش[٣].

ونتيجة لسقوط الرها والتنازل عن البيرة، لم يبق من إمارة الرها في يد جوسلين الثاني سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات، وهي تل باشر وسميساط ودلوك ومرعش وعينتاب وعزاز والراوندان، لكن إمارة الرها الصليبية فقد زالت من الوجود[٤].

لم يكن عماد الدين زنكي بغافل عن المباحثات التي جرت بين ريموند بواتييه والامبراطور البيزنطي مانويل، والتي تمخَّض عنها قرار بإرسال حملة بيزنطية أخرى إلى بلاد الشام، فرأى أن يؤجِّل القيام بهجوم آخر على الصليبيين في الشمال، وأن يوجِّه اهتمامه من جديد إلى دمشق[٥].

ولم يكد يفرغ من إخماد فتنة الموصل حتى أعدَّ حملة كبيرة وزوَّدها بآلات الحصار، وعلم أثناء اجتيازه الرها في (شعبان ٥٤٠هـ/ كانون الثاني ١١٤٦م) أن الأرمن يحاولون التخلص من حكمه وإعادة جوسلين الثاني، ذلك أن الأرمن في الرها حاكوا مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين والتخلص من الحامية الصغيرة التي تركها عماد الدين زنكي في المدينة وإعادة الحكم إلى السيطرة الصليبية، واستدعوا جوسلين الثاني من أجل هذه الغاية[٦].

(١) ابن الأثير: ص٧٠، ٧١.

(٢) ابن القلانسي: ص٤٣٩، ٤٤٠. ابن الأثير: ص٧٢. أبو شامة: جـ١ ص١٤٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١٣٤، ١٣٥.

(٤) Grousset: II p192.

(٥) رنسيمان: جـ٢ ص٣٨٤، ٣٨٥. Michel le Syrien: III p267.

(٦) ابن القلانسي: ص٤٤١. ابن العديم: جـ٢ ص٢٦٩. Ibid: pp267,268.

وسرعان ما أحبط عماد الدين زنكي هذه المؤامرة وألقى القبض على عدد من المتآمرين وأعدمهم، ونفى عدداً من السكان الأرمن كي لا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف وتسليم مواقعهم إلى الصليبيين[(١)].

حصار قلعة جَعْبَر ـ مقتل عماد الدين زنكي

اختار عماد الدين زنكي في (نهاية ٥٤٠هـ/ صيف ١١٤٦م) أن يُخضع قلعة جَعْبَر، الواقعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين على الطريق إلى دمشق. وكانت هذه الإمارة العربية الصغيرة تابعة لبني عقيل لكن وضعها الجغرافي كان متداخلاً مع أملاكه، الأمر الذي دفعه إلى ضمِّها قبل أن يقوم بحملته على دمشق، وبخاصة أن أميرها عز الدين علي بن مالك بن سالم العقيلي رفض الاعتراف بسيادته.

حاصر عماد الدين زنكي القلعة وضيَّق عليها من دون أن يتمكَّن من اقتحامها، ثم أجرى مفاوضات مع صاحبها وافق بنتيجتها على تسلُّم مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عنها، وما إن وصل الرسول إلى معسكره حاملاً المبلغ حتى ردَّه من حيث أتى بعد أن وردته أنباء تشير إلى قرب سقوط القلعة[(٢)]، وأرسل في الوقت نفسه حملة عسكرية بقيادة علي كوجك لحصار قلعة فنك[(٣)].

وحدث أثناء حصار قلعة جعبر في مساء (٦ ربيع الآخر ٥٤١هـ/ ١٥ أيلول ١١٤٦م) أن دخل على عماد الدين زنكي أحد خدامه ويُدعى يرنقش وقتله وهو نائم[(٤)]، فاختفى ذلك المجاهد الذي واصل عمل مودود وإيلغازي وآقسنقر البرسقي في حرب الصليبيين ومهَّد الطريق لابنه نور الدين محمود، وقد أدركته المنية في ميدان الحرب فحقَّت له الشهادة، وانتهت بوفاته الحلقة الأولى من سلسلة المحاولات الإسلامية في تكوين جبهة إسلامية متحدة وقوية لمقاومة الصليبيين وطردهم من الشرق الأدنى الإسلامي، واضعاً بذلك أول حجر في هذا البناء وتاركاً لمن يأتي بعده مهمة إنجاز هذا العمل الذي بدأه، كما طُويت صفحة مجيدة من صفحات الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

انقسام الدولة الزنكية

ترك عماد الدين زنكي أربعة أولاد من الذكور هم: سيف الدين غازي، وهو

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٤١. ابن العديم: جـ٢ ص٤٦٩. Michel le Syrien: III p267.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه: ص٤٧٠.

(٣) فنك: قلعة حصينة للأكراد اليشنوية قرب جزيرة ابن عمر. الحموي: جـ٤ ص٢٧٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١٤١، ١٤٢. ابن واصل: جـ١ ص٩٨، ٩٩. ابن العديم: جـ٢ ص٤٦٩.

أكبرهم، ثم نور الدين محمود، وهو الملك العادل، ونصرة الدين أمير أميران، وأبو الملوك قطب الدين مودود وهو أصغرهم[١]. لم يصادف هؤلاء الإخوة صعوبة في الاحتفاظ بملك أبيهم بفضل مساعدة اثنين من رجال عماد الدين زنكي الأوفياء هما: جمال الدين محمد الأصفهاني رئيس الديوان، وصلاح الدين الياغسياني أمير حاجب.

اتصل الأميران فور إعلامهما بنبأ الاغتيال بالأمير زين الدين علي كوجك نائب عماد الدين زنكي في الموصل وأخبراه بحادثة الاغتيال، وأشارا عليه بأن يستدعي ابنه سيف الدين غازي من شهرزور حيث كان يقيم، فقام هذا الأخير فعلاً باستدعائه[٢].

أما الابن الثاني نور الدين محمود، فإنه كان يرافق والده، فأخذ خاتمه من يده ويمَّم وجهه شطر حلب ودخلها في (ربيع الآخر ٥٤١هـ/ أيلول ١١٤٦م) وخضع له ما كان لأبيه في بلاد الشام، مثل الرها وحرَّان وسروج وحمص وحماة[٣]، والتحق به صلاح الدين الياغسياني ليُدبِّر أمور دولته، وكانت مدينة حماة تحت حكمه وهي إقطاعه من عماد الدين زنكي، فلما استقر نور الدين محمود بحلب أخذها منه وعوَّضه عنها بحمص، والتحق جمال الدين الأصفهاني بخدمة سيف الدين غازي[٤].

وهكذا انقسمت إمارة عماد الدين زنكي إلى قسمين: القسم الشرقي تحت حكم ابنه الأكبر سيف الدين غازي ومقره الموصل، والقسم الغربي تحت حكم ابنه نور الدين محمود ومقره حلب، وكان نهر الخابور الحد الفاصل بين أملاك الأخوين. وأدَّى الوضع الجغرافي للقسم الغربي إلى أن يرث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين المتمثلتين بأتابكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

سياسة نور الدين محمود العامة

كان نور الدين محمود، وهو في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والهدف منذ أن تسلَّم الحكم وحتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وبخاصة بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٤، ٨٥. وشهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان. الحموي: جـ٣ ص٣٧٥.

(٣) ابن القلانسي: ص٤٤٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١٤٤، ١٤٥. ابن العديم: جـ٢ ص٤٧٢.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٨٥، ٨٦. ابن واصل: جـ١ ص١١٠.

الانتصار على الصليبيين لا يتحقَّق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات، في خطوات متتابعة تُقرِّب كل منها يوم الحسم. فالخطوة الأولى، كان قد بدأها والده عماد الدين زنكي عندما حرَّر الرها التي تُشكل تداخلاً مع الأراضي الإسلامية، فتمكَّن بذلك من تطهير الأراضي الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمَّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر ثانياً، وطرد الصليبيين من المنطقة ثالثاً. وكان التوحيد في نظره يتضمَّن توحيد الصف والهدف في آن واحد. فأما توحيد الصف فهو جمع بلاد الشام ومصر في إطار سلطة سياسية واحدة، وأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد هو مذهب أهل السُّنة. وكان كلما توغل في خضم الجهاد وتقدم به الزمان يزداد اقتناعاً بصوابية هذه السياسة، وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية التي تخدم توحيد الصف والهدف[١].

ثورة الرهاويين

أتاحت وفاة عماد الدين زنكي وتقسيم إمارته بين ولديه فرصة طيبة لأعدائها للإقدام على غزوها. ففي الجنوب تطلع معين الدين أنر، صاحب السلطة الفعلية في دمشق، إلى السيطرة على بعلبك وحمص وحماة، وفي الشرق حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي فرض سيطرته على الأملاك الزنكية، غير أنه باء بالفشل، واستردَّ الأراتقة المدن التي سبق أن ضمَّها عماد الدين زنكي في دياربكر.

وفي شمالي الشام، مضى ريموند بواتييه أمير أنطاكية في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عدداً كثيراً من المسلمين، وتمادى في غاراته حتى بلغت صلدي[٢] ونهبها. ولما وصل الخبر إلى حلب خرج أسد الدين شيركوه، أحد قادة نور الدين محمود، على رأس قوة عسكرية للتصدي له، فأدرك فرقة صليبية استاقت بعض الأسرى، فاصطدم بها وحرَّر الأسرى، ثم شنَّ الغارة على أرتاح من أعمال حلب قبل أن يعود إلى حلب[٣].

وظل جوسلين الثاني أمير الرها قابعاً في تل باشر إلا أنه أعدَّ خطة لإعادة احتلال

(١) دجاني، هادية وشكيل برهان: صلاح الدين بين التاريخ والملحمة والأسطورة، الفصل الثامن من كتاب: الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى: ص٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) صلدي: قرية قريبة من حلب على نهر قويق.

(٣) ابن العبري: ص١٦١.

الرها[1]. ولعل جوسلين الثاني هذا كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكي، لأن استرداد الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به هذا القائد في حياته، وهو العمل الرئيس الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة في التاريخ، فكان نجاح الصليبيين في استرداد الرها، إذا ما حصل، يُعدُّ ضربة قاسية لأبنائه الذين سيفقدون المجد الذي حقَّقه والدهم[2].

لم يكن في الرها سوى حامية قليلة العدد، فاستغل الأرمن هذه الفرصة، وكانوا شديدي الميل للصليبيين، ودبَّروا مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي وطرد المسلمين من المدينة. ووقف جوسلين الثاني على تلك النزعة فيهم فشجَّعهم على المضي في تآمرهم، ولم يلبث أن تمَّ الاتصال بين الجانبين، فكتب إليهم يستحثهم على التمرد وتسليمه البلد، ووعدهم بتقديم المساعدة[3].

وخرج جوسلين الثاني على رأس قوة عسكرية ميمِّماً وجهه شطر الرها وهو عازم على استعادتها، وسانده بلدوين حاكم مرعش وكيسوم في حين رفض ريموند بواتييه تقديم المساعدة[4]، ويبدو أن رفضه ناتج عن التخطيط غير السليم للحملة.

كان جوسلين الثاني يأمل في مباغتة الحامية ومهاجمتها على حين غفلة من أمرها، إلا أنها تلقَّت إنذاراً مبكراً بهذا الهجوم فاستعدَّت لصدِّه[5]. ووصل جوسلين إلى أسوار المدينة في (ربيع الآخر ٥٤١هـ/ أيلول ١١٤٦م)، ونجح في دخول البلد لكن امتنعت عليه القلعة وقد لجأت إليها الحامية الإسلامية[6].

ويبدو أنه وجد نفسه أسيراً هو ورجاله داخل المدينة، لأن قواته كانت قليلة العدد ولا يمكنها اقتحام القلعة، لذلك التمس المساعدة من أميري أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش مملكة بيت المقدس[7]. وأرسلت الحامية من جهتها، تطلب مساعدة نور الدين محمود في حلب، وكان جيشه آنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية. عدَّ صاحب حلب محاولة جوسلين الثاني هذه تحدياً له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجدات الصليبية، فخرج من حلب في (جمادى الآخرة/ تشرين الثاني) على رأس جيش كثيف بلغ تعداده عشرة آلاف فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار المدينة[8].

---

(١) Grousset: II p198.
(٢) عاشور: جـ٢ ص٦١١، ٦١٢.
(٣) ابن العديم: جـ٢ ص٤٧٣. الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٥٢، ٧٥٣.
(٤) الصوري، وليم: المصدر نفسه.
(٥) رنسيمان: جـ٢ ص٣٨٧.
(٦) ابن الأثير: جـ٩ ص١٤٥. ابن العديم: جـ٢ ص٤٧٣. الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٥٣.
(٧) عاشور: جـ٢ ص٦١٣.
(٨) ابن القلانسي: ص٤٥٠.

وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى، الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج، فلم يقو على ملاقاة هذه الجموع داخل الرها وخارجها، فأسقط في يده، وأدرك أن لا سبيل إلى النجاة إلا بالهرب، فتسلَّل أثناء الليل إلى خارج المدينة واتخذ طريقه صوب الفرات[(١)]، لكن هذه العملية لم تتم بسهولة، فقد طارده نور الدين محمود، واقتفى أثره، واشتبك معه في اليوم التالي وتغلَّب عليه، إلا أنه استطاع الفرار إلى سميساط بصعوبة بالغة بعد أن أُصيب في رقبته، وكان بلدوين حاكم مرعش من بين القتلى كما قُتل باسيل أسقف اليعاقبة، ووقع يوحنا أسقف الأرمن في الأسر[(٢)].

وخرج الأرمن من الرها بعد أن أدركوا ما ينتظرهم إذا ظلوا فيها، وقد أضرموا النيران في بيوت كثيرة، ولكن أكثرهم لم يتمكَّن من النجاة، ووقعوا تحت ضربات المسلمين[(٣)]. وكان من الطبيعي أن يحل العقاب بمن بقي من أهل الرها المسيحيين الذين غدروا بالمسلمين بعد أن تخلَّى جوسلين الثاني عنهم، ولم يُفرِّق نور الدين محمود هذه المرة بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين المحليين ولا سيما السريان والأرمن، فقتل الرجال وساق النساء والأطفال أسرى، وتراجعت مكانة الرها بعد أن خلت من سكانها[(٤)].

سياسة معين الدين أنر

دلَّت الأحداث، التي أعقبت وفاة عماد الدين زنكي مباشرة، أن سياسة ابنه نور الدين محمود استهدفت محاربة الصليبيين في أنطاكية بشكل خاص، واستقطاب القوى الإسلامية المتعددة في شمالي العراق وبلاد الشام ودمجها في الكيان الشامي لتكوين جبهة إسلامية متماسكة متبعاً في ذلك خطى والده، بالإضافة إلى أن قَطْعَ الشام عن الجزيرة الفراتية كان يجعله محتاجاً إلى البقاع وحوران لتموينه بالحبوب.

وتُعدُّ دمشق من بين الإمارات الإسلامية التي شغلت حيزاً متقدماً في مجال العلاقات الطيبة مع الصليبيين، وقد وقفت في الماضي حجر عثرة أمام محاولات عماد الدين زنكي لتوحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى؛ ما أثَّر إيجاباً على استمرار بقاء مملكة بيت المقدس على الرغم من تراجع إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية.

كان معين الدين أنر، شيخ دمشق وصاحب السلطة الفعلية فيها في ظل حكم

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١٤٥. ابن العديم: جـ٢ ص٤٧٣.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٥٤ ـ ٧٥٦. ابن العبري: ص١٦٢.

(٣) ابن القلانسي: ص٤٥٠. الصوري، وليم: المصدر نفسه: ص٤٥٣، ٤٥٤.

(٤) Michel le Syrien: III pp270-272.

أميرها الصغير مجير الدين أبق، وقد اتصف بالحنكة السياسية، فرأى من المبررات ما حمله على التماس المساعدة من الصليبيين لدفع الزنكيين عن دمشق.

ولم يكد نور الدين محمود يستقر في حلب حتى بدت أطماع أنر الذي تطلَّع لاسترداد بعلبك قبل أن يفيق الزنكيون من أثر الصدمة بمقتل عماد الدين وذلك ليمسك منها بمفتاح طريق الشمال، ولم يجد أدنى صعوبة في تحقيق ذلك، إذ سلَّمها إليه نجم الدين أيوب في (جمادى الأولى/تشرين الثاني) بعد أن هاجمها[(١)].

تغاضى نور الدين محمود عن تصرف أنر لأنه لم يشأ أن يفتح جبهة جانبية مع الأمراء المسلمين في بداية حياته السياسية، وهو بأمس الحاجة إلى لمِّ شعث المسلمين، ورأى استمالته وكسب ودِّه. وتبادل الطرفان السفارات بهدف تهدئة النفوس، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية صلح في دمشق في (شوال ٥٤١هـ/آذار ١١٤٧م)، وثبَّت هذا التقارب ما جرى من زواج نور الدين محمود من ابنة أنر[(٢)].

وعلى الرغم من هذا الصلح وتلك الزيجة، فقد ظل أنر محافظاً على حُسن علاقته مع الصليبيين بعامة كما أبقى على التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس، وقد هدف إلى المحافظة على توازن القوى في بلاد الشام آملاً بأن يُفلح في انتهاج سياسة الحياد، فيهدِّد كلّاً من الطرفين بتدخل الآخر إذا نُقضت الاتفاقيات، فيحفظ دمشق من الضياع، ولم ينس أن المدينة كانت دائماً محط أنظار الزنكيين، لذلك تمسَّك بصداقته لبلدوين الثاني الصغير ملك بيت المقدس وأمه ميليسند الوصية عليه، وحرص على أن يستمر معهما بالروح نفسها التي بدأ بها تحالفه مع الملك فولك من قبل[(٣)].

وتطلع أنر إلى ضمِّ حمص وحماة التابعتين للحكم الزنكي واللتين تشكلان مجالاً حيوياً لدمشق، لكنه لم يشأ إثارة نور الدين محمود من خلال إرسال حملة إليهما، فاتصل سراً بحكامهما وعقد معهما اتفاقيات اعترفا بموجبها بالسيادة لدمشق. ووجد نور الدين محمود نفسه عاجزاً عن التوسع ناحية الجنوب[(٤)]. فاستمرت بذلك سياسة أنر الحذرة تُشكل عقبة في طريق الزنكيين بعد عماد الدين زنكي لتحقيق مشروعهم بتوحيد العالم الإسلامي.

الحملة الصليبية على حوران[(٥)]

من مظاهر التقارب بين حلب ودمشق تعاونهما في التصدي للصليبيين في حوران،

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١٤٩.
(٢) ابن القلانسي: ص٤٥٠.
(٣) عاشور: جـ٢ ص٦١٦.
(٤) ابن القلانسي: ص٤٤٩.
(٥) يسهب المؤرخ وليم الصوري في تدوين أحداث الحملة، ويكاد يكون المصدر الوحيد في ذلك: جـ٢ ص٧٤٢ ـ ٧٥٠.

ذلك أن أنر تجاهل موقعه الطبيعي كحليف للمسلمين، ولم تلبث الظروف أن زعزعت تحالفه مع مملكة بيت المقدس بسرعة لم يكن يتوقعها.

فقد حدث في (أواخر ٥٤١هـ/ ربيع ١١٤٧م) أن خرج التونتاش، أمير بصرى[١] وصرخد[٢] في إقليم حوران، على حكمه وأعلن استقلاله عن دمشق، وحتى يُدعم موقفه التفت إلى مملكة بيت المقدس في محاولة لاستقطاب حكامها، وكان الذي شجعه على ذلك، اعتقاده بأن سياسة المسالمة التي اتبعها الملك فولك نحو دمشق قد انتهت بوفاته، وأن الحكام الجدد سوف يلتزمون سياسة مغايرة، وبخاصة أنه قدَّم إليهم في (ذي الحجة/ أيار) عرضاً سخياً يتضمَّن التنازل لهم عن بصرى وصرخد مقابل مساعدتهم له في الاستقلال بحوران[٣].

تردَّد بارونات بيت المقدس وحكامها في قبول هذا العرض المغري الذي سيتيح لهم استغلال إقليم حوران، كما أن السيطرة على هذا الإقليم تجعل دمشق تحت رحمتهم، ويبدو أنهم أدركوا المخاطر الناتجة عن تفكيك عرى التحالف مع دمشق في ظل تربص نور الدين محمود[٤]. وللخروج من هذا المأزق تصرفوا على محورين:

الأول: أنهم أمروا بحشد الجيش في طبرية استعداداً لمساعدة التونتاش عند الضرورة[٥].

الثاني: أرسلوا إلى أنر يطلبون منه إعادة التونتاش إلى حاكمية حوران.

استشاط أنر غضباً من هذا التدخل السافر في شؤونه الداخلية، غير أنه أراد أن يتجنَّب نقض التحالف مع الصليبيين خشية من قوة نور الدين محمود، فأرسل يُذكِّر حكام بيت المقدس بالحلف المعقود بينهما والذي يعود على الجانبين بالفائدة، ويُحذِّرهم أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى التحالف مع نور الدين محمود ما يُعرِّضهم لخطر جسيم، وعرض أن يُؤدي نفقات الحملة التي جُهِّزت لمساعدة التونتاش[٦].

الواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين، على الرغم مما يتضمن من المهانة لكرامته في أعين المسلمين؛ أسلم عاقبة من بقائه وحيداً أمام نور الدين محمود الذي ما فتئ يتطلع إلى استعادة بعلبك والعودة إلى مشروع ضمِّ دمشق، لذلك رأى أنه

---

(١) بصرى: مدينة بالشام من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران. الحموي: جـ١ ص٤٤١.
(٢) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. المصدر نفسه: جـ٣ ص٤٠١.
(٣) ابن القلانسي: ص٤٥١. الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٤٢، ٧٤٣.
(٤) الصوري، وليم: المصدر نفسه: ص٧٤٣.
(٥) المصدر نفسه. (٦) المصدر نفسه: ص٧٤٤، ٧٤٥.

لا بد من الإبقاء على ذلك الحلف، ويبدو أن جانباً من مجلس المملكة كان يؤثر أيضاً المحافظة على الحلف المعقود مع دمشق، فاقتنع الملك ووالدته بوجهة النظر هذه، وتقرَّر التخلي عن الحملة.

غير أن ضغط الجند الذين طمعوا في التمتع بخيرات إقليم حوران والتوسع على حساب المسلمين، حمل أهل الحكم على قبول عرض التونتاش، إلا أنهم أعلموا أنر بأن دمشق لن تُمسَّ بأي حال من الأحوال[1].

تقدم الصليبيون بقيادة الملك بلدوين الثالث من طبرية باتجاه حوران، فعبروا نهر الأردن، وزحفوا على إقليم الجولان على شاطئ اليرموك، وواصلوا الزحف حتى بلغوا وادي الزيدي على الطريق إلى صرخد، وانضمَّت إليهم هناك فرقة عسكرية أرسلها التونتاش[2].

تلقَّى أنر تحذيراً من هذا الزحف، فخرج على رأس قوة عسكرية لقطع طريق بصرى ـ صرخد، وأرسل في الوقت نفسه سفارة إلى حلب يلتمس العون والمساعدة من نور الدين محمود، فأسرع هذا لنجدته، وتقرَّر أن تعود حماة إليه ثمناً للمساعدة على أن يحترم استقلال دمشق[3].

وصل الصليبيون في غضون ذلك إلى درعا التي تقع في منتصف الطريق بين الحدود وبصرى، في حين سار الحليفان المسلمان إلى صرخد وفاجآها بغياب التونتاش، وقد خشي سكانها من ضخامة الجيش الإسلامي، كما بلغهم ما عاناه الجيش الصليبي من التعب والإرهاق والظمأ أثناء الزحف ما سيؤدي إلى تأخير وصوله، فاستسلمت حامية المدينة، ثم تابعا زحفهما باتجاه بصرى، فبادرت زوجة التونتاش بتسليمها لهما[4].

تجاه هذا التطور العسكري، اضطر الصليبيون إلى التراجع خشية أن يتقدم الجيش الإسلامي، فيغير على بلادهم بعد دخوله بصرى لقربها من الحدود من دون أن يُحقِّقوا أي هدف من أهداف حملتهم التي عُدَّت فاشلة، وإذ أدركوا مخاطر هذا الانسحاب وسط تهديد المسلمين لمؤخرتهم، أرسلوا سفارة إلى أنر يطلبون منه السماح لهم بالعودة سالمين، وعلى الرغم من ذلك، لم يتمكَّنوا من العودة إلا بعد أن واجهوا كثيراً من المتاعب[5].

وإذ أدرك أنر أن نور الدين محمود بات قريباً منه، لم يرغب في توسيع الفجوة

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٤٥، ٧٤٦.
(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٣٩٠.
(٣) ابن القلانسي: ص٤٥١.
(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٤٧، ٧٤٨.
(٥) المصدر نفسه: ص٧٤٨ ـ ٧٥٠.

بينه وبين الصليبيين، ولم يشأ أن يتعرض جيشهم للدمار، فعرض عليهم تزويدهم بالمؤن[1]. ويبدو أنه أراد توجيه رسالة خفية إلى نور الدين محمود من أن الصليبيين لا يزالون على جانب من القوة لا يُستهان بها، وأن هذه النكبة التي حلَّت بهم إن هي إلا نكبة عابرة لا تلبث أن تزول، وقد أراد تحقيق هدفين:

الأول: تهديد نور الدين محمود بتحالفه معهم إن عاد إلى التفكير في ضمِّ دمشق.

الثاني: المحافظة على توازن القوى ليتسنى تأمين استمرار حكمه، لأنه كان يخشى أن تنجو دمشق من الخطر الصليبي لتقع فريسة للخطر النوري[2].

الواقع أن التحالف الصليبي ـ الدمشقي كان في صالح الصليبيين أكثر منه في صالح الدمشقيين، وإنما استفادت منه دمشق مؤقتاً في إنقاذها من ضمِّ نور الدين محمود لها[3]، أما الصليبيون في بيت المقدس، فقد افتقروا إلى السياسة السليمة لأن تصرفهم الأحمق كاد أن يُعرِّضهم للزوال نتيجة تحالف نور الدين محمود وأنر، وقد بدا الأول كأنه منقذ دمشق.

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٥٠، ٧٥١.

(٢) حبشي، حسن: نور الدين والصليبيون: ص٤٧، ٤٨.

(٣) المرجع نفسه: ص٤٨، ٤٩.

الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ

الحملة الصليبية الثانية

استعدادات التجهيز

لم يكد نبأ سقوط الرها يصل إلى بيت المقدس حتى أرسلت الملكة ميليسند إلى أنطاكية للتباحث في إرسال سفارة إلى روما لتنهي هذا النبأ إلى البابا وشرح أوضاع الصليبيين الصعبة في الشرق، وتطلب منه إرسال حملة صليبية جديدة على وجه السرعة، وتقرَّر أن يكون هيو أسقف جبلة السفير الذي يحمل إليه الرسالة. وصل هيو إلى المقر البابوي في فيتيريو في (أواسط ٥٤٠هـ/ خريف ١١٤٥م)، واجتمع بالبابا يوجين الثالث (٥٤٠ ـ ٥٤٨هـ/ ١١٤٥ ـ ١١٥٣م) وأطلعه على مضمون رسالته، فارتاع لما سمعه واستبدَّ به القلق والضيق[١].

ووصل إلى المقر البابوي حوالي ذلك الوقت وفد من الأساقفة الأرمن من كيليكية للحصول على مساعدة البابا ضد الامبراطورية البيزنطية، ولما لم يكن باستطاعته أن يُهمل واجباته في الشرق، وفي الوقت الذي ذهب فيه هيو إلى فرنسا وألمانيا لينهي أيضاً إلى ملكيها خبر سقوط الرها، قرَّر البابا الدعوة للحرب الصليبية[٢].

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين رد فعل غاضب في الغرب الأوروبي، وباعث على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة تعيد الوضع إلى نصابه وذلك بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ المسيحية؛ ولأنها كانت أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها نذيراً بتزعزع الكيان الصليبي برمته وأدرك الغرب الأوروبي، وبخاصة البابا أنه إذا لم يسارع إلى معالجة المشكلة، فإن هذا الكيان سينهار، لذلك قرَّر البابا الدعوة إلى حرب صليبية[٣].

غير أن البابا يوجين الثالث لم يكن آنذاك في وضع يتيح له إدارة الحركة الصليبية

---

(١) Otto of Freising: The Deeds of Frederick Barbarossa: pp71-73.

(٢) Ibid. Tournebize, F: Histoire Politique Religieuse de L'Armenie: pp235-239.

(٣) Otto of Freising: op.cit.

وتوجيهها مثلما فعل البابا أوربان الثاني من قبل، إذ لم يكن بوسعه أن يجول البلاد الواقعة وراء جبال الألب كما لم يكن باستطاعته أن يدخل روما بسبب سيطرة حكومة معادية للحكم البابوي عليها، لكنه ارتبط بعلاقات ودية طيبة مع اثنين من أقوى الأمراء في الغرب الأوروبي هما كونراد هوهنشتاوفن امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا المعروف بتقواه، فقرَّر أن يطلب من الملك الفرنسي أن يبذل المساعدة للصليبيين في الشرق، فوجَّه إليه في (١٣ جمادى الآخرة ٥٤٠هـ/ كانون الأول ١١٤٥م)، وإلى سائر الأمراء والمؤمنين بمملكة فرنسا، رسالة يحثهم فيها على النهوض لنجدة الصليبيين في الشرق، ويعدهم بتأمين ممتلكاتهم في الدنيا وغفران ذنوبهم في الآخرة، وتناول في رسالته ذكر سقوط الرها وما سبَّبه من كوارث على الكيان الصليبي في الشرق[١].

ويبدو أن السبب في اختيار البابا للملك الشاب الذي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، أن لويس نذر القيام بحملة صليبية إلى الشرق تكفيراً وتوبة على ما اقترفه في حق مدينة ڤيتري حين أضرم فيها النار أثناء صراعه مع كونت شامباني وأحرقها مع من فيها من الأحياء، وعددهم ثلاثة عشر ألف نسمة عام (٥٣٥ - ٥٣٦هـ/ ١١٤١م)[٢].

الواقع أن الغرب الأوروبي الذي فتر حماسه بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، كان بحاجة إلى صدمة تنفخ فيه روح الحماس من جديد، وشكَّل سقوط الرها هذه الصدمة التي جاءت بمثابة كارثة حقيقية. ويبدو أن التفكير السياسي الذي ساد في هذه المرحلة من التاريخ الأوروبي، عدَّ قيام الإمارات الصليبية في بلاد الشام جناحاً أيسر لحملة عسكرية كبيرة لاجتياح الأراضي الإسلامية على امتداد البحر الأبيض المتوسط وبخاصة شمالي أفريقيا، في الوقت الذي شكَّلت فيه إسبانيا (الأندلس) الجناح الأيمن.

ومهما يكن من أمر، فعندما تسلَّم لويس السابع رسالة البابا أعلن عن عزمه على حمل الصليب والتوجه إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، لكن هذه الرغبة قوبلت بالفتور في بادئ الأمر من جانب كبار النبلاء وفي دوائر البلاط الفرنسي، كما عارضها أهم رجل سياسي في المملكة هو سوغر، رئيس دير سانت دنيس، ولم

---

(١) تجد نص الرسالة في: Eugen III: Letter to Louis VII: pp429, 430. in: Recueil des Historiens de Gaul et de la France. R.H.G.F.

(٢) Tout, T.F.: The Empire and the Papacy: p284. أودو أوف دويل: جـ١ ص٢٩٥.

يقف إلى جانب الملك سوى أسقف لانجر[١]، ولكن رغبة الملك ومساندة البابا أدَّت إلى اجتماعه مع نبلائه في فيزيلاي للإعلان عن الحملة والدعاية لها، وهو ما تولاه بعض رجال الدين وعلى رأسهم برنارد، رئيس رهبان دير كليرفو، الذي أقنع الملك كونراد الثالث امبراطور ألمانيا بالتوجه إلى الأراضي المقدسة[٢].

وبدأت الاستعدادات لقيام الحملة، فأرسل الملك لويس السابع رسالتين، إحداهما إلى الملك روجر الثاني ملك صقلية والأخرى إلى الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين للاطلاع على مدى استعدادهما لمساعدة الحملة.

أبدى الملك روجر الثاني رغبة شديدة في المساهمة بهذا المشروع، وأرسل السفراء إلى الملك الفرنسي للتنسيق وترتيب أمر نقل القوات الصليبية بحراً، ووعد أن يذهب بنفسه أو يُرسل ابنه مع قوات الحملة، ولكي يقنع الملك الفرنسي برغبته، ندَّد بالامبراطورية البيزنطية، وركَّز على خيانة الأباطرة البيزنطيين للحركة الصليبية، لكن مساعدته رُفضت لثلاثة أسباب هي:

الأول: تبين للملك الفرنسي أن الملك روجر الثاني كان يبطن هدفاً آخر غير تقديم المساعدة يتمثل بالحصول على إمارة أنطاكية بوصفه وريثاً لبوهيموند الأول مع ما يثير ذلك من مشكلة مع ريموند بواتييه أمير أنطاكية.

الثاني: كان ريموند بواتييه خال الملكة أليانور زوجة لويس السابع، لذا بدا واضحاً في عدم قبول أي مساعدة من الملك روجر الثاني حتى لا يتخذ ذلك ذريعة للتدخل في شؤون إمارة أنطاكية.

الثالث: كان روجر الثاني في حال عداء مع الملك الألماني كونراد الثالث ومع الامبراطور البيزنطي مانويل، وهما اللذان أضحيا حليفين في هذه المرحلة، وعلى ذلك، يثير قدوم روجر الثاني المشكلات مع الأول أثناء سير الحملة بحراً، ومع الثاني إذا قدمت بعض القوات براً عبر القسطنطينية نظراً لادعاء مانويل السيادة على أنطاكية.

كان الامبراطور مانويل على علم بأمر الاتصال مع روجر، وكان بإمكانه التعلل بحروبه مع السلاجقة ويطالب بإرجاء الحملة أو عدم إمكانه تقديم المساعدة لها، لذلك أرسل ردَّه إلى الملك الفرنسي متضمناً أسلوباً رقيقاً، وقدَّم له وعوداً مشجعة، إلا أنه تحفَّظ بأنه عقد هدنة مع السلاجقة في الأناضول، وأنه لا يستطيع المساهمة بقواته التي يدخرها خشية أن يقوم هؤلاء بخرقها، غير أنه أبدى استعداده لاستقبال

---

(١) أودو أوف دويل: جـ١ ص٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٧، ٢٩٨.

الصليبيين، وتشريفهم إياه كما سبق أن شرَّفوا جده ألكسيوس من قبل[1]، ولعل في ذلك إشارة واضحة إلى الولاء الذي قدَّمه القادة الصليبيون إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين، وبالتالي فهو يطالب بالولاء نفسه وبخاصة أنه لم يطلب مساعدة من الغرب الأوروبي[2].

وهكذا اكتسبت الحملة الصليبية الثانية، التي قدمت إلى الشرق في عام (٥٤٢هـ/١١٤٧م)، طابعاً مختلفاً عن الحملة التي قدمت في عام (٤٩٠هـ/١٠٩٦م). ففي حين اتخذت هذه الأخيرة شكل هجرة ضخمة ضمَّت جموعاً مختلفة من المسيحيين الغربيين الذين انتسبوا إلى جنسيات ودول متعددة، إذ بالحملة الصليبية الثانية تتألف من جيشين كبيرين يقودهما أكبر عاهلين في العالم الكاثوليكي، هما كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا[3].

وانعدمت الوحدة بين القوات الصليبية عندما خرج كل من الملكين مستقلاً عن الآخر. فخرج كونراد الثالث أولاً في (٢٨ ذي الحجة ٥٤١هـ/ ٣١ أيار ١١٤٧م) على رأس سبعين ألفاً من الفرسان بالإضافة إلى المشاة، والنساء والأطفال والخيالة[4] الخفاف، وعندما وصل إلى حدود الدولة البيزنطية، تكرَّرت المشاهد نفسها التي حدثت عند زحف الحملة الصليبية الأولى وذلك من ناحية عدوان أفراد جيشه على أهالي البلاد التي مروا بها، كما أثاروا المشكلات مع البيزنطيين عندما وصلوا إلى القسطنطينية في (ربيع الآخر ٥٤٢هـ/ أيلول ١١٤٧م)، غير أن عودة الوفاق بين كونراد الثالث ومانويل سمح للأول بالعبور إلى آسيا الصغرى.

السلاجقة يقضون على الجيش الألماني

عبر كونراد الثالث مع جموعه البوسفور إلى آسيا الصغرى، وشرع في الزحف شرقاً حتى وصل إلى خلقدونية، وطلب من الامبراطور مانويل أن يمدَّه بالمرشدين، فأرسل إليه ستيفن قائد حرس الورنك، ونصحه بأن يتجنَّب الطريق الذي يخترق قلب الأناضول كي لا يتعرَّض لخطر السلاجقة، وأن يسلك الطريق الساحلي الغربي ثم الجنوبي عبر أنطاليا فيلتزم بذلك بلاداً خاضعة للامبراطورية، كما اقترح عليه أن يعيد الحجاج والأشخاص، الذين لا يودون الاشتراك في القتال، إلى أوطانهم حتى لا

---

(١) Manuel: Letter to Louis VII: p9 in R.H.G.F.

(٢) عمران، محمود سعيد: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول: ص١٤٠.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٥٨، ٧٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ص٧٦١.

يُشكِّلوا عقبة في طريق زحف الجيش[١].

وأرسل الامبراطور مانويل، الذي اتصف بالازدواجية السياسية تجاه الصليبيين، رسالة إلى السلطان السلجوقي مسعود في قونية يحثه فيها على اعتراض الحملة الصليبية بناء للاتفاق المبرم بينهما[٢]، وقد نجد سنداً لذلك عندما هرب المرشدون البيزنطيون أثناء اجتياز الصليبيين آسيا الصغرى، واتهام هؤلاء لهم بالخيانة[٣].

ومهما يكن من أمر، لم يحفل كونراد الثالث بنصائح الامبراطور البيزنطي، فاصطحب معه القوات المقاتلة والأشخاص غير المحاربين، كما اختار أن يجتاز أقصر الطرق ليصل إلى بلاد الشام، وهو الطريق الذي يستغرق حوالي ثلاثة أسابيع، والذي تقع عليه العاصمة السلجوقية قونية، على مسيرة اثني عشر يوماً من خلقدونية، ولم يدر أن بتصرفه هذا قد خطَّط لفشل الحملة[٤].

تابع كونراد الثالث زحفه حتى وصل إلى مدينة نيقية، وهناك فكَّر جدياً بما عرضه عليه الامبراطور مانويل، فقرَّر أن يقسم الجيش إلى قسمين، أحدهما يشمل معظم الذين لن يشتركوا في القتال على أن يسلك الطريق الساحلي إلى أنطاكية الذي يمر في فيلادلفيا ولاذيق، والآخر وهو القسم الرئيس الذي يشمل المحاربين على أن يسلك الطريق الذي يخترق جوف آسيا الصغرى[٥].

وغادر الامبراطور الألماني نيقية في طريقه إلى قونية بعد أن تزوَّد بالمؤن ما يكفي مدة ثمانية أيام، بناء على اقتراح المرشدين البيزنطيين الذين وعدوه بأنه خلال أيام معدودة سيصل إلى مدينة قونية، وسيجد نفسه وسط أخصب البلاد المليئة بجميع أنواع الإمدادات[٦].

ولم يلبث المرشدون أن هربوا إما بناء على أوامر الامبراطور أو أن التركمان رشوهم، ووجد كونراد الثالث نفسه في ضياع بدونهم، فأشار عليه بعض قادته بالعودة، والبعض الآخر بالتقدم، وعانى الجيش من نقص في الإمدادات بعد ثمانية

---

(١) أودو أوف دويل: جـ١ ص٣٥٤، ٣٥٥ Kinnamos, John: Epitom Historiarum: pp80, 81. in: Corpus Scriporum Historia Byzantinae, C.S.H.B.

(٢) إشارة إلى التفاهم الذي حصل بين الرجلين في عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م إثر قيام مانويل بمهاجمة قونية.

(٣) أرملة، إسحاق: الحروب الصليبية في الآثار السريانية: ص١٢٥. Choniates: pp88, 89.

(٤) Oman: I 245. Ostrogorsky: p339.

(٥) Kinnamos: pp80-82.

(٦) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٦٢.

أيام، فأكلوا الدواب، وما لبث أن انقضَّ عليهم السلاجقة من كل جانب، ويعزو وليم الصوري مرد ذلك إلى خيانة البيزنطيين[١].

الراجح أن كونراد الثالث هو الذي اختار طريق زحفه ولا علاقة للمرشدين البيزنطيين بالأمر بدليل الرسالة التي أرسلها إلى ويبالد أسقف كورڤري، وقال فيها إنه اختار هذا الطريق بنفسه ليصل إلى بلاد الشام بسرعة، وأنه قد تزوَّد بما يكفيه من المؤن قبل مغادرته نيقية، ولم يُعلق على المرشدين أهمية تُذكر، ولم يشر إلى خيانتهم كما لم يربط بين هروبهم وبين ظهور الأتراك السلاجقة[٢].

ويبدو أن مؤن الصليبيين قد نفدت عند مدينة فيلوميليوم، وهي المكان الذي بدأ فيه السلاجقة بمهاجمتهم بعد أن قطعوا الطريق عليهم، وعندما وجدوا أنفسهم يموتون جوعاً في بلاد يجهلونها، اتهموا المرشدين بالخيانة، ما دفع هؤلاء إلى الهرب خوفاً من العقاب، ثم وقعوا في أيدي السلاجقة[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد علم السلطان مسعود بالحال السيئة التي كان يمر بها الجيش الألماني، فتراجع أمامه وفق خطة عسكرية ذكية حتى وصل أفراده في تقدمهم إلى قلب مقاطعة فريجيا، وقد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم. ولما وصلوا إلى نهر باتيس قرب دوريليوم، داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبدَّ بهم التعب والظمأ، فاختلَّت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم بالسهام. وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك، في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف لخيولهم، عندئذ قرَّر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة هاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه، وتعرض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر. والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة قُتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه[٤].

حاول كونراد الثالث عبثاً جمع شتات جيشه وترك ساحة المعركة عند المساء، ممعناً في الفرار مع من تبقَّى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم[٥].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٦٢. (٢) عمران: ص١٤٦.

(٣) Oman: I p245.

(٤) Kinnamos: pp81,82. Choniates: p89. Oman: I p245. Michel le Syrien: III p276. أودو أوف دويل: جـ١ ص٣٥٥.

(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٦٤ ـ ٧٦٦.

ويمكننا القول بعد هذه الكارثة بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق ما سيكون له أثر سيئ على الحملة الصليبية الثانية.

السلاجقة يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي

خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً نحو شهر عن الجيش الألماني، وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كانت أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور[١]، ومع ذلك فقد حدثت بعض الاحتكاكات مع البيزنطيين في المقاطعات التي مروا بها.

وأرسل الامبراطور مانويل مبعوثَيْن استقبلا الملك الفرنسي في مدينة راتيسبون وطلبا منه:

- أن يتصرف كصديق للامبراطور أثناء مروره عبر الأراضي البيزنطية.

- أن يتعهد بألا يستولي على أي مدينة أو حصن في دولة الامبراطور ويعيد إليه جميع الأراضي التي استولى عليها السلاجقة وكانت تابعة من قبل للبيزنطيين[٢].

وافق لويس السابع على الشرط الأول وأرجأ الموافقة على الشرط الثاني حتى يقابل الامبراطور. ويبدو أن هذا الأخير حاول استغلال الحملة الفرنسية لصالحه من دون أن يبذل أي جهد من جانبه، وأن يوسع حدود ممتلكاته في آسيا الصغرى من دون أن يُعرِّض قواته للخطر[٣]، والملفت أنه لم يتصرف بمثله مع كونراد الثالث.

وصل لويس السابع إلى القسطنطينية في (٧ جمادى الأولى ٥٤٢هـ/ ٤ تشرين الأول ١١٤٧م)، وقد سبقته طلائع قواته إليها، فاستقبله الامبراطور في القصر الملكي ورحَّب به، واصطحبه معه لزيارة معالم العاصمة[٤]، فاطمأن لويس السابع، وطلب منه الامبراطور الإسراع بنقل قواته عبر البوسفور إلى خلقدونية، لكن لويس السابع عارض هذه الفكرة متذرعاً بأنه في انتظار القوات الصليبية القادمة من صقلية والتي رست بها السفن في دورازو، ما صدم الامبراطور[٥].

وسرت في هذا الوقت شائعة تفيد أن الصليبيين الألمان قد حقَّقوا نصراً كبيراً على السلاجقة في آسيا الصغرى وقتلوا منهم حوالي أربعة عشر ألفاً من دون أن يتكبَّدوا أي خسارة، ما دفع الجنود الفرنسيين إلى الإلحاح على ملكهم أن يعبر بهم إلى آسيا الصغرى واللحاق بالجيش الألماني للمشاركة في الغنيمة[٦].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٦١، ٧٦٢.
(٢) أودو أوف دويل: جـ١ ص٣٠٨، ٣١٠.
(٣) عمران: ص١٤٩، ١٥٠.
(٤) أودو أوف دويل: جـ١ ص٣٣٧.
(٥) المصدر نفسه: ص٣٣٩، ٣٤٢.
(٦) المصدر نفسه: ص٣٤٢، ٣٤٣.

والراجح أن الامبراطور البيزنطي كان مصدر هذه الشائعة حتى يُجبر الملك الفرنسي على الرحيل عن العاصمة، فيتخلَّص بذلك من القوات الفرنسية حتى لا يتحرَّج موقفه بوصول قوات عدوه روجرر الثاني ملك صقلية.

ومهما يكن من أمر، ففي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية. وعلم الملك الفرنسي فيها بهزيمة الامبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته، وبعد أن اجتمع العاهلان في المدينة المذكورة، قرَّرا سلوك الطريق الساحلي بعيداً عن جوف سلطنة سلاجقة الروم، والتزما بأن يظلا داخل الأراضي البيزنطية حتى وصلا إلى أنطاليا بعد أن حلَّ برجالهما الإنهاك الشديد، وتناقص عددهم نتيجة افتقارهم إلى ضرورات الحياة أو بفعل إجهاز السلاجقة عليهم، أما الذين كانوا يملكون بعض الدراهم فقد أبحروا إلى بلاد الشام[١].

وعندما وصل الملكان إلى مدينة أفسوس ساءت صحة كونراد الثالث ما اضطره إلى العودة إلى القسطنطينية، في حين تابع لويس السابع رحلته، وتلقَّى تحذيراً من الامبراطور البيزنطي بعزم السلطان مسعود على مهاجمته، ونصحه بأن يتجنَّب خوض معركة معه، وبألا يبتعد عن الحصون البيزنطية نظراً لما تؤمنه له من مأوى، والجدير ذكره أن العاهلين، الألماني والفرنسي، سلكا الطريق عبر ميسيا وليديا إلى بروسة وبرغمة ثم إلى أفسس[٢].

وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها لويس السابع، فقد فاجأه السلطان مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية بسيديا بعد أن استدار بوادي نهر المياندر، وراح يناوئ جيشه حتى بلغ الجسر المقام على النهر. ونشبت في هذا المكان رحى معركة شديدة استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر، عند ذاك، تراجع السلطان مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكَّن الصليبيون بعدها من مواصلة طريقهم، ولم يغامر السلطان مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدَّت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطَّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم ينج الجيش الصليبي من الفناء الشامل إلا بفضل حلول الظلام حيث انسحب التركمان[٣]. وتابع لويس السابع طريقه حتى بلغ أنطاليا، ومنها عبر البحر إلى

---

(١) أودو أوف دويل: جـ١ ص٣٥٥، ٣٦١ ـ ٣٦٤، ٣٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٦٨، ٣٦٩. الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٦٧. Oman: I p246.

(٣) المصدران نفساهما: ص٣٧١ ـ ٣٧٤. ص٧٦٨ ـ ٧٧٢.

السويدية فأنطاكية فوصل إليها في (ذي الحجة ٥٤٢هـ/ آذار ١١٤٨م)[١].

لويس السابع في أنطاكية

استقبل ريموند بواتييه أمير أنطاكية الملك لويس السابع بالترحاب والحفاوة[٢]، آملاً في تسخير الحملة لصالحه بحكم روابط الصلة العائلية التي تربطه به، إذ كان مركزه في أنطاكية بالغ الخطورة بعد أن وطَّد نور الدين محمود آنذاك ملكه على امتداد الطرف المسيحي الممتد من الرها إلى حماة، وكان يتوقع أن تكون أنطاكية هدفاً من أهدافه، فقد دلَّت سيطرته على أرتاح وكفرلاثا القريبة منها على أنه شديد الرغبة في فتح أنطاكية أو في إضعافها على الأقل من واقع الاستيلاء على أعمالها، حتى لا تكون منفذاً يتسلَّل منه الصليبيون أو البيزنطيون إلى حلب والأملاك الإسلامية، لذا رأى ريموند بواتييه أن تقوم الحملة الفرنسية بمهاجمة حلب وحماة والقضاء على نور الدين محمود بوصفه خليفة القوة التي فتحت الرها، والمهدِّدة لأوضاع الصليبيين في أنطاكية[٣].

ومن جهته حاول جوسلين الثاني أمير الرها أن يستغل الحملة لصالحه أيضاً، وكان يعتقد أن سقوط الرها هو الدافع الأول لمجيئها، وعلى ذلك فإن مهمتها الرئيسة هي استرداد الرها[٤].

وأراد ريموند الثاني أمير طرابلس أن يستغل الرابطة التي تربطه بالملك الفرنسي عن طريق والدته الفرنسية لتسخير الحملة في استرداد البلاد التي فتحها المسلمون في عام (٥٣٤هـ/ ١١٤٠م) لا سيما قلعة بارين[٥].

ورأت مملكة بيت المقدس أن تستفيد من الحملة الفرنسية، فأرسلت مبعوثاً من قِبلها، هو فولشر بطريرك بيت المقدس، إلى أنطاكية لدعوة الملك الفرنسي إلى المدينة، وكان الملك الفرنسي قد غادر أنطاكية في طريقه إلى بيت المقدس، فاجتمع به في مشارف أراضي طرابلس، فبلَّغه الدعوة وأخبره بأن كونراد الثالث سبقه في الوصول إليها[٦].

الواقع أن لويس السابع وجد نفسه وهو في أنطاكية وسط مجموعة من الأمراء المنشقين على أنفسهم، كلٌّ يحاول جذبه إليه واستقطابه وإقناعه بصوابية آرائه، فما

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٦٨ ـ ٧٧٢. (٢) المصدر نفسه: ص٧٧٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٧٧٣. رنسيمان: جـ٢ ص٤٤٧، ٤٤٨. حبشي: ص٥٢.
(٤) Grousset: II p245. (٥) رنسيمان: جـ٢ ص٤٤٨، ٤٤٩.
(٦) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٧٢، ٧٧٣. كان كونراد الثالث قد غادر القسطنطينية، بعد شفائه، إلى عكا فوصل إليها في (ذي القعدة ٥٤٢هـ/ نيسان ١١٤٨م).

كان منه إلا أن ترك الجميع لا سيما وأنه كره الإقامة في أنطاكية لأسباب عائلية[1]، وأعلن أنه لا يمكنه القيام بأي عمل قبل التوجه إلى بيت المقدس وتحقيق أمنيته بالحج، فغادر أنطاكية متوجهاً إليها، واستُقبل لدى وصوله استقبالاً حافلاً. وفي (٤ صفر ٥٤٣هـ/ ٢٤ حزيران ١١٤٨م) عُقد اجتماع في عكا بناء على دعوة الملكة ميليسند وبلدوين الثالث ضمَّهما وكونراد الثالث ولويس السابع وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية، وغاب عنه كل من ريموند بواتييه الذي غضب لرحيل لويس السابع من دون علمه، وريموند الثاني أمير طرابلس، وجوسلين الثاني أمير الرها، الذي ظل قابعاً في تل باشر ربما بسبب غضبه أيضاً من تصرفات الملك الفرنسي[2].

الصليبيون يُقرِّرون مهاجمة دمشق

كان على الصليبيين أن يختاروا بين توجهين سياسيين يمثلان وجهتي نظر متناقضتين، مثَّل الأولى حكام الإمارات الصليبية الشمالية، أنطاكية والرها وطرابلس، في حين مثَّل الثانية حكام بيت المقدس، وتقضي بمهاجمة دمشق، وبعد كثير من التداول تقرَّر اعتماد وجهة النظر الأخيرة[3].

والواقع أن هذا القرار اتسم بالحماقة وعدم المسؤولية، بل هو خطأ شنيع، فعلى الرغم من أن دمشق تُعدُّ جائزة قيِّمة، ويؤدي تملك الصليبيين لها إلى قطع الصلة نهائياً بين المسلمين، في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، والمسلمين في مصر، إلا أن مهاجمتها تعني فقدان الأتابكية الوحيدة التي انفردت عن سائر الإمارات الإسلامية بالحرص على استمرار الصداقة مع الصليبيين. فقد كانت الدولتان في دمشق وبيت المقدس تنصحان بالهدوء بفضل ما ساد بينهما من تفاهم، كما قامت بينهما علاقات تجارية جيدة، إذ أن كثيراً من الصليبيين كانوا يقصدون دمشق لشراء الحلي والأواني الزجاجية، والمنسوجات المطرزة والحريرية، بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت أتابكية دمشق تضارع أكثر الصليبيين تطرفاً في عداوة نور الدين محمود، لذلك فإن مصالحهم تقضي بالمحافظة على الصداقة مع دمشق حتى يتم القضاء عليه، ولم يُدرك الصليبيون أن مهاجمتها سوف تدفع سكانها إلى الارتماء في أحضانه[4].

ويبدو أنه كان لنبلاء بيت المقدس التأثير القوي على المجتمعين، ذلك أن فكرة

---

(١) لقد ساندت الملكة إليانور خطة خالها ريموند بواتييه، وبفعل ما اشتهرت به من شدة العاطفة ورؤيتها بصورة دائمة بصحبة خالها، أثار الشك بأنها تجاوزت حد محبة الخال، ما أثار غيرة زوجها.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٧٧ ـ ٧٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٧٧٩. Stevenson: p159.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٤٥٢، ٤٥٣.

غزو دمشق نبعت من بلاط بيت المقدس، وقد طمع هؤلاء في الحصول على الأراضي الخصبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق في حين لم تكن لحلب أهمية تُذكر[1].

تصدي المسلمين للصليبيين أمام دمشق

زحفت الجيوش الصليبية الضخمة التي بلغ عديدها نحو خمسين ألفاً، إلى دمشق عبر طبرية وبانياس ووصلت إليها في (٤ ربيع الأول/ ٢٣ تموز)، وهاجم أفرادها الغوطة، وعسكروا في المكان المعروف بمنازل العساكر على بُعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من المدينة، وانتشروا في البساتين والحدائق الواقعة إلى الجهة الجنوبية المعروفة باسم الميدان الأخضر نظراً لما تؤمنه لهم من حماية بسبب كثافة الأشجار، ويبدو أنهم افتقدوا إلى الماء، فعجَّلوا السير نحو قرية المزة لتوافر الماء فيها واحتلوها[2].

كان يتولى حكم دمشق آنذاك مجير الدين أبق، وقد عُرف بضعفه وعجزه عن تدبير الأمور، فسيطر أحد مماليك جده طغتكين، ويدعى معين الدين أنر، على زمام الأمور[3]. وحاول جيش دمشق بقيادة أنر وقف زحف الصليبيين غير أنه اضطر إلى الارتداد إلى ما وراء أسوار المدينة، تلى ذلك ما قام به الصليبيون من شق طريق لهم إلى الربوة الواقعة على نهر بردى تحت أسوار المدينة مباشرة. وظن أهل دمشق أنهم خسروا كل شيء، فشرعوا في إقامة المتاريس في الشوارع استعداداً للقتال، وناوشوا الصليبيين المحتمين بالأشجار حتى اضطروهم إلى تغيير مواقعهم إلى الجهة الشرقية من المدينة حيث لا يتوافر مثل هذا الغطاء. وأرسل أنر يلتمس المساعدة من أمير الموصل غازي الأول، وهو أقوى الأمراء المسلمين آنذاك «ويستصرخه ويخبره بشدة بأس الفرنج»[4].

لبّى غازي الأول نداء الاستغاثة، فخرج من الموصل على وجه السرعة وعبر الفرات على رأس جيش يُقدر بعشرين ألف مقاتل مصطحباً معه أخاه نور الدين محمود، ونزل الأخوان في مدينة حمص[5].

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٤٥٢، ٤٥٣.

(٢) ابن القلانسي: ص٤٦٣. ابن الأثير: التاريخ الباهر ص٨٩. الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٧٩ - ٧٨٣.

(٣) ابن القلانسي: المصدر نفسه.

(٤) ابن القلانسي: ص٤٦٣، ٤٦٤. ابن الأثير: التاريخ الباهر ص٨٩. سبط ابن الجوزي: جـ٢ ص٧٧٧، ٧٧٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١٥٨، ١٥٩. سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه.

اشتهر أنر بتقلباته السياسية وبتحالفه مع مملكة بيت المقدس ضد الأمراء المسلمين المجاورين، حفاظاً على نفوذه في دمشق، وقد وقف غازي الأول على هذا المزاج السياسي لحاكم دمشق، لذلك لم يشأ أن يتحرك من حمص قبل أن يحصل على ضمانات كافية تمنعه من أن يغدر به أو يعقد صلحاً منفرداً مع الصليبيين، فيعرِّض قواته للخطر؛ فطلب منه تسليم دمشق إلى أحد نوابه حتى ينتهي القتال ويرحل الصليبيون عن المدينة، ثم يعيدها إليه، وأرسل في الوقت نفسه يُنذر الصليبيين بفك الحصار عن دمشق والرحيل عنها[1].

ويبدو أن هذا الشرط كان ثقيلاً على أنر، وهو يعلم جيداً نيَّة الأخوين، ويُدرك أنه إذا دخلت جنودهما قلعة دمشق مرة فلن يتركوها للأبد، فعمل على التخلص من هذا الموقف الحرج الذي فرضه عليه الصليبيون من دون الاستعانة بقوات الموصل وقبول شرط غازي الأول، فاستخدمه ورقة ضغط ليرغمهم على الرحيل عن دمشق، فأرسل يقول لهم: «إن ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلَّمت البلد إليه، وحينئذ تندمون»[2].

ودبَّ في هذه الأثناء النزاع بين الصليبيين المحليين والصليبيين الوافدين حول الفوز بالغنيمة، وانقسموا على أنفسهم وهم في ذلك الموقف الحرج أمام دمشق. فقد طمع أمراء بيت المقدس في أن تصبح دمشق بعد الاستيلاء عليها تابعة لمملكتهم، وعارضهما لويس السابع وكونراد الثالث اللذان طمعا بالفوز بدمشق ليقيما فيها إمارة صليبية جديدة مستقلة، فاستغل أنر هذه الخلافات، فعمل على تعميقها، ثم بذل الرشاوى للصليبيين المحليين ووعدهم بدفع الجزية، ولعله أخطرهم بأنهم متى تراجعوا فسوف يتخلَّى عن التحالف مع الزنكيين[3].

وإذ كان الجيش الصليبي في وضع حرج أمام دمشق، ولم يتوقَّع قدوم إمدادات، في حين لن تمر أيام قليلة حتى يدخل الجيش الزنكي إلى ساحة المعركة ويحل الدمار بكل الجيش الصليبي، وستنتقل دمشق إلى حوزة نور الدين محمود العدو الرئيس، ما حملهم على فك الحصار والرحيل عن دمشق يوم الأربعاء (٩ ربيع الأول/ ٢٨ تموز)[4].

وطارد المسلمون الصليبيين أثناء انسحابهم، وقد ضاقوا ذرعاً بمرارة الفشل وحرارة الجو وقِلَّة الماء، وأخذ الصليبيون الوافدون يتبادلون التهم مع نبلاء مملكة

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١٥٩. (٢) المصدر نفسه.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢، ص٧٨٨. رنسيمان: جـ٢ ص٤٥٦.

(٤) الصوري، وليم: المصدر نفسه.

بيت المقدس، ولم يلبث كونراد الثالث أن أبحر من عكا عائداً إلى أوروبا في (٢٢ ربيع الآخر/٨ أيلول)، في حين بقي لويس السابع ستة أشهر أخرى.

تعقيب على فشل الحملة الصليبية الثانية

- قدمت الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق لإنقاذ إمارة الرها ومساعدة الصليبيين في تدعيم إماراتهم ضد نفوذ الزنكيين المتصاعد، ولكن إخفاقها أمام دمشق وعجزها عن تحقيق أي من أهدافها أدَّى إلى نتائج عكسية، فتراجعت هيبة الصليبيين ومكانتهم في بلاد الشام، وانتعش في المقابل الجانب الإسلامي، فازداد نفوذ المسلمين وارتفعت روحهم المعنوية.

- قضى هذا الإخفاق على كل أمل في اعتماد الصليبيين في الشرق على أوروبا لإمدادهم بالعون والمساعدة في المستقبل، بعد أن فقدوا ثقتهم بأولئك الغربيين الذين لا يحسنون التصرف في الشرق.

- ظل المسلمون منذ عام (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) يخشون قدوم جيوش صليبية جديدة من الغرب الأوروبي تنتزع منهم أراضيهم في حلب ودمشق وغيرهما، فلما تعرَّضت الحملة الصليبية الثانية للإخفاق أمام دمشق، أدركوا أنهم كانوا يخشون أوهاماً، وأن الصليبيين أضعف من أن يقوموا بجهد جدِّي ضدهم.

- شكَّل فشل الحملة الصليبية الثانية انعطافة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية، وفي تاريخ المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى.

- أضاع الصليبيون فرصة نادرة طالما حلموا بها بسبب عدم الثقة بين الصليبيين المحليين والصليبيين القادمين، وتفضيل أولئك المصالح الخاصة على المصالح الصليبية العليا، ذلك أن ملك بيت المقدس أخذ يُفكِّر بمصلحته، فخشي إن استولى الصليبيون الوافدون على دمشق، فإنهم سوف يصبحون أقوياء وربما طمعوا في بلاده، فأرسل إلى رجال الحامية يسألهم عن الثمن لفك الحصار عن دمشق.

- إن ما حدث من إجبار جيش بهذه الضخامة على التخلي عن تحقيق هدفه، ولم ينقضِ على نشوب القتال سوى بضعة أيام، يُعدُّ ضربة قاسمة لسمعة المسيحيين وكرامتهم، فتبدَّد بذلك ما كان سائداً في الأوساط الأوروبية الغربية من أن الصليبيين لا يُقهرون.

- إن النتائج الضحلة، إذا ما تحقَّقت فعلاً، لحملة صليبية بدأت بمثل تلك الآمال والحماس وأُقيمت على مثل هذه القاعدة العريضة؛ شكَّلت خيبة أمل كبيرة، فراح الصليبيون يبحثون عن أسباب هذا الفشل التي تأرجحت بين التعليلات العقلانية مثل: عداء البيزنطيين والأتراك، وصعوبة الطرق، وخيانة أمراء الشمال الصليبيين، وبخاصة أمير أنطاكية الذي عمل على إحباط المشروع وإجبار لويس السابع على

التخلي عنه ليعود خالي الوفاض، وخيانة المنظمتين الدينيتين الأسبتارية والداوية اللتين اشتركتا في الحملة، وكذلك خيانة إيلي ناندوس صاحب طبرية، وبين التعليلات الماورائية مثل: ذنب الإنسان، ومشيئة الله.

ـ يبدو أن كل ما أنجزته هذه الحملة كان سلبياً، فقد اهتزت العلاقات بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين في الشرق حتى أوشكت على القطيعة، وبذرت الشكوك بين الصليبيين الوافدين حديثاً إلى الشرق وبين الصليبيين القاطنين في ربوعه، وأوقعت التنافر بين الأمراء الصليبيين الغربيين، فعزلت كلاً منهم عن الآخر، وأتاحت للمسلمين أن يزدادوا تقارباً، وأضرَّت بما اشتهر به الصليبيون من الشجاعة والإقدام في القتال.

ـ لم تُعلَّق آمال على حملة عسكرية قامت في العصور الوسطى الأوروبية مثلما عُلِّق على هذه الحملة، ولم تنته بمثل ما انتهت إليه من الإخفاق الذريع بعد كل الذي هُيِّئ لها من أسباب النجاح، إذ وضع البابا خطتها ودعا إليها وأوحى بها برنارد رئيس دير كليرفو بما اشتهر به من فصاحة، وقادها أعظم ملكين في غربي أوروبا، وكانت تُبشِّر بمجد العالم المسيحي وخلاصه.

ـ دعا الملك بلدوين الثالث بعد عودة الحملة إلى فلسطين إلى اجتماع عام لجميع النبلاء، وعرض القيام بعمل جديد يجلب لهم المنفعة والفخار في أعين الناس، فاقترح بعض المشاركين في الاجتماع مهاجمة عسقلان، معتقدين بأنها مهمة سهولة ولا تحتاج إلى وقت طويل، لكن رُفض الاقتراح كما رُفضت اقتراحات أخرى بديلة.

ـ شجَّع إخفاق الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق المسلمين، فقاموا بغارات على ما جاورهم من أملاك الصليبيين لاسترداد ما سبق أن استولى عليه هؤلاء.

ـ إن إنقاذ دمشق من الخطر الصليبي كان ثمرة التحالف الإسلامي الذي تحقَّق آنذاك بين دمشق وحلب والموصل، وإن الدور الذي شغله نور الدين محمود في حماية دمشق والدفاع عنها كان تمهيداً لسياسته التي استهدفت ضمَّ دمشق إلى حلب، مدركاً في الوقت نفسه أن وحدة بلاد الشام لا تكتمل إلا بضمِّ دمشق إليها، وأن بقاءها خارج دائرة الوحدة يُفرغها من مضمونها ويُشكِّل فراغاً وخطراً على بلاد الشام، ولهذا أخذ يسعى إلى ضمِّ دمشق.

النتائج الفورية لإخفاق الحملة الصليبية الثانية

تدمير حصن العُريمة[1]: توجَّه أنر بعد رحيل الصليبيين عن دمشق إلى بعلبك،

(١) العُريمة: أحد حصون الساحل الشامي، يربض فوق جرف يتاخم السهل العريض الذي يجتازه النهر الكبير ويتحكم بمدخل وادي الأبرش.

وأرسل إلى نور الدين محمود، الذي كان مجتمعاً مع أخيه غازي الأول في حمص، يطلب منه أن يحضر إليه للتباحث بشأن مزيد من التعاون[١]. استجاب نور الدين محمود لهذا النداء وتوجَّه إلى بعلبك واجتمع بأنر. ووصل إليهما في غضون ذلك كتاب من ريموند الثاني أمير طرابلس يحثهما على مهاجمة حصن العُريمة وانتزاعه من برتراند الصغير كونت تولوز بن ألفونسو، وهو أمير صليبي وحفيد ريموند كونت تولوز، وقد ادعى السيطرة على إمارة طرابلس في أثناء الحملة الصليبية الثانية[٢].

والواقع أن برتراند هذا جاء مع الحملة الصليبية الثانية وبقي في الشرق بهدف انتزاع إمارة طرابلس من ابن عمه ريموند الثاني، وهو يرتاب في أنه هو الذي قتل أباه، فاستولى على حصن العُريمة الذي يتحكم في الطريق الممتد من طرابلس إلى أنطرطوس، وفي الطريق الذي يتوجَّه من طرابلس إلى داخل البلاد، إلى البقيعة، وتصدَّى للعساكر الذين أرسلهم ريموند الثاني من طرابلس لطرده. التمس ريموند الثاني المساعدة من الأمراء الصليبيين إلا أن أحداً لم ينجده، عندئذ أرسل إلى أنر يطلب منه المساعدة.

لم يتردد أنر في اغتنام هذه الفرصة، فأسرع إلى الحصن برفقة نور الدين محمود، وأرسل إلى أخيه غازي الأول في حمص ليمده بالعساكر، فأرسل إليه قوة عسكرية بقيادة عز الدين أبي بكر الدبيسي، وتمكَّن المسلمون من فتح الحصن، فدمَّروه وأسروا من كان فيه، بمن فيهم برتراند نفسه[٣].

نور الدين محمود يهاجم إمارة أنطاكية

معركة يغرى: التفت نور الدين محمود، عقب فشل الحملة الصليبية الثانية، إلى إمارة أنطاكية لفتح معاقلها، وكان أميرها ريموند بواتييه على حق عندما حثَّ قادة الحملة المذكورة على مهاجمة حلب بوصفها مصدر الخطر الحقيقي على الصليبيين في شمالي بلاد الشام، والمعروف أن كلّاً من ريموند بواتييه وجوسلين الثاني لم يساند الصليبيين أثناء حصارهم دمشق، ويبدو أنهما تذرَّعاً بأن ليس بوسعهما ترك بلادهما مكشوفة أمام هجمات نور الدين محمود.

وحدث أثناء حصار دمشق أن خرجت قوة إسلامية من حلب وأغارت على إمارة أنطاكية، فاستغل ريموند بواتييه غياب نور الدين محمود عن حلب وقرَّر الانقضاض

---

(١) Stevenson: p174.

(٢) ابن القلانسي: ص٤٦٦، ٤٦٧. ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٩٠ .Ibid

(٣) ابن الأثير: ص٩٠.

على المدينة، فجمع عساكره عند بحيرة العمق قرب حلب واستعان بالحشيشية الذين يكنُّون الكراهية لنور الدين محمود.

كان نور الدين محمود آنذاك يهاجم حصن العُريمة، فتوجَّه بعد فراغه من منازلة الحصن لملاقاة ريموند بواتييه وذلك في (جمادى الأولى ٥٤٣هـ/ أيلول ١١٤٨م). ودارت بين الطرفين رحى معركة قاسية عند مكان يُعرف بـ«يغرى» إلى الشمال الشرقي من بحيرة العمق انتهت بانتصار نور الدين محمود، وقتل المسلمون عدداً كبيراً من رجال ريموند بواتييه، ووقع آخرون في الأسر، وأرسل نور الدين محمود بعض الغنائم والأسرى إلى أخيه غازي الأول في الموصل وإلى الخليفة العباسي السلجوقي في بغداد[١].

معركة إنِّب[٢]: ودخل في هذه الأثناء السلطان السلجوقي مسعود صاحب قونية على الخط السياسي، وهو عازم على التوسع باتجاه كيليكية ووادي الفرات حتى يتسنى له الانفتاح على بلاد الشام وتأمين حصته من جراء تقطيع أوصال الأراضي الصليبية في إمارة الرها وغربي الفرات، وكان ابنه قلج أرسلان قد استغل الكارثة التي حلت بالصليبيين في الرها فهاجم الأراضي التي ما زالت تحت سيطرتهم[٣].

وقرَّر السلطان السلجوقي القيام بهجوم على مرعش، فتجهَّز ريموند بواتييه للقائه، فما كان منه إلا أن طلب من نور الدين محمود مهاجمة ممتلكاته حتى يُخفِّف الضغط عن قواته، فاستجاب نور الدين محمود لطلبه[٤].

وأثناء اجتياحه القرى التابعة لأنطاكية، قام علي بن وفا الكردي، زعيم الحشيشية في بلاد الشام وحليف ريموند بواتييه وعدو نور الدين محمود، بمهاجمة أفامية الواقعة على الطريق من أنطاكية إلى مرعش، فاضطر نور الدين محمود إلى الانسحاب[٥]، وبخاصة أنه قد دبَّ النزاع بين اثنين من كبار قادته، هما شيركوه الكردي وابن الداية أحد أعيان حلب، وقد رفض الأول أن يشترك في القتال، على أن نور الدين محمود أغار في (أواخر ٥٤٣هـ/ ربيع ١١٤٩م) على الإقليم المحيط بحارم على الضفة الشرقية لنهر العاصي، وطلب المساعدة من معين الدين أنر، فأمدَّه بقوة من فرسانه بقيادة مجاهد الدين بزان بن مامين[٦].

ورأى نور الدين محمود أن يترك حارم مكتفياً بتدمير ما حولها من قرى، وتوجَّه

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) إنِّب: حصن وكورة تجاه أنطاكية. الحموي: جـ١ ص٢٥٨.

(٣) ابن العبري: ص١٦٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن القلانسي: ص٤٧٠.

(٦) المصدر نفسه: ص٤٧٢.

جنوباً ليحاصر قلعة إنِّب على الضفة الشرقية لنهر العاصي قرب معرة النعمان، فخرج ريموند بواتييه وحلفاؤه الحشيشية للتصدي له، ووردت في غضون ذلك إشارة خاطئة إلى نور الدين محمود عن قوة ريموند بواتييه، فأحجم عن الزحف. والواقع أن الجيش الإسلامي المؤلف من ستة آلاف فارس كان يفوق في العدد جيش ريموند بواتييه البالغ أربعة آلاف فارس وراجل[1].

وقرَّر ريموند بواتييه أن يُرسل مدداً لحامية إنِّب فتناقض عدد أفراد جيشه، عندئذ أدرك نور الدين محمود ما أضحى عليه الجيش الأنطاكي من ضعف فزحف باتجاهه، وفي المنخفض قرب عين مراد في السهل الواقع بين إنِّب ومستنقع الغاب، جرى اللقاء في (صفر ٥٤٤هـ/ حزيران ١١٤٩م). ودارت بين الجانبين رحى معركة شديدة انتصر فيها المسلمون، وتعرَّض الجيش الصليبي للدمار، ولقي كل من رينولد حاكم مرعش وعلي بن وفا الكردي مصرعه، أما ريموند فلقي مصرعه بعد ذلك على يد شيركوه، وأرسل نور الدين محمود رأس ريموند بواتييه وذراعه اليمنى في صندوق من الفضة هدية للخليفة العباسي في بغداد[2].

ويُصوِّر لنا المؤرخون مدى فرح المسلمين بمقتل ريموند بواتييه، فذكر ابن القلانسي أنه «. . . وُجد اللعين البلنس مقدمهم صريعاً بين حماته وأبطاله فعُرف وقُطع رأسه وحُمل إلى نور الدين، فوصل حامله بأحسن صلة. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعِظم الخلقة مع اشتهار الهيبة وكبر السطوة والتناهي في الشر. . .»[3] وذكر ابن الأثير: «. . . وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم. . .»[4]. وذكر وليم الصوري: «أن الحزن عمَّ الناس في كل مكان على مقتل ريموند ورينولد»[5].

ذيول معركة إنِّب: تُعدُّ معركة إنِّب وما أدَّت إليه من مقتل ريموند بواتييه، ثاني نكبة تحل بالإمارات الصليبية في بلاد الشام في مدى أعوام قلائل، ولم يعدل ألم الصليبيين بها سوى فرحة المسلمين، وزال عن مسرح الأحداث رجل من أشد خصوم المسلمين قوة وأكثرهم كراهية لهم.

خلَّف ريموند بواتييه وراءه أرملة هي الأميرة كونستانس وأربعة أطفال، وغدت

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٧٣. رنسيمان: جـ٢ ص٥٢٥.

(٢) ابن القلانسي: ص٤٧٣، ٤٧٤. ابن الأثير: جـ٩ ص١٧٠، ١٧١. الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٨٩ ـ ٧٩١.

(٣) تاريخ دمشق: ص٤٧٤.

(٤) الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١٧١.

(٥) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص٧٩١.

أنطاكية تحت حكمها بفعل حقها الشرعي، وقد حكمت باسم ولدها الصغير بوهيموند الثالث البالغ خمسة أعوام، غير أنه ساد الشعور داخل المدينة بأنه لا بد لأنطاكية في هذه الظروف الحرجة، أن يحكمها رجل، إذ لم يكن باستطاعة الأميرة، وهي امرأة في الثانية والعشرين من عمرها، أن تنهض بجميع شؤون الحكم والدفاع عن الإمارة أمام هجمات نور الدين محمود، فقام إيمري بطريرك أنطاكية بتولي إدارة الحكومة[١].

استغل نور الدين محمود هذه الأوضاع القلقة، فأغار على أراضي الإمارة لتتم له السيطرة على الوادي الأوسط لنهر العاصي، ففتح أرزجان وتل كشفان، وتغلَّب على حاميتي أرتاح وحارم في أقصى الشمال وفتحهما، وشحن هذه الأخيرة بالسلاح والميرة والعساكر لتكون قادرة على الصمود، ثم توجَّه نحو الغرب وظهر أمام أسوار أنطاكية، وامتدت غاراته حتى بلغت السويدية، ميناء أنطاكية الرئيس، فعرض عليه أهلها كل ما يمتلكون من أموال ومتاع مقابل ترك مدينتهم، فرفض ذلك، وترك فرقة من جيشه أمام المدينة لتبقي على حصارها والإقامة عليها ولمنع من يصل إليها، وانصرف إلى حصن أفامية[٢].

ويبدو أنه أدرك صعوبة فتح مدينة حصينة كأنطاكية بدون استعداد كاف، وبخاصة أنها ستتلقى نجدات سريعة من مملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس، لذلك فضَّل الانسحاب والإغارة على ما تبقَّى من معاقلها في شرقي نهر العاصي، مستغلاً فرصة الاضطراب الذي ساد أنطاكية عقب مقتل أميرها ريموند بواتييه[٣].

وعمد نور الدين محمود قبل انسحابه إلى عقد هدنة مع إيمري متولي الدفاع عن أنطاكية بعد أن وعده بتسليمه المدينة إذا لم يصل الملك بلدوين الثالث ليتسلَّمها[٤]، وقد هدف من وراء خطواته هذه ثلاثة أمور:

الأول: إنه نفر من محاولة حصار أنطاكية في الوقت الذي كان بوسعه فتح أفامية، آخر معقل لأنطاكية في وادي نهر العاصي.

الثاني: أراد أن يعرقل محاولة السلطان مسعود السلجوقي صاحب قونية الاستيلاء على تل باشر لأنه لم يُرد أن يرى معاقل جوسلين الثاني تنتقل إلى أيدي سلاجقة الروم الأقوياء، ويبدو أنه أراد ترتيب أوضاع البيت الإسلامي وفق خططه التي وضعها وراح يُنفِّذها، بالإضافة إلى ذلك، فإنه كان قد عقد هدنة قصيرة الأجل مع جوسلين الثاني بناء على طلبه.

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٩٢.
(٢) المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص٤٧٤، ٤٧٥.
(٣) الصوري، وليم: المصدر نفسه. (٤) ابن القلانسي: ص٤٧٤.

الثالث: إن تهديده لأنطاكية من شأنه أن يُهيئ للدولة البيزنطية ذريعة للتدخل في شؤون الإمارة، وهو ما لا يحبه مطلقاً، فجوار الصليبيين أحب إليه من مجاورة ملك القسطنطينية[١].

أسرع الملك بلدوين الثالث، ابن خالة الأميرة كونستانس، في التوجه إلى أنطاكية لدى سماعه بنبأ الكارثة التي حلَّت بها، والتزم بمعالجة الموقف بوصفه أدنى الأقرباء الذكور للأميرة الحاكمة، وهو أحق بالوصاية على العرش، فلقي تدخله قبولاً حسناً من جميع الناس، غير أن المتاعب في الجنوب حالت دون تحقيق رغبته في المضي في تحمل مسؤولية حكم أنطاكية.

وهاجم نور الدين محمود أفامية في (ربيع الأول ٥٤٤هـ/ تموز ١١٤٩م) وهي من أمنع المعاقل الصليبية على نهر العاصي، كما كانت مصدر خطر على الإمارات الإسلامية المجاورة لا سيما شيزر وحماة، وعهد إلى الأمير صلاح الدين الأيوبي بمواصلة الحصار والتصدي لأي قوة صليبية خارجية تتدخل لفك الحصار عنها.

وفَقَدَ سكان أفامية الأمل في الانتصار أو في وصول نجدة لمساعدتهم، وبخاصة حين تناهى إلى سمعهم ما حاق بأنطاكية، فلم يلبثوا أن طلبوا الأمان فمُنحوا إياه وسلَّموا البلد، فعيَّن عليها نور الدين محمود حاكماً من قِبله وترك فيها حامية عسكرية[٢]. وحاول الملك بلدوين الثالث إنقاذ الحصن من السقوط في أيدي المسلمين لكنه وصل بعد فوات الأوان وقد تمكَّن نور الدين محمود منه وملأه ذخائر[٣].

وبذلك يكون نور الدين محمود قد نجح في فتح جميع ممتلكات إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي، واكتفى بما حقَّقه من مكاسب في هذه المرحلة، فاستدعى قواته التي تركها أمام أنطاكية. لا شك بأن تلك الانتصارات التي حقَّقها في هذه المرحلة المبكرة من حياته السياسية تُعدُّ نقطة تحول مهمة في إدراكه لرسالته وفي تاريخ المسلمين في بلاد الشام، فقد أضحى في نظر المسلمين بطل الإسلام والمدافع عن حوزته.

وحدث أن توفي كل من معين الدين أنر المهيمن على مقدرات دمشق في (ربيع الآخر ٥٤٤هـ/ آب ١١٤٩م) وسيف الدين غازي الأول صاحب الموصل في (جمادى الأولى/ أيلول)، فاضطر نور الدين محمود إلى مغادرة منطقة شمالي الشام لينصرف إلى معالجة الأوضاع التي استجدت على أثر وفاة هذين الحاكمَيْن، وحتى لا يُطعن

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٨٧. (٢) ابن القلانسي: ص٤٧٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١٧٦.

من الخلف، عقد هدنة مع إيمري تقرَّر بموجبها أن يحتفظ بالبلاد المجاورة لإمارة حلب، ويحتفظ إيمري بالبلاد المجاورة لإمارة أنطاكية[١].

تصفية إمارة الرها الصليبية

التدخل الزنكي ـ الأرتقي والسلجوقي: تغيَّرت صورة الوضع السياسي في بلاد الشام بعد فشل الحملة الصليبية الثانية في تحقيق أهداف الصليبيين، وقرار نور الدين محمود في التصدي لهم، وفي الوقت الذي فشلت فيه هذه الحملة، كان جوسلين الثاني أمير الرها لا يزال قابعاً في تل باشر يُشرف على بقية المعاقل التابعة لإمارته، وهي سميساط وقلعة الروم ودلوك والراوندان وقورس، ثم مرعش وعزاز الواقعتين في الشمال على حدود إمارة أنطاكية[٢].

والواضح أن الصليبيين على الرغم من وجود جوسلين الثاني، افتقروا بعد مقتل ريموند بواتييه أمير أنطاكية إلى رجل قوي يقودهم ويتولى الدفاع عن مصالحهم في الأطراف الشمالية من العراق وبلاد الشام، لأن حاكم الرها لم يكن على مستوى الأحداث، فلم يستطع النهوض بذلك العبء لما عُرف عنه من حب الترف والدعة، وبدلاً من أن يقوم هذا الرجل باسترداد ممتلكاته التي خسرها مؤخراً، أخذ يغير على أحد الأديرة الواقعة عند أطراف نهر الفرات[٣].

أتاح هذا الفراغ القيادي في الجبهة الصليبية للأطراف الإسلامية، الأراتقة والزنكيين وسلاجقة الروم، تصفية إمارة الرها. وقد تمكَّن الأراتقة خلال هذه المرحلة من استعادة بعض المواقع الصليبية القريبة من إماراتهم مستغلين ضعف المعاقل الباقية من إمارة الرها نتيجة الضربات التي تلقَّتها من نور الدين محمود ومن السلطان مسعود صاحب قونية.

نهض نور الدين محمود، بعد مقتل ريموند بواتييه وفشله في فتح أنطاكية، لمشاركة القوى الإسلامية الأرتقية والسلجوقية بفتح ما تبقَّى من إمارة الرها وبخاصة المعاقل الواقعة شرقي نهر العاصي. وكان جوسلين الثاني قد استغل مصرع صهره رينولد حاكم مرعش ليستولي على المدينة عازماً على أن يظفر بشيء من حطامها ويرث أميرها المقتول في بعض ممتلكاته، فزحف إليها ودخلها، غير أنه لم يلبث أن انسحب منها عندما اقترب مسعود سلطان سلاجقة الروم، ولم يجد هذا صعوبة في فتحها. وأعلنت الحامية التي خلَّفها جوسلين الثاني ولاءها للسلاجقة بعد أن حصلت

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١٦٦، ١٦٧، ١٧٤. (٢) Grousset: II p284.

(٣) Michel le Syrien: III pp283, 284.

على وعد من السلطان بالإبقاء على حياة أفرادها، بالإضافة إلى حياة المسيحيين داخل المدينة، ثم طارد السلطان مسعود جوسلين الثاني حتى أطراف تل باشر وهزم القوات الصليبية التي اعترضته، وفتح قلاعاً عدة مثل عينتاب ودلوك، وضرب الحصار على تل باشر(١).

ويبدو أنه تعرَّض لضغط إسلامي، فرأى من حسن السياسة أن يتوقف عن المطاردة وينسحب من المنطقة بعد أن تبين له أن إمدادات مسيحية أخذت تقترب، وأن نور الدين محمود توقف عن مواصلة تقدمه لأنه لم يشأ أن تقع بلاد جوسلين الثاني في أيدي السلاجقة، في الوقت الذي كان حريصاً على أن يستحوذ على كامل إمارة الرها، بالإضافة إلى ذلك، فإنه خشي من استمرار التوسع الأرتقي على امتداد نهر الفرات حيث قام قرا أرسلان بمهاجمة الأجزاء الشمالية من إمارة الرها.

نتيجة هذا التطور السياسي والعسكري، تدخَّل نور الدين محمود بين السلطان مسعود وجوسلين الثاني لعقد صلح بينهما، وأطلق الثاني بموجبه كل ما لديه من أسرى المسلمين كما قدَّم له اثنتي عشرة حلة عسكرية(٢).

وفي عام (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) دبَّ النزاع بين نور الدين محمود وجوسلين الثاني، وتمكَّن الأول من إلقاء القبض على الثاني وأسره، كما سنرى، فاستغل السلطان مسعود اختفاءه عن المسرح السياسي تاركاً ما تبقَّى من إمارة الرها من دون مدافع، فقام باجتياح أراضي كيسوم وبهسنا ورعبان الواقعة شمالي إمارة الرها في (صفر/ حزيران) وأقطعها لابنه قلج أرسلان، ولم يُبدِ سكان هذه البقاع أي مقاومة، وخرج من رغب منهم لاجئاً إلى عينتاب وتل باشر، وكانت هذه الأخيرة بإمرة جوسلين الثالث ابن أمير الرها(٣). عندئذ أسرع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس إلى الشمال لتدارك الموقف، فوصل إلى أنطاكية، وبعد تقييمه للوضعين السياسي العسكري، أدرك أن قوة الصليبيين في بلاد الشام لا تكفي لمواجهة الأخطار المحدقة بها من جانب المسلمين، فقرَّر الاستعانة بالامبراطور البيزنطي مانويل كومنين(٤).

جوسلين الثاني يقع في أسر المسلمين: وقع الشقاق بين نور الدين محمود وجوسلين الثاني في شتاء (٥٤٤هـ/ ١١٥٠م)، فجمع نور الدين محمود عساكره وتوجَّه إلى شمال حلب لقتاله وانتزاع بعض القلاع منه وبخاصة تل باشر وعينتاب وعزاز، فلما علم جوسلين الثاني بذلك خرج على رأس قوة عسكرية، فاصطدم به وتغلَّب عليه(٥).

---

(١) Grégoire le Prêtre: Chronique: p162.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٩٣.

(٣) Michel le Syrien: III p296.

(٤) الصوري، وليم: المصدر نفسه.

(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص١٨٠.

وحدث في (ذي الحجة/ نيسان) عندما كان جوسلين الثاني متوجهاً إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها أن ابتعد عن حرسه، فوقع في كمين بعض التركمان، فقبضوا عليه وأسروه، وأعرب هؤلاء عن استعدادهم لإطلاق سراحه مقابل دفع جزية ثقيلة. ولما بلغ نور الدين محمود هذا الخبر أرسل قوة عسكرية من الفرسان انتزعته من أيديهم في (٥ محرم ٥٤٥هـ/ ٤ أيار ١١٥٠م)، وأمر بسجنه في حلب بعد أن سمل عينيه، ومات في سجنه بعد تسع سنوات[١].

وأبدى المؤرخون المسلمون فرحهم بأسره لأنه كان «أشد الفرنج شجاعة، وأقواهم بأساً، وأصحَّهم رأياً، وأعظمهم مكيدة»[٢]، «وكان أسره من أعظم الفتوح، لأنه كان شيطاناً عاتياً، شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره»[٣].

انعكاس وقوع جوسلين الثاني في أسر المسلمين: ترك جوسلين الثاني بعد أسره ما تبقَّى من حطام إمارة الرها من دون مدافع، وبدا واضحاً أن زوجته بياتريس لم يكن بوسعها أن تستمر في الصمود، كما لم يكن بوسع الصليبيين بعامة القيام بأي عمل جدِّي لمساعدتها بعد أن عزلت فتوح نور الدين محمود والأمراء المسلمين من الأراتقة والسلاجقة المنطقة عن أنطاكية.

لم يكن الامبراطور البيزنطي مانويل بعيداً عن تتبع سير الأحداث المتعلقة بشمالي بلاد الشام، وإذ تهيأت الفرصة للكونتيسة للتخلي عن ممتلكاتها جاءت رسالة من الامبراطور تتضمن عرضاً بشراء ما تبقَّى من إمارة الرها، وهي تل باشر وسميساط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعينتاب والراوندان، فضلاً عن حقوقها في الأماكن الأخرى التي كانت تابعة لإمارة الرها والتي فتحها المسلمون مؤخراً، ظناً منه أن هذه الأماكن ستمكِّنه من استرداد النفوذ البيزنطي القديم في تلك المناطق الشرقية.

ورأت الكونتيسة بياتريس أنه لا بد أن ترفع طلب الامبراطور إلى الملك بلدوين الثالث الذي كان آنذاك في أنطاكية، وقد حضر المؤرخ وليم الصوري جلسة مناقشة هذه القضية وترك لنا صورة حيَّة عنها، وكلامه كافٍ لإيضاح الاختلاف في وجهات النظر، فقد انقسم المجتمعون إلى فريقين:

رفض الأول قبول تنفيذ الصفقة، وكان مدفوعاً بالعاطفة الدينية وحجته في ذلك أن اتحاد الأمراء الصليبيين في بلاد الشام كافٍ لإجلاء المسلمين عن الأماكن التي استردوها.

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٨١. ابن الأثير: جـ٩ ص١٨٠، ١٨١، ويجعل حادثة الأسر في عام ٥٤٦هـ. ابن العبري: ص١٦٥. الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٩٣.

(٢) ابن واصل: جـ١ ص١٢٣.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص١٨١.

ووافق الثاني على قبول تنفيذ الصفقة، وحجته في ذلك أن امتلاك البيزنطيين لهذه الأراضي أفضل من وقوعها في أيدي المسلمين، بعد أن أدرك أفراده هدف كل من نور الدين محمود والسلطان مسعود من كثرة فتوحهما، كما أملوا بوقوع احتكاك بين المسلمين والبيزنطيين ما يؤدي إلى إضعاف قوتيهما وإنقاذ الإمارات الصليبية على حسابهما، أما إذا ضاعت هذه الأراضي فتقع المسؤولية على الامبراطور أمام الرأي العام المسيحي.

وانتصر أخيراً رأي الفريق الثاني. وهكذا تسلَّم الامبراطور مانويل تل باشر والراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك والبيرة، واحتفظت الكونيسة بياتريس بقلعة الروم على نهر الفرات قرب سميساط ومنحتها للجاثليق الأرمني ليتخذها مقراً له[(١)].

أدرك الامبراطور مانويل بعد قليل من الوقت أن هذا الحصون ثقيلة العبء وتحتاج إلى جهد كبير للمحافظة عليها والاحتفاظ بها، نظراً لبُعدها عن مركز الامبراطورية من جهة ولوقوعها وسط أراضٍ يسيطر عليها المسلمون من جهة أخرى، هذا في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية تعاني تهديداً مستمراً من جانب النورمان في صقلية، ما جعلها عاجزة عن الاهتمام بهذه الأطراف الشرقية.

استغل المسلمون تدهور الأوضاع السياسية في المنطقة وراحوا يُهاجمون الحصون المذكورة. فهاجم السلطان مسعود تل باشر وحاصرها، واتصل أثناء ذلك بنور الدين محمود وعرض عليه التحالف بينهما، وثبَّت هذا التحالف زواج نور الدين محمود من ابنة السلطان مسعود، ولم يكن المهر سوى تل باشر[(٢)]، ودخل حسام الدين تمرتاش الأرتقي أمير ماردين في هذا التحالف.

وأخذت الجيوش الإسلامية تزيد من ضغطها على المدينة، غير أن ما أعدته الكونتيسة بياتريس من الدفاع عنها بلغ من القوة ما دفع المسلمين إلى الانسحاب، غير أن نور الدين محمود نجح في فتح عزاز التابعة لإمارة أنطاكية في (ربيع الأول/ تموز) كما نجح السلطان مسعود في فتح مرعش، ثم اشترك الزعيمان في عام (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) في مهاجمة الحاميات البيزنطية في الحصون المتبقية، وهرع الأراتقة لينالوا نصيبهم منها، فسقطت كلها في أيدي المسلمين في عمليات متتالية، وتمَّ تقسيم الغنيمة على الشكل التالي:

أخذ نور الدين محمود عزاز وراوندان وتل باشر، وكان من نصيب السلطان مسعود مرعش ورعبان وكيسوم ودلوك وبيت الحصن وعينتاب، في حين نال تمرتاش

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٠٠، ٨٠١. Michel le Syrien: III pp296, 297.

(٢) أبو شامة: جـ١ ص١٨٤.

سميساط والبيرة وكفرسوت، وغنم قرا أرسلان الأرتقي، صاحب حصن كيفا وخرتبرت، بابولا وكركر وكاختي وحصن منصور[1].

وبذلك زالت إمارة الرها الصليبية من الوجود، وعادت أراضيها إلى السيادة الإسلامية، الأمر الذي هيَّأ لنور الدين محمود فرصة التدخل في أمور دمشق والعمل على ضمِّها إلى الجبهة الإسلامية المتحدة.

(١) ابن القلانسي: ص٤٨١. ابن العبري: ص١٦٤، ١٦٥. الصوري، وليم: جـ٢ ص٣٢٦، ٣٣٦ - ٣٣٩. Michel le Syrien: III pp294, 295.

الفصل الخامس عشر

تحقيق وحدة بلاد الشام الإسلامية

المشكلات التي واجهت الملك بلدوين الثالث في بداية حياته السياسية

مشكلة الحكم في بيت المقدس: لم تسمح الظروف السياسية المستجدة في مملكة بيت المقدس للملك بلدوين الثالث البقاء مدة طويلة في الشمال، فقد واجهت مملكته بعض المشكلات التي تطلَّبت حضوره. فالحكم المشترك مع أمه ميليسند قد أزعجه وبخاصة أنه تجاوز الثانية والعشرين من عمره ومع ذلك رفضت والدته أن تتنازل له عن الوصاية، واشتد إحساسها بحقها في وراثة الحكم، إلا أنها اضطرت تحت ضغط الرأي العام إلى الموافقة على تتويجه ملكاً رشيداً يوم أحد القيامة في (٢١ ذي الحجة ٥٤٦هـ/ آذار ١١٥٢م)، ويبدو أنه عزَّ عليها أن تتخلّى عن سلطانها الذي مارسته سنوات مديدة فاتفقت مع البطريرك فولشر على أن يُتوِّجها من جديد إلى جانب ابنها بلدوين الثالث حتى يتجلّى الاعتراف باشتراكها في الحكم ومقاسمته السلطة، غير أن بلدوين الثالث أرجأ موعد التتويج، حتى إذا مضت بضعة أيام وسكنت ريبة الملكة، دخل بلدوين الثالث يوم الثلاثاء إلى كنيسة القيامة وأجبر البطريرك على أن يُتوِّجه بمفرده، الأمر الذي أغضب البطريرك.

كان ذلك إيذاناً بالقطيعة الواضحة، إذ كان للملكة أنصار عديدون منهم مناسيس هييرج رئيس الحرس وروهارد نائب كونت القدس، وحظيت بمساندة نابلس وتأييد الأمير ألينار صاحب الجليل الذي ضمن لها تأييد أصهاره آل إبلين الذين تولوا السيطرة على الرملة، وكان بوسعها الاعتماد على الكنيسة.

وكان بلدوين الثالث قد بنى قاعدة قوية في أراضي التاج الشمالية حول صور وعكا، وسانده همفري صاحب تبنين ووليم فولكنبيرغ اللذان تقع ضياعهما في الجليل، غير أن وضعه يبعث على اليأس، فعندما اضطر أن يتوجَّه إلى أنطاكية إثر وقوع جوسلين الثاني في الأسر في (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م)، لم يقبل إلا عدد قليل من النبلاء أن يشتركوا في حملة لم ترض عنها الملكة، وعلى الرغم من أنه كان يملك عكا إلا أنه تُرك من دون تأييد، وتشكَّلت حاشيته من أعضاء كنيسته، وأسقف مطرود، وأحد فرسان الداوية، وأمير الجليل الذي كان يكافح من أجل الحصول

على إمارته، وأحد الإقطاعيين المغمورين، إلا أنه كان يلقى إلى جانب ذلك تأييد بيروت، ويتمثل هذا الرفض من غالبية النبلاء بالإضافة إلى الملكة في منع الملك من ممارسة حقه الطبيعي بوصفه حامي الدويلات الصليبية. وانقسمت الإدارة نتيجة الانقسام السياسي، فكان لكل طرف موظفوه وكتبته وجنده وميزانيته المالية.

لم يجرؤ الملك بلدوين الثالث أن يستخدم القوة لإخضاع معارضيه، لذلك دعا مجلس المملكة إلى الاجتماع للفصل في هذه المشكلة ودافع أمامه عن وجهة نظره، وبفضل نفوذ رجال الدين كان عليه أن يقبل حلاً وسطاً بأن تتالف مملكته من الجليل والشطر الشمالي والأطراف الساحلية مثل صور وعكا وتوابعهما، على أن تحتفظ الملكة ميليسند لنفسها ببيت المقدس ذاتها ونابلس وتوابعهما ويافا.

رفض الملك بلدوين الثالث هذا الحل، ولم تمض أشهر قليلة حتى طلب من والدته التخلي له عن بيت المقدس، إذ ليس بوسعه الدفاع عن المملكة ما لم تكن بيت المقدس بحوزته.

إن تقسيم الدولة كان وصمة عار في جبين الصليبيين على الرغم من أنه لم يستمر أكثر من ثلاثة أسابيع، فبفضل ما جرى من ازدياد نفوذ نور الدين محمود وتشكيله خطراً جدياً على الإمارات الصليبية، أخذ أنصار الملكة ينفضُّون من حولها ويتخلون عن مساعدتها، ومع ذلك أصرَّت على موقفها التقسيمي، وشرعت في تحصين بيت المقدس ونابلس لمواجهة ابنها، وجرى قتال بين الطرفين، فشنَّ جند الملك هجوماً فجائياً على مناسيس وأسروه في قلعة ميرابل (كفر سلَّام) على حافة السهل الساحلي، وأُجبر على مغادرة الشرق حفاظاً على حياته، واستسلمت بيت المقدس للملك، وتحصَّنت الملكة وراء أسوارها بعد أن تخلَّى عنها النبلاء، ولم يستمر في مساندتها سوى البطريرك فولشر، غير أن سكان المدينة خرجوا على طاعتها وأجبروها على الاستسلام، فسلَّمت المدينة إلى ابنها وانسحبت من العمل السياسي واحتفظت برعايتها للكنيسة. وعيَّن الملك بلدوين الثالث صديقه همفري سيد تبنين رئيساً لحرسه مكان مناسيس، وانفرد من الآن وصاعداً بتصريف الأمور السياسية، إلا أن الحرب الأهلية لم تدع شيئاً يُبشِّر بالخير في المستقبل، وتراجع تأثير الملك على طبقة النبلاء الإقطاعيين(١).

المشكلة الأسرية في طرابلس: خلال السنوات التالية لاستعادة الملك بلدوين الثالث لكامل المسؤولية الملكية، وكما جرت عادة ملوك بيت المقدس، كان على الملك الصليبي بوصفه سيداً أعلى على الصليبيين بعامة أن يتوجَّه بعد تتويجه نحو

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذا النزاع: الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٩٦ ـ ٧٩٩.

الشمال ليحل مشكلة أسرية بين ريموند الثاني أمير طرابلس وبين زوجته هوديرنا، أخت ميليسند، ويبدو أن الأمير لم يكن سعيداً في حياته الزوجية، وبلغت العلاقة بينه وبين زوجته درجة من السوء في عام (٥٤٤هـ/ ١١٥٠م) استوجبت تدخُّله وتدخُّل والدته لإعادة الوفاق بينهما. والواقع أن نصائحهما لاقت قبولاً لدى الزوجين، غير أن ميليسند رأت أن تنعم أختها بشيء من الراحة بعيداً عن طرابلس، فاصطحبتها لتقيم معها في نابلس، في حين ظل الملك بلدوين الثالث بعض الوقت في طرابلس بسبب تردد الشائعات بأن نور الدين محمود يستعد لمهاجمتها.

ورافق ريموند الثاني زوجته وأختها نحو ميل، وبينما كان يجتاز عند عودته المدخل الجنوبي لطرابلس، هجم عليه جماعة من الحشيشية واغتالوه، ولقي اثنان من مرافقيه مصرعهما، وعجز حرسه عن القبض على الجناة، وانتقم رجال الحامية من المسلمين، فقد تدفقوا إلى الشارع يقتلون كل من يشاهدونه منهم.

وجرى إنفاذ الرسل لإعادة الملكة وأختها هوديرنا التي ذرفت الدموع على زوجها القتيل، إلا أن أصابع الاتهام والشكوك لم تُعفها من التآمر على زوجها. وقد ترك ريموند الثاني ابناً صغيراً هو ريموند الثالث وكان في الحادية عشرة من عمره، فقام الملك بتنظيم شؤون الوصية عليه، وكان من الطبيعي أن تُسند إلى والدته هوديرنا.

استغل نور الدين محمود فرصة الخلافات والفوضى التي عمَّت طرابلس بعد مقتل أميرها، فأغار على أنطرطوس ودخلها، فمكث فيها مدة ثم غادرها مضطراً، فمنحها الملك إلى الفرسان الداوية للدفاع عنها[١].

المشكلة الأنطاكية: في الوقت الذي كان فيه الملك بلدوين الثالث في طرابلس، تعرَّضت أنطاكية لضغط بيزنطي، فقد سعى الامبراطور مانويل إلى توسيع سلطته في الجنوب، وكذلك كانت الإمارة تتعرَّض لهجمات نور الدين محمود، وكان الملك الصليبي يتحمل مسؤوليته في حكم أنطاكية بوصفه سيداً أعلى للصليبيين في الشرق، غير أن متاعبه في الجنوب، وبخاصة مع الفاطميين، حال دون استطاعته المضي في تحمل المسؤولية، وبالتالي كان لا بد لأنطاكية من أن يحكمها رجل يمكن الاعتماد عليه في الدفاع عنها، فألحَّ على الأميرة كونستانس، زوجة ريموند بواتييه المتوفى، أن تختار زوجاً واقترح عليها ثلاثة فرسان كي تختار واحداً منهم هم: إيفز نِسْل كونت سواسون، وهو نبيل فرنسي ثري قدم إلى الشرق عقب الحملة الصليبية الثانية، ووالتر فولكنبيرغ الذي ينتمي إلى أسرة سانت أومر، ورالف ميرل وهو نبيل لامع من نبلاء إمارة طرابلس، إلا أن كونستانس لم تقبل أياً من هؤلاء المرشحين، ورفضت

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٠٥.

الزواج حتى لا يسلبها أحد سلطانها بعد أن ذاقت حلاوة السلطة وحرصت على أن تظل ممسكة بزمام الأمور في إمارتها، وشجَّعها على ذلك بطريرك أنطاكية عموري (إيمري) دي ليموج الذي عارض مشروع الزواج آملاً في أن تطول مدة الوصاية التي ستعود عليه بسلطة كبيرة، ويظل متمتعاً بسلطانه الواسع تحت وصايتها[١].

ورأى الامبراطور البيزنطي مانويل في أوضاع أنطاكية، بعد مقتل أميرها ريموند بواتييه، فرصة طيبة للاستيلاء على الإمارة عن طريق المصاهرة بعد أن فشل عن طريق القوة، فوضع مشروعاً لتزويج كونستاس من حنا روجر أخي زوجته، غير أن الأميرة أصرَّت على موقفها الرافض من الزواج[٢].

وخلال الأسابيع الأولى من حصار الصليبيين لعسقلان، قرَّرت الأميرة كونستاس أن تتزوج، فاختارت رينولد شاتيون (أرناط) الفارس الذي وصل حديثاً إلى الشرق مع الحملة الصليبية الثانية ودخل في خدمة الملك بلدوين الثالث[٣].

والواقع أن هذا الاختيار كان تعيساً، ففقدان رينولد شاتيون للمكانة الرفيعة سبَّب إشكالاً وأدَّى إلى تعقيد تعامله مع أولئك الذين كانت رتبهم أرقى وأرسخ. وظهر أن رينولد شاتيون ذا طبيعة عنيفة وعنيدة، وقُدِّر عليه وهو المغامر الذي لا يتعب أن ينبذ صفته الطيبة ويجلب المصائب للصليبيين في الشرق، ومن الصعب التكهن لماذا فضَّلته الأرملة الشابة على الرجال الأقل جاذبية ذوي المنزلة الأرفع، ووافق الملك بلدوين الثالث بعد إلحاح من الحبيبين على مشروع الزواج الذي تمَّ فعلاً في (أواخر ٥٤٧هـ/ أوائل ١١٥٣م).

ولم تلبث أن ظهرت طباع رينولد شاتيون الخشنة، في تعامله مع البطريرك عموري دي ليموج، إذ لم يكد يعلم بأنه كان يُحرِّض الأميرة على عدم الزواج منه حتى صبَّ جام غضبه عليه، وقد بلغ حد الضرب وإلقائه وهو عريان في نار الشمس المحرقة. وعندما علم الملك بلدوين الثالث بتلك التصرفات الوحشية، أرسل إنذاراً إلى رينولد شاتيون يأمره بالإفراج عن البطريرك وإعادته إلى منصبه فوراً، ويبدو أن البطريرك لم يستطع البقاء في أنطاكية في ظل حكم هذا القاسي، فنزح إلى بيت المقدس حيث قضى ما تبقَّى من عمره[٤].

الصراع البيزنطي - الأرمني وانعكاسه على أوضاع أنطاكية

لم يلبث رينولد شاتيون أن زجَّ بنفسه في النزاع القائم بين البيزنطيين والأرمن في

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٠٤، ٨٠٥.

(٢) Chalandon: Les Comnènes: p197.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨١٤، ٨١٥.

(٤) المصدر نفسه: ص٨٢٤، ٨٢٥.

كيليكية بدلاً من أن يُوجِّه جهوده نحو استرداد حارم وغيرها من أملاك إمارة أنطاكية التي استولى عليها نور الدين محمود شرقي العاصي.

كان ينبغي، من قبيل اللياقة والصواب، أن تلتمس كونستانس الإذن أيضاً من الامبراطور البيزنطي مانويل، إذ أن نبأ زواجها لم يلق قبولاً طيباً في القسطنطينية[١]، غير أن مانويل كان وقتذاك منهمكاً في قتال السلاجقة، فلم يظهر شيئاً من علامات السخط، وإذ أدرك أهمية حقوقه في أنطاكية أرسل يعرض اعترافه برينولد شاتيون إذا نهض معه لقتال الأرمن في كيليكية كما وعده بإغداق المال عليه. وكان أمير أنطاكية الجديد يهمه أن يحصل على موافقة الامبراطور البيزنطي على وضعه في أنطاكية وزواجه من أميرتها، لأن أنطاكية كانت من وجهة النظر البيزنطية تابعة للقسطنطينية ولو اسمياً، لذلك قَبِل رينولد شاتيون أن يقوم بهذه المهمة.

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يعملون جاهدين على فتح المناطق التي آلت إلى الامبراطورية البيزنطية من بقية إمارة الرها، كان الأمير الأرمني ثوروس الثاني (٥٣٩ ـ ٥٦٣هـ/ ١١٤٤ ـ ١١٦٨م) يقود ثورة أرمنية على ما تبقَّى من النفوذ البيزنطي في منطقة كيليكية، علماً بأن هذا الزعيم الأرمني سبق له أن هرب من سجنه في القسطنطينية ولجأ إلى ابن خاله جوسلين الثاني أمير الرها، وجمع حوله عدداً من الأرمن نظَّم منهم جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل، واستطاع أن يسترد قلعة ڤاهكا معقل أسرته في جبال طوروس[٢].

واغتنم الأمير الأرمني فرصة انهماك الامبراطور البيزنطي مانويل في التصدِّي لهجوم المسلمين على تل باشر في عام (٥٤٦هـ/ ١١٥١م)، فانساب في سهل كيليكية وهزم الحاكم البيزنطي توماس وذبحه على أبواب المصيصة بعد أن استولى عليها وعلى طرسوس[٣].

كان على الامبراطور البيزنطي مانويل أن يقوم بعمل إيجابي للتصدي لطموح الأمير الأرمني وازدياد نفوذه في منطقة كيليكية للحفاظ على هيبة الامبراطورية، وبخاصة أن المنطقة تتحكَّم في المعابر من وإلى بلاد الشام، كما تعدُّ خط الدفاع الأول عن الامبراطورية من ناحية الجنوب الشرقي، لذلك أرسل جيشاً بقيادة ابن عمه أندرونيكوس لتأديب ثوروس الثاني واسترداد ما استولى عليه، إلا أنه فشل في تحقيق أي نصر وتعرَّض لهزيمة قاسية على أيدي القوات الأرمنية، وهرب عائداً إلى القسطنطينية.

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٥٥٨.
(٢) استارجيان: ص٢١١.
(٣) Sempad: Chronique de Royaume de la Petite Armenie: I p619.

الواضح أن الامبراطور مانويل عجز بقواته الذاتية عن إخضاع الأرمن الذين أحكموا سيطرتهم على مدن كيليكية، مثل سيس وعين زربى وأذنة وطرسوس، لكن الدولة البيزنطية لا يمكنها أن تتنازل بسهولة عن كيليكية ليستقل بها الأرمن نظراً لأهميتها العسكرية والسياسية، بالإضافة إلى أن النفوذ البيزنطي أخذ يتداعى على الطرف الجنوبي الشرقي للامبراطورية وهذا ليس في صالحها، لذلك راح الامبراطور يبحث عمن يقوم مقامه في إخضاع الأمير ثوروس الثاني، فلم يجد سوى السلطان السلجوقي مسعود الذي كان متلهفاً للتدخل في كيليكية وقد سنحت له الفرصة الآن، لكن السلطان السلجوقي فشل أيضاً في إخضاع الأرمن في عام (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)(١).

لم يستسلم الامبراطور مانويل لهذه النتائج التي تقضي على النفوذ البيزنطي في كيليكية، فاستعان برينولد شاتيون أمير أنطاكية، وقَبِل هذا أن يقوم بهذه المهمة، كما ذكرنا، واستطاع بعد معركة لم تستغرق وقتاً طويلاً قرب أسكندرونة، أن يرد الأرمن إلى داخل كيليكية وأهدى الإقليم الذي استرده إلى طائفة الداوية، وعندما طلب من الامبراطور أن يؤدي له قيمة المساعدة المالية، رفض هذا الأخير، وأشار إلى أنه لا بد من تحقيق الهدف الأساس الذي اتفقا عليه، فلم يسع رينولد شاتيون إلا أن يُبَدِّل سياسته، فانقلب على الامبراطور وعقد صلحاً مع ثوروس الثاني الذي استأنف حملاته ضد ما تبقى في أيدي البيزنطيين من حصون في كيليكية(٢).

وتمادى رينولد شاتيون في التشفِّي من البيزنطيين والانتقام منهم، فغزا جزيرة قبرص مع صديقه ثوروس الثاني في (أوائل ٥٥١هـ/ ربيع ١١٥٦م)، وكانت تابعة للبيزنطيين، ونزل على شواطئها وتغلَّب على حاميتها بقيادة حنا كومنين، ابن أخ الامبراطور مانويل. وراح الصليبيون والأرمن يجوسون أرض الجزيرة، ينهبون ويسلبون كل ما صادفوه من العمائر والكنائس والأديرة والحوانيت والمنازل الخاصة، وأشعلوا الحرائق في المحصولات الزراعية، واستاقوا السكان والماشية إلى الساحل، فانتهكوا أعراض النساء، وتعرَّض الأطفال والشيوخ للقتل لعجزهم عن المسير، وجدعوا أنوف رجال الكنيسة، وقطعوا آذانهم وألسنتهم إمعاناً في التشفي والانتقام، وما أجروه من القتل والنهب بلغ من اتساع نطاقه ما قد يحسده عليهم

---

(١) ابن العبري: ص١٦٩. Gregoire le Prêtre: pp171-173.

(٢) المصدر السابق. Michel le Syrien: III p314.

الهون والمغول[١].

ولم يغادر الغزاة أرض الجزيرة إلا عندما علموا بأن أسطولاً بيزنطياً أخذ يقترب من الساحل، وجرى إرغام كل قبرصي على افتداء نفسه، ولما نفدت الأموال، قرَّر رينولد شاتيون أن ينقل حاكم الجزيرة وقائده براناس وكبار رجال الكنيسة وكبار الملّاك والتجار مع أُسَرهم، إلى أنطاكية، ليظلوا فيها حتى تؤدى الأموال المطلوبة لافتدائهم[٢].

سقوط عسقلان

شهدت الدوائر الفاطمية، منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، سلسلة من المؤامرات من أجل الاستئثار بالنفوذ، ودارت الصراعات مرة أخرى بين طوائف الجند، وتطلَّع ولاة الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه، وانتزع الوزراء كل ما للأئمة من سلطان، لكن لم يل الوزارة رجل قدير منذ مصرع الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في (١ شوال ٥١٥هـ/ ١٣ كانون الأول ١١٢١م)، وظل الإمام الآمر يحكم حتى لقي مصرعه في (٢ ذي القعدة ٥٢٤هـ/ ٧ تشرين الأول ١١٣٠م)[٣].

وحاول الإمام الحافظ (٥٢٥ ـ ٥٤٤هـ/ ١١٣١ ـ ١١٤٩م) أن يتخلَّص من نفوذ الوزراء، فعيَّن ابنه الحسن وزيراً، وإذ لم يكن هذا مخلصاً، دفع والده إلى التخلص منه بالسم في (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م) تحت ضغط الأمراء، فخلفه في منصب الوزارة بهرام الأرمني الذي ملأ مناصب الدولة بأهل وطنه، فأثار بذلك رد فعل الدوائر الحاكمة[٤].

ولما توفي الإمام الحافظ خلفه ابنه الظافر (٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤م)، فاستبدَّ بالأمر في عهده الوزير العادل بن السَّلار الذي لقي مصرعه بعد ثلاث سنوات (محرم ٥٤٨هـ/ نيسان ١١٥٣م)[٥].

وهكذا انغمست الدوائر الفاطمية في سلسلة لا تنقطع من المؤامرات والاغتيالات في ظل الأيام الأخيرة للدولة الفاطمية، وقد أتاحت هذه الفوضى السياسية الفرصة للملك بلدوين الثالث بتوجيه نشاطه العسكري إلى مصر، وهي السياسة التي اتخذت طابعاً عملياً واسع النطاق على يد الملك عموري الأول فيما بعد، يضاف إلى ذلك، كان التوجه الطبيعي لتوسع الصليبيين، في الربع الأول من القرن الثاني عشر

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٥٦٢.
(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٤١، ٨٤٢.
(٣) ابن تغري بردي: جـ٥ ص٢٤١ ـ ٢٤٣.
(٤) سيد، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر: ص١٩٢ ـ ١٩٧.
(٥) المرجع نفسه: ص٢٠٨ ـ ٢١٢.

الميلادي، هو الشمال الشرقي بفعل خلو المنطقة من قوة إسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع، ولكن مع ظهور قوة الزنكيين في شمالي العراق وبلاد الشام، تحوَّل مسار حركة التوسع الصليبي منذ منتصف القرن المذكور إلى الجنوب الغربي أي على حساب مصر والفاطميين[1].

وكان لا بد قبل الإقدام على خطوة غزو مصر من التمهيد لها بالاستيلاء على عسقلان وهي القاعدة الوحيدة التي بقيت بيد الفاطميين في فلسطين، وتُعد من أمنع الحصون بامتدادها من البحر على هيئة نصف دائرة كبيرة، وباستحكاماتها القوية، فضلاً عن حرص الحكومة الفاطمية بشحنها بالذخائر والمؤن[2].

وقد مهَّد الملك بلدوين الثالث لغزوته بتدابير سياسية وعسكرية:

فمن حيث التدابير السياسية، كان لا بد له من حماية ظهره من جانب دمشق قبل أن يشرع في مهاجمة عسقلان، فحرص على مساندة مجير الدين أبق صاحب دمشق ضد نور الدين محمود أثناء حصاره لهذه المدينة، واشترك مع الدمشقيين في الحد من نفوذه في إقليم حوران، فقويت الصلات بين الجانبين، وتمكَّن من حصر جهوده في غزو عسقلان.

ومن حيث التدابير العسكرية، فقد جدَّد أسوار غزَّة، فهدم القديمة منها وبنى لها سوراً جديداً، كما شيَّد قلعة حصينة عهد بحراستها إلى الداوية. وقد شعر الفاطميون بهذه الاستعدادات بدليل ما لجأ إليه الوزير ابن السَّلار من إرسال أسامة بن منقذ في سفارة إلى نور الدين محمود للحصول على مساعدته، إلا أنه لم يتلق مساندة مباشرة نظراً لحراجة موقفه بين الصليبيين وحكام دمشق.

وهكذا تهيأت الظروف للملك بلدوين الثالث، فظهر أمام أسوار عسقلان في (ذي الحجة ٥٤٧هـ/آذار ١١٥٣م). استمر الحصار بضعة أشهر كانت الحكومة في القاهرة تمد أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر، إلا أن الفاطميين لم يغامروا بمساعدة المدينة من البر، وتجاه طول مدة الحصار، ونتيجة للقذف شبه المتواصل، بدأت الأبراج بالتصدع، وفي (جمادى الأولى ٥٤٨هـ/آب ١١٥٣م) اضطرت الحامية إلى الاستسلام بشرط أن يبذل الصليبيون الأمان للسكان أثناء خروجهم من المدينة، فوافق الملك بلدوين الثالث على هذا الشرط والتزم بتنفيذه. ودخل الصليبيون إلى المدينة في موكب النصر، وتسلَّموا القلعة بما حوته من المال والسلاح، وتقرَّر جعل المدينة إقطاعاً لكونت يافا عموري شقيق الملك بلدوين الثالث[3].

---

(١) عاشور: جـ٢ ص٥٦١، ٦٥٢.
(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٠٩، ٨١٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٨١١ ـ ٨١٤، ٨١٦ ـ ٨٢١.

نتائج سقوط عسقلان

كان الاستيلاء على عسقلان، على الرغم من أهميته في نظر الملك الصليبي، كسباً قليل الأهمية سياسياً ومادياً، فمع أن الحصن كان قاعدة فاطمية إلا أن الحملات التي كانت تنطلق منه ضد أراضي الصليبيين المجاورة لم تعد تشكل أي مصدر خطر كبيراً كان أو صغيراً، وذلك بفعل حال الضعف التي أمست عليها الدولة الفاطمية.

غير أن الصليبيين بعد استيلائهم على عسقلان أضحوا هدفاً للمغامرين الخطرين المنطلقين من مصر، ولعل ذلك هو السبب في أن نور الدين محمود، بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لم يحاول التدخل في الحملة بشكل مباشر إلا بما أزمع القيام به من مهاجمة بانياس بالاشتراك مع مجير الدين أبق صاحب دمشق لتخفيف الضغط عن عسقلان[1].

ويؤكد ابن الأثير أن الصليبيين أصبحوا بعد الاستيلاء عن عسقلان، على جانب كبير من البأس «فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين أبق، وتابعوا الغارات على أعماله»[2].

وهكذا تراجع مركز دمشق حتى دخلت في حماية الصليبيين، ودفع الدمشقيون ضريبة سنوية لهم، فكانت رسلهم تدخل المدينة لجباية الأموال المفروضة على أهلها لملك بيت المقدس[3].

أحدث سقوط عسقلان بأيدي الصليبيين هزَّة عنيفة حرَّكت العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، ولم تكن خطورة هذا الحدث في أن المدينة كانت آخر معقل للمسلمين في جنوب بلاد الشام، بقدر ما كانت خطوة إلى الأمام أوصلت الصليبيين إلى أبواب مصر التي لم تكن موصدة بإحكام.

ضم دمشق

أوضاع دمشق بعد وفاة أنر

اجتمع أعوان أنر بعد وفاته في مجلس مجير الدين أبق صاحب دمشق، وتقرَّر أن يتولى هذا الأخير الحكم بنفسه، وكان أنر يحكم باسمه، غير أن ما اتصف به من القسوة والعنف والميل إلى المباذل فضلاً عن قِصر النظر السياسي، دفع أحد أركان الدولة ويُدعى مؤيد الدولة المسيب بن علي الصوفي إلى التطلع للاستئثار بالنفوذ.

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٥٤٨.

(٢) التاريخ الباهر: ص١٠٦.

(٣) المصدر نفسه.

عارض حاكم دمشق مجير الدين أبق هذا التوجُّه، ما دفع مؤيد الدولة إلى جمع السفهاء والأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الرعية، ونشرهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة بهدف الاحتماء بهم، وشهدت دمشق في (رجب ٥٤٤هـ/ تشرين الثاني ١١٤٩م) بعض أعمال العنف، فاضطر مجير الدين أبق إلى الاستجابة لبعض مطالب مؤيد الدولة ومنها أن:

- يكون مؤيد الدولة ملازماً لداره.
- يكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الميدان.
- لا يركب إلى القلعة إلا مستدعياً إليها[١].

رفض مؤيد الدولة ما منحه إياه مجير الدين أبق، وعارض السلار زين الدين إسماعيل، شحنة دمشق، تنامي نفوذ مؤيد الدولة ما قسَّم الدمشقيين، فعادت الغوغاء إلى شوارع المدينة، وجرت بعض المناوشات كانت لصالح مؤيد الدولة، واضطر السلار إلى الهرب مع أخيه إلى ناحية بعلبك كما أُبعد بعض المقربين من مجير الدين أبق[٢].

الواقع أن دمشق كانت بحاجة إلى شخصية قوية تحميها من توثُّب نور الدين محمود في الشمال والصليبيين في الجنوب، لكن ازدياد حكم مجير الدين أبق ضعفاً، جعله يتغاضى عن الأخطار التي هدَّدته من جانب الصليبيين، ولم يعد يُبالي إلا بحماية نفسه من نور الدين محمود[٣]، فأسهم تصرفه هذا في انهيار البيت البوري الذي حكم دمشق منذ عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٣م).

خشي نور الدين محمود من استمرار هذا الوضع المتدهور الذي يُفضي إلى وقوع دمشق في أيدي الصليبيين، لذلك قرَّر التدخل. وكان أنر قد تغافل قبل وفاته بأشهر عدة عما حدث له على أيدي حلفائه في مملكة بيت المقدس[٤]، ودفعته خشيته من نور الدين محمود إلى إجراء مفاوضات صلح مع هذه المملكة في (محرم ٥٤٤هـ/ أيار ١١٤٩م) لمدة سنتين[٥]، ووثَّق خلفاؤه عُرى هذا التحالف لأنهم وجدوا في الصليبيين سنداً لهم.

وأدرك الملك بلدوين الثالث من جهته أن وقوع دمشق في يد نور الدين محمود من شأنه أن يقضي على مملكة بيت المقدس، فجدَّد التحالف مع حاكم دمشق في ظل توافق مصلحة الطرفين في مناهضته.

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٧٦، ٤٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٤٧٦. (٣) عاشور: جـ٢ ص٦٥٧.
(٤) الإشارة هنا إلى مهاجمة الحملة الصليبية الثانية دمشق.
(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٧٩٦ ـ ٧٩٩. رنسيمان: جـ٢ ص٥٣٨، ٥٣٩.

محاولة نور الدين محمود الأولى ضم دمشق

سُرَّ نور الدين محمود بما وقع من خلافات أسرية في مملكة بيت المقدس والتي رافقتها اضطرابات داخلية، وإذ علم بأمر ذلك الاتفاق بين دمشق وبيت المقدس، بعد عقده بقليل، أدرك مدى الخطر الذي تواجهه تطلعاته نتيجة ذلك، فعزم على التدخل لضمِّ دمشق وقطع الطريق على الصليبيين.

وعمد نور الدين محمود إلى إيجاد المبرر لصراعه المرتقب مع دمشق، فوجده في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة بسبب غارات الصليبيين وعجز حكام دمشق عن تقديم دعم ناجح لوقف اعتداءاتهم، فاستغل فرصة توغل قوة صليبية من بيت المقدس في أراضي حوران في عام (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، وطلب من مجير الدين أبق أن يُقدم له مساعدة عسكرية قدرها ألف فارس للتصدي لها، ولما كان ذلك يعني تهديداً لمركز دمشق وعلاقاتها السياسية مع الصليبيين، فقد رُفض طلبه[١].

الواقع أن نور الدين محمود أراد أن يقف على نوايا ولاة الأمور في دمشق وإثبات أنه الشخصية الوحيدة التي تهتم بمصالح المسلمين، والمسؤول عن دمشق وغيرها من البلاد الإسلامية، بدليل أن القوة الصليبية التي هاجمت حوران لم تكن من المقدرة بحيث تستطيع الصمود أمامه، كما أن إقليم حوران لم يكن من الأهمية، في هذه المرحلة، بالنسبة لمشاريعه التوحيدية[٢]، إلا أن ساسة دمشق، وقفوا على نواياه الحقيقية، فردَّ عليه مجير الدين أبق رداً جافاً.

نتيجة لذلك توجَّه إلى دمشق عن طريق بعلبك، وكأنما عدَّ حكامها في زمرة الصليبيين حين قال: «لا أنحرف عن جهادهم»، وأمر جنده بأن يحسنوا التصرف في الأعمال الدمشقية أثناء زحفهم، ونزل على النهر الأعوج في المكان المعروف بـ«مرج يبوس»، وأنزل بعض عساكره في يعفور إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وأرسل رسالة إلى مجير الدين أبق ذكر فيها أن سبب مقدمه سوء أوضاع أهل حوران من الفلاحين وانتهاب الصليبيين لأملاكهم[٣].

الواضح أن نور الدين محمود حرص على ذلك المبرر السياسي ليقوم بعمل عسكري، بفعل أن أطماعه في دمشق مثَّلت واقعاً حقيقياً بسبب قدراتها الاقتصادية والبشرية والعسكرية الضرورية لتدعيم أركان دولته، وكانت هي الحافز الأول وليست أوضاع القطاع الزراعي المتدهورة[٤].

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٧٨.
(٢) حبشي: نور الدين والصليبيون: ص٦٣.
(٣) ابن القلانسي: ص٤٧٨، ٤٧٩.
(٤) عوض، محمد مؤنس أحمد: في الصراع الإسلامي الصليبي، السياسة الخارجية للدولة =

وأمام ذلك الموقف قرَّرت دمشق خوض الحرب ضده، فأرسل مجير الدين أبق رسالة عاجلة إلى الملك بلدوين الثالث يطلب مساعدته لإنقاذ دمشق من الخطر الذي يحيق بها، ولما علم نور الدين محمود بذلك انتقل مع قواته على بُعد أربعة أميال جنوبي دمشق، وكتب إلى مجير الدين أبق وأعوانه يوبخهم على تقاعسهم في نصرة المسلمين، وارتمائهم في أحضان الصليبيين، وأوضح لهم أن قوته كبيرة بفضل ما عنده من المال والرجال والعدة، وطلب منهم إمداده بألف فارس لإنقاذ عسقلان التي كانت تتعرَّض آنذاك لهجمات الصليبيين[1].

وجاء رد القيِّمين على الحكم في دمشق قاسياً، إذ قال مجير الدين أبق يخاطب نور الدين محمود «ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك أن قصدتنا، ونزلت علينا»، لكن المساعدة الصليبية لم تأت، ورأى مجير الدين أبق نفسه عاجزاً عن التصدي بمفرده لقوة نور الدين محمود، لذلك كان عليه أن يُقدم تنازلات سياسية، فعرض عليه في (محرم ٥٤٥هـ/أيار ١١٥٠م) أن يدخل في طاعته ويقيم له الخطبة في دمشق بعد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ويضرب السكة باسمه، مقابل أن يظل في حكم دمشق[2].

على أن نور الدين محمود لم يلبث أن انصرف عن قتال دمشق، وانسحب مع قواته من أمام أسوارها عائداً إلى حلب حيث توافرت له من الدوافع ما صرفه عنها، لعل أهمها:

- هطول أمطار غزيرة في ذلك الوقت، أعاقت العمليات العسكرية.
- أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حرب دمشق والمضايقة لها.
- اكتفى بما عرضه عليه مجير الدين أبق وبخاصة أن التنازلات أقرَّت ضمناً بالوجود النوري سياسياً وعسكرياً، وأنها مدَّت نفوذه نحو دمشق التي باتت في قبضته.
- لقد سعى نور الدين محمود، من وراء موادعته حكام دمشق، إلى إظهار عطفه على الدمشقيين اكتساباً لمحبتهم وتأييدهم له ضد حكامهم المتحالفين مع الصليبيين، تمهيداً للتفرقة بينهما، ويبدو أن الدعاية النورية كانت قوية فعلاً حتى لقد نسب بعض الناس إلى بركته وعدله وحسن سيرته، توالي الغيث بعد انقطاعه في حوران والغوطة والمرج[3].

= النورية: ص١١١، ١١٢.

(١) ابن القلانسي: ص٤٧٩، ٤٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٨٠.

(٣) المصدر نفسه. حبشي: ص٦٤.

- كان هدف نور الدين محمود الرئيس في تلك المرحلة تحطيم جوسلين الثاني أمير الرها وتصفية ما تبقّى من إمارته.

محاولة نور الدين محمود الثانية ضم دمشق

لم يكد نور الدين محمود ينتهي من تصفية إمارة الرها حتى التفت مجدداً نحو دمشق للقضاء على البيت البوري المتحالف مع الصليبيين، فزحف مرة أخرى إليها في (محرم ٥٤٦هـ/ نيسان ١١٥١م) وحاصرها، فدبَّت الفوضى في أرجاء المدينة، وعمد حكام دمشق إلى إرسال جماعات من جندهم لتفسد الزرع المحيط ببلدهم حتى لا يستفيد نور الدين محمود منه ما أحدث تذمراً بين السكان، فارتفعت الأسعار، وانقطع الطريق من المارَّة، واضطربت الأمور[١].

وأرسل نور الدين محمود رسالة إلى مجير الدين أبق يخبرم فيها بأن غايته إصلاح أوضاع المسلمين، وجهاد المشركين، وتحرير أسرى المسلمين منهم، وطلب منه تقديم المساعدة والمعاضدة، لكنه أصمَّ أذنيه عن هذا النداء، وردَّ عليه رداً جافاً[٢]، عندئذ تقدم نحو أسوار دمشق، لكنه لم يشن هجوماً عليها، حقناً لدماء المسلمين، وظلَّ يأمل في دخول المدينة من دون قتال، وبعد أن أمضى قرابة شهر انسحب إلى داريا بفعل ما تناهى إلى أسماعه عن قرب وصول الملك بلدوين الثالث ليقطع عليه طريق دمشق، وأقام معسكره في ضواحي بلدة الزبداني بعد أن سيطر عليها[٣].

وكان ملك بيت المقدس قد خرج من بلاده قاصداً دمشق لمساعدة حلفائه، واستطاع الوصول إليها في (٣ ربيع الأول/ ٢٠ حزيران)، وسمح مجير الدين أبق له ولجنوده بدخول المدينة، وتبادل الحليفان الزيارات غير أنهما لم يكونا قادرين على مطاردة نور الدين محمود، فاستقر رأيهما على الاستيلاء على بُصرى لعلهما يصرفانه عن دمشق، على أن الصليبيين زحفوا وحدهم نحو بصرى بعد أن نكص مجير الدين أبق عن مشاركته.

وكان حاكم بُصرى سرخاك قد أعلن الثورة على الحكم في دمشق واستجار بنور الدين محمود، الذي أسرع لنجدته ما حال دون استيلاء الصليبيين عليها[٤]. لم تظفر الحملة بشيء من النجاح، غير أن سرخاك الذي لم يختلف عن سائر صغار الأمراء المسلمين فيما اتصفوا به عادة من الخفة وسرعة التقلب، لم يلبث أن مال إلى الصليبيين واتخذهم أصدقاء[٥]، وكان لزاماً على مجير الدين أبق أن يلتمس المساعدة من نور الدين محمود لإرغامه على الخضوع.

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٨٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٤٨٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٨٦.
(٤) المصدر نفسه: ص٤٨٨.
(٥) رنسيمان: جـ٢ ص٥٤٢.

ولم يكد الصليبيون يعودون إلى بيت المقدس حتى قرَّر نور الدين محمود الزحف مجدداً على دمشق لمهاجمتها، ولكنه لم يلبث أن توقف عن الزحف بعد أن اقترب منها تحرُّجاً عن قتل المسلمين، وأشار إلى أنه «لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أدخرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»[1]، كما أن الجنود الدمشقيين لم يحاولوا مقاومته، ووقف مجير الدين أبق على هذه الظاهرة.

ومن هذا الواقع مال الطرفان إلى التفاهم، وجرت بينهما مفاوضات في (ربيع الآخر/تموز) لإحلال السلام انتهت إلى عقد اتفاقية لم تصلنا بنودها، إنما عُرفت بنتائجها من واقع انسحاب نور الدين محمود من أمام دمشق، وزيارة مجير الدين أبق لحلب واستقباله بالترحاب من قبل نور الدين محمود[2].

دفع موقف المسلمين الجديد في بلاد الشام، الملك بلدوين الثالث إلى الالتفات نحو الجنوب للاستيلاء على عسقلان، وقد أدَّى هذا الحدث بدوره إلى قيام نور الدين محمود بإنهاء مسألة دمشق بعد ذلك.

نور الدين محمود يضم دمشق

كان رد الفعل قوياً عند نور الدين محمود لسقوط عسقلان، إذ فتح باباً جديداً للصراع بينه وبين مملكة بيت المقدس، كما أثارت هذه الكارثة طموحه لتوحيد بلاد الشام عبر القضاء على البيت البوري في دمشق في ظل تطلع مجير الدين أبق ومستشاروه الارتماء في أحضان الصليبيين، حرصاً على سلامتهم على ما يمكن أن يتعرَّضوا له من مصير إذا نجح نور الدين محمود في ضمِّ دمشق.

وضاق أهل دمشق، في هذه الأثناء، ذرعاً بالصليبيين الذين ازدادوا غطرسة، وإذ برهنت الأسرة البورية على خيانتها للمسلمين، «قلَّت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق». وأدرك نور الدين محمود من خلال تجاربه السابقة أن دمشق لن تؤخذ بالقوة بفعل مساندة الصليبيين للأسرة المالكة في كل مرة يهاجمها، فعدل إلى استخدام الأساليب السياسية، وهيَّأ الظروف التي مكَّنته أخيراً من دخولها من دون معارضة، فتصرف على أربعة أمور:

الأول: استغلَّ الفجوة بين الحكام والشعب لدفع الدمشقيين على الثورة ضد البيت البوري.

الثاني: تقرَّب من مجير الدين أبق وأوهمه برغبته في تناسي الماضي، وأظهر له

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٨٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٤٩١.

المودة، ووصله بالهدايا حتى وثق به[1].

الثالث: أوقع بينه وبين كبار رجال دولته المعارضين لمشروعه بضم دمشق إلى الجبهة الصليبية.

الرابع: فرض حصاراً اقتصادياً على دمشق حتى يُضيِّق على أهلها ويدفعهم للثورة، فمنع القوافل القادمة من الشمال من التوقف في المدينة ما أحدث وضعاً خطيراً من الجوع والفوضى والشعور بالاستياء، وهجر كثير من الدمشقيين مدينتهم، كما توفي جماعة وافرة في الطرقات، وانقطعت الميرة من كل الجهات[2].

نجحت خطة نور الدين محمود في تحقيق الأهداف التي أُعدَّت من أجلها، فقد وقع الخلاف بين مجير الدين أبق وبين أعوانه كما ازدادت الفجوة بينه وبين السكان. ولما تأكد نور الدين من تأزم الوضع الداخلي، وأن الظروف باتت مُهيَّأة لتدخله، وأنه لن يواجه مقاومة داخلية؛ زحف على رأس جيش كثيف وحاصرها في (صفر ٥٤٩هـ/ نيسان ١١٥٤م) إلا أنه لم يشن هجوماً عليها حقناً لدماء المسلمين آملاً أن يدخلها بغير قتال.

وإذ استبدَّ اليأس بمجير الدين أبق، وأدرك حقيقة الموقف، أُسقط في يده، وأرسل بعد فوات الأوان يلتمس المساعدة من حكام بيت المقدس متعهداً بمنح الملك بلدوين الثالث الأموال وقلعة بعلبك وبعض مناطق البقاع الوفيرة الإنتاج[3].

والواقع أن الملك الصليبي لم يكن بحاجة إلى من يدفعه لمحاربة نور الدين محمود الذي يُشكِّل خطراً جدياً على مملكة بيت المقدس إن تمكَّن من ضمِّ دمشق، وقد يؤدي به التفكير إلى إرسال حملة إلى مصر لضمِّها أيضاً.

وفي الوقت الذي أبطأ فيه الملك بلدوين الثالث لنجدة دمشق، كان نور الدين محمود قد دخل المدينة، عن طريق أعوانه من حرسها وأهلها بعد مناوشات مع جيش مجير الدين أبق، الذي عجز عن دفع الهجوم واحتمى بالقلعة ولكنه لم يلبث أن استسلم، فأبقى نور الدين محمود على حياته وأقطعه حمص وأعمالها، غير أنه تقرَّر طرده بعد بضعة أسابيع للارتياب في تآمره، فالتجأ إلى بغداد وقضى بقية حياته فيها[4].

استقبل سكان دمشق نور الدين محمود بكل مظاهر الفرح، فمنع جنوده من القيام بأعمال السلب والنهب، وأغرق أسواق المدينة بالمؤن، وألغى المكوس المفروضة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٢١٧.

(٢) ابن القلانسي: ص٥٠٢، ٥٠٤.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٢١٧.

(٤) المصدر نفسه: ص٢١٨. ابن القلانسي: ص٥٠٥.

على الخضار والغلال، ما جعل الدماشقة يركنون إليه ويطمئنون إلى حكمه، وبعد أن نظَّم أوضاع المدينة عيَّن عليها نجم الدين أيوب وغادرها عائداً إلى حلب[1].

نتائج ضم دمشق

ترتَّب على ضمِّ دمشق إلى حلب نتائج عدة كانت لصالح المسلمين لعل أهمها:

- قضى نور الدين محمود على الأسرة البورية، وآلت أتابكيتهم بجندها وإقطاعاتها إليه، فكان ذلك «فتح الفتوح»، وأضحت أراضي الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب.

- صفت الممالك بالشام لنور الدين محمود.

- قامت لأول مرة في بلاد الشام، منذ أن وطئها الصليبيون، دولة إسلامية متحدة، وقد أفزع هذا هؤلاء، فعلَّق المؤرخ وليم الصوري على هذا الحدث قائلاً: «كان هذا التغيُّر مشؤوماً بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضع الصليبيين في مواجهة خصم عنيد في شدته محل رجل مسلوب الإرادة، قد جرَّده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم، كما أنه ظلَّ حتى ذلك الوقت يدفع لهم الجزية سنوياً، شأنه في ذلك شأن التابع لهم...»[2].

- شكَّل ضمُّ دمشق إلى حلب انعطافة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية، فقد امتدت دولة المسلمين من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً.

- حقَّق ضمُّ دمشق إلى حلب نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، بل فاق في كفة المسلمين رجحانه، فإذا كان الصليبيون حقَّقوا السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندرونة إلى غزة، فإن ضمَّ نور الدين محمود لدمشق جعل بلاد الشام الداخلية، من الفرات حتى نهر بردى، في قبضة إسلامية واحدة.

- تحقَّق بضمِّ دمشق جانب كبير من أهداف نور الدين محمود الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وكان قد أمَّن المركز المسيطر على طريق وادي العاصي المؤدي إلى أنطاكية، فأضحى بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يُسدِّد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب، بعد أن انهار الحاجز المنيع الذي كان يفصل حلب عن بيت المقدس وأضحت هذه المدينة في متناول يده.

- على الرغم من أن ممتلكات الصليبيين تفوق في المساحة وفي الثروة ممتلكات

---

(١) ابن القلانسي: ص٥٠٥، ٥٠٦.

(٢) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص٨١٥.

نور الدين محمود، فقد كان له ميزة توحيد الممتلكات تحت زعامة حاكم واحد يقل عن سائر أمراء الصليبيين المتشرذمين فيما يتعرَّض له من مناوأة من قبل أتباعه الطموحين[1].

ـ أخذ نجم نور الدين محمود في الصعود، غير أنه كان شديد الحذر ما منعه من المضي في استكمال انتصاراته، لذلك أكَّد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس، من واقع تجديد الهدنة لمدة سنتين، على أن شدة تحمُّله ترجع أساساً إلى تنافسه مع سلاجقة الروم، فقد أراد أن ينتزع منهم نصيبهم من إمارة الرها السابقة[2].

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٥٥١.

(٢) المرجع نفسه. Elisséeff: II p492.

الفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

سنوات القلق

٥٥٠ ـ ٥٥٧هـ/١١٥٥ ـ ١١٦٢م

تجديد الهدنة مع مملكة بيت المقدس

خلا الجو السياسي لنور الدين محمود بعد ضمِّ دمشق لينصرف إلى تحقيق الشطر الثاني من الإرث الزنكي وهو جهاد الصليبيين. وتوضَّحت له خطة هذا الجهاد بعد أن شكَّلت مملكة بيت المقدس حجر عثرة في طريق إتمام الوحدة الإسلامية، لذلك اتجه تفكيره الجديد نحو هذه المملكة للقضاء عليها أو إضعافها، تحسباً لما قد تقوم به من دور لحماية نفسها وحماية الإمارات الصليبية الأخرى منه[١].

لكن كان هناك من الدوافع ما منعه من الاسترسال في مهاجمتها ذلك أنه انصرف إلى ترتيب أوضاع دولته، بالإضافة إلى بروز مشكلات مع سلاجقة الروم ما يضعضع وحدة المسلمين، لذلك رأى نفسه أنه بحاجة إلى هدنة تسمح له بتوطيد نفوذه في البلاد التي ضمَّها، في الوقت الذي كان فيه الملك بلدوين الثالث لا يرغب هو الآخر في القيام بأعمال عدائية ضده، حتى يتمكَّن من وقف الموجات العدائية الآتية من مصر، وبخاصة الغارات التي كان يشنها الأسطول الفاطمي على سواحل بلاد الشام الخاضعة لمملكة بيت المقدس، فجدَّد الطرفان الهدنة لمدة سنتين كما ذكرنا، والتزم نور الدين محمود بدفع مبلغ ثمانية آلاف دينار، استمراراً لما كان يؤديه مجير الدين أبق[٢].

نور الدين محمود يتدخل في بانياس

تداخل النزاع الذي نشب بين نور الدين محمود، والملك بلدوين الثالث في نزاعه مع بقية الأمراء الصليبيين بفعل تقدم مملكة بيت المقدس على بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ولم يشأ نور الدين محمود، في هذه المرحلة من النضال، أن يواجه هذه المملكة حتى لا يثير أوروبا الغربية والدولة البيزنطية.

---

(١) حبشي: ص٧٣.

(٢) ابن القلانسي: ص٥٠٩، ٥١٦.

ولعل أهم ضروب الصراع بين الطرفين، وهو ما يكشف عن تعادل قوتيهما، ذلك الذي نشب حول حصن بانياس الذي يحكمه همفري الثاني، وتتجلّى بوضوح في هذا الصراع أهمية ثروات المنطقة الرعوية والزراعية وميزتها العسكرية كعوامل دفعت الملك الصليبي إلى نقض الهدنة المعقودة مع نور الدين محمود، فقد توافرت في بانياس المراعي الغنية بقطعان الماشية واشتهرت بإنتاجها الزراعي(١)، وقد طمع الصليبيون في أسر الرعاة واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية(٢)، وهذا يفسر عملية الاسترقاق التي تحدث عنها وليم الصوري(٣)، والتي حرصوا عليها عندما هاجموا المنطقة، كذلك كان لموقع بانياس أهمية سياسية ـ عسكرية، فقد عُدَّت بوابة دمشق، وإذا علمنا أن الملك بلدوين الثالث وقع في ديون ثقيلة نظراً لميله إلى الترف والبذخ، لم يستطع مقاومة ما تثيره القطعان من إغراء.

فقد حدث أن جماعات من الرعاة التركمان والفلاحين العرب، استغلّت الأمان الذي وفّرته الهدنة، وحصلت على إذن من الملك بلدوين الثالث برعي ماشيتهم وخيولهم وجمالهم في منطقة الشعراء المجاورة لبانياس، فدفعت تلك المغريات الملك الصليبي على نقض الهدنة، وتجاهل الأمان الذي أعطاه لأصحابها وخرج ليسلبهم إياها، متجرداً من أبسط مبادئ الأخلاق التي حرص عليها المسلمون دائماً في تعاملهم مع الصليبيين، وعسكر في الملّاحة، ثم هاجم أفراد جيشه أولئك الرعاة غير المحاربين والعزل من السلاح في (ذي الحجة ٥٥١هـ/ شباط ١١٥٧م) وأمعنوا فيهم القتل والأسر، واستاقوا ما وجدوه وعادوا محملين بالغنائم(٤)، وما أقدم عليه من نقض مشين لعهده، هيّأ له أن يحصل على أثمن غنيمة شهدتها المملكة منذ عشرات السنين، غير أنها أثارت نور الدين محمود.

كانت هذه الحادثة بمثابة اختبار لسيادة نور الدين محمود السياسية في دمشق، إذ أن المعركة حصلت بعد ثلاث سنوات فقط من سيطرته على المدينة كما كانت بادرة انتهاك لاتفاقية السلام المعقودة بين الجانبين.

ويبدو أن الملك بلدوين الثالث كان يهدف إلى سبر أغوار نور الدين محمود والوقوف على رد فعله، وقوته العسكرية، ثم إن الحادثة كانت استعراضاً للقوة من جانبه، إذ أن المنطقة لم تكن تحتاج في غزوها إلى تلك الأعداد الكبيرة من الفرسان

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٤٢، ٨٤٣. (٢) عوض: ص١٥٠.

(٣) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص٨٤٣.

(٤) ابن القلاشي: ص٥١٧. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٤٢، ٨٤٣. Grousset: II p368.

الصليبيين من أجل إحراز انتصار على رعاة وفلاحين عُزَّل، ولكن الملك الصليبي حرص من وراء ذلك على إرهاب المسلمين في المنطقة، وإحراج موقف نور الدين محمود الذي فضَّل التوجه السلمي خلال ذلك الحين[١].

أمام كل تلك الملابسات لم يكن هناك مفرٌّ من الرد العسكري، وكان نور الدين محمود آنذاك منهمكاً في إصلاح المدن والقلاع التي دمرتها الزلازل، وتوقف في حمص للقضاء على ثورة أميرها، ولم يكد يسمع بما حدث للرعاة حتى قرَّر الخروج للتصدي للصليبيين والانتقام منهم على ما ارتكبوه، فوصل إلى بعلبك وأقام معسكره على مقربة منها، وأرسل من هناك قوة من جنده بقيادة أسد الدين شيركوه إلى حصن بانياس لاستطلاع الوضع من جهة، وليوهم الصليبيين بأن الجيش المهاجم محدود الإمكانات لا يتعدى هذه القوة الصغيرة من جهة أخرى، وأرسل في الوقت نفسه مبعوثاً إلى مصر لتنسيق التعاون مع الفاطميين ضد الصليبيين[٢].

استعان همفري الثاني بالأسبتارية لدفع المسلمين عن الحصن الذين قاسموه نصف دخل البلد لقاء مساعدتهم له، وذلك بإشارة من الملك بلدوين الثالث. وإذ حرصت هذا الطائفة على إرسال المؤن بشكل دوري، فقد وقعت إحدى فرقها في كمين أعدَّه نصرة الدين، أخو نور الدين محمود، فأدرك أفرادها قبل بلوغها الحصن وهزمهم[٣]، كما هزم شيركوه قوة صليبية بالقرب من البقيعة قبل أن يعود إلى بعلبك ليقدم تقريراً إلى نور الدين محمود وإطلاعه على حقيقة الوضع على الأرض، ونتيجة لذلك قرَّر مهاجمة بانياس، فخرج من دمشق في (ربيع الأول ٥٥٣هـ/ نيسان ١١٥٧م) يتبعه الأحداث والمطوعة والصوفية والمتدينون، وأرسل سرية متقدمة بقيادة أسد الدين شيركوه ألحقت الهزيمة بقوة صليبية بالقرب من هونين كانت في طريقها لنجدة بانياس[٤]، ووصل نور الدين محمود مع الجيش الرئيس في الشهر التالي، وضرب الحصار على بانياس، ولم تلبث المدينة السفلى أن سقطت نتيجة الضرب المتواصل، وصمدت القلعة التي تقع على بُعد ميلين فوق قمة جبل شديد الانحدار، وقد احتمى بها من سَلِمَ من الصليبيين وعلى رأسهم همفري الثاني[٥].

---

(١) عوض: ص١٥١.

(٢) ابن القلانسي: ص٥١٩. Elisséeff: II p506.

(٣) المصدر نفسه: ص٥١٩، ٥٢٠. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٤٤.

(٤) المصدران نفساهما: ص٥٢١، ٥٢٢. ٨٤٤. وهونين بلدة في جبال عاملة مطلة على نواحي مصر. الحموي: جـ٥ ص٤٢٠.

(٥) ابن القلانسي: ص٥٢٣. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٤٥.

وشدَّد نور الدين محمود حصاره عليها حتى كادت أن تسقط لولا أن تغيَّر وجه المعركة فجأة باقتراب الملك بلدوين الثالث، فاضطر نور الدين محمود إلى فك الحصار عنها وانسحب من أمام بانياس بعد أن دمَّرها وأحرقها، ودخلها الملك الصليبي، فأصلح أسوارها وعاد إلى بيت المقدس.

ولما علم نور الدين محمود بذلك باغته عند الملَّاحة، بين طبرية وبانياس وهو عائد إلى الجنوب، وانقضَّ على جيشه وهو يعبر المخاضة عند الجسر اليعقوبي على نهر الأردن، وانتصر عليه، ولقي الكثير من أفراد هذا الجيش مصرعهم، ولم ينج الملك الذي هرب إلى صفد إلا بأعجوبة[1].

مكث الملك الصليبي مدة ثلاثة أيام في صفد لا يعلم أحد خبره، وذكر ابن القلانسي، الذي عاصر هذا الحدث «إن ملكهم، لعنه الله، قيل في الهاربين، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يُعرف له خبر»[2]. وهذه العبارة مهمة من ناحيتين:

الأولى: أنها تبين جهل المسلمين بمصير الملك بلدوين الثالث.

الثانية: أن ابن القلانسي كتبها في يوم مباشرة القتال.

ويشير المؤرخ وليم الصوري إلى ما ترامى من الإرجاف في بلاد الصليبيين مثل عكا وبيت المقدس من الأخبار الباعثة على الخوف من مصير الملك[3]، ويبدو أن إقامته في صفد مدة ثلاثة أيام، وانقطاع أخباره، كان من أكبر الدواعي إلى ذلك الإرجاف، وإلى ما رآه ابن القلانسي من أنه عدَّ الملك الصليبي من بيت القتلى[4].

وتلى ذلك قيام نور الدين محمود بمهاجمة بانياس، غير أنه ما لبث أن اضطر إلى الانسحاب من أمام أسوارها مرة أخرى، وعجَّل بالعودة إلى حلب بسبب ظهور بوادر غير مشجعة، منها:

- اجتماع الجيوش الصليبية من أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لمهاجمة أملاكه.
- وصلت إلى مسامعه أنباء عن استعدادات السلطان قلج أرسلان الثاني صاحب قونية لمهاجمة أملاكه في الشمال.
- تجدُّد وقوع الزلازل في بلاد الشام التي ألحقت أضراراً بالغة بالمدن والقرى.

واستطاع الملك بلدوين الثالث، حين عجز المسلمون عن تتبع أثره، الذهاب إلى

---

(١) ابن القلانسي: ص٥٢٢، ٥٢٣. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٤٦ ـ ٨٤٩. وصفد مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. الحموي: جـ٣ ص٤١٢.

(٢) تاريخ دمشق: ص٥٢٣.

(٣) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص٨٤٩.

(٤) حبشي: ص٩٥، ٩٦.

عكا، ولم يُخفِ الصليبيون فرحهم بعودته ما يدل على أن الحملة النورية على بانياس قد شكَّلت خطراً كبيراً عليهم، ثم استعاد بانياس بعد ذلك[1].

مرض نور الدين محمود وانعكاسه على الوضع السياسي

في تلك الظروف القاسية التي كانت تمر بها بلاد الشام، قرَّر الصليبيون توحيد صفوفهم، وقام كل من الملك بلدوين الثالث ورينولد شاتيون أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس بحشد جيوشهم، وهاجموا حصن الروج وهو أحد كور حلب، فأسرع نور الدين محمود إلى إنِّب لمواجهة الهجوم، وفي سرمين من أعمال حلب داهمه مرض أشرف بسببه على الموت وذلك في (رمضان ٥٥٣هـ/ تشرين الأول ١١٥٧م)، فحُمل إلى حلب.

لم تكد أنباء مرض نور الدين محمود تنتشر حتى هلَّل الصليبيون فرحاً لاعتقادهم بأن خصمهم قد مات وأن وحدة المسلمين لن تلبث أن تنفصم عراها، وحرص الملك بلدوين الثالث على جمع القوى الصليبية والمسيحية كافة للانتقام والقضاء على إنجازات الزعيم المسلم، فاستدعى ثوروس الثاني الأرمني أمير كيليكية الذي حضر على رأس جيش كبير إلى أنطاكية للمشاركة في عملية تقطيع أوصال الدولة النورية[2].

وتوجَّهت الجيوش الصليبية لشن هجوم على شيزر[3] بهدف قطع الاتصالات والمواصلات بين حلب ودمشق من جهة وبين أفامية وحماة من جهة أخرى، نظراً لوقوعها بين المدينتين الأخيرتين، كما طمع الملك الصليبي في استقطاب الحشيشية الذين كانوا مُتمكِّنين من بعض نواحيها، إذ استولت جماعة منهم على القلعة بعد وقوع الزلزال الفاجع في (رجب/ آب).

وصلت الجيوش المتحالفة إلى شيزر في (رمضان/ تشرين الأول) فحاصرتها ثم اقتحمتها. وحدث في هذه الأثناء أن نشب النزاع بين المتحالفين، فقد وعد الملك بلدوين الثالث أن يمنح المدينة وما يحيط بها من أراضٍ إلى زوج أخته، ثييري كونت فلاندر، الذي وصل حديثاً من الغرب الأوروبي حتى تكون نواة لإمارة يتولَّاها باسم ملك بيت المقدس، في حين ادعى رينولد شاتيون أن بني منقذ كانوا يؤدون الجزية إلى إمارة أنطاكية، وبناء عليه يكون ثييري تابعاً له[4].

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٤٩، ٨٥٠. (٢) المصدر نفسه: ص٨٥٢، ٨٥٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر فيما يتعلق بظروف وطبيعة هذا النزاع، وليم الصوري: جـ٢ ص٨٥٤.

رفض الكونت أن يكون تابعاً لبارون فرنسي أقل شأناً منه، ولم تجل في خاطره فكرة بذل الولاء لرجل ليس عريق النسب، ولم يسع الملك بلدوين الثالث أن يحلَّ المشكلة إلا بالتخلي عن الأراضي المتنازع عليها.

وتوجَّه رينولد شاتيون بعد ذلك نحو الشمال ليحتل خرائب أفامية ثم يلقي الحصار على حارم التي كانت سابقاً من أملاك أنطاكية، وقد أعلن كل من الملك بلدوين الثالث وثييري عن استعداده لبذل المساعدة في استعادتها بفعل أهميتها العسكرية على الرغم من الخلافات الناشبة بينهم[1].

وأذعنت حارم في (محرم ٥٥٣هـ/ شباط ١١٥٨م) بعد أن تعرَّضت للضرب الشديد بقذائف المنجنيق، وتقرَّر منحها إلى رينولد سانت ڤاليري، أحد فرسان ثييري، فتولاها باسم أمير أنطاكية[2].

مما لا شك فيه أن استيلاء الصليبيين على حارم ثبَّت أقدامهم من جديد في شرقي نهر العاصي، وكان دافعاً لهم للقيام بشن غارات على القرى والضياع المجاورة، مستغلين فرصة تفرق المسلمين ووقوع الخلاف بينهم أثناء مرض نور الدين محمود.

فقد حدث أن ذهب نصرة الدين إلى حلب ليقوم مقام أخيه في الحكم أثناء مرضه، فمنعه نائبها مجد الدين بن الداية من دخول القلعة خشية من استبداده بالحكم، ووقع قتال بين الرجلين ونور الدين محمود في فراشه، دامت الفتنة بضعة أيام انفضَّ الناس خلالها عن نصرة الدين بعد أن تيقَّنوا من عدم وفاة نور الدين محمود، واضطر نصرة الدين إلى الفرار إلى حرَّان ومَلَكَها، ولما تعافى نور الدين محمود توجَّه إليها وانتزعها من يد أخيه الذي هرب منها[3].

واضطر الملك بلدوين الثالث في هذه الأثناء إلى مغادرة المنطقة وعاد إلى بيت المقدس بسبب وفاة البطريرك فولشر، وقد خشي أن تتدخَّل والدته في انتخاب بطريرك جديد، وما كاد يفرغ من هذه المشكلة حتى عاد إلى الشمال يرافقه كونت ثييري لمضايقة نور الدين محمود، فأغار على إقليم دمشق في منطقة حوران في (صفر ٥٥٣هـ/ آذار ١١٥٨م) ثم زحف إلى دمشق[4].

وشُفي نور الدين محمود في هذه الأثناء من مرضه، فاتخذ طريقه صوب الجنوب للقضاء على المؤامرات التي ترعرعت أثناء مرضه، ولما وصل إلى دمشق ابتهج

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٥٤

(٢) المصدر نفسه: ص٨٥٥ ـ ٨٥٧. ابن القلانسي: ص٥٣٦.

(٣) ابن القلانسي: ص٥٣٤. ابن الأثير: جـ٩ ص٢٦٦، ٢٦٧.

(٤) ابن القلانسي: ص٥٣٦. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٥٧ ـ ٨٥٩.

الناس بشفائه، ورأى الملك بلدوين الثالث أن من الحكمة أن ينسحب، على أن نور الدين محمود لم يلبث أن هاجم أملاك الصليبيين، فأمر قائده أسد الدين شيركوه بالإغارة على منطقة صيدا في (ربيع الآخر/أيار) في حين هاجم هو قلعة الحبيس جَلدك التي شيَّدها الصليبيون معقلاً لهم على ضفاف نهر اليرموك إلى الجنوب الشرقي من بحيرة الجليل[١]، وإذ تعرَّضت الحامية لضغط شديد مالت إلى الاستسلام في غضون عشرة أيام إذا لم تصل إليها نجدة من ملك بيت المقدس[٢].

والواقع أن الملك بلدوين الثالث نهض فور تبلُّغه طلب المساعدة لنجدة القلعة يرافقه ثييري، وسلك الطريق الذي يقع شمالي البحيرة ويؤدي إلى دمشق بدلاً من التوجه إليها مباشرة[٣]، وذلك في محاولة للضغط على نور الدين محمود حتى يرفع الحصار عن القلعة، ونجحت الخطة، فقد خشي نور الدين محمود أن يقطع الصليبيون عليه طريق مواصلاته مع دمشق، فرفع الحصار عن القلعة والتقى مع الجيش الصليبي عند قرية البطيحة الواقعة إلى الشرق من الوادي الأعلى لنهر الأردن في (رجب/آب) دارت الدائرة فيها على الجيش الإسلامي[٤].

وإذ لا زالت صحة نور الدين محمود ضعيفة، قنع بالانسحاب من المنطقة، وحمله ذلك على أن يطلب عقد هدنة[٥]، لم تذكر المصادر الإسلامية المعاصرة واللاحقة إلا القليل عن مضمونها وكذلك فعل وليم الصوري[٦]. ولم يقع في السنوات القليلة التالية على الحدود بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس، شيء من الحروب المهمة، وأضحى بوسع كل من نور الدين محمود والملك بلدوين الثالث أن يوجِّه اهتمامه صوب الشمال[٧].

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٥٦٦.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٥٨، ٨٥٩.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٥٦٦.

(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٥٨، ٨٥٩. Grousset: II pp391-394.

(٥) ابن القلانسي: ص٥٣٨.

(٦) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص٨٥٨، ٨٥٩.

(٧) رنسيمان: جـ٢ ص٥٦٧. Elisséeff: II pp527, 528.

التدخل البيزنطي في شؤون بلاد الشام وانعكاسه على أوضاع المسلمين والصليبيين

التقارب بين مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية

نتيجة لسلوك رينولد شاتيون أمير أنطاكية الذي لم يكن مقبولاً، وعجز الصليبيين عن الإفادة من الفرصة التي أتاحها مرض نور الدين محمود، وزلزال بلاد الشام الكبير الذي وقع في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)؛ حدث تحول كبير في السياسة الصليبية بعامة تجاه الامبراطورية البيزنطية تمثَّل بالتقارب بين ممكلة بيت المقدس الصليبية والامبراطورية البيزنطية. فقد أدرك الملك بلدوين الثالث أن الصليبيين لا يستطيعون بمفردهم مقاومة القوات الإسلامية بسبب ضعف القوى الصليبية وتفكُّك وحدة الأمراء الصليبيين، وأنه لا بد من الاستعانة بقوة خارجية تساندهم وتشد أزرهم ضد نور الدين محمود الذي أخذ يستعد لاستئناف الجهاد، فيمَّم وجهه صوب القسطنطينية:

- بوصفها أغنى دول العالم في ذلك الوقت.
- أن جيشها ما زال أقوى جيش في العالم المسيحي في الشرق الأدنى.
- أن بوسعها إنقاذ الإمارات الصليبية من حال اليأس والبؤس التي تسيطر على الصليبيين.
- أن السلام والأمن لا يتحقَّقان للإمارات الصليبية إلا بالتحالف معها.

يتضح من ذلك أن الملك الصليبي حاول الاستفادة من ثروات الامبراطوية البيزنطية وقوتها المادية لدعم الكيان الصليبي، ويدل ذلك على ضعف الموارد الاقتصادية والقوة العسكرية الصليبية بالمقارنة مع قوة الامبراطورية في هذين المجالين، وهذا أمر طبيعي ونتيجة حتمية للكيان الصليبي الدخيل الذي فرض نفسه على المنطقة بقوة السلاح[1]، وقد أدرك الملك الصليبي هذه الحقيقة في هذا الوقت

(١) عمران: ص٢١٩.

بفعل أن الغرب الأوروبي الذي يساند الصليبيين في الشرق، أضحى مشغولاً بمشكلاته الداخلية، فأحجم عن الاستجابة لنداء الاستغاثة الصادر عن الصليبيين لإمدادهم بالمال والسلاح والرجال، وبخاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية.

وعلى هذا الأساس جرى التحول في السياسة الصليبية تجاه الامبراطورية البيزنطية، والعمل على التقرب منها بعد سياسة العداء التي انتهجها الصليبيون منذ أن قدموا إلى الشرق، وقد دفع هذا التحول، الملك الصليبي إلى استنكار تصرفات رينولد شاتيون عندما هاجم قبرص، بالإضافة إلى عدم موافقته على ضمِّ شيزر إلى إمارة أنطاكية عندما احتلها الصليبيون مؤخراً، ومنحها الملك بلدون الثالث إلى ثييري، كما ذكرنا، وألحقها بمملكة بيت المقدس، وكان التخلي عنها بعد ذلك وتركها على حالها للمسلمين نتيجة الخلاف بينه وبين أمير أنطاكية، ويتوافق ذلك مع مصلحة بيزنطية. وتوضح لنا هذه الحادثة تصدع الصليبيين وانشقاقهم على أنفسهم، وتبيَّن للملك بلدوين الثالث أن رينولد شاتيون يعمل لمصلحته الشخصية، وأن التقارب مع القسطنطينية يحد من أطماعه.

وضع الملك بلدوين الثالث خطة لاستقطاب الامبراطور مانويل تقوم على المصاهرة، بفعل أنها أفضل وسيلة لربط الإمارات الصليبية بالامبراطورية البيزنطية، فأرسل سفارة لهذا الغرض إلى القسطنطينية في (منتصف ٥٥٢هـ/ صيف١١٥٧م) برئاسة أتارد رئيس أساقفة الناصرة، وعضوية كل من همفري الثاني سيد تبنين وجوسلين بسيللوس ووليم دي باري، وهما نبيلان بارزان.

وصلت السفارة إلى القسطنطينية، فرحَّب بها الامبراطور وأحسن استقبالها، وحدث أن توفي رئيسها أتارد، فتولى بقية الأعضاء العمل على إنجاز المهمة التي كُلِّفوا بها، وبعد مفاوضات طويلة وافق الامبراطور على فكرة الزواج التي تُمهِّد سبيل التحالف بين مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية، وما يترتَّب على ذلك من نتائج تصب في مصلحة الصليبيين العامة وتحقيق أطماع الامبراطور مانويل في أنطاكية، واختار ابنة أخيه إسحاق، وتُدعى تيودورة وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، لتكون زوجة الملك بلدوين الثالث على أن تكون هدية الزواج التي يقدمها الملك لعروسه مدينة عكا وما يتبعها من أراضٍ(١).

والراجح أن المفاوضات تطرقت إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابل تعاظم قوة نور الدين محمود وما يمكن أن يقدمه الامبراطور من مساعدة، ومن الواضح أن الامبراطور مانويل استغل من ناحيته هذه الزيجة التي تمَّت في (رجب ٥٥٣هـ/ آب

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٥٩، ٨٦٠.

١١٥٨م) للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الامبراطورية في كيليكية وأنطاكية، ويبدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف لمناهضة نور الدين محمود وتأديب رينولد شاتيون، وكان هذا الأخير قد حالف الأمير ثوروس الثاني صاحب أرمينيا الصغرى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية معاً، في الوقت الذي اتخذ فيه الامبراطور البيزنطي من سلاجقة الروم حاجزاً يقي أملاكه في آسيا الصغرى من تضخم نفوذ الأمير الأرمني[١].

مانويل يغزو كيليكية

وصل طلب الملك بلدوين الثالث لمصاهرة الامبراطور مانويل في الوقت المناسب، إذ كان مانويل قد انتهى من مشكلاته في الغرب الأوروبي بعد أن عقد الهدنة مع وليم الأول ملك صقلية، وفرض الصلح على المجر[٢]، وأخذ يفكر في العودة مرة أخرى إلى الاهتمام بأمور الشرق والثأر من جيرانه الذين اعتدوا على حقوق الامبراطورية.

الواقع أن أهداف الامبراطور مانويل كانت تتركَّز في هذه المرحلة في إخضاع الأمير ثوروس الثاني الذي بسط نفوذه على كيليكية، وإخضاع رينولد شاتيون أمير أنطاكية الذي هاجم أملاك الامبراطورية، وكان عليه مراقبة تحركات السلاجقة بعد أن أوشكت الهدنة المعقودة بينهما على الانتهاء[٣]، ويحرص على تجنب القتال معهم حتى يتمكَّن من تحقيق أهدافه، فأرسل ألكسيوس جيفارد إلى السلطان قلج أرسلان الثاني وإلى الأمير ياغي أرسلان الدانشمندي صاحب سيواس بهدف عقد الصلح معهما، وقد نجح ألكسيوس في مسعاه فعُقدت الهدنة في (منتصف ٥٥٣هـ/ صيف١١٥٨م) وأعاد السلاجقة والدانشمنديون المدن التي فتحوها إلى الدولة البيزنطية وهي سلوقية ولارندا الواقعتين في الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، ويونة وبافرا الواقعتين في إقليم بنطس[٤].

وعندما اطمأن الامبراطور مانويل من ناحية السلطان قلج أرسلان الثاني والأمير ياغي أرسلان، أخذ يستعد لتنفيذ ما خطط له لإخضاع الأمير ثوروس الثاني وتأديب شاتيون، والتقدم بقواته مع القوات الصليبية لمحاربة المسلمين معتمداً على التحالف

---

(١) Grégoire Le Prêtre: p186.

(٢) Diehl, C.: Histoire de l'Empire Byzantine: pp152-154.

(٣) إشارة إلى الهدنة المعقودة بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطية في عام ١١٤٦م لمدة اثني عشر عاماً تنتهي في عام ١١٥٨م. انظر: أودو أوف دويل: جـ١ ص٣٣٠.

(٤) Kinnamos: p176.

الذي تمَّ بينه وبين الملك بلدوين الثالث، فخرج من عاصمته في صيف (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) على رأس جيش يُقدَّر بخمسين ألف جندي متوجهاً إلى كيليكية، وكان عليه أن يسلك طريقاً ملتوياً حتى يُموِّه على أهداف حملته ويفاجئ الأمير الأرمني، فعبر آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي عبر فريجيا وأضاليا وسلوقية متظاهراً بمحاربة السلاجقة، واتسم خروجه بالسرية، ويبدو أن ظهوره في هذه المنطقة كان باتفاق مسبق مع السلطان السلجوقي تضمَّنته الهدنة التي عقدها ألكسيوس جيفارد قبل قليل لأن قسماً منها يقع تحت السيطرة السلجوقية.

كان الأمير الأرمني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكان حصول غزو بيزنطي لأراضيه حتى علم فجأة ذات يوم من شهر (شعبان/ أيلول) بأن العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس، ما يجعله في مواجهة الجيش البيزنطي القادم من سلوقية، فلم يكن بوسعه إلا الهرب حتى لا يقع في قبضة الامبراطور، والتجأ إلى الجبال مؤمناً بعدم قدرته على مواجهة القوات البيزنطية، وأقام الامبراطور معسكره عند المصيصة[١].

لم يكن من الصعب على الجيش البيزنطي السيطرة على كيليكية بعد فرار الأمير الأرمني، فسقطت المعاقل المهمة في يده مثل قلعة كاسترون الحصينة وطرسوس وتل حمدون وعين زربي والمصيصة التي اتخذ مقامه فيها، وأضحت كيليكية في قبضته، ولم تنعكس عداوة الامبراطور ثوروس الثاني على الأرمن الذين عاملهم معاملة طيبة[٢].

وأرسل الامبراطور مانويل إلى رينولد شاتيون في أنطاكية يستدعيه للمثول بين يديه، ويبدو أن حاكم أنطاكية انزعج من قدوم الامبراطور الذي رابط على حدود إمارته، وإذ أدرك أن ليس بوسعه أن يتصدى للجيش الامبراطوري الكثيف، طلب مساعدة الملك بلدوين الثالث متجاهلاً أنه لا يقل استياء عن الامبراطور، وأخَّر مثوله أمام الامبراطور بانتظار وصول الملك إلى أنطاكية حيث كان في طريقه إليها، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، فعرض على الامبراطور تسليمه أنطاكية، لكن الأخير رأى أن ذلك ليس كافياً ولا يتناسب مع ما قام به رينولد شاتيون من جرائم بحق الامبراطورية، وأصرَّ على أن يحضر حاكم أنطاكية بنفسه ليقدم خضوعه وولاءه، فاضطر إلى إجابة الطلب، وعجَّل بالمسير إلى معسكر الامبراطور خارج أسوار مدينة

---

(١) Grégoire Le Prêtre: p187. يذكر ابن القلانسي أن الامبراطور عسكر في مروج الديباج: ص٥٤٠، علماً بأنها تبعد نحو عشرة أميال عن المصيصة.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٦١ .Ibid

المصيصة، ووقف بين يديه كالذليل، وأعلن خضوعه له[١].

كان عفو الامبراطور مقترناً بثلاثة شروط:

الأول: أن يقوم رينولد شاتيون بتسليم أنطاكية للقوات البيزنطية عندما يُطلب منه ذلك.

الثاني: أن تُقدِّم إمارة أنطاكية عدداً من الوحدات العسكرية إلى الامبراطور عند الحاجة إليها.

الثالث: أن يكون بطريرك أنطاكية من البطاركة البيزنطيين الأرثوذكس وليس من اللاتين الكاثوليك[٢].

وقد نُفِّذ الشرطان الثاني والثالث، وتغاضى الامبراطور عن تنفيذ الشرط الأول لأنه فضَّل أن يبقى رينولد شاتيون أميراً على أنطاكية، وهو يعلم مدى شدة خلافه مع الملك بلدوين الثالث، ومعنى ذلك أنه كان يرى في انشقاق الصليبيين على أنفسهم فرصة لدعم النفوذ البيزنطي في الإمارات الصليبية بالشام، وأن من مصلحة الامبراطورية البيزنطية أن يظل هذا الخلاف قائماً[٣].

ما إن علم الملك بلدوين الثالث باقتراب الامبراطور مانويل من أنطاكية حتى عجَّل بالمسير نحو الشمال، يرافقه أخوه عموري كونت يافا وعسقلان والبطريرك إيمري وحاشية من النبلاء، فبلغ المدينة عقب عودة رينولد شاتيون إليها، وإذ أظهر امتعاضه من العفو عنه بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالامبراطور[٤].

وترك الملك بلدوين الثالث أخاه عموري في أنطاكية وذهب لمقابلة الامبراطور، واصطحب معه البطريرك إيمري وعدداً من فرسان الداوية، والتمس منحه إمارة أنطاكية، وكان طامعاً في حكمها وجعلها تحت سلطته المباشرة بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس، لكن الامبراطور رفض التماسه، وهذا يتوافق مع المصلحة البيزنطية باستمرار الانشقاقات بين الصليبيين، فهو لم يشأ أن يجمع الملك الصليبي حكم إمارة أنطاكية مع حكم مملكة بيت المقدس[٥].

وتوسط الملك بلدوين الثالث وفرسان الداوية لدى الامبراطور بشأن العفو عن ثوروس الثاني، فنفَّذ الامبراطور هذه الرغبة، وقد هدف أن تكون بمثابة ترضية للملك الصليبي بعد أن خدعه بالعفو عن رينولد شاتيون[٦].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٦١، ٨٦٢.

(٢) لم يُشر المؤرخون الصليبيون إلى هذه الشروط. Kinnamos: pp182, 183, 199.

(٣) عمران: ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٦٢، ٨٦٣.

(٥) Kinnamos: p183.

(٦) عمران: ص٢٤٣.

ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الجانبين تم الاتفاق على ما يلي:

- عقد تحالف بين الطرفين.
- تسوية علاقات الملك بلدوين الثالث مع رينولد شاتيون.
- يُقدِّم الامبراطور مساعدة عسكرية للصليبيين.

ودخل الامبراطور مانويل أنطاكية بعد ذلك في (ربيع الآخر ٥٥٤هـ/ نيسان ١١٥٩م)، وأجرى مفاوضات سرية مع الملك بلدوين الثالث ورينولد شاتيون، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبيرة ضد المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب(١)، ولم تذكر المصادر المعاصرة أن الملك الصليبي اعترف في تلك المباحثات بسيادة الامبراطور البيزنطي على الصليبيين في بلاد الشام(٢).

والواضح أن ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على الامبراطور مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المتعاظمة التي يقودها نور الدين محمود، الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأصبح يُشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به آنذاك من الموافقة على الدعوة لمهاجمة أملاك نور الدين محمود إنما قصد به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية.

مانويل في بلاد الشام

خرج الامبراطور مانويل والملك بلدوين الثالث ورينولد شاتيون أمير أنطاكية وحشد هائل من القوات البيزنطية والصليبية في احتفال مهيب من أنطاكية لقتال المسلمين، وتفاءل الصليبيون بهذا الزحف الهائل وأيقنوا أن القضاء على نور الدين محمود بات مسألة وقت، ولا شك بأن مثل هذه الحشود المتحالفة قد سبَّبت الفزع في نفوس المسلمين، فكتب نور الدين محمود إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم «ما حدث من الروم، ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم»(٣)، ثم مضى إلى حلب والمناطق الشمالية الأخرى بعد أن علم بأن وجهة الحملة المسيحية هي هذه المدينة، ليشحذ الهمم ويبعث الطمأنينة في نفوس السكان(٤)، وعندما وصلت هذه القوات إلى حوض نهر العاصي، أمر الامبراطور مانويل بالتوقف بعد أن أضحت مدينة حلب على مسير بضع ساعات(٥).

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٦٥. ابن العبري: ص١٧٣.

(٢) Grousset: IIp407.

(٣) ابن القلانسي: ص٥٤٠، ٥٤١.

(٤) المصدر نفسه: ص٥٤٤.

(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٦٥.

وحدث في هذا المكان تطور مفاجئ بالغ الأهمية، فبدلاً من تأهب الفريقين واستعداداتهما للقتال إذ بالصلح يتمُّ بين المسلمين والبيزنطيين في (جمادى الأولى/ أيار) كأن لم يحدث، بين قيامهم بالاستعدادات وإتمام الصلح، شيء.

ويشير الكاتب الأرمني غريغوار الكاهن، ويتفق معه ابن القلانسي إلى تردد رسل نور الدين على معسكر الامبراطور، ولا شك بأن الزعيم المسلم كان مستعداً للحرب، فقد تواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم[١]، ومع هذه الكثرة العددية، فقد آثر الصلح مع الامبراطور مانويل حتى لا يجعل إمارته بين عدوين، الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال، والراجح أن الامبراطور مانويل هو الذي بدأ بعرض الصلح والتفاوض بشأن تحرير الأسرى المسيحيين، ثم أرسل نور الدين محمود رسله للتفاوض.

ومهما يكن من أمر، فقد أعلن الامبراطور، عقب انتهاء المفاوضات مع رسل نور الدين محمود، عن تأجيل حملته بعد أن تمَّ الاتفاق بين الطرفين الذي تضمَّن بندين:

الأول: يُطلق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى المسيحيين الذين كانوا معتقلين في سجونه منذ الحرب الصليبية الثانية.

الثاني: يتعهد نور الدين محمود بمساندة الامبراطور في حروبه ضد سلاجقة الروم[٢].

لقد اتفقت المصادر الإسلامية والبيزنطية والصليبية على البند الأول، في حين انفرد كيناموس بذكر البند الثاني، وقد نجد له سنداً عندما قام نور الدين محمود بمهاجمة أملاك السلاجقة في عام (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) في الوقت الذي كان فيه القتال دائراً بين السلاجقة والبيزنطيين.

ولعل الاتفاق قد تمَّ أيضاً على أن يقوم نور الدين محمود بمراقبة تحركات رينولد شاتيون نيابة عن الامبراطور، بدليل أن هذا الأمير الصليبي وقع في أسر المسلمين، كما سنرى، وبقي في السجن مدة ستة عشر عاماً، أي إلى ما بعد وفاة نور الدين محمود، من دون أن يتحرك الامبراطور البيزنطي لإنقاذ تابعه[٣].

وكان نور الدين محمود يهدف إلى عدم التدخل في شؤون أنطاكية لأن ذلك يُعطي الامبراطور البيزنطي فرصة للتدخل في شؤون بلاد الشام، وهذا ما لا يريده، فجوار

---

(١) ابن القلانسي: ص٥٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٤٥، ٥٤٦. Grégoire Le Prêtre: pp189, 190. Kinnamos: p188.

(٣) ابن العبري: ص١٧٤. Grégoire Le Prêtre: p208.

الصليبيين أحب إليه من جوار القسطنطينية، بالإضافة إلى أنه فضَّل ترتيب أوضاع البيت الإسلامي في الجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى وفقاً لمصلحته.

ولم يُرِد الامبراطور مانويل من جهته أن يؤذي أحداً من المسلمين، بل كان هدفه، كما ألمح جيرارد أسقف اللاذقية آنئذ، الهيبة لا الفتح بالإضافة إلى تسوية مشكلة أنطاكية، حتى إذا تمَّ له ذلك لم يبق عليه إلا أن يجري على السياسة البيزنطية التقليدية التي هدفت دائماً إلى تحقيق التوازن بين القوتين الإسلامية والصليبية في بلاد الشام، بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى بشكل يُهدِّد مصالح الامبراطورية، ولم يكن من صالحه أن يقضي على نور الدين محمود. بالإضافة إلى سياسته الشرقية، فقد تلقَّى الامبراطور مانويل نبأ مقلقاً من القسطنطينية ربما شكَّل الدافع الرئيس إلى عقد الصلح، وهو محاولة انقلاب لخلعه عن العرش بتدبير اثنين من كبار رجال بلاطه(١). شكّلت مبادرة الامبراطور بطلب الصلح مع نور الدين محمود صدمة للصليبيين الذين عدوا انسحابه خيانة للقضية الصليبية، وذكروا بأنه ضحَّى بمصالح الصليبيين من أجل الحفاظ على عرشه، ولم يُنجز إلا تحرير الأسرى، وبالغوا في المهانة التي لحقت بالقوات البيزنطية أثناء انسحابها وشبَّهوها بالأرانب، وقلَّلوا من قيمة الهدنة وبخاصة أن نور الدين محمود قد خدعهم ولم يُفرج إلا عن خمسين أسيراً فقط(٢)، لكن الواقع أن الامبراطور مانويل حقَّق كل أهدافه من وراء هذه الحملة.

ومهما يكن من أمر، يُعدُّ التقارب الذي تمَّ بين نور الدين محمود والامبراطور مانويل ميزة بالغة القيمة فيما ينشب من حروب مع عدو شديد الخطورة على الامبراطورية البيزنطية يتمثل في سلاجقة الروم، وبعد عقد الاتفاق، ارتدَّ الامبراطور مع جيشه باتجاه الغرب عائداً إلى بلاده(٣).

الملك بلدوين الثالث يهاجم الأملاك الإسلامية

باءت بالفشل فكرة التحالف بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين في بلاد الشام للقيام بعمل مشترك حاسم ضد نور الدين محمود، واضطر الصليبيون إلى الاعتماد على أنفسهم في صراعهم مع المسلمين.

وكان أن انتهز الملك بلدوين الثالث فرصة انهماك نور الدين محمود في شؤون

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٦٥. Grégoire Le Prêtre: p208. Kinnamos: pp189, 190.

(٢) Grégoire Le Prêtre: p192. Sclumberger: Renaud de Chatillon Prince d'Antioche: p110.

(٣) الصوري: وليم: جـ٢ ص٨٦٥. Kinnamos: p190.

آسيا الصغرى لمحاربة السلاجقة، فقام بالإغارة على منطقتي دمشق وحوران، فأضرم النار في كل ما صادفه، وعاث فساداً في النواحي، واستباح جنده الناحية كلها امتداداً من بصرى حتى دمشق.

كان حاكم دمشق آنذاك نجم الدين أيوب، وقد رأى أنه عاجز عن التصدي للصليبيين في ظل غياب نور الدين محمود مع معظم الجيش، لذلك دخل في مفاوضات مع الملك الصليبي، وعرض عليه مبلغ أربعة آلاف دينار وإطلاق سراح ستة من الفرسان الصليبيين مقابل هدنة مدتها ثلاثة أشهر[١].

وافق الملك الصليبي على ذلك، وتقرَّرت الهدنة، ونجح نجم الدين أيوب بفضل فطنته أن يُنقذ دمشق من الصليبيين.

جوسلين الثالث يقع في أسر المسلمين

على أثر عودة نور الدين محمود من الشمال إلى دمشق، كلَّف مجد الدين بن الداية بمراقبة الصليبيين في أنطاكية. وحدث في (رجب ٥٥٥هـ/ تموز ١١٦٠م) أن خرج جوسلين الثالث أمير الرها من حارم متوجهاً إلى حلب في محاولة لمهاجمتها، فتصدى له مجد الدين وتغلَّب عليه وأخذه أسيراً ودخل به إلى قلعة حلب وسجنه في الجب الذي سُجن فيه والده من قبل[٢].

رينولد شاتيون يقع في أسر المسلمين

أثناء عودة الملك بلدوين الثالث من أنطاكية، وخلال قيامه بغارات على دمشق، ترامى إلى سمعه وقوع رينولد شاتيون أمير أنطاكية أسيراً في يد نور الدين محمود. فقد حدث في (ذي القعدة ٥٥٥هـ/ تشرين الثاني ١١٦٠م) أن الحركة الموسمية لقطعان الماشية من جبال اللكام إلى سهل الفرات، أغرت أمير أنطاكية، الذي اتصف بالحمق السياسي، بعد أن أفادته كشافته أن في الناحية بين مرعش ودلوك قطعاناً كثيرة من البقر والأغنام، ولما كانت هذه المنطقة خالية ممن يحميها، إذ أن سكانها من المسيحيين كانوا يعيشون في دعة وأمان، طمع رينولد شاتيون في الإغارة على وادي نهر الفرات للاستيلاء على هذه القطعان، وقد حقَّق غايته من دون أن يصادف أدنى مقاومة.

وفي أثناء عودته، حمله على البطء في السير قطعان الماشية التي استولى عليها وساقها أمامه، فوقع في كمين نصبه له والي حلب مجد الدين بن الداية، بين كيسوم

---

(١) الصوري: وليم: جـ٢ ص٨٦٧، ٨٦٨.

(٢) ابن العديم: جـ٢ ص٤٨٨. ابن العبري: ص١٧٤.

ومرعش في مكان يُعرف باسم كومى، بعد أن علم بعودته من الغزاة متثاقلاً، وعلى الرغم من أنه استبسل في الدفاع عن نفسه غير أن القوات الإسلامية تفوّقت في العدد على رجاله فأسقطوه عن جواده وأسروه، وأرسلوه مع بقية الأسرى مكبَّلين إلى حلب، والتقى في السجن مع جوسلين الثالث الذي أُسر قبل ذلك ببضعة أشهر(١).

ذيول وقوع رينولد شاتيون في الأسر

أثار وقوع رينولد شاتيون في الأسر وغيابه عن المسرح السياسي مشكلة قانونية في أنطاكية، حيث كان يحكمها بوصفه زوج الأميرة كونستانس، فغدت هذه الإمارة من دون رجل قوي يحكمها ويدافع عنها، وبخاصة أن أهالي المدينة لم يساندوا الأميرة التي ادَّعت أن السلطة قد عادت إليها، ورغبت في السيطرة على زمام الأمور بنفسها، في حين عُدَّ ابنها بوهيموند الثالث من زوجها الأول، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، الوريث الشرعي(٢).

في ظل هذا الفراغ، لم يحاول نور الدين محمود مهاجمة أنطاكية خشية من إفساح المجال لتدخل بيزنطي، ولما كان الامبراطور مانويل صاحب السيادة الاسمية على الإمارة بات لزاماً عليه أن يُسوِّي المشكلة، على أن القسطنطينية كانت بالغة البُعد عن أنطاكية، كما أن أهلها وبخاصة النورمان كرهوا كل ما هو بيزنطي، وعدُّوا أنفسهم مستقلين عن بيزنطية، ولما كان ملوك بيت المقدس لهم حق التقدم على سائر الأمراء الصليبيين والتدخل في ترتيب أوضاعهم، ما دفع الملك بلدوين الثالث إلى التدخل، كما تطلع إليه أهل أنطاكية لحل المشكلة(٣).

وبناء على دعوتهم، قدم ملك بيت المقدس إلى أنطاكية وأعلن بوهيموند الثالث أميراً شرعياً، محافظاً بذلك على حقوقه الشرعية في الحكم، وعهد بالحكومة إلى البطريرك إيمري حتى يبلغ الأمير سن الرشد. والواقع أن الأميرة كونستانس عارضت هذا القرار، والتمست المساعدة من الامبراطور البيزنطي مانويل الذي لم يرض هو الآخر عن الأسلوب الذي تمَّ بموجبه حل المشكلة(٤).

ولم يلبث الامبراطور مانويل، الذي توفيت زوجته إيرين في نهاية عام (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م)، أن تزوَّج من الأميرة ماري ابنة كونستانس في (محرم ٥٥٦هـ/ كانون الثاني ١١٦١م) وقد فضَّلها على ميليسند، أخت ريموند الثاني أمير طرابلس، وبذلك

(١) ابن العديم: جـ٢ ص٤٨٨. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٦٨، ٨٦٩.

(٢) الصوري، وليم: المصدر نفسه. (٣) المصدر نفسه: ص٨٧١.

(٤) المصدر نفسه.

انتصرت الأميرة الأنطاكية وتمكَّنت من تثبيت أقدامها في الحكم[١].

نور الدين محمود يحاصر حارم

استغل نور الدين محمود تعقيدات المشكلة الأنطاكية وتضارب الآراء حول الحلول المقترحة لها، بالإضافة إلى نفور ريموند الثاني أمير طرابلس بسبب رفض الامبراطور البيزنطي الزواج من شقيقته، فهاجم حارم وحاصرها في عام (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) فامتنعت عليه بفعل حصانتها وضخامة حاميتها، وطلب سكانها النجدة من سائر القوى الصليبية المجاورة، فاحتشدت العساكر من كل حدب وصوب ملبية نداء الاستغاثة. وحاول نور الدين محمود أن يدخل في معركة مكشوفة مع الصليبيين لكن هؤلاء رفضوا ذلك على الرغم من كثافة أعدادهم، فانسحب عندئذ من أمام حارم حتى لا يقع في الجمود العسكري، واشترك أسامة بن منقذ في هذه الغزوة[٢].

وفاة الملك بلدوين الثالث

خرَّ الملك بلدوين الثالث مريضاً أثناء اجتيازه طرابلس عائداً من أنطاكية في طريقه إلى بيت المقدس، وعندما وصل إلى بيروت ازدادت حالته الصحية سوءاً وتوفي فيها في (٢٠ صفر ٥٥٧هـ/ ١٠ شباط ١١٦٢م)[٣]. لم يترك هذا الملك وريثاً سوى أخيه عموري حاكم يافا وعسقلان، فخلفه في الحكم وتُوِّج ملكاً في كنيسة القيامة باسم عموري الأول[٤].

واقترح أعوان نور الدين محمود عليه، وكان قد عاد حديثاً من أداء فريضة الحج، أن الوقت قد حان للقيام بهجوم عام على الصليبيين، إلا أنه رفض أن يُزعج قوماً يندبون فقدان ملكهم[٥]، وهذا تصرف حكيم يُعبِّر عن دماثة أخلاق مستمدة من تعاليم الدين الإسلامي التي نشأ عليها.

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٧١ ـ ٨٧٣. Michel le Syrien: III p324.
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص١١٦.
(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٧٦، ٨٧٧.
(٤) المصدر نفسه: ص٨٧٨، ٨٧٩.
(٥) المصدر نفسه: ص٨٧٧.

الفَصْلُ السَّابع عَشَر

الصراع بين نور الدين محمود والملك عموري الأول حول مصر

تمهيد

مرَّ الصراع بين نور الدين محمود وعموري الأول ملك بيت المقدس حول مصر في ثلاث مراحل زمنية:

الأولى: مرحلة استطلاع الأوضاع السياسية والاقتصادية، وتُغطي المدة الزمنية بين عامي (٥٥٨ ـ ٥٦١هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٦٦م).

الثانية: مرحلة تأكيد الحماية الصليبية على مصر، وتُغطي المدة الزمنية بين عامي (٥٦٢ ـ ٥٦٣هـ/ ١١٦٧ ـ ١١٦٨م).

الثالثة: مرحلة نجاح نور الدين محمود في ضمِّ مصر إلى بلاد الشام، وتُغطي المدة الزمنية بين عامي (٥٦٤ ـ ٥٦٥هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٦٩م).

المرحلة الأولى

الأوضاع الداخلية في مصر

كانت الدولة الفاطمية تمر آنذاك بمرحلة التفكك والانحلال. ففي (محرم ٥٤٩هـ/ نيسان ١١٥٤م) قامت فتنة في القاهرة بين طوائف الجند قُتل خلالها الإمام الظافر، وعُيِّن مكانه ابنه الطفل الفائز الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره، وذلك بتأثير الوزير عباس الصنهاجي(١)، وتصاعد في عهده نفوذ الوزراء، وأدَّت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب القصر والمجتمع المصري ما دفع أميرات القصر الفاطمي إلى استدعاء طلائع بن رُزَّيك، والي الأشمونين(٢) والبهنسا(٣) الأرمني الأصل، لإنقاذ الوضع.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٢١٢، ٢١٣.

(٢) الأشمونين: بلدة بصعيد مصر الأدنى غربي النيل، وهي قصبة كورة عامرة. الحموي: جـ١ ص٢٠٠.

(٣) البهنسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل. المصدر نفسه: ص٥١٦.

قدم طلائع بقواته إلى القاهرة في (ربيع الأول ٥٤٩هـ/ حزيران ١١٥٤م) ودخلها وسط ترحيب فئات المجتمع كافة، فعزل الوزير عباس الذي هرب إلى بلاد الشام لكنه لقي مصرعه في الطريق على أيدي الصليبيين(١). وطمع طلائع في جعل الحكم الفاطمي في عقبه، فعندما توفي الفائز في (رجب ٥٥٥هـ/ تموز ١١٦٠م) من دون أن يترك وريثاً أقام مكانه على العرش الأمير عبد الله حفيد الإمام الحافظ وهو أصغر الأقارب ولقَّبه العاضد لدين الله، وزوَّجه ابنته عسى أن تُرزق منه ولداً فيجتمع لبني رُزَّيك الخلافة مع الملك(٢)، واستبدَّ هو بإدارة شؤون الدولة، وفَقَدَ الإمام في المقابل اختصاصاته، فأضحى طلائع بذلك صاحب الأمر والنهي في الدولة الفاطمية.

وثقلت وطأة طلائع على العاضد، وضاق بتسلطه ذرعاً، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة زواج ابنته من الإمام، فحنقن عليه، ودبَّرت إحدى عمات العاضد، وتُدعى ست القصور وهي أخت الظافر الصغرى، أمر مقتله، فكمن له بعض الخدم في دهليز القصر وقتلوه في (١٩ رمضان ٥٥٦هـ/ ١١ أيلول ١١٦١م)(٣).

خلف طلائع ابنه رُزَّيك وتلقب بلقب الملك العادل مجد الإسلام. اتبع في بداية حياته سياسة التسامح، فأسقط الظلم عن الناس، وأدَّى عن الحجاج ما يلزمهم إلى أمير الحرمين(٤)، وحاول أعوانه إثارته ضد شاور، حاكم قوص عاصمة الصعيد، حتى لا ينافسه على الحكم، فاستجاب لنصيحتهم مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي لأن شاور اشتهر بالقدرة والكفاءة ما جعل الناس يلتفون من حوله، فأقصاه عن منصبه في عام (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)(٥).

لم يركن شاور الذي اتصف بالطموح السياسي إلى الهدوء، فجمع أعوانه وأعداداً وفيرة من العربان وأمراء الصعيد وزحف إلى القاهرة، فتغلَّب على القوة التي جنَّدها رُزَّيك للتصدي له، ثم اعتقل الأخير الذي قُتل بعد ذلك على يد طي بن شاور في (٢٠ رمضان ٥٥٨هـ/ ٢٣ آب١١٦٣م)، وحلَّ شاور محله في منصب الوزارة(٦).

لم يلبث شاور أن استبدَّ بالحكم وأساء السيرة، فصادر أموال بني رُزَّيك، وعامل

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٢١٣، ٢١٤. ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣١٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٢٧٠.

(٣) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: إتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: جـ٣ ص٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه. (٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٥٧ ـ ٢٥٩. ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣٤٦.

الإمام العاضد معاملة سيئة[١]، وكان طلائع قد أنشأ فرقة من الجند يُقال لها البرقية[٢] وعيَّن ضرغاماً بن عامر قائداً عليها وهو صاحب الباب[٣]، ولم يكن هذا الرجل بأقل طمعاً في الوزارة من غيره، فخرج على حكم شاور بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة وانتصر عليه، فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبه بالملك المنصور، وفرَّ شاور[٤].

توجَّه شاور إلى بلاد الشام لالتماس المساعدة من نور الدين محمود، فوصل إلى دمشق واجتمع به، فأحسن نور الدين محمود استقباله وأكرم مثواه وأنعم عليه[٥].

ولم يلبث ضرغام أن استغل منصبه لجمع الأموال، فبغى بدوره وارتكب المظالم، وقتل كثيراً من أمراء مصر لتخلو له الساحة السياسية، وسرعان ما عمَّ الاستياء أوساط العامة والخاصة وانتابهم الخوف على مصيرهم[٦].

أما في حقل السياسة الخارجية، فقد أرسل ضرغام رسالة إلى دمشق يطلب فيها دعم نور الدين محمود وتأييده، لكن هذا الأخير لم يُعر رسالته التفاتة جدِّية، ورفض مساعدته، عندئذ تطلع إلى بيت المقدس في محاولة لكسب تأييد ملكها عموري الأول ليدافع عنه ضد أي هجوم قد يقوم به شاور، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، لكن الملك الصليبي تباطأ في الرد، على الرغم من تأييده لكل خطوة من شأنها أن تسمح له بالتدخل في شؤون هذا البلد.

وهكذا أخذت الصراعات الداخلية في مصر بُعداً إقليمياً خارجياً، وجاءت مؤشراً على قرب نهاية الدولة الفاطمية، فقد كشفت لكل من نور الدين محمود والملك عموري الأول عن مواطن ضعف الدولة، وأغرته بالطمع فيها والاستيلاء عليها.

مصر في سياسة الصليبيين

تطلع الصليبيون منذ وقت مبكر إلى غزو مصر، ففي عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) ناقش قادة الحملة الصليبية الأولى اقتراحاً بمهاجمة الفاطميين في مصر، لأن هذا البلد يملك مفاتيح بيت المقدس، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة هادئة ومستقرة فعليهم أن يؤمِّنوا ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا، إلا أنهم لم يتمكَّنوا من وضع خطتهم هذه موضع التنفيذ لأنهم كانوا في وضع لا يسمح لهم بغزو مصر قبل وضع

(١) المقريزي: جـ٣ ص٢٦٠ ـ ٢٦٤.
(٢) نسبة إلى برقة الواقعة غربي مصر.
(٣) صاحب الباب: هي رتبة تلي الوزارة مباشرة.
(٤) المقريزي: جـ٣ ص٢٦٠ ـ ٢٦٤.
(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٥.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٩٩.

يدهم على بيت المقدس[١].

واتجهت حركة الوحدة الإسلامية، منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، إلى الشمال، وكانت مخاوف الصليبيين من ضمِّ دمشق على يد نور الدين محمود وتحقيق وحدة بلاد الشام الإسلامية في محلها بعد احتكاكهم بالزنكيين في الجزيرة الفراتية، واصطدامهم بالمشروع الذي تجلَّى بعد سقوط الرها، متجاوزاً في أبعاده بلاد الشام إلى مصر، تنفيذاً للمرحلة التالية من خطة نور الدين محمود الهادفة إلى استعادة بيت المقدس وإخراج الصليبيين من المنطقة[٢].

لم يغفل الصليبيون خلال ذلك أمر مصر بعد أن ظهر للعيان مدى ضعف الدولة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها، ودفعتهم حركة وحدة المسلمين في بلاد الشام إلى التوسع نحو الجنوب الغربي على حساب مصر والفاطميين.

على أن غزو مصر، وهي السياسة التي اتخذت طابعاً عملياً واسع النطاق على يد الملك عموري الأول فيما بعد، كان لا بد من التمهيد لها بالاستيلاء على عسقلان، وهي القاعدة الوحيدة التي ظلَّت بيد الفاطميين في فلسطين، وهذا ما قام به الملك بلدوين الثالث، وساعدته الأوضاع المفكَّكة في العالم الإسلامي آنذاك على احتلالها، وهدَّد بغزو مصر في عام (٥٥٥هـ/ ١١٦١م) منتهزاً فرصة نشوب الفوضى عقب مقتل الإمام الفائز، لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار[٣]، غير أن هذه الجزية لم يجر دفعها ما كان دافعاً للملك عموري الأول لاتخاذها ذريعة لغزو مصر، والواقع أن عدم دفع الجزية لم يكن إلا دافعاً ظاهراً أما الأسباب الحقيقية فتكمن في دافعين، سياسي واقتصادي.

فمن حيث الدافع السياسي، يُعدُّ عهده فاتحة مرحلة جديدة في الصراع بين المسلمين والصليبيين، وذلك بما أحدثه من تغيير جذري في سياسة الصليبيين الخارجية تجاه مصر، تختلف عن سياسة سلفه، إلا أنها تتوافق مع النهج الصليبي العام. لقد واجه الملك عموري الأول مشكلة كبيرة تمثَّلت بالانتصارات المتوالية لنور الدين محمود جعلت الكيان الصليبي في طريقه إلى الانهيار، لذلك رأى توسيع

---

(١) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية: ص١٧٤، ١٧٥. بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية: جـ٢ ص٦٦٤.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٤. رنسيمان: جـ٢ ص٥٩٢. Michel le Syrien: III p317.

رقعة ممتلكاته في اتجاه آخر هو مصر(١). وارتكزت سياسته الخارجية على القيام بسلسلة من المحاولات لغزو هذا البلد والسيطرة عليه للالتفاف على نور الدين محمود، لأنه لو حدث أن وضع يده عليه فإن من شأن ذلك أن يُعرِّض الإمارات الصليبية للحصار والزوال.

ومن حيث الدافع الاقتصادي، فإنه لم يغب عن تفكير الملك عموري الأول تجارة مصر الضخمة، وميناء الإسكندرية الكبير الذي يعمل على رواج تلك التجارة، بالإضافة إلى حركة التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البلد الذي يتحكم في أقصر وأفضل الطرق التجارية الشرقية(٢).

مصر في سياسة نور الدين محمود

شكَّلت استغاثة شاور بنور الدين محمود نقطة تحول مهمة في مستقبل مصر السياسي، فقد أثارت اهتمامه الجدي بعد أن وقف على ضعفها في ظل احتضار الدولة الفاطمية، وتكمن تطلعاته إليها لاستخدامها لتحقيق أهداف دينية وسياسية واقتصادية.

فمن حيث الهدف الديني:

ـ فقد أضعفت غزوات الصليبيين المتواصلة لمصر بين أعوام (٥٥٠ ـ ٥٦٤هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٦٨) الدولة الفاطمية سياسياً ومادياً، فعجزت عن صدِّهم، كما أنها أتاحت للعناصر المعارضة لانتقادها والعمل على نشر المذهب السني كخطوة أولى في القضاء التدريجي عليها.

ـ أدرك نور الدين محمود أن قيام الدولة الفاطمية في مصر شكَّل مصدراً للفرقة في العالم الإسلامي، لأنها جعلت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى تتقاسمه خلافتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنية في بغداد، والأخرى الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر، لذلك كان من الطبيعي من أجل توحيد الهدف، وهو السني المذهب، أن يفكر في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر.

ـ يبدو أن حركة الإحياء السني نشطت في القاهرة والإسكندرية بفضل استقرار بعض الزهاد المتصوفة وعلماء السنة الذين دعوا إلى المذهب سراً وعلانية، وعلى رأسهم زين الدين علي بن نجا الواعظ الذي قصد مصر بتشجيع من نور الدين

---

(١) Stevenson: p185.

(٢) الحويري، محمود محمد: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين: ص١٢٨، ١٢٩. وراجع فيما يتعلق بأهمية العامل الاقتصادي:
Ehrenkreutz, A.S: Saladin: pp17, 18.

محمود واستقر في القاهرة تحت رعاية الوزير طلائع بن رُزِّيك[1].

ومن حيث الهدف السياسي:

- إن وقوع مصر في يد الملك عموري الأول من شأنه أن يحاصر بلاد الشام من قِبل الصليبيين من الجنوب، مملكة بيت المقدس، والصليبيين من الشمال، إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، ما يشكل تهديداً حقيقياً لحركة الوحدة الإسلامية.

- أدرك نور الدين محمود أهمية وضع يده على مصر والمزايا التي تعود عليه بامتلاكها فيما يتعلق بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين، على أساس أن توحيد القوى الحاكمة في كل من الشام ومصر تحت زعامة حاكم مسلم واحد من شأنه أن يجعل مملكة بيت المقدس محصورة بين فكي الكماشة ويضطرها للقتال على جبهتين، في الوقت الذي كان فيه الأسطول الفاطمي بقادر على مضايقة حركة السفن الصليبية في البحر وحصار بعض الثغور على الساحل الشامي.

- توحيد الصف الإسلامي تمهيداً للمرحلة المقبلة في خطته الهادفة إلى استعادة بيت المقدس وإخراج الصليبيين من المنطقة، إذ أن انضمام مصر إلى بلاد الشام يتيح له فرصة أفضل لتحرير الأراضي الإسلامية من سيطرة هؤلاء.

ومن حيث الهدف الاقتصادي:

إن امتلاك مصر من قِبل نور الدين محمود سوف يتيح له الاستفادة من مواردها الاقتصادية والبشرية وتسخيرها في خدمة الجهاد الديني ضد الصليبيين، ويُعدُّ النجاح في تحقيق هذا الهدف، خطوة مهمة في طموحات العائلة الزنكية، إذ أن تسخير موارد بلاد الشام وشمالي العراق ساعده على تهديد بيت المقدس، وأن الاستفادة المادية المباشرة من امتلاك مصر تكمن في حصوله على الأموال اللازمة من هذا البلد التي من شأنها تغذية الخزانة الإسلامية وبالتالي تقوية الجبهة الإسلامية.

حملة الملك عموري الأولى على مصر

خرج الملك عموري الأول من بيت المقدس في مستهل (ذي القعدة ٥٥٨هـ/ تشرين الأول ١١٦٣م) على رأس جيشه متوجهاً إلى مصر للاستيلاء عليها بحجة عدم وفاء الحكومة الفاطمية بالتزاماتها دفع الجزية المتفق عليها، وساهمت منظمة الأسبتارية في تجهيز الحملة[2].

وصل الجيش الصليبي إلى العريش من دون أن يلقى مقاومة، والتقى مع الجيش

---

(١) المقريزي: جـ٣ ص٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٤، ٨٨٥.

الفاطمي بقيادة ضرغام عند أطراف مديرية الشرقية وتغلَّب عليه، ثم تابع تقدمه إلى بلبيس[١] وحاصرها، وكادت تسقط في يده لولا أن ضرغاماً استغل فيضان النيل فعمد إلى تحطيم السدود، فساح الماء وأغرق الأرض، وامتلأت الترع بالمياه، الأمر الذي أرغم الملك الصليبي على الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس لتعذر العمليات العسكرية[٢].

على الرغم من عودة الملك عموري الأول فاشلاً إلا أن الحملة لم تخلُ من فائدة بالنسبة للصليبيين، فقد كشفت عن:

- ضعف الدولة الفاطمية بسبب النزاع الدائر بين الوزراء على الاستئثار بالنفوذ.
- انتشار روح الفوضى والاضطرابات.
- انعدام الروح العسكرية عند الجند السودان والأرمن الذين يُشكِّلون عماد الجيش الفاطمي.
- عِظَم ثروة مصر وسهولة الاستيلاء عليها.
- الأمل في الحصول على مساعدة القبط.

وقد شجَّعه ذلك على التخطيط للقيام بغزوة كبيرة تُمكِّنه من وضع يده على مصر.

نور الدين محمود يهاجم حصن الأكراد

كان نور الدين محمود يراقب تحركات الملك عموري الأول بالإضافة إلى تطور الأوضاع في مصر، فاستغل فرصة غيابه وهاجم إمارة طرابلس، وأغار على البقيعة تمهيداً لمهاجمة حصن الأكراد.

وصادف آنذاك مرور بعض الأمراء الصليبيين من أكويتانيا في فرنسا، كان من بينهم هيو كونت لوزنيان، وغودفري مارتل، في أراضي طرابلس، عائدين من بيت المقدس فانضموا إلى قوات أميرها ريموند الثالث، للتصدي لنور الدين محمود، وهرع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية للمساعدة، وكذلك فعل قسطنطين كولومان قائد الحامية البيزنطية. وتحرك الجيش الصليبي المتحد باتجاه حصن الأكراد، وفاجأ المسلمين وهم يُحاصرون الحصن، وبعد نشوب معركة لم تستمر طويلاً انسحب نور الدين بجيشه من الساحة ومضى مسرعاً باتجاه حمص، إذ أنه لم يكن يتوقع هذه الحشود الضخمة وهي تسير في اتجاهه، وتلقَّى إمدادات من دمشق وحلب، وتأهب لملاقاة الصليبيين، ويبدو أن هؤلاء خشوا من مطاردته داخل أملاكه، فعادوا

---

(١) بلِبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر على طريق الشام. الحموي: جـ١ ص٤٧٩.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٥.

أدراجهم[1].

الحملة النورية الأولى على مصر

اجتمع شاور فور وصوله إلى دمشق هارباً من ضرغام، بنور الدين محمود، وأجرى معه مباحثات سياسية تعهَّد له خلالها أن:

- يدفع ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، أي رواتب الجند.
- يوافق على إقامة عدد من أمراء بلاد الشام معه في مصر.
- يعترف بسيادة نور الدين محمود ويُنفذ أوامره.

وذلك مقابل مساعدته في القضاء على منافسه ضرغام واستعادة منصبه[2].

كان من الطبيعي أن يُرحب نور الدين محمود بتلك الفرصة التي تُتيح له التدخل في شؤون مصر، بعد أن توضَّحت نية الملك عموري الأول في امتلاكها، غير أنه تردَّد في بادئ الأمر بقبول العرض رغبة منه في دراسة الموقف، وقد خشي أن يغامر بجيش على امتداد الطريق الذي يسيطر عليه الصليبيون وراء الأردن بين دمشق ومصر، كما لم يشأ أن يظهر بمظهر الطامع في مصر، ويعود الفضل إلى أسد الدين شيركوه في تبديد مخاوفه وتشجيعه على الإقدام على غزو مصر، فقرَّر إرسال حملة عسكرية إلى هذا البلد وعهد إلى أسد الدين شيركوه بقيادتها، وذلك لتحقيق هدفين:

الأول: إعادة شاور إلى منصبه.

الثاني: الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمِّها.

ووعده شاور إن هو عاد إلى منصبه، فإنه سيتحمل نفقات الحملة ويؤمِّن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فالتمس المساعدة من الملك عموري الأول في محاولة منه الدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته، وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك، كما وافق أن تدخل مصر في حماية الصليبيين، وأجبر الإمام العاضد على توقيع الاتفاق[3].

خرج أسد الدين شيركوه على رأس الحملة إلى مصر في (جمادى الآخرة ٥٥٩هـ/

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٠١ ـ ٣٠٣. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٧، ٨٨٨.

(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٠٥. ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣٣٨، ٣٤٦.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٦. Elisséeff: II p580. Ehrenkreutz: pp23, 24.

نيسان ١١٦٤م) يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، وشاور، وسار على الطريق المحدَّد للحملة والذي يمر عبر أراضٍ يسيطر عليها الصليبيون[1]، وحتى يصرف أنظار الصليبيين عن التعرض للحملة وتأميناً على حياة أفرادها؛ رافق الحملة إلى ما يلي دمشق وراح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق، حتى يُحوِّل أنظار الصليبيين عن مصر[2].

ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة بعد أن تغلَّب على قوة عسكرية عند السويس، أرسلها ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين، فتصدى له ضرغام، وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة وانتهى بانتصار أسد الدين شيركوه، وقُتل ضرغام أثناء الفرار كما قتل أخوه ناصر الدين. ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[3].

وما إن استعاد شاور منصب الوزارة حتى عاد إلى طبيعته السيئة ليدخل في صراع مع أسد الدين شيركوه، وتناسى وعوده لنور الدين محمود، فنقض الاتفاق معه وطلب من أسد الدين شيركوه الخروج من مصر والعودة إلى بلاد الشام، ولكن هذا رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فاستولى على بِلبيس وحكم البلاد الشرقية[4].

لم يسع شاور إلا التماس المساعدة من الملك عموري الأول الذي كان يتأهب لغزو مصر، وأخذ يُخوِّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة، من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.
- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية، الذين كانوا يُشكِّلون عماد جيشه، في محاولة لإغرائهم بالاشتراك في الحملة.
- يتكفَّل بنفقات علف أفراسهم.

وذلك مقابل مساعدته في إخراج أسد الدين شيركوه من مصر[5].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ص٧٦. Ehrenkreutz: p24.

(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٦، ٣٠٧. Elisséeff: II pp582-584. Stevenson: p187.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٢١، ١٢٢. ابن واصل: جـ١ ص١٣٩. أبو شامة: جـ١ ص٣٣٥.

(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٧.

رحَّب الملك عموري الأول بدعوة شاور بعد أن ازدادت مخاوفه من حملة أسد الدين شيركوه، وحتى لا تضيع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء، فكل ما يعنيه هو دخول مصر.

حملة الملك عموري الثانية على مصر

بادر الملك عموري الأول فور تلقيه دعوة شاور إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره نبلاء المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح الملك للمجلس أن في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر من دون أن يُضعف دفاعات بيت المقدس، وبخاصة أنه وصل وقتئذ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي، وأمل في أن يتمكَّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهيموند الثالث أمير أنطاكية إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[١].

وأسرع الملك الصليبي بالزحف إلى مصر على رأس قواته في (رمضان ٥٥٩هـ/ آب ١١٦٤م) للمرة الثانية، واتصل فور وصوله إلى فاقوس[٢] بشاور، واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بِلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر حتى قرَّر الملك الصليبي فجأة الدخول في مفاوضات مع أسد الدين شيركوه للخروج المزدوج من مصر[٣]. فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟

الواقع أن الملك عموري الأول تلقى أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بِلبيس.

وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فقد بدأت المؤن بالنفاد فضلاً عن تفوق القوات الصليبية ـ الفاطمية المشتركة في العدد، وأن الوضع العسكري ليس في صالحه، لذلك وافق على الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[٤].

واتفق الرجلان على الخروج من مصر في (ذي الحجة/ تشرين الأول)، فسار

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٣٠٦. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٧.

(٢) فاقوس: مدينة في جوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى. الحموي: جـ٤ ص٢٣٢.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٠٦.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٠٧.

الجيشان، الإسلامي والصليبي، في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء، وتركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم[1].

الحقيقة أن شاور كان المستفيد من هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء، كما تخلَّص من ضرغام، وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكم في مقاليد البلاد[2].

الواضح أن الحملة الصليبية الثانية التي قام بها الملك عموري الأول ضد مصر كسبت جولة في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، ذلك أن الملك الصليبي تمكَّن من إرغام أسد الدين شيركوه على الانسحاب من هذا البلد والتخلِّي عن المواقع التي وقعت تحت سيطرته، هذا في الوقت الذي أضحى للصليبيين قدر كبير من النفوذ المادي والمعنوي عند شاور، وفي المقابل، فقد تدعَّمت أملاك نور الدين محمود في بلاد الشام وارتفع شأنه في العالم الإسلامي.

ومهما يكن من أمر فقد وقف كل من أسد الدين شيركوه والملك عموري الأول على أوضاع مصر السياسية المتردية وسوء أوضاعها الاقتصادية، وما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة تُرجِّح كفة من يضع يده عليها.

نشاط نور الدين محمود خلال حملة الملك عموري الثانية على مصر

فتح حارم: اختار نور الدين محمود أن يهاجم حصن حارم التابع لإمارة أنطاكية مستغلاً الفراغ العسكري الذي تركه الملك عموري الأول، وهذا ما دفع الملك الصليبي أن يُعجِّل بالعودة إلى بيت المقدس، وحاصر نور الدين محمود الحصن بهدف تخفيف الضغط عن مصر وإجبار الملك الصليبي على الانسحاب، ثم الثأر للخسارة التي تعرَّض لها أمام حصن الأكراد.

لم يقف الصليبيون مكتوفي الأيدي أمام تهديدات نور الدين محمود فتكتَّلوا للدفاع عن كيانهم، فظهر تحالف ضمَّ كل من بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث كونت طرابلس، وقسطنطين كولومان حاكم كيليكية البيزنطي، والأمير الأرمني ثوروس الثاني، ورينولد سانت ڤاليري حاكم حارم[3]، والواضح أن البيزنطيين والصليبيين والأرمن تركوا خلافاتهم جانباً للقضاء على نور الدين محمود.

خرج الجيش المسيحي المتحد في (١٥ رمضان/ ٦ آب) باتجاه الحصن، ولما شاهد نور الدين محمود ضخامة القوات المتحالفة، التي قُدِّرت بحوالي ثلاثين ألفاً،

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٥٩٥. (٢) سيد: ص٢٢٦.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٨، ٨٨٩.

رفع الحصار عن حارم وفق خطة عسكرية لاستدراجها، وتوجَّه إلى أرتاح طمعاً في أن يطاردوه فيتمكَّن منهم بعد أن يبتعدوا عن قواعدهم[١].

وفعلاً عزم بوهيموند الثالث أن يقتفي أثره مخالفاً بذلك نصيحة رينولد سانت ڤاليري الذي حذَّره من كمين قد يعدُّه نور الدين محمود. عند هذه المرحلة نصح الأمير الأرمني ثوروس الثاني، الذي اتصف بالحذر الشديد، الأمراء الآخرين بعدم الدخول في معركة والانتظار حتى يعود الملك عموري الأول من مصر، لكن القادة الصليبيين لم يأخذوا بهذه النصيحة، لذلك انسحب مع أخيه مليح من المعركة[٢].

ووقع الصدام بين القوتين الإسلامية والمسيحية بالقرب من أرتاح، وإذ تجاهل بوهيموند الثالث تحذير ثوروس الثاني، بادر بالهجوم، ولما تظاهر المسلمون بالفرار اندفع وراءهم، فلم يلبث أن وقع في كمين نصبوه له، وأطبق جيش الموصل على القوة البيزنطية وهزم أفرادها وأعمل فيهم القتل والأسر، وأحاط المسلمون بالقوات المتحالفة من كل جانب، واشتدت رحى الحرب حتى انتهى الأمر بهزيمتها، وقُتل عدد كبير من أفرادها قدَّرته المصادر الإسلامية بعشرة آلاف فارس، ووقع في أسر المسلمين كل من ريموند الثالث وجوسلين الثالث وقسطنطين كولومان وهيو لوزنيان، فجرى تقييدهم وسيقوا إلى حلب مع بقية الأسرى الذين بلغ عددهم ستة آلاف أسير. تشجَّع المسلمون بهذا النصر فتقدموا إلى حارم وفتحوها بعد أيام عدة[٣].

نتائج فتح حارم: كانت الهزيمة، التي حلَّت بالقوات المسيحية المتحالفة، ساحقة، وعُدَّت من أعظم الكوارث التي حلَّت بالقيادة الصليبية الشمالية بوجه خاص، وترتب عليها نتائج عدة أهمها:

- حقَّق نور الدين محمود كسباً رائعاً بفتح حارم التي كانت قلعتها الحصينة تحرس الطريق المؤدي إلى أنطاكية من ناحية حلب، ونتيجة لذلك أصبحت مدينة أنطاكية تحت تهديد المسلمين.
- أضحى الطريق إلى أنطاكية مفتوحاً أمام نور الدين محمود إلا أنه لم يهاجمها، ولعله كان يرى أن إمارة أنطاكية الصليبية جزء من أملاك الامبراطورية البيزنطية فخشي أن يُلقي البيزنطيون ثقلهم العسكري في النزاع، فيصبح عليه أن يواجههم مع الصليبيين في وقت واحد، لذلك لم يجازف بمهاجمة المدينة مبرهناً عن حسن إدراك للظروف المحيطة به وبُعد نظر سياسي، وترك الأمور فيها على حالها.
- كانت معركة حارم آخر معركة تجري على أرض الشام تشترك فيها القوات

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٠٩.
(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٩.
(٣) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ٢ ص٤٩٤، ٤٩٥.

البيزنطية في عهد نور الدين محمود، وعلى الرغم من النهاية الفاشلة التي مُنيت بها جهود القوات المتحالفة، إلا أنها تُوضِّح لنا جانباً من أثر النفوذ البيزنطي على مجريات الأحداث.

ـ شجَّع هذا النصر نور الدين محمود، فهاجم قلعة بانياس وفتحها.

فتح قلعة بانياس: كانت قلعة بانياس تابعة لمملكة بيت المقدس منذ عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م) وهي قلعة حصينة منيعة تقع على بُعد بضعة أميال شمال المدينة، وتُعدُّ أحد مفاتيح الطريق إلى مصر، ومع حرص نور الدين محمود على مواصلة جهوده الرامية إلى تخفيف الضغط عن الجبهة المصرية، قرَّر فتح بانياس، وكان صاحبها همفري الثاني يرافق الملك عموري الأول في حملته على مصر مصطحباً معظم قواته، فعبَّأ جيشاً قوياً وأشاع بأنه مُتوجِّه نحو طبرية، وهذا أسلوب عسكري سليم أتاح له التوجه إلى هدفه من دون عائق، ذلك أن الصليبيين أسرعوا عندما تناهى إليهم خبر تلك الإشاعة إلى طبرية وتجمَّعوا في هذا المكان.

وحاصر نور الدين محمود قلعة بانياس وضيَّق على أهلها، فاستبسلت حاميتها في الدفاع، وانعقد الأمل في أن تتلقَّى نجدة سريعة من ثييري كونت فلاندر الذي قدم آنذاك إلى فلسطين، لكن يبدو أن النجدة تأخرت أو أن الحامية أُخطِرت بعدم قدرة ثييري على تقديم المساعدة، فاستسلمت لنور الدين محمود في (ذي الحجة ٥٥٩هـ/تشرين الأول ١١٦٤م)، فدخلها وحصَّنها وملأها ذخيرة وعتاداً ورجالاً، كما سيطر على المناطق المحيطة بها، وهدَّد بالزحف على الجليل، فلم يسع النبلاء إلا أن يعدوه بدفع الجزية، فشاطرهم في أعمال طبرية، وقرَّروا له عن الأعمال التي لم يشاطرهم عليها مالاً كل سنة[1].

وبفتح حارم وقلعة بانياس، أثبت نور الدين محمود نجاح خطته الرامية إلى توحيد المسلمين ومقاومة الصليبيين في وقت واحد.

تجدُّد الصراع حول أنطاكية

عاد الملك عموري الأول من مصر في (محرم ٥٦٠هـ/تشرين الثاني ١١٦٤م) ليجد أوضاع الصليبيين في بلاد الشام في وضع خطير جداً، فقد فتح نور الدين محمود حارم التابعة لإمارة أنطاكية، وقلعة بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس، مع ما لهذين الموقعين من أهمية عسكرية في الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى، بالإضافة إلى وقوع أمراء الشمال الصليبيين في الأسر.

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣١٠، ٣١١.

لذلك هرع إلى الشمال لإعادة ترتيب أوضاع إمارتي طرابلس وأنطاكية في ظل غياب صاحبيهما في الأسر، فلحق به ثييري كونت فلاندر، وتوقف في طرابلس لتوطيد حقه في الوصاية على الإمارة، ثم مضى في سيره إلى أنطاكية لتدبير أمورها، ولعله كان طامعاً في وضعها تحت حكمه المباشر.

ومن جهته، أرسل الامبراطور البيزنطي مانويل، فور تلقيه نبأ أسر بوهيموند الثالث، سفارة إلى أنطاكية للوقوف على أوضاعها، وحماية حقوق الامبراطورية فيها، وأثناء وصول الملك الصليبي إلى المدينة، قدم إليه رسول من قِبل الامبراطور البيزنطي يستفسر عن سبب وجوده فيها، ويعني ذلك:

- أن بقاء الملك الصليبي فيها أمر غير مرغوب فيه من قِبل الامبراطورية البيزنطية، في الوقت الذي لا نجد مثل هذه السفارة عقب أسر رينولد شاتيون أمير أنطاكية السابق الذي كان لا يزال في أسر المسلمين.

- أن الإمارة لا تتبع الملك عموري الأول، وليس له الحق في التدخل في شؤونها، وهذا يعني أمرين:

الأول: إما أن تضع الامبراطورية البيزنطية يدها على الإمارة، وهذا يتطلب قدوم بعض القوات البيزنطية لتحقيق ذلك، وتأكيد السلطة البيزنطية على أنطاكية، وهو ما لم يحدث.

الثاني: أن بوهيموند الثالث عائد إلى الإمارة عن قريب ولا داعي لوجود الملك عموري الأول فيها[(١)].

كان الملك عموري الأول لبقاً في رده على المبعوث البيزنطي، فأشار إلى أن حضوره إلى أنطاكية سببه إعداد سفارة لإرسالها إلى القسطنطينية بهدف الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات[(٢)].

نور الدين محمود يُطلق سراح بعض الأسرى المسيحيين

دفعت حكمة نور الدين محمود وبُعد نظره إلى إطلاق سراح قسطنطين كولومان مقابل مائة وخمسين ثوباً من الحرير، ولعل في ضآلة قيمة هذه الفدية ما يُشير إلى أنه لم يكن راغباً في الدخول في صراعٍ مباشر مع الامبراطورية البيزنطية وفتح جبهة أخرى أقوى من الجبهة الصليبية فيُشتِّت جهوده بين القوتين.

وأرسل الأمير الأرمني ثوروس الثاني بعض الهدايا إلى نور الدين محمود مقابل

---

(١) عمران: محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط: ص١٥٤.

(٢) Kinnamos: pp237, 238.

إطلاق سراح الأسرى الأرمن، لكن الزعيم المسلم رفض هذا العرض، الأمر الذي دفع الأمير الأرمني إلى مهاجمة مرعش، فنهبها وأسر العديد من المسلمين، وعند ذلك تحوَّل نور الدين محمود إلى المصالحة، وتبادل الجانبان إطلاق الأسرى[1].

ولعل ما دفع نور الدين محمود إلى هذا التحول هو أنه لم يكن يرغب في أن يسير بقواته إلى الشمال لقتال الأرمن، فتخلو الممتلكات الإسلامية من عساكرها وتصبح سهلة المنال للقوات البيزنطية والصليبية معاً، وبخاصة أن الملك الصليبي عاد فاشلاً من مصر، وقد يدفعه ذلك إلى القيام بعمل عسكري لتعويض فشله.

وأثناء وجود الملك عموري الأول في أنطاكية، دخل في مفاوضات مع نور الدين محمود لإطلاق سراح بوهيموند الثالث تكلَّلت بالنجاح، وأُطلق سراح صاحب أنطاكية لقاء فدية بعد مضي سنة على وقوعه في الأسر، ويبدو أن الامبراطور البيزنطي أدَّى دوراً في إطلاق سراحه بدليل ما نراه من وجود سفارة بيزنطية في أنطاكية عقب وقوعه في الأسر.

ويستوقفنا في هذا المقام موقف نور الدين محمود الذي لم يعتد إطلاق سراح الزعماء الصليبيين بعد وقت قصير من وقوعهم في الأسر. ويُصوِّر المؤرخ وليم الصوري موقفه حين يروي أن إطلاق سراح بوهيموند الثالث يرجع إلى بُعد نظره، ورجاحة عقله، وذلك لقطع الطريق على أي تدخل بيزنطي، لأن الامبراطور مانويل كان متزوجاً من الأميرة ماري، أخت بوهيموند الثالث، بالإضافة إلى حرصه على ترتيب أوضاع الإمارة وفق المصلحة البيزنطية، أو أنه رأى إعادة صاحب أنطاكية إلى حكم الإمارة حتى لا يحل محله أمير آخر من بين الأمراء الأقوياء، ما يشكل خطراً على الممتلكات الإسلامية[2].

وبات واضحاً أن النفوذ البيزنطي أدَّى دوراً مؤثراً في النتائج المترتبة على معركة حارم، فقد حال دون تقدم نور الدين محمود لمهاجمة أنطاكية، وكان له أثر في إطلاق سراح حاكم كيليكية البيزنطي وإطلاق سراح بوهيموند الثالث.

تجدُّد الهجمات النورية على الصليبيين

لم يقنع نور الدين محمود بفتح حارم وقلعة بانياس، فجدَّد هجماته على إمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس، وأمضى عامي (٥٦٠ ـ ٥٦١هـ/ ١١٦٥ ـ ١١٦٦م) في القيام بهجمات مفاجئة على الحصون الواقعة على منحدرات جبال لبنان، في

(١) ابن العبري: ص١٧٧.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٩٢، ٨٩٣. عاشور: الحركة الصليبية: جـ٢ ص٦٨٦، ٦٨٧.

حين أغار أسد الدين شيركوه على إقليم ما وراء نهر الأردن.

أرسل نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية من بلاد الشام لفتح المعاقل الصليبية الواقعة في جنوبي لبنان، مستغلاً غياب الملك عموري الأول في أنطاكية، فأغار على منطقة صيدا، وفتح قلعة هونين الحصينة، وسيطر على جبل نيحا الواقع على الطريق بين دمشق وصيدا، وتوغَّل في شمالي أملاك المملكة الصليبية، وفتح حصناً يقع ما وراء نهر الأردن على الحدود مع بلاد العرب، منيع الجانب، ولم يذكر المؤرخ وليم الصوري، الذي أرَّخ لهذا الحدث، اسم الحصن إنما عزا سبب فتحه إلى استسلام فرسان الهيكل الذين أوكلت إليهم مهمة حمايته والدفاع عنه[١]، ثم عاد إلى حمص في (شعبان ٥٦٠هـ/ حزيران ١١٦٥م) ليقضي شهر رمضان.

وأغار نور الدين محمود من جهته على حصن المنيطرة[٢] وقد رأى ضرورة فتحه وضمِّه إلى الأملاك الإسلامية ما يُفقد إمارة طرابلس موقعاً مهماً، ونفَّذ من أجل ذلك خطة عسكرية ذكية، فلم يُعلن حال التعبئة حتى لا يلفت إليه أنظار المراقبين الصليبيين، وفي (أواخر ٥٦١هـ/ خريف ١١٦٦م) هاجم الحصن فجأة بمجموعة من جيشه وحاصره، وضغط على أفراد حاميته الذين أذهلتهم المفاجأة، فدافعوا عن الحصن دفاع المستميت حتى أعياهم الصمود، فخارت قواهم واستسلموا، ودخل نور الدين الحصن[٣].

وتابع نور الدين محمود غاراته على الأملاك الصليبية، فهاجم قلعة آكاف في البرية وخرَّبها، كما خرَّب المناطق الواقعة حول عِرقة. ويبدو أن عساكره أصابهم الإرهاق، كما أن الملك عموري الأول عاد خلال ذلك إلى بلاده، ومن المحتمل أن يتصدَّى لهجماته، فاضطر إلى ترك المنطقة وعاد إلى دمشق.

المرحلة الثانية

الحملة النورية الثانية على مصر

دوافع الحملة: لم يتوقف التنافس بين نور الدين محمود والملك عموري الأول

---

(١) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص٨٩٣.

(٢) المنيطرة: قرية من أعمال طرابلس تقع في أعالي الجبال عند منابع نهر إبراهيم وفيها حصن قديم بُني بالقرب من أفقا لحراسة الممر الجبلي الذي يربط جبيل وبعلبك، وهو أمنع من عُقاب الجو.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٢٥. ابن واصل: جـ١ ص١٤٨.

حول مصر عند هذا الحد، وبخاصة أن أياً منهما لم يُحقق أهدافه، وهو يعلم أن فوزه بهذا البلد يعني انتصاره الحاسم على خصمه وأن من شأن ذلك أن يُتيح له السيطرة على مفاتيح الشرق الأدنى. ويلاحظ أن نور الدين محمود كان مدفوعاً بالعوامل نفسها التي جعلته يُرسل حملته الأولى مع دخول كل من الخليفة العباسي والإمام الفاطمي على الخط السياسي هذه المرة، بالإضافة إلى معاقبة شاور لخيانته واستعانته بالصليبيين.

ويُحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات بينه وبين أسد الدين شيركوه من جهة وبين الخليفة العباسي من جهة أخرى، عهد على إثرها إلى قائده بمهمة غزو مصر للمرة الثانية، كما كان للإمام الفاطمي العاضد دور في تشجيعه على الاهتمام بمصر، ذلك أن العاضد أرسل يلتمس مساعدته ضد استبداد شاور في الوقت الذي لم يكن يعلم بأهدافه الحقيقية، مع العلم أن نور الدين محمود كان حاقداً على شاور بسبب غدره بشيركوه واستنجاده بالصليبيين[(١)].

أما أسد الدين شيركوه فلم يستطع بعد عودته قهراً، أن ينسى مصر وظل يُفكِّر في كيفية العودة إليها ليتملَّكها، لكن نور الدين محمود خشي أن يقوم بمحاولة أخرى لغزو مصر في عامي (٥٦٠ ـ ٥٦١هـ/ ١١٦٥ ـ ١١٦٦م) خشية تشتيت جهوده، وتقسيم قواته، في الوقت الذي كان الموقف في بلاد الشام يستدعي شيئاً من اليقظة والحذر[(٢)].

زحف الحملة: أعدَّ نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في (ربيع الأول ٥٦٢هـ/ كانون الثاني ١١٦٧م) بقيادة أسد الدين شيركوه، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين على كره منه، وسيَّر معه جماعة من الأمراء، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس، ورافقه نور الدين محمود حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له[(٣)].

وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يلتمس المساعدة من الملك عموري الأول، إذ أنه أدرك من استقراء الأحداث أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سيبقى فيها ولا يغادرها، لذلك لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر الذي يمثله نور الدين محمود على مملكته لو

(١) ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣٤٨. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٩٤، ٨٩٥ Grousset: II pp478, 479.

(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٢٧. عاشور: جـ٢ ص٦٨٨.

(٣) المصدر نفسه. ابن شداد: ص٧٧.

نجح في امتلاك مصر. رحَّب الملك عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود عنها حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكاته[(١)].

كان الملك الصليبي آنذاك في نابلس، فدعا نبلاءه للاجتماع، وأوضح لهم فيه ما تتعرَّض له المملكة الصليبية من خطر إذا استولى نور الدين محمود السني المذهب على مصر، وبعد مناقشات مستفيضة، وافق المجتمعون على إرسال حملة لإنقاذ شاور على أن يؤدي كل فرد عُشرَ دخله لتجهيزها من أجل إنقاذ المملكة[(٢)]، وقبل أن تُستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع الملك الصليبي إلا أن يُرسل ما تيسر من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن التدبير جاء متأخراً[(٣)].

وصل جيش أسد الدين شيركوه سالماً إلى برزخ السويس على الرغم من أن الرحلة كانت شاقة ومحفوفة بالمخاطر، وذلك في (ربيع الآخر/شباط)، وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، فاجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي حتى يتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين فبلغ نهر النيل عند إطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة[(٤)]، ثم عبر إلى الضفة الغربية، والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[(٥)].

حملة الملك عموري الثالثة على مصر

المفاوضات الصليبية ـ الفاطمية: خرج الملك عموري الأول من بيت المقدس في (ربيع الأول ٥٦٢هـ/ كانون الثاني ١١٦٧م) متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش ثم اخترق الصحراء إلى بِلبيس.

ارتاع شاور من ظهوره المفاجئ، وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول أسد الدين شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك

---

(١) ابن واصل: جـ١ ص١٤٩.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٩٥. رنسيمان: جـ٢ ص٦٠١، ٦٠٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص٨٩٥ ـ ٨٩٧. رنسيمان: جـ٢ ص٦٠٢. وإطفيح بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ في شرقيه. الحموي: جـ١ ص٢١٨.

(٥) ابن الأثير: ص٣٢٧، ٣٢٨.

الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[١].

والراجح أن الملك الصليبي وقف على نزعات شاور المتقلبة، فأراد أن يُقيِّده ليضمن الحصول على مغانم قبل أن يقوم بحرب أسد الدين شيركوه، فأجرى معه مباحثات تعهَّد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد[٢].

ولدعم هذه الاتفاقية وإعطائها صفة رسمية، أرسل الملك عموري الأول كلّاً من هيو سيد قيسارية وجفري مقدم فرسان الداوية، إلى الإمام الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبلا بحفاوة في القصر الفاطمي، وتمَّ التصديق على المعاهدة[٣].

كان من الطبيعي أن يُرحِّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر وللدولة الفاطمية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد.

معركة البابين: استعدَّت القوات الصليبية وقوات شاور المتحالفة معها، بعد التوقيع على الاتفاقية، للالتحام بقوات أسد الدين شيركوه وإجبارها على مغادرة مصر، وظل الجيشان مدة شهرين يراقب كل منهما الآخر، ثم حدث أن اجتازت قوى التحالف النيل إلى جزيرة الوراق في رأس الدلتا على الضفة الغربية، وفاجأت وحدة من جيش أسد الدين شيركوه[٤].

أدرك أسد الدين شيركوه حرج وضعه بعد أن تبين له تفوق قوى التحالف، وبخاصة أنه انضمت إليها قوات صليبية وصلت حديثاً من بيت المقدس، لذلك رأى أن ينسحب من المنطقة، وتوجَّه نحو الصعيد ملتزماً النيل في سيره حتى بلغ ملوى، واقتفى الملك عموري الأول وشاور أثره، وتركا قوة عسكرية لحماية القاهرة، عندئذ لم يسعه إلا أن يدخل في معركة، فعبر النيل من جديد على مسافة غير بعيدة من مدينة المنيا في مصر الوسطى، وعسكر في الأشمونين في خرائب مدينة هيرموبوليس القديمة، وجرى اللقاء بينه وبين قوى التحالف في البابين القريبة من الأشمونين، وكان رهيباً، وأسفر عن انتصار أسد الدين شيركوه، وأدَّى صلاح الدين الأيوبي دوراً

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٢٧. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٩٦.
(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٩٩ ـ ٩٠٢. (٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص٩٠٦.

مهماً في هذا النصر، واضطر الملك عموري الأول وشاور إلى التراجع بمن تبقّى من جيشيهما إلى القاهرة[١].

حصار الإسكندرية: أحرز أسد الدين شيركوه انتصاراً باهراً، وكان من المحتمل أن يمتلك القاهرة لو سار خلف القوات المتحالفة التي تضعضعت إثر هذه الضربة، وهاجم المدينة، لكنه آثر أن يتوجَّه إلى الشمال الغربي فوصل إلى الفيوم[٢]، وتابع زحفه إلى الإسكندرية لامتلاكها والتحصن بها متجنباً الدخول في معركة أخرى قبل جلاء الوضع العسكري، وبخاصة أن الملك عموري الأول تلقَّى إمدادات صليبية أخرى. وكان سكان الإسكندرية قد كرهوا شاور لاستعانته بالصليبيين، أعداء دينهم ووطنهم، فضلاً عن أن بُعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبي عن طريق البحر؛ جعلهم أكثر إحساساً بالخطر، ولم يكد أسد الدين شيركوه يقترب من المدينة حتى تلقَّاه أهلها طائعين وفتحوا له أبوابها، فدخلها بغير قتال[٣].

وأعاد الملك عموري الأول في هذه الأثناء تنظيم صفوف قواته، وتقوّى بما وفد إليه من إمدادات جديدة، وانضمَّ إليه جيش شاور الذي ما زال على قوته لأنه تراخى في القتال لغاية في نفس شاور وهي إضعاف قوة الطرفين النوري والصليبي، والمحافظة على قوة جيشه تحسباً لتطور الأحداث.

ولم تمض أيام قليلة حتى ظهر الملك الصليبي أمام أسوار الإسكندرية، وألقى الحصار على المدينة، وساندته السفن الصليبية فحاصرتها من جهة البحر[٤]. وخشي أسد الدين شيركوه أن يحصره الصليبيون مع جميع قواته داخل الإسكندرية فيفقد بذلك حرية التحرك، فترك ابن أخيه صلاح الدين نائباً عنه فيها وفصل معه ألف جندي، وتوجَّه هو على رأس القسم الآخر من الجيش عائداً إلى الصعيد مجتازاً معسكر الملك الصليبي الذي استشاط غضباً وأراد أن يمضي لمطاردته، فنصحه شاور بالتروي، لأن استعادة الإسكندرية أكثر أهمية[٥]، فشدَّد الحصار عليها، ما ضايق السكان، وأشرفت المدينة على المجاعة بفعل قلَّة الأقوات. ولم ينته شهر (رمضان/حزيران) حتى وجد صلاح الدين نفسه في موقف عصيب، فالتمس المساعدة من عمه الذي اضطر للعودة إلى الشمال وعسكر في بركة

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٢٧، ٣٢٨. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩١١، ٩١٢.

(٢) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام، وهي في منخفض من الأرض كالدارة. الحموي: جـ٤ ص٢٨٦.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٢٩.

(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩١٤، ٩١٥.

(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٢٩. الصوري، وليم: ص٩١٤.

الحبش[١] في ظاهر الفسطاط بهدف مهاجمتها وامتلاكها لتخفيف الضغط عن الإسكندرية، غير أن مقاومة هيو إبلين، الذي أرسله الملك الصليبي ليتولى حراسة القاهرة والجسر أفسدت خطته، وإذ أدرك صعوبة امتلاك مصر، وأنه لم يعد بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل؛ دخل في مفاوضات مع الجانب الصليبي للاتفاق على حل للقضية المصرية[٢]. وتقرَّر:

- وضع الإسكندرية في يد الملك عموري الأول.
- تبادل الأسرى بين الجانبين.
- إطلاق سراح الجند النوري الموجودين داخل الإسكندرية.
- تغادر جميع القوات النورية أرض مصر.
- تغادر جميع القوات الصليبية أرض مصر ولا تتملك منها قرية واحدة[٣].

الواقع أن الأطراف كافة رحَّبت بشروط الصلح:

فقد رحَّب بها الملك عموري الأول نظراً لحراجة وضعه في الشام، نتيجة عمليات نور الدين محمود العسكرية ضد حصني العُريمة وصافيتا، وتخريبه قلعة هونين ومحاولته مهاجمة بيروت. ولعل هذه الأحداث كان فيها ما يكفي لأن يتعجل إبرام الصلح والعودة إلى بلاد الشام ليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية، بالإضافة إلى ذلك، فإن الاتفاقية حالت دون تملُّك أسد الدين شيركوه وبالتالي نور الدين محمود لمصر.

ورحَّب أسد الدين شيركوه بها لأنه أدرك استحالة امتلاك مصر في ظل الوضع الراهن مع الضعف الملحوظ الذي اعترى قواته.

ورحَّب بها شاور لأنها أتاحت له الاستقلال بمصر بمعزل عن القوتين الكبيرتين في بلاد الشام.

ودخل الملك الصليبي إلى مدينة الإسكندرية في (شوال/آب)، وغادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل، وأصاب السكان الضيق حين رحيله ثم غادر مصر مع أسد الدين شيركوه في الشهر التالي، في حين تأخر الملك الصليبي بضعة أسابيع لأنه مرَّ

---

(١) بركة الحبش: هي أرض في وهدة من الأرض واسعة طولها حوالي ميل مشرفة على نيل مصر خلف القرافة... وهي من أجلِّ منتزهات مصر، وهي ليست ببركة للماء وإنما شُبِّهت بها، وكانت تُعرف ببركة المعافر وبركة حمير، وعندها بساتين تُعرف بالحبش، والبركة منسوبة إليها. الحموي: جـ١ ص٤٠١.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩١٨، ٩١٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٩١٩، ٩٢٠. ابن الأثير: جـ٩ ص٣٢٩.

بالقاهرة لتثبيت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:
- دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.
- بقاء قوة من الفرسان الصليبيين تحمي أبواب القاهرة، ودفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك في القاهرة يشارك في شؤون الحكم.

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت لا تزال ناشطة في تفكير الملك عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلَّى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم غادر عائداً إلى فلسطين[1]. وتأكدت بهذه الإجراءات الحماية على مصر، وترتَّب على ذلك استمرار التنافس بينه وبين نور الدين محمود.

نشاط نور الدين محمود خلال حملة الملك عموري الثالثة على مصر

استأنف نور الدين محمود نشاطه الجهادي ضد المواقع الصليبية في بلاد الشام خلال حملة الملك عموري الأول الثالثة على مصر، بهدف التخفيف عن الجبهة المصرية، وإجبار الملك الصليبي على مغادرة البلاد، فهاجم إمارة طرابلس، وتحديداً حصن الأكراد التابع للأسبتارية، والجهات المحيطة به، وعاونه أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل، ثم توجَّه إلى عِرقة وحاصر حلبا ودخلها عنوة وخرَّبها، وفتح قلعتي العُريمة وصافيتا قبل أن يعود إلى حمص لقضاء شهر رمضان. واستأنف هجماته بعد عيد الفطر، فهاجم أراضي مملكة بيت المقدس، فسار إلى بانياس وقصد حصن هونين الذي يُعدُّ من أمنع القلاع الصليبية، فهزم الصليبيين ودخل الحصن الذي أحرقه هؤلاء قبل أن ينسحبوا منه، فهدم أسواره وتابع طريقه باتجاه بيروت، إلا أن الشقاق الذي ظهر داخل معسكره وإصابة جنده بالإرهاق نتيجة الغارات المتنقلة، اضطره إلى التوقف، فترك المنطقة وعاد إلى بلاد الشام[2].

المرحلة الثالثة

التعاون الصليبي - البيزنطي

أضحى مستقبل مصر بعد هذه الأحداث في الميزان بين الدولة الزنكية في بلاد الشام وبين مملكة بيت المقدس مع رجحان كفة هذه المملكة، لأن الملك عموري

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣٤٩. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩١٩ - ٩٢٢.
(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٠.

الأول لم يغادر مصر بعد حملته الثالثة عليها إلا بعد أن ركَّز فيها حامية عسكرية من فرسانه لتحمي القاهرة من هجوم فوري من ناحية، ولتراقب ما يجري داخلها وتستكشف إمكاناتها العسكرية والمادية، ولتكون مقدمة لقوات احتلال صليبية من ناحية أخرى[١].

والحقيقة أن فكرة العودة إلى مصر لم تغب عن ذهن الملك عموري الأول التي داعبت خياله وخيال أسلافه، لكنه أدرك، بعد فشل محاولاته المتكررة، أنه بحاجة إلى قوة خارجية تساعده على تحقيق حلمه الكبير. وكانت الحامية التي تركها في مصر قد اقترحت عليه العودة لاحتلال هذا البلد بمساعدة أوروبية، غير أن الملك الصليبي لم يُرد أن يستنفر ملوك وأمراء أوروبا، وهو يعلم شدة أطماع فرسانهم في تكوين إمارات صليبية جديدة لهم في الشرق، لذلك فضَّل التماس المساعدة من الدولة البيزنطية وإقامة تحالف معها[٢].

والواضح أن التفكير في غزو مصر بالتعاون بين الصليبيين والبيزنطيين لم يكن وليد تلك الساعة، فقد سبق أن تبودلت رسائل عدة بين الملك الصليبي والامبراطور البيزنطي حول هذا الموضوع، ومن المحتمل أن الملك عموري الأول هو الذي أشار على الامبراطور مانويل بفكرة غزو مصر، وأنه طلب مساندته بالقوات البحرية والأسطول والأموال الضرورية لإنجاز هذا الأمر مقابل اقتسام مصر بين الصليبيين والبيزنطيين[٣].

كانت دوافع الامبراطور البيزنطي من وراء غزو مصر واضحة، فقد كان يرى أن هذه البلاد كانت فيما مضى ضمن أملاك الامبراطورية البيزنطية، أي قبل الفتح الإسلامي لها، وأن للامبراطورية حقوقاً فيها يجب أن تعود مرة أخرى للحكم البيزنطي.

وسعى الملك عموري الأول التقرُّب من الامبراطورية البيزنطية بالزواج، فأعدَّ سفارة في عام (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) توجهت إلى القسطنطينية بهدف عرض أمر هذا الزواج، وظلَّت فيها مدة عامين أنجزت خلالها المهمة التي كُلِّفت بها، وعادت ومعها مارية، ابنة عم الامبراطور مانويل، لتكون عروساً لملك بيت المقدس، وجرت مراسم الاحتفال بالزواج في كاتدرائية صور في (ذي القعدة ٥٦٢هـ/ آب ١١٦٧م)[٤].

---

(١) الدجاني، هادية وشكيل برهان: صلاح الدين بين التاريخ والملحمة والأسطورة. بحث في كتاب: الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى: ص٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) حبشي: ص١١٨.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ص٩٢٣.

ورافق العروس اثنان من كبار موظفي القصر، هما جورج باليولوغوس ومانويل سباستوس، وقد خوَّلهما الامبراطور بأن يناقشا مع الملك عموري الأول أمر التحالف بينهما وتعاونهما في غزو مصر[1]، لكن الأمر تطلب مزيداً من الدرس وتبادل وجهات النظر، لذلك تبادلا السفارات، وكلَّف الملك الصليبي صديقه المؤرخ وليم الصوري، وهو كبير شمامسة صور، بترؤوس إحداها، وخوَّله صلاحية الموافقة على ما يُبرم من اتفاق بينه وبين الامبراطور مانويل.

وعندما وصل وليم إلى القسطنطينية، علم أن الامبراطور يحارب في بلاد الصرب في البلقان، ولما كان الأمر من الأهمية ولا يحتمل التأجيل، توجَّه وليم إلى البلقان واجتمع مع الامبراطور في مدينة بوتيلا، وشرح له شروط المعاهدة المقترحة فوافق عليها، وتتلخَّص في قيام البحرية البيزنطية بالتعاون مع القوات البرية الصليبية بغزو مصر على أن تحصل الامبراطورية على جزء معين من أرضها، واقتسام الغنائم التي تسلبها الحملة، على أن تكون القيادة العليا للجيشين الصليبي والبيزنطي بإمرة الملك عموري الأول[2].

التمهيد لغزو مصر

حالت الظروف السياسية المستجدة دون تطبيق الاتفاقية المبرمة بين الصليبيين والبيزنطيين فور توقيعها، إذ في الوقت الذي بدأ فيه الامبراطور البيزنطي يُجهِّز الجيش الذي سيشارك في العمليات العسكرية، نهض الملك عموري الأول فجأة وزحف إلى مصر تحت إلحاح مَنْ بها من الحامية الصليبية، فقد تناهى إلى مسامع أفرادها ما تمَّ من الاتفاق بين الملك والامبراطور بشأن احتلال مصر، فخشوا أن يشاركهم البيزنطيون ثرواتها وخيراتها، وأتاحت لهم إقامتهم في القاهرة الوقوف على مدى ما تعانيه مصر من تدهور شديد، فكتبوا إلى الملك عموري الأول يستدعونه للاستيلاء عليها وأعلموه «خلوها من ممانع، وهوَّنوا أمرها عليه»[3].

تردَّد الملك عموري الأول في بادئ الأمر في الزحف على مصر، لأن الجزية التي كان يحصل عليها من هذا البلد تكفيه للوقوف في وجه نور الدين محمود في بلاد الشام، وخشي إن توجَّه إلى مصر ليملكها «فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٢٣. Chalandon: :Le Commnénes: p536.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٢٧، ٩٢٨. حبشي: ص١١٩، ١٢٠.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٧.

نور الدين، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام»[1].

لم يلبث الملك عموري الأول أن بدَّل رأيه، إذ وجد نفسه مضطراً إلى الإسراع في غزو مصر بفعل عوامل عدة أهمها:

- لقد نزل أخيراً على رأي أفراد الحامية الصليبية في القاهرة الذين ألحُّوا عليه مرة أخرى، وشجَّعوه على الإقدام على هذه الخطوة، وبدَّدوا خشيته من تدخل نور الدين محمود بقولهم: «وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة»[2]، وفي ذلك إشارة واضحة إلى انهماك نور الدين محمود ببعض المشكلات في بلاد الشام.

- استغل الملك عموري الأول انهماك نور الدين محمود في النزاع مع شهاب الدين مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر ليزحف إلى مصر.

- شجَّع قدوم كونت نيفر، مع جماعة من الفرسان إلى فلسطين للدفاع عن المسيحية، نبلاء بيت المقدس فضغطوا على الملك للقيام بالحملة علماً بأن الكونت توفي مبكراً وظل الدافع الذي أتى من أجله في نفوس جماعته.

- انقلاب شاور على الصليبيين، إذ أن هذا الرجل الذي كان البادئ في استدعاء الصليبيين إلى مصر بدأ يخشى من تحول الوجود الصليبي فيها إلى حماية، وأن الضريبة التي فرضها عليه الملك الصليبي بدأت تُثقل كاهل المصريين، في الوقت الذي نضبت فيه موارد الدولة، ثم إن وجود الحامية الصليبية التي تحرس أبواب القاهرة أزعج أعيان الدولة والمتشددين المسلمين بفعل أن أفرادها أساؤوا معاملة أهل البلاد «وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم»[3]، فأضحى موقفه ضعيفاً، فانفضَّ المصريون عنه، وفَقَدَ الإمام الفاطمي ثقته به، فعيَّن ابن شاور، ويُدعى الكامل شجاع، نائباً له، فراسل نور الدين محمود من أجل جمع الكلمة بمصر على طاعته، وقد دفعت هذه التطورات شاور إلى التوقف عن دفع الجزية المقررة، فاحتج الملك عموري الأول على ذلك[4].

- كاتبت جماعة من أعيان مصر ممن هم على عداء مع شاور، الملك الصليبي للقدوم إلى مصر، ووعدوه بتقديم المساعدة، كان من بينهم ابن النحاس وابن الخياط يحيى وابن قرجلة[5].

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) أبو شامة: جـ٢ ص١٤، ١٥، ٤٨، ١٠٣.
(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٨.

نتيجة هذه التطورات السياسية دعا الملك عموري الأول مجلس المملكة إلى الانعقاد للتشاور في الأمر، وقد تباينت آراء الزعماء الصليبيين خلال جلسات المناقشة، وانتصر الرأي المؤيد بغزو مصر، وعلى الرغم من رأي الملك الاكتفاء بسياسة الحماية ما دامت مصر تدفع الجزية، إلا أنه اضطر إلى الموافقة.

حملة الملك عموري الرابعة على مصر

زحف الحملة: غادر الملك عموري الأول بيت المقدس على رأس الحملة التي جهَّزها لاحتلال مصر، وأراد أن يُموِّه على حملته ويصرف نظر نور الدين محمود عما اعتزم عليه، فأشاع بأنه سوف يهاجم حمص، وقام نور الدين محمود بالتعبئة العامة لمواجهة الموقف المستجد[١].

لم يدرك شاور ما يجري إلا بعد أن غادرت الحملة الصليبية عسقلان في (محرم ٥٦٤هـ/ تشرين الأول ١١٦٨م) باتجاه دلتا النيل، وإذ لم يكن يتوقع أن يقوم الملك عموري الأول بنقض المعاهدة التي عقدها معه بهذه الاستهانة، أرسل أحد مستشاريه ويدعى بدران للاجتماع به قبل أن يصل إلى القاهرة والاستفسار عما دعاه إلى المجيء، عسى أن يتدارك هذا الخطأ كي لا يدع مجالاً لتدخل نور الدين محمود، فالتقى به عند الداروم على الحدود مع مملكة بيت المقدس، فاستقطبه الملك الصليبي ووعده بإقطاعه ثلاث عشرة قرية، وكان بدران ضعيف الإرادة ويحب المال، وقد وقف الملك الصليبي على هذه النزعة عنده[٢].

ولما أبطأ بدران تسرَّب الخوف إلى نفس شاور، فأرسل مبعوثاً آخر هو شمس الخلافة محمد بن مختار، فاجتمع بالملك الصليبي في الصحراء قبل أن يصل إلى بِلبيس وجرى لقاء ساخن بينهما، فقد لامه شمس الخلافة على قيامه بهذه الحملة، ورأى في تصرفه نقضاً للمعاهدة المبرمة بين الطرفين، فردَّ عليه الملك مبرراً موقفه بما أجراه الكامل شجاع بن شاور من مفاوضات مع نور الدين محمود، كما أن شاور أوقف دفع الجزية المقررة عليه للصليبيين، ثم حاول طمأنته حين زعم أنه أراد التوسط بين المصريين وبين جماعة أوروبية جاءت من وراء البحار قاصدة غزو مصر، وأضاف بأنه سوف ينسحب إذا أدَّى شاور له مبلغاً آخر من الدنانير، لكنه تابع تقدمه إلى بِلبيس ووصل إليها في (صفر/ تشرين الثاني)[٣].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٢٨، ٩٢٩. ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) أبو شامة: جـ٢ ص١٠١، ١٠٢.

(٣) حبشي: ص١٢٢، ١٢٣. رنسيمان: جـ٢ ص٦١٤، ٦١٥.

احتلال بِلبيس: ارتاب شاور في صدق الملك الصليبي، وتأكد له بما كان قد تناهى إلى سمعه من خيانة بعض أمراء مصر الذين شجعوه على غزوها، وصمَّم على المقاومة، وفوجئ الملك الصليبي عندما أغلقت حامية بِلبيس أبواب المدينة في وجهه ولم تسمح له بدخولها، فضرب الحصار عليها، وإذ كانت الحامية المدافعة عنها قليلة العدد، فقد اقتحم الجيش الصليبي المدينة بعد ثلاثة أيام من الحصار والمقاومة الشديدة، تلى ذلك حدوث مذبحة مروعة، وأسرف الصليبيون في الانتقام من السكان، فهدموا منازلهم ونكَّلوا بهم، وقتلوا كل من صادفوه من النساء والشيوخ والأطفال(١).

الزحف إلى القاهرة: مكث الملك عموري الأول مدة خمسة أيام في بِلبيس حاول أثناءها أن يُعيد الأمن إلى نصابه بعد أن وقع الضرر على الناس، ثم خرج منها متوجهاً إلى القاهرة، غير أنه أضاع بذلك الفرصة لمفاجأتها لأنه خلال هذه الرحلة البطيئة التي استغرقت عشرة أيام تناهى إلى أسماع سكانها ما أصاب أهل بِلبيس، ما أحدث موجة من الخوف والقلق دفعهم إلى التصميم على الدفاع عن مدينتهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أهل بِلبيس، ولو أن الملك الصليبي أحسن السيرة مع أهل بِلبيس لملك مصر والقاهرة بسرعة(٢).

ويبدو أن سبب الإبطاء تمثَّل في أن المفاوضات كانت دائرة بين الملك الصليبي وبين جماعة المصريين الموالين له، أو بينه وبين رسل شاور للوصول إلى تفاهم حول حل المشكلة(٣). ومهما يكن من أمر، فقد وصل الملك عموري الأول إلى مكان قريب من القاهرة وعسكر عند بركة الحبش جنوبي الفسطاط، إلا أنه لم يتلقَّ أي مساعدة من المصريين الذين هجروا منازلهم بناء على دعوة شاور الذي فَقَدَ الأمل في إمكان حصول تفاهم مع الملك عموري الأول، وارتاب في قدرته على الصمود والاحتفاظ بالفسطاط نظراً لضعف قواته، فعمد إلى حرقها، وأنذر الملك بإشعال النار في القاهرة حتى لا تقع في يده، فاضطر هذا نتيجة الحريق إلى نقل معسكره ونزل على القاهرة مما يلي باب البرقية ولاصق أسوارها(٤).

ووصل في غضون ذلك أسطول صليبي إلى بحيرة المنزلة كان معظم بحارته من الغرب الأوروبي، يحدوهم الحماس للدفاع عن المسيحية، فانقضُّوا على مدينة تنيس(٥)،

---

(١) أبو شامة: جـ٢ ص١٠٣، ١٠٤. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٣٠.

(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٨. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٣٠.

(٣) حبشي: ص١٢٤.

(٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٨.

(٥) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البرما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. الحموي: جـ١ ص٥١.

فأصاب أهلها الرعب والخوف، غير أن هذا الأسطول لم يتمكَّن من مواصلة التقدم لمساندة الصليبيين المعسكرين حول القاهرة، فقد اعترضته الحواجز الملقاة في عرض النهر ما فتَّ في عضد الملك الصليبي الذي كان قد علَّق عليه الآمال لحصار القاهرة من جهة البحر[1]، فأدرك عندئذ أنَّ الحملة أخطأت السبيل، وبناء على نصيحة صنجيله ميلز بلانسي، أبلغ شاور بأنه يقبل المساومة على مغادرة البلاد.

الواقع أن شاور انزعج من أعمال الصليبيين الوحشية فمال إلى استعمال الحيلة معهم، فأرسل إليهم يُذكِّرهم بمودته ويُلقي بالتبعية على الإمام العاضد، وتلكأ في الوقت بنفسه بالمساومة على المبلغ الذي بوسعه أن يؤديه، آملاً بأن يُقدم أسد الدين شيركوه بقوات من بلاد الشام بعد أن التمس العاضد مساعدته، وعرض عليه أربعمائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يُدفع منها مائة ألف دينار معجلاً لقاء الرحيل عن مصر، لكن شاور لم يستطع أن يجمع له منها سوى خمسة آلاف دينار بفعل الوضع المتردي الذي بات عليه سكان القاهرة بعد هذه الأحداث[2].

ووردت الأنباء في هذه الأثناء بأن أسد الدين شيركوه اتخذ طريقه إلى مصر بناء على دعوة الإمام الفاطمي العاضد.

الحملة النورية الثالثة على مصر

العاضد يستنجد بنور الدين محمود: طالبت بعض الجماعات في القاهرة بدعوة القوات الشامية بعد أن تبيَّن لها أن مصر ستقع في أيدي الصليبيين هذه المرة، وكان على هذه الجماعات، الكامل شجاع بن وشاور والقاضي الفاضل رئيس الديوان والإمام الفاطمي العاضد، الذي عرض على نور الدين محمود مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين، منحه ثلث بلاد مصر، ومنح قادته الإقطاعات، والسماح لأسد الدين شيركوه بالإقامة في مصر[3].

بدأت كفة نور الدين محمود بالرجحان بعد تجنيد القوات من بلاد الشام، إذ لم يكن بإمكانه أن يترك الصليبيين يحتلون مصر، وشجَّعته دعوة الاستغاثة على الإسراع في تجهيز قوة عسكرية لإرسالها إلى مصر لطرد الصليبيين منها وضمِّها إلى أملاكه، والراجح أنه تطلع إلى إعادة المذهب السني إليها، فاستدعى أسد الدين شيركوه من

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٣٢، ٩٣٣. (٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٩.

(٣) المصدر نفسه. البنداري، الفتح بن علي بن محمد: سنا البرق الشامي: ص٧٤، ٧٥، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني. ابن واصل: جـ١ ص١٥٨.

حمص وكلَّفه بهذه المهمة، وأعطاه مائتي ألف دينار بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدواب، وأذن له أن يختار ألفي فارس منح كلّاً منهم عشرين ديناراً غير جامكيته[1]، وأمدَّه بستة آلاف فارس ومجموعة من الأمراء، وندب معه ابن أخيه صلاح الدين[2]، وتدل نوعية التجهيزات التي جهَّزه بها على أن نور الدين محمود مُصمِّم هذه المرة على إنهاء المسألة المصرية بشكل قاطع.

الزحف إلى مصر ـ دخول القاهرة: خرج أسد الدين شيركوه في (ربيع الأول ٥٦٤هـ/ كانون الأول ١١٦٨م) إلى مصر، وعندما وصل إلى الصدر[3] أرسل شاور شمس الخلافة إلى الملك الصليبي يطلب منه التخلي عن جزء من المبلغ المتفق عليه، ويُنذره في الوقت نفسه بتقدم أسد الدين شيركوه[4]، والواضح أنه كان يستغل كل فرصة تُمكِّنه من تهديد الصليبيين لإخراجهم من مصر.

نتيجة لهذا التطور العسكري اضطر الملك عموري الأول أن يتحرك مع جيشه نحو برزخ السويس في خطة تستهدف التوجُّه من سرياقوس[5] إلى بِلبيس حيث ترك هناك قوة عسكرية لتحمي الطريق المؤدي إلى القاهرة، ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة أسد الدين شيركوه، وقد أمل في الانقضاض عليه عند خروجه من الصحراء والقضاء على قواته قبل أن تتمكَّن من دخول مصر[6].

لكن هذه الخطة انهارت عندما علم بأن أسد الدين شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة بعد أن تجاوزه من ناحية الجنوب. وفعلاً دخل القائد النوري القاهرة في (٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ ٨ كانون الثاني ١١٦٩م) من دون مقاومة وسط ترحيب السكان بقدومه، وعسكرت قواته عند باب اللوق[7].

ورأى سكان مصر في حملته هذه خلاصاً لهم من الصليبيين ومن استبداد شاور الذي استاء الجميع من تصرفاته، أما الإمام العاضد فكان يراقب تطور الأحداث السياسية والعسكرية بحسرة، فقد توقَّع أن تذهب بعرشه الذي ورثه عن آبائه.

وتوجَّه أسد الدين شيركوه إلى الإمام العاضد الذي غمره بالتشاريف ووعده ببذل الأموال والمؤن والعساكر، أما شاور الذي وجد نفسه وحيداً، فأخذ يتودَّد إليه، ويتقرَّب منه.

---

(١) الجامكية: يعني الراتب. (٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٣٩، ٣٤٠.

(٣) الصدر: قلعة بين القاهرة وأيلة. الحموي: جـ٣ ص٣٩٧.

(٤) أبو شامة: جـ٢ ص١٠٦، ١٠٧.

(٥) سرياقوس: بليدة في نواحي القاهرة بمصر. الحموي: جـ٣ ص٢١٨.

(٦) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٣٤. (٧) أبو شامة: جـ٢ ص٥٥.

عودة الملك عموري إلى بلاده خائباً

رأى الملك عموري الأول استحالة الاستيلاء على مصر في ظل الأوضاع المستجدة، وأنه بات من الضروري أن يتراجع من القاهرة خشية أن يهاجمه أسد الدين شيركوه، وأن يثب عليه سكان مصر من الخلف، فتراجع إلى بِلبيس وأمر أسطوله بالعودة إلى عكا، ثم رحل عن مصر بعد أن يئس من احتلالها مدركاً في الوقت نفسه الخطأ الجسيم الذي ارتكبه والذي أفقده ما كان له من مظاهر ملكية[(١)].

مقتل شاور

كان من الطبيعي، بعد خروج الصليبيين من مصر، أن يحقد شاور على أسد الدين شيركوه الذي نافسه على النفوذ وطالبه مجدداً بتنفيذ اتفاقه القديم الذي تنكَّر له، بالإضافة إلى ميل العاضد إليه وتردد الناس إلى خدمته[(٢)]، فأرسل مرة أخرى يستدعي الصليبيين لمساعدته، وحدَّد لهم مدينة دمياط كمكان لدخولهم الديار المصرية من البر والبحر، كما دبَّر المؤامرة للتخلص من أسد الدين شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم إليها مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي، غير أنه انصرف عن تنفيذ تلك المكيدة خشية مما هو أشد، ويبدو أنه كان لابنه الكامل شجاع دور في ذلك عندما هدَّد بكشف المؤامرة لأسد الدين شيركوه[(٣)]، لكن هذا الأخير علم بما بيَّته له عدوه ومع ذلك لم يتخذ أي إجراء مباشر ضده، ويبدو أن العاضد كان له رأي آخر، وأصرَّ صلاح الدين على اتخاذ تدابير رادعة بحقه، ونفرت العامة من حكمه.

وخرج شاور في (١٧ ربيع الآخر/١٨ كانون الثاني) للاجتماع مع أسد الدين شيركوه، ولما وصل إلى مقر قيادته، استقبله صلاح الدين وعز الدين جورديك في جمع من العساكر، لكن أسد الدين شيركوه كان في زيارة لضريح الإمام الشافعي، فقرَّر الذهاب إليه، ولم يكد يتحرك حتى انقض عليه كل من صلاح الدين وعز الدين جورديك وبعض الأمراء وأسروه بعد أن جرَّدوه من سلاحه، ثم أصدر العاضد أمراً بقتله[(٤)].

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٤٠.

(٢) ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣٠١.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٤١. البنداري: ص٧٧، ٧٨. أبو شامة: جـ٢ ص٥٦، ٥٧. وراجع فيما يتعلق بملابسات قتل شاور، حبشي: ص١٢٨، ١٢٩.

ضم مصر إلى بلاد الشام

كان مقتل شاور آخر حلقة من سلسلة المتاعب التي تعرَّضت لها مصر في أواخر العهد الفاطمي، إذ لم يعد للصليبيين من مناصر في البلاد، وكان خروجهم منها في نظر نور الدين محمود فتحاً جديداً وحفظاً لسائر بلاد الشام[١]، ففرح فرحاً شديداً «وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان الفتح في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين بلاده»[٢]، وأرسل إلى الخليفة العباسي في بغداد يعلمه بذلك، فزُيِّنت عاصمة الخلافة، وأُغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحاً شديداً.

وفاة أسد الدين شيركوه

تقلَّد أسد الدين شيركوه مقاليد الوزارة في مصر بعد مقتل شاور، وبلغ به الحرص على مراعاة الصفة الشرعية للحكم ما منع حكام الأقاليم من معارضة حكمه، فأضحى خلال أسابيع قليلة حاكماً على الديار المصرية بأسرها، وحاز أمراؤه ما كان بيد شاور وأسرته من إقطاعات، واتخذ لقب الملك المنصور أمير الجيوش[٣].

لم يعش أسد الدين شيركوه مدة طويلة بعد أن تولَّى الوزارة، إذ توفي بعد شهرين في (٢٢ جمادى الآخرة/ ٢٣ آذار) نتيجة إفراطه في الأكل، على أن شهرته في التاريخ طغت عليها شهرة نور الدين محمود وشهرة ابن أخيه صلاح الدين الذي سيخلفه ويجني ثمرة غرسه، ومع ذلك فإنه فاق غيره من المسلمين في إدراك أهمية ضمِّ مصر إلى بلاد الشام بوصفها خطوة تمهيدية وضرورية لاستعادة فلسطين من أيدي الصليبيين[٤].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٣٩.

(٢) أبو شامة: جـ٢ ص١١١.

(٣) ابن واصل: جـ١ ص١٦٣.

(٤) عاشور: جـ٢ ص٧٠١. رنسيمان: جـ٢ ص٦١٩.

الفصل الثامن عشر

ظهور صلاح الدين الأيوبي

أصل الأيوبيين

ينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي من بلدة دوين[1] الواقعة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس في أرمينيا، وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية، وهذا القبيل من أشرف الأكراد، ولم يجر على أحد منهم رق[2].

انتقلت الأسرة من دوين في بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، حين غادر شادي مع ابنيه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، المنطقة إلى تكريت الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة شمالي سامراء، وأغلب سكانها من الأكراد، فعيَّنه شحنتها مجاهد الدين بهروز حاكماً عليها نظراً لصلات الصداقة التي تربطهما، ولما توفي شادي خلفه ابنه نجم الدين أيوب[3].

لكن أوضاع الأسرة اضطربت بعد ذلك، لأن نجم الدين أيوب استقبل عماد الدين زنكي في تكريت إثر انهزامه أمام الخليفة العباسي المسترشد وساعده على العودة إلى الموصل، ما أغضب بهروز الذي عدَّ ذلك خروجاً على السلطة في بغداد، وحصلت في الوقت نفسه حادثة أدَّت إلى زيادة مخاوف بهروز وقلقه من تعاظم نفوذ الأسرة، ذلك أن أسد الدين شيركوه قتل أحد مماليك بهروز من دون سبب مقنع، فأخرجهما هذا الأخير من قلعة تكريت، فالتحقا بعماد الدين زنكي في الموصل، فرحب بهما وأقطعهما إقطاعات وفيرة، وانخرطا في سلك جنده، وعندما توفي عماد الدين زنكي

---

(١) دوين: بلدة من نواحي أرَّان في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس منها ملوك الشام بنو أيوب. ودوين أيضاً، إحدى قرى أُستُوَا من أعمال نيسابور في بلاد فارس. الحموي: جـ٢ ص٤٩١.

(٢) ابن الأثير: ص١١٩. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: جـ٧ ص١٣٩. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص١٤٨. الخطط المقريزية: جـ٣ ص٤٠٤، ٤٠٥. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٤.

(٣) ابن خلكان: جـ٧ ص١٣٩، ١٤٠.

دخل الأخوان في خدمة ابنه نور الدين محمود وحظيا عنده وارتفع شأنهما، فاختار أسد الدين شيركوه ليقود قواته إلى مصر للاستيلاء عليها وضمِّها إلى بلاد الشام، وقد صحبه ابن أخيه صلاح الدين، وعندما نجح في مهمته تولى منصب الوزارة في مصر، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين بعد وفاته.

صلاح الدين يخلف عمه

أيقظت خلافة أسد الدين شيركوه في منصبه الكثير من الطموحات، إذ حدث إثر وفاته خلافات وتنافسات على منصب الوزارة بين فئات عدة نذكر منها:

- المؤسسة العسكرية الفاطمية التي أرادت وزيراً مدنياً مصرياً تتحكم به.
- بعض أمراء نور الدين محمود الأتراك الذين رافقوا الحملة مثل: قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وعين الدولة الياروقي، وسيف الدين أحمد المشطوب وغيرهم.
- شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين.

وظلَّ صلاح الدين في الظل صامتاً، لكن سانده الفقيه عيسى الهكاري مقترحاً ترشيحه لهذا المنصب، ونجح في استقطاب المشطوب والحارمي[(١)].

واختار الإمام العاضد صلاح الدين لاعتلاء منصب الوزارة خلفاً لعمه، لاعتقاده أن صغر سنه البالغ اثنين وثلاثين عاماً، وافتقاره للتجربة، سوف يرغمانه على الاعتماد على موظفي الدولة الفاطمية، وتجعله أداة سهلة في يد الإمام يستغلها في القضاء على بقية أعوان أسد الدين شيركوه، وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل توليته ولقبه بالملك الناصر، وذلك في (٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ ٢٦ آذار ١١٦٩م) وقام الحارمي بدور نشط في إقناعه[(٢)].

وبتولي صلاح الدين منصب الوزارة كآخر وزير سني في الدولة الفاطمية، وصل المد السني الذي بدأه السلاجقة قبل نحو مائة عام وأكمله الزنكيون، إلى مصر[(٣)].

صلاح الدين يُثَبِّت أقدامه في مصر

جرى من الأحداث في مصر، بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة، أن البلاد كانت

---

(١) ابن واصل: جـ١ ص١٦٨.

(٢) البنداري: ص٨١. أورد القلقشندي نص التولية في صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ١٠ ص٨٠ ـ ١٠٠. ابن الفرات، ناصر الدين محمد: تاريخ ابن الفرات: مجلد ٤ جـ١ ص٥٧ ـ ٦٥.

(٣) سيد: ص٢٣٤، ٢٣٥.

تجتاز مرحلة انتقال في تاريخها. فالدولة الفاطمية لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار رجال الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يُثبِّت أقدامه في الحكم ليتفرغ لمواجهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية، ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، وهو عازم على الاستئثار بالاختصاصات كافة حتى التي تخص الإمام الفاطمي العاضد، ونفَّذ تدابير عدة كفلت له السيطرة التامة، منها:

- استمال قلوب المصريين عن طريق بذل المال.
- أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر على الجند بعد أن أحسن إليهم.
- قوَّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه توران شاه مع إحدى هذه القوى العسكرية[1].

أدَّت هذه التدابير التي اتخذها إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وتهميش دور العاضد ما أثار كبير الطواشية مؤتمن الخلافة[2] قائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم في حال استمراره سوف يؤدي إلى القضاء على الحكم الفاطمي، ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يُفلح، راح يحيك الدسائس والمؤامرات ضد صلاح الدين، وحاول أن يتصل بالملك عموري الأول لتحريضه على مهاجمة مصر آملاً في حال الاستجابة أن يخرج صلاح الدين للقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثب على منصب الوزارة، ويتقاسم البلاد مع الصليبيين، غير أن صلاح الدين كشف خيوط المؤامرة عندما ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى الملك عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتهما، فاكتشف الرسالة بداخلهما فقبض على مؤتمن الخلافة، وترقَّب الفرصة للتخلص منه[3].

رد الفعل الصليبي: الحملة الصليبية ـ البيزنطية على دمياط

تجدُّد التعاون الصليبي ـ البيزنطي: أدرك الملك عموري الأول مغزى نجاح نور الدين محمود في توحيد بلاد الشام ومصر تحت سلطانه، وعدَّ ذلك ضربة أليمة وُجِّهت إلى مملكة بيت المقدس ما خلق جواً جديداً من القلق والرعب. وشعر الصليبيون بأنهم وقعوا فعلاً بين فكي الكماشة، وأن القوات الإسلامية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي، كما أن سيطرة

---

(١) ابن واصل: جـ١ ص١٧٤.
(٢) هو من أصل نوبي واسمه جوهر.
(٣) البنداري: ص١١١، ١١٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٣٤٥، ٣٤٦.

نور الدين محمود على الثغور البحرية في شمالي مصر، مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من موانئ الدلتا، من شأنها أن تُهدِّد سيادة الصليبيين البحرية بحيث ينتقل الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى سيادة المسلمين.

وتفاقم الخطر إلى الحد الذي دفع الملك الصليبي إلى التماس المساعدة من الغرب الأوروبي، فأرسل سفارة في أوائل (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م) إلى كل من: فريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك إنكلترا، ووليم الثاني ملك صقلية وغيرهم من كبار حكام أوروبا الغربية، يطلب منهم الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة تُنقد الموقف الصليبي المتدهور في الشرق، علماً بأن هذا الطلب لم يخف على المسلمين[١].

ويبدو أن الأوضاع السياسية في غربي أوروبا آنذاك، لا سيما فيما يتعلق بالنزاع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلماني، حالت دون تحقيق السفارة الصليبية لأهدافها، فاضطر الملك عموري الأول عندئذ إلى الالتفات مجدداً نحو الامبراطورية البيزنطية طالباً مساعدة الامبراطور مانويل، ومقترحاً عليه تجديد اتفاقية عام (٥٦٣هـ/ ١١٦٨م) التي أبرمها وليم الصوري بهدف غزو مصر.

والواقع أن الامبراطور مانويل كان أشد حماساً من الصليبيين لتنفيذ مشروع غزو مصر، ولا يزال راغباً في القيام بدوره في ذلك، إذ لم يكن أقل انزعاجاً لاتحاد بلاد الشام ومصر تحت راية نور الدين محمود، وما أدَّى إليه من انقلاب خطير في توازن القوى في الشرق، فعرض على الملك عموري الأول تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية[٢].

وافق الملك الصليبي على عرض الامبراطور، إذ لم يفقد الأمل بعد في استرداد مصر، كما أن نور الدين محمود كان فيما يبدو منهمكاً في أمور الشمال، فما حدث من وفاة قرا أرسلان الأرتقي صاحب ديار بكر في عام (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، وما وقع من نزاعات حول اقتسام إرثه، أوقعه في شقاق شديد مع أخيه قطب الدين مودود أمير الموصل، ولم تلبث أن اندلعت ثورة غازي بن حسان صاحب منبج، ولم تُخمد إلا بعد عدة أشهر، على أن قطب الدين مودود أشرف على الموت، ولم تلبث أن ظهرت مشكلة ولاية حكومة الموصل[٣].

استعدادات التجهيز: جهَّز الامبراطور البيزنطي أسطولاً بحرياً ضخماً تألَّف من مائة وخمسين سفينة حربية من نوع الشواني مسلحة تسليحاً جيداً، وستين سفينة كبيرة

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٤٦. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٣٨.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٣٨.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٦٢١.

لنقل الخيول، وهي من النوع المعروف بالطريدة، وما بين عشرة إلى عشرين سفينة من نوع الدرمونة لنقل المؤن وآلات الحرب[1].

وحمل الأسطول من المؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي قدَّرها الامبراطور لإنجاز المهمة، ثم خرج من مياه الدردنيل في (شوال ٥٦٤هـ/ تموز ١١٦٩م) متوجهاً إلى قبرص بقيادة أندرونيقوس كونتوستيفانوس، يعاونه موريس الذي كان يتمتع بثقة الامبراطور، فوجد في طريقه سفينتين مصريتين فأسرهما، وعندما وصل إلى قبرص أرسل قائده عشر سفن إلى عكا عن طريق ميناء صور تحمل الأموال المتفق عليها للإنفاق على جند الملك عموري الأول، ولتخبره بتجمع الأسطول البيزنطي في قبرص، وأن بحارته على استعداد للإقلاع إلى مصر عندما يصبح الملك وقواته مستعدين للرحيل، وظل الأسطول في الجزيرة حتى شهر (ذي الحجة/ أيلول)، من دون أن يصل ما يُفيد باستكمال استعدادات القوات الصليبية للرحيل[2].

الواقع أن الملك عموري الأول أبطأ في تجهيز قواته، إذ أن حملة عام (٥٦٣هـ/ ١١٦٨م) أدَّت إلى الإخلال بنظامها، واحتاج إلى بعض الوقت لتنظيم شؤون دولته أثناء غيابه في مصر، وكان عليه أن يُجهِّز بعض القوات لحمايتها، كما كان عليه أن يُغري الأسبتارية بالاشتراك في الحملة بعد الخسائر الفادحة التي تكبدوها في الحملة الأخيرة، وبخاصة أن الداوية ما زالوا مصرِّين على رفض الاشتراك في الحملة، أما النبلاء الذين لم تُشجِّعهم تجربتهم السابقة، فإنهم افتقدوا ما توافر لهم من حماس من قبل[3]، ولعله خشي عندما علم بضخامة الأسطول البيزنطي من التفوق العسكري البيزنطي ما قد ينتج عنه انفراد البيزنطيين في السيطرة على مصر[4]، ما دفعه إلى التردد بعض الوقت في الانضمام إلى الحملة.

لكن الملك الصليبي أدرك أن سقوط مصر في أيدي البيزنطيين لا يُهدِّد أمن الإمارات الصليبية بالقدر الذي تُهدِّدها به القوات الإسلامية التي أضحت تحكم مصر وبلاد الشام، لذلك رأى الانضمام إلى الحملة حتى لا تبقى مصر في أيدي حكام بلاد الشام المسلمين أو تقع في أيدي القوات البيزنطية[5]، لذلك دعا الأسطول للقدوم إلى عكا في (محرم ٥٦٥هـ/ أواخر أيلول ١١٦٩م)، ولم تستعد كل الحملة للمضي إلى مصر إلا في (١٢ صفر/ ١٥ تشرين الأول)، وأعطى أوامره للقوات

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٣٩.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) رنسيمان: جـ٢ ص٦٢٢، ٦٢٣.

(٥) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٤٠.

بالتجمع في عسقلان، ثم ما لبث الأسطول البيزنطي أن وصل إلى ميناء صور ثم تقدم نحو عكا ومنها إلى عسقلان، وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط[١].

الوضع الداخلي في مصر: كان صلاح الدين قد تلقَّى تحذيراً مبكراً بالغ الكفاية عن الحملة، فتصرَّف على محورين:

الأول: أنه توقع أن تتعرض بِلبيس للهجوم، فشحنها بالعساكر، كما قام بتحصين الإسكندرية والقاهرة، ظناً منه أن هذه الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها الحملات السابقة.

الثاني: أنه بقي في القاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده، وحتى يكفل الأمن لنفسه، أمر في (آخر ذي القعدة ٥٦٤هـ/ ٢٠ آب ١١٦٩م) بإلقاء القبض على مؤتمن الخلافة وإعدامه، ثم عزل موظفي القصر من السودان المعروفين بولائهم للعاضد، وأحلّ مكانهم رجالاً من أتباعه وعيَّن على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض[٢].

نتيجة لهذه التدابير الاحترازية التي نفَّذها صلاح الدين، عزَّ على الجند السودان استبعادهم وضياع نفوذهم، كما غضبوا لمقتل مؤتمن الخلافة، فثاروا بتحريض من الموظفين المفصولين، وأدَّى ذلك إلى الصدام بين الطرفين، فرجحت كفة قوات صلاح الدين، واضطر السودان إلى طلب الأمان، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك[٣].

تراوح موقف الإمام العاضد، الذي شهد هذه الأحداث، بين الإحجام عن مساعدة صلاح الدين وبين تأييد خطوته، وفقاً لتطور الأحداث، وإذ ظنَّ في بادئ الأمر أن الجند السودان سوف ينتصرون، وينقذونه من قبضة صلاح الدين؛ أمر مَنْ في القصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة، ولما هدَّده توران شاه، أخو صلاح الدين، بإشعال النار في القصر، لم يسعه إلا أن يُغيِّر موقفه، فخرج من القصر وقال: «أمير المؤمنين يُسلم على شمس الخلافة توران شاه ويقول دونكم العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم»[٤]، وقد فتَّ ذلك في عضد هؤلاء فتخاذلوا عند اللقاء. وقضى صلاح الدين كذلك على حرس العاضد من الأرمن، فقد أشعل النار في ثكناتهم، وقبض عليهم حتى لا يستغلوا الفرصة للقيام بما قام به الجند السودان[٥].

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٤٠.

(٢) البنداري: ص٥٨. ابن واصل: جـ١ ص١٧٥ ـ ١٧٧.

(٣) المصدران نفساهما.

(٤) أبو شامة: جـ٢ ص١٧٣.

(٥) ابن واصل: جـ١ ص١٧٥ـ ١٧٧. رنسيمان: جـ٢ ص٦٢٤.

وهكذا نجح صلاح الدين في تصفية جيوب المقاومة والخيانة الداخلية التي وقفت حائلاً دون تنفيذ مشاريعه، وتفرَّغ لمواجهة الزحف المسيحي الذي كان قد بدأ على مصر، وهو مطمئن.

حصار دمياط ـ فشل الحملة: خرج الجيش الصليبي الذي تجمَّع في عسقلان في (محرم ٥٦٥هـ/ تشرين الأول ١١٦٩م) واتخذ طريقه إلى مصر عن طريق الفرما، فوصل إلى بحيرة تنيس حيث كان الأسطول البيزنطي بانتظاره.

ومضت الحملة والأسطول بمحاذاة الشاطئ إلى مدينة لم تكن في خلد صلاح الدين، تلك هي دمياط، فوصلا إليها في (١ صفر/ ٢٥ تشرين الثاني)، وعسكرت القوات البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة، لكن الأسطول لم يتمكَّن من التوغل في النيل بسبب وجود السلسلة الحديدية التي تمتد من دمياط إلى برج السلسلة، وبالتالي لم يكن بوسع بحارته أن يمضوا إلى دمياط ليمنعوا ما يرد إليها من القاهرة من جند ومؤن عن طريق فرع النيل(١).

وما إن علم صلاح الدين بوصول القوات المتحالفة إلى دمياط حتى أرسل إليها الرجال والعتاد والمؤن بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين الحارمي، كما أرسل إلى نور الدين محمود في دمشق يخبره بما حدث ويلتمس منه المساعدة، فسيَّر إليه العساكر تباعاً، كما قام بالإغارة على معاقل الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط عن دمياط جرياً على عادته عندما تتعرَّض مصر للتهديد الصليبي(٢).

ومع كل هذه الاستعدادات المسيحية، فإن القوات المتحالفة تريَّثت في شنِّ هجومها مدة ثلاثة أيام ما أثَّر سلباً على الحملة ستظهر آثارها فيما بعد، لأن المدينة قد امتلأت خلال ذلك بالمقاتلين والمؤن وآلات الحرب في الوقت الذي أخذت فيه مؤن البيزنطيين بالتناقص، ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمدهم بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذي لحق بها نتيجة غارات رينولد شاتيون، والتدمير الذي أصابها نتيجة زلزال عام (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م)، كما لم يستطيعوا الحصول على المؤن اللازمة من ميناء عكا، وبذلك أوشكت مؤنهم على النفاد(٣).

لذلك، حثَّ القائد البيزنطي كونتوستيفانوس على اتخاذ إجراء سريع، لكن الملك عموري الأول، الذي ارتاع لما شاهده من الاستحكامات الضخمة للمدينة، وسرعة

---

(١) عمران: ص١٦٣، ١٦٤، ١٦٧.

(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٥٠. ابن شداد: ص٨٣.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٤١. رنسيمان: جـ٢ ص٦٢٥. عمران: ص١٦١.

التدابير المتخذة لشحنها بالجند والميرة؛ أبطأ في اتخاذ قرار بالهجوم الفوري، وأراد أن يُشيِّد أبراجاً للحصار.

وبذلك ضاع أمل المتحالفين في الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهد أكبر ليتمكَّنوا من اقتحامها، فقاموا بإعداد برج خشبي ضخم مكوَّن من سبعة طوابق حتى يتمكَّنوا من مشاهدة ما يجري داخل المدينة من أعلاه[1].

وقامت القوات الإسلامية بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي، وشحنه المسلمون بالعساكر لمقاومة الجهود المسيحية بالفكرة نفسها، كما ردَّت هذه القوات على اعتداءات المهاجمين بعنف، وأبدى أفرادها تفوقاً ملحوظاً في الوقت الذي انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين وأصبحوا لا يلتزمون بجديَّة القتال[2].

أما الأسطول البيزنطي فلم يستطع الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة، وبذلك أضحى عاجزاً عن تقديم المساعدة العسكرية المطلوبة للقوات الصليبية البرية[3].

وتوالت الاجتماعات بين القيادتين الصليبية والبيزنطية بشأن مناقشة القيام بهجوم عام على الأسوار جميعها، فأيَّد كونتوستيفانوس هذه الفكرة في حين عارضها الملك عموري الأول لأن مثل هذه المغامرة بنظره تنطوي على خطر شديد، وساور القادة الصليبيين الشك في أن اندفاع القائد البيزنطي مرده إلى رغبته في أن تكون دمياط من نصيب الامبراطور.

وما لبث أن نفدت أقوات البيزنطيين تماماً، ولم تجد القوات البيزنطية ما تأكله سوى ثمار النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار نفدت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام، وكادت القوات البيزنطية أن تهلك جوعاً في الوقت الذي توافرت فيه المؤن في المعسكر الصليبي، لكن هذه القوات ضنَّت على القوات البيزنطية، لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول مدة القتال، فيتعرضون للمجاعة[4].

وزاد من سوء الوضع العسكري هبوب رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة أغرقت المعسكر الصليبي وحوَّلته إلى مستنقع، فاستغل المسلمون ذلك وأنزلوا سفينة حرَّاقة بين قطع الأسطول البيزنطي المكدَّس في النيل شمال دمياط، فأنزلت به خسائر فادحة على الرغم من تدخل الملك عموري الأول لمنع استفحال الضرر، فحاول

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٤١.
(٢) المصدر نفسه: ص٩٤١، ٩٤٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص٩٤٣، ٩٤٤. عمران: ص١٦٦، ١٦٧.

إيقاظ البحارة الذين عملوا على فصل السفن وإبعادها عن بعضها[١].

وبدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة، وتجلّى آنذاك فشل الحملة. وإذ لاحظ المسلمون الحال السيئة التي تعاني منها القوات المتحالفة، شعروا بالثقة وتحوَّلوا إلى الهجوم على القوات البيزنطية التي انهارت قواها، في الوقت الذي تراخت فيه القوات الصليبية في الدفاع عن المعسكر البيزنطي[٢]، وشعر الملك عموري الأول أن انتظاره قد طال أمام دمياط من دون جدوى في الوقت الذي أخذ نور الدين محمود يهاجم أملاكه في بلاد الشام، وبدأت القوات المتحالفة تشعر أيضاً بضرورة العودة إلى بلادها حتى لا تهلك جوعاً أو قتلاً، لذلك بدأ التفكير في عقد هدنة مع المسلمين، وليس مُحققاً ما إذا كان الملك عموري الأول أو كونتوستيفانوس هو الذي بدأ المفاوضات، وليس معروفاً ما تمَّ عليه الاتفاق من شروط[٣].

والراجح أن الملك الصليبي كان البادئ في المفاوضات ليقطع الطريق على تقارب إسلامي ـ بيزنطي محتمل، وليستطيع العودة إلى بلاده سريعاً بعد تفاقم الوضع نتيجة هجمات نور الدين محمود، ومن الثابت أنه كان يأمل في إظهار الصداقة لصلاح الدين كي يُبعده عن نور الدين محمود.

وعادت القوات المتحالفة إلى بلادها عن طريق عسقلان في (٢٨ ربيع الأول ٥٦٥هـ/ ٢١ كانون الأول ١١٦٩م)، وجرى حرق كل أدوات الحصار حتى لا تقع في أيدي المسلمين.

أسباب فشل الحملة[٤]: يعود فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين، وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

ففيما يتعلق بالجانب الإسلامي، يمكن رصد العوامل التالية:

ـ صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

ـ سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح والرجال ما رفع معنويات سكانها المحاصَرين.

ـ التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر.

ـ القدرة القتالية للقوات الإسلامية وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق.

ـ موقف نور الدين محمود الداعم وإرساله المساعدات تباعاً إلى مصر، وقيامه بالضغط العسكري على الصليبيين في بلاد الشام.

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٤٣، ٩٤٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٦٢٦.
(٤) عمران: ص١٦٩ ـ ١٧٣.

- استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أُتيحت لهم.

وأما فيما يتعلق بالجانب الصليبي، فيمكن رصد العوامل التالية:

- لقد أخَّر الملك الصليبي عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، ما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد.

- إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرَّضت للجوع، ما أدّى إلى تراجع نشاطها العسكري.

- إحجام القوات الصليبية عن مساعدة القوات البيزنطية عندما تعرَّضت لهجوم المسلمين حيث وقفت موقف المتفرج.

وأما فيما يتعلق بالجانب البيزنطي، فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً، وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.

- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة، ما سهَّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية.

- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

ونرصد العوامل التالية، فيما يتعلق بالعوامل المشتركة بين الصليبيين والبيزنطيين:

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة وتنفيذ الحصار في فصل الشتاء حيث تعرَّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها، وللعواصف التي كانت تُبعد قِطع الأسطول عن الشاطئ.

- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهو المنطقة التي تمتد بطول الساحل والبالغة حوالي ميل واحد، فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً، فقد حُشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

- أدَّى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

- عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما ما تسبَّب في فشل الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتهما،

واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة.

نتائج الحملة

ـ يُعدُّ فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط انعطافة كبيرة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف المسيحي في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويُعرقل جهود المسلمين في التصدي لهؤلاء وإخراجهم من المنطقة.

ـ يُعدُّ فشل الحملة المسيحية نقطة تحول مهمة في مستقبل صلاح الدين الذي ظهر بمظهر المتمكِّن في حماية مصر، وأقنع الدوائر الفاطمية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين، بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الجميع.

ـ بات المسلمون يُهدِّدون بشكل خطر الإمارات الصليبية، بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وتوزَّعت قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين بعد أن كان نشاطهم محصوراً ضد خطر الأول.

ـ إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية، فإن هزيمة المسيحيين أمام دمياط، شكَّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة، حيث تطلع الإمام العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته، وأضحى سيد مصر من دون منازع.

نور الدين محمود يُرسل نجم الدين أيوب إلى مصر

التفت صلاح الدين، بعد أن فرغ من أمر الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة، إلى انتهاج سياسة خاصة في مصر ستُحدد وضعه السياسي العام كأحد القادة الكبار في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى، ورأى في بادئ الأمر أن يجمع حوله أفراد أسرته وعشيرته ليتقوَّى بهم، فطلب من نور الدين محمود أن يُرسل إليه أباه وأقاربه ليستعين بهم في تصريف شؤون مصر[1].

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٥١.

كان نور الدين محمود قد وثق بأسد الدين شيركوه من قبل، لكنه بدأ الآن يرتاب في أطماع صلاح الدين بعد أن نظر إليه من قبل على أنه تابع مخلص وصديق أمين، فاستغل طلبه للتدليل على صداقته من جهة وكيما يخصه بلفتة من قِبَله من جهة أخرى، على أنه ما زال تابعاً له، فوافق على طلبه، وطلب منه بالمقابل الطاعة التامة[(١)].

وأرسل نور الدين محمود مع نجم الدين أيوب قوة من الجند، كما انضم إليه عدد كبير من التجار الذين شُغفوا باستئناف التجارة مع مصر، وحرصاً منه على تأمين سلامة القافلة أثناء اجتيازها الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون، قام بمهاجمة حصن الكرك[(٢)] المنيع الذي كان بحوزة الصليبين ليشغل هؤلاء عن التعرض لها[(٣)].

وعندما علم الصليبيون بوجود نور الدين محمود في المنطقة، خرجوا للتصدي له بقيادة اثنين من أشهر قادتهم، هما همفري صاحب بانياس وفيليب بن الدقيق، ففكَّ الحصار عن الحصن بعد أربعة أيام وتوجَّه نحو القوة الصليبية المتقدمة للاصطدام بها قبل وصول أفرادها إلى الحصن وانضمامهم إلى حاميته، لكن القوة الصليبية غيَّرت اتجاهها تجنباً للاشتباك معه، فمضى عند ذلك غازياً المناطق الصليبية حتى نزل على تل عشترا[(٤)].

وشاعت أخبار هذه الغزوة بين المسلمين، فقدم إليه شهاب الدين بن غازي الأرتقي صاحب البيرة على رأس مائتي فارس، واصطدم أثناء زحفه بسرية صليبية في محلة اللبوة بالهرمل من عمل بعلبك في (١٧ شوال ٥٦٥هـ/ ٤ تموز ١١٧٠م) وانتصر عليها، وتابع زحفه إلى حيث يقيم نور الدين محمود، وقُتل مقدم الأسبتارية صاحب حصن الأكراد في هذا القتال[(٥)].

وعندما بلغ نور الدين محمود وصول نجم الدين أيوب سالماً إلى مصر ترك المنطقة وعاد أدراجه، وكانت القافلة الإسلامية قد وصلت إلى مصر في (جمادى الآخرة/ شباط)، فخرج الإمام العاضد لاستقبال والد صلاح الدين إكراماً له، وأقطعه الإسكندرية ودمياط، كما أقطع أولاده وأكرمهم[(٦)].

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٦٢٧.

(٢) الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف بلاد الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على سن جبل عالٍ تحيط به أودية إلا من جهة الربض. الحموي: جـ٤ ص٤٥٣.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٥١. البنداري: ص٤٧. ابن شداد: ص٨٥.

(٤) عشترا: موضع بحوران من أعمال دمشق. الحموي: جـ٤ ص١٢٥.

(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٥٢.

(٦) أبو شامة: جـ٢ ص١٥٢، ١٥٣.

الصليبيون يهاجمون ممتلكات نور الدين محمود

عاد الملك عموري الأول إلى بيت المقدس ليجد فرسان طرابلس قد قاموا في غيابه بمهاجمة أملاك نور الدين محمود. والواقع أن هؤلاء استغلوا فرصة انهماك الزعيم المسلم بمهاجمة حصن الكرك، فاستردوا حصن عكار الواقع جنوبي البقيعة[(١)]، على أن الملك الصليبي، بوصفه وصياً على إمارة طرابلس في ظل غياب أميرها ريموند الثالث في الأسر، بذل هذا الحصن مع حصن عِرقة للفرسان الأسبتارية الذين سيطروا آنذاك على الوادي كله، لحمايتهما من هجمات المسلمين[(٢)]، وعندما خرج صاحب طرابلس من الأسر في (جمادى الأولى ٥٧٠هـ/ كانون الأول ١١٧٤م) أقرَّ تلك المنحة للأسبتارية وزاد عليها امتيازات جديدة، ومن ثَمَّ غدت عِرقة، فضلاً عن عكار وحصن الأكراد، المراكز الأساس للفرسان، ويرجع الفضل إليهم في الدفاع عن إمارة طرابلس.

الضغط الإسلامي على مملكة بيت المقدس

في الوقت الذي تمكَّن فيه نور الدين محمود من حلِّ مشكلة الوراثة في إمارة الموصل، بعد وفاة قطب الدين مودود في (ذي الحجة ٥٦٥هـ/ آب ١١٧٠م)، كان صلاح الدين قد ثبَّت أقدامه في مصر، وبدأ يوجِّه جهوده ضد القوى الصليبية، وما لبثت مملكة بيت المقدس أن شعرت بضغط المسلمين من الجنوب والشمال.

ففي (ربيع الأول ٥٦٥هـ/ كانون الأول ١١٦٩م) خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع الصليبيين على شاطئ فلسطين، فبدأ بحصار قلعة الداروم الواقعة جنوب غزة، واستقر في بعض أجزائها، وأرسل قوة عسكرية هاجمت ربض غزة، معقل فرسان الداوية[(٣)].

وكان الملك عموري الأول قد أقام حامية عسكرية قوية في غزة، للتصدي لأي خطر إسلامي يأتي من الجنوب، لكن هذه الحامية عجزت عن وقف الهجوم الإسلامي وأضحت القلعة وشيكة الوقوع في يد صلاح الدين، فاضطرت إلى طلب المساعدة من بيت المقدس، وإذ خشي الملك عموري الأول أن تقع في يد عدوه، وهي منطقة حيوية للوجود الصليبي، فتصبح مملكته أدنى إلى شقي الرحى؛ أسرع على رأس قوة عسكرية لنجدة القلعتين، فوصل إلى عسقلان ثم تابع إلى غزة، فلم

---

(١) ابن شداد: ص٨٣.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٦٢٨.

(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٤٨ ـ ٩٥٠.

يسع صلاح الدين إلا أن يترك الداروم، وسار إلى غزة للتصدي للملك الصليبي، ونجح في فتح أسفل المدينة على الرغم من المقاومة الشديدة، غير أن القلعة كانت من المتانة ما منعه من اقتحامها، واضطر أخيراً إلى الانسحاب والعودة إلى مصر ليستعد لجولة أخرى مع الصليبيين[١]، وتجلّى ذلك بأوضح صوره عندما هاجم ميناء أيلة على خليج العقبة في (صفر ٥٦٦هـ/ أيلول ١١٧٠م)، فسقطت المدينة في يده في (ربيع الآخر/ كانون الأول) واقتيد أفراد حاميتها أسرى إلى القاهرة[٢].

وشهدت الجبهة الشمالية في الوقت نفسه تطورات سياسية وعسكرية متوازية حتى ليمكن القول بأن صلاح كان يسير في غزواته بأمر نور الدين في تلك السنوات، إذ على الرغم من الهدنة المعقودة بين الجانبين الإسلامي والصليبي، فقد تذرَّع نور الدين محمود باستيلاء الصليبيين على مركبين إسلاميين كانا في طريقهما من مصر إلى بلاد الشام وجنحا على شاطئ اللاذقية في إمارة أنطاكية؛ ليجدِّد هجماته على الأملاك الصليبية[٣]، فأرسل قوة عسكرية في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) لمهاجمة إمارة أنطاكية، في حين هاجم هو إمارة طرابلس، فحاصر حصن عِرقة وخرَّب ربضه، وأرسل فرقة عسكرية من جيشه فتحت حصني العُريمة وصافيتا[٤].

أدَّت هذه الأعمال العسكرية إلى مضايقة الصليبيين الذين أدركوا أنهم لم يستفيدوا شيئاً نتيجة الاستيلاء على المركبين سوى ضياع بعض قلاعهم، وأنه من الأفضل أن يستجيبوا لطلب نورالدين محمود القاضي بتسليم ما في السفينتين من بضائع، ليتوقف عن مهاجمتهم ويقبل تجديد الهدنة[٥].

إعادة إحياء التحالف الصليبي ـ البيزنطي

أخذ الصليبيون يشعرون يوماً بعد يوم بازدياد خطر المسلمين على ممتلكاتهم، ولم يقف الملك عموري الأول موقف المتفرج وهو يشاهد تساقط حصون الصليبيين الواحد تلو الآخر، بيد نور الدين محمود، فتطلع مجدداً نحو الغرب للاستعانة بالبابوية ودول أوروبا الغربية، وحثِّهم على إرسال حملة صليبية إلى الشرق تعيد للصليبيين سيطرتهم التامة على بلاد الشام.

لكن الملك الصليبي كان ضعيف الأمل في وصول نجدة سريعة من الغرب،

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٥٠، ٩٥١.
(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٦١.
(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٥٤.
(٤) المصدر نفسه: ص١٥٤، ١٥٥.
(٥) المصدر نفسه: ص١٥٥.

وعندئذ لم يجد أمامه سوى اللجوء إلى الامبراطورية البيزنطية التي تُمثل القوة الرئيسة الكبيرة للنصارى في الشرق الأدنى، وكان قد أرجأ سفره إلى القسطنطينية بسبب مهاجمة نور الدين محمود الطرف الجنوبي لمملكته.

وبعد انحسار الخطر النوري غادر عكا إلى القسطنطينية في (١ رجب ٥٦٦هـ/ ١٠ آذار ١١٧١م) مع طائفة من أمرائه، فاستقبله الامبراطور مانويل استقبالاً حافلاً، ورحَّب بتلك الفرصة التي جعلت ملك بيت المقدس نفسه يزوره في عاصمته ما أظهره في صورة التابع له[١].

وتباحث الجانبان في أوضاع بلاد الشام، وعرض الملك عموري الأول الحال السيئة التي بات عليها الصليبيون والأخطار التي تُهدِّدهم، وطلب مساعدة الامبراطور، واتفقا أخيراً على شروط معينة لم تُحددها المصادر، وتمَّ التوقيع على المعاهدة[٢].

والراجح أن الملك عموري الأول اعترف بصورة غامضة بتبعيته للامبراطور البيزنطي وبسيادته على النصارى المحليين بعد أن وجد أنها الحل الوحيد للحصول على مطلبه وإنقاذ الصليبيين في بلاد الشام، وقد وعده الامبراطور مانويل ببذل مساعدة بحرية ومالية متى تقرَّر وضع خطة واضحة لتوجيه حملة أخرى إلى مصر، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء مشترك بحق الأمير الأرمني مليح الذي تحالف مع نور الدين محمود وانتزع عرش أخيه المتوفى ثوروس الثاني من ابنه الصغير روبين[٣].

ومهما تكن شروط المعاهدة، فقد أعرب الصليبيون عن ارتياحهم لما قاموا به من إنجاز بالنسبة لعلاقاتهم مع كل من مانويل ونور الدين محمود، ووجدوا في المعاهدة ضماناً للحصول على مساعدة البيزنطيين لهم ضد الزعيم المسلم وتابعه صلاح الدين، وبعد الانتهاء من الزيارة أبحر الملك عموري الأول وحاشيته في (٨ شوال/ ١٥ حزيران) عائدين إلى بلادهم[٤].

التمهيد للتغيير المذهبي

عندما استقر صلاح الدين في منصب الوزارة في مصر، شرع في اتخاذ موقف

---

(١) يصف المؤرخ وليم الصوري تفاصيل الزيارة وحفاوة الاستقبالات من جانب الامبراطور البيزنطي: جـ٢ ص٩٥٣ ـ ٩٥٧. Grousset: II p572.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ص٩٦٢. Elisséeff: II p656.   (٤) المصدر نفسه: ص٩٥٨، ٩٥٩.

استقلالي عن نور الدين محمود، والواضح أنه كان يُعدُّ نفسه لإحداث تغيير جذري وشامل داخل هذا البلد في المجالات كافة. وضمنت الخطوات التمهيدية العسكرية والاقتصادية والدينية التي نفَّذها إحكام قبضته على البلاد بحيث إذا أقدم على إسقاط الخلافة الفاطمية «فلا ينتطح عنزان».

فمن حيث التدابير العسكرية، فقد كمن الخطر الرئيس في الجيش المصري المؤلف من فِرَق عديدة من الفرسان البيض والمشاه السودان، فبدأ على الفور ببناء جيشه الخاص على حساب الضباط المصريين، فكانت الفرقة الصلاحية، وانضمت إليه الفرقة الأسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه، كما استعان بالمماليك الأتراك، لأنه وجد نفسه بأمسِّ الحاجة إلى من يشد أزره وينصره على أعدائه عندما تشتد الأزمة، وعندما اندلعت ثورة السودان كان قد أصبح لديه من القوات النظامية ما يكفي للقضاء على القسم الأكبر منهم وطردهم خارج القاهرة إلى الصعيد(١).

واستفاد صلاح الدين من نظام الإقطاع العسكري الذي أخذه عن الزنكيين وطبَّقه في مصر، فكانت البلاد توزع إقطاعات بين السلطان وجنده، ومن خصائص هذا الإقطاع أنه يجيز أن ينتقل الإقطاع من مقطع إلى آخر من دون الأخذ بالمبدأ الوراثي، وعلى المقطع التزامات مقابل الموارد التي يُحصِّلها من الإقطاع معظمها عسكرية، مثل تقديم الجند وقت الحرب والإنفاق عليهم(٢).

ومن حيث التدابير الاقتصادية، فقد استقدم صلاح الدين والده وإخوته للتعويض عن الفراغ الذي أحدثه إبعاد الأشخاص الموالين للدولة الفاطمية، فعيَّن والده على الخزانة ما أتاح له السيطرة على موارد الدولة(٣). والتفت صلاح الدين إلى إصلاح النظام الاقتصادي ليكسب محبة المصريين، فأبطل المكوس الديوانية، فمال المصريون إليه، وأطلق حرية التجارة(٤).

ومن حيث التدابير الدينية، فقد نفَّذ صلاح الدين منذ (أواخر ٥٦٥هـ/ صيف ١١٧٠م) إجراءات عدة أدَّت إلى إضعاف المؤسسة الفاطمية والمذهب الشيعي الإسماعيلي من جهة، وتقوية المذهب السني من جهة أخرى، فأبطل في (١٠ ذي الحجة/ ٢٥ آب) من الأذان «حيَّ على خير العمل»، وأمر بأن يُذكر في خطبة الجمعة أسماء الخلفاء الراشدين، ونزع المناطق الفضية التي كانت بمحاريب مساجد القاهرة

---

(١) Ehrenkreutz: pp73, 74.

(٢) خليل، فؤاد: الإقطاع الشرقي: ص١٧٤، ١٧٥.

(٣) ابن شداد: ص٨٥. المقريزي: خطط: جـ٣ ص٤٠٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٣٤٤. المقريزي: المصدر نفسه. أبو شامة: جـ١ ص٥٢٢، ٥٢٣.

والتي تحمل أسماء الخلفاء الفاطيين، وأثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين[١]، وأمر في (محرم ٥٦٦هـ/أيلول ١١٧٠م) بهدم دار المعونة[٢] المجاورة للجامع العتيق في مصر، وأعاد بناءها كمدرسة خصَّصها للشافعية، كما بنى دار الغزل المجاورة لباب الجامع العتيق وخصَّصها للمالكية، وقد عُرفت بالمدرسة القمحية[٣]، وحوَّل دار سعيد السعداء الواقعة شمالي القصر الفاطمي الشرقي إلى خانقاه للصوفية، وهي أول خانقاه تُنشأ في مصر، وأبطل مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر[٤]. استتبع التغيير المذهبي، تغيير رجال القضاء، فعزل جميع القضاة الشيعة الإسماعيليين، وفوَّض قضاء مصر إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك الشافعي، فاشتهر منذ ذلك الوقت المذهب الشافعي في مصر[٥]. ومن أشهر مظاهر تحول مصر إلى المذهب السني، نشر المذهب الأشعري، فقد كان صلاح الدين يتعصب لهذا المذهب متأثراً بالسلاجقة. ضَمِنَ صلاح الدين بهذه الإجراءات سيطرته على النواحي الدينية كما ضَمِنَ مراسلات الدولة بعد أن عين القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء[٦].

وهكذا توضَّحت أهداف صلاح الدين مع نهاية عام (٥٦٦هـ/ ١١٧١م)، فهو بحكم عقيدته السنية التي كان يعتنقها أو بدافع حبه في السيطرة والاستقلال، كان يرغب في إسقاط الدولة الفاطمية في مصر ليكوِّن لنفسه ولأسرته دولة فيها، ومن خلال هذه المنطلقات تحدَّدت علاقته بنور الدين محمود الذي ألزمه في (ذي الحجة ٥٦٦هـ/آب ١١٧١م) بإسقاط الخطبة للعاضد الفاطمي وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء، وكان من رأي صلاح الدين ألا يتعجَّل بالإقدام على هذه الخطوة خشية من رد فعل الشيعة في مصر، بالإضافة إلى أنه خشي من أن ينتزع نور الدين منه مصر.

وجاءت الخطوة الحاسمة في (٧ محرم ٥٦٧هـ/ ١٠ أيلول ١١٧١م) عندما قطع صلاح الدين الخطبة بمصر للإمام العاضد الفاطمي وأقامها للخليفة العباسي المستضيء وأعاد السواد شعار العباسيين، وقد تمَّ هذا التحول في هدوء «دون أن ينتطح فيها عنزان»[٧]، فأُعيدت بذلك الوحدة المذهبية في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، والوحدة السياسية بين مصر وبلاد الشام، وتسلَّم صلاح الدين القصر

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٦٤ ـ ٣٦٧. المقريزي: السلوك: جـ١ ص٤٣، ٤٥.
(٢) كان بمصر دار للشحنة تُسمى دار المعونة يُسجن فيها من يراد سجنه.
(٣) البنداري: ص١٠٧.
(٤) المقريزي: خطط: جـ٢ ص٤١٥، ٤١٦. إتعاظ الحنفا: جـ٣ ص٣٢٠.
(٥) البنداري: ص١٠٧. (٦) القلقشندي: جـ١ ص١٣٠، ١٣١.
(٧) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٦٥.

الفاطمي، وقبض على أولاد العاضد، وحدَّد إقامتهم في القصر بعد أن أجرى عليهم ما يُموِّنهم[(١)]، وكان العاضد أثناء ذلك مريضاً، فلم يشأ صلاح الدين إزعاجه، فأمر رجاله بألا ينهوا إليه بالأنباء وقال: «فإن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته»[(٢)].

نهاية الدولة الفاطمية

ولم تكد تمضي أيام على قطع الخطبة للفاطميين حتى توفي العاضد (١٠ محرم/ ١٣ أيلول)، فأمر صلاح الدين بإرسال الكتب إلى البلاد تُعلن عن وفاته وإقامة الخطبة رسمياً للخليفة العباسي المستضيء[(٣)]. وبذلك يكون صلاح الدين قد وضع نهاية للدولة الفاطمية في مصر لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخها عادت فيها هذه البلاد إلى الحظيرة السنية، ولتؤدي تحت قيادة الأيوبيين دوراً مهماً في توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة الخطر الصليبي، وانتهى دور الدولة الفاطمية في التاريخ.

علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود بعد إسقاط الدولة الفاطمية

كانت علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود، بعد إسقاط الدولة الفاطمية، حسنةً إجمالاً، لكنها لم تلبث أن أخذت بالتوتر تدريجاً وتحوَّلت إلى جفاء وتباعد بسبب تحديد العلاقة بينهما والسياسة الواجب اتباعها، وقد أشارت المصادر إلى وجود وحشة بينهما[(٤)].

والراجح أن هذا التباعد بين الرجلين بدأ مبكراً، ذلك أن تسليم نور الدين محمود قيادة الحملات التي أرسلها إلى مصر إلى أسد الدين شيركوه والذي صحبه فيها ابن أخيه صلاح الدين، كان يحمل في طياته قدراً من المخاطر السياسية التي ما كان ليُقدم عليها لولا ثقته التامة بهما من ناحية، وإيثاراً للمصلحة الإسلامية العليا من ناحية أخرى؛ وقد تمكَّن الرجلان من إضفاء دور واسع على مهماتهما في مصر، فاستطاعا أن يبرزا كبطلي جهاد ضد الصليبيين، وركني سند لأهل السنّة.

ويبدو أن طموحات قد نشأت لديهما في حكم مصر بعد أن بدا لهما أنهما سيلقيان من تأييد الناس ما يكفي لتثبيت دعائم ذلك الحكم، ولم يُخف شيركوه هذه الغاية في نفسه، بل ظل يتحدث عنها حتى استاء نور الدين محمود وانتابه القلق من هذا الطموح، وبخاصة بعد تولي أسد الدين شيركوه منصب الوزارة في مصر ومن

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٦٦.   (٢) ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣٥٦.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٦٥. البنداري: ص١١١. ابن شداد: ص٨٦.

(٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٦٧.

بعده صلاح الدين[1]. واعتقد صلاح الدين أن التأييد الذي حظِيَ به من جانب المصريين يعود إلى ما قام به من جهاد على أرض مصر وإلى ما لمصر من شخصية مستقلة، ولعله اكتشف أن باستطاعته أن يُجسِّد استقلالية مصر في شخصيته كحاكم لها، وربما أدرك أيضاً أن مصر المستعدة لقبوله حاكماً عليها في إطار من استقلالها قد لا ترضى بأن تكون مجرد ولاية تابعة لنور الدين محمود، ومن جهته رأى نور الدين محمود في توحيد مصر وبلاد الشام اكتمالاً للاستعداد للمعركة الفاصلة مع مملكة بيت المقدس الصليبية[2].

وبسقوط الدولة الفاطمية ووفاة العاضد «صفا الجو لصلاح الدين» وصار يُخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسي ونور الدين محمود[3]، وبات لزاماً عليه أن يُحدِّد موقفه علناً من نور الدين محمود باختيار أحد طريقين:

الأول: أن يظل على ولائه بوصفه نائباً عنه في مصر، وفي هذه الحال عليه أن يتقبَّل قرار نقله في أي لحظة.

الثاني: أن يستقل عن نور الدين محمود، وينبذ طاعته ويجعل من نفسه حاكماً على مصر ما يُعرِّضه لهجوم جيوشه[4].

أما نور الدين محمود، فعلى الرغم من قلقه واعتقاده بأن ما فعله صلاح الدين يُعدُّ تمرداً عليه إلا أنه لم يستطع أن يتدخل جدياً في شؤونه ويحد من أطماعه، يضاف إلى ذلك أن موقفه كان حرجاً أمام خصومه سلاجقة الروم والصليبيين وأمراء الجزيرة الفراتية، وكان يعتمد على مساعدات صلاح الدين له ضد أعدائه، لذلك اضطر أن يتجنَّب قيام عداء بينهما إلا أنه اتخذ إجراءات عدة جانبية ليُضعف موقفه، منها:

- عندما امتلك صلاح الدين مصر، انتزع نور الدين محمود حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، وفرَّق عماله، وأعطاه تل باشر ثم أخذها منه[5].

- استدعى الأمراء النوريين الذين رافقوا الحملة النورية إلى مصر، وقد سبَّب هذا الإجراء نقصاً في الأمراء القادة لدى صلاح الدين[6].

- رفض الاعتراف به كوزير في مصر، وظل يدعوه في المراسلات الرسمية باسم الأمير الأسفهسلار[7]، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن

---

(١) أبو شامة: جـ٢ ص١٠٩، ١١٠.
(٢) دجاني: ص٢٩٠، ٢٩١.
(٣) ابن تغري بردي: جـ٥ ص٣٥٧.
(٤) Grousset: II p590.
(٥) Ehrenkreutz: p72.
(٦) Ibid.
(٧) الأسفهسلار: معناها مقدم العسكر، وهي مركبة من لفظين: أولهما فارسي وهو أسفه: ومعناه المقدم، والثاني تركي ومعناه، العسكر.

يكتب اسمه[1].

والراجح أن الامتداد المتواصل لصلاح الدين وقدرته العسكرية التي كان عليها عام (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، والتي تضاهي قدرة القوات الموجودة بتصرف نور الدين محمود، ربما جعلت هذا الأخير أشد قلقاً، لأن الأول أضحى في موقع لا يمكن زحزحته إلا بالحرب، والحرب نفسها غير مضمونة النتائج لأن أي جيش يأتي من بلاد الشام إلى مصر سوف يواجه الآن قوة مصرية تفوق كثيراً القوة المتاحة لوزير مصر الأسبق شاور، وقد تهيَّب الرجلان من وقوع الحرب بينهما.

واختلف الرجلان في تقييم الوضع السياسي الذي يخدم القضية الإسلامية ضد الصليبيين، فقد اعتقد نور الدين محمود أن بلاد الشام هي الأرض الرئيسة للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للواردات المادية والطاقة البشرية التي تسد نفقات الجهاد من جهة، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية من جهة أخرى[2].

أما صلاح الدين، فقد كان مقتنعاً نتيجة للصراع بين القوى الثلاث، الإسلامية والصليبية والبيزنطية في الشرق الأدنى حول مصر، بأن هذا البلد يشكل في الوقت الراهن نقطة الخطر، كما كان أكثر وعياً من نور الدين محمود للأخطار الناجمة عن عداء الفاطميين واستعداد قواتهم السابقة للانضمام إلى الصليبيين[3].

نتائج العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود

ترتَّب على هذا الاختلاف السياسي بين صلاح الدين ونور الدين محمود نتيجتان:

الأولى: تفويت الفرصة التي كان ينبغي على المسلمين توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقدس بعد أن دبَّ الضعف في أوصالها وتراجعت قوتها العسكرية، وكان الغرب الأوروبي منهمكاً في مشكلاته الداخلية التي حالت دون الالتفات إلى الشرق، كما انهمك الامبراطور البيزنطي بالحرب مع سلاجقة الروم والأرمن.

الثانية: تراخي صلاح الدين في التعاطي الجدي مع الأحداث في بلاد الشام ما أغضب نور الدين محمود، وكانت تصرفات أحد الرجلين تُفسَّر على أنها موجهة ضد الرجل الآخر.

وتوضح لنا الحادثة التالية طبيعة موقف كل من الرجلين تجاه الآخر: ففي (محرم

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٤٤.

(٢) البنداري: ص١٢٣. أبو شامة: جـ٢ ص٢٣٦، ٢٣٧.

(٣) جب، السير هاملتون: صلاح الدين الأيوبي: ص١٢١.

٥٦٧هـ/ أيلول ١١٧١م) خرج صلاح الدين من مصر بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين محمود لمهاجمة حصن الشوبك[١] في وادي عربة جنوبي البحر الميت، فحاصره وضيَّق عليه حتى كاد أن يسقط، على أن نور الدين محمود ظهر فجأة على الطريق المؤدي إلى الكرك في الوقت الذي كانت فيه الحامية في الشوبك تستعد للاستسلام، ولما علم صلاح الدين بمسير نور الدين محمود إليه رأى من المخاطرة أن يبقى أمام الشوبك حتى يصل إليه، ونصحه أتباعه بعدم الاجتماع به إذ ربما قبض عليه وعزله من منصبه. وتناهت إلى أسماع صلاح الدين في هذه الأثناء، أنباء قيام ثورة السودان في مصر، فخشي العاقبة وضياع الأمور من يده، فرفع الحصار عن الحصن وانسحب عائداً إلى مصر، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال أوضاع مصر، واضطراره إلى مساعدة أخيه الذي يحارب بقايا الفاطميين في الصعيد[٢].

لم يقتنع نور الدين محمود بتصرف صلاح الدين وتبريره، فاستاء من مسلكه ولم يقبل عذره بل إنه بدأ يستعد للزحف على مصر لتأديبه، وجزع هذا الأخير عندما سمع بذلك، فنصحه والده بالإذعان، فأرسل إليه الهدايا واعتذر عن تصرفه، فقبلها نور الدين محمود إلى حين[٣].

ويبالغ ابن الأثير حين يذكر أن صلاح الدين حرص، في ذلك الدور، على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين محمود، ويعتقد أنه متى زال الصليبيون من طريقه أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم ولا يؤثر استئصالهم[٤].

ويبدو أن نور الدين محمود شعر الآن بأن الوقت يجري لغير مصلحته، وبأن عليه أن يضرب مملكة بيت المقدس، وهي الضربة إلى أمضى حياته في الإعداد لها، وبأن الوقت ملائم لنجاحها، لكنه كان يعلم أيضاً بأن النصر لن يتحقق إلا بمشاركة مصر بجيشها ومالها، فكتب إلى صلاح الدين يدعوه للقيام بهجوم مشترك على هذه المملكة، واتفقا على أن يتلاقى الجيشان الإسلاميان عند حصن الكرك. وصل نور الدين محمود إلى الحصن في (شوال ٥٦٨هـ/ أيار ١١٧٣م)، وخرج صلاح الدين من مصر بناء على نصيحة والده، إلا أن مقامه داخل الأراضي الصليبية لم يستمر مدة طويلة، فقد انسحب من المنطقة وعاد إلى مصر متذرعاً بمرض والده، ما أدَّى

---

(١) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمَّان وأيلة والقلزم قرب الكرك. الحموي: جـ٣ ص٣٧٠.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ص١٥٨، ١٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ص١٦١.

إلى ازدياد مخاوف نور الدين محمود، وقال للرسول الذي أوفده صلاح الدين إليه ليبلغه قراره بالانسحاب «حفظ مصر أهم عندنا من غيره»، وبذلك ضاعت إلى الأبد فرصة نور الدين محمود في استعادة بيت المقدس، واحتفظ صلاح الدين بهذه الفرصة لنفسه.

ومهما يكن من أمر العلاقة بين الرجلين، فإن غضب نور الدين محمود على صلاح الدين قد تجاوز الحد، وصمَّم نهائياً على الزحف إلى مصر للقضاء عليه، لكنه لم يلبث أن توفي يوم الأربعاء في (١١ شوال ٥٦٩هـ/ ١٥ أيار ١١٧٤م) قبل أن يُحقق هدفه[١]، وبذلك ترك الساحة خالية أمام صلاح الدين ليتبوأ زعامة المسلمين السياسية في مصر وبلاد الشام وأعالي العراق.

وهكذا تأسست الدولة الأيوبية التي اعترف بها الخليفة العباسي المستضيء في عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٥م)، ويمكن عدُّ الأعوام الخمسة التي سبقت وفاة نور الدين محمود بمثابة مرحلة انتقالية للعهد الجديد.

والواقع أن الدولة الأيوبية قامت على أساس أن الحرب ضرورة، كما أن مبرر قيامها هو دورها التاريخي في مواجهة الصليبيين، وهو الذي أضفى عليها الصفة الشرعية في نظر المسلمين كما كان هو مبرر وجودها واستمرارها[٢].

الالتفات مجدداً نحو الشمال

نشوب الاضطرابات في كيليكية: نشبت الحرب من جديد في الشمال في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٣م)، ذلك أن الأمير الأرمني مليح استرسل فغزا أراضي الدولة البيزنطية في كيليكية، وانتزع من الحاميات البيزنطية المصيصة وأذنة وطرسوس، وهاجم الداوية في بغراس، وهدَّد الصليبيين في أنطاكية[٣].

لم يكن باستطاعة الصليبيين أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تهديدات مليح، فالتمس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية المساعدة من الملك عموري الأول، الذي شعر من الاطمئنان ما يكفي لأن يحمله على السير نحو الشمال إلى كيليكية لإنزال العقاب بالأمير الأرمني لاعتدائه على ستيفن شامبين، وللوفاء بما بذله من وعد للامبراطور البيزنطي، وأعاد فيما يبدو الحكم البيزنطي، ولكن لبعض الوقت، كما منع الزعيم الأرمني من المضي في التوسع[٤].

(١) ابن الأثير: ص١٩١. البنداري: ص١٥٣. ابن شداد: ص٨٨.
(٢) قاسم: ماهية الحروب الصليبية: ص١٨٩، ١٩٠.
(٣) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٦٢، ٩٦٣. (٤) رنسيمان: جـ٢ ص٦٢٩، ٦٣٩، ٦٤٠.

اغتنم نور الدين محمود فرصة ابتعاد الملك عموري الأول عن مملكته بصحبة مايلز بلانسي صاحب الكرك، فأغار على إقليم الأردن، ودعا صلاح الدين إلى النهوض لمساعدته، فحاصر هذا حصن الكرك، ولما علم باقتراب نور الدين، فكَّ الحصار عن الحصن وعاد أدراجه إلى القاهرة، كما ذكرنا.

وعسكر نور الدين محمود أمام الحصن، ولم تستطع ستيفاني ميللي، زوجة مايلز، الدفاع عنه، فالتمست المساعدة من بوهيموند الثاني صاحب تبنين فلم يسع نور الدين محمود عندئذ إلا الانسحاب[١].

محاولة توسيع نطاق الوحدة الإسلامية: التفت نور الدين محمود في هذا الوقت إلى العمل على توسيع نطاق الوحدة الإسلامية، ولم يشأ أن يُضعف جبهة السلطان قلج أرسلان الثاني صاحب قونية، وهي جبهة إسلامية، وكان يأمل بمساعدة هذا الأخير في شنِّ هجوم على أنطاكية ومضايقة البيزنطيين، فدعاه إلى الانضمام إليه لجهاد الصليبيين والبيزنطيين، لكن السلطان قلج ارسلان الثاني كان مرتبطاً بمعاهدة مع الدولة البيزنطية، فخشي أن يُعرِّضه التحالف مع نور الدين محمود لانتقام الامبراطور، ولذلك أعرض عن طلبه، وأظهر معارضة لسياسته، ثم التقى بالامبراطور في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) وأكَّد له حرصه على ما بينهما من الموادعة[٢].

تجاه هذا الرفض السلجوقي لم يجد نور الدين محمود مخرجاً لإخضاع السلطان قلج أرسلان الثاني سوى الضغط عليه من واقع مهاجمة أملاكه، وجاء إلحاح حليفيه مليح الأرمني وذي النون الدانشمندي، لمهاجمة أراضيه، ما دفعه إلى ترؤسهم، وراح يهاجم الممتلكات السلجوقية، فانتزع بهسنا ومرعش وما بينهما من الحصون التابعة لقلج أرسلان الثاني، ثم أرسل قوة عسكرية إلى سيواس عاصمة آل دانشمند فدخلتها وثبَّتت حكم ذي النون فيها، ولم يجرؤ السلطان قلج أرسلان الثاني على التصدي لها[٣].

وأخيراً التقى الجانبان في قيصرية، فعسكر الحلفاء على مشارف نهر بيراموس،

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٦٣ ـ ٩٦٥.

(٢) كان السلطان قلج أرسلان الثاني مرتبطاً بمعاهدة عدم اعتداء وتعاون مع مانويل كومنين، وقد أُبرمت هذه المعاهدة في عام (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) على إثر الزيارة المشهورة التي قام بها السلطان إلى العاصمة البيزنطية. انظر فيما يتعلق بهذه الزيارة والنتائج التي ترتبت عليها. ابن العبري: ص١٧٥ Michel le Syrien: III p319. Nicetas: pp156, 185. Kinnamos: pp204, 205, 207.

(٣) ابن الأثير: ص١٦٠.

في حين عسكر السلطان قلج أرسلان الثاني على الضفة الأخرى للنهر، وظلا متواجهين مدة ستة أشهر من دون قتال[1]، وعندما رأى السلطان السلجوقي مدى قوة أعدائه، مال إلى الصلح إذ رأى فيه المخرج الوحيد من المأزق، فراسل نور الدين محمود من أجل هذه الغاية، وتوقفت الأعمال العسكرية خلال ذلك[2].

وكان الذي دفع نور الدين محمود إلى قبول التفاوض، وهو الأقوى على الساحة، فهو اشتداد الضغط الصليبي على ممتلكاته في بلاد الشام حيث نزل الصليبيون آنذاك في مدينة حمص[3]، بالإضافة إلى تحقيق هدفه بضم السلطان قلج أرسلان الثاني إلى الجبهة الإسلامية المتحدة. وقد أُورد ابن الأثير جانباً من الاتفاق والمطالب التي أصرَّ نور الدين محمود على تنفيذها، وهي:

ـ أن يُجدِّد السلطان السلجوقي إسلامه على يد رسوله الذي أرسله له للتفاوض، علماً بأن نور الدين محمود لم يعتقد بإيمان السلطان السلجوقي المتهم باعتناقه مذهب الفلاسفة.

ـ أن يقدم له قوة عسكرية عند الحاجة لأنه ملك طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام، وترك جهاد الروم وهادنهم، وخيَّره إما أن ينجده بعسكره لقتال الصليبيين وإما أن يجاهد الروم.

ـ أن يُزوِّج السلطان السلجوقي ابنته من سيف الدين غازي، ابن أخي نور الدين محمود، فلما سمع السلطان بمضمون الرسالة قال: «ما قصد نور الدين إلا الشناعة عليَّ بالزندقة وقد أجبته إلى ما طلب. أنا أُجدِّد إسلامي على يد رسوله»[4].

نلاحظ مما ورد أعلاه، بشأن بنود الاتفاق، أن ابن الأثير اكتفى بذكر الأمور المتعلقة بجهاد المسيحيين وتخص نور الدين محمود في الوقت نفسه، ولم يذكر الأمور الأخرى المتعلقة بأوضاع الأمراء المسلمين في آسيا الصغرى ومنطقة الفرات وكيفية ترتيب شؤونهم، سوى إشارة عابرة وردت في سياق الرواية، عندما ذكر أنه بعد إقرار الصلح «عاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون الدانشمندي، فبقي العسكر بها إلى أن توفي نور الدين، فرحل العسكر عنها، وعاد قلج أرسلان وملكها»[5].

إلا أننا نستطيع استكمال صورة المفاوضات والمطالب مما أوردته المصادر المسيحية وهي على الشكل التالي: على قلج أرسلان أن:

---

(١) Chalandon: Les Comnènes: p497.

(٢) ابن الأثير: ص١٦٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص١٦٠، ١٦١.

(٥) المصدر نفسه: ص١٦١.

- يُطلق سراح الأسرى الذين أسرهم أثناء محاولته اقتحام ملطية.
- يُعيد المقاطعات الخاصة بكل من شاهنشاه وذي النون إليهما.
- يُطلق سراح أولاد أخيه شاهنشاه الأربعة المعتقلين عنده.

قَبِل السلطان قلج أرسلان الثاني تنفيذ البند الأول، ورفض تنفيذ البندين الآخرين، عند ذلك شدَّد الحلفاء الضغط عليه، فهدَّد بقتل أولاد أخيه، وأخيراً تمَّ الاتفاق على ما يلي:

- إعادة قيصرية إلى ذي النون وتثبيته في سيواس.
- تثبيت شاهنشاه في أنقرة[١].

مؤامرة الحشيشية

ارتاح الملك عموري الأول لارتداد نور الدين محمود عن حصن الكرك وتوجهه إلى الشمال بعيداً عن ممتلكاته، وتجدَّد الأمل لديه بالتخلص من الخطر المحدق به من جانب المسلمين عندما تناهى إلى أسماعه خبر وقوع الوحشة بينه وبين صلاح الدين، وأُتيحت له الفرصة للاتصال بفرقة الحشيشية الإسماعيلية في بلاد الشام، وقد جمعت الطرفان مصلحة مشتركة هي العداء لنور الدين محمود.

كانت هذه الطائفة تمتلك حصوناً عدة مهمة في بلاد الشام، مثل القدموس والعليقة والكهف ومصياف وغيرها، والواضح أن أفرادها ارتاعوا لزوال الدولة الفاطمية وانتصار المذهب السني في مصر، وشعروا بالخطر يتهدَّدهم في بلاد الشام، وبخاصة أن نور الدين محمود قيَّد توسعهم على الطرف الشرقي، غير أنه لم يستطع أن يقمعهم، وإذ عثر على خنجر ذات ليلة على وسادته، كان ذلك نذيراً بألا يتمادى في مناوأتهم[٢].

واتصلت فرقة الحشيشية بالملك عموري الأول للتنسيق معه على مواجهة نور الدين محمود، وأرسلت قيادتها في ألموت بفارس في عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م) حاكماً جديداً ليتولى إقليم النصيرية يُدعى رشيد الدين سنان البصري، واشتهر عند الصليبيين باسم شيخ الجبل، فاتصل بالملك الصليبي وعرض عليه إقامة تحالف مناهض لنور الدين محمود مقابل إعفاء الحشيشية من الضريبة التي فرضتها عليهم الداوية في أنطرسوس.

ونتيجة للنظرة السياسية التقليدية المعادية لنور الدين محمود، فرح الملك عموري الأول بتشجيع الصداقة مع شيخ الجبل في أشد الأوقات حرجاً ورحَّب بعرضه، آملاً بما لدى الحشيشية من خبرة بأوضاع البلاد الإسلامية وحكامها، أن تكون هذه

---

(١) ابن العبري: ص١٨٤.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٦٤١.

الطائفة ذات فائدة كبيرة للصليبيين، فكتب إلى الداوية يأمرهم بقبول العرض، لكن العداء القديم بين الطرفين وغضب الداوية من حرمانها من الضريبة التي اعتادت جبايتها؛ دفعت أفرادها إلى الإجهاز على سفارة رشيد الدين سنان أثناء اجتيازها أراضي إمارة طرابلس[1].

وهكذا حال الداوية بين تحالف القوتين الصليبية والحشيشية لمناوأة نور الدين محمود. وكان طبيعياً أن يغضب الملك عموري الأول، إذ تعرَّضت سياسته للدمار، وأثار نزاعاً بينه وبين مقدم الداوية أودو سانت أماند استوجب رفعه إلى البابا للفصل فيه[2].

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٦٧ ـ ٩٦٩.

(٢) المصدر نفسه.

الفصل التاسع عشر

توحيد القوى الإسلامية على يد صلاح الدين

الوضع السياسي في بلاد الشام عقب وفاة نور الدين محمود

أثارت وفاة نور الدين محمود مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته ما هدَّد الوحدة الإسلامية، وكادت هذه المشكلة أن تعود بالمسلمين إلى حال التمزق والانقسام التي كانوا عليها قبل أن يبدأ عماد الدين زنكي جهوده لوضع قاعدة صلبة لتوحيد الجبهة الإسلامية والتصدي للصليبيين.

ولم يكن بين رجال الأسرة الزنكية من يصلح أن يكون خلفاً لنور الدين محمود، الذي لم يترك سوى طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه إسماعيل، وابنة صغيرة وزوجة هي عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر[(١)].

واتفق الأمراء في دمشق على تنصيب الملك الصالح إسماعيل خلفاً لوالده، فأجلسوه على العرش في القلعة، وحلفوا له، وعيَّنوا شمس الدين بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، قائداً للجيش وأتابكاً له[(٢)]، وكتبوا إلى ولاة الأطراف بإقامة الخطبة باسمه، وبخاصة صلاح الدين في مصر[(٣)] مُوضحين له بأن مهمته تنحصر في قيادة العساكر ضد الصليبيين، وأن تلك المهمة كانت بتكليف من نور الدين محمود، والراجح أنهم توقَّعوا معارضته، وقد نصح القاضي كمال الدين الشهرزوري الأمراء المحيطين بالصالح إسماعيل بضرورة التعاون معه، والاستعانة به لحل الخلافات، أو الانقياد له نظراً لقوته وانفراده بحكم مصر، إلا أن نصيحته لم تُجد نفعاً، فقد خشي الأمراء على مصالحهم وظنوا أن صلاح الدين إذا دخل البلاد، أخرجهم منها، لذلك تغاضوا عن هذا الرأي الصائب[(٤)].

على أنه وُجد لإسماعيل ابنا عم، هما سيف الدين غازي الثاني أمير الموصل

---

(١) البنداري: ص١٥٣، ١٥٤. ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية: جـ٩ ص٣٩٥، جـ١٢ ص٢٧٩.
(٢) البنداري: ص١٥٤.
(٣) انظر نص الكتاب في المصدر نفسه: ص١٥٥.
(٤) ابن الأثير: ص١٦٢.

وأخوه عماد الدين زنكي أمير سنجار، إلا أنهما لم يكونا على مستوى الأحداث، كما دبَّ النزاع بينهما[1]، لذلك لم يكن من المتوقع أن يملأ أي منهما الفراغ الذي تركه نور الدين محمود، كما لم يكن من المنتظر أن تظل بلاد الشام وإمارة الموصل محافظة على وحدتها وقوتها.

وبرز في ظل هذه الأوضاع صراع آخر سار في خط موازٍ، نشب بين اثنين من قادة نور الدين محمود، هما شمس الدين علي بن الداية في حلب وابن المقدم في دمشق، وكان سبب النزاع هو الوصاية على الملك الصالح إسماعيل والاختلاف في وجهات النظر حول كيفية قيادة الدولة. فقد أراد ابن المقدم العمل السياسي ضمن دائرة بلاد الشام وتحت إمرة الأتراك من الأتابكة الزنكيين، في حين أراد ابن الداية العمل تحت إمرة صلاح الدين بعد ضمِّ مصر إلى بلاد الشام، والتعاون مع الأكراد الذي ينتمي إليهم حاكم مصر، والأتراك الذين ينتمي إليهم الأمراء النوريون. وهكذا أحاط بالملك الصالح إسماعيل طائفتان تمثلان وجهتي نظر مختلفتين.

وازدادت حدة الانقسامات بفعل ما جرى من مشاركة سعد الدين كمشتكين الخادم، وهو أحد قادة نور الدين محمود، في التنافس على الزعامة، وقد اتفق مع ابن الداية على أن يسير إلى دمشق ويُحضر الملك الصالح إسماعيل، ونجح في إقناع الأمراء بالانتقال معه إلى حلب، ويبدو أنه اتفق معهم سراً على التخلص من ابن الداية بدليل أنه قبض عليه وعلى أخيه مجير الدين فور عودته واعتقلهما، وحكم حلب، وتفرَّد في أتابكية الملك الصالح إسماعيل، واستبدَّ بتدبير أموره، ناقضاً بذلك اتفاقه مع أمراء دمشق الذين خطَّطوا للاستيلاء على حلب، ما أثار مخاوفهم[2].

وهكذا انقسمت دولة نور الدين محمود إلى ثلاث دويلات تركَّزت كل منها حول واحدة من المدن الرئيسة: الموصل دمشق وحلب، وظلَّت مصر بحكم هذا الوضع معزولة عن بلاد الشام تحت قيادة صلاح الدين، وبذلك، تصدَّعت وحدة المسلمين وانقسمت إلى أقسام منفصلة يتربص كل منها بالآخر ما عرَّض مصالح المسلمين في الشرق الأدنى للخطر، وأشاع قلقاً متزايداً.

تطلعات صلاح الدين السياسية بعد وفاة نور الدين محمود

تطلَّع صلاح الدين، بعد وفاة نور الدين محمود، إلى ضمِّ بلاد الشام إلى مصر بهدف استمرار السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، وجرى عليها ابنه نور الدين

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٣٩٧.

(٢) البنداري: ص١٦٥. ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٧٥، ١٧٦.

محمود، وتقضي بتوحيد كلمة المسلمين، والقضاء على الصليبيين. ذلك أن وعيه بأخطار انقسام الصف الإسلامي، والتهديد الذي يفرضه الصليبيون؛ قد نمَّى خبراته المبكرة في مصر، ونبَّهه إلى العواقب الوخيمة لتشتُّت وحدة المسلمين، ورأى أنه حان الوقت الذي يتولى فيه القيام بدوره في الجهاد، وساعدته الظروف السياسية والعسكرية على تحقيق هذا الهدف، وقد أثاره:

- تنازع أمراء بلاد الشام على الوصاية على الملك الصالح إسماعيل، وطغيان المصالح الخاصة للأمراء، ما يحول دون تشكيل حلف متماسك ضد الصليبيين، يضاف إلى ذلك، فإن هؤلاء الأمراء سوف يُشكِّلون خطراً مباشراً على خططه التوحيدية في حال تقدمه لقتال الصليبيين، لأن خطوط مواصلاته مع مصر ستكون مهدَّدة آنذاك، فضلاً عن احتمال تعاونهم مع هؤلاء على حربه، مدركاً في الوقت نفسه، أن وحدة الجيوش الإسلامية تحت إمرة قائد واحد تبقى الشرط الأساس لكل انتصار على الصليبيين، وقد عبَّر عن سياسته الخاصة بذلك في الكتاب الذي أرسله إلى الخليفة العباسي في بغداد وشرح فيه الأسباب الموجبة التي دعته للمسير نحو حلب في عام (٥٧١هـ/ ١١٧٥م)[١].

- تحالف أمراء دمشق مع الملك عموري الأول، في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية، ما يُبقي خطر الانقسام الإسلامي ماثلاً، وقد استنكر المعاهدة التي أبرمها ابن المقدم مع الملك الصليبي عقب مهاجمته بانياس[٢].

- سيطرة سيف الدين غازي الثاني حاكم الموصل على الجزيرة الفراتية، لأن صلاح الدين شعر بأنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية، وأن واجبه يفرض عليه التدخل لإعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة قبل التصدي للصليبيين، وبخاصة أنه يملك القوة الضرورية لفرض إرادته.

اعتقد صلاح الدين أنه أحق بالوصاية على الملك الصالح إسماعيل بعد إلقاء القبض على ابن الداية، وهي وجهة النظر التي لم يوافق عليها الحلبيون، واتخذ من هذه القضية مبرراً للزحف إلى بلاد الشام والدخول في لعبة التنافس على الزعامة الإسلامية، ومهَّد لخطوته هذه بدفع العلماء لإثارة الناس وتنبيههم لاستنكار عمل الأمراء النوريين دفعاً للحرب التي لم يكن ينوي القيام بها ضدهم، واعتمد على القاضي ابن أبي عصرون للقيام بهذه المهمة[٣].

---

(١) انظر نص الكتاب عند أبي شامة: جـ٢ ص٣٥٧ ـ ٣٦٦.

(٢) البنداري: ص١٥٥، ١٥٦. ابن واصل: جـ٢ ص٨.

(٣) البنداري: ص١٧٧ ـ ١٧٩. نوري، دريد عبد القادر: صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر =

وكتب إلى الأمراء النوريين في كل من حلب ودمشق يعلمهم بأنه أحق بولاية الملك الصالح إسماعيل، ويخبرهم بقدومه، إلا أنهم ردوا عليه رداً سيئاً[1]. ويبدو أن أمراء دمشق وجدوا أنفسهم في موقف حرج، فقد خشوا أن يزحف عليهم كمشتكين من حلب ويستولي على مدينتهم بعد أن تفاهم مع سيف الدين غازي الثاني، كما قلقوا من زحف صلاح الدين باتجاههم، لذلك استدعوا أمير الموصل ليسلموه مدينتهم، غير أن سيف الدين غازي الثاني تباطأ في الخروج ظناً منه بأنها مكيدة، وآثر توطيد مكاسبه في الجزيرة الفراتية[2].

وألحَّ سكان دمشق في هذه الأثناء على ابن المقدم أن يدعو صلاح الدين، فاضطر الأمير الدمشقي تحت وطأة الظروف السياسية إلى الاستجابة، وكتب إليه يستدعيه إلى بلاد الشام[3].

كان تحرك صلاح الدين إلى بلاد الشام، وحملاته اللاحقة ضد الحلبيين والموصليين هي النقاط التي استشهد بها أولئك الذين أرادوا الانتقاص من شأنه في الماضي والحاضر، والذين حاولوا الإيحاء بأن أهدافه الأساسية انصبت على تمجيد شخصه وعشيرته، لكن الواقع أن صلاح الدين أضحى معقد آمال المسلمين ومحط أنظارهم في بلاد الشام، والمنقذ من الأخطار المهدِّدة في الداخل والخارج ليتبوأ مركز الصدارة في قيادة المسلمين، ويرث المكانة التي كان عليها نور الدين محمود، ويسير على نهجه في توحيد بلاد الشام ومصر والجزيرة الفراتية، وجهاد الصليبيين.

المحاولات الأخيرة لإعادة الحكم الفاطمي إلى مصر

مؤامرة عمارة اليمني: واجه صلاح الدين مؤامرة أخرى لإعادة الحكم الفاطمي إلى مصر حاكها عمارة اليمني الشاعر في (شوال ٥٦٩هـ/أيار ١١٧٤م)، واستقطب كثيراً ممن جمع بينهم الحقد على الدولة الأيوبية، ومن تأثرت مواردهم المالية نتيجة قيامها، واتخذ هؤلاء جميعاً المذهب الشيعي وفكرة إحياء الخلافة الفاطمية ستاراً لتحقيق طموحات سياسية ومادية، وقرَّر المتآمرون تنفيذ حركتهم أثناء وجود صلاح الدين وأخوه تورانشاه خارج مصر.

= والشام والجزيرة: ص١٢٩.

(١) ابن كثير: جـ١٢ ص٢٨٦.

(٢) البنداري: ص١٧٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٤٠٤ ـ ٤٠٦. ابن واصل: جـ٢ ص١١.

(٣) ابن شداد: ص٩٢.

ويبدو أن المتآمرين أدركوا استحالة نجاح مؤامرتهم من دون مساعدة خارجية، فاتصلوا بثلاث قوى، هي:

- الحشيشية التي تشكل القوة الشيعية الرئيسة في بلاد الشام، فأبدى زعيمها رشيد الدين سنان استعداده لإرسال جماعة من الفدائيين لاغتيال صلاح الدين(١).

- الصليبيون في بيت المقدس، وقد أبدى الملك عموري الأمل استعداده لإرسال قوة عسكرية إلى مصر بهدف الانتقام من النوريين بعامة، ومن صلاح الدين بخاصة الذي حال دون تحقيق أطماعه في مصر.

- النورمان في صقلية، وكان الملك وليم الثاني يتلهَّف لتأمين موطئ قدم للنورمان في الشرق.

وتقرَّر تنسيق الجهود، فتقوم القوات الصليبية بغزو مصر براً في الوقت الذي يهاجم فيه الأسطول الصقلي ميناء الإسكندرية، فينهض صلاح الدين للتصدي له، فيُشعل المتآمرون الثورة في الداخل ويقضون على الحكم الأيوبي(٢).

وتقاسم المتآمرون المناصب السياسية والإدارية، وعيَّنوا أعضاء الجهاز الحكومي، واختاروا الابن الأكبر للعاضد خليفة، بحيث غدا كل شيء معداً للتنفيذ ولم يبق إلا «رحيل الفرنج»(٣).

واقتضى التنسيق بين المتآمرين زيارة قام بها وفد صليبي أرسله الملك عموري الأول إلى القاهرة يحمل في ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبي لصلاح الدين، ولكنه في حقيقة الأمر أتى للتنسيق ووضع الترتيبات النهائية لخيوط المؤامرة.

وأعدَّ وليم الثاني في الوقت نفسه، أسطولاً ضخماً مؤلفاً من مائتين واثنين وثمانين سفينة تحمل ثلاثين ألف مقاتل تقريباً للمشاركة في غزو مصر(٤).

لكن المؤامرة انكشفت، فقبض صلاح الدين على زعمائها وشنقهم، ونفى الأجناد المصرية والسودانية وحاشية القصر إلى أقصى الصعيد، بحيث لم يبق من العساكر الفاطمية أحد(٥)، ولم يكد الملك عموري الأول يعلم بفشل المؤامرة حتى توفي كمداً، وزال بوفاته خطر الغزو براً.

كان الأسطول الصقلي آنذاك على مقربة من الشواطئ المصرية، ولم يعلم قائده تانكريد كونت ليتشي شيئاً عن فشل المؤامرة، غير أنه اكتشف بعد ذلك أنه أضحى محروماً من المساعدة التي علّق عليها النورمان أهمية كبيرة، وعلى الرغم من ذلك

---

(١) ابن واصل: جـ١ ص٢٤٩.

(٢) Wiet: L'Egypt Arab: p311.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٩٠، ٣٩١.

(٤) ابن شداد: ص٩٠، ٩١.

(٥) ابن واصل: جـ١ ص٢٤٤، ٢٤٥، جـ٢ ص١٤، ١٥.

أراد وليم الثاني أن يثبت أن بوسعه أن يقوم منفرداً بعمل ما، فأمر قواته بالنزول إلى الشاطئ، ودمَّر أسطوله بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الإسكندرية[1].

وحاول النورمان اقتحام الإسكندرية لكنهم جوبهوا بمقاومة شديدة، ثم قدم صلاح الدين مع جيشه، فهاجم النورمان، وأغرق بعض سفنهم، وأحرق خيامهم، وأنزل بهم الهزيمة، ما حملهم على أن يعودوا إلى سفنهم والإقلاع من الإسكندرية، وذلك في (محرم ٥٧٠هـ/آب ١١٧٤م)[2].

ثورة كنز الدولة: واشتعلت الثورة في أسوان على حدود النوبة، تزعمها كنز الدولة أو الكنز، وهو أحد القادة الفاطميين، واشترك معه والي قوص عباس بن شادي، وقد جمع حوله عدداً كبيراً من أهل الصعيد والجنود المصريين والسودان الذين كان صلاح الدين قد نفاهم من قبل، وقتل بعض أمراء صلاح الدين في تلك الجهات، فأرسل صلاح الدين أخاه العادل لإخمادها، ونجح في التغلب على المتآمرين وقتل عباساً والكنز وأسر أتباعهما وفرَّ عدد آخر إلى بلاد النوبة، وذلك في (صفر ٥٧٠هـ/ أيلول ١١٧٤م)[3].

صلاح الدين في بلاد الشام

ضم دمشق: بعد أن استتبَّ الوضع الداخلي في مصر، تجهَّز صلاح الدين للزحف إلى بلاد الشام بعد خمسة أشهر من وفاة نور الدين محمود، كان خلالها يراقب أوضاعها السياسية وينتظر فرصة تسمح له بالتدخل، وقد سنحت فعلاً باختلال أوضاع هذا البلد وهجوم الصليبيين على بانياس واستنجاد ابن المقدم به، بناء على إلحاح سكان دمشق الذين خشوا من طموحات كمشتكين وخطر الصليبيين على مدينتهم.

وخرج صلاح الدين من القاهرة في (صفر ٥٧٠هـ/أيلول ١١٧٤م) على رأس جيش يُقدر بسبعمائة مقاتل، ورافقه سيف الدين طغتكين وتقي الدين عمر وعز الدين فروخشاه، وعهد إلى أخيه العادل بإدارة شؤون مصر أثناء غيابه، ووصل إلى دمشق في (٢٩ ربيع الآخر/٢٨ تشرين الثاني)، فاستقبل استقبالاً طيباً، وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلَّمها له[4].

وهكذا ضمَّ صلاح الدين دمشق بحجة حماية الملك الصالح إسماعيل من خطر

---

(١) ابن واصل: جـ٢ ص١٥، ١٦.

(٢) لينبول، ستانلي: صلاح الدين وسقوط بيت المقدس: ص١٢٢.

(٣) ابن شداد: ص٨٩، ٩٠.

(٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٠٤ ـ ٤٠٦.

الصليبيين والأمراء الطامعين، وتحت هذا الستار أخذ يُنفِّذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام فمصر، ليتمكَّن بعد ذلك من البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون تماسكاً وقوة.

مهاجمة حلب: تقدم صلاح الدين بعد ذلك باتجاه الشمال في محاولة لضم حلب، وعيَّن أخاه طغتكين والياً على دمشق، فضمَّ حمص باستثناء القلعة التي استعصت عليه، وتابع تقدمه باتجاه حلب، فأغلق كمشتكين، المستبد بحكم المدينة، أبوابها في وجهه، فحاصرها في (٣ جمادى الأخرة ٥٧٠هـ/ ٣٠ كانون الأول ١١٧٤م)[١]، ومال أهلها إلى الإذعان باستثناء الشيعة، وناشدهم الملك الصالح إسماعيل أن يحافظوا عليه من رجل يريد أن يسلبه إرثه، وكان سريع التأثر بأمرائه نظراً لصغر سنه، فاشترطوا لمؤازرته أن:

- يُخصِّصهم بالجانب الشرقي من المسجد.
- يُعاد الأذان بـ «حي على خير العمل»، وأن يُذكر ذلك في الأسواق.
- يُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز.
- تكون عقود نكاحهم إلى أبي طاهر الحسيني.

وافق الملك الصالح إسماعيل على طلبهم بتأثير كمشتكين[٢].

حدث ذلك في الوقت الذي لجأ فيه كمشتكين إلى الاستعانة بالحشيشية والصليبيين لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب. استجاب رشيد الدين سنان فبعث جماعة من الفدائيين في (جمادى الآخرة ٥٧٠هـ/ كانون الثاني ١١٧٥م) لقتل صلاح الدين متنكرين بزي الجند، فتمكَّن بعضهم من التسلل إلى خيمته وأوشكوا على تنفيذ عملية الاغتيال، لكن انكشف أمرهم ونجا صلاح الدين[٣].

والتمس كمشتكين العون من ريموند الثالث أمير طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، وكان هذا قد التزم أن يحدَّ من تعاظم قوة صلاح الدين، وإذ فشل الصليبيون في منع وحدة القاهرة ودمشق، إلا أن حلب ما زالت على الأقل خارجة عن الاتحاد، ويُشكل بقاؤها في يد الأسرة الزنكية الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتد من النيل إلى الفرات، وقد توافقت مصالحه مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن[٤].

---

(١) البنداري: ص١٨٠.

(٢) ابن كثير: جـ١٢ ص٢٨٨، ٢٨٩.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٠٧، ٤٠٨. ابن واصل: جـ٢ ص٢٤.

(٤) عاشور: جـ٢ ص٧٤٤.

حاول ريموند الثالث الالتجاء إلى الوسائل السياسية، فأرسل إلى صلاح الدين يُرغِّبه في الصلح ويُلوِّح له بأن «الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة»، لكن صلاح الدين لم يخش التهديد وردَّ على الأمير الصليبي بالإغارة على أعمال أنطاكية[1]، وردَّ ريموند الثالث بمهاجمة حمص وساندته حامية القلعة، فاضطر صلاح الدين عندئذ أن يفك الحصار عن حلب ويتوجَّه إلى الجنوب لإنقاذ حمص، فلم يمكث صاحب طرابلس ليلتقي به، وعاد إلى حصن الأكراد بعد أن تأكد من تحقيق هدفه بفك الحصار عن حلب. وعندما اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص غادرها متوجِّهاً إلى بعلبك وضمَّها إلى أملاكه في (٤ رمضان/ ٣٠ آذار)[2].

أضحى صلاح الدين، عند هذه المرحلة من التوسع، يبسط سلطانه على كامل بلاد الشام حتى حماة شمالاً، فانصرف بعد ذلك إلى العمل على إضفاء الشرعية على وضعه أمام المسلمين، فكتب إلى الخليفة العباسي المستضيء رسالة طويلة عدَّد فيها فتوحه وجهاده ضد الصليبيين من أجل خدمة الخلافة العباسية، وبخاصة إعادته الخطبة إلى العباسيين في مصر، وتأمين طريق الحجاز واليمن، ثم أشار إلى أنه قدم إلى بلاد الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور، وخدمة ابن نور الدين محمود، وطلب في ختامها تقليداً بمصر واليمن والمغرب وبلاد الشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين محمود، وكل ما يفتحه بسيفه[3].

معركة قرون حماة: أثار توسع صلاح الدين في بلاد الشام سيف الدين غازي الثاني أمير الموصل، وبدت له الصورة واضحة فيما إذا استمر في توسعه ونجح في ضمِّ حلب، فإن ذلك يشكِّل تهديداً فعلياً للموصل التي تصبح هدفاً سهلاً له، ورأى حتى يقف في وجهه ضرورة الارتباط مع حلب بحلف دفاعي، وبادله الملك الصالح إسماعيل هذه النظرة السياسية، إذ متى غفل عنه استملك حلب[4].

وجمع سيف الدين غازي الثاني العساكر من الموصل والجزيرة الفراتية وأعدَّ العدة لعبور الفرات إلى حلب، وأرسل إلى أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار يطلب منه أن يوافيه بعسكره، لكن هذا الأخير امتنع عن تلبية طلبه بعد أن استقطبه صلاح الدين ونفخ في روعه أنه أحق من أخيه بالملك لأنه كبير الأسرة

---

(١) أبو شامة: جـ٢ ص٣٥٠، ٣٥١.

(٢) البنداري: ص١٨٠، ١٨٢، ١٨٣. ابن الأثير: جـ٩ ص٤٠٧. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٨٢، ٩٨٣.

(٣) انظر نص الكتاب عند أبي شامة: جـ٢ ص٣٥٧ ـ ٣٦٦.

(٤) أبو شامة: جـ٢ ص٣٨١.

الزنكية[1]، فاضطر أمير الموصل أن يخضع أخاه، ووجَّه قوة عسكرية بقيادة أخيه عز الدين مسعود إلى حلب، ولما وصل إليها انضم إليه من بها من العساكر وسار إلى حماة وحاصرها.

نتيجة لهذا الانفلاش في الوضع العسكري، رأى الجانبان، الأيوبي والزنكي، ضرورة التفاهم لحقن دماء المسلمين، فجرت مفاوضات بينهما تقرر بنهايتها:

- الإغضاء عن حركة الموصل المعادية لصلاح الدين.

- يتنازل صلاح الدين للصالح إسماعيل عن المدن والقلاع التي انتزعها في بلاد الشام، لا سيما حمص وحماة، مكتفياً بدمشق على أن يكون فيها نائباً عنه، منتمياً إليه والخطبة والسكة له.

- يعيد صلاح الدين كل ما أخذه من الخزانة[2].

أتاح هذا الاتفاق فرصة طيبة للزنكيين لاستعادة نفوذهم في بلاد الشام وحفظ هيبة الأسرة الزنكية، ثم إن قبول صلاح الدين لمبدأ التفاهم كان بهدف حفظ البلاد من التفكُّك والانقسام بعيداً عن المطامع الشخصية، لكن الزنكيين، الذين اغتروا بقوتهم وطمعوا في الحصول على مزيد من الامتيازات بعد أن علموا بِقِلَّة عدد أفراد جيشه، طالبوه بالرحبة وأعمالها، فاعتذر عن إجابتهم بحجة أنها في يد ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ولا سبيل إليها[3]. وبذلك لم يسمح صلاح الدين لأي انشقاق يحدث داخل صفوفه، وربما اكتشف أن الزنكيين أرادوا ضرب قوته من الداخل، ففضَّل الحفاظ على وحدة صفه.

نتيجة لهذا الرفض قرَّر الزنكيون استئناف العمليات العسكرية، على أن صلاح الدين هزم الجيش الزنكي في مكان يقع عند أخدود حماة في وادي نهر العاصي يُعرف بـ«قرون حماة» إلى الشمال من المدينة، وذلك في (١٩ رمضان/ ٢٣ نيسان) وأسر جماعة من أمرائه ثم أطلقهم، وطارد خصومه حتى أبواب حلب وحاصر المدينة للمرة الثانية، وأمر بقطع الخطبة، للملك الصالح إسماعيل، وأزال اسمه من السكة في المناطق الواقعة تحت حكمه[4]، ومع ذلك لم يشعر أن له من القوة ما يكفي لمواصلة القتال، ومال الحلبيون من جهتهم إلى الصلح، فتقرَّرت الهدنة التي قضت بأن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام وللحلفاء الزنكيين

---

(١) ابن شداد: ص٩٣.
(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٠٩. البنداري: ص١٨٦، ١٨٧. ابن شداد: ص٩٣، ٩٤.
(٣) البنداري: ص١٨٧.
(٤) البنداري: ص١٨٨ ـ ١٩١. ابن شداد: ص٩٤. ابن الأثير: جـ٩ ص٤١٠.

ما بأيديهم، وأن تضاف إلى أملاك صلاح الدين بعض الأراضي الواقعة شمال حماة مثل: المعرة وكفرطاب، وبعد توقيع الاتفاق رحل صلاح الدين عن حلب[1].

ساعد الانتصار الذي حقَّقه صلاح الدين في قرون حماة على تثبيت مركزه تماماً في بلاد الشام، كما أضعف مركز مناوئيه، ودفعه إلى أن يتلقَّب بلقب «ملك مصر والشام»، ودُعي له على منابرها، كما سكَّ نقوداً ذهبية باسمه[2].

الواقع أن صلاح الدين كان صادق النية في التعامل الإيجابي مع الملك الصالح إسماعيل، وحاول إقناعه بأنه على استعداد لخدمته بإخلاص، مع أنه كان واضحاً أنه لن يسمح لخصومه بالتقرب منه. وعدَّ الملك الصالح إسماعيل، من جهته، هذه الخدمة بأنها حقيقة السيادة وهي واجبة عليه. وبهذا الرفض لكل محاولة للتفاهم، لم يكن أمام صلاح الدين إلا أن يتحلَّل من هذا الولاء، وفي هذه الظروف لم يجد مبرراً لعدم الإقدام على أن يتلقَّب بلقب ملك[3].

ومهما يكن من أمر، فقد دفعت هذه التطورات الخلافة العباسية إلى الاعتراف بالأمر الواقع، فأرسل الخليفة العباسي المستضيء إلى صلاح الدين الخلع والتشريفات والتوقيع بحكم مصر وبلاد الشام[4]، وبهذا التقليد أصبح حاكماً شرعياً بنظر المسلمين ووارثاً لدولة نور الدين محمود.

معركة تل السلطان: لم ينته الخلاف بين الأيوبيين والزنكيين بانتصار صلاح الدين في قرون حماة، فقد أزعج سيف الدين غازي الثاني ما تناهى إلى أسماعه من أخبار الهزيمة، وأثاره حصول صلاح الدين على تقليد من الخليفة بحكم مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى سك النقود باسمه، ما دفعه إلى التفكير بالانتقام، ووضع خطة عسكرية تتيح له تطويقه، وتضمن له الفوز، وتصرف على أربعة محاور:

الأول: أرسل إلى أمراء حلب يعتب عليهم ويلومهم على تسرعهم على إبرام الصلح، ويُحرِّضهم على نقضه والتعاون معه في خوض المعركة المقبلة[5].

الثاني: أرسل سفارة إلى ريموند الثالث أمير طرابلس يطلب منه أن يتحالف معه ويسانده ضد صلاح الدين[6].

الثالث: حاول الوقوف على نوايا صلاح الدين، فأرسل إليه رسالة بحجة طلب

---

(١) البنداري: ص١٩٢، ١٩٣. ابن شداد: ص٩٤. ابن الأثير: جـ٩ ص٤٠٩، ٤١٠.

(٢) البنداري: ص١٩١، ١٩٢.

(٣) لينبول: ص١٣٢.

(٤) البنداري: ص١٩١، ١٩٢.

(٥) البنداري: ص١٩٥. ابن واصل: جـ٢ ص٣٦.

(٦) المصدران نفساهما.

الموادعة، أما المهمة الحقيقية فهي التضليل وكشف ما عنده من نوايا، لكن الرسول أخطأ حين أخرج كتاب سيف الدين غازي الثاني إلى أمراء حلب، فقرأه صلاح الدين وعرف ما يُبيِّته آل زنكي، مدركاً في الوقت نفسه أن أمراء حلب قد نقضوا العهد الذي ارتبطوا به معه وأنهم يستعدون لاستئناف القتال(١).

الرابع: استقطب صاحبي حصن كيفا وماردين وغيرهما من الأمراء التركمان، كما أبدى عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار استعداده للتعاون معه(٢).

الواضح أن صلاح الدين لم يكن بعيداً عن هذا المناخ العدائي، وحتى يقطع الطريق على تعاون أمير الموصل وأمير طرابلس، عرض على الأخير سِلمه وصداقته إذا وقف على الحياد، وأطلق سراح ما عنده من أسرى الصليبيين كدليل على حسن النية(٣).

حشد سيف الدين غازي الثاني أعداداً كثيرة من الجند وانضم إليه حكام حلب فبلغ أفراد جيشه نحو عشرين ألفاً، وتحرك باتجاه دمشق، وقرَّر كمشتكين في هذا الوقت التعاون مع الصليبيين لإجبار صلاح الدين على القتال على جبهتين حتى يُضعف قوته، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين في حلب، كان من بينهم رينولد شاتيون صاحب الكرك وجوسلين صاحب الرها، كبادرة حسن نية(٤).

وتحرك صلاح باتجاه خصومه بعد أن تلقَّى إمدادات من مصر، والتقى بهم في تل السلطان وتغلَّب عليهم في (١٠ شوال ٥٧١هـ/ ١٢ نيسان ١١٧٦م)، ومنَّ على الأسرى فأطلقهم(٥) مظهراً مرونة في التفكير السياسي واستقطاب الزنكيين، وبخاصة أنه كان من بينهم أصحاب مراكز وتأثير. وقنع سيف الدين غازي الثاني بهذه الهزيمة وعاد إلى بلاده(٦).

تمهَّد السبيل لصلاح الدين، بهذا الانتصار الحاسم، لضم حلب إلا أنه لم يشأ في هذه الآونة أن يلاحق فلول العساكر الزنكية ويحاصر حلب، واكتفى بالقيام بشنِّ غارات على أملاك خصومه في المنطقة، وسيطرت عساكره على الحصون المحيطة بحلب شمالاً وجنوباً حتى يقطع طريق المواصلات بين حلب والموصل، منها: بزاعة ومنبج إلى الشمال الشرقي من حلب، ولكي يُحكم حصاره حول حلب استولى على قلعة عزاز، ثم شرع في حصارها.

---

(١) البنداري: ص١٩٥، ١٩٦. (٢) ابن العديم: جـ٢ ص٥٢٣.
(٣) البنداري: ص١٩٤، ١٩٥. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٨٣.
(٤) المصدران نفساهما: ص٢٠١. ٩٨٦. (٥) البنداري: ص٢٠١ ـ ٢٠٥.
(٦) ابن شداد: ص٩٥. أبو شامة: جـ٢ ص٣٩٩.

نتيجة لهذا التشتت في الصف الإسلامي، رأى الطرفان ضرورة الدخول في مفاوضات من أجل إحلال السلام، لقطع الطريق على الصليبيين من الاستفادة من هذا الوضع وخدمة لمصلحة المسلمين العامة، لذلك قدَّم كل طرف بعض التنازلات، واستقر الرأي على الصيغة التالية:

- أن يكون الجميع يداً واحدة ضد الصليبيين.
- لا يجوز لأحد الأطراف نقض العهد.
- إذا نقض أحد الأطراف العهد أو خالفه فالباقون يد واحدة عليه حتى يرجع إلى الوفاق.
- يتنازل صلاح الدين عن قلعة عزاز للملك الصالح إسماعيل.

وعُقدت الهدنة في (محرم ٥٧٢هـ/ تموز ١١٧٦م)[١].

حصار الموصل: يبدو أن تطورات الأحداث في الموصل وحلب اتخذت مساراً شدَّ مجدداً اهتمام صلاح الدين، ذلك أن سيف الدين غازي الثاني توفي في (صفر ٥٧٦هـ/ تموز ١١٨٠م)، وخلفه أخوه عز الدين مسعود، وقد حافظ على عهد أخيه معه، فأرسل إليه الشيخ الفقيه فخر الدين أبا شجاع الدهان البغدادي للتباحث معه حول:

- استمرار العلاقات الجيدة بينهما.
- إبقاء سيادة الموصل على مدن الجزيرة الفراتية التي ضمَّها أخوه المتوفى عقب وفاة نور الدين محمود ،وهي الرها والرقة وحران ونصيبين والخابور.

رفض صلاح الدين الموافقة على البند الثاني بحجة أن هذه الأقاليم داخلة في حوزته بموافقة الخليفة ليتصرَّف فيها ما يراه مناسباً لمصلحة المسلمين، وأنه لم يتنازل عنها لسيف الدين غازي الثاني إلا مقابل وعده بمساعدته بجيوشه، وأنه الآن بحاجة ماسة إلى قوات هذه المدن في حملاته ضد الصليبيين[٢].

وحتى يُثبِّت حكمه فيها طلب من الخليفة العباسي تفويضاً خاصاً بحكمها. استجاب الخليفة لطلبه وأرسل إليه التفويض في (رجب/ كانون الأول).

وحدث في (رجب ٥٧٧هـ/ كانون الأول ١١٨١م) أن توفي الملك الصالح إسماعيل في حلب، وأوصى قبل وفاته أن يخلفه ابن عمه عز الدين مسعود في الحكم[٣]، فلم يتردد هذا في القبول حتى يُفوِّت الفرصة على صلاح الدين من أن يضمَّ حلب، لكن نازعه أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار الذي طمع في أن

---

(١) البنداري: ص٢١٧، ٢١٨. ابن الأثير: جـ٩ ص٤١٨، ٤١٩. ابن واصل: جـ٢ ص٤٦.

(٢) ابن واصل: جـ٢ ص٩٤، ٩٥. (٣) المصدر نفسه: ص١٠٧، ١٠٨.

تؤول إليه حلب، وهدَّده بتسليم سنجار إلى صلاح الدين[1]. وتجنُّباً للمخاطر التي قد تُهدِّد الدولة الزنكية إذا تدخل صلاح الدين في شؤونها الداخلية وامتلك سنجار، فتصبح عندئذ ديار الموصل والجزيرة الفراتية تحت رحمته؛ تنازل عز الدين مسعود لأخيه عماد الدين زنكي عن حلب، كما تنازل عماد الدين زنكي له عن سنجار[2].

دفعت هذه التطورات السياسية صلاح الدين إلى مغادرة مصر والتوجُّه إلى الشرق ليكون قريباً من مجرى الأحداث، ويتدخل عندما تقضي الظروف ذلك، وعدَّ تصرف صاحب الموصل فيما يتعلق بحلب نقضاً للمعاهدة المبرمة بين الجانبين، الأيوبي والزنكي، لأن هذه المدينة وما جاورها من قلاع، تابعة له بحكم تفويض الخليفة، ويؤدي ذلك إلى القضاء على مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى لتحقيقه، ويمَّم وجهه صوب الموصل وحلب.

وتحرك عز الدين مسعود من جهته لاستقطاب الصليبيين وحثِّهم على مهاجمة الثغور الإسلامية ليشغل صلاح الدين عن قصد بلاده، فتأكد صلاح الدين عندئذ من غدره، فتوجَّه إلى حلب وحاصرها مدة ثلاثة أيام في (جمادى الأولى/أيلول) رحل بعدها إلى الموصل لانتزاعها من آل زنكي، وهوت أمامه مدن الجزيرة الفراتية: الرها وسروج ونصيبين والرقة والخابور وغيرها، ودخل صاحب البيرة شهاب الدين محمد بن الياس الأرتقي في طاعته، وكذلك فعل الأراتقة في حصن كيفا وماردين، وانضمَّ إليه مظفر الدين كوكبوري صاحب حرَّان[3].

وبذلك يكون صلاح الدين قد نجح في السيطرة على ديار مضر كلها وكوَّن حلفاً مناهضاً لإمارة الموصل، ولم يبق أمامه سوى التوجه إليها وإخضاعها، فحاصرها في (رجب ٥٧٨هـ/ كانون الأول ١١٨٢م) لكنها استعصت عليه لمناعتها ومتانة أسوارها، وبفضل الاستعدادات الضخمة التي نفَّذها عز الدين مسعود.

دفعت هذه العوامل صلاح الدين إلى إعادة النظر بخططه لضمِّ الموصل بالقوة المسلحة ومال إلى الأسلوب السياسي، ويبدو أنه وجد نفسه في موقف حرج، وخشي أن يفقد مكانته كمجاهد في سبيل الإسلام بسبب ظهوره بمظهر الطامع في دولة الموصل، لذلك عرض على عز الدين مسعود الصلح، لكن المفاوضات تعثرت

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٥٤، ٤٥٥.

(٢) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ٢ ص٥٣٩ ـ ٥٤٤. الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر: مضمار الحقائق وسر الخلائق: ص٦٠.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٦٢ ـ ٤٦٤. ابن شداد: ص١٠١، ١٠٢. ابن واصل: جـ٢ ص١١٩.

بسبب تمسك الأخير بسيادته على حلب[1].

نتيجة لفشل المفاوضات رأى صلاح الدين أن يُضيِّق الخناق على الموصل وعزلها عن حلب، وكانت سنجار هي المدينة التي توفر له ذلك، ففكَّ الحصار عن الموصل وتوجَّه إليها وحاصرها مدة خمسة عشر يوماً سقطت بعدها في يده في (شعبان/ كانون الأول)[2]، ثم ضمَّ آمد في (١٠ محرم ٥٧٩هـ/ ١٦ أيار ١١٨٣م) وسلَّمها إلى حليفه نور الدين محمد صاحب حصن كيفا[3].

ضم حلب: أضحى صلاح الدين، بعد سيطرته على منطقة الجزيرة الفراتية، مجاوراً لإمارة حلب، فقرَّر أن يضمها إلى أملاكه قبل إخضاع الموصل، فعبر الفرات ونزل على تل خالد من أعمال حلب، وحاصرها حتى استسلمت في (محرم ٥٧٩هـ/ أيار ١١٨٣م)[4]، ثم سار إلى عينتاب فقدَّم صاحبها ناصر الدين محمد بن خمارتكين الولاء له فأبقاه في إمارته، وتقدم من عينتاب إلى حلب ونزل عليها في (٢٦ محرم/ ٢١ أيار)، فعسكر في الميدان الأخضر ثم انتقل إلى جبل جوشن، وأوهم عماد الدين زنكي الثاني بأنه يبني المساكن له ولجنده حتى يدفعه إلى الاستسلام تجنباً لإراقة الدماء[5].

وطال حصار حلب، وكثرت النفقات اليومية على الجند، فأدرك عماد الدين زنكي الثاني أن أمواله لا بد نافدة، وهو الذي اشتهر بالشح، ما دفعه إلى التهاون في الدفاع عن حلب، وإلى الاقتصاد في النفقات، وعندما طالبه الجند بالمزيد من الأموال لسد نفقات الدفاع، اعتذر بقِلَّة المال عنده، فانصرفوا عنه، فاضطر عندئذ إلى التفاوض مع صلاح الدين لتسليمه المدينة على الأسس التالية:

- يتنازل عماد الدين زنكي الثاني عن حلب لصلاح الدين.
- يمنح صلاح الدين عماد الدين زنكي الثاني سنجار والخابور ونصيبين وسروج.
- يُمنح حسام الدين طومان الرقة، علماً بأنه تولى الوساطة بينهما.
- يضع عماد الدين زنكي الثاني قواته العسكرية بتصرف صلاح الدين متى يطلب منه ذلك.

ودخل صلاح الدين مدينة حلب بعد إبرام الصلح في (١٧ صفر ٥٧٩هـ/ ١٨

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٦٥. الأيوبي: ص١٠٨.
(٢) المصدران نفساهما: ص٤٦٦. ١١٠، ١١١.
(٣) الأيوبي: ص١٣٦، ١٣٧.
(٤) ابن واصل: جـ٢ ص١٣٦.
(٥) الأيوبي: ص١٤١، ١٤٢.

حزيران ١١٨٣م) وسط ترحيب السكان[١].

نتائج ضم حلب: ترتَّب على ضمٍّ حلب أن قوي مركز صلاح الدين، وازدادت الجبهة الإسلامية تماسكاً، وأضحى من القوة ما حمله على التفرغ لقتال الصليبيين، فاشتدت مخاوف هؤلاء وعدُّوا هذا الحدث أعظم نكبة حلَّت بهم، بالإضافة إلى أنها أكَّدت الروابط السياسية والعسكرية بين مصر وبلاد الشام، وغدت ممتلكاتهم في بلاد الشام محصورة داخل هذا المحور، فالتمس بوهيموند الثالث أمير أنطاكية منه الأمان، فوافق صلاح الدين على منحه هدنة ريثما يفرغ من استكمال خططه بتوحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى[٢].

ضم ميافارقين: كانت ميافارقين تحت حكم حسام الدين يولق بن قطب الدين إيلغازي صاحب ماردين، وله من العمر عشرة أعوام، وفيها حامية لشاه أرمن صاحب خلاط، وعلى رأس أجنادها أسد الدين يرنقش، وقد رفض الانضواء تحت راية صلاح الدين، وأعلن عصيانه، فاضطر صلاح الدين إلى حصار المدينة، واستعمل أسلوب الدهاء السياسي، فاتصل بزوجة قطب الدين المقيمة فيها وأوهمها أن يرنقش اتفق معه على تسليم البلد، كما أرسل إلى هذا الأخير يخبره بميل الخاتون إليه. وبهذا الأسلوب السياسي ضمَّ البلد في (٢٩ جمادى الأولى ٥٨١هـ/ ٢٨ آب ١١٨٥م)[٣].

ووصل إلى صلاح الدين آنذاك كتاب من الخليفة العباسي بتقليده النظر في أمر دياربكر، ومصالح أيتام ملوكها، فخُطب له في الولايات الأرتقية، وضُربت النقود باسمه[٤].

تجدُّد حصار الموصل: عاد صلاح الدين، بعد أن ضمَّ ميافارقين إلى الموصل، لحصارها للمرة الثالثة، علماً بأنه حاصرها للمرة الثانية في (ربيع الأول٥٨١هـ/ حزيران ١١٨٥م) ولم ينل منها، فمال أميرها عز الدين مسعود المهادنة. وصادف في ذلك الوقت أن مرض صلاح الدين، فرحل إلى حرَّان، فاغتنم عز الدين مسعود هذه الفرصة وجدَّد محاولته لتحقيق التفاهم معه بعد أن يئس من مساندة الخليفة له ووقوف طغرل سلطان سلاجقة فارس إلى جانبه، فأرسل بهاء الدين بن شداد، وفوَّضه بالتوقيع على الصلح[٥].

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٧٢، ٤٧٣. ابن واصل: جـ٢ ص١٤٢. ابن العديم: جـ٢ ص٥٥١ ـ ٥٥٧.

(٢) ابن واصل: جـ٢ ص١٤٧. Grousset: II p729. Stevenson: p230.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٨، ٩. ابن شداد: ص١١٨.

(٤) أبو شامة: جـ٣ ص٢٣٥.

(٥) ابن شداد: ص١١٩.

ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الجانبين، تقرَّرت قواعد الصلح في (محرم ٥٨٢هـ/ آذار ١١٨٦م) على الأسس التالية:

- يتسلَّم صلاح الدين شهرزور وقلاعها والبوازيج والرستاق، وجميع ما وراء نهر الزاب من الأعمال.
- يبقى عز الدين مسعود حاكماً على الموصل وتوابعها.
- يُخطب لصلاح الدين على منابر الموصل بعد وقف الخطبة للسلاطين السلاجقة، وتُضرب السكة باسمه.
- يتعهد عز الدين مسعود بمساعدة صلاح الدين بالجيوش والعتاد لاسترداد بيت المقدس[١].

تعقيب على علاقة صلاح الدين مع الأسرة الزنكية

في الوقت الذي جرى فيه إبداء التشكيك في حقيقة دوافع صلاح الدين وعلاقته بالأسرة الزنكية، من جانب بعض المؤرخين المعاصرين له وبعض الباحثين المحدثين، فإن هذا الارتياب يفقد أهميته، ولا يستند إلى أساس صحيح بدليل:

- كان صلاح الدين حريصاً، بدقة شديدة، على أن يعرض على الخليفة دوافع عمله في مراسلاته معهم.
- إن الدوافع التي برَّر من خلالها أعماله، ترجع دائماً إلى جهاد الصليبيين وتحرير بيت المقدس، بالإضافة إلى الحاجة الماسة لتوحيد الصف الإسلامي، من أجل تطوير متابعة الجهاد بنجاح.
- اتصف صلاح الدين، أثناء تعامله مع الزنكيين، بالكرم بعد هزيمته لهم في المعركة، وفي أساليب فرض الحصار عليهم.
- بعد تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر، وضمان تأييد الموصل، شرع صلاح الدين فوراً في تحقيق الهدف الثاني الذي يمثل اهتمامه الأساس، وهو تدمير الجيش الميداني للمملكة اللاتينية وفتح بيت المقدس، وسنرى أن الأمر الأول تحقَّق في معركة حطين التي تأثرت نتيجتها بقدرته على نشر قوة إسلامية كبيرة وموحَّدة في الوقت الصحيح، وفي المكان الصحيح، في حين تحقَّق الأمر الثاني بعد معركة حطين، وجاء نتيجة للانتصار في هذه المعركة.

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٩ ـ ١١.

الفَصْل العشرُون

صلاح الدين والصليبيون

الصدامات الأولى

تصدع الجبهة الصليبية

لم ينس صلاح الدين مطامع الصليبيين في مصر، وظل يخشى طوال المدة التي قضاها في توحيد الجبهة الإسلامية، من أن يقوم هؤلاء بحملة كبيرة لغزوها وبخاصة أن لهم سوابق في ذلك، ما يؤثر على خططه إذا ما تحرك نحو بلاد الشام، وتصبح خطوط مواصلاته معرَّضة للخطر، لذلك قام بإنشاء سلسلة من التحصينات في القاهرة وثغور مصر البحرية وصحراء سيناء.

وحدث في (٨ ذي الحجة ٥٦٩هـ/ ١١ تموز ١١٧٤م) أن توفي الملك عموري الأول، فخسر الصليبيون بوفاته شخصية قوية لأنه، بحكم خبرته وتجاربه، كان أكثر زعماء الصليبيين قدرة على الاستفادة من الظروف التي أحاطت بالمسلمين عند وفاة نور الدين محمود(١).

ومرَّ الصليبيون بعد وفاته في حال ضعف، وتعرَّضت صفوفهم للتفسخ، ذلك أن بلدوين الرابع، الذي خلف أباه المتوفى، كان في الثالثة عشرة من عمره، وعلى الرغم من أنه تمتع بمواهب عالية ومقدرة كبيرة، وحيوية فائقة، إلا أنه كان مريضاً بالجذام (البرص) ما أعطاه لقب «بلدوين المجذوم»(٢)، وكان بحكم مرضه ضعيف البنية، كثير الأوجاع والعلل، أما أخته إيزابيلا، التي تكبره بسنة واحدة، فلم تكن متزوجة بعد.

ونظراً لصغر سنه، ومرضه، فإنه كان مضطراً في كثير من الأوقات إلى السماح لأمرائه بتسيير أمور المملكة، الأمر الذي دفع القيادات الإقطاعية والقيادة الدينية أن تتنافس بشأن الوصاية عليه.

وبرز في هذه الظروف مايلز بلانسي، أقرب صديق للملك الراحل وسيد إقطاع ما

(١) عاشور: جـ٢ ص٧٣٦.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٧٢.

وراء نهر الأردن، وقد فاز بالوصاية، واستأثر بشؤون الحكم، ويبدو أنه لم يكن مقبولاً، لا سيما من القيادات الإقطاعية، لأنه اتصف بالتكبر والتعجرف كما كان قليل الحذر[١].

على أنه لم يلبث أن برز معارض جديد في شخص ريموند الثالث كونت طرابلس الذي ساندته هذه القيادات ليتولى الوصاية على الملك. وسرعان ما نجحت المؤامرة التي حيكت ضد مايلز بلانسي والتي انتهت بمقتله في (منتصف ٥٧٠هـ/أواخر ١١٧٤م)، وغدا ريموند الثالث وصياً على مملكة بيت المقدس وملكها الصغير[٢]، وأضحى أقوى شخصية صليبية نظراً لقرابته من الملك من ناحية أمه من جهة، ونجاحه في حيازة طبرية والجليل بحكم بالوصاية من جهة أخرى.

حصلت هذه الأحداث في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يتأهب للقيام بدوره على مسرح بلاد الشام.

استهلت وصاية ريموند الثالث بما وقع داخل المملكة من انشقاق بشأن السياسة الواجب اتباعها مع المسلمين، وانقسم الأمراء إلى فريقين:

الأول: سعى إلى التفاهم مع المسلمين ورفض المضي في مغامرات محفوفة بالمخاطر، وتألف من الأمراء الوطنيين والأسبتارية الذين خضعوا لريموند الثالث.

الثاني: اشتهر بنزعته العدوانية والروح المسيحية المتزمتة، وتألف من القادمين حديثاً من الغرب الأوروبي بالإضافة إلى الداوية، وقد عثر هذا الفريق على قادته سنة (٥٧١هـ/١١٧٦م) عندما تمَّ، آخر الأمر، إطلاق سراح رينولد شاتيون من أسر المسلمين فضلاً عن جوسلين صاحب الرها[٣].

على أن العداوات الشخصية كانت أقوى وأشد من الخلافات السياسية، وإذ توافر للملك بلدوين الرابع من النضوج المبكر والإدراك، ما جعله يدرك ما يدور حوله من مؤامرات؛ فحاول أن يحفظ التوازن بين الفريقين المتنازعين[٤].

غارات الصليبيين بين عامي (٥٧٠ ـ ٥٧٢هـ/١١٧٤ ـ ١١٧٦م)

كان أول ما التزم به ريموند الثالث من واجبات، بوصفه وصياً على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحدَّ من نمو قوة صلاح الدين ومنعه من ضمِّ حلب، لذلك قام

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٧٣ ـ ٩٧٥.

(٢) المصدر نفسه. Ernoul: Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier: pp30, 31.

(٣) البنداري: ص٢٠١. رنسيمان: جـ٢ ص٦٥٥.

(٤) رنسيمان: المرجع نفسه.

بشن الغارات على أملاكه خلال الصدام بينه وبين الزنكيين، وإن كانت ضعيفة الأثر، محدودة النطاق، بسبب اضطراب أوضاع الصليبيين بعامة.

وانتهز الملك الصليبي بلدوين الرابع في (محرم ٥٧١هـ/آب ١١٧٥م) فرصة انهماك صلاح الدين في شمالي بلاد الشام، فغزا إقليم دمشق[(١)]، ومع ذلك، فقد كان صلاح الدين مضطراً لتبريد الجبهة مع الصليبيين ليتفرغ لقتال سيف الدين غازي الثاني أمير الموصل حتى لا يحارب على جبهتين في وقت واحد، الزنكيين في الشمال والشرق والصليبيين في الجنوب والغرب، فجدَّد الهدنة مع مملكة بيت المقدس[(٢)].

ونقض الصليبيون الهدنة في العام التالي في غمرة النزاع بين صلاح الدين والزنكيين، فهاجموا الأراضي التي يسيطر عليها صلاح الدين، فأغار ريموند الثالث كونت طرابلس على إقليم البقاع في حين زحف الجيش الملكي من الجنوب بقيادة الملك وهمفري سيد تبنين. ويبدو أن ريموند الثالث تعرَّض للهزيمة على يد ابن المقدم أمير بعلبك، غير أن الجيشين الصليبيين اجتمعا سوياً واصطدما بشمس الدولة توران شاه أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق عند عنجر في البقاع، وكان قد خرج لنجدة بعلبك، غير أن اللقاء لم يكن حاسماً، ولم يكد صلاح الدين يُقدم من الشمال حتى انسحب الصليبيون من المنطقة، ولم يشأ أن يتعقَّبهم وفضَّل العودة إلى مصر تاركاً أخاه توران شاه في دمشق[(٣)].

مشكلة وراثة عرش مملكة بيت المقدس

أفاد الجانبان، الإسلامي والصليبي، من توقف القتال بينهما مدة سنة، فبينما انصرف صلاح الدين إلى إعادة تحصين مصر، واجهت مملكة بيت المقدس أهم مشكلة داخلية، إذ لم يكن الملك بلدوين الرابع بالشخص الذي يمثل تطلعات الصليبيين بسبب مرضه الذي أخذ يتفاقم يوماً بعد يوم ما حال بينه وبين الزواج من جهة، وأثار مشكلة وراثة عرش مملكة بيت المقدس بعد موته من جهة أخرى[(٤)].

وبلغ الملك بلدوين الرابع سن الرشد في عام (٥٧٣هـ/ ١١٧٧م) فتخلَّى ريموند الثالث عن الوصاية، وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بالصفات التي تؤهله لأن يلي العرش، إلا أن قانون الإقطاع حال بينه وبين ذلك لأن ترتيبه الثالث بعد أختي

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٨٤، ٩٨٥. (٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٢٢.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٢٤. البنداري: ص٢١٩، ٢٢٠. الصوري، وليم: جـ٢ ص٨٨٦.

(٤) يعقوب الڤيتري: تاريخ بيت المقدس: ص١٤٧.

الملك الصليبي سيبيلا وإيزابيلا[1]، فكان على الأولى أن تتزوج لتضمن ولاية الحكم، وأضحى من الضروري البحث لتلك الأميرة عن عريس تتحقَّق في شخصه آمال الصليبيين في تلك المرحلة الحرجة عندما أخذت قوة صلاح الدين تنمو وتُنذر بالقضاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وكان أن وقع اختيار الملك بلدوين الرابع على وليم دي مونتفرات، الملقب بطويل السيف وهو أكبر أبناء المركيز مونتفرات أغنى الأمراء في شمالي إيطاليا، الذي رضي بهذا الزواج، فحضر إلى فلسطين في (ربيع الآخر ٥٧٢هـ/ تشرين الأول ١١٧٦م) وتزوج من الأميرة سيبيلا بعد وصوله بأربعين يوماً، وأضحى بحكم ذلك حاكماً على بيت المقدس، إلا أنه توفي في عسقلان بحمى الملاريا قبل أن تمضي سنة على زواجه، وأنجبت أرملته ابناً له يُدعى بلدوين، يُعدُّ وريثاً للمملكة، غير أنه لا بد من قيام وصاية على العرش حتى يكبر الطفل ويرث خاله المريض، فانطلقت رسل الملك إلى أوروبا تلتمس زوجاً آخر للأميرة سيبيلا، وتستقطب الحلفاء لمناهضة صلاح الدين الذي كانت قوته قد تعاظمت في بلاد الشام[2]. وأدرك الملك الصليبي أن الهدوء لن يستمر مدة طويلة، وأنه لا بد من دعم يأتي من الخارج، على أن أمراء الغرب الأوروبي كانوا منهمكين بأمورهم الخاصة، كما أنه ليس بوسع القسطنطينية أن تبذل ما سبق أن بذلته من المساعدة بعد أن تعرَّضت قوتها العسكرية للدمار في معركة ميريوكيفالون على أيدي السلطان قلج أرسلان الثاني في صيف (٥٧١هـ/ ١١٧٦م)[3].

ومع ذلك تردَّدت الشائعات أن لويس السابع ملك فرنسا، وهنري الثالث ملك إنكلترا قرَّرا القيام بحملة صليبية، كما وعد الامبراطور البيزنطي مانويل أن يُرسل أسطوله الذي ما زال قوياً لمناهضة صلاح الدين في مصر، ويبدو أنه أراد أن يقوم بعمل عسكري يُعوِّضه عن الهزيمة القاسية في ميريوكيفالون.

وصول جموع فلمنكية إلى بيت المقدس

حدث في (ربيع الأول ٥٧٣هـ/ أيلول ١١٧٧م) أن قدم إلى بيت المقدس فيليب الألزاسي كونت فلاندر على رأس قوة من الفرسان الفلمنكيين، فعلَّق عليه الصليبيون آمالاً كبيرة.

---

(١) Grousset: II p633.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٨٨، ٩٨٩. يعقوب الفيتري: ص١٤٧، ١٤٨.

(٣) انظر فيما يتعلق بهذه المعركة ونتائجها، كتابنا: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى: ص١٧٩ - ١٩٢.

وأرسل الامبراطور البيزنطي في هذا الوقت سفارة إلى بيت المقدس تعرض على الملك بلدوين الرابع إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، كما أرسل إلى عكا أسطولاً مؤلفاً من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين من أجل هذه الغاية[١].

وإذ بلغ المرض بالملك الصليبي درجة متقدمة منعته من المشاركة بنفسه في الحملة، عرض على فيليب الألزاسي تعيينه وصياً على عرش مملكة بيت المقدس إذا تولى قيادة الحملة، ويبدو أن فيليب هذا تردَّد في اتخاذ قرار، فقد رفض في بادئ الأمر وقال: إنه لم يأت إلى الشرق إلا ليؤدي الحج، ويُزوِّج الأميرتين سيبيلا وإيزابيلا من بعض أقربائه، ثم أشار إلى أنه ليس بوسعه أن يضطلع وحده بهذه المسؤولية[٢].

وجرى حوار حاد بين فيليب وبين أمراء بيت المقدس ما دفع المبعوثين البيزنطيين إلى التشكيك في جديَّة الصليبيين الاشتراك في حملة لغزو مصر، فانسحبوا عائدين إلى القسطنطينية[٣].

الصليبيون يغيرون على حمص وحماة

لا شك بأن الصليبيين أضاعوا من أيديهم فرصة ثمينة لضرب صلاح الدين في مصر، في الوقت الذي لم يُثبِّت أقدامه في شمالي بلاد الشام، ذلك أن الظروف كانت مهيأة لهم بعد أن وضع الامبراطور البيزنطي كل ثقله لنجاح الحملة، وقد أثبتت الأيام أن تلك الفرصة لن تتكرَّر بعد ذلك، إذ توفي الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين بعد ثلاث سنوات، وخلفه على العرش أباطرة غير أكفاء نظروا إلى الصليبيين في بلاد الشام على أنهم أعداء لا حلفاء[٤].

وإذا كان مشروع الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على مصر قد باء بالفشل، فإن ذلك لم يمنع الصليبيين من الاستفادة من الحملة الفلمنكية لمهاجمة الأراضي الإسلامية التي يسيطر عليها صلاح الدين في بلاد الشام، وكانت الفرصة مناسبة في ظل غيابه. ففي (٤ ربيع الأول ٥٧٢هـ/ ١١ أيلول ١١٧٦م) غادر إلى مصر، بعد أن عقد الصلح مع الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب[٥]، فانتهز الملك بلدوين

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٤٤، ٩٤٥. Ernoul: p33. Grousset: II pp654, 655.

(٣) المصدر نفسه: ص٩٩٥.

(٤) عاشور: جـ٢ ص٧٥٤.

(٥) ابن شداد: ص٩٦. البنداري: ص٢٣١. الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٩٦، ٩٩٧.

الرابع الفرصة، وكرَّر الطلب من فيليب الألزاسي بضرورة التعاون معه لضرب القوات الإسلامية المتمركزة على الحدود الشرقية لإمارتي الرها وطرابلس، فوافق الأخير على طلبه، ثم غادر بيت المقدس في (ربيع الآخر ٥٧٣هـ/ تشرين الأول ١١٧٧م) متوجهاً إلى الشمال لمساعدة كل من ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيموند الثالث أمير أنطاكية بناء على طلبهما، حيث بدا ممكناً إنجاز شيء ما في ظل غياب صلاح الدين، وأمدَّه الملك بمائة فارس وألفين من المشاة[١].

وأغارت فرقة من الجيش على بلاد حمص، فوقعت في كمين وفَقَدَت كل ما حصلت عليه من غنائم، في حين أغار كل من فيليب وريموند الثالث بقواته على حماة التي كادت أن تسقط لولا صلابة المسلمين في الدفاع عنها، وارتدا خائبين بعد حصار دام أربعة أيام من دون أن يُحقِّقا شيئاً[٢].

ويبدو أن الجدب الذي عمَّ المنطقة في تلك السنة كان من بين أسباب هذه الغزوة، وفي الكتاب الفاضلي، المرسل إلى بغداد بتوقيع صلاح الدين، ما يدل على ذلك: «خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان مُحكماً، غادرين غدراً صريحاً، مقدِّرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى. . .»[٣].

الصليبيون يغيرون على حارم

بعد فشل ريموند الثالث في الاستفادة من الحملة الفلمنكية في تحقيق مكاسب على حساب المسلمين، جاء دور إمارة أنطاكية. فقد توجَّه فيليب الألزاسي إليها بناء على طلب صاحبها بوهيموند الثالث الذي وافق على أن يبذل له المساعدة لشن هجوم على مدينة حارم، الواقعة شرقي نهر العاصي على بُعد اثني عشر ميلاً عن أنطاكية، وصحبه ريموند الثالث. كانت حارم آنذاك تحت حكم كمشتكين، الأتابك السابق للملك الصالح إسماعيل، وقد سادها الاضطراب الداخلي بسبب مساندة أهلها لكمشتكين الذي كان على خلاف مع الملك الصالح إسماعيل[٤].

الواضح أن تصرف الصليبيين يُعدُّ قِصر نظر في التفكير السياسي، لأن الزنكيين في حلب هم حلفاء طبيعيون للقوى الصليبية، وتجمعهما مصالح مشتركة أهمها الوقوف في وجه صلاح الدين، وكان الأجدى أن يحافظوا على علاقة الود معهم

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٩٦. (٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٢٩، ٤٣٠.

(٣) أبو شامة: جـ٢ ص٤٧١.

(٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٣٠، ٤٣١. الصوري، وليم: جـ٢ ص٤٣٠، ٤٣١.

ليكسبوا ثقتهم، ويدعموا الجبهة المعادية له[١].

وصل الصليبيون في (جمادى الآخرة/ تشرين الثاني) إلى حارم وضربوا عليها حصاراً مركزاً، فتناسى أهلها خلافاتهم وقاوموا الحصار، الذي استمر أربعة أشهر، ببسالة، ولم تلق عمليات نقب الأسوار شيئاً من النجاح في الوقت الذي أخذ فيه الحلبيون يشنون الغارات على الأراضي الصليبية المجاورة، وأرسل الملك الصالح إسماعيل فرقة عسكرية اجتازت خطوط الصليبيين وانضمت إلى حامية المدينة[٢].

وخرج صلاح الدين في هذا الوقت من مصر ليهاجم أراضي مملكة بيت المقدس الخالية ممن يحميها، فخشي الصليبيون أن يلتمس الحلبيون المساعدة منه، لكن الملك الصالح إسماعيل فاوضهم على فك الحصار عن حارم لقاء دفع مبلغ من المال، كما أنذرهم بأنه سيسلم المدينة إلى صلاح الدين، وفعلاً فكَّ هؤلاء الحصار عن حارم بعد أن أضاعوا كثيراً من الوقت وبذلوا جهداً كبيراً للاستيلاء عليها[٣].

أدى فشل الحملة الصليبية أمام حماة وحارم إلى تلاشي آمال الصليبيين في استرداد سيطرتهم على حوض نهر العاصي، كما انعكس على أوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ودفع فيليب الألزاسي إلى مغادرة بيت المقدس إلى اللاذقية، ثم توجَّه إلى القسطنطينية عن طريق البحر ومنها إلى بلاده[٤].

معركة الرملة

نتيجة لانهيار التحالف الصليبي ـ البيزنطي، وغياب فيليب الألزاسي ومعه القوة الصليبية الضاربة، قرَّر صلاح الدين القيام بهجوم مفاجئ عبر الساحل إلى داخل فلسطين لتخفيف الضغط عن حارم، فخرج من القاهرة يوم الجمعة (٣ جمادى الأولى ٥٧٣هـ/ ٢٩ تشرين الأول ١١٧٧م) وعسكر بظاهر بِلبيس، ثم توجَّه يوم الأربعاء (٢٩ جمادى الأولى/ ٢٤ تشرين الثاني) إلى عسقلان، واستولى على ما كان فيها وقتل عدداً من الصليبيين لنكثهم العهد وهجومهم على حارم[٥].

لم يسع الملك بلدوين الرابع، على الرغم من شدة مرضه، إلا أن ينهض للدفاع عن عسقلان بكل ما يستطيع أن يحشده من جند، والواقع أنه لم يتمكَّن من حشد أكثر من خمسمائة فارس، وصحبه أسقف بيت لحم يحمل صليب الصلبوت، لكنه ارتكب خطأ عسكرياً عندما تسرَّع في دخول عسقلان حيث حاصره صلاح الدين

---

(١) Grousset: II p646.
(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٣١.
(٣) المصدر نفسه. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٠٥، ١٠٠٦.
(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٠٦، ١٠٠٧.
(٥) البنداري: ص٢٥٢ ـ ٢٥٥.

داخل أسوارها، ومن ثَمَّ أضحت مملكة بيت المقدس بدون ملك ولا جيش[1]، فاستغل صلاح الدين هذا التطور العسكري، وسار باتجاه بيت المقدس بعد أن ترك قوة عسكرية على حصار عسقلان، إذ لم يكن من الأعداء ما يحول بينه وبينها، وأغار على المدن والمعاقل القريبة، وهاجمت قوة إسلامية بقيادة عز الدين جاولي الرملة وأحرقتها، كما هاجمت اللد ووصلت إلى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس[2].

ويبدو أن هذا النجاح جعل صلاح الدين يتخلَّى عن حذره، فسمح لجنوده بالتفرق والاسترسال وجمع الغنائم[3]، واستطاع الملك بلدوين الرابع في هذا الوقت أن يشق له طريقاً إلى خارج عسقلان، وأرسل إلى الداوية في غزة بأن يلحقوا به، والتزم الساحل في سيره حتى بلغ الرملة ثم انحرف إلى الداخل، وكان رينولد شاتيون في عداد صفوفه. واعترض صلاح الدين نهر تل الصافية على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب الشرقي من الرملة، فتفرَّقت قواته تبحث عن مكان يصلح للعبور، كما أشارت عليه بعض القيادات بإحداث تغيير في تعبئة الجيش، فباغتتهم القوات الصليبية وهم على هذه الحال، ولم يجد صلاح الدين الوقت الكافي لاستدعاء قواته المتفرقة، واضطر أن يخوض المعركة بمن معه من القوات، فحلَّت به الهزيمة قبل أن يتمكَّن من إعادة تنظيم صفوفه[4].

كانت خسائر المسلمين جسيمة، لأن القوة الأيوبية كانت على غير تعبئة وسهلة المأخذ، ولم يُنقذ صلاح الدين إلا حرسه الخاص من غلمانه، أما القوات التي صمدت في القتال، فقد جرى إبادتها، ووقع كثير من أفرادها في الأسر، وعاد صلاح الدين إلى القاهرة وهو في حال سيئة[5].

نتائج معركة الرملة

كان لمعركة الرملة نتائج مؤثرة في أوضاع كل من المسلمين والصليبيين، نذكر منها:

على الصعيد الإسلامي:

- كانت المعركة تجربة مريرة لصلاح الدين، ولعلَّه تعلَّم منها أنه من الخطأ الاصطدام بالصليبيين قبل أن يُحقق توحيد الجبهة الإسلامية التي تمده بقوة هائلة.

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص٩٩٨، ٩٩٩. (٢) المصدر نفسه: ص٩٩٩، ١٠٠٠.

(٣) البنداري: ص٢٥٥.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٥٥ ـ ٢٦٠. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٠٠ ـ ١٠٠٣.

(٥) البنداري: ص٢٥٨. ابن الأثير: جـ٩ ص٤٢٨، ٤٢٩.

ـ على الرغم من خسارة المسلمين القاسية[1]، إلا أن المعركة لم تكن حاسمة، وبرهن صلاح الدين بما اتخذه من تدابير سريعة أن بإمكانه تعبئة جيش جديد والاصطدام بالصليبيين، وأعلن عن تحمُّله مسؤولية الأخذ بالثأر.

ـ اتبع صلاح الدين سياسة حكيمة حتى يقطع الطريق على أولئك الذين يترقَّبون الفرص للانتفاض على حكمه، فوزَّع الأموال الكثيرة على الناس وبخاصة الذين أصابهم الضرر، فأرضى عامة الشعب المصري، ودفعهم إلى نسيان الآلام التي أصابتهم، كما عاقب الذين اعتقد بأنهم كانوا السبب في الهزيمة «فقطع أخباز جماعة من الأكراد من أجل أنهم كانوا السبب في الكسرة» من واقع ما أشاروا عليه في إحداث تغيير في تعبئة الجيش، ففاجأتهم القوات الصليبية وهم بصدد هذا التغيير[2].

ـ أبلغ أهل الشام بأخبار وصوله سالماً إلى مصر حتى يطمئن الناس وتأمن نفوسهم.

ـ تمكَّن صلاح الدين بعد مدة شهرين من إعادة تنظيم قواته العسكرية ومهاجمة الصليبيين.

على الصعيد الصليبي:

ـ أنقذ الانتصار الصليبي مملكة بيت المقدس في الوقت الراهن، غير أنه لم يُغيِّر في وضع الأراضي ولا في الوضع الداخلي للصليبيين الذين ما زالوا يعانون من نقص في الرجال.

ـ وزَّع الملك بلدوين الرابع الغنائم على رجاله، وطارد فلول القوات الإسلامية حتى عسقلان ثم عاد إلى بيت المقدس. والواقع أنه لم يتمكَّن من استغلال انتصاره بمطاردة صلاح الدين إلى داخل حدود مصر والقضاء على قواته، كما لم يكن بوسعه أن يخاطر بجيشه الصغير في مباغتة دمشق، ما لم يحصل على مساعدة خارجية.

ـ لا شك أن انتصار الصليبيين أعاد الثقة إلى نفوسهم، فراحوا يهاجمون المسلمين في شمالي بلاد الشام، ويدعمون مراكزهم في جنوبه، فهاجموا إقليم حماة ثم منطقة شيزر[3]. أما في الجنوب، فقد شرع الملك بلدوين الرابع في تحصين حدوده في الجليل الأعلى ضد أي هجوم محتمل عن طريق دمشق، فشيَّد حصناً جديداً قرب بانياس عند جسر بيت يعقوب في مكان يُعرف بمخاضة الأحزان، وذلك في (جمادى الأولى ٥٧٤هـ/ تشرين الأول ١١٧٨م) وقد تمتَّع بمزية عسكرية كبيرة

---

(١) وصفها المؤرخون المسلمون بأنها كانت وهناً لم يجبره الله إلا بوقعة حطين. ابن شداد: ص٩٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٣٥.

نظراً لأنه يقع على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى، وقد خشي أمراء صلاح الدين من بناء هذا الحصن وذكروا أنه: «متى أُحكم ذلك الحصن، تحكَّم من الثغر الإسلامي الوهن وغلق الرهن»[(١)]. وبنى الملك بلدوين الرابع في العام التالي، حصناً آخر في هونين إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة يتحكَّم في منابع نهر الأردن العليا، أي في مواجهة بانياس، وقد شكَّل الحصنان خطاً دفاعياً لحماية مملكة بيت المقدس من ناحية دمشق، وكانت هذه المنطقة آهلة بفلاحين ورعاة من المسلمين والمسيحيين الشرقيين[(٢)].

معركة تل القاضي

ظل صلاح الدين في مصر أشهراً عدة بعد معركة الرملة، حتى تحقَّق له أن كل شيء أضحى تحت سيطرته ثم غادرها متوجهاً إلى دمشق، فوصل إليها يوم السبت (٢٤ شوال ٥٧٤هـ/ ٤ نيسان ١١٧٩م)[(٣)]، وأمضى بها بقية تلك السنة، وكل ما وقع من حروب آنذاك لم يتجاوز شنَّ بعض الغارات وردَّ بعض الهجمات.

والواقع أن صلاح الدين انهمك بحصار بعلبك بعد أن رفض حاكمها محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، التنازل عنها لصالح تورانشاه أخي صلاح الدين، لكنه لم يهمل أمر حصن مخاضة الأحزان، وصرَّح لأمرائه أنه إذا اتمَّ الصليبيون بناءه «نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس»[(٤)]. وبعد أن فرغ من أمر بعلبك التفت إلى الحصن وطلب من الصليبيين أن يهدموه، فطلبوا، مقابل ذلك، النفقات التي بذلوها في تشييده، فعرض عليهم ستين ألف دينار ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف، ولكنهم رفضوا ذلك[(٥)].

وحدث في (ذي القعدة/ نيسان) أن اعتدى الملك بلدوين الرابع على بعض الرعاة المسلمين الذين خرجوا لرعي ماشيتهم في المراعي القريبة من بانياس، وشاركه همفري دي تورون سيد تبنين، فأرسل صلاح الدين قوة عسكرية بقيادة ابن أخيه عز الدين فروخشاه ليستطلع الأمر، فاشتبك مع العدو بالقرب من شقيف أرنون وانتصر عليه، ولم يتمكَّن الملك من النجاة إلا بفضل بسالة همفري، وقد أصيب بإصابات خطيرة، كما أصيب همفري إصابة أدت إلى وفاته بعد أيام عدة، وعُدَّت

---

(١) البنداري: ص٣١٤. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٠٨.
(٢) عاشور: جـ٢ ص٧٦١. (٣) البنداري: ص٢٦٩ ـ ٢٧١.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٩٢ ـ ٢٩٤. ابن واصل: جـ٢ ص٧٢.
(٥) البنداري: ص٣٣٦. ابن الأثير: جـ٩ ص٤٣٩، ٤٤١. الأيوبي: ص٢٤، ٢٥.

وفاته خسارة كبيرة للصليبيين[١].

وكان صلاح الدين قد خرج من دمشق عندما سمع بنبأ الانتصار، لحصار حصن مخاضة الأحزان لكنه اكتفى بمهاجمة حاميته، إذ بلغت استحكاماته الدفاعية من المتانة ما حمله على الارتداد بعد مضي أيام عدة، فعسكر عند تل القاضي في سهل مرجعيون غربي بانياس، وأرسل العساكر للإغارة على الجليل ولبنان لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت[٢].

أثارت هذه الغارات حفيظة الملك بلدوين الرابع الذي رأى أنه لا بد من وضع حد لها، فجمع قواته وخرج للتصدي للمسلمين، ودعا ريموند الثالث كونت طرابلس لمساعدته، وعلم بأن فروخشاه عائد من الساحل بغنيمة كبيرة، فتحرك نحو الشمال لاعتراضه في وادي مرجعيون بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن، غير أن صلاح الدين رصد تحركه، وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصليبي يشتبك مع فروخشاه، كان ريموند الثالث والداوية يتقدمون نحو نهر الأردن، وفاجأ صلاح الدين عند مدخل الوادي، فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور. صمد صلاح الدين في المعركة، وبفضل ما طبَّقه من خطط عسكرية أتاح له أن يقوم بهجوم مضاد وتحقيق الانتصار، وولّى الصليبيون الأدبار لا يلوون على شيء، ولما وصلوا إلى الجيش الملكي، ساد الذعر صفوف أفراده، فارتدوا ثم لاذوا بالفرار، ووقع كثير منهم في الأسر، كان من بينهم أودو سانت أماند مقدم الداوية، وبلدوين سيد الرملة، وهيو صاحب الجليل[٣]، وقد حدثت هذه المعركة في (أوائل ٥٧٥هـ/ صيف ١١٧٩م).

لم يستثمر صلاح الدين انتصاره هذا بمهاجمة بيت المقدس لأنه اعتقد أن باستطاعة الملك الصليبي، الذي ما زال طليقاً، استدعاء العساكر من مختلف المناطق، فيلتفون من حوله، ما يجعل مهمته صعبة، وبخاصة أنه وصلت إلى المملكة الصليبية آنذاك مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج برئاسة هنري الثاني دي شامبانيا ما أنعش آمال الصليبين ورفع معنوياتهم[٤]. واستعاض صلاح الدين عن مهاجمة بيت المقدس بمهاجمة مخاضة الأحزان في (ربيع الأول/ أيلول)، واستطاع بعد حصار دام خمسة أيام من اقتحام الحصن، فدمَّره عن آخره

(١) البنداري: ص٣١٧ ـ ٣١٩. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٠٩، ١٠١٠.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠١١. رنسيمان: جـ٢ ص٦٧٦، ٦٧٧.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٣٩. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠١١ ـ ١٠١٤.

(٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠١٤.

وسوَّاه بالأرض، كما أغار على المناطق الساحلية: صور وصيدا وبيروت، وهاجم أسطوله البحري مدينة عكا ودمَّر السفن الراسية فيه[1].

الهدنة بين صلاح الدين والملك بلدوين الرابع

لم يسع الملك بلدوين الرابع، تجاه خسائر الصليبيين الجسيمة، سوى أن يطلب الهدنة، فوافق صلاح الدين على ذلك. انعقدت الهدنة في (ذي الحجة ٥٧٥هـ/ أيار ١١٨٠م). والواقع أن الطرفين كانا بحاجة إلى هدنة، وبخاصة أن بلاد الشام تعرَّضت طوال شتاء عام (١١٨٠م) ومستئل الربيع إلى جفاف شديد، وما من أحد يود أن يقوم بغارات لما قد يلحق بالمحاصيل الضئيلة من أضرار[2].

ففيما يتعلق بالجانب الإسلامي، فقد أراد صلاح الدين:

- أن يضم حلب قبل أن يُوجِّه ضربة حاسمة للصليبيين، حتى يُقوِّي الجبهة الإسلامية، كما أنه من الخطأ أن يُعرِّض نفسه لهجمات الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب.
- أن يُطوِّع السلطان قلج أرسلان الثاني صاحب قونية.
- أن يقوم بحملة على أرمينية الصغرى.
- أن يتفرَّغ لمهاجمة طرابلس، وبخاصة أنه علم بما جرى من اتصالات بين الصليبيين والبيزنطيين لتجديد التحالف بينهما. وفعلاً هاجم أسطوله أنطرطوس وفتح جزيرة أرواد، فاضطر ريموند الثالث إلى عقد هدنة معه، بل إنه طلب الانتماء إليه بسبب المشكلات التي حدثت داخل مملكة بيت المقدس والتي انتهت إلى إقصائه عن الحكم[3].

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي، كان الملك بلدوين الرابع، الذي أنهكته الاصطدامات مع صلاح الدين، بحاجة إلى هدنة طويلة ليعيد تنظيم صفوف قواته ويستقطب الحلفاء.

وتحدَّدت مدة الهدنة بسنتين.

وهكذا يتبين بأن سياسة صلاح الدين في هذه المرحلة اقتصرت على غارات خاطفة ومركَّزة على بعض معاقل الصليبيين، والموافقة على هُدن قصيرة الأجل

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠١٤، ١٠١٥. البنداري: ص٣٣٣ ـ ٣٣٧.
(٢) رنسيمان: جـ٢ ص٦٧٩.
(٣) البنداري: ص٣٤٥. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠١٧، ١٠١٨. يعقوب الفيتري: تاريخ بيت المقدس: ص١٤٨.

للتفرغ الكامل لبناء بنيان الوحدة الإسلامية وتعبئة القوى[1].

استمرار الخلافات الداخلية بين الصليبيين

تعود البذور الجنينية للانتصار الإسلامي في حطين إلى تراجع مملكة بيت المقدس الصليبية تراجعاً مضطرداً، بدءاً بجهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وصولاً إلى صلاح الدين، ذلك أن الخلافات استمرت ناشطة بين الصليبيين في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يستعد سياسياً وعسكرياً للمعركة المقبلة.

فقد تفاقم مرض الملك بلدوين الرابع الذي لم يلبث أن أثار مشكلة وراثة العرش من جديد، إذ كان لا بد من اختيار زوج آخر للأميرة سيبيلا بعد وفاة زوجها وليم دي مونتفرات، فوقع الاختيار على جاي لوزينان، أصغر أبناء نبيل فرنسي ضئيل الشأن. ويبدو أن الملك عارض في بادئ الأمر هذا الاختيار لأن جاي لم يتحلَّ بشيء من صفات الفروسية أو الحكمة في معالجة الأمور، إلا أنه رضخ في آخر الأمر، وتمَّ الزواج في عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، وحاز جاي على إمارتي يافا وعسقلان إقطاعاً له[2]، كما عهد إليه الملك في عام (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م) بالوصاية على العرش بناء على إلحاح والدته أغنيس دي كورتناي وأخته سيبيلا والبطريرك هرقل، فأضحى جاي يسيطر بشكل تام على المملكة باستثناء مدينة بيت المقدس التي احتفظ بها الملك لنفسه، وقَبِل أمراء المملكة مكرهين على ما اتخذه الملك من قرارات[3].

والواقع أن هذا الاختيار لم يكن موفقاً، وقد ظهر ذلك بوضوح في الأزمة التي واجهت المملكة عندما بدأ صلاح الدين يهاجم منطقة الجليل حيث وقع الملك تحت تأثير مجلس أمرائه، ومنهم ريموند الثالث كونت طرابلس، وبوهيموند الثالث أمير أنطاكية المناوئين لجاي، فأبعد هذا الأخير عن الوصاية وعيَّن ابن أخته سيبيلا الطفل بلدوين الخامس شريكاً له في الحكم ووريثاً، وذلك لقطع الطريق على جاي لوراثة العرش، ثم تمادى عندما حاول إقناع أخته بإلغاء زواجها منه، فانسحب جاي إلى إقطاعه وأعلن الثورة على الملك متخلياً عن ولائه له[4].

وعلى هذا الشكل بدأ الصراع بين الرجلين، فزحف الملك إلى عسقلان ليجد أبوابها مغلقة في وجهه، لكنه نجح في الاستيلاء على يافا حيث أعلن عزل جاي.

---

(١) نوري: ص٢٨٢.

(٢) الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠١٦. يعقوب الفيتري: ص١٤٨. Ernoul: pp59, 60.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٧٠٥. (٤) الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٦٨.

وقرَّر المجلس اختيار ريموند الثالث وصياً على الملك وذلك في عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)[١].

رينولد شاتيون يُنقض الهدنة

إن ما حدث من نزاع بين الأمراء الصليبيين كان بالغ النفع لصلاح الدين، فقد كان لزاماً على مملكة بيت المقدس في ظل أوضاعها المزعزعة أن تحافظ على الهدنة التي انعقدت في عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، غير أن رينولد شاتيون صاحب الكرك، الذي عُدَّ من أكثر الأمراء الصليبيين تشدُّداً، هو الذي وقَّع الهدنة مع صلاح الدين التي أتاحت للتجار المسلمين والمسيحيين حرية التنقل كل في بلاد الطرف الآخر، على أن رينولد شاتيون ساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية الوفيرة الثروة تسير مطمئنة في إقطاعه الذي يتحكَّم في طريق حجاج المسلمين إلى الحرمين، بالإضافة إلى الطريق الرئيس الذي يفصل مصر وبلاد الشام، ففي (رجب ٥٧٧هـ/ تشرين الثاني ١١٨١م) قاد قواته إلى الحجاز ووصل إلى تيماء، الواقعة في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة، ويبدو أنه كان ينوي مهاجمة مكة والمدينة، المدينتين المقدستين عند المسلمين[٢].

عكَّرت هذه الغزوة صفو السلم في وقت كانت فيه مملكة بيت المقدس بحاجة إليه، إذ أن صلاح الدين الذي كان آنذاك في مصر، أرسل قوة عسكرية على وجه السرعة بقيادة ابن أخيه فروخشاه انطلقت من دمشق وأغارت على إقليم ما وراء نهر الأردن للضغط على رينولد شاتيون، وفعلاً أسرع هذا بالعودة إلى إقطاعه للدفاع عنه بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة متوجهة من دمشق إلى مكة وسلب ثروتها[٣].

أثار هذا العمل فزع المسلمين جميعاً، ولام صلاح الدين الملك بلدوين الرابع، وذكَّره بالهدنة المعقودة بين الطرفين، وطالب بالتعويض، فأقرَّ الملك عدالة دعواه، لكن رينولد شاتيون أبى أن يعترف بخطئه، ورفض أن يدفع التعويض، وسانده أصدقاؤه في البلاط الملكي، ما حمل الملك على طي الموضوع، وأخبر صلاح الدين بعجزه عن إخضاع أحد أمرائه وإقناعه باحترام الهدنة المعقودة مع المسلمين الأمر الذي يعني إعلان الحرب. وثمة معنى آخر لعدم انصياع رينولد

---

(١) الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٦٨، ١٠٦٩.

Eracles: L'Estoire de Eracles Empereur et la Conquette de la Terre d'Outre Mer, occ: II p2.

(٢) الأيوبي: ص٦٠. المقريزي: السلوك: جـ١ ص١٨٥، ١٨٧.

(٣) Ernoul: pp54-56.

شاتيون للملك بلدوين الرابع، هو سقوط هيبة مملكة بيت المقدس وخروج الأفصال الإقطاعيين على طاعة الملك، وهذا مظهر جديد من مظاهر انحلال هذه المملكة بخاصة والصليبيين بعامة في الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي[١].

لكن صلاح الدين حرص على متابعة الموضوع، وأتاحت له الظروف القبض على ألف وستمائة حاج مسيحي تقريباً جنحت سفينتهم قرب دمياط، واشترط لإطلاق سراحهم أن يُحرِّر رينولد شاتيون أسرى المسلمين ويردَّ الغنائم التي استولى عليها، غير أن صاحب الكرك رفض للمرة الثانية أن يردَّ شيئاً ما أدَّى إلى تأزم الوضع حتى وصل إلى حافة الصدام[٢].

معركة حصن كوكب[٣]

وحدث في بلاد الشام آنذاك أن توفي الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب، وخلفه ابن عمه عز الدين مسعود الأول، ما دفع صلاح الدين إلى الخروج من مصر إلى بلاد الشام ليكون قريباً من مجرى الأحداث، فاكتمل بذلك الانشقاق بينه وبين عز الدين مسعود الأول، وقد خشي صلاح الدين أن يتدخل الصليبيون في أوضاع حلب، فكان وجوده في بلاد الشام ضرورة سياسية وعسكرية.

استغل رينولد شاتيون خروج صلاح الدين من مصر في طريقه إلى بلاد الشام، واستطاع إقناع الملك بلدوين الرابع بحشد الجيش الملكي في إقليم ما وراء نهر الأردن للانقضاض عليه، وقد ارتكب الصليبيون بهذا العمل خطأً عسكرياً جعل من فلسطين منطقة مكشوفة.

وأقام الصليبيون خطهم الدفاعي عند حصن الكرك، في الوقت الذي اجتاز فيه صلاح الدين صحراء سيناء إلى العقبة ثم توجَّه ناحية الشمال إلى إقليم الشوبك فدمَّر مزارع القمح التابعة للصليبيين من دون أن يلقى مقاومة تُذكر[٤].

وحتى يُخفِّف الضغط عن صلاح الدين، خرج فروخشاه من دمشق وأغار على دبورية الواقعة قرب طبرية، وهاجم حصن حبيس جلدك، الواقع في السواد من أعمال دمشق واستولى عليه، وعندما بلغت هذه الأخبار مسامع الملك الصليبي أدرك

---

(١) عاشور: جـ٢ ص٧٧١. رنسيمان: جـ٢ ص٦٩٣ ـ ٦٩٦. Grousset: II p703.

(٢) أبو شامة: جـ٣ ص٩٩. الأيوبي: ص٦٧. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٣٦.

(٣) كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية، حصينة تشرف على الأردن. الحموي: جـ٤ ص٤٩٤.

(٤) الأيوبي: ص٩٣. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٣٧.

مدى الخطأ الذي ارتكبه، فقرَّر أن يطارد صلاح الدين، لكن هذا الأخير احتاط في سيره والتزم الأطراف حتى دخل دمشق في (صفر ٥٧٨هـ/ حزيران ١١٨٢م)، وتوجَّه الجيش الصليبي إلى صفورية قرب طبرية في إقليم الجليل بانتظار ما قد يقوم به صلاح الدين[١].

والواقع أن صلاح الدين غادر دمشق في الشهر التالي مع فروخشاه في جيش كثيف، فنفذ إلى فلسطين وتوغَّل في جنوب الجليل وأقام معسكره في سهل الأقحوانة عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية[٢]، وأرسل ابن أخيه فروخشاه للإغارة على إقليم الغور حول بيسان، ودخل هذه الأخيرة، ثم انضم إليه صلاح الدين وهاجما حصن كوكب الذي يُشرف على الإقليم المذكور والطريق المؤدي إلى الناصرة في الهضاب بين بيسان وطبرية[٣].

واضطر الملك بلدوين الرابع إلى مغادرة إقليم ما وراء نهر الأردن للتصدي لجموع المسلمين، وسار بمحاذاة الضفة الغربية للنهر بعد أن استدعى البطريرك الذي حمل معه صليب الصلبوت، والتقى الجيشان الإسلامي والصليبي عند أسفل الحصن، لكن أياً منهما لم يُحقِّق انتصاراً واضحاً، وآثر صلاح الدين، الذي أدرك عدم جدوى تلك المعارك الجانبية، أن يحتفظ بقواته سليمة للمعركة الفاصلة، فانسحب إلى دمشق[٤].

صلاح الدين يهاجم بيروت

التفت صلاح الدين بعد ذلك إلى العمل على فصل إمارتي طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقدس بهدف شقِّ قوة الصليبيين وإضعافها، وكانت بيروت هي المدينة التي تؤمِّن له تحقيق هذا الهدف، فحشد قواته في جنوب إقليم البقاع تمهيداً لمهاجمتها، وأرسل إلى أخيه العادل في مصر ليسانده من ناحية البحر، فأغار الأسطول المصري على الداروم وغزة وعسقلان، وضرب حصاراً على بيروت، وهكذا تعرَّضت هذه المدينة لحصار بري وبحري شديدين[٥].

وأمر الملك بلدوين الرابع، الذي كان لا يزال في صفورية، عندما علم بحصار

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٥٨، ٤٥٩. ابن شداد: ص١٠١. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٣٨ - ١٠٤٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٤٦٠. الأيوبي: ص٩٥.

(٣) الأيوبي: المصدر نفسه. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٤٢.

(٤) المصدران نفساهما.

(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٦١. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٤٤، ١٠٤٥.

بيروت، بإعداد الأسطول الصليبي في عكا وصيدا لإنقاذ بيروت، وشدَّد صلاح الدين الحصار على المدينة لفتحها قبل قدوم إمدادات صليبية، لكن المدينة صمدت ولم يستطع النيل منها «فرأى أن أمر بيروت يطول»، لذلك انصرف عنها وأمر أسطوله بالعودة إلى مصر(١).

رينولد شاتيون في البحر الأحمر

عندما رحل صلاح الدين نحو الشمال بعد حصار بيروت، قام رينولد شاتيون بتنفيذ مشروع طالما جال بخاطره، وهو أن يُنزل أسطولاً في البحر الأحمر يغير على الأساطيل البحرية الإسلامية التي تقصد الحجاز ويهاجم مكة والمدينة، المدينتين المقدستين عند المسلمين، فهاجم أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة، واستولى عليها، وحاصر جزيرة غراي القريبة منها، وانطلقت سفنه لتغير على موانئ الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، فهاجمت عيذاب، وهي ميناء كبير للنوبة، واستولت على سفن تجارية محمَّلة بالبضائع قادمة من عدن، ثم اجتازت البحر الأحمر إلى ساحل الحجاز، فأشعلت النار في السفن الراسية بالحوراء وينبع، وأوغلت حتى بلغت راغب من موانئ مكة، واعترضت بالقرب منها سفينة حجاج متوجهة إلى جدة(٢).

وبذلك، وضع الصليبيين في موقف خطير وحرج، لأن تصرفه هذا أثار حفيظة المسلمين جميعاً الذين ارتاعوا لما حدث، وتسبَّب في سريان موجة من السخط بينهم أكبر من تلك التي رافقت قيام الإمارات الصليبية، بل إن حكام حلب والموصل الذين التمسوا مساعدة الصليبيين خجلوا لاتخاذهم حلفاء(٣). ويمكن القول بأن هذه الأحداث سجَّلت الإدراك الأكمل من جانب المسلمين للخطر الذي يمثله الصليبيون لهم ككل، كما شكَّلت تحدياً لا يمكن السكوت عنه.

والراجح أن رينولد شاتيون استهدف من وراء تلك العملية تحقيق أربعة أهداف هي:

- السيطرة على البحر الأحمر.
- قطع طريق الحج، وضرب العالم الإسلامي في الصميم.
- الاستيلاء على عدن ما يتيح له التحكم بممرات البحر الأحمر، يغلقها في وجه أعدائه، واحتكار التجارة الشرقية.
- إقناع مملكة الحبشة المسيحية بالعمل على المشاركة في الحركة الصليبية.

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٦١. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٤٤، ١٠٤٥.

(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٤٦٨.   (٣) عاشور: جـ٢ ص٧٨٥، ٧٨٦.

ولمقاومة هذا المشروع أنزل العادل، أخو صلاح الدين، أسطولاً قوياً في البحر الأحمر، عهد بقيادته إلى حسام الدين لؤلؤ وأمره بمطاردة السفن الصليبية، فاستردَّ أيلة، وحرَّر جزيرة غراي من الحصار، وداهم السفن الصليبية على ساحل الحوراء ودمَّرها وأسر بحارتها، وأطلق مَن عليها من أسرى المسلمين، وأرسل الأسرى الصليبيين إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن حيث تمَّ استعراضهم في شوارعها قبل أن يُقتلوا، في حين أرسل اثنين منهم إلى مِنى لينحروا حتى يكونوا عبرة لغيرهم[1].

وهكذا باءت محاولة الصليبيين السيطرة على البحر الأحمر والاعتداء على الحرمين واحتكار التجارة الشرقية بالفشل؛ وترتَّب عليها نتيجتان فيما يتعلق بتحديد العلاقة بين صلاح الدين ورينولد شاتيون:

الأولى: لقد أثارت العداء الشخصي بين الرجلين، حيث نذر صلاح الدين بأنه لن يغفر لرينولد شاتيون محاولته انتهاك حرمة الدين.

الثانية: لفتت نظر صلاح الدين إلى الخطر الذي يُهدِّد دولته من ناحية الكرك، ووادي عربة، وهي المنطقة التي تقع بين قسمي دولته في الشام ومصر فضلاً عن الحجاز.

صلاح الدين يُغير على حصن الكرك

اهتم صلاح الدين اهتماماً بالغاً بحصن الكرك، إذ طالما بقي في يد رينولد شاتيون، كان بوسعه أن يعترض طريق القوافل التجارية بين مصر والشام، ودلَّت التجربة أن ما من معاهدة أوقفته عند حده. وكان صلاح الدين قد عاد إلى دمشق بعد غزوة ناجحة لبيسان وعين جالوت في (جمادى الآخرة ٥٧٩هـ/ أيلول ١١٨٣م)[2]، ثم خرج في (رجب/ تشرين الأول) على رأس جيش كثيف لحصار الكرك.

وصادف في تلك الأثناء اجتماع الأمراء الصليبيين في الحصن للاحتفال بزواج الأميرة إيزابيلا من همفري سيد تبنين[3]، فعسكر أمام أسوار الحصن الذي صمد في وجه الحصار وضربات المنجنيق.

---

(١) أبو شامة: جـ٣ ص١٣٣ ـ ١٤٠. يصف الرحالة ابن جبير، وكان في مصر آنذاك، موكب الأسرى الذين أُرسلوا إلى القاهرة. رحلة ابن جبير: ص٣٤، ٣٥.

(٢) ابن شداد: ص١٠٧ ـ ١٠٩. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٦١ ـ ١٠٦٥.

(٣) يعقوب الڤيتري: ص١٤٧.

وفي الوقت الذي كان فيه الحصن يتعرض لقذائف المنجنيق أعدَّت ستيفاني والدة العريس صحوناً من طعام العرس وأرسلتها إلى صلاح الدين، فأمر هذا، في مقابل ذلك، بألا يتعرَّض البرج الذي تجري فيه احتفالات الزواج للقذف.

ومهما يكن من أمر، لم ينل صلاح الدين من الحصن، وهرعت الرسل إلى بيت المقدس تلتمس المساعدة من الملك بلدوين الرابع، فجهَّز الجيش الملكي وعهد بقيادته إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس، وأصرَّ الملك أن يحضر المعركة على الرغم من شدة مرضه، ولما اقترب هذا الجيش من الحصن، آثر صلاح الدين أن ينسحب بعد أن رأى «أن أمر الكرك يطول» وعاد إلى دمشق[1].

ويبدو أن صلاح الدين لم يصرف النظر عن حصن الكرك إلا مؤقتاً بانتظار سنوح فرصة أخرى يستغلها، لا سيما وأن هذا الحصن استمر يُهدِّد طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام والحجاز، لذلك خرج في الصيف التالي من دمشق لحصاره، وشاركه الجيش المصري بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، الذي حلَّ محل العادل في حكم مصر، وانحازت إلى جيشه الفرق العسكرية التي أرسلها الأراتقة، كما انضمَّ إليه أخوه العادل بعساكر حلب[2].

وعلى الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة، وشدة الحصار، وقوة الضرب المتواصل، كانت مناعة الحصن التي وقفت حائلاً دون سقوطه. وللمرة الثانية انسحب صلاح الدين وعاد إلى دمشق في (جمادى الأولى ٥٨٠هـ/آب ١١٨٤م) عندما اقترب جيش صليبي قادم من بيت المقدس، إلا أنه انتقم من المملكة الصليبية بالإغارة على نابلس وسبسطية وجنين[3].

النزاع الصليبي الداخلي في مملكة بيت المقدس

ساءت أوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية في أواخر أيام الملك بلدوين الرابع، لا سيما بعد أن وقع النزاع الذي أشرنا إليه بين الملك وبين جاي لوزينان الوصي على المملكة.

وجرت أحداث هذا النزاع على الرغم مما بذله البطريرك هرقل ومقدما الداوية والأسبتارية من جهود للتوسط لصالح جاي لوزينان، ثم حدث في (أواخر ٥٨٠هـ/

---

(١) ابن شداد: ص١١٠. ابن واصل: جـ٢ ص١٥١. أبو شامة: جـ٣ ص١٩٠. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٦٥ ـ ١٠٦٧، ١٠٦٩، ١٠٧٠. Ernoul: p103.

(٢) ابن شداد: ص١١٣، ١١٤. أبو شامة: جـ٣ ص١٩٠ ـ ١٩٢.

(٣) المصدران نفساهما: ص١١٤، ١١٥. ٢٠٢ ـ ٢٠٤. ابن الأثير: جـ٩ ص٤٨١، ٤٨٢. Ernoul: pp102-106.

أوائل ١١٨٥م) أن اختار الملك بلدوين الرابع ريموند الثالث كونت طرابلس وصياً على الملك بلدوين الخامس الذي أُعلن ملكاً ولم يتجاوز السادسة من عمره، وحاز بيروت مكافأة له عن خدماته، وقد عارض عدد من الأمراء ذلك، كان من بينهم جاي لوزينان نفسه، وجيرار رئيس فرسان الداوية ورينولد شاتيون صاحب الكرك، ولم تنقض بضعة أسابيع حتى توفي الملك بلدوين الرابع[١].

وكان لكل من صلاح الدين وريموند الثالث من الأسباب ما دفعه إلى عقد هدنة.

ففيما يتعلق بصلاح الدين:

- نشوب خلافات أسرية في مصر تطلبت منه العمل على تسويتها.

- ترامى إلى سمعه أن عز الدين مسعود أمير الموصل يوشك القيام بالثورة ضده، فكان عليه أن يتفرَّغ لمعالجة قضية الموصل.

وفيما يتعلق بريموند الثالث:

- أدرك ريموند الثالث، في هذه الظروف، مدى حاجة الصليبيين إلى الهدوء والسلم ليحلُّوا مشكلاتهم، ويدعموا موقفهم، لا سيما وأن بلاد الشام تعرَّضت لموسم جفاف إذ لم يهطل المطر في ذلك الشتاء.

ومهما يكن من أمر، فقد انعقدت الهدنة بين الطرفين لمدة أربع سنوات (٥٨١ - ٥٨٥هـ/ ١١٨٥ - ١١٨٩م)[٢].

وفاة الملك بلدوين الخامس وتأثيرها على أوضاع الصليبيين

توفي الملك بلدوين الخامس في (جمادى الآخرة ٥٨٢هـ/آب ١١٨٦م) بعد أشهر من توليته، فبرزت من جديد مشكلات الصليبيين الداخلية، وكانت وفاته إيذاناً بنشوب صراع حاد بين الأمراء حول الفوز بعرش المملكة، وبدأت أولى حلقاته في النزاع الذي قام بين ريموند الثالث وجوسلين دي كورتناي اللذين كانا على مقربة من الملك عند وفاته في عكا، وظل المعارضون لوصاية ريموند الثالث في حبك المؤامرات حتى نجحوا في سحب الوصاية منه وتحويل المُلك من الطفل إلى أمه سيبيلا، وفوَّضوها باختيار الملك الجديد لأنها لا تستطيع أن تحكم كامرأة، وسلَّمت سيبيلا تاج الملك إلى زوجها جاي لوزينان وفق ما أراده المعارضون لريموند الثالث[٣].

---

(١) يعقوب الفيتري: ص١٤٨. الصوري، وليم: جـ٢ ص١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٤، ١٠٧٥. Ernoul: pp115-119.

(٢) Ernoul: pp121-128. Estoire d'Eracles: II pp12, 13.

(٣) يعقوب الفيتري: ص١٤٨. رنسيمان: جـ٢ ص٧٢٢.

أثار هذا الانقلاب غضب ريموند الثالث، فغادر عكا إلى طبرية، إقطاع زوجته إسكيفا، لكنه سرعان ما علم بأن الملك الجديد جرَّده من إقطاعه في بيروت التي حازها بوصفه وصياً، وأخذ بعد ذلك يطالبه بحساب الأعوام التي كان فيها وصياً على الملك بلدوين الخامس.

وخشي ريموند الثالث أن يشنَّ عليه أعداؤه داخل المملكة الحرب ويهاجموه في طبرية ويُجردوه مما تبقَّى له من إقطاع أو مُلك. وإذ تمزَّقت المملكة إلى فئات متنازعة، كان من الأفضل أن تظل الهدنة المعقودة مع صلاح الدين قائمة، وكان الملك نفسه يودُّ المحافظة عليها[١].

واضطر ريموند الثالث إلى الالتجاء إلى صلاح الدين طالباً مساعدته ضد أعدائه، فأرسل رسولاً إلى دمشق يُعلمه بالمؤامرة التي حيكت ضده ويطلب منه العون والحماية[٢]. سرَّ صلاح الدين بهذه الدعوة، ذلك أن الانقسام الداخلي في صفوف الصليبيين جاء عظيم الفائدة له حتى عدَّه المؤرخون المسلمون «من أسباب نصرة الإسلام»[٣]، فأرسل إليه بعض الفرسان والمشاة والرماة والأسلحة، ووعده بأنه إذا هاجمه أعداؤه فإنه مستعد للوقوف إلى جانبه.

وحشد صلاح الدين عساكره في بانياس استعداداً لأي طارئ، في حين حشد الملك جاي لوزينان عساكره في الناصرة استعداداً لمهاجمة ريموند الثالث.

كانت هذه الفرصة الأولى التي سنحت لصلاح الدين للتدخل في شؤون مملكة بيت المقدس، فاستغلها بنجاح، وكافأ صلاح الدين ريموند الثالث بأن أطلق من كان عنده من أسرى الصليبيين من أتباعه[٤].

عدَّ الصليبيون تحالف ريموند الثالث مع صلاح الدين خيانة كبيرة للمملكة يجب أن يُعاقب عليها، واتهموه بالتحول إلى الإسلام، وقرَّر الملك جاي لوزينان توجيه ضربة قاسية إليه، فتدخل باليان الإبليني، وهو أحد كبار فرسان المملكة، وأقنعه بعدم استعمال القوة ضد ريموند الثالث، ومفاوضته بدلاً من ذلك، لأن المملكة بحاجة إلى خبرته العسكرية وخدماته وهي بحال حرب مع صلاح الدين، ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الرجلين اشترط ريموند الثالث إعادة بيروت إليه، لكن الملك رفض ذلك[٥].

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص٧٢٢. (٢) يعقوب الڤيتري: ص١٤٨.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٧، ١٨. ابن واصل: جـ٢ ص١٨٤، ١٨٥.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه: ص١٨٥.

(٥) Ernoul: pp141, 142. Estoire d'Eracles: II pp31-35.

الفَصْل الواحِدَ والعشرُون

الانتصار في حطين

معركة حطين

مقدمات المعركة

رينولد شاتيون يُنقض مجدداً الهدنة مع المسلمين: كانت الأحداث تجري بسرعة في مصلحة صلاح الدين وهو يستغلها، إذ أن تحالفه مع ريموند الثالث أثار غضب رينولد شاتيون الذي كان في هدنة مع صلاح الدين، واشتهر بالتفكير المنفرد، وبفضل ما تنطوي عليه الهدنة من بذل الحماية، صارت القوافل التجارية تتردَّد بين مصر وبلاد الشام مجتازة الأراضي الصليبية بأمان(١)، ولا شك بأن ذلك عاد بالفائدة على رينولد شاتيون نفسه نظراً لما يفرضه من ضرائب ومكوس عليها، كما يبدو أنه لا يستطيع العيش من دون أن ينهب ويسرق، فقام بنقض هدنته مع صلاح الدين في عام (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) عندما أوقف قافلة تجارية كبيرة مارَّة بأرض الكرك في طريقها من مصر إلى بلاد الشام، فاستولى عليها وقتل حرَّاسها، وأسر بعض الجند، كما قبض على مَنْ في القافلة من تجار وعائلات، وحملهم إلى حصن الكرك(٢).

لم تلبث أنباء الاعتداء أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، ولحرصه على احترام المعاهدة، أرسل إلى رينولد شاتيون ينكر عليه هذا العمل، ويتهدَّده إن لم يُطلق سراح الأسرى ويُعيد الأموال، غير أن صاحب الكرك رفض استقبال رسله، وعندما وجد صلاح الدين إعراضاً من جانب رينولد شاتيون، أرسل إلى الملك جاي لوزينان شاكياً ومطالباً بالنصح لرينولد بإعادة الأسرى والأموال. لبَّى الملك الصليبي دعوة صلاح الدين لكنه أخفق في الضغط على رينولد(٣).

والواقع أن صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض رينولد شاتيون وعجز الملك جاي لوزينان، بل إنه «نذر دمه وأعطى الله عهداً إن ظفر به أن يستبيح

---

(١) ابن واصل: جـ٢ ص١٨٥.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٨، ١٩.

(٣) Estoire d'Eracles: II p34. Grousset: II p776.

مهجته»[1]، وما حدث من نقض الهدنة على هذا الشكل جعل الحرب أمراً لا مفر منه.

أوجد هذا الحادث شيئاً من الخوف بين الصليبيين وأثار التوتر في علاقاتهم مع صلاح الدين، فأسرع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية بعقد هدنة منفصلة معه، إما بناء على طلب منه وإما بدعوة من صلاح الدين، ليطمئن على خطوطه الخلفية ويتفرغ للقتال في الجنوب[2]، ووسَّع ريموند الثالث مدى اتفاقه مع صلاح الدين مضيفاً إليه حماية منطقة الجليل، وبذلك يكون قد فتح الطريق لصلاح الدين للولوج إلى الأردن وفلسطين.

شكَّلت هذه الهدن ونقضها نقطة الانطلاق الأولى لمعركة حطين، ذلك أن تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث أتاح له مجالاً للتدخل في السياسة الداخلية للصليبيين، وأن تجديد تحالفه مع الأميرين الصليبيين حرم مملكة بيت المقدس من مساعدة أقوى إمارتين صليبيتين في الشام، وهما إمارة طرابلس وإمارة أنطاكية.

وهكذا نجح صلاح الدين في شقِّ الصف الصليبي، وفي المقابل فإنه نجح في توحيد الصف الإسلامي، فأعدَّ الجيوش الإسلامية في مصر والجزيرة الفراتية والموصل والشام، معنوياً وعسكرياً، للمعركة التي أرادها أن تكون فاصلة.

وعندما اكتملت استعدادات التجهيز، خرج صلاح الدين من دمشق في (محرم ٥٨٣هـ/ آذار ١١٨٧م) على رأس جيش كبير متوجهاً إلى الجنوب، فوصل إلى رأس الماء إلى الشمال الغربي من حوران من أعمال دمشق، ثم توجَّه إلى بصرى قصبة حوران ليستقبل قافلة الحجاج التي كان في عدادها أخته وابنها، ويضمن في الوقت نفسه عدم تعرض رينولد شاتيون لهم لأن التقارير التي وصلت إليه أشارت إلى تربصه بالحجاج[3].

وبعد أن اطمأن على وصول القافلة وسلامتها شرع في مهاجمة الكرك، وإذ علم رينولد شاتيون بوجوده في المنطقة تراجع إلى حصنه، وكان صلاح الدين قد ترك ابنه الأفضل نور الدين علي في رأس الماء ينتظر وصول العساكر التي استدعاها للجهاد[4].

حقَّقت حركة صلاح الدين باتجاه الكرك هدفين:

الأول: التمويه على هدفه الحقيقي وهو مهاجمة مملكة بيت المقدس.

---

(١) ابن واصل: جـ٢ ص١٨٥. (٢) ابن شداد: ص١٢٦. Grousset: II p778.

(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي: ص٥٨، ٥٩. ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٠.

(٤) العماد الأصفهاني: ص٥٩.

الثاني: إخافة رينولد شاتيون ومنعه من الذهاب إلى مملكة بيت المقدس لنجدتها.

وسرَّح صلاح الدين عساكره في المنطقة فراحوا يعيثون فيها، ثم قصد الشوبك وفعل فيها مثلما فعل بالكرك، وظلَّ في الأردن شهري (صفر وربيع الأول/ نيسان وأيار)، وكان هدفه حصار هذه المنطقة تغطية للحشود التي كانت تتجمَّع حول ابنه الأفضل في رأس الماء[(١)].

الاصطدام في عين الجوزة: الواقع أن أوضاع الصليبيين كانت آنذاك متدهورة، إذ لم يقتصر الأمر في تلك الأزمة على عدم التعاون بين الملك جاي لوزينان من ناحية، وأميري طرابلس وأنطاكية من ناحية أخرى، إنما تعدَّى ذلك إلى احتمال قيام صدام بين الملك الصليبي وأمير طرابلس، فجمع الأول رجاله وتوجَّه بهم صوب الشمال إلى الناصرة لإخضاع الجليل لسيادته قبل أن يبدأ الهجوم الإسلامي.

والحقيقة أنه لم يمنع حصول صدام داخلي سوى تدخل باليان الإبليني، حاكم الرملة، الذي أقنع الملك بمصالحة أمير طرابلس واستشارته التي أضحت الحاجة ماسة إلى مساعدته، فأرسل إليه وفداً من أجل ذلك، وكان في طبرية[(٢)].

وفي الوقت الذي كان فيه أعضاء الوفد في طريقهم إلى طبرية، كان ريموند الثالث يستقبل وفداً من قِبَل صلاح الدين يطلب منه السماح لبعض رجاله بدخول أراضيه في طريقهم إلى فلسطين في مهمة استطلاعية، ولعله اختار هذا الوقت بالذات ليعرقل التفاهم بينه وبين الملك، والراجح أنه أراد أن يُغير على عكا[(٣)].

وافق ريموند الثالث على مضض لأنه كان مرتبطاً بمعاهدة مع صلاح الدين، ولا يسعه أن يرفض الطلب المثير للحرج في الوقت نفسه، إنما اشترط أن يجتاز المسلمون الحدود بعد طلوع النهار وأن يعودوا قبل حلول الظلام، ولا يلحقوا أضراراً بالمدن التي يمرون بها، وألا يؤذوا أحداً من سكانها، فوافق الجانب الإسلامي على ذلك، وأعطى تعليماته إلى المدن الصليبية الواقعة في إقليم الجليل، مثل طبرية والناصرة بإغلاق أبوابها حتى لا تُعطي المسلمين فرصة للاستيلاء عليها[(٤)].

وعندما توجَّه وفد المصالحة الصليبي إلى طبرية، أطلعه ريموند الثالث على اتفاقه مع صلاح الدين، ومن هنا بدأت الأحداث تتأزم وتتحرك بسرعة، يحاول خلالها كل من صلاح الدين وجاي لوزينان أن يكسب الوقت والمعركة.

---

(١) العماد الأصفهاني: ص٥٩، ٦٠.

(٢) Ernoul: pp141, 142. Estoire d'Eracles: II pp31-35.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢١. يعقوب الڤيتري: ص١٤٨.

(٤) Grousset: II p782.

وأطلع ريموند الثالث فرسان الداوية والأسبتارية المرافقين لأعضاء الوفد، وكانوا قرب صفورية، بدخول قوة إسلامية إلى المنطقة، فاستعدُّوا بسرعة لمواجهتها، ومن المؤكد أن هذا القرار يخالف رأي ريموند الثالث، وحدث اللقاء عند عين الجوزة بين صفورية وكفر كنَّة قرب حطين، وأسفر عن انتصار المسلمين، وقُتل الكثير من فرسان الصليبيين كان من بينهم روجر مقدم الأسبتارية، ونجا جيرارد دي ردفورت مقدم الداوية وباليان الإبليني ورينولد صاحب صيدا، وعندما توجَّهت قوة صليبية إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت المعركة قد انتهت[١].

ويبدو أن ريموند الثالث ندم بعد ذلك على السماح لعسكر صلاح الدين بدخول أراضيه، كما أن الخسارة أثَّرت مادياً ومعنوياً على قوة الصليبيين العامة، وتهدَّده بطريرك بيت المقدس بالحرمان وبفسخ زواجه، فنفض يده من اتفاقه السابق مع صلاح الدين، وأسرع بالدخول في طاعة الملك، ورضي أن يسير تحت رايته لحرب المسلمين[٢]، ويُعدُّ هذا الاصطدام مقدمة للاصطدام الثاني في حطين.

الاستعدادات التي سبقت المعركة

اختار الصليبيون صفورية قرب عكا مكاناً لتجمعهم، وحملوا معهم صليب الصلبوت تبركاً، وعندما علم صلاح الدين أن ريموند الثالث نقض الهدنة والاتفاقية المعقودة معه، غادر الأردن مسرعاً في سير متواصل إلى أن وصل إلى عشترا في حوران، فاجتمع مع ابنه الأفضل، وشاهد جيوشه البالغ عدد أفرادها اثني عشر ألفاً من الفرسان بالإضافة إلى المشاة والمتطوعة، مجتمعة، فعبَّأها استعداداً لخوض المعركة، ثم توجَّه إلى طبرية يوم الجمعة في (١٧ ربيع الآخر/٢٦ حزيران)، وكان يقصد بوقعاته أيام الجُمع، لا سيما أوقات الصلاة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر «فربما كانت أقرب إلى الإجابة»[٣].

وبعد أن أقام في الأقحوانة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية مدة خمسة أيام، ارتحل عنها باتجاه الغرب للوصول إلى قرية الصنبرة الواقعة عند التلال المحيطة بالمنطقة القريبة من بحيرة طبرية[٤].

والواقع أن اختياره لهذا الموقع كان محفوفاً بالمخاطر لأنه أهمل طريق الانسحاب في حال الهزيمة المحتملة، وحشر نفسه وجيشه بين البحيرة والعدو من

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢١. يعقوب الڤيتري: ص١٤٩، ١٥٠. رنسيمان: جـ٢ ص٧٣٢.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٢٢ .Ernoul: p146
(٣) ابن شداد: ص١٢٦، ١٢٧. (٤) المصدر نفسه: ص١٧٧.

جهة، كما كان ذا فائدة للمسلمين من جهة أخرى، إذ يحول دون وصول الصليبيين إلى ماء الأردن أو مياه الينابيع الموجودة في الوديان التي تنتهي في البحيرة وتمر عبر التلال التي غدت تحت سيطرة المسلمين[1].

وأرسل صلاح الدين الكشافة من هذا المكان لجمع المعلومات عن جيش العدو ليبدأ مع قادته بوضع الخطط، إذ على الرغم من نيته الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، إلا أنه أراد أن يثيرهم ليدفعهم إلى ترك مواقعهم عند صفورية، والزحف إليه حتى يصلوا متعبين ويكون هو مُدَّخِراً جهده، كما أمل بإثارة ريموند الثالث المشهور بشدة الغيرة، لذلك تصرَّف على محورين:

الأول: أرسل قوة عسكرية هاجمت مدينة طبرية ودخلتها في (٢٣ ربيع الآخر/ ٢ تموز) لكن استعصت عليها القلعة التي احتمت بداخلها إسكيفا، أميرة طرابلس والجليل وزوجة ريموند الثالث، وقد أخطرت زوجها بما حدث.

الثاني: أخذ يسير ببعض جنده كل صباح بحيث يراه الصليبيون، ويُشرف عليهم[2].

والواقع أن خطة صلاح الدين أحدثت ارتباكاً داخل القيادة الصليبية، ودفعت الملك جاي لوزينان إلى عقد مجلس الحرب للتشاور في تحديد الخطوة التالية، وكان الصليبيون آنذاك بصدد إحدى خطتين:

الأولى: هجومية، تقدم بها رينولد شاتيون، وتقضي بالقيام بهجوم عام ضد قوات صلاح الدين والاشتباك مع العدو في معركة حاسمة.

الثانية: دفاعية، تقدم بها ريموند الثالث، الخبير بطبيعة المنطقة الجغرافية وبتوجُّه المسلمين العام، فقد نصح الملك بألا يتحرك من موضعه، بل إنه طلب منه أن يرتد إلى المدن الساحلية الحصينة وأن يترك صلاح الدين يجتاز الهضبة، وأشار بأن الصليبيين آمنون في صفورية الغنية بالماء، ويعسكرون في مكان مرتفع يصعب وصول القوات الإسلامية إليه من دون أن يتكبدوا خسائر فادحة أو هزيمة، كما أنها تقع في قلب المملكة اللاتينية على مقربة من عكا والساحل بحيث تصل إليها الإمدادات بسهولة، وأن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافحة، لن تكون الأحوال في صالحه، وأن المسلمين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بعد استيلائهم على طبرية، إذ لن يكون بوسع صلاح الدين أن يُبقي على قواته الضخمة مدة طويلة في ظل أجواء الحرارة اللافحة، وسوف ينسحب بعد مدة وجيزة إذا لم يستفزه الصليبيون، لذلك

---

(١) السرساوي: ص٣٣، ٣٤.

(٢) العماد الأصفهاني: ص٧٤ ـ ٧٦. ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٣.

ينبغي أن تقوم خطة هؤلاء العسكرية على الدفاع المطلق[(١)].

لكن كلّاً من رينولد شاتيون وجيرارد مقدم الداوية المشهور بعدائه لريموند الثالث؛ رفضا خطة هذا الأخير الدفاعية، بل إنهما اتهماه بالجبن، وأصرَّا على القيام بهجوم عام على القوات الإسلامية، ونجحا في إقناع الملك بالأخذ برأيهما.

ويُعلِّق ابن الأثير، بعد أن يورد خطة ريموند الثالث، بقوله: «...فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه، وقربوا من عساكر الإسلام...»[(٢)]. وإن دلَّت رواية ابن الأثير على شيء فإنها تدل على:

ـ أن التقارير التي كانت تصل إلى صلاح الدين عما يجري داخل المعسكر الصليبي هي دقيقة بحيث سجَّلها المؤرخ بطريقة مؤثرة.

ـ أن الصليبيين لم يتوقَّعوا نشوب معركة حاسمة من جهة المسلمين لأنهم لم يعتادوا على معارك هجومية من هذا النوع.

وأصدر الملك جاي لوزينان الأوامر إلى الجند بالزحف، فاتخذ الجيش الصليبي، الذي بلغ تعداده زهاء خمسين ألفاً، في الصباح الباكر من يوم الجمعة (٢٣ ربيع الآخر/ ٢ تموز) طريقه شرقاً نحو طبرية يتقدمه ريموند الثالث لأن الجيش يجتاز أراضي إمارته[(٣)].

والواقع أن هذه الأوامر اتصفت بالتهور ودلَّت على انعدام التفكير العسكري السليم لدى القادة الصليبيين، الذين غلبت عليهم العاطفة الدينية المتزمتة لأنها أوقعت الملك والمملكة والجيش الصليبي في فخ صلاح الدين الذي علَّق عندما علم بتحركهم بقوله: «قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحَّت كسرتهم، وقُتلت وأُسرت أسرتهم، فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ولا عن فتحها وازع»[(٤)].

وبمغادرة الصليبيين موقعهم في صفورية، تحقَّق النجاح الأول لسياسة صلاح الدين الحكيمة القاضية بإخراجهم من صفورية عن طريق الهجوم على طبرية، لأن هذه المدينة تشتهر بغزارة مياهها حتى في فصل الصيف، وكان بإمكانهم الاستمرار بمقاومة صلاح الدين لو مكثوا فيها.

وهكذا تبدو سياسة صلاح الدين العسكرية في إخراج أعدائه إلى ساحات القتال

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٣. رنسيمان: جـ٢ ص٧٣٥، ٧٣٦ Estoire d'Eracles: II pp49-51.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٤. (٣) العماد الأصفهاني: ص٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ص٧٧.

الواسعة بعيداً عن الظروف الملائمة لأنه كان يتوق للاشتباك معهم في معركة فاصلة.

واجه الجيش الصليبي المتقدم مشكلات عدة أثَّرت تأثيراً سلبياً على قدراته القتالية، منها:

- انحطاط روح أفراده المعنوية، بعد الانقسام في الرأي بين القادة، فساروا مكرهين بين مؤيد للزحف وبين معارض له.
- اشتداد حرارة الجو اللافحة في شهر تموز.
- افتقارهم إلى الماء.
- صعوبة الطريق الذي بلغ طوله ستة عشر ميلاً.
- تعرضهم لهجمات المسلمين الخاطفة.

والواقع أن خيالة الصليبيين الثقيلة كانت أكثر فِرَقهم التي تعرَّضت لخطر الهجوم عليها، إذ لم تنقطع غارات المسلمين عليهم أثناء زحفهم من صفورية إلى حطين، وراح المسلمون يضربون خيولهم ويقضون على قسم كبير منها، كما لم يتركوا للخيالة مجالاً للراحة، يضربون ويختفون ثم يظهرون ثانية، ما زاد في إرباكهم(١).

كان هدفهم الأول الوصول إلى ينابيع الماء، فوصلوا إلى سفح جبل طبرية الغربي المشرف على سهل حطين، لكن صلاح الدين كان قد دمَّر صهاريج الماء في المنطقة، ونشر رجاله حول البحيرة ليسدَّ الطريق أمامهم ويمنعهم من الوصول إليها، فالتعطيش كان أحد الأسلحة الفعَّالة التي استخدمها ضد عدوه.

عندئذ حاول هؤلاء الوصول إلى كفر حطين، لكن القوات الإسلامية سدَّت أمامهم جميع المنافذ الموصلة إليها، فاضطروا إلى التوقف في مسكنة بفعل التعب والعطش، وقرَّروا المبيت فوق الهضبة بعيداً عن خطر المسلمين، ولم يستطيعوا القيام بعبء الصدام معهم أو مواجهتهم كما ينبغي(٢).

وارتحل صلاح الدين في هذه الأثناء من الأقحوانة ونزل في كفر لوبيا(٣) على بُعد كيلومترين جنوب شرقي المعسكر الصليبي، وباتت قواته بمعنويات مرتفعة، ومستعدة لقتال العدو، وكان المعسكران متقاربين بحيث يمكن للعدوين أن يتبادلا الحديث(٤).

---

(١) Prawer, Joshwa: Crusaders Institution: pp490-493.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٤ Ibid. Baldwin, Marshal, W: Reymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem, 1140-1187: p119.

(٣) ابن شداد: ص١٢٨.

(٤) Prawer: p494. Baldwin: p119.

أحداث المعركة

اكتشف الصليبيون، في صباح يوم السبت (٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٣ تموز ١١٨٧م)، بأنهم محاصَرون بعيداً عن المياه، فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت رحى معركة رهيبة انتصر فيها الجيش الإسلامي انتصاراً عظيماً، وهاجمت في بداية المعركة قوة صليبية، بقيادة ريموند الثالث، المسلمين في محاولة لاحتلال الممر المؤدي إلى قرية حطين حيث بعض ينابيع الماء والآبار، فانفصلت عن باقي الجيش الذي كان يتبعها، وعندما وصل أفرادها إلى الممر وجدوا أنفسهم مطوَّقين من جانب المسلمين، فحاولوا شق طريق لهم عبر صفوفهم، لكن الرماة رشقوهم بالنبال، فلقي عدد كبير منهم مصرعه على الفور في حين وقع آخرون في الأسر.

وفي الوقت الذي كان فيه ريموند الثالث مطوَّقاً كان قلب الجيش بقيادة الملك يستعد للقتال، وعندما بدأ الالتحام، نفَّذ فرسان الداوية والأسبتارية هجوماً قوياً، وقتلوا بعض المسلمين، وتسبَّبوا في انسحاب البعض الآخر، إلا أنهم لم يستثمروا انتصارهم الجزئي هذا لأن المشاة قصَّروا في مجاراة الفرسان لأنهم كانوا مُرهقين، وانسحبوا إلى تلة هي إحدى قرون حطين، ويُلاحظ أن انهيار المشاة يُعدُّ سبباً بارزاً في تراجع القوة الصليبية وتفكُّك الجيش.

وذُعر الملك عندما رأى ذلك، فحاول أن يُعيد الثقة إلى نفوس المشاة ويردهم إلى مواقعهم لكنه فشل، ومع انسحاب المشاة انكشف قلب الجيش الذي تعرَّض لضربات المسلمين، ولم يستطع أفراده الردَّ عليها لأنهم كانوا هم أيضاً مطوَّقين بالمسلمين، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين لخوض معركة ناجحة.

في ظل هذه الفوضى التي ضربت الجيش الصليبي، حاول الملك أن ينصب خيمة تكون مركزاً لإعادة التجمع، ولاحظ ريموند الثالث ما آلت إليه الأوضاع العسكرية من التدهور، فأدرك قبل أن تنتهي المعركة بأن النصر سيكون في صالح صلاح الدين، ولذا بذل كل ما عنده من ذكاء لينجو بنفسه من الموقعة، فحاول أن يتراجع لكنه أخفق، ثم علت الصيحات بين صفوف الصليبيين «من كان منكم يستطيع الهرب فليهرب لأن المعركة ليست في جانبنا» لكن حتى الهرب كان مستحيلاً.

وكرَّر ريموند الثالث محاولته من أجل فك الطوق عن قواته والانسحاب من المعركة عن طريق القيام بصدمة الجناح الإسلامي المقابل له، بقيادة تقي الدين عمر، ونجحت خطته عبر ثغرة فتحها له القائد المسلم، فانسحب من ساحة القتال واتخذ طريقه إلى صور ومنها إلى طرابلس.

وظل فرسان الداوية والأسبتارية يقاتلون في الوقت الذي فقدوا فيه الأمل بأي انتصار، فأمر صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر أن يهجم مع خيالته على الصليبيين الذين تضعضعت صفوفهم، واختل نظام جيشهم، وأشعل المسلمون خلال ذلك النيران في الأعشاب الجافة، والأشواك، فحملت الريح لهيبها ودخانها باتجاه الصليبيين، فزادت من معاناتهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان والنار والدخان والسيوف، وأدَّى ذلك إلى فرار من بقي منهم على قيد الحياة، من ساحة المعركة إلى إحدى قرون حطين حيث شاهدوا تقي الدين عمر يقبض على صليب الصلبوت، فأُسقط في أيديهم، وكانت تلك أكبر كارثة تكبدوها.

وتجمَّع بعض الفرسان حول خيمة الملك لشن هجوم مضاد، لكن صلاح الدين عاجلهم بالهجوم، فاندفع المسلمون الذين صعدوا إلى التلة التي نُصبت فوقها الخيمة وأنهوا المعركة، فأسروا كل من كان حول الملك، وفيهم الملك نفسه وأخوه ورينولد شاتيون وجماعة من الداوية والأسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم[(١)].

بعد المعركة

سيق الأسرى إلى خيمة صلاح الدين التي أقامها في مكان المعركة، فاستقبل الملك والأمراء بلطف وبشاشة، وأجلس الأول إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه جلاباً مثلجاً، فشرب منه وأعطى ما تبقَّى إلى رينولد شاتيون الذي كان إلى جانبه، ووفقاً لتقاليد الضيافة العربية متى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير فإن ذلك يعني الإبقاء على حياته، ولذا بادر صلاح الدين إلى القول: «إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيناله أماني» ثم التفت إلى رينولد شاتيون الذي لم يغفر له ما ارتكبه من أعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات المنافية للدين، وأخذ يُذكِّره بجرائمه وخيانته وغدره، ثم قام إليه وضرب عنقه بنفسه، فارتعد الملك، وظنَّ أنه سوف يحل دوره، غير أن صلاح الدين سكَّن جأشه وأمَّنه وقال له: «إن الملك لا يقتل ملكاً، وإنما هذا فإنه تجاوز الحد، فجرى ما جرى»، ثم أصدر أوامره بألا يتعرَّض الأمراء للأذى، غير أنه لم يود أن يُبقي على حياة الأسرى من الفرسان الرهبان الداوية والأسبتارية فأجهز عليهم، وسيق الأسرى إلى دمشق، فتهيأت للأمراء أسباب الراحة في حين تقرر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق[(٢)].

(١) انظر فيما يتعلق بمعركة حطين: ابن شداد: ص١٢٦ ـ ١٢٩. العماد الأصفهاني: ص٧٨ ـ ٨٣. ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٤، ٢٥. يعقوب الفيتري: ص١٥٠ ـ ١٥٢.

(٢) العماد الأصفهاني: ص٨٦، ٨٧. ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٦.

أسباب الانتصار في معركة حطين

تعود البذور الجنينية للانتصار في حطين إلى:

- تراجع مملكة بيت المقدس الصليبية بشكل مضطرد، بدءاً بجهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وصولاً إلى صلاح الدين الذي قام بدور مهم في ذلك.

- إعداد المسلمين النفسي والمادي. لقد تطلبت المعركة إعداداً بعد معركة الرملة، اشتركت فيه القوى العسكرية والسياسية تُوِّج بتوحيد الصف الإسلامي وتوجيه المسلمين نحو الهدف الأسمى، وعندما استدعى صلاح الدين العساكر من مختلف المناطق الإسلامية وصلت إليه من دون تأخير.

- قدرة صلاح الدين على شقِّ الصف الصليبي والتحالف مع أحد أكبر الرجال الصليبيين في بلاد الشام وهو ريموند الثالث، وقد سهَّل له هذا العبور إلى أراضي مملكة بيت المقدس من دون أن يدري أنه أتاح له تدمير هذه المملكة.

- استعمال صلاح الدين الخطط العسكرية الجيدة وتنفيذ سياسة حكيمة. فقد أحسن اختيار أرض المعركة، وحدَّد زمان وقوعها الذي كان في شهر تموز، أشد أشهر السنة حرارة وأقله ماء في الصهاريج، بالإضافة إلى أنه عسكر في طبرية فنعِم بالماء والظل، فحال بذلك دون الصليبيين والماء، فكان الحر والعطش من الأسلحة التي استخدمها ضد عدوه.

- مشاركة صلاح الدين بنفسه في المعركة، إذ أن وجوده وسط عسكره في ساحة المعركة كان من العوامل المهمة التي دفعت هؤلاء إلى الاستماتة في القتال.

- انعكست عبقرية صلاح الدين في إيجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الصليبيين بحيث كانت أخبار تحركاتهم تصل إليه بسرعة وباستمرار.

- كانت وجوه الصليبيين نحو الشرق، فانتظر صلاح الدين صباح يوم المعركة مدة من الزمن قبل أن يشتبك مع العدو حتى تظهر الشمس عالياً وتقوم بعملها المميت للمسيحيين المتعبين، فاصطدموا بحرارتها الحارقة وبنورها الذي بهر أعينهم.

تعقيب على معركة حطين

- كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية حلَّت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها عالم العصور الوسطى، كما شكَّلت حداً تراجع عنده المد الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي، وبداية النهاية للوجود الصليبي في هذه المنطقة[1].

---

(١) عاشور: جـ٢ ص٨١٠، ٨١١.

- أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى، لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطارها في جنوب غربي آسيا وفي مصر لمواجهة الأخطار كلها.

- توَّج النصر في حطين مسيرة صلاح الدين، ووضعه في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين، كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة التي فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود.

- كان لانتصار صلاح الدين في حطين صدى بالغ في نفوس المسلمين بعامة وأهالي دمشق بخاصة، لأن دمشق كانت آنذاك مركز أعماله، ومقرِّه، وفيها قضاته وكُتَّابه.

- كانت معركة حطين معركة تحرير فلسطين، لأنها فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس وباقي البلاد، وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: «كانت وقعة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية وبها تيسَّر فتح بيت المقدس»[١]، وعدَّها حلقة وسطى بين فتوح نور الدين محمود وركن الدين بيبرس البندقداري[٢].

- أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي واستثمار ميزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية[٣].

- من دلالات هذه المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية ومادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلَّت أهمية أرض فلسطين التي تُعدُّ بمثابة الجسر أو المعبر الذي يصل بين بلاد الشام ومصر[٤].

- غدا اسم صلاح الدين بعد الانتصار من الرهبة في قلوب الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال، نظراً لما اتصفت به فتوحه من النبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه معهم، وحسن معاملته لأسراهم؛ أثر كبير في استسلام العديد من المدن والحصون من دون مقاومة تُذكر. والواقع أنه أظهر رحمة وفروسية كبيرتين في تعامله مع الصليبيين، وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر، وتجنَّبت ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة في ذلك الزمن[٥].

---

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ٢ ص١٨٨.
(٢) المصدر نفسه: ص١٩٣.
(٣) أبو العز، صفي الدين: معركة حطين، الإطار والنتائج: ص١٣٦، من كتاب: ٨٠٠ عام حطين وصلاح الدين والعقل العربي الموحَّد.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) يتحدث أرنول عن مروءة صلاح الدين في تعامله مع زوجات وبنات الفرسان في بيت المقدس.
Ernoul: pp174, 175. Besant, W and Palmer, E.H: Jerusalem the City of Herod and Saladin: p393.

ـ غدت بلاد الشام بعد الانتصار في حطين تحت رحمة صلاح الدين، فشرع بفتح سائر المدن والقلاع الصليبية واحدة بعد أخرى فتحاً سريعاً متواصلاً.

ـ أضاعت خسارة الصليبيين في حطين هيبة مملكة بيت المقدس وبخاصة بعد أسر ملكها جاي لوزينان.

ـ نتج عن المعركة نقص حاد في الفرسان المحاربين، بعد أن سقط معظم فرسان الصليبيين وغالبية جيش بيت المقدس بين قتلى وأسرى «فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل»[1].

ـ لقد وقف الغرب الأوروبي وبخاصة فرنسا، موقف الإعجاب والمدح لصلاح الدين حتى تحوَّل في المؤلفات الأدبية الأوروبية إلى ما يشبه الأسطورة التي خرجت عن إطار التاريخ الواقعي والموضوعي[2].

ـ سبق للصليبيين في الشرق أن تعرَّضوا للكوارث، إذ حدث من قبل أن قُتل بعض أُمرائهم كما وقع ملوكهم وأُمراؤهم في الأسر، غير أن آسريهم لم يكونوا وقتذاك سوى أُمراء صغار، لم يستهدفوا إلا إحراز بعض المكاسب، ونالتهم هزائم عسكرية ثقيلة، في حين جرت في قرون حطين إبادة أضخم جيش حشدته المملكة، وضاع صليب الصلبوت، كما أن المنتصر كان صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الإسلامي الشرقي.

ذيول معركة حطين

تمهيد

غدت المناطق الصليبية في بلاد الشام مكشوفة أمام صلاح الدين بعد معركة حطين، وأضحى الموقف العسكري شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس وإمارتي طرابلس وأنطاكية، إذ لم يبق أمامه بعد أن دمَّر أعداءه سوى أن يفتح حصون الأرض المقدسة، فشرع بفتح المدن والحصون الصليبية واحدة بعد أخرى فتحاً سريعاً ومتواصلاً مركِّزاً على الموانئ المهمة.

---

(١) ابن واصل: جـ٢ ص١٩٣.

(٢) دجاني: ص٣٢٦ ـ ٣٣٤. هيلنبراند، كارول: صلاح الدين، تطور أسطورة غربية، ص٩٦ ـ ١١٠، من كتاب ٨٠٠ عام حطين وصلاح الدين والعقل العربي الموحد. بوزيه، الأب لويس: السلطان صلاح الدين الأيوبي في التراث الفرنسي: ص٢٨٥ ـ ٣٠٦. بحث في مجلة دراسات إسلامية. المعهد العالي للدراسات الإسلامية، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، الموسم الثقافي (١٤١٤ ـ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥م) بيروت، لبنان.

والواقع أن عمليات الفتح، لم تكن حرباً بالمعنى العسكري المفهوم للكلمة، بل أشبه بنزهة عسكرية، إذ كانت المقاومة ضعيفة ما سهَّل للمسلمين الانتشار والتقدم، فكانت المدينة أو القلعة تسارع إلى الاستسلام بمجرد وصول المسلمين إليها، وذلك لعدم وجود قوة تدافع عنها، وإذا قاومت، فإن مقاومتها تبدو ضعيفة.

فتح طبرية

نزل صلاح الدين على طبرية في اليوم التالي للمعركة، فانتاب إسكيفا، زوجة ريموند الثالث، القلق بعد أن فقدت الأمل بوصول نجدة تساعدها، فاستسلمت لصلاح الدين، فعاملها بما يليق بها من الحفاوة والتشريف وأذن لها ولحاشيتها بالتوجُّه إلى طرابلس[١].

فتح عكا

اختار صلاح الدين بعد الانتصار في حطين أن يفتح المدن والحصون المجاورة قبل أن يتوجَّه إلى بيت المقدس ليحررها وذلك لتأمين خطوطه الخلفية، وبدأ بعكا فسار إليها يوم الأربعاء (٢٨ ربيع الآخر/٨ تموز).

والواقع أن اختياره يُعدُّ سليماً، وقد أظهر بذلك بُعد نظر في التفكير العسكري لأنه يُحقِّق للمسلمين هدفين:

الأول: إن فتح عكا ومدن الساحل أولاً، سوف يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بأوروبا، فيصبحون محصورين داخل البلاد فتتساقط عندئذ معاقلهم في الداخل.

الثاني: إن فتح عكا وغيرها من الموانئ سيُمكِّنه من تحقيق الاتصال البحري بين شطري دولته مصر وبلاد الشام، مع ما ينتج عن ذلك من تدعيم موقفه.

كان حاكم عكا جوسلين الثالث كورتناي أحد الأمراء الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين، ويبدو أنه كان عاجزاً عن المقاومة، فلم تكد مقدمة الجيش الأيوبي تقترب من المدينة حتى عرض الاستسلام مقابل المحافظة على حياة السكان وأمنهم، وقد أثار ذلك بعض سكان المدينة، لكن الفتنة لم تستمر طويلاً[٢].

ومن جهته، وافق صلاح الدين على عرض جوسلين، ودخل المدينة يوم الجمعة

---

(١) ابن شداد: ص١٣١. العماد الأصفهاني: ص٨٥.

(٢) يعقوب الفيتري: ص١٥٢. Estoire d'Eracles: II pp70, 71.

(مستهل جمادى الأولى/ ١٠ تموز)، واستولى المسلمون على ما فيها من الأموال والذخائر، وأطلقوا مَنْ بها من أسرى المسلمين وعددهم أربعة آلاف، وصلَّى صلاح الدين صلاة الجمعة في مسجدها القديم الذي حوَّله الصليبيون إلى كنيسة، ثم أقطعها لابنه الأفضل نور الدين علي(١).

أدرك صلاح الدين أهمية التواصل التجاري بين الشرق والغرب، وهو يأمل في إقناع تجار الجمهوريات التجارية الإيطالية بالبقاء فيها، غير أنهم خشوا من المستقبل وغادروها، علماً بأن عكا كان تعدُّ من أكبر المراكز التجارية في آسيا الغربية، واستولى المسلمون على المستودعات بما تحوي من السلع التجارية، مثل الحرير والمعادن والجواهر والأسلحة، وقد وزَّعها صلاح الدين على جنده(٢).

فتح مدن الجليل

أقام صلاح الدين بظاهر عكا وأرسل فرقه العسكرية لفتح المعاقل القريبة وكان ينجدها بنفسه في بعض الأحيان، ففُتحت سبسطية ونابلس وتبنين وهونين والناصرة وصفورية وقيسارية، وصمدت صفد وقلعة كوكب وحصن شقيف أرنون(٣).

وكان صلاح الدين قد وجَّه رسالة إلى أخيه العادل في مصر يُبشره بالنصر في حطين، ويأمره بالمسير من ناحيته لحصار ما يليه من المدن والحصون الصليبية، فهاجم حصن مجدل يابا الذي يقع بين يافا ونابلس وفتحه، ثم سار إلى يافا نفسها، فقاومته إلا أنها سقطت أخيراً في يده(٤).

فتح المدن الساحلية

وتحرَّك صلاح الدين على امتداد الساحل، فهاجم صور التي صمدت في وجهه فتجاوزها إلى غيرها من المدن، ففتح صرفند وصيدا وظهر أمام بيروت التي استسلمت في (٢٩ جمادى الأولى/ ٦ آب)(٥) كما استسلمت جبيل(٦)، ولم ينقض شهر (جمادى الآخرة/ آب) حتى لم يبق للصليبيين جنوبي طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة وبضع قلاع معزولة، بالإضافة إلى بيت المقدس.

---

(١) ابن شداد: ص١٣٢. العماد الأصفهاني: ص٨٩، ٩٠. ابن الأثير: جـ١ ص٢٨.

(٢) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه. (٣) المصدر نفسه: ص٩٣، ٩٤.

(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٩.

(٥) العماد الأصفهاني: ص١٠٢ ـ ١٠٧. يعقوب الڤيتري: ص١٥٢.

(٦) العماد الأصفهاني: ص١٠٨.

ويبدو أن صلاح الدين تخلّى عن حذره هذه المرة أيضاً عندما منح الصليبيين، بعد أن فتح المدن والحصون المشار إليها، حرية البقاء فيها أو الخروج منها، فذهب معظمهم إلى صور، وسرعان ما أدرك أن أمر هذه المدينة غدا صعباً، فتركها وآثر الانصراف إلى غيرها[1].

والحقيقة أن صور غدت مركزاً رئيساً للتجمع الصليبي، ومنطلقاً للفرق الصليبية العسكرية لاستعادة ما أمكن من المدن والحصون. والراجح أن صلاح الدين كان قد خطَّط لفتح بيت المقدس قبل صور، لذلك فإن عملية إرسال المقاتلين الصليبيين المغلوبين على أمرهم إلى هذه المدينة الأخيرة، كان من ضمن خطة عسكرية، الهدف منها إلهاء الصليبيين بعملية الانتقال وإبعادهم عن بيت المقدس لإضعاف مقاومة سكانها تمهيداً لفتحها.

فتح عسقلان

خرج صلاح الدين من صيدا قاصداً عسقلان، إذ رأى أن «أمرها أيسر»[2]، فظهر أمام أسوارها في (١٧ جمادى الآخرة/ ٢٤ آب)[3]، ويبدو أنه أدرك أن اقتحام المدينة سيغدو صعباً نظراً لاستحكاماتها المتينة وإصرار أهلها على المقاومة، لذلك اصطحب معه الملك جاي لوزينان ومقدم الداوية جيرارد، ووعدهما بإطلاق سراحهما إذا ساعداه بنفوذهما الأدبي والمعنوي على إقناع السكان بالاستسلام، لكن أهل عسقلان رفضوا الاستجابة لندائهما «وردُّوا عليها أقبح رد»[4]، عندئذ شدَّد المسلمون الحصار على المدينة واستبسل السكان في الدفاع عنها.

فتح صلاح الدين، في تلك الأثناء، الرملة ويبنا والداروم والنطرون وبيت جبرين، وهي القلاع التي كانت بحوزة الداوية في فلسطين[5].

وتمكَّن النقابون بعد عشرة أيام من الحصار من فتح ثغرة في أحد أسوارها فاضطر السكان إلى الخضوع، وطلبوا الأمان فمُنحوا إياه، وتقرر السماح لهم أن يغادروها على ألا يحملوا معهم سوى أمتعتهم، فسار بعضهم إلى بيت المقدس، واقتصر على العناصر غير المقاتلة تمشياً مع خطة صلاح الدين في إضعاف بيت المقدس عسكرياً، وغادر البعض الآخر إلى غربي أوروبا عن طريق الإسكندرية، وتولى الجيش الأيوبي حراستهم[6].

(١) ابن شداد: ص١٣٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٢.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) العماد الأصفهاني: ص١١٢ ـ ١١٥.
(٦) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٣. يعقوب الفيتري: ص١٥٢، ١٥٣.

وأطلق صلاح الدين سراح جيرارد مقدم الداوية مقابل ما أدَّاه من مساعدة، واحتفظ بالملك جاي لوزينان مسجوناً، فأعاده إلى نابلس وأرسل إلى زوجته سيبيلا في بيت المقدس يدعوها للحضور إلى نابلس والإقامة مع زوجها، إن شاءت، فرحَّبت بالعرض وقدمت إلى المدينة[١].

فتح بيت المقدس

تطلَّع صلاح الدين، بعد أن فرغ من فتح عسقلان والمدن المجاورة، إلى تحقيق هدفه الأسمى الذي طالما جال بخاطره وعمل له، وهو تحرير بيت المقدس تمهيداً لطرد الصليبيين من المنطقة، وحتى يقطع الطريق على احتمال هجوم صليبي بحري ضد الساحل الشامي، أرسل إلى قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطئ، وبذلك يكون قد ضمن حماية مؤخرة جيشه البري، وأقفل الحصار على المدينة المقدسة[٢].

وحاول صلاح الدين إجراء مفاوضات مع سكان بيت المقدس لتسليم المدينة سلماً، إذ كان حريصاً على عدم إراقة الدماء فوق أرضها المقدسة، فدعاهم إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة، ويبدو أن السكان أدركوا أنهم أضحوا محاصَرين، فأرسلوا إليه وفداً اجتمع به أمام عسقلان، غير أنه لم يحدث شيء من النقاش، ذلك أن صلاح الدين عرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الصليبية؛ أي أن يؤمِّنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، وأن يسمح لمن يشاء بالخروج من المدينة سالماً[٣]، لكن سكان بيت المقدس رفضوا أن يُسلِّموا المدينة وعاد وفدهم إليها، عندئذ أقسم صلاح الدين أنه سوف ينالها بحد السيف.

وحدث أن وصل باليان الإبليني إلى المدينة لإخراج أهله منها بعد أن أذن له صلاح الدين، فوجدها في حال مزرية، وقد انهارت معنويات سكانها لفناء محاربيهم في حطين، فناشدوه أن يمكث معهم ويتولى قيادتهم في الدفاع عنها، ولم يسمحوا له بالخروج.

وإذ قبل باليان بعد تردُّد، كتب إلى صلاح الدين يشرح له ظروف إقدامه على انتهاك اليمين التي بذلها، على أن صلاح الدين الذي اشتهر بالدماثة وحسن الخلق، تصرف مع مَنْ بداخل المدينة تصرفاً كريماً، فبالإضافة إلى عفوه عن باليان، سمح بخروج زوجته

---

(١) Estoire d'Eracles: II p79.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٣.

(٣) Grousset: II p809.

وأطفالها وحاشيتها مع أمتعتهم، وأرسل حرساً رافقها إلى صور، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين[1]، وكرّر عرضه على السكان التسليم بشروط طيبة، لكنهم أصرُّوا على موقفهم الرافض، فقرَّر عندئذ اقتحام المدينة عنوة.

وصل صلاح الدين إلى المدينة في (١٥ رجب ٥٨٣هـ/ ٢٠ أيلول ١١٨٧م) وعسكر أمام أسوارها، وقد نظَّم باليان أمر الدفاع عنها، وتوافر له ستون ألفاً بين فارس وراجل، ولكنهم افتقروا إلى الخبرة والتدريب نظراً لصغر سنهم، علماً بأنه نصَّب كل صبي تجاوز السادسة عشرة من عمره وانحدر من أصل نبيل، فارساً[2].

وضرب صلاح الدين المدينة بقذائف المنجنيق، وقاتل أهل بيت المقدس بحمية وكذلك المسلمون، وحدثت ثغرة في السور الشمالي نتيجة الضرب المتواصل راح النقَّابون المسلمون يوسِّعونها، ونفذ منها هؤلاء في (٢٤ رجب/ ٢٩ أيلول) إلى داخل المدينة على الرغم من بسالة المقاومة، ولما رأى السكان شدة القتال وشعروا بأنهم أشرفوا على الهلاك طلبوا الأمان، وأدى البطريرك هرقل دوراً في إقناع باليان بعدم جدوى المقاومة، فأرسلوا وفداً إلى صلاح الدين من أجل هذه الغاية واشترطوا احترام مَنْ في المدينة والسماح لمن يشاء بمغادرتها.

كانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين أن عرضها من قبل على باليان، لكنه رفض قبولها الآن، لأنه أوشك على فتح المدينة عنوة ،وقال: «لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها»[3]، وأصرَّ على إذعان المدينة بدون قيد أو شرط.

تجاه هذا الإصرار، وفي غمرة اليأس، لجأ باليان إلى أسلوب الترغيب والتهديد، وإذ أدرك صلاح الدين أن سلطته أضحت وطيدة، كان مستعداً لإبداء الليونة، وبعد أن استشار مجلس حربه في الموقف، تقرر ما يلي:

- السماح للصليبيين بمغادرة المدينة مقابل عشرة دنانير عن الرجل، يستوي فيها الغني والفقير، وخمسة دنانير عن المرأة وديناري عن الطفل، ومن يبقى فيها يقع في الأسر.
- يُدفع الفداء المفروض في مدى أربعين يوماً.
- من لم يؤد فداءه خلال تلك المدة يصبح مملوكاً[3].

لكن تبيَّن أن في المدينة نحو عشرين ألف فقير ليس بحوزتهم المبلغ المقرر

---

(١) Ernoul: pp174, 175. Estoire d'Eracles: II pp81-84.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥، ٣٦. العماد الأصفهاني: ص١٢٧، وقارن بابن شداد الذي يذكر أن فداء الطفل دينار واحد: ص١٣٥، ١٣٦.

للفداء، فوافق صلاح الدين أن يدفع باليان مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثين ألف دينار عن ثمانية عشر ألفاً منهم(١).

ودخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة في (٢٧ رجب/ ٢ تشرين الأول) وشاءت الظروف أن يصادف ذلك اليوم في التاريخ الهجري ذكرى ليلة الإسراء والمعراج، ووضع على أبواب المدينة أمناء من الأمراء ليأخذوا من الخارجين المال المقرر عليهم(٢).

ومن الأمور الملفتة ما حدث من طلب العادل من أخيه صلاح الدين أن يُطلق سراح ألف أسير من الفقراء على سبيل المكافأة عن خدماته له، مُظهراً بذلك تسامحاً كبيراً، فوهبهم له صلاح الدين، وإذ ابتهج البطريرك لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الفقراء ليطلق سراحهم، فاستجاب لطلبه، كما وهب باليان خمسمائة أسير، ثم أعلن أنه سوف يُطلِق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز، وذهب بعيداً عندما وعد هؤلاء النسوة بأن يُطلق سراح كل مَنْ في الأسر من أزواجهن، ومنح الأرامل واليتامى العطايا من خزائنه، كل واحد بحسب وضعه(٣).

الواقع أن عطف صلاح الدين وسماحته كانت على نقيض أفعال الصليبيين خلال الحملة الصليبية الأولى، ومع ذلك فقد وصل عدد الأسرى الذين استرقوا بسبب عجزهم عن دفع المال المقرر عليهم حوالي ستة عشر ألف أسير(٤).

وألحَّ عدد من المسلمين على صلاح الدين بتدمير كنيسة القيامة، ومعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا المسلمين به في السابق، فرفض ذلك وأشار إلى أن المسيحيين يُجلّون الموضع لا البناء، فما زالوا يؤدون الحج إليه، ولم يشأ أن يمنعهم من ذلك، وأمرهم باحترام الأماكن المسيحية المقدسة في المدينة والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين، مستشهداً بمواقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما فتح المدينة، فقد أقرَّهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان(٥).

ورتَّب صلاح الدين أمر ترحيل الذين افتدوا أنفسهم إلى صور، ثم عمل على محو الآثار المسيحية في المدينة، فأعاد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى سابق عهدهما، وأنزل الصليب الذهبي الكبير الذي أقامه الصليبيون في أعلى قبة الصخرة،

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٥، ٣٦. العماد الأصفهاني: ص١٢٨.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٥، ٣٦. ابن واصل: جـ٢ ص٢١٥.

(٣) Grousset: II pp821, 822.

(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٦. رنسيمان: جـ٢ ص٧٥٣.

(٥) العماد الأصفهاني: ص١٤٥، ١٤٦.

ثم دخل إلى المسجد الأقصى يوم الجمعة (٤ شعبان/ ٩ تشرين الأول) وصلى فيه، وشكر الله على توفيقه ونصره[١].

وظل المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة في بيت المقدس بشرط أن يدفعوا ضريبة الرأس فضلاً عن الفدية المتفق عليها، وأعفى الفقراء وغير القادرين من كل ذلك. ولا شك بأن هؤلاء استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك، إذ أُتيحت لهم الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم وهيبتهم على الأماكن المسيحية المقدسة، لكن صلاح الدين رفض أن يمنحهم حق الإشراف على كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية.

وأما اليهود، فقد ابتهجوا لطرد الصليبيين من بيت المقدس، وعاد عدد كبير منهم إلى المدينة، ولم يمنعهم صلاح الدين من الإقامة فيها[٢].

وهكذا، ففي مشارف حطين، وعلى أبواب بيت المقدس، انتقم صلاح الدين من الصليبيين على طريقته الخاصة لما حدث في الحرب الصليبية الأولى من المهانة والإذلال والمجازر، وأظهر كيف يحتفل القائد الشريف بانتصاره، وأثبت بالدليل القاطع ما لدى الشرق من قوة وروح كامنة مبرهناً على أنه كان أعظم شهم، ذا قلب كبير كفاتح في زمانه أو في أي عصر آخر[٣].

حصار صور

حقَّق صلاح الدين باسترداد بيت المقدس إنجازاً مهماً في طريق القضاء على الكيان الصليبي، غير أنه ما زال في أيدي الصليبيين مدن ينبغي فتحها، مثل صور وطرابلس وأنطاكية، فضلاً عن القلاع الداخلية التابعة لهم، مثل حصني الأكراد والمرقب، فقرَّر فتح صور قبل التوجُّه نحو الشمال، فزحف إليها يوم الجمعة (٩ رمضان/ ١٢ تشرين الثاني)، وحاصرها في (٢٢ رمضان/ ٢٥ تشرين الثاني)[٤]، وضربها بالمنجنيق، واستعمل مختلف أنواع الأسلحة لاقتحامها لكن من دون جدوى، فقد صمدت المدينة في وجه الضرب والهجمات الإسلامية، وتولى كونراد دي مونتفرات عملية المقاومة والدفاع عنها، وفشل صلاح الدين في حمله على الاستسلام عندما هدَّده بإعدام والده وليم الأسير في قبضته، فاضطر إلى رفع الحصار عنها في (٢٩ شوال ٥٨٣هـ/ ١ كانون الثاني ١١٨٨م)[٥]، وكان ذلك أول

---

(١) العماد الأصفهاني: ص١٣٧ ـ ١٤٤.

(٢) عاشور: جـ٢ ص٨٢٦، ٨٢٧. Grousset: II pp821, 822.

(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٧٦٥. لينبول: ص١٩٧.

(٤) ابن شداد: ص١٣٦، ١٣٧.

(٥) المصدر نفسه: ص١٣٨.

فشل يتعرض له في أعماله العسكرية ضد الصليبيين منذ معركة حطين.

والحقيقة أنه تضافرت عوامل عدة دفعت صلاح الدين إلى فك الحصار عن صور، لعل أهمها:

- كان الوضع النفسي للجند الأيوبي حرجاً بعد أن واجهته صعوبات في فتح المدينة، وأشار بعض قادته بأن العساكر بحاجة إلى الراحة.

- دعاه الأمراء الأغنياء والممولون للجيش إلى فك الحصار عن صور، لأنهم خشوا أن يقترض صلاح الدين منهم ما ينفقه على أفراد الجيش إذا استمر الحصار، في حين كان رأي صلاح الدين متفقاً مع رأي بعض قادته القاضي باستمرار مرابطة الجيش أمام صور، مع الاتجاه باقتراض الأموال من الأغنياء، لكن هؤلاء ألحوا عليه برفع الحصار.

- انفتاح صور على البحر بعد فشل الحصار البحري الذي نفَّذه الأسطول المصري، فاستمرت المؤن والأعتدة في الدخول إليها.

- تساهُل صلاح الدين مع صليبيي المدن المفتوحة والسماح لهم بالتجمع في صور، ما رفع معنويات هؤلاء فتكتَّلوا للدفاع عن المدينة.

- أدَّت العوامل الطبيعية دوراً آخر في فشل الحصار، إذ جاء شتاء ذلك العام مطيراً، والبرد شديداً، كما تفشَّى المرض في المعسكر الأيوبي[1].

والواضح أن ظروف الصراع حدَّدت مسار التحرك لصلاح الدين، وأن فك الحصار عن صور كان عملاً سليماً من الناحية العسكرية إنما يُعدُّ انعطافة مهمة في مسار انتصاراته التي بلغت الأوج.

فتح الكرك والشوبك

طلبت ستيفاني، صاحبة إقطاع ما وراء نهر الأردن، من صلاح الدين أن يُطلق سراح ابنها همفري صاحب تبنين. وافق صلاح الدين على طلبها لكنه اشترط مقابل ذلك تسليمه حصني الكرك والشوبك التابعين لهذا الإقطاع. وافقت ستيفاني على شرط صلاح الدين، فأفرج هذا الأخير عن ابنها في حين أوعزت هي إلى حاميتي الحصنين بالاستسلام، غير أنهما رفضتا ذلك ما دفعها إلى إعادة ابنها إلى الأسر. تجاه هذا التصرف النبيل بادلها صلاح الدين بتصرف أنبل، فأطلق سراح ابنها وحاصر الحصنين.

استمر حصار الكرك والشوبك ما يزيد على السنة، تعرَّض المدافعون عنهما إلى

---

(١) ابن شداد: ص١٣٨. العماد الأصفهاني: ص١٥٣ - ١٦٩. ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٠، ٤١.

الجوع والعطش، ولم يستسلموا إلا بعد أن نفدت ذخائرهم، وأكلوا دوابهم، ويئسوا من وصول نجدة تساعدهم على الصمود، «وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال»، وحصل ذلك في (ربيع الأول ٥٨٤هـ/ أيار ١١٨٨م)[١].

فتوح صلاح الدين في الشمال

بعد فتح المناطق الجنوبية لبلاد الشام واتصالها ببقية المناطق الإسلامية، من أيلة في العقبة في الجنوب حتى بيروت في الشمال باستثناء صور؛ التفت صلاح الدين إلى الشمال لفتح مناطق السيطرة الصليبية في إمارتي طرابلس وأنطاكية.

وكان ريموند الثالث صاحب طرابلس قد توفي كمداً بعد فراره من معركة حطين بوقت قصير، ولم يُنجب ذرية، فأوصى بأن يخلفه الابن الأكبر لبوهيموند الثالث أمير أنطاكية، ولكن هذه الأخير كان بحاجة إلى ابنه البكر إلى جانبه للدفاع عن الإمارة، لذلك استبدله بابن آخر هو بوهيموند[٢].

اجتاح صلاح الدين البقيعة بعد أن جاءته إمدادات من سنجار وهاجم حصن الأكراد في (ربيع الآخر/ حزيران) وكان بحوزة الداوية، لكنه جوبه بقوة استحكاماته ومناعته، فتجاوزه إلى الشاطئ، فهاجم أنطرطوس في (جمادى الأولى/ تموز) ودخلها لكن استعصت عليه القلعة، «فأمر بوضع النار في البلد وأحرق جميعه»[٣].

وحاصر صلاح الدين حصن المرقب، فامتنع عليه، فتوجَّه إلى بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس وفتحها، ثم أوغل في أراضي إمارة أنطاكية فأذعنت له القلعة الساحلية جبلة واستسلمت اللاذقية، وهي أكبر موانئ إمارة أنطاكية، وفتح حصن بكسرائيل الواقع على طريق حماة مقابل جبلة[٤].

انتقل صلاح الدين بعد ذلك إلى الداخل، ففتح قلعة صهيون التابعة للأسبتارية، واستسلمت له حاميتا بكاس والشغر، الواقعتان في الشمال الغربي على نهر العاصي، وسرمين وبرزية، وهي آخر ما يقع من القلاع في أقصى الجنوب من نهر العاصي[٥].

وتمت لصلاح الدين بهذه الفتوح السيطرة على جميع المخافر الأمامية لمدينة

---

(١) ابن واصل: جـ٢ ص٢٧١.

(٢) ابن شداد: ص١٢٩. رنسيمان: جـ٢ ص٧٥٩ .Estoire d'Eracles: II p72

(٣) ابن شداد: ص١٤٣، ١٤٤. يصف ابن شداد فتوح المدن الساحلية والداخلية بوصفه شاهد عيان لأنه رافق صلاح الدين في حملاته هذه.

(٤) المصدر نفسه: ص١٤٠، ١٤٤ ـ ١٤٦.

(٥) المصدر نفسه: ص١٤٧ ـ ١٤٩. العماد الأصفهاني: ص٢٤٥ ـ ٢٥٤.

أنطاكية، ولم يبق من حصون تابعة لهذه الإمارة سوى بغراس ودربساك في الشمال وهما تحت حكم الداوية، فهاجمهما صلاح الدين فاستسلم الأول وأذعن الثاني[1].

وهكذا أضحت إمارتا طرابلس وأنطاكية مقصوصتي الجناح، ولم يبق سوى مدينتي طرابلس وأنطاكية فضلاً عن ميناء السويدية، واحتفظ الأسبتارية بحصني المرقب والأكراد كما احتفظ الداوية بأنطرسوس.

نتيجة لما آلت إليه أوضاع إمارة أنطاكية، التمس بوهيموند الثالث من صلاح الدين عقد هدنة يعترف فيها بفتوحه كلها، وكانت العساكر الإسلامية قد أصابها الإرهاق بفعل القتال المتنقِّل والمتواصل، لذلك وافق على التماسه، وعُقدت الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر[2].

العودة مجدداً إلى الجنوب

أتاحت هذه الهدنة لصلاح الدين الالتفات مجدداً نحو الجنوب، وبعد أن سرَّح قسماً من جيشه هاجم حصني الداوية في صفد والأسبتارية في كوكب، وفتحهما في شهري (شوال وذي القعدة ٥٨٤هـ/ كانون الأول ١١٨٨م وكانون الثاني ١١٨٩م)[3].

(١) ابن شداد: ص١٥٠، ١٥١.

(٢) العماد الأصفهاني: ص٢٦٠، ٢٦١. ابن الأثير: جـ١٠ ص٥٨ ـ ٦٠.

(٣) ابن شداد: ص١٥٢ ـ ١٥٤.

الفَصْل الثاني وَالعشرُون

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

الصليبيون يستغيثون بالغرب الأوروبي

ما كاد القتال ينتهي في حطين وتتحقَّق خسارة الصليبيين حتى أسرعت الرسل إلى غربي أوروبا لإعلام ملوكها وأُمرائها بما آلت إليه أوضاعهم في الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسل آخرون عقب فتح بيت المقدس.

والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أثارا رد فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي ذُعر لنبأ الكارثتين، واعتقد المسيحيون في الغرب بأنهما تحقَّقا نتيجة إهمالهم في عدم الاستجابة للاستغاثات المتكررة التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السنوات الأخيرة.

وأدرك مَنْ اجتمع في مدينة صور من الصليبيين أنه ما لم تصل إليهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بصور ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي فقدوها، ولم يلبث كونراد دي مونتفرات أن أرسل جوسياس، رئيس أساقفة صور، إلى غربي أوروبا في (منتصف ٥٨٣هـ/ أواخر صيف ١١٨٧م) ليطلب من البابا وملوك أوروبا وأمرائها، النجدة العاجلة(١).

وصل جوسياس إلى صقلية، واجتمع بملكها وليم الثاني الذي استجاب لهذه الدعوة، بعد أن راعه ما سمع منه من أنباء الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في الشرق، ولما كان في حال حرب مع بيزنطية، فقد عقد صلحاً مع الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس في (محرم ٥٨٤هـ/ آذار ١١٨٨م) ليتفرَّغ للقضية الصليبية، ثم أرسل أسطولاً يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس بقيادة أمير البحر الصقلي مرغريت البرنديزي، وقد نجح في منع صلاح الدين من فتح طرابلس(٢).

---

(١) مؤرخ مجهول: الحرب الصليبية الثالثة: صلاح الدين وريتشارد: جـ١ ص٥٤. ترجمة وتحقيق حسن حبشي. الراجح أن هذا المؤرخ هو فارس رافق الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد في حملته إلى الشرق وكتب وصفاً لها.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٩ ـ ٥١. Ernoul: pp247, 248. Estoire d'Eracles: II pp119, 120.
ابن الأثير: جـ١٠ ص٥٠.

وانتقل جوسياس بعد ذلك من صقلية إلى روما ورافقته بعثة صقلية، فاجتمع مع البابا أوربان الثالث وشرح له حقيقة وضع الصليبيين في بلاد الشام، فلم يتحمل البابا الصدمة وتوفي كمداً في (١٤ شعبان ٥٨٣هـ/ ١٩ تشرين الأول ١١٨٧م)، على أن خليفته غريغوري الثامن بادر على الفور بالاتصال بملكي إنكلترا هنري الثاني وفرنسا فيليب أغسطس وامبراطور ألمانيا فريدريك بربروسا، يستحثهم على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات، ويُعبئوا قواهم لمحاربة المسلمين[١].

وإذا كان البابا غريغوري الثامن قد توفي هو الآخر في (١٣ شوال/ ١٧ كانون الأول) قبل أن يرى ثمرة جهوده، فإن خليفته كليمنت الثالث (٥٨٣ ـ ٥٨٧هـ/ ١١٨٧ ـ ١١٩١م) أسرع بالاتصال بالامبراطور الألماني وأقنعه بالاشتراك في حملة صليبية تتوجَّه إلى الشرق.

حدث هذا في الوقت الذي انتقل فيه جوسياس إلى الغرب لمقابلة ملكي إنكلترا وفرنسا، فاجتمع بهما في جيسور على الحدود بين نورمانديا وفرنسا، وأقنعهما بتناسي خلافاتهما التي كانت حادَّة[٢]، وشجَّعهما على عقد الصلح والاشتراك معاً في حملة صليبية، ومع ذلك، فإنهما تباطآ في التنفيذ، وتجدَّدت الحرب بينهما، ثم توفي هنري الثاني في عام (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد دوق بواتو، فعقد صلحاً مع الملك الفرنسي، وتجهَّز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق[٣].

الامبراطور الألماني فريدريك بربروسا في طريقه إلى الشرق

التقارب بين صلاح الدين وإسحاق الثاني أنجيلوس

حافظ الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس (٥٨١ ـ ٥٩١هـ/ ١١٨٥ ـ ١١٩٥م) على سياسة التقارب مع صلاح الدين، التي بدأها سلفه أندرونيقوس كومنين، وذلك ليواجه أعداء دولته في اتجاهين متباعدين، النورمان في صقلية الذين

---

(١) يعقوب الڤيتري: ص١٥٨.

(٢) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص١٨٣. ظل العداء يسود العلاقات بين إنكلترا وفرنسا منذ الفتح النورماني لإنكلترا في عام ١٠٦٦م؛ ذلك أن ملوك إنكلترا النورمان احتفظوا بأملاكهم الواسعة في غربي فرنسا، ووجد ملوك فرنسا في تلك الممتلكات الإنكليزية على حدود أراضيهم الغربية خطراً عظيماً هدَّد وحدة بلادهم وكيانها، وحال دون وصول الدولة الفرنسية إلى حدودها الطبيعية وهي المحيط الأطلسي غرباً وجبال البيرينييه جنوباً ونهر الراين وجبال الألب شرقاً، وقد أُطلق على المرحلة الأخيرة من هذا الصراع (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣م) بحرب المائة عام.

(٣) يعقوب الڤيتري: ص١٥٨، ١٥٩. رنسيمان: جـ٣ ص٢١ ـ ٢٩. Archer: The Crusades: p307. Besant: p405.

هدَّدوا العاصمة القسطنطينية، والصليبيين في بلاد الشام، والسلاجقة في آسيا الصغرى، فأقرَّ المعاهدة التي أعدَّها سلفه بعد أن عدَّل صلاح الدين بعض بنودها.

وجزع الصليبيون في الشرق عندما علموا بأنباء هذا التفاهم، فعمد ريموند الثالث كونت طرابلس إلى إلقاء القبض على ألكسيوس أخي الامبراطور، وكان في طريقه من دمشق إلى القسطنطينية، وكان ينزل ضيفاً على صلاح الدين، وذلك أثناء مروره بعكا في عام (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م)؛ وسجنه(١).

وعندما علم الامبراطور بذلك حثَّ صلاح الدين على مهاجمة الأملاك الصليبية، والضغط على الصليبيين لإطلاق سراح أخيه(٢)، وهاجم الأملاك الصليبية في قبرص كي يُخفِّف الضغط عن صلاح الدين، غير أن القوات البيزنطية تعرَّضت للهزيمة، كما جرى تدمير الأسطول البيزنطي.

وهاجم صلاح الدين، في تلك الأثناء، مملكة بيت المقدس، وقد فُسِّر ذلك على أنه بسبب تشجيع إسحاق الثاني أنجيلوس. والحقيقة أن صلاح الدين كان يتحرك من ضمن سياسة إسلامية عامة وينتهز الفرص للانقضاض على الصليبيين، ولم تكن لصداقته مع الامبراطور البيزنطي أي صلة بالهجوم عليه إلا من ناحية واحدة غير مباشرة تتمثل باستعداد الأرثوذكس في بيت المقدس تسليم المدينة له، وفتح صلاح الدين آنذاك بيت المقدس والمدن الساحلية وأطلق سراح ألكسيوس الذي عاد إلى القسطنطينية.

الامبراطور الألماني يتجهَّز للمسير إلى الشرق

كان الامبراطور الألماني فريدريك بربروسا الأسرع إلى المسير، فغادر أوروبا الغربية في (ربيع الآخر ٥٨٥هـ/ أيار ١١٨٩م) متوجهاً إلى الشرق، واصطحب معه ثاني أبنائه فريدريك أمير سوابيا، وأرسل قبل انطلاقه رسائل إلى الملوك والأمراء الذين سوف يجتاز بلادهم، يخطرهم بعزمه على القيام بحملة صليبية إلى فلسطين ويطلب منهم مساعدته في اجتياز بلادهم، فكتب إلى بيلا ملك المجر، وإسحاق الثاني أنجيلوس الامبراطور البيزنطي، وقلج أرسلان الثاني السلطان السلجوقي، كما أرسل إلى صلاح الدين رسالة مفعمة بالخيلاء والمباهاة يطلب منه أن يُعيد كامل فلسطين إلى الصليبيين(٣).

---

(١) Brand, Ch, N: The Byzantine and Saladin Opponent of the Crusade: p167.

Ostrogorsky: p199.

(٢) Brand: pp169, 170.

(٣) انظر نص كتاب الامبراطور إلى صلاح الدين عند مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٥٨ ـ ٦٠.

وصلت رسالة فريدريك بربروسا إلى السلطان السلجوقي في الوقت الذي كان يضع فيه اللمسات الأخيرة لتقسيم السلطنة على أولاده، فردَّ عليه يعده بالمساعدة، وكذلك فعل ملك المجر.

واتبع الامبراطور البيزنطي سياسة مزدوجة، فقد أرسل بعثة بيزنطية إلى ألمانيا لإعداد التدابير اللازمة لاجتياز الحملة الأراضي البيزنطية، وأدَّت مخاوفه في الوقت نفسه، إلى السعي للتحالف مع صلاح الدين ضد الامبراطور الألماني والسلطان السلجوقي، فتعهَّد له أن لا يُمكِّن الصليبيين من العبور إلى بلاده في حين تعهَّد صلاح الدين بوضع الأماكن المسيحية المقدسة في بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس.

واتسم رد صلاح الدين بالدماثة، إذ عرض على الامبراطور الألماني أن يُطلق سراح أسرى الصليبيين ويعيد الأديرة اللاتينية في فلسطين إلى أصحابها، ولا شيء غير ذلك(١).

المفاوضات الأيوبية ـ البيزنطية بشأن حملة الامبراطور الألماني

أرسل صلاح الدين، بعد انتصاره على الصليبيين، رسالة إلى الامبرطور البيزنطي تحمل الهدايا، ويخبره بما أصاب من نجاح، فاستضاف الامبراطور الرسل في قصر وسط العاصمة، وجدَّد تحالفه مع صلاح الدين(٢)، وردَّ على رسالته برسالة مماثلة وبهدايا. استقبل صلاح الدين الرسولين البيزنطيين في (ذي القعدة ٥٨٣هـ/ كانون الثاني ١١٨٨م) بعد أيام من رفع الحصار عن صور، بحضور أبنائه وأمرائه وموظفيه. وأشاد إسحاق الثاني أنجيلوس في رسالته لصلاح الدين بما أجراه من إطلاق سراح أخيه، وأعرب عن امتنانه، وسأل صلاح الدين الرسولين عن أحوال الامبراطورية، ولعل أهم خبر حملته البعثة الإشارة إلى ما حدث في الغرب الأوروبي من الدعوة إلى حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس(٣).

ويبدو أن صلاح الدين تلقَّى أنباء، من جهات أخرى، عن احتشاد الحملة الألمانية الصليبية، ما أزعجه وأقلق إسحاق الثاني أنجيلوس، ودفعتهما هذه التطورات إلى توثيق علاقتهما لمواجهة الموقف المتجدد، وقد أراد صلاح الدين أن يضمن مساعدة إسحاق الثاني أنجيلوس أثناء اجتياز الحملة بلاده التي تعد ممراً طبيعياً للحملات الصليبية البرية، لذلك أرسل مع السفارة البيزنطية عند عودتها،

---

(١) انظر نص رد صلاح الدين عند مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٦٠ ـ ٦٣.

(٢) ابن واصل: جـ٢ ص٢٤٧.

(٣) Brand: p171. Grousset: III p13.

سفارة من قِبَله عهد إليها إجراء مفاوضات مع الامبراطور البيزنطي بشأن قيام تحالف عسكري بين الدولتين الأيوبية والبيزنطية للتصدي للغزو الصليبي، وكان من بين الهدايا، التي أرسلها صلاح الدين إلى إسحاق الثاني أنجيلوس، منبر لوضعه في مسجد القسطنطينية، مع اهتمامه بعمارته والمحافظة على الشعائر الإسلامية في العاصمة البيزنطية، وأبدى الامبراطور البيزنطي من جانبه رغبة في مراعاة الشعائر اليونانية في كنائس فلسطين(١).

الامبراطور الألماني في القسطنطينية

تجمَّعت الحملة الألمانية البالغ تعدادها مائتي ألف جندي في مدينة مينز قبل أن تنطلق منها إلى الشرق عبر بلاد المجر وعلى رأسها الامبراطور، فاستقبله بيلا ملك المجر بالترحاب. ولم يكد هذا الجيش يعبر نهر الدانوب حتى تعرَّض أفراده للمضايقات من جانب البلغار والبشناق والهون والألَّان(٢)، ولم يدرك فريدريك بربروسا أن إسحاق الثاني أنجيلوس ليس له حول ولا قوة لمنع هذه الاعتداءات. ومن جهته، ارتاب الامبراطور البيزنطي في نوايا الزعيم الألماني، ويبدو أنه خشي أن تتعرَّض عاصمته لاعتداءات الصليبيين الألمان انتقاماً لما سبق أن وجهه الامبراطور البيزنطي مانويل من إهانات عديدة لبربروسا، ولما جرى من مذبحة اللاتين في القسطنطينية في عام (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)، في الوقت الذي لا يستطيع فيه صلاح الدين أن يُقدِّم له مساعدة فعَّالة بسبب بُعد المسافة وانهماكه في التحضير لمواجهة الحملة الصليبية، فالسفيران اللذان سبق أن أرسلهما إلى فريدريك بربروسا أثاراه ضده، غير أن الأحداث جرت في بادئ الأمر على نحو طيب، ولم تتوتر العلاقات إلا عندما احتل فريدريك بربروسا مدينة فيليبوليس، وأرسل منها الرسل إلى القسطنطينية برئاسة أسقف موناستير لتنظيم أمر انتقال عساكره إلى آسيا الصغرى، إذ تخلَّى إسحاق في هذه الآونة عما اشتهر به من إدراك سليم، وألقى الرسل في السجن بهدف اتخاذهم رهائن تكفل حسن السلوك من جانب الألمان أثناء اجتيازهم أراضيه، وصادر خيولهم وأمتعتهم ومنحها لأعضاء السفارة الأيوبية الذين كانوا آنذاك ما يزالون في القسطنطينية، غير أنه لم يسعه وسط تهديد الألمان إلا أن يتنازل فيطلق سراح أعضاء السفارة الألمانية. وانعقد الصلح أخيراً بينه وبين الامبراطور الألماني، تعهد بموجبه بتزويده بالسفن إذا اجتاز الألمان الدردنيل لا البوسفور، وبذْل المؤن

---

(١) Brand: pp171, 172.

(٢) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٦٣ ـ ٦٦.

أثناء اجتيازهم الأناضول[١].

الامبراطور الألماني يجتاز الأناضول إلى كيليكية

واجتازت الحملة الألمانية الدردنيل بمساعدة السفن البيزنطية، وسلك الامبراطور الألماني، بعد أن عبر إلى الشاطئ الآسيوي، الطريق المؤدي إلى لاذيق عبر قلاموس وفيلادلفيا، فوصل إليها بعد ثلاثين يوماً، ومن لاذيق نفذ إلى الداخل باتجاه الشرق بعد أن سلك الطريق إلى العاصمة السلجوقية قونية، الذي يمر في ميريوكيفالون عبر أنطاكية بسيديا، فدخل بذلك الأراضي التي يسيطر عليها السلطان قلج أرسلان الثاني[٢].

الواضح أن السلطان قلج أرسلان الثاني، الذي كان يعاني آنذاك من متاعب شديدة من جانب أبنائه الذين قسَّم ملكه بينهم، بالإضافة إلى ما كان يتعرَّض له من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين وإسحاق الثاني أنجيلوس؛ رأى في الصليبيين الألمان حلفاء طبيعيين ضد العدو المشترك، لكنه لم يشأ أن يظهر أمام المسلمين كما لو أنه يساعد الصليبيين، لذلك غضَّ الطرف عن اعتداءات التركمان أثناء تقدم الجيش الألماني واجتيازه مكان معركة ميريوكيفالون في وادي نهر المياندر، وقد سبَّبت الإنهاك للجنود، كما أنهم تعرَّضوا للمجاعة والظمأ وتناقص علف الدواب بعد أن أحرق السلاجقة المحصولات الزراعية والمؤن، وسمَّموا الآبار كي لا يستفيد الصليبيون منها، وزادت وعورة الطريق الجبلي من معاناتهم، بالإضافة إلى ذلك، فإن القوات السلجوقية النظامية راحت تطوف بأطراف الجيش الألماني تخطف الشاردين، وتعترض طريق الذين يسعون للمؤونة[٣].

سبَّبت خطة السلطان السلجوقي الكوارث للجيش الألماني، ومع ذلك فقد واصل أفراده زحفهم باتجاه قونية، في حين انسحب السلطان مع قواته من أمامهم، ووصلوا إلى عاصمة السلاجقة في (ربيع الآخر ٥٨٦هـ/ أيار ١١٩٠م) وهم منهكون، وتحصَّن السلطان السلجوقي في القلعة تفادياً لحدوث معركة سافرة غير مستعد لها، لكن ابنه قطب الدين ملكشاه خرج على رأس قوة عسكرية وهاجم الجيش الألماني أمام أسوار المدينة، إلا أنه لم يتمكَّن من الصمود واضطر إلى الانسحاب تحت ضغط القتال وعاد إلى المدينة، واستطاع الامبراطور فريدريك بربروسا أن يشق له طريقاً

(١) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٦٩ ـ ٧١.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٢، ٧٣. Oman: I p249.

(٣) المصدر نفسه: ص٧٤، ٧٥. ابن واصل: جـ٢ ص٣١٨. Ibid.

إلى داخلها، فهاجمها وأحرق أسواقها[1].

مكث الامبراطور الألماني مدة خمسة أيام في قونية بعث خلالها بهدية إلى السلطان، وقال له: «ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما أردنا البيت المقدس»، وطلب منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاج إليه الجيش من قوت وغيره «فأذن لهم وأعطاهم ما يريدون حتى اكتفوا وتزوَّدوا لرحلتهم»، كما طلب من قطب الدين ملكشاه التوقف عن مضايقة جيشه[2].

وجرت بين العاهلين مباحثات سياسية تمخَّضت عن تعهد السلطان قلج أرسلان الثاني بتأمين طريق الألمان إلى بلاد الشام عبر كيليكية وإمدادهم بالأدلَّاء لإرشادهم، وحتى لا ينكث الأتراك بما تعهدوا به، طلب الامبراطور منهم بعض الرهائن، فسلَّموهم نيفاً وعشرين أسيراً، فساروا جميعاً باتجاه أرمينية الصغرى[3].

نهاية الامبراطور الألماني

وفي الوقت الذي عقد فيه إسحاق الثاني أنجيلوس الصلح مع فريدريك بربروسا وسمح له باجتياز بلاده، كتب إلى صلاح الدين يعتذر عن السماح للجيش الألماني بعبور بلاده ويُعلمه بأنه لن يستطيع القتال إذا وصل إلى بلاد الشام، لأن ما تعرَّض له من متاعب أثناء اجتيازه آسيا الصغرى، وما تعرَّضت له قواته من النقص؛ أضعفه وأقلقه[4].

وعندما غادر الجيش الألماني قونية، تلقَّى صلاح الدين تقارير عن سيره، كان من بينها الرسالة الواردة من أسقف أرمينية الصغرى وصاحب قلعة الروم على الفرات، فاتضح له أن ما زعمه إسحاق الثاني أنجيلوس في رسالته الأخيرة عن تدمير الجيش الألماني هو من قبيل الوهم وطمس الحقائق[5]. أثار زحف الجيش الألماني الهلع في نفوس المسلمين فبادر صلاح الدين إلى إعلان الدعوة للجهاد، وطلب المساعدة من أمراء سنجار والموصل وإربل وبغداد، وقد بلغ الرعب في صفوف المسلمين بفعل اقتراب الجيش الألماني من أبواب بلاد الشام، فأخلوا حصن بغراس في شمالي الإسكندرونة، وتحدَّث المؤرخون المسلمون عن الجموع الألمانية بعبارات تفيد اليأس من الاحتفاظ ببلاد الشام[6].

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٨١. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٧٦، ٧٧.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه. أبو شامة: جـ٣ ص١٥٤ ـ ١٥٦. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٧٩.
(٤) ابن شداد: ص٢٠٢. (٥) المصدر نفسه: ص١٩١، ١٩٢.
(٦) ابن الأثير: جـ١٠ ص٨٣. أبو الفداء: جـ٢ ص١٦٤.

على أنه حدث ما قلب الأوضاع رأساً على عقب، إذ لم يُقدَّر للامبراطور فريدريك بربروسا أن يصل إلى بلاد الشام لأن القدر حال بينه وبين ذلك، إذ عندما وصل إلى سهل سلوقية[1] في (٤ جمادى الأولى ٥٨٦هـ/ ١٠ حزيران ١١٩٠م) وتجهَّز لعبور نهر كاليكادنوس[2] ليدخل إلى مدينة طرسوس، نزل إلى حافة النهر، وما حدث عندئذ ليس معروفاً على وجه التأكيد، فإما أن يكون الامبراطور قد وثب عن حصانه إلى الماء البارد ليستعيد نشاطه، ولكن تيار النهر فاق بالقوة ما كان يتقده، وإما أن جسمه الهرم لم يستطع مقاومة الصدمة المفاجئة، أو زلَّت قدم فرسه فقذف به إلى الماء فغرق بسبب ثقل أسلحته، وانتشل الجيش جثته، وتلى ذلك تفرُّق أفراده[3].

شكَّلت وفاة الامبراطور الألماني صدمة لأتباعه وللصليبيين في الشرق، إذ أن أنباء قدومه على رأس جيش ضخم زاد في رفع الروح المعنوية عند الفرسان الذين يقاتلون على الساحل الشامي، وكان جيشه وحده كافٍ لرد المسلمين، فإذا اجتمع هذا الجيش مع الجيشين الإنكليزي والفرنسي، فإنه من المحقَّق أن يسترد الصليبيون ما فقدوه منَ مدن ومعاقل، وقد خشي صلاح الدين فعلاً من اجتماع هذه الجيوش، ولم يلبث أن أبدى فرحه وارتياحه عندما علم بوفاة الامبراطور الألماني، كما هلَّل المسلمون لغرقه[4].

تابع فريدريك السوابي ومن معه زحفهم إلى عكا في ظل تناقص عددهم نظراً لعودة الكثير إلى بلادهم وتعرضهم لهجمات المسلمين وبخاصة أهالي حلب، كما فتك المرض بكثير منهم، ولم يصل إلى عكا في (رمضان/ تشرين الأول) سوى ألف مقاتل[5]، وكانت المدينة تتعرَّض آنذاك لحصار صليبي، فشارك الألمان في هذا الحصار، إنما يمكن القول بأن الحملة الألمانية زال خطرها على المسلمين منذ أن تشتَّت أفرادها بعد وفاة ملكهم.

الصليبيون يحاصرون عكا

لم يهنأ صلاح الدين بفتح عكا أكثر من عامين، فسرعان ما استجمع الصليبيون

(١) كانت سلوقية تدعى سلفكة في العهد السلجوقي.

(٢) هو نهر البردان، ويُدعى أيضاً بالسالف نسبة إلى مدينة سلفكة، ينبع من شمال طرسوس ويُعرف بالأقرع، ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

(٣) العماد الأصفهاني: ص٣٩٠، ٣٩١. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٨٠ ـ ٨٢.

(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص٧٠. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٨٤، ٨٥.

(٥) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ١ ص٨٣، ٨٤.

صفوفهم وتوجَّهوا نحو هذه المدينة للاستيلاء عليها بسرعة بعد فشل صلاح الدين في فتح صور.

والواقع أنه لم يكن أمام الصليبيين في الشرق سوى الاعتماد على أنفسهم وعلى ما عساه يصل إليهم من جموع صليبية صغيرة ومتفرقة بعد فشل الجيش الألماني؛ وتأخُّر وصول الجيشين الإنكليزي والفرنسي. ولم تلبث أن ارتفعت معنوياتهم بعد إطلاق سراح بعض زعمائهم وعلى رأسهم الملك جاي لوزينان، علماً بأن صلاح الدين أفرج عنه بعد أن تعهَّد له بألا يُشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه طليقاً أبداً[١].

والتفَّ حول الملك الصليبي جماعة من الفرسان والمتطوعين البيازنة، فسار بهم إلى صور آملاً في أن يتولى زعامة القوات الصليبية، وخطَّط لاسترداد المدن المفقودة ناقضاً بذلك عهده مع صلاح الدين، وبذلك تحول الصليبيون من الدفاع إلى الهجوم.

ويبدو أن صلاح الدين استفاد نظرياً من إطلاق سراح جاي لوزينان بفعل ما ترتَّب على هذه الخطوة من اشتداد حدة النزاعات بين صفوف الصليبيين، وبخاصة بين الملك وبين كونراد دي مونتفرات الذي أغلق أبواب مدينة صور في وجه الملك عندما وصل إليها في (الأول من رجب ٥٨٥هـ/ ١٥ آب ١١٨٩م) ورفض السماح له بدخولها بحجة أنه خسر مملكته في حطين، وتركها وهو في الأسر من دون حكومة، وكادت تضيع كلها لولا تدخله هو، وعلى أي حال، فإنه يحكم صور نيابة عن الملوك الصليبيين القادمين لإنقاذ المملكة، الذين عليهم أن يُقرروا أيهما ينبغي أن يُعهد إليه بأمر الحكومة[٢].

لكن الواضح أن الاستفادة العملية كانت معدومة لأن جاي لوزينان ما لبث في الشهر التالي أن رفع معسكره من أمام صور وشرع في المسير باتجاه الجنوب إلى عكا مصطحباً معه نحو مائة فارس.

عند هذه المرحلة من الجهاد الإسلامي، واجهت صلاح الدين تجربة بالغة الشدة، إذ تحتَّم عليه أن يبقى مع جنده في أعمال عسكرية مستمرة وفي ظروف غير عادية، وتحوَّل من الهجوم إلى الدفاع في الوقت الذي أخذ فيه الصليبيون يستعيدون نشاطهم، متزامناً ذلك مع وصول طلائع الحملة الصليبية الثالثة التي تُعدُّ من أخطر الحملات الصليبية السابقة واللاحقة، ويتضح ذلك عندما وصلت قوة الجيش الأيوبي العسكرية إلى الذروة بعد الانتصار في حطين لتتراجع بعد ذلك، حتى أضحى لا

(١) ابن شداد: ص١٥٥، ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ص١٥٦.

يقوى على الانتصار على الصليبيين لا سيما في صور، وكذلك في طرابلس وأنطاكية، غير أن صلاح الدين لم يكن باستطاعته أن يتفرَّغ للدفاع عن عكا وحدها، إذ اضطر أن يُوزِّع قواته على أنحاء متفرقة من البلاد للدفاع والمراقبة.

والراجح أن هذا التحول جاء نتيجة عدم كفاية الإمدادات التي تلقَّاها صلاح الدين من الإمارات التابعة له، وهي أقل عدداً واندفاعاً من قوات الصليبيين التي بلغ تعدادها مجتمعة حوالي عشرين ألفاً، بالإضافة إلى تنظيم صفوف هؤلاء بعد تفاهم كونراد دي مونتفرات مع جاي لوزينان ما أتاح لهم فرصة ذهبية للزحف إلى عكا، فوصلوا إليها في (١٠ رجب/ ٢٤ آب) وسيطروا على المناطق المحيطة بها حتى لم يبق للمسلمين إليها طريق[١].

كان صلاح الدين آنذاك يحاصر قلعة شقيف أرنون، وعندما جاءته الأنباء بزحف جاي لوزينان إلى عكا ترك قسماً من جيشه على حصار القلعة، وتقدم بالقسم الآخر باتجاه الصليبيين، وكان يأمل بمهاجمتهم أثناء زحفهم من صور إلى عكا عند رأس الناقورة، لكن مجلس حربه لم يوافق، وأشار أمراؤه عليه أن يتركهم حتى يبلغوا عكا، فيقعون عندئذ بين فكي الكماشة، الجيش الإسلامي من الخارج وحامية المدينة من الداخل[٢].

عسكر الصليبيون في التلال القريبة من عكا، وحفروا خندقاً حول معسكرهم كما أقاموا سوراً ترابياً وراء الخندق، فحشروا أنفسهم بينه وبين أسوار المدينة، وانحصر اتصالهم بالعالم الخارجي عن طريق البحر فقط[٣]. ونزل صلاح الدين على تل كيسان الواقع إلى الشرق من عكا وعلى مروجها، وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى النهر الجاري، وانزل الأحمال في صفورية، فأحاط بذلك بالصليبيين المحيطين بعكا، فكان هناك حصار على حصار[٤].

وقام جاي لوزينان بعد ثلاثة أيام من وصوله بأول محاولة لاقتحام المدينة، لكنه فشل، فتريَّث بعدئذ بانتظار قدوم الإمدادات من الغرب الأوروبي التي بدأت طلائعها تصل في (شعبان/أيلول). وكُتب لهذه البقعة أن تشهد قتالاً شديداً يُعدُّ من أعظم ما نشب في تاريخ القرون الوسطى ومن أروعها، وأشهرها إثارة في تاريخ الشرق والغرب، تكررت خلالها الصدامات بين الطرفين حتى كادت تتحول إلى عمل يومي، واتخذت طابع حرب الخنادق[٥].

---

(١) ابن شداد: ص١٥٦. ابن الأثير: جـ١٠ ص٧٠، ٧١. يعقوب الڤيتري: ص١٥٩.

(٢) ابن شداد: ص١٥٤، ١٥٥. (٣) يعقوب الڤيتري: ص١٦٠.

(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص٧١. يعقوب الڤيتري: المصدر نفسه.

(٥) حسين، محسن محمد: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين: ص٤٣٧.

وطلب صلاح الدين المساعدة من حكام المسلمين في الشرق والغرب، فكتب إلى أمراء الجزيرة والموصل، فلبوا نداء المساعدة على الرغم مما كان بينهم وبينه من فتور ما يدل على وعي إسلامي للخطر الصليبي، وقدم إليه تقي الدين ابن أخيه، ومظفر الدين صاحب حرَّان والرها، وكان على اتصال دائم مع الخليفة العباسي المستضيء، غير أنه لم يحصل منه على مساعدة فعَّالة[1]، وأرسل سفارة إلى أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي في المغرب، يطلب منه أن يقوم الأسطول المغربي بقطع طريق الإمدادات البحرية عن السفن الأوروبية، التي تقوم بإمداد الصليبيين في عكا بما يحتاجون إليه، فأبدى الموحدون عطفهم غير أنهم لم يبذلوا مساعدة إيجابية[2].

أضحى الجيش الأيوبي بعد وصول الإمدادات من الضخامة ما يكفي لفرض الحصار على الصليبيين، وظل الجيشان، الأيوبي والصليبي، يواجهان بعضهما طيلة فصل الشتاء من دون أن يجسر أي منهما على تصفية الموقف لصالحه، ونشأت بين أفرادهما روابط من واقع تبادل القادة عبارات التحية والمودة.

أثبت حصار عكا أن ثمة توازناً بين قوتي الفريقين، إذ لم يستطع الصليبيون اقتحام المدينة، واستطاع المسلمون، بداخلها، الصمود، وكذلك لم يستطع صلاح الدين إزاحتهم، فتشبَّث كل طرف بموقعه في انتظار وصول الإمدادات التي تكفل له القيام بالهجوم.

كان جاي لوزينان يتوقع وصول إمدادات صليبية أخرى من أوروبا الغربية، في الوقت الذي وصل فيه دوق سوابيا على رأس ما تبقَّى من القوة الألمانية، وشارك في القتال، وعلى الرغم من ذلك فإن شتاء عام (٥٨٦ ـ ٥٨٧هـ/ ١١٩٠ ـ ١١٩١م) كان ثقيلاً على الصليبيين ليس بسبب النتائج التي ترتَّبت على فشل الجيش الألماني فحسب بل لتفشي المجاعة في معسكرهم أيضاً، إذ تضاءلت المؤن، ولم تصل في شتاء ذلك العام أي سفينة صليبية إلى عكا بسبب نشاط الأسطول الإسلامي، وتداعت التدابير الصحية بسبب ندرة المياه، فتفشى المرض بين الجند، وهلك بعض الأمراء[3].

لم يستغل صلاح الدين هذا الوضع السيئ الذي بات فيه الصليبيون، ويبدو أن سبب ذلك ظهور التعب والإرهاق على عساكره، فصرف بعضهم لينالوا قسطاً من

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٧١. العماد الأصفهاني: ص٣٦٥.

(٢) أبو شامة: جـ٤ ص١٩٠، ٢٠٥.

(٣) يعقوب الڤيتري: ص١٦٠، ١٦١. رنسيمان: جـ٣ ص٦٨ ـ ٧١.

الراحة على أن يعودوا بعد انقضاء فصل الشتاء، وتحوَّل بعض أمرائه إلى تجار، استغلوا فرصة حصول المجاعة داخل المعسكر الصليبي، فحملوا الطعام والغلال إليهم بأسعار مرتفعة.

على أنه حدث في (صفر ٥٨٧هـ/آذار ١١٩١م)، حين اشتدَّ اليأس من الحصول على المؤن، أن رست تجاه الساحل سفينة محملة بالقمح، واستطاعت أن تُفرغ حمولتها إلى البر، ولما تحسَّن الطقس تلتها سفينة أخرى، واستُقبلت هذه السفن بحفاوة بالغة لأنها حملت مع المواد الغذائية أنباء تؤكد بأن ملكي فرنسا وإنكلترا أضحيا في المياه الشرقية[١].

الملكان الفرنسي والإنكليزي أمام عكا

غادر كل من فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا الغرب في (منتصف ٥٨٦هـ/ صيف ١١٩٠م)، فأبحر الأول من مرسيليا وأبحر الثاني من جنوة، لكنهما التقيا في صقلية حيث مكثا قرابة ستة أشهر لقضاء فصل الشتاء، ثم أبحر فيليب أغسطس من مسينا في (١ ربيع الأول ٥٨٧هـ/ ٢٩ آذار ١١٩١م) ووصل إلى صور، فرحَّب به قريبه كونراد دي مونتفرات، ثم صحبه إلى عكا وسط ابتهاج الصليبيين، وذلك في (٢٤ ربيع الأول/ ٢١ نيسان)[٢]. وفي المقابل، ازداد وضع المسلمين داخل عكا وخارجها صعوبة «فضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة الفراتية وصاحب الموصل»[٣].

ويبدو أن الملك الفرنسي لم يشأ أن ينتظر وصول الملك الإنكليزي، وإنما بدأ على الفور بتشديد الحصار على عكا بعد أن نظَّم صفوف الصليبيين، وجدَّد آلات الحصار، وشيَّد الأبراج، وراح هؤلاء يقذفون المدينة بشكل متواصل، كما عملوا على ردم الخندق المحيط بها، ومع ذلك فقد تأجَّلت المحاولة لمهاجمة الأسوار حتى يصل الملك الإنكليزي وأتباعه[٤].

وكان ريتشارد قلب الأسد قد عرَّج على جزيرة قبرص بعد مغادرته مسينا، وكانت تحت حكم إسحاق دوكاس كومنين الذي اشتهر بكراهيته للاتين، فوصل إليها في (١٠ ربيع الآخر/ ٧ أيار) واستولى عليها وأسر إسحاق ثم غادرها إلى بلاد الشام،

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٧٠، ٧١.

(٢) ابن شداد: ص٢٣٧. العماد الأصفهاني: ص٤٧٤. يعقوب الڤيتري: ص١٦٣.

(٣) ابن شداد: ص٢٣٠.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٣٨ ـ ٢٤٣. Estoire d'Eracles: II pp155, 156.

فوصلت سفنه إلى الشاطئ في (١٠ جمادى الأولى/ ٥ حزيران)، ونزل هو إلى البر قرب صور، فرفضت حامية المدينة السماح له بالدخول بناء على تعليمات كونراد دي مونتفرات، فواصل عندئذ سفره بحراً إلى عكا، فوصل إليها في (١٣ جمادى الأولى/ ٨ حزيران)، وكان وصوله باعثاً على الأمل في نفوس الصليبيين الذين يحاصرون عكا على الرغم من فتور العلاقات بينه وبين الملك الفرنسي[١]، وفي المقابل ازداد موقف الحامية الإسلامية في المدينة سوءاً بسبب ضغط تلك الجموع الهائلة من الصليبيين التي شدَّدت حصارها على المدينة وكثَّفت هجماتها عليها.

سقوط عكا

كان صلاح الدين يراقب تطورات الموقف من مراكزه في شفرعم والخروبة والعياضية، وتلقى إمدادات أخرى من الجزيرة الفراتية، وجرت بينه وبين الصليبيين هجمات متبادلة لم تُسفر عن نتيجة إيجابية، ثم حاول ضرب الصليبيين من البحر، فجهَّز سفينة كبيرة ملأها بالجند والذخائر أبحرت من بيروت إلى عكا، لكنها تعرَّضت للحصار من قِبَل السفن الإنكليزية، فعمد البحارة المسلمون إلى إحداث ثقب أسفل السفينة وأغرقوها، وأغرقوا أنفسهم معها حتى لا يقعوا في أيدي الصليبيين[٢].

كان الهدف من القتال الوقوف على قوة الخصم، فقد أراد صلاح الدين أن يُثبت لريتشارد قلب الأسد أن جيشه ما زال قوياً، وأن بوسعه ملاقاته، أما ريتشارد قلب الأسد فإنه أراد من جانبه أن يتأكد ما إذا كان بوسعه أن يفرض إرادته على صلاح الدين بقوة السلاح، أو أن يفرض عليه المفاوضات بعد أن يُلحق بالمسلمين هزيمة تُجبرهم على الموافقة على شروطه، مدركاً في الوقت نفسه أن الظروف العسكرية مُهيأة لتحقيق ذلك[٣]، لكنه خرَّ مريضاً وأوشك على الموت بسببه، وجُرح فيليب أغسطس ملك فرنسا، وعندما رأى الصليبيون ذلك خشوا أن يتعرَّضوا لهجوم المسلمين، فاستخدموا الحيلة. وأخذ ريتشارد قلب الأسد يراسل السلطان ويطلب الاجتماع به «شغلاً للوقت» أو أنه كان يأمل بالتوصل إلى تسوية سلمية، ومع ذلك أجاب صلاح الدين بحذر أن ليس من الحكمة أن يجتمع ملكان متعاديان حتى تنعقد بينهما هدنة، إلا أنه أعرب عن استعداده بأن يسمح لأخيه العادل أن يجتمع مع

---

(١) العماد الأصفهاني: ص٤٧٧، ٤٧٨. ابن شداد: ص٢٤٣. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٩ - ١٢. Ernoul: pp207-223. Estoire d;Eracles: II pp159-170.

(٢) ابن شداد: ص٢٤٤. يعقوب الڤيتري: ص١٦٤.

(٣) حسين: ص٤٥٦.

الملك الإنكليزي، وتقرَّر وقف القتال مدة ثلاثة أيام. وتحدَّد مكان الاجتماع في السهل الذي يفصل بين الجيشين الإسلامي والصليبي، وظل صلاح الدين محتفظاً دائماً بكرم أخلاقه في معاملة الصليبيين، فأرسل إلى ريتشارد قلب الأسد ما طلبه في مرضه من فاكهة وثلج حتى شفي[(١)].

الواقع أن الهجمات التي شنَّها صلاح الدين ضد القوات الصليبية لم تُفلح، ولم تكد أحوال الصليبيين تتحسَّن حتى عادوا ليُشدِّدوا هجماتهم على عكا، وقد ضعفت المدينة ضعفاً شديداً، واشتد الخناق بالمسلمين في داخلها، وهدمت مجانيق الصليبيين جزءاً من سورها، وتخلخل جزء آخر، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لِقِلَّة عددهم وكثرة أعمالهم، وأرسلت الحامية في (٧ جمادى الآخرة/ ٢ تموز) رسالة جاء فيها: «إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد، إن لم تعملوا معنا شيئاً، نطلب الأمان ونُسلِّم البلد ونشتري مجرد رقابنا»[(٢)].

كان هذا الخبر من أعظم ما وقع على المسلمين، لأن عكا كانت مخزناً كبيراً لسلاح الساحل وبيت المقدس ودمشق وحلب ومصر، وفيها كبار أمراء صلاح الدين، مثل سيف الدين علي الهكاري، المعروف بالمشطوب، وبهاء الدين قراقوش[(٣)].

وحدث في الوقت الذي أرسل فيه ريتشارد قلب الأسد رسلاً إلى صلاح الدين يطلب منه شراء فاكهة وثلجاً، ويُبدي استعداده في التباحث في أمر الصلح، اتخذت الحامية قراراً بوقف القتال، وذهب سيف الدين علي المشطوب إلى المعسكر الصليبي لمقابلة الملك الفرنسي والاتفاق معه على شروط التسليم، غير أن فيليب أغسطس فاجأه بجواب مهين، فردَّ عليه الأمير المسلم بالمثل وتحوَّل إلى الملك الإنكليزي، فأنفذ إليه رسولاً من أجل هذه الغاية غير أن ريتشارد قلب الأسد رفض ما عرضه عليه.

صُدم صلاح الدين عندما علم بأن رجاله في عكا فقدوا الأمل، فوعد أن يبذل لهم مساعدة عاجلة، غير أنه لم يستطع أن يستثير رجال جيشه لشن هجوم عام على الصليبيين. ووصل في غضون ذلك أحد العوَّامين يحمل آخر استغاثة من المدينة، إذ لن تستطيع الحامية أن تمضي في صمودها ما لم تصل إليها المساعدة، وما دار من قتال في (١٦ جمادى الآخرة/ ١١ تموز) يُعدُّ آخر ما بذله المسلمون من جهد قبل أن يعرضوا التسليم في اليوم التالي، وكان أن تدخَّل كونراد دي مونتفرات وعقد اتفاقية مع حامية عكا بدون موافقة صلاح الدين، تضمَّنت ما يلي:

---

(١) ابن شداد: ص٢٤٦ ـ ٢٤٨. أبو شامة: جـ٣ ص١٨٦. ابن واصل: جـ٢ ص٣٥٥.

(٢) ابن شداد: ص٢٥١. (٣) المصدر نفسه: ص٢٥٢.

- استسلام عكا بكل ما تحويه من سفن ومستودعات وذخيرة.
- يؤدي المسلمون للصليبيين فدية مقدارها مائتي ألف دينار.
- يُطلق المسلمون سراح ألف وخمسمائة أسير صليبي، بالإضافة إلى مائة معيَّنين من جانبهم.
- يردُّ المسلمون صليب الصلبوت إلى الصليبيين.
- يخرج المسلمون من المدينة سالمين(١).

عندما اطلع صلاح الدين على فحوى الاتفاق، رفضه بشدة، وعظم عليه الأمر، فاجتمع مع أركان حربه للتشاور وتقويم الوضع، وفي الوقت الذي كان يعدُّ فيه الجواب للحامية، فوجئ بألوية الصليبيين ترفرف فوق أبراج عكا، وكان ذلك يوم الجمعة (١٧ جمادى الآخرة/ ١٢ تموز)، فقد عقدت الحامية الاتفاقية باسمه، وما اتصف به من الشرف لم يسعه إلا الالتزام بها، ثم أمر بنقل معسكره إلى شفرعم على الطريق المؤدي إلى صفورية بعيداً عن المدينة، إذ لم يبق من مبرر في بقاء قواته على حصار عكا وفي مواقعها بالإضافة إلى أنه خشي من إقدام الصليبيين على مهاجمته(٢).

وهكذا دخل الصليبيون عكا بعد أن حاصروها قرابة سنتين، الأمر الذي أثار موجة من الأسى والحزن عبَّر عنها المؤرخون المسلمون(٣).

ويبدو أن الصليبيين ماطلوا في تنفيذ الشق المتعلق بهم، وكان صلاح الدين قد أرسل لهم القسط الأول من المال والرجال الأسرى، ولما طالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملاً، رفضوا، فأدرك عندئذ عزمهم على الغدر، ورفض أن يُسلِّمهم ما تبقَّى من المال والأسرى، فما كان من ريتشارد قلب الأسد إلا أن أجرى مذبحة بشعة داخل عكا، ذهب ضحيتها ثلاثة آلاف أسير مسلم، وبكى صلاح الدين متأثراً، لكنه لم يسمح لأحد بالانتقام منهم رداً على ما ارتكبه الملك الإنكليزي، وأمر برد الأسرى الصليبيين الذين جلبهم من دمشق لإجراء التبادل(٤).

---

(١) ابن شداد: ص٢٥٣ ـ ٢٥٨. يعقوب الفيتري: ص١٦٥. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٣٥ ـ ٣٧.

(٢) ابن شداد: ص٢٥٨ ـ ٢٦١. العماد الأصفهاني: ص٥١٣ ـ ٥٢٥. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٣٧ ـ ٣٩.

(٣) انظر الرسائل التي كتبها العماد الأصفهاني وأرسلها إلى الأطراف، في كتابه الفتح القسي: ص٥١٤ ـ ٥٢٤.

(٤) ابن شداد: ص٢٦١ ـ ٢٦٣. العماد الأصفهاني: ص٥٢٦ ـ ٥٢٨. ابن الأثير: جـ١ ص٩٧، ٩٨. يعقوب الفيتري: ص١٦٥.

تعقيب على سقوط عكا

ـ استعمل الصليبيون في حصار عكا مختلف أنواع الأسلحة الهجومية والدفاعية، لحماية أنفسهم وراء الجدران والخنادق التي أقاموها لمنع وصول قوات صلاح الدين إليهم، واستطاعوا، بعد حصارهم الطويل للمدينة وضربهم المتواصل للأسوار، من إحداث الخلل فيها[١].

ـ أعطى وصول قوات صليبية جديدة ومتلاحقة من غربي أوروبا مع ملوكها قوة دفع للمحاصِرين، ورفع معنوياتهم، وحسم الموقف لصالحهم على الرغم من كثرة من قُتل منهم[٢]، كما كان للتفوق البحري الصليبي أثره في مسار الأحداث، وظهر ذلك في إقدام السفن الصليبية على منع السفن الإسلامية، التي تحمل المؤن والعتاد للمحاصَرين، من الدخول إلى المدينة، أو الاقتراب من أسوارها.

ـ أثَّر التعب الذي أصاب المسلمين نتيجة الحصار البري والبحري على معنوياتهم، ففشا التذمر بينهم وتطور إلى نقد ثم إلى المعارضة لا سيما في المرحلة الأخيرة من الحرب، عندما بدأ سقوط عكا يظهر كدليل على تراجع القوة العسكرية التي جنَّدها صلاح الدين.

ـ كشف الصراع الطويل مع الصليبيين أمام عكا عن مواطن الضعف المادية في إدارة صلاح الدين الذي لم يدَّخر المال ليوم الحاجة، إذ سرعان ما وجد نفسه بحاجة شديدة إلى المال لسدِّ نفقات الحرب[٣].

ـ أضعف سقوط عكا وضع المسلمين القتالي على الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية، بحيث ركنوا إلى الدفاع الذي من مظاهره تخريب بعض المدن والقلاع حتى لا تقع في يد العدو، ويتخذها قواعد انطلاق لضرب المسلمين[٤].

ـ يُعدُّ فشل صلاح الدين في حصار صور بداية التراجع الإسلامي، ويوضع ضمن إخفاقاته، أما في عكا فقد هُزم المسلمون وانتصر الصليبيون، ومن ثَمَّ فإن ما قام به الملك ريتشارد قلب الأسد من ذبح حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم كان له أثره في إضعاف جيش المسلمين، كما أثَّر على معنويات صلاح الدين النفسية، وبخاصة أنه

---

(١) انظر: العماد الأصفهاني: ص٥١٥ ـ ٥٢١.

(٢) يذكر ابن كثير أن عدد الذين قُتلوا من الصليبيين يبلغ خمسين ألفاً. البداية والنهاية: جـ١٢ ص٣٤٥.

(٣) حسين: ص٤٦٧.

(٤) المرجع نفسه: ص٤٦٨. يعقوب الفيتري: ص١٦٥.

فَقَدَ بعض أمرائه الخبراء بشؤون الحرب. واقتنع الصليبيون أخيراً بأن خصمهم ليس بالقائد الذي لا يُقهر، وأن بيت المقدس يمكن استعادتها، أما صلاح الدين فقد أراد أن يبرهن لرجاله وللصليبيين بأنه لم يتحطم على الرغم من هزيمته، وأنه ما زال قوياً على الرغم مما تعرَّض له نشاطه الشخصي من فتور بسبب حالته الصحية، وتقدُّم سنِّه، فلم يعد له من القدرة على المقاومة والتأثير ما كان له في سنوات شبابه[١].

ـ ظهر التباين واضحاً في سلوك الصليبيين الهمجي وغير الإنساني، من خلال ما أقدم عليه الملك ريتشارد قلب الأسد من قتل ثلاثة آلاف أسير مسلم صبراً، بالمقارنة مع سلوك صلاح الدين الإنساني عقب انتصاره في حطين وفتحه بيت المقدس، إذ حرص، كما رأينا، على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين ومنع رجاله من الاعتداء عليهم أو التعرض لهم، بل إنه لم يبخل على الملك الصليبي نفسه أثناء مرضه بالفاكهة والثلج، وأرسلها إليه والصليبيون يحاصرون عكا. والواضح أن ريتشارد قلب الأسد مثَّل في تصرفه روح المجتمع الغربي القائم على العنف، وفي المقابل مثَّل صلاح الدين روح المجتمع الشرقي القائم على سماحة الإسلام.

مشكلات الصليبيين الداخلية بعد سقوط عكا

تقاسم الملكان الفرنسي والإنكليزي مدينة عكا مناصفة فيما بينهما، وجرى تقاسم الأسرى بالقرعة، فكان الأمير قراقوش حاكم المدينة المسلم وجماعة من الأسرى المسلمين من نصيب الأول وآلَ إليه قصر الداوية الكبير وكل ما يتعلق به، وكان ابن المشطوب وبقية الأسرى من نصيب الملك الثاني، وآلَ إليه أيضاً القصر الملكي.

وانعكس النزاع بين كونراد دي مونتفرات وجاي لوزينان حول الزعامة على الصليبيين في الشرق، على الملكين، فأيَّد الملك الفرنسي الأول ووقف إلى جانبه وعزم على منحه كل نصيبه الذي آلَ إليه وإلى تمكينه من جميع ما يحصل عليه مستقبلاً، وعطف الملك الإنكليزي على الثاني وأيَّد دعواه لكن لم يصل به الحد إلى التنازل له عن نصيبه، ومن ثَمَّ دب الشقاق بين الملكين حول هذه المسألة، استمر وقتاً طويلاً نسبياً، على أن القضية سُوِّيت أخيراً بسلام بفضل تدخل الأمراء وأعيان المدينة على الشكل التالي:

ـ يتزوج كونراد دي مونتفرات من إيزابيلا، وريثة عرش مملكة بيت المقدس، مكافأة له على ما بذله من مساعدة أثناء حصار عكا.

---

(١) حسين: ص٤٦٩.

ـ يرث كونراد، المذكور أعلاه كونتية صور وملحقاتها، أي صور وصيدا وبيروت.
ـ يتولى غودفري لوزينان، شقيق الملك جاي، كونتية يافا وعسقلان لقاء ما بذله من جهد.
ـ يخلف كونراد دي مونتفرات الملك جاي لوزينان عند وفاته، فيضع التاج والعصابة الملكية على رأسه في بيت المقدس، بوصفه زوجاً لوريثة المملكة.
ـ إذا مات كل من كونراد وزوجته وجاي، يعود للملك ريتشارد قلب الأسد، إذا كان لا يزال في المنطقة، تقرير مصير المملكة(١).

وحدث في هذه الأثناء أن غادر الملك فيليب أغسطس عكا إلى صور في (٧ رجب/ ٣١ تموز) نظراً لاعتلال صحته، ثم أبحر من صور إلى برنديزي بعد ثلاثة أيام، وإذ ارتحل هذا الملك أضحى الملك ريتشارد قلب الأسد قائداً للجيش، وتولى مباشرة القتال مع صلاح الدين(٢).

الصليبيون ينتصرون في أرسوف

وضع الملك ريتشارد قلب الأسد خطة تقضي باسترداد المدن الواقعة على شاطئ فلسطين، من عكا حتى عسقلان، قبل أن يتوجَّه إلى الداخل ليسترد بيت المقدس، فغادر عكا يوم الخميس في (٢٩ رجب ٥٨٧هـ/ ٢٢ آب ١١٩١م) على رأس الجيش الصليبي متخذاً الطريق الساحلي حتى يلقى جناحه الأيمن الحماية والتموين من الأسطول الصليبي، لم تكن ظروف الرحلة سهلة، فقد عانى الصليبيون من شدة الحر، وقِلَّة المؤن، وخراب المدن والقرى التي مروا بها، ومضايقة المسلمين لمؤخرتهم(٣).

والواقع أن صلاح الدين لم يشأ أن يدع الجيش الصليبي يزحف بسلام وإنما رحل في إثره، وكان يخشى أن يتحرك الملك الإنكليزي نحو عسقلان ليمتلكها ويتخذ منها قاعدة يقطع بواسطتها طريق الاتصال بينه وبين بيت المقدس ومصر التي تمده بالقوة الضاربة.

وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية(٤)، ولما اقتربوا منها في (٧ شعبان/ ٣٠ آب) أضحى الالتحام

---

(١) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٣٩، ٤١، ٤٢.
(٢) ابن شداد: ص٢٦٠. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٤٢ ـ ٤٦.
(٣) ابن شداد: ص٢٦٣. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٥٢، ٥٣، ٥٩، ٦٠.
Estoire d'Eracles: II p183.
(٤) مؤرخ إنكليزي مجهول: ص٦٣، ٦٤.

بين الجيشين وشيك الوقوع. تمتَّع المسلمون بميزة حرية الحركة في الوقت الذي حصر الصليبيون أنفسهم بينهم وبين البحر[١]، وكان القتال الحاد ينشب بين الطرفين في كل يوم[٢]،وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين إلى الداخل حتى ينحرفوا عن خط سيرهم بمحاذاة الساحل ما يفقدهم ميزة دعم الأسطول، إلا أن الملك ريتشارد قلب الأسد، الذي اتصف بالبراعة القتالية، لم يقع في فخ صلاح الدين، وحافظ على خط سيره، ودعا رجاله إلى الحفاظ على النظام، وألا ينساقوا وراء الاستفزازات الإسلامية مُفوِّتاً فرصة طالما كان صلاح الدين توَّاقاً إليها[٣].

واستولى الصليبيون على قيسارية الخاوية على عروشها بعد أن خرَّبها المسلمون[٤]، ولم يستفيدوا منها بزاد أو مال، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مشارف أرسوف، وتحركوا باتجاه غابتها الواقعة في شمال شرقي المدينة على امتداد ميلين من البحر، حيث كان السهل من الاتساع ما يكفي لنشوب اشتباك[٥].

وقرَّر صلاح الدين الذي سبق العدو إلى الغابة أن يصطدم به في هذا المكان، فعبَّأ قواته استعداداً للمواجهة، وعندما علم الملك ريتشارد قلب الأسد بخطته تصرف على محورين:

الأول: أرسل يطلب نجدة من عكا.

الثاني: حاول تسوية القضايا مع صلاح الدين بالطرق السلمية.

والراجح أن صلاح الدين أراد أن يكسب بعض الوقت حتى تصل قوات التركمان التي كان قد طلبها، فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض، وأناب عنه أخاه العادل الذي اجتمع مع الملك الإنكليزي في (١٢ شعبان/ ٤ أيلول)، لكن المفاوضات تعثَّرت بسبب تصلب الملك ريتشارد في موقفه، إذ أصرَّ على أن يتنازل المسلمون عن الأماكن التي فتحوها في مملكة بيت المقدس، فبادر العادل إلى قطع المفاوضات، ولم يبق أمام الطرفين سوى القتال[٦].

ووصلت في هذه الأثناء نجدات عسكرية إلى كل من الطرفين، فتعبآ للقتال. بدأت المعركة في ضحى يوم السبت (١٤ شعبان/٦ أيلول) وأسفرت عن انتصار

---

(١) Stevenson: p276.

(٢) دوَّن ابن شداد الحوادث التي رافقت زحف الحملة الصليبية حتى وصولها إلى أرسوف يوماً بيوم: ص٢٦٤ ـ ٢٧٣. وكذلك فعل المؤرخ الإنكليزي المجهول الذي رافق الحملة: جـ٢ ص٦٤ ـ ٧٢.

(٣) Oman: I p309.

(٤) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٦٨.

(٥) المصدر نفسه: ص٧٢. ابن الأثير: جـ١٠ ص٩٨، ٩٩.

(٦) ابن شداد: ص٢٧٣ ـ ٢٧٥.

الجيش الصليبي، ولم يحل المساء حتى آلت إليه السيطرة على ساحة القتال، واستأنف سيره نحو الجنوب[1].

تعقيب على انتصار الصليبيين في أرسوف

ـ كان حزن صلاح الدين كبيراً بحيث لم يقبل مواساة قاضي عسكره ومؤرخه ابن شداد، وذلك بسبب مقتل بعض أمرائه وكثير من جنده[2]، وقد عبَّر ابن شداد عن شعور صلاح الدين بأنه «كان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، والناس من جريح الجسد وجريح القلب»[3].

ـ تُعدُّ معركة أرسوف أول معركة مكشوفة جرت بين المسلمين والصليبيين منذ معركة حطين، وأول هزيمة قاسية لحقت بالمسلمين بعد سقوط عكا.

ـ لم يستثمر الصليبيون انتصارهم بمطاردة المسلمين في غابة أرسوف، والحقيقة أن انتصارهم لم يكن حاسماً، وظنوا أن دخول المسلمين إلى الغابة هو مكيدة دبروها لاستدراجهم قبل أن يكرُّوا عليهم، إلا أن هذا الانتصار غير الحاسم أعطاهم ثقة كبيرة بأنفسهم ودفعاً معنوياً بعد الهزائم المتوالية التي تعرَّضوا لها، وبخاصة أن خسائرهم كانت ضئيلة بالمقارنة مع خسائر المسلمين[4]. وبلغت شهرة الملك ريتشارد قلب الأسد ذروتها، لكن الملك الإنكليزي لم يغامر بتحويل خط سيره الساحلي ليهاجم بيت المقدس، مدركاً أن جيش صلاح الدين على الرغم من أنه تعرَّض للهزيمة إلا أنه لم يتحطم، وما زال قوياً، ومصدر قلق وخوف.

ـ أثبتت المعركة أن المد الإسلامي الذي قاده صلاح الدين، والذي استمر في صالح المسلمين في بلاد الشام منذ عام (٥٦٥هـ/ ١١٧٠م)، بدأ يتحول بعد معركة أرسوف، ولمدة ستين عاماً، لصالح الصليبيين[5].

ـ أُصيبت هيبة صلاح الدين في الصميم، إذ لم يكن جيشه أمام عكا قوي التأثير،

---

(١) ابم شداد: ص٢٧٥ ـ ٢٧٧. ابن الأثير: جـ١٠ ص٩٨، ٩٩. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٧٣ ـ ٩١، وتجد عنده تفاصيل مسهبة حول سير المعركة.

(٢) ابن شداد: ص٢٧٧. لم تحدد المصادر الإسلامية عدد قتلى المسلمين، في حين ذكر المؤرخ الإنكليزي المجهول أن الترك تكبدوا اثنين وثلاثين أميراً وسبعة آلاف قتيل سوى الجرحى. الحرب الصليبية الثالثة: صلاح الدين وريتشارد: جـ٢ ص٩٠.

(٣) النوادر السلطانية: ص٢٧٨.

(٤) يذكر المؤرخ الإنكليزي المجهول أن خسائر الصليبيين كانت أقل من عُشر العُشر. الحرب الصليبية الثالثة: صلاح الدين وريتشارد: جـ٢ ص٩١.

(٥) Grousset: III p71.

وتعرَّض للهزيمة عند أرسوف، وكلما تقدم في العمر فَقَدَ شيئاً من نشاطه وسيطرته على رجاله، من ذلك أنه أراد بعد المعركة أن يُركِّز جهوده في الدفاع عن عسقلان، إذ خشي أن يتحرك الملك ريتشارد قلب الأسد إليها ويتخذها قاعدة تقطع عليه طريق اتصاله مع مصر، فتوجَّه نحو الرملة، وعقد فيها مجلس حربه، واستشارهم فيما يفعل، فخالفه أمراؤه في الرأي وقالوا له: «إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا»[١].
ولا شك بأن هذا التفكير الذي سيطر على بعض الأمراء يدل على مدى خشيتهم من قوة الصليبيين، ومن ثَمَّ يعكس الوضع النفسي المتردي الذي باتوا يعيشون فيه، لذلك اضطر إلى تغيير خطته، فترك عسقلان وتوجَّه للدفاع عن المناطق الداخلية وبخاصة بيت المقدس[٢]، غير أنه لا يمكن ترك عسقلان ليحتلها الصليبيون وهي عامرة فيستغلونها في الاستيلاء على بيت المقدس وفي قطع طريق مصر، لذلك أسرع إلى تخريبها وسط بكاء الناس أسفاً وغماً لخرابها[٣].

الأحداث السياسية بعد معركة أرسوف

اختار الملك ريتشارد قلب الأسد بعد معركة أرسوف أن يُثبِّت أقدامه في المدن الساحلية ليحمي مؤخرة جيشه، فأعاد بناء يافا[٤] وباغت المسلمين أثناء انهماكهم بتدمير عسقلان ليستولي عليها بسهولة، وأقام صلاح الدين في المناطق القريبة من بيت المقدس حتى يكون قريباً من المدينة ومن العدو معاً، وأرسل أخاه العادل ليتفقَّد أحوالها، وعقد في (٦ شوال ٥٨٧هـ/ ٢٧ تشرين الأول ١١٩١م) اجتماعاً مع أركان حربه تقرَّر فيه البقاء في أماكن تمركز الجيش «فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم»[٥]، لكنه قام بتحصين بيت المقدس عندما علم بنية العدو مهاجمتها.
ونُكب صلاح الدين في هذه الأثناء بوفاة اثنين من أبرز قادته في يوم واحد، هما الملك المظفر تقي الدين عمر في منطقة الجزيرة الفراتية وابن أخته حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين[٦].
ويبدو أن خبر استعدادات المسلمين وصلت إلى مسامع الملك ريتشارد قلب الأسد، لذلك لم يشأ أن يغامر بخوض معركة مكشوفة وألحَّ على مبدأ المفاوضات

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٠٠. (٢) حسين: ص٤٧٧.
(٣) ابن شداد: ص٢٨٠ ـ ٢٨٣.
(٤) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٩٩ ـ ١٠٢.
(٥) ابن شداد: ص٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩٤.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٩٤. العماد الأصفهاني: ص٥٦٦، ٥٧١.

لتكون أساس العلاقات بين الطرفين، ولعل جنوحه إلى السلم ناتج عن الصعوبات الداخلية التي كان يعاني منها، إذ أنه لم يكن مغتبطاً لما حدث في عكا وفي الجهات الواقعة إلى الشمال منها، من استمرار نفوذ كونراد دي مونتفرات القوي، بالإضافة إلى إقدام الأخير على التقرب من صلاح الدين، كما وقع الاضطراب في جزيرة قبرص، وخشي ما قد يفعله الملك الفرنسي فيليب أغسطس عند عودته إلى فرنسا[(١)].

لم يكن صلاح الدين مندفعاً لعقد الصلح، إلا أنه على أي حال كان راغباً في الاستفادة من جو المفاوضات في فصل الشتاء، وقد رحلت عنه معظم فرقه العسكرية.

وأرسل الملك ريتشارد قلب الأسد رسالة إلى صلاح الدين في (١٨ شوال/٨ تشرين الثاني) يطلب منه الدخول في مفاوضات من أجل الصلح بحجة أن القتال أهلك كثيراً من قوى الطرفين، وخربت البلاد[(٢)]، غير أن المفاوضات التي أناب فيها صلاح الدين أخاه العادل تعثَّرت بسبب إصرار الملك الإنكليزي على استعادة بيت المقدس والإقليم الواقع غرب الأردن بما فيه من حصون، وصليب الصلبوت بالإضافة إلى تمسكه بعسقلان، وكلها شروط رفضها صلاح الدين.

وعرض الملك ريتشارد قلب الأسد بعد بضعة أيام مقترحات جديدة لا تخلو من الطرفة، تقضي:

- بأن يتزوج الملك العادل، أخو صلاح الدين، من الأميرة جوانا، أخت ريتشارد وأرملة ملك صقلية.
- يُعطي صلاح الدين أخاه كل ما بحوزته من أراضٍ في فلسطين، ويمنح ريتشارد قلب الأسد أخته ما بحوزته من المدن الساحلية بما فيها عسقلان التي احتلها مؤخراً.
- يُقيم العروسان في بيت المقدس، ويتردَّد المسيحيون على كنيسة القيامة.
- يستعيد المسيحيون صليب الصلبوت.
- يُطلَق سراح الأسرى من الجانبين.
- تُردُّ إلى الداوية والأسبتارية بعض القرى في فلسطين، من دون الحصون[(٣)].

رحَّب العادل بهذا العرض، وقد طمع في توحيد المسلمين والصليبيين في بلاد

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص١١٤.

(٢) ابن شداد: ص٢٩٠. العماد الأصفهاني: ص٥٦٠، ٥٦١.

(٣) ابن شداد: ص٢٩٢. العماد الأصفهاني: ص٥٥٥.

الشام تحت حكمه، ورأى صلاح الدين في هذا العرض نوعاً من المزاح، لكنه أبدى سروره للموافقة عليه، ويبدو أنه اعتقد بأن ملك إنكلترا لن يتمكَّن من تنفيذ مشروعه، وأن هذا منه هزؤ ومكر[١]، لكن العقبة جاءت من جوانا نفسها التي ارتاعت عندما سمعت بهذا العرض وقالت بأنه ليس ثمة ما يدعوها لأن تتزوج من رجل مسلم، ما دفع الملك ريتشارد قلب الأسد أن يطلب من العادل أن يعتنق المسيحية لتذليل تلك العقبة، فرفض العادل ذلك[٢].

والحقيقة أن قبول المسؤولين الثلاثة بهذا المشروع إنما يدل على التقارب السياسي والحضاري في بلاد الشام بعد مرور قرن على بداية الحروب الصليبية، بالإضافة إلى روح التسامح التي أخذت تنمو بوضوح في بعض تصرفات الفريقين[٣]، بدليل أن الملك الإنكليزي اجتمع مع العادل على وليمة فاخرة ثم افترقا بعد أن تحقَّقت بينهما أواصر الصداقة، وقد أبدى هذا الملك رغبة في الاجتماع مع صلاح الدين، لكن العادل رفض طلبه لأن الأمر لم ينتظم لحسن الاجتماع[٤]، ثم شُغل الملك ريتشارد بحل مشكلات الصليبيين، وبخاصة الخلاف الحاد بين كونراد دي مونتفرات وجاي لوزينان.

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات بين الجانبين، استقبل صلاح الدين رينولد، صاحب صيدا، رسولاً من قِبَل كونراد دي مونتفرات عرض عليه التحالف مقابل حصوله على صيدا وبيروت، بل إنه اقترح أن تعود عكا إلى المسلمين، وقد هدف إلى تحويل مسار المفاوضات لصالحه[٥]، وعندما علم الملك ريتشارد قلب الأسد بتحركات كونراد بذل جهوداً لإعادته إلى الصف الصليبي، غير أن جهوده باءت بالفشل، وكرَّر كونراد محاولة التفاهم مع صلاح الدين[٦].

وعقد صلاح الدين مجلساً لأركان حربه ليقرر أي الجانبين يمضي معه في المفاوضات، فرأى الملك العادل وبعض الأمراء الميل إلى المضي في المفاوضات مع الملك الإنكليزي، لأنه سوف يغادر الشرق في حين أن كونراد دي مونتفرات كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين، فتقرر قبول مقترحات الملك الإنكليزي من حيث المبدأ[٧].

---

(١) ابن شداد: ص٢٩٣.
(٢) المصدر نفسه. العماد الأصفهاني: ص٥٥٥ ـ ٥٥٧.
(٣) Grousset: III p85.
(٤) ابن شداد: ص٣٠٠، ٣٠١. العماد الأصفهاني: ص٥٦٠.
(٥) ابن شداد: ص٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٧، ٢٩٨.
(٦) المصدر نفسه: ص٣٠٨، ٣٠٩.
(٧) المصدر نفسه: ص٣٠٣.

ومهما يكن من أمر محاولات التفاهم بين المسلمين والصليبيين، فما وقع في تلك الأثناء من قتال بينهما وإن كان محدوداً، لم يعد ثمة ما يدعو إلى التقارب. ووصلت في غضون ذلك إلى مسامع الملك ريتشارد قلب الأسد أخبار سيئة من الغرب، إذ أن أخاه حنا قام بثورة ضده، ما تطلَّب منه العودة إلى بلاده بسرعة، ولكنه لم يشأ أن يغادر الشرق قبل أن يحل مشكلات الصليبيين الداخلية وأن يتفاهم مع المسلمين.

أما المشكلات الداخلية للصليبيين، فقد حُلَّت باغتيال كونراد دي مونتفرات على يد الحشيشية في (١٣ ربيع الآخر ٥٨٨هـ/ ٢٨ نيسان ١١٩٢م)[(١)]، قبل أن يُتوَّج ملكاً على بيت المقدس، فتخلَّص ريتشارد، الذي اتُّهم من قِبل الفرنسيين بأن له ضلعاً في اغتياله، من خصم عنيد وتحكَّم في أمر صور، فاختار هنري دي شامباني ليتبوأ عرش مملكة بيت المقدس بعد أن تزوَّج من إيزابيلا أرملة كونراد ووريثة عرش المملكة[(٢)].

وأما المشكلات مع الجانب الإسلامي، فقد تطلبت حلاً من نوع آخر يقوم على القوة. فتطلع الملك ريتشارد قلب الأسد إلى استعادة بيت المقدس، فاستولى على قلعة الداروم بعد مقاومة من جانب حاميتها ومنحها لهنري دي شامباني مع كل ملحقاتها، لكنه فشل في الاستيلاء على مجدل يابا، فتوجه إلى عسقلان ومنها شرع بالزحف إلى بيت المقدس فوصل في (٢٧ جمادى الأولى/ ١٠ حزيران) إلى بيت نوبة[(٣)].

واستعد صلاح الدين من جهته لمقاومته، فسار إلى بيت المقدس وحصَّنها واستدعى قوات الأطراف، ثم عقد اجتماعاً مع أركان حربه للتشاور في أفضل السبل للدفاع عن المدينة، وبعد مناقشات كانت حامية أحياناً عجز عن إقناع أمرائه برأيه القاضي بالبقاء فيها والدفاع عنها من وراء الأسوار[(٤)]، ولم يُنقذه من هذا المأزق سوى قرار الملك ريتشارد قلب الأسد بوقف الزحف باتجاه بيت المقدس. فما الذي حدث على الصعيدين السياسي والعسكري أجبره على اتخاذ هذا القرار؟.

الحقيقة أنه تضافرت دوافع عدة أجبرت الملك الإنكليزي على الارتداد عن بيت المقدس، أهمها:

ـ رأى الملك ريتشارد قلب الأسد استحالة حصار المدينة واقتحامها بعد تحصينها

---

(١) ابن شداد: ص٣١٠. العماد الأصفهاني: ص٥٨٩، ٥٩٠. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص١٦٦، ١٦٧.

(٣) ابن شداد: ص٣١٣، ٣١٦. العماد الأصفهاني: ص٥٩١، ٥٩٢. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص١٧٨ ـ ١٨٥، ١٩٦ ـ ١٩٨.

(٤) ابن شداد: ص٣٢١، ٣٢٣، علماً بأن ابن شداد حضر جلسة المناقشة وروى ما جرى فيها.

من قِبل صلاح الدين، وما دام هذا حياً وكلمة المسلمين مجتمعة.

ـ الانقسام في الرأي بين الصليبيين، فقد أصرَّ الصليبيون الفرنسيون على مهاجمة المدينة مهما كانت الظروف، في حين كان للصليبيين المحليين وجهة نظر أخرى وهي أنه إذا استولى الملك ريتشارد قلب الأسد على بيت المقدس ثم غادر المنطقة مع أفراد الحملة الصليبية الثالثة، فإن العساكر المحلية ليست من كثرة العدد ما يكفي للصمود أمام القوات الإسلامية المتحدة، فاقتنع الملك بوجهة نظرهم.

ـ تناهى إلى أسماع الصليبيين أن جيشاً إسلامياً كبيراً خرج من القاهرة وهو في طريقه إلى بيت المقدس، فخشوا أن يقعوا بين فكي الكماشة، الجيش الإسلامي من الخارج والحامية من الداخل.

ـ كان وضع الصليبيين على الأرض في حال متردية بسبب مضايقة المسلمين لهم، وشدَّة ما عانوه من التعب ونقص في المؤونة وشدة البرد.

ويبدو أن كلّاً من صلاح الدين والملك ريتشارد قلب الأسد، لم يكن يُدرك تماماً ما حدث في مقر قيادة الطرف الآخر، لكن الراجح أن الصليبيين قد بالغوا في تقدير ما قد يتعرَّضون له من مقاومة من جانب المسلمين، وبخاصة بعد أن تمَّ تشتيت القوة التي خرجت من مصر عند آبار الخويلفة في فلسطين، بالإضافة إلى ما انتاب صلاح الدين من القلق الشديد، ولا شك بأن مجرى الأحداث كان قد تغيَّر لو علم كل طرف بما يجري في معسكر الطرف الآخر[١].

كان لتراجع الملك ريتشارد قلب الأسد ردُّ فعل في صفوف المسلمين والصليبيين:

ففي الجانب الإسلامي، فقد انتعش صلاح الدين، وارتفعت الروح المعنوية لرجاله، ورفض المسلمون التفاوض على أساس الشروط السابقة، بل إن صلاح الدين أوشك أن يقتل الرسول الذي أوفده هنري دي شامباني للمطالبة بإعادة بيت المقدس[٢].

وفي الجانب الصليبي، فقد استبدَّ الغضب بأفراد الجيش، وتهاوت روحهم المعنوية أثناء اجتيازهم الأراضي الموحلة في طريق العودة إلى الرملة، وانسحبت العساكر الفرنسية إلى يافا، كان من بينهم هيو دوق برغنديا، وتسلَّلت جماعة أخرى إلى عكا، وما جرى من قتال في داخل هذه المدينة بين الجنويين والبيزيين بسبب التنافس التجاري، زاد الموقف الصليبي حرجاً[٣].

ثم وقع الطرفان الإسلامي والصليبي في الجمود العسكري، فقد أراد صلاح الدين

(١) Grousset: III p109.

(٢) ابن شداد: ص٣٢٤. عاشور: جـ٢ ص٨٩٣.

(٣) عاشور: جـ٢ ص٨٨٤، ٨٨٥.

أن يُوفِّر الراحة لأفراد جيشه وينتظر قدوم الإمدادات من الجزيرة والموصل، وانصرف الملك ريتشارد قلب الأسد، نتيجة ما حصل في صفوف جيشه من انسحابات، إلى تقوية استحكامات عسقلان، ثم أبدى الفريقان رغبة في تصفية ما بينهما من مشكلات وحل النزاع بطريقة سلمية، وقد نشأ ذلك نتيجة رغبة صلاح الدين في التفرغ لشؤون دولته، ورغبة الملك الإنكليزي في العودة سريعاً إلى بلاده، وساد المفاوضات جو من التسامح ورحابة الصدر، فاقترح الملك أن:

- يحكم هنري دي شامباني مملكة بيت المقدس تحت حماية المسلمين، ويكون تحت إمرة صلاح الدين.

وعرض صلاح الدين أن:

- يحتفظ المسيحيون بما سبق أن استولوا عليه.
- يكون لهم الحق في أن يؤدوا الحج إلى بيت المقدس.
- يعود إليهم صليب الصلبوت.
- يحق لهم أن يضيفوا بيروت إلى أملاكهم الممتدة من صور إلى يافا.
- تحييد عسقلان بعد تدمير استحكاماتها[1].

الواضح أن صلاح الدين كان شديد الاهتمام بإبعاد الصليبيين عن عسقلان وما يليها من بلدان الساحل تجاه مصر، حتى لا تؤدي سيطرتهم على تلك الجهات إلى قطع طريق الاتصال بين مصر والشام، على أن الاتفاق لم يتم بسبب إصرار الملك ريتشارد قلب الأسد على التمسك بعسقلان وعدم تخريبها، فكان الرد هجوماً إسلامياً على يافا.

معركة يافا

تُعدُّ معركة يافا وما نتج عنها آخر صدام مسلح بارز وقع بين المسلمين وصليبيي الحملة الثالثة. وكان الملك ريتشارد قلب الأسد قد اتخذ من هذه المدينة قاعدة لجيشه إثر انتصاره في أرسوف نظراً لقربها من بيت المقدس، وفي الوقت الذي كانت فيه المفاوضات دائرة بين الجانبين، الإسلامي والصليبي، بشأن عقد الصلح، غادر الملك الإنكليزي يافا إلى عكا، وهو ينوي أن يعود إلى بلاده عن طريق البحر عبر بيروت إذا لم يتم توقيع معاهدة مع المسلمين.

هيَّأ هذا التحرك فرصة لصلاح الدين استغلها في تنظيم حملة على يافا وقد أمل في الحصول عليها وإعادة الثقة إلى جنده ومنع الملك الإنكليزي من احتلال بيروت، وما كاد يقترب من المدينة حتى أرسل أهلها رسالة عاجلة إلى الملك تحمل أنباء

(١) ابن شداد: ص٣٢٦. يعقوب الفيتري: ص١٦٨، ١٦٩.

الهجوم، فعاد مسرعاً عن طريق البحر وأرسل جيشاً عن طريق البر، غير أن الرياح العكسية حجزته عند رأس جبل الكرمل، ولم يشأ أفراد الجيش البري أن يبلغوا يافا قبل قدوم ملكهم، فتمهّلوا في سيرهم.

أتاح هذا التطور العسكري فرصة طيبة للمسلمين لتحرير يافا، وفعلاً دخلوها يوم الجمعة (١٨ رجب ٥٨٨هـ/ ٣٠ تموز ١١٩٢م) بعد قتال مرير مع حاميتها، وحاصروا قلعتها، فاضطر الصليبيون إلى طلب الصلح. ويبدو أن جو المفاوضات قد أثّر على معنويات العساكر الإسلامية فمالوا إلى الدعة، وتراخت همتهم.

وفي الوقت المحدد لتسليم القلعة هبط الملك الإنكليزي إلى البر وشنَّ هجوماً مضاداً باغت المسلمين، وأتاح له دخول المدينة وطرد المسلمين منها، وعندما أُعلم صلاح الدين بخبر الهزيمة لم يسعه إلّا أن يأمر جيشه بالارتداد[(١)].

صلح الرملة

جدَّد الملك ريتشارد قلب الأسد عرض الصلح مدفوعاً بعوامل عدة، منها:

- تدهور صحته بسبب مرض ألمَّ به واشتد عليه، حيث عجز عن قيادة قواته.
- وردت إليه أخبار أخرى مزعجة من إنكلترا تفيد بأن أخاه حنا ارتكب من الأعمال السيئة ما تتطلَّب عودة عاجلة.
- انقطاع النجدات العسكرية من أوروبا.
- يئس من استرداد بيت المقدس.
- ما حلَّ بالصليبيين من الإرهاق، وما أظهره كل من ابن أخته هنري، والطوائف الدينية العسكرية من عدم الثقة في سياسته[(٢)].

وأشار صلاح الدين إلى الأسباب التي دعته إلى قبول الصلح، ومنها:

- النزاع بين الأكراد والأتراك في جيشه.
- سآمة العساكر ومظاهرتهم بالمخالفة.
- ازدياد قوة العدو.
- خشيته من حدوث الخلاف، بعد وفاته، داخل أسرته وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة[(٣)].

استغرقت المفاوضات أياماً عدة، وكانت عسقلان وغزة والداروم نقاط الخلاف الرئيسة. وفي (٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م) حمل رسل صلاح الدين

---

(١) ابن شداد: ص٣٣٢ ـ ٣٣٧. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٢٣٠ ـ ٢٤٢.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص١٣٩.

(٣) ابن شداد: ص٣٤٨، ٣٤٩.

العرض النهائي، فوقَّعه الملك ريتشارد قلب الأسد، وأثبت هؤلاء أسماءهم إلى جانب اسمه على المعاهدة التي تنص على ما يلي:

- تكون عسقلان بأيدي المسلمين على أن يجري تخريبها.
- يتقاسم المسلمون والصليبيون اللد والرملة مناصفة.
- يحق للمسيحيين زيارة بيت المقدس بحريَّة.
- للمسلمين وللمسيحيين الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.
- مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء تُعدُّ جزءاً من المناطق الإسلامية التي تشملها المعاهدة، وفي المقابل اشترط الملك الإنكليزي ريتشارد دخول كل من صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس[(١)].

تعقيب على صلح الرملة

- كان صلح الرملة أشهر صلح عُقد بين الجانبين الإسلامي والصليبي، وسبب شهرته ما أعقبه من مغادرة الملك ريتشارد قلب الأسد للمشرق الإسلامي ثم وفاة صلاح الدين بعد مدة قصيرة، وكانا أشهر قائدين أنجبتهما الحروب الصليبية وأكثرهما جاذبية في الشرق والغرب[(٢)].
- قوبل صلح الرملة بفيض من التأييد والارتياح من كلا الجانبين بعد أن سئما الحرب الطويلة التي لم تؤد إلى نتائج حاسمة، وقد علَّق عليه ابن شداد بقوله: «فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة»[(٣)]، وهذا يعني أن المسلمين كانوا في وضع حرج.
- أضحى الطريق إلى الحجاز مفتوحاً أمام المسلمين، والطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام المسيحيين، وما كاد الاتفاق يتم حتى سارت جماعات من جيش الصليبيين لزيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس وهي تحمل جوازاً من الملك ريتشارد قلب الأسد[(٤)].
- الحقيقة أن الاتفاق بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد لم يكن متعذراً لولا مشكلة عسقلان وغزة والداروم، وهي المناطق الواقعة على الطريق إلى مصر التي

---

(١) ابن شداد: ص٣٤٢ ـ ٣٤٩. العماد الأصفهاني: ص٦٠٣ ـ ٦٠٥. يعقوب الفيتري: ص١٦٨، ١٦٩.

(٢) حسين: ص٢٤٣.

(٣) النوادر السلطانية: ص٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٩، ٣٥٠. مؤرخ إنكليزي مجهول: جـ٢ ص٢٦٨ ـ ٢٧٧.

أصرَّ صلاح الدين على استردادها ورفض الملك ريتشارد قلب الأسد إلا الاحتفاظ بها، ثم اضطر إلى التنازل عنها.

- حقَّق الملك ريتشارد قلب الأسد الانتصارات إلا أنها كانت جزئية ومحدودة، إذ ما زال صلاح الدين رابضاً في المناطق الداخلية يتحكم في دولة قوية تمتد من حلب ودمشق وبيت المقدس إلى وادي النيل، وتحيط ببقايا الإمارات الصليبية المتناثرة على شواطئ بلاد الشام، وقربه، في شريط ضيق لا يزيد عرضه عن عشرة أميال ويمتد نحو سبعين ميلاً[١].

- استطاع بوهيموند الثالث أن يحافظ على إمارته أنطاكية بفضل ما التزمه من الحياد، وأضحت طرابلس بيد ابنه بوهيموند الرابع، واستمر الأسبتارية في حصن الأكراد، في حين احتفظ الداوية بحصن أنطرطوس.

- حرص صلاح الدين على التحلي بالشهامة والمروءة والتسامح التي ميَّزت تعامله مع الصليبيين، فبالإضافة إلى أنه منَّ على الملك الإنكليزي أثناء مرضه بالفواكه والثلج، فإنه وافق على طلب هوبرت والتر أسقف سالسبري بتعيين اثنين من رجال الدين اللاتين، واثنين من الشمامسة اللاتين في كل من كنيسة القيامة وبيت لحم والناصرة، وذلك إلى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس واليعاقبة[٢].

- لم تلبث الحياة الطبيعية أن عادت إلى فلسطين، فأقبل الحجاج المسيحيون على بيت المقدس آمنين، وبالغ صلاح الدين في إكرامهم، كما استعادت الحياة التجارية حيويتها[٣].

- الواقع أن صلاح الدين لم يُقدم على مصالحة الصليبيين مختاراً، وإنما اضطرته الظروف إلى ذلك، ولو سارت الأمور وفق ما كان يتمنى لاستمر في الجهاد حتى تتحقَّق غايته الكبيرة بتطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي[٤].

- لقَّن صلاح الدين ريتشارد قلب الأسد درساً في التسامح والشهامة والعدل قبل أن يعود إلى بلاده في (٢٩ رمضان ٥٨٨هـ/ ٩ تشرين الأول ١١٩٢م) عن طريق عكا[٥].

نتائج الحملة الصليبية الثالثة

- بلغت الحملة الصليبية الثالثة، برحيل الملك ريتشارد قلب الأسد، نهايتها، فلن

---

(١) عاشور: جـ٢ ص٨٩٧.

(٢) Ambroise: l'Histoire de la Guerre Sainte: pp317-327.

(٣) أبو شامة: جـ٤ ص٣٣٠.

(٤) ابن شداد: ص٣٤٨، ٣٤٩.

(٥) رنسيمان: جـ٣ ص١٤٢. Grousset: III p119.

يتوجَّه إلى الشرق الأدنى الإسلامي، مرة أخرى، هذا الحشد من الملوك والأمراء، ومع أن أوروبا الغربية توحَّدت في ذلك العمل، وجهَّزت حملة كانت من أكبر الحملات الصليبية، فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً، وما حدث من إنقاذ صور على يد كونراد دي مونتفرات، ومن نجدة طرابلس من قِبَل الأسطول الصقلي، إنما جرى قبل وصول أفراد الحملة الصليبية الثالثة، وكل ما أسهم به هؤلاء لم يتعدَّ الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا فضلاً عن جزيرة قبرص، على أن أمراً واحداً قد تحقَّق هو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح[(١)].

- يعدُّ المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية، لأنها لم تُحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بُذل فيها من جهد ضخم، فضلاً عن أنها لم تنجح في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله، وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين[(٢)].

- كان من بين عوامل الفشل أن ملكي إنكلترا وفرنسا حملا معهما إلى الشرق ما بينهما من نزاعات سياسية محلية، على الرغم من اتفاقهما على التغاضي عنها قبل أن يتحركا من أوروبا الغربية.

- اختلف الطابع الروحي للحملة عن الحملتين السابقتين، إذ لم يكن للبابا دور كبير في توجيهها، وطغى عليها الطابع السياسي بما يحمل من خلفيات متناقضة.

- استمر تماسك الجبهة الإسلامية بعد أن اختفت النزاعات السياسية، على الرغم من تراجع قوة المسلمين العسكرية بسبب الإرهاق والتعب، إذ تحتَّم على القوات الإسلامية أن تقوم بأعمال عسكرية مستمرة مدة ثلاث سنوات في ظروف غير عادية، بالإضافة إلى ما حصل من تشنجات سرعان ما امتصها صلاح الدين بحكمته، نذكر منها النزاع الذي حصل بين العنصرين التركي والكردي في جيشه[(٣)].

- تميزت الحملة الصليبية الثالثة بحدوث تفاهم كبير بين المسلمين والصليبيين، فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما، وتعدَّى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة وإرسال الفواكه والثلج إلى الملك ريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه، وحضور طبيب صلاح الدين الخاص لمعالجته.

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص١٤٥.

(٢) Cambridge Medieval History: V p311.

(٣) ابن شداد: ص٣٢٢.

الفصل الثالث والعشرون

الأوضاع السياسية في الشرق الأدنى حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي

وفاة صلاح الدين

بلغ صلاح الدين في عام (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) السابعة والخمسين من عمره، غير أن ما تعرَّض له من الإرهاق والتعب طوال مدة حروبه ضد الصليبيين أنهك صحته. أقام في بيت المقدس حتى علم برحيل الملك ريتشارد قلب الأسد، فالتفت إلى تنظيم الشؤون الإدارية لإقليم فلسطين(١)، غير أن العمل ألحَّ عليه بضرورة المسير إلى دمشق، وبعد أن قام بجولة في البلاد التي فتحها استمرت ثلاثة أسابيع، اجتمع خلالها مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية في بيروت لتوقيع صلح نهائي(٢)، ووصل إلى دمشق في (٢٦ شوال ٥٨٨هـ/ ٤ تشرين الثاني ١١٩٢م)(٣).

وما تجمَّع خلال السنوات الأربع التي أمضاها في القتال من مشكلات إدارية وتراكم الأعمال التنظيمية، استدعى أن يؤجل زيارته إلى مصر وتأدية فريضة الحج(٤)، وتطلبت منه بذل مجهود كبير لتعويض ما خرَّبته الحرب.

وما تهيأ له في وقت الفراغ أمضاه في المناقشات مع العلماء في المسائل الدينية، وكان يخرج للصيد أحياناً، على أن كل من شاهده، ممن عرفه، في أواخر الشتاء أدرك أن صحته قد انهارت، فصار يشكو من التعب والنسيان، ولم يعد باستطاعته أن يستقبل الناس.

وفي (١٦ صفر ٥٨٩هـ/ ٢١ شباط ١١٩٣م) انتابته حمَّى صفراوية استمرت اثني عشر يوماً، وقد تحمَّل أعراض المرض بجلد وهدوء، وقد علم أن النهاية اقتربت.

---

(١) ابن شداد: ص٣٥١.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٥٢، العماد الأصفهاني: ص٦١٦ ـ ٦١٨.

(٣) ابن شداد: ص٣٥٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٥٤، العماد الأصفهاني: ص٦١٩.

وفي (٢٤صفر/أول آذار) انتابته غيبوبة، وبعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء (٢٧صفر/ ٤ آذار)، وفي الوقت الذي كان الشيخ أبو جعفر إمام الكلَّاسة يتلو أمامه القرآن، وحتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فتح صلاح الدين عينيه وتبسَّم، وتهلَّل وجهه، وسمعه وهو يقول: «صحيح...» ثم مضى إلى ربه في قلعة دمشق، فتولى تجهيزه القاضي الفاضل والقاضي المؤرخ ابن شداد، وغسَّله خطيب دمشق، واجتمع عليه الناس في القلعة، وصلُّوا عليه ودُفن فيها، وعمَّ الحزن الكبار والصغار، ثم جلس ابنه الملك الأفضل علي للعزاء ثلاثة أيام، وأرسل الكتب إلى أخيه العزيز عثمان في مصر، وأخيه الظاهر غازي في حلب، وعمه العادل في الكرك، فحضروا، ثم حُصرت تركته فكانت ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً، ولم يُخلِّف من المال سواها ثابتاً أو منقولاً[١].

شخصية صلاح الدين

تمتع صلاح الدين بخصائص عسكرية فذَّة جعلت منه أعظم قادة زمانه، ومكَّنته من تحقيق انتصارات مذهلة على الصليبيين وفتْح مدنهم. اعتمد في حروبه على الجيش الذي أنشأه والمؤلَّف من الأكراد والأتراك والمتطوعة، واشترك العلماء والفقهاء أيضاً في الجهاد، ويقاتل الجميع طلباً لإحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة، ونفَّذ في خططه أساليب العرب التقليدية من واقع تقسيم الجيش إلى فرق، ونصب الكمائن، وسلك في معظم معاركه خطاً واحداً هو المبادأة بالهجوم السريع، ونفَّذ إلى جانب المعارك الالتحامية خطط الحرب الخاطفة واستعمل الحيل في الحروب، وكان يضطر أحياناً لمهادنة أعدائه وفقاً للظروف المحيطة بالاشتباك، وقد بلغ من شدة حبه للجهاد أنه هجر أهله وأولاده وداره وسائر ملاذه، واتصف بشدة الصبر وقوة التحمل، وكان يقظاً، حذراً، متنبهاً، ولم يُعرف عنه أنه كان يستبد برأيه، وخرج عن العُرف السائد في عصره فيما يتعلق بمعاملة أسرى الحرب، فأنشا ديوان الأسرى للإشراف على شؤونهم والاعتناء بهم.

لم يضع صلاح الدين السلطات كافة في يده، فقسَّم دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، ويبدو أن تفتت دولته بعد وفاته وتقسيمها بين أبنائه وإخوته كان أثراً من آثار هذه السياسة الإدارية التي منحها لأبنائه ونوابه.

---

(١) ابن شداد: ص٣٥٩ ـ ٣٦١، ٣٦٣ ـ ٣٦٦. يصف هذا المؤرخ مرض صلاح الدين وأحواله في مرضه يوماً بيوم، علماً بأنه كان حاضراً أثناء ذلك وملازماً لصلاح الدين.

وسار النشاط العمراني في دولة صلاح الدين في خط مواز مع النشاط العسكري الجهادي، ولعل أهم إنجازاته الإنشائية بناء المدارس والمستشفيات والخوانق (الخانقاه والرباط والزاوية) والخانات والمساجد.

اتصف صلاح الدين بالتقوى، وهو ذو إيمان عميق وفطرة سليمة صافية، يتصرف بشفافية روحية، وكان من شدة حرصه على عقيدته أنه كان يُعلِّمها الصغار من أولاده حتى تترسخ في أذهانهم منذ الصغر، وظهر تدينه واضحاً في مسلكه وفي علاقاته الداخلية والخارجية، وكان خاشع القلب غزير الدمع لدى سماعه قراءة القرآن، يواظب على سماع القرآن والحديث وهو بين الصفين في المعركة، وأبى تدينه أن يدع أولاده يشبُّون على سفك الدماء، ولم يفخر بما يفعل من الأعمال الجليلة.

عُرف عن صلاح الدين منذ شبابه أنه كان أكثر نزوعاً إلى العلوم الدينية منه إلى العلوم العسكرية، حفظ القرآن الكريم، والتنبيه في فقه الإمام الشافعي، والحماسة لأبي تمام، ذاكراً لوقائع العرب، حافظاً لأنسابهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها.

اتصف صلاح الدين بخصال التواضع والحلم والعفو عند المقدرة، قريباً من الناس، لم يتكبَّر على أحد من أصحابه، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيمدُّ الطعام، ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويُصلِّي، وكان بساطه يُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر بذلك، واشتهر بالكرم، وهو حريص على نشر العدل بين الرعية يُسوِّي في محاكاته بين الناس كبيرهم وصغيرهم، يجلس في دار العدل بحضور القضاة والعلماء لاستشارتهم فيما يُصدر من أحكام، وكان قدوة حسنة لأتباعه، يبدأ العمل بنفسه ثم يدعو غيره للاقتداء به، وبسبب هذا أحبه الناس من العامة والخاصة واحترموه.

أوضاع الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين

ترك صلاح الدين بعد وفاته دولة واسعة الأرجاء، وسبعة عشر ولداً وبنتاً واحدة، هي مؤنسة خاتون التي تزوَّجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن العادل الذي سُمِّي فيما بعد بالملك الكامل[1].

وكان صلاح الدين قد وزَّع خلال حياته السياسية البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته، مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة، فتقاسم هؤلاء التركة

(١) العماد الأصفهاني: ص٦٢٩.

الصلاحية بعد وفاته في ظل ما حدث من المؤامرات والحروب بينهم من أجل السيادة وتزعم الأسرة الأيوبية.

احتفظ الأفضل علي، وهو الابن الأكبر لصلاح الدين، بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبُصرى وبانياس وهونين إلى الداروم، وكان والده قد أعدَّه لأن يلي من بعده دمشق وزعامة البيت الأيوبي.

واحتفظ الابن الثاني العزيز عثمان بمصر، وامتد سلطانه فشمل جنوبي فلسطين باستثناء الكرك.

وأخذ الابن الثالث وهو الظاهر غازي حلب وجميع أعمالها، بالإضافة إلى شمالي بلاد الشام مثل حارم وتل باشر وعزاز ودربساك وغيرها.

وكان الأخ الأصغر لصلاح الدين وهو العادل في الكرك عند وفاته، فاحتفظ بها وبالأردن فضلاً عن الجزيرة الفراتية وديار بكر، وهي إقطاعات ثانوية لا تتناسب مع ما قدَّمه للدولة الأيوبية في حياة أخيه.

وتقاسم بقية الأبناء والإخوة عدداً من الإمارات. فأخذ الظاهر خضر بن صلاح الدين بصرى وحوران، وهو في خدمة أخيه الأفضل علي، وكانت حصة الأمجد بهرام شاه، ابن أخي صلاح الدين، بعلبك، وحصة المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني حمص والرحبة، وكلاهما في خدمة الملك الأفضل علي، وأخذ المنصور الأول محمود بن تقي الدين عمر، حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم المطلة على الفرات، وهو في خدمة عمه الظاهر غازي، وحصل سيف الإسلام طغتكين، وهو الأخ الرابع لصلاح الدين، على اليمن وجزيرة العرب[(١)].

النزاعات الأسرية بين الأيوبيين

حمل هذا التوزيع في التركة الذي كان صلاح الدين قد بدأه؛ بذور الشقاق والضعف، وقد نتج عنه تقويض أركان الدولة وسقوط المدن التي كان قد فتحها من بيروت إلى عسقلان، وأخذت الجبهة الإسلامية بالتداعي بعد وفاته، ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي، والتي انتهت بانتصار العادل الذي أعاد توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه وأصبح جميع الأمراء الأيوبيين خاضعين له، وحصل على تقليد من الخليفة العباسي الناصر[(٢)]، ثم بدأ بتنظيم الدولة، فأناب ابنه

(١) انظر، فيما يتعلق بهذا التوزيع في المناصب: ابن شداد: ص٣٦١ ـ ٣٦٣، العماد الأصفهاني: ص٦٣٣ ـ ٦٤٤. ابن الأثير: جـ١٠ ص١٢٠.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٢٧، ٣٢٨. ابن تغري بردي: جـ٦ ص١٧٢.

الكامل محمد في حكم مصر، وجعل ابنه المعظم عيسى نائباً عنه في دمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة، وأعطى ابنه الأشرف موسى حرَّان والرها والولايات الشرقية، وأعطى ابنه الحافظ نور الدين أرسلان شاه قلعة جَعْبَر، في حين بقي الظاهر غازي في حلب والأفضل علي في سميساط وأعمالها وهما تابعين له، وأقطع المنصور بن العزيز حماة وأعمالها، وأبقى لنفسه الإشراف التام على جميع تلك الأنحاء[1].

وهكذا ارتكب العادل بهذا التوزيع الخطأ نفسه الذي ارتكبه صلاح الدين عندما وزَّع إرثه بين أولاده وإخوته ما أدَّى إلى إضعاف الأيوبيين؛ لأن هذا التوزيع سبَّب التنافر والتحاسد بين الإخوة، وأعاد من جديد المأساة التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين.

قيام مملكة بيت المقدس الجديدة

غدت عكا قاعدة لمملكة بيت المقدس الصليبية بعد تحرير مدينة بيت المقدس على يد صلاح الدين، وقد أحياها الملك ريتشارد قلب الأسد قبل أن يغادر الشرق الأدنى، ولعله من الواضح أن هذه المملكة أضحت في وضعها الجديد ليست إلا مملكة عكا، وأن احتفاظها باسمها القديم ليس له صفة قانونية أو واقعية، وقد أفقدها ذلك كثيراً من هيبتها الأولى فضلاً عن افتقارها لصفة الدولة المنظمة[2].

اتخذت هذه المملكة في وضعها الجديد صفة بحرية بحتة بعد أن فقدت نفوذها في الداخل، وأضحت لا تضم إلا أراضٍ ساحلية، الأمر الذي جعلها أكثر ارتباطاً بالغرب الأوروبي، وأكثر اعتماداً على حماية الأساطيل الإيطالية ما جعل القوى الغربية، وبخاصة الجمهوريات الإيطالية التجارية، تستغل مساعدتها لها لفرض نوع من الحماية عليها والتدخل في شؤونها[3].

وظهرت بوضوح بعد رحيل الملك ريتشارد قلب الأسد عوامل التفرقة بين الصليبيين، وبخاصة بين الإنكليز والفرنسيين، ما ترك أثراً سيئاً على الوضع الصليبي العام، وأدَّى إلى إضعاف الصليبيين في القرن الثالث عشر الميلادي.

حرص هنري دي شامباني، ملك مملكة بيت المقدس الجديدة، على إحياء مملكته وتدعيم نفوذه، إلا أنه واجه عقبات عدة من جانب آل لوزينان الذين أسسوا مملكة صليبية في جزيرة قبرص، بالإضافة إلى البيازنة، وربما أضعف من مركزه وقيَّد

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٢٧، ٣٢٨.

(٢) Cambridge Medieval History: V p 312.

(٣) Archer: pp 347, 348.

سلطته أنه لم يُتوَّج ملكاً على الصليبيين، ولعله كان ينتظر اليوم الذي يسترجع فيه بيت المقدس ليُتوَّج فيها، أو لعله أدرك أن الرأي العام الصليبي ليس راغباً في الاعتراف به ملكاً أو أنه لم يلق التأييد من الكنيسة، وسانده العلمانيون وبخاصة زعيمهم باليان إبلين، والطوائف الدينية العسكرية[١].

حدث ذلك في الوقت الذي استولى فيه جاي لوزينان على مقاليد الأمور في جزيرة قبرص وقد تُوِّج ملكاً عليها بمساعدة البابوية والامبراطور الألماني هنري السادس، وقد ترتب على ذلك أن اعترف بتبعيته للامبراطورية الغربية ما ترك تأثيراً سلبياً على علاقاته مع بيزنطية.

وأخذ جاي لوزينان يفكر، بعد أن استقر في قبرص، في استعادة عرشه المفقود في بيت المقدس، فاتصل بالأيوبيين والبيازنة لتحقيق حلمه، فأرسل وفداً إلى صلاح الدين لطلب المساعدة، ويبدو أنه كان يخشى على حكمه من هجوم قد تقوم به بيزنطية ضد جزيرة قبرص لإعادة النفوذ البيزنطي إلى الجزيرة، بدليل أن صلاح الدين استقبل بعد ذلك رسل الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس تطلب منه أن يساعده في مهاجمة الجزيرة[٢]، غير أن صلاح الدين لم يستجب لرغبات أحد الفريقين، إذ وجد في «افتراق كلمتهم نصر للإسلام».

وعندما يئس جاي لوزينان من مساعدة صلاح الدين التفت إلى محالفة البيازنة، فوعدهم بامتيازات وفيرة، وكان هؤلاء قد غضبوا لما أبداه هنري دي شامباني من العطف على الجنويين، فوضعوا خطة للاستيلاء على صور وتسليمها له، وذلك في (جمادى الأولى ٥٨٩هـ/ أيار ١١٩٣م)[٣]، وعندما اكتشف هنري المؤامرة، أمر بتخفيض عدد أفراد جالية البيازنة إلى ثلاثين شخصاً، وانتقم هؤلاء بأن أغاروا على شواطىء المملكة بين صور وعكا، عندئذٍ اضطر إلى طردهم من عكا وبقية المدن الساحلية ليأمن شرهم[٤].

وهكذا سيطر العداء الشديد بين فئات الصليبيين، بين هنري دي شامباني ملك مملكة بيت المقدس من ناحية وجاي لوزينان والبيازنة من ناحية أخرى، وظل الوضع كذلك حتى توفي جاي لوزينان في (ربيع الآخر ٥٩٠هـ/ نيسان ١١٩٤م)، وخلفه أخوه عموري لوزينان الذي انتهج سياسة معتدلة تجاه هنري دي شامباني عزَّزها بالمصاهرة، إذ تزوج هيو، ابن عموري، أليس ابنة إيزابيلا ملكة مملكة بيت المقدس وزوجة هنري دي شامباني، وكانت الحاجة ماسة بأن يتحد الصليبيون في قبرص مع

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص١٥٥.
(٢) ابن شداد: ص٣١١.
(٣) عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص٣٣.
(٤) Estoire d'Eracles: II p202.

صليبيي الساحل الشامي، وأن يتعاونوا في حرب المسلمين، كما أن استيلاء الصليبيين على قبرص ليس له من هدف سوى أن يستفيد منه الصليبيون بفلسطين، ويمدهم بقاعدة بالغة الأمن[١].

الصراع الصليبي - الأرمني على أنطاكية

ظل المسيحيون في شمالي بلاد الشام في السنوات التالية في اضطراب دائم نتيجة الصراع الصليبي ـ الأرمني على أنطاكية، وقد تغيَّر الموقف السياسي بشكل جذري في الشرق قبل مدة زمنية طويلة من تسوية المشكلة التي تتلخَّص في قيام صراع بين بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وخلفائه من بعده، وبين ليو الثاني الذي تُوِّج ملكاً على أرمينية الصغرى في الركن الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى، بمساعدة الامبراطور الألماني هنري السادس والبابوية، والذي راح ينظر إلى أنطاكية كمجال للتوسع، ويطمع في امتلاك منطقة الحدود بينها وبين أرمينية الصغرى الممتدة بين بغراس حتى أياس، تمهيداً للاستيلاء على أنطاكية نفسها، وبخاصة أن أميرها بوهيموند الثالث اتسم بالضعف، وقد فجَّرت هذه القضية الأوضاع في شمالي بلاد الشام.

لكن أُتيح لبوهيموند الثالث أن يدعم موقفه بربط إمارتي أنطاكية وطرابلس بعد أن ورث ابنه بوهيموند الرابع حكم إمارة طرابلس، إلا أنه لم يكن بالرجل الذي يحرص على مصلحته ومصلحة إمارته، إذ اختار أن يتحالف مع جاي لوزينان ملك قبرص خشية من أن يكون لكونراد دي مونتفرات مطامع في طرابلس، فضلاً عن أنه لم يقم بأي عمل جدِّي لاستعادة ما خسره من مدن في حوض نهر العاصي، وفشل في استعادة اللاذقية وجبلة، واغتبط بما قَبِلَه صلاح الدين من هدنة أتاحت له الاحتفاظ بأنطاكية ومينائها السويدية.

والواقع أنه لم يشأ أن يرى على حدوده الجنوبية ملكاً قوياً يميل لمهاجمته نظراً لأنه كان منصرفاً إلى النزاع مع جاره الشمالي ليو الثاني[٢]، ولم يلبث هذا الأخير أن حاك مؤامرة انتهت بالقبض على بوهيموند الثالث عند بغراس في (شوال ٥٨٨هـ/ تشرين الأول ١١٩٢م)، وأعلن الملك الأرمني أنه لن يُفرج عنه إلا إذا منحه أنطاكية[٣].

لم يسع بوهيموند الثالث إلا أن يقبل شرط ليو الثاني، ولعله لم يفعل ذلك إلا

---

(١) Estoire d'Eracles: II pp207, 208, 212, 213. Hill, G: History of Cyprus II p44.

(٢) ابن العبري: ص٢٢٧. رنسيمان: جـ٣ ص١٦٢.

(٣) ابن العبري: المصدر نفسه.

بتحريض زوجته سيبيلا التي كانت تأمل بضمان ولاية الحكم لابنها وليم على حساب أبناء زوجها بمساعدة الملك الأرمني، فأرسل اثنين من فرسانة إلى أنطاكية لوضع ترتيبات نقل السلطة، لكن أهل أنطاكية من الأرثوذكس واللاتين ارتاعوا لما حدث ولم يتقبَّلوا الوضع الجديد، وثاروا بزعامة إيمري دي ليموج بطريرك أنطاكية وطردوا القوات الأرمنية، وأقسموا يمين الولاء لريموند الثالث، أكبر أبناء بوهيموند الثالث، ونصَّبوه أميراً عليهم حتى يعود والده من الأسر.

وأرسل ريموند الثالث في تلك الأثناء إلى أخيه بوهيموند الرابع أمير طرابلس وإلى هنري دي شامباني ملك بيت المقدس في عكا، يعرض عليهما القدوم إلى أنطاكية للحفاظ عليها من الأرمن.

وهرع بوهيموند الرابع إلى أنطاكية تلبية لنداء الاستغاثة، فأدرك ليو الثاني أن فرصته قد ضاعت، فغادر إلى عاصمته سيس مع أسراه[1]، وقرَّر هنري دي شامباني في غضون ذلك أن يتدخل، إلا أنه رأى أن ليس من مصلحة الصليبيين في الشرق إثارة حرب مع الأرمن، لأن مثل هذه الحرب لن يستفيد منها سوى المسلمين.

وإذ كره ليو الثاني أن يواجه حرباً سافرة، اجتمع مع بوهيموند الثالث أمام سيس، وأبديا استعدادهما للتفاوض من أجل إيجاد تسوية، وتمَّ الاتفاق على حل مشكلة الحدود على الشكل التالي:

- يتنازل بوهيموند الثالث لملك أرمينية الصغرى عن المنطقة المتنازع عليها حول بغراس.
- ألَّا يكون كل من الرجلين سيداً على الآخر.
- يُطلق سراح بوهيموند الثالث من دون أن يؤدي فدية.

ولتوثيق المعاهدة والروابط بين أنطاكية وأرمينية الصغرى، تمَّ زواج ريموند الثالث، الابن الأكبر لبوهيموند الثالث، من الأميرة الأرمنية أليكس، ابنة روبين شقيق ليو الثاني وذلك في عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م)[2]، غير أن ريموند الثالث توفي فجأة في عام (٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) قبل أبيه، ولم ينجب إلا طفلاً واحداً هو ريموند روبين، ووفقاً لأحكام قانون الإقطاع الغربي، فإن حكم أنطاكية يجب أن يؤول إلى ريموند روبين، بوصفه ابن الوريث الشرعي للإمارة، وسانده كونراد رئيس أساقفة ماينز، فأجبر بوهيموند الثالث وأمراءه على أن يقسموا له يمين الولاء، غير أن ابنه

---

(١) سيس: بلد من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس. الحموي: جـ٣ ص٢٩٧.

(٢) Sempad: Chronique de Petite Armenie: pp 631, 632. Cahen: La Syrie du Nord: pp 585, 586.
ابن العبري: ص٢٥٢.

بوهيموند الرابع رفض الاعتراف بهذا اليمين، وعزم على أن يظفر بعرش أنطاكية. ورفض الصليبيون في المدينة أن يحكمهم أمير أمه أرمنية ويتمتع بمساندة ليو الثاني، فاستدعوا بوهيموند الرابع ليسندوا إليه حكم الإمارة(١)، قَبِل أمير طرابلس أن يحكم أنطاكية متحدياً بذلك حقوق أخيه في وراثة الإمارة.

وهكذا قام صراع عنيف في أنطاكية بين بوهيموند الرابع من ناحية، وليو الثاني المدافع عن حقوق ريموند روبين وأمه من ناحية أخرى، وعقَّد هذه القضية ما جرى من تحالفات. فقد اعتمد بوهيموند الرابع على الصليبيين في أنطاكية والبيزنطيين الأرثوذكس أعداء الأرمن، فضلاً عن الداوية الذين كانوا في نزاع دائم مع مملكة أرمينية الصغرى حول ملكية حصن بغراس، وغيره من الحصون الواقعة قرب الحدود مع بلاد الشام وأرمينية الصغرى.

وأبدى الظاهر غازي صاحب حلب استعداده بإرسال الإمدادات إليه، وفي المقابل، ساند الأسبتارية ليو الثاني الذي استقطب البيازنة والجنويين بالرشوة، وذلك بما منحهم من الامتيازات التجارية، ودعمته الكنيسة والبابا إنوسنت الثالث. وعندما توفي بوهيموند الثالث في (رجب ٥٩٧هـ/ نيسان ١٢٠١م) لم يجد بوهيموند الرابع صعوبة في أن يستقر في إنطاكية(٢).

كان من حسن حظ الصليبيين أنه لم يكن حكام السلاجقة في آسيا الصغرى والأيوبيون في وضع يسمح لهم بالقيام بحرب للفتح والتوسع في تلك الجهات، وبالتالي لم يستغل المسلمون بعامة هذا النزاع المسيحي. فقد أعقب وفاة السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني في عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) اندلاع حرب طويلة الأمد بين أبنائه، ولم يتمكَّن ابنه ركن الدين سليمان شاه من إعادة توحيد البلاد إلا بعد مرور عشر سنوات، وكان الظاهر غازي صاحب حلب على جفاء مع عمه العادل، فأحجم عن فتح جبهة خارجية مع أنطاكية، وأضحى لأهل هذه المدينة من الحرية ما جعلهم يمضون في خلافاتهم بدون أن يتعرَّضوا للتدخل من جانب المسلمين(٣).

استمرار العلاقات الجيدة بين الأيوبيين والصليبيين في عكا

حرص هنري دي شامباني، في بداية حكمه لمملكة بيت المقدس الجديدة، على استمرار العلاقات الجيدة مع الأيوبيين وألا يُنقض صلح الرملة الذي يمتد حتى نهاية عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م). وما جرى من نزاعات داخل الأسرة الأيوبية آنذاك منع

(١) Estoire d'Eracles: II p213.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص١٨٤، ١٨٥.

(٣) المرجع نفسه. ابن العبري: ص٢٣٢ ـ ٢٣٤.

المسلمين من مهاجمة عكا، ودفع العزيز عثمان، صاحب مصر الأيوبي، إلى تجديد الهدنة مع هنري دي شامباني وزاد في مدتها[١]، على أنه تعذَّر تحقيق الاستقرار ودوام السلم مدة طويلة، ذلك أن عز الدين أسامة أمير بيروت، استمر في مضايقة الصليبيين وقطْع طريق البحر على سفنهم ومهاجمتها، وذهبت عبثاً شكاوى الصليبيين إلى العادل في دمشق أو العزيز عثمان في القاهرة، فلم يمنعا أسامة من ذلك، ويبدو أنه لم يكن بوسعهما ضبطه وكبح جماحه[٢].

ظل الوضع كذلك حتى مجيء الألمان إلى بلاد الشام في عام (٥٩٣هـ/١١٩٧م) بناء على دعوة هنري دي شامباني، وإذا كان الصليبيون قد استولوا على جبيل في تلك السنة، فإن هذا الاستيلاء تمَّ بطريقة سلمية هادئة، ولا يمكن عده بأي حال رداً على هجمات المسلمين[٣].

جموع صليبية ألمانية تغزو بلاد الشام

لم يَخْفَ على الغرب الأوروبي ما جرى من نزاعات داخل الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، ما أغرى الامبراطور الألماني هنري السادس، وهو من أشد المتحمسين لإثارة الحرب الصليبية، إلى العمل على:

- استعادة بيت المقدس.
- تحقيق أطماعه بإخضاع الشرق اللاتيني والامبراطورية البيزنطية للامبراطورية العالمية في الغرب.

ولذا كان أول عمل قام به، بعد أن استقر له الأمر في أوروبا في عام (٥٨٦هـ/١١٩٠م)، هو محاولة استعادة ما للألمان من مكانة في الأراضي المقدسة، فأعدَّ حملة صليبية لهذا الغرض بقيادة كونراد رئيس أساقفة ماينز وأدولف كونت هولشتين، ووضع خطة تستهدف انتزاع القسطنطينية أولاً من أيدي اليونان الأرثوذكس، ثم بيت المقدس من أيدي المسلمين[٤].

ولم تلبث جموع الصليبيين الألمان أن توافدت على بلاد الشام، ووصلت طلائعهم إلى عكا في (شوال ٥٩٣هـ/آب ١١٩٧م)، وتوقف القائدان في قبرص لتتويج عموري لوزينان، وسبقهما هنري دوق برابانت على رأس جماعة من

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٤٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) يعقوب الڤيتري: ص١٧٠. لقد تآمرت ستيفاني ميللي صاحبة جبيل مع الأمير الكردي الذي يحكم جبيل، فهيأ لها أن تستعيد المدينة بدون قتال، وسلَّمتها إلى ابنها جاي الأول أمبرياكو. Grousset: IV p147.
(٤) Tout: p304. Cambridge Medieval History: V p473.

رفاقه[1]، وبذلك تعكّر الهدوء النسبي الذي كان سائداً بين المسلمين والصليبيين.

لم يستقبل الملك هنري دي شامباني القوات الألمانية بارتياح، إذ أدرك ما تنطوي عليه إثارة حرب لا داعي لها في الوقت الراهن، ونصحه مستشاروه أن يتفاهم مع المسلمين وأن ينتهج سياسة دقيقة وبخاصة مع أبناء صلاح الدين وإخوته، وتحقَّقت هذه السياسة، وساد السلام على الرغم مما أثاره عز الدين أسامة أمير بيروت من قلق من واقع مهاجمة السفن الصليبية كما ذكرنا.

ومهما يكن من أمر، فقد تقدمت القوات الألمانية، من دون إذن الملك هنري دي شامباني، من عكا إلى الجليل للإغارة على هذا الإقليم، ما أثار حفيظة العادل الذي تقع أملاكه في الجليل، ولم يستطع السكوت على أولئك الألمان الذين «انتشروا في الساحل وكثروا فيه»[2]، لذلك أسرع إلى التماس المساعدة من الأمراء الأيوبيين في الجزيرة الفراتية شمالاً حتى مصر جنوباً، وحثَّهم على تناسي ما بينهم من خلافات، واجتمعت الجيوش الإسلامية في عين جالوت إلى الجنوب الشرقي من الناصرة.

ولم يكد الألمان يجتازون الحد الإسلامي حتى انتشر خبر اقتراب العادل منهم، وبالغت الشائعات في ضخامة عدد المسلمين، فارتاعوا وولوا الأدبار هاربين إلى عكا، وتخلَّى الفرسان، في غمرة الانسحاب السريع، عن المشاة، وتراءى أن العادل سوف يزحف على عكا من دون أن يصادف مقاومة، ولم تلبث جيوش المسلمين أن أحاطت بالجنود الألمان عند رأس الماء بمرج عكا[3]، غير أن الملك هنري دي شامباني، بناء على نصيحة هيو صاحب طبرية، حشد القوى الصليبية لمساندة المشاة الألمان، فأضحوا مستعدين للصمود في وجه المسلمين.

ويبدو أن العادل لم يكن مستعداً لخوض معركة فاصلة، فانحرف إلى اليمين وزحف على يافا. كانت المدينة منيعة الاستحكامات، غير أنه لم تكن فيها غير حامية قليلة العدد، ولم يكن بوسع الملك هنري دي شامباني أن يُعزِّزها، والمعروف أن يافا كانت تابعة اسمياً لعموري لوزينان ملك قبرص، فعرض عليه الملك هنري أن يمنحه إياها مقابل الدفاع عنها ضد المسلمين، إلا أن الملك عموري أرسل أحد رجاله وهو رينولد بارلييه ليتولى حكمها والدفاع عنها، وكان يميل إلى اللهو والعبث، وسرعان ما وردت الأنباء إلى عكا بضعف الاستعدادات التي نفَّذها، وأنه لا يبالي بوقوع المدينة في أيدي المسلمين، وليس في نيته مقاومة العادل. عندئذٍ أسرع الملك هنري دي شامباني إلى إعداد العدة للدفاع عن المدينة بنفسه، وحشد

---

(١) Estoire d'Eracles: II pp211, 214 - 216

(٢) ابن واصل: جـ٣ ص٧٤.

(٣) أبو شامة: جـ٤ ص٤٤٠.

كل ما استطاع أن يستغني عنه من العساكر في عكا، والتمس المساعدة من البيازنة، واحتشدت العساكر الصليبية في فناء قصره بعكا في (٢٥ شوال ٥٩٣هـ/ ١٠ أيلول ١١٩٧م)، فاستعرضهم من النافذة في الطابق العلوي، وفي تلك اللحظة دخل رسل البيازنة إلى الحجرة فالتفت لتحيتهم، وإذ نسي أين كان يقف، تراجع خطوات عدة إلى النافذة المفتوحة وهوى مع تابعه إلى الرصيف أسفل القصر، ولقي الاثنان مصرعهما[١].

وما حدث من اختفاء الملك هنري دي شامباني فجأة وفي هذه الظروف الحرجة، أدَّى إلى أن تقع المملكة كلها في اضطراب وذعر، وكانت خسارة الصليبيين مزدوجة، خسارتهم بوفاته وخسارتهم بضياع يافا، فكان لا بد من اختيار خلف له على وجه السرعة ليواجه ما استجدَّ من مشكلات.

كانت زوجته إيزابيلا وارثة عرش المملكة لأنه لم يبق على قيد الحياة من أطفالها سوى ابنتين صغيرتين هما أليس وفيليبا، أما ابنتها ماريا، من كونراد دي مونتفرات، فلم تتجاوز الخامسة من عمرها، وقد اعترف لها البارونات بهذا الحق.

وإذ اشتد الحزن بها، لم تستطع أن تباشر سلطتها، وأضحى من الواضح أنه لا بد لها من أن تتزوج مرة أخرى برجل قوي يستطيع الدفاع عن كيان الصليبيين في بلاد الشام، وكان أن اتجه التفكير إلى تزويجها بعموري لوزينان ملك قبرص وتوحيد تاجي مملكة بيت المقدس وقبرص[٢].

وسرعان ما قوبلت هذه الفكرة بالاستحسان من قِبل مختلف الأطراف مثل الداوية والأسبتارية، ومعظم الأمراء الصليبيين في بلاد الشام، فضلاً عن البابا إنوسنت الثالث والامبراطور الألماني هنري السادس. وفعلاً تمَّ الزواج في عام (٥٩٤هـ/ ١١٩٨م)، وبذلك أضحى الدفاع عن الصليبيين في بلاد الشام واجباً على ملوك قبرص من آل لوزينان[٣].

على أن هذا الاتحاد ظل ناقصاً، ولم يشمل سوى السياسة الخارجية فقط، أما فيما يتعلق بالناحيتين الإدارية والاقتصادية، فقد أعلن الملك عموري منذ البداية أن المملكتين ستكونان تحت إدارتين منفصلتين، وأن أموال قبرص لن تُنفق من أجل

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٤٥. يعقوب الڤيتري: ص١٦٩ Ernoul: p306. Estoire d'Eracles: II p220.

(٢) عاشور: قبرص والحروب الصليبية: ص٣٧.

(٣) يعقوب الڤيتري: ص١٦٩ Stubbs: Seventeen Lectures on the Study of Medieval and Modern History p196

الدفاع عن بيت المقدس، والواقع أنه لم يكن سوى حلقة تربط بينهما ما أزعج البابا والامبراطور الألماني.

أما عن موقف الملك عموري الثاني من المسلمين فيلاحظ أنه كان عدائياً وحازماً من محاولاتهم لاستعادة مدن الساحل. وحدث في (ذي الحجة ٥٩٣هـ/ تشرين الأول ١١٩٧م) قبل أن يعتلي العرش أن بذل المساعدة لهنري دوق برابانت لاسترداد صيدا وبيروت من المسلمين، علماً أن الأولى دمَّرها هؤلاء لاعتقادهم أن ليس بوسعهم الدفاع عنها، كما قرَّر العادل تخريب الثانية، فسار إليها جمع من العساكر فهدموا أسوارها، وشرعوا في تخريب دورها وتدمير قلعتها، فمنعهم عز الدين أسامة من ذلك وتكفَّل بالدفاع عنها.

ورحل الصليبيون من عكا إلى صيدا، وعاد العسكر الإسلامي من بيروت، فالتقوا بنواحي صيدا، وجرى بينهم اشتباك محدود، وحجز بينهم الليل، ثم تابع الصليبيون زحفهم باتجاه بيروت، ولما اقتربوا منها هرب عز الدين أسامة، ويبدو أنه أدرك أن العادل لن يُرسل إليه شيئاً من المساندة، وأنه لن يستطيع الصمود في وجه الصليبيين من دون مساعدة خارجية. واستولت القوات الصليبية على المدينة، وتقرَّر بذلها إقطاعاً ليوحنا إبلين، وهو أخ غير شقيق للملكة[١].

يُعدُّ استيلاء الصليبيين على بيروت ذا أهمية عسكرية كبيرة لأن المدينة كانت تُشكل القاعدة الإسلامية المهدِّدة لمواصلاتهم البحرية، وأن الاستيلاء عليها مكَّنهم من إحكام إشرافهم التام على شاطىء بلاد الشام، وبخاصة المنطقة الواقعة بين طرابلس وعكا[٢]، فضلاً عن أنه شجَّع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية على القيام بمحاولة لاسترداد الميناءين اللاذقية وجبلة اللذين فتحهما صلاح الدين في عام (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، غير أنه فشل أمام الاستعدادات الضخمة التي اتخذها الظاهر غازي صاحب حلب لتحصين المدينتين، وعاد من حيث أتى. وإذ عادت كل من بيروت وجبيل إلى أيدي الصليبيين، أضحت مملكة بيت المقدس مرة أخرى، على مسافة قصيرة من إماة طرابلس، غير أن الساحل حول صيدا لم يخلُ نهائياً من الوجود الإسلامي، وما زال بحوزة المسلمين نصف الضواحي[٣].

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٤٥، ١٤٦ Estoire d'Eracles: II pp 224 - 227

(٢) Grousset: III p155

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص١٧٧ Ernoul: pp 341, 342.

أما فيما يتعلق بنشاط الحملة الألمانية بعد ذلك، فقد كان محدوداً، إذ تشجَّع الألمان بعد الاستيلاء على بيروت للزحف على بيت المقدس، وقد حاول الأمراء المحليون ثنيهم عن عزمهم آملين في تجديد الهدنة مع العادل، على أساس منحه يافا واحتفاظهم ببيروت، لكنهم فشلوا، على أن الجموع الألمانية لم تتوجَّه إلى بيت المقدس مباشرة، وإنما دخلت الجليل وألقت الحصار على حصن تبنين الضخم في (محرم ٥٩٤هـ/ تشرين الثاني ١١٩٧م)، وكان الهجوم من الشدة ما دفع قائد الحامية إلى أن يعرض أن يتخلَّى عن القلعة بما تحوي من الأسرى المسيحيين، الذين يبلغ عددهم خمسمائة أسير، مقابل الإبقاء على حياة رجاله وأمتعتهم الشخصية، غير أن رئيس الأساقفة كونراد أصرَّ على أن يستسلم أفراد الحامية من دون قيد أو شرط، وخشي الأمراء المحليون ما قد تثيره مذبحة رجال الحامية من إعلان الجهاد الإسلامي، فأخطروا العادل بأن الألمان لن يبقوا على حياة أحد من رجال الحامية، فاستمات المسلمون عندئذٍ في الدفاع «وأصرُّوا على الامتناع، وقاتلوا قتال من يحمي نفسه»[١].

وألحَّ العادل في تلك الأثناء على ابن أخيه العزيز عثمان في مصر بأن يُرسل جيشاً للتصدي للمغيرين «فسار العزيز عثمان بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر» وذلك في (ربيع الأول ٥٩٤هـ/ كانون الثاني ١١٩٨م)، كما حضر بقية الأمراء الأيوبيين لنجدة العادل، ما أخاف الجنود الألمان، فخفَّت حدة اندفاعهم.

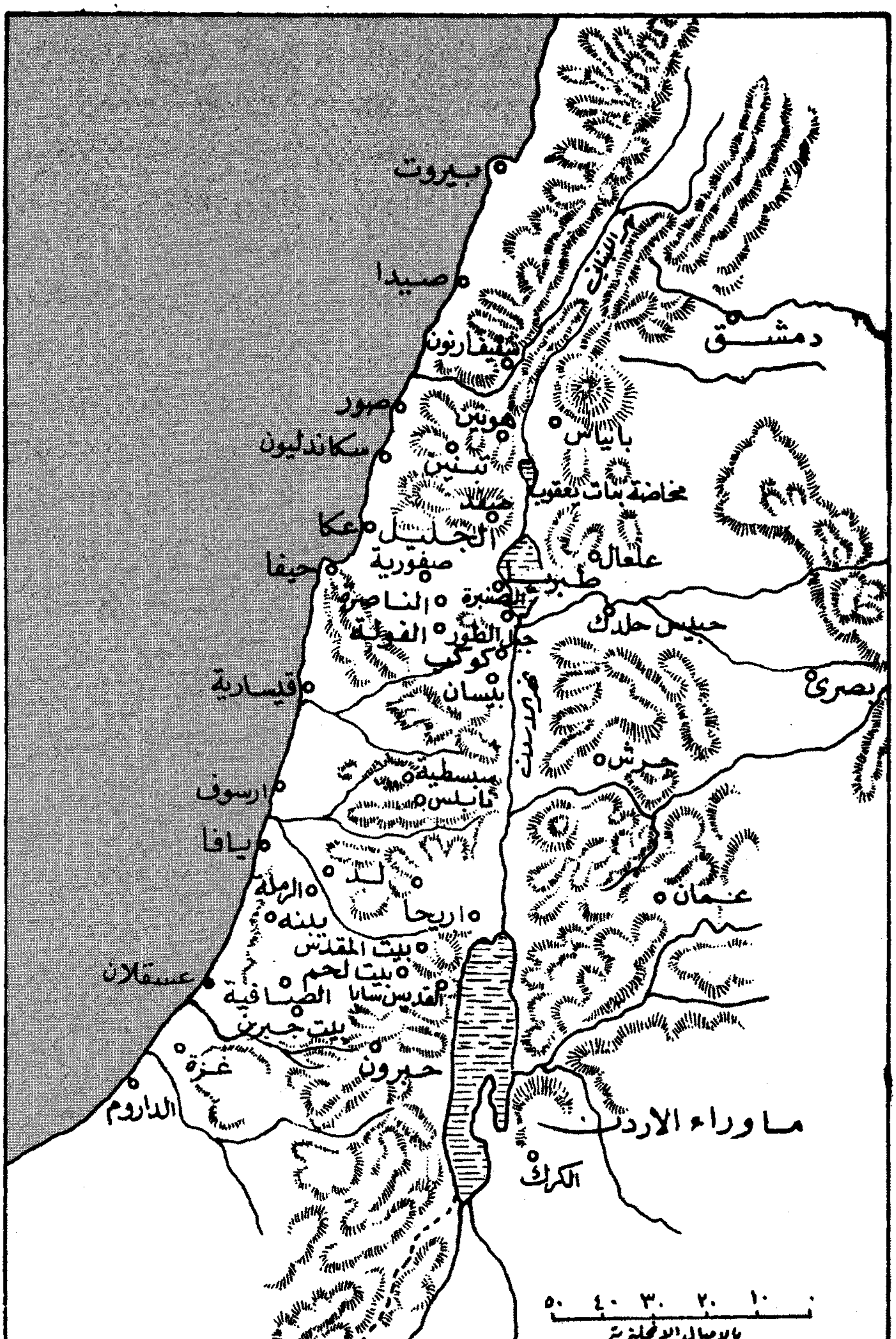
حدث هذا في الوقت الذي وردت فيه الأنباء إلى عكا بوفاة الامبراطور هنري السادس، فآثر كثير من القادة والجنود الألمان العودة إلى بلادهم، ولما توالت الأخبار عن اندلاع الحرب الداخلية في ألمانيا، قرَّر كونراد ومن بقي من رفاقه التخلي عن الحصار، ثم توقف نشاط الحملة بعد ذلك، وسار العادل وابن أخيه العزيز عثمان خلف القوات الألمانية «يلتقطون من ظفروا به منهم»[٢].

وبذلك تبدَّدت جموع الصليبيين الألمان، وانتهت حملتهم نهاية صامتة من دون أن تُحقِّق أثراً يُذكر في بلاد الشام يعيد هيبة ألمانيا، ومع ذلك فإنها أسهمت في إعادة بيروت إلى أحضان الصليبيين، وخلَّفت من بعدها هيئة ثابتة تتمثل في طائفة الفرسان التيوتون[٣].

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٤٧. يعقوب الڤيتري: ص١٧٠ .Estoire d'Eracles: II pp222

(٢) ابن واصل: جـ٣ ص٧٦. يعقوب الڤيتري: ص١٧٠.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص١٧٨، ١٧٩.



مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

تجديد الصلح مع مملكة بيت المقدس (٥٩٤هـ/١١٩٨م)

أضحى الملك عموري الثاني، بعد مغادرة أفراد الحملة الألمانية سواحل بلاد الشام، المدافع الأول عن الصليبيين في الشرق، ويبدو أنه لم يكن مستعداً لحرب طويلة الأمد مع المسلمين في الوقت الذي أراد فيه العادل أن يتفرغ للمشكلات الداخلية التي أحاطت بالدولة الأيوبية، كما أن العزيز عثمان عاد إلى مصر تاركاً لعمه إقرار السلام أو الحرب.

وهكذا ساعدت الظروف السياسية على تجديد عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين على أساس القواعد التي اتبعت في صلح الرملة، وقضت بأن:

- يحتفظ العادل بمدينة يافا.
- يحتفظ الصليبيون بجبيل وبيروت.
- يقتسم الجانبان مدينة صيدا.
- مدة المعاهدة خمس سنوات وثلاثة أشهر(١).

أتاحت هذه المعاهدة للعادل أن يتفرَّغ لتوحيد الدولة الأيوبية، وبخاصة بعد وفاة العزيز عثمان في (٢٠ محرم ٥٩٥هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ١١٩٨م)، علماً بأنه استحوذ على أملاكه(٢)، وما حدث من تنامي قوته أدَّى إلى شدة تمسك الملك عموري الثاني بالصلح، وزادت هذه الشدة بما تجدَّد في أنطاكية من الاضطرابات، من واقع الصراع بين الصليبيين والأرمن، وفق ما ذكرنا.

الجموع الفلمنكية

استمرت الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين على الرغم من عقد الصلح بينهما، فقد رأى الملك عموري الثاني أنه لا بد من القيام ببعض المناوشات والمظاهرات العسكرية ليحفظ مكانته أمام المسلمين والصليبيين. ففي (أواسط ٥٩٩هـ/ أواخر ١٢٠٢م) وصل إلى عكا عن طريق البحر ثلاثمائة فارس فلمنكي من شامباني وبعض مقاطعات فرنسا الأخرى، وهم ممتلئون حماساً، وقرَّروا المضي فوراً إلى قتال المسلمين، وطلبوا من الملك عموري الثاني أن يزحف على بيت المقدس، ولكن الملك الصليبي أدرك أن الحماس وحده لا يكفي لخوض غمار الحرب ضد

---

(١) ابن واصل: جـ٣ ص٧٨. ابن الأثير: جـ١٠ ص١٤٨. ابن الفرات، ناصر الدين محمد: تاريخ الدول والملوك مجلد ٤ جـ٢ ص١٣٤، ١٣٥. Estoire d'Eracles: II p228. والجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تحدد مدة الصلح، وذكرت المصادر الصليبية مدتها.

(٢) أبو شامة: جـ٤ ص٤٤٣.

المسلمين والانتصار عليهم، وأن هؤلاء الصليبيين الجدد يفتقرون إلى وفرة العدد والتجهيزات وحسن التنظيم ما يدفعه إلى نقض الصلح مع المسلمين(١)، لذلك نصحهم بالتروي والتزام الصبر حتى تكتمل القوة المناسبة، لأنه لا يمكن محاربة الدولة الأيوبية ببضع مئات من الجنود.

ارتاع هؤلاء الصليبيون الوافدون من رد الملك، فنعتوه بالجبن وارتحلوا عنه، واختاروا اللحاق ببوهيموند الرابع صاحب طرابلس في أنطاكية. وكانت المنطقة الساحلية الواقعة بين طرابلس واللاذقية بأيدي المسلمين، فاخترقوها على الرغم من تحذير أمير جبلة لهم، وكان قد عرض عليهم الحصول على إذن من الظاهر غازي صاحب حلب للمرور عبر أراضيه، غير أن تهورهم وعنادهم وإصرارهم على أن يجتازوا اللاذقية فوراً أوقعهم في كمين نصبه لهم المنصور صاحب حماة، فقتل عدداً منهم وساق الأسرى إلى حماة(٢).

ومع حرص الملك عموري الثاني على احترام الصلح مع المسلمين، إلا أنه أجاز الغارات التي كان يشنُّها هؤلاء على الممتلكات الإسلامية من حين لآخر، بل إنه اشترك في بعضها. فعندما استقر أمير مصري في قلعة قرب صيدا وأخذ يغير على السواحل الخاضعة للصليبيين، واستولى على سفينتين قرب شواطىء قبرص في عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) ولم يحرص العادل على ردعه على الرغم من الشكاوى التي أرسلها إليه الملك الصليبي؛ دفع هذا الأخير للانتقام، فأرسل السفن لتعترض قافلة بحرية إسلامية قادمة من مصر في طريقها إلى اللاذقية، واستولت عليها(٣)، كما أرسل عشرين سفينة من عكا في (رمضان/ أيار) لمهاجمة الدلتا، فدخلت فرع رشيد وتوغلت فيه حتى وصلت إلى بلدة فُوَّة(٤)، وأقام الصليبيون فيها مدة خمسة أيام يسبون وينهبون، وأسرعت القوات الأيوبية للتصدي لهم لكنهم لم يتمكَّنوا من الاشتباك معهم لعدم وجود الأسطول العادلي، وعاد الأسطول الصليبي بعد ذلك من حيث دخل غانماً سالماً(٥).

وأبدى أبو شامة ملاحظة بالغة الأهمية بشأن هذه الغارة وهي أن تلك الحملة

---

(١) يعقوب الڤيتري: ص١٧٠، ١٧١.

(٢) المصدر نفسه: ص١٧١. ابن واصل: جـ٣ ص١٤٣، ١٤٤. Estoire d'Eracles: II pp247 - 249.

(٣) Ibid: p259. King, E.J: The knights Hospitallers in the Holy Land p175.

(٤) فُوَّة بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد، بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستة. الحموي: جـ٤ ص٢٨٠.

(٥) المقريزي: السلوك جـ١ ص٢٧٥.

البحرية على الدلتا كانت استكشافية، الغرض منها التمهيد لمحاولة الاستيلاء على الديار المصرية، وهو ما حدث فعلاً في الحملة الصليبية الخامسة كما سنرى[1].

وأغار الصليبيون على إقليم الجليل، وتوغَّلوا فيه حتى بلغوا كفركنَّة على الطريق بين عكا وطبرية، وأسروا من صادفوه من المسلمين، ونهبوا، وتمادوا عندما قرَّروا مهاجمة بيت المقدس لانتزاعها من أيدي المسلمين[2].

كان العادل آنذاك في دمشق، فخرج منها وتوجَّه إلى جبل الطور الواقع جنوب كفركنَّة في الجنوب الشرقي من عكا، ليمنع الصليبيين من التوغل داخل الأراضي الإسلامية، وأرسل في الوقت نفسه يطلب النجدة من الأمراء المسلمين، فوصلت إليه في الوقت الذي أغار فيه الصليبيون على كفركنَّة[3].

تجديد الصلح مع مملكة بيت المقدس (٦٠١هـ/١٢٠٤م)

تجمَّد الوضع العسكري بين المسلمين والصليبيين عند هذه المرحلة من التطورات العسكرية، واستمر إلى آخر السنة المذكورة[4]. ذلك أن العادل رفض الدخول في اشتباك مع العدو، كذلك رفض الملك عموري الثاني أن تنشب بينهما معركة، ولعل لذلك علاقة بالاعتقاد السائد عن قرب وصول الحملة الصليبية الرابعة إلى بلاد الشام أو مصر. لكن بعد أن استقر أفرادها في القسطنطينية، تغيَّرت المعطيات السياسية التي أدت إلى تجميد العمليات العسكرية، فقد فَقَدَ الملك عموري الثاني الأمل بوصول مساعدة صليبية خارجية، كما أن بلدوين الفلاندري، الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية، شرع في منح الإقطاعات في البلقان للفرسان الذين هجروا بلاد الشام وقدموا إليه، الأمر الذي أضعف القوة الصليبية في الشرق، فشعر عندئذٍ بضرورة التفاهم مع العادل، وسعى إلى عقد الصلح معه.

وكان العادل من جانبه حريصاً على إنهاء القتال، وقد يكون التفوق الصليبي في البحر من الأمور الذي تُثير قلقه، غير أنه من المؤكد أن اتِّباع سياسة التسامح الديني، والعناية بالتبادل التجاري مع الغرب الأوروبي، هو الأجدى في هذه المرحلة[5].

وهكذا تمَّ الصلح في (محرم ٦٠١هـ/أيلول ١٢٠٤م) الذي حقَّق للصليبيين كثيراً من الامتيازات، فاتفق الطرفان على:

---

(١) الذيل على الروضتين: ص٥٠.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن واصل جـ٣ ص١٥٩.

(٥) Ernoul: pp376, 390. Grousset: III pp181, 184.

ـ أن يتخلَّى العادل للصليبيين عن جميع المناصفات في صيدا واللد والرملة وبيروت.
ـ أن يتنازل لهم عن يافا.
ـ تسهيل الإجراءات الخاصة بالحجاج المسيحيين الذين يقصدون بيت المقدس.
ـ مدة المعاهدة ست سنوات(١).

لم ينعم الملك عموري الثاني بمفاعيل هذا الصلح، فقد توفي في (شعبان ٦٠١هـ/ نيسان ١٢٠٥)، وشكَّلت وفاته، في هذه الآونة، خسارة قاسية للصليبيين في بلاد الشام نظراً لما امتاز به من عقلية قانونية وقدرة فائقة على العمل والتنظيم، وقد ترتَّب على وفاته انفصال تاجي مملكة بيت المقدس في عكا ومملكة قبرص، فانتقل الحكم في الأولى إلى الملكة إيزابيلا، غير أنها لم تلبث أن توفيت بعد قليل من الوقت، فتولت ابنتها ماريا البالغة ثلاثة عشر عاماً عرش المملكة، وعُيِّن يوحنا إبلين حاكم بيروت وصياً عليها، في حين انتقل الحكم في الثانية إلى ابنه هيو الأول من إيشيفا إبلين، وكان طفلاً في السادسة من عمره، فتولى والتر مونتبليار، زوج أخته الكبرى برغنديا، الوصاية عليه(٢).

الاصطدامات مع الصليبيين في إمارة طرابلس

لم تنقطع المناوشات أيضاً بين المسلمين والصليبيين في تلك الآونة في شمالي بلاد الشام وبخاصة في منطقة طرابلس، وكان فرسان الأسبتارية في كلٍّ من حصن الأكراد وحصن المرقب يتوزعون هذه الغارات ضد المنصور ناصر الدين محمد صاحب حماة ليجبروه على تسليم حصن بارين، فتصدى لهذه الغارات بالتعاون مع قوات من بعلبك وحمص، وأنزل الهزيمة بالأسبتارية مرتين وأجبرهم على توقيع هدنة وذلك في (رمضان ٥٩٩هـ/ أيار ١٢٠٣م)(٣).

لم يركن الأسبتارية إلى هزيمتهم، فجدَّدوا غاراتهم في العام التالي بعد انقضاء أجل الهدنة، وانضم إليهم كثير من الصليبيين، فقاموا بأعمال السلب والنهب والقتل، وهزموا جيش المنصور وتوغَّلوا في أراضيه حتى وصلوا إلى أبواب حماة

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٠١. ابن واصل: جـ٣ ص١٦٢ Ernoule: p360. Estoire d'Eracles: II p263.

(٢) Estoire d'Eracles: II p305.

(٣) أبو شامة: الذيل ص٥١. ابن واصل: جـ٣ ص١٦٣، ١٦٤. ابن الفرات: مجلد ٥ جـ١ ص٢٠.

نفسها، فنزلوا بضيعة قريبة جداً من الباب الغربي ثم عادوا من حيث أتوا[1].

وانطلق الصليبيون في عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٥م) من طرابلس، وأغاروا على جبلة واللاذقية وحمص، فالتمس صاحبها المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني المساعدة من الظاهر غازي في حلب، فسيَّر عسكراً بقيادة المبارز يوسف من خطلخ، فأقاموا عنده ومنعوا الصليبيين عن ولايته. وأغار المبارز على حصن المرقب، وكاد يستولي عليه بعد أن هدم برجه، وعاد محملاً بالغنائم[2]. وتعرَّضت السفن الإسلامية آنذاك لهجمات القراصنة المنطلقين من جزيرة قبرص فدمَّروا بعضها وأسروا بحارتها.

نتيجة لهذا التوتر العسكري، خرج العادل من مصر في عام (٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م) متوجهاً إلى بلاد الشام لوضع حد لاعتداءات الصليبيين البرية والبحرية بالتفاهم مع يوحنا إبلين، الوصي على عرش مملكة بيت المقدس، وهو القوة الكبيرة الممثِّلة للصليبيين[3]، فأرسل إليه يطلب منه التدخل لوقف القبارصة عند حدِّهم وإقناعهم بردِّ الأسرى، غير أنه تقاعس بحجة عدم خضوع قبرص له[4].

ولعل تصرف العادل المسالم كان لا يتفق مع رغبة المسلمين في الجهاد، وظهر ذلك بوضوح في الاجتماعات التي عُقدت في مساجد دمشق ونابلس آنئذٍ، فقد اجتمع في مسجد دمشق أكثر من ثلاثين ألفاً، وأن امرأة قطعت شعرها وبعثت به إلى العادل وقالت: «اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله»[5].

وعلى أي حال، فقد خرج العادل من القاهرة إلى حصن الأكراد للتصدي للأسبتارية وإبعاد خطرهم عن حمص، فعسكر عند بحيرة قَدَس قرب حمص في (رمضان ٦٠٣هـ/ نيسان ١٢٠٧م) واستدعى الملوك من أسرته والعساكر، فجاءه المنصور صاحب حماة، والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، فضلاً عن النجدات التي أرسلها ابن أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، وأمراء سنجار والموصل والجزيرة الفراتية وآمد[6].

وعندما اجتمعت هذه الجيوش، التي بلغت نحو عشرة آلاف مقاتل، أشاع بأنه سيهاجم طرابلس، ليموِّه على هدفه الحقيقي وهو حصن الأكراد، فهاجمه في (ذي القعدة/ حزيران)، وفتح برج أعناز الواقع إلى الجنوب الشرقي، وأسر خمسمائة شخص كانوا فيه، واستولى على السلاح والذخائر، على أنه لم يستطع فتح الحصن نظراً

(١) ابن واصل: جـ٣ ص١٦٣، ١٦٤. ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٠١.
(٢) المصدران نفساهما: ص١٦٦، ١٦٧. ص٢٦٢، ٢٦٣.
(٣) عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص٣٩.
(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٦٣.
(٥) أبو شامة: ص٦٩، ٧٠.
(٦) ابن واصل: جـ٣ ص١٧٢، ١٧٣.

لمناعته، واكتفى بالإغارة على بعض القلاع القريبة من طرابلس، ثم أغار على طرابلس نفسها وضربها بالمنجنيق وضيَّق على أهلها وخرَّب طرقها[١]، وفتح حصن القليعات الواقع شمال عِرقة واكتفى بتخريبه وإطلاق سراح حاكمه طبقاً لسياسة المسالمة[٢]. وعاد العادل بعد هذه العمليات الناجحة، إلى بحيرة قَدَس في (ذي الحجة/ حزيران)، وقد استغرقت غاراته مدة اثني عشر يوماً، وأدَّت إلى انزعاج بوهيموند الرابع صاحب طرابلس، فأرسل إليه يلتمس الصلح «وسيَّر مالاً وثلاثمائة أسير وعدة هدايا». وافق العادل على عقد الصلح وبخاصة أن عساكره ملَّت من طول القتال[٣].

وهكذا ظلَّت سياسة العادل تجاه الصليبيين في بلاد الشام تتسم بوجه عام بطابع التسامح والمسالمة والبُعد عن التصلب. وعاد العادل بعد عقد الصلح إلى جبل الطور المطل على عكا، وطلب من ابنه المعظم عيسى بناء قلعة عليه تُشرف على الناصرة وتحمي إقليم الجليل من الغارات الصليبية، فقام المعظم عيسى بإنجازها في غضون سنوات عدة[٤].

تجديد الصلح مع مملكة بيت المقدس (٦٠٩هـ/١٢١٢م)

بلغت ماريا، الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس الصليبية، في عام (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م) سن الرشد، فحان الوقت للبحث لها عن زوج مناسب يتمتع بالقدرة على حماية الصليبيين والدفاع عنهم وعن كيانهم في بلاد الشام. وكان من الطبيعي أن يتنافس الأمراء الصليبيون في بلاد الشام وعلى رأسهم يوحنا إبلين على الزواج من الأميرة، فانعقد مجلس في عكا للبحث في هذا الأمر، وتقرَّر إرسال سفارة إلى فرنسا تطلب من الملك فيليب أغسطس اختيار الزوج المناسب[٥]، واختار الملك الفرنسي أحد قادته، وهو يوحنا بريين، زوجاً للأميرة الشابة، وكان في الستين من عمره، وعلى الرغم من التفاوت الواضح في السن بينهما، فإن يوحنا بريين كان يتحلى بالصفات اللازمة للصليبيين في بلاد الشام، واشتهر باطلاعه الواسع في السياسة الدولية، كما أن تقدمه في العمر كان كفيلاً بألا يُقدم على أعمال متهورة[٦]، والواقع أن اختياره لم يحظ بالقبول من جانب الأمراء الصليبيين، إذ كان مفلساً، لذلك زوَّده البابا إنوسنت الثالث والملك فيليب بمبلغ كبير من المال ليستعين به على مصاريف الزواج.

---

(١) ابن واصل: جـ٣ ص١٧٣. أبو الفداء: جـ٢ ص١٩٩.
(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٦٣.
(٣) المقريزي: جـ١ ص٢٨١. أبو الفدا: جـ٢ ص١٩٩.
(٤) أبو شامة: ص٧٧. ابن واصل: جـ٣ ص٢١٥، ٢١٦. ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٨٤.
(٥) Estoire d'Eracles: II p306. (٦) رنسيمان: جـ٣ ص٢٣٨.

وصل يوحنا بريين إلى عكا في (٢١ربيع الأول ٦٠٧هـ/ ١٢ أيلول ١٢١٠م) ومعه ثلاثمائة فارس صليبي، وعقد قرانه على الملكة في اليوم التالي، وتمَّ تتويجهما في كنيسة صور بعد بضعة أيام(١)، ووعد أثناء حفلة التتويج بأن يُعيد الأراضي المقدسة إلى حدودها السابقة، وكانت الهدنة بين المسلمين والصليبيين قد انتهى أجلها في (محرم/ تموز) أي قبل وصول يوحنا بريين بشهرين، فأرسل العادل إلى عكا بطلب تجديدها. وافق الملك الصليبي والطوائف الدينية، من أسبتارية وتيوتون، على تجديدها، وخالفهم الداوية، وترتَّب على ذلك تجدُّد العمليات العسكرية بين الطرفين، فقام الداوية ببعض الأعمال الاستفزازية، وسمح الملك يوحنا بريين لبعض أتباعه بأن يشتركوا في حملة سارت بطريق البحر إلى دمياط، غير أنها لم تظفر بشيء الأمر الذي استدعى خروج المعظم عيسى لمهاجمة عكا، فأغار على ضواحيها، ولم يجرؤ على مهاجمة المدينة(٢).

ويبدو أن الداوية انتابهم القلق من بناء القلعة على جبل الطور التي بناها المعظم عيسى، وجعلهم يشعرون بأن العادل ينوي القيام بعمل كبير ضدهم، فاضطروا أن يخضعوا لرأي بقية الأطراف الصليبية ويتجاوبوا مع مبدأ عرض الصلح مع المسلمين. وفعلاً عُقدت الهدنة في (صفر ٦٠٨هـ/ تموز ١٢١١م) لمدة خمس سنوات على أنه لم يبدأ تنفيذها إلا بعد سنة(٣).

ولم يكد الملك يوحنا بريين يستقر في عكا حتى اهتز مركزه بوفاة زوجته ماريا في عام (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، بعد أن أنجبت منه طفلة تدعى إيزابيلا، كما كان يُطلق عليها اسم يولاند، وبذلك فَقَدَ صفته الشرعية في الحكم، ولكن الأمور استقامت له، مرة أخرى عندما تمَّ الاتفاق على أن يظل وصياً على الطفلة وعلى المملكة معاً حتى تبلغ يولاند سن الرشد(٤)، وحتى يُدعم موقعه في الحكم تزوج من ستيفاني ابنة ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى، واستطاع أن يحكم المملكة الصليبية من دون معارضة(٥)، وقد حرص على أن يستفيد من الهدنة الموقعة مع المسلمين، فتفرغ لحل مشكلات الصليبيين الداخلية، ووعدهم بمشروع كبير يهدف إلى غزو مصر بعد انقضاء أجل الهدنة، ومن أجل ذلك بادر بإرسال الرسل إلى روما يطلب من البابا إعداد حملة صليبية جديدة بحيث تصل إلى الشرق عند انتهاء أجل الهدنة(٦).

---

(١) يعقوب الفيتري: ص١٧١.
(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٢٤٠.
(٣) Estoire d'Eracles: II p317.
(٤) رنسيمان: جـ٣ ص٢٤٠، ٢٤١.
(٥) Estoire d'Eracles: II p320. Grousset: III p195.
(٦) Estoire d'Eracles: II p317. Oliver of Padenborn: The capture of Damiatta. Trans by J. Cavigan. P12.

البَابُ الثَالِث

سقوط الصليبيين

الفَصْل الرّابع وَالعشرُون

الحملة الصليبية الرابعة

الدعوة إلى الحملة

تُعدُّ الحملة الصليبية الرابعة من الحملات الصليبية المنحرفة عن أهداف الصليبيين التي قامت عليها الحركة الصليبية، فعندما ارتقى إنوسنت الثالث كرسي البابوية في (ربيع الأول ٥٩٤هـ/ كانون الثاني ١١٩٨م) كانت الحملة الصليبية الألمانية التي أعدَّها وخطَّط لها الامبراطور الألماني هنري السادس تتقدم بنجاح، غير أنها انتهت بعد أشهر قليلة بالفشل، لذلك قرَّر البابا أن يأخذ على عاتقه مهمة حثِّ أوروبا على القيام بحملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس الصليبية التي قضى عليها صلاح الدين في عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وأعيدت إلى الوجود في عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) ولكن بشكل غير متكامل، مستلهماً تصور البابا أوربان الثاني للحرب الصليبية ودور البابوية في قضايا العالم المسيحي وشؤونه، وأرسل في منتصف عام (٥٩٤هـ/ ١١٩٨م) إلى إيمار بطريرك بيت المقدس يطلب منه إرسال تقرير مفصل إلى روما يوضِّح البيانات الخاصة بمملكة بيت المقدس بوصف حكامها أتباعاً له، ويُبيِّن قوة حكام المسلمين وعلاقاتهم الداخلية فيما بينهم[(١)].

وأعلن البابا هذا المشروع في مرسوم بابوي أرسله إلى رؤساء الأساقفة في الغرب في (شوال ٥٩٤هـ/ آب ١١٩٨م) ليبلغوه إلى رجال الدين والنبلاء الإقطاعيين، واتبع الأسلوب التقليدي في الدعاية لهذه الحرب مُركِّزاً على ما يعانيه المسيحيون في الشرق من حزن وألم في الوقت الذي ينعم الغرب بحياة الترف وينهمك بالفسق والاشتغال بالحروب الأهلية كالنزاع الفرنسي الإنكليزي، والنزاع الألماني الداخلي بعد وفاة هنري السادس، ودعا جميع المسيحيين أن يُلبوا نداءه للحرب الصليبية من أجل الخلاص الأبدي.

وتغاضى البابا إنوسنت الثالث عن دعوة الأباطرة والملوك، لأن التجارب أثبتت فشل الحملات التي تولى قيادتها امبراطور أو ملك، إذ أنهم غير مقبولين في كل

---

(١) Luchaire, A: Innocent III, La Question d'Orient p15.

الحملات الصليبية بدليل أن الحملة الصليبية الأولى هي الوحيدة من بين الحملات الصليبية التي نجحت بشكل كامل، ولم يشترك فيها ملك متوَّج، وأرسل إلى الكونتات والبارونات يأمرهم بالتهيؤ وإعداد الجيوش بما يتناسب مع مواردهم، ثم إرسالهم عبر البحار على نفقتهم الخاصة قبل نهاية شهر (جمادى الآخرة ٥٩٥هـ/ آذار ١١٩٩م) للخدمة في الجيش لمدة عامين، وخيَّر رؤساء الأساقفة والأديرة بين أن يحملوا السلاح مع أتباعهم وبين أن يتبرعوا بمبلغ مناسب من المال، وتضمَّنت دعوته الامتيازات التقليدية التالية:

- الغفران التام للذنوب والخطايا التي اقترفها المسيحي المشارك في الحملة.
- حماية البابوية لممتلكات المشاركين خلال مدة غيابهم.
- تأجيل دفع ما عليهم من ديون.

الواقع أنه تهيأت فرصة طيبة للبابوية لتأدية دور رئيس في تشكيل الحملة الصليبية الرابعة، إذ لم يكن في الغرب الأوروبي امبراطور يتيح له مركزه أن يتدخل، فما حدث من وفاة الامبراطور هنري السادس في (شوال ٥٩٣هـ/ أيلول ١١٩٧م)، أراح الكنيسة مما كانت تتعرَّض له من تهديد حقيقي، إذ كان له من القوة والسطوة ما فاق أنداده منذ أيام شارلمان، ولم يصادف البابا إنوسنت الثالث عندما تولى كرسي البابوية نداً من العلمانيين.

وسرعان ما أخذت الاستعدادات تجري بسرعة بفضل جهود جماعة من الدعاة الذين لا يقلُّون حماساً عن دعاة الحملة الصليبية الأولى أمثال الكاردينالين سوفريدو وبطرس كابوانو والقسيس فولك نيللي الرحالة الذي طالما سعى لإثارة حرب صليبية.

فقد أرسل البابا الكاردينال سوفريدو إلى البندقية ليطلب مساعدة البنادقة، كما أرسل اثنين من الكرادلة لدعوة البيازنة والجنوية للاشتراك في الحرب الصليبية علماً بأنه كان بحاجة إلى أساطيل تلك المدن التجارية لنقل المقاتلين بحراً، وكتب إلى الامبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث أنجيلوس يحثُّه على الاستعداد لمساعدة الصليبيين في الشرق وينصحه بالاعتراف بسيادة البابوية، وأجابه الامبراطور البيزنطي بمهاتراته[(١)].

وأرسل البابا الكاردينال بطرس كابوانو إلى فرنسا للدعوة للحملة الصليبية هناك فوصل إليها في (أوائل ٥٩٥هـ/ أواخر ١١٩٨م)، فدعا رجال الدين الفرنسيين إلى الاجتماع في ديجون، وأعلن أمامهم مشروع البابا، وشاركه القسيس فولك نيللي،

(١) ولف، روبرت لي: الحملة الصليبية الرابعة، فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية بإشراف كينيث سيتون: جـ١ ص٣٣٥.

وحقَّق نجاحاً متزايداً، فاجتمع عشية عيد الميلاد مع الملك الفرنسي فيليب أغسطس الذي كان يواجه آنذاك تحالف اللوردات الفرنسيين الذين استقطبهم الملك ريتشارد قلب الأسد، وبحث معه في إمكان عقد هدنة مع الملك الإنكليزي، واستمع إلى مقترحاته بشأن مضمونها، ثم اجتمع بطرس كابوانو مع الملك الإنكليزي في نورماندي في غربي فرنسا، وكان يقاتل من أجل استرداد الأرض التي استولى عليها الملك فيليب أغسطس غدراً أثناء غيابه في الشرق، وحمَّله مسؤولية وقوعه في الأسر في النمسا أثناء عودته إلى بلاده، كما اشتكى من أن البابا لم يؤمِّن له الحماية الواجبة كصليبي عائد، وعلى الرغم من كل ذلك فقد اقتنع بحجة بطرس بأن الحرب تعرقل استرداد بيت المقدس. واجتمع الملكان أخيراً في (ربيع الأول ٥٩٥هـ/ كانون الثاني ١١٩٩م) ووقَّعا سوياً هدنة مدتها خمس سنوات، لكن حدث أن توفي الملك ريتشارد قلب الأسد في (جمادى الأولى/آذار)، فجدَّد الملك فيليب جهوده العسكرية ضد خلفه يوحنا ليستولي على الأراضي التابعة لأسرة أنجو في فرنسا[١].

وفي الوقت الذي كان كل من الكاردينال بطرس كابوانو والقس فولك نيللي يدعو في فرنسا، كان مارتينوس مقدم دير پايرس يدعو في ألمانيا بتفويض من البابا، ووعد من يشترك في الحملة بغفران خطاياه وبنصيب من الأراضي والثروة في الشرق، وقد لبى الكثيرون من رجال الدين والعلمانيين دعوته للحملة الصليبية، وعيَّن بعض الأساقفة الألمان للفرق الألمانية التي تجمعت تحت إمرته عند مدينة ڤيرونا.

وأدرك البابا إنوسنت الثالث بعد قليل من الوقت أنه لا يمكن الاستغناء عن مساهمة الحكام لتمويل وتنظيم الجيش والتنفيذ العسكري، ويتبين من الشكل التنظيمي الذي أقامه من أجل الحملة الصليبية والذي صدر عن مجمع اللاتيران الكنسي الرابع؛ أنه لم يستطع أن يستعيض عن قوة الدولة في الوقت الذي أخذ التنظيم المتعلق بأنظمة الحكم في أوروبا الغربية يسير نحو الاكتمال منذ عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م)[٢]، كما لم يكن بوسعه أن يستغني عن مساعدة الأمراء، فقد ظهر أثناء تجميع الحملة أن الوضع يحتاج إلى تأثير نظام الإقطاع بحيث يقوم عدد كاف من المحاربين الفرسان بالاقتداء بأصحاب الإقطاع والمشاركة بالحملة.

ومضى الموعد الذي حدَّده البابا بشهر آذار لاحتشاد الحملة من دون جدوى وتبين أن المشكلة الرئيسة التي أعاقت ذلك هي قلَّة المال، فعمد من أجل إنقاذ الوضع إلى فرض ضريبة مقدارها اثنان ونصف في المائة على مداخيل رجال الدين تُخصَّص لاحتياجات الحملة، وقد رفض جماعة السترسيان الذين يُشكلون أحد طرق الرهبنة

---

(١) وولف: جـ١ ص٣٣٥.

(٢)ماير: ص٢٧٧، ٢٧٨.

الإصلاحية للحركة الكلونية، هذه الضريبة، واتهموا البابا بملاحقتهم، لكن البابا استطاع تحت الضغط أن يحصل منهم على دفعة واحدة، إلا أنهم أجبروه في مقابل ذلك على إعفائهم من الضرائب، وأكد لرجال الدين أنها لن تُشكِّل سابقة أو بداية لفرض ضرائب بابوية جديدة على مداخيلهم.

وفي (رمضان ٥٩٧هـ/ حزيران ١٢٠١م) خلف المبعوث البابوي أوكتافيان، الكاردينال بطرس كابوانو في فرنسا، وقد أبلغ الملكين الفرنسي والإنكليزي اقتراح البابا بشأن عقد هدنة بينهما والتبرع بالمال. وفعلاً التقى الملكان فيليب أغسطس ويوحنا معاً ووافقا على التبرع بنسبة واحد على أربعين من الدخل السنوي لأراضيهما وأراضي أفصالهما[١].

تشكيل الحملة

ظهرت النواة الأولى للحملة الصليبية في (محرم ٥٩٦هـ/ تشرين الثاني ١١٩٩م) في حفل مبارزة أقيم في شامباني في قلعة الكونت ثيبوت حضره كونتات وبارونات وفرسان من أقاليم شامباني وبلوا والإقليم الأوسط من شمالي فرنسا حيث تقع مدينة باريس، وكان هذا الإقليم آنذاك مركز أملاك التاج الفرنسي، وقد تحمَّس الكثيرون لتلبية نداء البابا للمشاركة في الحملة الصليبية الرابعة، وكان على رأس الذين حملوا الصليب ثيبوت كونت شامباني، والكونت لويس صاحب بلوا وشارتر، وهو من أقارب ملكي فرنسا وإنكلترا، وبلدوين كونت فلاندر وزوجته وشقيقه هنري، وجفري سيد لي بيرش، وسيمون سيد مونتفرات، وعدد كبير من صغار النبلاء من شمالي فرنسا والأراضي المنخفضة.

وكان من بين كبار رجال الدين الذين انخرطوا في الحملة الصليبية الرابعة غارنيه أسقف تروي، ونيفيلون أسقف سواسون، وأسقف أوتون مع جماعة من فرسان أوڤرن، وكونراد أسقف البرشتات، ومارتينوس مقدم دير پايرس، وكونت كاستنيللنبرغ مع عدد كبير من رجال الدين من المراتب الصغيرة ومعظمهم من جماعة السترسيان ولم يلبث أن احتذى بهم سائر أعيان شمالي إيطاليا بزعامة بونيفاس مركيز مونتفرات الذي أثار اشتراكه أولى مخاوف البابا لأن أمراء مونتفرات كانوا أصدقاء أوفياء لأسرة هوهنشتاوڤن الحاكمة في ألمانيا، وحلفاء لها[٢]، وبلغ عدد المشتركين

---

(١) Roger of Hovenden: Chronica IV p187.

(٢) أورد كل من ڤيلها ردوين وكلاري قوائم بأسماء المشتركين الألمان والفرنسيين Villehardouin, Geoffry: La Conquête de Constantinople p74. Clary, Robert: La Conquête de Constantinople p2, 3.

بين ثمانية إلى عشرة آلاف مقاتل تمَّ تجنيدهم في (أوائل ٥٩٧هـ/ أواخر ١٢٠٠م)، وتكوَّنوا من ثلاث مجموعات هي: الفرسان المسلحون، والمسلحون تسليحاً خفيفاً والمشاة.

مشكلات الحملة

واجه قادة الحملة في بداية الأمر مشكلتين:

الأولى، توفير السفن اللازمة لنقل المقاتلين إلى الشرق، والواقع أنهم اختاروا طريق البحر لأن الطريق البري الذي يجتاز البلقان والأناضول لم يعد صالحاً من الناحية العملية بعد تداعي بيزنطية وسيطرة السلاجقة على كامل الأناضول، بالإضافة إلى أنه طريق طويل وشاق، لكن ما من أحد من الصليبيين يملك أسطولاً بحرياً سوى كونت فلاندر علماً بأن هذا الأسطول أبحر مستقلاً إلى فلسطين بقيادة قسطلان بروج، يوحنا نِسْله[١].

وكانت المدن التجارية بيزا وجنوة والبندقية قد طوَّرت حركة نقل التجارة والحجاج في البحر الأبيض المتوسط، ويبدو أنهم اختاروا المدينة الأخيرة، فأرسلوا في (منتصف ٥٩٧هـ/ أوائل ١٢٠١م) ستة سفراء إلى البندقية لعقد اتفاق مع حاكمها لنقل رجال الحملة على سفنه، كان من بينهم جفري ڤيلهاردوين، فاجتمعوا مع الدوق هنري داندولو حاكم المدينة الذي رحَّب بهم، وبعد مناقشات ودية اتفق الطرفان على أن:

- تُقدم البندقية السفن اللازمة لنقل أربعة آلاف وخمسمائة من الخيول، وتسعة آلاف من المقاتلين وسفناً أخرى لنقل أربعة آلاف وخمسمائة من الفرسان وعشرين ألفاً من المشاة، وتعهدت بتزويد الحملة بخمسين سفينة عسكرية مسلحة مجاناً لتخدم الله وقضية المسيحية.
- تتعهد البندقية بضمان تموين رجال الحملة وخيولهم مدة تسعة أشهر.
- يدفع الصليبيون مقابل ذلك خمس وثمانين ألف مارك كلوني فضي على أقساط.
- تحصل البندقية على نصف ما تفتحه الحملة من بلاد.

وُقِّعت المعاهدة من قِبَل الطرفين في (رجب ٥٩٧هـ/ نيسان ١٢٠١م) ثم أوفدا رسلاً إلى البابا لاعتماد نصوصها، وقد وافق عليها وبارك الطرفين من أجل خدمة الحملة الصليبية الرابعة[٢].

الواضح أن هذا التقدير لحجم الجيش المحتاج للنقل والذي قدَّره السفراء يُشكل

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص١٨٦، ٢٠١.

(٢) Villehardouin: pp 18 - 34.

على الأقل ثلاثة أضعاف عدد الذين جُنِّدوا بالفعل قبل خروج السفراء في مهمتهم، ويبدو أنهم توقَّعوا انضمام عدد أكبر مما يمكن الحصول عليه بالفعل.

ومهما يكن من أمر، ما كاد الاتفاق يتم حتى تقرر دعوة الصليبيين للاحتشاد في البندقية استعداداً للإبحار.

وحدث أن توفي ثيبوت حاكم شامباني وقائد الحملة، فجأة في (جمادى الآخرة/ آذار). فانعقد مؤتمر في مدينة سواسون لاختيار قائد جديد وكان بين الحاضرين بلدوين كونت فلاندر، ولويس كونت بلوا، وهيو كونت سان پول وغيرهم، واتفق المؤتمرون على تعيين بونيفاس مونتفرات خلفاً له، وكان هذا الاختيار طبيعياً نظراً لما كان لأسرة مونتفرات من صلات معروفة بالشرق، وتوجَّه بونيفاس بعد اختياره إلى ألمانيا ليقضي فصل الشتاء مع صديقه القديم فيليب دوق سوابيا(١).

وبدأ الصليبيون يرحلون عن بلادهم في يوم عيد الفصح عام (٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م) إلى البندقية، وتجمَّعوا هناك في معسكرات على جزيرة سان نيقولا دي ليدو، ولما كان أغلبهم لا يملكون نفقات الرحلة، فقد تبرع أغنياء الحملة بقدر من المال لمساعدتهم، ومع ذلك بقي من المبلغ المتفق عليه مع جمهورية البندقية أربعة وثلاثين ألف مارك(٢).

الثانية، تحديد وجهة الحملة: كان من الطبيعي أن تتوجه الحملة الصليبية الرابعة إلى الشرق، ورأى صغار النبلاء وعامة الفرسان أن تكون وجهتهم بلاد الشام ليشقوا طريقهم إلى بيت المقدس، لكن تحكَّمت بتحديد وجهتها المنحرفة إلى القسطنطينية، عوامل عدة نذكر منها:

- رأى كبار الأمراء والقادة الصليبيين أن يستفيدوا من آراء عموري الأول ملك بيت المقدس السابق ومن نصائح الملك ريتشارد قلب الأسد، التي صرَّح بها بعد عودته إلى بلاده والقاضية بأن يوجِّه الصليبيون ضربتهم ضد مصر بوصفها مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين في بلاد الشام، وهي نقطة الضعف في الدولة الإسلامية، وتبعاً لذلك لا بد من جعلها هدفاً للصليبيين، واعتقدوا بأن توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامة العادل جعل من الخطورة على الصليبيين أن يتوجهوا إلى بيت المقدس لأنهم يقعون بين نارين، بين قوات العادل التي تخرج من مصر وتلك التي تخرج من دمشق، ولا يمكنهم تقديم مساعدة فعَّالة لمملكة بيت المقدس ما لم تُضرب القوة الأيوبية في مصر، وأبقوا الأمر سراً حتى لا يثيروا أي شجار بين المحاربين الصليبيين الذين كانوا يتوقعون بالطبع الذهاب إلى بيت المقدس، وليُخفوا نواياهم الحقيقية عن المسلمين.

---

(١) Villehardouin: pp40 - 46..

(٢) Ibid: p27.

ـ كان فيليب دوق سوابيا يُبدي اهتماماً بأمور الشرق بعامة وبيزنطية بخاصة، فقد شارك أسرته فيما تشعر به من كراهية للأباطرة البيزنطيين، وعندما احتل الامبراطور الألماني هنري السادس صقلية كان من بين من أسرهم إيرين أنجلينا ابنة الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس وأرملة روجر ولي عهد صقلية، فزوَّجها هنري السادس من أخيه فيليب الذي سعد بهذا الزواج. وما جرى في بيزنطية في عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) من أحداث بالغة الأهمية تمثَّلت بثورة قامت في القسطنطينية ضد حكم الامبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس قادها أخوه ألكسيوس الثالث أن اعتلى هذا العرش البيزنطي وسجن أخاه بعد أن سمل عينيه، ومعه ابنه الصغير ألكسيوس الرابع، ثم أطلق سراح ابن أخيه واصطحبه معه إلى إحدى المعارك ضد أحد المتمردين في عام (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، غير أنه هرب من معسكر عمه واتخذ طريقه إلى ألمانيا يلتمس المساعدة من أخته وزوجها، وتمكَّن من الإفلات من ملاحقة رجال عمه بأن قص شعره على الطريقة اللاتينية وارتدى ملابس شبيهة بالزي الغربي[(١)]. حصل ذلك في الوقت الذي كان فيه بونيفاس قائد الحملة الصليبيةالرابعة يقضي فصل الشتاء في ألمانيا، فتباحث مع فيليب في خطة لإعادة ألكسيوس الرابع إلى عرش بيزنطية، وهذا يعني أن تهاجم الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية، ثم قام بزيارة إلى البابا إنوسنت الثالث وهو يحمل رسالة إليه من الأمير الألماني يدور مضمونها حول هذا الأمر، وكان الدوق السوابي بحاجة إلى مساندة البابا من أجل اعتلاء العرش الألماني إثر وفاة أخيه الامبراطور هنري السادس ضد منافسه أوتو من برنسوفيك، وأخبره بإنه إذا اعتلى العرش الألماني فإنه سيخضع كنيسة بيزنطية لسلطان كنيسة روما، وعندما علم الامبراطور ألكسيوس الثالث بما يجري في الغرب من مؤامرات ضد بيزنطية، التمس صداقة البابا إنوسنت الثالث وعرض عليه توحيد الكنيستين ومساعدة الصليبيين في الشرق، وهي صداقة قد تحميه من هجوم محتمل يقوم به فيليب السوابي.

ـ لم تُثر الاتفاقية بين قادة الصليبيين والبندقية شيئاً من الخوف إلا عند عدد قليل من الصليبيين، فأبحر بعضهم قاصدين بلاد الشام، وتذمَّر صغار المحاربين، إذ أنهم انخرطوا في الحملة لإنقاذ الأرض المقدسة. وشجَّع البنادقة سراً هذا التوجه المعارض لأنه لم يكن في نيتهم معاداة العادل الأيوبي في مصر وحمل الصليبيين إلى شواطىء هذا البلد نظراً لما كان لهم من مصالح اقتصادية واسعة فيه، وفي الوقت الذي كانوا يساومون الصليبيين على الأجر اللازم لنقلهم إلى مصر إذا بهم يدخلون

---

(١) Choniates: pp 711, 712.

في مفاوضات اقتصادية مع العادل، أسفرت عن توقيع اتفاقية تعهدوا فيها بعدم مساعدة أي مشروع صليبي ضد مصر، وحصلوا مقابل ذلك على امتيازات تجارية واسعة حقَّقت لهم فوائد كثيرة، كما خفَّض العادل الضرائب عنهم وسمح لهم بإقامة فندق آخر جديد في الإسكندرية[1]. وهكذا لم يكن في صالح البندقية بأن تُضحي بمصالحها التجارية في مصر وإثارة القطيعة مع العادل من أجل القضية الصليبية.

- على الرغم من الجهود المبذولة لتمويل الحملة، بقي الصليبيون مدينين للبنادقة بمبلغ أربعة وثلاثين ألف مارك، فهدَّدهم هؤلاء بقطع المؤن عنهم ووقف سير الحملة إن لم يُسدِّدوا ما عليهم من الأموال. وقدَّم دوق البندقية في هذه اللحظة الحرجة مخرجاً من هذا المأزق بتأجيل مسألة الدين واستئناف سير الحملة، مقابل مساعدته في إعادة احتلال مدينة زارا الواقعة على البحر الأدرباتيكي، وكان المجريون قد احتلوها في عام (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) علماً بأن البندقية كانت في حرب مع المجر من أجل السيطرة على المنطقة المحيطة بكرواتيا الواقعة على البحر المذكور. وكان بونيفاس على استعداد للتعاون مع البنادقة بعد أن لحق خلال فصل الصيف، بالحملة الصليبية. والواقع أنه مهما شعر الصليبيون بما ارتبط بهذا العرض من الناحية الدينية والخلقية، لم يسعهم إلا أن يقبلوه على الرغم من معارضة البابوية، وبعض المشتركين في الحملة لأن هجوم جيش صليبي على مدينة مسيحية يُعدُّ ذنباً كبيراً، لكن جرى التغلب على المعارضة. وأبحر الأسطول من البندقية إلى زارا ووصل إليها بعد يومين وهاجمها، وما لبثت أن استسلمت بعد ثلاثة أيام، فدخلها الصليبيون واستباحوها واقتسموا الغنيمة مع البنادقة وذلك في (٢٧ صفر ٥٩٩هـ/ ١٥ تشرين الثاني ١٢٠٢م)[2]. ارتاع البابا إنوسنت الثالث عندما سمع بأنباء مهاجمة زارا ونهبها على أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة، وعدَّ ذلك تحدياً لأوامره لأنه لم يُقرَّ مطلقاً استخدام جنود صليبيين لمهاجمة أملاك أحد أبناء الكنيسة، وقد بلغ به الاستياء حداً جعله يصدر قرار الحرمان ضد الحملة كلها، ثم خفَّف قراره بعد ذلك بحيث اقتصر على البنادقة المشتركين بوصفهم مسؤولين عن انحرافها إلى زارا[3].

- الواقع أنه جرى الاتفاق سراً بين بونيفاس والدوق هنري داندولو الذي كان يكنُّ الكراهية للامبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث الذي رفض عند اعتلائه العرش

---

(١) Heyd: I pp 401 - 404.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٢٠٧. Villehardouin: pp 58 - 86. Clary: pp 9 - 11.

(٣) Villehardouin: pp 104 - 108. Brehier: L'Eglise et L'orient pp 156, 157.

الموافقة على تجديد الامتيازات التجارية الممنوحة للبندقية، على مناقشة الخطط الرامية إلى توجيه حملة لمهاجمة القسطنطينية.

- قدم في (أواسط ٥٩٩هـ/أوائل ١٢٠٣م) إلى زارا مبعوث من ألمانيا من قِبَل فيليب إلى بونيفاس يحمل عرضاً محدداً من صهره ألكسيوس الرابع يتضمن ما يلي:

- تتوجَّه الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية لتساعد ألكسيوس الرابع على استرداد العرش البيزنطي.

- يقوم ألكسيوس الرابع في حال نجاح المحاولة بما يلي:

١ ـ يُسدِّد ما على الصليبيين من ديون للبندقية.

٢ ـ يدفع مبلغ مائتي ألف مارك فضي يُقسم بالتساوي بين الصليبيين والبنادقة لتمويل الحملة لمدة عام.

٣ ـ يمدُّ الصليبيين بفرقة من الجيش البيزنطي مؤلفة من عشرة آلاف جندي.

٤ ـ يُرسل حامية قوامها خمسمائة فارس للدفاع عن الأراضي المقدسة ويتكفَّل بإعاشة أفرادها والنفقة عليهم.

٥ ـ يُخضِع كنيسة القسطنطينية إلى كنيسة روما، ويضع امبراطوريته تحت تصرف البابوية.

٦ ـ يرافق الحملة الصليبية بنفسه لمحاربة المسلمين إذا طلب منه القادة ذلك.

وعندما عُرض الاقتراح على الصليبيين انقسموا إلى أربعة أقسام:

وافق القسم الأول على العرض المقترح، من بينهم بونيفاس وبلدوين فلاندر ولويس بلوا وهيو سانت بول، وآخرون، وقد بلغ مجموعهم نحو عشرين قائداً.

وعارض القسم الثاني اقتراح ألكسيوس الرابع بشدة مثل رينولد مونتميرايل الذي أدرك أنهم لم يتخذوا الصليب إلا ليقاتلوا المسلمين، ولم ير أفراد هذا القسم ما يدعو إلى تأجيل آخر للحملة، ثم انفصلوا عنها وأبحروا إلى بلاد الشام، وعارضه أيضاً سيمون دي مونفور رئيس دير فو، وعاد إلى بلاده.

واحتج القسم الثالث على العرض إنما بقي أفراده مع الجيش.

وأُسكت القسم الرابع بفعل ما بذله البنادقة من الرشاوى لأفراده[١].

وأبدى حاكم البندقية هنري داندولو تفهماً للعرض ووافق عليه بل إنه أعرب عن فرحه وارتياحه، لأن البندقية سوف تحصل على أموالها وتنتقم من البيزنطيين، ووافق البابا إنوسنت الثالث سراً على الهجوم على القسطنطينية، واحتج علناً على تحوُّل سير الحملة إلى العاصمة البيزنطية وخروجها عن هدفها التي تشكَّلت من أجله.

---

(١) Villehardouin: pp 70 - 74, 90 - 100.

ورأى البيزنطيون أن إنوسنت الثالث شارك في المؤامرة، وأنه سمح بحدوث التحول لأنه ربما شعر بأنه لن يستطيع أن يمنعه وبخاصة أنه وُعِدَ بتحقيق أحد أهدافه الرئيسة في سياسته الخارجية، ألا وهو توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سلطانه[1].

وكانت رابطة الإقطاع على درجة كافية من الفعالية بحيث تتغلب على المعارضة، فقد أخذ البارونات، الذين وافقوا على المشروع يبرزون في إطار دعايتهم له، الحجة القانونية من واقع شرعية الأسرة البيزنطية الحاكمة، وقد أثَّر ذلك على الفرسان.

وكان للوصف المُغري الذي قُدِّم للصليبيين حول المجموعات الهائلة من الذخائر المقدسة المحفوظة في القسطنطينية؛ وقعه الفعَّال في اجتذاب كثير منهم بالإضافة إلى الحقد على الروم الأرثوذكس الذي بدأ منذ الانشقاق الكبير في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) وأخذ يتوسع مع مرور الزمن، ورأى هؤلاء الصليبيون أن البيزنطيين المارقين أضحوا غير جديرين بالمحافظة على أنفس كنوز البقايا المقدسة.

وهكذا كان بالإمكان التغلُّب على المعارضة قبل أن يعلم البابا إنوسنت الثالث بنوايا ألكسيوس الرابع في (ربيع الأول ٥٩٩هـ/ تشرين الثاني ١٢٠٢م) ويحتج لدى الصليبيين في (شوال ٥٩٩هـ/ حزيران ١٢٠٣م) على تغيير وجهة سير الحملة إلى القسطنطينية، ولو ظاهرياً على الأقل، إلا أن الوقت جاء متأخراً إذ أن الأسطول كان قد أقلع في (شعبان/ نيسان) من زارا يرافقه المطالب بالعرش البيزنطي الذي وصل إلى زارا قادماً من ألمانيا؛ ومع ذلك فقد سخط نصف الجيش الصليبي على تغيير وجهة سير الحملة الذي لا يتناسب مع الروح المسيحية. وبذل بونيفاس وقادة البندقية جهداً كبيراً لمنع انحلال الجيش، وفي (١٢ شوال/ ٢٤ حزيران) رست السفن في خلقدونية مقابل القسطنطينية.

الواضح أن سبب تغيير وجهة سير الحملة الصليبية الرابعة التي كثرت الدراسات وتعدَّدت الآراء حوله من دون التوصل إلى حل لهذه المسألة التي لا حلَّ لها؛ يتمحور حول نظريتين، الصدفة والخيانة. إذ أن التحول عن الهدف الحقيقي والطبيعي كان نتيجة سلسلة من الظروف على الرغم من النوايا القديمة المبيتة للوثوب على بيزنطية، وتحقيق نصر لاتيني على امبراطورية كريهة وكنيسة أرثوذكسية متمردة على البابوية، وأن الخيانة وبخاصة خيانة البنادقة كانت نتيجة مؤامرة جُهِّزت خلال مدة طويلة وبعناية فائقة[2].

الواقع أن فكرة غزو العاصمة البيزنطية من قبل اللاتين في عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م)

---

(١) وولف: جـ١ ص٣٥١. (٢) ماير: ص٢٨٤.

لم تكن الأولى، فقد حدثت محاولات عدة لهذا الغرض في مناسبات سابقة، قادها النورمان بشكل خاص منذ عام (٤٥١هـ/١٠٥٩م)، وكانت البابوية هي العامل الرئيس في تمهيد الطريق للأباطرة الألمان لاستئصال النفوذ البيزنطي من وسط وجنوبي إيطاليا وفي ذلك الحلف الذي لم يُكتب له النجاح بين روجر الثاني ملك صقلية ولويس السابع ملك فرنسا ضد الدولة البيزنطية في عام (٥٤٢هـ/١١٤٧م).

وتبنَّى الهوهنشتاوفن الألمان هذه السياسة العدائية تجاه بيزنطية، فقد فكَّر فريدريك بربروسا وابنه هنري السادس جدياً في احتلال بيزنطية وضمها إلى الامبراطورية الرومانية المقدسة، لكن الفرصة التي أتاحها ألكسيوس الرابع لقادة الحملة الصليبية الرابعة والبنادقة على الرغم من اختلاف توجهاتهم، بين الدين والتجارة؛ كانت فرصة ذهبية لتحقيق الأهداف، فاغتنموها من دون تردد، وكانت دوافع الصليبيين من وراء هذا الغزو معروفة مثل: ضلال البيزنطيين، وكنيسة القسطنطينية مهرطقة ومتمردة ضد سلطان البابا ومنحرفة عن قانون الإيمان، ما جلب على أهلها كراهية البابوية حامية الكاثوليكية والإيمان القويم، أما أهداف البنادقة فكانت مادية.

سقوط القسطنطينية بيد الصليبيين(١)

انتشر الصليبيون في المناطق المجاورة لخلقدونية، ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من غلال، ثم واصلوا الزحف من هناك حتى سكودري على الشاطىء الآسيوي للبوسفور، ونزلوا في غلطة عبر القرن الذهبي واستقرت سفنهم في الميناء بعد أن حطَّموا السلسلة الذهبية التي تحميه.

واعتقد ألكسيوس الرابع أن سكان القسطنطينية، سوف ينهضون للترحيب بالصليبيين، واستطاع أن يقنع هؤلاء بذلك، لكنهم فوجئوا عندما أغلق السكان أبواب المدينة في وجوههم، وأن العساكر البيزنطية رابطت على الأسوار، لذلك هاجمت سفنهم الأسوار على امتداد القرن الذهبي، واستولت على خمسة وعشرين برجاً، وسلب الجنود الصليبيون الجياد من داخل الأسوار، وتجاه مقاومة البيزنطيين

---

(١) يمكن العودة إلى المصادر والمراجع التالية فيما يتعلق بسقوط القسطنطينية بيد اللاتين:
Villehardouin. Clary. Choniates: pp 717 - 763.
وولف: الحملة الصليبية الرابعة: جـ ١ ص٣٣٤ ـ ٣٦٠.
ماير: تاريخ الحروب الصليبية: ص٢٧٧ ـ ٢٩٠.
رنسيمان: جـ٣ ص١٩٥ ـ ٢٧٧.
عاشور: جـ٢ ص٩٢٩ ـ ٩٤٠.
عبيد، إسحاق تاوضروس: روما وبيزنطية ص٣٠٥ ـ ٣٥٢.

أضرموا النيران في المباني الواقعة داخل السور، وحطموا كل المباني المجاورة، ثم بدأوا في تدمير المدينة.

ووجد الامبراطور ألكسيوس الثالث نفسه أمام عدو لا يرحم، فحاول استقطابه بالمال، لكن الصليبيين طلبوا منه التنازل عن العرش الذي اغتصبه لصالح ابن أخيه ألكسيوس الرابع ووضْع نفسه تحت تصرفه، ووعدوه بأنهم سيحاولون أن يقنعوه بأن يعامله معاملة حسنة. كان هذا تحدياً واضحاً للامبراطور وإعلاناً للحرب ضد الحكومة البيزنطية. ونظَّم قادة الحملة الصليبية استعراضاً بحرياً مكَّنوا الأمير ألكسيوس الرابع من الظهور على مرأى من أهالي القسطنطينية وهم يصيحون، أنهم جاؤوا لمساعدة شعب القسطنطينية من أجل الإطاحة بالامبراطور ألكسيوس الثالث المستبد والطاغية وإعادة الحاكم الشرعي، غير أن هذه المحاولة فشلت، وقابل الأهالي هذه الظاهرة بفتور، وكان الرد مزيداً من القذائف.

وأعدَّ الصليبيون خطة لحصار القسطنطينية براً وبحراً، وكان حماس الأساقفة ومقدمي الأديرة شديداً، فراحوا يُبشرون الجند والفرسان بالنصر ويحثونهم على الصلاة. واستولى الصليبيون في (٢٤ شوال ٥٩٩هـ/٦ تموز ١٢٠٣م) على قلعة غلطة التي تتحكم في مداخل ميناء القسطنطينية، وتقرَّر شن هجوم شامل على المدينة، فقسموا الجيش إلى فرق اتخذت كل منها موقعاً محدداً أمام قصر بلاشرناي، وسرعان ما دار القتال بين الصليبيين والبيزنطيين، ونجح الأسطول البندقي في غضون ذلك من الوصول إلى الجزء الواقع تحت أسوار المدينة وراح يضربها بالمجانيق، فأحدث ثغرة بالأسوار دخل منها المهاجمون كالسيل وذلك في (٦ ذي القعدة/١٧ تموز)، ففزع الجنود البيزنطيون المدافعون عن الأسوار، وولوا هاربين إلى داخل المدينة، ولما شنَّ الامبراطور ألكسيوس الثالث هجوماً مضاداً على البنادقة، أشعل هؤلاء النار في المنطقة الواقعة بينهم وبين الجند البيزنطيين واحتموا من ألسنتها داخل الأبراج التي استولوا عليها، ثم اضطروا إلى التخلي عن الأبراج وانضموا إلى القوات البرية، وعلى الرغم مما أظهره البنادقة من محافظة مؤقتة على الأسوار، فقد باء كل شيء بالفشل.

ويبدو أن الامبراطور ألكسيوس الثالث لم يستطع المضي في المقاومة أكثر من ذلك، ففرَّ من عاصمته تحت جنح الظلام حاملاً معه كنوزه وأمواله، واصطحب عدداً من أتباعه المقربين، فخلت العاصمة بذلك من امبراطور، فبادر موظفو الحكومة إلى إطلاق سراح الامبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس من السجن، وألبسوه الرداء الامبراطوري وحملوه إلى قصر بلاشرناي، وأجلسوه على العرش، وأقسموا له

يمين الولاء والطاعة، ثم أرسلوا إلى المعسكر الصليبي وإلى البنادقة، أنه لا حاجة للمضي في القتال وذلك في (٢١ ذي القعدة/ أول آب).

وأرسل الصليبيون والبنادقة إلى الامبراطور إسحاق الثاني طالبوه بالتزام ما تعهد به ابنه إليهم، فصُعِق عندما علم بمضمون الاتفاقية الذي يفوق حد التصور والعقل، ومع ذلك فإنه لم يكن من مفر من الموافقة، عندئذٍ حمل الغزاة ألكسيوس الرابع الصغير إلى أبيه.

كان الشعب في القسطنطينية يُبغض آل أنجيلوس، لكن سخطهم على ألكسيوس الرابع كان كبيراً، فقد اتهموه بأنه أتى بأصدقائه الصليبيين المتبربرين إلى مدينتهم وقد راحوا يجوبون الطرقات والشوارع في تحد سافر لمشاعرهم، وسرعان ما وقع الصدام بين الطرفين، وتدخل ألكسيوس الرابع فتمنى على الصليبيين أن يقيموا معسكرهم على منأى من المدينة عند إستانور تجنباً لصدام بينهم وبين شعب العاصمة، وافق القادة الصليبيون على ذلك، وفي (٢ ذي الحجة/ ١٢ آب) تُوِّج ألكسيوس الرابع ملكاً قسيماً مع والده في الحكم.

واجه ألكسيوس الرابع مقاومة عنيفة في تنفيذ البند المتعلق بإخضاع القسطنطينية إلى روما وإرغام رجال الدين الأرثوذكس على أن يقبلوا سيادة كنيسة روما، وأن يُدخلوا في طقوسهم الشعائر اللاتينية. وإذ بدأ يدفع أقساط دينه البالغ مائتي ألف مارك فضي إلى الصليبيين والبنادقة، إلا أنه لم يتمكَّن من تسديد الدين كله لعدم توفر الأموال، فتوسل إليهم أن يمهلوه حتى (رجب ٦٠٠هـ/ آذار ١٢٠٤م) كي يستطيع توفير المال المتبقي لهم عليه، ووعد بأن يدفع للأسطول البندقي أجر سنة إضافية، فوافق القادة على ذلك، وراح يُغدق الهدايا الوفيرة عليهم ما أثار نهمهم، واضطر من أجل تغطية التكاليف، إلى فرض ضرائب جديدة، وصادر كميات ضخمة من الأواني الكنسية وأمر بسبكها، وبذلها لحلفائه، ما أثار غضب رجال الدين، وأخذ الوضع الداخلي يزداد حدة بفعل غطرسة اللاتين، وتوقفت الحياة التجارية، وأخذت جماعات من العساكر اللاتينية السكارى تنهب القرى في الضواحي، وفُقِد الأمن خارج الأسوار.

وحدث أن اصطحب ألكسيوس الرابع أصدقاءه الصليبيين، بونيفاس مونتفرات وهيو سان بول وهنري الفلاندري وغيرهم، بالإضافة إلى بعض أتباعه البيزنطيين، للقيام بجولة في أنحاء الامبراطورية، وفي الوقت الذي كان فيه خارج القسطنطينية، إذا بالشغب ينتشر في المدينة بفعل الصدام بين اللاتين وأهالي العاصمة، وذلك في (ربيع الأول ٦٠٠هـ/ تشرين الثاني١٢٠٣م)، واندلع حريق كبير مروع عندما عمد بعض الصليبيين إلى إشعال الحريق بمسجد القسطنطينية الذي يؤمه التجار المسلمون

القادمون إلى المدينة، والتهم كثيراً من المباني وأتى على بعض الكنائس، وامتدت ألسنة اللهب إلى الميناء، وأصابت الأحياء المزدحمة بالسكان بجوار آيا صوفيا، وقد ظلت النار مشتعلة مدة أسبوع كامل أهلكت خلالها عدداً كبيراً من النساء والأطفال.

أدرك ألكسيوس الرابع بعد هذه الأحداث أن عليه تغيير سياسته تجاه أصدقائه اللاتين إرضاء للشعب الساخط على علاقات المودة بينه وبينهم، ولذا أخذ يستعلي عليهم، وامتنع عن زيارة معسكرهم، وتوقف عن إرسال الهدايا والعطاءات إليهم، ولم يلبث أن تخلّى عن الجهد الذي لا أمل فيه لمحاولة إرضائهم.

تجاه هذا الموقف الجديد لألكسيوس الرابع، عقد دوق البندقية وقادة الصليبيين مؤتمراً قرَّروا فيه إرسال سفارة مشتركة إلى البلاط البيزنطي، كان ڤلهاردوين أحد أعضائها لتسليم ألكسيوس الرابع وأبيه إسحاق الثاني إنذاراً بأن العلاقات الآن تدعو إلى الحرب.

كان هذا التهديد السافر تطاولاً لم يسبق له مثيل على التاج البيزنطي داخل القصر الامبراطوري في القسطنطينية، وما إن انتهى السفراء من تسليم إنذارهم حتى علت أصوات داخل حجرة الاستقبال بعقاب هؤلاء. والواقع أن أعضاء السفارة ما إن انتهوا من مهمتهم هذه حتى هربوا على خيولهم فنجوا بصعوبة من القتل على أيدي الحرس الامبراطوري، وأبلغوا قادة الحملة بتفاصيل ما جرى في القصر، وبات واضحاً أن الدوق حاكم البندقية ونبلاء الحملة الصليبية قد عقدوا العزم على احتلال القسطنطينية في الوقت الذي كان يتربع ألكسيوس الرابع على العرش وهو الذي أعطاهم الفرصة للقدوم إلى المدينة.

وردَّ البيزنطيون على هذا التهديد، فأرسلوا سفناً عسكرية إلى الميناء لضرب الأسطول البندقي وإحراقه بالنيران، ولكنها فشلت في مهمتها. وبرز خلال هذه الأحداث رجلان كانا على شيء من القدرة على السيطرة على الوضع المتردي في القسطنطينية، وكانا من أصهار الامبراطور السابق ألكسيوس الثالث، والواقع أن أنصار هذا الامبراطور دبروا مؤامرة ضد ألكسيوس الرابع، فعرضوا على تيودور لاسكاريس زوج الأميرة أَنَّة، ابنة ألكسيوس الثالث أن يتولى السلطة، غير أنه لجأ إلى العزلة، فاختاروا ألكسيوس مورتسوفلوس زوج الأميرة إيدوسيا، ابنة ألكسيوس الثالث أيضاً، وكان طموحاً، تقرَّب من ألكسيوس الرابع وأضحى أميناً له، ثم جعل نفسه زعيم الوطنيين، ولم يلبث أن اشترك في تدبير المؤامرة ضد سيده.

ونجحت المؤامرة بسبب الكراهية الشديدة والمتنامية التي يكنها الشعب لآل أنجيلوس، فخنق ألكسيوس الرابع ومات والده إسحاق الثاني بعد بضعة أيام بسبب

الرعب والحزن، وقد تمَّت المؤامرة بسرية تامة، وروَّج صاحبها الذي اعتلى العرش البيزنطي باسم ألكسيوس الخامس أن وفاة ألكسيوس الرابع كانت طبيعية، ونظَّم له جنازة ضخمة وراح ينوح عليه علانية.

لم تكن ثورة القصر إلا تحدياً سافراً للصليبيين، فنشب القتال بينهم وبين الجيش البيزنطي بقيادة مورتسوفلوس، وقد أعاد هذا بناء الأسوار البحرية، وأضاف إليها أبراجاً خشبية، غير أنه هُزم أمام هنري أخي بلدوين الفلاندري، وفقد أيقونة مشهورة كان يستخدمها كرامة له، وفرَّ من أرض المعركة ناجياً بحياته.

وظلَّ البنادقة يلحون على الصليبيين بأنه ليس ثمة إجراء عملي إلا الاستيلاء على القسطنطينية عنوة واقتسام غنائمها فيما بينهم. وصبَّت حادثة الهجوم البيزنطي في مصلحة هذا التوجُّه الذي أضحى له ما يبرره. وفي (رجب ٦٠٠هـ/آذار ١٢٠٤م)، عقد هنري داندولو كممثل للبنادقة، وبونيفاس وبلدوين ولويس بلوا وهيوسان بول كممثلين عن الصليبيين، اتفاقية جديدة لتنظيم سلوكهم حيال المدينة بعد سقوطها في أيديهم تضمَّنت ما يلي:

- تشكيل هيئة مؤلفة من اثني عشر عضواً، نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الصليبيين لانتخاب امبراطور لاتيني يحكم الامبراطورية البيزنطية.
- يكون من حق الطرف الذي لا يُنتخب الامبراطور من بين صفوفه، أن يختار الهيئة الكاتدرائية لكنيسة آيا صوفيا من جماعته والتي سوف تختار البطريرك بدورها.
- تشكيل لجنة من أربعة وعشرين عضواً نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الصليبيين، لمعاونة الامبراطور المنتخب في توزيع الوظائف العليا على رجال الحملة الصليبية وتوزيع الإقطاعات على النبلاء.
- ينبغي على كل حائزي الإقطاعات باستثناء دوق البندقية أن يحلفوا يمين الولاء والطاعة للامبراطور، بالإضافة إلى كل الواجبات مقابل ما يحصلون عليه من إقطاعات وألقاب.
- يستقر الامبراطور في قصر بلاشرناي وأن يكون له ربع المدينة.
- توضع الغنيمة في مكان واحد، ويتسلم البنادقة ثلاثة أرباعها أو أكثر بالإضافة إلى ما سيدفعه لهم الصليبيون وفاء بالدين الذي عليهم، ويتسلم غير البنادقة الربع الباقي، وما يتبقَّى بعد سداد الدين يُقسم بالتساوي بين الفريقين، وإذا لم تكف الغنيمة لسداد الدين، يتسلم البنادقة الربع الباقي.
- تحتفظ البندقية بالألقاب والأملاك المدنية والدينية وبكل الامتيازات المكتوبة وغير المكتوبة.

ـ يُصدِّق البابا على مضمون هذا الاتفاق ومن يعبث به يكون عرضة للحرمان.

الواقع أن هذا الاتفاق اهتم بالمشكلات المستقبلية التي سيتعرض لها اللاتين في القسطنطينية، فمع أن البنادقة والصليبيين عدُّوا عملياتهم هذه بوضوح مجرد غارة للسلب والنهب، إلا أنهم كانوا يهدفون من ورائها إلى تأسيس دولة جديدة على الأرض نفسها التي أرادوا تدميرها، أما الادعاء بأن تمضي الحملة بعدئذٍ لقتال المسلمين، فتقرَّر صراحة التخلي عنه.

وشنَّ البنادقة والصليبيون هجمات عدة على القسطنطينية في (١٠ شعبان/ ١٣ نيسان) حتى انهارت معنويات المدافعين، فتدفقوا عليها، وهرب مورتسوفلوس وزوجته إلى تراقيا، ولما شاع أمر فراره اجتمع من تبقَّى من النبلاء في كنيسة آيا صوفيا وعرضوا التاج على تيودور لاسكاريس، وإذ أدرك هذا أن الوقت قد فات لإنقاذ المدينة، رفض هذا الشرف، وتسلل مع زوجته والبطريرك وعدد كبير من النبلاء، إلى ميناء القصر، واستقلوا سفينة أبحرت بهم إلى آسيا الصغرى تاركين المدينة لمصيرها المحتوم.

واستباح الغزاة عاصمة بيزنطية ونهبوها بشكل لا مثيل له في التاريخ، كاشفين عن طبيعتهم البربرية وحقدهم المذهبي وهم الذين حملوا شارة الصليب لخدمة المسيحية ومحاربة المسلمين، فقتلوا عدداً كبيراً جداً من أهلها حتى بات من العسير إحصاؤهم، وأشعلوا النار في الحي المكتظ بالسكان، وانتشرت جماعات منهم تنبش الدور والقصور والكنائس والحوانيت بحثاً عن الغنائم، وكان رجال الدين أشد جند الصليبيين ضراوة ونهباً. وتفيض المصادر الغربية بذكر أعمال النهب التي قام بها الصليبيون وكأنه عمل بطولي كبير حقَّقته الحملة الصليبية الرابعة لتخليص الآثار المقدسة من أيدي الهراطقة. واستولى الصليبيون على كل شيء في المدينة، ولم يتوقفوا في زحفهم المدمر إلا للقتل وهتك الأعراض، ولم يفلت من أيديهم أحد، فقد اغتصبوا الراهبات في أدبرتهن، ودخل الجند السكارى كنيسة آيا صوفيا، وأجلسوا عاهرة على العرش البطريركي وجعلوها تُغنِّي أغاني بذيئة، ورُكلت الكتب المقدسة وديست بالأقدام، واستخدمت الأواني الطاهرة أقداحاً للخمرة، ودمَّر الغزاة آيات الفن النادرة التي ذخرت بها المدينة منذ عهد قسطنطين الأول وخلفائه، وصهروها لتحويلها إلى عملات كان من بينها التمثال البرونزي للذئب، وتمثالا روميلوس وريموس، وتمثال پارس مع التفاحة الذهبية، وتمثال هيلين الطروادية، والتماثيل النحاسية التي أقامها أغسطس قيصر بعد معركة أكتيوم البحرية، ولم تسلم آيات الفن المسيحي من التدمير، كما نبشوا قبور الأباطرة، ومذابح الكنائس

وستائرها، لنهب ما تحويه من معادن نفيسة. وقد تمنى شاهد عيان، هو المؤرخ نيقيتاس كونياتس، لو سقطت المدينة في أيدي المسلمين بدلاً من سقوطها في أيدي الصليبيين، وقارن بين سلوك المسلمين عندما فتحوا بيت المقدس وكيف حافظوا على الأماكن المسيحية المقدسة ومن بينها الكنائس، وبين سلوك الصليبيين المدمِّر لأهل القسطنطينية وللآثار المسيحية ومنها الكنائس.

ورأى الصليبيون بعد ثلاثة أيام من الاستباحة أنهم حقَّقوا أعظم فتوحهم، وبات ما تبقَّى من سكان القسطنطينية ينوحون على خير المدائن، ومنارة الأرض وحامية الكنائس، وسيدة الإيمان، وقلعة العلم، وملاذ كل خير، وقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله، وقد أتت النار على نصفها، وجُرِّدت تماماً من كنوزها، وهجرها أربعة أخماس سكانها، ولم يبق فيها إلا المتسولون والمعدومون والمرضى، وقارنوا ما حل بها بما جرى لمدائن لوط الخمس.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، اجتمعت هيئة الاثني عشر وانتخبت بلدوين الفلاندري أول امبراطور لاتيني لبيزنطية بعد أن استُبعد بونيفاس مونتفرات، وجرى تتويجه في حفل فخم في كنيسة آيا صوفيا في (١٤ رمضان/ ١٦ أيار)، وكان لا بد له أن يكون سيداً على كل ما فتحه من البلاد باستثناء الأراضي التي اختص بها البنادقة، ثم جرى توزيع الإقطاعات على النبلاء والقادة، فحاز بونيفاس مونتفرات الذي تزوج من ماري، أرملة الامبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس، تسالونيك ومقدونيا وتساليا وأبيروس، ونال لويس بلوا دوقية نيقية، وحصل رينيه من تروت على دوقية فيليبوليس، وهنري الفلاندري على أبيدوس وأعمالها، وأرتوا لاروش على دوقية أثينا وطيبة، وصارت البيلوبونيز من نصيب سيدين فرنسيين هما وليم شامليت وجفري ڤلهاردوين الأصغر، ابن شقيق المؤرخ المعروف الذي رافق الحملة الصليبية الرابعة، فأسس أسرة الأمراء الذين حكموا آخيا في بلاد اليونان.

وما إن وصلت أنباء سقوط القسطنطينية بيد اللاتين إلى بلاد الشام حتى سارع عدد من نبلاء الصليبيين ممن لم يحالفهم الحظ في بلاد الشام بالذهاب إلى القسطنطينية ليشاركوا بنصيب من الغنائم، فحصل ستيفن من بيرش على دوقية فيلادلفيا. لقد كانت اتفاقية التقسيم وتوزيع الإقطاعات علامة على انتقال الإقطاع اللاتيني ونظمه إلى الأرض البيزنطية.

وحصل البنادقة على ربع المدينة نصيباً من الفتح، وحازوا شطرها الذي يضم كنيسة آياصوفيا، بالإضافة إلى جزيرة كريت وجزر أيونيا وأجزاء من الساحل الغربي لبلاد اليونان، وألبانيا، وجزر بحر إيجة، والمنطقة الواقعة عند مدخل الدردنيل،

وبذلك يكون هؤلاء قد استولوا على الموانىء «الاستراتيجة» والقلاع البحرية المنيعة التي سوف تُسهم في سيادتهم البحرية، ولم يهتموا بالأراضي الواقعة في الداخل وذلك تمشياً مع مصالحهم التجارية.

وبالتوازي مع العملية السياسية، جرت عملية أخرى لا تقل أهمية عنها ألا وهي خلع الأساقفة البيزنطيين من أسقفياتهم وإحلال أساقفة لاتين مكانهم، فاختير توماس مورسوليني البندقي لاعتلا سدة بطريركية آيا صوفيا بدلاً من البطريك اليوناني يوحنا العاشر كماثيروس الذي كان قد فَرَّ من العاصمة إلى تراقيا. وأقام الغزاة أسقفيات لاتينية جديدة، كذلك، وجدت الديرية طريقها إلى الامبراطورية البيزنطية، غير أن دولة الروم اللاتينية، وهو الاسم الذي أطلقه اللاتين على امبراطوريتهم، لم يكن لها من الحقيقة ما يزيد كثيراً على حقيقة سلطة الامبراطور، إذ لم يتم فتح كل أقاليمها.

موقف البابا إنوسنت الثالث من الاستيلاء على القسطنطينية

بهر استيلاء اللاتين على القسطنطينية أنحاء العالم اللاتيني فعمَّه الفرح والسرور، وكان المخالفون قلَّة، ومهما كان مدى الخوف الذي شعر به البابا إنوسنت الثالث بسبب تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية إلا أنه لم يُفاجأ بواقع هذا الاستيلاء لأنه كان يعلم أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تستهدف الهجوم على القسطنطينية، كما أنه تواطأ، فتباطأ في إدانة انحراف الصليبيين إلى زارا وهجومهم عليها وكذلك فعل بعد استيلائهم على القسطنطينية وابتهج من أجل ذلك. ففي ردِّه على رسالة تلقاها من الامبراطور بلدوين تفيض فرحاً وسروراً بما تحقق؛ أعلن موافقته من دون تحفظ على القضاء على دولة البيزنطيين وإنقاذ كنيستهم الضالة من الجهالة والضلال، وإخضاعها لسلطان كنيسة روما، وكتب إلى رجال الدين اللاتين في القسطنطينية يأمرهم بضرورة إدخال الطقوس اللاتينية في سائر كنائس الامبراطورية البيزنطية.

في الحقيقة أن البابا إنوسنت الثالث ارتاع لِما وقف عليه بعد ذلك من اقتران عملية الاستيلاء على المدينة بما جرى من سفك الدماء، وارتكاب ما يخالف تعاليم الدين، واشتد جزعه بوصفه رجلاً مسيحياً، فهذه الوحشية المتبربرة لم تكن خير سياسة لكسب محبة العالم المسيحي الشرقي، فكتب إلى القسطنطينية مستنكراً ما ارتكبه الصليبيون من فظائع، لكن غضبه قد انبثق أولاً وقبل كل شيء بسبب اختيار توماس مورسوليني البندقي لكرسي البطريركية البيزنطية من دون أخذ رأيه في هذا الاختيار، وازداد غضبه عندما علم بأن البنادقة كانوا يخططون لاحتكار عرش البطريركية لجمهوريتهم دون سواهم، بدليل أنهم أجبروا توماس مورسوليني على أن

يُقسم في كنيسة آيا صوفيا بألّا يقبل أعضاء ليسوا بنادقة، غير أن البابا أجبر توماس مورسوليني على استنكار هذا القسم الذي أدَّاه لبني جلدته علانية، فاتسمت العلاقات بينه وبين البابا بالإنسجام التام، فاعتمد البابا انتخابه، وأصدر في الوقت نفسه عفواً عن الدوق هنري داندولو ومنحه بركات القديس بطرس، ورضي بالوضع الجديد[1].

نتائج الحملة الصليبية الرابعة

- تُعدُّ مهاجمة القسطنطينية والاستيلاء عليها حماقة سياسية وجُرماً لا يُنسى، فقد حرمت الصليبيين في بلاد الشام من مساعدة إخوانهم في القسطنطينية، وسلبتهم أنصارهم الأقوياء، وقلبت كل وسائل الدفاع عن العالم المسيحي رأساً على عقب بفعل الضعف الذي اعترى الامبراطورية الجديدة واحتفاظ البيزنطيين ببعض المواقع في آسيا الصغرى، إذ لم يستطع اللاتين أن يستولوا على كل الأراضي البيزنطية في حين أدَّت مهاجمتهم لليونانيين إلى ازدياد قوة الأتراك.

- أدَّت الحملة الصليبية الرابعة إلى تبديد وتدمير ما حرصت عليه بيزنطية من المحافظة على كنوز السنين الماضية، وإلى إصابة المدينة بجرح مميت.

- أضحى من الصعب اجتياز الطريق البري الممتد من أوروبا إلى بلاد الشام عبر آسيا الصغرى، نظراً لما يُثيره المسافرون عبره من ارتياب البيزنطيين في نيقية، وعداوة الأتراك في الأناضول، كما أن الطريق البحري لم يعد سهلاً لأن السفن الإيطالية كانت تُفضِّل نقل المسافرين إلى موانئها في الجزائر اليونانية والبوسفور لتحريك عجلة التجارة، عن أن تنقلهم إلى عكا وموانىء بلاد الشام الأخرى، وكان هؤلاء المسافرون يؤثرون الحياة الهادئة في القسطنطينية على تلك القلقة والمليئة بالمتاعب التي كان يحياها الصليبيون في بلاد الشام، بل إن الدولة اللاتينية لم تلبث أن استهوت كثيرين من فرسان الصليبيين في بلاد الشام، فغادروا إلى قبرص والبلقان لينعموا بحياة هادئة بعيداً عن تهديد المسلمين.

- تعدُّ الحملة الصليبية الرابعة فاجعة بالنسبة لبيزنطية التي ظلَّت قروناً عديدة منذ قيامها تُشكل حاجزاً بين العالمين الشرقي والغربي، غير أن وحدة العالم البيزنطي قد تفكَّكت بضياع القسطنطينية، وظلت كذلك حتى بعد أن استعاد البيزنطيون عاصمتهم في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، إذ تعذَّر على بيزنطية أن تصمد في وجه الهجمات العثمانية التركية.

- زادت الحملة الصليبية الرابعة من حدة الكراهية بين العالمين المسيحيين في

---

(١) عبيد: ص٣٤٧ ـ ٣٥٢. رنسيمان: جـ٣ ص٢٣١ ـ ٢٣٣.

الشرق والغرب، فعلى الرغم من ادعاء الصليبيين بأنهم أنهوا الانشقاق الديني ووحَّدوا الكنيستين الشرقية والغربية، إلا أن ذلك لم يتحقَّق على أرض الواقع، بل إن سلوكهم خلَّف ذكريات عن همجيتهم ووحشيتهم لا تُنسى، وعندما حاول الزعماء البيزنطيون بعد ذلك التقرب من الغرب الأوروبي وإقامة جبهة موحدة لمواجهة الخطر العثماني، لم تتبعهم شعوبهم التي لم يكن بوسعها أن تنسى ما فعله رجال الحملة الصليبية الرابعة، وظلَّ الشقاق الديني مستقراً في قلوب المسيحيين في الشرق من دون أمل في علاجه.

ـ أضعف استيلاء رجال الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية مركز الصليبيين في بلاد الشام وهم الذين كان مفروضاً أن ينجدوهم ويُخفِّفوا عنهم، ويُدعموا مركزهم تجاه الضغط الإسلامي الواقع عليهم.

ـ تُعدُّ الحملة الصليبية الرابعة انعطافة خطيرة في تطور الفكر الصليبي، إذ فتر بعدها الحماس الديني وبرزت المصالح الاقتصادية والتجارية لتحتل المكانة الأولى، بالإضافة إلى أنها شكَّلت أولى الحملات الصليبية المنحرفة، وسابقة لها ما بعدها.

الفَصْل الخَامِس وَالعشرُون

الحملة الصليبية الخامسة

ما قبل الحملة

حملة الأطفال: يمثل عام (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) الوقت الذي أُثير فيه الحماس الديني في كل مكان من أوروبا من خلال الدعاية التي انتشرت ضد طائفة الألبنجيين[١]، وأُضيف إليه تلك النداءات ذات التأثير المتزمت والآثار النفسية العميقة. ففي السنين الماضية نُظِّمت حملات للتوبة، وقد وجد أفرادها الغفران في المشاركة بإنجاز بناء كاتدرائيات ضخمة مثل تلك التي في مدينة شارتر، وكان من بين الذين ساهموا في بنائها مجموعات من الأطفال[٢]، يضاف إلى ذلك ما ظهر في شمالي فرنسا وأماكن أخرى من تقديس لأولئك الأطفال الأبرياء من بيت لحم الذين قُتلوا على يد هيرودوس الكبير حاكم فلسطين[٣]، ويمثلهم الشبان الأعضاء التابعون للكنيسة. واعتاد الأطفال في يوم عيد الأطفال الأبرياء من بيت لحم، أن يختاروا أسقفاً من بينهم، ومن خلال هذا التصور ينبغي أن يُنظر إلى جذور الاعتقاد البدائي أن استعادة بيت المقدس ستتم على أيدي هؤلاء المساكين الأصفياء الذين لم يكونوا مسلحين. والواقع أن حملة الأطفال الصليبية كانت في الوقت نفسه انتصاراً وهزيمة لفكرة الفقر، وتُعدُّ من أغرب الحملات التي شهدها تاريخ الحروب الصليبية.

لم تعمل الدوائر الدينية ولا العلمانية على تشتيت جموع الأطفال بوسائل القوة الضرورية، ويبدو أن الملك الفرنسي فيليب أغسطس هو الذي أجبر مجموعة كبيرة من الأطفال على التفرق، إذ قدم عليه، عند كنيسة سانت دنيس بفرنسا، صبي من

---

(١) الألبنجيين: طائفة مسيحية متعصبة انتشرت في فرنسا عن طريق إيطاليا قادمة من البلقان، وقد حاربتها الكنيسة الكاثوليكية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وتُنسب إلى ألبي من مدينة طولون بفرنسا.

(٢) ماير: ص٣٠٥.

(٣) اتصف هيرودوت الكبير بالقوة والجبروت، وقد دفعته نقمة الشعب عليه وخوفه من منافسة أعدائه وظهور مخلص في بيت لحم؛ إلى قتل جميع أطفال هذه المدينة، وذلك حتى لا ينجو ابن داوود ويتملك على اليهود ويتربع على عرشه.

رعاة الغنم من مدينة كلوي في إقليم أورليان، في الثانية عشرة من عمره يُدعى ستيفن، وكان الملك يعقد مجلساً مع رجال بلاطه، فقدَّم له رسالة ذكر فيها أن المسيح أتاه وأمره بالدعوة لحملة صليبية جديدة. لم يُبد الملك الفرنسي أي اهتمام بالصبي وطلب منه أن يعود إلى منزله، لكن ستيفن لم ينصاع للأمر، وأدرك أنه القائد الملهم الذي سينجح فيما فشل فيه الكبار في إنقاذ المسيحية واسترداد بيت المقدس، واعتقد أن البحر سينشق أمام مؤيديه، ويتمكَّنوا من عبوره من أوروبا إلى بيت المقدس كما عبر موسى البحر الأحمر[1]. والمعروف أنه في الخمس عشرة سنة الماضية ظل المبشرون يطوفون بالقرى ويحضُّون الناس على الاشتراك في حملة صليبية لقتال المسلمين في الشرق أو في إسبانيا أو لمناهضة الملحدين في لانغدوك، فكان من اليسير أن يتأثر صبي شديد العاطفة بفكرة أن بوسعه أيضاً أن يكون مبشراً ومنقذاً[2].

وبدأ ستيفن بالدعوة لحملته، وراح يطوف في أنحاء فرنسا، وقد وُهِبَ فصاحة اللسان، فهرع إليه عدد كبير من الأطفال من بينهم كثير من أبناء وبنات الأمراء، وقد بلغ عددهم نحو خمسين ألفاً، وانضمَّ إليه القساوسة والحجاج، وتجمَّعوا في وسط باريس استعداداً للرحيل، وقد ساعد المستوى الفكري للناس في العصور الوسطى على الاعتقاد في صحة دعوة ستيفن، وفي أن أولئك الأطفال سيحققون ما عجز عنه الكبار من إنجازات ضد المسلمين[3].

ورحل الجميع في (٢٨ محرم ٦٠٩هـ/ ٣٠ حزيران ١٢١٢م) إلى مرسيليا عن طريق تولوز وليون، سيراً على الأقدام، وهلك عدد كبير منهم بسبب مشقة الطريق وطول المسافة، وما إن وصلوا إلى مرسيليا حتى رحَّب بهم أهلها وشجَّعوهم على المضي لتنفيذ فكرتهم، ووفَّروا لهم ما أمكن من المأكل والمأوى، وعندما تجمع الأطفال أمام البحر لم تحدث المعجزة، ولم ينشق البحر أمامهم كما كانوا يظنون، فاستبدَّ بهم اليأس الشديد، فثار بعضهم على ستيفن، واتهموه بأنه خدعهم، وأخذوا يعودون من حيث أتوا، وظل البعض الآخر مع قائدهم انتظاراً لحدوث المعجزة التي لم تحدث لهم، حتى عرض عليهم تاجران من تجار مرسيليا أن يضعا سبع سفن تحت

---

(١) Brentano, F: Les Croisades p114.

(٢) الملفت أن هذه الظاهرة تكررت بعد ذلك في عام ١٤٢٨م وفي أورليان نفسها، وكان الإنكليز يحاصرونها آنذاك؛ تمثَّلت ببروز الفتاة جان دارك، وكانت في السابعة عشرة من عمرها، ويُقال إنها كانت تسمع هاتفاً سماوياً يناديها لإنقاذ ملكها وبلادها.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٢٥٠. عاشور: جـ٢ ص٩٥٥.

تصرفهم تنقلهم من دون أجر إلى فلسطين، في سبيل مجد الله، وقد تمَّ ذلك، وركب الأطفال في السفن التي أبحرت بهم، ومضت ثماني عشرة سنة من دون أن ترد عنهم أي أنباء.

وبلغت بلاد الراين في هذه الأثناء أخبار حملة ستيفن، فتشجع أطفال ألمانيا على الاقتداء به، وشرع صبي يُدعى نيقولا، من كولون ببلاد الراين، في الدعوة للرسالة نفسها أمام ضريح الملوك الثلاثة، وأعلن مثلما أعلن ستيفن أن بوسع الأطفال أن يبزُّوا الكبار فيما يفعلونه، وأن البحر سوف ينشق فيهيء لهم طريقاً يجتازونه. واشتهر نيقولا بما اشتهر به ستيفن من الفصاحة الطبيعية والقدرة على العثور على مبشرين فصحاء للمضي في دعوته، وجابوا الأراضي في أقصى بلاد الراين إلى أقصاها، ثم تجهَّز للمضي إلى إيطاليا وصولاً إلى البحر علماً بأنه ادعى بأنه سيخلِّص بيت المقدس عن طريق نشر المسيحية بين المسلمين وهذا يعني أن حملته سلمية، في حين ادعى الأطفال الفرنسيون أنهم سيستخدمون القوة لفتح الأرض المقدسة.

انقسمت الحملة إلى قسمين، يبلغ عدد القسم الأول نحو عشرين ألفاً قادهم نيقولا بنفسه واتخذوا طريق الراين إلى بازل ثم اخترقوا غربي سويسرا، فاجتازوا جنيف، ثم عبروا جبال الألب عبر ممر سنيس ووصلوا إلى جنوة، وهلك الكثير منهم في الطريق بفعل المشقة، فلم يصل إلى المدينة المذكورة في (١ ربيع الآخر/ ٣١ آب) سوى الثلث، وإذ اكتشفوا في صبيحة اليوم التالي بأن البحر لم يتأثر بصلواتهم، ولم تحدث المعجزة التي كانوا ينتظرونها، بادر عدد منهم إلى قبول عرض الجنويين بتبنيهم، واستمر العدد الأكبر في سيرهم، فوصلوا بعد بضعة أيام إلى نيرا وكان في مينائها سفينتان تقصدان فلسطين، فاستقلهما عدد آخر منهم، ولعلهم وصلوا إلى فلسطين غير أنه لم يُعرف شيء عن مصيرهم. وتابع نيقولا ومن بقي معه السير إلى روما، فاستقبلهم البابا إنوسنت الثالث الذي تأثر بتقواهم، ولكن أثارت حماقتهم حيرته، ورأى من الضروري إعادتهم إلى صوابهم وأوطانهم. لم يُعرف شيء عن رحلة العودة، إذ لم يكن بوسع عدد كبير من الأطفال لا سيما الفتيات أن يواجهوا مرة أخرى، متاعب الطريق، فتخلفوا في بعض المدن والقرى الإيطالية، ولم يعد إلى وطنه سوى عدد قليل منهم، والراجح أن نيقولا لم يكن من بينهم. وعندما علم الآباء الذين فقدوا أطفالهم بهذه الكارثة، استبدَّ بهم الغضب، فقبضوا على والد نيقولا الذي شجَّع ابنه على القيام بهذه المغامرة، وشنقوه.

ولم يكن مصير القسم الثاني من الحملة الألمانية بأفضل من مصير القسم الأول، فقد رحل أفراده إلى إيطاليا بعد أن اجتازوا وسط سويسرا، وعبروا ممر سانت

غونارد وصولاً إلى أنكونا، وقد صادفوا متاعب كبيرة، ولما لم ينشق لهم البحر تحركوا إلى برانديزي على طول الشاطىء الشرقي، فاستقلَّ بعضهم سفناً كانت في طريقها إلى فلسطين، وبادر الآخرون بالعودة إلى أوطانهم، ولم يصل منهم إلا عدد قليل.

لا يزال أمر أطفال الحملة الصليبية من الفرنسيين والألمان الذين أبحروا باتجاه الشرق، مجهولاً على الرغم من أن بعض الروايات تشير إلى غرق بعضهم بفعل العواصف البحرية ونجاة آخرون قذفت بهم الأمواج على شاطىء شمالي أفريقيا، فبيعوا في أسواق الرقيق، وحُمل بعضهم إلى الإسكندرية وبغداد. وذكر أحد الرحالة الغربيين في القرن الخامس عشر الميلادي أن مقدم الإسماعيلية في بلاد الشام أغرى اثنين من الأساقفة المنشقين عن الكنيسة اللاتينية في أن يُهيئوا لستيفن ونيقولا هذه الرؤى الكاذبة التي أدَّت إلى هلاكهم أو بيعهم كعبيد في مصر أو تونس وذلك من دون الوقوف على نواياه. ومهما يكن من أمر فقد وصل عدد قليل منهم إلى عكا، فأثار دهشة الذين اعتقدوا بعدم وجود حكومات أو قوانين في أوروبا تمنع هذا الجنون الذي عُدَّ عاراً على الأوروبيين جميعاً.

بعد أن فشلت محاولة الأطفال على الرغم من الحماس الذي ملأ نفوسهم، لا يصعب على المؤرخ أن يجد في ذلك، الحجة القائمة على أساس أن هذه الحملة لم تحظ بعون الله، وأنها كانت منذ بدايتها من عمل الشيطان، وفي ظل هذا التفسير يظهر بوضوح الشعور بالذنب الذي دفع البابا إنوسنت الثالث إلى المبادرة بالدعوة لحملة صليبية جديدة يُعوِّض من خلالها على الصليبيين في الشرق ما فاتهم من أمر الحملة الصليبية الرابعة[1].

أسباب قيام الحملة

لم يكد ينتهي أجل الهدنة المعقودة بين العادل والملك يوحنا بريين، حتى أثمرت خطة الملك الصليبي، وظهر أن التماسه المساعدة من أوروبا الغربية قد نجح، فبدأت بعض الجموع الصليبية تشق طريقها إلى الشرق.

وكانت الأوضاع السياسية والعسكرية التي سادت في الشرق والغرب في بداية

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٢٤٩ ـ ٢٥٦. عاشور: جـ٢ ص٩٥٤ ـ ٩٥٦. ماير: ص٣٠٤ ـ ٣٠٧. عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص١٣٣ ـ ١٣٤.

Michaud: III pp378 - 380. Munro, D: The Children's Crusade: in, American Historieal Review. Vol XIX.

القرن الثالث عشر الميلادي، بالإضافة إلى ما ساد المجتمع الغربي من ظواهر اقتصادية واجتماعية؛ دفعت الجميع إلى أتون الحرب.

ففيما يتعلق بالجانب الإسلامي، فإن صلاح الدين قد نجح في إنزال ضربة قاسية بالصليبيين في الشرق بعد أن وحَّد المسلمين في مصر وبلاد الشام، وعانت الدولة الأيوبية بعد وفاته، من التفكك والانقسام بسبب الخلاف بين أفراد البيت الأيوبي، وربما شكَّل ذلك مصدر ارتياح في الأوساط الصليبية، ولكن نجاح العادل في إعادة اللحمة إلى الدولة الأيوبية أقلق الصليبيين في الشرق والغرب، ودفعهم إلى التخطيط لتوجيه ضربة عاجلة وقاصمة للعالم الإسلامي الشرقي قبل أن يتمكَّن العادل من تطويق الإمارات الصليبية في بلاد الشام، والقضاء على ما تبقَّى من الوجود الصليبي في المنطقة، وبخاصة أن هذه الإمارات لا تتحمل ضربة كضربة صلاح الدين نظراً لما كان يسودها من ضعف وانقسام.

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي في الشرق، نجد أن بعض هذه الدوافع تتعلَّق بسياسة العادل تجاه الصليبيين التي قامت على الدفاع عن الممتلكات الإسلامية، وأهملت سياسة الهجوم. وربما لجأ العادل إلى هذه السياسة بسبب ما كان يعانيه من مشكلات داخلية أو بسبب الحالة الاقتصادية المتردية بفعل مواسم الجفاف التي شهدتها بلاد الشام والمجاعة التي شهدتها مصر، غير أن العادل استمر في سياسته بعد أن استقرَّت له الأوضاع الداخلية، وربما يعود ذلك إلى طبيعته المسالمة ما شجَّع الصليبيين في بلاد الشام على مهاجمة المسلمين متخذين من بناء العادل قلعة على جبل الطور بالقرب من عكا، ذريعة، إذ رأوا في هذا العمل تغييراً لسياسته التقليدية بحيث تحوَّل من الدفاع إلى الهجوم، كما أنه يُشكِّل اعتداء عليهم وتهديداً لوجودهم في المنطقة، فاضطروا إلى عقد هدنة معه وأرسلوا في الوقت نفسه، يلتمسون المساعدة من الغرب الأوروبي، وقد أدَّى الضعف الذي أصابهم إلى أن يصبحوا في وضع تبعية متزايدة للدول الأوروبية الغربية، ومع ذلك، دفع غالبية الصليبيين إلى البحث عن صيغة تعايش مع المسلمين لصالح الأمن العسكري والنمو التجاري[(1)].

وفيما يتعلق بالجانب الأوروبي، فقد شهدت الساحة السياسية في أوروبا انقسامات حادة بفعل الصراع الداخلي بين البابوية والامبراطورية في الربعين الثاني والثالث من القرن الثالث عشر الميلادي، وهو صراع كانت له انعكاسات سلبية على أوضاع الصليبيين في الشرق فيما بعد. ومن جهة أخرى، لم تعترف البابوية بفشل الحملات الصليبية، فاستعادت آنذاك المبادرة، فبدلاً من توجيه الحملات إلى بلاد

---

(1) عمران: ص١٣٩، ١٤٠.

الشام مباشرة، برزت مصر في حساب الغربيين، وبدأ التوجُّه العام في المجتمع الغربي يتحول إلى مصر كنقطة انطلاق إلى بيت المقدس، وغدت موضع اهتمام دعاة الحرب الصليبية وزعمائها والمتحمسين لها، بعد أن أدركوا جميعاً أنها أضحت مركز المقاومة الحقيقية في العالم الإسلامي ضد الحركة الصليبية[1]، بالإضافة إلى أن مواردها الاقتصادية والبشرية الضخمة تُزوِّد الجيوش الإسلامية بمعين لا ينضب، وقد أدرك المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة أيضاً[2]. وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة التي وُجِّهت أصلاً إلى مصر قد انحرفت عن مسارها إلى القسطنطينية بفعل دوافع اقتصادية ودينية وسياسية، فإن الحملة الخامسة حُدِّد لها أن تغزو مصر بعد أن اقتنع القادة الصليبيون بضرورة السيطرة على هذا البلد لتأمين ممتلكاتهم في بلاد الشام واستعادة السيطرة على بيت المقدس.

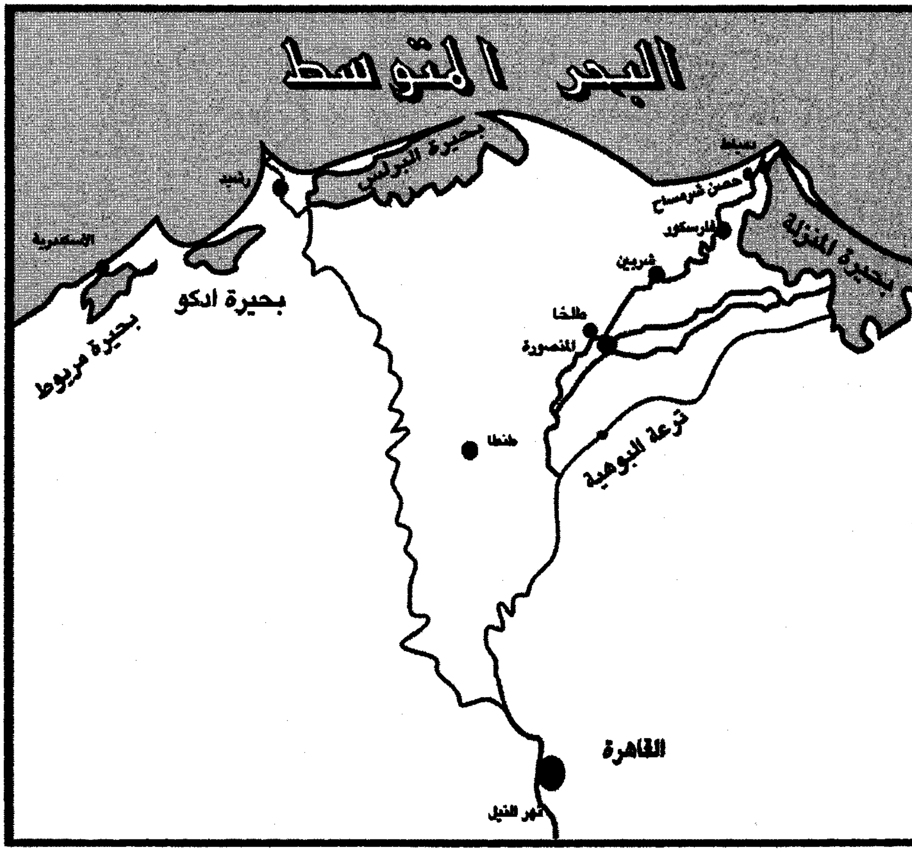
وأدَّت البابوية دوراً مهماً في الدعوة لها بعد أن فشلت في توجيه الحملة الصليبية الرابعة وحملة الأطفال، وكان على البابا إنوسنت الثالث أن يقوم بعمل صليبي ضخم عساه يُعوِّض به هذا الفشل، كما سعى جاهداً طوال مدة جلوسه على كرسي البابوية أن يفرض سيطرته على الممالك المسيحية في أوروبا يوجِّهها وفق المصلحة المسيحية العامة، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه أصبح سيداً على كل ربوع أوروبا تقريباً[3] كما أن انتصار المسيحيين على المسلمين في الأندلس في معركة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، شجَّعه على الدعوة للحملة الصليبية الخامسة، فأراد أن يُتبع هذا الانتصار في الغرب بنصر آخر في الشرق[4].

ورحَّبت المدن الإيطالية التجارية بدعوة البابا نظراً لما يعود عليها من منافع تجارية، على الرغم من أن العادل منح هذه الجمهوريات بعض الامتيازات في بعض الموانىء الإسلامية، وبخاصة في الإسكندرية، إلا أنهم كانوا يطمعون في الاستيلاء على هذه الموانىء.

وهناك عامل اجتماعي آخر أدى دوراً بارزاً في الاستجابة للدعوة البابوية، ذلك أن الحملات الصليبية كانت متنفساً للعامة في أوروبا، ووسيلة للتخلص من الظلم الاجتماعي ومن دفع الديون وفوائدها، فضلاً عن البحث عن مناخ أفضل للحياة بالإضافة إلى التكفير عن الخطايا[5].

---

(١) عاشور: جـ٢ ص٩٦١.
(٢) انظر ابن واصل: جـ٣ ص٢٥٨.
(٣) عمران: ١١٤.
(٤) Cambridge Medieval History: V p410.
(٥) نسيم، جوزيف: الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ص١٨٣ وما بعدها. مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ١٦، السنة ١٩٩٢م.



مسرح عمليات الحملة الصليبية الخامسة

مجمع اللاتيران

أرسل البابا إنوسنت الثالث مندوباً عنه إلى فرنسا هو الكاردينال روبرت كورسون من أجل عقد مؤتمر يبحث في إرسال حملة صليبية إلى الشرق، وسرعان ما انتشرت الأنباء في فرنسا عن الحملة المرتقبة، فأبدى كثير من العامة عن استعدادهم للانضمام إليها.

وأعلن البابا أن المسلمين يستعدون للقضاء على ما تبقّى من الوجود الصليبي في الشرق، وأنه لا سبيل لصمود الصليبيين إلا بالمال والرجال، وطلب من المسيحيين كافة أن يحملوا السلاح للقضاء عليهم، وكتب إلى العادل في عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، يطلب منه تسليم بيت المقدس(١). ويبدو أن العادل لم يعبأ بهذا الطلب،

(١) Iorga, N: Brève Histoire des Croisades et de Leurs Fondations en Terre Sainte p152.

ولم يتوقع وصول حملة صليبية في القريب العاجل،بدليل أنه لم يستعد عسكرياً للتصدي للحملة المرتقبة، وأنه كان في مصر عندما وصلت طلائعها إلى بلاد الشام في صيف عام (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)[١].

انعقد المجمع في كنيسة لاتيران في روما في (٢٠ رجب ٦١٢هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٢١٥م) للنظر في بعض الشؤون الكنسية، ومسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية فضلاً عن الإعداد للحملة الصليبية وهو الهدف الرئيس لانعقاد المؤتمر.

حضر المؤتمر كبار رجال الدين والعلمانيين من الشرق والغرب، وحشد كبير من المهتمين بالشؤون الدينية والسياسية، وألقى البابا خطاب الافتتاح عبَّر فيه عما تعانيه مدينة بيت المقدس تحت حكم المسلمين، وأن هؤلاء ينتهكون حرمات كنيسة القيامة، ويتهكَّمون على صليب المسيح، وهذا تعبير تقليدي كلما أراد الصليبيون في الغرب أن يُرسلوا حملة صليبية إلى الشرق، وهو بعيد كل البُعد عن الحقيقة. وأوضح البابا أن المسلمين بنوا حصناً جديداً على جبل الطور وهو المكان الذي شهد عظمة المسيح ومجده، وأنهم باتوا يُهدِّدون عكا وهي آخر ما تبقَّى من مملكة بيت المقدس[٢].

وناقش المؤتمرون اقتراحات عدة فيما يتعلَّق بإرسال حملة صليبية إلى الشرق، وقرَّروا أخيراً أن تكون وجهتها مصر، فإذا تيسَّر طرد المسلمين من هذا البلد فإنهم يفقدون أغنى إقليم لديهم، كما أنهم لن يستطيعوا المحافظة على أسطولهم في شرقي البحر الأبيض المتوسط، والاحتفاظ ببيت المقدس، إذا تعرَّضوا لهجوم مزدوج من عكا والسويس. وكان البابا يتجه إلى إرسال الحملة إلى بلاد الشام مباشرة، لتعويض الجهد الذي بدَّده رجال الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية[٣].

وتحدَّد تاريخ (ربيع الأول ٦١٤هـ/ حزيران ١٢١٧م) موعداً لانطلاق الحملة، وهو تاريخ انتهاء الهدنة مع المسلمين، على أن يكون ميناء برنديزي أو مسِّينا في صقلية مكاناً للتجمع، وأما الذين يُفضِّلون الذهاب بطريق البر، فعليهم أن يكونوا مستعدين في ذلك التاريخ[٤].

وطلب البابا من رجال الدين أن يتخلُّوا عن نزاعاتهم وأحقادهم وأن يكونوا قدوة حسنة للصليبيين العلمانيين، كما طلب من هؤلاء الكفَّ عن نزاعاتهم وحروبهم لمدة ثلاث سنوات حتى يسود السلام ربوع أوروبا وتتمكَّن الحملة من الانطلاق في

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٢. (٢) Michaud: III p380..

(٣) Estoire d'Eracles: II pp319, 321, 322. Oliver of Padenborn: p22.

(٤) Estoire d'Eracles: II pp321, 322.

الموعد المحدَّد، وقدَّم إغراءات دينية لتشجيع الاشتراك في الحملة، ومنع التعامل التجاري مع المسلمين، وهدَّد كل من يخالف هذا القرار بالحرمان من الكنيسة(١).

موقف ملوك أوروبا من الحملة

أرسل البابا بعد اختتام المؤتمر، الدعاة إلى أوروبا للدعوة للحملة، وتركَّز هؤلاء في فرنسا وألمانيا، كما طافوا في إنكلترا وإيرلندا وإسكتلندا، وكان على اتصال دائم بهم للوقوف على مدى نجاحهم في هذه المهمة(٢).

لكن البابا إنوسنت الثالث توفي في (٢٨ ربيع الآخر ٦١٣هـ/ ١٤ آب ١٢١٦م) قبل أن يُحقِّق أعزَّ أمنياته وهي استرداد بيت المقدس، ولم يمض يومان على وفاته حتى تمَّ انتخاب خلف له هو البابا هونوريوس الثالث (٦١٣ ـ ٦٢٤هـ/ ١٢١٦ ـ ١٢٢٧م) الذي كرَّس جُهده وجُهد المجتمع الغربي نحو الحرب الصليبية(٣)، ورأى بأنه لا بد من تهيئة المجتمع اللاتيني في الشرق، وإعداده لاستقبال الحملة المرتقبة، فأرسل الكاردينال جيمس ڤيتري إلى الشرق وعيَّنه أسقفاً على مدينة عكا، وكلَّفه بالدعوة للحملة، وكتب إلى الملك يوحنا بريين يُشجعه ويؤكد له عزمه على إرسال الحملة، وأنه سوف يُتمِّم العمل الذي بدأه سلفه، كما كتب إلى جميع الأساقفة ورجال الدين يحثُّهم على الاستمرار في الدعوة. من الملاحظ أن وفاة البابا إنوسنت الثالث لم تؤثر تأثيراً بالغاً على قيام الحملة، وحثِّ ملوك أوروبا على الاشتراك بالحملة، غير أنه لم يستجب إلا عدد ضئيل منهم(٤).

فقد وعد هنري الثالث ملك إنكلترا بالذهاب مع الحملة، واعتذر فيليب أغسطس ملك فرنسا عن قيادتها بسبب انهماكه بمحاربة ظاهرة الهرطقة التي انتشرت آنذاك في جنوبي فرنسا وفي أقصى الشمال، ووعد الملك النروجي أنجي الثاني في قيادة الحملة لكنه توفي في (أوائل ٦١٤هـ/ ربيع ١٢١٧م)، أما الامبراطور الألماني فريدريك، فقد وعد البابا بالاشتراك في الحملة، وقام بنشاط ملحوظ لتعبئة المجتمع الألماني، وعلى الرغم من الآمال المعقودة عليه، فلم تظهر بوادر الوفاء بوعده، ثم اعتذر عن قيادة الحملة ووعد باللحاق بها بحجة أن أوتو الرابع ظهر مرة أخرى ليطالب بعرش ألمانيا، ما شكَّل صدمة كبيرة للبابا، ولم يبق في أوروبا ممن وعدوا بالاشتراك في الحملة سوى أندريه الثاني ملك المجر(٥).

---

(١) Thatcher, O. J and Mcneal, E.H: A Source Book for Medieval History II p211.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٢٥٨.

(٣) المرجع نفسه: ص٢٥٩.

(٤) Stevenson: p302.

(٥) رنسيمان: جـ٣ ص٢٦٠.

طلائع الحملة ـ ملك المجر في بلاد الشام

تُعدُّ الجموع المجرية طليعة الحملة الصليبية الخامسة، فقد وصل الجيش المجري بقيادة الملك أندريه الثاني إلى سبالاتو في دلماسيا في (جمادى الآخرة/ أيلول)، ولحق به فيها ليوبولد السادس دوق النمسا، وأبحرا معاً إلى عكا، فهبطا فيها في (أواخر ٦١٤هـ/ خريف ١٢١٧م)، ولحق بهما هيو ملك قبرص بكل ما استطاع أن يُجنده من العساكر[١].

وأرسل ليوبولد السادس فور وصوله إلى عكا سفارة إلى بوهيموند الرابع صاحب طرابلس يدعوه للانضمام إلى الحملة، وقد لبَّى هذا الدعوة وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين، وتجمَّع لدى الصليبيين أكبر جيش عرفه الشرق الإسلامي منذ الحملة الصليبية الثالثة[٢].

وعُقد مجمع للحرب في عكا في (رجب/ تشرين الثاني) لتحديد خطة التحرك، وتتلخَّص في قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة وهو غزو مصر بوصفها الطريق الوحيد لهزيمة المسلمين في بلاد الشام واستعادة بيت المقدس، ولكن المجتمعين أرجأوا تنفيذ الخطة بسبب قلَّة عدد القوات على الرغم من ضخامتها، ولعدم توفر السفن اللازمة لنقل الجنود بحراً إلى دمياط وهي المدينة التي حدَّدوها لنزول قواتهم فيها.

وتناقش المؤتمرون في خطة أخرى تقضي بمهاجمة بيت المقدس، لكن تبيَّن تعذُّر تنفيذها لعدم توفر الماء الكافي لقواتهم عند هذه المدينة. وبعد أن تعذَّر على المجتمعين تنفيذ خطة مهاجمة دمياط وبيت المقدس، قرَّروا مهاجمة دمشق، فغادروا عكا في (٤ شعبان/ ٦ تشرين الثاني)، وسلكوا مرج ابن عامر، وعندما علم العادل بتحركهم وكان في مصر، خرج منها إلى فلسطين، فوصل إلى اللد والرملة، وتابع طريقه إلى نابلس آملاً في أن يقطع الطريق عليهم عند عين جالوت بين بيسان ونابلس، وعندما علم الصليبيون بقدومه، غيَّروا خطتهم وتوجَّهوا نحوه، وساروا إلى مدينة بيسان في الوقت الذي سار العادل إلى هذه المدينة أيضاً «لحماية أطراف البلاد مما يلي عكا»، وقد سبقهم إليها، وصعد على تل المدينة يراقب تقدمهم، وقد بلغ عددهم نحو خمسة عشر ألفاً[٣]، وإذ تفوَّق الصليبيون عليه

---

(١) Estoire d'Eracles II p322..

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٢٦٣.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٢، ٣٠٣ .Iorga: P153

ورد في تاريخ هرقل أن عدد الصليبيين هو ألف من الفرسان وثمانية آلاف من المشاة. جـ٢ ص٣٢٣، ٣٢٤.

في العدد آثر تجنُب الاشتباك وانسحب من المدينة وعسكر في مرج الصُفَّر للدفاع عن دمشق[١].

واستولى الصليبيون على بيسان وهاجموا المنطقة بينها وبين بانياس، وتوغلوا داخل الأراضي الإسلامية، وانتشرت جنودهم في القرى ووصلت إلى خسفين ونوى في حوران، وأطراف السواد، وقاموا بأعمال السلب والنهب، ثم حاصروا بانياس مدة ثلاثة أيام قبل أن يعودوا إلى عكا محملين بالغنائم والأسرى[٢]، وبعد استراحة ثلاثة أيام في عكا توجَّهوا إلى مدينة صيدا، فأغاروا عليها، وهاجموا شقيف أرنون ونهبوها، ثم عادوا إلى عكا في (١٢ شعبان ٦١٤هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٢١٧م)[٣].

الواضح أن الصليبيين لم يكن لهم هدف محدد، وساروا على غير هدى، غير أن غاراتهم المحدودة أزعجت المسلمين، وتسبَّبت في ارتفاع الأسعار، وخشي الناس على أنفسهم، فعزموا على مغادرة البلاد، واجتمعوا في المساجد للدعاء، ولم يطمئن أهل دمشق إلا بعد أن جاء المجاهد صاحب حمص إلى مدينتهم لمساعدة عمه العادل، الذي قلق من هذه الغارات وأرسل أثقاله ونساءه إلى بصرى، وأخذ يستعد للتصدي للصليبيين بعد أن جاءته الإمدادات، فجهَّز ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق بقوة من الجند، وأرسله إلى نابلس ليمنع الصليبيين من الوصول إلى بيت المقدس[٤].

لم يكن الملك يوحنا بريين راضياً عما حدث، ولم يقتنع بضياع الجهود الصليبية في الغارات التي لا تعود إلا بالأسلاب والغنائم، وكانت قلعة الطور من القلاع المتقدمة التي تُهدِّد كيان مملكته والتي من أجلها طلب مساعدة من الغرب الأوروبي، فرأى أن يقوم بعمل عسكري ضدها، ويبدو أن هذا الرأي لم يحظ بموافقة الجميع، فقد رفض كل من الملك المجري أندريه الثاني وهيو ملك قبرص التعاون معه، وسانده بوهيموند الرابع صاحب طرابلس، لذلك أعدَّ من جانبه حملة لتدميرها، ولم ينتظر قدوم المساعدة من قِبَل الجماعات الدينية العسكرية، ما أثَّر سلباً على قدرته القتالية.

وصلت القوة الصليبية إلى القلعة يوم الأربعاء في (١٨ شعبان/ ٢٠ تشرين الثاني)

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٣.
(٢) المصدر نفسه. ابن واصل: جـ٣ ص٢٥٥ .Oliver of padenborn: P14
(٣) ابن واصل: المصدر نفسه. .Ibid
(٤) ابن واصل: جـ٣ ص٢٥٦.

ونفَّذت هجومين جاءت نتائجهما فاشلة، ومن الواضح أن صمود المسلمين قد فتَّ في عضد الملك الصليبي فقرَّر الإنسحاب وعاد إلى عكا في (٦ رمضان/ ٧ كانون الأول) ومعه بعض الأسرى[١].

لم يركن الصليبيون إلى الهدوء ولم يقتنعوا بفشلهم العسكري، فرأوا القيام بعمل آخر لعلهم يُحقِّقون من ورائه نصراً يستردون به كرامتهم، فتوجَّهوا إلى مرجعيون وشقيف أرنون، وقرَّر ديونيس، ابن أخت الملك، بفعل تواجده في المنطقة، مهاجمة البقاع من دون أن يحفل بنصيحة صاحب صيدا أو ينال موافقة خاله، فتعرَّض لمصاعب جمَّة بسبب وعورة المنطقة، وفاجأ أهل البقاع قواته فاستولوا على خيولهم، وقتلوا جماعة منهم وأسروا أخرى، وكان ديونيس من بين القتلى، ولاذ من نجا بالفرار[٢].

وانتهت على هذا الشكل جهود الجموع المجرية من دون أن تُحقِّق أي إنجاز يُذكر فيما يتعلق بالموقف في بلاد الشام سوى تدمير قلعة الطور، وقد هدمها العادل بنفسه نظراً لأنها سهلة المتناول، وليس ثمة ما يدعو للإبقاء عليها[٣]، كما أن الملك أندريه الثاني تسبَّب في إلحاق الضرر بالصليبيين عندما رحل إلى بلاده ومعه عدد كبير من جنوده[٤]، فقد كان الموقف يُحتِّم عليه البقاء في بلاد الشام للانضمام إلى القوات الصليبية القادمة لمهاجمة دمياط، أو للدفاع عن الممتلكات الصليبية أثناء تواجد القوى الصليبية في مصر، والراجح أن تصرفه هذا كان أحد أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة.

استعدادات التجهيز

ظل العادل، الذي أضحى شيخاً متقدماً في السن، يأمل في ألا تبلغ الحماقة بالصليبيين فينقضوا الصلح، وبخاصة أنه توثَّقت العلاقات بينه وبين البنادقة الذين عقد معهم معاهدة تجارية في عام (٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م)، وشاركه في هذا الأمل ابنه الكامل محمد، نائبه في مصر.

وفي الوقت الذي كان فيه القادة الصليبيون في عكا يُخططون لغزو مصر، بدأت القوات الصليبية القادمة من أوروبا تتوافد على عكا ابتداء من (٢٧ محرم ٦١٥هـ/ ٢٦ نيسان ١٢١٨م). وتجمَّع في هذه المدينة عدد كبير من الصليبيين القادمين من أوروبا، وقد بلغ عديدهم حوالي ثلاثين ألفاً، تألفوا من مجريين وإسكندنافيين

---

(١) Estoire d'Eracles: II pp324, 325.
(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص١٠٣ .Ibid
(٣) المصدر نفسه. رنسيمان: جـ٣ ص٢٦٦.
(٤) Oliver of Padenborn: p17.

ونمساويين وألمان، بالإضافة إلى القوات المحلية وبعض القوات من قبرص.

وعقد الملك يوحنا بريين مجلساً عسكرياً لوضع خطة الغزو، فتقرَّر أن:

- تسلك الحملة طريق البحر لأن ذلك يُعطي الصليبيين قدراً أكبر من الأمان لعدم وجود قاعدة كالتي توفرت للملك السابق عموري الأول في عسقلان، كما أن هذه القوات تصل إلى هدفها وهي في حال الراحة ما يُمكِّنها من القيام بعملياتها العسكرية بنشاط. والجدير بالذكر أن هدف الحملة كان مدينة دمياط إحدى المدن الثلاث الرئيسة في مصر، بالإضافة إلى أنها أفضل المواقع للهجوم على مصر كلها، فهي أقرب الموانىء المصرية إلى الصليبيين في بلاد الشام، كما أن فرع دمياط يمثل أيضاً طريقاً سهلاً للمواصلات التي تربطهم بقواعدهم في البلاد المذكورة وتُمكِّنهم من غزو الدلتا كلها قبل التقدم إلى القاهرة للاستيلاء عليها[١].

- تزويد الحملة بالمؤن التي تكفيها لمدة ستة أشهر، وتحمَّلت قبرص العبء الأكبر من هذه المواد التموينية[٢].

- استعمال السفن الفريزية الراسية في سواحل بلاد الشام، وعددها حوالي ثلاثمائة سفينة، لنقل الجنود ودوابهم وآلاتهم ومعداتهم[٣].

ووصلت في هذا الوقت رسالة من البابا هونوريوس الثالث في (٢١ صفر/١٨ أيار) تتضمن تعيين الكاردينال بيلاجيوس أسقف ألبانو، مندوباً عنه في الحملة الصليبية، وطلب من الجميع طاعته[٤].

الصليبيون ينزلون في دمياط

استقل الجيش الصليبي، الذي بلغ عديده حوالي أربعين ألفاً، السفن في عكا بقيادة الملك يوحنا بريين بتاريخ (٢٦ صفر/٢٣ أيار)، ووصل إلى دمياط بعد بضعة أيام، ونزل أفراده إلى البر، ونصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة للمدينة، وقد وجدوها محصَّنة تحصيناً قوياً[٥].

تقع دمياط على مسافة ميلين من مصب نهر النيل، وتحميها من الخلف بحيرة تنيس (المنزلة)، وتمتد بعرض النيل سلاسل من حديد «عظام القدر والغلظ، لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر»[٦] بالإضافة إلى برج

---

(١) عمران: ص١٨٢، ١٨٣.
(٢) المرجع نفسه: ص١٨٣.
(٣) Oliver of Padenborn: p22.
(٤) Donovan, p: Pelaguis and the Fifth Crusade p44.
(٥) عمران: ص١٨٩ ـ ١٩١.
(٦) المقريزي: السلوك جـ١ ص٣٠٩.

السلسلة، وهو بمثابة حصن وسط مجرى النيل لحماية المدينة، وصدِّ أي عدوان يقع عليها[١]، وقد حال دون تقدمهم، لذلك كانت مهمتهم الأولى هي الاستيلاء على هذا البرج ليتمكَّنوا من النزول على الضفة الشرقية للنيل جنوبي المدينة، فيسهل عليهم مهاجمتها[٢].

فوجئ سكان دمياط بتواجد الصليبيين أمامهم وهم يتحفزون للهجوم عليهم، فاستعدوا للدفاع عن مدينتهم، فخزَّنوا المؤن وأرسلوا إلى الكامل محمد في القاهرة يخبرونه بنزول الصليبيين في دمياط، فأسرع على رأس جيشه واتخذ طريقه صوب المدينة، وطلب من والي الغربية أن يجمع سائر العربان وينضم إلى قواته، واستقر الجميع في العادلية[٣] جنوبي دمياط ليكون على اتصال بالمدينة من جهة ويمنع الصليبيين من العبور إليها من جهة أخرى[٤].

الوضع في بلاد الشام

عندما علم العادل بنزول الصليبيين في دمياط، وكان بمرج الصُفَّر، انتقل إلى عالقين بظاهر دمشق، وبدأ بإرسال العساكر إلى مصر، وطلب من ابنه المعظم عيسى أن يغير على معاقل الصليبيين في بلاد الشام ليشغلهم عن دمياط[٥]، وهذه سياسة إسلامية تقليدية منذ أيام نور الدين محمود، كما طلب منه تخريب قلعة الطور على الرغم من أهميتها البالغة واستغلال ما فيها من الرجال والعتاد لنجدة دمياط، وحتى لا يستولي عليها الصليبيون إذا ملكوا دمياط فتكون سبباً في خراب الشام. ونفَّذ المعظم أمر والده[٦].

وطلب العادل من ابنه الآخر الأشرف موسى صاحب حلب أن يهاجم الأراضي الصليبية، فهاجم صافيتا وربض حصن الأكراد، إلا أنه اضطر إلى التوقف وعاد إلى بلاده بفعل أن عمه الأفضل علي استغل فرصة انهماكه بأمر الصليبيين وهاجم حلب للاستيلاء عليها، فأرسل العادل المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني بدلاً عنه[٧]، وفور عودة الأشرف موسى إلى حلب، أرسل قوة عسكرية إلى دمياط نجدة لأخيه

---

(١) Estoire d'Eracles: II pp 326, 327..

(٢) Oliver of Padenborn: p23.

(٣) تقع العادلية بين دمياط وفارسكور على الضفة الشرقية للنيل، أسسها العادل في عام ٦١٤هـ.

(٤) المقريزي: جـ١ ص٣٠٩.

(٥) ابن واصل: جـ٣ ص٢٦١. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٢٠.

(٦) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٤. أبو شامة: ص١٠٩. عمران ص١٩٥.

(٧) ابن واصل: جـ٣ ص٢٦٥، ٢٦٦. المقريزي: جـ١ ص٣٠٧، ٣٠٨.

بقيادة أبرز أمرائه[1].

سقوط برج السلسلة

لم تنقطع المناوشات بين الطرفين منذ أن وطئت أقدام الصليبيين البر في دمياط، ولكنها لم تكن فعَّالة، وأدرك هؤلاء بنتيجتها فداحة الخطأ الذي ارتكبوه برسوِّهم على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية القائمة عليها مدينة دمياط ما أثار أمامهم مشكلة صعبة في تخطي الانتقال إلى الضفة الشرقية، هذا فضلاً عن أنهم أضاعوا كثيراً من الوقت ما أعطى المسلمين فرصة كافية للاستعداد والدفاع[2].

وقام الصليبيون بأول محاولة لاقتحام المدينة، في (٢٦ ربيع الأول ٦١٥هـ/ ٢٢ حزيران ١٢١٨م)، لكنهم فشلوا وعادوا إلى معسكرهم، وظلت قذائف المناجيق تنهال عليهم لإلحاق الضرر بهم[3]. وتبين للصليبيين أن برج السلسلة هو العقبة الرئيسة التي تحول دون تقدم سفنهم وينبغي عليهم تذليلها، وبعد ثلاث محاولات فاشلة، نجحوا في محاولتهم الرابعة في الاستيلاء عليه، فقطعوا السلاسل التي تعترض مجرى النهر، وأضحى بوسع سفنهم أن تجتاز النهر إلى أسوار دمياط[4].

ولا شك بأن سقوط برج السلسلة في قبضة الصليبيين وتدمير تلك السلاسل التي تحمي مجراه، جاء خسارة كبيرة للمسلمين لأن ذلك البرج يُعدُّ «قفل الديار المصرية»[5].

وفاة العادل

أرسل الكامل محمد إلى أبيه العادل، وكان لا يزال يُعسكر قرب دمشق، يخبره بسقوط برج السلسلة ويلتمس مساعدته، لكن العادل لم يتحمل الصدمة، فدقَّ بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض لساعته مرض الموت، ثم توفي يوم الخميس في (٧ جمادى الآخرة ٦١٥هـ/ ٣١ آب ١٢١٨م)[6].

ونظراً لما قد يحدثه خبر الوفاة من تأثير على الروح المعنوية للجنود المسلمين

---

(١) ابن واصل: جـ٤ ص٢٣ ـ ٣٢.

(٢) المقريزي: جـ١ ص٣٠٩. عاشور: جـ٢ ص٩٦٧.

(٣) L'Histoire des Patriarches d'Alexandria p214.

(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٥. عمران: ص٢٠٠، ٢٠١ .Oliver of Padenborn: p24

(٥) أبو شامة: ص١٠٩. عاشور: جـ٢ ص٩٦٧.

(٦) ابن واصل: جـ٣ ص٢٧٠.

المرابطين أمام دمياط، فقد أُخفي خبر الوفاة، واستقر أولاده في إقطاعاتهم، واتفقوا فيما بينهم على توحيد كلمتهم لمواجهة الموقف الصعب الذي نتج عن الغزو الصليبي لمدينة دمياط، وقد وقع عبء الدفاع عن المدينة وطرد المعتدين على عاتق الكامل محمد الذي خلف أباه في حكم مصر(١).

الوضع العسكري في دمياط بعد سقوط برج السلسلة

كان أول عمل أقدم عليه الكامل محمد بعد سقوط برج السلسلة، هو إقامة جسر عظيم بعرض مجرى النهر في جنوبي البرج ليمنع الصليبيين من الصعود في النهر، لكن هؤلاء قطعوا ذلك الجسر، فلجأ الكامل محمد عندئذٍ إلى ثقب مراكب عدة وأغرقها بعرض النيل لتكون بديلاً للسلسلة الحديدية والجسر. كانت هذه فكرة عملية نُفِّذت بتعقل وإحكام(٢)، وأعادت للمسلمين السيطرة على مجرى النيل، على أن الكارثة لم تكن عندهم من الخطورة كالتي كان يخشاها العادل(٣)، فلو أن الصليبيين واصلوا ضغطهم، وبادروا إلى مهاجمة دمياط من الناحية الغربية، وكانت الفرصة متاحة لهم، لتغيرت نتائج الحملة، والراجح أن المدينة كانت قد سقطت في أيديهم، غير أن هؤلاء تردَّدوا بعد الاستيلاء على برج السلسلة، واعتقد كثير منهم أنهم وفوا بوعودهم، وأن مهمتهم قد انتهت بسقوط ذلك البرج، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم، وبات على الملك يوحنا بريين ومن بقي معه أن ينتظروا قدوم الإمدادات من الغرب فجنحوا إلى الكسل والخمول(٤).

ولا شك بأن حال الركود هذا، أعطى الفرصة للمسلمين لإعادة تنظيم صفوفهم بعد أن صُدموا بسقوط برج السلسلة ووفاة العادل، ولو علموا برحيل بعض القوات الصليبية إلى بلادها، وهاجموا بقية الصليبيين، لربما وفَّر ذلك عليهم جهداً وعناء ومالاً فضلاً عن الرجال خلال مدة إقامة الحملة(٥).

الوضع العسكري في بلاد الشام بعد سقوط برج السلسلة

لم تكد أخبار الانتصارات الصليبية أمام دمياط تصل إلى بلاد الشام حتى تشجَّع الصليبيون في عكا، فخرجت قوة عسكرية من الداوية قوامها مائة وعشرون فارساً لمطاردة بعض المسلمين الذين أغاروا على القرى القريبة، ثم لحقت بهم بقية

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٢٧، ٣٢٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٥. Grousset: III p211. (٣) رنسيمان: جـ٣ ص٢٧٣.
(٤) Oliver of Padenborn: p28.
(٥) عمران: ص٢٠٨.

الحامية، فاصطدموا بجيش أيوبي بقيادة المعظم عيسى، خرج من دمشق في (٥ جمادى الآخرة/ ٢٩ آب) بالقرب من القيمون، وهو حصن يقع قرب الرملة على بُعد ستة أميال من عكا، دارت الدائرة على الصليبيين، ولم ينجُ منهم إلا مائة فارس، وسيق الأسرى إلى بيت المقدس[١].

سقوط العادلية

لم يستمر الوضع العسكري على حاله من الجمود، فسرعان ما وصلت جموع صليبية كثيرة بحراً من أوروبا الغربية في (١٥ جمادى الآخرة/ ٢٩ آب) بقيادة الكاردينال بيلاجيوس المندوب البابوي، كان من بينهم قوات إنكليزية، وقد أثار قدوم هذه الجموع مشكلتين، مشكلة التموين وقد حُلَّت بجلب المؤن من قبرص، ومشكلة العلاقة بين الملك والكاردينال وقد لازمت الصليبيين طوال مدة إقامة الحملة في مصر، وكان لهذا الصراع بينهما أثر سيء على الحملة بأكملها[٢].

وتوافر للكامل محمد آنذاك من القوات والإمدادات، بالإضافة إلى الصراع على القيادة بين الصليبيين، ما يكفي لشن هجوم بري وبحري على المعسكر الصليبي، فأنزل قواته على الضفة الغربية للنيل في (١٧ رجب/ ٩ تشرين الأول) وهاجم الصليبيين، غير أنه صُدَّ، واضطر أن يعود إلى الضفة الشرقية، وحاول هؤلاء أن يستغلوا انتصارهم الجزئي بالعبور إلى الضفة الشرقية، لكنهم فشلوا. وشنَّ الكامل محمد هجوماً آخر من النهر يوم الجمعة (٢٤ رجب/ ١٦ تشرين الأول)، وبلغ جنوده حدود المعسكر الصليبي غير أنه رُدَّ على أعقابه إلى النهر، فاضطر عند ذلك إلى اتباع سياسة الدفاع بانتظار وصول المساعدات القادمة من بلاد الشام والتي وعده بها أخوه المعظم عيسى.

وتعرَّض الكامل محمد في هذه الظروف الحرجة إلى مؤامرة حاكها أحد قادته من الأكراد، وهو عماد الدين أحمد بن علي المعروف بابن المشطوب، لخلعه عن الحكم وإحلال أخيه الفائز محله، فساء موقفه أمام الصليبيين وتولاه القلق، واعتقد أن هؤلاء سيعبرون إليه وهو مرابط أمام العادلية، لذلك غادرها ليلة الثلاثاء (١٨ ذي القعدة ٦١٥هـ/ ٥ شباط ١٢١٩م) صوب الجنوب الشرقي، إلى قرية أشموم طنَّاح (الدقهلية) مرتكباً خطأ عسكرياً فادحاً لأن انسحابه هذا أحدث بلبلة في صفوف الجند المسلمين، وأدَّى إلى انسحابهم من العادلية، وغيَّر الوضع العسكري على

---

(١) أبو شامة: ص١٠٩. Estoire d'Eracles III pp 330, 331.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٢٧٥، ٢٧٦. عمران ص٢١١. Grousset: III p211.

الأرض لصالح الصليبيين، لأن العادلية تشكل خط الدفاع الأول عن مصر وقد باتت خالية من العساكر، وأضحى الطريق مفتوحاً أمام هؤلاء فعبروا النيل إلى الضفة الشرقية آمنين ودخلوها، وعزلوها عن دمياط، وشرعوا في حصارها[1].

وساء الموقف في مصر نتيجة هذه الأحداث، ولم يُنقذه إلا استجابة المعظم عيسى الذي حضر إلى مصر، فأعاد الثقة إلى نفس الكامل محمد، فنفى ابن المشطوب إلى الشرق، كما نفى الفائز إلى سنجار، خشية من حدوث فتنة أخرى، ومات الأخير في الطريق[2].

المناوشات العسكرية أمام دمياط

كان على الكامل محمد أن يُعيد تنظيم صفوف قواته مرة أخرى لمقاومة الصليبيين بعد الاضطرابات التي سادت معسكره بسبب مؤامرة ابن المشطوب، ومما لا شك فيه أنه اطمأن كثيراً إلى وجود أخيه المعظم عيسى إلى جانبه، ويُلاحظ أنه خلال هذه المدة، تمكَّن الصليبيون من السيطرة تماماً على منطقة العادلية وعلى المنطقة الواقعة بينها وبين دمياط فضلاً عن حصار هذه المدينة من جميع الجهات، كما أقاموا الاستحكامات حول معسكرهم لاتقاء هجمات المسلمين، وأصبحوا في وضع أفضل منهم، كما أن مدينة دمياط بدأت تشعر بوطأة الحصار بعد أن أصبحت معزولة عن مصر كلها[3].

الواقع أنه لم يكن بوسع الكامل محمد أن يطرد الصليبيين من العادلية بعد أن رسَّخوا أقدامهم فيها على الرغم من مساعدة أخيه المعظم عيسى له، إذ أن النهر والقنوات والاستحكامات التي أقاموها، جعلت من المستحيل على المسلمين أن يستفيدوا من تفوقهم العددي، وما شنُّوه من هجمات على المعسكرين الصليبيين في الضفة الغربية وفي العادلية، لم يكن مصيرها إلا الفشل[4]، عندئذٍ رأى الكامل محمد أن ينتقل إلى فارسكور الواقعة على بُعد ستة أميال جنوب دمياط، وقد اختارها بفعل موقعها خلف القوات الصليبية، وبذلك يحصر الصليبيين بين حامية دمياط من الشمال والجيش الإسلامي المعسكر في فارسكور من الجنوب، وعلى

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٦. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٢٣١. المقريزي: جـ١ ص٣١٤. عمران: ص٢٢١. رنسيمان: جـ٣ ص٢٧٨.

Estoire d'Eracles: II pp335. Oliver of Padenborn: p44.

(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٦. أبو شامة: ص١١٦. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٢٣٠، ٢٣١.

(٣) عمران: ص٢٣٠.

(٤) رنسيمان: جـ٣ ص٢٧٩.

الرغم من ذلك، فلم يتمكَّن من موقعه الجديد، أن يقوم بالهجوم على القوات الصليبية وذلك لعدم توفر القوات الكافية للقيام بهذا العمل، فطلب النجدة من الخليفة العباسي في بغداد، وأمراء العالم الإسلامي، وإخوته، كما حثَّ أهل مصر على مزيد من العطاء، لأن سقوط مصر في أيدي القوات الصليبية من شأنه أن يُهدِّد الوجود الإسلامي في بلاد الشام[(١)].

وتوافدت النجدات من حماة وحلب[(٢)]، وبفضل ما توافر له من القوات، بالإضافة إلى التدابير التي اتخذها؛ استطاعت دمياط الصمود، وقاومت الحصار ببسالة، وفشلت المحاولات العديدة التي بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها، بل إن المسلمين أضحى بوسعهم، بعد أن تحسَّن مركزهم على استعداد لشن هجوم على القوات الصليبية، لكنهم لم يُحرزوا أي نجاح يُذكر. والحقيقة أن الطرفين تبادلا الهجمات المتكررة، كلٌّ ضد معسكر الطرف الآخر من دون أي تغيير في وضع الأراضي.

الكامل محمد يعرض الصلح على الصليبيين

تبيَّن للكامل محمد بعد اصطدامه بالصليبيين، أن من الصعب عليه أن يهزمهم ويجليهم عن مصر بالقوة العسكرية وبالإمكانات المتوافرة لديه، فتحوَّل من سياسة الهجوم أو الدفاع إلى فكرة عرض الصلح عليهم، والواقع أن عوامل عدة دفعته للإقدام على هذه الخطوة، أهمها:

- استمرار تدفق الإمدادات والمؤن من الغرب الأوروبي وقبرص على الصليبيين، فقد حضر غوتييه قائد جيش قبرص ومعه بعض الفرسان، وانضم إلى القوات الصليبية ما أعطى هؤلاء دفعاً معنوياً وعسكرياً، وقوَّى مركزهم أمام دمياط[(٣)].

- تعثُّر القوات الإسلامية في فارسكور، إذ أن مؤامرة ابن المشطوب، على الرغم من إحباطها، وإبعاد محركها، قد تركت أثراً سيئاً على الوضع المعنوي للقوات الإسلامية فضلاً عما سادها من الاضطراب والفوضى[(٤)].

- تواتُر الأخبار من الشرق عن تقدم الجيوش المغولية بقيادة جنكيزخان باتجاه الدولة الخوارزمية، ما أثار مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي ضد المغول[(٥)].

---

(١) المقريزي: جـ١ ص٣١٥، ٣٢٠. أبو الفداء: جـ٢ ص٢٢٤، ٢٢٥. Ernoul: p421.

(٢) ابن الأثير: جـ١٣ ص٩١.

(٣) Estoire d'Eracles: II pp340.

(٤) عمران: ص٢٣٤.

(٥) عاشور: جـ٢ ص٩٤٧.

ـ أنعشت أخبار ظهور المغول آمال الصليبيين، فقد اعتقدوا أنهم سيجدون في الزعيم المغولي حليفاً قوياً لهم ضد المسلمين.

ـ تمدُّد الدولة الخوارزمية باتجاه الغرب، فقد سيطر السلطان جلال الدين الخوارزمي على الخليفة العباسي في بغداد، وتمادى في توغله في شمالي بلاد الشام لتحقيق أطماعه التوسعية على حساب الأيوبيين وسلاجقة الروم.

ـ حرص المعظم عيسى على أن يعود إلى بلاد الشام، لأنه لم يكن راضياً عن تحركات أخيه الأشرف موسى في أقصى الشمال، لذلك ساند أخاه الكامل محمد في السعي الودي للتفاوض مع الصليبيين.

تقدَّم الكامل محمد بعرض سخي على الصليبيين مقابل الجلاء عن دمياط، فهو على استعداد للموافقة على أن:

ـ يُعيد الأراضي كلها التي كانت في حوزتهم قبل فتوح صلاح الدين باستثناء الكرك والشوبك.

ـ يُعيد إليهم صليب الصلبوت.

ـ تستمر الهدنة مدة ثلاثين سنة.

كان هذا العرض مثيراً للدهشة، إذ سوف يستعيد الصليبيون من دون قتال مدن بيت المقدس وبيت لحم والناصرة بالإضافة إلى صليبب الصلبوت، وبذلك تحيا مملكة بيت المقدس القديمة.

وعقد الصليبيون مجلساً لمناقشة عرض الكامل محمد، فنصح الملك يوحنا بريين بقبول العرض وسانده أمراؤه، والأمراء القادمون من الغرب الأوروبي، لأن من شأن الموافقة على هذا العرض أن تصبح مملكة بيت المقدس حقيقة واقعة.

وعارض المندوب البابوي بيلاجيوس قبول العرض وسانده بطريرك بيت المقدس، واعتقد:

ـ أنه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار.

ـ أن الاستيلاء على مصر سوف يُقسم العالم الإسلامي إلى قسمين، شرقي وغربي ما يضعف قوة المسلمين.

ـ أنه بعد الاستيلاء على مصر سيتمكَّن من نشر الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل مصر، ثم إن المسيحيين في إسبانيا سيواصلون انتصاراتهم على المسلمين، وسوف يعبرون مضيق جبل طارق، ويسيطرون على شمالي أفريقيا حتى مصر، أما الجبهة الشمالية، فإن مملكة أرمينية الصغرى أصبحت قوية، وفي استطاعتها أن تسيطر على شمالي بلاد الشام والعراق، وأما الجبهة الشرقية، فقد

تكفَّل بها المغول، وقد أمل في استقطابهم وتحويلهم إلى الديانة المسيحية[١].

ـ أنه كان يشك في نوايا الكامل محمد، واعتقد بأنه لم يتقدم بهذا العرض عن حسن نية، وإنما لجأ إليه كوسيلة من وسائل الخداع وبثِّ التفرقة بين الصليبيين، وإذا عاد الصليبيون وتفرقوا، فيسهل عندئذٍ استعادة الأراضي التي منحهم إياها[٢].

الواضح أن أفكاره هذه كان لها أثر كبير في ضياع الفرصة الطيبة لاستعادة بيت المقدس[٣].

وأيَّد فرسان الداوية والأسبتارية موقف المندوب البابوي الرافض وذلك لأسباب تكتيكية، إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس والقلاع الواقعة في الجليل ومن المستحيل المحافظة على المدينة المقدسة ما لم تتم السيطرة الكاملة على إقليم ما وراء الأردن.

وعارضت المدن التجارية الإيطالية عرض الكامل محمد، وهي التي عارضت في السابق مهاجمة مصر، وحوَّلوا الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية. فعلى الرغم من حرص بيزا وجنوة والبندقية على ألا تقطع علاقاتها مع مصر، فقد رأوا وقتئذٍ أن احتلالهم الدلتا يُعدُّ كسباً تجارياً ضخماً يفوق استرداد بيت المقدس، وقد أرادوا أن يتخذوا دمياط مركزاً لتجارتهم، وهي المدينة المهمة التي تخدم مصالحهم التجارية، إذ يستطيعون من خلالها أن ينفذوا إلى عمق الأراضي المصرية، ولم يهتموا بإضافة الإقليم الداخلي إلى أملاك الصليبيين[٤].

وهناك رأي آخر يتعلق برفض الصليبيين بعامة عرض الصلح الذي تقدَّم به الكامل محمد، وهو أن قواتهم كانت في وضع متقدم على جبهة القتال فضلاً عن تضعضع أحوال المسلمين، كما أملوا بوصول الامبراطور فريدريك الثاني مع قواته إلى ساحة المعركة، وبالتالي فإن امتلاك مصر أضحى أمراً مأموناً[٥].

ويتبيَّن من هذا الرفض أن الحركة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي انحرفت عن هدفها الديني الذي قامت من أجله وهو استرداد بيت المقدس، وتحوَّلت إلى أهداف دنيوية استعمارية[٦].

وعندما علم الكامل محمد بنوايا الصليبيين وتصميمهم على الاستمرار في القتال اتخذ الإجراءات الضرورية التي من شأنها أن تساعده على الصمود، منها:

ـ جمع الأموال اللازمة لسد نفقات الحرب.

(١) عمران: ص٢٤٠.

(٢) المرجع نفسه: ص٢٤١، ٢٤٢.

(٣) Grousset: III p223.

(٤) عمران: ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٥) عمران: ص٢٤٣.

(٦) عاشور: جـ٢ ص٩٧٥.

ـ إعداد وتجهيز خطوط الدفاع الأمامية.

ـ حثُّ الأمراء الأيوبيين لإمداد مصر بما تحتاجه من الرجال.

لبَّى المنصور صاحب حماة نداء الاستغاثة، وأرسل قوة عسكرية إلى مصر بقيادة ابنه المظفر محمود ما شجَّع الكامل محمد على أن يشنَّ هجومين على الصليبيين جاءت نتائجهما عديمة الجدوى[1].

ومضى حتى الآن أحد عشر شهراً على نزول الصليبيين أمام دمياط من دون أن يُحقِّقوا هدفهم، ويبدو أن بعضهم ملَّ من طول هذه المدة واعتقد البعض الآخر بمتانة الوضع الصليبي على الأرض، وبالتالي لا حاجة للبقاء أكثر من ذلك بعيداً عن الأوطان، فعادوا إلى بلادهم، كان من بينهم ليوبولد السادس دوق النمسا، فغادر مصر في (١٤ صفر ٦١٦هـ/ ٣١ أيار ١٢١٩م)[2]، لكن ذلك لم يؤثر على الوضع الصليبي العام، لأن الصليبيين تلقوا إمدادات أخرى أرسلها البابا هونوريوس الثالث في (٢٩ صفر/ ١٥ حزيران)، وتبادل الطرفان الهجمات من دون نتيجة إيجابية.

ويبدو أن فشل القيادات الصليبية في الاستيلاء على دمياط بعد خمسة عشر شهراً من المحاولات والمعارك، أدَّى إلى تذمر القوات الصليبية، وانهيار روحهم المعنوية، فاتهموا القادة بالجبن والخيانة، وطالبوا بشن هجوم عام على المسلمين، لكن القادة اختلفوا في اختيار الهدف، فرأى الملك يوحنا بريين تشديد الحصار على دمياط في حين طلب بيلاجيوس شنَّ هجوم على المعسكر الإسلامي في فارسكور وسانده رجال الدين وبعض الفرسان، وانتصر رأيه، لكن الهجوم الذي نُفِّذ في (١٦ جمادى الآخرة/ ٢٩ آب) صُدَّ، وفرَّت القوات الصليبية من ساحة المعركة بعد أن تكبَّدت خسائر فادحة في الأرواح، ووقع الكثير في الأسر، وقد دعَّم هذا الانتصار موقف المسلمين وأعاد الثقة إلى نفوسهم[3].

أراد الكامل محمد أن يستغل ذلك الانتصار ليستأنف ضغطه على الصليبيين لقبول عرض الصلح الخاص بالجلاء عن مصر، لكن عرضه قوبل بالرفض أيضاً، ويبدو أنه لم ييأس، فعرض عليهم الصلح للمرة الثالثة، وقدَّم لهم تنازلات سخية وهي:

ـ تنازله عن كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين أي بيت المقدس، وطبرية وعسقلان، وجبلة واللاذقية، وسائر ما فتحه من مدن الساحل باستثناء الكرك والشوبك.

---

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٢١٨. L'Histoire des Patriarches d'Alexandria: p80.

(٢) عمران: ص٢٥٥.

(٣) Oliver of Padenborn: p42. Estoire d'Eracles: II pp340, 341.

- دفع مبلغ خمسة عشر ألف دينار مقابل الكرك والشوبك.
- دفع تكاليف إعادة تحصين بيت المقدس وباقي القلاع التي خرَّبها المسلمون في بلاد الشام.
- تشكيل لجنة رباعية لتحديد تكاليف إعادة البناء.
- إعادة صليب الصلبوت.
- تقديم عشرين رهينة ضماناً لحسن التنفيذ.
- تستمر الهدنة مدة ثلاثين سنة[(١)].

لا شك بأن الكامل محمد كان متساهلاً جداً في عرضه، ويُشكل إغراء كبيراً للقبول به، لكن هؤلاء لم يختلف موقفهم عن السابق، وعدَّ المندوب البابوي وفرسان الداوية والأسبتارية الذين كانوا يملكون الكرك والشوبك من قبل؛ الانسحاب من أمام دمياط عاراً، فضلاً عن أنهم لم يثقوا بالمسلمين، وانضمَّ الإيطاليون إليهم، واستمرالملك يوحنا بريين على قبوله العرض[(٢)].

سقوط دمياط

الواقع أنه لا يوجد تبرير مقنع لا للعرض المغري الذي تقدم به الكامل محمد إلى الصليبيين، ولا لرفض هؤلاء لهذا العرض السخي جداً، لكن يبدو أن الكامل محمد شعر بصعوبة موقفه في الوقت الذي ساء فيه موقف حامية دمياط بعد أن تعرَّضت للمجاعة والوباء «فنهكتهم الأمراض، وغلت الأسعار عندهم، وامتلأت الطرقات من الأموات، وعُدمت الأقوات»[(٣)] ومما زاد الموقف سوءاً:

- وصول إمدادات صليبية إنكليزية وفرنسية عوَّضت النقص الذي نتج عن عودة بعض الصليبيين إلى أوروبا.
- فشل محاولة الكامل محمد إمداد حامية دمياط بالعساكر لتخفيف الضغط عنها.
- لقد اعترى القلق المعظم عيسى، فأخذ يُفكِّر جدياً في العودة إلى بلاد الشام.
- توقف الإمدادات من بلاد الشام بفعل اشتداد الخطر المغولي.
- الصراع الذي نشب بين الأشرف موسى والأفضل علي على امتلاك حلب وانهماكهما بذلك[(٤)].

---

(١) المقريزي: جـ١ ص٣٢٧. Estoire d'Eracles: II pp341 - 343. Grousset: III p226.

(٢) Estoire d'Eracles: Ibid.

(٣) ابن الأثير: ج١٠ ص٣١٧. المقريزي: جـ١ ص٣١٧. Oliver of Padenborn: p44, 45.

(٤) ابن واصل: جـ٤ ص٢٣.

ولم يكن أمام الكامل محمد للخروج من هذا المأزق سوى تجديد عرض الصلح، غير أن مواقف الأطراف الصليبية المتعارضة لم تتغيَّر وبخاصة أنهم شدَّدوا الحصار على دمياط وضيَّقوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليهم، كما كانوا متحصنين داخل معسكراتهم المحاطة بالخنادق والأسوار، وإذ تعذَّر على الكامل محمد إمداد المدينة بالرجال والمؤن، بدأت حاميتها بالانهيار.

وأخيراً سقطت دمياط في (٢٤ رجب ٦١٦هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٢١٩م) بعد حصار دام تسعة عشر شهراً، ودخلها الصليبيون بعد يومين، وكان لسقوطها أثر بالغ في نفوس المسلمين، ما جعلهم يتكاتفون لصدِّ الخطر الداهم وإجلاء المعتدين، في الوقت الذي استعدَّ فيه الصليبيون للزحف نحو القاهرة للاستيلاء عليها وتحقيق الهدف الأسمى للحملة[١].

وهكذا أضحى العالم الإسلامي في الشرق الأدنى مطوَّقاً بخطر المغول من الشرق، وخطر الصليبيين من الغرب.

ذيول سقوط دمياط

أدرك الكامل محمد أن المهمة الملقاة على عاتقه ثقيلة، وأن مسؤوليته أضحت أخطر من قبل، فراح يُخطط من جديد لدفع خطر الصليبيين عن مصر قبل أن يستفحل، وتصرَّف على أربعة محاور:

الأول: بادر بإرسال السفراء إلى بغداد لحثِّ الخليفة الناصر لدين الله على الدعوة للجهاد ودفع المسلمين إلى حمل السلاح للدفاع عن الإسلام، فكتب الخليفة إلى الأمراء المسلمين لنجدته، لكن تصرفه وقف عند هذا الحد، وربما كان منهمكاً في تتبُّع أخبار الزحف المغولي باتجاه غربي آسيا، الأمر الذي منعه من إرسال العساكر إلى مصر وترك الجبهة مع المغول مفتوحة[٢].

الثاني: أرسل إلى أخيه المعظم عيسى في دمشق لمهاجمة المعاقل الصليبية في بلاد الشام لتخفيف الضغط عن الجبهة المصرية[٣].

الثالث: قرَّر تجنيد مزيد من القوات من كافة أنحاء مصر، واستحضار أكبر عدد ممكن من العساكر الشرقية، فتمكَّن من جمع عشرين ألف مقاتل[٤].

---

(١) عمران: ص٢٨٦.

(٢) ابن تغري بردي: جـ٦ ص٢٢٢. عمران: ص٢٩٠.

(٣) أبو شامة: ص١٧٧.

(٤) ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ١ ص٧٩.

الرابع: اختار مكاناً أكثر ملاءمة للقتال، فنقل معسكره إلى المنطقة التي تقع جنوب بحر أشموم طنَّاح والشاطىء الشرقي للنيل قبالة قرية جوهر، وبنى فيها قلعة جديدة أطلق عليها اسم المنصورة[١].

الواضح أن اختيار هذا المكان كان موفَّقاً، فهو:

- محصَّن تحصيناً طبيعياً، ولا يتيسر للصليبيين الوصول إليه إلا تحت حراسة برية وبحرية مكثَّفة وقوية نظراً لبُعده عن قواعدهم في دمياط ما سيُعرِّضهم لهجمات المسلمين.
- أقرب المواقع لاستقبال النجدات القادمة من بلاد الشام عبر شبه جزيرة سيناء.
- أقرب طريق للمواصلات الرئيسة إلى القاهرة.
- قربه من ميناء سمنود التجاري ذي المحاصيل الوفيرة، والمركز الجغرافي المتصل بمختلف بلاد الدلتا[٢].

أما الصليبيون، فقد عمدوا إلى إعادة بناء دمياط وتحصينها، وبالغوا في ذلك[٣]، وكتبوا إلى البابا هونوريوس الثالث يطلبون:

- مزيداً من القوات العسكرية.
- إرسال الامبراطور فريديك الثاني.
- إرسال الأموال التي جُمعت لصالح الحملة[٤].

وواجهتهم في هذه المرحلة ثلاث قضايا على جانب كبير من الخطورة:

الأولى، مشكلة امتلاك المدينة، فقد رأى الملك يوحنا بريين أن دمياط أضحت جزءاً من مملكة بيت المقدس الصليبية، ورأى المندوب البابوي إلحاقها بسلطة الكنيسة، ودار صراع مكشوف بين الرجلين وأنصارهما وصل إلى حد حصول اضطرابات، وهدَّد الملك الصليبي بالانسحاب من الحملة، وانتهى الأمر بعرض المشكلة على البابا الذي أيَّد الملك في موقفه[٥].

---

(١) لم تلبث المنصورة أن نمت بسرعة بحكم موقعها المتميز من جهة وجهود الكامل محمد في عمارتها من جهة أخرى، فقد شرع في بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق.
المقريزي: جـ١ ص٣١٩، ٣٢٠ .Estoire d'Eracles: II pp350

(٢) زياد، محمد مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ص٥٣، ٥٤.
وسمنود: بلد من نواحي مصر جهة دمياط على ضفة النيل بينها وبين المحلة ميلان. الحموي: جـ٣ ص٢٥٤.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٧.

(٤) عمران: ص٢٩٣.

(٥) رنسيمان: جـ٣ ص٢٨٩ .Oliver of Padenborn: p55

الثانية، مشكلة توزيع الغنائم، إذ أن الإيطاليين لم يرضوا بالنصيب الذي حصلوا عليه، وأعلنوا العصيان، وشهروا السلاح ضد الجنود الفرنسيين بشكل خاص، وأملوا بمساندة المندوب البابوي، لكن بيلاجيوس تخلّى عنهم ما دفعهم إلى إعلان الثورة ضد القيادة والقوات الصليبية معاً، فاضطر الزعماء الصليبيون إلى إعادة النظر في توزيع الغنائم، وحصل الإيطاليون على نصيب أوفر(١).

الثالثة، مشكلة ما بعد امتلاك دمياط التي يتوقف عليها تحقيق الهدف الأسمى للحملة، وتداول القادة في نوعين من الاقتراحات المتعارضة، فرأى الملك الصليبي أن يقوم الصليبيون بزيادة تحصينات المدينة والمعسكر الصليبي المقام حولها، وإعطاء قواتهم قسطاً من الراحة بانتظار وصول الامبراطور فريدريك الثاني، وبخاصة أن المسافة التي تصلهم عن القاهرة ومقدارها مائة ميل مليئة بالعقبات الطبيعية التي لا يعرفها الصليبيون، وفي المقابل، رأى بيلاجيوس أن يتقدم الصليبيون فوراً إلى القاهرة ومطاردة القوات الإسلامية المنهزمة، وتغلّب رأي الملك هذه المرة أيضاً على رأي المندوب البابوي(٢).

عندئذٍ، توقف نشاط الحملة، وتجمَّدت العمليات العسكرية، وكان هذا القرار خطأ عسكرياً، إذ لو استمر الصليبيون في زحفهم نحو القاهرة بعد سقوط دمياط مباشرة، لجاز أن يصيبوا نجاحاً، ذلك أن وضع الكامل محمد كان بالغ اليأس، وتداعت الروح المعنوية عند أفراد جيشه، وكاد رعاياه يموتون جوعاً(٣).

وعلى الرغم من الخلافات الداخلية بين الصليبيين، والركود العسكري الذي وقعوا فيه، فقد كان عليهم تأمين وجودهم ضد الهجمات الإسلامية، لذلك رأوا الاستيلاء على تنيس، فأغاروا عليها في (١٤ رمضان ٦١٦هـ/ ٢٣ تشرين الثاني ١٢١٩م) ودخلوها قهراً(٤).

الوضع العسكري في بلاد الشام بعد سقوط دمياط

هاجم المسلمون في بلاد الشام المعاقل الصليبية لتخفيف الضغط عن الجبهة المصرية، ذلك أن المعظم عيسى هاجم في (محرم ٦١٧هـ/ آذار ١٢٢٠م) بعد عودته من مصر، قيسارية وفتحها عنوة(٥)، إلا أنه فشل في فتح عثليث(٦). وحذا الأشرف

---

(١) L'Histoire des Pariarches d'Alxandria pp254, 255.

(٢) عمران: ص٢٩٦.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٤) Oliver of Padenborn: p57.

(٥) Estoire d'Eracles: II pp334.

(٦) Oliver of Padenborn: p58, 59.

وعثليث: اسم حصن بسواحل الشام، ويُعرف بالحصن الأحمر. الحموي: جـ٤ ص٨٥.

موسى حذوه، فأغار على إمارة طرابلس، وهاجم صافيتا وحض الأكراد، غير أنه لم يتمكَّن من المضي طويلاً في عملياته العسكرية بسبب الحرب بينه وبين سلاجقة الروم، لكنه رابط بالقرب من طرابلس وأنطاكية(١).

الواقع أن الهجمات الإسلامية على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام بالإضافة إلى مرابطة الأشرف موسى؛ قد حرم الصليبيين الموجودين في دمياط من الإمدادات التي يمكن أن تأتي إليهم من الإمارات الصليبية في بلاد الشام، بل إنها أدَّت إلى سحب بعض القوات الصليبية من دمياط لمساعدة إمارات بلاد الشام، إذ أن الملك يوحنا بريين اتخذ من هذه الهجمات ذريعة لمغادرة دمياط إلى عكا على الرغم من تعدُّد أسباب هذه العودة التي كان من بينها استمرار تدهور العلاقة بينه وبين المندوب البابوي، ومشكلة الوراثة في أرمينية الصغرى بعد وفاة ليو الثاني في (منتصف ٦١٦هـ/ صيف ١٢١٩م)(٢).

الكامل محمد يُجدِّد عرض الصلح على الصليبيين

عاد الملك يوحنا بريين إلى عكا تاركاً الصليبيين في دمياط تحت قيادة بيلاجيوس، ولما كان هذا الرجل حريصاً على بقاء الحملة، فقد اتخذ إجراءات عدة لتقييد حركة السفن الصليبية ومنعها من نقل الصليبيين الراغبين في العودة إلى أوطانهم، وبنى حصنين في جيزة دمياط، وبين تنيس ودمياط لحماية الميناء والسفن الصليبية والحد من نشاط السفن الإسلامية داخل البحيرة(٣).

استغل الكامل محمد هذا الجمود العسكري، وحياة الخمول والكسل والتراخي التي كان يعيشها الصليبيون، فشنَّ هجمات عدة برية وبحرية ضدهم جاءت نتائجها محدودة نسبياً.

واطمأن الصليبيون عندما بلغت أسماعهم الأنباء التي أرسلها البابا، ومفادها أن الامبراطور فريدريك الثاني وعده بعد تتويجه بالمغادرة إلى الشرق، وعلى الرغم من أن البابا كان يشك في نوايا الزعيم الألماني، فإنه نصح بيلاجيوس بعدم رفض أي عرض للصلح يقدمه الكامل محمد إلا بعد عرضه عليه(٤).

ويبدو أن الامبراطور الألماني كان جاداً في وعده، فقد نشط في تشجيع رعاياه

---

(١) أبوشامة: ص١٠٩. Ernoul: p423.

(٢) عمران: ص٣٠. Oliver of Padenborn: p63. Estoire d'Eracles: II p347.

(٣) Grousset: III pp232, 234.

(٤) Oliver of Padenborn: p57.

على الاشتراك في الحرب الصليبية، وأرسل قوة عسكرية بقيادة لويس دوق باڤاريا إلى دمياط ونصحه بعدم القيام بهجوم كبير ضد القوات الإسلامية، حتى يلحق به، كما أقلعت إلى دمياط إمدادات كثيرة حتى أصبحت «دار هجرتهم»[(١)].

أثار وصول النجدات الصليبية قلق الكامل محمد، فجدَّد عرضه السلمي على الصليبيين في (ربيع الآخر ٦١٧هـ/ حزيران ١٢٢٠م) غير أن ما اتصف به المندوب البابوي من الزهو والكبرياء حمله على رفض العرض، ولعله تشجَّع بالأخبار التي وصلت إليه عن قرب وصول دوق باڤاريا[(٢)].

الصليبيون يزحفون نحو القاهرة

تشجَّع المندوب البابوي بعد وصول الإمدادات إلى دمياط، واستغل حماس القوات الصليبية التي جاءت أخيراً من أوروبا، ليقوم بالزحف نحو القاهرة، وقد أيده هؤلاء ومن بينهم لويس دوق باڤاريا الذي تجاهل تعليمات الامبراطور.

وفي (أوائل جمادى الأولى ٦١٨هـ/ أواخر حزيران ١٢٢١م) أصدر أوامره بتحرك الجيش، ولما كان قد اتخذ هذا القرار بغياب الملك يوحنا بريين، فقد رفض القادة العسكريون تنفيذه، فاضطر إلى استدعاء الملك الصليبي الذي عاد إلى دمياط في (١٤ جمادى الأولى/ ٦ تموز) وقد استبدَّ به التشاؤم لأنه كان يرى انتظار وصول الامبراطور، وأن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بهذه العملية لأن فيضان النيل سيجعل من المتعذر على الصليبيين الاتصال بقاعدتهم في دمياط بعد مغادرتها، وأنه سيصبح من الصعب عليهم الاحتفاظ بالأراضي التي سيستولون عليها، لأن الصليبيين الوافدين تواقون للعودة إلى بلادهم وليس البقاء في الشرق[(٣)].

ومهما يكن من أمر، فقد تحرك الجيش الصليبي في (١٩ جمادى الأولى/ ١١ تموز) نحو فارسكور ثم شرمساح[(٤)] ولما علم الكامل محمد بذلك تقدم إلى شرمساح ليلتقي به، غير أنه تراجع عندما هاله ضخامته علماً بأن المؤرخين قدَّروه بين تسعة آلاف وعشرة آلاف مقاتل وستمائة وثلاثين سفينة[(٥)]، فاستولى الصليبيون عليها، والتمس الملك يوحنا بريين من بيلاجيوس البقاء فيها إذ حان وقت فيضان

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٠٧ .Oliver: Ibid

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٩ .Ibid. Ernoul: pp 442 - 443

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٢٩٧ .Estoire d'Eracles: p349

(٤) شرمساح: بلدة من نواحي دمياط قرب البحر المالح. الحموي: جـ٣ ص٣٣٨.

(٥) Oliver of Padenborn: p76. L'Histoire des Patriarches d'Alexandria: p57.

النيل، وأخذت قوات من بلاد الشام تقترب من مصر، غير أن المندوب البابوي أصرَّ على مواصلة الزحف.

وفي هذا المكان المليء بالقنوات والفروع المائية استطاع الكامل محمد، بمساعدة أخويه المعظم عيسى والأشرف موسى اللذين وصلا حديثاً إلى مصر، أن يُنزل قوات خلف الجيش الصليبي المتقدم، فقطع عليه خط الرجعة وعزله عن دمياط، وأجهز على سفنه الراسية بين المقدمة والمؤخرة، وحاصره براً وبحراً، ثم فجَّر سدود المياه، فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت أكثر الأراضي المحيطة بهم، كما سيطر على الطريق الذي يمكن أن يسلكوه، وهو الشريط الضيق الملاصق للنيل والممتد من معسكرهم شمالاً حتى دمياط، وهو الطريق الوحيد لعودتهم براً إلى دمياط[1].

وعلى هذا الشكل سيطر المسلمون على الموقف.

وإذ تعذَّر على القوات الصليبية التقدم أو الانسحاب، أدرك بيلاجيوس أنه ارتكب خطأ عسكرياً بمغادرة دمياط، ولم يبق أمامه للخروج من هذا المأزق سوى الصلح[2].

بيلاجيوس يعرض الصلح على الكامل محمد

أرسل بيلاجيوس سفارة إلى الكامل محمد في (٧ رجب/ ٢٨ آب) لطلب الصلح، وأعرب عن استعداده لمغادرة دمياط مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه وتركهم يعودون إلى بلادهم سالمين على أن تستمر الهدنة مدة ثماني سنوات ويصادق عليها الامبراطور كما يتم تبادل الأسرى[3].

مال الكامل محمد إلى قبول عرض الصلح، ولعله كان مدفوعاً بعوامل عدة أهمها:

- خشيته من حضور الامبراطور فريدريك الثاني فينتقم لما حل بالصليبيين ويحتفظ بدمياط.

- إن استعادة دمياط تحتاج إلى مجزرة لا داعي لها وربما لا يقدر عليها وبخاصة أن قواته ضجرت من طول مدة الحرب التي استمرت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

---

(١) ابن واصل: جـ٤ ص٩٤ ـ ٩٦. المقريزي: جـ١ ص٣٢٧. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٢٤٠.

(٢) Estoire d'Eracles: II p351.

(٣) المقريزي: جـ١ ص٣٢٨، ٣٢٩. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٢٤١.

ـ استمرار وصول الإمدادات إلى الصليبيين في دمياط ما سيجعل مهمته صعبة ومعقَّدة وربما لا تُحقِّق النتائج التي عرضها بيلاجيوس.

ـ توارد الأنباء من الشرق عن تقدم المغول باتجاه غربي آسيا، فأراد أن يدَّخر ويتفرغ للغزو المغولي إذا ما استمر في التقدم إلى قلب العالم الإسلامي.

والحقيقة أن الكامل محمد اتصف بفكر سياسي نيِّر، أما أخواه فكان من مصلحتهما رفض الصلح والقضاء على الصليبيين وهم في محنتهم حتى لا تُشكِّل عودتهما إلى بلاد الشام سالمين خطراً على أملاكهما[1]. وأخيراً جلا الصليبيون عن دمياط في (١٧ رجب ٦١٨هـ/٧ أيلول ١٢٢١م) فدخلها الكامل محمد في اليوم الثاني[2].

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة والمنحرفة عن أهداف الصليبيين الحقيقية إلى الفشل.

عوامل فشل الحملة[3]

يعود فشل الحملة الصليبية الخامسة إلى عوامل عدة منها ما يتعلق بالمسلمين، ومنها ما يتعلق بالصليبيين، ومنها ما يتعلق بالأوروبيين.

أما فيما يتعلق بالجانب الإسلامي فيمكن رصد العوامل التالية:

ـ الخطط العسكرية الجيدة التي وضعها الكامل محمد ونفَّذها جنوده.

ـ تعاون الملوك الأيوبيين.

ـ دعم الجبهة الإسلامية بالمال والرجال والعتاد، وإقامة التحصينات الكافية في الأماكن المناسبة.

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي فيمكن إبداء الملاحظات التالية:

ـ أخطاء رجال الدين في إدارة الحملة بالإضافة إلى ما انتابهم من الغرور والاعتداد بالنفس، وعلى رأسهم المندوب البابوي بيلاجيوس الذي وُصِف بالغباء والعجرفة وعدم الحيلة وتشبُّثه برأيه.

ـ الاختلاف في وجهات النظر بين الصليبيين بسبب سوء تصرف المندوب البابوي، وقد أدَّى إلى إضاعة الفرص الطيبة التي أُتيحت لهؤلاء لتحقيق هدف الحملة وبخاصة بعد أن عرض عليهم الكامل محمد شروطاً سخية للجلاء عن دمياط.

ـ جهل الصليبيين بالوضع الطبيعي لأرض مصر والخطأ الذي ارتكبوه بالزحف

---

(١) ابن واصل: جـ٤ ص٩٧. (٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣١١.

(٣) يمكن الاطلاع على أسباب فشل الحملة بإسهاب عند عمران ص٣٤٦ ـ ٣٥٨.

نحو القاهرة، وهو الطريق المحاذي لفرع النيل الشرقي على الرغم من علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياه النيل.

ـ عدم استغلال عامل الوقت، فلو أن الصليبين زحفوا في أعقاب مؤامرة ابن المشطوب لتغيَّرت النتائج ولأمكنهم الاستيلاء على مصر في الوقت الذي عمَّ فيه الارتباك القيادة الإسلامية.

ـ تصرُّف الجنود الصليبيين بمعزل عن القيادة، ذلك أن بعض القوات قرَّرت الهجوم على القوات الإسلامية عندما كانت ترابط في فارسكور ما تسبَّب في قتل المئات من الصليبيين، كما كانت هذه القوات ترحل إلى بلادها متى يحلو لها غير عابئة بالأوامر التي تصدر عن قادتها.

ـ الخلافات التي نشبت بين أفراد الجيش الصليبي حول تقسيم الغنائم والتي أدَّت إلى صدامات مسلحة.

ـ عدم اكتراث دوق باڤاريا بتعليمات الامبراطور فريدريك الثاني بعدم القيام بأي عملية عسكرية كبيرة إلا بعد حضوره.

وأما فيما يتعلق بالجانب الأوروبي فنلاحظ ما يلي:

ـ محاولة البابا هونوريوس الثالث الهيمنة على الحملة، من ذلك أنه منح مندوبه صلاحيات مطلقة تعلو على صلاحيات القادة الزمنيين والخبراء العسكريين.

ـ عدم حسم الخلاف الذي نشأ بين بيلاجيوس ويوحنا بريين الذي تصاعد وتطور إلى صراع بين السلطتين الدينية والزمنية على حساب الحملة.

ـ لم تكن شخصية البابا من القوة التي يخشاها بيلاجيوس، لذلك تصرَّف من تلقاء نفسه عندما رفض عرض الصلح مخالفاً بذلك أوامر البابا بعرض الأمر عليه قبل اتخاذ القرار.

ـ عدم اختيار الوقت المناسب للقيام بالحملة، إذ أن الروح الصليبية تراجعت لدى الأوروبيين بشكل عام، ولم يعد لديهم الحماس الكافي للانخراط بالحملة.

ـ انهماك بعض القوات الصليبية في القتال الدائر بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس ما حرم الحملة من قوات كانت ضرورية آنذاك للاستفادة من إمكاناتها المادية والمعنوية.

ـ الصراع الدائر بين ملوك أوروبا من أجل تدعيم مراكزهم وعجز البابا عن حمل الامبراطور فريدريك الثاني على السفر إلى دمياط، واكتفى بمعاتبته مع الأمراء الذين ساندوه.

الفَصل السَّادِس وَالعشرُون

الحملة الصليبية السادسة وذيولها

ظروف قيام الحملة

تنقسم ظروف قيام الحملة الصليبية السادسة إلى ثلاثة أقسام، منها ما يتعلق بالامبراطور فريدريك الثاني وعلاقته بالبابوية، ومنها ما يتعلق بالأمراء الصليبيين في بلاد الشام، ومنها ما يتعلق بأوضاع المسلمين في الشرق الأدنى.

ففيما يتعلق بالقسم الأول، كان فريدريك الثاني، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة قد وعد البابا هونوريوس الثالث بأنه سيتوجَّه إلى الشرق الإسلامي في عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، لكنه أخذ يماطل، ولعله كان مدفوعاً بأسباب عدة منها:

- كراهيته للبابوية والكنيسة الغربية التي ناصبت أجداده العداء.
- عدَّ نفسه خليفة الله على الأرض، وجعل من نفسه عالماً متعمقاً في أصول الدين، لذلك لم يسمح لنفسه أن يخضع لما يمليه عليه أسقف من الأساقفة ولو كان أسقف روما ذاتها.
- اهتمامه بديانات أخرى لا سيما الديانة الإسلامية التي اتصل بها طوال حياته وإجادته اللغة العربية، وتذوقه الشعر العربي بفعل نشأته في صقلية في كنف الحضارة الإسلامية، على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية، لذلك لم يَعدَّ البيزنطيين انفصاليين لأنهم رفضوا سلطة البابا، ومع ذلك فإنه استعمل الشدة والوحشية في اضطهاد الهراطقة المسيحيين[١].
- خشي أن يغادر أوروبا ويترك امبراطوريته في الوقت الذي اشتدت فيه سطوة الإقطاع في ألمانيا، وتحالف المدن اللمباردية ضده في شمالي إيطاليا، وتربص البابوية به.
- رأى عدم توافر الدوافع للقيام بالحملة والدخول في حرب ضد المسلمين الذين شبَّ على حبهم وحُب حضارتهم.

وحدث أن حصل فريدريك الثاني على إذن من البابا بتأجيل رحيله إلى الشرق

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣١٣.

لمدة سنتين لكنه بادر بإرسال ألف فارس فوراً كدليل على حسن نيته على الرغم من أنه أخذ بما ورد من الصليبيين في بلاد الشام من نصيحة لتأجيل حملته حتى عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) حين ينتهي أجل الهدنة المعقودة مع الكامل محمد(١).

وكان الامبراطور مستعداً فيما يبدو أن يتوجه إلى الشرق في عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) بعد إلحاح البابا غريغوري التاسع الذي خلف البابا هونوريوس الثالث بعد وفاته في عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)، وقد رفض الأعذار التي طالما انتحلها الامبراطور لتأجيل الحملة، وأصرَّ على ضرورة رحيله إلى الشرق فوراً(٢)، وظل طوال صيف عام (١٢٢٧م) يحشد العساكر ويُجهِّزها استعداداً للانطلاق على أن وباء الملاريا تفشى في صفوف جنده، فمات كثير منهم، ومع ذلك فقد أبحر بضعة آلاف من برنديزي بقيادة هنري الرابع، دوق ليمبورغ، ولحق فريدريك الثاني بالجيش بعد بضعة أيام لكنه عاد نتيجة إصابته بالمرض، وتوجَّه إلى الينابيع المعدنية في بوتشولي للاستشفاء(٣)، وأرسل رسولاً إلى البابا يشرح له سبب تأجيل الحملة. لم يقتنع البابا بهذه الحجة واتهمه بالتمارض، واعتقد أنه عاد إلى المماطلة، فأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة في (١٦ شوال ٦٢٤هـ/ ٢٩ أيلول ١٢٢٧م)(٤). ويُذكر في هذا الصدد أن الامبراطور فريدريك الثاني لم يعد على رأس حملته كلها، بل إن القسم الذي أبحر بقيادة هنري الرابع تابع طريقه إلى الشرق، وقد لاحظ المؤرخ ابن الأثير ذلك، فذكر في حوادث عام (٦٢٥هـ) وصول كثير من الصليبيين من الغرب، صقلية وما وراءها، إلى الشام، وأشار في حوادث عام (٦٢٦هـ) إلى وصول الامبراطور نفسه «وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل»(٥).

والواضح أنه كان لقرار الحرمان وقع كبير على الامبراطور، فأدرك أن مصلحته تستدعي القيام بحملته الصليبية حتى يبدو في صورة الرجل المجاهد من أجل القضية الصليبية، ويُفوِّت على البابا غرضه في إظهاره في صورة المسيحي العاق، فمضى في استعداداته للحملة الصليبية على الرغم من تحذير البابا له بأنه ليس بوسعه القيام بأي نشاط صليبي لوقوعه تحت حظر الكنيسة، فحشد بضع مئات من الفرسان وأبحر من برنديزي في (٢٢ رجب ٦٢٥هـ/ ٢٨ حزيران ١٢٢٨م) في ظل عدم عطف الكنيسة(٦).

وحدث في ذلك الوقت أن تغيَّر الوضع السياسي في مملكة بيت المقدس، إذ

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣١٥، ٣١٦.

(٢) Cambridge Medieval History: VI p146.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٣١٧. Ernoul: pp458, 459.

(٤) Kantoro Wicz: Frederick the Second p167.

(٥) الكامل في التاريخ: جـ١٠ ص٤٣٠، ٤٣٤.

(٦) Archer: p381.

ترتَّب على زواج الامبراطور فريدريك الثاني من يولاند وريثة المملكة في (٦ ذي القعدة ٦٢٢هـ/ ٩ تشرين الثاني ١٢٢٥م)؛ زوال وصاية والدها يوحنا بريين، غير أن الملكة لم تلبث أن توفيت في (جمادى الأولى ٦٢٥هـ/ نيسان ١٢٢٨م) بعد أن أنجبت من فريدريك الثاني ولداً هو كونراد صاحب الحق الشرعي في مملكة بيت المقدس، ففقد الامبراطور حقه في الملك، وأضحى وصياً على ابنه الملك الطفل، ومن حق أمراء المملكة في هذه الحال إن أرادوا، أن يرفضوا وصايته(١).

وفيما يتعلق بالقسم الثاني، فقد تفاوتت مواقف الأمراء الصليبيين في الشرق، فنظر بعضهم بقلق إلى قدوم الامبراطور الألماني لأنه لم يعترف بالسيادة العليا للامبراطور اللاتيني في القسطنطينية، وزعم لنفسه الحق في ملكية قبرص لأن الملك القبرصي عموري تلقَّى التاج من الامبراطور الألماني هنري السادس، ومن المحقق أيضاً أنه كان ملكاً على بيت المقدس حتى وفاة الامبراطورة يولاند التي لم يعلم بها أحد في الشرق إلا قبيل وصوله، ولم ينتظر قدوم الامبراطور بسرور سوى بوهيموند أمير أنطاكية وطرابلس(٢).

وفيما يتعلق بالقسم الثالث، فقد ترتَّب على زوال الخطر الخارجي عن مصر وانحساره في بلاد الشام؛ أن عاد الأمراء الأيوبيون إلى ما درجوا عليه من صرف أيامهم في النزاعات الداخلية لتحقيق مطامع إقليمية. والواضح أن ما انعقد من التحالف بين أبناء العادل الثلاثة، الكامل محمد في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف موسى في إقليم الجزيرة الفراتية، لم يدم طويلاً بعد انتصارهم على الحملة الصليبية الخامسة، ولم يلبث أن انفرط عقده في نهاية عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٣م) إذ كان المعظم عيسى يخشى من أخويه الكامل محمد والأشرف موسى ويطمع في حكم مصر والتوسع في إقليم الجزيرة الفراتية.

والحقيقة أن الأيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد في ذلك الوقت منهم في أي وقت مضى بفعل ظهور خطر جديد هدَّدهم، هو الخطر الخوارزمي، وقد ظهر نتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولي(٣).

---

(١) Estoire d'Eracles: II pp366 - 367. الجدير بالذكر أن البابا أيَّد فكرة الزواج كي يُشجِّع الامبراطور فريريك الثاني على القيام بحملته إلى بلاد الشام، إلا أنه اشترط أن يتم الزواج في بلاد الشام نفسها، لكن الامبراطور استدعى يولاند إلى صقلية حيث تمَّ الزواج في عام ١٢٢٥م.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٣١٨، ٣١٩ .Ibid

(٣) ينتسب الخوارزميون إلى أنوشتكين أحد الأتراك في بلاط السلطان ملكشاه السلجوقي حيث =

كان يمكن لهذا النزاع أن يبقى محصوراً داخل الأسرة الأيوبية لولا التماس الأطراف الثلاثة المساعدة من قوى خارجية ما أعطاه بُعداً إقليمياً. فقد التجأ الظاهر غازي بن العادل صاحب خلاط وميافارقين وولاية أرمينية، إلى دعوة جلال الدين محمد الخوارزمي لمساعدته للاستيلاء على دياربكر، كما تلقى هذا الأخير دعوة من المعظم عيسى لتكوين حلف بهدف انتزاع مدينة خلاط من الأشرف موسى علماً بأنه كان قد أقطعها لأخيه الظاهر غازي، وقطع الخطبة للكامل محمد في دمشق، ومتَّن الأشرف موسى تحالفه مع أخيه حاكم مصر.

وتحرك الكامل محمد من جهته فالتمس المساعدة من الامبراطور فريدريك الثاني وتبادل معه السفارات والهدايا، وطلب منه المجيء إلى بلاد الشام والساحل وهو على استعداد لإعطائه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل[(١)].

كانت هذه سياسة الكامل محمد كلما تعرَّض لخطر خارجي، سخياً مع الصليبيين، يتنازل لهم عن الأراضي التي بذل المسلمون دماءهم في فتحها، بسهولة ومن دون قتال.

في ظل الظروف والأحداث التي أحاطت بقيام الحملة الصليبية السادسة نرى أن هذه الحملة اختلفت عن الحملات السابقة واللاحقة التي وفدت على الشرق الإسلامي من ثلاث نواحي:

الأولى، ضآلة عدد القوات المشتركة فيها. فقد ترأس الامبراطور فريدريك الثاني قوة عسكرية لا تتجاوز ستمائة جندي لا تستطيع مواجهة المسلمين، في حين حشدت الحملات الأخرى أعداداً هائلة من الرجال.

الثانية، عدم تأييد البابوية، فقد رحل الامبراطور إلى الشرق محروماً من عطف البابا، في حين نالت الحملات الأخرى رضى البابوية وعطفها.

الثالثة، ساد أوساط الحملة الصليبية السادسة روح التسامح مع المسلمين، والشعور بالود والمجاملة، فبدت وكأنها زيارة ودية لملك شرقي صديق، في حين فاضت الحملات الأخرى بروح العداء للمسلمين والرغبة في الانتقام منهم[(٢)].

= كان يشغل وظيفة ساقي، واشتهر ابنه محمد بالعلم والأدب، فعينه أحد قادة السلطان بركياروق السلجوقي حاكماً على إقليم خوارزم ولقَّبه خوارزمشاه، وهو مؤسس الدولة الخوارزمية، وقد توسعت هذه الدولة على حساب السلاجقة وحلَّت محلهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران، وحاولت السيطرة على بغداد. وقد استولى المغول على هذه البلاد وفرَّ الخوارزميون من أمامهم إلى غربي آسيا بعد سقوط عاصمتهم جرجانية في (صفر ٦١٨هـ/ نيسان ١٢٢١م).

(١) المقريزي: جـ١ ص٣٤٥.

(٢) Grousset: III pp281.

الامبراطور فريدريك الثاني في عكا

وصل الامبراطور فريدريك الثاني إلى عكا في (شوال ٦٢٥هـ/أيلول ١٢٢٨م) قادماً من جزيرة قبرص بعد أن أكَّد تبعيتها للامبراطورية الغربية، وفي نيته الحصول على بيت المقدس من الكامل محمد مقابل ما يقدمه له من مساعدة ضد أخيه المعظم عيسى، لكن واجهته فور وصوله صعوبات عدة أهمها:

- رفض كثير من القادة الصليبيين في الشرق الدينيين والزمنيين، التعاون معه بسبب قرار الحرمان الذي سبق صدوره ضده، كما جرى الارتياب فيما إذا كانت الأيمان التي تمَّ حلفها له لا زالت صحيحة.

- لم يتحمس الداوية والأسبتارية للتعاون مع رجل محروم من الكنيسة، لكنه استند إلى تأييد التيوتون بوصفهم ألمان.

- لم يكن معه جيش كثيف، إذ أن عدداً من العساكر الذين خرجوا بصحبة هنري الرابع، عادوا إلى بلادهم إما نتيجة لقلقهم، وإما خوفاً من أن يسيئوا إلى الكنيسة. والواقع أن هذه القوة العسكرية القليلة العدد لم تستطع أن تُحقِّق أي إنجاز يُذكر، فشغلوا أنفسهم بتحصين قيسارية ويافا وغيرهما من مدن الساحل، كما انتزعوا نصف صيدا من يد المسلمين، وحصَّنوا قلعة البحر، وأعادوا بناء حصن القرين إلى الشمال الشرقي من عكا، فوجد الامبراطور نفسه عاجزاً عن حشد قوة عسكرية بالغة التأثير، وقادرة على أن تُوجِّه ضربة حاسمة إلى المسلمين.

- ازداد قلق الامبراطور نتيجة ما ورد إليه من إيطاليا من نبأ بأن نائبه فشل في الهجوم على طرف أنكونا ضد البابا، وأن هذا الأخير يحشد قواته لغزو أراضيه في إيطاليا.

- أُصيب الامبراطور بخيبة أمل شديدة عندما وصل إلى عكا، فقد وجد الموقف السياسي قد تبدَّل بوفاة المعظم عيسى في (ذي القعدة ٦٢٤هـ/تشرين الثاني ١٢٢٧م)، وأن الكامل محمد لم يعد بحاجة إلى مساعدته وهو الذي لم يأت إلى الشرق إلا باستدعائه، ولما أرسل إليه يطالبه باحترام وعده وتسليم بيت المقدس، رفض الكامل محمد وأعلن صراحة بأنه كان سيعطيه بيت المقدس ثمناً للمساعدة التي سيقدمها له، أما وقد تبدَّلت الظروف، واستغنى عن المساعدة، فلا داعي لدفع ذلك الثمن لا سيما وأن التفريط في بيت المقدس سيثير شعور المسلمين، وأوعز إلى سفيره إلى الامبراطور فخر الدين يوسف بن الشيخ أن يبذل جهده في إطالة المفاوضات إلى أن تسقط دمشق في يده.

وانقضت أشهر عدة في المفاوضات والمساومات التي سادها جو من الخداع

المتبادل، فقد كان كل طرف شديد الاهتمام بأسلوب الآخر كما لم يكن أي منهما مستعداً للمسير إلى القتال إذا أمكن تجنُّبه، غير أنه كان لزاماً على كل منهما من أجل المحافظة على مكانته عند قومه، أن يبذل قصارى جهده في التشدُّد في المساومة، إذ أن أي تفريط في حقوق المسلمين سيثير هؤلاء ضد الكامل محمد، غير أنه كان مستعداً أن يبذل للمسيحيين من الامتيازات ما يكفل له المساعدة في المضي في سياسته الكبيرة الرامية إلى إعادة توحيد البيت الأيوبي، غير أنه ينبغي ألا تتجاوز هذه الامتيازات الحدود[١].

ولم يقلَّ موقف الامبراطور فريدريك الثاني حرجاً، وهو يتعرَّض للضغط يوماً بعد يوم، ولم يكن جيشه من الكثافة ما يكفي لخوض معركة كبيرة، وخرج من بلاده محروماً من الكنيسة، معتمداً على وعد الكامل محمد له بإعطائه بيت المقدس لتحسين مركزه في المجتمع الغربي، ولو كان يعلم بأن صاحب مصر سوف ينكث بوعده، لما خرج أصلاً إلى الشرق أو لاستعدَّ جدياً لحرب المسلمين وجلب معه جيشاً كبيراً للدفاع عن كيان الصليبيين وبخاصة أنه لا يستطيع الاعتماد على الصليبيين المحليين لأن أي مسيحي مخلص يأبى أن يتعاون مع رجل محروم من الكنيسة[٢]، ولما طلب أثناء المفاوضات، باستعادة كامل فلسطين، أخبره فخر الدين يوسف بناء على تعليمات سيده أنه ليس بوسعه أن يسيء إلى المسلمين إلى هذا الحد الكبير[٣]. وهكذا لم يبق أمام الامبراطور سوى طريق الاستعطاف.

اتفاقية يافا

طالت المفاوضات بين الجانبين من دون التوصل إلى نتيجة إيجابية، وحدث خلال ذلك أن تعجَّل الامبراطور الأمور في (ذي القعدة ٦٢٥هـ/تشرين الأول ١٢٢٨م) بالالتجاء إلى إظهار القوة، فحشد العساكر وسار إلى يافا وحصَّنها إلا أنه تلقى أنباء سيئة من صقلية تفيد بأن البابا أصدر ضده قرار حرمان آخر لأنه رحل إلى الشرق من دون أن يحصل على تحلُّل من قرار الحرمان الذي سبق صدوره ضده، وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته.

كان لهذه الأنباء أثر بالغ في نفس الامبراطور الذي شعر بضرورة العودة إلى بلاده، ولكنه أدرك أن عودته فاشلاً سوف يضاعف من حرج موقفه في أوروبا الغربية، ويبدو أنه تفوَّق في المفاوضات والمساومة، وكانت الظروف السياسية في

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣٢٩. (٢) عاشور: جـ٢ ص١٠٠٨.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٣٢٩.

صالحة، إذ أن الناصر داوود ابن المعظم عيسى كان لا يزال يسيطر على دمشق في حين أخذ السلطان جلال الدين الخوارزمي يُوجِّه اهتمامه من جديد نحو الغرب، ثم إن الامبراطور أتمَّ تحصينات يافا؛ ما أدَّى إلى خشية الملك الكامل محمد من عرض القوة من جانب الامبراطور كما خشي أن يتفق مع بقية جموع الصليبيين في الشرق للقيام بعمل عسكري ضده، فيقع عندئذٍ بين ثلاثة أخطار، خطر ابن أخيه في دمشق، وخطر الصليبيين في بلاد الشام، وخطر الخوارزميين الذين استنجد بهم الناصر داوود. والحقيقة أن الكامل محمد «خاف من غائلة الامبراطور عجزاً عن مقاومته»[(١)].

وتحت تأثير رسوله فخر الدين يوسف الذي نصح الامبراطور أن يُرسل أكيرًّا وباليان سيد صيدا إلى الكامل محمد مرة أخرى، وافق هذا الأخير على عقد اتفاقية يافا مع الامبراطور في (٢٢ ربيع الأول ٦٢٦هـ/ ١٨ شباط ١٢٢٩م) التي تضَّمنت البنود التالية:

- تحصل مملكة بيت المقدس على مدينة القدس وبيت لحم مع شريط ضيِّق من الأرض يخترق اللد وينتهي عند يافا على البحر فضلاً عن الناصرة وغربي الجليل بما اشتمل عليه من حصن مونتفرات وتبنيت، وما تبقَّى حول صيدا من المناطق الإسلامية، على أن تبقى أسوار بيت المقدس خراباً ولا يعمرها الصليبيون.
- يظل في أيدي المسلمين من مملكة بيت المقدس، منطقة المسجد بما تحتوي عليه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وللمسلمين الحق في التردد إليها وممارسة العبادة بحرية، وللمسيحيين حق الزيارة فقط.
- إطلاق سراح الأسرى من كلا الجانبين.
- مدة المعاهدة عشر سنوات[(٢)].

والجدير بالذكر أن المعاهدة لم تشمل إمارة بوهيموند، أنطاكية وطرابلس.

وبذلك حقَّق الامبراطور فريدريك الثاني، الرجل المحروم من الكنيسة وبإمكاناته المتواضعة ومن دون قتال؛ ما عجز عن تحقيقه ريتشارد قلب الأسد مع ما توفَّر له من الإمكانات الضخمة، وأعاد الأماكن المسيحية المقدسة إلى العالم المسيحي[(٣)].

---

(١) المقريزي: جـ١ ص٣٥٤. عاشور: جـ٢ ص١٠١٠، ١٠١١.

(٢) النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ٢٩ ص١٥٠، ١٥١.
أبو الفدا: جـ٢ ص٢٤٠. المقريزي: جـ١ ص٣٥٣، ٣٥٤ Estoire d'Eracles: II pp374 Ernoul p465.

(٣) Brehier: L'Eglise et L'Orient: p203.

ردود الفعل على اتفاقية يافا

واجهت اتفاقية يافا سيلاً من الانتقادات الحادة، إذ ما من معاهدة في تاريخ الحروب الصليبية حظيت بهذا الرفض المباشر من كلا الجانبين الإسلامي والصليبي، ولم يلبث الكامل محمد أن أرسل مندوباً عنه إلى بيت المقدس فنادى بخروج المسلمين منها وتسليمها للصليبيين[1]. لكن تسليم هذه المدينة بتلك السهولة، بعد أن عانى المسلمون في تحريرها، وتكبَّدوا خسائر في الأرواح؛ أثار موجة عارمة من السخط والأسى في العالم الإسلامي[2]، وأعلن الناصر داوود في دمشق الحداد العام لما تعرَّض له الإسلام من خيانة، وأُقيمت مجالس وعظ رُثيت فيها بيت المقدس[3].

ويبدو أن الكامل محمد شعر بحرج موقفه، وما قام به من رد قاصر ليُبَرِّر مسلكه بأنه لم يتنازل إلا عن دور كنائس خربة «والمسجد على حاله وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»[4]؛ لم يكن إلا سلوى تافهة، كما أن تبريره بأنه لا زالت للمسلمين السيادة العسكرية في الإقليم لم يكن فيما يبدو عذراً كافياً[5].

والواضح أن الامبراطور شعر بما سبَّبته الاتفاقية من حرج للكامل محمد «فاعتذر للأمير فخر الدين يوسف بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلَّف السلطان شيئاً من ذلك»[6].

ومهما قيل عن خشية الكامل محمد من قيام اتفاق بين الامبراطور والصليبيين في بلاد الشام لمواجهته عسكرياً في الوقت الذي التمس فيه ابن أخيه الناصر داوود المساعدة من السلطان جلال الدين الخوارزمي، فإن ذلك لا يُبرِّر مطلقاً تسليم بيت المقدس، لكن التوافق بين الكامل محمد والامبراطور فريدريك الثاني في الطباع، والبُعد عن التزمت؛ ساهم في التوقيع على مثل هذه الاتفاقية التي رفضها المسلمون كما رفضها المسيحيون[7].

والواقع أنه لم يكن المسلمون وحدهم الذين أظهروا استياءهم وغضبهم من اتفاقية يافا، بل قابل المسيحيون في الشرق هذه الاتفاقية بغضب وحزن، على الرغم من

(١) المقريزي: جـ١ ص٤٣٥.
(٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٣٥. النويري: جـ٢٩ ص١٥١. المقريزي: جـ١ ص٣٥٤.
(٣) النويري: المصدر نفسه.
(٤) المقريزي: جـ١ ص٣٥٤.
(٥) رنسيمان: جـ٣ ص٣٣٢.
(٦) المرجع نفسه.
(٧) شبارو، عصام محمد: السلاطين في المشرق العربي/ السلاجقة ـ الأيوبيون ص١٨٤، ١٨٥.

أنهم أدركوا وضعهم العسكري السيء، فغلاة المسيحيين أعربوا عن حزنهم بأن بيت المقدس لم تُسترد بقوة السلاح، وغضبوا لاحتفاظ المسلمين بكثير من حقوقهم فيها[١]، كما استبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وما قيمة الحصول على بيت المقدس ما لم يُضَف إليها إقليم ما وراء نهر الأردن وإحياء مملكة بيت المقدس القديمة، وأشاروا إلى أن المدينة لم تكن لتبقى في أيدي المسيحيين ولم يربطها بالساحل سوى شريط ضيق من الأرض[٢].

ورأى الداوية والأسبتارية أنه لا قيمة لأي إنجاز يُحقِّقه امبراطور محروم من الكنيسة، كما غضب الداوية لأن الامبراطور سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذي كان مركزاً لهم قبل معركة حطين، وبادروا إلى الاحتجاج، وصرَّحوا بأنهم مع الأسبتارية، لن يتعاونوا مع عدو البابا، وأعلن جيرولد بطريرك بيت المقدس امتعاضه واستياءه، وفرض على بيت المقدس الحظر والحرمان إذا استقبلت الامبراطور[٣].

وجزع الأمراء الصليبيون المحليون لأن الحدود الجديدة ليست صالحة من الناحية العملية، وزاد من كراهيتهم إعلان الامبراطور بأنه ذاهب إلى بيت المقدس ليتوَّج فيها ملكاً، ولم يقبل من أحد رأياً يخالف رأيه، والواقع أنه لم يكن ملكاً عليهم بل وصياً على الملك كونراد[٤].

الامبراطور فريدريك الثاني في بيت المقدس

عقب الفراغ مباشرة من صلح بيت المقدس، دخل الامبراطور فريدريك الثاني إلى المدينة يوم السبت (١٩ ربيع الآخر ٦٢٦هـ/ ١٧ آذار ١٢٢٩م)، ولم يرافقه سوى عساكره من الألمان والإيطاليين، وعدد قليل من الأمراء الصليبيين المحليين وثلاثة أساقفة هم أساقفة صقلية وونشستر وأكستر، واستقبله القاضي شمس الدين، قاضي نابلس عند باب المدينة موفداً من قبل الكامل محمد ليكون في خدمته وسلَّمه مفاتيح المدينة باسمه، وخلت المدينة من المسيحيين المحليين مبررين ابتعادهم عنها بأن عودة اللاتين إليها لن تعود عليهم بالخير، كما خلت من المسلمين الذين هجروها.

واجتاز موكبه الصغير الشوارع الخالية من الناس حتى بلغ دار الأسبتارية،

---

(١) Stevenson: p313.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٣٣٢.

(٣) Cambridge Medieval History VI p314.

(٤) رنسيمان: جـ٣ ص٣٣٢، ٣٣٣.

فاتخذها مقراً له، وارتبك قادته وانتابتهم الحيرة والتردد عندما علموا بأن رئيس أساقفة قيسارية في طريقه إلى بيت المقدس يحمل أوامر من البطريرك بوضع المدينة تحت الحظر والحرمان[١].

وتوجَّه الامبراطور في صبيحة اليوم التالي إلى كنيسة القيامة في موكب صغير ليشهد القداس، فلم يكن بها أحد من القساوسة، ولم يستقبله سوى عساكره والفرسان التيوتون، وتوَّج نفسه بيده بعد أن رفض أي من رجال الكنيسة أن يقوم بتتويج امبراطور محروم، ثم تحرك مع رجاله عائداً إلى دار الأسبتارية[٢].

وعقد الامبراطور اجتماعاً لمناقشة أمر الدفاع عن المدينة، وأصدر أمراً بإصلاح برج داوود وباب اصطفان، وسلم المقر الملكي الملاصق لبرج داوود، إلى الفرسان التيوتون[٣]، ثم زار المسجد الأقصى، وطلب الكامل محمد من المؤذنين عدم إقامة الأذان طيلة مدة وجود الامبراطور في المدينة «إعظاماً للملك واحتراماً له» وهذا خطأ آخر ارتكبه الكامل محمد. وجاء الرد سريعاً على هذا القرار، ولكن من جانب الامبراطور نفسه الذي استاء وقال للقاضي شمس الدين: «أخطأ فيما فعل، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل»[٤].

عودة الامبراطور فريدريك الثاني إلى أوروبا

ووصل إلى بيت المقدس يوم الاثنين، بطرس رئيس أساقفة قيسارية ليفرض عليها الحظر، وإذ استبدَّ بالامبراطور الغضب لهذه الإهانة، بادر على الفور إلى التخلي عن المضي في أعمال الدفاع عن المدينة، وعجَّل بالمسير إلى يافا ثم غادرها إلى عكا، فألفى المدينة في حال غليان شديد وثورة أهلية، ذلك أن الجنويين والبنادقة فيها حنقوا على البيازنة أنصار الامبراطور، في حين غضب أمراء مملكة بيت المقدس لأن فريدريك الثاني لم يحترم قوانين مملكتهم، فعقد معاهدة من دون رضاهم وموافقتهم، كما أنه قام بتتويج نفسه. ووقعت صدامات بين العساكر المحليين وبين حامية الامبراطور، ولما حاول عقد اجتماع عام في اليوم التالي، لم تلق كلماته سوى الرفض[٥].

ووصلت إلى مسامعه في هذه الأثناء أنباء مقلقة من أوروبا، ذلك أن صهره

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣٣٣.

(٢) Archer: p382.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٣٣٤.

(٤) المقريزي: جـ١ ص٣٥٤.

(٥) Estoire d'Eracles: II p374.

يوحنا بريين قاد جيشاً بابوياً، وأغار على ممتلكاته في إيطاليا، وإذ كانت مصالحه في الغرب أهم بكثير من مصالحه في الشرق، لم يعد بوسعه أن يؤجل رحيله من الشرق أكثر من ذلك، فأبحر من عكا في (٥ جمادى الآخرة ٦٢٦هـ/ أول أيار ١٢٢٩م) قاصداً قبرص، وعيَّن قبل مغادرته باليان سيد صيدا وغارنييه الألماني نائبين عنه في حكم المملكة، وأبقى أودو مونتبليارد كندسطبلاً للمملكة ومتولياً أمر الجيش(١).

وعلى هذا الشكل انتهت الحملة الصليبية السادسة التي اتصفت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها، ويُعد الامبراطور فريدريك الثاني من كبار المحاربين، لكن أكثرهم خيبة.

النزاع الصليبي على قبرص

تركت الحملة الصليبية السادسة ذيولاً تمثَّلت بالصراع الصليبي الداخلي على جزيرة قبرص ومملكة بيت المقدس، لأن الامبراطور فريدريك الثاني حاول أن يضمهما إلى امبراطوريته، إلا أنه واجه مقاومة شرسة من جانب الصليبيين المحليين، واستهلك قواه في النزاع مع البابوية نتيجة حرمانه من الكنيسة للمرة الثانية في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م)، والذي استمر حتى وفاته؛ لذلك لم يجد لديه القدرة الكافية ولا الوقت اللازم لمتابعة خططه في الشرق.

والواقع أنه لم يُخلِّف في قبرص ومملكة بيت المقدس سوى الحرب الأهلية المريرة. فقد مكث في قبرص نحو عشرة أيام، عيَّن خلالها نواباً له بها، وهم ألمريك بارليس، وجافين شنيشي، وأملريك (عموري) سيد بيسان، وهيو سيد جبيل، ووليم سيد ريفيه، ورتَّب زواج الملك الصغير هنري الأول من أليس مونتفرات ثم غادرها إلى إيطاليا، فوصل إلى برنديزي في (١٦ رجب ٦٢٦هـ/ ١٠ حزيران ١٢٢٩م)، وأمر نوابه بطرد آل إبلين من الجزيرة، وتعهد هؤلاء النواب بدفع عشرة آلاف مارك، وللحصول على هذا المبلغ، عمدوا إلى فرض ضرائب باهظة على السكان، وصادروا أملاك آل إبلين، فالتمس هؤلاء المساعدة من يوحنا إبلين في عكا، فأبحر فوراً على رأس قوة عسكرية صليبية ونزل على شاطئها وزحف إلى العاصمة نيقوسيا واشتبك مع الأوصياء الخمسة في (شعبان/ تموز) وهزمهم، وقضى على حكمهم نهائياً وذلك في (أواسط ٦٢٧هـ/ صيف ١٢٣٠م)، وتولى الوصاية على عرش قبرص والإشراف على حكومتها حتى بلغ الملك هنري الأول لوزينان سن

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣٣٧، ٣٣٨. Cambridge Medieval History VI p374.

الرشد في عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م)[١].

لم يركن الامبراطور فريدريك الثاني إلى الهدوء، فلم يكد يعقد صلح سان جرمان مع البابا غريغوري التاسع في (١٠ رمضان ٦٢٧هـ/ ٣ تموز ١٢٣٠م) وخرج من المحنة منتصراً حتى التفت إلى انتزاع إقطاعات آل إبلين، فأعدَّ حملة عسكرية في (أوائل ٦٢٩هـ/ خريف ١٢٣١م) مؤلفة من ستمائة فارس وسبعمائة من المشاة وثلاثة آلاف من البحارة بقيادة ريتشارد فلانجري، وأرسلها إلى قبرص على متن ثلاثين سفينة، لتدعيم نفوذه في الجزيرة وبلاد الشام.

كان يوحنا إبلين آنذاك في عكا، وعلم من أحد الأشخاص القادمين من إيطاليا بأن أسطولاً ضخما على وشك الاقتراب، فظنَّ أن قبرص هي الهدف الأول لهذه الحملة الامبراطورية، فأبحر إليها على وجه السرعة وعبَّأ قواته استعداداً للمعركة المرتقبة، ما تعذَّر على أفراد الحملة النزول إلى الشاطىء، فأنفذ ريتشارد فلانجري مبعوثاً إلى الملك هنري الأول يحمل رسالة من الامبراطور تتضمَّن الطلب منه نفي جميع أنصار يوحنا إبلين ومصادرة أراضيهم، لكن الملك رفض تنفيذ ذلك لأن يوحنا إبلين هو خاله، فأبحر ريتشارد فلانجري إلى بيروت، فاستولى عليها وترك قسماً من جيشه على حصار قلعتها وتقدم نحو صيدا وصور وعكا واحتلها كلها. ودعا أمراء المملكة إلى عقد اجتماع معه، فأطلعهم على خطاب اعتماد الامبراطور له بوصفه مندوباً عنه، ثم أمر بمصادرة أملاك آل إبلين في بلاد الشام، وقد عارض الأمراء ذلك، وانضم إليهم تجار عكا، وقد شكَّلوا مجلساً بلدياً لحكم المدينة واختاروا يوحنا إبلين رئيساً له. وعندما علم يوحنا إبلين بهذه التطورات عاد إلى بلاد الشام على وجه السرعة، فاستعاد بيروت وصيدا، لكن بدا تفوق القوات الامبراطورية واضحاً في صور، وما جرى بعد ذلك من ذهاب الأطراف إلى قبرص لتصفية الأوضاع فيها كلٌّ لصالحه؛ جعل الموقف معقداً. وأخيراً دارت الدائرة على ريتشارد فلانجري في (رجب ٦٣٠هـ/ نيسان ١٢٣٣م)، فاستعاد الملك هنري الأول حكمه كما استعاد آل إبلين سلطتهم. وقصد ريتشارد فلانجري هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى لالتماس مساعدته، لكنه فشل وعاد إلى إيطاليا ليقدم تقريراً للامبراطور ويطلب مساعدته[٢].

(١) Estoire d'Eracles: II pp376. Hill, G: History of Cyprus: II pp100-107.

(٢) Archer: p384. King: p12.

النزاع الصليبي على مملكة بيت المقدس

ظلَّت مملكة بيت المقدس حتى عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م) تابعة من الناحية القانونية على الأقل للامبراطورية الرومانية المقدسة، لكن لم يجد أباطرتها الوقت الكافي للاهتمام بها ما جعلها طوال هذه السنين من دون ملك مقيم فيها، يرعى شؤونها ويُنظِّم أمورها ويدافع عنها. والواقع أن استعادتها لم تكن بالغة الأهمية لمملكة بيت المقدس نفسها. وحفلت هذه المدة بالأحداث الجسام في الشرق الأدنى مثل سقوط الدولة الأيوبية وظهور المغول على المسرح السياسي في العراق وبلاد الشام، ما أتاح للصليبيين فرصة طيبة لمحالفة هذه القوة الوثنية الجديدة وجذبها لاعتناق الدين المسيحي ومحاربة المسلمين.

وفَقَدَت بيت المقدس أهميتها السابقة بفعل أنها كانت مدينة غير مُحصَّنة فكان من المستحيل حراسة الطريق المؤدي إليها من الساحل، ولم يكن وضع المسيحيين فيها بالغ القوة ومن حق المسلمين الدخول إليها ويُشرفوا على أملاكهم الدينية، وتجنَّب المسلمون والمسيحيون النزوح إليها، ما جعلها مدينة فقيرة تشكو من قِلَّة السكان وهذا الذي أدَّى إلى عدم نقل الحكومة من عكا إليها عقب صلح يافا.

واطمأن في تلك الأثناء باليان سيد صيدا وغارنييه الألماني في تسيير حكومة مملكة بيت المقدس، لكن حدث في (أواخر ٦٢٦هـ/ خريف ١٢٢٩م) أن قدمت أليس ملكة قبرص إلى عكا لتطالب بتاج بيت المقدس، والمعروف أن هذه الملكة طلَّقت بوهيموند الصغير أمير أنطاكية بدعوى القرابة التي تحول دون زواجهما، وأعلنت أن كونراد الرابع بن فريدريك الثاني من زوجته يولاند يُعدُّ من الناحية القانونية ملك بيت المقدس لكنه أضاع حقه لأنه لم يقدم إلى مملكته، ولما كانت تليه في الوراثة، فإن المُلك يبقى من حقها، على أنه تمَّ الاتفاق على إرسال سفارة إلى إيطاليا في عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) تطلب ضرورة قدوم كونراد الرابع إلى الشرق خلال مدة سنة كي يتسلم الحكم في مملكة بيت المقدس، غير أن الامبراطور رفض ذلك[١]، ثم كانت الحملة الامبراطورية على قبرص وبلاد الشام بقيادة ريتشارد فلانجري والتي انتهت بالفشل، ما ترك بلاد الشام الصليبية في حال شديدة من التفكُّك والانقسام، ذلك أن صور ظلَّت في أيدي القوات الامبراطورية، وخضعت بيروت ليوحنا إبلين، وقام في عكا مجلس بلدي يرأسه يوحنا إبلين تولى حكمها، وحَكَم بيت المقدس مندوب عن الامبراطور، في حين ظلَّت بقية المدن الصليبية في

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣٤٣، ٣٤٤ .Estoire d'Eracles: II p380

بلاد الشام مستقلة عن النفوذ الامبراطوري[١].

وعندما أدرك الامبراطور فريدريك الثاني فشل سياسة القوة لجأ إلى الوسائل السلمية، فانتهز عودة أسقف صيدا من روما إلى بلاد الشام وحمَّله رسالة إلى الأمراء الصليبيين فيها يعلمهم بأنه عزل ريتشارد فلانجري من منصبه كنائب له في بلاد الشام، وعيَّن مكانه أحد الأمراء المحليين ويُدعى فيليب موغاستيل، وكان هذا من أشد أنصار ريتشارد فلانجري[٢].

لكن الفوضى استمرت في المجتمع الصليبي في بلاد الشام المنقسم على نفسه، فاضطر البابا غريغوري التاسع الذي كان على علاقة ودية مع الامبراطور وحريصاً على أن يُعيد له السلطة في الشرق؛ إلى أن يُرسل رئيس أساقفة راڤنا مندوباً عنه لحل المشكلة، وذلك في عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م) فاقترح أن يدخل الأمراء الصليبيون في طاعة ريتشارد فلانجري الذي كان قد عاد إلى صور، ولكن الأمراء رفضوا الاقتراح، فكتب البابا في العام التالي إليهم يعلمهم بأن الامبراطور، بوصفه وصياً على ابنه كونراد الرابع، هو صاحب الحق الشرعي في تاج مملكة بيت المقدس الصليبية، وله الحق في الإشراف على شؤون الصليبيين، وأنهم أساءوا التصرف تجاه حكامهم لكن البابا عفا عنهم جميعاً باستثناء آل إبلين الذين تجب محاكمتهم أمام المحكمة العليا، وينبغي حل المجلس البلدي في عكا على الفور، ورفض الأمراء هذا العرض أيضاً، ما أدَّى إلى استمرار الوضع على ما هو عليه[٣].

ولم يلبث أن توفي يوحنا إبلين في عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) في وقت حرج، فَفَقَدَ الصليبيون بوفاته رجلاً عاقلاً وشجاعاً وأقوى شخصية في المجتمع الصليبي في الشرق. ورأى البابا أن أحسن الحلول هو اتحاد الحكومتين في بيت المقدس وجزيرة قبرص، غير أن تمسك الأمراء بالصفة الشرعية والوضع القانوني ومقاومة حكم الامبراطور الفردي أدَّى بهم إلى الاعتراف بكونراد الرابع كوريث شرعي وحيد لمملكة بيت المقدس[٤].

الاضطرابات في شمالي بلاد الشام

ازداد وضع الصليبيين في الشرق تعقيداً بفعل ما جرى من نزاع بينهم، ثم بينهم وبين المسلمين في الشمال، والواقع أن الوضع في الشمال لم يكن أكثر

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣٥٥، ٣٥٦. (٢) المرجع نفسه.

(٣) Estoire d'Eracles: II pp406, 407. Stevenson: p315.

(٤) Estoire d'Eracles: II p407.

استقراراً منه في الجنوب. فقد توفي بوهيموند الرابع أمير أنطاكية وطرابلس في (جمادى الآخرة ٦٣٠هـ/آذار ١٢٣٣م) وخلفه ابنه بوهيموند الخامس الذي اتصف بضعف الشخصية على عكس والده، وكان من أبناء الكنيسة الصالحين، فطلب من البابا أن يختار له زوجته الثانية لوسيين سيغني التي تنتمي لأسرة البابا، وهي ابنة خالته، واستفاد من تجربة والده التي مرَّ بها عام (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) فحصل بعد بضع سنوات من روما على ضمان بألا يحرمه من الكنيسة سوى البابا نفسه، ولم يكن هذا الأمير هو الحاكم الفعلي في إمارته لأن أنطاكية خضعت لحكم مجلس بلدي لم يلق المحبة عنده، والراجح أن صداقته مع روما أثارت غضب العنصر اليوناني القوي في المجلس، ولذا آثر أن يتخذ مقره في حاضرته الثانية طرابلس، ولم يكن له سلطة على الطوائف الدينية العسكرية كما لم تكن أرمينية الصغرى الخاضعة لبيت هيثوم موالية له، وشطرت اللاذقية الواقعة تحت حكم المسلمين أملاكه قسمين. والواضح أن حكمه كان يؤذن بانهيار سريع، فقد كانت إمارة أنطاكية تمر بمرحلة انحطاط مستمر منذ وفاة بوهيموند الرابع، وانخفضت مواردها الاقتصادية[١].

ونشبت النزاعات بين بوهيموند الخامس وبين هيثوم ملك أرمينية الصغرى، ذلك أن أسرة هيثوم لم تصل إلى حكم الإمارة الأرمنية إلا بعد التخلص بالقتل من فيليب، أخي بوهيموند الخامس، ولم يستطع طوال سني حكمه أن ينسى ما أقدم عليه الأرمن من استدعاء أخيه ليتولى الحكم ثم قتلوه[٢]. ومن جهة أخرى ظل الداوية في نزاع دائم مع أرمينية الصغرى حول ملكية حصن بغراس الذي ظل الأرمن يطمعون في الاستيلاء عليه، فقام بوهيموند الخامس بحملة مشتركة مع الداوية ضد أرمينية الصغرى في عام (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، لكن اختلاف الحليفين أحبط مشروع الحملة[٣].

واستغل الأسبتارية النزاع الأيوبي الداخلي من واقع محاولة الكامل محمد توحيد الأيوبيين تحت سلطانه، وأغاروا على بارين (بعرين) في (أواخر ٦٢٦هـ/ خريف ١٢٢٩م) منطلقين من حصن الأكراد، فنهبوا وقتلوا وأسروا، وكان من بين الأسرى جماعة من التركمان[٤]. كانت المنطقة تابعة للملك المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، وجاءت رداً على غارة الكامل محمد على حصن الأكراد في السنة السابقة،

---

(١) Cahen: La Syrie du Nord: pp 650 - 652, 664 - 666.

(٢) Iorga: L'Armenie Cilicienne: p120.

(٣) Estoire d'Eracles: II pp405.

(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٣٩.

ويبدو أنه لم يكن مستعداً لمواجهتهم ما حمله على التعهد لهم بدفع الجزية، ولكنه لم يف بوعده، فزحف هؤلاء إليه واشترك معهم الداوية في انطرطوس، وقد بلغت قواتهما خمسمائة فارس وألفين وسبعمائة راجل، ولكن المظفر أنزل بهم الهزيمة عند أفيون بين بارين وحماة في (شوال ٦٢٨هـ/ آب ١٢٣١م)، وعاد إلى حماة وأمامه الأسرى، فمدحه الشعراء وقارنوا بين سلوكه وسلوك الكامل محمد.

وقامت الطائفتان في السنة التالية بغارة مفاجئة على جبلة، على أنها لم تظل في أيديهما سوى بضعة أسابيع، ثم انعقدت الهدنة لمدة سنتين[١].

وشارك بوهيموند الخامس في النزاع بين المظفر تقي الدين الثاني وبين الأسبتارية، فأرسل أخاه هنري مع قوة عسكرية من عكا وقبرص لمساندة هذه الطائفة بالإضافة إلى الداوية أثناء هجومهما على بارين، ذلك أن الحرب تجدَّدت في عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) بسبب رغبة الأسبتارية الحصول على أموال فرضوها على المظفر، واستعانوا بقوات صليبية من الداوية. وتجمَّعت القوى الصليبية جنوبي حصن الأكراد ثم زحف أفرادها ليلاً على بارين، فاحتلوها واحتمى السكان بقلعتها، وعاثوا في المناطق القريبة، وعادوا بعد أسبوع إلى حصن الأكراد محملين بالغنائم من دون أن يصطدموا بالمسلمين، ويبدو أنهم لم يشاءوا إثارة حرب كبيرة ضدهم في تلك الظروف السيئة التي يمر بها الصليبيون في الشرق الأدنى آنذاك[٢]، كما أنهم علموا بتجمع جيش أيوبي كبير اشترك فيه الكامل محمد صاحب مصر، والأشرف صاحب دمشق، والناصر داوود صاحب الأردن، والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص وغيرهم من أركان البيت الأيوبي وهو يتهيأ للزحف إلى شمالي بلاد الشام، ما أثار مخاوفهم، غير أن هذه المخاوف سرعان ما تبدَّدت عندما توجَّه الأيوبيون في (أواخر ٦٣١هـ/ صيف ١٢٣٤م) إلى مدينة خلاط التابعة للملك الأشرف صاحب دمشق لاستعادتها من يد السلطان كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم والذي كان قد انتزعها من نواب الملك الأشرف، ولما كان الكامل محمد يريد التفرغ للتصدي لسلاجقة الروم، فقد أقنع المظفر تقي الدين الثاني بدفع الجزية المطلوبة للأسبتارية[٣].

ونشبت الحرب بين الأيوبيين والداوية في عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) وكان مسرحها حصني بغراس ودربساك، وهما الممران المشهوران بين آسيا الصغرى وشمالي بلاد الشام، فكان الأول تحت حكم الداوية والآخر تحت حكم الأيوبيين، فهاجم الأيوبيون في حلب الداوية في حصن بغراس وكادوا يستولون عليه لولا تدخل

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٥٢.

(٢) Grousset: III p392.

(٣) Estoire d'Eracles: II p403. King: p214. Iorga: p120.

بوهيموند الخامس صاحب أنطاكية ما أدى إلى عقد هدنة بين الطرفين والتي ظلّت مستمرة عاماً واحداً، وإذ نقضها الداوية في بغراس بدافع الاستيلاء على حصن دربساك، جوبهوا بمقاومة ضارية، ووصلت في غضون ذلك قوة عسكرية من حلب فانقضَّت على أفرادها وقتلت كثيراً منهم كان بينهم وليم مونتفرات مقدم الداوية لكنها لم تطارد من نجا منهم ومهاجمة الحصن الذي كان خالياً من الدفاعات مرتكبة خطأ عسكرياً، وعندما سمع الداوية والأسبتارية بنبأ الكارثة، كتبوا إلى الغرب الأوروبي يطلبون النجدة في حين لم يستغل المسلمون انتصارهم، بل وافقوا على تجديد الهدنة في عام (٦٣٤هـ/١٢٣٧م) بعد أن حصلوا على وعد بدفع الأموال لافتداء الأسرى، وحافظ الداوية والأسبتارية على الصلح لمدة عشر سنوات بعد موافقة البابا الذي كان عليه أن يؤدي معظم الأموال اللازمة للفدية[١].

وفاة الكامل محمد

لم يقتصر الانقسام في العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي على ما حدث من عداء بين الأيوبيين وسلاجقة الروم ثم بينهما متحدين وبين الخوارزميين، بل إن الأسرة الأيوبية ما لبثت أن انقسمت على نفسها بعد أن نجح الكامل محمد في توحيدها، ويبدو أن هذا النجاح كان مرحلياً، كما أن دعائم الوحدة لم تكن متينة بحيث اهتزت عند أول خضَّة سياسية واجهت الأيوبيين، ذلك أن تطور الأوضاع السياسية والعسكرية في منطقة الجزيرة الفراتية وشمالي بلاد الشام، التي نجمت عن التمدد الخوارزمي والتوسع السلجوقي، أعاد الخلاف بين ملوك بني أيوب. إذ عندما نهض الكامل محمد لدفع خطر سلاجقة الروم، وما حقَّقه من انتصارات عليهم، أثارت أحقاد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص، فاجتمع مع الأشرف موسى صاحب دمشق وقال له: «إن حكم الكامل الروم أخذ جميع ما بأيدينا»[٢]. ومن جهته فإن الأشرف موسى كره وضعه الذي يجعله تابعاً للكامل محمد، فانشقَّ عنه بعد أن كان حريصاً حتى ذلك الوقت، على محالفته. ويذكر أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي سبب الخلاف بين الأخوين فقال: «إن الأشرف طلب من الكامل الرقة، وقال: الشرق كله صار له وأنا راكب كل يوم في خدمته، فتكون الرقة برسم عليق دوابي، فأبى الكامل، فوقعت الوحشة بينهما بسبب ذلك[٣].

(١) أبو الفدا: جـ ٢ ص٢٦١. رنسيمان: جـ٣ ص٣٦٤، ٣٦٥ .Estoire d'Eracles: II pp 403 - 405

(٢) ابن تغري بردي: جـ٦ ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٨٢، ٢٩٧.

وحدث في حلب أن توفي فجأة غياث الدين محمد بن الظاهر غازي في (ربيع الأول ٦٣٤هـ/ تشرين الثاني ١٢٣٦م) فتولت والدته ضيفه خاتون شقيقة الكامل محمد الوصاية على حفيدها الصغير الظاهر الثاني، ويبدو أنها كانت تخشى طموح أخيها، وشاركها في مخاوفها عدد من الأمراء الأيوبيين في حلب(١).

وبدأ الأشرف موسى يُخطِّط لثورة شاملة ضد الكامل محمد مستعيناً في ذلك بأسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص كما استقطب ضيفة خاتون، واطمأن إلى مساعدة السلطان علاء الدين كيقباد صاحب قونية. وجمع الأشرف موسى حلفاءه في (منتصف ٦٣٤هـ/ أوائل ١٢٣٧م)، وحين أضحت الحرب الأهلية وشيكة الوقوع، توفي السلطان علاء الدين كيقباد في قونية في (٣ شوال/ أول حزيران)(٢)، ومرض الأشرف موسى مرض الموت ثم توفي في (محرم ٦٣٥هـ/ آب ١٢٣٧م)(٣)، وكان قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه أخوه الأصغر الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بصرى، في حكم دمشق.

لم يكد الصالح إسماعيل يتسلم مقاليد الأمور في دمشق حتى أعاد تكوين الحلف الأيوبي ضد الكامل محمد، وأرسل إلى المجاهد صاحب حمص وإلى المظفر الثاني صاحب حماة، وإلى الحلبيين، ليحلفوا له، ويتفقوا معه على القاعدة التي تقرَّرت بينهم وبين الأشرف موسى على مخالفة الكامل محمد(٤).

استجاب جميع الأمراء الأيوبيين لدعوة الصالح إسماعيل باستثناء صاحبي حماة والكرك. وأسرع الكامل محمد بالخروج من القاهرة إلى بلاد الشام لوضع حد لتلك الحركة المعادية له، فحاصر دمشق وقطع الماء عنها حتى استسلمت له ودخلها في (جمادى الأولى ٦٣٥هـ/ كانون الثاني ١٢٣٨م)، فعزل الصالح إسماعيل عن الحكم، وأعطاه إقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع وبصرى والسواد(٥)، غير أن الكامل محمد لم يعش طويلاً بعد ذلك، فقد توفي في (٢٠ رجب ٦٣٥هـ/ ٧ آذار ١٢٣٨م) في دمشق(٦)، وجاءت وفاته نذيراً بتفكُّك الدولة الأيوبية وانهيارها(٧).

---

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٦٠.

(٢) ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمد: مختصر تاريخ آل سلجوق المسمى الأوامر العلائية في الأمور العلائية ص٢٠٣ ـ ٢٠٦.

(٣) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٦٢.

(٤) ابن واصل: جـ٥ ص١٢١، ١٢٢. المقريزي: جـ١ ص٣٧٧.

(٥) ابن واصل: جـ٥ ص١٢٢ ـ ١٢٧، ١٥٠ ـ ١٥٣.

(٦) المصدر نفسه: ص١٥٣، ١٥٤.

(٧) عاشور: جـ٢ ص١٠٣١.

نيول وفاة الكامل محمد

ترتَّب على وفاة الكامل محمد أن عاد الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة الأيوبية من أجل التوسع، كلٌّ على حساب الآخر، واستمر هذا الصراع حتى زوال الدولة. لقد جرى إعلان العادل الثاني ابن الكامل محمد ملكاً على مصر بوصفه ولياً للعهد ولم يتجاوز عمره آنذاك عشرين عاماً[1] على الرغم من وجود أخ له أكبر منه سناً وأحق بتولي الحكم، وأضحت له السيادة على الدولة الأيوبية، فانغمس في اللهو، ومنح المال لجنده كي يضمن ولاءهم، وأقصى رجال أبيه عن الحكم وأحلَّ محلهم مماليكه الذين لم يلبثوا أن بدَّدوا أموال الدولة[2].

واضطربت أوضاع بلاد الشام بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني في حرب مع المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، كل يريد التوسع على حساب الآخر وانتزاع أملاكه. واستولى الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد على دمشق وشكَّل منافساً قوياً للعادل الثاني في مصر، واستعان كل واحد منهما بأنصار من الأسرة الأيوبية، فاعتمد العادل الثاني على أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص، وتحالف الصالح أيوب مع المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، كما استعان كل طرف بجموع من الخوارزمية الذين تفرقوا في بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد مقتل سلطانهم جلال الدين الخوارزمي.

وتواترت في هذه الأثناء، كتب الأمراء في مصر على الصالح أيوب يستدعونه ليتولى الحكم في مصر، ووعدوه بالمساعدة، ومع ذلك فإنه تمهَّل في الزحف إليها وعسكر في نابلس «خوفاً أن لا يكون لما كاتبوه به حقيقة، وعلم أن عسكره لا يقوم بحرب عسكر مصر، فتوقف حتى تتبيَّن له الأمور»[3].

وانتهز صاحبا بعلبك وحمص، الصالح إسماعيل عم العادل الثاني، والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني خروج الصالح أيوب مع عساكره من دمشق، فهاجماها واستوليا عليها في (٢٧ صفر ٦٣٧هـ/ ٢٨ أيلول ١٢٣٩م)[4]، ما أدَّى إلى تضعضع جيش الصالح أيوب وتخلِّي الجند عنه، فتوجَّه إلى الكرك بناء على دعوة الناصر داوود وصحبته سريته أم ولده خليل المسماة شجر الدر ورافقه الأمير ركن الدين بيبرس، ولما وصل إليها اعتقله الناصر داوود مع أصحابه[5]. والحقيقة أن صاحب

(١) ابن واصل: جـ٥ ص٢٦٢.
(٢) المصدر نفسه: ص١٧٤، ١٧٥.
(٣) المصدر نفسه: ٢١٥.
(٤) النويري: جـ٢٩ ص٢٦٠، ٢٦١.
(٥) المصدر نفسه: ص٢٦٣ ـ ٢٦٥. ابن واصل: جـ ٥ ص٢٤٠ ـ ٢٤٣.

الكرك لم يجهل أهمية الصالح أيوب ومكانته في الأسرة الأيوبية، فأخرجه من السجن في (أواخر رمضان ٦٣٧هـ/ أواخر نيسان ١٢٤٠م) واتفق معه على مهاجمة مصر، والاعتراف به ملكاً على هذا البلد مقابل منحه حكم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وقطع الخطبة للعادل الثاني في بلاده ويخطب له[١].

كان الأمراء في مصر قد استاءوا من سلوك العادل الثاني اللامسؤول فقبضوا عليه في (ذي القعدة ٦٣٧هـ/ حزيران ١٢٤٠م) واستدعوا الصالح أيوب ليتولى الحكم، فسار إليها بصحبة الناصر داوود وجلس على عرش مصر، بل عرش الدولة الأيوبية، وسجن أخاه العادل الثاني في القلعة[٢].

أدَّت هذه الأحداث إلى تغيير صورة التحالفات داخل الأسرة الأيوبية التي اتصف امراؤها بالتقلبات السريعة وفقاً لتغير الأوضاع السياسية، ذلك أن الصالح أيوب تنكَّر لوعوده للناصر داوود وأراد أن يسيطر على كامل أملاك الأيوبيين ويجعل من نفسه سلطاناً عليهم ما أوقعه في نزاع معه ومع بقية الأمراء الأيوبيين.

ومزَّق الدولة الأيوبية في السنوات العشر التالية ما وقع من الصراع بين الأمراء الأيوبيين، بالإضافة إلى ما حدث في إقليم الجزيرة الفراتية من فوضى نتيجة عبث الخوارزميين فيها، وتهديد المغول، وقدوم جموع صليبية[٣].

قدوم جموع فرنسية إلى الشرق

في ظل الاضطرابات العنيفة التي ضربت إقليم الجزيرة الفراتية، انتهى في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م) أجل المعاهدة التي عقدها الكامل محمد مع الامبراطور فريدريك الثاني. وكان الصليبيون في بلاد الشام من دون حاكم قوي يجمعهم ويُدير شؤونهم، كما كانت بيت المقدس من دون استحكامات ووسائل دفاع وحماية ما يُعرِّضها لهجمات المسلمين.

أثارت هذه التطورات قلق البابا غريغوري التاسع، فدعا إلى حرب صليبية أخرى، وأرسل مندوبيه إلى فرنسا وإنكلترا من أجل هذه الغاية. ويبدو أن دعوته صادفت قبولاً حسناً في فرنسا بشكل خاص، فقد استجاب لها بعض النبلاء والفرسان الفرنسيين وعلى رأسهم ثيبوت الرابع أمير شامباني وملك ناڤار، وهيو الرابع دوق برغنديا، وبطرس ماوكليرك كونت بريتاني فضلاً عن كونت بار، ونيڤر ومونتفرات

---

(١) ابن واصل: جـ٥ ص٢٥٧ ـ ٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٦٥. النويري: جـ٢٩ ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٣) Grousset: III p372.

وغيرهم من صغار الإقطاعيين. وكان ثيبوت الرابع أول الواصلين إلى عكا على رأس ألف وخمسمائة فارس عدا المشاة وذلك في (٢ صفر ٦٣٧هـ/ ٣ أيلول ١٢٣٩م)(١).

الصليبيون يُقرِّرون مهاجمة جنوبي بلاد الشام

عقد الصليبيون اجتماعاً في عكا لتحديد هدف الحملة حضره كبار أمراء الشرق الصليبيين وممثلون عن الطوائف الدينية العسكرية، اقترح فيه الأمراء المحليون توجيه الحملة إلى مصر، فالأوضاع الداخلية فيها آخذة بالتدهور بفعل كراهية الناس لحكم العادل الثاني، كما أن الاستيلاء على مصر سوف يُلحق الضرر بالأيوبيين في بلاد الشام. وعرض آخرون مهاجمة دمشق بوصفها العدو الرئيس للصليبيين، ولا بد للجيش من أن يُحصِّن قلاع الجليل قبل أن يبدأ الزحف باتجاه المدينة. ونادى فريق ثالث بالتوجُّه إلى صفد إلى الشمال الغربي من طبرية للاستيلاء عليها، وتحصينها، واتخاذها قاعدة داخلية في بلاد الشام ضد دمشق(٢). وكان من رأي ثيبوت الرابع أن يهاجم الصليبيون عسقلان وغزة أولاً لتأمين جناح جيشهم من جهة الجنوب قبل أن يتوجَّهوا إلى دمشق. وافق المجتمعون على هذا الرأي، وبدأت الاستعدادات للزحف المنتظر.

والواقع أن الصليبيين افتقروا إلى السياسة المرنة التي امتازت بها حملة ريتشارد قلب الأسد، وحملة فريدريك الثاني، فلم يحاولوا الاستفادة من تفرُّق الأمراء الأيوبيين ونزاعاتهم عقب وفاة الكامل محمد، كما لم يستغلوا الفرصة لاستخدام قوتهم الجديدة للمساومة والحصول على امتيازات سخية من كل الأطراف المتناحرة(٣).

ومن الواضح أن هذا القرار ذا الاتجاه المزدوج، سوف يوقعهم في عداء مع العادل الثاني صاحب مصر والذي كانت عسقلان من ضمن أملاكه بالإضافة إلى عداء الصالح إسماعيل صاحب دمشق.

معركة غزة

خرج الصليبيون من عكا في (٢ ربيع الأول ٦٣٧هـ/ ٢ تشرين الأول ١٢٣٩م) باتجاه الحدود المصرية، ولما علم الأمراء الأيوبيون بهذا الزحف أسرع الصالح إسماعيل بتحصين دمشق في حين أرسل العادل الثاني قوة عسكرية إلى غزة بقيادة الأمير ركن الدين الهيجاوي للدفاع عن عسقلان. وأشارت الأنباء التي وصلت إلى

---

(١) Estoire d'Eracles: II pp413, 414.

(٢) Stevenson: P317.

(٣) عاشور: جـ٢ ص١٠٣٤. رنسيمان: جـ٣ ص٣٧٢.

الصليبيين بأن عدد أفراد الجيش الأيوبي لا يتجاوز ألف رجل ما دفعهم إلى الاندفاع للقضاء عليه طمعاً في الغنيمة، ولم يتمكَّن ثيبوت الرابع من ثنيهم عن ذلك ما يدل على أن الفوضى كانت متفشية داخل صفوف الجيش، كما أن القيادة كانت ضعيفة وغير قادرة على اتخاذ قرار وتنفيذه، وبلغ من ثقة بعض الأمراء الصليبيين أنه عندما اقتربوا من غزة، وكان الوقت فجراً، أصدر كونت بار أمراً لرجاله بالتوقف في منخفض بين التلال الرملية على ساحل البحر حتى ينالوا قسطاً من الراحة، على أن الجيش الأيوبي فاق في الضخامة ما كان يعلمه هؤلاء. وسُرَّ ركن الدين عندما رأى عدوه وقد تخلَّى عن أبسط القواعد العسكرية التي تكفل له الأمن، فأرسل رماته لتطويقهم، وقد فطن بعض القادة لهذا الخطأ العسكري بالإضافة إلى صعوبة تحرك الخيل فوق الكثبان الرملية، فأمروا رجالهم بالارتداد، كان من بينهم دوق برغنديا، غير أن كونت بار لم يشأ أن يترك مكانه ما أوقعه في صدام مع الجيش الأيوبي. ولم تلبث المعركة التي جرت بينهما عند سطر الجميز بالقرب من غزة في (١٤ ربيع الأول/ ١٤ تشرين الأول)، أن انتهت بتمزيق قواته، ولقي ألف وثمانمائة مصرعهم منهم كونت بار نفسه، ولم يُقتل من المسلمين غير عشرة، ووقع في الأسر ستمائة آخرون سيقوا إلى القاهرة[(١)].

وعندما وصلت أنباء الكارثة إلى الصليبيين المحتشدين عند عسقلان، عزم ثيبوت الرابع على الذهاب إلى غزة لنجدة رفاقه متخلياً بذلك عن حذره في مواجهة المسلمين، غير أن فرسان الصليبيين المحليين لم يوافقوه، إذ أنه من الحماقة دفع ما تبقَّى من الجيش الصليبي إلى خوض معركة غير مضمونة النتائج، ومن المحقق أن المسلمين سوف يقتلون من يقع في أيديهم من الأسرى، واضطر الصليبيون إلى الإنسحاب إلى يافا ومنها إلى عكا[(٢)].

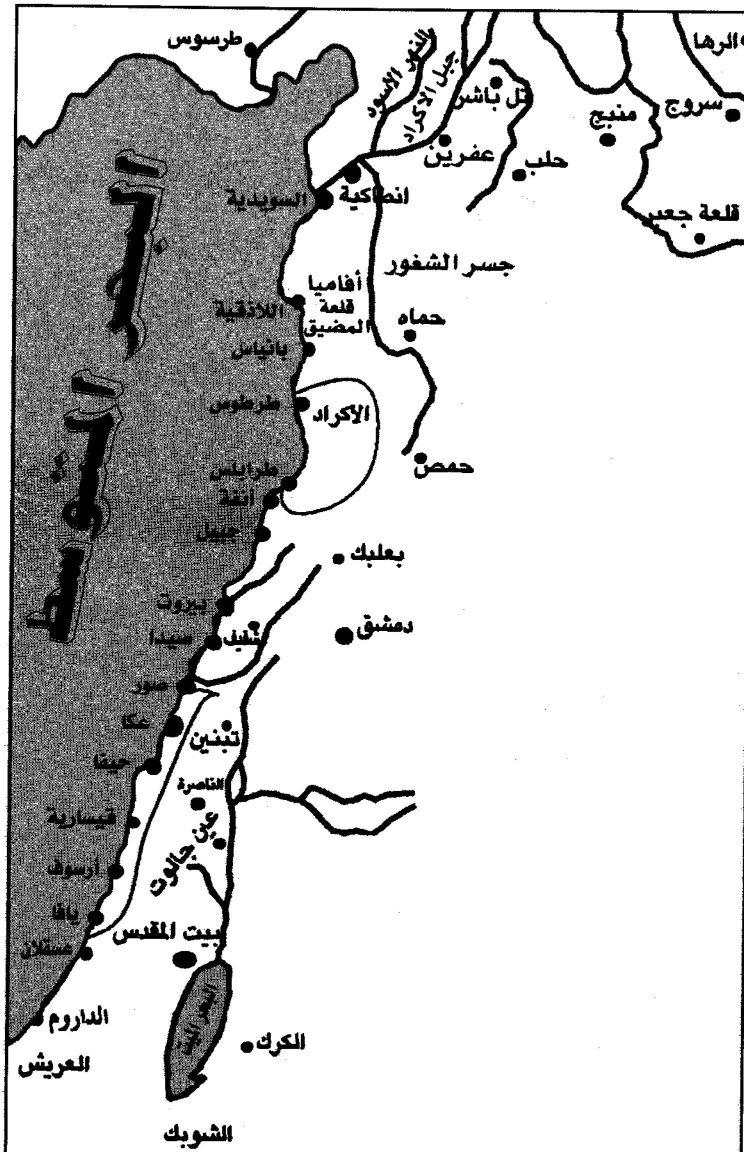
ويبدو أن الصليبيين في بيت المقدس تشجَّعوا بقدوم الجماعات الفرنسية، فعمَّروا المدينة وحصَّنوها، ناقضين بذلك الشروط المتفق عليها مع المسلمين، فردَّ الناصر داوود على هذه الأعمال بأن هاجم المدينة في (٩ جمادى الأولى/ ٧ كانون الأول) واستعادها، وأجلى من كان فيها من الصليبيين إلى الساحل، وعاد إلى الكرك بعد أن دمَّر استحكاماتها بما فيها برج داوود[(٣)].

---

(١) النويري: جـ٢٩ ص٢٥٣. المقريزي: جـ١ ص٤٠٠.

(٢) أبو شامة: ص١٧٠ .Estoire d'Eracles: II pp414, 415

(٣) ابن واصل: جـ٥ ص٢٤٦ ـ ٢٤٧. النويري: جـ٢٩ ص٢٥٤. أبو الفدا: جـ٢ ص٢٦٨. المقريزي: جـ١ ص٣١٩ .Estoire d'Eracles: II pp 416



ساحل بلاد الشام

واشتد النزاع في هذا الوقت بين أبناء البيت الأيوبي ما دفع المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، الذي تعرَّض لخطر قيام تحالف من كل من أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص والصالح إسماعيل صاحب دمشق وضيفة خاتون الوصية على الحكم في حلب؛ إلى التماس المساعدة من الصليبيين مقابل أن يتنازل لهم عن حصن أو حصنين، فقبل ثيبوت الرابع العرض، وعندما سار إلى طرابلس لمساعدته أرسل إليه المظفر يخطره بأنه لم يعد بحاجة إلى مساعدته. ويبدو أن زحف الصليبيين باتجاه الشمال كان كافياً لردع أعدائه، ما دفعه إلى سحب عرضه، فعاد ثيبوت الرابع إلى عكا غاضباً[1].

وحدث عندما توقفت القوة الصليبية في طرابلس في (ذي القعدة ٦٣٧هـ/ حزيران ١٢٤٠م) أن اعتلى الصالح نجم الدين أيوب عرش مصر، ووعد الناصر داوود بمنحه دمشق بعد انتزاعها من الصالح إسماعيل، فاندلعت الحرب الأهلية بينه وبين الصالح إسماعيل كما سبق أن أشرنا، فأضحى بوسع ثيبوت الرابع أن يستغل هذا التطور لصالح الصليبيين وبخاصة بعد أن انحاز إليه صاحب دمشق وطلب مساعدته ومحالفته ضد الصالح أيوب والناصر داوود مقابل إعطائه بيت المقدس وإعادة إحياء مملكة بيت المقدس القديمة بما فيها الأردن[2].

وتستوقفنا هذه الظاهرة في العهد الأيوبي، فقد كانت بيت المقدس موضوعاً للمساومة في كل مرة تشتد فيها الخلافات الداخلية بين الأمراء الأيوبيين، وكأني بها كرة تتقاذفها أيدي المسلمين والصليبيين من دون النظر إلى وضعها الديني عند المسلمين الذي يُجبرهم على التمسك بها وعدم التفريط بها.

وحتى يبرهن الصالح إسماعيل عن حسن نيته منح الصليبيين الحصنين الكبيرين صفد وشقيف أرنون وما يقع بينهما من التلال فضلاً عن بيت المقدس وطبرية وعسقلان، وناصفهم صيدا وأعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[3]. وسرعان ما أثار ذلك جمهور المسلمين، وشنَّع اثنان من أئمة المسلمين تصرف الصالح إسماعيل، هما عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والفقيه أبو عمرو الحاجب، فقطع الأول الدعاء له في الخطبة، فقبض الصالح إسماعيل عليهما وطردهما، فغادر الأول إلى مصر والتجأ الثاني إلى الكرك ثم غادرها إلى مصر[4].

---

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٦٧. (٢) Estoire d'Eracles: II p416.

(٣) ابن واصل: جـ٥ ص٣٠١، ٣٠٢. وقارن بالمقريزي: جـ١ ص٤٠٧. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٧، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ص٣٤٧.

(٤) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٧٢، ٢٧٣. النويري: جـ٢٩ ص٢٧٨، ٢٧٩.

واحتجاجاً على هذه المساومة رفضت حامية شقيف أرنون أن تُسلِّم الحصن للصليبيين ما استدعى خروج الصالح إسماعيل بنفسه لحصار الحصن وإرغام الحامية على الإذعان.

نهاية الجموع الفرنسية

كان الصالح أيوب يرغب في تحطيم قوة الصالح إسماعيل، وحتى يُحقِّق هذا الغرض عرض الصلح على الصليبيين لإخراجهم من التحالف، واشترط عليهم أن يلتزموا الحياد مقابل منحهم عسقلان وإطلاق سراح أسراهم الذين أُسروا في معركة غزة، ووقَّع مقدم الأسبتارية الاتفاق مع ممثلي الملك في عسقلان، ورفض الداوية الدخول في الصلح.

والواقع أن ذلك كان انتصاراً للصالح أيوب الذي استطاع بتضحية بسيطة من جانبه أن يُدمِّر تحالفاً لم يُنجزه الصالح إسماعيل إلا بعد أن أذلَّ نفسه[(١)]. وسُرَّ ثيبوت الرابع بهذا الاتفاق، غير أن الصليبيين المحليين ارتاعوا لما حدث من التخلي عن الاتفاق مع دمشق التي تُعدُّ حليفاً تقليدياً لهم، وتعرَّض ثيبوت الرابع للانتقاد الشديد ما حمله على مغادرة الشرق في (صفر ٦٣٨هـ/ أيلول ١٢٤٠م) مع بعض رفاقه[(٢)].

لم تخل حملة الجموع الفرنسية من قيمة وأهمية، إذ عاد إلى حوزة الصليبيين حصون شقيف أرنون وصفد وعسقلان، غير أن المسلمين شهدوا مثلاً آخر من خيانة الصليبيين[(٣)].

قدوم جموع إنكليزية إلى الشرق

لم يكد ثيبوت الرابع يُغادر عكا عائداً إلى الغرب حتى وصل إلى عكا في (٢٢ ربيع الأول ٦٣٨هـ/ ١١ تشرين الأول ١٢٤٠م) ريتشارد كورنوال شقيق هنري الثالث ملك إنكلترا، وكانت أخته زوجة الامبراطور فريدريك الثاني، فمنحه هذا سلطات مطلقة في أن يتخذ من التدابير التي يعتقد أنها في مصلحة المملكة الصليبية[(٤)].

ارتاع ريتشارد لما شاهده عند وصوله من الفوضى، فالداوية الذين كانوا يرون

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٣٧٩.
(٢) Estoire d'Eracles: II pp 414 - 420.
(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٣٨٢.
(٤) Archer: p387.

ضرورة التحالف مع دمشق، كانوا في حرب مع الأسبتارية الذين أيَّدوا الصلح مع مصر، وانقسم الصليبيون في الشرق بين مؤيد ومعارض لموقف كل فئة في حين التزم الفرسان التبوتون جانب الحياد.

ورفض ريتشارد كورنوال المشاركة في الصراع، واختار أن يوجِّه جهوده لتحصين استحكامات عسقلان حتى يأمن الصليبيون في الشرق من أي هجوم من جانب مصر، والتقى في عسقلان برسل الصالح أيوب الذين طلبوا منه التصديق على المعاهدة التي عقدها الأسبتارية وثيبوت الرابع، فوافق وطلب في المقابل أن يعترف حاكم مصر بما تنازل عنه الصالح إسماعيل من الأراضي للصليبيين وأن يُضيف بما تبقَّى من الجليل بما في ذلك شقيف أرنون وجبل الطور وطبرية فضلاً عن بيت المقدس وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان(١).

وبذلك استعادت مملكة بيت المقدس كل ما كان لها من أراضٍ غربي نهر الأردن، كما امتدت جنوباً إلى أرباض غزة باستثناء نابلس والسامرة(٢).

أقام ريتشارد كورنوال في فلسطين حتى (ذي القعدة ٦٣٨هـ/ أيار ١٢٤١م) وانتهج سياسة حكيمة استطاع من خلالها أن يحظى بثقة الناس، وعندما رحل أسف الصليبيون في الشرق على رحيله.

النزاعات بين الصليبيين

لم يكد ريتشارد كورنوال يُغادر الشرق عائداً إلى بلاده حتى اندلعت الحروب الداخلية بين فئات الصليبيين، وانفرط عقد النظام والأمن الذي وطَّده، فقد رفض الداوية أن يلتزموا بالمعاهدة المعقودة مع الصالح أيوب، فأغاروا في (أواخر ٦٣٩هـ/ ربيع ١٢٤٢م) على منطقة الجليل، وردَّ الناصر داوود على هذه الغارة بالتضييق عليهم وعلى تجارتهم، فأرسل قوة عسكرية قطعت الطريق المؤدي إلى بيت المقدس، وجَبَتْ الرسوم من الحجاج والتجار الذين يجتازونه. أثار هذا الإجراء الداوية، فعزموا على الانتقام، فخرجت قوة عسكرية منهم، من عكا ويافا، وانقضَّت على نابلس في (جمادى الأولى ٦٤٠هـ/ كانون الأول ١٢٤٢م) واستباحتها، وأحرقت المسجد، وأخذت منبر الخطيب، وقتلت عدداً كبيراً من السكان(٣).

لم يسع الصالح أيوب تجاه ما حدث سوى أن يُرسل جيشاً من مصر يبلغ ألفي فارس انضمَّ إلى قوات الناصر داوود عند غزة، وتوجَّه المسلمون من هناك إلى يافا،

---

(١) Estoire d'Eracles: II p 421. Grousset: III p394.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٣٨٢.

(٣) المقريزي: جـ١ ص٤١٥.

فحاصروها مدة من الزمن حتى استرضاهم الصليبيون، فانسحبوا عائدين إلى مصر[١]، لكن الصليبيين استمروا غارقين في الفوضى، فقد تصرَّفت الطوائف الدينية العسكرية على أنها جمهوريات مستقلة، وتولى مجلس بلدي حكم عكا، الذي لم يسعه أن يمنع الداوية والأسبتارية من أن يقاتل بعضهم بعضاً في الشوارع، ولزم الأمراء الإقطاعيون إقطاعاتهم يحكمونها كيف شاؤوا[٢]، وقد سبَّب هذا الوضع الشاذ بنزول الكوارث بالصليبيين في الشرق.

التفاهم الدمشقي - الصليبي

انتصر الداوية في الصراع الذي نشب بين الصليبيين، فتقرَّر استئناف المفاوضات من جديد مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، ذلك أن الخلاف نشب مرة أخرى بينه وبين الصالح أيوب، وساند الناصر داوود صاحب دمشق. وتسابق طرفا النزاع إلى التماس المساعدة من الصليبيين مقابل منحهم السيطرة المطلقة على بيت المقدس بما فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهي الأماكن التي ظلَّت تحت حكم المسلمين ولو نظرياً منذ اتفاق صلح يافا[٣].

استغل الصليبيون ذلك النزاع للاحتفاظ بالمكاسب التي حقَّقوها على حساب المسلمين جميعاً، وانتهجوا سياسة مزدوجة مع صاحبي دمشق والقاهرة، ثم مالوا إلى التعاون مع الأول بفعل تدخل الداوية القوي الذين برعوا في المفاوضات للإيقاع بين المسلمين، ويُعدُّ ذلك آخر انتصار سياسي للصليبيين في الشرق الأدنى[٤].

وأقلق الصالح أيوب تخلِّي الصليبيين عن مساندته، ومع ذلك قرَّر التصدي لعمه صاحب دمشق، فأرسل جيشاً بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس خرج من القاهرة باتجاه غزة[٥]، في حين خرج المنصور إبراهيم صاحب حمص على رأس قواته وانضم إلى الحلفاء. ومرَّ المنصور إبراهيم بعكا لإبرام معاهدة التحالف وليعرض على الصليبيين نيابة عن الحلفاء منحهم مناطق جديدة في بلاد الشام، بالإضافة إلى جزء من أرض مصر وذلك لإغرائهم على المشاركة في غزو هذا البلد[٦].

على أن إنزال الهزيمة بالصالح أيوب لم يكن أمراً بالغ السهولة، إذ أنه التمس المساعدة من الخوارزميين الذين يفوقون الصليبيين قوة وشكيمة، فدعاهم للإغارة على أراضي دمشق وفلسطين ما أدَّى إلى تحول جذري لمسار الصراع في الشرق الأدنى.

---

(١) Stevenson: p321.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٣٨٤.

(٣) Grousset: III p 408.

(٤) رنسيمان: جـ٣ ص٣٩٠.

(٥) ابن واصل: جـ٥ ص٣٣٧.

(٦) المصدر نفسه: ص٣٣٨.

الخوارزميون يستردون بيت المقدس

لم تكد دعوة الصالح أيوب تصل إلى الخوارزميين حتى عبر عشرة آلاف منهم نهر الفرات متوجهين إلى فلسطين، فاستولوا في طريقهم على طبرية، وأدرك الصليبيون في المدينة ما يُحيط بهم من أخطار، إذ أن بيت المقدس كانت ضعيفة الاستحكامات، ولا تقوى على المقاومة، فالتمسوا المساعدة من أمير أنطاكية وطرابلس بوهيموند الخامس، وملك قبرص هنري الأول فضلاً عن الصليبيين في عكا بالإضافة إلى حلفائهم من المسلمين في حمص ودمشق والكرك، لكن أحداً لم يلبِّ نداء الاستغاثة، ذلك أن الصليبيين في عكا وقبرص كانوا منهمكن بمشكلاتهم الداخلية الخاصة في حين أن الأمراء المسلمين خشوا من نقمة عامة الناس عليهم.

وهكذا أُتيح للخوارزميين اقتحام بيت المقدس في (٣ صفر ٦٤٢هـ/ ١١ تموز ١٢٤٤م)، وجرى قتال في الشوارع، واستطاعوا أن يشقوا لهم طريقاً إلى دير الأرمن المعروف بدير القديس يعقوب، ولقي حاكم المدينة مصرعه، وهلك مقدم الأسبتارية، غير أن حامية القلعة استمرت على مقاومتها، ولما لم تأت النجدات من الخارج ولا سيما من الناصر داوود الذي استغاث به أفرادها، طلب هؤلاء منه التوسط بتسليم القلعة مقابل السماح لهم بالخروج إلى مناطق الساحل آمنين، ولم يكادوا يبتعدون قليلاً حتى دبَّر لهم الخوارزميون خدعة للتخلص منهم، فرفعوا أعلام الصليبيين على أبراج المدينة، وإذ شاهد هؤلاء ذلك اعتقدوا أن نجدة قد وصلت، فعاد عدد كبير منهم إلى المدينة، فوقعوا في كمين تحت أسوارها، وهلك منهم ألفان، وتعرَّض الباقون للمطاردة، ولم يصل منهم إلى يافا سوى ثلاثمائة تقريباً(١). وبذلك خرجت بيت المقدس نهائياً من أيدي الصليبيين، ولم يجرؤ أن يدخل أبوابها جيش مسيحي إلا بعد حوالي سبعة قرون خلال الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في عام (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).

واقتحم الخوارزميون الأماكن المسيحية مثل كنيسة القيامة، ولم يُظهروا شيئاً من الرأفة بالمدينة، وبعد أن قاموا بعملية نهب واسعة النطاق في أرجائها غادروها إلى غزة للانضمام إلى جيش الصالح أيوب(٢).

معركة أرِبيا(٣)

في الوقت الذي كان فيه الخوارزميون يدخلون بيت المقدس، احتشد خارج عكا

---

(١) ابن واصل: جـ٥ ص٣٣٦، ٣٣٧. المقريزي: جـ١ ص٤١٩. رنسيمان: جـ٣ ص٣٩٢.

(٢) المصدران نفساهما.

(٣) أربيا: قرية تقع بين غزة وعسقلان على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة.

أكبر جيش صليبي جنَّده الصليبيون في الشرق منذ معركة حطين، إذ تألف من ستمائة فارس بقيادة فيليب مونتفرات سيد تبنين وصور، ووالتر بريين كونت يافا، وأرسل الداوية والأسبتارية ما يزيد على ثلاثمائة فارس، واشتركت في هذا الجيش قوة من الفرسان التيوتون، كما أرسل بوهيموند الخامس عدداً من الفرسان، وصحب الجيش، روبرت بطريرك بيت المقدس، ورافقه رئيس أساقفة صور، ورالف أسقف الرملة، وانضمَّت إليه القوات التي قادها المنصور إبراهيم والتي تفوَّقت عليهم في العدد، كما أمدَّهم الناصر داوود بفرسان من البدو[١].

توجَّهت القوات المتحالفة من عكا إلى غزة، وكان الجيش الأيوبي الذي خرج من مصر بقيادة ركن الدين بيبرس قد تألف من خمسة آلاف مقاتل فضلاً عن الخوارزميين.

وعقد الحلفاء مجلساً للتشاور في أنجع الخطط العسكرية الواجب تنفيذها، فانقسموا على أنفسهم بين البقاء في أماكنهم وتحصينها وبين الهجوم الفوري، وألحَّ والتر بريين على القيام بهجوم مباشر مستفيداً من التفوق العددي لجيش الحلفاء، واتخذ طريقه للهجوم وتبعه الجيش بأكمله. وفي المعركة التي جرت بين الطرفين عند قرية أرِبيا في عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) دارت الدائرة فيها على القوات المتحالفة، التي تحطَّمت في ساعات قليلة وحلَّت بها الهزيمة، وارتد من بقي منها إلى عسقلان، وقدَّر المؤرخون عدد القتلى بحوالي ثلاثين ألفاً، كما أُسر خلق كثير «ولم يفلت إلا الشارد النادر»[٢].

تُعدُّ معركة أرِبيا من بين أهم المعارك التي جرت في الحروب الصليبية نظراً لضخامة عدد القوات التي اشتركت فيها وما ترتَّب عليها من نتائج تمثَّلت بإنقاذ مصر، وتغيير التوازنات السياسية من واقع تراجع مركز الحلفاء في بلاد الشام، وانحسرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا، وازدادت قوة الصالح أيوب الذي نجح في ضمِّ بلاد الشام بعد ذلك، وأطلق أحد المؤرخين الغربيين على هذه المعركة اسم «حطين الثانية»[٣].

الصالح أيوب يستعيد عسقلان

أضحى بوسع الصالح أيوب بعد أن استتبَّ له الوضع الداخلي أن يتفرَّغ لقتال

---

(١) ابن واصل: جـ٥ ص٣٣٨، ٣٣٩. المقريزي: جـ١ ص٤١٩. رنسيمان: جـ٣ ص٣٩٤.

(٢) ابن واصل: جـ٥ ص٣٣٧ ـ ٣٣٩. النويري: جـ٢٩ ص٣٠٥، ٣٠٦.

Estoire d'Eracles: II pp427-431.

(٣) Grousset: III p415.

الصليبيين، فأرسل جيشاً من مصر بقيادة فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، فَتَحَ طبرية وقلعتها في (١٠ صفر ٦٤٥هـ/ ١٦ حزيران ١٢٤٧م)، وجبل الطور، وشقيف أرنون، واستردَّ عسقلان بعد قتال، ودمَّر الحصن بناء على تعليمات الصالح أيوب وذلك في (١٨ جمادى الآخرة/ ٢٠ تشرين الأول)[١]. لم يستثمر الصالح أيوب هذا الانتصار، بل قام بزيارة إلى فلسطين ودمشق وأمضى فيها الشتاء.

(١) ابن واصل: جـ٥ ص٣٦٣، ٣٦٤. النويري: جـ٢٩ ص٣٢٥، ٣٢٦ Estoire d'Eracles: II p 435.

الفَصْل السّابع وَالعشرُون

الحملتان الصليبيتان السابعة والثامنة

الحملة الصليبية السابعة

أسباب قيام الحملة

لم تمض ثلاثون سنة على انتهاء الحملة الصليبية الخامسة التي استهدفت مصر حتى توجَّهت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى هذا البلد بهدف الاستيلاء عليه وتحقيق الحلم الصليبي القديم وهو استعادة بيت المقدس وأراضي بلاد الشام، وتدعيم الكيان الصليبي المتداعي.

وحدث عقب معركة إرِبيا أن أرسل روبرت بطريرك بيت المقدس سفارة إلى أوروبا الغربية مؤلفة من غاليران أسقف بيروت وألبرت بطريرك أنطاكية، لتشرح للبابا إنوسنت الرابع (٦٤٠ ـ ٦٥٢هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٤م) خطورة الموقف في بلاد الشام، وتطلب منه المساعدة العاجلة حتى لا يتعرَّض الصليبيون للفناء[١].

وعقد البابا في (محرم ٦٤٣هـ/ حزيران ١٢٤٥م) مجمعاً في مدينة ليون الفرنسية للتباحث فيما ينبغي اتخاذه من تدابير لمقاومة أطماع الامبراطور، فلحق به أعضاء السفارة، وقدَّموا للمجتمعين تقريراً عن أوضاع الصليبيين في الشرق، فتقرر إرسال حملة صليبية جديدة لتدارك الموقف قبل فوات الأوان[٢]. وكان عند الملك لويس التاسع من الدوافع ما حمله على الاشتراك بها، في حين أحجمت ألمانيا وإيطاليا عن مساندتها بفعل الصراع الذي كان قائماً آنذاك بين الامبراطورية والبابوية.

والحقيقة أن الامبراطور فريدريك الثاني انتهج سياسة مزدوجة تجاه الحملة، فقام بتزويدها بالمؤن عند مرورها بصقلية في طريقها إلى قبرص، واحتفظ بعلاقات طيبة مع خلفاء الكامل محمد، فاتصل سراً بالصالح أيوب، وأرسل إليه سفارة يعلمه بتحرك الصليبيين ونواياهم[٣].

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٤٤٠، ٤٤١.

(٢) Brehier: pp 217, 218.

(٣) عاشور: جـ٢ ص١٠٥٤.

لقد تعدَّدت وتشعَّبت أسباب هذه الحملة، بين رئيسة تنطوي على الدوافع الحقيقية لقيامها وبين عوامل ثانوية ساعدت على التنفيذ[1].

ولعل أهم الدوافع الحقيقية التي أثارت المجتمع الغربي بعامة وشعور الملك الفرنسي بخاصة، وحفَّزت الجميع على الثأر، هي:

- تعرُّض الصليبيين في الشرق إلى المضايقات خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي على يد الخوارزميين بشكل خاص.

- ضياع بيت المقدس، فقد استعادها الصالح أيوب بمساعدة الخوارزميين الذين نكَّلوا بسكانها المسيحيين، ونهبوا دورهم وأموالهم حتى أضحى وضعهم مقلقاً من وجهة النظر الصليبية.

- لقد أنزل المسلمون ضربات قاسية بباقي الممتلكات الصليبية في بلاد الشام تمثَّل بعضها باستعادة الصالح أيوب طبرية وعسقلان حتى أصبحت باقي ممتلكاتهم ومعاقلهم مهدَّدة بالخطر والضياع.

أما فيما يتعلق بالعوامل الثانوية، فلعل أهمها:

- لقد حدث أن مرض الملك الفرنسي لويس التاسع حتى أشرف على الموت، ولما أفاق من شدة المرض، نذر إن منَّ الله عليه بالشفاء، أن يحمل الصليب ويذهب لغزو الأراضي المقدسة.

- يرى بعض المؤرخين أن الملك الفرنسي حمل الصليب، وتعهَّد بشنِّ حرب مقدسة لإنقاذ صليبيي الشرق إثر رؤيا ظهرت له أثناء مرضه فحواها أنه رأى فيما يرى النائم شخصين يتقاتلان، أحدهما مسلم والآخر مسيحي، وقد انتصر الأول على الثاني، ففسَّر هذه الرؤيا بحاجة صليبيي الشرق إلى المساعدة، وأن الله أناط به هذه المهمة.

- كان للآثار والذخائر الدينية المقدسة التي حصل عليها لويس التاسع من يوحنا بريين الملك الأسمى لبيت المقدس، وبلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية اللاتيني؛ أثر غير مباشر دفعه إلى القيام بحملته على مصر من أجل استعادة بيت المقدس.

- نتيجة لوقوع الكوارث بالصليبيين في الشرق، فقد أرسل هؤلاء السفارات إلى الغرب الأوروبي يلتمسون مساعدته كما أشرنا، وأنذروا الأوروبيين باحتمال ضياع ما تبقَّى من ممتلكاتهم إذا لم يلبوا نداء الاستغاثة.

- ساند البابا إنوسنت الرابع مشروع لويس التاسع، فدعا إلى الاشتراك في الحملة

(١) انظر: نسيم، جوزيف: العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ص٤٧ ـ ٥٦.

الصليبية السابعة خشية أن يطغى نفوذ الملك الفرنسي الذي اشتهر بالورع والتقوى، وعُرف بمواقفه الحازمة حيال الكنيسة، ورجال الدين؛ على نفوذه كرجل دين ورئيس أعلى للكنيسة اللاتينية.

استعدادات التجهيز

استغرقت استعدادات الملك لويس التاسع ثلاث سنوات، إذ تقرَّر جباية ضرائب استثنائية للإنفاق على الحملة، وكان لا بد من تنظيم الحكومة طيلة مدة غيابه، فتقرَّر أن تتولى الملكة الوالدة الوصاية، أما في الخارج، فكان لزاماً على الملك أن يحلَّ بعض المشكلات وبخاصة إقناع ملك إنكلترا بالمحافظة على السلام أثناء غيابه، وكانت علاقاته مع الامبراطور فريدريك الثاني بالغة الدقة بسبب موقف الأخير المعادي للبابوية من جهة، ولأنه والد كونراد الرابع الملك الشرعي لبيت المقدس من جهة أخرى، وليس بوسعه أن يدخل الأراضي الواقعة تحت سيطرته إلا بإذنه. وأجرى الملك الفرنسي مفاوضات مع جنوة ومرسيليا لتقديم السفن اللازمة لنقل أفراد الحملة إلى الشرق، أما البنادقة الذين تربطهم بمصر مصالح تجارية حيوية، فقد كرهوا ما حدث وعارضوا فكرة مهاجمة مصر[(١)].

الملك لويس التاسع يُبحر إلى مصر

غادر الملك لويس التاسع باريس في (١٠ ربيع الآخر ٦٤٦هـ/ ٢ آب ١٢٤٨م) ثم أبحر بعد أيام عدة من مرسيليا قاصداً قبرص واصطحب معه الملكة، كما رافقه اثنان من إخوته وبعض الأمراء الذين اشتركوا في حملات سابقة، ويوحنا جوانڤيل، صنجيل شمباني وهو مؤرخ الحملة فضلاً عن عدد كبير من صغار الأمراء[(٢)].

وصل الأسطول الملكي إلى ليماسول في قبرص في (٢٧ جمادى الأولى/ ١٧ أيلول)، فهبط الملك والملكة في اليوم التالي إلى البر، واجتمعت بعد أيام قليلة العساكر التي تُشكل الحملة، وقدم بعضها من بلاد الشام. ورعى هنري الأول ملك قبرص الصليبيين واستضاف الملك وحاشيته، وقدَّم المؤن والمساعدات للحملة[(٣)].

وجرت مناقشة سير الحملة وهدفها ووافق الجميع على أن تكون وجهتها مصر، وعزم الملك لويس التاسع بعد أن اتُخذ القرار أن ينهض فوراً لمباشرة الأعمال العسكرية، لكن مقدمي الداوية والأسبتارية والأمراء الصليبيين في الشرق، أثنوه عن

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٤٤١، ٤٤٢.

(٢) المرجع نفسه: ص٤٤٣. مذكرت جوانڤيل ص٨١.

(٣) مذكرات جوانڤيل: ص ٨٣.

عزمه بسبب عدم ملاءمة الأحوال الطبيعية، إذ لن تلبث العواطف الشتوية أن تهب، ويصبح من الخطر الاقتراب من الدلتا بسبب كثرة العوائق الرملية[1].

ويُستفاد مما ذكره مؤرخ الحملة أن الملك لويس التاسع إنما هدف بقضاء فصل الشتاء في قبرص أن يستفيد من عنصر المفاجأة في مهاجمة مصر، فينتظر في الجزيرة حتى تسنح له الفرصة المناسبة لمباغتة الصالح أيوب[2].

لم تكن الأشهر التي قضاها الملك الفرنسي في قبرص عديمة الفائدة، بل تخلَّلها اتصالات قام بها للتمهيد لحملته، فأجرى اتصالاً مع المغول، والواقع أنه أراد أن يعود بالفكرة الصليبية إلى مبادئها الأولى، فلن يكون هناك بالتأكيد أي تفاهم مع المسلمين، وسيكون جيشه على القدر نفسه من التدين كالحملة الصليبية الأولى، بيد أنه كان مستعداً مع ذلك للنظر في مبادرة سياسية أخرى تجاه المغول الذين كانوا يُهدِّدون المسلمين من الشرق، ولعله تأثَّر باقتراح الراهب يوحنا الكاربيني الذي أرسله البابا إنوسنت الرابع إلى قراقورم عاصمة المغول للتقارب والتحالف معهم ضد المسلمين علماً بأنه وصل إلى العاصمة المغولية في (٦ ربيع الأول ٦٤٤هـ/ ٢٢ تموز ١٢٤٦م)، فتبادل السفارات معهم.

وتشاور الملك لويس التاسع مع زعماء الداوية والأسبتارية في مصالح الصليبيين في بلاد الشام، علماً بأنه كان حريصاً على عدم إهمال الدفاع عن هذه البلاد، كما أن هاتين الطائفتين كانتا تأملان في إقناعه بالتدخل فيما حدث بين الأمراء الأيوبيين من النزاع، للحصول على مكاسب في مملكة بيت المقدس. ففي عام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) طرد الناصر يوسف صاحب حلب ابن عمه الأشرف موسى من حمص، فالتمس هذا الأخير المساعدة من الصالح أيوب الذي قدم من مصر لتسوية المشكلة، وأرسل جيشاً لاسترداد حمص[3]. استفاد الداوية من هذا الوضع ودخلوا في مفاوضات مع صاحب مصر، فاقترحوا عليه إمداده بقوات إضافية مقابل التنازل لهم عن بعض الأراضي.

ويبدو أن الملك الفرنسي لم يكن لديه ما يدعوه إلى الاهتمام بهذه الخطة، لقد جاء إلى الشرق ليقاتل المسلمين لا للانغماس في شؤون السياسة، وأمر الداوية أن يوقفوا محادثاتهم مع الصالح أيوب، وحذَّرهم من القيام بأي اتصال مع المسلمين في بلاد الشام.

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٤٤٤، ٤٤٥.

(٢) مذكرات جوانفيل: ص٩٠.

(٣) النويري: جـ٢٩ ص٣٢٨. المقريزي: جـ١ ص٤٣٣، ٤٣٤.

الصليبيون ينزلون في دمياط

أبحرت الحملة إلى دمياط في (صفر ٦٤٧هـ/ أيار ١٢٤٩م)، وكان الملك الفرنسي قد جمع قواته في ليماسول استعداداً للإبحار في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأيوبية تعاني الكثير من المتاعب بسبب النزاعات بين أمرائها، ووصل الجيش الصليبي إلى مصر في (٢١صفر/ ٥ حزيران)، وقُدِّر عدد أفراده بحوالي خمسين ألفاً[١].

كان الصالح أيوب آنذاك في دمشق لمحاربة الناصر يوسف صاحب حلب الذي انتزع حمص من الأشرف موسى، ولما علم بتجمع الصليبيين في قبرص، وبأن الخطر يُهدِّد مصر، أمل بأن يُنهي مشكلاته في الشمال قبل أن تبدأ غارات الصليبيين، ثم عجَّل بالعودة إلى مصر وعسكر عند أشموم طنَّاح «ليكون في مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط». ولا شكَّ بأن التحذير الذي أرسله إليه الامبراطور فريدريك الثاني، كان بالغ الإفادة، فأسرع إلى تحصين دمياط بعد أن أدرك بأن الصليبيين اتخذوا منها في الماضي «نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر»[٢]، فشحنها «بآلات عظيمة وذخائر وافرة، وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة»[٣].

ولما كان الصالح أيوب رجلاً مريضاً يعاني مرحلة متقدمة من مرض السل، ولم يعد بوسعه قيادة الجيش، فقد عهد إلى وزيره فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بتولي قيادة الجيش، وأمره بأن يمنع الصليبيين من النزول إلى البر[٤].

وصل الملك لويس التاسع إلى دمياط ليجد أن المدينة مُحصَّنة، وأن الجيش الأيوبي على أهبَّة الاستعداد لمنعه من النزول أمامها، لذلك قرَّر النزول على الضفة الغربية للنيل. وفي فجر (٢٢ صفر/٦ حزيران) بدأت عملية النزول، لكنها لم تتم بسهولة، إذ تصدَّى الجيش الأيوبي للقوات الصليبية، وحصل اشتباك على الشاطىء بين الجانبين اضطر المسلمون بنتيجته إلى الارتداد بفعل التفوق العددي للصليبيين، وتكبَّدوا بعض الخسائر، وإذ استبدَّ الذعر بالسكان وساد القلق والاضطراب أفراد الحامية؛ قرَّر فخر الدين يوسف الجلاء عن المدينة، وغادرها كل المسلمين بعد أن أشعلوا النار في سوقها، متوجهين نحو الجنوب إلى أشموم طنَّاح، كما هرب بعض عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عنها «وتركوا أبواب المدينة

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٨٤. مذكرات جوانڤيل: ص٩١.
(٢) عاشور: جـ٢ ص١٠٥٩.
(٣) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٨٤، ٢٨٥.
(٤) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٨٤. المقريزي: جـ١ ص٤٣٧.

منفتحة»[1]، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربطها بالضفة الغربية للنيل، فأصبحت دمياط بذلك مدينة مفتوحة، فدخلتها القوات الصليبية في (٢٣ صفر/ ٧ حزيران) وتملَّكتها بغير قتال[2].

ابتهج الصليبيون باستيلائهم على دمياط بتلك السهولة، وفي المقابل ارتاع المسلمون لسقوطها، وحزن الصالح أيوب حزناً شديداً، فعنَّف مماليكه ووبَّخهم لإهمالهم في الدفاع عنها، وشنق ما يزيد على خمسين من رجال بني كنانة الذين تركوا مواقعهم الدفاعية وهربوا[3].

الواقع أن فخر الدين يوسف يتحمَّل جزءاً كبيراً من المسؤولية، فلو أقام في المدينة وثبت أمام الصليبيين لامتنعت عليهم، ويبدو أن هذا الأمير كان ذا نزعات سلطوية، وقد اعتقد بأن الصالح أيوب قد توفي نظراً لشدة مرضه، لذلك ترك دمياط وأسرع بالعودة إلى الجنوب لعله ينجح في ارتقاء السلطة.

وتخوَّف المماليك عندئذٍ من نوايا الصالح أيوب تجاههم، ودخل الشك إلى قلوبهم، ففكَّروا بالتخلص منه لكن حال بينه وبينهم الوزير فخر الدين يوسف، وقد أقنعهم بالصبر بفعل اشتداد مرضه بعد أن يئس الأطباء من شفائه.

وكما حصل في الحملة الصليبية الخامسة، فقد عرض المسلمون الصلح على الصليبيين مقابل التنازل عن بيت المقدس، إلا أن العرض لم يلق إلا الرفض، إذ أن الملك الفرنسي ما زال يرفض التعامل مع المسلمين[4].

ومهما يكن من أمر، فقد صادفت الحملة الصليبية السابعة نجاحاً سريعاً غير متوقع بالمقارنة مع ما حقَّقته الحملة الصليبية الخامسة التي مكثت أمام دمياط تسعة عشر شهراً، بذلت خلالها جهداً شاقاً حتى استولت على المدينة. ويُذكِّرنا المقريزي بهذه المقارنة وهو يعجب من ذلك ويقول: «وقد كانت دمياط في أيام الملك الكامل لمَّا نازلها الفرنج أقل ذخائر وعدداً منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة عندما فني أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بني كنانة، فلم يُغن ذلك شيئاً»[5].

وبعد أن استولى الصليبون على كل ما وجدوا في دمياط من مؤن، أخذوا يعملون

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) المصدر نفسه. المقريزي: جـ١ ص٤٣٧، ٤٣٨. مذكرات جوانفيل: ص٩٥ ـ ٩٧. Estoire d'Eracles: II p591.

(٣) المقريزي: جـ١ ص٤٣٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) السلوك: جـ١ ص٤٣٨.

بسرعة على تحويلها إلى مدينة ذات طابع مسيحي، فحوَّلوا المسجد إلى كنيسة باسم نوتردام، وعيَّنوا عليها أسقفاً كاثوليكياً، واختصَّت الطوائف الدينية الثلاث، الداوية والأسبتارية والتيوتون، بعمارة المدينة، وتمَّ توزيع الإقطاعات على الأمراء والتجار، وظلَّت دمياط طوال أشهر صيف عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) عاصمة الصليبيين في الشرق[١].

واشتد المرض على الصالح أيوب في هذه الأثناء بحيث لم يقو على النهوض من الفراش، فحُمل في محفة إلى المنصورة كيما يُشرف على تنظيم الجيش، وأرسل يطلب الإمدادات من القاهرة، وزحف البدو من الريف حتى بلغوا أسوار دمياط يقتلون كل شخص صليبي يلتقون به خارج الأسوار، فاضطر الملك لويس التاسع أن يُقيم الحواجز، ويحفر الخنادق لحماية معسكره[٢].

كان من المتوقع أن يستغل الملك الفرنسي انتصاره في دمياط لمواصلة الزحف نحو القاهرة لتدمير القوة الميدانية للجيش الأيوبي واحتلال المدينة، وبخاصة أن الأوضاع الداخلية للدولة كانت مضطربة، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، إذ أضاع في دمياط خمسة أشهر كاملة (صفر ـ جمادى الآخرة/ أيار ـ أيلول)، ولو فعل ذلك لتغيرت النتيجة النهائية للصراع.

وربما أراد الملك الفرنسي أن ينتظر انحسار فيضان النيل الذي كان سبباً في فشل الحملة الصليبية الخامسة أو وصول أخيه ألفونس بواتييه ومعه الإمدادات التي طلبها[٣].

وفي (١٢ شعبان/ ٢٠ تشرين الثاني)، حان الوقت لتقرير الخطوة التالية، فقد انحسرت مياه النيل، ووصل ألفونس إلى دمياط مع الإمدادات، فعقد الصليبيون مجلساً عسكرياً تداولوا فيه فيما يجب أن يتخذوه من خطوات مقبلة، فرأى بعض الزعماء، ومنهم بطرس كونت بريتاني وأمراء الشرق الصليبيون، أن تتوجَّه الحملة إلى الإسكندرية للسيطرة عليها وعلى السواحل المصرية، وبخاصة أنه توافر من السفن ما يكفي لاجتياز فروع النيل، وأن من شأن هذه الخطوة أن تعزل مصر عن العالم الخارجي وتحرمها من نشاطها التجاري، كما أنها تُشكِّل مفاجأة للصالح أيوب الذي يضطر عندئذٍ إلى طلب الصلح، لكن البعض الآخر، ومنهم روبرت كونت أرتوا شقيق الملك، فضَّل الزحف نحو القاهرة، ومال الملك إلى رأيه[٤].

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٤٥٣. (٢) المقريزي: جـ١ ص٤٣٩.

(٣) يذكر جوانفيل أن الملك الفرنسي رفض مغادرة دمياط حتى يحضر أخوه كونت بواتييه بمن تبقَّى معه من القوات الفرنسية. ص١٠١.

(٤) المصدر نفسه: ص١٠٢، ١٠٣.

الصليبيون يزحفون إلى القاهرة

انتقل الصليبيون إلى الضفة الشرقية للنيل تاركين الأطفال والنساء في دمياط فضلاً عن حامية قوية، وشرعوا في الزحف نحو القاهرة عن طريق المنصورة[١]. وتوفي في هذا الوقت الصالح أيوب في المنصورة، وجاءت وفاته في تلك الظروف الحرجة خسارة كبيرة لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة الصليبيين، لكن ظهرت فجأة زوجته شجر الدر وقد قدَّرت خطورة الموقف، فأخفت موت زوجها خشية من تضعضع صفوف المسلمين، وأرسلت في الوقت نفسه تدعو ابنه المعظم تورانشاه، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة، من حصن كيفا للقدوم إلى مصر على عجل ليتولى الحكم[٢]. وقامت هذه السيدة بإدارة الشؤون العامة في هذه المدة الانتقالية بالاشتراك مع الوزير فخر الدين يوسف. وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها فقد علم الصليبيون بخبر الوفاة، فانتهزوها فرصة لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين قبل أن يفيقوا من أثر الصدمة، ويستكملوا استعداداتهم، إذ أن هذه الحكومة المؤلفة من امرأة ووزير كهل لن تلبث أن تنهار، وأصرُّوا على الزحف نحو القاهرة، والمعروف أن الطريق الذي اختاروه وسلكوه من دمياط إلى المنصورة، كثير الترع، ويعترضه عدد لا حصر له من القنوات وفروع النيل، كان أكبرها البحر الصغير أو جزيرة دمياط، وهو عبارة عن مثلث تقع المنصورة في رأسه الجنوبي الغربي، أي عند نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط، ومعنى ذلك أن بحر أشموم كان يعترض طريقهم خلال زحفهم[٣]، وهذا ما أعطى فخر الدين يوسف فرصة طيبة لاستغلال تلك الظروف الطبيعية لعرقلة الزحف، فأبقى معظم قواته خلف البحر الصغير، وأرسل عدداً من الفرسان لافتعال الاضطراب في صفوف الصليبيين عند اجتياز كل قناة، ثم نظَّم هجمات مفاجئة ضدهم، من ذلك ما حدث في (آخر شعبان/ ٧ كانون الأول) من قيام ستمائة فارس من الجيش الأيوبي بمهاجمة الصليبيين بين فارسكور وشرمساح[٤]، على أن ما من هجوم نجح في وقف الزحف الصليبي، وتقدم الملك لويس التاسع ببطء وحذر حتى وصل إلى البرامون الواقعة بين شرمساح والمنصورة في (٧ رمضان/ ١٤ كانون الأول) وعسكر على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة، وفصله بحر أشموم عن المسلمين[٥].

---

(١) مذكرات جوانفيل: ص١٠٣.

(٢) النويري: جـ ٢٩ ص٣٣٦، ٣٣٧. المقريزي: جـ١ ص٤٤١.

(٣) عاشور: جـ٢ ص١٠٦٦.

(٤) مذكرات جوانفيل: ص١٠٧، ١٠٨.

(٥) المصدر نفسه. المقريزي: جـ١ ص٤٤٦.

ولم تلبث الصعوبات أن واجهت الملك الفرنسي وجيشه عندما وجد نفسه شبه محصور في تلك المنطقة، لا يستطيع العبور إلى المنصورة، والمسلمون أمامه على الضفة الغربية للنهر، لكن ما قامت به الخيالة الأيوبية من محاولة لاجتياز البحر الصغير لمهاجمة مؤخرة الجيش الصليبي، أحبطها الصليبيون.

وفي (٤ ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ٨ شباط ١٢٥٠م) استطاع الجيش الصليبي أن يعبر بحر أشموم عن طريق مخاضة سلمون بمساعدة أحد الأقباط[١] وفاجأ الداوية المعسكر الأيوبي، وافتقر فخر الدين يوسف إلى الوقت اللازم لجمع رجاله لصدِّ الهجوم، ولم يلبث أن وقع في كمين نصبه له الداوية، وتفرَّق المسلمون يميناً وشمالاً، وقُتل على الأثر عدد كبير منهم وهرب آخرون إلى المنصورة ليحتموا وراء أسوارها «وكادت أن تكون الهزيمة بالكلية»[١].

هزيمة الصليبيين في المنصورة

أضحى لروبرت أرتوا السيطرة على المعسكر الأيوبي، فاغتر بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الداوية بأن ينتظر وصول الملك مع الجيش الرئيس، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر باقتحام المنصورة. تولى ركن الدين بيبرس عملية الدفاع عن المدينة وهو أحد قادة المماليك الصالحية، نسبة إلى الصالح أيوب، فوزَّع رجاله على نقاط التقاطع في الشوارع ثم ترك الفرسان الصليبيين يتدفقون على المدينة مجتازين الباب الوحيد الذي أمر بفتحه، وإذ توغل هؤلاء داخل المدينة ووصلوا إلى أسوار القلعة، انقضَّ عليهم المماليك من الشوارع الجانبية، فارتبك هؤلاء ووقعوا على الفور في الفوضى والاضطراب، ولم ينج منهم إلا عدد قليل، وهكذا قُضي تماماً على مقدمة الجيش الصليبي، وكانت المنصورة مقبرته[٢]، و«أول ابتداء النصر على الفرنج»[٣].

جزع الملكَ لويس التاسع لتلك الصدمة لكنه تمالك نفسه، وبادر إلى إقامة خط أمامي لمواجهة ما يتوقعه من هجوم من قِبل فرسان المماليك ضد قواته، كما أقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله، ووزَّع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه، وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي في (٧ ذي القعدة/ ١١ شباط)، وقاد الملك المعركة بنفسه وأجبر المسلمين

(١) مذكرات جوانفيل: ص١١٤، ١١٥، ١٢٣ ـ ١٢٥. المقريزي: جـ١ ص٤٤٨.
(٢) Grousset: III p465.
(٣) المقريزي: جـ١ ص٤٤٨.

على التراجع نحو المنصورة[1].

تورانشاه يقود المعركة النهائية ضد الصليبيين

على الرغم من الانتصار الصليبي إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة بعد أن قلّت المؤن، وفقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض بين صفوفهم، وظلَّ الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع في معسكره أمام المنصورة، آملاً بأن يحدث انقلاب في مصر أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي.

ووصل تورانشاه في هذه الأثناء إلى المنصورة في (١٧ ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ٢١ شباط ١٢٥٠م) بعد أن أُعلن سلطاناً في دمشق وهو في طريقه إلى مصر، فأُعلنت عندئذٍ وفاة الصالح أيوب، وسلّمته شجر الدر مقاليد الأمور في مصر، فأعدَّ خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين[2]. وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين وبين صفوف المماليك «وتيَّمن الناس بطلعته»[3]. فأمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة ثم نقلها إلى فروع النيل السفلى، وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق عليها وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط[4]. وفَقَدَ الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قدَّرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة «وانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون وطمعوا فيهم»[5].

أدرك الملك لويس التاسع عندئذٍ استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الأوضاع، وبدأ يفكر بالعودة إلى دمياط، وفعلاً أمر بالارتداد «وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم ليفرُّوا إلى دمياط»، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يُطاردون جيشه، لذلك لجأ، قبل أن يبدأ عملية الانسحاب، إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[6]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة،

---

(١) مذكرات جوانفيل: ص١٣١ ـ ١٣٦.

(٢) النويري: جـ ٢٩ ص٣٥٤. المقريزي: جـ١ ص٤٤٩.

(٣) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص٣٦٤.

(٤) المقريزي: جـ١ ص٤٥٠. عاشور: جـ٢ ص١٠٧١.

(٥) المقريزي: جـ١ ص٤٥٠، ٤٥١. واستضرى: من ضري بمعنى اشتد.

(٦) مذكرات جوانفيل: ص١٤٤. Grousset: III p479.

وكان طبيعياً أن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح، وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك.

وفي صباح (١ محرم ٦٤٨هـ/ ٥ نيسان ١٢٥٠م) بدأت عملية الانسحاب نحو دمياط، والواقع أنها كانت عملية هروب؛ فقد نسي المهندسون الصليبيون تدمير الجسر الذي أقاموه لاجتياز البحر الصغير، فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموهم من كل ناحية[١].

وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته لعملية الانسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح، لكن هذا الملك خرَّ مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفون أفراده، وشنوا عليهم هجوماً عاماً عند فارسكور، ولم يقو الملك على القتال، وتمَّ تطويق الجيش بأكمله، وحلَّت به هزيمة منكرة، وقع كل جنوده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، وكان الملك نفسه من بين الأسرى، فسيق مكبلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعُهد إلى الطواشي صبيح المعظمي بحراسته، وخُصِّص له من يقوم على خدمته[٢].

الملك لويس التاسع في الأسر

لم يهتم المسلمون كثيراً بعد انتصارهم، بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك، ففكَّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست من أملاكه بل تخص كونراد الرابع ابن الامبراطور فريدريك الثاني[٣].

وعبثاً حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف، لذلك أغفل هذا الموضوع، لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح، إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن:

- يُفدي نفسه بأن يؤدي مبلغاً قدره خمسمائة ألف ليرة تورناوية، أي ما يقابل مليون بيزنتة، وهذا مبلغ كبير.
- يُطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.
- يُسلِّم دمياط إلى المسلمين.
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات[٤].

---

(١) مذكرات جوانفيل: ص١٤٥، ١٤٦. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٣٦٤.

(٢) النويري: جـ٢٩ ص٣٥٦. المقريزي: جـ١ ص٤٥٥. مذكرات جوانفيل: ص١٤٧.

(٣) مذكرات جوانفيل: ص١٥٧، ١٥٩ ـ ١٦١.

(٤) زيادة، محمد مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر ص٢٠٦. نسيم: ص٦١. رنسيمان: جـ٣ ص٤٦٧.

وافق الملك لويس التاسع على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها.

مقتل تورانشاه ـ نهاية حكم الأيوبيين في مصر

يبدو أن تورانشاه لم يكن رجل الساعة المطلوب، فقد اشتهر بأنه شخصية عابثة، اتصف بسوء الخلق والتصرف، والجهل بشؤون الحكم والسياسة، وبدت منه أمور نفَّرت القلوب، إنه ازداد غروراً بالنصر الذي حقَّقه، وتناسى ما أبلاه مماليك أبيه من صدِّ الصليبيين، فلم يُقدِّر ثمن هذا النصر كما لم يُقدِّر جهودهم في الحفاظ على نظام الحكم كي يؤمِّنوا الملك له.

والواضح أن تورانشاه فَقَدَ ثقته بهم بعد انتصاره على الصليبيين عندما شعر بأنه يملك من القوة ما يكفي لأن يملأ الوظائف الحكومية بمماليكه الذين اصطحبهم معه من الحصن، وعندما احتجَّ هؤلاء ردَّ عليهم بالتهديد والوعيد، ثم أعرض عنهم، وأبعدهم عن المناصب الكبيرة، وجرَّدهم من مظاهر السلطة، وأخيراً أمر باعتقالهم، كما تنكَّر لشجر الدر التي حفظت له ملكه، فاتهمها بأنها أخفت ثروة أبيه، وطالبها بهذا المال وهدَّدها حتى داخلها منه خوف شديد(١)، ما حملها على بث شكواها إلى المماليك البحرية(٢) الذين يخلصون لها بوصفها زوجة أستاذهم(٣).

ويبدو أن تورانشاه، بالإضافة إلى ضعف شخصيته وسلوكه السيء، قد تأثَّر بآراء مماليكه، وقد أثاروا ضغينته على البحرية وشجر الدر، وحثُّوه على التخلص منهم حتى يتفرَّدوا بمشاركته في الحكم وإدارة شؤون الدولة(٤).

نتيجة لهذه السياسة الحمقاء، حنق المماليك البحرية عليه، وتخوَّفوا من نواياه، واستقر رأيهم على قتله قبل أن يبطش بهم، وساندتهم شجر الدر التي باتت تخشى على نفسها من غدره.

تزعَّم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي، وبيبرس

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٦ ص٣٧١.

(٢) تعدَّدت التفسيرات لاسم البحرية الذي أُلصق بمماليك الصالح أيوب وبدولة المماليك الأولى، وقد سميت هذه الطائفة بالبحرية نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، وهناك رأي آخر يذهب بعيداً عندما نَسَبَ هذه التسمية إلى الطريق البحري الذي سلكه المماليك من أسواق النخاسة في بلادهم بالقوفار وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأسود إلى مصر حتى الإسكندرية ودمياط.

(٣) كانت علاقة المملوك بسيده أو أستاذه تُسمَّى في المصطلح المملوكي بالأستاذية، في حين كانت رابطة الزمالة التي تربط المملوك بزميله في الخدمة تُسمَّى الخوشداشية، وكانت هاتان العلاقتان من أقوى الروابط التي قامت عليها دولة المماليك.

(٤) العريني، السيد الباز: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون ص١٥٢.

البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأيبك التركماني، وتمَّ تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الاثنين (٢٨ محرم ٦٤٨هـ/ ٢ أيار ١٢٥٠م) في فارسكدر[١]. وبمقتل تورانشاه ينتهي حكم الأيوبيين في مصر.

الجذور التاريخية للمماليك

اضطر الأمراء الأيوبيون إلى الاستعانة بالمماليك الأتراك في ظل النزاعات والفوضى الأسرية التي عمَّت العلاقات بين مختلف المناطق التي يحكمها هؤلاء، فأكثروا من شرائهم مُكونين منهم عصبة تشد أزرهم، وكانت مصادرهم آنذاك بلاد ما وراء النهر.

وشيَّد لهم الصالح أيوب قلعة خاصة في جزيرة الروضة وأسكنهم بها، وتلقَّى المماليك تربية متقنة في الطباق قائمة على الفروسية والنظام العسكري الصارم المرتبط بالإقطاع العسكري ما أوجد لهم بيئة اجتماعية خاصة بهم، فلم يختلطوا بسكان مصر، ولم يتزوجوا بالنساء المصريات، وأشهر ما انفردوا به، ابتعادهم وترفعهم عن الناس، وانقسامهم إلى طوائف وشيع لكل طائفة منهم زعيم، وكان رجال الدين واسطة الاتصال بينهم وبين الشعب، وكان النزاع الذي ينشب بين هذه الطوائف سبباً في تعكير صفو الحياة العامة والإدارة الحكومية. لقد فرضوا أنفسهم بقوة الجيش الذي استغل أفراده موارد البلاد بتعسُّف، إلا أنهم أنفقوا محلياً جميع الأرباح التي حقَّقوها.

واتصف المماليك بعدم عنايتهم بالوراثة، فكان الامير الأقوى يخلف سيده على العرش مع بعض الاستثناءات، وعدُّوا التاج وقفاً عليهم وملكاً لهم، وبكونهم أمة نجد أن ما كمن في نفوسهم من الخيانة والتآمر ضد بعضهم البعض، لا يحتاج إلى استدلال وبخاصة في أواخر أيامهم وإن ظهر بينهم حكام مستنيرون صالحون.

قيام دولة المماليك البحرية

أضحى المماليك بعد مقتل تورانشاه أصحاب الحل والعقد، وكان من الطبيعي أن يطمع كل أمير في تبوُّء عرش السلطنة الشاغر، كما وُجد على الساحة السياسية الملوك الأيوبيون خارج مصر وقد استاءوا من إقدام المماليك على قتل أحد ملوكهم، واستئثارهم بالسلطة. كان من الطبيعي أن يتنافس الأمراء المماليك على

---

(١) ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: ص٤٨ ـ ٥٠. النويري: جـ٢٩ ص٣٦٠، ٣٦١. العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: جـ١ ص٢٦، ٢٧. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٣٧١، ٣٧٢.

السلطة، وقد رأى كل منهم في نفسه الشرعية لأن يلي عرش السلطنة بعد تورانشاه. وأخيراً قرَّروا حل المشكلة الناجمة عن شغور العرش، فاختاروا شجر الدر، أم خليل بن الصالح أيوب، لتولي العرش وذلك في (٢ صفر ٦٤٨هـ/٦ أيار ١٢٥٠م)[١].

وكانت شجر الدر من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب وحظيت عنده، فأعتقها وتزوجها، لذلك فهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك، وعدَّها المقريزي أولى سلاطين المماليك[٢].

ويبدو أن الصلة السياسية التي ربطتها بالصالح أيوب قد انتهت بوفاته وتولية ابنه تورانشاه من بعده، وأنها أضحت حاكمة لمصر بوصفها من فئة المماليك وليس كفرد من أفراد البيت الأيوبي، بدليل أن الملوك الأيوبيين في بلاد الشام أبدوا معارضة قوية لحكمها، كما تعرَّض حكمها للنقد من قِبل الخليفة العباسي المستعصم الذي عاب على المماليك تنصيب امرأة في الحكم، وأدرك هؤلاء مدى ما وقعوا فيه من خطأ عندما ولُّوا عليهم امرأة، واقتنعوا بضرورة تغيير رأس السلطة، ورأوا للخروج من هذا المأزق أن تتزوج شجر الدر من الأمير عز الدين أيبك وتتنازل له عن الحكم.

استجابت شجر الدر لمطلب الأمراء، فخلعت نفسها من السلطنة في (ربيع الآخر/تموز) وتزوَّجت الأمير عز الدين أيبك، وقد دام حكمها ثلاثة أشهر[٣]، واعتلى عز الدين أيبك الحكم في مصر وتلقَّب باللقب السلطاني «المعز أيبك»، وعلى هذا الشكل قامت دولة المماليك البحرية في مصر.

ظهور المغول على المسرح السياسي

لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل الرحَّل نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وهي أراض واسعة تنعدم المياه في بعض جهاتها، وعاشت هذه القبائل على روافد نهر عامور وشغلت الأراضي الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب وجبال كنجان في الشرق على حدود منشوريا[٤].

كانت هذه القبائل في حال حرب دائمة مع جيرانها التتار النازلين إلى الشرق منهم، والمعروف أن كابل خان جد يسوكاي نظَّم هذه القبائل في حلف مفكَّك، غير

(١) ابن إياس: جـ١ قسم١ ص٢٦٨.
(٢) السلوك: جـ١ ص٣٦١.
(٣) النويري: جـ٢٩ ص٣٦٣، ٣٦٤.
(٤) الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم: جـ١ ص٦٠. يُحدِّد الجويني المنطقة التي عاش فيها المغول.

أن مملكته تداعت بعد وفاته، فاستطاع امبراطور الصين الشمالية ألتان خان أن يوطد سيادته على كل المنطقة(١).

لم يرث يسوكاي إلا شطراً صغيراً من الحلف القديم، غير أنه زاد في سلطانه وذيوع شهرته نتيجة ما أنزله من هزيمة ببعض قبائل التتار، بالإضافة إلى تدخله في أمور خان الكرايت طغرل(٢)، ما أدّى إلى قيام تحالف بين الطرفين على أن يكونا يداً واحدة(٣)، غير أنه توفي قبل أن يستقر خاناً أعظم للمغول، إذ دسَّ له بعض التتار السم، ولم يتجاوز ابنه الأكبر تيموجين التاسعة من عمره، وذلك في عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)(٤). غير أن ما اشتهرت به زوجة يسوكاي من الحيوية، حفظ لابنها الخان الصغير تيموجين قدراً من السيطرة على قبائل أبيه، والواقع أن طفولته كانت عاصفة بسبب تعرضه وإخوته وأمه لغارات قبائل التايغوت الذين حرصوا على إذلالهم(٥).

ونبغ تيموجين وهو في السابعة عشرة من عمره، وبدأ نجمه يلمع، إذ استطاع بذكائه وحنكته أن يستقطب كبار رجال المغول من أتباع أبيه وأقنع أفراد عشيرته في الانضواء تحت لوائه، وعزم على إخضاع القبائل المنتشرة في صحراء جوبي(٦)، ثم تربع على عرش المغول بعد أن اختارته القبائل المغولية امبراطوراً عليها، وبعد أن تمَّ له ذلك اتخذ اسم جنكيزخان أي فاتح أو قاهر العالم، واتخذ مدينة قراقورم عاصمة لملكه(٧).

وضع جنكيزخان نصب عينيه هدفين: التوسع في الجنوب على حساب الصين الشمالية، ومطاردة أعدائه الفارين باتجاه غربي منغوليا والصين، وأهم هؤلاء قبائل القراخطاي(٨) الذين استولوا على الأقاليم الممتدة من بلاد الأيغور إلى بحر أرال، فهزم واي وانغ امبراطور الصين واستولى على عاصمته بكين في عام (٦١٢هـ/

---

(١) العريني، السيد الباز: المغول ص٤١ .Lamb, H: Jenghis khan p25

(٢) غروسيه، رينيه: جنكيزخان ص٣٥، ٣٦. والكرايت قبيلة مغولية غير أن كثيراً من زعمائها كانوا أتراكاً ما أدَّى إلى التباس المؤرخين بشأن أصلهم المغولي أو التركي. استوطنت هذه القبيلة الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي، وجنوبي بحيرة بيكال حتى سور الصين العظيم، واعتنق أفرادها الديانة المسيحية على المذهب النسطوري.

(٣) غروسيه: المرجع نفسه، ص٤٢ ـ ٤٣.

(٤) الجويني: جـ١ ص٦٩.

(٥) غروسيه: ص٨٦.

(٦) الجويني: جـ١ ص٧١.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) القراخطاي هم خليط من المغول والتانغوت، تقع منازلهم في أقصى الشرق في شمال الصين وجنوب منشوريا في الإقليم المعروف باسم ليائو.

١٢١٥م) ثم كرَّ على أعدائه في الغرب، فقهر كشلوخان زعيم الخطا، وكانت أملاكه تقع في إقليم ما وراء النهر[١] على حدود البلاد الإسلامية، واستولى جنكيزخان على بلاده فأضحت مملكته الواسعة تجاور أملاك الدولة الخوارزمية[٢].

ظروف توسع المغول باتجاه العالم الإسلامي

عقد جنكيزخان معاهدة تجارية مع الخوارزميين، وأرسل قافلة تجارية إلى غربي آسيا للتجارة في الأسواق الخوارزمية، وعندما وصلت إلى مدينة أوترار[٣]، أجهز أينال خان حاكم المدينة عليها وقتل جميع أفرادها وسلب البضاعة[٤].

لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتغاضى عن هذه الإثارة وبخاصة بعد أن رفض السلطان الخوارزمي طلباً له بتسليمه حاكم أوترار، فجهَّز جيشاً جراراً هاجم الأراضي الخوارزمية، فسيطر على إقليم ما وراء النهر في عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) وسقطت العاصمة الخوارزمية في يده[٥].

وتوفي السلطان علاء الدين الخوارزمي في إحدى جزر بحر قزوين في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) فاراً من وجه المغول الذين استولوا على خراسان[٦]، وفي عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) غادر جنكيزخان الأقاليم الغربية بعد أن ثبَّت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخراسان بشكل نهائي.

تصفية الموقف مع الصليبيين

قبضت شجر الدر على زمام الأمور في مصر بقوة، واشتهرت بحسن السياسة، وعندما استقرت في الحكم أنعمت على الأمراء بالوظائف السنية، وأقطعت المماليك البحرية الإقطاعات الكبيرة، وأغدقت الأموال على الجند حتى أرضت الكبير والصغير منهم[٧].

كانت فاتحة أعمال السلطانة الجديدة، إنهاء المفاوضات التي بدأت مع الصليبيين في عهد تورانشاه، الذين ما زالوا يحتلون دمياط، والإشراف على رحيلهم. حقيقة

---

(١) هو نهر جيحون.

(٢) الجويني: جـ١ ص٧٥. حافظ، حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١١٤. وخوارزم إقليم يقع في المجرى الأسفل لنهر جيحون، ويُكوِّن دلتا خصبة.

(٣) تقع أوترار على الساحل الغربي لنهر سيحون وتعدُّ نقطة التقاء الطرق التجارية بين شرق آسيا وغربها.

(٤) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي: ص٨٦.

(٥) الجويني: جـ١ ص١١٠ ـ ١٣٥.

(٦) النسوي: ص٢٣.

(٧) ابن إياس: جـ١ قسم ١ ص٢٨٦.

إن الملك الفرنسي كان أسيراً في يد المسلمين في المنصورة، لكن دمياط ظلت قاعدة بحرية في قبضة الصليبيين الفرنسيين ما يشكل تهديداً مباشراً لمصر والمماليك معاً وبخاصة إذا ما تحرك الغرب الأوروبي وأرسل حملة صليبية أخرى إليها.

لذلك أخذت شجر الدر تسعى لحل هذه المعضلة بعد أن استقرت الأمور لها في الداخل. وهكذا استؤنفت المفاوضات بين الجانبين، ومثَّل الأمير حسام الدين محمد بن علي الهذباني المماليك، في حين انتدب الملك الفرنسي وليم أمير الأراضي الواطئة، وجان كونت سواسون، وبلدوين دبلين وشقيقه غي[1]، وبعد مفاوضات مضنية، حيث كان الصليبيون في وضع حرج لا يسمح لهم بالمناورة، فرض المماليك شروطهم التي اتسمت بالقسوة البالغة وتمَّ الاتفاق على ما يلي:

على الملك الفرنسي أن:

- يُعيد مدينة دمياط إلى المسلمين.
- يُطلق سراح الأسرى المسلمين لديه.
- لا يهاجم السواحل الإسلامية مرة أخرى.
- يَدفع مبلغ خمسمائة ألف دينار مقابل إخلاء سبيله وسبيل الأسرى المسيحيين منذ عهد العادل الأول الأيوبي من جهة، وتعويضاً عما أحدثه الصليبيون في دمياط من النهب والتخريب خلال إقامتهم بها من جهة أخرى.
- يُدفع نصف المبلغ المتفق عليه فوراً وقبل إطلاق سراحه، ويُدفع النصف الآخر بعد مغادرته مصر ووصوله إلى عكا.

وفي المقابل:

- يتعهد المسلمون من جانبهم برعاية مرضى الصليبيين في دمياط والمحافظة على معدات الصليبيين حتى تحين الفرصة لأخذها.

وتحدَّدت مدة المعاهدة بعشر سنوات[2].

بعد أن تمَّت الموافقة بين الجانبين على البنود الواردة أعلاه، قامت الملكة مارغريت دي بروڤانس التي كانت ترافق زوجها، بجمع نصف الفدية المتفق عليها، ثم أبحرت إلى عكا، وفي صباح (٣ صفر٦٤٨هـ/٧ أيار ١٢٥٠م) أرسل الملك لويس التاسع غودفروا دي ساجين إلى دمياط لتسليمها إلى المسلمين، وفعلاً دخلت العساكر الإسلامية إلى المدينة، ثم أُخلي سبيل الملك الفرنسي وأمرائه وعدد كبير من بارونات الصليبيين وكبار فرسانهم بعد دَفْع نصف الفدية، وظلَّ باقي الأسرى في

---

(١) المقريزي: جـ١ ص٣٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٦٣. ابن تغزي بردي: جـ٦ ص٣٦٨. جوانفيل: ص١٤٤، ١٤٥.

الأسر حتى يتم دفع كامل المبلغ المتفق عليه[1].

وأبحر الملك لويس التاسع إلى عكا مع أتباعه في (٤ صفر ٦٤٨هـ/ ٨ أيار ١٢٥٠م)، فانتهت بذلك الحملة الصليبية السابعة التي رافقت أحداثها نهاية الدولة الأيوبية في مصر وقيام دولة المماليك، غير أنها تركت ذيولاً اضطر الملك الفرنسي بسببها أن يبقى في بلاد الشام مدة أربع سنوات.

الملك لويس التاسع في بلاد الشام

وصل الملك لويس التاسع إلى عكا في (٩ صفر ٦٤٨هـ/ ١٣ أيار ١٢٥٠م) فاستُقبل بحفاوة المنقذ[2]، وكان الصليبيون في بلاد الشام قد ضعفوا بعد هزيمتهم في فارسكور وبخاصة أنهم خسروا زهرة فرسانهم وعماد قوتهم، ودبَّ اليأس إلى نفوسهم، كما حُرموا من كل عساكرهم، ومن النجدة الصليبية التي أملوا بأن تُنقذ وضعهم المتداعي في الشرق، ما جعلهم يعيشون في هذه المرحلة من تاريخهم تحت رحمة ما يستجد من تطورات وأحداث، وازداد وضعهم سوءاً بسبب عدم وجود قائد يُوحِّدهم ويُنظم وجودهم ويحل ما ينشب من خلافات بينهم، فرحَّبوا من أجل ذلك بالملك الفرنسي الذي سرعان ما أضحى خلال المدة التي قضاها في بلاد الشام وهي أربع سنوات، الحاكم الفعلي للصليبيين في تلك البلاد والملك غير المتوج على مملكة بيت المقدس.

وعقد الملك الفرنسي مجلساً عسكرياً في عكا في (٢٤ ربيع الأول/ ٢٦ حزيران) للتشاور في الخطط المقبلة، وتلقى في غضون ذلك رسالة من والدته بلانش القشتالية تطلب منه أن يعود إلى بلاده على وجه السرعة لأن الإنكليز استغلوا غيابه عنها وأغاروا على أراضيه، فضلاً عما كان في فرنسا من مشكلات كثيرة أخرى ملحة، وتناقش المجتمعون في موضوع العودة، فانقسموا بين مؤيد ومعارض، واشترط المؤيدون أن يعود على رأس حملة جديدة تُدعم مركز الصليبيين في بلاد الشام، ونادى المعارضون وعلى رأسهم المؤرخ جوانڤيل بأن وجوده في بلاد الشام ضروري في تلك الأزمة التي يمر بها الصليبيون، فاستجاب لرأي جوانڤيل وقرَّر البقاء في الشرق وترك لأمرائه ولرجاله حرية البقاء معه أو العودة إلى فرنسا[3].

---

(١) ابن تغزي بردي: جـ٦ ص٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) مذكرات جوانڤيل: ص١٨٥.

(٣) مذكرات جوانڤيل: ص١٨٩ ـ ١٩٧. Estoire d'Eracles: II pp 662, 623.

ويبدو أنه واجه مشكلة عدم تحقيقه أي إنجاز يمحو ذكريات المنصورة وهزائمها، إذ أن خسارته في مصر دمَّرت جيشه وحرمت الصليبيين في الشرق من كل عساكرهم، ورأى أن واجبه أن يبقى في مكان قريب حتى يتم إطلاق سراح آخر أسير في مصر، وأذاع قراره في (١ ربيع الآخر/٣ تموز)، وبعث إلى بارونات فرنسا رسالة يشرح فيها ما اتخذه من قرار ويلتمس إرسال إمداد للحملة الصليبية.

وبذل الملك الفرنسي، خلال إقامته في الشرق، جهداً في:

١ ـ الاحتفاظ بالكيان الصليبي وسط الخلافات التي تأجَّجت بين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر.

٢ ـ تصفية الخلافات بين الأمراء الصليبيين.

٣ ـ القيام بمحادثات مع المغول لربطهم بالحرب الصليبية.

٤ ـ التحالف مع طائفة الحشيشية.

ففيما يتعلق بالمهمة الأولى، فقد اهتم بتنظيم الدفاع عن الممتلكات والمدن الصليبية، وبخاصة عكا في ظل النزاع المستحكم بين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام، وبخاصة الناصر يوسف صاحب حلب والمماليك في مصر، فحصَّن عكا ويافا بعد أن انتزعها من الأيوبيين، وقيسارية. ولم تلبث أن ظهرت أهمية هذه التحصينات عندما عُقِد الصلح بين الأيوبيين والمماليك، وتفرغ الطرفان لحرب الصليبيين وطردهم من بلاد الشام. والواقع أن ما حصل في مصر من ثورة المماليك لم تُرض الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام وعلى رأسهم الناصر يوسف، فتحرك باتجاه مصر لاستعادتها، فدخل دمشق في (٧ ربيع الآخر/٩ تموز) ثم شرع في الإغارة على مصر والتقى في (٩ ذي القعدة ٦٤٨هـ/٢ شباط ١٢٥١م) بالجيش المملوكي بقيادة عز الدين أيبك عند العباسة في الدلتا، تعرض خلاله للهزيمة ولاذ بالفرار، عندئذٍ راح يبحث عن حلفاء يتقوَّى بهم، فالتمس المساعدة من الصليبيين وعلى رأسهم الملك الفرنسي لويس التاسع، فأجرى معه مباحثات أبدى خلالها استعداده للتنازل عن بيت المقدس للصليبيين مقابل مساعدته في حرب المماليك واستعادة مصر. فاستغل الملك الفرنسي هذا النزاع لمصلحة الصليبيين، فأرسل سفارة إلى القاهرة ينذر أيبك بأنه ما لم يتم على الفور تسوية مشكلة الأسرى الصليبيين فإنه سوف يتحالف مع الناصر يوسف. ونجح سفيره يوحنا فلنسيين في إطلاق سراح بعضهم، ويبدو أن أيبك أراد أن يُمتِّن أواصر الصداقة مع الملك الفرنسي فأرسل إليه هدية تتألف من فيل وحمار وحشي، عندئذٍ تجرَّأ هذا الملك وطلب إطلاق سراح ما تبقَّى من الأسرى من دون مقابل

مادي، وعمد في الوقت نفسه إلى فتح باب المفاوضات مع دمشق بهدف الضغط على السلطان المملوكي.

وأسرع أيبك إلى الاستجابة، وتمخَّضت المفاوضات بين الجانبين عن عقد معاهدة في عام (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) موجَّهة ضد الناصر يوسف تقضي بإطلاق الأسرى الصليبيين وإعفاء الملك الفرنسي من دفع بقية المبلغ الخاص بالفدية، وتعهد أيبك بإعادة بيت المقدس إلى الصليبيين.

ويبدو أن التحالف المملوكي الصليبي لم يؤد إلى شيء من النتائج، إذ اتفق الطرفان بعد توقيع المعاهدة على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام، وكان الخليفة العباسي المستعصم حريصاً على توحيد العالم الإسلامي لمواجهة المغول، فنجح في عقد صلح بين الطرفين المتنازعين.

وأغار الأيوبيون على يافا في (٦ ربيع الأول ٦٥١هـ/ ٦ أيار ١٢٥٣م) وكانت قوية التحصين، فتركوها ويمَّموا وجههم صوب عكا، فطلبوا من أهلها خمسين ألف دينار مقابل عدم تدمير مروجها ومزارعها المحيطة بها، فتصدَّت لهم حاميتها وأجبرتهم على الانسحاب، فتوجَّهوا إلى صيدا ودخلوها في (ربيع الآخر/ حزيران) وعادوا إلى دمشق محملين بالغنائم والأسرى(١).

وأراد الملك الفرنسي أن ينتقم من الأيوبيين، فهاجم بانياس التابعة لدمشق، وفصل فرقة عسكرية أرسلها إلى نابلس للاستيلاء عليها وكانت تابعة للمماليك، ولا يوجد سبب واقعي لتبرير هذا العدوان على نابلس سوى حنق الملك الفرنسي على المماليك لأنهم تخلوا عنه وعقدوا الصلح مع الأيوبيين وتركوه وحيداً أمام الجبهتين(٢).

نجح الصليبيون في اقتحام نابلس، وفرَّ سكانها إلى قلعة الصُبيَّة، وعندما حاول الصليبيون مهاجمتها ردَّتهم حاميتها، فعادوا إلى صور، وقد أفاد الملك الفرنسي من هذه التجربة فحصَّن مدن الساحل كلها الواقعة تحت سيطرة الصليبيين.

وفيما يتعلق بالمهمة الثانية، فقد باشر الملك سلطاته كاملة بوصفه زعيماً للصليبيين في الشرق، وأخذ يعمل على رفع روحهم المعنوية وفضِّ ما يشجر بينهم من خلافات بحيث يمكن القول بأنه كان ملكاً غير متوج على مملكة بيت المقدس الصليبية، ولم تستطع أي طائفة أو هيئة من الهيئات الدينية العسكرية، أو أي أمير من الأمراء الصليبيين في بلاد الشام، أن يعصى له أمراً أو يرد له طلباً، وأظهر الحزم في معاملة الأطراف كافة ما جعل الجميع يهابونه، من ذلك أنه فرض عقوبة قاسية على الداوية بعد أن سمح رئيسهم لنفسه أن يُجري مباحثات شخصية مع

---

(١) Grousset: III p503.

(٢) عاشور: جـ٢ ص١٠٩٤.

الناصر يوسف الأيوبي من دون أن يستأذنه، وعدَّ ذلك خروجاً على سلطته علماً بأن الداوية لم يوافقوا على محالفته للمماليك من أجل إطلاق سراح أسرى الصليبيين، ويرون في محالفة الأيوبيين في دمشق خير سند للصليبيين في بلاد الشام.

وتدخَّل الملك الفرنسي فيما شجر من خلاف في وجهات النظر بين بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس وبين والدته، ذلك أن بوهيموند الخامس توفي في عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) وخلفه ابنه الوحيد بوهيموند السادس وكان في الرابعة عشرة من عمره، فتولت والدته لوسي الوصاية عليه واختارت الإقامة في طرابلس، وتركت أنطاكية وشأنها، فدبَّت فيها الفوضى، وأضحت مسرحاً لنزاع مختلط سياسي وعنصري ومذهبي بين المستوطنين الصليبيين وبين البيزنطيين(١).

ويبدو أن بوهيموند السادس لم يرض عن تصرف والدته التي أدَّت إلى النزاع الداخلي والفوضى، فانتهز فرصة ذهابه معها لزيارة الملك في يافا سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) وشكاه سوء تصرفها، فأشار الملك على لوسي أن تترك ابنها يقيم في أنطاكية ما دامت هي تُفضل البقاء في طرابلس، وأن تُزوده بالمال والرجال حتى يستطيع حماية أنطاكية وتنظيم أمورها.

وتوسط الملك لويس التاسع بين إمارة أنطاكية وإمارة أرمينية الصغرى، بعد عداوة طويلة الأمد بينهما ما أتاح للمسلمين تحقيق مكاسب على حساب القوى المسيحية في شمالي بلاد الشام، لذلك لم يكد يصل إلى قبرص في عام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) حتى أقرَّ الصلح بين بوهيموند الخامس أمير أنطاكية وطرابلس وبين هيثوم الاول ملك أرمينية الصغرى.

وفيما يتعلق بالمهمة الثالثة، كان أول رد فعل إيجابي من المغول تجاه الغرب الأوروبي، مرتبطاً بحملة الملك الفرنسي لويس التاسع على مصر، فخلال وجوده في قبرص، استقبل في (شعبان ٦٤٦هـ/ تشرين الثاني ١٢٤٨م) مبعوثين نسطوريين هما داوود ومرقص موفدين من إيلجيكداي حاكم فارس يحملان إليه رسالة تضمَّنت كلاماً يثير الدهشة. فقد ورد فيها أن الخان الأعظم كيوك وبعض رجاله البارزين ومنهم إيلجيكداي نفسه، قد اعتنقوا المسيحية، وأن الخان الأعظم على استعداد لمساعدة الملك الفرنسي في غزو الأراضي المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، كما أن المغول قد خطَّطوا لغزو بغداد في الوقت الذي يهاجم فيه الملك الفرنسي مصر حتى لا تساعد القوات الأيوبية في مصر وبلاد الشام الخليفة العباسي، ويُعدُّ ذلك في حال ثبوته تحوُّلاً جذرياً في موقف المغول الذي أبلغ للبابا إنوسنت

(١) Estoire d'Eracles: II p440. Grousset: III p513.

الرابع من قبل، وهو رفض دعوة البابا الدخول في المسيحية وأن على ملوك الغرب الأوروبي أن يحضروا بأنفسهم ليقدموا فروض الولاء والطاعة للخان الأعظم ويركعوا أمامه ويؤدوا له الجزية عن رعاياهم، لكن ثمة شكوكاً كثيرة تحوم حول حقيقة إرسال هذين الرسولين بكتاب من قِبل أي قائد مغولي في وسط آسيا أو في آسيا الصغرى أو في قراقورم[(١)].

ومهما يكن من أمر، لم يكن أمام الملك الفرنسي إلا أن يستقبل السفيرين بالحفاوة ويستغل القضية المغولية لمصلحة الصليبيين، فأبدى استعداده للتحالف مع المغول والراجح أنه لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك، وأعدَّ سفارة من لدنه لمرافقة السفارة المغولية عند عودتها مُكَوَّنة من ثلاثة رهبان من جماعة الدومينيكان هم: أندريه لونجومو وأخوه غي ويوحنا كاركاسون، وقد تولى الأول رئاسة هذه السفارة نظراً لخبرته في السفر إلى المغول والتعامل معهم، إذ سبق له أن ترأس بعثة بابوية في عام (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) إلى المعسكر المغولي، وأرسل مع السفارة خيمة من قماش بلون قرمزي على شكل كنيسة صغيرة بهدف جذب أنظار المغول إلى الديانة المسيحية بالإضافة إلى بعض التماثيل والصور المتعلقة بالديانة المسيحية.

غادرت السفارة جزيرة قبرص إلى أنطاكية ومنها إلى الموصل ثم تبريز حيث معسكر إيلجيكداي، وعند هذه المرحلة، كان الموقف المغولي قد تغيَّر بفعل وفاة كيوك، فرأى القائد المغولي أن من الحكمة ألا يتصرف من تلقاء نفسه مع السفارة الفرنسية، فوجَّه أعضاءها إلى قراقورم حيث الوصية على العرش المغولي، أقول قيميش أرملة كيوك، لأن الصراع على السلطة لاختيار خليفة للخان الأعظم كان على أشده، فاجتمعوا بها.

ويبدو أن السفارة لم تُحقِّق نتيجة حاسمة وسريعة لأن موقف الوصية على العرش كان ضعيفاً، ولم يختلف الرد الذي حمله أندريه لونجومو عن الردود المغولية السابقة إلى البابوية، ووصلت بعثة أندريه لونجومو ومعها الرد المغولي إلى قيسارية في (ذي الحجة ٦٤٨هـ/ آذار ١٢٥١م) حيث كان الملك الفرنسي، فصُدم بشدة مما حملته بعثته من أخبار محزنة، وهي أن المغول لم يُظهروا أي تعاطف مع المسيحيين في الغرب، الأمر الذي دفعه إلى أن يُوجِّه نظره إلى كتلة أخرى من المغول، هم مغول وسط روسيا، وبخاصة بعد أن تناهى إلى أسماعه عن طريق المسيحيين الشرقيين وبخاصة الأرمن عن حسن معاملة المغول لرجال الدين المسيحيين، وأن

---

(١) هلال، عادل إسماعيل محمد: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي ص٧١ ـ ٧٤.

سارتاك بن باطو وهو أحد أمراء المغول، قد اعتنق المسيحية، وأن عدداً من قادة المغول أبدوا استعدادهم لاعتناق الديانة المسيحية، وأنهم بحاجة إلى رهبان يعلمونهم أصول العقيدة المسيحية، وأن كثيراً من الأسرى المسيحيين من أصل أوروبي متواجدون في وسط آسيا وهم بحاجة إلى رجال دين لإقامة الشعائر الدينية.

دفعت هذه التطورات الدينية الراهب الفرنسيسكاني وليم روبروك للتطوع لهذه المهمة وباركها الملك الفرنسي وزوّده بالهدايا والرسائل لقادة المغول، وطلب منه الاطلاع على نواياهم تجاه الغرب الأوروبي وإمكان تحويلهم إلى المسيحية(١).

غادر وليم روبروك مدينة عكا في (أواخر ٦٥٠هـ/أوائل ١٢٥٣م) متوجهاً إلى القسطنطينية، وسار منها إلى شبه جزيرة القرم، فاجتمع بسارتاك بن باطو في معسكره بين الدون والڤولغا، وسلَّمه رسالة الملك لويس التاسع، وذلك في (جمادى الآخرة ٦٥١هـ/آب ١٢٥٣م). ويبدو أن الرسالة تضمَّنت قضايا لا يمكن لسارتاك اتخاذ قرار بشأنها قبل عرضها على والده، لذلك أرسله إلى مدينة سراي على نهر الفولغا للاجتماع بوالده، ويبدو أن باطو لم يستطع بدوره أن يفصل في الأمر، فأرسل أعضاء البعثة إلى قراقورم، فوصلوا إليها في (ذي الحجة ٦٥١هـ/كانون الثاني ١٢٥٤م) واجتمعوا بالخان الأعظم منكو في معسكره الذي يقع على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب من العاصمة المغولية. واعترض التعاون بين الجانبين عقبة لم يتيسر التغلب عليها، ذلك أن منكو لا يقبل أن يشاركه أحد في زعامة العالم ما أدَّى إلى فشل مهمة البعثة من الناحيتين الدينية والسياسية، فغادر وليم روبروك قراقورم في (رجب ٦٥٢هـ/آب ١٢٥٤م) عائداً من حيث أتى بعد أن أدرك، كما أدرك غيره من السفراء من قبله، أن ملوك الشرق لا يفقهون تقاليد السياسة الغربية أو مبادئها، حاملاً معه رسالة من منكو إلى لويس التاسع تتوافق في مضمونها مع الرسائل التي أرسلها كيوك وزوجته للبابوية ولويس التاسع من قبل(٢).

كانت مبادرة الملك لويس التاسع التبشيرية جزءاً من حربه الشعواء على المسلمين، ومن شدة ابتهاجه وابتهاج البابا إنوسنت الرابع باستنباط طريقة للتخلص من الإسلام، فاتهما أن يدركا أن المغول أشد خطراً على العالم المسيحي مما كان المسلمون في أي وقت مضى، وكان جنون الارتياب الغربي من التجذر العميق في النفوس بحيث أن اكتشاف وجود عِرق أشد شراسة وضراوة من المسلمين في الشرق،لم يُبدِّل شيئاً من تخيلات الغرب حول الإسلام التي يبدو أن الأيوبيين كانوا

---

(١) Rachewitze, Igorede: Papal Envoys to the Great Khans: pp 125, 128.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٥١٠، ٥١١ .Rubruck, w: The journey of William Rubruck pp 165 - 186

بحاجة إليها كثقل عاطفي موازن لنظرتهم هذه[١].

وفيما يتعلق بالمهمة الرابعة، فقد سعى الملك لويس التاسع إلى التحالف مع طائفة الحشيشية في بلاد الشام، بالإضافة إلى المغول لتحقيق نوع من التوازن بين الصليبيين من جهة والمماليك والأيوبيين من جهة أخرى[٢].

وحدث أن أرسل زعيم الحشيشية في بلاد الشام سفارة إلى عكا بعد كارثة دمياط، يطلب من الملك الصليبي عقد نوع من التفاهم والارتباط بين الطرفين[٣]، وربما هدف إلى التخلص من الإتاوة التي كان يدفعها للداوية والأسبتارية الذين تحكَّموا بطريق مواصلات الحشيشية مع داخل بلاد الشام من واقع امتلاكهم حصني صافيتا والأكراد، أو أنه أراد أن يستغل ضعف وضع الصليبيين في بلاد الشام لفرض الإتاوة على الملك لويس التاسع أسوة بما كان يدفعه كثير من ملوك وأمراء بلاد الشام من المسلمين والمسيحيين خشية على أنفسهم من اغتيالات تلك الطائفة[٤].

على أن سفارة الحشيشية التالية حملت إلى الملك لويس التاسع الهدايا ومشروعاً أكثر وضوحاً يقضي بإقامة تحالف وثيق بينهما، ويبدو أن هذه الطائفة أرادت أن تحمي نفسها من مضاعفات الوضع الجديد الناشيء عن قيام دولة المماليك القوية في مصر، ونظراً لما كان يعلمه عن العداوة بين الحشيشية الباطنية المذهب وبين المسلمين السنة فقد شجَّع خطوتهم، فأرسل ييف البريتوني للاتفاق على عقد المعاهدة، وقد استهوته المكتبة التي أقامها الحشيشية في مصياف، إذ عثر فيها على موعظة من سفر الأخبار وجَّهها السيد المسيح إلى القديس بطرس. وأدت هذه المفاوضات إلى تقوية أواصر الصداقة بين الطرفين[٥].

عودة الملك لويس التاسع إلى فرنسا ونتائجها

في الوقت الذي كان فيه الملك لويس التاسع يُرسل السفراء إلى المغول والحشيشية كان لزاماً عليه أن يغادر بلاد الشام، فقد توفيت والدته في (شعبان ٦٥٠هـ/ تشرين الأول ١٢٥٢م)[٦] وحلَّ إخوته محلها في الوصاية، إلا أنهم لم يُظهروا كفاءة للنهوض بأعباء الحكم ما أحدث اضطرابات داخلية، وفي الخارج أخذ

---

(١) أرمسترونغ، كارين: الحرب المقدسة ص٥٢١.

(٢) عاشور: جـ٢ ص١٠٩٧.

(٣) مذكرات جوانفيل: ص٢٠٣ ـ ٢٠٥. King: P249.

(٤) Michaud: IV pp 278, 279.

(٥) رنسيمان: جـ٣ ص٤٨١، ٤٨٢.

(٦) مذكرات جوانفيل: ص٢٦٢، ٢٦٣.

الملك الإنكليزي يغزو الأراضي الفرنسية ويُثير المتاعب لفرنسا على الرغم من اليمين التي بذلها للمضي في الحرب الصليبية، كما أنه لم يساند أساقفته الذين عهد إليهم البابا بالدعوة للحرب الصليبية. واندلعت الحرب الأهلية بسبب التنازع على إرث كونتية الفلاندر، وازدادت كراهية كبار الأتباع للمسير إلى الحرب الصليبية. وبدا تطور الأوضاع واضحاً في الشرق، فظهر الملك لويس التاسع في أواخر (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) وهو يستدين، فحصل على مائة ألف ليرة من الإيطاليين، وعندما نفدت النقود، أشار عليه بارونات بيت المقدس بالرحيل، فأقلع من عكا في (٤ ربيع الأول ٦٥٢هـ/ ٢٤ نيسان ١٢٥٤م)[١] ووصل إلى بلاده في شهر (جمادى الآخرة/ تموز)، وعيَّن قبل رحيله غودفري دي سارجين ممثلاً عنه في بلاد الشام وأبقى معه مائة من الفرسان، وأقام يوحنا إبلين كونت يافا وصياً على مملكة بيت المقدس الصليبية، وعقد اتفاقية هدنة مع الناصر يوسف صاحب دمشق في (١ محرم/ ٢١ شباط) لمدة سنتين ونصف، ويبدو أن صاحب دمشق أدرك مدى جدية الخطر المغولي الزاحف باتجاه الغرب، ففقد رغبته في قتال الصليبيين.

والواقع أن حملة الملك الفرنسي ورَّطت الصليبيين في الشرق في كارثة عسكرية مروعة، فعلى الرغم من أن إقامته مدة أربع سنوات في عكا أسهمت كثيراً في إصلاح الوضع الصليبي المتداعي، فإن ما حدث من خسارة في القوة البشرية لم يجر مطلقاً استردادها، وكان خيراً على الصليبيين في الشرق لو أنه لم يغادر، لأن رحيله عرَّض الصليبيين لخطر وقوع ضرر مباشر عليهم[٢].

ما إن غادر الملك الفرنسي بلاد الشام حتى دبَّت الفوضى في المجتمع الصليبي، فقد نشبت النزاعات بين الأمراء الصليبيين والتجار الإيطاليين والطوائف الدينية العسكرية في أشد الأوقات حرجاً، ولم يكن كل من ممثل الملك والوصي على بيت المقدس، يتمتع بالقدرة التي تكفل احترام الصليبيين له، هذا فضلاً عن أن الملك هنري لوزينان توفي في (ذي القعدة ٦٥٠هـ/ كانون الثاني ١٢٥٣م) تاركاً ابنه ووريثه هيو الثاني صغيراً لم يتجاوز عمره بضعة أشهر، ما جعل عرش مملكة قبرص الصليبية يبقى تحت الوصاية سنين طويلة.

وتطورت النزاعات بين الصليبيين وبخاصة بين الجنويين والبنادقة إلى حرب شوارع في عكا، أنهكت الصليبيين بعامة في بلاد الشام وأتاحت للمسلمين أن ينتزعوا منهم ما تبقَّى من مدنهم واحدة بعد أخرى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

وقد وجدت الجاليات الإيطالية الثلاث، جنوة وبيزا والبندقية، نفسها بعد انحلال

---

(١) مذكرات جوانڤيل: ص٢٦٨.
(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٤٨٤.

مملكة بيت المقدس مضطرة إلى رعاية مصالحها التجارية الخاصة، ثم إن عدم وجود سلطة عليا تُشرف على مصالح الصليبيين في بلاد الشام جعل هذه الجاليات تتحول إلى دويلات مستقلة تتبع المدينة الأم في إيطاليا، ولم يلبث الأمراء الصليبيون أن استعانوا بها في نزاعاتهم الداخلية، علماً بأن هذه الجاليات لم يكن يعنيها مصالح الصليبيين في الشرق بقدر اهتمامها بمصالحها الخاصة، من أجل ذلك لم تتحمَّس لشن حرب على المسلمين حرصاً منها على انتظام العلاقات التجارية مع العالم الإسلامي.

واشتد التنافس في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) بين الجنويين والبنادقة في عكا والذي يُعدُّ جزءاً من التنافس بين الجمهوريتين الإيطاليتين، وجرى قتال بينهما بسبب قتل أحد الجنويين بيد أحد البنادقة، لم يستمر طويلاً بفعل انهماك الصليبيين في الشرق بحملة الملك لويس التاسع.

وتجدَّد القتال في عام (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) وتمحور حول امتلاك مرتفع من الأرض بفصل الحيين الجنوي والبندقي في المدينة يقوم عليه دير قديم منسوب إلى القديس سابا، يُشرف على الميناء، ويُمكِّن صاحبه من التحكم فيه، فلجأ الجنويون إلى امتلاكه وتوغلوا في الحي البندقي حتى كنيسة القديس مرقص، واستولوا على جميع السفن البندقية الراسية في الميناء[1].

وتوسعت الأزمة في العام التالي لتتحول إلى حرب القديس سابا، وحدث ذلك عندما انحاز الأمراء الإقطاعيون إلى جانب أحد الفريقين. وهكذا شهد المجتمع الصليبي ظهور جبهتين مسلحتين ومتعارضتين في مصالحهما، تألفت الأولى من البنادقة والبيزنطيين والبروڤنساليين وغالبية آل إبلين، وعلى رأسهم يوحنا إبلين كونت أرسوف والوصي على مملكة بيت المقدس، والداوية والتيوتون، وتشكَّلت الثانية من الجنويين وفيليب مونتفرات سيد تبنين وصور، الذي ظل زمناً ينازع البنادقة في حق تملكهم بعض القرى قرب صور، وظنَّ الآن أن الفرصة تهيأت له لطردهم من ثلث المدينة الخاص بهم والذي حازوه عندما احتل الصليبيون صور في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م) وإخراجهم من أملاكهم في ضواحيها، والأسبتارية وتجار كتالونيا.

وجرت في عكا اشتباكات دامية دمَّرت بيوتاً كثيرة نتيجة قصفها بحجارة المنجنيق، وامتدت فشملت مدن الساحل الصليبية كافة بحيث لم تبق هيئة أو مدينة لم تنحاز إلى أحد المعسكرين أو تشترك في القتال.

ولجأ بعض زعماء الصليبيين، وعلى رأسهم مقدم الداوية، إلى بوهيموند السادس

---

(١) Estoire d'Eracles: II p443.

أمير أنطاكية وطرابلس طالبين منه التدخل لوضع حد لهذه الحرب الأهلية، فحضر إلى عكا في (١٤ محرم ٦٥٥هـ/ ١ شباط ١٢٥٧م) واصطحب معه أخته بلايسانس الوصية على مملكة قبرص ومعها ابنها هيو الثاني البالغ من العمر خمس سنوات، وحاولت بلايسانس أن تفرض سلطتها غير أن الجنويين وحلفاءهم رفضوا الاعتراف بحق بوهيموند وأخته في التدخل، وفشلت محاولة بوهيموند السادس فرض الأمن بالقوة، وترتب على ذلك تدعيم فريق البنادقة، لا سيما وأن بوهيموند السادس كان يميل إليهم على الرغم من تظاهره الوقوف على الحياد.

وهكذا استمر الجنويون وحلفاؤهم في حال ثورة، الأمر الذي دفع بوهيموند السادس أن يعود يائساً إلى طرابلس مع أخته وابنها الصغير.

كان لفشل محاولة بوهيموند السادس رد فعل سلبي من واقع تفاقم الوضع في عكا، فحصَّن كل طرف منطقته، وتحولَّت المدينة بفعل مظاهر التحصينات إلى ساحة حرب، ولم تقتصر المواجهة بين المعسكرين على القتال البري وإنما دار أيضاً في البحر، فانتصرت السفن البندقية على السفن الجنوية في المعركة التي جرت في (٢٠ جمادى الآخرة ٦٥٦هـ/ ٢٤ حزيران ١٢٥٨م) وسرعان ما أتبع البنادقة انتصارهم البحري فقاموا بهجوم بري عام على الجنويين في عكا، وسرعان ما أثَّرت هزيمة الجنويين في حلفائهم فانفضوا من حولهم، فانسحب فيليب مونتفرات إلى إمارته صور، وكذلك فعل مقدم الأسبتارية ولكنه لم يجرؤ على العودة إلى عكا ومات بعد قليل، وانسحب الجنويون إلى صور بعد تحطيم أسطولهم واتخذوها مركزاً لرعاية تجارتهم في ظل حكم فيليب مونتفرات[١].

وبذلك انقسمت مملكة بيت المقدس الصليبية إلى قسمين متعاديين، عكا تحت حماية البنادقة وصور تحت حماية الجنويين. وقد أدرك البابا إنوسنت الرابع مدى خطورة الموقف على مستقبل الصليبيين في بلاد الشام، فأرسل مبعوثاً إلى الشرق هو توماس أغني لنتينو أسقف بيت لحم وأمره بأن يُسوِّي ما وقع من نزاع، لكن الوساطة البابوية فشلت بسبب التصلب في المواقف ما أدى إلى تجدد القتال، وقام البنادقة في (رمضان ٦٥٩هـ/آب ١٢٦١م) بمحاولة فاشلة لاحتلال صور، واستعان فيليب مونتفرات ببعض الرماة المسلمين في صدِّهم، ويبدو أنه اتفق مع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس على القيام بهجوم مشترك على عكا بدليل أن الجيش المملوك ظهر أمام المدينة في عام (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م)[٢]، غير أنه تراجع عن فكرة التعاون مع المماليك خشية من إثارة الرأي العام المسيحي ضده.

---

(١) King: p254.

(٢) المقريزي: جـ١ ص٥٥١.

الواقع أن الخلاف بين الصليبيين لم يقتصر على مدينتي عكا وصور بل امتد إلى الشمال، فقد تنازع بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس مع برتراند صاحب جبيل الذي حرَّض أمراء طرابلس على الخروج على حكم بوهيموند السادس، وخرج على رأسهم في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) لمهاجمة طرابلس نفسها والتمس المساعدة من الأسبتارية.

عودة المغول إلى الغرب

توفي جنكيزخان في عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) فاضطربت أوضاع امبراطوريته حتى انتُخب ابنه أوكتاي خاناً أعظم في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)[١] فأخذ على عاتقه إتمام ما بدأه والده في التوسع نحو الغرب لإخضاع ما تبقَّى من العالم الإسلامي.

وتقدم المغول إلى أذربيجان واستولوا على مراغة وتبريز عاصمة الإقليم، ثم أجهزوا على المدن الواحدة تلو الأخرى، فأضافوا بذلك كل شمالي فارس وأذربيجان إلى أملاكهم، ثم أغاروا على بلاد الكرج بقيادة جرماغون فاستولوا على الشطر الشرقي من البلاد[٢].

وظهر المغول في دياربكر، ودخلوا إربل وخربوها، وما حدث من ظهورهم في أعالي الفرات أثار الذعر والخوف في بلاد الشام، وصار من المتوقع إقدامهم على غزو العراق وإقليم الجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى تمهيداً للزحف نحو بلاد الشام ومصر[٣].

المغول في العراق ـ سقوط بغداد

استأنف المغول زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا ضمن سياسة توسعية، وقد حقَّقوا ما وضعه خاناتهم مثل أوكتاي وكيوك من توسعات على الأرض، حتى إذا توفي هذا الأخير انتخب منكو خاناً أعظم للمغول في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) وقد عهد إلى أخيه هولاكو بقيادة حملة على فارس، وأوصاه ببسط السيطرة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أقاصي مصر، وحدَّد له إطار العلاقة مع الخليفة العباسي بحيث إذا قدَّم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له، أما إذا عصى، فعليه أن يتخلَّص منه حتى لا يشكل وجوده عقبة في طريق الزحف المغولي[٤].

---

(١) الجويني: جـ١ ص١٧٨.

(٢) المصدر نفسه ١٨٧. ابن الأثير: ١٠ ص٤٤٥ ـ ٤٤٧.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٤٨ ـ ٤٥٢.

(٤) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران مجلد٢ جـ١ ص٢٣٤ ـ ٢٣٧.

ومن جهته، وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على الحشيشية ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر، وبعد أن حقَّق الهدف الأول انطلق لتحقيق الهدف الثاني.

كانت الأوضاع في بغداد آنذاك سيئة جداً، فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بعدم جدِّيته في إدارة الشؤون العامة[(١)]، فلم يستعد لمواجهة الزحف المغولي ظناً منه أن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام خطرهم، كما تعدَّدت مراكز القوى آنذاك في بغداد واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية، ووقف الخليفة عاجزاً عن وضع حد للمشكلات المتفاقمة، فترتب على ذلك أن اشتدت حدة الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير وقائد الجيش وكان سني المذهب، وبين مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة، وكان شيعياً، ما كان لها الأثر السيء في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة[(٢)].

وتعدَّت الخلافات أهل الحكم لتنتقل إلى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أنفسهم في تناحر مذهبي، ما دفع الوزير ابن العلقمي إلى مراسلة المغول وأطمعهم في ملك بغداد[(٣)].

والواقع أنه لم يكن لهذه المراسلات بين الطرفين، ولا للمباحثات التي جرت بينهما في وقت لاحق؛ من أثر كبير في دفع هولاكو أو في ثنيه عن مهاجمة بغداد، لأن الاستيلاء على العراق كان من ضمن سياسة مغولية عامة.

وتبادل الرجلان، المستعصم وهولاكو، الرسائل التي لم تُسفر عن نتيجة إيجابية بسبب التصلب في المواقف، ولم يكن لها من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها.

وعندما اطمأن هولاكو على وضعه أخذ في تنفيذ خططه العسكرية وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة، ولما وصلت إليها في (محرم ٦٥٦هـ/ كانون الثاني ١٢٥٨م) ضربت عليها حصاراً مركزاً.

وعندما رأى الخليفة حرج موقفه مال إلى التفاهم مع هولاكو لكن هذا رفض مبدأ التفاهم وأصرَّ على استسلام الخليفة، فخرج يوم الأحد في (٤ صفر/ ١٠ شباط) من عاصمته بناء على نصيحة وزيره، وسلَّم نفسه وعاصمته للمغول من دون قيد أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان، عندئذٍ دخل الجنود المغول إلى المدينة وعاثوا فيها

---

(١) ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٣.

(٢) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: تاريخ الخلفاء ص٣٦٠.

(٣) المصدر نفسه.

مدة أسبوع، فهدموا مساجدها وجردوا القصور مما فيها من التحف النادرة، وأتلفوا عدداً كبيراً من الكتب القيمة من مكتباتها، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها، وقتلوا أئمة المساجد وحفظة القرآن، وتعطلت المدارس والربط، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً.

وانتهت هذه الأحداث بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث، فاطمة وخديجة ومريم(١).

كان لسقوط بغداد في أيدي المغول دوي هائل وعميق في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، واهتز الحكام المسلمون في المناطق المجاورة لهذا الحدث الجلل، وعدَّ المسلمون في كل مكان، أن سقوط الخلافة العباسية صدمة مريعة، وتحدياً مخيفاً، وضربة قوية للحضارة والثقافة. ومن جهتهم ابتهج المسيحيون في الشرق وفي أوروبا الغربية لهذا الحدث ورحَّبوا بهولاكو وزوجته طقز خاتون التي كانت قد اعتنقت المسيحية على المذهب النسطوري(٢).

المغول في بلاد الشام

كان من الطبيعي أن يتلو غزو العراق مهاجمة بلاد الشام، وكانت هذه البلاد آنذاك تحت سيادة ثلاث قوي هي:

- قوة المسلمين الذين افتقروا إلى رابطة اتحادية، فكان كل أمير يعمل مستقلاً عن الآخر ما أضعف قوتهم أمام المغول.

- قوة الصليبيين الغربيين، وقد وقفوا موقف المتردد من المغول مع ميل إلى جانب المسلمين، حقيقة أن بوهيموند السادس أمير أنطاكية انضمَّ إلى الحركة المغولية وأيَّدها وشارك فيها، وكذلك فعل هيثوم ملك أرمينية الصغرى في كيليكية، إنما أقدم أمير أنطاكية على ذلك بوصفه زوج ابنة هيثوم وحليفه، ويبدو أن عطف هولاكو على المسيحيين الشرقيين بخاصة هو الذي ضايق الصليبيين الغربيين مع إدراكهم العميق بأن المسلمين سوف يطردونهم من المنطقة إن عاجلاً أو آجلاً.

- قوة الأرمن في كيليكية الذين حالفوا المغول، وشجَّعوهم على القضاء على

---

(١) يمكن العودة إلى المصادر التالية فيما يتعلق بسقوط بغداد: الرسالة المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي والملحقة بكتاب تاريخ قاهر العالم، للجويني: جـ٢ ص٣٦٣. الهمذاني: مجلد ٢ جـ١ ص٢٣٦، ٢٣٧، ص٢٦٧، ٢٦٨. ابن كثير: جـ١٣ ص٢٠١ ـ ٢٠٣.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٥٢٢، ٥٢٣.

الخلافة العباسية وعلى الأيوبيين في بلاد الشام، واشتركوا معهم في قتال المسلمين. فقد رأى هيثوم أن الفرصة سانحة لاستخلاص بلاد الشام وبيت المقدس بوجه خاص، منهم.

وقاد هولاكو جيشه في عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) للاستيلاء على شمال غربي بلاد الشام، فسقطت في يده مدن ميافارقين ونصيبين وحران والرها والبيرة وحارم، ثم توجَّه إلى حلب وأطبق عليها ثم سقطت في يده[(١)].

نتيجة لهذه الانتصارات السريعة والحاسمة وما صاحبها من قتل وتشريد وتدمير؛ عمَّ الرعب كل بلاد الشام، وأدرك الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق وحلب استحالة الوقوف وحده في وجه المغول، فطلب المساعدة من المماليك في مصر[(٢)].

ويبدو أن السلطان المملوكي قطز في مصر هاله الزحف المغولي السريع، فتناسى الأحقاد، وعلى الرغم من العداء المستحكم بينه وبين الملك الناصر الأيوبي، فقد وافق على إمداده بنجدات عسكرية على وجه السرعة.

وتقدم المغول في غضون ذلك إلى دمشق، فسلَّم أهلها مدينتهم إلى هولاكو كي يتجنَّبوا مصيراً كمصير المدن الشامية الأخرى في الوقت الذي افتقروا فيه إلى القوة[(٣)].

معركة عين جالوت

أعقب احتلال دمشق تقدم المغول نحو فلسطين من دون أن يلقوا مقاومة تُذكر باستثناء ما حصل من قتل حامية نابلس لأنها قاومتهم، واستسلمت لهم حامية عجلون، وأغاروا على الخليل فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال، ولكنهم لم يطأوا بيت المقدس[(٤)].

وأرسل هولاكو إنذاراً إلى قطز يطلب منه الاستسلام ويُذكِّره بأن المغول فتحوا البلاد كافة، ولم تستطع أي قوة الوقوف في وجههم، فرفض قطز الإنذار وقتل الرسل الذين حملوا إليه الرسالة.

وما جرى من وفاة الخان الأعظم منكو في (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) وبروز بوادر صراع على السلطة بين أخوي هولاكو قوبيلاي وأريق بوغا، دفع هولاكو إلى أن يغادر بلاد

(١) ابن العبري: ص٣١٤، ٣١٥. الهمذاني: مجلد ٢ جـ١ ص٣١٩ ـ ٣٢٦. يُذكر أن ابن العبري كان آنذاك رئيس أساقفة حلب وكان موجوداً داخل المدينة، فهو شاهد عيان على سقوطها.

(٢) النويري: جـ ٢٩ ص٣٨٥، ٣٨٦.

(٣) ابن كثير: جـ ٣ ص٢١٩. الهمذاني: مجلد ٢ جـ١ ص٣٠٧، ٣٠٨.

(٤) العيني: جـ١ ص٢٣٢. ابن تغري بردي: جـ ٧ ص٧٧.

الشام عائداً إلى قراقورم لينافسهما على الزعامة، وقد سحب معه معظم جيشه، وأبقى في المنطقة عشرة آلاف مقاتل بقيادة كتبغا نوين، هذا في الوقت الذي كانت أملاكه في إيران تتعرَّض لضغط متواصل من قِبل ابن عمه بركة خان زعيم القبيلة الذهبية(١)، وحاكم القبجاق(٢)، وبخاصة أنه اعتنق الإسلام، وأخذ يتوعد هولاكو ويتهدَّده بسبب ما اقترفه من مذابح بحق آلاف من المسلمين ولتجرُّئه على مقام الخلافة العباسية وقتل الخليفة(٣).

أضحى كتبغا يحكم بلاد الشام بقوة قليلة العدد نسبياً ما أتاح بصيصاً من الأمل للمماليك الذين أثارهم توغل المغول في فلسطين. ووضع قطز خطة عسكرية محكمة تقضي بأن يزحف قائده بيبرس البندقداري على رأس قوة استطلاعية لدراسة الموقف على الأرض، فاصطدم بالحامية المغولية في غزة بقيادة بيدرا وأجلاها عن المدينة، فأنذر هذا كتبغا وكان في بعلبك وطلب منه نجدة على وجه السرعة(٤)، فتجهَّز كتبغا على الفور، وسار إلى وادي نهر الأردن.

وخرج قطز من القاهرة على رأس جيشه في (رمضان ٦٥٨هـ/آب ١٢٦٠م) متوجهاً إلى فلسطين باتجاه وادي نهر الأردن، وتقدم بيبرس البندقداري فسبق قلب الجيش ووصل إلى عين جالوت، وأخذ يناوش الجيش المغولي حتى لحق به قطز، وجرت بين الجيشين المملوكي والمغولي رحى معركة رهيبة أسفرت عن انتصار الجيش الأول، وتعرض الجيش المغولي للدمار وكان كتبغا من بين القتلى، وجرت المعركة يوم الجمعة (٢٦ رمضان/٣ أيلول)(٥).

تابع قطز تقدمه بعد انتصاره إلى دمشق ودخلها بعد خمسة أيام وسط ابتهاج المسلمين وانضمَّت إليه مدن الشام كافة، وكافأ الأمراء المسلمين الذين تعاونوا معه، وبعد أن نظَّم أمور البلاد استأنف رحلة العودة إلى القاهرة، وقد تعرَّض في الطريق لمؤامرة من جانب أمراء المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقداري أسفرت عن مقتله في (١٥ ذي القعدة/٢٢ تشرين الأول)(٦).

---

(١) سميت بالقبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتها.

(٢) تشمل القبجاق البلاد الواقعة بين نهر إرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وغالب سكانها من الأتراك والتركمان.

(٣) الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان ص٣١١.

(٤) الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران مجلد ٢ جـ١ ص٣١٣.

(٥) ابن كثير: جـ١٣ ص٢٢٠ ـ ٢٢٢. رشيد الدين: مجلد ٢ جـ١ ص٣١٣، ٣١٤. النويري: جـ٢٩ ص٤٧٢ ـ ٤٧٥. العيني: جـ١ ص٢٤٣ ـ ٢٤٥.

(٦) النويري: جـ٢٩ ص٤٧٧، ٤٧٨. المقريزي: جـ١ ص٥١٩.

نتائج معركة عين جالوت

تعدُّ معركة عين جالوت إحدى الوقائع التاريخية المهمة، وترتب عليها نتائج بالغة الأهمية نذكر منها:

ـ لقي المغول لأول مرة في تاريخهم في الشرق هزيمة حاسمة وتعرَّض جيشهم للدمار التام، وأصيب هولاكو بصدمة عندما بلغه خبر خسارة جيشه ومقتل قائده وصمَّم على الانتقام.

ـ سيطر المماليك بعد المعركة على بلاد الشام كلها حتى نهر الفرات وحقَّقوا وحدة بلاد الشام ومصر.

ـ أنقذ انتصار المماليك في عين جالوت الإسلام والمسلمين من أشد ما تعرَّضوا له من أخطار، كما أنقذ أوروبا أيضاً من خطرهم، إذ أنه بعد امتداد النفوذ المغولي إلى أوروبا الشرقية تطلع المغول إلى احتلال مصر نظراً لموقعها المهم في التمدد غرباً باتجاه شمالي أفريقيا وشمالاً باتجاه أوروبا الغربية.

ـ احتفظت مصر بما لها من حضارة ومدنية، فلم تتعرض لما تعرضت له بغداد من الدمار والخراب، وأضحت القاهرة محط أنظار العلماء والأدباء.

ـ جعلت معركة عين جالوت سلطنة المماليك القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين إلى أن قامت الدولة العثمانية.

ـ بعث النصر روحاً جديدة في المسلمين وبخاصة مسلمي إيران الرازحين تحت الحكم المغولي، فقوي موقفهم، وتمكَّنوا من الصمود أمام تحديات المسيحيين الذين نافسوهم في تبوُّء الزعامة والصدارة في دولة المغول الإيلخانيين التي قامت في إيران[1]، وقد شجَّعهم هذا النصر على دعوة المغول إلى الدين الإسلامي حتى تكلَّلت مساعيهم بالنجاح وأضحى الإسلام ديناً رسمياً لدولة المغول الإيلخانيين.

ـ أدى انتصار المماليك في عين جالوت إلى فشل سياسة الصليبيين في الشرق الأدنى القاضية بالتحالف مع المغول ضد المسلمين، وإلى تعجيل زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

---

(١) قامت الدولة الإيلخانية في إيران والعراق وآسيا الصغرى وكيليكية والكرج منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادي نتيجة توسع هولاكو وخلفائه، ولكن تحت إشراف الخان الأعظم في الصين بشكل عام، ولم تستقل إلا في عهد محمود غازان بن أرغون (٦٩٤ ـ ٧٠٣هـ/ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م)، والعنوان الفعلي لكلمة إيلخان هي: تابع الخان.

البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية

شكَّل البيزنطيون، إثر استيلاء اللاتين على القسطنطينية في عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م)، أربع إمارات واصلت مسيرتها وفقاً للتقاليد البيزنطية، ففي أقصى الشرق استطاع حفيدان للامبراطور أندرونيقوس، وهما ألكسيوس وأودو كومنين، بفضل مساعدة عمتهما تامار ملكة الكرج أن يحتلا طرابزون، وأن يوطِّدا سلطانهما على امتداد شواطىء البحر الأسود وآسيا الصغرى، واستطاع أحد سلالة أسرة أنجيلوس أن يجعل من نفسه امبراطوراً على أبيروس في بلاد اليونان وأقام أسرة قضت على مملكة مونتفرات في سالونيك، على أن أهم الإمارات وأشدها خطراً، تلك التي أقامتها أنَّة ابنة ألكسيوس الثالث وزوجها تيودور لاسكاريس في نيقية في آسيا الصغرى، وأضحت هذه المدينة في نظر البيزنطيين حاضرة الامبراطورية البيزنطية الشرعية، ولم يلبث تيودور أن توسَّع على الأرض ومدَّ سلطانه على معظم ما تبقَّى لبيزنطية من الأراضي في آسيا الصغرى، واستطاع خلفاؤه أن يحكموا في القسطنطينية بعد أكثر من خمسين عاماً.

الواقع أن الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، لم تستمر إلا بفضل مساعدة البنادقة الذين خشوا ضياع امتيازاتهم وأملاكهم، ودفع تفردها هذا، جنوة إلى تأييد الامبراطور البيزنطي القوي ميخائيل الثامن باليولوغوس في نيقية، وكان هذا الامبراطور قد وضع القواعد اللازمة للبيزنطيين لاستعادة عاصمتهم القسطنطينية، فاستعاد بلاد البيلوبونيز في اليونان عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) بعد أن انتصر على وليم فيلهاردوين أمير آخيا، وأسره مع أمرائه، وأجبره على أن يتنازل عن الحصون التي تتحكم في الشطر الشرقي من شبه الجزيرة، كما عقد معاهدة مع الجنويين في (ربيع الآخر ٦٥٩هـ/آذار ١٢٦١م) منحهم بموجبها الأفضلية في المعاملة في جميع أراضيه، وبفضل مساعدتهم دخل القسطنطينية في (٢٥ شعبان/ ٢٥ تموز). وبذلك زالت امبراطورية اللاتين التي وُلدت من رحم الحملة الصليبية الرابعة، وكل ما فعلته هذه الامبراطورية أنها ألحقت أضراراً بالغة بالصليبيين في الشرق[١].

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٤٩٣، ٤٩٤.

الحملة الصليبية الثامنة

كان الملك الفرنسي لويس التاسع يتشوق للعودة إلى الشرق وإحياء المجد الصليبي المندثر، فكان يُرسل الأموال للإنفاق على القوة العسكرية الصغيرة التي تركها هناك قبل عودته إلى فرنسا بقيادة يوحنا سارجين، وظل هذا الإجراء متبعاً بعد وفاة الرجلين، غير أن الأوضاع السياسية في بلاده لم تُتح له أن يتوجَّه إلى الشرق مرة أخرى في حملة صليبية، كما تقدم به العمر وحلَّ التعب والمرض بجسمه، ومع ذلك شرع يُعد العدة للإبحار مجدداً إلى فلسطين، لكن مشروعه الصليبي تعرَّض للدمار على يد شقيقه شارل كونت أنجو، إذ حدث في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) أن عُزل الطفل كنرادين الملك الأسمى لبيت المقدس وصقلية وحلَّ محله في الحكم عمه مانفريد وهو ابن غير شرعي للامبراطور فريدريك الثاني، وكان متعجرفاً ومتغطرساً، وتعرَّض كأبيه لكراهية البابوية، وأخذ البابا يبحث عن أمير يُنصِّبه مكانه على عرش صقلية، فوجد ضالته في شخص شارل أنجو، لكن شارل لم يكن متديناً كأخيه الملك لويس التاسع، واتصف بالقسوة والطموح، وكانت زوجته بياتريس وريثة بروڤانس على مثل طموحه، فتطلعت إلى وضع التاج على رأسها.

واعتلى في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) جيمس بانتاليون بطريرك بيت المقدس كرسي البابوية باسم أوربان الرابع، فأقنع الملك الفرنسي بأن القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن في صقلية، يُعد خطوة تمهيدية لنجاح أي حملة صليبية في المستقبل، وهذا يعني أن البابوية بعامة حمَّلت هذه الأسرة فشل الحملات الصليبية السابقة.

وافق الملك لويس التاسع على ترشيح أخيه شارل ليتولى عرش صقلية، وعلى الرغم من وفاة البابا أوربان الرابع في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، فقد تابع خليفته كلمنت الرابع، الفرنسي الأصل، إجراءات مهاجمة صقلية، فزحف شارل على إيطاليا في العام التالي وهزم مانفريد في معركة بنيفنتو وقتله وحل محله واستولى على جنوبي إيطاليا، ووضعت زوجته التاج على رأسها.

كانت طموحات الملك شارل أنجو واسعة، فهو يريد السيطرة على كامل إيطاليا، واستعادة القسطنطينية، وإنشاء امبراطورية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، فأقنع أخاه بمهاجمة تونس من دون مبرر مقنع، إذ لم تكن من أهداف الحروب الصليبية، إلا أنه اتخذ من لجوء بعض الصقليين المعارضين إليها واعتقاده باستعداد أميرها اعتناق المسيحية، ذريعة لذلك، والراجح أنه طمع بثرواتها، ويبدو أن الملك لويس التاسع أراد أن يضرب المسلمين أينما وُجدوا ويضيف إقليماً جديداً إلى المسيحية يقع في منطقة غنية وذات أهمية سياسية وعسكرية بالغة لكل حملة

صليبية جديدة، علماً بأن تونس غنية بمواردها وبالغة الأهمية بموقعها ما يُمكِّن الملك الفرنسي من القيام بحملة صليبية أخرى ضد مصر، لذلك وافق على مشروع الحملة على الرغم من معارضة بعض مستشاريه وعلى رأسهم جوانڤيل.

كانت تونس آنذاك تحت حكم أبي عبد الله محمد المستنصر الحفصي وتربطه علاقات ودية بحكام أوروبا، ولديه ميول نحو استخدام المسيحيين في دوائره، وقد وصفه المقريزي بأنه «لا يصلح أن يلي أمور المسلمين». وكانت بلاد الشام أولى بتطلعات الملك الفرنسي لويس التاسع بعد أن سقطت أنطاكية في يد الظاهر بيبرس في عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م).

ومهما يكن من أمر، فقد أبحر الملك لويس التاسع في (١٠ ذي القعدة ٦٦٨هـ/ ١ تموز ١٢٧٠م) على رأس حملة عسكرية مؤلفة من ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل وصحبه أبناؤه الثلاثة وصهره ثيبوت كونت ناڤار وابن أخيه روبرت كونت أرتوا وغيرهم من الأمراء، ووصل الأسطول إلى شواطىء تونس في (٢٧ ذي القعدة/ ١٨ تموز)، ونزلت الحملة في قرطاجنة.

لم يُبد أمير تونس أنه راغب في اعتناق المسيحية بل حصَّن عاصمته وعزَّز حاميتها واستعد للمقاومة، غير أن مناخ الصيف القاسي والحرارة المرتفعة أدَّيا عنه هذه المهمة، فسرعان ما تفشَّى المرض في المعسكر الصليبي، ووقع فريسته آلاف الأمراء والفرسان والعساكر، كان الملك لويس التاسع من بينهم، وعندما وصل أخوه شارل أنجو مع جيشه في (٦ محرم ٦٦٩هـ/ ٢٥ آب ١٢٧٠م) علم أن أخاه قد توفي منذ ساعات قليلة، فترأس الحملة وحافظ على سلامتها حتى بذل له الأمير الحفصي بعض المال على سبيل التعويض، فعاد إلى إيطاليا، غير أن الحملة بمجموعها قد تبدَّدت.

وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى الشرق ازداد ارتياح المسلمين، في حين غمر المسيحيين حزن عميق، وأدركوا من واقع التطورات السياسية والعسكرية في أوروبا وفي الشرق أنه لن يخرج بعد ذلك من أوروبا جيش ملكي لإنقاذهم، وانتظروا بأسى مصيرهم المحتوم[(١)].

وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية الثامنة إلى الفشل الذريع وهي آخر الحملات التي قادها الملوك إلى بلاد المسلمين.

---

(١) انظر فيما يتعلق بأحداث الحملة الصليبية الثامنة: المقريزي: جـ٢ ص٦٩. جوانڤيل: ص٣١١ - ٣١٣، ٣١٧ - ٣١٩. رنسيمان: جـ٣ ص٤٩٩ - ٥٠٣. عاشور: جـ٢ ص١٢٣٧ - ١٢٣٩.
Cambridge Medieval History: VI pp 360, 361.

الفَصل الثامِن والعشرُون

تصفية الكيان الصليبي في بلاد الشام
في عهد الظاهر بيبرس

تمهيد

واجه المماليك في مستهل حياتهم السياسية خطرين كبيرين كان لهما أثر واضح في تطور مسيرتهم السياسية، وهما خطر ما تبقَّى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام وأرمينية الصغرى وخطر المغول. وإذا كانوا قد نجحوا في وقف الزحف المغولي باتجاه مصر بحماس بالغ، فقد كان عليهم أن يواجهوا الصليبيين بالحماس نفسه.

ظلَّ الصليبيون متحصنين في القلاع والمدن في بلاد الشام وعلى ساحل هذه البلاد، يسيطرون ويتحكَّمون بها، من هنا أضحى الاحتكاك بين الطرفين يكاد يكون مستمراً، بالإضافة إلى ذلك فإن الظاهر بيبرس وخلفاءه كانوا أكثر إحساساً بالخطر الصليبي منهم بالخطر المغولي.

لقد أعقب فشل الحملة الصليبية السابعة، وطرد الملك الفرنسي لويس التاسع من مصر، مرحلة سكون حتَّمتها واقعية الظروف المحيطة بالمسلمين والصليبيين.

فمن حيث الظروف المحيطة بالمسلمين، فقد كانت دولة المماليك البحرية في طور التأسيس، ومنهمكة في تثبيت أقدامها، ما منعها من الالتفات نحو الأخطار الخارجية.

ومن حيث الظروف المحيطة بالصليبيين، فقد شهدت الإمارات الصليبية، بدءاً من النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، تضعضعاً داخلياً بفعل الخلافات الخطيرة التي نشبت داخل المجتمع الصليبي بين مختلف الفئات الصليبية، وقد شغلتهم عن الالتفات نحو المسلمين والتصدي لهم.

ولعل أهم أسباب هذا التدهور تعود إلى:

- انعدام الروح الدينية بين الأمراء الصليبيين.
- كثرة تنازع هؤلاء فيما بينهم.

- فتور الحماس الديني في أوروبا التي أخذت تتجه نحو العلمنة والدولة القومية.
- إحجام الأوروبيين عن إرسال الإمدادات إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام.
- عدم تأسيس جيش صليبي ثابت يدافع عن الإمارات الصليبية، وقت الشدة.
- عدم وجود سلطة صليبية مركزية تربط الإمارات بعضها ببعض(١).

وعندما توطَّدت دعام سلطة المماليك، وقويت شوكتهم، رأى السلطان الظاهر بيبرس، الذي خلف قطز بعد مقتله في (١٥ ذي القعدة ٦٥٨هـ/ ٢٢ تشرين الأول ١٢٦٠م)(٢)، ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين وإجلائهم عن المشرق الإسلامي، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فإنه كان عليه أن يواجه ما تبقَّى من الإمارات الصليبية، وهي أنطاكية وطرابلس والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس.

وحتى يُحقِّق هدفه اتبع خطة عسكرية قائمة على ضرب هذه الإمارات الواحدة تلو الأخرى. ولم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي (٦٥٩ - ٦٦٩هـ/ ١٢٦١ - ١٢٧١م) من دون أن يوجِّه إليهم حملة صغيرة أو كبيرة، وكان ينتصر عليهم في كل مرة.

المناوشات المبكرة

بدأت هجمات السلطان الظاهر بيبرس ضد الصليبيين في بلاد الشام في وقت مبكر، فعقب توليه العرش قرَّر إنزال العقاب بالمسيحيين الذين ساعدوا المغول في معركة عين جالوت وبخاصة بوهيموند السادس أمير أنطاكية، فأرسل في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) جيشاً إلى حلب لشن غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية، وتجدَّدت الغارات في العالم التالي، وتعرَّض ميناء السويدية للتهديد، كما جرى تهديد أنطاكية نفسها عندما حاصرها الجيش المملوكي، وكادت تسقط في يده لولا النجدة المغولية - الأرمنية المشتركة التي قادها هيثوم ملك أرمينية الصغرى، واضطر الجيش المملوكي إلى فك الحصار عنها(٣).

لم يسع الظاهر بيبرس نتجية فشله في استعادة أنطاكية، وتهديده المستمر من جانب مغول فارس في الأوقات التي يهاجم فيها الإمارات الصليبية؛ إلا اللجوء إلى السياسة لتحصين موقفه. فبالإضافة إلى إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة

---

(١) حسن، علي إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية ص١٧٩.
(٢) النويري: جـ٢٩ ص٤٧٧، ٤٧٨. المقريزي: جـ ١ ص٥٢٠. ابن عبد الظاهر: ص٦٧، ٦٨.
(٣) المنصوري، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية: ص٥٠.

لإضفاء الشرعية على حكمه، تحالف مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية في روسيا والامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس والسلطان السلجوقي عز الدين كيكاوس، وأضحى باستطاعته القيام بمشاريعه الكبيرة ضد الصليبيين وهو آمن.

وخشي الصليبيون من قوة المماليك النامية بعد الأضرار الجسيمة التي لحقت بهم، فمالوا إلى الصلح، وأملوا بما بذلوه من مساعدة للمماليك زمن حملة عين جالوت[1]، في استعادة أسراهم الذين وقعوا في أيدي المسلمين في السنوات الأخيرة، وتنفيذ الوعد الذي قطعه السلطان أيبك بإعادة زرِّين في الجليل إليهم، أو دفع تعويض عنها، وعقد هدنة بين الطرفين.

فتوجَّه يوحنا إبلين كونت يافا ويوحنا الثاني إبلين حاكم بيروت في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) إلى القاهرة، وأجريا مفاوضات مع الظاهر بيبرس الذي وافق على عقد هدنة لكنه اشترط:

- العودة إلى الوضع الذي كان قائماً في آخر أيام الملك الناصر صلاح الدين.
- إطلاق سراح الأسرى المسلمين.

ويبدو أن الداوية والأسبتارية رفضوا التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم، نظراً لأنهم كانوا صنَّاعاً مهرة، ولما لهم من أهمية مادية للطائفتين[2]، عندئذٍ قطع الظاهر بيبرس المفاوضات وأمر بنقل أسرى الصليبيين الذين بحوزته إلى معسكرات العمل الخاصة بتشييد العمائر، ثم هاجم أملاك الصليبيين، وتعرَّضت مناطق الحدود للغارات من كلا الطرفين، إذ ظلَّت مدن الصليبيين في السهل الساحلي عُرضة للغارات.

وحدث في وقت مبكر من عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) أن قام حاكم أرسوف باليان إبلين بتأجير إقطاعه للأسبتارية بعد أن أدرك أن ليس بوسعه الدفاع عنه. ونهب الظاهر بيبرس الناصرة، وشنَّ هجوماً مفاجئاً على عكا في (جمادى الآخرة ٦٦١هـ/ نيسان ١٢٦٣م)، ودار قتال عنيف خارج أسوارها.

والراجح أن الظاهر بيبرس لم يكن مستعداً لشن حرب شاملة، فانسحب من المنطقة بعد أن نهب أرباضها ورحل إلى بيت المقدس[3].

---

(١) عندما خرج قطز من مصر باتجاه فلسطين للتصدي للمغول في عين جالوت، اتخذ الطريق الساحلي الذي يمر بعكا بعد أن حصل على إذن من صليبيي هذه المدينة بالمرور عبر أراضيهم.

(٢) المقريزي: جـ١ ص٥٣٨. رنسيمان: جـ٣ ص٥٤٤، ٥٤٥.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٥٤٥.

وتوحَّدت في أوائل عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) قوات الداوية والأسبتارية وقامت بغارة على حصن ليزون الصغير المعروف قديماً باسم مجدو، ثم شنَّت غارة على عسقلان، ونجحت الفرق الصليبية الفرنسية التي تركها الملك لويس التاسع في التوغل بعيداً فبلغت أرباض بيسان.

وردَّ المماليك بنهب القرى الصليبية الواقعة إلى الجنوب من جبل الكرمل، وأغاروا على قيسارية وعثليث، حتى لم تعد الحياة مأمونة[١].

أدرك الظاهر بيبرس عندئذٍ أن المناوشات والهجمات المحدودة لم تعد كافية لردع الصليبيين، وأنه لا بد من القيام بحرب شاملة ضدهم.

العمليات العسكرية ضد الصليبيين ونتائجها

بدأت الحرب الشاملة في عام (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م)، فخرج الظاهر بيبرس في (ربيع الآخر/ شباط) على رأس جيش ضخم، وتوجَّه إلى قيسارية التي سقطت في يده، فسمح لأفراد الحامية بالخروج من دون التعرض لهم بالأذى ثم دمَّر المدينة والقلعة[٢].

وظهر الظاهر بيبرس بعد بضعة أيام أمام حيفا وقد فرَّ معظم من فيها من الصليبيين عن طريق البحر، فدخلها السلطان ودمَّرها[٣]، ثم هاجم قلعة عثليث الضخمة الواقعة على الطريق بين حيفا وقيسارية، وكانت تابعة للفرسان الداوية، لكنه لم يتمكَّن من فتحها، فتركها[٤]، وزحف باتجاه أرسوف فحاصرها وفتحها عنوة وأرسل الأسرى الناجين إلى الكرك مصفَّدين[٥].

الواقع أن سقوط الحصنين الكبيرين قيسارية وأرسوف أزعج الصليبيين، إلا أنهم كانوا عاجزين عن الرد. ويلاحظ أن هذه الانتصارات قوبلت بالترحاب من جانب حلفائه خصوم الصليبيين، مثل مانفريد ابن الامبراطور فريدريك الثاني ووريثه في صقلية، والامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس، وبركة خان زعيم القبيلة الذهبية، وجمهورية جنوة، وقد ربطتهم جميعاً رابطة الكراهية للصليبيين[٦].

وجاء دور عكا بعد أرسوف، غير أن هيو الثالث الوصي على عرش قبرص وعكا حضر من الجزيرة على رأس أسطول قوي وتمكّن من الحؤول دون سقوطها، واضطر الظاهر بيبرس أن يعود إلى بلاده بعد أن ترك عسكراً يكفي لضبط البلاد التي

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٥٤٥، ٥٤٦.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص٢٣٠، ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٣٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ص٢٣٥ ـ ٢٣٩.

(٦) عاشور: جـ٢ ص١١٤٥.

استعادها، وأضحت حدود عكا على مرأى من الجند[1].

وحدث أن توفي الإيلخان هولاكو في العام المذكور، فصبَّت هذه الحادثة في صالح المماليك، إذ أضعفت مغول فارس في لحظة حرجة، وزادت أوضاع الصليبيين تضعضعاً، ذلك أن نفوذ أرملته طقز خاتون كفل ولاية العرش لابنه أباقا (٦٦٣ ـ ٦٨٠هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢م)، غير أنه لم يتم تنصيبه إيلخاناً من الناحية الرسمية إلا بعد مرور أربعة أشهر على وفاة والده، كما لم يتم إعادة توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات إلا بعد مرور أربعة أشهر أخرى، ثم ماتت طقز خاتون خلال فصل الصيف، فاشتد حزن المسيحيين عليها. وتعرَّض أباقا في هذه الأثناء للتهديد المستمر من جانب أبناء عمومته في القبيلة الذهبية الذين أغاروا على بلاده في الربيع التالي، فكان مستحيلاً على حكومة مغول فارس أن تتدخل في شؤون غربي بلاد الشام.

أما الظاهر بيبرس الذي سبَّب بسياسته المتاعب للإيلخان في الشمال، فأضحى بوسعه أن يستأنف حملاته ضد الصليبيين من دون أن يخشى تدخلاً مغولياً[2].

وفعلاً استأنف السلطان المملوكي هجماته على المعاقل الصليبية في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م)، فخرج من مصر جيشان مملوكيان:

ظهر الجيش الأول الذي كان يقوده السلطان أمام عكا، ولما وجدها قوية التحصين انتقل إلى قلعة القرين الواقعة بين عكا وصور، وكانت تحت حماية الفرسان التيوتون، فوجدها هي الأخرى صعبة المنال، فتركها ويمَّم وجهه شطر صفد التي تُعدُّ من أخطر القلاع الصليبية، وكانت قاعدة للفرسان الداوية، فحاصرها حصاراً مركَّزاً ثم هاجمها، فاستسلم الداوية له خلال شهر (شوال/ تموز)[3].

ومهما قيل بأن الظاهر بيبرس أعطى الأمان لحامية صفد بأن تنسحب إلى عكا من دون أن تتعرَّض للأذى، غير أنه لما سلَّم الداوية القلعة أمر بقتلهم جميعاً[4]، والمعروف أن هؤلاء الفرسان الأشداء كانوا يكمنون على تل مشرف على الطريق ليصطادوا المسلمين ويقتلوهم، فأمر الظاهر بيبرس بأن يُجمعوا على ذلك التل ويذوقوا طعم الموت تماماً مثلما كانوا يفعلون بالمسلمين، وقد عزا بعض المؤرخين هذا التنكيل بأن الجنود الصليبيين كانوا يحملون أسلحتهم عندما غادروا القلعة، في

---

(١) Grousset: III p625. Estoire d'Eracles: II p450.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٥٤٩، ٥٥٠.

(٣) ابن عبد الظاهر: ص٢٥٥ ـ ٢٦٤ وقارن بالمنصوري ص٥٦، ٥٧.

(٤) ابن عبد الظاهر: ص٢٦٠ ـ ٢٦٣.

حين نسبه آخرون إلى أنه عندما دخل الظاهر بيبرس القلعة وجد فيها بعض الأسرى المسلمين[(١)].

الواقع أن استعادة صفد أصاب الصليبيين بضربة قاسية، وهيَّأ للظاهر بيبرس فرصة لاستعادة الجليل، إذ أعقب ذلك هجوم على تبنين التي سقطت بأيدي المسلمين من دون قتال[(٢)]، ثم أرسل قوة عسكرية دمَّرت قرية قارة المسيحية الواقعة بين حمص ودمشق، وكانت غالبية سكانها من السريان، وقد تعدُّوا على المسلمين في أيام هولاكو وكتبغا، كما ارتاب بأن لهم صلة بالصليبيين[(٣)].

وجدَّد الجيش المملوكي هجماته على عكا، إلا أنه لم يتمكَّن من فتحها، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي نجح فيه هيو الثالث الوصي على العرش، من حشد القوى الصليبية، ثم ترأسهم وشنَّ هجوماً مضاداً على الجليل، غير أن مقدمة جيشه وقعت في كمين نصبته لها حامية صفد الإسلامية، واضطر هيو الثالث إلى الانسحاب بعد أن تكبَّد خسائر فادحة[(٤)].

وقاد الجيش الثاني قلاوون الألفي، ونفَّذ عمليات عسكرية في منطقة الشمال تمهيداً لإنزال العقاب بمملكة أرمينية الصغرى وإمارتي أنطاكية وطرابلس، وقد حرَّر القليعات وحلبا وعِرقة، وهي المراكز الثلاثة التي تحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي، وشكَّل تحريرها تهديداً لإمارة طرابلس[(٥)].

لم يترك الظاهر بيبرس للصليبيين فسحة للراحة، ففي (شوال ٦٦٥هـ/ حزيران ١٢٦٧م) ظهر أمام عكا مرة أخرى، وقد شجعه على مهاجمتها ما جرى من تجدُّد الخلافات الداخلية بين الصليبيين، إذ لم يحاول الجنويون والبنادقة في هذه المرحلة الحرجة، تصفية خلافاتهم، وقد حاول أسطول جنوي مهاجمة عكا في أواسط السنة المذكورة للسيطرة على الميناء، فتصدَّت له السفن البندقية، ودارت بين الأسطولين رحى معركة بحرية انسحب على إثرها الأسطول الجنوي إلى صور[(٦)]، ويبدو أن الظاهر بيبرس وجد صعوبة في اقتحامها، فقنع بما قام به من تخريب القرى المحيطة بها.

وخرج السلطان مرة أخرى من مصر في (أواسط ٦٦٦هـ/ أوائل ١٢٦٨م) وظهر أمام يافا. لم تكن ظروف المدينة تسمح لها بالدفاع عن نفسها، فسقطت في يده،

---

(١) العيني: جـ١ ص٤٢١، ٤٢٢. زقلمة، أنور: المماليك في مصر ص٤٣.

(٢) Estoire d'Eracles: II pp 484, 485.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٥٥٢.

(٤) Estoire d'Eracles: II p 485.

(٥) ابن عبد الظاهر: ص٢٥١، ٢٥٢.

(٦) Estoire d'Eracles: II pp 455, 456.

وسمح لحاميتها الالتجاء إلى عكا بدون أن تتعرَّض للأذى، ودمَّر الجيش المملوكي القلعة، وأرسل ما تحويه من خشب ورخام إلى القاهرة لاستخدامها في تشييد المسجد الكبير الذي كان الظاهر بيبرس يشيده بها[1].

كانت قلعة الشقيف هي الهدف التالي للظاهر بيبرس، وكانت تابعة للفرسان الداوية، ففتحها، واستسلمت حاميتها، فسمح للنساء والأطفال بالانتقال إلى صور واحتفظ بالرجال أسرى، ولما كانت هذه القلعة ذات موقع عسكري مهم، وتتحكَّم بطرق المواصلات الداخلية، فقد شحنها بقوة عسكرية كبيرة[2].

تابع الظاهر بيبرس تحركاته الهجومية، فظهر أمام أسوار طرابلس إلا أنه انحرف فجأة نحو الشمال بعد أن تبين له أن فيها حامية قوية، ومرَّ بانطرطوس وصافيتا، فلم يتعرَّض لهما، ثم هبط إلى وادي نهر العاصي، وأضحى أمام أنطاكية في (١ رمضان/ ١٥ أيار) وكانت هدفه في هذه المرحلة من تاريخ العمليات العسكرية[3].

ونفَّذ الظاهر بيبرس خطة عسكرية محكمة للإطباق على المدينة ومنع وصول الإمدادات إليها، فقسَّم جيشه إلى ثلاثة أقسام.

توجَّه القسم الأول لفتح السويدية كي يقطع الاتصالات بينها وبين البحر.

وتحرك القسم الثاني باتجاه دروب الشام لسد الممرات بينها وبين كيليكية ومنع وصول إمدادات أرمنية إليها من مملكة أرمينية الصغرى.

وتوجَّه القسم الثالث نحو المدينة بقيادة الظاهر بيبرس.

كان أمير أنطاكية بوهيموند السادس آنذاك في طرابلس، لذلك تولى الدفاع عنها الكندسطبل سيمون مانسل[4]، ولم تكن حاميتها من كثرة العدد ما تستطيع أن تحمي الأسوار كلها. ويبدو أن سيمون هذا لم يكن قائداً على مستوى الأحداث، فخرج على رأس قواته القليلة العدد من المدينة في محاولة طائشة للتصدي للجيش المملوكي ومنعه من مهاجمتها إلا أنه وقع في الأسر، فاستخدمه الظاهر بيبرس وسيلة لإقناع المحاصَرين في داخلها بالاستسلام، غير أن المفاوضات لم تؤدِّ إلى نتيجة إيجابية بفعل تصلب المدافعين، عند ذلك قرَّر اقتحامها. وتمكَّن الجيش المملوكي من دخولها بعد هجوم عام على جميع مراكز الأسوار عبر ثغرة، وتدفق

---

(١) ابن عبد الظاهر: ص٢٩٢ ـ ٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٨، ٢٩٩. المنصوري: ص٦٢.

(٣) عند ابن عبد الظاهر تفاصيل مسهبة عن المناوشات التي دارت بين الجيشين المملوكي والصليبي تحت أسوار المدينة: ص٣٠٤.

(٤) رنسيمان: جـ٣ ص٥٥٧.

أفراده إلى داخلها، وغنم المسلمون غنائم وفيرة بلغ من كثرتها أن «قسمت النقود بالطاسات»، كما بلغ من كثرة عدد الأسرى أنه لم يبق غلام إلا وله غلام، وبيع الصغير باثني عشر درهماً، والجارية بخمسة دراهم[١].

يُعدُّ سقوط أنطاكية في أيدي المسلمين كارثة حقيقية كبيرة حلَّت بالصليبيين في بلاد الشام، لأنها شكَّلت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً لهم منذ بداية الحروب الصليبية، وجاء سقوطها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون في بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي[٢].

وإذ سقطت أنطاكية، وضعفت أرمينية الصغرى بعد الضربات التي وجهها إليها الظاهر بيبرس؛ أدرك الداوية عدم استطاعتهم الاحتفاظ بقلاعهم في إقليم أنطاكية والدفاع عنها أمام القوة المملوكية النامية، فاستسلمت قلعة بغراس من دون مقاومة، وهرب من كان فيها من الداوية[٣]، فانقطعت بذلك الصلات بين الصليبيين في طرابلس وعكا وبين الأرمن في أرمينية الصغرى، وتلاشت فكرة التحالف بين أنطاكية ومملكة أرمينية الصغرى ومغول فارس، وما تبقَّى من هذه الإمارة، مثل مدينة اللاذقية، أضحت جيوباً معزولة.

وظهر في ذلك الوقت من الدلائل ما يشير إلى تجهُّز مغول فارس لاستئناف تحركاتهم ضد بلاد الشام، كما تردَّدت الشائعات بأن الملك لويس التاسع أخذ يُعدُّ حملة صليبية ضخمة لإرسالها إلى الشرق الإسلامي ما دفع الظاهر بيبرس إلى التمهُّل في متابعة تصفية الإمارات الصليبية المتبقية، وأخذ يراقب تحركات المغول وحملة الملك الفرنسي، ولجأ إلى السياسة لحماية أملاكه في بلاد الشام ومصر خشية أن يكرر الملك لويس التاسع عملية إنزال في مصر أو عكا، فاستجاب لطلب هيو الثالث بعقد هدنة، فأرسل سفارة إلى عكا من أجل هذه الغاية ترأسها المؤرخ القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر. وتحقَّقت الهدنة لمدة عشرة أعوام، ما أتاح للصليبيين في بلاد الشام مدة من الراحة حاول خلالها هيو الثالث أن يقوِّي الجبهة الصليبية لمواجهة المماليك، فاستقطب فيليب مونتفرات صاحب صور عن طريق المصاهرة[٤]، وبذلك توحَّدت القوتان، وحاول في الوقت نفسه، إيجاد نوع من التفاهم بين فيليب والبنادقة، غير أن فيليب قُتل في (صفر ٦٦٩هـ/ أيلول ١٢٧٠م)

(١) ابن عبد الظاهر: ص٣٠٧ ـ ٣٠٩. عاشور: جـ ٢ ص١١٤٩.
Estoire d'Eracles: II pp 456, 457.

(٢) عاشور: المرجع نفسه.

(٣) ابن عبد الظاهر: ص٣٢٥، ٣٢٦.

(٤) زوَّج هيو الثالث أخته مارغريت لوزينان من يوحنا مونتفرات ابن فيليب.

على يد الحشيشية ما أفقد الصليبيين أحد ألمع قادتهم، والرجل القوي الذي يمكن الاعتماد عليه في وقت الشدة[١].

أما الملك لويس التاسع الذي نزل مع حملته الصليبية في تونس، فإنه توفي أيضاً فور وصوله على أثر حمّى أصابته، ما أتاح للظاهر بيبرس أن يستأنف هجماته، فظهر أمام صافيتا التي يمتلكها الداوية في (رجب ٦٦٩هـ/ شباط ١٢٧١م) فاستسلمت له، ثم كرَّ على حصن الأكراد الضخم أو قلعة الحصن، وكان تحت حماية الأسبتارية، فضرب عليه حصاراً مركزاً، وساندته فرق من الحشيشية بالإضافة إلى قوات المنصور الثاني أمير حماة، وتمكّن من استعادته، ودخله بعد ثلاثة أسابيع من الحصار، وسمح لأفراد حاميته باللجوء إلى طرابلس[٢].

الواقع أن استعادة هذا الحصن مكّن الظاهر بيبرس من التحكم بالطرق المؤدية إلى طرابلس، وكان طبيعياً أن يفتح بعد ذلك قلعة الأسبتارية في جنوب البقيعة بعكار التي سقطت بعد حصار دام أسبوعين[٣]، فأضحى بذلك على مشارف إمارة طرابلس.

وخشي بوهيموند السادس أن يحلّ بإمارته ما حلّ بأنطاكية، فالتمس عقد هدنة، فأجابه السلطان إلى طلبه مشيراً إليه بشيء من السخرية. والواقع أنه كان ينوي استعادة طرابلس، ولم يصده عنها سوى وصول حملة صليبية إنكليزية بقيادة الأمير إدوارد ولي عهد إنكلترا، فأظهر الاتزان والتعقل تجاه سياسة بوهيموند السادس، وعُقدت الهدنة بين الطرفين، وقد تضمَّنت بندين هما:

- يحتفظ الظاهر بيبرس بما فتحه حديثاً من بلاد.
- تستمر الهدنة مدة عشرة أعوام[٤].

عاد الظاهر بيبرس بعد توقيع الهدنة إلى مصر، واستعاد في طريق عودته حصن القرين[٥] الواقع إلى الشمال الغربي من عكا، ويُعدُّ هذاالحصن من الحصون المنيعة التي احتفظ بها الفرسان التيوتون حتى ذلك الوقت.

وغادر هيو الثالث في هذه الأثناء جزيرة قبرص عائداً إلى عكا، ولما علم السلطان بذلك أرسل أسطولاً بحرياً لمهاجمة الجزيرة، وظهر فجأة أمام ليماسول،

---

(١) Estoire d'Eracles: II p 458.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص٣٧٥ ـ ٣٧٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٧٩ ـ ٣٨١.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٨٣، ٣٨٤. Estoire d'Eracles: II p 460.

(٥) المصدر نفسه: ٣٨٥ ـ ٣٨٨.

لكن الحملة فشلت بسبب هبوب عاصفة قوية حطمت عدداً كبيراً من السفن، وعاد من بقي منها إلى موانىء مصر(١).

وكان الأمير إدوارد، ابن هنري الثالث ملك إنكلترا، قد قاد ألفاً من قواته والتحق بحملة لويس التاسع ملك فرنسا، وعندما وصل إلى قرطاج في (٢٧ رمضان ٦٦٩هـ/ ٩ أيار ١٢٧١م) وجد الملك الفرنسي قد توفي، فتابع طريقه إلى الشرق. والحقيقة أن إنكلترا وحدها كانت آنذاك على علم بمزايا الاتحاد مع الإيلخانيين في فارس، وعندما وصل إلى عكا أرسل إلى أباقا يطلب منه أن يُرسل جيوشه استناداً إلى الوعد الذي كان قد قطعه للأوروبيين، وبفعل انهماكه في الحرب على الحدود الشرقية لبلاده مع مغول تركستان؛ أمر قائده صمغار في الأناضول بغزو بلاد الشام بالتنسيق مع الصليبيين، فتقدم نحو حلب واستولى عليها، ثم زحف نحو البقاع قبل أن ينسحب فجأة فور وصول القوات المملوكية بقيادة الظاهر بيبرس. أما قوات إدوارد فلم تفعل أكثر من القيام بغارة على قلعة صغيرة. واستاء الامير الإنكليزي عندما وجد أن التجار المسيحيين، لا سيما البنادقة، يمدون المماليك بالأخشاب والحديد اللازم لصنع السفن وآلات الحصار والأسلحة، بل أيضاً بالرقيق الأبيض الذين يعتمد عليهم المماليك في جيوشهم، ويئس أخيراً بفعل ضآلة عدد الجنود المتحالفين من المغول والصليبيين في مقابل عدد جنود أعدائهم المسلمين، وأدرك أنه أضاع وقته هباء طالما لم تتوفر له قوة ضاربة كبيرة تساعده على محاربتهم، وأن تنفيذ عقد هدنة مع السلطان المملوكي تكفل البقاء للشرق الصليبي وقتاً إضافياً، هو أفضل الخطوات العملية. وكان الظاهر بيبرس من جهته مستعداً لقبول عقد هدنة، إذ أن ما تبقّى من ممالك للصليبيين، وما بلغته أوضاعهم من الأسى والبؤس لا يشكل أي عقبة، وإذ أراد الالتفات إلى الخطر المغولي المتجدِّد؛ فإنه وافق على عقد هدنة مع الأمير إدوارد بعد توسط شارل أنجو، وتمَّ إبرام الصلح في قيسارية في (شوال ٦٧٠هـ/ أيار ١٢٧٢م)، وتضمَّن أن:

- تحتفظ مملكة عكا بممتلكاتها الحالية التي تألفت من السهل الساحلي الضيق الممتد من عكا إلى صيدا.
- تُمنح حكومة عكا حقَّ استخدام طريق الحجاج إلى الناصرة.
- تستمر الهدنة مدة عشرة أعوام وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات(٢).

---

(١) العيني: جـ٢ ص٧٤ ـ ٧٦، وقارن بالمنصوري: ص٧١. عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص٤٧، ٤٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص٣٨٣. العيني: جـ٢ ص٩٢. كان الظاهر بيبرس لا يحترم شروط الهدن =

وكفل الصلح الأمان لكونتية طرابلس، وبخاصة أن أميرها بوهيموند السادس قد توفي في (ذي القعدة ٦٧٣هـ/ أيار ١٢٧٥م) تاركاً ابناً قاصراً هو بوهيموند السابع ليخلفه في حكم الإمارة، وسرعان ما شهدت هذه الإمارة حرباً أهلية لم تخمد إلا باستعادة المماليك لها بعد بضعة أعوام، وتوقف القتال بين المسلمين والصليبيين بعد عقد الصلح طيلة ما تبقَّى من عهد الظاهر بيبرس.

تجدُّد محاولات التحالف بين المغول والغرب الأوروبي

يُعدُّ عهد أباقا أحد المراحل المهمة في تاريخ العلاقات بين مغول إيران والغرب الأوروبي، وذلك بفعل ازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكري ضد المسلمين. والواقع أن تفاعل القوى التي تورَّط بها أباقا تجاوزت حدود آسيا الغربية، وكانت إحدى نتائج تعاون سراي مع القاهرة أن أضحت القبيلة الذهبية تتصل اتصالاً وثيقاً مع الدول الأخرى التي لها علاقات سياسية مع المماليك، ومن بين هؤلاء مملكة هوهنشتاوفن في صقلية ومملكة كتالونيا في إسبانيا التي ترتبط بأواصر الصداقة العائلية مع صقلية. وبفعل التنازع السياسي الذي كان سائداً آنذاك في إيطاليا كانت عائلة هوهنشتاوفن معادية للبابا وللملك الفرنسي اللذين كانا يعملان معاً في الشرق الأدنى، وكانت الدولتان الصليبيتان اللتان بقيتا في الشرق، وهما طرابلس وعكا، تعتمدان اعتماداً كلياً على تأييد البابوية والدولة الفرنسية، وتُشكلان شوكة في جنب الدولة المملوكية. وهكذا أضحى الصليبيون وحماتهم الفرنسيون الأصدقاء الطبيعيين للإيلخان وذلك لكونهم يتحدون جميعاً في عدائهم للمماليك.

ويفعل تعرُّض أباقا لخطر المسلمين في الجنوب وخطر مغول القبيلة الذهبية في الشمال، وخطر المغول الجغتائين في تركستان في الشرق؛ اضطر أن ينتهج نهج والده في التقرب من المسيحيين، فتحالف مع الأرمن في كيليكية، وشكَّل زواجه من ماريا البيزنطية عاملاً آخر في زيادة التقارب، وأضحى إحدى دلائل الارتباط الشديد بينه وبين البابوية وملوك أوروبا الغربية، والتعاون لصدِّ خطر المسلمين المنطلق من مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى، فأجرى مباحثات مع البابوية وملوك الغرب الأوروبي عبر البعثات المتبادلة بهدف قيام تحالف بين الطرفين موجَّه ضد المسلمين واستعادة بيت المقدس منهم.

ففي بداية (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) وصلت إلى البابا كليمنت الرابع رسالة من أباقا

= إلا بقدر ما تخدم مصالحه، فيعقد صلحاً لمدة عشرة أعوام مثلاً، لا يلبث أن ينقضه بعد مرور سنة أو بضعة أشهر.

لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك، أتبعها برسالة ثانية في العام التالي.

ويبدو أن سفير أباقا الذي شرح للبابا محتواها أعلمه بأن الإيلخان قد اعتنق الديانة المسيحية فعلاً، وذلك لكسب الغرب الأوروبي لاقتراح أباقا في مشروع التحالف، بدليل أن البابا في رده على الرسالة، شكر الرب على أن أباقا قد اعتنق الديانة المسيحية، وأعلمه أن ملوك فرنسا وناقار وكثيراً من النبلاء وعدداً لا يُحصى من الجنود، يستعدون للذهاب إلى الأراضي المقدسة ليهاجموا أعداء الدين، وطلب منه أن يستمر في خططه ومشروعه[١].

وبوصول سفير البابا إلى البلاط الإيلخاني، قام أباقا على الفور بإرسال بعثة إلى الغرب الأوروبي حملت رسالة مؤرخة من أذربيجان في (٢ ذي القعدة ٦٦٦هـ/ ٣ آب ١٢٦٨م) يُعلم البابا بسوء موقف حلفاء مغول إيران في الشرق الأدنى، علماً أنه قبل ذلك بعامين، حطَّم المماليك أرمينية الصغرى في كيليكية في إطار خطة الظاهر بيبرس إخراجها من صراعه مع إمارة أنطاكية، كما هاجم هذه الإمارة في التاريخ المذكور أعلاه، ودمَّر أنطاكية وأحرقها، فوجَّه بذلك ضربة قاضية للتحالف المغولي - الأرمني - الصليبي، ولم يعد لبقية الصليبيين أي حدود مشتركة مع الأرمن أو مع مغول إيران.

ولهذا كان أباقا يتوقع استجابة فورية من الغرب الأوروبي للتحالف معه ضد المماليك بعد سقوط أنطاكية بدليل أنه دخل في تفاصيل مشروع التحالف المشترك، وأبلغ البابا في رسالته أنه سيرسل أخاه إيجاي على رأس قوة عسكرية كبيرة إلى بلاد الشام، وأن جيش البابا الذي أخبره المبعوث البابوي أن ملك فرنسا سيتولى قيادته وجيش ملك أراغون في إسبانيا، سوف يهاجمان المماليك من الناحية الأخرى لحصار وتدمير عدوهما المشترك.

وعندما وصلت سفارة أباقا إلى روما في عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م) وجدت البابا كليمنت الرابع قد توفي، فأبحرت إلى أراغون وبقية ممالك أوروبا الغربية. وكانت أنباء سقوط أنطاكية قد وصلت إلى مسامع الملوك والأمراء الغربيين، فاستعدوا لإرسال حملة صليبية جديدة لنجدة الصليبيين في الشرق.

وتجاه الأنباء التي بعث بها أباقا بجهوزية جيشه لغزو بلاد الشام فور وصول الجيوش الأوروبية على سواحلها، فإن جيمس الأول ملك أراغون قاد أسطوله إلى الشرق، لكنه تحطَّم بفعل هبوب عاصفة قوية أمام سواحل فرنسا، وعاد إلى بلاده، ولكن ولديه تابعا الرحلة إلى عكا على رأس قوة صغيرة لم تستطع استعادة قرية

(١) Howorth, Sir Henry Hayle: History of Mongols: III pp 278, 279.

صغيرة ومن ثمَّ عادا من حيث أتيا[1].

وكانت حملة الملك لويس التاسع قد انحرفت إلى تونس، وعاد الأمير إدوارد إلى بلاده. ونظراً لاعتقاد الأوروبيين بأن المغول سوف يهاجمون أوروبا بعد القضاء على المماليك؛ تراجعت فكرة تكوين تحالف عسكري معهم، والملفت أن الأوروبيين كانوا ينشدون أولاً صداقة المغول، ويسعون عبثاً في تحقيق هذا الهدف، أما الآن فإن المغول أضحوا يطرقون أبواب أوروبا ويسعون إلى كسب ود الغرب الأوروبي وتكوين حلف معهم.

ودعا البابا غريغوري العاشر في (ذي القعدة ٦٧٢هـ/ أيار ١٢٧٤م) إلى عقد مجمع مسكوني في مدينة ليون الفرنسية لبحث وسائل تقوية الكيان الصليبي وإرسال حملة صليبية عاجلة لإنقاذه، فاستغل أباقا عقد المؤتمر وأرسل بعثة لحضوره برئاسة الراهب الدومينيكاني داوود الأشبي، وقد أعدَّ تقريراً يتعلق بموقف الإيلخان حتى يطلع عليه أعضاء المؤتمر. وفعلاً قُرئت رسالة أباقا أمام المؤتمر وقد تضمَّنت ضرورة توطيد أواصر الصداقة بين المغول والمسيحيين، والعمل على نشر المسيحية ومحاربة المسلمين[2].

وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها غريغوري العاشر لتهيئة المناخ في أوروبا للقيام بحملة صليبية إلى الشرق، فإن الوعود التي تلقاها من الأمراء العلمانيين كانت مجرد شعارات لم تجد طريقها إلى التنفيذ العملي لانهماك هؤلاء بمشكلاتهم الداخلية والإقليمية، ومع أن كل شخص كان يتحدث نظرياً عن الحملة الصليبية إلا أنه لم يتقدم أحد بعروض عن المساعدة العملية التي تعد ضرورية للقيام بها[3].

وتكرَّرت السفارات بين الجانبيين، المغولي والمسيحي الأوروبي، في عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م) على أثر الضربة التي وجَّهها بيبرس لأرمينية الصغرى ومهاجمة سلاجقة الروم، ولكن من دون إحراز أي تقدم ملموس.

والحقيقة أن هذه السفارات على تعددها وامتدادها في المدى الزمني لم تُحقِّق الغاية المنشودة لكلا الطرفين، بفعل انهماك الملوك الأوروبيين والبابوية بمشكلاتهم الداخلية، وتراجع حماس الأوروبيين للحروب الصليبية بعد الانتكاسات الكبيرة التي مُني بها الصليبيون في الشرق بحيث فقدوا الأمل في إعادة إحياء الممالك الصليبية المندثرة، بالإضافة إلى اعتقادهم بأن التحالف مع المغول لم يعد مطلوباً في هذه

---

(١) Boyle, J.A: The IL - khans of Persia and the Christian West pp 556, 557.

(٢) انظر نص الرسالة عند: هلال، الملحق الثاني ص٢٧٧ ـ ٢٨٢.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٥٨٥.

الآونة. ومن جهته انهمك أباقا في الحروب المستمرة على جبهاته الثلاث في الغرب والشمال والشرق بحيث لم تُتح له التقاط أنفاسه على الرغم من حماسه الشديد لقيام مثل هذا التحالف.

وهكذا فشلت خطة قيام هجوم إيلخاني - مسيحي مشترك على شمالي بلاد الشام.

في عهد قلاوون الألفي

تمهيد

توفي الظاهر بيبرس يوم الخميس (٢٧ محرم ٦٧٦هـ/ ٣٠ حزيران ١٢٧٧م) وخلفه ابنه محمد بركة خان. لم يكن هذا السلطان على قدر المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه، ولم يتمتع بما تمتع به والده من القدرة على معالجة الأمور، بل كان شاباً مغروراً بنفسه منقاداً لنفوذ والدته وآراء صغار مماليكه ما أثار الأمراء الصالحية بخاصة، فنفروا منه وأجبروه على خلع نفسه من السلطة في (١٧ ربيع الآخر ٦٧٨هـ/ ٢٧ آب ١٢٧٩م) ونصَّبوا بدر الدين سلامش بن بيبرس مكانه ولم يتجاوز عمره سبع سنوات، واختاروا قلاوون الألفي أتابكاً له، وما لبث هذا الأتابك أن أعلن أنه لا فائدة من بقاء ذلك الصبي الصغير وأن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل، فخلع سلامش يوم الثلاثاء (١١ رجب/ ١٧ تشرين الثاني) ونصَّب نفسه مكانه بالاتفاق مع الأمراء والقضاة والأعيان(١).

انتهج قلاوون نهج سلفه الظاهر بيبرس من واقع التصدي للمغول والصليبيين لطردهم من بلاد الشام، لكنه انهمك في بداية حكمه بالأوضاع الداخلية التي استجدت مثل ثورة سُنقُر الأشقر ومحاولة بعض المماليك الظاهرية الخروج على حكمه، بالإضافة إلى الوضع الخارجي المتمثل بمهاجمة المغول أطراف بلاد الشام، فجنح إلى السياسة، ومن جهتهم كان الصليبيون في بلاد الشام في حال سيئة بفعل الصراعات الداخلية التي نشبت بينهم، وفشل هيو الثالث في إزالة ما بين الجماعات والهيئات الصليبية من تنافس وخلافات، وكانت بذور الانحلال أقوى من مجرد أسبابٍ سطحية يمكن إزالتها بسهولة، وعندما أعيته الحيلة وأدرك أن الصليبيين لن يستقيمَ حالهم غادر بلاد الشام عائداً إلى جزيرة قبرص في عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) من دون أن يُعيِّن نائباً عنه يرعى شؤون مملكته في بلاد الشام، وأرسل من قبرص رسالة

(١) النويري: جـ٢٩ ص٣٩٩. المقريزي: جـ١ ص٦٥٥ ـ ٦٥٧. العيني: جـ٢ ص٢٢٣، ٢٢٤. المنصوري: ص٩٠. ابن تغري بردي: المنهل الصافي: جـ٦ ص١٤.

إلى البابا غريغوري العاشر يشرح له سوء أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وتعذُّر إصلاحها[1]؛ لذلك وافقوا على الدخول في السلم الذي عرضه عليهم السلطان قلاوون.

وجدَّد قلاوون اتفاقية الهدنة التي كان بيبرس قد عقدها مع الفرسان الأسبتارية في حصن المرقب، كما عقد اتفاقية مع حكومة عكا في (١٢ محرم ٦٨٠هـ/ ٣ أيار ١٢٨١م) مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام[2].

وأبرم قلاوون اتفاقية هدنة مع بوهيموند السابع أمير طرابلس في (ربيع الآخر/ تموز) وأهم بنودها:

- يقيم نواب السلطان وصاحب طرابلس في مدينة اللاذقية للإشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة.

- لا يبني صاحب طرابلس خارج مدينته ولا في البلاد التي وقَّعت هذه الهدنة، حصناً أو قلعة، ويتعهد السلطان بألا يُنشئ قلعة تجاور البلاد التي وقَّعت هذه الهدنة.

- لا تنقضي هذه الهدنة بوفاة أحد الطرفين المتعاقدين أو بانتقال الحكم إلى غيره.

- مدة الهدنة عشر سنوات[3].

فتح حصن المرقب

لم يُقدم قلاوون على عقد الهدنة مع الإمارات الصليبية إلا تحت تأثير الخوف من المغول، ولم يكد يمضي أربع سنوات على هذا الصلح، زالت خلالها مخاوفه من ناحية هؤلاء وبخاصة بعد وفاة أباقا حامي المسيحيين وحليفهم في عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) واعتلاء أحمد تكودار العرش من بعده؛ حتى شرع في فتح المدن الصليبية[4].

وحرص الصليبيون في تلك المرحلة من تاريخهم في المشرق على مهادنة قلاوون والمحافظة على الصلح المعقود معه، حتى أن روجر سان سفرينو نائب شارل أنجو في عكا، خرج بنفسه لاستقبال قلاوون أثناء عودته من حمص في (شعبان/ تشرين الثاني)، وقدَّم له الهدايا الثمينة، وحذَّره من وجود مؤامرة لاغتياله دبرها المماليك

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١١٥٩، ١١٦٠. Grousset: III pp 669, 670.

(٢) راجع النص الكامل لبنود الهدنة في تاريخ ابن الفرات مجلد ٧ ص٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) النويري: جـ٣١ ص٧٤ ـ ٧٧.

(٤) ابن حبيب: جـ١ ص٧٢.

الظاهرية[1]، ومن ناحية أخرى، استمر هؤلاء غارقين في نزاعاتهم على الرغم من تهديد المماليك لمعاقلهم، ولم يُبدوا أي اهتمام جدِّي بمقاومة هذا التهديد كما لم يبرز من بين صفوفهم أي رجل بعيد النظر يوحِّدهم.

ففي صور، توفي يوحنا مونتفرات في (رمضان ٦٨٢هـ/ تشرين الثاني ١٢٨٣م)، ثم لحق به أخوه همفري حاكم بيروت في (ذي الحجة ٦٨٢هـ/ شباط ١٢٨٤م)، فقامت الأرملتان إيشيفا ومارغريت بتدبير شؤون المدينتين، وقد أسرعتا إلى تجديد الهدنة المعقودة مع المماليك، واستجاب قلاوون لهما[2].

وشرع قلاوون في استعادة حصن المرقب الكبير التابع للأسبتارية، وكان هؤلاء قد دأبوا على محالفة المغول واعتراض قوافل التجار المسلمين، فظهر في (صفر ٦٨٤هـ/ نيسان ١٢٨٥م) مع جيشه على سفح الجبل الذي يقع بأعلاه الحصن، وقد جلب معه أدوات الحصار، فحاصره وضربه بالمنجنيق بشكل متواصل مدة ثمانية وثلاثين يوماً حتى تصدعت الأسوار، وفتح أفراد جيشه ثقباً تحت أحد الأبراج وأشعلوا فيه النار حتى أخذ يتهاوى. وأدرك أفراد الحامية أنهم لا قِبَل لهم بمقاومة الحصار أكثر من ذلك بالإضافة إلى أنهم خسروا كل شيء، فاستسلموا في (ربيع الأول/ أيار)، وتقرر السماح لهم باللجوء إلى أنطرطوس وطرابلس، ودخل قلاوون الحصن[3].

شكَّلت استعادة الحصن انعطافة كبيرة نحو استعادة باقي المعاقل الصليبية التي اهتزَّت أركانها، فقد ارتاع سكان عكا، واضطر أمير طرابلس أن يُسلِّم مرقية لقلاوون، كما اشترت مارغريت حاكمة بيروت الصلح لمدة عشر سنوات، وتنازلت عن نصف دخل صور، وتعهَّدت بعدم تجديد تحصينات المدينة[4].

وهكذا بدأت الخطوات النهائية للقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام بعد أن تضعضعت أوضاع الصليبيين، وتخلَّى عنهم الغرب الأوروبي وأضاعوا من أيديهم فرصة التحالف مع الإيلخانيين في إيران، على الرغم من جهود الإيلخان أرغون، الذي خلف أحمد تكودار في عام (٦٨٣هـ/ ١٢٧٤م)، في مساندتهم، وقد تحالف هذا الإيلخان مع البابوية للقيام بحملة مشتركة ضد مصر وبلاد الشام لكنه لم يجد استجابة من الملوك والأمراء الأوروبيين[5].

---

(١) النويري: جـ٣١ ص٧٧. (٢) رنسيمان: جـ٣ ص٦٦٨.

(٣) المقريزي: جـ١ ص٧٢٨. رنسيمان: جـ٣ ص٦٦٨، ٦٦٩.

(٤) Lane - Poole: History of Egypt p 281. (٥) عاشور: جـ٢ ص١١٦٨.

فتح اللاذقية

لم تؤدِّ خسارة حصن المرقب إلى وعي الصليبيين للخطر الذي ما زال يتهددهم من جانب المماليك، واستمروا في نزاعاتهم الداخلية، وازداد الوضع سوءاً في عكا على أثر مغادرة روجر سان سفرينو المدينة إلى إيطاليا ومعه قواته، ثم توفي شارل أنجو ملك نابولي المهيمن على المدينة، وقد انغمس ابنه وخليفته شارل الثاني في الحرب في صقلية، ولم يكن نائبه في عكا أودو بواليشيان على مستوى الأحداث، فتضعضع سلطانه في الشرق[١]، وقد نتج عن هذا التطور السياسي أمران:

الأول، شكَّل هذا الحدث فرصة لقلاوون لمهاجمة أملاكه. ففي عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) انتهى أجل الهدنة التي انعقدت في قيسارية، فعرض السلطان المملوكي على أودو تجديدها لمدة عشر سنوات أخرى، فوافق.

الثاني، توجَّه أهل عكا إلى هنري الثاني ملك قبرص ومملكة بيت المقدس السابق يلتمسون حمايته، فلبّى التماسهم، وأبحر من قبرص، ووصل إلى عكا في (جمادى الأولى ٦٨٥هـ/ تموز ١٢٨٦م)[٢].

ويبدو أنه لم يتمكَّن من البقاء في المدينة أكثر من بضعة أسابيع، عاد بعدها إلى قبرص، وذلك بسبب ما واجهه من المشكلات من جانب الطوائف الدينية، بالإضافة إلى ضعفه وتردُّده في اتخاذ القرارات، لذلك قنع بالبقاء في قبرص مكتفياً بإرسال النجدات بين حين وآخر إلى الصليبيين كلما دعت الحاجة، وأناب عنه خاله بلدوين إبلين.

وازداد وضع الصليبيين سوءاً بسبب ما نشب من قتال في إيطاليا بين جنوة وبيزا امتد إلى بلاد الشام، فهاجم أسطول جنوي في (أوائل ٦٨٦هـ/ ربيع ١٢٨٧م) مستعمرات البيازنة، وحرص قائد الأسطول الجنوي على المرور بالإسكندرية للحصول على تأييد السلطان المملوكي في الوقت الذي أخذت فيه سفنه تهاجم البيازنة وسفنهم عند عكا[٣].

شكَّلت هذه الأحداث فرصة طيبة للسلطان قلاوون الذي استغلها بذكاء. فأرسل حملة عسكرية في التاريخ المذكور لفتح برج اللاذقية بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي.

وكان تجار حلب كثيراً ما اشتكوا بأنهم لا يأمنون على إرسال بضائعهم إلى هذا

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٦٦٤.

(٢) المرجع نفسه: ص٦٦٥.

(٣) المرجع نفسه: جـ٣ ص٦٨٠.

الميناء الذي يُعدُّ آخر ما تبقَّى من إمارة أنطاكية، وإذ عدَّ قلاوون أن اللاذقية جزء من إمارة أنطاكية القديمة فإنها لا تدخل في الهدنة المعقودة مع إمارة طرابلس، وفتح الأمير طرنطاي المدينة بسهولة، ولم تحاول أي إمارة صليبية النهوض لمساعدتها، وتشير المصادر المعاصرة أن الأمير طرنطاي استعاد في حملته هذه حصون صهيون وبرذية، وكانتا بيد سُنقُر الأشقر[1].

فتح طرابلس

لم يعش بوهيموند السابع أمير طرابلس طويلاً بعد استعادة المماليك لثغر اللاذقية، إذ توفي في (رمضان ٦٨٦هـ/ تشرين الأول ١٢٨٧م) من دون أن يترك ذرية، فورثته أخته لوسيا، زوجة مارغوتوس أمير البحر السابق لدى شارل أنجو، ولما لم يكن لنبلاء طرابلس وفرسانها وأعيانها رغبة في أن تحكمهم امرأة تكاد تكون مجهولة، فضلاً عن ارتباطها بأعدائهم آل أنجو؛ عرضوا الحكم على الأرملة سيبيلا أميرة أرمينية الصغرى، فكتبت إلى صديقها بارثلميو أسقف انطرطوس، تدعوه إلى أن يكون نائباً لها، لكن نبلاء طرابلس أبلغوها بمعارضتهم لهذا التدبير، ولما أصرَّت على قرارها، خلعوا الأسرة الحاكمة عن العرش وأعلنوا عن قيام حكم بلدي مستقل (قومون) برئاسة بارثلميو أمبرياتشو صاحب جبيل[2].

وحدث في غضون ذلك أن قدمت لوسيا إلى عكا في طريقها إلى طرابلس لتتسلم إرث أخيها، وعندما علمت بالتطورات السياسية السريعة فيها التمست المساعدة من الأسبتارية، الحلفاء القدامى للأسرة، وردَّ المجلس البلدي على ذلك بالتماس المساعدة من جنوة، وطلب بارثلميو أمبرياتشو تأييد السلطان قلاوون ووعده باقتسام طرابلس معه إذا نجح في تحقيق أطماعه وهي الاستئثار بالكونتية لنفسه[3].

غير أن الرأي العام في طرابلس اتجه إلى مساندة قضية لوسيا، فكتب القومون عندئذٍ إليها يعرض الاعتراف بها إذا أقرَّت وضعه، ويبدو أنها وافقت على أن تعترف بامتيازات القومون، كما اتفقت مع الجنويين الذين اعترفوا بحقوقها في طرابلس ما أثار البيازنة والبنادقة في ظل الصراع التجاري بينهم، فضلاً عن مقدمي الداوية والأسبتارية والتيوتون بالإضافة إلى بارثلميو أمبرياتشو[4].

---

(١) ابن عبد الظاهر: ص١٤٨ ـ ١٥٣. المنصوري: ص١١٧. ابن حبيب: جـ١ ص١٠٨. ابن تغري بردي: جـ٧ ص٣١٩.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٦٨١، ٦٨٢.

(٣) ابن تغري بري: جـ٧ ص٣٢٠، ٣٢١.

(٤) رنسيمان: جـ ٣ ص ٦٨٣، ٦٨٤.

وفي ضوء هذه التطورات، يمكن أن نُفسِّر ذهاب اثنين من الصليبيين إلى القاهرة يُرجَّح أنهما من البنادقة ليطلبا من قلاوون أن يتدخل، وحذَّراه بأنه إذا سيطرت جنوة على طرابلس، فسوف تفرض سلطانها على كل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ما يُهدِّد تجارة الإسكندرية[1].

لم يكن قلاوون بحاجة إلى من يدفعه إلى قتال الصليبيين وطردهم من بلاد الشام، وتحريضه ضد البيت الحاكم في طرابلس، فقد تطلَّع المماليك منذ عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) إلى فتح طرابلس نظراً لموقعها العسكري بالإضافة إلى تحالف حكامها مع المغول وتنكيلهم بالمسلمين، إنما كانوا يتحينون الفرص لمهاجمتها.

وجاء الوقت الذي يُعطي المماليك فرصة فتح المدينة بعد أن اضطربت أوضاعها، وانقسم سكانها على بعضهم، فقد وردت إلى قلاوون إشارة من نائبه في دمشق تفيد بأن الصليبيين في طرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين[2].

كانت هذه الإشارة كافية لأن يقوم قلاوون بمهاجمة المدينة، فأعدَّ جيشاً ضخماً بلغ تعداده أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، وخرج على رأسه من القاهرة في (محرم ٦٨٨هـ/ شباط ١٢٨٩م) متوجهاً إلى بلاد الشام من دون أن يُحدِّد هدفه[3].

ويبدو أن مقدم الداوية علم عن طريق رشوة أحد الأمراء وهو بدر الدين بكتاش الفخري بأن هدف الحملة مدينة طرابلس، فحذَّر سكانها من الخطر المحدق بهم، لكن الخلافات والنزاعات الداخلية استمرت ناشطة بين الطوائف المسيحية في المدينة، فلم يلتفتوا إلى التحذير حتى اجتاز الجيش المملوكي في (٧ ربيع الأول/ ٣١ آذار) البقيعة واحتشد أمام أسوارها[4].

وذُعِر سكان طرابلس، ودفعتهم المحنة إلى التضامن والتآزر، وأرسل إليهم الملك هنري الثاني قوة من فرسان قبرص على أربع سفن عسكرية بقيادة أخيه عموري، كما ساندت الطوائف العسكرية الأميرة لوسيا، وتوحَّدت أساطيل جنوة وبيزا والبندقية بعد أن تناسوا خلافاتهم، للدفاع عن المدينة من جهة البحر، وأسهمت عكا بنصيب من المساعدات.

وضرب السلطان قلاوون الحصار على طرابلس «وضايقها مضايقة شديدة»[5]،

(١) عاشور: جـ٢ ص١١٧٣.
(٢) العيني: جـ ٢ ص٢٧٩. ابن تغري بردي: جـ٧ ص٣٢١.
(٣) أبو الفدا: جـ٢ ص٣٥٧، ٣٥٨. النويري: جـ٣١ ص٤٦، ٤٧. المقريزي: جـ٢ ص٢١١.
(٤) أبو الفدا: جـ٢ ص٣٥٨. Grousset: III p 742.
(٥) ابن كثير: جـ١٣ ص٣١٣.

وشرع مهندسوه في نقب الأسوار لإحداث ثغرة فيها، فانهار أحد الأبراج بفعل الضرب المتواصل ما فتَّ في عضد المدافعين، وما توافر للمسلمين من أدوات الحصار، والتفوق العددي، دلَّ على أنه لا سبيل إلى المقاومة، فقرَّر البنادقة الانسحاب وأقلعوا إلى أحد موانئ كيليكية، وحذا الجنويون حذوهم بعد أن أدركوا أن لا فائدة من المقاومة، ويبدو أن رحيلهم أثار حالاً من الفوضى داخل المدينة، فاستولى اليأس على السكان، ما مكَّن قلاوون من شنِّ هجوم عام في (٤ ربيع الآخر/ ٢٧ نيسان)، وتدفقت جموع الجيش إلى داخل المدينة عبر السور الذي انهار، وحاول بعض السكان النجاة عن طريق البحر «فنجا أقلهم في المراكب، وقُتل غالب الرجال» وسُبيت ذراريهم، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة، ونجا أفراد الهيئة الحاكمة الذين أبحروا سالمين إلى جزيرة قبرص باستثناء قائد الداوية الذي لقي مصرعه، وحاول بعض الفارين الالتجاء إلى جزيرة القديس نيقولا القريبة، لكن فرسان المماليك وصلوا إليهم بعد أن خاضوا المياه الضحلة بخيولهم وقتلوهم وسبوا نساءهم وأسروا أطفالهم، وقد حاول المؤرخ أبو الفدا الذي حضر فتح طرابلس أن يزور الجزيرة بعد بضعة أيام، لكن حمله على الرجوع ما انبعث من الجثث النتنة من رائحة كريهة[(١)].

وأمر قلاوون بتدمير المدينة بعد أن ظلَّت بيد الصليبيين مائة وخمسة وثمانين عاماً تقريباً، ومساواتها بالأرض حتى لا يحاول الصليبيون الاستيلاء عليها مرة أخرى بفضل سيطرتهم على البحر، وأمر بالمقابل بوضع الأساس لبناء مدينة جديدة بجوار النهر حول حصن صنجيل في الداخل بعيداً عن الشاطىء، وفتح أنفة والبترون من دون مقاومة[(٢)].

التمهيد لفتح عكا

شكَّل سقوط طرابلس صدمة عنيفة لسكان عكا كما أثار النقمة في الغرب الأوروبي، وجعل المدن الصليبية في بلاد الشام تحت رحمة السلطان قلاوون، فكتب البابا نيقولا الرابع إلى ملوك الغرب يلتمس تقديم المساعدة، غير أن النزاعات الداخلية بين الملوك والأمراء والبابوية بشأن قضية صقلية، صرفهم عن التفكير في الاشتراك بحملة صليبية باستثناء إدوارد ملك إنكلترا الذي وعد بالقيام بحملة صليبية أخرى، غير أن ما تورَّط به في ويلز وأسكوتلندا منعه من التحرك، وتنصَّل ملك

---

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه. المقريزي: جـ٢ ص٢١١.

فرنسا من كل مسؤولية، كما أن ملكي أراغون وصقلية وقَّعا في عام (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) معاهدة مع قلاوون تُلزمهما بمساعدته في أي حرب صليبية ضد اللاتين في بلاد الشام إذا نقضوا الهدنة المبرمة معه[١]، وذهبت عبثاً صيحات هنري الثاني ملك قبرص الذي أرسل يلتمس المساعدة من الغرب الأوروبي موضحاً أن يوم عكا قريب[٢].

ولم يُلبِّ نداء البابا سوى جماعات فقيرة من شمالي إيطاليا الذين تطلعوا إلى مغامرة تعود عليهم بالفائدة، ولم يكن البابا راضياً عنهم، غير أنه قبل مساعدتهم مضطراً، وجعلهم تحت رئاسة أسقف طرابلس، وقدَّمت البندقية عشرين سفينة وألف وستمائة مرتزق على الرغم من أنها ابتهجت لفقدان جنوة لقواعدها في طرابلس، لكنها أحسَّت بشعور مختلف حول عكا حيث كانت لها السيطرة التجارية، كما قدَّم ملك أراغون خمس سفن عسكرية[٣].

ويبدو أن قلاوون لم يكن ينوي مهاجمة عكا عقب فتحه طرابلس مباشرة، فتوجَّه إلى دمشق واستقبل فيها رسل الملك هنري الثاني الذين طلبوا تجديد الهدنة بين الطرفين، فاستجاب لطلبهم، وجدَّد الهدنة المعقودة مع عكا لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام[٤].

وحرصت جنوة على عقد صلح مع السلطان لحماية تجارتها، وتمَّ لها ما أرادت في (جمادى الأولى ٦٨٩هـ/ أيار ١٢٩٠م)، وحصلت على امتيازات تجارية عدة في الإسكندرية.

وبفضل هاتين الاتفاقيتين عادت الثقة بين عكا وصور وبيروت من جهة والسلطان قلاوون من جهة أخرى، واستؤنفت العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين، وأخذ تجار دمشق يُعيدون إرسال قوافلهم إلى الساحل، فانتظمت القوافل بين دمشق وبيروت، وتوافر من المحصول في تلك السنة ما دفع الفلاحين المسلمين إلى عرض منتجاتهم في أسواق عكا[٥].

لكن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً، إذ ما لبث أن وصل الصليبيون الإيطاليون في (شعبان/ آب) فأثاروا الارتباك للسلطات بفعل ما اشتهروا به من الفجور والإخلال

---

(١) سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر ص٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) Mas Latir: Histoire de Lile de Chypre, I p486.
(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٦٩٠، ٦٩١.
(٤) النويري: جـ٣١ ص٤٩، ١٦٣. Stevenson: p351.
(٥) Grousset: III p748.

بالأمن، كما افتقروا إلى المرونة السياسية، ولم يحظوا بخبرة في القتال، وأرادوا فور نزولهم إلى البر أن يُعبِّروا عن حماسهم الديني، فدفعهم جهلهم إلى مهاجمة التجار والفلاحين المسلمين في عكا في ظل الأمان المعطى لهم بعد عقد الصلح، وإذ اعتقدوا أن كل ذي لحية مسلم، فقد هلك أيضاً عدد كبير من المسيحيين وبخاصة السريان(١).

وسارعت حكومة عكا إلى الاعتذار وتعهَّدت بمعاقبة المذنبين، وأرسل السلطان وفداً إلى المدينة يطالب بتسليم كل المذنبين فوراً، فعقد الصليبيون مجلساً للتشاور في هذا الطلب، واستقر الرأي على تقديم اعتذار جاء شكلياً تضمَّن أن الصليبيين الذين ارتكبوا هذه المذابح هم أجانب وأغراب خارجون على سلطة الحكومة، وبالتالي فالحكومة غير مسؤولة عن تصرفاتهم(٢).

لم يكن لدى قلاوون من إجابة سوى الالتجاء إلى السلاح، وأجاز الفقهاء نقض الهدنة، فأخذ يتجهَّز للقيام بحملة ضد عكا، وتسربت أنباء استعداداته إلى الصليبيين في بلاد الشام، فأسرع مقدم الداوية إلى تحذير حكومة عكا التي لم تأبه بهذا التحذير(٣).

ولم يكد قلاوون يفرغ من استعداداته العسكرية ويغادر القاهرة لحرب الصليبيين في بلاد الشام حتى توفي فجأة في (ذي الحجة ٦٨٩هـ/ كانون الأول ١٢٩٠م) في مسجد التبر على مسافة خمسة أميال من القاهرة، ما أراح سكان عكا، وقد حصل وهو على فراش الموت على وعد من ابنه خليل بأنه سوف يواصل الحملة(٤).

في عهد الأشرف خليل

فتح عكا

خلف خليل أباه قلاوون، فجلس على عرش السلطنة المملوكية في (٧ ذي القعدة/ ١١ كانون الأول) وتلقَّب بلقب الملك الأشرف(٥). لم يكن لوفاة قلاوون أي

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٦٩١.
(٢) المرجع نفسه: ص٦٩٢. King: p239.
(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٦٩٣. Grousset: III p749.
(٤) المنصوري: ص١٢٢. ابن حبيب: جـ١ ص١٣٥.
(٥) المنصوري: ص١٢٥. النويري: جـ٣١ ص١٧٨. راجع نص نسخة العهد عند القلقشندي جـ١ ص١٧٠ - ١٧٧.

أثر في تبدل الموقف السياسي القائم بين المماليك وبين ما تبقَّى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وقد أصرَّ الأشرف خليل على إتمام المشروع الذي كان قد بدأ به والده، وهو فتح عكا وإخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام.

واستفادت حكومة عكا من الهدوء الذي ساد بسبب ما نشب من نزاع داخلي عند اعتلاء الأشرف خليل العرش المملوكي(١)، فأرسلت سفارة إلى القاهرة برئاسة أحد أعيان عكا وعضوية فارسين من الداوية والأسبتارية، وكاتب(٢)، بهدف طلب العفو من السلطان وثنيه عن مهاجمة عكا، لكن الأشرف خليل لم يقبل منهم ما اعتذروا به ورفض استقبال أعضاء السفارة بل إنه زجَّ بهم في السجن، وبذلك لم يعد هناك مفر من القتال(٣).

واحتفل السلطان بهذه المناسبة، فأقام حفلة ذكر عند قبة والده، ووزَّع العطايا على القضاة والفقهاء، ثم خرج من القاهرة في (صفر ٦٩٠هـ/ شباط ١٢٩١م) في طريقه إلى دمشق فوضع عياله ونساءه فيها ثم غادرها إلى عكا، وأرسل إلى كل ولاة الشام بإمداده بوسائل النقل، لنقل الذخائر والجنود وموافاته إلى أسوار عكا، وكان من بين القوات التي انضمَّت إلى الجيش الرئيس، قوات حماة، وصحبها المؤرخ أبو الفدا، وقُدِّر عدد أفراد القوات الإسلامية التي اشتركت في الحصار بستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل، فضلاً عن عدد ضخم من آلات الحصار والضرب، منها اثنين وتسعين منجنيقاً من بينها منجنيق ضخم يسير على مائة عجلة سُمي المنصوري(٤).

حملت استعدادات الأشرف خليل سكان عكا على توجيه استغاثات عاجلة إلى أوروبا الغربية، لم تؤد إلا إلى نتيجة ضئيلة، فقد وصل إلى المدينة عدد من الفرسان الإنكليز، وتناست الطوائف الدينية والجاليات الصليبية حزازاتها القديمة، وتكاتفت للدفاع عن المدينة(٥)، وحشد الداوية والأسبتارية كل قادر على حمل السلاح من سكان عكا ليقوم بدوره في الدفاع، واستدعى قائد طائفة التيوتون عدداً من أتباعه، كما أرسل الملك هنري الثاني عدداً من الجنود من قبرص، وعهد إلى أخيه عموري

(١) عمد الأشرف خليل فور اعتلائه العرش إلى إبعاد أمراء أبيه عن مناصب الدولة وعيَّن مكانهم أحداثاً من أعوانه وسمَّاره، ما أوغر صدر هؤلاء عليه فراحوا يحيكون الدسائس ضد حكمه، وكان على رأسهم حسام الدين طرنطاي الذي عزَّ عليه ألا يفوز هو بالعرش.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٦٩٤، ٦٩٥.

(٣) المقريزي: جـ١ ص٢٢٢.

(٤) أبو الفدا: جـ٢ ص٣٥٩. المقريزي: جـ٢ ص٢٢٣.

(٥) King: pp 291, 292.

بتولي الدفاع عن عكا، فبلغ حشود الصليبيين ثلاثين إلى أربعين ألفاً، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألفاً من المشاة، والباقين من عامة الحجاج[١].

وصل الجيش المملوكي إلى عكا في (٧ ربيع الآخر/ ٩ نيسان) وضرب عليها حصاراً مركزاً[٢]، وعبَّأ المماليك جيشهم ونشروه حول المدينة، ونصب الأشرف خليل خيمته تجاه برج المندوب البابوي على مسافة قريبة من الشاطىء.

وتمركز الصليبيون في النقاط المهمة، فاتخذ عموري مكانه عند الزاوية التي يقع فيها برجا الملكين هنري الثاني وهيو، وتمركز الفرسان الفرنسيون والإنكليز عن يمينه، ثم قوات البنادقة والبيازنة فضلاً عن جند قومون عكا، وانتشر الأسبتارية والداوية عن يسار عموري، وعزَّز الفرسان التيوتون الكتيبة الملكية عند البرج الملعون[٣]، لكنهم افتقروا إلى الأسلحة، وظلت المؤن ترد إليهم بانتظام بفضل سيطرتهم على البحر، وتبادل الطرفان الإسلامي والمسيحي الهجمات والمناوشات.

ووصل في (جمادى الأولى/ أيار) الملك هنري الثاني قادماً من قبرص على رأس مائة من الفرسان وألفين من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات، أقلَّتهم أربعون سفينة، فابتهج الصليبيون بقدومهم، ولم يكد ينزل إلى الأرض حتى تولى القيادة، ما أثار قوة حماسة جديدة في المدافعين، فتشجعوا على الثبات والمقاومة[٤]، غير أنه اتضح له بعد ذلك أن الأمر لا يخلو من الصعوبة بسبب قلَّة المدافعين وكثرة المهاجمين.

انطلاقاً من هذا الواقع قرَّرالملك هنري الثاني التفاهم مع السلطان في محاولة أخيرة لإعادة السلام، فأرسل رسولين من الداوية إلى المعسكر المملوكي وطلبا من السلطان عقد هدنة، ووعداه بإنصاف كل شكوى، فاستقبلهما خارج خيمته وتسلَّم منهما الرسالة وسألهما: «ألم تحضرا معكما مفاتيح المدينة؟ فلما أنكرا، قال: ذلك هو مطلبي، ووعدهما بتأمين خروج جميع الصليبيين من عكا ومعهم أموالهم، إذا استسلموا، ولم تؤخذ المدينة عنوة»[٥].

وفي الوقت الذي كانت فيه المفاوضات دائرة، قذفت عرَّادة من داخل الأسوار حجراً سقط قرب مكان الاجتماع، فاستشاط الأشرف خليل غضباً وهمَّ بقتل الرسولين، لكن الأمير الشجاعي منعه من ذلك.

ونتيجة لفشل المفاوضات أزمع الملك هنري الثاني على الدفاع عن عكا حتى النهاية، لكن اعترضته صعوبات عدة لعل أهمها:

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٦٩٦، ٦٩٧. عاشور: جـ٢ ص١١٨١.
(٢) المقريزي: جـ٢ ص٢٢٣.
(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٦٩٨.
(٤) ابن تغري بردي: جـ ٨ ص٦.
(٥) Grousset: III p 755.

- قلَّة المدافعين بالمقارنة مع كثرة المهاجمين، كما ذكرنا.
- تجدُّد النزاعات الداخلية بين بعض فصائل الصليبيين.
- قلَّة التجهيزات.

ونجح منقبو الجيش المملوكي في إحداث ثقوب في الأبراج أشعلوا فيها النيران حتى أخذت بالتداعي، ثم شقَّ المماليك طريقهم إلى الداخل وأجبروا المدافعين على التقهقر إلى الخط الداخلي من الأسوار.

ووقع في غضون ذلك هجوم مركَّز على باب القديس أنطوان، غير أن المهاجمين فشلوا في اقتحامه، وأصدر السلطان أمراً بشن هجوم عام على امتداد الأسوار ففَّت ذلك في عضد الصليبيين، ولم يمض وقت طويل حتى شقَّ المماليك طريقهم إلى القلعة وأجبروا حاميتها على التراجع والخروج ثم دخلوها واستقروا داخل المدينة، ودار قتال عنيف في الشوارع والأزقة، وسرعان ما فَقَدَ الصليبيون الأمل في الانتصار بسبب سوء أوضاعهم القتالية وتجدُّد النزاعات الداخية فيما بينهم، ما دفع الملك هنري الثاني إلى مغادرة عكا مع قواته وفرسانه فانعكس ذلك سلباً على من تبقَّى داخل المدينة.

وشاعت الفوضى في عكا على إثر ذلك، واندفع الجند والسكان إلى الميناء، وتزاحموا على القوارب يلتمسون الوصول إلى السفن الراسية قبالة الشاطىء، ويبدو أنها لم تكن كافية فلم تُنقذ اللاجئين كلهم كما غرق بعضها بسبب ثقل الحمولة، ووقع عدد ضخم من سكان عكا في قبضة المماليك ليُقتلوا أو يؤسروا، أما الذين لزموا بيوتهم، فقد تقرَّر نقلهم أحياء وبيعهم أرقاء، وقد بلغت الأعداد من الوفرة أن هبط ثمن الفتاة في سوق الرقيق بدمشق إلى درهم، على أن من تعرَّض للقتل من الصليبيين كان كبيراً.

ولم تكد عكا تصبح في قبضة المسلمين في (١٧ جمادى الأولى/١٨ أيار) حتى أمر الأشرف خليل بتدميرها وفق خطة موضوعة حتى لا تبقى رأس حربة لما قد يقوم به الصليبيون من اعتداءات على بلاد الشام، وتُعدُّ معركة عكا آخر المعارك الفاصلة في الحروب الصليبية التي شهدها الشرق الإسلامي[(١)].

فتح ما تبقَّى من المعاقل الصليبية

كان سقوط عكا بمثابة الضربة القاضية التي نزلت بالصليبيين في بلاد الشام، إذ لم يصبح لهم بعد ذلك قائمة، فما تبقَّى من مدن لهم لم تلبث أن شاركت عكا في

---

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٣٥٩، ٣٦٠. النويري: جـ٣١ ص١٩٥ ـ ١٩٩. العيني: جـ٣ ص٥٤ ـ ٦٢. ابن تغري بردي: جـ٨ ص٥ ـ ٨. رنسيمان: جـ٣ ص٦٩٤ ـ ٧١٢. عاشور: جـ ٢ ص١١٨٠ ـ ١١٨٣.

مصيرها، ولم يكن منتظراً منها أن تظل على قيد الحياة بعد أن فقدت موارد تموينها وحمايتها، فسقطت صور في (رجب/ تموز)[1]، والصرفند وصيدا وبيروت التي هدم الأشرف خليل أسوارها، وحطَّم قلاع أسرة إبلين، وحوَّل كاتدرائيتها إلى مسجد، وجمع سكانها من الصليبيين والمسيحيين المحليين وأكثرهم من الموارنة وأرسلهم إلى دمشق ومنها إلى مصر حيث خيَّرهم السلطان بين العودة إلى بيروت أو التوجه إلى جزيرة قبرص، فاختاروا الجزيرة وتوجَّهوا إليها[2]. ولم يلبث الأشرف خليل أن فتح حيفا من دون مقاومة، وجبيل، ولم يبق بيد الصليبيين بعد هذه الفتوح سوى موضعين هما أنطرطوس وعثليث، ويبدو أن حامية كل منهما لم تكن بقادرة على الصمود، فجلت عنه، ولم يعد بحوزة الداوية سوى جزيرة أرواد التي تقع على مسافة ميلين من الساحل مقابل أنطرطوس، وظلوا محافظين على موقعهم هذا طيلة اثني عشر عاماً، ولم يغادروا الجزيرة إلا في عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)[3].

وظلت الجيوش المملوكية بعد طرد الصليبيين تجوب الساحل من أقصاه إلى أقصاه بضعة أشهر، في خطوة وقائية تُدمِّر كل ما تعدَّه صالحاً لنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى والتحصن فيه من جديد.

وبذلك تكاملت الفتوح واستعاد المسلمون جميع البلاد الساحلية، وخُتمت صفحة الحروب الصليبية في بلاد الشام بعد أن مضى عليها قرنان من الزمن، كانت تشتد فيها وطأتها وتخف، وساد الهدوء على امتداد الساحل الذي ظل أزماناً طويلة ميداناً لحروب متواصلة، ولم يعد بوسع المجتمع الغربي آنذاك أن يوَّجه حملات صليبية أخرى إلى هذه البلاد بسبب ما وقع من نزاعات وما واجهه من مشكلات، كما أن هذا المجتمع شهد ثورة اقتصادية وهو بصدد الانعتاق من عصر القرون الوسطى الضاغط، وتراجعت جذوة الحماس الديني التي تدفع أمراءه وحكامه للمسير إلى الشرق، وتحث شعويه على الاشتراك في الحملات الصليبية.

وعلى الرغم من توقف الحملات الصليبية إلا أن الروح الصليبية لم تخمد تماماً في الغرب الأوروبي، وبقيت العادات والممارسات الصليبية حيَّة، وإذا كانت المغامرة الصليبية الكبيرة قد انتهت إلا أن الحلم لم يتلاش، وستظهر مشاريع صليبية بعد سقوط عكا تُعبِّر عن الروح الصليبية ضد الإسلام والمسلمين.

---

(١) ابن حبيب: جـ١ ص١٣٧. ابن تغري بردي: جـ٨ ص٨.

(٢) أبو الفدا: جـ٢ ص٣٦١. النويري: جـ٣١ ص٢١٢، ٢١٣. ابن تغري بردي: جـ٨ ص١٠. صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص٢٤.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٧١٢.

الفَصْلُ التاسِعَ وَالعِشرُون

أواخر الحملات الصليبية

تمهيد

لقد خرجت الحركة الصليبية بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام عن إطارها الخاص الذي حدَّده البابا أوربان الثاني في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) بالاستيلاء على بيت المقدس وتخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين، وشملت نيرانها كل البلاد التي يتواجد المسلمون فيها. وهكذا أضحت إسبانيا وآسيا الصغرى وشرقي أوروبا، بعد سيطرة العثمانيين عليها، وشمالي أفريقيا، ميادين جديدة للحركة الصليبية، ما يدل على أن مفهوم هذه الحركة كان أوسع من ذلك وهو شن الحرب على المسلمين بعامة بدافع التعصب، وكراهية الإسلام، والرغبة في التوسع والاستعمار، بدليل توجُّه الحملات ذات الطابع الصليبي إلى الإسكندرية وشمالي أفريقيا وشرقي أوروبا.

واستمرت الروح الصليبية ناشطة نسبياً في الغرب الأوروبي، وأسفرت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين عن تدفق جموع أوروبية إلى الأراضي الإسلامية مشبعة بهذه الروح.

فقد سعى البابا نيقولا الرابع (٦٨٧ ـ ٦٩١هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٢٩٢م) إلى تجهيز حملة صليبية جديدة بعد أن استاء لسقوط طرابلس وعكا في أيدي المسلمين، لكن أوضاعه الداخلية المتدهورة ووفاته بعد ذلك، وتراجع هيبة البابوية أمام تصاعد سلطة الأباطرة، وانهماك الملوك المتحمسين للفكرة الصليبية، مثل الملك الإنكليزي إدوارد الاول، بمشكلاتهم الداخلية[1]؛ لم تسمح القيام بذلك.

والواقع أن ملكي أرمينية الصغرى وقبرص كانا أشد المتحمسين اهتماماً بالمشكلة نظراً لأن مملكتيهما أصبحتا في خط المواجهة، غير أنهما كانا حريصين بألا يُثيرا غضب المماليك، إذ ترتَّب على مملكة أرمينية الصغرى أن تواجه قوة المماليك في

---

(١) انهمك الملك إدوارد الأول آنذاك بإنشاء جيش قوي وفتح بلاد ويلز وضم سكوتلندا، كما ألغى سيادة البابا على إنكلترا.

مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى قوة الأتراك في الأناضول، كما تحتَّم على ملك قبرص أن يهتم باللاجئين الصليبيين الذين فروا من الشرق، يُضاف إلى ذلك، ما نشب من النزاعات بين الأسرتين الحاكمتين في كل دولة.

أما إيلخانات فارس، الحلفاء الطبيعيون للصليبيين والغرب الأوروبي، فقد استبدَّ بهم اليأس بعد الضربات الشديدة التي أنزلها بهم المماليك، كما فشل قادتهم في إثارة الغرب الأوروبي، وكان لاعتناق قادتهم الدين الإسلامي وتفشي الإسلام في مجتمعهم؛ سبباً عاماً آخر فصم عرى الصداقة والتحالف بين الطرفين، على الرغم من المحاولات البائسة التي بذلها بعض الإيلخانات بعد اعتناقهم الإسلام للتحالف مع الغرب الأوروبي مثل محمود غازان.

أما الطوائف الدينية العسكرية التي أقلقها طرد الصليبيين من الشرق، فقد نقلت نشاطها إلى ميادين أخرى، فتوجَّه التيوتون إلى أملاكهم الواقعة على بحر البلطيق في شمالي أوروبا حيث ركَّزوا نشاطهم السياسي والديني، في حين اتخذ الداوية والأسبتارية جزيرة قبرص مقراً مؤقتاً لهما، لكنهما انغمسا في المشكلات الداخلية للجزيرة، وتعرَّضا للمضايقة، لذلك لم تسمح لهما أوضاعهما بتجهيز حملة صليبية جديدة من دون تلقي مساعدة خارجية، إلا أن الداوية ضايقوا المماليك بما كانوا يشنونه من غارات على السواحل، وبخاصة طرابلس انطلاقاً من جزيرة أرواد التي كانت تقع تحت سيطرتهم، كما قطعوا الطريق على السابلة، ما دفع نائب طرابلس سيف الدين الكرجي إلى التماس المساعدة من السلطان.

جهَّز السلطان الناصر محمد حملة عسكرية في عام (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) بقيادة نائب طرابلس يسانده أسطول بحري، لفتح الجزيرة وطرد فرسان الداوية منها، وقد نجح في ذلك ما قضى على البقية الباقية من معاقل الصليبيين[١]، ثم غزا الأسبتارية جزيرة رودس في عام (٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م) بمساعدة بعض الجنويين وكانت تحت السيادة البيزنطية واتخذوها وطناً آخر لهم، وحكموها حكماً مستقلاً.

أما الداوية الذين نزحوا إلى بلدان جنوبي أوروبا وبخاصة فرنسا، فقد استثاروا حقد الناس لهم باشتغالهم بالأعمال المالية التي حقَّقوا بواسطتها نجاحاً كبيراً وحصلوا على ثروات طائلة، وقد استغل الملك الفرنسي فيليب ذلك الشعور لحل هيئتهم ومصادرة أموالهم وعقاب أعضائها[٢].

وعلى الرغم من أن بعض الرحالة والمفكرين الأوروبيين، أمثال الراهب الفرنسيسكاني فيدنتشيو بادوا، والراهب تاديون والمبشر الجنوي جلڤانو ليڤانتي،

---

(١) أبو الفدا: جـ٢ ص٣٨٧.

(٢) عاشور: جـ١ ص٢٨٢، ٢٨٣.

والمبشر الأسباني ريمون للْ، قدَّموا مشاريع عدة لتجديد الحركة الصليبية وإعادة إحيائها، إلا أن أحداً لم يَسْعَ إلى وضعها موضع التنفيذ.

ونتيجة لذلك، فقد وقع عبء الدفاع عن الحركة الصليبية، اعتباراً من القرن الرابع عشر الميلادي، على عاتق حكام جزيرة قبرص وبخاصة أن هؤلاء لم يتعرَّضوا في بداية القرن المذكور لخطر مباشر بفعل أن المماليك افتقروا إلى القوة البحرية اللازمة لتوجيه حملة إلى الجزيرة، كما لم يودُّوا أن يُسيئوا إلى الجمهوريات الإيطالية التجارية نظراً لما تدره عليهم تجارتهم من أرباح وفيرة.

الحملة على الإسكندرية

والواقع أنه لم يبق غير محاولة أخيرة لاستعادة الأراضي المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين، قادها الملك القبرصي بطرس الأول لوزينان الذي أضحى أصلح الملوك اللاتين لقيادة الحرب المقدسة ضد المسلمين[1]. ففي عام (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) تولى بطرس الأول عرش قبرص، وقد سيطرت عليه الرغبة لكي ينشب الحرب الصليبية بهدف احتلال بيت المقدس مجدداً، وبذل نشاطاً ملحوظاً لتأليب الدول الأوروبية وإثارة حماس اللاتين، فقام برحلة طويلة إلى غربي أوروبا استمرت ثلاث سنوات (٧٦٣ ـ ٧٦٦هـ/ ١٣٦٢ ـ ١٣٦٥م) للدعاية لحملته والحصول على مساعدات من دولها، لكن كل ما بذله من نشاط لم ينجم عنه من مساعدات ما كان يتوقعه، وما سبق أن وُعِدَ به. فقد أحجمت العساكر الألمانية، ولم يأت أحد من كبار النبلاء الفرنسيين والإنكليز باستثناء ما جاء من إيمييه، على أن عدداً كبيراً من صغار الفرسان لبوا دعوته[2].

واجتمع في البندقية جيش ضخم، وما أسهم به البنادقة في هذا الجيش كان كثير النفع، غير أن الجنويين أحجموا في بادىء الأمر، إلا أنهم ما لبثوا أن اقتنعوا بالاشتراك في الحملة، وتعهدوا بتزويدها بثلاث سفن، وبارك البابا أوربان الخامس الحملة[3].

وقد حرص الملك القبرصي على كتمان وجهة الحملة ليموّه على أهدافها، وتقرَّر أن تحتشد في جزيرة رودس في (ذي الحجة ٧٦٦هـ/ آب ١٣٦٥م). وانطلقت الحملة من الجزيرة في (محرم ٧٦٧هـ/ تشرين الأول ١٣٦٥م)، وقد تألفت من مائة وخمس

---

(١) Atiya, A: The Crusades in the Later Middle Ages p58.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٧٤٠ ـ ٧٤٢.

(٣) يذكر المقريزي أن الجنويين أسهموا بسفينتين. السلوك: جـ٤ ص٢٨٤.

وستين سفينة[1]، أقلَّت حمولة كاملة من الرجال الذين بلغ عددهم ما يزيد على ثلاثين ألفاً بالإضافة إلى العتاد والمؤن. وبالمقارنة مع ضخامة الحملات الصليبية السابقة، فلم ينهض منذ الحملة الصليبية الثالثة من الحملات ما يفوق نسبياً تلك التي أعدها الملك بطرس الأول[2].

وبعث الملك القبرصي بنداء إلى رعاياه المسيحيين في بلاد الشام يخبرهم بأنه عائد إلى الوطن، ويُحظِّر عليهم ممارسة نشاطهم التجاري فيها، وقد هدف من وراء ذلك أن يعتقد الناس أن بلاد الشام هي هدفه[3].

وعندما وصلت السفن إلى عرض البحر، جرى الإعلان بأن الحملة تقصد ثغر الإسكندرية لسببين:

الأول، كان الاعتقاد السائد بين الصليبيين آنذاك أنه من العسير من الناحية العملية، غزو بلاد الشام ما لم يكن ثمة قاعدة على الساحل، والمعروف أن الموانيء على الساحل الشامي قد جرى تخريبها من قِبَل المماليك باستثناء طرابلس وقد دلَّت تجربة سابقة على أنه متى فَقَدَ سلطان مصر ثغر دمياط، أضحى مستعداً لأن يتنازل عن بيت المقدس مقابل استرداده، والإسكندرية تفوق بأهميتها ثغر دمياط، إذ أن من يضع يده عليها، فإنه يستطيع بمساعدة أسطول صغير اعتراض المواصلات بين مصر والعالم الخارجي، فيمكن، والحال هذه، اتخاذها قاعدة انطلاق نحو الأراضي المقدسة في فلسطين، يضاف إلى ذلك أنه بمعاونة جيش مدرب يجتاح كل المواقع الداخلية ثم يتقدم نحو القاهرة حيث يتيسر له القضاء على عاصمة المماليك[4].

الثاني، إن ضياع الإسكندرية يؤدي إلى تعرُّض المماليك لحصار اقتصادي نظراً لأهميتها كثغر تجاري عالمي تنتهي عنده طرق التجارة الشرقية، لتبدأ منه الطرق التجارية المتوجهة نحو الغرب.

لم يتوقع المماليك هجوماً على مدينة الإسكندرية، كما أن الملك القبرصي أحسن اختيار الوقت الملائم نتيجة المعلومات التي حصل عليها من قِبَل جواسيسه المنتشرين في مصر، ذلك أن:

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٧٤٣. يذكر المقريزي أن سفن الحملة بلغت عدتها ما بين سبعين إلى ثمانين. السلوك: جـ٤ ص٢٨٣. ويذكر ابن حبيب بأن عدد السفن الصليبية بلغ سبعين قطعة. تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: جـ٣ ص٢٨٨.

(٢) ابن تغري بردي: جـ١١ ص٢٩.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٧٤٣.

(٤) المرجع نفسه: ص٧٤٤، ٧٤٥.

ـ دولة المماليك كانت تعاني من عدم الاستقرار السياسي بسبب صغر سن السلطان شعبان الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وتركَّزت السلطة بيد الأمير يلبغا الذي كان مكروهاً من سائر الأمراء والناس.

ـ كان نائب الإسكندرية صلاح الدين خليل بن عرام متغيباً، إذ ذهب إلى مكة ليؤدي فريضة الحج، وناب عنه في حكم الإسكندرية أمير صغير من أمراء العشرات هو جنغرا الذي اتصف بالضعف والتردد، لا يصلح لمثل هذه المواقف الحاسمة[1].

ـ كانت حامية المدينة ضئيلة العدد لا تكفي للدفاع عنها وذلك لعدم اهتمام الأمير يلبغا بتحصينها رغم إلحاح نائبها ابن عرام، غير أن أسوارها كانت بالغة المناعة.

ـ كان الوقت موسم فيضان النيل، والطريق بين القاهرة والإسكندرية عبر الدلتا، تغمره المياه فلا يصلح لمسير نجدة عسكرية سريعة من العاصمة لإنقاذ المدينة، بل كان على الحملة المرسلة أن تسلك الطريق الصحراوي وهو طويل ومتعب[2].

وهكذا كانت الظروف مُهيأة لخدمة الملك بطرس الأول.

وصلت الحملة إلى الإسكندرية مساء يوم (٢٣ محرم ٧٦٧هـ/ ١٠ تشرين الأول ١٣٦٥م)، وإذ ظنَّ السكان أن هذا الأسطول لم يكن سوى أسطول تجاري، هرعوا إلى الميناء لعقد الصفقات التجارية، ولم ينجل الموقف إلا في صباح اليوم التالي عندما فوجئ السكان بضخامة الأسطول ودخوله الميناء الغربي الذي يُحظَّر على السفن المسيحية الدخول إليه[3]، عندئذٍ بدأت الاستعدادات على عجل لإغلاق الأبواب، وشحن القلاع بالمقاتلة، واستُدعي عرب البحيرة للمشاركة في الدفاع عن المدينة، وتهيأ الجميع لمنع نزول العساكر الصليبية إلى البر، غير أن هؤلاء تمكَّنوا من شق طريق لهم إلى الشاطىء رغم بسالة المقاومة، فتراجع جنغرا مع قواته واحتموا وراء الأسوار، ودارت بين الجانبين اشتباكات تركَّزت في الجانب الغربي من الميناء، وحاول الصليبيون اختراق أبواب المدينة من هذه الناحية لكنهم فشلوا، فتوجَّهت قواتهم إلى الجانب الشرقي، فوجدوا ثغرة أهملها المماليك عبروا منها إلى الداخل، وقد تعذَّر على المدافعين الانتقال السريع من الجانب الغربي إلى هذا الجانب الشرقي نظراً لوجود بعض الأبراج المعترضة، فأُسقِط في أيديهم، وعمَّ الاضطراب داخل صفوفهم، وإذ اعتقد جنغرا أن المدينة قد سقطت، لاذ بالفرار

---

(١) المقريزي: جـ٤ ص٢٨٣.

(٢) العبادي، أحمد مختار والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص٣١٢.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٧٤٥.

التماساً للنجاة[1].

ولم يحل منتصف النهار حتى استقر الصليبيون داخل المدينة، واستمر القتال دائراً في الشوارع، وفشلت محاولة مملوكية في دفعهم إلى خارجها، فأصبحت الإسكندرية في قبضة المهاجمين، وأخذ السكان يفرون منها بشكل جنوني في حين انقضَّ الصليبيون عليهم من كل جانب انقضاضاً وحشياً، ولم يُفرقوا بين المسلمين وبين غيرهم من المسيحيين واليهود، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من الرجال والنساء وعاثوا في المدينة فساداً وتخريباً ونهباً مدة ثلاثة أيام[2].

وقد علَّق المقريزي على ما حلَّ بالإسكندرية من جراء حملة الملك بطرس الأول بقوله: «فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مرَّ بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلَّت أحوالها، واتضع أهلها، وقلَّت أموالهم، وزالت نعمهم»[3].

وحاول الملك بطرس الأول أن يُعيد الأمن إلى نصابه في الوقت الذي اختلف فيه القادة الصليبيون في اتخاذ الخطوة التالية، فقد عقد الملك اجتماعاً مع أعوانه للتشاور في الموقف الجديد، وكان من رأيه ألا يجلُ الصليبيون عن المدينة، بل يستقرون فيها، ويدافعون عنها لتحقيق المشروع الصليبي الذي جاء من أجله وهو فرض الحصار الاقتصادي على سواحل مصر وغيرها من الموانئ الإسلامية، واستعادة بيت المقدس[4].

ويبدو أن غالبية أتباعه خالفوه في رأيه، ورأوا ضرورة الإسراع بالانسحاب من المدينة حرصاً على الأسلاب التي غنموها، وخشية من وصول جيش النجدة من القاهرة، وبخاصة أن السكان قد أحرقوا أبواب المدينة أثناء فرارهم ما جعل الجيش الصليبي مُهدَّداً من كل جانب، كما أنه من المتعذر أن يظل الأسطول حيث هو ويقوم بمهمة الدفاع نظراً لقلة عدد أفراده[5].

والواقع أن أعوان الملك لم يُخطِّطوا لحملة منظمة تستهدف الاحتلال والاستقرار، ولم يُفكِّروا آنذاك إلا في أن يحملوا ما غنموه إلى بلادهم مكتفين بهذا الانتصار الجزئي، وبخاصة أن الزحف نحو القاهرة أضحى مستحيلاً بفعل عاملين:

الأول، تدمير الجسر الواقع على القناة الكبيرة الذي يجتازه الطريق إلى القاهرة.

الثاني، عَلِمَ الصليبيون أن جيشاً مملوكياً أعدَّه السلطان هو في طريقه لنجدة

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٧٤٦. المقريزي: جـ٤ ص٢٨٤.

(٢) المقريزي: جـ٤ ص٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) السلوك: جـ٤ ص٢٨٥. واتضع بمعنى تذلَّل وخفض رأسه.

(٤) Atiya: p 364.   (٥) Ibid.

الإسكندرية، فلم يرغبوا في الاشتباك معه في معركة عدُّوها خاسرة نظراً لقلة عددهم ووفرة عدد أفراد الجيش المملوكي(١).

والحقيقة أن السلطان شعبان خرج من القاهرة على رأس جيش كبير يرافقه الأتابك يلبغا، ولما وصل إلى الطرَّانة أرسل طليعة عسكرية على وجه السرعة بقيادة ثلاثة من أكبر أمرائه، هم قطلوبغا المنصوري وكوندك وخليل بن قوصون، لنجدة المدينة(٢).

ورأى القادة الصليبيون وشقيق الملك أن ليس بوسعهم الاحتفاظ بالمدينة فانسحبوا بعد أسبوع من سيطرتهم عليها، رغم احتجاجات الملك حتى لم يبق فيها سوى عدد ضئيل من العساكر القبارصة.

وعندما أضحى الجيش المملوكي قريباً من الإسكندرية انسحب الملك بطرس الأول مع عساكره وأصدر أوامره بالجلاء عنها، ولما علم السلطان بذلك أمر أمراءه الذين تقدَّموه بمواصلة سيرهم إليها للإشراف على إصلاح ما تهدَّم منها وإقرار الطمأنينة في نفوس سكانها(٣).

نتائج الحملة على الإسكندرية

تُعدُّ الحملة على الإسكندرية آخر الحملات الصليبية المتأخرة التي وضعت نصب أعينها احتلال الأراضي المقدسة في فلسطين، وجاءت نتائجها السلبية وبالاً على العالم المسيحي لأسباب عدة أهمها:

- فقد ارتفعت أسعار التوابل والمنسوجات الحريرية وغيرها من السلع الشرقية التي أضحى الناس في الغرب يألفونها نظراً لأن كمياتها قد نفدت ولم يرد غيرها.
- لم تطمئن الجمهوريات التجارية الإيطالية وكتالونيا الإسبانية لما أسفرت عنه الحملة من نتائج، إذ كانوا يأملون في توطيد مركزهم التجاري في الشرق الأدنى، لكن حدث عكس ذلك، فقد تعرَّضت أملاكهم في الإسكندرية للدمار فضلاً عن توقف تجارتهم مع مصر، إذ أن نهب الإسكندرية كاد يُدمرهم بوصفهم دولاً تجارية، ولهذا سارعت إلى إرسال رسلها إلى السلطان شعبان لتؤكد له عدم اشتراكها في تلك الحملة، ولكن السلطان رفض أن يسمح لها بالمتاجرة في بلاده إلا إذا أعاد ملك قبرص أسرى المسلمين، فوعده الرسل بذلك، وذهبوا إلى مدينة الماغوصة (فماغوستا) حيث وجدوا الملك القبرصي يُعدُّ حملة لمهاجمة مدينة بيروت، فأقنعوه

---

(١) Atiya: p 364. (٢) ابن تغري بردي: جـ١١ ص٢٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠. رنسيمان: جـ٣ ص٧٤٨.

بالعدول عنها وما زالوا به حتى وافق على ذلك وسمح لأسرى الإسكندرية بالعودة إلى بلادهم[1].

- شعر الملك بطرس الأول بتلك النتائج السلبية، فسعى إلى إجراء مفاوضات مع المماليك بواسطة رسل جنويين وبنادقة، وتبادل السفراء مع القاهرة للوصول إلى حل ودِّي وتناسي الأحقاد القديمة، غير أن الجانبين كان لهما من الدوافع ما منعهما من الإقدام على هذه الخطوة. وظل المماليك يراوغون حتى يتيسر لهم بناء أسطول لغزو قبرص نفسها، في حين واصل الملك بطرس الأول غاراته على ساحل بلاد الشام[2]، لكن هذه الغارات فشلت في تحقيق أهدافها. لقد أخفقت غاراته التي نفَّذها ضد ميناء طرابلس في عام (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م)، حيث دمَّرت أسطوله عاصفة عاتية، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى خمس عشرة قطعة أطلق رجالها يد النهب في المدينة قبل أن يعودوا إلى قبرص[3].

- أثارت الحملة على الإسكندرية كوامن الغضب تجاه المسيحيين في مصر وبلاد الشام، وقد تجلَّت على شكل إجراءات انتقامية سريعة ضد الجاليات الأوروبية وطوائف المسيحيين المقيمين في البلاد، وذلك بمصادرة ربع أموالهم لإصلاح ما خُرِّب في الإسكندرية وفداء أسرى المسلمين، وإعداد أسطول لغزو قبرص[4].

- اعتنى الأمير يلبغا بإنشاء أسطول حربي لغزو جزيرة قبرص التي أصبحت عدواً يجب استئصاله، وظل المماليك يتحينون الفرص لتنفيذ هذه الرغبة حتى تحقَّقت بعد ستين عاماً[5].

- كانت هذه الحملة نهاية الحملات الصليبية المتأخرة ضد العالم الإسلامي الشرقي، إذ أن شغف الملك بطرس الأول في الحروب الصليبية أزعج رعاياه الذين خشوا استنفاد موارد الجزيرة، وعندما أعدَّ أحد فرسانه مؤامرة لاغتياله في عام (٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م) لم ينهض أحد لإنقاذه[6]، وزالت بوفاته شخصية من شجعان الحروب الصليبية التي حرَّكها ودفعها التعصب الديني.

---

(١) المقريزي: جـ٤ ص٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤.

(٢) Aliya: p372. (٣) ابن حبيب: جـ٣ ص٣١٢. Ibid

(٤) لم تلقَ سياسة الانتقام من أهل الذمة تأييداً من بعض فقهاء المسلمين أمثال ابن كثير الذي أفتى بدمشق بأنه طالما كان المسيحيون باقين على الذمة ويؤدون الجزية، وأحكام الملة قائمة، فلا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد فوق ما يبذلونه من الجزية. البداية والنهاية: جـ١٤ ص٣١٥.

(٥) المقريزي: جـ٤ ص٢٨٨. العبادي وسالم: ص٣٢٠ ـ ٣٢٢.

(٦) رنسيمان: جـ٣ ص٧٥٠.

ـ ظلَّت العلاقات متوترة مع الصليبيين في قبرص في عهد بطرس الثاني (٧٧٠ ـ ٧٨٤هـ/ ١٣٦٩ ـ ١٣٨٢م) بفعل رفض سلاطين المماليك إبرام صلح معهم، فاستمرت غاراتهم المدمرة على موانئ بلاد الشام، وحسبنا أن نذكر أنه في عام (٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م) هاجمت أربع سفن قبرصية موانئ صيدا وبيروت واللاذقية، وحاول أفرادها النزول إلى البر عند رشيد إلا أنهم لم يتمكَّنوا من ذلك بسبب الرياح الشديدة والمقاومة الضارية من جانب المسلمين[١]. ومن جهتهم شعر المماليك بما حلَّ ببلادهم من المجاعة والغلاء بسبب تعطل طرق التجارة نتيجة الغارات على سواحل بلاد الشام، فمالوا إلى الصلح مع قبرص، الذي تحقَّق في عام (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م)، وجرى تبادل الأسرى، وأعيد فتح كنيسة القيامة أمام الحجاج المسيحيين، واستعاد المسيحيون في الشرق حريتهم[٢].

القضاء على مملكة أرمينية الصغرى

ظلَّ الأرمن شوكة في جنب دولة المماليك، واستمرت دولتهم قائمة على الرغم من الضربات المتتالية والموجعة التي أنزلتها بها الدولة المملوكية، وأضحى حكامهم من اللاتين. فقد أقرَّت كنيسة الأرمن سلطان كنيسة روما عليها، كما كان لعدد كبير من نبلاء الأرمن علاقات وثيقة مع قبرص[٣].

وعجز السلطان الناصر محمد عن اقتلاع هذه الشوكة على الرغم من أنه ضمَّ جزءاً كبيراً من بلاد الأرمن إلى أملاكه، لذلك استمر الضغط المملوكي على الأرمن في عهد خلفائه وطوال القرن الرابع عشر الميلادي من خلال الغارات السنوية المكثفة، إذ كانوا على حق في ارتبابهم بهم على أنهم أصدقاء الصليبيين وحلفاء المغول.

لكن الصليبيين انهاروا بعد سقوط عكا، وطُرد آخر بقاياهم من بلاد الشام في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) وضعف المغول بعد وفاة الإيلخان أبي سعيد بهادور في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) وتفكَّكت إيلخانيتهم، وقد ترتب على ذلك نتيجتان:

الأولى: حرمان الأرمن من سند كبير على الرغم من تلقيهم مساعدات محدودة من آل لوزينان في قبرص.

الثانية: ازدياد أوضاعهم الاقتصادية سوءاً نتيجة اضمحلال نشاطهم التجاري وانصراف التجار عن ميناء إياس، لأن تفكُّك دولة الإيلخانيين جاء مصحوباً بانتشار

---

(١) Atiya: p 376.

(٢) المقريزي: جـ٤ ص٣٣٩، ٣٤٠.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٧٥١، ٧٥٢.

الفوضى والاضطراب، الأمر الذي هدَّد الطريق البري المار بتبريز، يضاف إلى ذلك، فَقَدَ التجار المترددون على مملكة أرمينية الصغرى حريتهم في مواصلة نشاطهم التجاري بعد أن فرض ملوكها من آل لوزينان ضرائب باهظة على التجارة والتجار، ما صرف هؤلاء عن أرمينية الصغرى وميناء إياس جميعاً[١].

وتلقَّت مملكة أرمينية الصغرى ضربة سياسية وعسكرية حاسمة إلى جانب الضربة الاقتصادية عندما أضاف المماليك معظم أملاكها إلى السلطة المملوكية في عام (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، كما أن غارات المسلمين المحيطين بالأرمن لم تنقطع، ولم تقتصر على ما قام به المماليك وإنما وجَّهت الإمارات التركمانية في الأناضول، التي قامت على أنقاض سلطنة سلاجقة الروم في عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م) لا سيما إمارة قرمان، غارات متتالية عليها، وقد جمعت هذه الإمارة مع سلطنة المماليك سياسة مشتركة هي القضاء على مملكة أرمينية الصغرى، ويبدو أنه حصل نوع من التفاهم والتقارب السياسي بينهما في هذا السياق بدليل ما ذكره القلقشندي عن بني قرمان من عِظم مكانتهم عند سلاطين المماليك، وتبادل الرسائل بين الطرفين «لنكاياتهم من متملك سيس وأهل بلاد الأرمن، واجتياحهم لهم من ذلك الجانب، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب»[٢] الأمر الذي ترتَّب عليه خراب أرمينية الصغرى.

والراجح أن المماليك لم يُقدِّروا تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها المملكة الأرمنية ليوجهوا إليها الضربة القاضية، بدليل استمرار إرهاقها بالضرائب، وفرض الالتزامات على سكانها، ويبدو أن انهماكهم بأمورهم الداخلية قد صرفهم عن هذا التوجه.

أدَّى تراجع المملكة الأرمنية في المجالين الاقتصادي والسياسي إلى عجزها عن الوفاء بالتزاماتها تجاه الدولة المملوكية، وعدَّ المماليك ذلك تمرداً من جانب الأرمن، فقرَّر السلطان الأشرف شعبان غزو أرمينية الصغرى وضمَّها نهائياً إلى الأملاك المملوكية وبخاصة أنه عقد صلحاً مع الملك القبرصي بطرس الأول الحليف الطبيعي للأرمن في عام (٧٧١هـ/ ١٣٧٠م)، فعهد إلى نائب حلب أشقتمر المارديني في عام (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) بغزوها[٣].

وقف الملك الأرمني ليو السادس، آخر ملوك أرمينية الصغرى، عاجزاً عن التصدي للمماليك، ومع ذلك استمرت العاصمة سيس تقاوم الحصار مدة شهرين

---

(١) عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى: ص٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ٨ ص١٢، ١٣.

(٣) المقريزي: جـ٤ ص٣٧٧.

قبل أن يتمكَّن الجيش المملوكي من دخولها، والتجأ ليو السادس إلى قلعة جابان الحصينة في جبال طوروس، فاقتفت الجيوش المملوكية أثره وحاصرت القلعة ودخلتها عنوة وقبضت عليه وأرسلته مع عائلته إلى القاهرة حيث سُجن فيها مدة ثماني سنوات لعجزه عن دفع الفدية حتى توسط له ملك قشتالة، ودفع ملوك أوروبا الفدية المقررة بناء على نداء البابا كليمنت السادس، فأُطلق سراحه بعد أن تعهد بعدم العودة إلى كيليكية وذلك في عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م)، فتوجَّه إلى بيت المقدس ثم رحل إلى قبرص فرودس فإيطاليا، واستقر أخيراً في باريس[١].

وهكذا سقطت مملكة أرمينية الصغرى وانقرضت دولة الأرمن في كيليكية، والواضح أنه كان من العسير على هذه الدولة البقاء مدة طويلة وسط التيارات المعادية التي أحاطت بها، وغدت كيليكية نيابة مملوكية.

الصليبيون يحتلون أزمير

عندما زالت الدولة السلجوقية الرومية في عام (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) توزَّعت أملاكها في الأناضول بين عدد من الإمارات التركمانية التي كانت تابعة اسمياً لها وأهمها: إمارة القرمان التي امتدت أراضيها من فيلادلفيا إلى جبال طوروس الشرقية وأهم مدنها أنقرة والعاصمة قونية، واستقر أمراء آيدين في أزمير، وأمراء منتشا في ساحل بحر إيجة، وأمراء صاروخان في مغنيسيا، وقامت في الشمال الغربي إمارة فتية بزعامة عثمان، وظلَّت سواحل آسيا الصغرى الشمالية والجنوبية حتى كيليكية تحت سيطرة البيزنطيين باستثناء بعض المدن.

وأدرك الصليبيون آنذاك أهمية بلاد الأناضول من واقع تأسيس قواعد لهم فيها يسيطرون منها على البحر الأبيض المتوسط، والمعروف أن الجمهوريات التجارية الإيطالية وبخاصة البندقية، أسَّسوا منذ وقت طويل مستعمرات لهم في جزائر بحر إيجة، وكان الأمراء التركمان يعبرون المضيق إلى الجانب الأوروبي في حملات منظمة لمهاجمتها. فقد قام عمر، أمير آيدين الذي يمتلك أزمير، بإنشاء أسطول من أجل هذه الغاية، فنهض البنادقة بالتعاون مع فرسان الأسبتارية في رودس للتصدي له. ففي عام (٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)، هاجم أسطول صليبي، أسهم فيه البنادقة والبابوية وملك قبرص، بمهاجمة أزمير، فتعرض أمير آيدين للهزيمة في معركة بحرية جرت في مقابل مدخل خليج المدينة، ودخل الحلفاء الصليبيون إلى المدينة واستولوا عليها لكن استعصت عليهم القلعة، ويبدو أنهم احتاجوا إلى مدد، فنهض أحد نبلاء

---

(١) المقريزي: جـ٥ ص١٣٨. عاشور: ص٢٧٦، ٢٧٧.

فرنسا، ويدعى همفري الثاني أمير ڤينا، على رأس حملة صليبية لمساعدتهم، فخرج من مرسيليا في (محرم ٧٤٦هـ/ أيار ١٣٤٥م) في طريقه إلى أزمير فوصل إليها بعد عام، فاصطدم بالتركمان خارج أسوارها وهزمهم، غير أنه لم يمكث طويلاً، فقد عاد إلى فرنسا في عام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، ولم تُحقِّق حملته شيئاً يُذكر، لكن البابوية عدَّتها حملة صليبية[١].

وبفعل التوازن في القوى عقد الجانبان الصليبي وأمير آيدين هدنة في عام (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، عُهد بموجبها إلى الأسبتارية بحكم المدينة على أن تبقى القلعة في أيدي أمير آيدين، وظلَّت أزمير بأيدي الأسبتارية حتى انتزعها تيمورلنك منهم في عام (٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م).

وما حدث في عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦١م) من تعاون بطرس ملك قبرص والأسبتارية أن تعرَّض ميناء أنطاليا التركي الواقع على الشاطىء الجنوبي لآسيا الصغرى للهجوم، فسقط في أيديهم في (٢١ شوال/ ٢٤ آب)، ولم تنقطع منذ ذلك الوقت الحروب بين الأتراك في آسيا الصغرى ومملكة قبرص الصليبية حتى وافق القبارصة على إعادة المدينة إلى الأتراك في عام (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م) خوفاً من وقوعها في أيدي الجنويين.

قيام الدولة العثمانية ونموها

شهدت آسيا الصغرى بخاصة والشرق الأدنى بعامة في ذلك الوقت، تطوراً بالغ الأهمية كان له تأثير على تغيير مجرى الأحداث في الشرق والغرب، تمثَّل بظهور الدولة العثمانية.

ويرجع أصل العثمانيين إلى قبيلة قايي التركية، وهي إحدى عشائر الأتراك الأوغوز، نزحت من أواسط آسيا إلى أعالي الجزيرة الفراتية، وسكنت المراعي المجاورة لمدينة خلاط، ثم هجرت المنطقة حوالي عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) تحت ضغط الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة، وهبطت إلى حوض نهر دجلة، ثم هاجرت إلى أرزنجان في منطقة آسيا الصغرى بزعامة طغرل، وكانت هذه المدينة مسرحاً للقتال بين السلاجقة والخوارزميين، وساند طغرل القوات السلجوقية، فكافأه السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب أنقرة، وظل طغرل حليفاً للسلاجقة حتى أقطعه السلطان منطقة أخرى تقع في أقصى الشمال الغربي من الأناضول على الحدود البيزنطية في المنطقة

---

(١) Atiya: pp 300 - 318.

المعروفة بـ «سكود» حول أسكي شهر، حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة[(١)].

تميزت هذه الإمارة على صغرها بصفتين:

الأولى، أنها من الناحية الجغرافية، كانت بعيدة عن الإمارات التركمانية القوية في جنوبي الأناضول وجنوبه الغربي.

الثانية، أن إمارة طغرل هذه كانت الإمارة التركية الوحيدة التي شكَّلت رباطاً يواجه المناطق البيزنطية التي لم تُفتح بعد.

وجلب إليها هذا الوضع أعداداً وفيرة من التركمان الطامعين في الغزو والجهاد، والمزارعين الهاربين من وجه المغول، والدراويش الباحثين عن المريدين[(٢)]، واكتسب طغرل لقب غازي نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنطيين، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن، وتوفي في عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)[(٣)].

خلف عثمان أباه طغرل، وهو مؤسس الدولة التي حملت اسمه، وتحدَّد في عهده الوضع السياسي والعسكري للأتراك العثمانيين، وكان وضعهم الديني قد تحقَّق قبل ذلك باعتناقهم الإسلام.

وسَّع عثمان أراضي إمارته على حساب البيزنطيين، ففتح قلعة قراجة حصار في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) واتخذها قاعدة له، كما فتح في عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠١م) مدينة يني شهر واتخذها عاصمة له، وفتح كذلك لفكة وآق حصار وقوج حصار وجزيرة كالوليمني الواقعة على بحر مرمرة، وقلعة تريكوكا الواقعة بين بورصة ونيقية، فأمَّن بذلك سيطرته على الطريق المؤدي إلى القسطنطينية، وفتح ابنه أورخان مدينة بورصة في عام (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، وأسرع أورخان إلى سكود لينقل خبر الفتح إلى والده، الذي ما لبث أن توفي[(٤)].

خلف أورخان أباه عثمان فواصل سياسته التوسعية، ففي آسيا الصغرى، فتح شبه جزيرة بيثينيا الواقعة في أقصى الشمال، وقلعتي سمندرة وأبيدوس، ونيقوميدية ونيقية[(٥)] وكوينيك ومودرينة وتركجي، وضمَّ إمارة قراسي التركمانية[(٦)]، فتقلَّصت نتيجة هذه الفتوح الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى، وغدا العثمانيون يتحكَّمون

---

(١) سعد الدين محمد: تاج التواريخ جـ١ ص١٣ ـ ١٥. كوبرولي، محمد فؤاد: قيام الدولة العثمانية ص١١٩، ١٢٢.

(٢) كولز، بول: العثمانيون في أوروبا ص٢٦.

(٣) سعد الدين: جـ١ ص١٥، ١٦.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٨، ٢٩. القرماني، أحمد: تاريخ سلاطين آل عثمان ص١١.

(٥) سعد الدين، محمد: جـ١ ص٤٢ ـ ٤٥، ٤٨.

(٦) Cambridge Medieval History, Byzantine Empire IV prt I p759.

في مضيق الدردنيل. أما في أوروبا، فقد استغل أورخان الصراع الداخلي على العرش البيزنطي بين الامبراطورين يوحنا الخامس باليولوغوس ويوحنا السادس كانتاكوزين، فأرسل قوة عسكرية بقيادة ابنه سليمان فتحت قلاع جنك وغاليبولي الضخم الواقع على شاطىء الدردنيل، وأبسالا، ورودستو، ونزلت في إقليم تراقية[١]. وعند وفاة أورخان في عام (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م) كادت أن تكون كل تراقية في قبضة العثمانيين وانعزلت القسطنطينية عن أملاكها الأوروبية.

وتوسع مراد الأول الذي خلف أباه أورخان في إقليم تراقية وضمَّ مدينة أدرنة المهمة في عام (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م) وجعلها عاصمة لدولته[٢]. ولم يعد يوسع الامبراطورية البيزنطية بعد هذه الأحداث أن تقاوم العثمانيين منفردة، لذلك اعترف الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغوس بسيطرتهم على تراقية، ودفع لهم الجزية، وكان لهذا التوسع العثماني صدى سيئ في الدوائر الأوروبية وبخاصة البابا[٣].

وانطلقت مرة أخرى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ولكن من دون جدوى، في حين تابع العثمانيون توسعهم، ففتحوا مدينة فيليبوليس، عاصمة الروملي الشرقية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من صوفيا، كما فتحوا مدينتي وردار وكوملجنة إلى الجنوب الغربي من أدرنة[٤]، وسيطروا على وادي ماريتزا، فعزلوا بذلك بلغاريا عن الممتلكات البيزنطية.

حملة كونت سافوي الصليبية ضد الدولة العثمانية

آل هذا النمو والانتشار العثماني إلى الدعوة إلى حرب صليبية تزعمها البابا أوربان الخامس (٧٦٣ ـ ٧٧٢هـ/ ١٣٦٢ ـ ١٣٧٠م)، فكتب إلى ملوك أوروبا يحثُّهم على تجهيز حملة لحرب المسلمين. والواقع أن البابوية لم تُعر الفتوح العثمانية في أوروبا أي اهتمام طالما كانت على حساب البيزنطيين الهراطقة في نظرها، ولكن عندما بدأت هذه الفتوح تُهدِّد الدول الأوروبية الكاثوليكية الخاضعة لسلطة البابا، سعى أوربان الخامس إلى إعداد حملة صليبية ضد العثمانيين، وقد قادها أماديوس السادس كونت سافوي الذي انطلق من البندقية على رأس أسطول بحري في (شوال ٧٦٧هـ/ حزيران ١٣٦٦م) فانتزع مدينة غاليبولي من أيدي العثمانيين في (ذي الحجة/

(١) سعد الدين، محمد: جـ١ ص٥٥. Inalçik, H: The Ottoman Economic Mind and Aspect: p9.

(٢) Pitcher, D.E: A Historical Geography of the Ottoman Empire p42. Vasiliev: II p 624.

(٣) Gibbons, H.A: The Foundation of the Ottoman Empire pp 125, 126.

(٤) سعد الدين محمد، جـ١ ص٧٣، ٧٤. Ibid pp 121,121.

آب) واستولى على بعض القلاع على الساحل الأوروبي لبحر مرمرة، وأحرق بعض المواقع العثمانية، ولعل أهم ما ميَّز حملته أنه أنقذ الامبراطور البيزنطي يوحنا الخامس من حصار فرضه عليه شيشمان البلغاري، ومنعه من المرور عبر بلغاريا، وكان في طريق عودته من بودا بعد أن قابل لويس الأكبر ملك المجر للتنسيق معه على حرب العثمانيين.

وتدخل البنادقة لعرقلة حملة أماديوس السادس الصليبية بفعل خشيتهم أن ينحاز إلى بطرس ملك قبرص ما يؤثر سلباً على سياستهم التجارية مع العثمانيين، ولذا شعروا بالارتياح عندما علموا بتفاهم بطرس مع السلطان العثماني الذي عزم على التفرغ لقتال البيزنطيين.

ووجد أماديوس السادس نفسه أخيراً أنه أنفق ما معه من مال، ولم يعد بإمكانه الاستمرار في حملته التي هدفت للمضي إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، فعاد إلى بلاده في عام (٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م)، من دون أن يُحقِّق أي فائدة، إذ أن العثمانيين استعادوا غاليبولي بعد رحيله(١).

توسع مراد الأول في بلغاريا

واقتدى في هذه الأثناء أوروك الخامس، الذي خلف أسطفان دوشان في حكم إمارة الصرب، بأماديوس السادس، فاستعان بأمراء البوسنة والأفلاق، وبعدد من فرسان المجر، وسار بهم باتجاه مدينة أدرنة، مستغلاً انهماك مراد الأول بمحاصرة مدينة بيجا الواقعة إلى الجنوب من بحر مرمرة، وهو يُمنِّي النفس بالنصر، لكن مراد الأول استطاع أن يوقف تقدم القوات المتحالفة في شيرمن عند نهر ماريتزا ويتغلَّب عليها، وذلك في عام (٧٧٣هـ/ ١٣٧١م) ويتوسع في مقدونية على حساب الصربيين(٢)، ثم استغل الأوضاع القلقة التي باتت عليها دول البلقان ففتح بلغاريا، وتغلَّب على تحالف صربي - بشناقي - بوسني مشترك بقيادة لازار أمير الصرب عند كوسوڤو في (١٩ جمادى الآخرة ٧٩١هـ/ ١٥ حزيران ١٣٨٩م)، وعلى الرغم من اغتياله بعد المعركة بيد جندي صربي، إلا أن العثمانيين أضحوا يسيطرون على شبه جزيرة البلقان(٣).

---

(١) ڤاتان، نيقولا: صعود العثمانيين. مقال في كتاب: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة. إشراف روبير مانتران جـ١ ص٥١.

(٢) المرجع نفسه: ص٥٢ .Pitcher: p44

(٣) المرجع نفسه: ص٥٨ .Gibbons: pp 174 - 178 آمجن، فريدون: التاريخ السياسي للدولة العثمانية. فصل في كتاب الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة بإشراف روبير مانتران جـ١ ص١٦.

الصليبيون يهاجمون المهدية في تونس

ظل شمالي أفريقيا يحتل مكانة في تفكير بعض دعاة الحركة الصليبية، أمثال بركارد وفيليب دي ميزير، كما ظلَّت هذه المنطقة محط أنظار الأوروبيين وبخاصة المدن التجارية الإيطالية وصقلية بفعل ما تحويه من موانئ مهمة في تجارة البحر الأبيض المتوسط. ففي عام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) احتشد في صقلية أسطول مشترك أسهمت فيه صقلية وبيزا وجنوة، هاجم جزيرة جربة الواقعة في خليج قابس، وكانت تابعة للأمير الحفصي أبي العباس أحمد الثاني المستنصر في تونس، واستولوا عليها، وضمَّتها صقلية إلى ممتلكاتها بعد أن تعهدت ملكتها ماريا بدفع مبلغ من المال لجنوة، وهي صاحبة القوة الكبيرة في الأسطول المشترك، مقابل ما بذلته من جهد في الاستيلاء على الجزيرة[(١)].

شجَّع نجاح الصليبيين هذا جنوة على التخطيط للقيام بحملة صليبية كبيرة ضد المسلمين في شمالي أفريقيا، ولا بد في هذه الحال من التماس المساعدة من الدول الأوروبية الكبيرة وعلى رأسها فرنسا في عهد ملكها شارل السادس حامي المسيحيين، والمعروف أن شمالي أفريقيا كان يعاني انقساماً داخلياً نتيجة سقوط دولة الموحدين وقيام إمارات عدة على أنقاضها ومنها إمارة الحفصيين في تونس.

ويبدو أن استهداف تونس كان بسبب موقعها المتوسط، في حوض البحر الأبيض المتوسط، ونشاطها التجاري، ما جعل موانئها مأوى لكثير من البحارة المسلمين الذين كانوا يُغيرون على الأساطيل التجارية الإيطالية وغيرها، وكان التجار الإيطاليون يتردَّدون على سوسة والمهدية وسفاقس وقابس وجزيرة جربة[(٢)].

وأرسلت جنوة في (ذي القعدة ٧٩١هـ/ تشرين الثاني ١٣٨٩م) سفارة إلى فرنسا لالتماس المساعدة من الملك الفرنسي للقيام بحملة صليبية ضد المهدية، فوافق على مشروع الحملة، وتقرَّر تعيين لويس الثاني دي بوربون قائداً لها[(٣)].

وانتشر خبر الحملة في أنحاء أوروبا، فتدفق المتطوعون من إنكلترا وأراغون وفلاندر وسائر أنحاء فرنسا، واجتمعت القوات المشتركة في جنوة وأبحرت منها إلى المهدية.

ويبدو أن أخبار الحملة الصليبية وصلت إلى تونس قبل وصول الصليبيين، فاستنفر

---

(١) Atiya: p398.

(٢) عاشور: جـ٢ ص١٢٤١.

(٣) Atiya: pp 404, 405.

الأمير الحفصي أهل النواحي، وراح يرصد الأسطول الصليبي[1]، ومع ذلك استطاع الصليبيون فور وصولهم أن يهبطوا إلى الشاطىء من دون مقاومة، ويبدو أن المسلمين انتهجوا خطة الدفاع، فتحصَّنوا وراء أسوار المهدية التي كانت هدف الحملة، وحاصر الصليبيون المدينة، وفشلت محاولات المسلمين لفك الحصار عنها، وقنعوا بحراسة أبراجها وبواباتها[2].

ولم يلبث أن وصل جيش إسلامي كبير قُدِّر عديده بأربعين ألف مقاتل، من تونس وبجاية وتلمسان، لتخليص المهدية، غير أنه تجنَّب الدخول في معركة سافرة مع الصليبيين، واقتصر الأمر على مناوشات بين الطرفين.

وبعد مضي تسعة أسابيع على الحصار، لم يُحقِّق الصليبيون أي نجاح، فقد تعذَّر عليهم اقتحام المدينة، وفشلوا في التغلب على الجيش الإسلامي خارجها، وأخذوا يعانون من وطأة الوضع بسبب اشتداد حرارة الصيف وتناقص المؤن وبخاصة مياه الشرب، وتفشي الأمراض في صفوفهم؛ ما دفعهم إلى التفكير في رفع الحصار والعودة إلى بلادهم[3]، ولم يكن المسلمون بأقل رغبة منهم في إنهاء هذا الوضع، فدخل الجنويون في مباحثات منفردة مع الأمير التونسي من دون أخذ رأي قائد الحملة، وتوصل الطرفان إلى بنود الصلح التي قضت بما يلي:

- يتعهد أمير تونس بألا يتعرض للمسيحيين في بلاده طيلة مدة الصلح.
- يدفع الأمير التونسي دخل المهدية للجنويين مدة خمسة عشر عاماً.
- يتعهد أمير تونس أن يدفع في مدى عام واحد خمسة وعشرين ألف دوكة لكل من لويس الثاني دي بوربون وجمهورية جنوة تعويضاً عن نفقات الحملة.
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات.

وبعد توقيع الاتفاق، أمر لويس الثاني بفك الحصار وعاد من حيث أتى[4].

لم تتوقف الحملات الصليبية على شمالي أفريقيا، وكأن الصليبيين نقلوا ميدان الحروب الصليبية من الشرق إلى الغرب، وتزعم الصليبيين في هذا الدور كلٌّ من الإسبانيين والبرتغاليين، وشغلت أحداثه طيلة القرن الخامس عشر الميلادي.

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر في ديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون جـ٦ ص٤٠٠.

(٢) Atiya: p417.

(٣) Ibid: p425.

(٤) Ibid: pp 428 - 430.

الصليبيون يهاجمون نيقوبوليس

تمهيد

على الرغم من إخفاق الصليبيين في حملتهم على المهدية، كان من الواضح أن التوسع العثماني باتجاه البلقان، هدَّد سلامة أوروبا المسيحية، فكان لا بد من وقف الزحف التركي الذي يبتلع أرضاً جديدة يوماً بعد يوم.

واعتقد البلغار بعد سقوط الصرب بأيدي العثمانيين أنهم أضحوا ورثة الامبراطورية البيزنطية في البلقان، ونتيجة لذلك كان الصدام حتمياً بينهم وبين العثمانيين، وكانت بلغاريا بين السلطان بايزيد الأول الذي خلف أباه السلطان مراد الأول، وسيجسموند ملك المجر الذي تقع مملكته في طريق التوسع العثماني، وقد أدرك مدى التهديد الذي يُشكِّله العثمانيون على مملكته، لذلك بادر إلى مدِّ يد المساعدة لبلغاريا.

والواقع أن الأخطار كانت محدقة بالوجود العثماني في بلغاريا، فقد تمكَّن ميرسيا أمير الأفلاق المشمول بحماية المجر، من احتلال دوبروجا وسيلستر، على الضفة اليمنى لنهر الدانوب، وسعى المجريون إلى توطيد أقدامهم في ڤيدين، ونجح البلغار في الاستيلاء على مدينة نيقوبوليس الواقعة على نهر الدانوب في عام (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م)[1].

دفعت هذه التطورات السلطان بايزيد الأول للرد بسرعة وبقوة، وتوجَّه لمقابلة البلغاريين، فهاجم العاصمة تيرنوڤو وفتحها في عام (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م)، وأخضع بلغاريا الدانوبية، وطرد ميرسيا من الأراضي التي استولى عليها، فانسحب الملك البلغاري سيسمان إلى نيقوبوليس وتحصَّن بها، ثم هاجم الأفلاق ودخلها بعد معركة روڤين في (٢٦ رجب ٧٩٧هـ/ ١٧ أيار ١٣٩٥م)، وأخضع حاكمها ميرسيا، وتابع زحفه باتجاه نيقوبوليس، فدخلها وقبض على سيسمان وأعدمه واستسلم ابنه، وسيطرت القوات العثمانية على مجمل نقاط العبور على نهر الدانوب، ما وضع العاهل العثماني في مواجهة مباشرة مع المجر، وأضحت بلغاريا ولاية عثمانية.

الزحف إلى نيقوبوليس

انزعج سيجسموند ملك المجر من التقدم العثماني، وخشي أن يحلَّ ببلاده ما حلَّ ببلغاريا بعد أن تاخمت حدود بلاده مناطق السيطرة العثمانية، فأرسل إنذاراً إلى بايزيد الأول بالجلاء عن بلغاريا، مدركاً في الوقت نفسه أنه لا طاقة له بمقاومة

---

(١) Gibbons: pp 194, 195.

العثمانيين من دون مساعدة خارجية، لذلك التمس المساعدة من أوروبا الغربية.

أدرك البابا بونيفاس التاسع (٧٩١ ـ ٨٠٧هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٤م) وملوك وأمراء أوروبا أن الطريق أمام العثمانيين إلى قلب أوروبا يُصبح مفتوحاً إذا تعرَّضت المجر لهزيمة كبيرة، وأنه يقتضي وقف التقدم العثماني، وخشي البنادقة من التقارب العثماني ـ البيزنطي، ورأوا في استيلاء العثمانيين على المضائق والقسطنطينية، إذا ما حصل، خطراً كبيراً يُهدِّد مصالحهم التجارية مع الشمال[1].

وأصدر كل من البابا بونيفاس التاسع في روما والبابا بنيدكت الثالث عشر في أڤينيون مرسوماً يوصي بإثارة حرب صليبية، وكتب داعية الحرب الصليبية فيليب ميزيير، رسالة مفتوحة إلى ريتشارد الثاني ملك إنكلترا يطلب منه التعاون مع شارل السادس ملك فرنسا في إعداد الحملة الصليبية المقبلة.

وتولت البندقية جانباً من مهمة الدعوة إلى حملة صليبية على الرغم من تحفُّظها، بفعل حرصها على المحافظة على العلاقة السلمية والتجارية مع العثمانيين، فتفاهمت مع الجنويين، واتصلت بالامبراطور البيزنطي مانويل الثاني الذي اقترح أن يصار إلى تقويته بحراً وسدِّ المضائق أمام العثمانيين، في حين تولى سيجسموند الجانب الآخر من الدعوة، وبفعل اتصالاته مع الأمراء الألمان استطاع أن يلقى مساعدة من أميري الأفلاق وترانسلڤانيا[2]، على الرغم من كراهيتهما الشديدة للمجريين، وأرسل في عام (٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م) سفارة إلى البندقية برئاسة نيقولا كانِزاي رئيس أساقفة غران، فحصلت من دوقها على وعد بنقل العساكر على سفن بندقية، ثم مضى السفراء إلى ليون فاستقبلهم فيليب الجسور دوق برغنديا بالترحاب، ووعدهم بالمساعدة، ثم توجَّهوا إلى الفلاندر عبر ديجون لتقديم فروض الاحترام لدوقة الفلاندر، ومنها إلى بوردو، فقابلوا يوحنا دوق لانكستر الذي تعهَّد بتقديم فرقة إنكليزية، وارتحلوا من بوردو إلى باريس، وكان شارل السادس ملك فرنسا يعاني نوبة جنون، فاجتمعوا بأوصيائه الذين شجَّعوا النبلاء الفرنسيين على الاشتراك بالحملة الصليبية.

وعندما عاد أعضاء السفارة إلى بودا أنهوا إلى الملك سيجسموند ما أحرزوه من نجاح ونصحوه بالمضي في استعداداته. وجهَّز دوق برغنديا عشرة آلاف مقاتل بقيادة ابنه الكونت دي نيڤر، الذي سيتولى قيادة الحملة عبر مجلس شورى نظراً لحداثة سنه، ثم تحركوا للمسير إلى بودا عبر ألمانيا، وكان هؤلاء الفرنسيون يطمحون بعد القضاء على العثمانيين إلى السير حتى الأراضي المقدسة في فلسطين، وانضمَّ إليهم

---

(١) Gibbons: p201.

(٢) ترانسلڤانيا هي إحدى أقاليم النمسا، تقع على حدود المجر.

في الطريق ستة آلاف مقاتل ألماني، بقيادة روبرت كونت بلاتين وإبيرارد كونت كاتسنيلنبوجن، وسار في أعقابهم عشرة آلاف مقاتل إنكليزي بقيادة إيرل هتنغدون، وهو أخ غير شقيق للملك ريتشارد الثاني[١]، كما انضمَّت إلى الحملة فرقة من فرسان القديس يوحنا في رودس. وتشير هذه الحشود الضخمة أن أوروبا قرَّرت بصورة نهائية، إخراج العثمانيين من أوروبا وإعادتهم إلى الأناضول.

احتشدت هذه الحملة في بودا في (١٢ شوال ٧٩٨هـ/ ١٩ تموز ١٣٩٦م) وكان سيجسموند قد قدَّم ستين ألف مقاتل، وانحاز إليه ميرسيا حاكم الأفلاق على رأس عشرة آلاف مقاتل، وقدم من بولندة وبوهيميا وإيطاليا وإسبانيا حوالي ثلاثة عشر ألف مقاتل، فبلغ عديد هذا الجيش المتحد نحو مائة وثلاثين ألف مقاتل، ويُعدُّ أضخم ما حشده الصليبيون حتى وقتذاك لقتال المسلمين.

لم يكن السلطان العثماني بغافل عن نوايا الصليبيين، فعندما علم باحتشاد الحملة الصليبية في بلاد المجر، وكان يحاصر القسطنطينية، بادر إلى فك الحصار واستنفر عساكره، وتوجَّه على رأسهم نحو الشمال إلى نهر الدانوب، وجرى تقدير عديد جيشه بما يزيد على مائة ألف مقاتل، وانضم إليه ملك الصرب اسطفان بن لازار وغيره من الأمراء المسيحيين الخاضعين للحكم العثماني[٢].

ويبدو أن فرسان الغرب لم يعتبروا من تجربة استمرت ثلاثة قرون، فعندما جرت مناقشة خطة سير الحملة في بودا، نصح الملك سيجسموند باتخاذ خطة الدفاع، إذ كان يعلم قوة خصمه، فاعتقد أن التصرف السليم يقضي باستدراج العثمانيين إلى عمق الأراضي المجرية ثم يهاجمونهم من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها، ولم يختلف في تفكيره هذا عن تفكير الأباطرة البيزنطيين أثناء الحملات الصليبية المتقدمة، من واقع أن سلامة العالم المسيحي في أوروبا تتوقف على المحافظة على مملكته، غير أن حلفاءه كانوا كالصليبيين الأوائل يرون اتخاذ خطة الهجوم الشامل، ولم يراودهم الشك في تغلبهم على العثمانيين ثم تتقدم جيوشهم منتصرة إلى الأناضول ثم إلى بلاد الشام ففلسطين، وكان العساكر من العنف ما فرضوا رأيهم على سيجسموند.

وخرج الجيش الصليبي في (أواسط شوال/ أواخر تموز) من بودا، والتزم في زحفه الشاطىء الأيسر لنهر الدانوب حتى بلغ أورسوفا ومنها عبر إلى الأراضي

---

(١) Atiya: Crusade of Nicopolis: pp 41 - 48, 67, 68.

(٢) داهموس، جوزيف: سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، معركة أنقرة ص١٨٥ Gibbons: p219.

العثمانية، فعبروا النهر وساروا بمحاذاة الشاطىء الجنوبي حتى مدينة ڤيدين، فدخلوها وأجروا مذبحة بالأتراك فيها، وسقطت راهوڤا في أيديهم وتعرض سكانها للقتل، كان من بينهم عدد كبير من المسيحيين البلغاريين، وتحرَّك الجيش من راهوڤا إلى نيقوبوليس التي تُعدُّ أهم معاقل العثمانيين على نهر الدانوب وضربوا الحصار عليها.

وإذ أمضت الحملة الصليبية مدة أسبوعين أمام المدينة، جاءت الأنباء بأن العثمانيين أخذوا يقتربون منها.

أحداث معركة نيقوبوليس

وصل الجيش العثماني يوم الإثنين (٢١ ذي الحجة ٧٩٨هـ/ ٢٥ أيلول ١٣٩٦م) إلى ضواحي نيقوبوليس وعسكر على التل على مسافة ثلاثة أميال من المعسكر الصليبي. وحاول سيجسموند عبثاً ثني الصليبيين عن اتخاذ خطة الهجوم والاكتفاء بالدفاع، فعبَّأ جيشه ثلاثة أقسام، احتل المجربون قلب الجيش، واتخذ الأفلاق مواقعهم في الميسرة، وتألفت المقدمة من فرسان الغرب بقيادة يوحنا، كونت نيڤر.

وعبأ السلطان بايزيد الأول قواته وفقاً للتكتيك التركي الذي يجهله الصليبيون، فوضع الخيالة الخفيفة على منحدر التل على مرأى من العساكر الصليبية، ووضع المشاة خلفهم يحميهم حاجز من أعمدة مدببة من الخشب، وأخفى القوة الرئيسة، وقوامها الفرسان السباهية، واتخذ الفرسان الصربيون مواقعهم في ميسرة الجيش.

وبفعل تشبُّع فرسان المقدمة بالحماس، اندفعوا لمهاجمة التل، فتغلبوا على الفرسان العثمانيين وشتَّتوهم، غير أنه أعاقهم الحاجز الخشبي المدبب، فبادروا إلى الترجل عن خيولهم، وواصلوا الهجوم على أقدامهم، فنزعوا الأعمدة وتقدَّموا، وتغلَّبوا أيضاً على المشاة العثمانيين، وبلغوا قمة التل وهم في نشوة النصر، فأضحوا وجهاً لوجه أمام الفرسان السباهية والصربيين، فأُخِذوا على حين غرَّة، فاضطرب نظامهم، وأرادوا الفرار عن طريق النهر لكنهم فوجئوا بالقوات العثمانية المتمركزة على النهر، فغرق أو مات منهم مائة ألف، وتحوَّل انتصارهم إلى هزيمة، ولم ينج منهم إلا عدد قليل من الفرسان، ووقع كثير منهم في الأسر، كان من بينهم يوحنا كونت نيڤر وعدد من أشراف فرنسا، وفرَّ سيجسموند مع عشرين ألفاً من قواته عندما أدرك أن المعركة خاسرة، فكان ذلك انتصاراً عثمانياً واضحاً، وجرت مفاوضات عثمانية ـ فرنسية بعد المعركة، أسفرت عن إطلاق سراح يوحنا دي نيڤر لقاء جزية[1].

---

(١) أزتوتا، يلماز: تاريخ الدولة البيزنطية جـ١ ص١٠٨. Gibbons: pp 215 - 224.

وهكذا فشل التحالف الصليبي الأوروبي والبيزنطي في القضاء على العثمانيين.

نتائج الحملة على نيقوبوليس

ـ يُعدُّ الانتصار في نيقوبوليس أحد أعظم الإنجازات التي حقَّقها السلطان بايزيد الأول خلال مدة حكمه، كما أن هذه المعركة تعدُّ من المعارك الكبيرة في التاريخ، ومن أهم الأحداث في أواخر العصور الوسطى.

ـ كانت حملة نيقوبوليس الصليبية أضخم وآخر الحملات الصليبية الكبيرة، إذ أن طابعها المثير للأسى اقتدى نهج الحملات الصليبية التي تعرَّضت في الماضي لكوارث مفجعة مع اختلاف ساحة المعركة التي أضحت في أوروبا بدلاً من آسيا، وما وقع فيها من أخطاء كانت واحدة، وكل ما تعلَّمه الغرب من هذا الفشل الذريع هو أنه لم يعد للحرب المقدسة وجود من الناحية العملية[1].

ـ سيطر العثمانيون بعد المعركة على كامل بلغاريا بعد أن استردوا ڤيدين، وحصَّنوا مواقعهم في البلقان، وظلَّ السلطان العثماني يُهدِّد جوف العالم المسيحي، إذ بلغ نهر الدانوب وشواطىء البحر الأدرياتيكي.

ـ تعرَّضت المجر والدول الأوروبية الغربية لهزة جسيمة زعزعت كيانهم بشكل لم يعد يسمح لهم بإطلاق أيديهم في البلقان.

ـ أضحت القسطنطينية معزولة، كما أضحى الأسبتارية في جزيرة رودس وممتلكات الجمهوريات التجارية الإيطالية في بحر إيجة، على الحدود مع العثمانيين فالتمست خير السبل للمحافظة على مصالحها التجارية، كما التمس ملك المجر وأمراء الأفلاق ومولدافيا وألبانيا المساعدة للدفاع عن حدودهم، واشتد شعور البابا بما يُهدِّد العالم المسيحي من خطر، ولم تعد دول الغرب الأوروبي تُبدي شيئاً من الاهتمام بعد هذه التجربة المؤلمة، وفتر حماسها، لكن البابا ظلَّ يتآمر لعزل سيجسموند عن حاكمية المجر وإحلال لاديسلاس ملك نابولي مكانه، مع ما يجرُّ ذلك من عواقب الحرب الأهلية في الدفاع عن أوروبا الوسطى أمام طموح العثمانيين[2].

التطورات السياسية في الدولة العثمانية

تعرَّضت الدولة العثمانية في أوخرعهد السلطان بايزيد الأول لكارثة عسكرية وسياسية زعزعت كيانها وكادت تؤدي إلى نهايتها، إذ في الوقت الذي أحرز فيه السلطان بايزيد الأول انتصاره الكبير في نيقوبوليس، كان تيمورلنك[3] قد جلس على

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٧٧٠.
(٢) المرجع نفسه: ص٧٧١.
(٣) أصيب تيمور كوركان في شبابه بسهم في قدمه، أثناء إحدى غاراته بهدف السرقة، فعرج من =

العرش في بلاد المشرق، وكان هذا فاتحاً من الطراز المغولي استطاع في سنوات معدودة أن يؤسس دولة واسعة الأرجاء تمتد من سهوب سمرقند إلى بلاد الأفغان والهند وإيران حتى بلاد الكرج وأرمينية وكردستان، وبذلك يكون قد جاور الدولة العثمانية. وقرَّر تيمورلنك أن يخضع الحكام على امتداد حدود دولته ليدينوا له بالولاء والطاعة ومن بينهم السلطان العثماني بايزيد الأول، أما هذا فلم يقنع بأقل من أن يحكم دولة تمتد من الدانوب إلى نهر الفرات وربما إلى نهر النيل.

وتجاه التباين في وجهات النظر السياسية بين العاهلين كان لا بد من الصدام، وحصل اللقاء الرهيب في سهل أنقرة في (ذي الحجة ٨٠٤هـ/ تموز ١٤٠٢م) وأسفر عن انتصار تيمورلنك، ووقع السلطان بايزيد الأول في الأسر وتفرَّق أولاده.

الواقع أن المعركة على الرغم من قساوتها لم تكن الضربة القاضية، وقد وقعت في وقت كانت فيه الدولة العثمانية لا تزال في دور التكوين والفتوة، ما أعطاها القدرة على تلقي الضربة وامتصاصها ثم معاودة النهوض، كما شكَّل عدم اكتراث تيمورلنك الجدِّي بالأناضول أو بإسقاط الدولة العثمانية، عاملاً جوهرياً في الإبقاء عليها وفي قدرتها من بعد على الظهور قوية رغم المتاعب الداخلية الشديدة التي ألمَّت بها، إذ قام النزاع بين أبناء السلطان بايزيد الأول حول الحكم، استمر أحد عشر عاماً، ظهرت خلاله معالم تمزق الدولة حتى انفرد محمد شلبي بالحكم ليعيد تنظيم الدولة بعد فجوة السبات، ويبدأ الإنطلاقة في النمو من جديد.

توفي السلطان محمد شلبي في عام (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) وخلفه ابنه مراد الثاني، وكان معنياً بإعداد الدولة للمهام الكبيرة التي كانت مسؤولة عنها قبل نكسة أنقرة، فاهتم بإعادة تنظيم الجيش وتقوية الاقتصاد ليواجه أوروبا المتوثبة ضده.

وأراد السلطان مراد الثاني أن يتوسع باتجاه الشمال، فتصدَّت له القوات المجرية التي شكَّلت خط المواجهة الأول ضد الزحف العثماني باتجاه قلب القارة الأوروبية، بقيادة قائد صلب العود يُدعى يوحنا هونيادي أمير ترانسلڤانيا، لكن السلطان استطاع التغلب عليه، وأجبره على توقيع معاهدة تقضي بالتخلي عن البلاد الواقعة على الشاطىء الأيمن لنهر الدانوب بحيث يكون هذا النهر حداً فاصلاً بين أملاك العثمانيين والمجر[1]، وأذعن جورج برانكوڤيتش ملك الصرب، بعد أن أدرك أنه لا قِبَل له بمقاومة القوات العثمانية، وقَبِل أن يدفع جزية للسلطان، وتنازل الامبراطور البيزنطي يوحنا الثامن عن جميع القلاع الباقية تحت السيطرة البيزنطية على شواطىء

= الإصابة فسمي تيمورلنك، ولنك في اللغة الفارسية معناها أعرج.

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٤.

البحر الأسود وسواحل الروملّي، وفتح العثمانيون سالونيك وألبانيا، ورضي أمير الأفلاق ڤلاد الأول دراكول بدفع الجزية(١)، غير أنهم فشلوا في فتح بلغراد(٢).

الاصطدام العثماني ـ الصليبي في نيش

هال هذا التقدم العثماني الامبراطور البيزنطي، وشجَّعه فشل العثمانيين أمام بلغراد على التماس المساعدة من الغرب الأوروبي لوقف المد العثماني، فتوجَّه إلى روما للتباحث مع البابا حول كيفية التعاون بين المسيحيين للصمود في وجه العثمانيين، وأبدى استعداده لقبول توحيد الكنيستين وفقاً لرغبته(٣).

والواقع أن الدعوة كانت ناشطة آنذاك في الدوائر الدينية والسياسية في أوروبا لاتحاد الكنائس الشرقية والغربية، ولهذا توجَّهت الأنظار إلى عقد مجمع أساقفة في مدينة فراري في عام (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) ثم انتقل المجمع إلى مدينة فلورنسا في العام التالي، وقد وعد البابا يوجينوس الرابع (٨٣٤ ـ ٨٥١هـ/ ١٤٣١ ـ ١٤٤٧م) بدعوة ملوك أوروبا لإنقاذ القسطنطينية بعد أن عجزت الامبراطورية البيزنطية عن مقاومة العثمانيين(٤).

وافق المجتمعون على مبدأ إرسال حملة صليبية أخرى لإخراج العثمانيين من الأراضي الأوروبية وتخليص القسطنطينية من أخطارهم، وشاع في أوروبا أن حملة صليبية جديدة تساهم فيها الدول الأوروبية يمكن أن تُحقِّق هذا الهدف.

وفعلاً دعا البابا ملوك وأمراء أوروبا للمساهمة في هذه الحملة، فاستجاب لدعوته ألفونسو الخامس ملك أراغون ونابولي، وهو أقوى شخصية أوروبية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولاديسلاس الثاني ملك المجر وبولندة، ويوحنا هونيادي حاكم ترانسلڤانيا، وانضمَّت إلى الحملة قوات سكسونية وألمانية وتشيكية ولاتينية وفرنسية وبشناقية وأفلاقية وقرمانية، وسارت هذه القوات المتحالفة لقتال العثمانيين فيما سمي بـ «الحملة الطويلة»، وأرسل البابا الكاردينال جوليانو سيزاريني إلى المجر لإعطاء دفع ديني ومعنوي للحملة(٥).

والحقيقة أن حملة صليبية بقيادة يوحنا هونيادي غادرت بودابست في (ربيع الأول ٨٤٦هـ/ تموز ١٤٤٢م) واستطاعت إحراز نصر على الجيش العثماني المتقدم بجوار مدينة هرمنشتاد، وكان يزيد بك قائد هذا الجيش من بين القتلى، واضطرت فلول

---

(١) محمد فريد بك: ص١٥٥. أوزتونا: جـ١ ص١٢٢.

(٢) أوزتونا: جـ١ ص١٥٣. ڤاتان: ص١٠١.

(٣) Bréhier, L: Le Monde Byzantine p489.

(٤) Ibid: p491. Vasiliev: I pp 672, 673.

(٥) ڤاتان: ص١٠٢.

العثمانيين إلى الارتداد إلى ما وراء نهر الدانوب[1].

وعندما علم السلطان مراد الثاني بما أصاب جيشه، أرسل جيشاً آخر تعداده ثمانين ألف جندي بقيادة شهاب الدين باشا، اصطدم بالجيش الصليبي عند بلدة وازاج، لكن أصابه ما أصاب الجيش الأول، ووقع شهاب الدين باشا في الأسر[2].

كانت النتيجة النفسية لهذين الانتصارين واضحة، فقد بدا أن الأمل في تجديد الحرب الصليبية وطرد الأتراك من الأراضي الأوروبية، أقل حماقة، لذلك حشد الحلفاء جيشاً كثيفاً قاده يوحنا هونيادي ورافقه الملك لاديسلاس الثاني وانضم إليهما كل من جورج برانكوفيتش، الذي جرَّده السلطان العثماني من إمارته، وڤلاد الأول دراكول أمير الأفلاق[3].

تحرَّكت الجحافل الصليبية في (شوال ٨٤٦هـ/ شباط ١٤٤٣م) باتجاه الأراضي العثمانية، فاجتازت نهر الدانوب عند سمندرية، والتقت بالجيش العثماني المتقدم بقيادة السلطان عند نيش وانتصرت عليه في (أواخر٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م)، واحتلَّت مدينة صوفيا[4].

وحدث أن واصل يوحنا هونيادي تقدمه بعد الانتصار، فعبر جبال البلقان وهزم العثمانيين عند يالوڤاز ما بين صوفيا ونيقوبوليس[5]، وبدا أن أملاك العثمانيين في أوروبا أضحت غنيمة سهلة في يد هذا القائد المنتصر، وكان من المتوقع أن يتابع زحفه إلى أدرنة حيث بات الطريق إليها مفتوحاً، ولكنه لم يفعل وتوقف عن الزحف ربما بسبب صعوبة اجتياز المسالك في فصل الشتاء، أو لعله كان يخشى من أن يكمن له العثمانيون ويتربَّصوا به بعد اقترابه من مراكزهم الحيوية، والراجح أن تعدُّد القيادات في الجيش الصليبي كان يوحي بالتروي في اتخاذ قرارات خطيرة ضد العثمانيين.

تكمن أهمية معركة نيش في أنها نفخت روح الحماس الديني في أنحاء أوروبا، وأجبرت السلطان مراد الثاني على الجنوح إلى السلم، فعُقدت بينه وبين القوى الأوروبية معاهدة أدرنة في (٢٤ صفر ٨٤٨هـ/ ١٢ حزيران ١٤٤٤م) وقَّعها لاديسلاس الثاني، التي وضعت حداً للتمدد العثماني شمال نهر الدانوب، وأبقت على سيادة

---

(١) سرهنك، الميرالاي إسماعيل: تاريخ الدولة العثمانية ص٣٥.

(٢) المرجع نفسه. (٣) ڤاتان: ص١٠٢.

(٤) Shaw, S.J: History of the Ottoman Empire I P 51. Cambridge Medival History IV p691.

(٥) Shaw: Ibid.

الدولة العثمانية على بلاد الصرب والبوسنة مزعزعة، وخسر العثمانيون بعض ما كسبوه خلال أكثر من نصف قرن[1].

الاصطدام العثماني - الصليبي في ڤارنا

لم يُقدَّر لمعاهدة أدرنة أن تُنفَّذ على الأرض، إذ أن بعض القيادات الصليبية وبخاصة البابا رأت في تنفيذها ضربة قاصمة لآمالها في طرد الأتراك من القارة الأوروبية، لذلك أخذت تعمل على تعطيلها. حدث هذا في الوقت الذي تنازل فيه السلطان مراد الثاني عن الحكم لابنه الفتى محمد البالغ أربعة عشر عاماً بسبب ما شعر به من التعب، وكان الأثر المباشر لهذا القرار يتمثل في تجدُّد الحرب، ذلك أن الوضع السياسي في أدرنة كان مضطرباً، فقد واجه الصدر الأعظم خليل باشا جندرلي معارضة وزراء آخرين أكثر ميلاً إلى محمد الذي كان على جفاء معه، كما أن القيادات المسيحية المسؤولة عن شن الحرب الصليبية عادت ونظرت إلى الموقف بعين المصلحة الخاصة، بغض النظر عن تلك المعاهدة التي عُقِدت بين السلطان مراد الثاني ولاديسلاس الثاني، وتزعَّم هذه الحركة الكاردينال جوليانو سيزاريني بإيعاز من البابا الذي عطَّلت هذه المعاهدة طموحه[2].

كان الاعتقاد السائد في الدوائر الأوروبية المعادية للعثمانيين أن موقف هؤلاء أضحى حرجاً بعد اعتزال السلطان مراد الثاني وتسلُّم ابنه الفتى محمد زمام الأمور، ولا خبرة له في الشؤون السياسية، وأن دولتهم أضحت منهكة، وباتت أطرافها معرَّضة للاقتطاع من جانب أمراء الحدود الذين أجروا مفاوضات مع أعداء الدولة بهدف التعاون، يضاف إلى ذلك، فقد كانت توجد آنذاك قوات أوروبية معسكرة في البلقان يمكن الاستفادة منها، فضلاً عن أن استمرار العمليات العسكرية يمكن أن يُعدُّ حافزاً لملوك أوروبا لتقديم مساعدات جديدة وجديَّة.

استغل البابا هذه الفرصة وأخذ يُحرِّض المجر على نقض المعاهدة، وشاركه البيزنطيون الذين أطلقوا سراح أورخان، حفيد السلطان بايزيد الأول، ليُنافس على السلطة وكان رهينة عندهم، وقد أملوا في طرد العثمانيين من أوروبا واستعادة أملاكهم السابقة؛ ما أدَّى إلى تنكُّر بعض زعماء وملوك أوروبا لتلك المعاهدة التي وقَّعها لاديسلاس الثاني بحجة أن المعاهدة مع الكفار لا قيمة لها، وأن المصلحة المسيحية العليا هي التي يجب أن توضع فوق أي اعتبارات أخرى.

---

(١) انظر نص المعاهدة عند: محمد فريد بك: ص١٥٧. ڤاتان ١٠٤.

(٢) محمد فريد بك: المرجع نفسه. أوزتونا: جـ١ ص١٢٥.

اقتنعت القيادات المسيحية المعسكرة في البلقان بهذا التفسير، وتحرَّكت مشاعر ملك إنكلترا وملك فرنسا، وحكومات البندقية وجنوة وفلورنسا، على الرغم مما بينها من نزاعات، للمساهمة في هذه الحرب الصليبية[١].

ويبدو أن بعض الزعامات في البلقان رفضت المشاركة في هذا التحالف، مثل جورج برانكوڤيتش الذي أبى الحنث باليمين المعقود بين المتحاربين، وشاركه بعض الزعماء المحليين، بل إن الأمير الصربي منع إسكندر بك حاكم ألبانيا من اللحاق بحلفائه المجريين[٢].

قضت الخطة العسكرية أن يُبحر الأسطول البندقي باتجاه المضائق ويستولي على مدينة غاليبولي، في الوقت الذي يزحف فيه الجيش البري جنوباً ويُؤمِّن اتصالاً مع هذا الأسطول في المدينة المذكورة التي تُصبح قاعدة الانطلاق باتجاه القسطنطينية، وبذلك تكون القوات الصليبية قد حقَّقت هدفين في الوقت نفسه هما عزل السلطان عن قواعده في آسيا الصغرى وفتح طريق القسطنطينية[٣].

وهكذا تقدمت القوات المتحالفة التي بلغ تعدادها نحو عشرين ألفاً والتي يقودها ظاهرياً لاديسلاس الثاني ويحركها فعلياً يوحنا هونيادي، باتجاه الأراضي العثمانية متجنبة مضائق طريق أدرنة الخطرة، فتوجَّهت نحو البحر الأسود عن طريق ڤيدين ونيقوبوليس، وبعد أن انضمَّ إليها ڤلاد الثاني دراكول أمير الأفلاق وصلت إلى مدينة ڤارنا الواقعة على شاطىء البحر الأسود في (٢٦ رجب ٨٤٨هـ/ ٩ تشرين الثاني ١٤٤٤م)، وتحرك الأسطول البندقي في الوقت نفسه باتجاه المضائق[٤].

كانت العمليات العسكرية الأولى تشير إلى نجاح متوقع لقوات التحالف، وبخاصة أن السفن البندقية تمكَّنت من السيطرة على المضائق مانعة القوات العثمانية في آسيا الصغرى من العبور إلى الجانب الأوروبي للمشاركة في الحرب[٥].

كان الخطر أكبر من قدرات محمد الفتى، وأدرك وزراؤه وقادته أن المعركة هي معركة مصير، فأقنعوا السلطان مراد الثاني بالعودة إلى الحكم وتولي زمام الأمور وقيادتهم في هذه المعركة، فكان هذا التصرف الإيجابي من الأسباب التي أعطت الجيش العثماني الثقة بالنفس[٦].

جهَّز السلطان مراد الثاني جيشاً ضخماً يبلغ ثلاثة أضعاف الجيش المتحالف

---

(١) أوزتونا: جـ١ ص١٢٥. Shaw: Ip 52.

(٢) Cambridge Medieval History: IV p691.

(٣) Ostrogorsky: p503.

(٤) ڤاتان: ص١٠٥.

(٥) Ostrogorsky: p503.

(٦) أوزتونا: جـ١ ص١٢٦. Cambridge Medieval History: IV p692.

وزحف به باتجاه العدو، واعتقد الأوروبيون، وهم يزحفون باتجاه الجنوب، أنهم سيجدون أنفسهم في أرض مسالمة بين شعب مسالم، لكن هذا الجيش الائتلافي قضى على هذه الميزة عندما أنزل العقاب بالقرى المسيحية التي قاومته، واعتقد الكاردينال سيزاريني بأن نصارى البلقان الأرثوذكس هراطقة، بالإضافة إلى ذلك كانت الخلافات بين قيادات الجيوش تزداد عمقاً يوماً بعد يوم، بسبب الخطة التي يجب اعتمادها ضد العثمانيين.

وأخيراً حصلت المعركة في ڤارنا في (رجب/تشرين الثاني) فتهوَّر لاديسلاس الثاني في هجومه فسقط صريعاً، وأدَّى مصرعه إلى اضطراب الجيش الذي فتك به العثمانيون، وشاعت الفوضى في صفوفه، وكان نجاح الحلفاء قاصراً على قيام يوحنا هونيادي بجمع شتات بعض الجند ليفرَّ بهم عبرالدانوب، وقُتل الكاردينال جوليانو سيزاريني، المحرِّض الأول على قيام هذه الحرب، وتمَّ النصر للعثمانيين(١).

محاولة البابا بيوس الثاني تجديد الحرب الصليبية

يُعدَّ سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين في (٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ ٢٩ أيار ١٤٥٣م) نهاية مرحلة من مراحل التاريخ الأوروبي، وبداية مرحلة جديدة، وعلى الرغم من أن هذا الحدث لم يكن غير متوقع نظراً لقوة العثمانيين وتراجع البيزنطيين وإحجام الأوروبيين عن مساعدتهم؛ فإن الأمراء الذين تتعرَّض حدود أملاكهم للتهديد العثماني المباشر، استمروا وحدهم يقومون باتخاذ إجراءات الدفاع عنها، ولم يحاول إثارة الغرب الأوروبي الذي ابتعد عن ساحة القتال مع العثمانيين إلا الكاردينال ڤنسيو في ألمانيا، غير أن مفاوضاته مع الديت من أجل الحرب الصليبية لم تُسفر عن نتيجة إيجابية. وفي عام (٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م) اعتلى كرسي البابوية باسم البابا بيوس الثاني، وظل طوال مدة بابويته يسعى لبعث حملة صليبية كالتي سبق لإسلافه الكبار أن أرسلوها.

وفي عام (٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م) كاد حلمه أن يتحقَّق، فقد أمدته مناجم النطرون المكتشفة حديثاً في أملاك البابوية بالموارد المادية، وأبدى دوق البندقية استعداده الاشتراك في الحرب، وكان ملك المجر حريصاً على قيام تحالف مسيحي بعد تصالحه مع الامبراطور النمساوي، وأظهر يوحنا دوق برغنديا اهتماماً ملحوظاً بالمشروع.

---

(١) Diehle: Europe Orientale: pp 365, 366. Ostrogorsky: pp 503, 504. Shaw: I P 53. Temperley, H: History of Serbia p105.

غير أنه كلما مضت الأشهر تضاءل الحماس، إذ لم يعرض عليه مساعدة مادية إلا المجريون الذين كانوا يتعرضون لضغط العثمانيين، وتردَّد البنادقة، وما من جمهورية تجارية إيطالية كانت مستعدة للمغامرة بمصالحها مع العثمانيين، وتراجع يوحنا دوق برغنديا بفعل ما كان يتعرَّض له من مؤامرات من جانب ملك فرنسا، فكان من المتعذر عليه أن يغادر بلاده[١].

واضطر البابا أخيراً أن يُموِّل الحملة الصليبية ويتولى قيادتها بنفسه، وبناء على أوامره حشد مندوبوه أسطولاً من السفن في أنكونا، وفي (١٣ ذي القعدة ٨٦٨هـ/ ١٨ تموز ١٤٦٤م) اتخذ الصليب في احتفال جرى في كنيسة القديس بطرس ثم توجَّه إلى الميناء على الرغم من اعتلال صحته، غير أن أحداً من ملوك وأمراء أوروبا لم يحذ حذوه، وهجر البحارة سفنهم وعادوا إلى بلادهم، وإذ أدرك مستشاروه أنه رجل مريض يشرف على الموت،أخفوا عنه هذا الأمر، ولم يكد يبلغ أنكونا حتى توفي بها في (١٠ ذي الحجة/ ١٤ آب) من دون أن يعلم بفشل الحملة.

لقد حدث منذ أربعة قرون تقريباً أن دعا البابا أوربان الثاني إلى الحرب الصليبية، فاحتشد آلاف الرجال ليخاطروا بحياتهم في الحرب المقدسة، أما الآن فإن كل ما استطاع البابا بيوس الثاني، الذي اتخذ الصليب، أن يحشده لم يتجاوز عدداً قليلاً من المرتزقة المأجورين الذين تخلُّوا عن واجبهم قبل أن تتحرك الحملة، ما يدل على أن الروح الصليبية قد فترت لتعاود النهوض مجدداً وتغزو العالم الإسلامي الشرقي ثقافياً وفكرياً عبر الامتيازات الأجنبية، ثم عسكرياً عبر غزو فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين وزرع الكيان الصهيوني في جسم العالم العربي الإسلامي بالإضافة إلى العراق وأفغانستان في العصر الحاضر.

---

(١) Atiya! pp 227 - 230.

الخاتمة(١)

لم تتمخَّض أواخر الحملات الصليبية عن شيء، وكان الأوروبيون قد تبنوا منذ القرن الثالث عشر الميلادي مشروع الملك الفرنسي لويس التاسع الذي نظر إلى المسلمين بوصفهم عدواً للدين المسيحي وللحضارة، ونبذوا نهج الامبراطور فريدريك الثاني بإقامة علاقات طيبة مع المسلمين وبخاصة التجارية، والواقع أنهم اختاروا مضمون مشروع الملك الفرنسي منذ أن استجابوا لدعوة البابا أوربان الثاني في عام (١٠٩٦م)، وخاضوا طيلة مائتي عام من الحروب المقدسة ما زرع الكراهية في نفوس المسلمين، وما زالت هذه النظرة الغربية قائمة إلى اليوم، وهي نزعة متوارثة عن الحملات الصليبية. ففي الحادي عشر من أيلول عام (٢٠٠١م) شرح الرئيس الأميركي جورج بوش الابن، وهو يُعدُّ العدة لإطلاق حملة ضد ما يُسمى بالإرهاب الدولي، أن ذلك لا يعني حرباً ضد الإسلام، وكان يأمل في الحصول على دعم دول عربية وإسلامية، لكن عندما سمَّى إجراءه الانتقامي هذا حملة صليبية أثار حفيظة الشعوب العربية والإسلامية. ولكي نعي أسباب ذلك لا بد من أن نعود مجدداً إلى تلك الحروب الدينية التي دارت رحاها في القرون الوسطى نظراً لوجود إدراك يُتيح لنا العودة إلى جذور النزاع الحالي بين الشرق والغرب في المشرق الإسلامي، إلى السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام (١٠٩٥هـ) يوم دعا البابا أوربان الثاني إلى الحملة العسكرية.

وقد دلَّت محاكم التفتيش التي نشأت في فرنسا ثم انتقلت إلى إسبانيا بعد طرد المسلمين من الأندلس، على أن الأوروبيين كانوا أسيري الحروب الصليبية التي حملت المسيحيين على تصوير المسلمين كوحوش شريرة يجب القضاء عليها. وظل الأوروبيون مدة أربعمائة عام بعد الحملات الصليبية يشعرون بفزع عندما يتعرَّضون لأي تهديد ديني ما يحملهم على محاربته وبخاصة بعد سقوط القسطنطينية بيد

(١) إن هذه الخاتمة مستقاة، في بعض جوانبها، من كتاب الحرب المقدسة للمؤلفة كارين أرمسترونغ.

الأتراك العثمانيين في عام (١٤٥٣م) وقد حملوا معهم الدين الإسلامي إلى عقر أوروبا من الشرق هذه المرة.

ومن دون السور الذي كانت تُشكِّله بيزنطية لحماية أوروبا المسيحية من ضغط الإسلام، فإن الأوروبيين أضحوا أكثر عرضة لهجمات المسلمين، وبات الإسلام في نظر الأوروبيين يُشكل تهديداً لأوروبا الخارجة من ضغط العصور الوسطى، ويبثُّ رعباً مخيفاً.

وشكَّلت معركة ليبانت البحرية (١٥٧١م)، التي خسرها العثمانيون أمام تحالف صليبي، انعطافة مهمة وضعت حداً نهائياً لمزيد من الفتوح العثمانية في أوروبا، لكن شبح الدولة العثمانية القوية ظل على أي حال يخيف الأوروبيين، كما ظل هؤلاء ينظرون إلى المسلمين كألد أعداء أوروبا المسيحية، وقد تجذَّر هذا الاعتقاد في القلوب وفي النفوس لدرجة بات من الصعب أن يتلاشى.

وهكذا بات المسلمون بعد انتهاء الحروب الصليبية التقليدية، مبعث خوف غير مُبرَّر للأوروبيين ومرادفاً للشر، وحتى نهاية الحروب الصليبية لم يطرح أحد أي تساؤلات حول أخلاقيات حروب الإبادة هذه، بل على العكس، فقد آمن الأوروبيون بأن هذه الحروب عمل من أعمال محبة الرب، وظلت أوروبا مهتمة بأعدائها المسلمين في الشرق، في حين أن هؤلاء دأبوا على عدم الالتفات إلى العالم المسيحي الغربي مع العلم بأن الصليبيين كانوا لا يملكون شيئاً يقدمونه إلى العالم الإسلامي خلال حقبة الحروب الصليبية لأنه كان يسبقهم في مضمار الحضارة، لكن مع اكتشاف كولومبس لأميركا عام (١٤٩٢م) واكتشاف فاسكو دي غاما طريق إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح، تعرَّض المشرق الإسلامي لضربتين:

تجلَّت الأولى بقدرة الغرب على اللحاق بالمسلمين، ثم بات يتقدم عليهم وهو على استعداد أن يغزوهم من جديد.

وتجلَّت الثانية بعزل المنطقة المشار إليها، لأن الطريق البحري الجديد إلى الشرق الأقصى كان أقل كلفة وأكثر أماناً للأوروبيين الذين بات باستطاعتهم تجنب المرور عبر الاراضي الإسلامية التي أصابها الركود، علماً بأن الطرق التجارية القديمة كانت حيوية لاقتصادها.

وفي عامي (١٥١٦ و١٥١٧م) ضمَّ العثمانيون العالم العربي وحكموه حكماً مباشراً، وأدَّى ذلك إلى عزل شعوبه وراء الحاجز العثماني، وانقطع العرب عن كل اتصال سياسي وتجاري مباشر مع العالم الخارجي، وحلَّت اللغة التركية محل اللغة العربية كلغة رسمية إنما بقيت هذه اللغة لأغراض العبادة، والواضح أن العرب لم يركنوا إلى الحكم العثماني إلا لكون العثمانيين مسلمين. لم يُقدِّم هذا الحكم للعرب أي شيء جديد، لكن حدث غزو غربي من نوع آخر بدأ في القرن السادس عشر

الميلادي عندما منح العثمانيون، وهم في موقع قوة لكل من بريطانيا وفرنسا وهولندا، امتيازات خاصة تعطي مواطنيها الحقوق التي يتمتع بها أهل الذمة من مسيحيي البلاد الأصليين، فاستغل الأوروبيون هذه الامتيازات فوراً، فأنشأوا شبكة من المحطات التجارية وأرسلوا البعثات القنصليةِ التي اتضح أنها كانت غطاء لفرض مؤثرات ثقافية ـ فكرية واجتماعية غربية. ولم يُبْدِ العرب اهتماماً بالمؤثرات الأجنبية وذلك لكي يحافظوا على ما يمكن من تراثهم، وبالتالي لم يُكوِّنوا أي فكرة عن الغرب.

وشهد القرن الثامن عشر الميلادي موجة ولع شديد بالشرق قادها المفكرون الأوروبيون الذين انكبُّوا على ترجمة الكنوز الشرقية، وكانت تعبيراً عن الأحلام الغربية في الشرق. والواضح أن ثمة تحولاً كبيراً طرأ على الموقف الأوروبي تجاه الشرق، وكانت أوروبا قد اكتسبت ثقة كبيرة بنفسها بعد التوسع خارج القارة، ومضت تسير قدماً نحو عهد جديد في الوقت الذي كانت فيه السلطنة العثمانية تسير بخطى سريعة نحو الانحطاط، وبدا كأن المسلمين استنفدوا طاقاتهم، فلم يعودوا مصدر رعب للأوروبيين، وبات بإمكان هؤلاء صرف النظر عنهم، كما لم تعد إنجازات المسلمين تُشكِّل تهديداً لهم وبالإمكان تجاهلها. وعجز المسلمون عن رؤية المسيحية الجديدة، وتخيَّلوا أن أوروبا لم تنل إلا نصيباً ضئيلاً من التطور منذ أيام الصليبيين، لذلك تعرَّضوا لصدمة قوية عند نهاية القرن الثامن عشر لدى التقائهم بالغرب الجديد وجهاً لوجه، الذي أخذ يُوطِّد أقدامه من جديد في المنطقة بسهولة.

وعندما يُسمي العرب اليوم «الأمبريالية» الغربية بالصليبية، فإنما يستعيدون بعضاً من أشرس وأعنف ذكرياتهم عن الاستعمار الغربي الذي تقاطعت مصالحه مع مصالح الصهيونية في الاستيلاء على جبل صهيون في فلسطين. وعندما ساعد ساسة بريطانيا بدءاً من عام (١٨٣٨م) اليهود الذين شكَّلوا إحدى الملل العثمانية في إنشاء مستعمرات يهودية في فلسطين، كان واضحاً أن بريطانيا تهدف إلى إرساء حضور بريطاني في الوطن العربي، في حين هدف بعض البريطانيين الذين أوصوا بهذه الفكرة لرئيس الوزراء بالمرستون، أمثال أشلي ولورد شافتسيري، إلى تحويل اليهود إلى المسيحية من أجل التعجيل بالمجيء الثاني للمسيح، كما أن استيلاء اليهود على جبل صهيون هو خطوة مهمة نحو العصر الألفي السعيد[1]، لكن اليهود كانت لديهم تطلعات مغايرة تماماً في ذلك الحين، وترك البريطانيون المسلمين أصحاب البلاد خارج الصورة لأنهم

---

(١) إن معركة هرمجدون ستكون معركة فاصلة بين أزمنة الأمم وحكمها، وبين ظهور المسيح المخلص، الذي سيكون بعد ظهوره ألف سنة من السعادة ينتشر فيها العدل وينتفي الظلم، ولا تحصل حروب ولا نزاعات. انظر: سحمراني، أسعد: ترجمان الأديان ص٣٣١.

لا وجود لهم في نظرهم، وكانت القوى الأوروبية الاستعمارية لا تفتأ تستغل الملل من أجل إيجاد موطئ قدم لها في ربوع العالم العربي وتثبيته والتدخل في شؤونه.

وعندما زار شاتوبريان الفرنسي فلسطين في أوائل القرن التاسع عشر، عمد إلى تطبيق الفكر الصليبي على الواقع الماثل أمامه، فمثَّل العرب المسلمين كجنود من دون قائد، ومواطنين من دون مشرِّعين، وعائلة من غير أب، كانوا يصيحون مطالبين الغرب المتمدن بالتدخل الخيِّر لأن الغربيين كانوا مثال المتحضرين، وعندما كان الفرنسيون يعودون بأفكارهم إلى عصر الحروب الصليبية، كانوا يبرزون جوانبها الخيِّرة فقط، هذا إذا كانت موجودة أصلاً.

وتأثر المفكرون العرب بأفكار الثورة الفرنسية وبأفكار نابوليون بونابرت، وكانوا على أهبة تطبيق الأفكار الغربية، فبرز الاستعمار الغربي للمشرق العربي بوصفه حقاً أوروبياً، وسيتمكَّن الأوروبيون من خلال احتلال الأرض من إنشاء مدن حرة للمستعمرات الأوروبية فيها، بالإضافة إلى مرافىء تجارية.

وتجلَّى الاحتقار الأوروبي للعرب في سلسلة المعاهدات والاتفاقيات السرية التي أُبرمت بين عامي (١٩١٥ و١٩١٨م)، ولعل أكبر شاهد على هذا الاحتقار احتضان بريطانيا للثورة العربية ضد الأتراك واستغلالها لمصالحها ومصالح الصهيونية بواسطة الضابط البريطاني المعروف بـ «لورنس العرب»، واستخفافه وازدرائه العنصري بالعرب على امتداد كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»، لكنه شعر بالخزي عندما نكث البريطانيون العهد الذي قطعوه للعرب وتولوا بأنفسهم حكم المشرق العربي في بادىء الأمر، بعد طرد الأتراك منه خلال الحرب العالمية الأولى.

وجاءت اتفاقية سايكس بيكو في عام (١٩١٦م) على أثر مراسلات حسين ـ مكماهون بين عامي (١٩١٤ ـ ١٩١٦م) لتنسف ما تضمنته هذه المراسلات، ما أدى إلى صدور وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني عام ١٩١٧ الذي أعلنت فيه بريطانيا تعاطفها مع الأماني اليهودية في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، والذي تأكد بالإعلان الإنكليزي ـ الفرنسي المشترك في عام (١٩١٨م) بإخراج فلسطين من التعهدات مع العرب، واقتسام الدولتين البريطانية والفرنسية أراضي المشرق العربي فيما بينهما، وعلى الرغم من أن بعض الدول العربية المستحدثة قد نالت استقلالها إلا أن حريتها كانت مقيدة.

والواقع أن المشرق العربي تعرَّض للغزو من قِبل ثلاث قوى هي: قوة الصليبيين والمغول في العصر الوسيط، والقوى الإنكليزية والفرنسية، ثم الأميركية في العصر الحديث، وثبت بأن هذه القوى الأخيرة كانت الأكثر إذلالاً والأبقى دواماً.

وانتقلت زعامة العالم المسيحي الغربي من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م)، ومقاربة الولايات المتحدة الأميركية للعرب واليهود ليست واحدة طبعاً، فالكثير من المواقف الصليبية القديمة قد انتقلت إلى الولايات المتحدة الأميركية مع المهاجرين الأوروبيين، وقد تُرجمت من خلال إقامة كيان صهيوني في فلسطين في عام (١٩٤٨م)، كما كان موقف الولايات المتحدة الأميركية من ثروة العرب النفطية مغايراً لرد الفعل البريطاني، فقد نظر الأميركيون إلى العرب على أنهم لا يملكون مؤهلات أخلاقية تسوغ لهم حيازة هذه الثروة، وأن العرب هم وراء كل مشكلة أو صعوبة ناتجة عن النقص في الوقود. وطوَّرت الولايات المتحدة الأميركية، موقفاً خاصاً بها ومختلفاً عن الموقف الأوروبي، فأخذ الأميركيون يتماهون عملياً مع اليهود، وأعطوا أرض كنعان الجديدة هوية يهودية وأمَّنوا ملاذاً للملايين اليهود القادمين من أنحاء المعمورة، ويُصنِّف مجلسا الشيوخ والنواب الأميركيان الكيان الصهيوني حليفاً رئيساً من خارج حلف شمالي الأطلسي، وأن العلاقة التي تربط الولايات المتحدة الأميركية بهذا الكيان هي علاقة تعاون استراتيجي، ويشترك الطرفان في الحرب ضد ما يُسمى بالإرهاب الدولي، فلاغرو أن نما عداء شعبي للاستعمار الجديد المتمثل بالولايات المتحدة الأميركية والكيان الصهيوني.

إن ذكريات الحروب الصليبية التي شنَّها الغرب أنعشت مجدداً الاضطرابات الراهنة في العالم العربي، وأن دراسة الحملات الصليبية ليست بالتأكيد إلا فرعاً من فروع المعرفة سواء في الكيان الصهيوني أو في العالم الإسلامي، علماً بأن الأماكن المقدسة في فلسطين، غالباً ما تُشكل هي الأخرى نقاط اشتعال في الصراع.

ماذا سيحدث في المستقبل؟ سيكون من الخطأ أن نجري توقعات أو تكهنات سياسية عادية لأن المفارقة بين وضع الصليبيين في القرون الوسطى ووضع اليهود في العصر الحديث والمعاصر، في فلسطين، هي أن الصليبيين كانوا طارئين لا يدَّعون حقاً في الأرض يسترجعونه، وأن اليهود يدَّعون بأنهم عادوا إلى أرض آبائهم وأجداهم الموعودة، مع أن مفكريهم يدركون في قرارة أنفسهم أنهم لا يخرجون عن كونهم حملة صليبية حديثة، ويظهر ذلك جلياً في الكثير من كتاباتهم.

لقد نشأت المسيحية الصليبية استجابة لدوافع حقبة زمنية طويلة من المهانة والعجز في العصور المظلمة، إلا أنها شكَّلت انطلاقة جديدة تحررية، وزوَّدت شعوب أوروبا بفكرة أعادت إليهم احترامهم لذاتهم، وصنعت من الغرب قوة عالمية، ولا تزال الأرض المقدسة أرضاً أسطورية بالنسبة للكثير من المسيحيين بفعل إيمانهم الديني؛ ويرون بأنهم بحاجة إلى هذا البُعد الديني في حياتهم لا يمكن الاستغناء عنه.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

- ابن الأثير، أبو الحسن علي. . . ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري:
  - ـ **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
  - ـ **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل**، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م.
- أسامة بن منقذ:
  - ـ **كتاب الاعتبار**، نشر وتحقيق فيليب حتي، برنستون، ١٩٣٠م.
- الأصفهاني، عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد:
  - ـ **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق محمد محمود صبح، من الشرق والغرب، القاهرة.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد:
  - ـ **تاريخ الأنطاكي**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.
- أودو أوف دويل:
  - ـ **الحملة الصليبية الثانية ـ رحلة لويس السابع إلى الشرق**، تحقيق وترجمة سهيل زكار في كتابه تاريخ الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد:
  - ـ **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن عمر شاهنشاه صاحب حماة:
  - ـ **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة.
- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي:
  - ـ **سنا البرق الشامي**، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، القسم الأول، تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧١م.

□ البيهقي، أبو الفضل:
- **تاريخ البيهقي**، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.

□ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف:
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.
- **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، تحقيق محمد محمد أمين ونبيل محمد عبد العزيز.

□ توديبو، بطرس:
- **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٨م.**

□ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد:
- **رحلة ابن جبير**، دار بيروت، ١٩٨٤م.

□ جوانفيل:
- **مذكرات جوانفيل**، ترجمة وتعليق حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٨م.

□ ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي التركي المعروف بالسبط:
- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، في تاريخ الحروب الصليبية**، لسهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٤م. وتوجد نسخة من تحقيق دائرة المعارف الإسلامية بالهند، جـ٨.

□ الجويني، عطا ملك:
- **تاريخ قاهر العالم**، ترجمة أحمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، ١٩٨٥م.

□ ابن حبيب، الحسن بن عمر:
- **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

□ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:
- **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

□ ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:
- **تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر**... مؤسسة جمَّال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

□ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد:
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

□ الدواداري، ابن أيبك:
- **كنز الدرر وجامع الغرر**، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، جـ٧، القاهرة، ١٩٧٢م.

□ السيوطي، عبد الرحمٰن بن أبي بكر جلال الدين:
- **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين**، تحقيق أحمد إبراهيم زهوة وسعيد بن أحمد العبدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

□ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمٰن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي:
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

□ ابن شداد، بهاء الدين:
- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين**، تحقيق جمال الدين الشيَّال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.

□ الشدياق، طنوس:
- **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، بيروت، ١٩٥٤م.

□ صالح بن يحيى:
- **تاريخ بيروت**، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٩٠م.

□ الصوري، وليم:
- **تاريخ الحروب الصليبية**، وهو ترجمة لسهيل زكار لكتاب: **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

□ ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا:
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.

□ ابن عبد الظاهر، محيي الدين:
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٧٦م.

□ ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
- **تاريخ الزمان**، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

□ ابن العديم، الصاحب كمال الدين:
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.

□ العظيمي، محمد بن علي:
- **تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار في كتاب الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.

❑ العهد الجديد.

❑ العهد القديم.

❑ العيني، بدر الدين محمود:

- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ١٩٨٨م، ١٩٩٠م، ١٩٩٢م.

❑ أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل ...بن أيوب:

- **تاريخ أبو الفدا، المسمى المختصر في أخبار البشر**، تحقيق محمود ديوب، دارالكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

❑ ابن الفرات، ناصر الدين محمد:

- **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق قسطنطين زريق، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٣٨م، ١٩٤٢م.

❑ فولشر الشارتري:

- **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٠م.

❑ ابن القلانسي، حمزة بن أسد:

- **تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.

❑ القلقشندي، أحمد بن علي:

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

❑ ابن كثير، الحافظ:

- **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

❑ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:

- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطار، دارالكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، القاهرة، ١٩٨٤م، وتوجد طبعة جديدة صادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة عام ١٩٩٦م.

❑ المنصوري، بيبرس الدوادار:

- **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية - اللبنانية، ط١، ١٩٨٧م.

□ المؤرخ الإنكليزي المجهول:
- **الحرب الصليبية الثالثة**، صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، ترجمة وتحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
□ المؤرخ السرياني المجهول:
- **الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية**، تحقيق وترجمة سهيل زكار في كتابه الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
□ المؤرخ المجهول:
- **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، تحقيق وترجمة سهيل زكار في كتابه الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
□ ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب:
- **أخبار مصر، الجزء الثاني**، باعتناء هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩م.
□ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق جماعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
□ الهمذاني، رشيد الدين:
- **جامع التواريخ تاريخ المغول في إيران (تاريخ هولاكو)، المجلد الثاني، الجزء الأول**، ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة، ١٩٦٩م.
- **جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي إلى تيمور خان**، تعريب فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
□ ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعي:
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧م.
□ يعقوب الڤيتري:
- **تاريخ بيت المقدس**، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨م.

ب ـ المراجع

□ آرمسترونغ، كارين:
- **الحرب المقدسة**، ترجمة سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م.
□ آمجن، فريدون:
- **التاريخ السياسي للدولة العثمانية، فصل في كتاب الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة**، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة صالح سعداوي، إستانبول، ١٩٩٩م.

□ أرملة، إسحاق:
- **الحروب الصليبية في الآثار السريانية**، بيروت، ١٩٢٩م.
□ أستارجيان، ك.ل:
- **تاريخ الأمة الأرمنية، الموصل، ١٩٥١م.**
□ أوزتونا، يلماز:
- **تاريخ الدولة العثمانية، تعريب عدنان محمد سليمان**، مؤسسة فيصل للتموين، إستانبول، الجزء الأول، ١٩٨٨م، الجزء الثاني ١٩٩٠م.
□ بانتر، سيدني:
- **أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية، فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية**، بإشراف كينيث سيتون، ترجمة سعيد عبد الحسن، منشورات بيت المقدس، ط١، ٢٠٠٤م.
□ بوزيه، الأب لويس:
- **السلطان صلاح الدين الأيوبي في التراث الفرنسي، بحث في مجلة دراسات إسلامية، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، الموسم الثقافي، ١٤١٤ - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤ - ١٩٩٥م، بيروت.**
□ جب، السير هاملتون:
- **صلاح الدين الأيوبي**، ترجمة يوسف أيبش، ط٢، بيروت، ١٩٩٦م.
□ حبشي، حسن:
- **نور الدين والصليبيون**، دار الفكر العربي، القاهرة.
□ حسن، علي إبراهيم:
- **تاريخ المماليك البحرية**، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م.
□ حسين، محسن محمد:
- **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**، مؤسسة الرسالة، بيروت.
□ الحويري، محمود محمد:
- **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين**، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٩٢م.
□ خليل، عماد الدين:
- **الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
□ خليل، فؤاد:
- **الإقطاع الشرقي**، دار المنتخب، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
□ داهموس، جوزيف:
- **سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى**، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.

❑ الدجاني، هادية وشكيل برهان:

- **صلاح الدين بين التاريخ والملحمة**، بحث في كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٤م.

❑ ديورانت، ول:

- **قصة الحضارة، مجلد ٤، جـ٣**، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة.

❑ رنسيمان، ستيفن:

- **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

❑ زقلمة، أنور:

- **المماليك في مصر**،

❑ زيادة، محمد مصطفى:

- **حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة**، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١م.

❑ سحمراني، أسعد:

- **ترجمان الأديان**، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

❑ السرساوي، محمود محمد:

- **يوم حطين**، من روائع التاريخ العسكري العربي.

❑ سرور، محمد جمال الدين:

- **دولة بني قلاوون في مصر**، دار الفكر العربي، القاهرة.

❑ سميث، جوناثان رايلي:

- **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية**، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

❑ سيد، أيمن فؤاد:

- **تاريخ الدولة الفاطمية في مصر**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.

❑ شبارو، عصام:

- **السلاطين في المشرق العربي: السلاجقة - الأيوبيون، معالم دورهم السياسي والحضاري**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.

❑ طقوش، محمد سهيل:

- **تاريخ الفاطميين في شمالي أفريقيا ومصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- **تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى**، دار النفائس، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م.

❑ عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٣م.
- **شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٧م.

❑ العبادي، أحمد مختار والسيد عبد العزيز سالم:
- **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

❑ عبيد، إسحاق تاضروس:
- **روما وبيزنطية**، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠م.

❑ العريني، السيد الباز:
- **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
- **الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون**، دار النهضة العربية، بيروت.

❑ عمران، محمود سعيد:
- **السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول**، دار المعارف بمصر، ١٩٨٥م.
- **محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط**، بيروت.
- **الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي بريين على مصر**، دار المعارف بمصر، ١٩٨٥م.

❑ عنان، محمد عبد الله:
- **موقعة ملازكرد**، مجلة الثقافة، العدد ٥٠٠، ١٩٤٨م.

❑ عوض، محمد مؤنس أحمد:
- **في الصراع الإسلامي - الصليبي، السياسة الخارجية للدولة النورية**، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

❑ ڤاتان، نيقولا:
- **صعود العثمانيين، فصل في كتاب تاريخ الدولة العثمانية**، إشراف روبير مانتران، الجزء الأول، الفصل الثاني، تعريب بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

❑ فنك، هارولد:
- **تأسيس الإمارات اللاتينية، فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية**، بإشراف كينيث سيتون، ترجمة عامر نجيب موسى ناصر، منشورات بيت المقدس، ط١، ٢٠٠٤م.

❑ قاسم، عبده قاسم:
- **ماهية الحروب الصليبية**، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٤٩.
- **الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية**، دراسة عن الحملة الصليبية الأولى، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

❑ كانتور:
- **التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية والنهاية**، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار المعارف مصر، ١٩٨١م.

❑ كوبرولي، محمد فؤاد:
- **قيام الدولة العثمانية**، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

❑ كولز، بول:
- **العثمانيون في أوروبا**، ترجمة عبد الرحمٰن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

❑ لينبول، ستانلي:
- **صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس**، ترجمة فاروق سعد أبو جابر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

❑ ماير، هانس إيرهارد:
- **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ١٩٩٠م.

❑ محمد فريد بك:
- **تاريخ الدولة العلية العثمانية** تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

❑ مؤنس، حسين:
- **نور الدين محمود**، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م.

❑ نسيم، جوزيف:
- **العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- **الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية**، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ١٦، ١٩٩٢م.

❑ نوري، دريد عبد القادر:
- **صلاح الدين الأيوبي**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦م.

❑ نيكلسون، روبرت:
- **تطور الدويلات اللاتينية، فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية**، بإشراف كينيث سيتون، ترجمة عبد الرحمٰن محمد المغربي، منشورات بيت المقدس، ٢٠٠٤م.

❑ هسي، ج.م:
- **العالم البيزنطي**، تعريب رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٩٧م.

□ هلال، عادل إسماعيل محمد:
- **العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي**، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

□ هيلينبراند، كارول:
- **صلاح الدين تطور أسطورة غربية، من كتاب ٨٠٠ عام**، حطين وصلاح الدين والعقل العربي الموحد، القاهرة.

□ وولف، روبرت لي:
- **الحملة الصليبية الرابعة، فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية**، إشراف كينيث سيتون، ترجمة ليلى عبد الجواد إسماعيل، منشورات بيت المقدس، ٢٠٠٤م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الإسلامية:

□ ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمد
- **الأوامر العلائية في الأمور العلائية المسمى بسلجوق نامه**، تحقيق هوتسما، ١٩٠٢م. (الفارسية).

□ سعد الدين، محمد:
- **تاج التواريخ**، إستانبول، ١٨٦٢ - ١٨٦٣م. (التركية)

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Albirt d'Aix:
  * **Liber Christianne Erdition pro Eoptions. Emundtione et Restions Sameta HierosoLurritanae Ecclesia in Recueil des Historienes des Croisades. occ,** Paris, 1841-1966.
- Ambroise:
  * **L'Histoire de la Geurre Sainte,** Paris, 1897.
- Archer, T.A and Kings ford, C.L:
  * **The Crusades, the story of the Latin Kingdom of Jerusalem,** London, 1894.
  * **Archives de L'orient Latin,** Paris, 1881.
- Atiya, A:
  * **The Crusades in the Later Middle Ages,** London, 1938.
  * **Crusade of Nicopolis,** London, 1934.
- Baldwin, Marshal:
  * **Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem,** Amisterdam, 1969.
- Besant, W. and Pulmer, E.H:
  * **Jerusalem the City of Herod and Saladin,** London, 1899.
- Boyle, J.A:
  * **The Il Khans of Persia and the Christiane west.** History today, 1973.

- Brand, CH.N:
  * **The Bysantine and Saladin Opponent of the Crusade,** Speculum 37, 1962.
- Brehier, L:
  * **L'Eglise et L'orient au Moyen Age Les croisades,** Paris, 1928.
  * **Le Monde Byzantine, Vie et Mort de Byzance,** Paris, 1927.
- Brentano, F:
  * **Les Croisades,** Paris, 1934.
- Brundage:
  * **Meel Canon Law and the Crusades,** Wisconsin, 1969.
- Bury, J.B:
  * **History of the Later Roman Empire, from Arcadius te Irene,** London, 1889.
- Cahen, Claude:
  * **Pre-Ottoman Turkey, trans by J. Jones,** London, 1968.
  * **La Syrie du Nord,...** Paris, 1942.
- Cambridge Medieval History, IV, V, VI.
- Cambridge Medieval History, Byzantine Empire.
- Cary, M:
  * **A History of Rome down to Reign of Constantine,** London, 1949.
- Chalandon, F:
  * **Essai sur la Regne d'Alexis Comnen,** Paris, 1900.
  * **Histoire de la Premiere Croisades,** Paris, 1924.
  * **Les Comnenes Jean II et Manuel,** Paris, 1913.
- Chamician, Michel:
  * **History of Armenia, Trans by Johannes Auadalle,** Calcutta, 1827.
- Charanis, Peter:
  * **The Byzantine Empire in th Eleventh Century, in Setton: A History of crusades,** wisconsin, 1969.
  * **Children's Crusade, in American Historical Review,** NewYork, 1914.
- Choniates, Nicetas:
  * **Historia, in Corpus Scriptorum Historiae,** Byzantinae, Bonn, 1828-1897.
- Church:
  * **A study of a conflict from Maccabees to Donatus.**
- Clary, Robert:
  * **La Conquete de Constantinople, ed laver,** Paris, 1924.
- Comnena, Anna:
  * **The Alexiade, Trans by Elisabeth, A.S Dawes,** London, 1928.
- Coulton, GG:
  * **The Medieval Scene,** Cambridge, 1930.

- Diehl, charles, et Marcais:
  * **Histoire de L'Empire Byzantine,** Paris, 1930.
- Diehl, charles:
  * **Europe Oriental de 1081 a 1453,** Paris, 1945.
- Donovan, p:
  * **Pelagius and the Fifth Crusades,** Philadelphia, 1950.
- EhrenKreutz, A:
  * **Saladine,** State University of NewYork, 1972.
- Einhard, R:
  * **The Life of Charlemagne,** Michigan, 1960.
- Elisseeff, N:
  * **Nur Ad-Din Un Grand Prince Musulman de Syrie Au Temps des Croisades,** Damas, 1967.
- Inalcik, H:
  * **The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy Studies,** in the Economic History of the Middle East, by M.H, Cook, 1970.
- Eracle:
  * **L'Estoire de Eracles Empereur et la Conquette de la Terre d'outre mer, in Recueil des Historiens des Croisades, Occ.,** Paris, 1841-1966.
- Ernoul:
  * **Chronique d'Ernoul, ed Maslatire,** Paris, 1871.
- Eugene III:
  * **Letter to Louis, in Recueil de Historiens de Gaul de la France,** 1918-1273, London, 1909.
- Frenol, W.H.C:
  * **Martyrdom and the Persection in the Early Church, A Study of Conflict from the Maccabees Donatus,** Oxford, 1955.
- Finlay, George:
  * **History of the Byzantine Empire,** London, 1853.
- Gibbons, H.A:
  * **The Foundation of the Ottoman Empire 1300-1403,** Oxford, 1916.
- Gregoire le prêtre:
  * **Chronique, in Receueil des Historiens des Croisade,** Doc Arm vol I, Paris, 1869.
- Grousset, Renè:
  * **Histoire de Croisades et du Royaume,** Perrin, Paris, 1991.
  * **Histoire de L'Aremenie des Origines jusqu'a 1071,** Paris, 1947.
  * **L'Empire de Levant, Histoire de la question d'orient,** Paris, 1946.

- Haskins, C.H:
  * **The Norman in Europian History,** NewYork, 1959.
- Heyd, W:
  * **Histoire du Commerce du Livant,** Leibzig, 1936.
- Hill, G:
  * **History of Cyprus,** Cambrige, 1946.
- L'Histoire des patriarches d'Alexendria.
- Howorth, Sir Henry:
  * **History of Mongols from the 9th to the 19th century,** London, 1876-1927.
- Iorga, Nicole:
  * **Brève Histoire des Croisade et de Leurs Fondation en terre sainte,** Paris, 1924.
  * **L'Armenie Cilicienne: Brève Histoire de la petite Armenie, L'arm,** Paris, Gamber, 1930.
- Kontorowicz:
  * **Fredrick the Second,** London, 1931.
- King, E.J:
  * **The Kinghts of Hospitallers in the Holy land,** London, 1931.
- Kinnamos, Johns:
  * **Epitom Historiarum,** Bonn, 1836.
- Lane-poole:
  * **History of Egypt in the Middle Ages,** London, 1925.
- Luchaire, A:
  * **Innocent III,** Paris, 1911.
- Mathew of Edessa:
  * **Chronicle. In, Recueil des Historiens des Croisades, Arm,** Paris, 1841-1966.
- Meyendorff:
  * **Unitè de l'Empire et Divisions des Chrétiens,** Paris.
- Michaud, J.E:
  * **Histoire des Croisades,** Paris, 1877.
- Michel le Syrienne:
  * **Chronique, Ed. By: J.B Chobot,** Bruxelles, 1899- 1910.
- Nerses, Shnorhali:
  * **Sur la prise d'Esse in: Recueil des Historiens des Croisades, Doc Arm,** Paris, 1841-1966.
- Oliver of Padenborn:
  * **The Capture of Damiatta, Trans by John, J. Cavigan,** philadelphia, 1948.
- Oman, C.W.C:
  * **A History of the Art of war in the Middle Ages,** London, 1924.

- Ostragorsky, G:
  * **A History of the Bysantine States, Trans by Hussey,** oxford, 1956.
- Otto of Freising:
  * **The Deeds of Fredrick Barbarossa, ed and trans by Mierow,** NewYork, 1953.
- Pirenne, Brian:
  * **The Middle Ages,** NewYork, 1978.
- Pierenne, Henry:
  * **Economic and Social History of Medieval Europe,** London, 1972.
- Pitcher, D.E:
  * **A Historical Geography of the Ottoman Empire from Earliest Times to the End of Sixteenth Century,** Leiden, 1972.
- Prawer, Joshwa:
  * **Crusades Intitutions,** oxford, 1960.
- Psellus, Michael:
  * **The Chronographia, Trans by E.R.A, Sexter Baltimore,** England, 1966.
- Rachewitze, Igore:
  * **Papal Envoys to the Great Khan,** London, 1970.
- Raymond d'Aguilers:
  * **Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem. In, Recueil des Historiens des Croisades, Occ,** Paris, 1841-1966.
- Radulph of Caen:
  * **Gesta Tancredi siesliae Regis in Recueil des Historiens des Croisades, Occ,** Paris, 1841-1966.
- Recits de Byzance et de croisades, Paris, 1916-1972.
- Rice, T.T:
  * **The Seljuks in Asia Minor,** London, 1961.
- Richard:
  * **Le Royaume Latin de Jerusalem,** Paris, 1963.
- Robert the Monk:
  * **Historia Hierosolymituna, in Recueil des Historiens des Croisades, Occ.,** Paris, 1841-1966.
- Roger of Hovenden:
  * **Chronica, ed stubbs,** Roll Syries.
- Rubruck, w:
  * **The Journey of William Rubruck, ed Dawson,** London, 1962.
- Runciman, S:
  * **The Eastern Schisem,** oxford, 1936.
- Russel, F.H:
  * **The Just war in the Middle Ages,** Cambridge, 1973.

- Saunder, J.J:
  * **Aspect of the Crusades,** Canterbury, 1962.
- Schlumberget, G.L:
  * **Renaud de Chatillon Prince of Antioche,** Paris, 1935.
  * **L'Epopée Byzantine a la Fin du dixièm siècle,** Paris, 1896-1905.
- Sempad:
  * **Chronique de Petit Armenie, in Recueil des Hisoriens des Croisades Arm,** Paris, 1841-1966.
- Shaw, S.J:
  * **History of the ottoman Empire, I,** Cambridge, 1988.
- Stubbs, W:
  * **Seventeen Lectures on the Study of Medieval and Modern History,** oxford, 1900.
- Temperley, H:
  * **History of Serbia,** London, 1959.
- Thatcher, O.J. and Meneal, E.H:
  * **A source Book for Medieval History,** NewYork, 1905.
- Tierney, Brian:
  * **The Middle Ages,** NewYork, 1978.
- Tournabize:
  * **Histoire Politique, Religieuse de L'Armenie,** Paris, 1910.
- Tout, T.F:
  * **The Empire and the Papacy, Eruopean History 918-1213,** London, 1909.
- Vasiliev, A.A:
  * **History of the Byzantine Empire,** Madison, 1961.
- Villhardouin, Geoffry:
  * **La Conquete des Constantinople,** Paris, 1889.
- Ware, J:
  * **The Orthodox Church,** London, 1963.
- Wiet, G:
  * **L'Egypt Arabs,** Paris, 1937.
- Wilkinson, John:
  * **Jerusalem Pilgrims before the Crusades,** England, 1977.
- Wolff, P:
  * **The Awakening of Europe, Trans by, Anne Carter,** Penguin, 1968.
- Wood, Cahris:
  * **The Age of Chivarly,** London, 1970.
- Yewdale:
  * **Bohemond Prince of Antioch,** Princeton, 1924.

فهرس الخرائط

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الثاني
توازن القوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم: 541 - 11

كُتب الكثير عن الحروب الصليبية، أو «حروب الفرنجة»، ومع ذلك تبقى بحاجة إلى تحليل وتعمُّق أكثر، وبخاصة بعد الإفراج عن وثائق جديدة لم تتطرق إليها الكتب السابقة.

فالحروب التي انطلقت تلبية لنداء البابا «أوربان الثاني» سنة 1095 بدوافع بدأت دينية تهدف إلى الاستيلاء على بيت المقدس، اختلط فيها الديني بالدنيوي، وكشفت عن تناقض بينهما، فاحتلَّ الفرنجة القسطنطينية المسيحية وعاثوا فيها فساداً وأنشؤوا في شرق المتوسط إمارات مستقلة عن المملكة التي أقاموها في بيت المقدس، وحاولوا الاستيطان في المنطقة، حتى هيأ الله للمسلمين قادة مخلصين وحَّدوا صفوفهم، وطردوا الفرنجة من بلادهم بعد احتلال دام أكثر من مائتي سنة.

ولكن هذه الحروب تركت أثراً كبيراً في نفوس الطرفين، واعتُبر العالم الإسلامي عدواً للمسيحية منذ ذلك التاريخ، وكما استمات الفرنجة في السابق لمنع وحدة العالم الإسلامي، فهم يستميتون حالياً للمحافظة على تمزُّقه.

وهذه الدراسة تختلف عن غيرها بتكثيف مادتها، وبتحليل موجز لأحداثها وآثارها، تشبع فضول المتطلع إلى معرفة أسباب تلك الحروب ونتائجها، وتصلح مرجعاً للتدريس في الجامعات، لاعتماد مؤلفها، المؤرخ والأستاذ الجامعي الحياد والدراسة الأكاديمية الموثَّقة.

الناشر

ISBN 978-9953-18-109-7
9 789953 181097